إيفان تورغينيف

المؤلفات المختارة

قصص، روايات قصيرة ومقطوعات نثرية



ترجمة: غائب طعمة فرمان
مواهب الكيالي

إيفان تورغينيف

قصص، روايات قصيرة ومقطوعات نثرية

 قصص

Author: **Ivan Turgenev** | اسم المؤلف: إيفان تورغينيف

Title: **Stories, short stories & prose pieces** | عنوان الكتاب: قصص، روايات قصيرة ومقطوعات نثرية

Translator: **Ghaeb Tohme Faraman**
Mawaheb Al-kayali | ترجمة: غائب طعمة فرمان
مواهب الكيالي

Cover Designed by: **Majed Al-Majedy** | تصميم الغلاف: ماجد الماجدي

P.C.: **Al-Mada** | الناشر: دار المدى

First Edition: **1985** | الطبعة الأولى: 1985

Second Edition: **2017** | الطبعة الثانية: 2017



للإعلام والثقافة والفنون
Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي ابو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141
Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141
www.almada-group.com _ email: info@almada-group.com
+ 964 (0) 770 2799 999
+ 964 (0) 770 8080 800
+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: الحمرا- شارع ليون- بناية منصور- الطابق الأول
dar@almada-group.com
+ 961 706 15017
+ 961 175 2616
+ 961 175 2617

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار
al-madahouse@net.sy
ص.ب: 8272
+ 963 11 232 2276
+ 963 11 232 2275
+ 963 11 232 2289

إيفان تورغينيف

قصص، روايات قصيرة ومقطوعات نثرية

ترجمة: غائب طعمة فرمان

مواهب الكيالي



إيفان سيرغييفيتش تورغينيف

وُلد إيفان تورغينيف في ٢٨ تشرين الأول (٩ تشرين الثاني في التقويم الجديد) عام ١٨١٨ في مدينة أوريـول. وكان أبوه سيرغي نيقولايفيتش يخدم في فوج يلزافيتغراد الذي كان يرابط آنذاك في أوريول، وتقاعد برتبة عقيد. وأمّه فارفارا بتروفنا، من مواليد لوتوفينوف. وكان إيفان سيرغييفيتش الابن الأوسط من ثلاثة أبناء. والأخ الأصغر توفي في ريعان الصبا، والأكبر يعيش في موسكو. فقَدَ تورغينيف أباه، وهو في السابعة عشرة، إلا أنّ أمّه عاشت حتى بلغت السبعين، وتوفيت عام ١٨٥٠.

في عام ١٨٢٢ سافرت عائلة تورغينيف إلى الخارج، وزارت، فيما زارت، سويسرا. وأثناء إحدى الزيارات كاد إيفان الطفل، وهو في الرابعة من العمر، يقع في حفرة الدببة الشهيرة في برن، وربما كان سيدفع ثمناً غالياً لتهاونه، لو لم يفلح أبوه في إخراجه فوراً من هناك. وبعد العودة إلى الوطن أقامت العائلة فترة طويلة في ضيعتها، في قضاء متسينسك من ولاية أوريول. وفيها بدأ تورغينيف يتعلم على أيدي أساتذة من مختلف القوميات ما عدا الروسية.

ومن أوائل الكتب الروسية التي قرأها «روسيادا» لمؤلفه خيراسكوف. وهو مدين بتعرفه على هذا الكتاب إلى واحد من أقنان أمه، كان شغوفاً جداً بالشعر، وبهذه القصيدة القديمة أيضاً. وفي عام ١٨٢٨ انتقل إيفان تورغينيف مع والديه إلى موسكو، وفي عام ١٨٣٤ دخل جامعة موسكو، حيث أنهاها بأطروحة «مرشح». وفي عام ١٨٣٨ سافر إلى الخارج، وكاد يودى به في حريق شب على الباخرة «نيقولاي الأول» قرب ترافيميونده. وحضر تورغينيف في برلين محاضرات في التاريخ واللغتين اللاتينية واليونانية وفلسفة هيغل.

في عام ١٨٤١ عاد تورغينيف إلى بطرسبورغ، وبقي فيها زهاء العام موظفاً في مكتب وزير الداخلية. وخلال ذلك الوقت كان يلتقي كثيراً ببلينسكي الذي صار على صلة وثيقة به. ورغم أن تورغينيف زاول الشّعر وهو صبي، إلاّ أنّ قصيدته الأولى «باراشا» لم تنشر إلاّ في عام ١٨٤٣، كتب بعدها بعض الأعمال الأخرى التي لم تحظ بقدر كبير من النّجاح.

وعزم تورغينيف، بعد تشكّكه في موهبته الشّعرية، على هجر الأدب، وغادر بطرسبورغ في نهاية ١٨٤٦، إلاّ أنه قبل هذا، كان قد أعطى لبلينسكي ونزولاً عند رجاوات هذا الناقد قصة قصيرة لتنشر في مجلة «سوفريمينيك»، وهي بالذات: «خور وكالينيتش».

وقد ضمّت هذه القصّة فيما بعد إلى مجموعة «مذكرات صياد»، وتركت وقعاً شديداً للغاية في نفوس الجمهور، وأقنعت مؤلفها نفسه بموهبته ككاتب. فكرّس تورغينيف نفسه للأدب، وسافر إلى باريس، وكتب فيها معظم قصص «مذكرات صياد» التي جعلته فوراً على رأس الأدباء الروس. وفي عام ١٨٥٢، عقاباً لكتابته مقالة عن غوغول (وفي الحقيقة عقاباً لـ «مذكرات صياد») أرسل للإقامة في القرية، حيث مكث فيها عامين.

ومنذ ذلك الحين عاش تورغينيف مرة في روسيا ومرة في الخارج حتى عام ١٨٦٣، حيث استقرّ في بادن – بادن، ومنها يزور وطنه من حين إلى آخر.

(إيفان تورغينيف)

عن القسم الأول من مقالة عن «حياة إيفان تورغينيف»

نشرت بلا توقيع في مجلة «نيفا»، العدد ٩، ٢٨ شباط، ١٨٧٢.

كان تورغينيف ككاتب يملك القدرة الرّائعة على ملاحظة الظّواهر الجديدة في حياة عصره، وتجسيدها في أعمال فنية. ومضمار إبداع تورغينيف واسع على نحو غير اعتيادي. فهو يكتب الشعر، والروايات القصيرة، والمسرحيات، والروايات التي يعالج فيها حياة فئات مختلفة من المجتمع الروسي.

في العقدين الخامس والسادس من القرن الماضي كان يبحث عن البطل

الإيجابي وسط النبلاء المثقفين. فصوّر في قصصه الطويلة «أندريه كولوسوف» و«هاملت قضاء شيغري» و«يوميات رجل فائض» و«ياكوف باسينكوف» و«آسية» وفي روايتيه «رودين» و«عش النبلاء» ما حدث في ذلك الحين من انفصام الشخصية المتطوّرة الموهوبة عن الظروف الاجتماعية لذلك العهد. وقد ظهر في روسيا في تلك الأعوام مَنْ يسمّون بـ «الفائضين».

وكان هؤلاء أحسن ممثلي شبيبة النبلاء المتمثلين لأفكار متقدمة. إلاّ أنّ جميع اندفاعاتهم النبيلة اصطدمت بالجمود والرتابة السّائدين في البلاد. ولافتقارهم لخصال الإرادة الصّلبة الضرورية في هذا النضال أضحوا فرسان الكلام، ووعّاظ الروح الإنسانية التجريدية. و«رودين» في الرواية المعنونة بهذا الاسم، ولافريتسكي في «عش النبلاء» أكثر الأبطال تمثيلاً لهذه الفكرة.

إلاّ أنّ قوّة اجتماعية جديدة تتمثّل بالديمقراطيين غير النبلاء ظهرت في المجتمع الروسي في نهاية العقد السادس وبداية العقد السابع. ورغم أنّ تورغينيف كان يختلف معهم فكرياً أكثر فأكثر، إلاّ أنه كفنّان لم يستطع أن يغفل البطل الجديد الذي تكوّن في المعسكر الديمقراطي. فظهرت روايتاه «في العشية» و«الآباء والبنون».

فنجد تورغينيف يبرع في رواية «في العشية» (١٨٦٠) صورة إنسان ناشط ذي إرادة وهدف واضح. فإن إينساروف «شخصية بطولية عن وعي»، يكرّس حياته للنضال من أجل تحرير وطنه.

وفي رواية «الآباء والبنون» (١٨٦٢) صوّر تورغينيف في شخصية بازاروف غير النبيل الملامح الأكثر تميّزاً للديمقراطي الروسي في العقد السابع، ذلك المادي الذي يدرس العلوم الطبيعية، ويناضل في سبيل تنوير الشعب، ومن أجل تحرير العلم من التقاليد البالية. وقد عكست شخصية بازاروف المتناقض في نواح عديدة بعض التناقضات المتأصلة في الديموقراطيين غير النبلاء الفعليين لذلك الزمن، وعكستها إلى درجة كبيرة.

وفي العقد الثامن، حين ظهرت حركة الشعبية على مسرح المجتمع، أصدر تورغينيف روايته «النبت الجديد» (١٨٧٧) ألقى فيها الأضواء على نشاط الشعبيين.

وابتداءً من وسط العقد الخامس قضى تورغينيف شطراً كبيراً من حياته في الخارج، ودفعه إلى هذا تعرفه على المغنية الشهيرة بولينا فياردو التي كانت قد جاءت إلى بطرسبورغ عام ١٨٤٣ في جولة فنية مع الأوبرا الإيطالية. وانعقد بينهما خلال أكثر من ثلاثين عاماً حب كبير لاهب ترك أثره في حياة تورغينيف كلّها.

في عام ١٨٤٨ كان تورغينيف موجوداً في باريس، فكان شاهد عيان لأحداث ثورية تركت فيه أثراً عميقاً. وفي هذه المدينة أيضاً عقد أواصر صداقة قريبة مع الكاتب الثوري ألكسندر غيرتسن. وحين يعود تورغينيف إلى موسكو يزور نيقولاي غوغول. وقد لعب لقاؤه مع هذا الكاتب الروسي البارز دوراً كبيراً في حياة تورغينيف. وحين توفي غوغول عام ١٨٥٢ كتب تورغينيف رثاءً له قيّم فيه مساهمته الرفيعة في الأدب الروسي. فكان ذلك ذريعة إلى أن يقع مؤلف «مذكرات صياد» المعادية للقنانة تحت أنظار الشرطة في قرية سباسكويه، حيث كان يزوره الممثل الروسي الشهير ميخائيل شيبكين، ومحرّر مجلة «سوفريمينيك» الشّاعر الديمقراطي نيقولاي نيكراسوف، وليف تولستوي العظيم.

في تموز ١٨٥٦ سافر تورغينيف إلى الخارج مرة أخرى، وأقام هناك إقامة دائمة تقريباً، فلم يزر بطرسبورغ وسباسكويه إلاّ في الصيف. والتقى تورغينيف بغيرتسن في لندن، وقدم له موادّه للنشر. وتعرف في إنكلترا على الروائي الشهير وليم تيكري، والمؤرخ توماس ماكولي، وعلى شخصيات ثقافية بارزة أخرى. وفي ذلك الحين أضحى تورغينيف كاتباً ذا شهرة عالمية، اعترف المجتمع الروسي بجدارته. وقد انعكس هذا، على سبيل المثال، في انتخابه عام ١٨٥٩ عضواً عاملاً في جمعية محبي اللّغة الروسية، وعضواً في لجنة الصندوق الأدبي.

وفي العقدين السابع والثامن توسّعت علائق تورغينيف بالشخصيات الاجتماعية المختلفة والكتّاب الاجتماعيين، والممثلين البارزين للأدب والفن. ويتعرّف تورغينيف بمناسبة صدور روايته «دخان» (١٨٦٧) على الناقد دميتري بيساريف، وتراسل معه، والتقى في باريس عام ١٨٧٢ ببيوتر

لافروف أحد منظري الحركة الشعبية الروسية، الذي كان قد هرب من المنفى القيصري، يدرس مؤلفاته لكتابة روايته «النبت الجديد».

وفي هذه السنوات بالذات بدأت أواصر صداقة قريبة مع أعظم كتّاب فرنسا: فلوبير وزولا وغونكور. وكان الكاتب الروسي يعتبر بينهم عميداً عن حق. وروّج تورغينيف وهو في الخارج الأدب الروسي من دون كلل. وحين زاره في باريس الكتّاب الروس ميخائيل سالتيكوف – شيدرين، وغليب أوسبينسكي، وألكسي بيسيمسكي كان ينظم معهم ومع بولينا فياردو عدّة ندوات أدبية لصالح المكتبة الروسية في باريس.

ويعرف سالتيكوف – شيدرين بزولا وفلوبير. وتشكلت في باريس في عام ١٨٧٧ وبمساعدة تورغينيف جمعية إعانة الفنانين الروس. وقد قدر عن استحقاق نشاط تورغينيف في حقل الأدب والعلم والفن في فرنسا وإنكلترا، فانتخب في عام ١٨٧٨ نائباً لرئيس المجلس الأدبي العالمي في باريس، وتمنحه جامعة أكسفورد في عام ١٨٧٩ درجة الدكتوراه في الحقوق.

وسّع تورغينيف نشاطه الاجتماعي والثقافي التنويري في سنواته الأخيرة في روسيا. فعندما جاء إلى بطرسبورغ في عام ١٨٧٩ بمناسبة موت أخيه نيقولاي كان، وعلى الرغم من اعتلال صحته الشديد، كان يخطب كثيراً أمام الأدباء والطلاب. وفي ٧ حزيران ١٨٨٠ ألقى تورغينيف في اجتماع محبي اللّغة الروسية خطبته الرائعة: «حول بوشكين».

وكان صيف ١٨٨١ آخر صيف قضاه تورغينيف في قريته سباسكويه – لوتوفينوفو. وفي الخريف سافر إلى الخارج، وفي ربيع ١٨٨٢ ساءت صحته إلى درجة كبيرة، وتوفي في ٢٢ آب (٣ أيلول) ١٨٨٣ بسرطان العمود الفقري (في بوجيفال، قرب باريس). ودفن رفاته في بطرسبورغ في مقبرة فولكوفو.

بيتر بوستوفويت

إيفان سيرغييفيتش تورغينيف

إن اسم تورغينيف يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتاريخ ثقافة فرنسا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر. وقد خلص الباحث السوفييتي سيرغي كاكاشين

إلى أنه «في شخص تورغينيف، ولأول مرة في تاريخ العلاقات الأدبية الفرنسية - الروسية يساهم كاتب عظيم من أحد البلدين بنشاط وبشكل مباشر في خلق حركة أدبية كاملة في البلد الآخر...». وتتخلل هذه الفكرة ذكريات ومقالات غي دي موباسان والفونس دوديه عن تورغينيف، وهذان الكاتبان الفرنسيان كانا من معاصري تورغينيف.

لقد كان تورغينيف يقدر موهبة موباسان إلى حد رفيه. وقد تحدث معاصرو تورغينيف عن ذلك في مذكراتهم. فقد اعتبر تورغينيف «... رواية موباسان Une Vie (الحياة) تحفة عظمى...».

ووصف موباسان نفسه بأنه تلميذ تورغينيف. وقد صدرت مجموعة قصصه المعنونة «بيت تيليه» بهذا الإهداء: «إلى إيفان تورغينيف تعبيراً عن المحبة العميقة، والإعجاب العظيم. غي دي موباسان».

صدرت مقالة موباسان «إيفان تورغينيف» في جريدة Caulois في ٥ أيلول ١٨٨٣. كما أن لموباسان ثلاثة أعمال أخرى عن تورغينيف: «مبتكر كلمة «النهليستية» (١٨٨٠) ومقالة تصويرية بعنوان «شيء خيالي» و«حادثة في حياة تورغينيف» التي هي قطعة من قصة موباسان «الرعب».

وقد نقل الكاتب الفرنسي في هذه القصة ما حكاه له تورغينيف عن التقائه بامرأة مجنونة في غابة، وعن أحاسيسه الموجعة التي آثارها هذا المشهد المضني. وبذلك حفظ للأجيال وبشكل جوهري، مضمون فكرة من أفكار تورغينيف كان من الممكن أن تضم إلى كتابه «مذكرات صياد»، إلا أن تورغينيف لم يحققها.

نص مقالة موباسان منشور باختصار.

إيفان سيرغييفيتش تورغينيف

قبل أيام، وبعد سكرات موت مضنية استمرت شهراً كاملاً تقريباً توفي الروائي الروسي العظيم إيفان تورغينيف الذي اختار فرنسا وطنه الجديد.

كان واحداً من أروع كتاب قرننا، وفي الوقت ذاته أكثر من يمكن أن تلقى من الناس استقامة ونزاهة ونقاء.

كان في تواضعه يكاد يصل إلى حد الخشوع، فلم يكن يحب أن يكتب عنه في الجرائد، بل وكان في أحيان يعتبر المقالات التي تثني عليه إهامة، ذلك لأنه لم يكن يبيح أن يكتب إلا عن الأعمال الأدبية. وحتى نقد الإبداع الأدبي كان يبدو له مجرد كلام، وحين كان أحد الصحفيين، في مقالة عن أحد كتبه، يعطي بعض التفاصيل عنه وعن حياته الشخصية كان يستولي عليه حنق حقيقي، معانياً خجلاً من نوع خاص لكاتب يعتبر التواضع تعففاً.

والآن، وقد فارقنا هذا الإنسان الكبير، نقول بعض الكلمات عنه.

قابلت إيفان تورغينيف، لأول مرة، عند غوستاف فلوبير.

فتح الباب، ودخل رجل عملاق ذو رأس فضي، كما يقال عادة في حكاية سحرية. كان له شعر أشيب طويل، وحاجبان أشيبان كثان، ولحية شيباء طويلة، تتلألأ فضة، وفي نصاعة الثلج المتلألئة هذه وجه هادئ ذو قسمات كبيرة بعض الشيء. إنه رأس الطوفان يدفع بمياهه، أو، بعبارة أدق، رأس أي أبدي.

كان تورغينيف طويل القامة، عريض المنكبين، متين البنيان، ولكن دون بدانة، بل عملاق حقيقي له حركات طفل متهيبة وحذرة. وكان صوته ناعماً جداً وذابلاً بعض الشيء، وكأن لسانه كان أثقل مما يجب، فلا يتحرك في فمه إلا بعشر. وكان أحياناً يتلعثم راغباً في أن يعطي الكلمة الفرنسية الدقيقة للتعبير عن فكرته، ولكنه كان يجدها دائماً بصدق مدهش، وكان هذا التلعثم الخفيف يضفي على كلامه سحراً خاصاً. وكان متحدثاً رائعاً، يعطي أقل الدقائق شأناً قيمة فنية وطرافة متفردة، ولكننا أحببناه على سذاجته المؤثرة وقدرته على الاندهاش بكل شيء أكثر مما له من عقل رفيع، إن هذا الروائي العبقري الذي جال العالم كله، وعرف أعاظم الناس في عصره، وقرأ كل ما يمكن أن يقرأه الإنسان، وكان يتحدث بكل لغات أوروبا بنفس الطلاقة التي يتكلم فيها بلغته القومية كان ساذجاً بشكل لا يصدق في واقع الحال. وكانت تدهشه وتحيره أشياء كانت تبدو لأي تلميذ في باريس مفهومه تماماً.

وكان من الممكن الظن أن واقع الحياة قد أثار فيه إحساساً مؤلماً، لأن عقله الذي لم يكن يدهشه شيء مكتوب على الورق، يستاء من مجرد التلميح إلى أية

ظروف دنيوية. ولربما كانت استقامته المفرطة وطيبته الكبيرة الفطرية تشعران بالإهانة حين تواجهان الفظاظة، وفساد ورياء الطبيعة البشرية، في حين أن عقله في لحظات التأمل والخلوة وراء منضدة الكتابة كان، على العكس من ذلك، يساعده على فهم الحياة والنفاذ إلى أكثر خفاياها مدعاة للخزي، تماماً كما يراقب الإنسان ما يجري في الشارع من خلال نافذة دون المشاركة فيه.

لقد كان رجلاً بسيطاً، طيباً، مستقيماً إلى أقصى حد، جذّاباً بشكل لا يضارعه به أحد، خمتفانياً ذلك التفاني الذي لا يطاله أحد الآن، وفياً لأصدقاءه، الموتى منهم والأحياء.

وازدادت آراؤه الأدبية قيمة وأهمية لأنه لم يكن يحكم فقط من وجهة النظر المحددة والخاصة التي نتخذها نحن جميعاً، بل كان يعقد بما يشبه المقارنة بين جميع آداب شعوب العالم كلها والتي كان يعرفها جيداً، موسعاً بهذه الطريقة، حقل ملاحظاته، ومقارناً بين كتابين ظهرا في طرفين مختلفين من أطراف الكرة الأرضية، ومكتوبين بلغتين مختلفتين.

وكان، على الرغم من سنه ومن حياته الآيلة إلى نهايتها ككاتب، يتبنى، في حقل الأدب، أحدث الآراء وأكثرها تقدماً، رافضاً كل الأشكال القديمة للرواية المبنية على الدسيسة مع مداخلات درامية وحاذقة، مطالباً بأن تعطى «الحياة» والحياة وحدها، «شرائح من الحياة» بدون دسيسة، وبدون مغامرات فظة...

... لا مجال هنا لتحليل إبداع هذا الإنسان البارز الذي سيظل واحداً من أعظم عباقرة الأدب الروسي. وسيبقى أبداً إلى جانب صديقه الشاعر بوشكين الذي كان معجباً به كثيراً، وإلى جانب الشاعر ليرمونتوف والروائي غوغول واحداً من أولئك الذين يجب أن تجلهم روسيا إجلالاً عميقاً وأبدياً، لأنه قدّم لشعبها شيئاً خالداً لا يقدر بثمن إلا وهو فنه، ابداعاته التي لا تنسى، ذلك المجد القيّم الباقي إلى الأبد. الأرفع من كل مجد غيره.

لقد كان في فرنسا صديق غوستاف فلوبير، وأدمون جونكور، وفيكتور هيغو، وإميل زولا، وألفونس دوديه، وكل الفنانين المحدثين المعروفين.

كان يحب الموسيقى والرسم، ويعيش في جو الفن، ويتجاوب مع كل

الانطباعات المرهفة، مع كل الأحاسيس الغامضة التي يقدمها الفن، ويسعى، دائماً وإلى الأبد، إلى هذه المتع الأنيقة النادرة.

لم تكن ثمة روح أكثر صراحة ورهافة وعاطفة من روحه، ولا موهبة أكثر نفاذاً من موهبته، و لم يكن قلب أثر نزاهة ونبلاً من قلبه.

غي دي موباسان
من ذكريات ١٨٨٣

تعرف دوديه إلى تورغينيف في الفترة ما بين ١٨٦٨ - ١٨٧٠، وكان تورغينيف يكن له ولموباسان، وزولا، وللأخوين جونكور محبة ثابتة.

وقد عمل تورغينيف الشيء الكثير لإذاعة أعمال دوديه، وساعد على نشرها في روسيا وألمانيا، وقدم للناقد الألماني يوليان شميدت كتب دوديه الجديدة للكتابة عنها، والتعليق عليها (لا سيما روايته «فرومون الكبير، وريسلر الصغير» التي كان تورغينيف يعتبرها «عملاً جيداً جداً»).

ومع ذلك فإن أشياء كثيرة في إبداع دوديه لم تكن لترضي فناناً متبحراً، مثل تورغينيف. فقد التفت إلى وعورة أسلوبه، وعدم الدقة والسطحية في ملاحظاته.

في عام ١٨٨٠ كتب الفونس دوديه مقالة «تورغينيف في باريس» لمجلة Century Magazine في نيويورك ضمنها ذكرياته عنه، إلا أنها لم تنشر إلا بعد وفاة تورغينيف، في تشرين الثاني ١٨٨٣. وقد نشرت الترجمة الروسية في نفس السنة، على صفحات جريدة «نوفويه فريميا» («الأزمنة الحديثة») (العددان ٢٧٥٤ - ٢٧٥٥).

نص مقالة دوديه منشور باختصار.

تورغينيف

كان ذلك قبل عشرة أعوام أو اثني عشر عاماً في بيت غوستاف فلوبير، في شارع موريليو. حجرات صغيرة أنيقة جدرانها مغطاة بقماش مخطط، تطل

توافذها على منتزه مونسو، المنتزه الأرستقراطي الوقور العتيق، الذي كانت أوراق أشجاره ستائر خضراء للنوافذ. وكنا في أيام الآحاد نجتمع في ذلك الركن المريح الرائع، نفس الصحبة المتماسكة - خمسة أو ستة أشخاص. وأبواب البيت مغلقة للضيوف غير المدعوين.

ذات أحد، عندما جئت، على عادتي، لزيارة المعلم المسن، وأصدقائي الآخرين استقبلني فلوبير بهذا السؤال:

- هل أنت متعارف مع تورغينيف؟ إنه هنا.

ودون أن ينتظر جوابي أدخلني إلى حجرة الجلوس. وعندما دخلت نهض شيخ طويل ذو لحية بيضاء ناصعة من أريكة كان يجلس متكئاً عليها، منزلقاً من كومة الوسائد كحية هائلة مزوّدة بعينين مذهلتين واسعتين.

نحن، الفرنسيين، نعرف الأدب الأجنبي معرفة سيئة بشكل مذهل. عقلنا في عقر دارنا، مثلما نحن، ونحن نكره الرحلات، وحين نجد أنفسنا في بلد آخر، لا نقرأ ولا نشاهد أي شيء تقريباً. ومن المصادفة أنني عرفت جيداً إبداع تورغينيف. فقد سنحت لي الفرصة لأقرأ «مذكرات صياد» فتأثرت بها تأثراً كبيراً، حتى إنني اطلعت على كتب هذا الكاتب الروسي الأخرى. وكنت مرتبطاً معه، حتى قبل تعرفي عليه، بحبنا المشترك للحقول، والغابات التي تتخللها، وللطبيعة، وبفهمنا الواحد لتقلباتها.

إن غالبية الكتاب لا يملكون إلا عيناً تقتصر على ما تصفه وتورغينيف قد وهب حاسة شم، وحاسة سمع أيضاً. والأبواب بين حواسه مفتوحة. إنه يتلقى روائح الريف، وعمق السماء، وخرير المياه، ويستجيب لموسيقى أحاسيسه المتعددة الأشكال دون تحامل نصير هذا الاتجاه الأدبي أو ذاك.

ولكن هذه الموسيقى أبعد من أن تكون ميسرة للجميع. فالذين أصمهم، منذ الطفولة، هدير المدينة الكبيرة لن يلتقطوها أبداً، ولن يسمعوا الأصوات الكامنة في سكون الغابة الوهمي، حين يصمت الإنسان غير معلن عن وجوده بشيء، بينما الطبيعة تعتبر أنها مختلية إلى ذاتها. تذكروا الطرق الذي وصفه فينيمور كوبر لمجذافين قذفا على قارب على البحيرة. وأنتم لا ترون هذا القارب البعيد عنكم عدة أميال، ولكن الغابات انداحت أوسع من وقع

هذا الصوت الآتي إليكم من بعيد، على سطح الماء النائم، فإذا بكم تجفلون من الوحدة التي تنقبض منها نفوسكم.

ولقد هزّت السهوب الروسية عواطف تورغينيف وقلبه. والإنسان يصير أفضل، حين يستلهم الطبيعة، ومن يحبها لا يمكن أن يكون غير مكترث إزاء الناس. وذلك مبعث الطيبة الشفوق المتغلغلة في كتب هذا الروائي السلافي، الطيبة الحزينة مثل أغنية فلاح روسي. وهي أيضاً تلك الزفرة الإنسانية التي يعبر عنها الغناء الكريولي، الصمام الذي يقي الناس من الإختناق: «كفاك، أزفر إذا توجعت من شيء، وإلا فسيخنقك الألم». وهذه الزفرة المتكررة كثيراً تواشح «مذكرات صياد» مع «كوخ العم توم» رغم حماسه وزعقاته.

كل ذلك كنت أفهمه قبل لقائي بتورغينيف. وكان قد تربع منذ زمان على كرسي عاجي في الأولمب الخاص بي إلى جانب آلهتي الآخرين. ولكن لم يخط ببالي قط أنه في باريس، بل و لم أكن أفكر أهو حي أم ميت. فما أعظم دعشتي، حين وقعت عليه وجهاً لوجه في حجرة استقبال في باريس، في الطابق الرابع من بيت تطل نوافذه على منتزه مونسو!

حدثت تورغينيف، بغبطة، عن اطلاعي على كتبه، وأبديت له أعجابي. وقلت له إنني قرإته في غابة سينار. وهناك تغلغلت في روح الكاتب، والتحمت لوحات الغابة العذبة في نفسي بقوة مع قصصه، وأن إحدى القصص علقت في ذاكرتي إلى الأبد ملّونة باللون الوردي لأرض الخلنج العذراء وقد مسّها الخريف.

وكان تورغينيف في غاية الذهول.

– كيف؟ أنت قرأت كتبي؟

وأخذ يتحدث عن سوء انتشار كتبه، وإنه غير معروف في فرنسا، وأن استتسيل ينشر كتبه وكأنما ذلك إحسان، وأن شهرته لم تتعد حدود وطنه. وكان يتألم من التفكير بأن الناس في بلاد عزيزة على قلبه لا يفهمونه، وراح يتحدث عن إحباطاته بحزن، ولكن بدون أية عصبية.

... في يوم الأحد ذاك لم يكن عند فلوبير زائر آخر، فامتد حديثنا مع تورغينيف طويلاً. رحت أسأله عن طريقة عمله، وأبديت استغرابي لأنه لا

يترجم كتبه بنفسه، ويجب القول إنه كان يتكلم الفرنسية بشكل جيد جداً، ولكن ببطء قليل مبعثه التشدد مع نفسه.

... وفي غضون ذلك كان النهار يميل إلى المساء، وقال تورغينيف: إنه عليه أن يذهب لاصطحاب «سيدات» إلى حفلة موسيقية لـ «باديلو». خرجت معه، وقد أبهجني كثيراً إنه يحب الموسيقى. إن الأدباء في فرنسا يكرهون الموسيقى، في العادة. والجميع مولعون بالرسم. وتيوفيل غوتيه، وسان - فيكتور، وهيغو، وبانفيل، وجونكور، وزولا، وليكونت دي ليل مصابون بداء الفزع من الموسيقى. وبقدر علمي كنت أنا من أول من تجرأ فاعترفت جهاراً بعدم فهمي للألوان، وبولعي الشديد بالأصوات. وهذا الولع، في أكثر الاحتمالات، يعود إلى مزاجي الجنوبي الحاد، وإلى قصر بصري، فتطورت إحدى حواسي على حساب حاسة أخرى وقد أحب تورغينيف الموسيقى في باريس، في الوسط الذي كان يعيش فيه.

إن ثلاثين عاماً من الصداقة كانت تربطه بالسيدة فياردو، المغنية العظيمة، فياردو غارسيا، أخت ماليبران. وقد عاش تورغينيف الوحيد، العازب، سنين طويلة في تلك العائلة، في فيلا في شارع دويه، رقم ٥٠. و«السيدات» اللواتي أشار إليهن في بيت فلوبير ما هن إلا السيدة فياردو، وبناتها اللائي كان تورغينيف يحبهن كبناته. وسرعان ما زرت تورغينيف في هذا البيت المضياف.

كان البيت مفروشاً بترف مرهف، وبعناية كبيرة بالجمال والراحة. في الأسفل لمحت، من فتحة باب موارب، بهواً للوحات. ومن وراء الحائط ترددت رنات صداحة لأصوات الفتيات، تبعها صوت كونترالتو عاطفي لارفيوس، راحت تلاحقني رناته، وأنا أصعد السلم.

في الطابق الرابع مكان صغير دافىء، مريح مؤثث بأثاث وثير، مكان أشبه بغرفة استقبال سيدة البيت. وكان تورغينيف يطابق بذوقه الفني ذوقي صديقيه الفنيين. فكان يحب الموسيقى كالسيدة فياردو، والرسم كزوجها.

كان تورغينيف مستلقياً على مقعد طويل.

جلست بالقرب منه، واستأنفنا حديثاً كنا قد بدأناه مؤخراً.

أبدى تورغينيف اهتمامه بملاحظاتي، ووعد بأن يجلب يوم الأحد المقبل، في لقائنا عند فلوبير، إحدى قصصه، لنترجم هذه القصة في حضوره...

... ومن كل اللحظات التي قضيناها سوية علق في ذاكرتي، بشكل خاص، يوم ربيعي في شارع موريليو، مشرق فريد. جرى الحديث عن غوته، فقال تورغينيف لنا: «أنتم لا تعرفونه». وفي الأحد التالي جلب لنا: «بروميتيوس» و«ساتير» وهي قصيدة درامية، فولتيرية، مجدّفة، تمردية. وكان منتزه مونسو يبهجنا بأصوات أطفال مرحة، وبوضوء الشمس الساطع، وطراوة زهور وأشجار مروّية، فرحنا نحن الأربعة - جونكور وزولا وفلوبير وأنا، نهب أسماعنا إلى عبقري يترجم عبقرياً مأخوذين بهذه الترجمة الفورية. أن هذا الرجل، الحيّ جداً، وقف أمامنا، والريشة في يده، كشاعر مقدام، و لم نسمع ترجمة زائفة تجفف وتحنّط، بل أن غوته نفسه انبعث، وراح يتحدث معنا.

كان تورغينيف يزورني كثيراً. وكان تورغينيف يتسلى في النظر إلى الشكل غير الاعتيادي لفناء الاستعراض، وإلى بيت الملك ذي السقف المدبب، والمشبكات الخشبية على نوافذه، وقد امتلأ الآن بدكاكين اللعب، والماء المعدني الفوار، والحلويات. جاءني، ذات مرة، وحين ظهر على عتبة الدار بقامته الضخمة متأبطاً ذراع فلوبير، همس لي ابني الصغير: «عملاقان!» نعم، عملاقان، عملاقان طيبان، وهبا عقلاً وقلباً يناسبان حجمهما. وكانت تربط هذين العبقريين طيبة سمحة متأصلة بهما كليهما. والفضل في رباطهما هذا يعود إلى جورج ساند. وكان فلوبير، هذا المتباهي، والمشاكس، والدون كيشوت بصوته الشبيه بالرعد، وبقوة الملاحظة التي لا هوادة فيها، وبعادات محارب نورماندي هو النصف الرجولي في هذا الزواج الروحي. ولكن من كان باستطاعته أن يظن أن العملاق الثاني بحاجبيه الكثين، وجبهته الهائلة، قريب الشبه من المرأة الرقيقة المرهفة التي وصفها كثيراً في رواياته، المرأة الروسية العصبية، المتراخية، المشبوبة العاطفة، الغافية كعبدة شرقية، المأساوية، مثل قوة مهيأة للعصيان؟ وفي خلط الناس العظيم تقع النفوس أحياناً في أغلفة ليست أغلفتها، فنحن نرى نفس رجل في جسد امرأة، ونفس امرأة ممثلة في هيئة سيكلوب خشنة.

في ذلك الوقت بالذات عنّ لنا أن نقيم اجتماعاً شهرياً للأصدقاء حول مائدة عشاء لذيذ. وقد سميت هذه الاجتماعات بـ «موائد فلوبير» أو «موائد المؤلفين المقابلين بالصفير». والحق أننا جميعاً كنا قد أصبنا بفشل. فلوبير في «المرشح»، وزولا في «برعم الوردة»، وجونكور في «انريتا ماريشال» وأنا في «أرليزيانكا». وإرادة جيراردون أن ينضم إلى جماعتنا، ولكنه لم يكن كاتباً، فلم نقبله. وأكد لنا تورغينيف أنه أيضاً قوبل بالصفير في روسيا، ولما كانت روسيا بعيدة، فلم نأخذ بالتحقيق في صحة قوله.

وأي شيء يمكن أن يكون أروع من عشاءات ودية يتبادل فيها الجالسون إلى المائدة حديثاً حيوياً لا كلفة فيه، وهم يرتفقون السماط الأبيض؟ لقد كنا جميعاً، كرجال كثيري التجربة، نحب أن نتلذذ بالطعام. وكان عدد ألوان الطعام يتطابق مع عدد الأمزجة الحادة، وعدد الأطعمة المطهية يتطابق مع الأماكن التي نشأنا فيها. كان فلوبير يحتاج إلى الزبدة النورماندية والبط الرواني المسّمن، وأدمون دي جونكور، الإنسان المرهف، الميّال إلى الغرائب، يوصي على مربى الزنجبيل، وكان زولا يأكل قنافذ البحر والمحار، وتورغينيف يتلذذ بالكافيار.

... كنا نجلس إلى المائدة في الساعة السابعة مساء، وعندما تحل الساعة الثانية بعد منتصف الليل، تكون المائدة ما تزال منصوبة. كان فلوبير وزولا يخلعان سترتيهما، وتورغينيف يتمدد على الأريكة. وكنا نبعد الخدم إلى ما وراء الباب – وذلك حذر زائد، لأن صوت فلوبير كان يتردد في البناية كلها – ونتحادث في الأدب. وكان العشاء يتصادف دائماً مع ظهور أحد كتبنا. مع «إغواء القديس أنطون» و«ثلاث قصص طويلة» لفلوبير، ومع«البنت يليزا» لجونكور، ومع «القس موره» لزولا، وجاء تورغينيف بـ «بقايا جثة حية» و«البنت الجديد». وجئت أنا بـ «فرومون» و«جاك». وكنا نتحدث بنفس مفتوحة، دون تزلف، ولا مقايضة إعجاب بإعجاب.

... وحين كنا ننتهي من مناقشة الكتب والمشاغل اليومية، ويتخذ الحديث طابعاً أكثر عمومية، كنا نتحول إلى الموضوعين الخالدين وإلى الحقيقتين الخالدتين، فنتكلم عن الحب والموت.

وكان الكاتب الروسي يصمت مستلقياً على الأريكة.

- وأنت، يا تورغينيف، ماذا تقول؟

- عن الموت؟ أنا لا أفكر فيه. لا أحد عندنا يتصور لنفسه بوضوح، أي شيء هو. إنه يتراءى من بعيد... ملفوفاً... بالضباب السلافي...

وهذه الكلمات كانت تشهد بفصيح العبارة على خلق الشعب الروسي، ونبوغ تورغينيف. إن الضباب السلافي يغطي كل إبداع تورغينيف، ويلطفه، ويعطيه رعشة الحياة، وحتى حديث الكاتب يبدو وكأنه غارق في هذا الضباب. إن كل ما كان يقوله لنا كان يذهلنا، في البداية، بعدم محدوديته، بغموضه، وإذا بالغمامة تنقشع مخترقة بشعاع النور، بالكلمة الساطعة. وكان يصف لنا روسيا، لا التاريخية، التقليدية، روسيا بريزينا[1] ، بل روسيا سنابل الجودار والزهور النامية تحت أمطار الربيع المدرارة، ومالوروسيا[2] بأعشابها النضرة وطنين نحلها. إذا اقتضى تصنيف الحكايات الغريبة التي كنا نسمعها في مكان ما وبروزتها بإطارها المألوف، فإن الحياة الروسية كانت تبدو لي، من قصص تورغينيف، شبيهة بحياة الملاكين في ضيعة جزائرية محاطة بأكواخ الفلاحين.

كان تورغينيف يحدثنا عن الفلاح الروسي، وعن وعيه الغافي، وعن كونه لا يتصور قط ما هي الحرية. أو يكاشفنا بذكريات أكثر فرحاً، ويحدثنا قصة حب مع زوجة صاحب طاحونة شابة، التقاها أثناء الصيد، وكان مغرماً بها في فترة من الفترات.

كان يسأل زوجة صاحب الطاحونة دائماً:

- ماذا أهدي لك؟

وذات مرة قالت الجميلة له واحمر وجهها:

- اجلب لي صابونة من المدينة. وسأغسل بها يدي لتكون رائحتهما طيبة، وعندئذٍ ستقبّلهما، كما تقبل يدي سيدة.

١- نهر في بيلاروسيا عبرته فلول جيش نابليون بعد فشل حملته على روسيا. - المترجم.

٢- وتعني روسيا الصغيرة، وهو الاسم القديم لأوكرانيا. - المترجم.

وبعد الحديث عن الحب والموت نتحول إلى الحديث عن الأمراض، عن الجسد الذي يصير ثقلاً كالكرة الحديدية في قدم المحكوم بالأشغال الشاقة. وكان ذلك اعترافاً حزيناً لرجال تجاوزوا الأربعين من العمر! و لم أكن قد قاسيت من الروماتيزم بعد، فكنت أضحك من أصدقائي، ومن تورغينيف البائس الذي كان يعاني من النقرس، والذي كان يأتي إلى عشاءاتنا، وهو يعرج. ومنذ ذلك الحين قلّلت من شموخي.

يا ويلاه! إن الموت الذي كنا نتحدث عنه باستمرار، داهمنا، واختطف فلوبير منا. وكان روح عشاءاتنا، وحلقة الوصل فيها، وبعد وفاته تغيّر كل شيء. صرنا نتقابل من حين لآخر، و لم تكن لنا الشجاعة الكافية لاستئناف اللقاءات التي قطعها الموت.

وانقضت بضعة أشهر، وأخيراً عزم تورغينيف على أن يجمعنا. وبقي المكان المعيّن لفلوبير مصوناً على مائدتنا، ولكن فقدنا لصوته الجهوري وضحكته المرحة كان قوياً جداً، فلم تكن عشاءاتنا كالسابق.

... قبل شهرين رأيت تورغينيف للمرة الأخيرة. كان البيت، كالسابق، مملوءاً بالزهور، والأصوات الصداحة ترن في الطابق الأسفل، كما كانت، وكان صديقي متمدداً على الأريكة كما رأيته من قبل. ولكن ما أشد ضعفه، وما أكثر ما تغيّر! كانت الذبحة الصدرية تضايقه، ولكنه كان يعاني أيضاً من جرح رهيب من بقايا عملية خطيرة أجريت له. و لم يكن قد أعطي مخدراً، فحدثني عن العملية التي بقيت واضحة في ذاكرته. في البداية أحس وكأن بشرته تقشّر، كما تقشر تفاحة، ثم داهمه ألم حاد، فقد أخذت سكين الجراح تقطع اللحم الحي.

وأضاف:

– ها قد حللت آلامي، وودت أن أتحدث عنها في أحد عشاءاتنا. فكرت في أن ذلك قد يثير اهتمامكم.

وكان تورغينيف قد غادر الفراش، فنزل معي ليرافقني حتى الباب الخارجي. في الأسفل دخلنا إلى بهو الصور، فأراني لوحات رسامين روس: مستراح القوزاق، بحر مضطرب من الجودار، مناظر طبيعية لروسيا الحيّة، بالشكل الذي رسمها به.

كان العجوز فياردو متوعكاً. وكانت غارسيا تغني وراء الجدار، وكان تورغينيف يبتسم، وهو يودعني، في جو الفن هذا، الجو الذي أحبه.

بعد شهر علمت بأن فياردو توفي، وتورغينيف على فراش الموت. ومن الصعب عليّ أن أصدق بالمجرى المشؤوم الذي اتخذه مرضه. فليت لو أن التوابغ الجبابرة يمهلون ليقولوا كل شيء. فيعيد الوقت ومناخ بوجيفال المعتدل تورغينيف إلينا، ولكن لم يعد مقدراً له أن يشهد اجتماعاتنا الحميمية التي كانت تمده بسرور عظيم!

ايه، عشاءاتنا فلوبير! قبل حين استأنفناها، ولكن كنا ثلاثة فقط حول المائدة.

ألفونس دوديه

من الذكريات ١٨٨٣

قصص[1]

١- إن إبداع الكاتب الروسي العظيم، إيفان تورغينيف (١٨١٨ - ١٨٨٣) هو إحدى الذرى في الأدب الروسي. وقد عكس في نتاجاته كل ما هو أكثر جوهرية وإلحاحاً في الحياة الروسية، ويجسّد بها مطمح الأمة كلّها في الحرّية والتقدّم.

قضى تورغينيف طفولته في ضيعة أمه - سباسكويه - لوتوفينوفو، الواقعة في ولاية أوريول. وكان يذكر: «لقد ولدت وترعرعت في محيط كانت تسود فيه الضربات على القفا، وانخراط الأظافر على الجلود، واللكمات، والصفات وغيرها...».

« لم أستطع أن أستنشق الهواء نفسه، وأظل إلى جانب من كنت أمقتهم... كان لهذا العدوّ، في عيني، صورة محددة، واسم معروف: كان هذا العدوّ هو نظام القنانة».

وأقسم الكاتب على أن يناضل طوال حياته هذا العدوّ البغيض. وقد كرّس لهذا النضال واحداً من أحسن أعمال تورغينيف - «مذكرات صياد» - وهو كتاب عظيم عن روسيا والروس. و«مذكرات صياد»، حسب تعبير الكاتب الساخر ميخائيل سالتيكوف - شيدرين «وضعت بداية لأدب كامل يجعل الشعب واحتياجاته هدفه».

ويضم المجلد الحالي ثلاث قصص من هذه السلسلة، «خور وكالينيتش»، و«بيريوك» و«المغنيان».

خور وكالينيتش[1]

من انتقل من قضاء بولخوف إلى قضاء جيزدرا لا بدّ أنه قد انبهر بالفارق الحادّ بين عرق الناس في ولاية أوريل وعرقهم في ولاية كالوغا. فالريفي من سكان أوريل غير طويل القامة، محدودب قليلاً، جهم الأسارير، مرتاب النظرات، يعيش في أكواخ بائسة متداعية مصنوعة من خشب الحور ويؤدي أعمال السخرة، ولا يزاول البيع والشراء. غذاؤه سيئ، ونعله من الليف. أما الريفي الكالوغي المستأجر لقطعة أرض باللزمة، فيعيش في أكواخ رحبة مصنوعة من خشب الصنوبر، طويل القامة، جريء النظرات بهيجها، وجهه نظيف أبيض، يبيع الزيت والقطران، وفي الأعياد يلبس الأحذية الطويلة السيقان.

والقرية الأورلوفية (ونحن نتكلم عن الجزء الشرقي من الولاية) تقع عادة وسط حقول محروثة، قرب وهدة حوّلت بطريقة ما إلى بركة قذرة. وما عدا بعض أشجار الصفصاف المستعدة دائماً لتأدية الخدمات[2]، وشجرتين أو ثلاث أشجار بتولا عجفاء لن ترى حولك شجرة واحدة على مدى فرسخ. وكوخ ملتصق بكوخ، والسطوح مفروشة بالقش العفن...

والقرية الكالوغية، على العكس، محاطة في معظمها بغابة، والأكواخ تقف أفسح مجالاً، وأكثر استقامة، سقوفها من الألواح. وأبواب الأسيجة محكمة الإغلاق، والأسيجة نفسها مضفورة بكثافة لا تكشف من الفناء شيئاً، ولا

---

١ - القصة الأولى من سلسلة «مذكرات صياد» نشرت لأول مرة في مجلة «سوفريمينيك»، العدد الأول، عام ١٨٤٧.

٢ - يقصد: لأن تضفر منها الأحذية الليفية. (المعرب).

تتداعى إلى الخارج، ولا تدع أي خنزير عابر يبصبص من خلالها... وولاية كالوغا أفضل للصياد. في ولاية أوريل ستختفي الغابات والأحراش الأخيرة بعد خمس سنوات أو نحوها، ولا وجود فيها للمستنقعات على الإطلاق، بينما في ولاية كالوغا، على العكس من ذلك، تمتد نواحي الغابات الكثيفة إلى مئات الفراسخ، والمستنقعات إلى عشرات، وطائر الطيهوج الوجيه لم ينزح بعد، والشُّنقب يتكاثر، والحَجَل الصفّاق الجناحين يبهج ويخيف الصياد وكلبه بتحليقه الخاطف.

أثناء زيارتي لقضاء جزدرا[1]، بقصد الصيد، التقيت ذات مرّة بأحد ملاّك الأراضي الصغار في ولاية كالوغا، وجرى التعارف بيننا. وهذا الرجل يدعى بولوتيكين، وهو صياد متحمّس، وبالتالي، فهو إنسان رائع.

حقاً كانت له بعض نقاط ضعف. فمثلاً إنه كان يقدم يده ليخطب كل الأوانس الغنيات في الولاية فترفض يده ولا تقبل زيارته من بعد ذلك، فصار يفضي بلواه، مسحوق القلب، إلى جميع الأصدقاء والمعارف، ويواصل إهداء ذوي الأوانس الخوخ الحامض والثمار الفجة الأخرى لحديقته. وكان شغوفاً بترداد نكتة واحدة لم تكن قط تضحك أحداً رغم احترام السيد بولوتيكين لمزاياها.

وكان يثني على مؤلفات أكيم ناخيموف وقصة بينا[2]. وكان لسانه يتلعثم، وكان يسمي كلبه «الفلكي». وبدلاً من أن يقول: «على أية حال» يقول: «على أية حالة»، وقد أقام في بيته مطبخاً فرنسياً، كان سرّه، حسب

١- كانت قرى تورغينيف السبع تقع في قضاء جزدرا من ولاية كالوغا، وسكانها أكثر من ٤٥٠ نسمة مشمولين بالضرائب، وقد ورث تورغينيف هذه القرى بعد وفاة أمه، وانفصاله عن أخيه. وقد حوّل تورغينيف فلاحي هذه القرى إلى استثمار الأرض بإيجار أقل مرتين من الإيجار السائد في القضاء.

٢- «أعمال شعرية ونثرية»، لـ (أ.ن. ناخيموف ١٧٨٣ - ١٨١٥)، مؤلف مقطوعات شعرية ساخرة وحكايات وأشعار بسيطة عن الرشوة إلى غير ذلك. و«بينا» قصة لـ (م.أ. ماركوف ١٨١٠ - ١٨٧٦)، مكتوبة بأسلوب رومانتيكي مزيف. وقد نعت الناقد الروسي العظيم فيساريون بيلينسكي هذه القصة بـ «الهذر» وذلك في مراجعته لمجموعة «مائة أديب روسي» (١٨٤٥) التي ضمّت هذه القصة.

مفاهيم طباخه، يكمن في تغيير المذاق الطبيعي لكل لون من ألوان الطعام؛ فاللحم عند هذا الماهر كانت له نكهة السمك، وللسمك نكهة الفطر، وللمعكرونة نكهة البارود، ومقابل ذلك ما من جزرة تقع في الحساء إلا بعد أن تتخذ شكل المعيّن أو المربع المنحرف. ولكن السيد بولوتيكين كان، باستثناء هذه النواقص القليلة وغير المهمّة، رجلاً رائعاً، كما قلت سالفاً.

في اليوم الأول من تعارفي مع السيد بولوتيكين دعاني لقضاء ليلة في بيته، مضيفاً:

– يبعد بيتي خمسة فراسخ. وهي مسافة بعيدة على الماشي، فلنذهب أولاً إلى خور (وليعذرني القارئ على عدم نقل تلعثم لسانه).

– ومَنْ خور هذا؟

– فلاحي... وهو قريب من هنا.

وقصدنا إليه. كانت دارة خور تنهض وحيدة وسط فرجة غابة مفلوحة ومستغلة بإتقان. وكانت تتألف من بعض الأكواخ من خشب الصنوبر تربط بينها أسيجة، وأمام الكوخ الرئيسي تمتدّ واجهة ترتفع على أعمدة دقيقة. دخلنا. فالتقانا شاب فتى في نحو العشرين من العمر طويل القامة وسيم الطلعة. سأله بولوتيكين:

– ها، فيديا، هل خور في البيت؟

أجاب الشاب مبتسماً عن صف من الأسنان البيض كالثلج.

– لا، بل ذهب إلى المدينة. هل تأمر بتهيئة العربة؟

– حسناً، يا أخ، أخرج العربة، واعطنا شيئاً من الكفاس.

دخلنا الكوخ. كانت الجدران النظيفة من روافد الخشب عارية من أية لوحة من اللوحات الرخيصة. وكان قنديل صغير يشتعل أمام أيقونة ثقيلة لها إطارمن الفضة، والمنضدة من خشب الزيزفون مسحوجة منذ وقت قصير، ومغسولة. ولم تكن الصراصير اللعوب ولا الخنافس الساهمة تجري بين الروافد وقوائم النوافذ. وسرعان ما ظهر الشاب يحمل قدحاً كبيراً أبيض مملوءاً بالكفاس الجيد، وقطعة كبيرة من خبز الحنطة، وأكثر من عشر

من الخيارات المملّحة في طاسة خشبية. ووضع كل هذه المأكولات على المنضدة، واتّكأ على الباب، وأخذ يتطلّع إلينا مبتسماً. وما كدنا نأتي على مشهياتنا، حتى سمعنا كركبة العربة أمام واجهة الكوخ. فخرجنا فوراً.

كان غلام في نحو الخامسة عشرة، أجعد الشعر، متورّد الوجنتين، يجلس في مقعد الحوذي، وهو لا يكاد يسيطر على حصان أرقط مغذّى. وقد تحلق حول العربة زهاء ستة من العمالقة الشبان يشابه بعضهم بعضاً ويشبهون فيديا. قال السيد بولوتيكين: - «كلهم أبناء خور - بادر فيديا الذي خرج إلى واجهة البيت في إثرنا - وهناك آخران: بوتاب في الغابة، وسيدور ذهب مع العجوز خور إلى المدينة... انتبه، يا فاسيا - تابع قوله مخاطباً سائق العربة - انطلق على طول، فالراكب معك سيد. احذر فقط حين تجتاز الحفر، هدئ قليلاً، فلا تضر بالعربة، ولا تقلق معدة السيد. ابتسم الآخرون من فورة فيديا. - اقعد الفلكي معنا! - صاح السيد بولوتيكين في أبهة، وبحركة لا تخلو من متعة رفع فيديا في الهواء الكلب المكشر عن ابتسامة مرغمة، ووضعه في قاع العربة».

أرخى فاسيا العنان للحصان. وغادرنا. - «هذه دائرتي - قال السيد بولوتيكين فجأة مشيراً إلى بيت صغير واطئ - هل ترغب في أن تشاهدها؟» - «حسناً». - «إنها الآن مهجورة - علّق السيد وهو ينزل من العربة - ومع ذلك تستحق نظرة» - كانت الدائرة مكوّنة من غرفتين فارغتين. هرع الحارس، وهو شيخ أعور خارجاً من الفناء. فقال السيد بولوتيكين: - «مرحبا، مينايتش، أين الماء؟» - اختفى العجوز الأعور، وعاد في الحال يحمل زجاجة ماء وقدحين. قال بولوتيكين لي: - «تذوق، إنه ماء زلال، من الينبوع». شرب كل منا قدحاً، بينما انحنى العجوز لنا بنصف جذعه. - «حسناً، الآن، يبدو لي من الممكن أن نغادر - نوه صديقي الجديد - في هذه الدائرة بعت للتاجر اليلويف أربعة هكتارات[1] من الغابة بسعر رابح». جلسنا في العربة، وبعد نصف ساعة كنا قد دخلنا فناء بيت الملاك.

١- في الأصل أربعة ديساتين (واحدة ديساتينا) وهو قياس روسي يساوي ١,٠٩٢ هكتار. (المعرب).

على العشاء سألت السيد بولوتيكين:

- قل لي، من فضلك، لماذا يعيش خور عندك في معزل عن فلاحيك الآخرين؟

- السبب في ذلك أنه فلاح ذكي. قبل حوالي خمسة وعشرين عاماً احترق كوخه، فجاء إلى أبي المرحوم، وقال له: «اسمح لي، يا نيقولاي كوزميتش، أن أسكن في الأرض السبخة في غابتك. وسأدفع لك إيجاراً طيباً». - «ولكن ما الذي يضطرك إلى أن تسكن في الأرض السبخة؟» - «لا شيء، أرجو فقط ألا تستخدمني في أي عمل، يا سيدي نيقولاي كوزميتش، وستحصل على الجزية التي تريد». - «خمسون روبلاً في العام!» - «تفضل» - «ولكن انتبه، دون متأخرات في الدفع!» «معلوم، دون متأخرات...»، وهكذا سكن في الأرض السبخة. ومنذ ذلك الحين سمي «خور»[1].

سألت:

- طيب، ونجح؟

- نجح. والآن يدفع لي مائة روبل حق الايجار. وأظن أنني سأزيدها. وقد قلت له غير مرة: «ادفع ثمن نفسك، واعتقها، يا خور، ادفع واعتق نفسك!» بينما المحتال يؤكد لي أنه ليس له ما يعتقه بها، يعني ليست عنده فلوس... ولكن لا يبدو معقولا!..

في اليوم التالي، توجّهنا إلى الصيد ثانية حالما فرغنا من شرب الشاي. ولدى اجتيازنا القرية أمر السيد بولوتيكين الحوذي أن يتوقف عند كوخ واطئ، ونادى بصوت صدّاح: - «كالينيتش!» - فتردّد صوت من الفناء: - «حالاً، يا سيدي، حالاً. أشد نعلي». سرنا ببطء. ولحق بنا وراء القرية رجل في نحو الأربعين من العمر، طويل القامة، نحيل العود، له رأس صغير مائل إلى الوراء.

كان ذلك كالينيتش. أعجبني من الوهلة الأولى وجهه الأسمر البادي

١- خور بالروسية تعني: فأر الخيل؛ وهو حيوان وحشي له فراء ثمين. (المعرب).

الطيبة، المنمّش في بعض أجزائه. كان كالينيتش (كما عرفت فيما بعد) يخرج كل يوم مع سيده إلى الصيد، ويحمل حقيبته، وأحياناً بندقيته، ويدلّ على محط الطير، ويجلب الماء، ويجمع الفريز البري، وينصب الخصاص، ويهرع ليجلب العربة الصيفية. وبدونه لم يكن السيد بولوتيكين يخطو خطوة واحدة.

كان كالينيتش رجلاً من أبهج الناس خلقاً وأكثرهم وداعة، لا يفتأ يترنّم بصوت خافت، وينظر في جميع الجهات خلي البال، ويخن قليلاً، ويقلّص عينيه الزرقاوين الفاتحتين حين يبتسم، وغالباً ما يمسك بعثنونه المدبب القليل الشعر. كان يمشي مشية غير سريعة، ولكن بخطوات كبيرة، متوكئاً على عصا نحيفة طويلة. خلال اليوم بادرني الكلام غير مرة، وكان يخدمني دون تدلل، ولكنه كان يرعى سيده، كما يرعى طفلاً. وحين اضطرنا حرّ الظهيرة غير المحتمل إلى البحث عن ملجأ، قادنا إلى منحلته في قلب الغابة.

فتح كالينيتش لنا باب كوخ علّقت داخله حزم من العشب الجاف الشذي، وأرقدنا على دريس غض، بينما وضع على رأسه ما يشبه الكيس له شبكة، وتناول سكيناً، وجفنة وخشبة داخنة، وتوجّه إلى المنحلة، ليقطع لنا شيئاً من قرص العسل. ارتشفنا العسل الشفاف الدافىء بماء الينبوع، وغفونا على طنين النحل الرتيب، وهفهفة الأوراق الثرثارة. أيقظتني هبة نسمة خفيفة... فتحت عيني، ورأيت كالينيتش. كان جالساً على عتبة الباب الموارب، ينحت ملعقة بسكين. تمعّنت طويلاً في وجهه الوديع الصافي مثل السماء المسائية، استيقظ السيد بولوتيكين أيضاً. لم ننهض حالاً. فمن الممتع أن يستلقي المرء على الدريس بلا حراك، بعد مشي طويل، ونوم عميق؛ فالجسم ينعم بتعب هانئ، والوجه لافح بحر خفيف، والعينان منغلقتان بكسل حلو. وأخيراً نهضنا، وعدنا ثانية إلى التجوال حتى المساء. وعلى العشاء أخذت أتكلم ثانية عن خور وكالينيتش. قال لي السيد بولوتيكين: «كالينيتش فلاح طيب، ومجتهد وخدوم. واستثماراته سليمة، إلاّ أنه لا يستطيع تسييرها، فأنا دائماً أجره منها. كل يوم يخرج معي إلى الصيد... فأية استثمارة هنا، احكم بنفسك». وافقته، وأوينا إلى مضاجعنا لننام.

في اليوم التالي اضطرّ السيد بولوتيكين إلى للسفر إلى المدينة بشأن قضية جاره بيتشوكوف. وكان بيتشوكوف قد حرث أرضاً له، وساط في الأرض المحروثة امرأة من فلاحاته. خرجت إلى الصيد لوحدي، وقبيل المساء عرجت على بيت خور. التقاني عند عتبة الكوخ عجوز أصلع قصير القامة، عريض المنكبين، ركين البنيان. إنه خور نفسه. نظرت إلى خور هذا بفضول.

كانت تقاطيع وجهه تذكر بسقراط، نفس الجبهة العالية نفسها، المدورة قليلاً، ونفس العينين الصغيرتين، ونفس الأنف الأفطس. دخلنا الكوخ سوية. وسرعان ما جلب فيديا لي حليباً وخبزاً أسود. قعد خور على مصطبة. ودخل معي في حديث وهو يمسّد بهدوء لحيته الجعداء. كان، كما بدا، يشعر بقدر نفسه فكان يتكلّم ويتحرّك ببطء، ويضحك، من حين لآخر، من تحت شاربيه الطويلين.

تحدثنا عن الحصاد، وعن المحصول، وعن معيشة الفلاحين... وكان يبدو كالمتفق معي. وفيما بعد فقط أحسست بالخجل، وشعرت بأنني لا أتحدث بما يناسب... طلع الحديث في شيء من الغرابة. كان خور في بعض الأحيان يغمض في كلامه بسبب حذره، بالتأكيد... وإليكم نموذجاً من حديثنا.

قلت له:

- اسمع، يا خور. لماذا لا تعتق نفسك من سيدك؟

- ولأي شيء أعتق نفسي منه؟ الآن أعرف سيدي، وأعرف ما أدفع له من اللزمة... سيدنا رجل طيب.

قلت ملاحظاً:

- ومع ذلك فالحرية أفضل.

نظر خور إليّ من جانب. وقال:

- بالطبع.

- فلماذا، إذن، لا تعتق نفسك؟

هزّ خور رأسه.

- بأي شيء أعتقها، يا سيدي؟ أخبرني؟

- أوه، كفاك، يا شيخ...

- إذا صار خور بين أحرار الناس - تابع خور قوله بصوت خافت كالمحدث نفسه - فإن أي شخص بلا لحية سيكون أعلى مقاماً من خور[1].

- حسناً، احلق لحيتك.

- وما اللحية؟ اللحية عشب يمكن حصده.

- فماذا، إذن؟

- ولكن ربما يصير خور تاجراً، والحياة للتجار طيبة، وهم في لحى أيضاً. سألته:

- يعني وتزاول التجارة أيضاً؟

- نتاجر، قليلاً، بالزيت والقطران... طيب، يا سيدي، هل تأمر بتقديم العربة؟

فكرت مع نفسي: «أوه، أنت ذلق اللّسان، وتخفي شيئاً في نفسك». وقلت بصوت مسموع:

- لا، لا أحتاج إلى العربة. غداً، سأطوف قرب بيتك، وإذا سمحت، فسأقضي الليلة في سقيفة الدريس.

- على الرحب والسعة. ولكن هل سترتاح في السقيفة؟ سآمر النّسوة بأن يفرشن لك مفرشاً، ويضعن وسادة. هاي، يا نسوان! - صاح ناهضاً من مكانه - إلى هنا، يا نسوان! وأنت، يا فيديا، اذهب معهن. فالنسوان بليدات!

بعد ربع ساعة قادني فيديا، وفي يده مصباح، إلى السقيفة. استلقيت على الدريس العطر، تكور الكلب عند قدمي. تمنى فيديا لي ليلة سعيدة، وصرف الباب، وانصفق. بقيت وقتاً طويلاً غير قادر على أن أنام. اقتربت بقرة من الباب، وتنفست تنفساً صاخباً مرتين أو نحوهما. ونبح الكلب عليها بعزة

١- يقصد خور بذلك: فئة الموظفين الذين سيجازف بالوقوع تحت تبعيتهم، إذا تحرّر من تبعية القنانة. وبموجب أمر من القيصر نيقولاي الأول صدر في ٢ نيسان ١٨٣٧ منع الموظفين المدنيين من إطلاق الشوارب واللحى.

نفس. مرّ خنزير عابراً، يقبع بسهوم، وراح حصان، على مقربة، يعلك الدريس، ويحمحم... وأخيراً غفوت.

عند الفجر أيقظني فيديا. أعجبني كثيراً هذا الفتى المرح النشيط، كما أنه على قدر ما لاحظت، كان محبوباً لدى خور العجوز أيضاً. كان كلاهما يسخر من الآخر بلطف ومحبة. خرج العجوز للقائي. عاملني معاملة أرق بكثير من معاملة البارحة، وذلك بسبب أنني قضيت الليل في كنفه، أم لسبب آخر. قال لي بابتسامة:

- السماور جاهز لك. فلنذهب لنشرب الشاي.

جلسنا قرب المنضدة. جلبت لنا إحدى كناته طاسة حليب. ودخل جميع أولاده الكوخ بالتوالي.

قلت للعجوز:

- إن لك فتياناً معانين!

- نعم - غمغم العجوز، وهو يقضم قطعة من السكر صغيرة للغاية - ليس لهم ما يشكون منه لا عليّ، ولا على أمهم، كما يبدو.

- وجميعهم يعيشون معك؟

- جميعهم. راغبون أنفسهم في ذلك، فتراهم يعيشون معنا.

- والجميع متزوجون؟

- هذا واحد لم يتزوج، لعوب - أجاب مشيراً إلى فيديا الذي اتكأ على الباب من جديد - فاسكا ما زال فتياً، ويمكن أن ينتظر.

- وما حاجتي إلى الزواج؟ - اعترض فيديا - أنا مرتاح بهذا الشكل. وما فائدتي من الزوجة؟ أتنابح معها، أم ماذا؟

- أوه، أنت... أنا أعرفك! تلبس خواتم فضية. تحب دائماً أن تغازل خادمات الأسياد... «كفاكم، يا مَنْ لا تستحون!» - تابع العجوز مقلّداً الخادمات - أنا أعرفك، أنت ابن دلال!

- وما نفع الريفية؟

- الريفية شغالة - ردّ خور بمهابة - الريفية خادمة زوجها.

– ولكن ما حاجتي إلى شغالة؟

– كفاك... أنت تحب أن تغرف النار بأيدي الآخرين. أنا أعرف صنفك.

– طيّب، زوّجني، إذا كان كذلك. ها؟ ماذا! لماذا أنت ساكت؟

– طيب، كفى، كفى، يا مازح. أنت ترى أننا نزعج السيد. سأزوجك، إن شاء الله... وأنت، يا سيدي، لا تتضايق. إنه صغير، كما ترى، و لم يلحق أن يعقل.

هزّ فيديا رأسه...

– خور في البيت؟

تردّد وراء الباب صوت مألوف، ودخل كالينيتش الكوخ يحمل ضمّة من الفريز البري جمعها لصديقه خور. حيّاه العجوز مبتهجاً. نظرت إلى كالينيتش مندهشاً، وأعترف أنني لم أكن أتوقع هذه «الألطاف» من فلاح.

في ذلك اليوم خرجت إلى الصيد متأخراً عن الوقت المعتاد بنحو أربع ساعات، وقضيت الأيام الثلاثة التالية عند خور. كان معارفي الجدد يستولون علي اهتمامي. لا أدري ما الذي أكسبني ثقتهم، ولكنهم كانوا يتحدثون إلي دون تكلف. وكنت أصغي إليهم بمتعة، وأراقبهم. لم يكن الصديقان يتشابهان في شيء. كان خور رجلاً إيجابياً، عملياً، ورأساً إدارياً، وعقلانياً. بينما كان كالينتيش، على العكس، ينتمي إلى فئة المثاليين والرومانسيين، ومن الناس الحماسيين والحالمين. وكان خور يفهم الواقع، أي أنه عمّر لنفسه، وجمع مالاً، وكان على وفاق مع سيده ومع السلطات الأخرى. وكان كالينتيش ينتعل الحذاء الليفي، ويدبر معيشته بصعوبة وعلى نحو ما. أنجب خور ذرية كبيرة، طائعة وموحّدة.

وكان لكالينتيش، في وقت ما، زوجة كان يخشاها، و لم يرزق بمولود. وكان خور ينفّذ إلى أعماق السيد بولوتيكين، بينما كان كالينيتش يبجل سيده. وكان خور يحب كالينتيش، ويشمله بالرعاية. وكان كالينيتش يحب خور ويحترمه. كان خور قليل الكلام، يضحك ويكتم ما في نفسه، بينما كان كالينيتش يكشف عن مكنون نفسه بحرارة، رغم أنه لم يكن فيّاض

اللسان، مثل عامل فوّار في معمل... ولكن كالينيتش كان يتمتّع بمزايا كان خور نفسه يعترف بها؛ فمثلاً كان يعالج بالتعاويذ نزيف الدم، والهلع، والجنون، ويطرد الدود. وكان النحل يستسلم له، ويوفق في كل عمل يبدؤه.

في حضوري طلب إليه خور أن يقود إلى الإسطبل حصاناً قد اشتراه حديثاً، فلبّى كالينيتش طلب المرتاب العجوز بمهابة صافية النية. كان كالينيتش أقرب إلى الطبيعة، وخور أقرب إلى الناس، والمجتمع. ولم يكن كالينيتش يحب المحاججة، وكان يؤمن بكل شيء إيماناً أعمى. بينما كان خور يترفع على الحياة، إلى حدّ النظرة التهكمية. لقد رأى الشيء الكثير، وعرف الشيء الكثير، وقد تعلّمت الكثير منه. فمثلاً عرفت من حكاياته أن عربة صغيرة من طراز خاص كانت تظهر في القرى كل صيف قبيل الحصاد. وفي هذه العربة رجل في قفطان يبيع المحشات[1]، ويأخذ على كل واحد منها روبلاً وخمسة وعشرين كوبيكاً نقداً - روبلاً وخمسين كوبيكاً بأوراق النقد، وفي حالة الدين ثلاثة روبلات وروبلاً فضياً. وطبيعي أن جميع الفلاحين يأخذون منه بالدين. وبعد ثلاثة أو أربعة أسابيع يظهر من جديد، ويطالب بالنقود. والفلاح قد حصد الشوفان لتوه، ومعنى ذلك أن هناك ما يدفع به. ويذهب الفلاح مع التاجر إلى حانة، وهناك يصفى الحساب. وفكّر بعض الملاكين بأن يشتروا هم المحشات بنقود معدنية، ويوزعوها على الفلاحين بالدين وبنفس السعر، ولكن الفلاحين لم يرضوا بل وجزعوا من ذلك.

فقد حرموا من متعة النقر على المحش والاستمتاع إلى رنينه، وتقليبه في أيديهم، وسؤال التاجر المحتال ابن المدينة عشرين مرة: «أليس هذا المحش، يا عم، كثير الـ ...؟». والأحابيل نفسها تحدث عند بيع المناجل، مع فارق واحد فقط، وهو أن الفلاحات يتدخلن في الأمر، إلى أن يدفعن التاجر أحياناً إلى ضرورة ضربهن، ولصالحهن. ولكن النسوة يتأذين أكثر من أي شيء آخر في الواقعة التالية. يتعهد منجزو المواد لمعامل الورق بشراء الخرق إلى أناس من صنف خاص يسمّونهم في بعض الأقضية بـ «النسور».

و«النسر» من هؤلاء يتسلّم من التاجر على حوالي مئتي روبل من أوراق

١- مناجل ذات مقابض طويلة، يحش بها الفلاح الزرع وهو واقف. (المعرب).

النقد، ويتجه للتصيد. ولكنه خلافاً للطائر النبيل الذي سمي باسمه لا يهجم علانية وبجسارة، بل على الضد، يلجأ «النسر» إلى الحيلة والمراوغة. يترك عربته في حرش، قرب القرية، ويتجه خالياً إلى الأفنية الخلفية، والأبواب الخلفية، كأنه عابر سبيل، أو مجرد عاطل متسكع. تحدس القرويات باقترابه بالفطنة، وينسللن للقائه. وتجري الصفقة التجارية على عجل. وتعطي القروية «النسر» لقاء بضعة نقود معدنية لا مختلف الخرق العديمة الفائدة فقط، بل وأحياناً قميص زوجها وتنورتها من النسيج البيتي.

وفي الفترة الأخيرة وجدت النّسوة من النافع أن يسرقن من أنفسهن ذاتها، وأن يبعن، بهذه الطريقة، تيل القنّب، وعلى الأخص «الخيش البيتي» - وذلك توسيع وتحسين مهمّ لصناعة «النسور»! إلاّ أن الفلاحين، بدورهم، صاروا أكثر براعة، وعند أقل شك، ولأي إشاعة عابرة عن ظهور «النسر» يسرعون خفافاً إلى اتّخاذ التدابير الإصلاحية والوقائية. وفي الواقع أليس ذلك فعلاً شائناً؟ فإن بيع القنّب من شؤونهم، وسيبيعونه حتماً، لا في المدينة، فإن ذلك يقتضي أن تحمله بنفسك إلى هناك، بل إلى المتاجرين القادمين الذين، بسبب انعدام القبّان، يعتبرون البود[1] أربعين غَرْفة - وأنتم تعرفون أية غرفة وأية كف للروسي لا سيّما حين «يتحمّس»! - وأنا الرجل غير المجرب، وغير «العايش» في القرية (كما يقول قومنا في أوريل).

كنت أستمع إلى مثل هذه الحكايات بكثرة. ولكن خور لم يكن يتحدث دائماً، بل كان يسألني عن أشياء كثيرة. فقد عرف أنني سافرت عدّة مرّات إلى الخارج، فتأجّج فضوله... ولم يكن كالينيتش أقل منه سؤالاً، ولكن كالينيتش كان يتأثّر أكثر في وصف الطبيعة، والجبال، والشلالات، والعمارات غير المألوفة، والمدن الكبيرة.

وكان خور يهتم بمسائل الإدارة والدولة. كان يسأل عن كل شيء بالتوالي: «يعني، عندهم هناك، مثل ما عندنا أم يختلف؟ طيب، تكلم، يا سيدي، كيف الحال؟» - «آه، يا إلهي، إرادتك!» كان كالينيتش يدعو، أثناء ما أرويه. وكان خور يصمت، ويعقد بين حاجبيه الكثيفين، وبين الفينة

١- عيار روسي قديم يساوي ١٦,٣ كيلوغراماً. المعرب.

والأخرى فقط كان يلاحظ قائلاً: «ذلك ما كان ليناسبنا، أما هذا فشيء جيد، إنه نظام».

وأنا لا أستطيع أن أنقل لكم كل استفساراته، فضلاً عن أن ذلك لا لزوم له. ولكنني خرجت من أحاديثنا باعتقاد واحد، من المحتمل أن القرّاء لا يتوقعونه أبداً. الاعتقاد بأن بطرس الأكبر[1] كان في الأغلب رجلاً روسياً، وهذا ما تجسّد في إصلاحاته بالذات. والرجل الروسي واثق بقوته وصلابته إلى حدّ أنه لا يمانع من إزهاق روحه، وهو قليل الاهتمام بماضيه، وينظر إلى الأمام بجرأة، وما هو جيد فهو يروق له، وما هو معقول فعليك به، ولا فرق عنده من أي جهة يجيء. وعقله السليم يتهكم بولع من الحصافة الألمانية الجافة. ولكن الألمان، على حدّ قول خور، قوم يثيرون الفضول، وهو مستعد لأن يتعلم منهم. وكان خور، بفضل وضعه الاستثنائي، واستقلاله الفعلي، يتحدث معي عن أشياء كثيرة، لا تستطيع أن تستخرجها ولو بعقلة، أو – كما يعبر الفلاحون هنا – أن تجرشها بمجرشة.

وكان خور بالفعل يعي وضعه. وفي حديثي مع خور استمعت لأول مرّة إلى لغة الفلاح الروسي البسيطة والذكية. كانت معارفه على شيء من السعة، ولكنه لم يكن يعرف القراءة. وكالينيتش كان يعرفها. – «هذا المتبطّل راضت له القراءة – قال خور منوّهاً – والنحل أيضاً لم يمت عنده قط». – «وهل علمت أولادك القراءة والكتابة؟» صمت خور. – «فيديا يقرأ ويكتب». – والآخرون؟ – «والآخرون لا يعرفون». – «ولماذا؟» لم يجب العجوز، وغيّر الحديث. ولكنه، مهما كان ذكياً، فقد كان له الكثير من الأوهام والتحاملات.

كان مثلاً يزدري الفلاحات، بطبيعته، وفي ساعة المرح كان يتفكه، ويهزأ منهن. وكانت زوجته العجوز الشكسة لا تبارح سطح الموقد طوال اليوم، وتدمدم وتشتم دون انقطاع، ولم يكن أبناؤها يعيرون لها التفاتاً، ولكنها

١– هو بطرس الأوّل الأكبر (١٦٧٢ – ١٧٢٥) اعتلى عرش روسيا منذ العام ١٦٨٢ (واستقلّ بالحكم منذ العام ١٦٨٩)، وكان أول إمبراطور روسي منذ العام ١٧٢١. وهو شخصية سياسية وعسكرية مرموقة. قام بعدّة إصلاحات مهمّة.

كانت تُبقي كناتها في وجل دائم. فلا عجب في أن تقول الحماة في الأغنية الروسية: «أي ابن أنت لي، وأي رأس عائلة، إذا كنت لا تضرب زوجتك، لا تضرب الشابة...» ذات مرّة فكرت في الوقوف إلى جانب الكنات، وحاولت إثارة عطف خور عليهن، إلا أنه اعترضني بهدوء قائلاً: «ما الداعي إلى أن تشغل نفسك بهذه... التفاهات. دع النسوان يتشاجرن... حتى لو مزقتهن لكان ذلك أسوأ... كما لا يستحق ذلك تلويث اليدين». وأحياناً كانت العجوز اللئيمة تنزل من الموقد، وتدعو كلب الحراسة من الرواق مستميلة إياه: «هوناً، هوناً، يا كليب!» وتضرب ظهره النحيل بقضيب تحريك النار، أو تتوقف تحت سقيفة واجهة البيت، و«تتنابح»، على حدّ تعبير خور، مع المارين.

ومع ذلك فقد كانت تخاف زوجها، وتصعد بأمر منه، إلى مكانها على سطح الموقد. ولكن كان من الممتع بشكل خاص، الاستماع إلى جدال كالينيتش مع خور، حين يتطرق الحديث إلى السيد بولوتيكين. فكان كالينيتش يقول: - «اسمع، يا خور، إياك أن تمس سيدي بولوتيكين». فيعترض عليه خور قائلاً: - «ولماذا لا يخيط لك حذاءً طويلاً؟» - «اهوه، حذاءً طويلاً!... وما حاجتي إلى حذاء طويل؟ أنا فلاح...» - «وأنا فلاح أيضاً، ولكن انظر...»، وبهذه الكلمة يرفع خور قدمه، ويري كالينيتش فردة حذاء طويل مصنوع ربما من جلد الماموث.

وكان كالينيتش يرد: - «أوه، أنت لست على شاكلتنا!» - «طيب، على الأقل لو أعطاك ما تشتري به حذاءً ليفياً، فأنت تخرج معه للصيد. كل يوم تستهلك حذاء ليفياً، على ما أظن...» - «هو يفعل ذلك، يعطيني ما أشتري به الحذاء الليفي...» - «نعم، وهبك في العام الماضي عشرة كوبيكات». ويشيح كالينيتش بوجهه متضايقاً، فينفجر خور ضاحكاً، وعند ذلك تختفي تماماً عيناه الصغيرتان.

كان كالينيتش يغني بصوت عذب جداً، ويعزف على البلالايكا. وكان خور يطيل الاستماع إليه، ويثني رأسه فجأة إلى جانب، ويبدأ بالانضمام إليه بصوت شاكٍ. وكان يحب بشكل خاص أغنية «إيه، يا نصيبي، نصيبي!».

وكان فيديا لا يفوت الفرصة للتنكيت على أبيه: «ما هذا الذي يشجيك، يا عجوز؟» ولكن خور كان يسند خده على يده، ويغمض عينيه، ويتابع التشكي من نصيبه... ومع ذلك، ففي وقت آخر كان لا يبزه رجلٍ في النشاط. طوال الوقت ينكب على شيء. يصلح عربة، أو يُقوّم سياجاً، أو يفحص عدة حصان. ولكنه لم يكن يراعي النظافة كثيراً وقد أجاب، ذات مرة، على ملاحظتي هذه، بأن «الكوخ يجب أن تفوح منه رائحة السكن».

اعترضته قائلاً:

- انظر إلى المنحل عند كالينيتش، كم هو نظيف.

قال متنهّداً:

- لولا ذاك لما عاش النحل، يا سيدي.

وفي مرة أخرى سألني: - «هل لديك ضيعة موروثة» - «نعم». - «بعيدة عن هنا؟» - «حوالي مائة فرسخ». - «وهل تعيش في ضيعتك، يا سيدي؟» - «أعيش». - «ولكن تستمتع ببندقية الصيد أكثر، على ما يبدو؟» - «نعم، وأعترف لك». - «حسناً ما تفعل، يا سيدي. اصطد بالعافية ما شئت من طيور الطيهوج، ولكن غيّر عمدتك أكثر».

وفي مساء اليوم الرابع بعث إليّ السيد بولوتيكين مَنْ يدعوني إليه. وتأسفت على فراق العجوز. ركبت في العربة مع كالينيتش. قلت: - «وداعاً، يا خور، عندك العافية. وداعاً، فيديا». - «وداعاً، يا سيدي، وداعاً، ولا تنسانا». وتحركنا. كان الغروب يتوهج لتوه. - «سيكون الطقس طيباً يوم غد». لاحظت، وأنا أنظر إلى السماء الصافية. - «لا، سينزل مطر - اعترضني كالينيتش - ها هو البط يضرب الماء هناك، كما أن للعشب رائحة قوية جداً». طلعنا إلى أحراش. أنشأ كالينيتش يغني بصوت خافت، قافزاً بجسمه على مقعد الحوذي قليلاً، لا يصرف نظره عن الغروب...

في اليوم التالي غادرت كنف السيد بولوتيكين المضياف.

بيريوك[1]

كنت عائداًلوحدي من الصيد مساء على عربة خفيفة، و لم يكن قد تبقى علي وصولي إلى البيت غير زهاء ثمانية فراسخ. كان فرسي الطيب في عدوه الخَبَب يجري سريعاً على الطريق المتربة، ومن حين لآخر يحمحم ويحرك أذنيه. والكلب المتعب لم يبتعد عن العجلتين الخلفيتين خطوة واحدة، وكأنما شُدَّ إليهما. وكانت عاصفة رعدية تتقدّم، وإلى الأمام سحابة ليلقية تصعد ببطء من وراء الغابة، وغيوم رمادية طويلة تنطلق فوق رأسي وللقائي. وكانت شجيرات الصفصاف تحف حفيفاً مذعوراً، وتهمهم. وفجأة حلت برودة رطبة محل الحر الخانق، وتكاثفت الظلال بسرعة. ضربت الحصان بالعنان، ونزلت إلى وهدة، واجتزت جدولاً جافاً، غطّت أجمات صفصاف حوضه السابق. ارتقيت مرتفعاً، ودخلت غابة.

كان الطريق أمامي يتلوى وسط أحراش كثيفة من شجر الجوز قد أغرقتها

---

١ - كان أرداليون زامياتين الذي كان قناً لتورغينيف في السابق (وفيما بعد أصبح معلم مدرسة ريفية) يذكر: «كانت جدتي وأمّي تقولان لي: إن الشخصيات المذكورة في «المذكرات» كلّها تقريباً لم تكن مختلفة... وحتى أسماؤها حقيقية... كان هناك شخص يدعى بيريوك قتله جيرانه الفلاحون في الغابة...».

وكان تورغينيف يحب أن يقرأ «بيريوك» على الناس. وهذا ما كتبه أحد معاصري تورغينيف، مباشرة بعد إلقاء تورغينيف لهذه القصة: «إنه فنان رهيف، فنان في المعنى الواسع لهذه الكلمة. وبيريوك... التي قرأها، صورة صغيرة في حجمها، وذات موضوع غير معقد، كما هو معروف - ولكن كم فيها من الشعر والمنظر الطبيعي الروسي، والشكل الدرامائي في شخص حارس الغابة بيريوك...».

نشرت القصة لأوّل مرّة في مجلة «سوفريمينيك»، العدد الثاني، عام ١٨٤٨.

العتمة. صرت أتقدم بصعوبة. كانت العربة تنط على الجذور الصلبة لأشجار البلوط والزيزفون المعمّرة، والمتقاطعة دائماً أخاديد طولانية عميقة، هي آثار عجلات العربات. وبدأ حصاني يتعثر. ودوّت ريح شديدة في الأعالي فجأة، وأخذت الأشجار تهدر بجنون، وقطرات المطر الكبيرة تضرب بأوراقها وتدق بشدة، وومض البرق، وهدرت العاصفة الرعدية. أبطأت السير، وسرعان ما اضطررت إلى أن أتوقف: كانت فرسي تغطس في الوحل ولم أعد أبصر شيئاً. وبعد لأي استجرت بأجمة عريضة. تكوّرت ولففت وجهي، ورحت أنتظر صبوراً انتهاء المطر، وفجأة وفي وميض البرق، تراءى لي في الطريق شخص عالي القامة. أخذت أتفرّس في تلك الجهة، وإذا بذلك الشخص يبرز قرب عربتي، وكأنه طلع من الأرض.

سأل صوت صداح:

– مَنْ هذا؟

– وأنت نفسك مَنْ تكون؟

– أنا حارس الغابة هنا؟

سمّيت نفسي.

– آه، أعرف! في طريقك إلى البيت؟

– نعم. ولكن أنظر أية عاصفة...

– نعم، عاصفة – أجاب الصوت.

– أضاء وميض البرق الأبيض حارس الغابة من رأسه حتى قدميه، وأعقبه على الإثر هزيم رعد مرتفع قصير. وهطل المطر بقوّة مضاعفة.

مضى حارس الغابة يقول:

– لا ينقطع عن قريب.

– ما العمل! – وقال الحارس بصوت حاد:

– سأوصلك إلى كوخي، على ما يبدو.

– اعمل معروفاً.

- تفضل اجلس.

دنا من رأس الفرس، وأمسكه من رَسَنه، وجذبه من موضعه. وتحركنا. أمسكت بمقعد العربة التي كانت تترنّح «مثل زورق في البحر»[1]، وناديت الكلب صائحاً، كانت فرسي المسكينة تخوض بسنابكها في الوحل بثقلٍ، وتزلق، وتتعثّر. وكان حارس الغابة يترنّح أمام عريشَيْ العربة يميناً وشمالاً، كالخيال. سرنا وقتاً طويلاً، وفي آخر الأمر توقف مرافقي. «ها نحن في البيت، يا سيد» نطق بصوى هادئ. صر باب السياج، ونبحث عدة جراء نباحاً متساوقاً. رفعت رأسي، فرأيت، في ضوء البرق، كوخاً صغيراً وسط فناء واسع محاطاً بسياج من الأغصان المضفورة. ولاح ضوء خافت من إحدى النوافذ الصغيرة. أوصل حارس الغابة الفرس إلى مدخل الكوخ، وطرق الباب. وصدر صوت نحيل «هالآن هالآن»، وترددت كركبة قدمين حافيتين، وأرسل المزلاج صريفاً، وظهرت على الباب فتاة في نحو الثانية عشرة في جلباب محزَّم بحاشية من قماش، وفي يدها فانوس، قال حارس الغابة لها:

- أضيئي للسيد. أما أنا فسأضع عربتك تحت السقيفة.

رمقتني الفتاة بنظرة، وسارت في الكوخ. وسرت أنا في إثرها.

كان كوخ حارسِ الغابة يتألف من غرفة واحدة مسخَّمة واطئة وخاوية، وبلا تخوت نوم معلّقة، ولا حواجز، وكانت فروة طويلة ممزقة معلّقة على الحائط، وعلى المصطبة بندقية بماسورة واحدة، وفي الزاوية كومة متراكمة من الخرق، وقرب الموقد قدران كبيران. وكانت شعلة عود الخشب تضيء على الطاولة، تتوهّج تارة بوهج بائس، وتكمد تارة أخرى. وفي وسط الكوخ تماماً تدلّت أرجوحة مهد معلّقة بطرف عمود طويل. أطفأت الفتاة الفانوس. وجلست على مصطبة صغيرة، وأخذت تهز الأرجوحة باليد اليمنى، وتعدل الشعلة باليد اليسرى. نظرت فيما حولي. وجزع قلبي، فليس من المبهج أن أقضي الليل في كوخ ريفي. كان الطفل في أرجوحة المهد يتنفّس بثقل وتسارع. سألت الفتاة:

١- اقتباس من قصيدة للشاعر الروسي العظيم ميخائيل ليرمونتوف بعنوان: «ثلاث نخلات» (١٨٣٩).

- أنت وحدك هنا؟

- وحدي، - نبست بصوت لا يكاد يبين.

- أنت ابنة حارس الغابة؟

- ابنته.

صرف الباب، وتخطى حارس الغابة العتبة، بعد أن أحنى رأسه. رفع الفانوس من الأرض، وتقدّم من الطاولة، وأشعل فتيلته.

- أظنّك لم تتعود على شعلة العود؟ - قال، ودفع خصلاته الجعداء إلى الوراء.

نظرت إليه. نادراً ما صادف أن رأيت رجلاً بادي القوة مثله. كان مديد القامة، عريض المنكبين ركين البنيان. كانت عضلاته الجبارة تبرز ناتئة من تحت قميصه المبلّل المصنوع من الخيش. كانت لحيته السوداء الجعداء تغطي ما يقرب من نصف وجهه الصارم الرجولي، وكانت عيناه الصغيرتين البنيتان تطلان بجرأة من تحت حاجبيه العريضين الكثيفين. أسند يديه على جنبيه قليلاً، وتوقف أمامي.

شكرته، وسألته عن اسمه. أجاب:

- اسمي فوما، ولكنّي أُلقب بـ «بيريوك»[1].

- أنت بيريوك، إذن؟

ونظرت إليه بفضول مضاعف.

وكنت كثيراً ما أسمع من خادمي يرمولاي، ومن آخرين حكايات عن حارس الغابة بيريوك الذي كان يخشاه جميع فلاحي المنطقة، مثلما يخشون النار. و لم يظهر في الدنيا، حسب أقوالهم، مَنْ يضارعه بالمهارة في عمله: «لن يسمح بأخذ ضمة من العساليج، في أي وقت كان، ولو في منتصف الليل، يسقط عليك فجأة، كما يسقط الثلج على الرأس، ولا تفكر أنت بالمقاومة، فإنه قوي، على ما يقولون، وحَذق كالعفريت... ولا يمكن أن ترشيه بشيء، ولا بالخمرة ولا بالنقود، ولا يستجيب لأي طُعم.

١- في ولاية أوريل، يسمى الرجل الوحيد الجهم «بيريوك»، (الملاحظة للمؤلّف).

تهيأ الناس الطيبون غير مرة ليرسلوه إلى العالم الآخر، ولم يفلحوا، فإنه لا يقهر».

بهذا الشكل كان الفلاحون المجاورون يتحدثون عن بيريوك.

– أنت بيريوك، إذن – كررت قولي – أنا، يا أخ، سمعت عنك، يقولون إنك لا تغفر لأحد إساءة.

– أقوم بواجبي – أجاب جهوماً – لا ينبغي أن يؤكل خبز صاحب الأمر بالمجان.

تناول فأساً من وراء حزامه، وأقعى على الأرض، وأخذ يشظي عود خشب للشعلة. سألته:

– أليست لك زوجة؟

– لا. – أجاب، ورفع الفأس وألقاها بقوّة.

– يعني ماتت؟

– لا... نعم... ماتت، – أضاف، وأشاح وجهه.

صمت. فرفع عينيه، ونظر إليّ.

– هربت مع عابر من أهل المدينة – قال بابتسامة قاسية. نكّست الفتاة رأسها، واستيقظ الطفل، وراح يصرخ، وأقبلت الفتاة على المهد. – خذي، أعطيها له – قال بيريوك ودسَّ في يدها قنينة رضاعة وسخة – وتركته أيضاً – تابع بصوت خافت مشيراً إلى الطفل. وتقدّم من الباب، وتوقف، واستدار وبادر يقول:

– أظنك، أيّها السيد، لا تأكل خبزنا، وليس لي غير خبز...

– لست جائعاً.

– كما تشاء... كنت سأنصب لك السماور، ولكن ليس عندي شاي... أنا ذاهب لأتفقد حصانك.

خرج، وصفق الباب. أجلت ببصري مرّة أخرى. فبدا لي الكوخ أكثر بؤساً ووحشة من المرة الأولى. كانت الرائحة المرة للدخان الخامد تضيّق على أنفاسي. لم تتحرك الفتاة من مكانها، ولم ترفع بصرها، ومن حين

لآخر كانت تدفع أرجوحة المهد. وتعدل على كتفها بحياء قميصها النازل، وقدماها الحافيتان متدليتان بلا حراك.

سألتها:

– ما اسمك؟

– أوليتا. – قالت، وخفضت وجهها الحزين أكثر.

دخل حارس الغابة، وجلس على المصطبة.

– العاصفة توشك أن تنتهي – ذكر بعد صمت قصير – إذا أمرت، فسأخرجك من الغابة.

نهضت. تناول بيريوك البندقية، وعاين خزّان البارود. سألته:

– لماذا هذه؟

– هناك تجاوز في الغابة... في وهدة كابيلي يقطعون الأشجار – أضاف رداً على نظرتي المتسائلة.

– والصوت مسموع من هنا؟

– مسموع من الفناء.

خرجنا سوية. توقف المطر. وفي البعيد ما زالت كتل السحب الهائلة تتلبّد، ومن حين لآخر تتوهج بروق طويلة، ولكن السماء الزرقاء الداكنة كانت تُرى هنا وهناك فوق رأسينا، وتتوامض النجوم من خلال غمائم رقيقة متطايرة بسرعة...

وأخذت تبرز من الظلمة معالم أشجار بللّها المطر، وأثارتها الريح. صرنا نتسمع. خلع حارس الغابة قبعته، وأطرق برأسه: «اسمع... اسمع – قال فجأة، ومدَّ ذراعه – أية ليلة داجية أختار». لم أسمع غير ضجيج أوراق الشجر. قاد بيريوك الحصان من تحت السقيفة.

– وبهذا الشكل، أظن – أضاف بصوت مسموع – سيفلت مني.

– سأذهب معك... هل تريد؟

– طيب، – أجاب بيريوك، وأعاد الحصان إلى موضعه – سنمسكه حالاً، وبعدها سأوصلك. لنذهب.

سرنا، بيريوك في المقدمة، وأنا وراءه. والله يعلم كيف كان يتبيّن الطريق، ولكنه لم يكن يتوقف إلا نادراً، وما ذلك إلا ليتسمع هبدة الفأس.

- اسمع - تمتم من خلال أسنانه - هل تسمع؟ تسمع؟

- ولكن أين؟

هزّ بيريوك كتفيه. هبطنا إلى الوهدة، وهدأت الريح لحظة. وبلغت سمعي بوضوح ضربات متساوية. رمقني بيريوك بنظرة، وهزّ رأسه. تابعنا سيرنا خلال السرخس البليل والقراص. صدر طنين ناء متواصل... تمتم بيريوك:

- أوقعها...

وفي غضون ذلك استمرت السماء بالصحو، وتنورت الغابة قليلاً. وطلعنا من الوهدة آخر الأمـر. همس لي حارس الغابة: «انتظر هنا»، وانحنى ورفع بندقيته إلى الأعلى، واختفى بين الاجمات. أخذت أتسمع متوتر الأعصاب. وخيل إلي أنني أسمع، من خلال عصف الريح المستمر، أصواتاً ضعيفة غير بعيدة عني. كانت فأس تضرب الأغصان بحذر، وصرّت العجلات، وصهل حصان... «قف! إلى أين؟» هدر فجأة صوت بيريوك الحديدي. صاح صوت آخر متشكياً كصوت الأرنب... وبدأ صراع. - «وتكذب... تكذب - قال بيريوك مؤكداً لاهث الأنفاس - لن تذهب...» اندفعت صوب الضجة. وركضت إلى مكان العراك متعثراً في كل خطوة. كان حارس الغابة يضطرب على الأرض، عند الشجرة المقطوعة، ويمسك اللص تحته، ويربط يديه على ظهره بنطاق. تقدمت. نهض بيريوك، وأوقفه على رجليه. فرأيت فلاحاً مبلّلاً في ثياب مهلهلة، ولحية طويلة مشعثة. وفي نفس البقعة كان حصان هزيل بائس مغطى إلى النصف بحصيرة عجراء يقف مع العربة. لم يتفوه حارس الغابة بكلمة وكان الفلاح صامتاً أيضاً، سوى أنه كان ينفض رأسه لا غير. همست في أذن بيريوك:

- أطلق سراحه، وسأدفع قيمة الشجرة.

أمسك بيريوك ناصية الحصان بيده اليسرى صامتاً، وقبض باليمنى على اللص من حزامه. وقال بحدة: - «هيا، استدر، أيها العاطل». تمتم الفلاح:

«الفأس هناك، خذها». - «حقاً، ولِمَ تضيع سدى؟» قال حارس الغابة، ورفع الفأس. واتخذنا طريقنا.

سرت في المؤخرة... بدأت السماء تنث من جديد، وسرعان ما تساقط المطر مدراراً. ووصلنا إلى الكوخ بعد لأي. أطلق بيريوك الحُصين المأسور وسط الفناء، وقاد الفلاح إلى الغرفة، وأرخى عقدة الحزام، وأجلس الفلاح في ركن.

هبَّت الفتاة التي كانت قد غفَت قرب الموقد، وراحت تنظر إلينا بذعر صامت. جلست على المصطبة الصغيرة.

- أهوه، بدأ المطر يهطل - لاحظ حارس الغابة - يقتضي الانتظار مرة أخرى. ألا ترغب في الاستلقاء؟

- شكراً.

- كان من الممكن أن أحجزه بالشونة، من أجل خاطرك - تابع مشيراً إلى الفلاح - ولكن أنظر، الرتاج...

قاطعت بيريوك:

- اتركه هنا، لا تمسه.

نظر الفلاح إليَّ من تحت حاجبيه. وفي دخيلتي قطعت على نفسي عهداً بأن أطلق سراح المسكين، مهما كلّف الأمر. كان يجلس على المصطبة بلا حراك. وفي ضوء الفانوس كان في وسعي أن أتبيّن وجهه المنحول المتغضن، وحاجبيه الأصفرين الناتئين، وعينيه القلقتين، وأطرافه النحيلة... استلقت الفتاة على الأرض، عند قدميه تماماً، وغَفت من جديد.

جلس بيريوك على الطاولة مسنداً رأسه إلى يديه. شرع جندب يزعق في ركن... المطر يضرب على السطح، ويسيل على النوافذ. وصمتنا جميعاً.

- فوما كوزميتش - أنشأ الفلاح يقول فجأة بصوت مهشّم لا رنة فيه - يا فوما كوزميتش.

- ماذا تريد؟

- أعتقني.

لم يجب بيريوك.

– أعتقني... من الجوع... أعتقني.

– أنا أعرفكم – اعترض حارس الغابة بتجهم – قريتكم كلها مثلك – لص على لص.

– أعتقني – كرّر الفلاح – المأمور... خربنا، هكذا... أعتقني!

– خربتم!.. لا يجوز لأحد أن يسرق.

– أعتقني، فوما كوزميتش... لا تهلكني. صاحبكم، وأنت نفسك تعرف، يذيقني الأمرّين.

أشاح بيريوك بوجهه. وأخذ الفلاح يرتعش، وكان حمى انتابته. كان يرعش رأسه، ويتنفّس باضطراب.

– أعتقني – كان يكرّر باستماتة الجزع – أعتقني، من أجل الرب، أعتقني! سأدفع جيداً، والله. من الجوع والله، الأطفال يولولون، أنت نفسك تعرف. الظروف قاسية.

– مهما يكن لا تلجأ إلى السرقة.

– الحُصين – تابع الفلاح قوله – الحصين هذا، على الأقل.. الحيوان الوحيد لدينا، أطلقه!..

– قلت غير ممكن. أنا أيضاً لست حراً. لا يتسامحون معي كما لا يجوز التساهل معكم.

– أعتقني! هي الحاجة، يا فوما كوزميتش، الحاجة الشديدة ولا شيء... أعتقني!

– أنا أعرفكم!

– ولكن أعتقني!

– أوه، لا نفع في التحدث معك، اجلس بهدوء، عندي، تعرف؟ ألا ترى السيد؟

أطرق البائس رأسه. تثاءب بيريوك، ووضع رأسه على الطاولة. والمطر لم يتوقف قط. كنت أنتظر ماذا سيكون.

انتصب الفلاح فجأة. وتوهجت عيناه، وظهرت الحمرة على وجهه.

«طيب، هاك، كُلْ، هاك، واختنق، هاك - شرع يقول مقلصاً عينيه، وقد ارتخى طرفا شفتيه - خذ، يا زاهق الروح اللعين، اشرب دم المسيحي، اشرب...».

أدار حارس الغابة رأسه.

- كلامي لك، يا همجي، يا شارب الدم، كلامي لك!

- هل أنت سكران لتشتم هذه الشتائم؟ - قال حارس الغابة باندهاش - هل جننت؟

- سكران!... ليس من فلوسك، يا زاهق الروح اللعين، وحش، وحش، وحش!

- أوه، يا لك. سأريك!..

- لا يهمني، كل شيء عندي واحد، الضياع. إلى أين أذهب بدون حصان؟ اقتلني، النتيجة واحدة. سواء من الجوع أو بهذا الشكل، النتيجة واحدة. الجميع ضاعوا، الزوجة، الأطفال، الجميع هلكوا... أما أنت فانتظر، سنصل إليك.

رفع بيريوك جذعه من مقعده.

- اضرب، اضرب - زعق الفلاح بصوت ضار - اضرب، هاك هاك، اضرب (هبّت الفتاة من الأرض على عدل، وتفرست فيه) اضرب! اضرب!

- اسكت! - هدر حارس الغابة، وتقدّم خطوتين.

صحت أنا:

- كفى، كفى، يا فوما. اتركه... عافاه الله.

وواصل التعيس كلامه:

- لن أسكت. لا مفر من الموت، أنت زاهق أرواح، وحش، الموت لا يأخذك... ولكن، انتظر، الآخرة ليست بعيدة عنك! سيقلعون لك لوزتك، انتظر!

أمسكه بيريوك من كتفه... وهرعت لنجدة الفلاح...

- لا تمسه، يا سيد! - صاح حارس الغابة بي.

وما كنت سأعبأ بتهديداته، وقد مددت يدي، ولكن، ولدهشتي القصوى، سحب بيريوك الحزام من مرفقَيْ الفلاح، بجرة واحدة، وأمسكه من تلابيبه، ودفع قبعته على عينيه، وفتح الباب، ودفعه إلى الخارج.

- اذهب إلى الجحيم، مع حصانك - صاح في إثره - ولكن إياك أن تمر في المرة الثانية...

وعاد إلى الكوخ، وأخذ ينبش في ركن.

- حسن، بيريوك - تعقلت أخيراً - لقد أدهشتني، أراك فتًى طيباً.

- هوه، كفى، يا سيد - قاطعني بانزعاج - أرجو ألا تتحدث عن ذلك - ثم أضاف - ولكن من الأحسن أن أوصلك. أظن أنك لن تنتظر حتى يتوقف المطر...

في الفناء أخذت عجلات عربة الفلاح تدق الأرض.

- ذهب، يعني! - تمتم بريوك - ولكن سأريه.

بعد نصف ساعة تو ادع معي عند حافة الغابة.

المغنيان[1]

كانت قرية كولوتوفكا الصغيرة ملكاً في وقت من الأوقات، لمالكة أراض كانت تكنى في المنطقة بـ «ستريغا نيخا»[2]، بسبب خلقها الطائش الشموس (ظل اسمها الحقيقي مجهولاً)، وهي الآن ملك لألماني من بطرسبورغ. والقرية تقع على منحدر تل أجرد تقطعه، من الأعلى إلى الأسفل، وهدة رهيبة محفورة متآكلة، فاغرة الشدق كالهاوية تتلوى وتشطر القرية الصغيرة المسكينة إلى شطرين، أسوأ مما يشطرها نهر – على الأقل من الممكن عند وجود النهر مد جسر عليه.

وكانت بعض أشجار الصفصاف الهزيلة تنحدر، بتهيّب، على جنبيها الرمليين. وفي القاع تماماً، الجاف والأصفر، كالنحاس، ترقد صفائح هائلة من الحجر الصلصالي. منظر غير بهيج، دون ريب، ومع ذلك فإن أهالي القرى المجاورة يعرفون جيداً الطريق إلى كولوتوفكا[3]. فقد كانوا يغدون إليها طواعية ومراراً.

---

١ – ضمنت هذه القصة حقيقة واقعية. فقد كتب تورغينيف عام ١٨٥٠ لقد «صوّرت مباراة بين مغنيين كنت قد حضرتها...».

وصف نيقولاي نيكراسوف محرّر مجلة «سوفريمينيك» قصة «المغنيان» بأنها «معجزة»، أما فيدور دوستويفسكي فقد كتب في عام ١٨٧٣ بشأن المشهد الأخير من القصة «هل تذكر أنتروبكا عند تورغينيف – إن هذه القطعة للكاتب المحبوب لدى الجمهور نابغة حقاً».

نشرت هذه القصة لأول مرة في مجلة «سوفريمينيك»، العدد ١١، عام ١٨٥٠.

٢ – تعطي هذه الكنية بمدلولها في اللغة الروسية صورة صاحبة أقنان ضارية. المعرب.

٣ – كانت قرية بهذا الاسم تقع على بعد فرسخين من قرية تورغينيف.

عند رأس الوهدة، على بعد خطوات قليلة من النقطة التي تبدأ بالانحدار منها كأخدود ضيق. سقفه مغطى بالدريس، وله مدخنة، ونافذته الوحيدة، تطل كعين ثاقبة، على الوهدة، وفي الأماسي الشتائية، حين تضاء من الداخل تلوح من بعيد، في ضباب الصقيع الشاحب، وتتوامض كالنجم الهادي لغير واحد من الفلاحين المارين. وفوق باب الكوخ دقت لوحة زرقاء. إن هذا الكوخ حانة تسمى «الملاذ» تبيع النبيذ بسعر، ربما لا يقل عن السعر المعيّن، ولكن المتردّدين عليها أكثر، بدرجة كبيرة، من المتردّدين على جميع مثيلاتها في القرى المجاورة. والسبب في ذلك يرجع إلى ساقي الحانة نيقولاي إيفانيتش.

ونيقولاي إيفانيتش - الذي كان في يوم ما فتى ممشوق القوام، أجعد الشعر، متورّد الخدين، وهو الآن رجل بدين بشكل غير اعتيادي، أشيب، منتفخ الوجه، عيناه تنمان عن طيبة ومكر، وجبينه دسم مشدود بغضون كالخيوط - يعيش في كولوتوفكا منذ أكثر من عشرين عاماً. إنه رجل حاذق سريع البديهة، كمعظم سقاة الحانات. وهو، وإن لم يكن يتميّز بمجاملة ملحوظة، ولا ذلاقة لسان، يملك موهبة اجتذاب الزوّار، وإبقائهم عنده، حيث كان يبهجهم الجلوس أمام منصة صاحب الدار الفاتر المزاج، وتحت نظرته الهادئة الخفيّة، رغم نفاذها. إن له الكثير من العقل السليم، كما أنه يعرف جيداً حياة مالكي الأراضي، والفلاحين، وأهل المدن، وفي اللحظات العسيرة في وسعه أن يسدي نصحاً معقولاً، ولكنه، وكرجل حذر أناني، يفضل البقاء في ناحية، وبالتلميحات البعيدة وحدها، والتي تبدو وكأنها قد ألقيت دون أي قصد، يهدي زائريه، والمفضلين لديه وحدهم، إلى طريق الصواب. إنه ضليع في كل شيء مهمّ أو ممتع للروسي: في الخيول والمواشي، في الخشب، في الآجر، في الأواني، في أنواع المنسوجات، في الجلد، في الأغاني والرقصات. وحين تخلو حانته من الزوار يطوي تحته ساقيه النحيفتين ويجلس في العادة كالزكيبة، على الأرض، أمام باب حانته، يتبادل الكلمات الرقيقة مع المارين جميعاً.

لقد رأى نيقولاي إيفانيتش الكثير في حياته، وعاصر عشرات عديدة من الملاكين الصغار ممن قضوا نحبهم، وكانوا في حياتهم يترددون عليه طلباً

للخمرة المصفاة، وهو يعرف كل شيء يجري في دائرة قطرها مائة فرسخ، ولا يُفشي خبراً أبداً، بل ولا يظهر أنه يعرف ما لا يرتاب في وقوعه أكثر رجال الشرطة نفاذ بصيرة. إنه يصمت غير ملتفت إلى شيء، ويضحك، ويرن بالأقداح. وجيرانه يحترمونه: الجنرال المدني[1] كلما مرّ ببيته الصغير.

إن نيقولاي إيفانيتش رجل ذو نفوذ، فقد أجبر سارق خيول مشهوراً على أن يرد الحصان الذي سرقه من فناء أحد معارفه، وأعاد إلى الصواب فلاحي قرية مجاورة لم يريدوا قبول وكيل جديد، إلى غير ذلك. ومع هذا لا ينبغي الظن بأنه كان يفعل ذلك حباً في العدالة، وإيثاراً للقريبين منه. لا! بل سعياً منه لتفادي كل ما يمكن أن يعكر صفوه على نحو ما. نيقولاي إيفانيتش متزوج، وله أولاد، وزوجته امرأة من أهل المدينة حاذقة مدببة الأنف، سريعة العينين ترهّل جسمها قليلاً، في الفترة الأخيرة، مثل زوجها. والزوج يعتمد عليها في كل شيء. الفلوس أيضاً محفوظة عندها في خزانة مغلقة. إن السكيرين المعربدين يخافونها، وهي لا تحبهم، الفائدة منهم قليلة، والضجة كثيرة، والأقرب إلى قلبها هم الصامتون العابسون.

الأولاد ما يزالون صغاراً. الأوائل ماتوا جميعاً، ولكن الباقين ساروا على منوال والديهم. والتطلّع إلى وجوه هؤلاء الفتية الأصحاء، إلى وجوههم الصغيرة الذكية بهجة للناظرين.

في نهار من تموز لا يطاق قيظه، كنت أُصعّد مع كلبي بمحاذاة وهدة كولوتوفكا صوب حانة الملاذ، مثقّلاً قدمي ببطء. كانت الشمس تتوهّج في السماء، وكأنها تتلظى. كان الجو حاراً ورطباً بضراوة. وكلّه مشبع بالغبار الخانق. وكانت غربان القيظ اللامعة والزيغان بمناقيرها الفاغرة تنظر بتشك إلى المارة، وكأنّها تطلب منهم تعاطفاً. والعصافير وحدها لم تكن تأسى. نفشت ريشها، وراحت تزغرد أقوى من ذي قبل، وتتعارك على الأسيجة، وتطير بوئام من الطريق المترب، وتحوم كالغمائم الرمادية فوق حقول القنب الخضراء. كان العطش يضنيني، ولا ماء في جواري. إذ كان الفلاحون في كولوتوفكا، كما في القرى السهبية الكثيرة الأخرى، يشربون وحلاً سائلا

١- في روسيا القيصرية كانت الجنرالية رتبة مدنية أيضاً. المعرب.

من بركة، لافتقارهم إلى الينابيع والآبـار... ولكن مَنْ الذي يسمي هذا المشروب المقزز ماء؟ كنت أريد أن أطلب من نيقولاي إيفانيتش قدح بيرة أو كفاس.

ويجب الاعتراف بأن كولوتوفكا ليست منظراً بهيجاً في أي فصل من فصول السنة، ولكنها تثير شعوراً شجياً بشكل خاص، حين تغرق شمس تموز الساطعة بأشعتها الضارية سطوح البيوت البنية بقشها المنحول، وتلك الوهدة العميقة، والمرعى المحروق المغبر، الذي يسرح فيه، بلا أمل، الدجاج الممحول الطويل السيقان، والهيكل الرمادي من جذوع الحور بثقوبه بدلا من النوافذ، وهو طلل بيت مالك أراض، نما حوله القرّاص والأعشاب الطفيلية والافسنتين، والبركة السوداء كما لو سُفحت بنار، المحفوفة بوحل نصف يابس، وسدتها مائلة جانباً؛ وقرب هذه السدة، وعلى أرض كالرماد دقتها الأقدام دقاً ناعماً تتزاحم خراف فيما بينها، وهي لا تكاد تتنفّس، وتسعل من شدّة الحرّ، وتخفض رؤوسها بصبر جازع، إلى أوطأ ما يمكن، وكأنها تنتظر متى سيزول أخيراً هذا القيظ الذي لا يطاق.

اقتربت من مسكن نيقولاي إيفانيتش بخطى متعبة، مثيراً في الأطفال، بحكم العادة، دهشته بلغت حدّ البحلقة المجهدة التي لا معنى لها، وفي الكلاب غيظ تعربِ عنه بنباح مبحوح حانق إلى درجة تشعر معها، وكأن كل أحشائها قد تقطّعت، حتى إنها فيما بعد، راحت نفسها تسعل وتلهث، وعندئذ، ظهر فجأة على عتبة الحانة رجل طويل حاسر الرأس، في معطف من النسيجِ القطني الخشن، محزم بنطاق أزرق هابط. كان في مظهره يبدو كخادم في بيت مالك أرض، وكان شعره الكثيف الأشيب ينتصب في فوضى فوق وجهه النحيف المتغضن.

نادى شخصاً ما، محركاً بعجالة ذراعيه اللّتين كانتا، على ما يظهر، تمتدان أطول من الحد الذي كان هو راغباً فيه. وكان ملحوظاً أنه لحق أن يحتسي شراباً.

- تعال، تعال حالاً - تمتم رافعاً حاجبيه الكثيفين بجهد - تعال، مورغاتش، تعال! أوه، أنت تزحف، يا أخ، كلمة حق، يا أخ، ليس لطيفاً. هم ينتظرونك هنا، وأنت تزحف... تعال.

- طيب، قادم، قادم - صدر صوت مهتز، وخرج من وراء الكوخ من جهة اليمين رجل قصير بدين أعرج. عليه معطف من الجوخ يصل إلى حدّ الركبة، نظيف بدرجة كافية، ملبوس بردن واحد، وقبعة مدببة نازلة إلى حاجبيه تماماً تضفي على وجهه المدوّر المنتفخ تعبيراً لعوباً ساخراً. كانت عيناه الصغيرتان الصفراوان تتحركان كثيراً، وشفتاه الرقيقتان لا تبرحهما ابتسامة متحفظة متوترة، والأنف المدبب الطويل، يبرز إلى الأمام بوقاحة كالدفة. - أنا قادم، يا أخ - تابع قوله، وهو يقزل نحو الحانة - لماذا تناديني؟ من الذي ينتظرني؟

- لماذا أناديك؟ - قال الرجل ذو المعطف القطني بعتاب - أوه، يا لك مورغاتش، غريب أنت، يا أخ، أنا أدعوك إلى الحانة، وأنت تسأل: لماذا؟ في انتظارك جميع الناس الطيبين: ياشكا[1] التركي، والسيد الوحشي، ووكيل العمال من جيزدرا. تراهن ياشكا مع وكيل العمال، والرهان قدح كبير من البيرة: من الذي سيتغلب على الآخر في الغناء، من يا ترى، أحسن... تفهم؟

- ياشكا سيغني؟ - قال المسمى مورغاتش بحيوية - لعلّك تكذب، يا عيّار[2]؟

- أنا لا أكذب - أجاب العيّار بعزة نفس - أنت تكذب، إذن، سيغني ما دام هناك رهان، يا خنفس، يا غشاش، يا مورغاتش!

اعترض مورغاتش قائلاً:

- طيب، لنذهب يا غرير.

- إذن، قبّلني على الأقل، يا روحي. - غمغم العيّار، بعد أن فتح ذراعيه بسعة.

- أوه، يا للمكار المدلل.

أجاب مورغاتش بازدراء، دافعاً إياه بكوعه، ودخل الاثنان الباب الواطئ منحنيين.

١- هي صيغة التحبب من ياكوف، وسيرد الاسم الكامل ياكوف فيما بعد. المعرب.

٢- العيّار: من يذهب ويجيء بلا عمل. المعرب.

أثار الحديث الذي سمعته فضولي بدرجة كبيرة. وكنت قد سمعت غير مرة، إشاعات عن ياشكا التركي، كأحسن مغن في الضواحي، وإذا بي أجد الفرصة أمامي لسماعه في مباراة مع فنان آخر. حثثت خطاي ودخلت الحانة.

لعلّ القليل من قرائي قد أتيح له الفرصة لمشاهدة الحانات الريفية، ولكن الصياد، من أمثالي، لا يترك مكاناً دون أن يدخله. إن بناءها بسيط للغاية. وهي في العادة، تتكوّن من رواق مظلم، وكوخ نظيف يشطره حاجز لا يحق لأحد الزوّار أن يجتازه. وفي هذا الحاجز، وفوق طاولة من خشب البلوط فتحة كبيرة مستطيلة، وعلى هذه الطاولة أو على المنصة يباع النبيذ. وعلى الرفوف مقابل الفتحة تماماً صُفت قنانٍ مختومة من مختلف الأحجام. وفي الجزء الأمامي المخصّص للزوّار وضعت مساطب صغيرة، وبرميلان أو ثلاثة فارغة، ومنضدة في زاوية. ومعظم الحانات الريفية مظلمة عادة، وجدرانها المصنوعة من الروافد تكاد تخلو من أية لوحة رخيصة ساطعة الألوان، من تلك اللوحات التي لا يستغني عنها أي بيت ريفي.

عندما دخلت حانة الملاذ، كان جمع كبير من الناس قد تجمع فيها.

وراء المنصّة، وعلى عرض الفتحة كلّها تقريباً كان نيقولاي إيفانيتش يقف كالعادة، في قميص مبرقش من القطن يصب بيده الممتلئة البيضاء، والتكشيرة الفاترة على خديه المنتفخين، قدحين من النبيذ للصديقين مورغاتش والعيّار اللذين دخلا قبلي. وإلى الخلف منه، في ركن عند النافذة، لاحت زوجته ذات العينين النافذتين. كان ياشكا التركي يقف في وسط الحجرة، وهو رجل نحيل ممشوق في نحو الثالثة والعشرين في قفطان أزرق اللون، طويل الحاشية من النسيج القطني المنزلي.

كان يبدو فتى جسوراً من المشتغلين في المعامل، ولا تلوح عليه مخايل العافية الممتازة. كان خداه الغائران، وعيناه الرماديتان الواسعتان القلقتان، وأنفه المستقيم بمنخريه الدقيقين الحركين، وجبينه الأبيض المتحدر بخصلاته الجعداء من الشعر الفاتح، المسرحة إلى الوراء، وشفتاه السميكتان والجميلتان المعبرتان في نفس الوقت، وكل وجهه يكشف عن رجل متأثر مشبوب العاطفة.

كان في انفعال شديد، يرمش بعينيه، ويتنفّس باضطراب، ويداه ترتجفان، وكأنه في قشعريرة، بل وكان في قشعريرة فعلاً، في تلك القشعريرة المفاجئة الهالعة التي يعرفها جيداً أولئك الذين يتحدثون أو يغنون أمام جمع من الناس. وبالقرب منه وقف رجل في نحو الأربعين من العمر، واسع الكتفين، عريض الوجنتين، منخفض الجبين، له عينان تتريتان ضيقتان، وأنف قصير مفلطح، وذقن مربع، وشعر أسود لامع خشن كشعر الخنزير.

كان التعبير على وجهه الأسمر ذي اللمعة الرصاصية، ولا سيّما شفتيه الشاحبتين يمكن أن يوصف بالضراوة، لولا تلك المسحة من التفكير الهادئ. كان بلا حراك تقريباً، لا يبدو منه غير تلفت بطيء فيما حوله، كتلفت الثور من تحت النير. كان يرتدي معطفاً طويل الأذيال ضيق الخصر مستهلكاً له أزرار نحاسية مصقولة، ومنديلاً حريرياً أسود قديماً يحيد برقبته الضخمة. وكان يسمى السيد الوحشي وقبالته تماماً جلس على مصطبة تحت الأيقونات وكيل العمال من جيزدرا، منافس ياشكا. وهو رجل ركين متوسط القامة، في نحو الثلاثين من العمر، مجدّر الوجه، أجعد الشعر، ذو أنف مرفوع مسطح، وعينان بنيتان حيويتان، ولحية هزيلة الشعر. كان ينظر فيما حوله جمّ النشاط، وقد طوى يديه تحته، وراح يؤرجح ساقيه بلا مبالاة، ويدق الأرض بقدميه المكسوتين بحذاء أنيق طويل ذي حاشية.

وكان يرتدي معطفاً رقيقاً جديداً من الجوخ الرمادي له ياقة من المخمل القطني، برزت منها، وفي الركن المقابل إلى يمين الباب جلس إلى طاولة فلاح صغير الجرم في رداء أوكراني طويل فيه ثقب هائل في الكتف. كان ضوء الشمس يتدفّق سيلاً شحيحاً ضارباً إلى الصفرة من خلال الزجاج المغبر لنافذتين صغيرتين، ويبدو غير قادر على الانتصار على ظلام الحجرة المعتاد. كانت جميع الأشياء مضاءة بشحة، وكأنما ببقع، إلا أن الجوّ في الحجرة كان طرياً تقريباً، حتى انزاح عن كاهلي الشعور بالقيظ والاختناق، كما ينزاح عبء، ما إن دخلتها.

في بادئ الأمر أربك دخولي ضيوف نيقولاي إيفانيتش، – وهذا ما أمكنني أن ألاحظه، إلا أنهم حين رأوا أنه ينحني لي بالتحية، كرجل معروف

له، هدأ روعهم، وبعد ذلك لم يعيروا إليّ التفاتاً. طلبت بيرة، وجلست في ركن قرب الفلاح ذي الرداء الأوكراني المثقوب.

– طيب، إذن! – زعق العيّار فجأة، بعد أن احتسى قدح النبيذ جرعة واحدة، مصاحباً هتافه هذا بتلويحات غريبة بيديه يبدو بدونها غير قادر على أن ينطق بكلمة واحدة. ومضى يقول:

– ماذا ننتظر أكثر؟ لنبدأ إذا كان علينا أن نبدأ. هيا؟ ياشكا؟

التقط نيقولاي إيفانيتش كلامه مؤيّداً:

– نبدأ، نبدأ.

نطق الوكيل[1] ببرود أعصاب، وعلى شفتيه ابتسامة الثقة بالنفس:

– لنبدأ، على ما أظن. أنا حاضر.

فقال ياكوف باضطراب:

– وأنا حاضر.

فصأصأ مورغاتش:

–طيب، ابدآ، يا حلوين، ابدآ.

إلاّ أنّ أحداً لم يبدأ، رغم الرغبة المعلنة بالإجماع، بل إن الوكيل لم يرفع جسمه عن المقعد، وبدا الجميع، وكأنهم ينتظرون شيئاً.

قال السيد الوحشي بصوت حاد وعق:

– ابدأ!

جفل ياكوف. ونهض الوكيل، وأنزل نطاقه، وتنحنح.

– ولمن البداية؟

سأل بصوت يختلف قليلاً عن صوته السابق مخاطباً السيد الوحشي الذي ظل على حاله، واقفاً بلا حراك، وسط الحجرة، وقد أفرج ساقيه الممتلئتين بسعة، ودس في جيبي سرواله يديه الضخمتين حتى الكوع تقريباً.

غمغم العيّار:

– لك، لك، يا وكيل، لك، يا أخ.

١– فيما بعد سيسمى وكيل العمّال بهذا الاسم اختصاراً. المعرب.

نظر السيد الوحشي إليه نظرة شزراء، صاصأ العيّار بضعف، وتلعثم، ونظر إلى نقطة ما في السقف، وهزّ كتفيه، وسكت.

قال السيد الوحشي بتوقف بين الجملتين:

- نلقي قرعة. والرهان من النبيذ يوضع على المنصة.

انحنى نيقولا إيفانيتش، وتناول القدح المعيار من الأرض متأوهاً، ووضعه على المنضدة.

نظر السيد الوحشي إلى ياكوف، وقال: «هيا!».

نبش ياكوف في جيوبه، وأخرج قرشاً معدنياً، وعلّمه بحز بسنّه، وأخرج الوكيل من تحت أذيال قفطانه كيساً جلدياً جديداً، وفك رباطه على مهل، وصبَّ بعض النقود الصغيرة في يده، واختار منها قرشاً جديداً.

مدَّ العيّار قبعته المهلهلة ذات الظليلة المتكسرة المرتخية، فوضع ياكوف قرشه، والوكيل قرشه.

قال السيد الوحشي موجهاً كلامه إلى مورغاتش:

- عليك أن تسحب.

ابتسم مورغاتش في رضا، وتناول القبعة بكلتا يديه، وبدأ يرجّها.

ساد صمت عميق في الحال. ورنّ القرشان رنيناً خافتاً، وأحدهما يضرب الآخر. نظرت فيما حولي بإمعان. كان الترقب المتوتر يرتسم على الوجوه جميعاً، والسيد الوحشي نفسه يقلّص عينيه، وحتى جاري الفلاح الصغير ذو الرداء الأوكراني المهلهل مدَّ عنقه بفضول.

أدخل مورغاتش يده في القبعة، وأخرج قرش الوكيل. تنهّد الجميع. واحمرّ ياكوف، بينما مرّر الوكيل يده على شعره. هتف العيّار:

- لقد قلت إن القرعة رست عليك. قلت ذلك.

- طيب، طيب، لا «تصفر»[1] - قال السيد الوحشي بازدراء، وتابع يقول مشيراً برأسه إلى الوكيل: - ابدأ.

١- تصفر العقبان: حين تفزع من شيء. (الملاحظة للمؤلف).

سأل الوكيل وقد ساوره الاضطراب:

- أي أغنية أغني؟

أجاب مورغاتش:

- التي تريدها، غنِّ ما يخطر على بالك.

وأضاف نيقولاي إيفانيتش واضعاً يديه على صدره ببطء:

- التي تريدها، بالطبع. لا إجبار لك في ذلك. غنِّ ما تشاء، فقط أن تغني بشكل حسن، وبعد ذلك سنحكم بما يرضي الضمير.

- بما يرضي الضمير، بالطبع.

التقط العيّار عبارته، ولطع حافة قدحه الفارغ.

- يا إخوان، دعوني أنظف حنجرتي قليلاً.

قال الوكيل متلمّساً بأصابعه ياقة قفطانه. فقال السيد الوحشي في عزم:

- هيا، هيا، لا تتلكأ، ابدأ.

ونكّس رأسه.

فكّر الوكيل قليلاً، ونفض رأسه، وتقدّم إلى الأمام. وغرز ياكوف عينيه فيه...

قبل أن أشرع في وصف المباراة نفسها أرى من غير الزائد أن أقول بعض الكلمات عن كل شخصية من شخصيات قصتي. كانت حياة بعضهم معروفة لي، حين التقيتهم في حانة الملاذ، والبعض الآخر جمعت عنه المعلومات فيما بعد.

ولنبدأ بالعيّار. كان الاسم الحقيقي لهذا الرجل هو يفغراف إيفانونف، ولكن ما من أحد في الضواحي كان يعرفه بغير العيّار، وكان هو يسمي نفسه بهذه الكنية، إذ كانت لائقة به كثيراً. وبالفعل لم يكن أليق منها بملامحه الباهتة المضطربة أبداً. كان خادماً عند أصحاب الأطيان أعزب انغمر في اللذات وتبرأ منه سادته منذ زمان بعيد، ولم يكن له أي عمل، ولا يحصل على أي قرش، ومع ذلك فقد كان يجد الوسيلة في كل يوم ليشرب ويمرح على حساب الآخرين.

وكان له الكثير من المعارف الذين كانوا يقدّمون له الخمرة والشاي، دون أن يعرفوا لماذا ذلك، إذ لم يكن فقط غير مُسلٍ في عشرته، بل ومضجراً للجميع بهذره السخيف، وتطفله غير المحتملَ، وحركاته المحمومة، وقهقهته الدائمة المتكلفة. لم يكن يحسن الغناء ولا الرقص، وطوال عمره لم يقل كلمة ذكية، بل ولا كلمة معقولة، لا شيء غير الهذر والتلفيق كيفما اتفق، فهو على كنيته عيّار مهذار! ومع ذلك فما من وليمة شرب وقصف في دائرة قطرها أربعون فرسخاً، كانت تخلو منه، وبدون أن يدور فيها بين الضيوف بقامته الطويلة الهزيلة، وبهذا الشكل تعود الناس عليه، وتحمّلوا وجوده كشر لا بدّ منه. حقاً كان يعاملونه بازدراء، ولكن السيد الوحشي وحده كان يحسن كبح سوراته السخيفة.

ولم يكن مورغاتش يشبه العيّار في كثير أو قليل. وكانت كنية مورغاتش[1] أيضاً تنطبق عليه، رغم أنه لم يكن يرمش أكثر من الآخرين. وهذه قضية معروفة، فالشعب الروسي مجيد في اختيار الكنى والألقاب. ورغم اجتهادي في استكشاف ماضي هذا الرجل بشكل أوسع، إلاّ أنه بقيت لي، وفي أغلب الظنّ للكثيرين غيري، نقاط غامضة في حياته، أو كما يقول أهل الكتب، مواضع مغلقة بعتمة عميقة من الغموض. لم أعرف سوى أنه كان في وقت من الأوقات، حوذياً لدى سيّدة لا أولاد لها، وهرب مع ثلاثة خيول كانت قد عُهِدت إليه، واختفى عاماً كاملاً، وعاد بنفسه، ربما بعد أن اقتنع واقعياً بما في حياة التشرد من مشاق وعبث، إلاّ أنه عاد أعرج، وارتمى على قدمي سيدته، وبعد سنوات من السلوك المثالي، كفَّر عن جريرته، وكسب حظوتها شيئاً فشيئاً، ونال أخيراً ثقتها التامّة، وصار وكيل أعمالها، وبعد وفاة سيدته أُعتق من القنانة، بطريقة غير معروفة، وصار من طبقة البرجوازيين الصغار، ويأخذ الرشاوى من الجيران، واغتنى، وهو الآن يعيش عيشة مرح ودِعة.

إن هذا الرجل مجرّب، ذو دهاء، لا هو بالخبيث ولا بالطيب، ويحسن الاستفادة منهم. وهو محترس، وواسع الحيلة في الوقت ذاته، كالثعلب. إنه ثرثار كالعجوز، إلاّ أنه لا يكشف عن مكنون نفسه أبداً، بينما يجعل كل

١- بالروسية تعني: مَنْ ترمش أهدافه كثيراً. المعرب.

واحد يبوح بما في نفسه، إلاّ أنه لا يتصنّع السذاجة، كما يفعل كثيرون من الماكرين من صنفه، كما كان من الصعب عليه أن يتصنّع، وأنا لم أر قط عينين أكثر نفاذاً وذكاء من «باصرتيه»[1] الصغيرتين اللعوبتين. إنهما لا تنظران فقط، بل تكتشفان وتستبطنان. ومورغاتش، تارة، يمعن التفكير، أسابيع كاملة، في مشروع ما، بسيط فيما يبدو، وتارة أخرى يقدم فجأة على فعل جسور مقدام - يلوح وكأنه سيذهب بعقله... وإذا بك ترى أن كل شيء قد سلس له، كل شيء سار مسار السكين في الزبدة. إنه سعيد، ويؤمن بسعادته، ويؤمن بالتكهنات.

وهو، بشكل عام، يعتقد بالخرافات كثيراً. والناس لا يحبونه، لأنه هو نفسه لا يهتم بأحد، ولكنهم يحترمونه. وليس له من عائلته غير ابن واحد يحبه إلى حدّ العبادة، ومن المحتمل أنه سيصعد في الحياة، وقد تربى على يدي مثل هذا الأب. ومنذ الآن كان الشيوخ يقولون بصوت خافت، وهم جالسون على الدكات يتحدثون فيما بينهم في أمسيات الصيف: «مورغاتش الصغير طلع على أبيه»، والجميع يفهمون ما يعني ذلك، فلا يضيفون أية كلمة أخرى.

أما عن ياكوف التركي ووكيل العمال فلا حاجة إلى الإفاضة في الحديث طويلاً، كان ياكوف الملقّب بالتركي، بسبب انحداره فعلاً من امرأة تركية أسيرة، فناناً بروحه في كل ما تحمل هذه الكلمة من معانٍ، ولكنه في حرفته غرّاف في معمل للورق يملكه تاجر.

أما الوكيل الذي اعترف بأن قَدَره بقي مجهولاً لي، فقد بدا لي رجلاً من أهل المدن حاذقاً جمّ النشاط. ولكن ينبغي التحدث عن السيد الوحشي في شيء من التفصيل.

كان الانطباع الأوّل الذي تركه مظهر هذا الرجل فيك، هو الإحساس بقوة فظّة ثقيلة لا تكبح. كان غير متناسق البنيان «مرصوصاً» كما يقال عندنا، ولكن عافية جامحة كانت تشع منه، ومن الغريب أيضاً أن حركات

١- يسمي أهل أوريل العينين بـ«الباصرتين»، مثلما يسمّون الفم بـ«الأكّال». (الملاحظة للمؤلف).

جسده الضخم لم تكن تعوزها الرشاقة المتفردة المنبعثة، ربما من الثقة المطمئنة تماماً بجبروته. وفي الوهلة الأولى كان يصعب تعيين الفئة التي ينتمي إليها هذا «الهرقل»، فهو لا يشبه قناً من خدم الأعيان، ولا رجلاً من أهل المدن، ولا موظفاً متقاعداً كلكل عليه الدهر ولا واحداً من الملاكين الصغار أصيب بالإفلاس، مولعاً بكلاب الصيد وشغوفاً بالعراك. بل كان متفرداً في ذاته. لا أحد كان يعرف من أين جاء إلى قضائنا.

كان يقال إنه ينحدر من عائلة من الموظفين المالكين لقطع صغيرة من الأرض[1]، وقد شغل وظيفة في الماضي، على ما يزعم، ولكن لم يُعرف عنه شيء على وجه التحديد، ثم من أين يُعرف عنه، وهل يُعرف منه؟ وهو الرجل الأكثر صمتاً وجهامة. كما لا أحد كان يعرف، علي وجه التحديد، من أين يأتي رزقه؟ فهو لا يمارس أية حرفة، ولا يقصد أحداً، وليس في معية أحد، بينما كانت لديه فلوس، قليلة حقاً، ولكنها فلوس. و لم يكن في مسلكه متواضعاً – لم يكن فيه شيء متواضع مطلقاً – ولكنه هادئ، وكان يعيش وكأنه لا يلحظ أحداً فيما حوله، ولا يحتاج إلى أحد على الإطلاق.

كان السيد الوحشي (وهذه كنيته، بينما كان اسمه الحقيقي بيريفليسوف) يتمتع بنفوذ هائل في كل المنطقة. وكان يُطاع فوراً، وعن طواعية، رغم أنه لم يكن يملك أي حق في إصدار الأوامر لأي شخص كان، ولكن حتى هو نفسه لم يكن يبدي أقل ادعاء في أن يطيعه الذي صادف وأن احتك بهم. كان يكفيه أن يقول، فيخضعون له، لأن القوة لها اليد الطولى دائماً. كان لا يشرب الخمرة تقريباً، ولا يصاحب النساء، وله هوى شديد في الغناء. لقد كان في هذا الرجل الكثير من اللغز، وكان يبدو كما لو كانت قوى هائلة تكمن فيه على نحو جهوم، وكأنما كانت تعرف أنها لو استيقظت، وأفلتت من عقالها فإنها ستدمر نفسها وكل ما تمسه. وسأكون على خطأ

١- الترجمة الحرفية هي صاحب قطعة أرض واحدة، وهو في نظام القنانة في روسيا شخص كان ينحدر من مرتبة واطئة من الموظفين، ويملك أرضاً صغيرة تتألف عادة من استثمارة واحدة، كما كان له الحق في امتلاك الفلاحين. إلا أنه (منذ القرن الثامن عشر) فرض عليه دفع الضريبة على كل نفس شأنه شأن الفلاحين.

فظ، إذا تصوّرت أن في حياة هذا الرجل لم يحصل مثل هذا الانفجار، وإذا لم يكن، وهو الذي علمته التجربة، وأوشك على الهلاك، استطاع أن يمسك نفسه الآن، بغاية من الصرامة. وكان يبهرني فيه، بشكل خاص، ذلك المزيج من الضراوة الطبيعية المولود بها، والنبل المولود به أيضاً - المزيج الذي لم يصادفني في أي شخص آخر.

تقدم الوكيل إلى الأمام، إذن، وأغمض عينيه نصف إغماض، وغنى بصوت عالي الطبقة جداً. كان صوته على قدر كاف من اللذاذة والحلاوة، رغم بحته بعض الشيء. وكان يلعب ويداور بهذا الصوت كما يلعبون بدوامة، ويماوج بلا انقطاع، ويهبط من الأعلى إلى الأسفل، ويعود دائماً إلى النبرات العليا التي كان يحافظ عليها، ويطيلها بسعي بارز، ويسكت، وبعد ذلك وفجأة يلتقط النغمة السابقة باندفاع جسور جارف. كانت انتقالاته أحياناً جريئة جداً، وأحياناً مسلية جداً، لو استمع إليها خبير لحصل على الكثير من المتعة، ولو استمع إليها ألماني لتميّز حنقاً منها. كان tenore grazia، ténor léger[1] روسي. غنى أغنية مرحلة راقصة كانت كلماتها، كما يلي على قدر ما استطعت أن ألتقطها من خلال عدد كبير من الزخرفة والهتافات التي صاحبت أغنية.

سأحرث أرضي الصغيرة
يا فتاي الفتى
وأزرع لك زهرة حمراء
يا فتاي الفتى[2]

غنى، والجميع يصغون له بانتباه كبير. والظاهر أنه كان يحس بأن المستمعين إليه أناس ضليعون في هذا المضمار، ولهذا كان يجهد جهده حتى لكأن روحه ستخرج من حنجرته، حسب التعبير الشائع. وبالفعل كان الناس في أصقاعنا يفهمون في الغناء، فلا عجب أن تشتهر في روسيا كلها،

١- تينور غنائي (بالايطالية والفرنسية). والتينور طبقة قوية للرجال. المعرب.

٢- أغنية روسية غنائية شعبية واسعة الانتشار، لها نغم راقص. نشرت لأول مرة في عام ١٧٧٠.

قرية سيرغييفسكويه[1]، الواقعة على طريق أوريل الكبيرة بنغمها الصدّاح الممتع. غنى الوكيل وقتاً طويلاً، دون أن يثير في مستمعيه تعاطفاً بالغ الحد، فقد كان ينقصه سند من جوقة تصاحبه.

وأخيراً، وعند نقلة موفقة بشكل خاص جعلت السيد الوحشي نفسه يتسم، لم يضبط العيّار نفسه، وصرخ من المتعة. اضطرب الجميع. وبدأ العيّار ومورغاتش يترنمان في اللحن بصوت خافض، وينضمان إلى المغني، ويصيحان: «شطارة!.. اصعد، اصعد، أطل، يا أفعوان، أطل أكثر! في حماس أكثر، يا كلب، يا سلوقي! ليقتل هيرودس نفسك!». وعلى هذا المنوال.

كان نيقولاي إيفانيتش يدير رأسه يميناً ويساراً وراء المنصة استحساناً. وأخيراً أخذ العيّار يطبطب بقدميه، ويراوح بخطوه، ويهز كتفيه. أما ياكوف فأخذت عيناه تتوهجان كالجمر، وكان يرتجف كورقة من أوراق الشجر، ويبتسم باختلال. والسيد الوحشي وحده لم يتغير وجهه، وبقي كالسابق لا يتحرك من مكانه، إلا أن نظرته المتفرسة في الوكيل قد رقّت قليلاً، رغم أن الازدراء بقي مرتسماً على شفتيه.

تشجع الوكيل بأمارات الرضى العام، فاشتد به الحماس حتى أخذ يصدر لولبات صوتية، ويداور ويتمطق بلسانه، ويلاعب حنجرته، وأخيراً أنهك وشحب وتصبب عرقاً حاراً، وأطلق الصداح الأخير المتلاشي، فردّ عليه هتاف عارم محبوك عام. ارتمى العيّار على عنقه وأخذ يطوقه بذراعيه الطويلتين العظيمتين، واصطبغ وجه نيقولاي إيفانيتش السمين بحمرة، وبدا وكأنه قد عاد إلى شبابه. وراح ياكوف يهتف كالمجنون «شاطر، شاطر!»، وحتى جاري، الفلاح ذو الرداء المهلهل لم يصطبر، وضرب بقبضته الطاولة، وصاح: «أها! لطيف، وحق الشيطان، لطيف!» وبصق في ناحية بحماس.

– طيب، يا أخ، أمتعتنا! – صاح العيّار دون أن يطلق الوكيل المنهك من طوق ذراعيه – أمتعتنا ولا شك! الفوز لك، يا أخ، الفوز لك! أهنئك. حصة النبيذ لك! سبقت ياشكا بشوط بعيد... أؤكد لك، بشوط بعيد... صدقني! (ومرة أخرى ضغط الوكيل على صدره).

١– هي الآن مدينة بلافسك في الطريق من تولا إلى أوريل.

قال مورغاتش بانزعاج:

– ولكن أطلقه، أطلقه، يا لزقة...

دعه يجلس على المقعد، فهو تعبان، كما ترى. يا لك من مغفل، يا أخ، مغفل حقاً. ما لك لصقت به كالقشة المبللة؟

– لا اعتراض، فليجلس، وسأشرب نخب صحته – قال العيّار ذلك، وتقدّم من منصّة الحانة، وأضاف مخاطباً الوكيل – على حسابك، يا أخ.

هزّ هذا رأسه، وجلس على المقعد، وأخرج من قبعته فوطة، وراح يمسح وجهه، بينما شرب العيّار قدح النبيذ بنهم عجول، وعلى عادة السكارى الميؤوس منهم تأوه، واتخذ مظهر مكسور الخاطر.

قال نيقولاي إيفانيتش برقة:

– غناؤك جميل، يا أخ، جميل. والآن جاء دورك، يا ياكوف. فحذار أن تتخوف. وسنرى مَنْ يفوز على الآخر، سنرى...

ولكن الوكيل يغني جيداً، والله العظيم، يغني جيداً.

– واضح أنه يغني جيداً.

لاحظت زوجة نيقولاي إيفانيتش ذلك، ورمقت ياكوف بابتسامة.

فردّد جاري بصوت خافض:

– جيد، نعم!

– بوليخي متوحش![1] – زعق العيّار فجأة، وتقدم من الفلاح المثقوب الرداء عند الكتف، وصوّب إليه أصبعه، وقفز، وانفجر في قهقهة مرتجة – بوليخي! متوحش! لماذا تشرفت بالمجيء، يا متوحش؟ – صاح من خلال الضحك.

اضطرب الفلاح المسكين، وتهيأ للنهوض والانصراف في الحال، وإذا بصوت السيد الوحشي القوي يهدر:

١– بوليخي: يطلق على سكان بوليسيه الجنوبية، وهي شريط طويل من الغابات، يبدأ على حدود قضاءي بولخوف وجيزدرا. وهم يتميّزون بخصائص كثيرة في نمط الحياة والأخلاق واللغة. ويسمون بالمتوحشين بسبب خلقهم المرتاب الصعب. (الملاحظة للمؤلف).

– أي حيوان لا يطاق أنت؟

قال ذلك كازاً على أسنانه، فتمتم العيّار:

– لا شيء، أنا لم... أنا...

فقال السيد الوحشي:

– طيب، اسكت، إذن! ابدأ، يا ياكوف!

أمسك ياكوف حنجرته بيده.

– ماذا، يا أخ، عن... ماذا... حم. حقاً لا أعرف، عن أي...

– طيب، كفى، لا ترتعب. اخجل من نفسك! ما هذه المداورة؟.. غنِّ، كما يأمرك الرب.

وأطرق السيد الوحشي برأسه في انتظار.

صمت ياكوف قليلاً، ونظر فيما حوله، وغطى وجهه بيده. ثبّت الجميع أبصارهم فيه، لا سيّما الوكيل، الذي ظهر على وجهه قلق خفيف لاإرادي، من خلال ثقته الاعتيادية بالنفس، ونشوة الانتصار. اتكأ على الحائط، ووضع يديه تحته مرة أخرى، ولكن دون أن يؤرجح قدميه. وعندما كشف ياكوف عن وجهه أخيراً، كان وجهه شاحباً كوجه الميت، وعيناه لا تكادان تلمعان من تحت رموشه المسبلة. أرسل زفرة عميقة، وشرع يغني... كانت رنة صوته الأولى ضعيفة وغير منسقة، بدت وكأنها لم تكن تخرج من صدره، بل دخلت الغرفة عرضاً مترامية من مكان بعيد. وترك هذا الصوت المهتز المرن تأثيراً غريباً على الجميع، فنظر بعضنا إلى بعض، وتنبهت زوجة نيقولاي إيفانيتش وانتصبت بجذعها على نحو ملحوظ. وتبعت هذه الرنة رنة أخرى أكثر تماسكاً واستطالة، ولكن الاهتزاز لم يزايلها في الظاهر، وكالوتر بعد أن يرسل الرنين من تحت أصبع قوية راحت تتذبذب ذبذبة متلاشية بسرعة، وأعقبت الرنة الثانية ثالثة، والتهبت أغنية نائحة، بتوهج واتساع: «كانت في الحقل دروب كثيرة»[1].

١– أغنية شعبية رخيمة نشرت في مجموعات الأغاني في العقد الرابع من القرن التاسع عشر، وحظيت بشعبية فائقة. (الناشر).

غنى وشعرنا جميعاً بلذة ورهبة. أعترف بأنني نادراً ما سمعت مثل هذا الصوت. كان مهشّماً قليلاً ويرن كالمتصدع، بل ولاح في البداية، معتلاً، ولكنه كان ينطوي على عاطفة عميقة، وفتوة، وقوة، وحلاوة، ولوعة جذابة في رخاوتها، وحزينة. كانت الروح الروسية الحقة الحارة ترن وتعبق فيه، حتى ليستولي على قلبك، على أوتاره الروسية. وقويت الأغنية، وترامت. ومن الواضح أن الغناء أسر ياكوف، فلم يعد يتهيب، واستسلم بكليته إلى توفيقه فيه وكفّ صوته عن الاهتزاز، ولكنه كان يرتعش تلك الرعشة الباطنية التي لا تكاد تلحظ وتأتي من جيشان العاطفة وتنفذ إلى قلوب المستمعين كالسهم، وظلّ يقوي بلا انقطاع، ويشتد، ويتسع.

أتذكر أنني رأيت، ذات مساء، أثناء الجزر، وعلى الساحل الرملي المنبسط للبحر الهادر بوعيد وثقل، نورساً أبيض كبيراً، كان يحط بلا حراك، وهو يشرع صدره الحريري لألق الغسق الأحمر، ومن حين لآخر فقط يبسط جناحيه الطويلين ببطء بمواجهة البحر الأليف له، بمواجهة الشمس القرمزية المنخفضة، وقد تذكرته، وأنا أستمع إلى ياكوف. غنى وقد نسي تماماً منافسه وكلنا جميعاً، محمولاً على ما يبدو، بمشاركتنا العاطفية الصامتة، مثلما تحمل الأمواج السبّاح النشيط. غنى، وقد انبعث من كل رنة من رنات صوته شيء حبيب رحب، مثلما ينداح أمامنا سهب مألوف موغلاً في المدى البعيد. وشعرت بالعبرات تغلي في قلبي، وتصعد إلى عيني، وفجأة أذهلتني نشجات جافة مكتومة...

التفت، فرأيت زوجة صاحب الحانة تبكي، وقد ضغطت صدرها على النافذة. ألقى ياكوف عليها نظرة سريعة، وراح يُغني بصوت أقوى وأشهى من ذي قبل. أطرق نيقولاي إيفانيتش، وأشاح مورغاتش بوجهه، ووقف العيّار متأثراً كلياً، فاغراً فمه كالأبله، ونشج الفلاح الصغير بخفوت في الركن، ونادى برأسه بهمهمة مريرة. وتحدرت دمعة ثقيلة في بطء على وجه السيد الوحشي الحديدي من تحت حاجبيه المقطبين تماماً، ورفع الوكيل قبضته إلى جبينه، وجمد لا يريم حراكاً... ولا أعرف بما كان سينتهي الغمّ الشامل، لو لم يختتم ياكوف غناءه بصوت عالٍ رفيع النبرة بشكل غير اعتيادي، وكأن صوته قد تقطع. لم يصرخ أحد، بل ولم تصدر ململة، وكأن الجميع كانوا ينتظرون

هل سيمضي في الغناء، غير أنه فتح عينيه وكأنما أدهشه صمتنا، وأجال في الجميع نظرة متسائلة، ورأى في كل الوجوه أن النصر كان حليفه...

- ياشا!

نطق السيد الوحشي، ووضع يده على كتفه، وصمت.

وقفنا جميعاً مبهورين. ونهض الوكيل بهدوء، وتقدم من ياكوف. «أنت... أغنيتك... ربحت الرهان» - نطق أخيراً بصعوبة، واندفع تاركاً الغرفة.

وكأن حركته السريعة المصممة أبطلت السحر، فأخذ الجميع يتحدثون فجأة بصخب وابتهاج. وراح العيّار ينط، ويهمهم، ويدير ذراعيه، كما تدير الطاحونة أذرعها. وتقدّم مورغاتش من ياكوف يقزل، وراح يقبله. ورفع نيقولاي إيفانيتش جسمه، وأعلن على الناس أنه يضيف من نفسه حصة أخرى من البيرة. وضحك السيد الوحشي ضحكة سمحاء لم أتوقع قط أن أصادفها على وجهه، وكان الفلاح الصغير يردد في ركنه من حين إلى آخر، وهو يمسح عينيه، وخديه، وأنفه، ولحيته بكلا كميه: «أوه، لطيف، والله لطيف، سأكون ابن كلب، إن يكن غير لطيف!» أما زوجة نيقولاي إيفانيتش، فقد نهضت بسرعة. وقد اصطبغت بحمرة كلياً، وانصرفت. تلذّذ ياكوف بفوزه كالطفل، وتغير وجهه كله، لا سيّما عينيه اللتين تألقتا سعادة بالغة. جروه إلى منصة الحانة، فأومأ إلى الفلاح الصغير الباكي يدعوه إليه، وأرسل ابن صاحب الحانة ليدعو الوكيل، ولكن هذا لم يجده، وبدأ الشرب. «ستغني لنا المزيد، ستغني لنا إلى المساء» أكّد العيّار رافعاً ذراعيه عالياً.

نظرت ثانية إلى ياكوف، وخرجت. لم أرد أن أمكث، فقد خشيت أن أفسد انطباعي. إلا أن القيظ كان ضارياً كما من قبل. كان يبدو وكأنه يكلكل على الأرض تماماً كطبقة كثيفة ثقيلة. ولاحت أنوار وضيئة دقيقة وكأنها تدور في السماء الداكنة الزرقة من خلال نقاب رقيق جداً من الغبار أسود تقريباً. وصمت كل شيء. وكان في هذا الصمت العميق للطبيعة المُنهكة شيء مسحوق لا أمل فيه. صعدت على مستودع للتبن، واستلقيت على عشب محصود لتوه، إلاّ أنه قد جف تقريباً. لم يراودني النعاس وقتاً طويلاً،

فقد ظل صوت ياكوف الذي لا يمكن وصفه يطن في أذني وقتاً طويلاً... ولكن الحر والتعب غلباني أخيراً، فغرقت في نوم عميق. وعندما استيقظت كان الظلام قد خيّم، والعشب المتناثر حولي يفوح برائحة قوية، وقد تبلّل قليلاً، وكانت النجوم الشاحبة تومض بوهن من خلال العوارض الخشبية الدقيقة للسطح المغطى بشكل سيئ.

خرجت، كان الشفق قد خَفَت منذ وقت طويل، وأثره الأخير لا يكاد يبين على القبة السماوية، إلاّ أن الدفء ما يزال يتنفّس من خلال طراوة اللّيل في الهواء الذي كان الحرّ يلهبه منذ قليل، وصدري ما يزال متعطشاً إلى نسمة باردة. كان الجوّ بلا ريح، وما من سحابة أيضاً، والسماء فيما حولي صافية شفافة داكنة تتوامض فيها بخفوت نجوم لا حصر لها، ولكن لا تكاد تلوح. كانت الأنوار تتراقص باهتة في القرية، ومن الحانة غير البعيدة، الساطعة النور يترامى طنين مشوش غامض، بدا لي وكأنني أسمع في غضونه صوت ياكوف. وأحياناً كان الضحك ينطلق من هناك متفجراً.

تقدّمت من النافذة الصغيرة، ووضعت وجهي على زجاجها. فرأيت صورة غير بهيجة رغم أنها حيّة وحافلة: كان الجميع سكارى، الجميع ابتداء من ياكوف. كان هذا يجلس على مصطبة عاري الصدر، يغني بصوت أبح أغنية راقصة من أغاني الشارع، وهو يضرب ويلاعب أوتار القيثارة بكسل، وشعره المبلل يتدلى خصلات على وجهه المتقع على نحو رهيب. وفي وسط الحانة كان العيّار وقد «تفكك» كلياً وخلع قفطانه يرقص وينط أمام الفلاح ذي الرداء الممزق، وكان الفلاح، بدوره، يطبطب بصعوبة، ويشحط بقدميه المرتخيتين، مبتسماً ابتسامة لا معنى لها من خلال لحيته المشعّثة، ويلوح بذراعه من حين لآخر، وكأنما يريد أن يقول: «ليكن ما يكون!»، وما من شيء كان يجاري وجهه في الإضحاك، إذ مهما حاول أن يرفع حاجبيه كان جفناه المثقلين لا يريدان أن ينفرجا، فبقيا على حالهما مسبلين على عينين لا تكادان تلوحان، ذابلتين وإن كانتا متلذذتين.

كان في تلك الحال من الرقة التي يكون عليها رجل سكر تماماً، فكل رجل ينظر في وجهه يقول بالتأكيد: «نشوة، يا أخ، نشوة!». وكان مورغاتش

يتسم في زاوية ابتسامة سامة، وقد احمرّ كالسرطان، وانفتح منخراه منفرجين. ونيقولاي إيفانيتش وحده، بقي محافظاً على برودة أعصابه الثابتة، كما ينبغي لصاحب حانة حقيقي. وكانت الحانة حافلة بأشخاص جدد، إلا أنني لم أر السيد الوحشي بين الحاضرين.

استدرت، وأخذت أنحدر سريع الخطى من التل الذي كانت تقع عليه قرية كولوتوفكا. وعند قدم هذا التل ينبسط سهل واسع، بدا وقد التفّ بالموجات الظلماء لضباب المساء أكثر تراميأ، وكأنما قد اندمج بالسماء الآخذة بالإظلام. نزلت بخطى واسعة في الطريق بمحاذاة الوهدة، وإذا بي أسمع صوت صبي رناناً في مكان بعيد في السهل ينادي: «أنتروبكا! أنتروبكـ..ـا...ـا!».

ظل يصيح باستماتة ملحاحة ناحبة لوقت طويل، وطويل جداً، ممداً المقطع الأخير.

صمت لحظات، وعاد إلى الصياح مرّة أخرى. كان صوته يترامى رناناً في الهواء الراكد الهاجع قليلاً. صاح مردداً اسم أنتروبكا ثلاثين مرة على الأقل، وفجأة أجابه صوت لا يكاد يسمع، صادر من الطرف المقابل للسهل، وكأنه صادر من عالم آخر:

- ما... ذا !!!؟

وفي الحال ارتفع صوت الصبي باحتدام فرح:

- تعال هنا، يا عفريت الغا... بة ـة ـة!

ردَّ هذا بعد وقت طويل:

- ولما ذا!!!؟

فأسرع الصوت الأول بالرد عليه:

- لأن بابا يريد أن يضر بـ.. ـك.

لم يرد الصوت الثاني بعد هذا، فعاد الصبي ينادي أنتروبكا. وظلّت هتافاته تبلغ مسمعي أقل وأخفت، حتى بعد أن ساد الظلام تماماً، واتخذت مساري على حافة الغافة المحيطة بقريتي، والممتدة أربعة فراسخ بعد كولوتوفكا...

ظلت «أنترو بكـ.. ـا ـا!» تتردّد في الهواء، الغارق في ظلم اللّيل.

اللقاءات الثلاثة(١)

Passa que'colli e vieni allegramente;
Non ti curar di tanta compagnia –
Vieni‹ pensando a me segretamente –
Ch'io t'accompagni per tutta la via(2).

١– «اللقاءات الثلاثة»: هي إحدى القصص الطويلة المبكرة لتورغينيف. إلا أن هذه القصص المبكرة التي أعقبت «مذكرات صياد» والتي أثارت نجاحاً عاصفاً، تستحق التفات القارئ. فهي تؤلف مرحلة مهمّة وضرورية في السيرة الإبداعية للكاتب الكبير، حين تتكوّن طريقته وأسلوبه.

كان تورغينيف في رسائل لأشخاص مختلفين يصف قصة «اللقاءات الثلاثة» بأنها «قصة تافهة» و«قطعة صغيرة فارغة».

إلا أن نيكراسوف الشاعر الروسي العظيم ومحرر مجلة «سوفريمينيك» كان يرى في هذه «القطعة الصغيرة الفارغة» أمارة سارة جداً على أن تورغينيف في سبيله إلى أن يجد طريقه الخاص. وقد لاحظ نيكراسوف في رسالته إلى تورغينيف، وهو يتحدث عن هذه القصة أن «نغمتها مدهشة، لهجة حزن عاطفي عميق. وهذا ما أراه: إنك شاعر أكثر من كل الكتاب الروس بعد بوشكين قاطبة... أرجوك أن تعيد قراءة «اللقاءات الثلاثة» وتتوغل في أعماق نفسك، في الشباب، في الحب، في سورات الصبا غير المحددة والرائعة في جنونها، في تلك اللوعة بلا لوعة، وأن تكتب شيئاً على هذه النغمة. أنت نفسك لا تعرف أي أصوات تتدفق، حين يحالفك الحظ فتمسك هذه الأوتار لقلب حافل – مثل قلبك – بالحب والعذاب وكل تمسك بالمثل».

نشرت هذه القصة لأول مرة، في العدد الثاني من مجلة «سوفريمينيك»، عام ١٨٥٢.

٢– اقطع هذه التلال، وتعال إليّ مرحاً، ولا يهمك المجموع الكبير، تعال لوحدك، وفكر فيّ، طوال الطريق، لأكون رفيقة لك في الطريق كله. (الملاحظة للمؤلف).

- ١ -

خلال الصيف لم أخرج للصيد إلى أي مكان بقدر خروجي إلى قرية غلينويه الواقعة على بعد عشرين فرسخاً عن قريتي. إذ توجد بالقرب من تلك القرية أماكن للصيد، ربما هي أفضل الأماكن في قضائنا كله. وكنت، بعد تجوالي في كل الأجمات والحقول المحيطة، أعرج، لا محالة، في نهاية النهار، على المستنقع الوحيد تقريباً، الموجود في الجوار، ومن هناك أعود إلى مضيّفي الحفي عمدة غلينويه الذي أنزل في بيته دائماً.

وغلينويه تبعد عن المستنقع مسافة فرسخين، والطريق كلّه يحاذي منخفضاً، وفي منتصفه فقط يضطر العابر أن يرتقي تلاً صغيراً تقع في قمته ضيعة ليس فيها غير بيت مهجور من بيوت الأسياد وحديقة. وكان يصادف دائماً تقريباً أن أمرّ بها في ذروة الغروب، وأتذكر أنني، في كل مرة، كنت أتصوّر هذا البيت بنوافذه المحكمة الإغلاق عجوزاً أعمى خرج ليتدفأ في الشمس. فهو، المسكين، قابع قرب الطريق، وقد اختفى ألق الشمس بالنسبة له منذ زمن بعيد، وحلّت محلّه ظلمة أبدية، إلاّ أنه يتحسّس بهذا الألق، في الأقل، على وجهه المرفوع قليلاً والممدود، وخديه المتدفئين، وكان يبدو وكأن أحداً لم يسكن هذا البيت منذ زمن طويل. ولكن المبنى الصغير الملحق به، والقائم في فنائه كان يقيم فيه قن معتوق شائخ طويل محدودب أشيب، قسمات وجهه معبّرة وجامدة.

كنت أراه جالساً طوال الوقت على مقعد أمام نافذة المبنى الوحيدة، يحدق في البعيد باستغراق حزين. وكان، حين يراني، يرفع جسمه قليلاً عن المقعد، وينحني بتلك العظمة المتباطئة التي يتميز بها الخدم الشيوخ المنتمين لا إلى جيل آبائنا، بل إلى جيل أجدادنا. وكنت أبادره بالكلام، إلا أنه لم يكن محباً له، فلم أعرف منه غير أن الضيعة التي كان يقيم فيها كانت ملكاً لحفيدة سيده القديم، وهي أرملة كانت لها أخت صغرى، وكلتاهما تعيش في المدن، وفيما وراء البحر فضلاً عن ذلك، ولا تزور البيت، وأنه هو نفسه يفضل أن يحين أجَله، لأنك «تمضغ الخبز وتمضغ، حتى يصيبك الضيق من طول الزمن الذي انقضى عليك وأنت تمضغ». وكان هذا العجوز يسمى لوكيانتش.

وذات مرة تأخرت في الحقل طويلاً، فقد كان الصيد وفيراً، والنهار مناسباً جداً للصيد، هادئاً منذ الصباح ورمادياً، وكأن المساء تغلغل في ثناياه كله. توغلت بعيداً، حتى خيّم الظلام تماماً، بل وطلع القمر، وكان الليل، كما يقال، قد عسكر في السماء منذ زمان، حين بلغت الضيعة المألوفة. واضطررت أن أسير بمحاذاة الحديقة... فيما حولي كان سكون، وأي سكون...

عبرت الطريق العريضة، وشققت طريقي بحذر خلال القراص المغبر، واتكأت على السياج الواطئ من الأغصان المضفورة. كانت تنبسط أمامي حديقة صغيرة لا حركة فيها مضاءة كلها، كالهاجعة في أشعة القمر الفضية، ومتضوعة تماماً، ورطبة، وقد خططت حسب العادة القديمة على شكل منبسط مستطيل. وكانت ممراتها المستقيمة تلتقي في وسط هذا المنبسط تماماً بحوض مستدير للزهور نما فيه الأسطر بكثافة، وكانت أشجار الزيزفون العالية تحيط به كطوق مستوٍ ليست فيه غير ثغرة بعرض ذراعين تقريباً، كان يلوح منها جزء من بيت واطئ له نافذتان رأيتهما مضاءتين فاندهشت. وكانت أشجار التفاح الفتية ترتفع فوق المنبسط، والسماء الليلية تلوح وديعة من خلال أغصانها الهزيلة، وينهمر ضوء القمر الناعس. وأمام كل شجرة تفاح كان ظلّها النحيل المبرقش يرتمي على العشب المبيّض. كانت أشجار الزيزفون في أحد جانبي الحديقة مخضرة اخضراراً كدراً، ومسربلة بضوء شاحب اللمعان جامد، وفي الجانب الآخر سوداء كلها وصماء. وكانت خشخشة مكتومة غريبة تصدر، من حين لآخر، في أوراقها المكتظة، وكأنما كانت تدعوك إلى الممرات المتلاشية تحتها، كأنما تغريك لتلوذ تحت كنفها الوثير. كانت السماء كلها مرصعة بالنجوم، التي كان ينهمر من عليائها بغموض رفيف أزرق ناعم، وكأنما كانت تنظر إلى الأرض البعيدة بانتباه هادئ. وكانت الغيوم الصغيرة النحيفة، حين تحجب القمر، تحيل لمعانه الهادئ، للحظة، إلى ضباب مبهم ولكنه منوّر...

كان كل شيء هاجعاً، والهواء المشبع بالدفء والشذى لم تسر فيه حتى هبة نسيم، إلا أنه كان يهتز، من حين لآخر، كما يهتز الماء عند وقوع غصن فيه... وكان المرء يحس وكأن في الهواء ظمأ، رعشة... انحنيت على

السياج، فرأيت أمامي زهرة خشخاش برية حمراء تنهض بعودها المستقيم من العشب المهمل، وقطرة كبيرة مستديرة من ندى الليل تلمع لمعاناً داكناً في قعر هذه الزهرة المفتوحة. لقد هجع كل شيء فيما حولي ورقّ كأنما كان يتطلّع إلى الأعلى، مشرئباً، جامداً، مترقباً... فماذا كان ينتظر هذا الليل الدافئ، هذا الليل الناعس؟

كان ينتظر صوتاً، كان هذا السكون المرهف ينتظر صوتاً حياً، ولكن كل شيء قد صمت. كفت البلابل عن الصداح منذ زمن طويل... والصرير المباغت لجندب عابر، والمطقة الخفيفة لسمكة صغيرة في حوض السمك وراء أشجار الزيزفون، في نهاية الحديقة، والصفير الناعس لطائر جافل، والصياح القصي في الحقل إلى درجة أن الأذن لم تكن تُميّز أكان ذلك صياح إنسان، أم حيوان بري، أم طائر – والطبطبة القصيرة السريعة على الطريق، كل هذه الأصوات الضعيفة، كل هذه الخشخشات لم تزد السكون إلا عمقاً... أثقل على قلبي شعور غير واضح شبيه بما بين انتظار سعادة وتذكرها، فلم أستطع أن أتململ، ووقفت بلا حراك أمام هذه الحديقة الجامدة المغمورة بضوء القمر وبالندى، وأنا نفسي لا أعترف لماذا ظللت أتفرس في تينك النافذتين المحمرتين احمراراً كامداً في الظل الباهت الرقيق، وفجأة صدر لحن من البيت، صدر وسرى كالموجة... ردد الهواء المرن المستثار رجعَ صداه... وجفلت لا إرادياً.

وأعقب اللحن صوت نسائي... أرهفت سمعي بنهم و... هل في وسعي أن أعبر عن اندهاشي؟.. قبل عامين سمعت في سورنتو، في إيطاليا، الأغنية نفسها، و الصوت نفسه... نعم، نعم...

Vieni، pensando a me segretamente...

إنها هي، لقد عرفتها، إنها تلك الأصوات... وإليكم ما حدث آنذاك. كنت راجعاً إلى البيت بعد نزهة طويلة على ساحل البحر. سرت في الشارع مسرعاً، وقد خيّم الليل منذ وقت طويل – ليل بهي، جنوبي، غير هادئ، ومستغرق حزين، مثل الليل عندنا، لا! وضّاء كله، ومترف وجميل، مثل امرأة سعيدة في زهرة العمر، وكان القمر ينير ساطعاً على نحو لا يصدق،

والنجوم الكبيرة المشعة ماضية في توامضها الحرك في السماء الداكنة الزرقة، والظلال السود تبرز بحدة على الأرض المضاءة إلى حدّ الصفرة. وعلى جانبي الشارع كانت تمتد أسيجة الحدائق الحجرية، وأشجار البرتقال ترفع فوقها أغصانها المعوجة، وثمارها الثقيلة ككرات من الذهب لا تكاد تلوح تارة مختفية بين الأوراق الملتفة، وتبرز تارة ساطعة اللون طالعة إلى القمر بأبهة.

وكانت الزهور تبدو في لون أبيض رقيق في أشجار كثيرة، والهواء كلّه مضمخ بأريج قوي على نحو مرهق، حاد وثقيل تقريباً، رغم عذوبته التي لا توصف. سرت، وقد ألفت - وأعترف بذلك، - كل هذه العجائب، وصرت لا أفكر بغير الوصول إلى فندقي في أقرب وقت، وإذا بي أسمع صوتاً نسائياً من جناح صغير مبني فوق حائط الحديقة الذي كنت أغذ السير بمحاذاته. وكان هذا الصوت يغني أغنية لا أعرفها، وفي ألحانه شيء آسر تماماً، وذلك الصوت نفسه بدا مشبعاً بالترقب الواله والبهيج المصبوب في كلمات الأغنية، حتى إنني توقفت في الحال، دون إرادتي، ورفعت رأسي. كان في الجناح نافذتان، إلا أن الصفّاقتين كانتا مطبقتين عليهما، وثمّة ضوء شاحب ينصب، بضَنَك، من خلال الخصاص الضيقة. ردد الصوت vieni، vieni مرتين، وسكتَ. وتردد رنين خفيف لأوتار تشبه أوتار قيثار وقع على بساط، وخشخش ثوب نسائي، وصرّت أرضية الغرفة صريراً خافتاً. واختفت خطوط الضوء في إحدى النافذتين...

وأقبل شخص من الداخل، واتكأ عليها. خطوت خطوتين إلى الوراء. وفجأة دقت الصفاقتان، وانفتحتا، وأخرجت امرأة هيفاء في ثياب بيض، رأسها الفتّان من النافذة بسرعة، ومدّت ذراعيها إليّ، وقالت: «Sei tu?»[1] ذُهلت، ولم أعرف ماذا أقول، إلاّ أن المرأة المجهولة ارتدت إلى الوراء، في اللَحظة نفسها، مرسلة صيحة خافتة، وانطبقت الصفاقتان، وخفت الضوء في الجناح أكثر من ذي قبل، وكأنما نُقِل إلى غرفة أخرى. بقيت جامداً، ولوقت طويل لم أستطع أن أفيق على نفسي.

كان وجه المرأة التي ظهرت أمامي فجأة جميلاً إلى حدٍّ مذهل، وقد مرّ

١- «أهذا أنت؟» (بالايطالية في الأصل).

أمام عيني بسرعة خاطفة جداً لم تدعني أتذكر في الحال كل قسمة من قسماته على انفراد، إلاّ أن الانطباع العام كان قوياً وعميقاً إلى حدٍّ لا يوصف... آنذاك، أيضاً أحسست بأن ذلك الوجه لن أنساه طول عمري.

كان نور البدر ينسكب على جدار الجناح، على تلك النافذة التي أطلت عليّ منها، ويا إلهي! كم كان بهياً في ألق البدر، لمعان عينيها الكبيرتين الداكنتين! وكيف انسرح شعرها الأسود نصف المحلول، كالموجة الثقيلة على كتفها المدور المرفوع! وكم كان من دِعة خَفِرة في الانعطاف الناعم لقوامها، وكم من رقة في صوتها، حين هتفت بي، في تلك الهمّة العجول والرنانة لما تزل! وقفت وقتاً طويلاً في نفس المكان، وأخيراً ابتعدت قليلاً في ناحية، في ظل السياج المقابل، ورحت من هناك أتطلع إلى الجناح في حيرة بلهاء وترقب.

وأخذت أنصت... أنصت بإرهاف متوتّر... كان يخيّل إليّ بأنني أسمع تارة أنفاساً هادئة وراء النافذة التي غاب عنها الضوء، وتارة هسهسة وضحكاً خافتاً. وأخيراً صدر وقع خطوات من بعيد... وصارت الخطوات تقترب، وظهر في نهاية الشارع رجل بطول قامتي تقريباً، ودنا بسرعة من باب حديقة عند الجناح تماماً، وهو باب لم أكن لحظته من قبل، وطرق طوقه الحديدي مرتين، دون أن يتلفت، وانتظر، ثم طرق مرة أخرى، وترنم بصوت خافت «Ecco ridente»[١] فانفتح الباب... ودلف فيه دون صوت.

ارتعدت، وهززت رأسي، وبسطت ذراعيّ، ونكست قبعتي على حاجبيّ بحدّة، واتجهت إلى بيتي متكدراً. وفي اليوم التالي قضيت ساعتين في أوج الحر، ودون أية جدوى أذرع ذلك الشارع ماراً بالجناح، وفي مساء ذلك اليوم غادرت سورنتو، حتى دون أن أزور بيت تاسو[٢].

وليتصوّر القرّاء الآن الدهشة التي تملّكتني فجأة، حين سمعت في السهب، في أحد أنحاء روسيا القصوى، ذلك الصوت ذاته، تلك الأغنية

١- «وها هو المرح...» (بالايطالية في الأصل).

٢- كان البيت الذي ولد فيه الشاعر الإيطالي الشهير توركفاتو تاسو (١٥٤٤ - ١٥٩٥) مكاناً رئيسياً من الأماكن التي يؤمها الزوار في سورنتو.

نفسها... والآن ليل، مثلما كان حينذاك، والصوت، مثلما كان حينذاك، صدر فجأة من حجرة صغيرة مضاءة غريبة عليّ. فكنت وحيداً مثلما كنت حينذاك، وكان قلبي يخفق خفقاناً شديداً. وفكرت مع نفسي «لعلّه حلم؟» وها هي Vieni الأخيرة تتردّد مرة أخرى... هل من المعقول أن النافذة ستفتح؟ هل من المعقول أن امرأة ستلوح فيها؟ انفتحت النافذة. وظهرت فيها امرأة. وعرفتها في الحال، رغم أن خمسين خطوة كانت تفصل بيننا، رغم أن غمامة قد حجبت البدر.

كانت هي، امرأتي الغريبة من سورنتو. ولكنها لم تمد إلى الأمام ذراعيها العاريتين، كما فعلت في السابق، بل صالبتهما بهدوء، واتكأت بهما على النافذة، وأخذت تحدق إلى نقطة في الحديقة صامتة وبلا حراك. نعم، كانت هي، وكانت تلك قسماتها التي لا تنسى، وعينيها اللتين لم أر لهما مثيلاً.

والآن أيضاً كان ثوب أبيض واسع يسربل جسدها. وكانت أكثر امتلاء بقليل مما كانت وهي في سورنتو. كان كل شيء فيها يعبق بالثقة وبرائحة الحب، وانتصار الجمال الهانيء بالسعادة. ظلّت وقتاً طويلاً لا تبدي حراكاً، ثم نظرت إلى الوراء، إلى الحجرة، وانتصبت بجذعها فجأة، وهتفت ثلاثاً بصوت عال رنّان: «Addio»[1]، وترامت النبرات الجميلة بعيداً بعيداً، وارتعشت طويلاً، متخافتة متلاشية فوق زيزفون الحديقة، وفي الفضاء ورائي، وفي كل مكان. ولبعض لحظات امتلأ كل ما حولي بصوت تلك المرأة، ورنّ كل شيء جواباً لها، رنّ بها. فأغلقت النافذة، وبعد لحظات انطفأ الضوء في البيت.

وما أن أفقت على نفسي - وأعترف بأن ذلك لم يكن سريعاً - حتى اتخذت طريقي، على الفور بمحاذاة الحديقة وباتجاه الضيعة، وتقدّمت من البوابة الخارجية المغلقة، ونظرت عبر السياج. لم ألحظ شيئاً خارقاً في الفناء. رأيت في أحد الأركان عربة تحت سقيفة، وجزؤها الأمامي، المبقع كلياً بالوحل الجاف يلوح أبيض حاد المعالم في ضوء القمر.

وكانت صفاقات البيت مغلقة من الخارج كما من قبل. لقد نسيت أن

١- «وداعاً!» (بالايطالية في الأصل).

أقول إنني قبل هذا لم أزر غلينويه حوالي أسبوع. قضيت أكثر من نصف ساعة أتمشى جيئة وذهاباً أمام السياج حيران، حتى لفت أخيراً، انتباه كلب الحراسة العجوز إليّ باستهزاء كبير من فتحة الباب بعينيه المقلّصتين الضعيفتي البصر. فهمت إيماءته، فانصرفت. ولكن ما كدت أبتعد نصف فرسخ، حتى سمعت ورائي فجأة كركبة حوافر حصان...

وبعد لحظات مرّ بي فارس على حصان أسحم في عدو سريع، وانعطف عن الطريق يميناً، مديراً إليّ وجهه بسرعة، غير أنني لم أستطع أن ألحظ غير أنفه الشبيه بأنف النسر، وشاربيه الفخمين تحت قبعته المنكسة، واختفى الفارس في الحال وراء الغابة.

وفكّرت مع نفسي: «هذا هو»، وأحسست وكأن قلبي يتحرّك في صدري بشكل غريب. خُيّل إليّ أنني عرفته. قوامه ذكّرني في الحقيقة، بقوام الرجل الذي رأيته يدخل باب الحديقة في سورنتو. بعد نصف ساعة كنت في غلينويه، في بيت مضيّفي. أيقظته، وشرعت على الفور أسأله عمن جاء إلى الضيعة المجاورة؟ أجابني بجهد بأن الملكتين قد وصلتا.

سألته بلهفة:

– أية ملكتين؟

أجاب بفتور شديد:

– معروف أية ملكتين بالطبع. من علية القوم.

– مَنْ مِنْ علية القوم؟

– معروف بالطبع مَنْ هن من علية القوم.

– روسيتان؟

– ومَنْ خلاف ذلك؟ روسيتان، بالطبع.

– وليستا أجنبيتين؟

– مَنْ؟

– هل وصلتا منذ زمان؟

– بالطبع، منذ قريب.

- وهل ستمكثان طويلاً؟
- هذا غير معروف، بالطبع.
- هل هما غنيتان؟
- غير معروف لنا، بالطبع. ربما هما غنيتان.
- ألم يأت أي سيد معهما؟
- سيد؟
- نعم، سيد.
زفر العمدة. وقال متثائباً:
- أوه، يا ربي! لا، لا سيد... أظن لا يوجد سيد هناك. - وأضاف فجأة: - غير معروف!
- وأي جيران آخرين يقيمون هنا؟
- أي جيران؟ مختلف الجيران، بالطبع.
- مختلف الجيران؟ هل تعرف الأسماء؟
- أسماء مَنْ؟ الملكتين؟ أم الجيران؟
- اسم الملكتين.
زفر العمدة مرة أخرى، وتمتم:
- الاسم؟ الله يعرف الاسم! اسم الكبرى آنا فيدوروفنا، على ما يبدو لي... واسم الأخرى... لا، لا أعرف ما اسم الأخرى.
- طيب، على الأقل اسم عائلتهما؟
- اسم عائلتهما؟
- نعم، اسم العائلة، الكنية.
- الكنية... ولكني، وحق الرب، لا أعرف.
- هل هما شابتان؟
- أوه، لا، ليس.

– وكيف؟

– الصغرى تتجاوز الأربعين.

– أنت تكذب دائماً.

صمت العمدة.

– طيب، أنت تعرف أحسن منا، نحن لا نعرف ذلك.

صمت بضيق:

– لا تفتأ تكرر نفسها الكلمة!

ولأنني أعرف من التجربة أن الروسي، حين يأخذ بالإجابة بهذه الطريقة، تنعدم أية إمكانية لاستخراج شيء نافع منه (لا سيّما وأن مضيفي كان قد أوى لتوه إلى مضجعه، وكان عند كل جواب ينوس برأسه قليلاً إلى الأمام، موسّعاً عينيه بدهشة الصبي، فاتحاً بصعوبة شفتيه الدبقتين بعسل باكورة النوم الحلوة) فقد هززت ذراعي عيوفاً، وذهبت إلى السقيفة ممتنعاً عن العشاء.

قضيت وقتاً طويلاً غير قادر على النوم. ظللت أسأل نفسي باستمرار: «من هي تلك المرأة؟ روسية؟ إذا كانت روسية، فلماذا تتكلم بالإيطالية؟.. العمدة يقول إنها ليست شابة... ولكنه يكذب... ومَنْ ذلك المحظوظ؟.. لا شيء يفهم على الإطلاق... ولكن ما أغربها من مغامرة! وهل من الجائز أن تقع مرتين متتاليتين؟.. إلا أنني لا بدّ أن أعرف مَنْ هي، ولماذا جاءت إلى هنا...؟».

أقلقتني مثل هذه الأفكار المضطربة المفكّكة، فلم أغف إلا في ساعة متأخرة، ورأيت أحلاماً غريبة... فتارة أرى نفسي أجوب في صحراء في سمت حر الظهيرة، وفجأة أجد أمامي لطخة ظل كبيرة تركض على الرمل الأصفر المتلظي... أرفع رأسي، فأراها، حسنائي، تمرق في الهواء بياضاً في بياض، بجناحين أبيضين، وتدعوني إليها. فأندفع في إثرها، ولكنها تطير في الهواء بخفّة وسرعة، وأنا لا أستطيع الارتفاع عن الأرض، وأبسط ذراعي الملهفتين دون جدوى... تقول لي وهي تطير مبتعدة عني: «Addio» لماذا ليس لك جناحان؟.. Addio! وتصدر «Addio!» من كل الجهات.

كل ذرة رمل تصيح وتصوصئ لي Addio... وترن هذه بدندنة حادّة غير محتملة... أكشها بذراعي، كما أكش بعوضة، وأبحث عن المرأة بعيني... ولكنها صارت غمامة، وتصعد بهدوء نحو الشمس. والشمس ترتعش، تخفق، تضحك، تمد للقائها خيوطها الذهبية الطويلة، وها هي هذه الخيوط قد لفتها، فتغيب هي فيها، بينما أصيح أنا بكل حنجرتي كالمأخوذ: «هذه ليست شمساً، هذه ليست شمساً، هذا عنكبوت إيطالي، فمن الذي أعطاه جواز سفر إلى روسيا؟ سأكشف أمره، فقد رأيته يسرق البرتقال من حدائق الآخرين...»، وتارة أخرى كان يتراءى لي أنني أسير في درب جبلي ضيق... وأنا عجول، فقد كان عليّ أن أصل إلى مكان ما في أقرب وقت، في انتظاري هناك سعادة لا مثيل لها، وفجأة تطلع صخرة ضخمة أمامي. وأبحث عن ممرّ. أميل إلى اليمين، وأميل إلى الشمال، وما من ممرّ!

وفجأة ينبعث صوت من وراء الصخرة Passa... passa quei colli وهذا الصوت يدعوني، يكرّر نداءه الحزين. فأندفع هنا وهناك في لوعة، أبحث عن منفذ، مهما يكن صغيراً... واأسفاه! كل ما حولي جدار عمودي، غرانيت... passa quei colli... الصوت يكرر ذلك شاكياً. وقلبي يئنّ في داخلي، فألقي بصدري على الصخرة الملساء، وأخدشها بأظافري مذعوراً... وفجأة ينفتح أمامي ممرّ داكن... أندفع إلى الأمام مفعماً بالفرح... يصرخ صوت بي: «مستحيل!.. لن تمر...»، أنظر فأرى لوكيانتش يقف أمامي، يلوح مهدّداً، ويشمر ذراعيه... أبحث في جيوبي عجولاً، أريد أن أرشيه، ولكن جيوبي فارغة... أقول له: «لوكيانتش، لوكيانتش، دعني أمرّ، سأكافئك بعد ذلك». يجيبني لوكيانتش ويتخذ وجهه تعبيراً غريباً: «أنت مخطئ، سينيور، لست خادماً، أعرف في شخصي دون كيشوت اللامانسي الفارس الجوّال الشهير. كنت أبحث طوال حياتي، عن حبيبتي دولسينيا، ولم أستطع أن أجدها، ولا أتحمل أن تجد صاحبتك أيضاً...».

ويصدر من جديد، الصوت الناحب تقريباً Passa quei colli «تنحّ، سينيور!» - أهتف بذلك بضراوة، وأتهيأ للاندفاع... إلا أن رمح الفارس الطويل يصيبني في قلبي تماماً... أسقط كالميت، وأنطرح على ظهري... ولا أستطيع حراكاً... وإذا بي أراها تدخل والمصباح في يدها، وترفعه بجمال

فوق رأسها، تتلفت في الظلمة، وتنحني عليّ منسلّة بتوجس... تقول بضحكة مزدرية: «إنه هو، إذن، هذا المضحك! هو الذي أراد أن يعرف مَنْ أنا»، ويغلي زيت مصباحها الحارق في قلبي الجريح تماماً... أصرخ بجهد «بسيشه!»[1] وأستيقظ...

نمت طوال الليل نوماً سيئاً، وقبل أن يطرَّ الفجر كنت على قدمي. أسرعت في ارتداء ملابسي، وتزوّدت بالسلاح، واتّجهت إلى الضيعة قُدُماً. كان تلهفي من الشدّة بحيث أنني، حالما بدأ الشروق بالتوهج، كنت أدنو من البوابة المعروفة. كانت القبّرات تصدح حولي، والزيغان تصيح على أشجار البتولا، ولكن كل ما في البيت كان ما يزال في نوم الصباح العميق. والكلب كان يشخر وراء السياج. رحت أسير على العشب المندّى جيئة وذهاباً في لوعة الانتظار مغتاظاً بما يقرب من الحنق وأتطلع إلى البيتِ الصغير الواطئ الزري المظهر، الذي كان يضمّ بين جدرانه ذلك المخلوق اللغز... وفجأة أرسلت البوابة صريفاً واهناً، وزعقت، وانفتحت، وظهر لوكيانتش على العتبة، في قفطان قصير مخطط. بدا لي وجهه الأشعث الشعر، الممدود أكثر جهامة من أي وقت مضى. نظر إليّ نظرة لا تخلو من دهشة، وهمَّ بأن يسد البوابة مرة أخرى.

هتفت مسرعاً:

– اعمل معروفاً، اعمل معروفاً!

قال ببطء، وجمود:

– ماذا تريد في هذا الوقت المبكر؟

– قل لي، أرجوك، يُقال إن السيدة وصلت إليكم؟

تريث لوكيانتش قليلاً.

– وصلت...

– وحدها؟

– مع أختها.

١– في الأساطير اليونانية، تشخيص لإنسانة في صورة فتاة فاتنة الجمال لها جناحا فراشة، أحبها كيوبيد. (الناشر).

– هل كان عندهما ضيوف أمس؟

– لم يكن.

وجذب مصراع البوابة نحوه.

– انتظر، انتظر، أرجوك... اعمل معروفاً...

سعل لوكيانتش، واقشعرّ من البرد.

– ولكن ماذا تريد بالضبط؟

– قل لي، من فضلك، كم عمر سيدتك؟

نظر لوكيانتش إليّ بارتياب.

– كم عمر السيدة؟ لا أعرف. تعدَّت الأربعين.

– تعدّت الأربعين؟ وكم عمر أختها؟

– أقل من الأربعين.

– عجيب! وهل هي حلوة؟

– مَنْ؟ الأخت؟

– نعم، الأخت.

ضحك لوكيانتش ضحكة تهكم.

– لا أدري، حسب الذوق، في رأيي أنها ليست مليحة.

– لماذا؟

– دميمة جداً، ونحيلة قليلاً.

– هكذا، إذن! و لم يأت أحد غيرهما؟

– لا أحد. ومَنْ يأتي؟

– ولكن هذا غير ممكن!.. أنا...

اعترض العجوز قائلاً بانزعاج:

– أوه، يا حضرة السيد! أظن الحديث لا ينتهي معك، والجوّ بارد كما ترى! أرجو المعذرة.

– قف، قف... هذا لك...

ومددت إليه ربع روبل كنت قد أعددته مسبقاً، ولكن يدي اصطدمت بالبوابة التي انغلقت بسرعة. ووقعت القطعة النقدية الفضية على الأرض، وتدحرجت، ووقعت عند قدمي.

قلت لنفسي: «أوه، أيها المخادع العجوز. أيها الدون كيشوت اللامانسي! الظاهر أنهم أمروك بالسكوت... ولكن انتظر، لن تستطيع أن تخدعني...».

وآليت على نفسي أن أخرج بنتيجة، مهما يكن في الأمر شيء. قضيت زهاء نصف ساعة أذرع الأرض ذهاباً وإياباً، غير عارف عَلام أستقر. وأخيراً عزمت على أن أستفسر في القرية في بادئ الأمر، لأعرف من جاء إلى الضيعة بالضبط، ومَنْ مالكها، وبعد ذلك أعود، على أية حال، كيلا أتأخر عن مجرى الأحداث ولا يهدأ لي بال، كما يقال، حتى يتوضح لي الأمر. ستخرج المجهولة من بيتها، وأراها أخيراً في وضح النهار، وعن كثب، كامرأة حية، وليس طيفاً.

كانت المسافة إلى القرية حوالي الفرسخ، فاتجهت إليها حالاً، في سير خفيف حثيث، فقد كانت جسارة غريبة تغلي في دمي وتضطرم. وفي القرية عرفت من فلاحين خارجين إلى العمل كل ما استطعت أن أعرفه منهما، وعلى وجه التخصيص عرفت أن الضيعة مع القرية التي دخلتها تعرفان بـ «ميخائيلو فسكويه»، وأنها كانت تعود إلى أرملة هي زوجة رائد تدعى آنا فيدوروفنا شليكوفا، لها أخت غير متزوجة هي الآنسة بيلاغيا فيدوروفنا باداييفا، وأن الأختين كلتيهما تجاوزتا سن الشباب، وهما غنيتان، ولا تقيمان في البيت تقريباً، وتقضيان الوقت في السفر والترحال، ولا تستخدمان غير خادمتين وطباخ، وأن آنا قد عادت من موسكو قبل أيام بصحبة أختها لا غير...

وهذه الحقيقة أربكتني كثيراً، إذ لم يكن، ثمّة مجال للافتراض بأن الفلاح أُمر أيضاً بالسكوت عن المرأة المجهولة لي. كما كان من المستحيل الافتراض بأن آنا فيدوروفنا شليكوفا، الأرملة في الخامسة والأربعين، وتلك المرأة الشابة الفاتنة التي رأيتها يوم أمس ما هما إلا شخص واحد. إن بيلاغيا

فيدوروفنا أيضاً حسب الأوصاف، لم تكن تتميز بجمال، وفوق ذلك فقد هززت كتفي، وضحكت بغيظ من مجرد التفكير بأن المرأة التي رأيتها في سورينتو ربما كانت تسمى بيلاغيا، بل وتلقب ببادايبفا، فضلاً عن ذلك...

وفكرت: ولكنني رأيتها أمس، في هذا البيت... رأيتها بأم عيني، وتكدرت عظيم التكدر، وجنّ جنوني، ولكنني ازددت إصراراً على مرامي، فراودتني الرغبة في أن أعود حالاً إلى الضيعة... ولكنني نظرت إلى ساعتي، ولم تكن قد بلغت حتى السادسة. عزمت على أن أتريث قليلاً. قد يكون جميع مَنْ في الضيعة نياماً حتى الآن... ثم إن التطواف بالقرب من البيت، في مثل هذه الأوقات، ما كان سيعني إلا إثارة الشبهة بدون طائل، وبالإضافة إلى ذلك، فقد كانت تمتد أمامي أجمات تُرى من خلفها غابة من أشجار الحور... يجب أن أنصف نفسي فأقول: إن الولع النبيل في الصيد، لم يخمد تماماً في داخلي، رغم الأفكار التي كانت تقلقني. قلت في سري: «ربما أعثر على صغار الطير في أعشاشها، وينقضي الوقت».

ودخلت الأجمات. ولكن، والحق يقال، كنت أسير بتهاون شديد، ودون مراعاة على الإطلاق لقواعد فن الصيد. فلم أكن دائماً أراقب الكلب بعيني، ولم أحمحم فوق الاجمة الكثيفة، على أمل أن يطير منها قطا الغابة أحمر الحاجبين في هدير وخشخشة، وكنت أنظر إلى ساعتي باستمرار، وهو أمر غير لائق البتة. وأخيراً، حلت الساعة التاسعة. فهتفت بصوت مسموع «حان الوقت!» فعدت إلى الضيعة، وإذا بقطا هائل يأخذ فعلاً بالرفرفة في العشب الكثيف، على بعد خطوتين مني. أطلقت النار على الطائر البهي، وجرحته تحت جناحه، وكاد يسقط، إلا أنه جمع قواه، وجرجر نفسه نحو الغابة خافقاً بجناحيه غائصاً إلى الأسفل، وحاول التحليق أعلى من شجيرات الحور الأولى من الغابة، إلا أنه وهن، وسقط متقلباً في دغل. وليس مغفوراً على الإطلاق التخلي عن مثل هذه الغنيمة. فانطلقت في إثره خفيف الحركة، ودخلت الغابة، وأومأت إلى كلبي ديانكا، وبعد لحظات سمعت خفقاً واهناً، وخشخشة. ومعنى ذلك أن القطا البائس كان يضطرب تحت براثن الكلب الحاد السمع. رفعته، ووضعته في محفظة الصيد، وتلفت فيما حولي، وجمدت في مكاني كالمسمّر...

كانت الغابة التي دخلت فيها كثيفة جداً ومراصّة النبت، حتى شققت طريقي بصعوبة إلى حيث وقع الطائر، ولكن على مسافة غير بعيدة عني كان يتعرج درب للعربات، وعلى هذا الدرب كانت حسنائي والرجل الذي سبقني في العشية يسيران على فرسين في خطى متقاربة وجنباً إلى جنب، وقد عرفت الرجل من شاربيه. كانا يسيران بهدوء وصمت، وأحدهما يمسك بيد الآخر، وفرساهما يطآن الأرض بعسر، ويترنحان بكسل من جنب إلى جنب، وقد مدا عنقيهما الطويلين بجمال.

وبعد أن أفقت من فزعي الأول - ما من اسم آخر أستطيع أن أطلق على الشعور الذي انتابني فجأة... غرزت بها بصري... ما أحلاها! وما أفتن قوامها الممشوق المندفع نحوي، وسط الخضرة الزمردية! كانت الظلال الرقيقة، وانعكاسات الضوء الناعمة تنزلق عليها بهدوء، تنزلق على ثوبها الرمادي الطويل، على عنقها الأهيف المنحني قليلاً، على محياها الوردي الباهت، على شعرها الأسود اللاّمع الفالت بغزارة من تحت القبعة الواطئة.

ولكن لا سبيل إلى نقل ذلك التعبير من الهناءة الكلية، الجيّاشة، والجيّاشة إلى حدِّ الصمت المطبق، ذلك التعبير الذي كان يفيض من قسماتها! وكأن رأسها قد انحنى تحت ثقل هذه الهناءة، وكان شرر ذهبي ندي يشف في عينيها السوداوين المطبقتين إلى النصف بالرموش الطويلة. لم تكونا مصوبتين إلى شيء، هاتان العينان الهانئتان، يكلكل عليهما حاجبان رقيقان. وعلى شفتيها طافت ابتسامة مبهمة صبَوية، ابتسامة فرح عميق. وبدا وكأن فيض السعادة كان يتعبها، ويثقل عليها قليلاً، مثلما تثقل زهرة متفتحة على عودها أحياناً. كانت يداها كلتاهما تستقران بوهن، إحداهما في يد الرجل الذي كان يسير معها، والثانية على حارك الفرس. استطعت أن أتمعن فيها، بل وفيه أيضاً... كان رجلاً وسيماً ممشوق القوام له وجه غير روسي.

كان ينظر إليها بجرأة وانشراح، ويتمتع بمرآها، على قدر ملاحظتي، بما لا يخلو من اعتزاز خفي. وكان الوغد، يتمتع بمرآها برضا كثير عن النفس، وتأثر كبير، وحنان عميق، حنان بالضبط... أجل، وفي حقيقة الأمر يندر أن يستحق إنسان مثل هذا الإخلاص، يندر أن تكون روح رائعة قمينة بأن تقدم

للروح الأخرى مثل هذه السعادة... وأعترف بأنني حسدته! وفي غضون ذلك حاذاني كلاهما... وكلبي قفز إلى الدرب فجأة، وأخذ ينبح... جفلت الغريبة، والتفتت بسرعة، وبعد أن رأتني، ساطت عنق فرسها بالسوط بقوة. صهل الفرس، ووثب على قائمتيه الخلفيتين، وقذف الأخريين دفعة واحدة إلى الأمام، وانطلق في عدو سريع... وفي الحال همز الرجل حصانه الأسحم بمهمازيه، وحين طلعت من الدرب إلى حافة الغابة بعد بضع لحظات، كان كلاهما يرقل في المدى الذهبي، عبر الحقل، صاعداً هابطاً على السرج بجمال وانسياب... ولم يكن اتجاههما صوب الضيعة...

نظرت... سرعان ما غابا وراء التل، بعد أن تألقا، للمرة الأخيرة، في ضوء الشمس الساطع على خلفية القبة السماوية السوداء. وقفت قليلاً، وبعدها عدت بخطى هادئة إلى الغابة، وجلست على الدرب وغطيت عيني بيدي. وكنت قد لاحظت أن الإنسان، حين يلتقي بأناس غرباء، لا يكلفه الأمر إلاّ أن يغمض عينيه حتى تظهر أمامه قسمات وجوههم وكل امرئ يستطيع أن يتأكد من صحة ملاحظتي هذه في الشارع. وكلما كانت الوجوه مألوفة أكثر، صعب ظهورها أكثر، والتبس الانطباع عنها، فأنت تذكرها ولا تراها... أما وجهك فلا تستطيع أن تتصوره... إن أصغر تقطيع فيه معروف لك، ولكن الصورة الكاملة غير واضحة في الذهن. وهكذا، جلست وأغمضت عيني، وإذا بي أرى المرأة الغريبة على الفور ورفيقها، وفرسيهما، وكل شيء... على الأخص وجه الرجل البسّام برز أمامي بحدة ووضوح. فأخذت أمعن النظر فيه... اختلط الوجه، وذاب في عتمة قرمزية، وفي إثره مرقت صورتها أيضاً، وغاصت، وبعد ذلك أبت أن تعود. رفعت جسمي، وقلت لنفسي: «طيب، ماذا بعد! لقد رأيتهما، على الأقل، رأيت كليهما بوضوح... يبقى أن أعرف اسميهما». أحاول أن أعرف اسميهما! أي فضول تافه فج! ولكن أقسم بأن الذي تأجج في داخلي ليس فضولاً.

لقد بدا لي في الحقيقة، أن من غير الممكن ألا أسعى إلى أن أعرف في آخر الأمر، مَنْ هما، على أقل تقدير، بعد تلك المصادفة التي قادتني إليهما على هذا النحو الغريب والملحاح. وعلى العموم زايلتني الحيرة السابقة اللهوف، وحلّ محلها شعور مبهم حزين خجلت منه قليلاً... الحسد...

لم أستعجل في العودة إلى الضيعة. فقد صار يخجلني، وأعترف بذلك، النفاذ إلى سر الآخرين. كما أن ظهور العاشقين نهاراً، وفي ضوء الشمس، على ما فيه من فجاءة، وأكرر، وغرابة، لا أقول قد هدأني، بل أبرد حرارة لهفتي على نحو ما، فلم أعد أرى في هذا الحادث كله شيئاً خارقاً للطبيعة، عجيباً... شيئاً أشبه بحلم يعز عن التحقيق...

عدت إلى الصيد باهتمام أكثر من السابق، ومع ذلك لم تحدث لي لحظات من السرور الغامر. وقعت على صغار الطير، فأخرني حوالي ساعة ونصف... ظلت الديوك البرية الفتية وقتاً طويلاً لا ترد على صفيري، ربما لأنني لم أكن أصفر «بطبيعية» كافية. كانت الشمس قد ارتفعت كثيراً (كانت الساعة تشير إلى الثانية عشرة)، حين يممت خطاي صوب الضيعة. سرت بغير عجالة. وظهر أخيراً، أخذت أقترب... ورأيت برضا خفي لوكيانتش الذي كان على سابق عهده جالساً على مصطبة بلا حراك، أمام المبنى الملحق بالبيت. وكانت البوابة مقفلة... والصفاقات أيضاً. هتفت وأنا ما أزال بعيداً:

– مرحباً، يا عم! خرجت لتتشمس؟

أدار لوكيانتش وجهه النحيف نحوي، ورفع قبعته قليلاً في صمت.

دنوت منه. وعدت راغباً في كسب مودّته:

– مرحباً، يا عم، مرحباً. – وأضفت وقد رأيت، – عَرضاً، ربع الروبل الجديد الذي أردت أن أقدّمه له صباحاً. – ما هذا منك، ألم تره؟

وأشرت إلى قطعة النقد الفضية المدوّرة، الطالع نصفها من تحت العشب القصير.

– لا، رأيته.

– ولماذا لم تتناوله؟

– ليس من نقودي، فلم أتناوله.

– هكذا، يا أخ! – اعترضت، وليس دون ارتباك، التقطت ربع الروبل، وقدّمته إليه ثانية قائلاً – خذه، خذه للشاي.

أجاب لوكيانتش، مبتسماً بهدوء:

– متشكرون كثيراً، لا حاجة. نعيش بدونه. متشكرون كثيراً.

فاعترضت بحيرة:

– ولكنني مستعد إلى أن أقدم لك أكثر بسرور.

– ولأي شيء؟ لا تتعب نفسك. متشكرون كثيراً على اللطف. تكفينا كسرة من الخبز، وحتى هذه تبقى منها فضلة. لا أحد يعرف متى تحل ساعته.

نهض، ومدَّ يده إلى البوابة.

– انتظر، انتظر، – قلت في استماتة تقريباً. – حقاً، إنك اليوم غير ميّال للحديث... قل لي، على الأقل:هل استيقظت سيدتك، أم لا؟

– استيقظت.

– وهي... الآن في البيت؟

– لا، ليست في البيت.

– هل خرجت لزيارة أحد؟

– لا، أبداً... رحلت إلى موسكو.

– كيف إلى موسكو؟ ولكنها اليوم صباحاً كانت هنا؟

– هنا.

– وباتت هنا؟

– باتت هنا.

– وقبل قليل جاءت إلى هنا؟

– قبل قليل.

– وكيف ذاك، يا أخ؟

– هكذا، قبل ساعة تقريباً تفضلت بالعودة إلى موسكو.

– إلى موسكو!

ونظرت إلى لوكيانتش مشدوهاً: أعترف بأنني لم أتوقع ذلك...

بينما نظر لوكيانتش إليّ... انفرجت شفتاة اليابستان عن ابتسامة مواربة دأب الشيوخ، وتألّقت الابتسامة قليلاً في عينيه الحزينتين. وأخيراً قلت أنا:

– ورحلت مع أختها؟

– مع أختها.

– إذن، لا يوجد أحد في البيت الآن؟

– لا أحد...

ولمع في ذهني أن «هذا العجوز يخدعني، فلا عجب أن يتسم تلك الابتسامة المواربة». وقلت بصوت مسموع:

– اسمع، يا لوكيانتش. أتريد أن تعمل معروفاً لي؟

– ماذا تبتغي؟

قال ذلك ببطء، والظاهر أنه أخذ يستثقل استجواباتي.

– أنت تقول لا أحد في البيت، فهل تستطيع أن تريه لي؟ سأكون ممتناً لك جداً.

– يعني تريد أن ترى الغرف؟

– نعم، الغرف.

صمت لوكيانتش قليلاً، ثم نطق:

– أمرك، تفضل...

واجتاز عتبة البوابة منحنياً، سرت في إثره، وبعد أن عبرنا فناءً صغيراً، صعدنا درجات مدخل البيت المتخلخلة. دفع العجوز باباً، و لم يكن فيه قفل وكان حبل فيه عقدة يبرز من ثقب المفتاح... دخلنا البيت.

لم تكن فيه غير خمس أو ست غرف واطئة السقف، أثاثها بسيط جداً ورث، بقدر ما استطعت أن أميزه في الضوء الشاحب الناضح بتقتير من خلال خصاص الصفاقات. وفي إحداها (وبالذات تلك التي كانت تطل على الحديقة) بيانو صغير قديم... رفعت غطاءه المعوج، وضربت على مفاتيحه، فتردّد صوت وَعِق مكدود، وهمد عليلاً، وكأنما يشكو جسارتي.

وما من أثر يمكن أن يذكرك بأن أناساً رحلوا من هذا البيت لتوهم، إن رائحة شيء ميت مخنوق - رائحة غير سكنية كانت تفوح منه - لا شيء غير ورق ملقى هنا وهناك يوحي ببياضه بأنه رُمِي قبل زمن غير طويل.

التقطت ورقة منه، فتبيّن أنها قطعة من رسالة خُربشت على صفحة منها بخط نسائي سريع كلمتان: «se taire?»[1]، وفي جانبها الآخر استطعت أن أتبين كلمة: «bonheur»[2]. وعلى طاولة مستديرة بالقرب من النافذة باقة من الزهور نصف الذابلة موضوعة في قدح، وشريطاً أخضر مدعوكاً... أخذت هذا الشريط للذكرى. فتح لوكيانتش باباً ضيقاً ألصقت به أوراق تزيين الجدران.

قال، وقد بسط ذراعه:

- هذه غرفة النوم، ووراءها هناك غرفة الوصيفة، ولا غيرها...

عدنا عبر الدهليز.

- وما تلك الغرفة هناك؟

سألت مشيراً إلى باب أبيض عريض مغلق بالقفل.

- تلك؟ - أجابني لوكيانتش بصوت كامد، - لا شيء بالذات.

- كيف لا شيء بالذات؟

- لا شيء بالذات... غرفة خزن...

وسار إلى الرواق.

- غرفة خزن؟ هل يمكن أن أراها؟

اعترض لوكيانتش في غير رضى:

- ولكن، ماذا تبغي حقاً، يا حضرة السيد! ماذا تريد أن ترى؟ صناديق، أوان قديمة... غرفة خزن، ولا شيء آخر...

- أرني إياها، على أية حال، أرجوك، أيها الشيخ. - قلت ذلك، رغم

١- اسكت أنا؟ (بالفرنسية في الأصل).

٢- السعادة... (بالفرنسية في الأصل).

أنني خجلت في دخيلة نفسي من إلحاحي غير اللائق. - الحقيقة.. أود.. أريد أن أبني في قريتي مثل هذا البيت بالضبط...

وأحسست بالخجل، لأنني لم أستطع إنهاء ما بدأته من الكلام.

وقف لوكيانتش مميلاً رأسه الأشيب على صدره، ينظر إليّ من تحت حاجبيه نظرة غريبة. تابعت القول:

- أرني.

- طيب، لو سمحت.

اعترض قائلاً أخيراً، وأخرج مفتاحاً، وفتح الباب على مضض.

نظرت في غرفة الخزن. وبالفعل لم يكن فيها ما يلفت النظر. علقت على الجدران صور نصفية قديمة لأناس ذوي وجوه كئيبة سوداء تقريباً، وعيون غاضبة. وعلى الأرض مختلف المهملات من سقط المتاع.

سألني لوكيانتش بعبوس:

- طيب، هل شبعت من النظر؟

أسرعت في القول:

- نعم، وشكراً!

صفق الباب. خرجت إلى الرواق، ومن الرواق إلى الفناء.

شيّعني لوكيانتش وتمتم مودّعاً: «معذرة، يا سيدي» واتجه إلى بيته. هتفت في إثره:

- مَنْ كانت ضيفة عند سيدتك يوم أمس؟ لقد التقيتها اليوم في الدغل!

كنت آمل أن أحيّره بسؤالي المفاجئ هذا، واستخراج جواب عفوي منه، إلا أن العجوز اكتفى بأن ضحك ضحكة باهتة، وصفق الباب، وهو يعتكف في مسكنه.

عدت راجعاً إلى غلينويه. كنت أشعر بالحراجة مثل صبي أخجِلَ.

قلت لنفسي: «لا، الظاهر أنني لا أستطيع التوصل إلى حل هذا اللغز. فليذهب إلى حيث! لن أفكر في كل هذا بعد الآن».

وبعد ساعة كنت في طريقي إلى البيت مغتاظاً متوتر الأعصاب.

انقضى أسبوع. ومهما حاولت أن أصرف عن ذهني ذكراي عن الغريبة، وعن رفيقها، عن لقاءاتي معهما، كانت تعاودني، من حين لآخر، وتلح عليّ بكل اللجاجة المضجرة لذبابة بعد الغداء... كما أن لوكيانتش بنظراته الغامضة، وعباراته المتحفظة، وابتسامته الباردة الحزينة كان لا يبرح ذاكرتي. والبيت نفسه، حين كان يخطر في بالي، نفس ذلك البيت نفسه كان يبدو وكأنه يناكدني، كأنه كان يقول لي: وعلى أية حال أنت لن تعرف شيئاً! وفي نهاية الأمر لم أتحمل. وفي يوم من الأيام سافرت إلى غلينويه، ومن غلينويه اتجهت ماشياً... إلى أين؟ القارئ يحدس بسهولة.

يجب أن أعترف بأنني شعرت بقلق شديد جداً، وأنا أقترب من الضيعة الغامضة. من الخارج لم يطرأ على البيت أي تغيير: نفس النوافذ المغلقة نفسها، ونفس المظهر المقبض الميتّم نفسه، سوى أن المقعد، أمام الجناح الملحق، حيث كان يجلس لوكيانتش العجوز احتله خادم شاب فتي، في نحو العشرين من العمر، يرتدي قفطاناً طويلاً من النسيج القطني اليدوي، وقميصاً أحمر. كان يجلس وقد وضع على كفه رأسه الأجعد الشعر يهوم في نعاس، متمايلاً وجافلاً من حين لآخر.

قلت بصوت عال:

– مرحباً، يا أخ!

هبَّ على الفور، وحملق فيّ بعينيه المبهورتين. كررت قائلاً:

– مرحباً، يا أخ، أين العجوز؟

قال الفتى ببطء:

– أي عجوز؟

– لوكيانتش.

– آه، لوكيانتش! – ونظر في ناحية. – تريد لوكيانتش؟

– نعم، لوكيانتش. هل هو في البيت؟

– لا... – قال الفتى مقطعاً كلامه، – هو... يعني... كيف... يعني... أقول لك...

- هل هو مريض؟

- لا.

- ماذا، إذن؟

- انتهى.

- كيف انتهى؟

- هكذا... حصل... له... مكروه.

سألت بدهشة:

- مات؟

- شنق نفسه.

- شنق نفسه!

هتفت بذعر، وبسطت ذراعيّ.

صمت كلانا، واحدنا ينظر في عيني الآخر. وأخيراً قلت:

- منذ زمان؟

- اليوم خامس يوم. دفنوه أمس.

- ولكن لماذا شنق نفسه؟

- الله يعلم. كان معتوقاً، ويتسلم معاشاً، ولم يعرف العوز في شيء، وكانت سيدتاه تتلطفان معه كما تتلطفان مع قريب. سيدتان في غاية الرقة، الله يعطيهما العافية! ولا يدخل في العقل ما حصل له. لعلّ الشيطان أغواه.

- ولكن كيف فعل ذلك؟

- ببساطة. قام وشنق نفسه.

- ألم تلحظوا عليه شيئاً من قبل؟

- كيف أقول لك... لا شيء... يُذكر. كان ضجراً دائماً، منقبض النفس. لا ينقطع عن التأوه، يقول: مللت. كما كان في أواخر العمر. في المدة الأخيرة كأنما صار يغرق في أفكاره. كان يأتي إلى القرية، وأنا ابن أخيه. وكان يقول: «فاسيا، يا ولدي، تعال ونَمْ عندي!» - «ماذا هناك، يا عم؟» -

«لا شيء، مجرد رهبة وضجر حين أكون وحيداً». فأذهب إليه. أحياناً يخرج إلى الفناء، ويتطلّع إلى البيت ويتطلع، ويهزّ رأسه ويهزّ، ويزفر زفرة شديدة... وقبيل الليلة التي قضى فيها علي حياته، جاءنا أيضاً، ودعاني. فذهبنا إلى جناحه. جلس على المصطبة قليلاً ونهض، وخرج إلى الفناء. وأنتظره، وأقول لنفسي لماذا تأخّر كل هذا الوقت.

خرجت إلى الفناء، وناديته: «يا عم! أين أنت يا عم؟» ولا يرد العم على ندائي. فأفكر إلى أين ذهب؟ لعلّه في البيت؟ سرت إلى البيت. وكان المساء بدأ يحل. وأمرّ بغرفة الخزن، وأسمع خربشة وراء الباب. فتحت الباب. فرأيته جالساً هناك، منكمشاً تحت الشباك. قلت له: «ماذا تفعل هنا، يا عم؟» فإذا به يلتفت، ويصيح فيّ، ياه! وعيناه تسرعان وتسرعان وتتوقدان، مثل عيني القط. «ماذا بك؟ ألا تراني أحلق؟» وصوته مبحوح جداً، حتى إن شعري وقف على رأسي وانتصب، ولا أعرف لماذا استولت عليّ الرهبة... الظاهر أن الأبالسة قد أحاطت به في ذلك الحين. أقول: «وفي العتمة» بينما ركبتاي ترتجفان. يقول: «طيب، اذهب». فذهبت وخرج هو أيضاً من غرفة الخزن، وأغلق بابها بالقفل. وعدنا إلى الجناح، وزال الخوف مني حالاً. قلت: «ماذا كنت تفعل في غرفة الخزن، يا عم؟» وإذا به يضطرب، ويقول: «اسكت انت، اسكت!» وصعد إلى دكة الموقد[1]. وأقول لنفسي: «طيب، الأفضل أن لا أتحدث معه. الظاهر أنه متوعك اليوم، ربما». حملت نفسي، واستلقيت على دكة الموقد أيضاً. والقنديل يشتعل في الركن. وأظل مستلقياً، والنعاس يطوف بي... وفجأة أسمع الباب يصرف صريفاً خفيفاً... ثم ينفتح... قليلاً، يعني كان العم راقداً وظهره إلى الباب.

ولعلّك تتذكر أن سمع العم ثقيل، ولكنه في تلك اللحظة يقفز فجأة... «من يدعوني؟ ها؟ من؟ جاؤوا لاستدعائي، جاؤوا!» وطلع إلى الفناء حاسر الرأس... فكرت مع نفسي: «ماذا حصل له؟» غير أنني، أنا الآثم، غفوت في الحال. واستيقظت في الصباح التالي... لوكيانتش غير موجود. خرجت من الحجرة، وأخذت أناديه. غير موجود في أي مكان. وأسأل الحارس: «ألم

١- هي بروز طويل عند الموقد الروسي يستخدم للاستلقاء. (المعرب).

تر العم خارجاً؟» فيقول هذا: «لا، لم أره». - «غير موجود، يا أخ...» - «أوه!» وكلانا استولى عليه خوف شديد.

وأقول: «لنذهب، يا فيدوسيتش، لنذهب ونر هل هو موجود في البيت؟»». يقول الحارس: «لنذهب، يا فاسيلي تيموفيتش» بينما هو نفسه باهت اللون، كالطين. ذهبنا إلى البيت... أخذت أمر بغرفة الخزن، وأرى القفل مفتوحاً متدلياً من قوسه. دفعت الباب. كان مغلقاً من الداخل... دار فيدوسيتش على الفور، ونظر في الشباك، ويصيح: «فاسيلي تيموفيتش! رجلان متدليتان، رجلان!» فأهرع إلى الشباك. الرجلان رجلاه، رجلا لوكيانتش. وكان مشنوقاً وسط الغرفة... طيب، بعثنا على القضاء... أنزلناه من الحبل. كان الحبل معقوداً اثنتي عشرة عقدة.

- طيب، وماذا قال القضاء؟

- ماذا يقول؟ لا شيء. فكروا، وفكروا: أي سبب يمكن أن يكون؟ لا سبب، على الإطلاق. وهكذا قرروا: لا بدّ من الافتراض بأنه كان مختل العقل. في المدة الأخيرة كان رأسه يؤلمه. وكثيراً ما كان يشكو من رأسه...

تحادثت مع الفتى نصف ساعة بعد هذا، وانصرفت أخيراً، في حيرة تامّة. وأعترف بانني لم أستطع أن أنظر إلى ذلك البيت المتداعي دون أن يتملكني خوف خفي خرافي... بعد شهر، غادرت القرية، وشيئاً فشيئاً تبددت من رأسي كل تلك المخاوف، تلك اللقاءات الغامضة.

- ٢ -

مضت ثلاثة أعوام، قضيت معظمها في بطرسبورغ وفي خارج البلاد، وإذا ذهبت إلى قريتي في وقت من الأوقات، فلم أمكث فيها غير بضعة أيام، ولهذا لم يصادف أن ذهبت إلى غلينويه، ولا إلى ميخائيلو فسكويه. و لم أر حسنائي، ولا ذلك الرجل في أي مكان. وذات مرة، في أواخر العام الثالث صادف أن التقيت في أمسية عند إحدى معارفي في موسكو بالسيدة شليكوفا وأختها بيلاغيا باداييفا، نفس باداييفا التي كنت، أنا الرجل الآثم، أعتبرها، حتى ذلك الحين، شخصاً موهوماً. كلتا السيدتين قد تخطتا سن الشباب، ولهما مظهر لطيف جداً. وكان حديثهما يتميز بالعقل والمرح. وقد قامتا

بسياحات كثيرة، وذات فائدة. وكان في سلوكهما مرح غير متكلف. ولكن لم يكن بينهما وبين امرأتي الغريبة أي شيء مشترك، على الإطلاق. قدموني لهما. فتحدثت مع شليكوفا (كان جيولوجي طارق منشغلاً بأختها) أعلنت لها بأن من دواعي سروري كوني جاراً لها في قضاء...

هتفت:

- آه! بالضبط عندي ضيعة صغيرة هناك: قرب غلينويه.

قلت:

- بالطبع، بالطبع. أنا أعرف قريتك ميخائيلو فسكويه. هل تسافرين إلى هناك؟

- أنا؟ نادراً.

- هل كنت هناك قبل ثلاثة أعوام!

- على مهلك! يبدو أنني كنت. نعم، كنت، بالضبط.

- مع أختك أم لوحدك؟

رمقتني بنظرة.

- مع أختي. قضينا أسبوعاً هناك، في الأشغال. أنت تعرف. على العموم لم نر أحداً.

- حم... أظن جيرانكم قليلون هناك.

- نعم، قليلون. لست ميّالة إليهم.

بادرتها قائلاً:

- خبريني، أظن أن مصاباً وقع هناك في تلك السنة. لوكيانتش...

اغرورقت عينا شليكوفا بالدموع في الحال. وقالت بحرارة:

- هل كنت تعرفه؟ أي مصاب! كان عجوزاً طيباً... وأتصوّر، بدون أي سبب...

تمتمت:

- نعم، نعم. أي مصاب...

أقبلت علينا أختها. من المحتمل أنها أخذت تضجر من مناقشات الجيولوجيا العلمية عن تكوّن شواطئ الفولغا.

شرعت محدثتي تقول:

– تصوّري Pauline [1] أن monsieur كان يعرف لوكيانتش.

– صحيح؟ العجوز المسكين!

– خرجت للصيد غير مرة بالقرب من ميخائيلو فسكويه، أثناء وجودك هناك، قبل ثلاثة أعوام.

– وجودي؟

اعترضت بيلاغيا بشيء من الحيرة. فسارعت أختها لتردّ:

– نعم، بالطبع! هل معقول أنك لا تتذكرين؟

وحدّقت في عينيها متفرسة. فإذا بيلاغيا تقول فجأة:

– اها، نعم، نعم... بالضبط!

قلت في سري: «اهوه، لا أظنّك كنت في ميخائيلو فسكويه يا حلوة».

وفجأة قال شاب طويل له ناصية شقراء نافرة، وعينان عذبتان مربدتان:

– هلاّ غنيت لنا شيئاً، يا بيلاغيا فيدوروفنا.

قالت الآنسة باداييفا:

– الحقيقة، لا أعرف.

– وهل أنت تغنين؟ – هتفت بحيوية، ونهضت من مكاني بسرعة. – بحق الرب... آه، بحق الرب، غني لنا شيئاً.

– ولكن ماذا أغنّي لكم؟

– ألا تعرفين، – قلت محاولاً بكل وسيلة أن أضفي على نفسي مظهر اللاّمبالي والمستخف، – أغنية إيطالية... إنها تبدأ بـ ...Passa que'colli

أجابت بيلاغيا بسذاجة تامّة:

١– بولينا (بالفرنسية في الأصل) تقابلها بالروسية – بيلاغيا. (المعرب).

- أعرف. يعني أغنيها لكم؟ تفضلوا.

وجلست إلى البيانو. وصوّبت أنا نظراتي مثل هاملت[1] على السيدة شليكوفا. وبدا لي أنها في الصوت الأول، جفلت قليلاً، ولكنّها ظلّت جالسة بهدوء حتى النهاية. غنّت الآنسة بادايفا غناءً لا بأس به. انتهت الأغنية، وتردّد التصفيق المعتاد. وراح الحاضرون يسألونها أن تغني شيئاً آخر، إلاّ أن الأختين تغامزتا، وبعد بضع دقائق انصرفتا. حين كانتا تخرجان من الغرفة بلغت سمعي كلمة: importune[2].

قلت لنفسي: «مستحق!» و لم ألتق بهما بعد ذلك.

انقضى عام آخر. وانتقلت للإقامة في بطرسبورغ. وحلّ الشتاء، وبدأت الحفلات التنكرية. وذات مرة، وأنا خارج في الساعة الحادية عشرة من بيت أحد الأصدقاء، أحسست بانقباض شديد في النفس، فذهبت إلى حفلة تنكرية في مجمع النبلاء[3].

تجولت طويلاً بمحاذاة الأعمدة والمرايا، وعلى وجهي تعبير التواضع والقبول بالقضاء والقدر وهو تعبير يظهر في مثل هذه الحالات، والله يعلم السبب، وعلى قدر ما أسعفتني الملاحظة، في وجوه أكثر الناس استقامة، تجوّلت طويلاً، متملصاً بالنكتة بين الفينة والأخرى من المتنكرات الموصوصات بمخرماتهن المريبة، وقفازاتهن غير المغسولة، مبادراً إياهن بالحديث، وذلك أندر، وأسلمت أذني طويلاً إلى زعيق الأبواق وصريف الكمانات، وأخيراً استولى عليّ الضجر، وأصابني الصداع، فأردت الذهاب إلى البيت... ولكن... ولكن بقيت.

رأيت امرأة بلباس تنكري أسود متكئة على عمود - رأيتها، وتوقفت،

١- يقصد المشهد الثاني من الفصل الثالث من تراجيديا «هاملت» لشكسبير، حين راح هاملت أثناء تمثيل الممثلين لمشهد القتل يراقب الملك كلوديوس بإمعان، ليتأكد من جرمه.

٢- ملحاح (بالفرنسية في الأصل).

٣- هيئة للتسيير الذاتي لفئة النبلاء في الإمبراطورية الروسية من عام ١٧٨٥ إلى ١٩١٧.

وتقدّمت منها – و... هل سيصدقني القرّاء؟ عرفت بشخصها، على الفور، امرأتي الغريبة. ولا أستطيع أن أحسم مِمَ عرفتها، هل من النّظرة التي ألقتها عليّ بسهوم من خلال ثقبي القناع المستطيلين، أم من تقاطيعِ كتفيها ويديها المذهلة، أم من المهابة النسوية لكل هيئتها، أم، وهذا أخيراً، من الصوت المسارر الذي وسوس في داخلي فجأة... ولكنني عرفتها، وحسب.

مررت بها عدّة مرات، والرجفة في قلبي. لم تبد أية حركة. وكان في الوضع الذي اتخذته شيء حزين لا أمل فيه، حتى رأيت نفسي، وأنا أنظر إليها، أتذكر بيتاً من أغنية إسبانية رومانسية:

أنا لوحة حزينة

متكئة على جدار[1]

تحوّلت إلى وراء العمود الذي كانت تتكئ عليه، وأحنيت رأسي إلى أذنها، وهمست:

- Passa que'colli...

اهتزّت بكل كيانها، والتفتت إليّ بسرعة. والتقت عيوننا عن قرب، حتى كان في وسعي أن ألحظ كيف اتّسعت حدقتاها من الذعر. مدّت يداً واحدة بوهن وحيرة، ونظرت إليّ.

– السادس من أيار – ١٨٤، في سورنتو، في الساعة العاشرة مساء، في شارع della Crose [2] – قلت بصوت بطيء، غير صارف بصري عنها – ثم في روسيا... في ولاية... في قرية ميخائيلو فسكويه، في الثاني والعشرين من تموز – ١٨٤....

قلت كل ذلك بالفرنسية. تراجعت قليلاً إلى الوراء، وشملتني بنظرة مندهشة من قدمي حتى رأسي، وبعد أن همست: Venez [3]، خرجت من الصالة سريع الحركة.

١- sou un cuadro de tristeza، Arrimado a la pared (الملاحظة للمؤلف).

٢- الصليب (بالإيطالية في الأصل).

٣- تعال (بالفرنسية في الأصل).

سرت في إثرها.

سرنا صامتين. ليس في مقدوري أن أصف مشاعري وأنا أسير إلى جانبها. الحلم الجميل صار حقيقة فجأة... تمثال غالاتيا النازل من قاعدته امرأة حيّة أمام بصر بجماليون المصعوق[1]... لم أصدق نفسي، وكنت أتنفّس بعسر.

اجتزنا عدداً من الغرف... وأخيراً توقفت المرأة في إحداها، أمام أريكة صغيرة قرب النافذة، وجلست. وجلست بالقرب منها.

أدارت نحوي رأسها ببطء، وأمعنت النظر فيّ. وقالت:

– أنت... هل أرسلك هو؟

كان صوتها ضعيفاً غير واثق...

أربكني سؤالها قليلاً، وأجبت متلعثماً:

– لا... لم يرسلني.

– هل تعرفه؟

– أعرفه، – رددت بوقار خفي، فقد أردت أن أواصل دوري. – أعرفه.

نظرت إليّ بارتياب، وهمّت أن تقول شيئاً، وأطرقت برأسها. قلت:

– كنت تنتظرينه في سورنتو، والتقيت به في قرية ميخائيلو فسكويه، وخرجت معه على فرس...

شرعت تقول:

– كيف قدرت...؟

– أنا أعرف... أعرف كل شيء...

تابعت تقول:

– يبدو وجهك مألوفاً لي، ولكن لا...

– لا، أنت لا تعرفينني. لم أتعرف عليك.

– طيب، ماذا تريد؟

١- عشق النحات بجماليون، حسب الأسطورة الإغريقية، تمثال غالاتيا الذي صنعه. واستجابة لدعوات بجماليون بنت ربّة الحب أفروديت الحياة في التمثال.

قلت مكرراً:

- ولكنني أعرف كل شيء.

كنت أدرك جيداً أن عليّ أن أنتهز هذه البداية الممتازة، وأمضي فيما أنا فيه، وأن تكراري: «أعرف كل شيء، أعرف كل شيء» صار مضحكاً، ولكن اضطرابي كان شديداً جداً، وهذا اللقاء المفاجئ قد أربكني كثيراً، حتى تبلبلت، و لم أعد أستطيع قط أن أقول شيئاً آخر. أضف إلى ذلك أنني في الحقيقة لم أكن أعرف شيئاً زائداً. شعرت بأنني أتبلد، شعرت بأنني أتحوّل بسرعة من ذلك المخلوق المغلف بالأسرار العارف بكل شيء، والذي كان يجب أن أظهر به لها في البداية، إلى أبله متهكم... ولكن لم يكن هناك خيار آخر.

تمتمت مرة أخرى:

- نعم، أنا أعرف كل شيء.

نظرت إليّ، ونهضت بخفة، وهمّت بالانصراف.

ولكن ذلك كان قاسياً جداً. أمسكت يدها. وقلت:

- من أجل الرب، اجلسي، واصغي إليّ...

فكّرت قليلاً، وجلست.

تابعت كلامي بحرارة:

- قبل لحظة كنت أقول لك: أنا أعرف كل شيء. وهذا هراء. أنا لا أعرف شيئاً، لا شيء على الإطلاق. لا أعرف مَنْ انت، ولا من هو. وإذا كنت قد استطعت أن أثير دهشتك بما قلته لك قبل لحظات، عند العمود، فأعزيه إلى المصادفة الغريبة، غير المفهومة التي ألقتني إليك مرتين وبطريقة واحدة تقريباً، وكأنما ذلك لمجرد السخرية، وجعلتني، لا إرادياً، شاهداً على ما يمكن أن ترغبي في كتمانه...

وهنا أخذت أقصّ عليها كل شيء دون تردّد، وأي إخفاء: لقائي معها في سورنتو، ولقائي في روسيا، استفساراتي العديمة الجدوى في ميخائيلو فسكويه، وحتى حديثي مع شليكوفا وأختها في موسكو.

وبعد أن أنهيت روايتي واصلت القول:

- الآن تعرفين كل شيء. لا أريد أن أصف لك الانطباع العميق، المذهل الذي أثرته فيّ. من المستحيل رؤيتك دون الوقوع في سحرك. ومن جهة أخرى لست بحاجة إلى أن أقول لك أي نوع من الانطباع كان ذلك. وليكن في بالك في أي ظروف رأيتك في كلتا المرّتين... ثقي بأنني لا أحب الاستسلام إلى الآمال الجنونية، ولكن افهمي أيضاً ذلك الاضطراب غير المفسّر الذي استولى عليّ اليو، واعذريني، اعذريني على الحيلة غير اللائقة التي عزمت على أن ألجأ إليها لأثير انتباهك، ولو لبرهة من الوقت...

أصغت إلى توضيحاتي المفكّكة، دون أن ترفع رأسها.

وأخيراً قالت:

- طيب، ماذا تريد مني؟

- أنا؟ لا أريد شيئاً... أنا الآن سعيد بدون أي شيء... أنا أحترم أسرار الآخرين كثيراً.

- معقول؟ مع ذلك، تبدو حتى الآن... على أية حال، - تابعت قولها. - لا أريد أن أؤنبك. كل إنسان في مكانك سيتصرف نفس التصرف نفسه.

كما أن المصادفة قد قرّبت بيننا بإصرار شديد فعلاً... وذلك، على ما يبدو، يعطيك بعض الحق في أن أصارحك. اسمع، أنا لست من النساء التعيسات اللواتي لا يفهمن أحد واللواتي يترددن على الحفلات التنكرية ليثرثرن مع أي شخص عن عذاباتهن وهن بحاجة إلى قلوب مفعمة بالتعاطف... لست بحاجة إلى أي تعاطف. قلبي مات، وقد جئت إلى هنا لمجرد أن أدفنه نهائياً. - ورفعت المنديل إلى شفتيها.

تابعت قولها بشيء من الجهد:

- آمل ألا تعتبر كلماتي من تلك التدفقات العاطفية التي تحدث عادة في الحفلات التنكرية. يجب أن يكون على بالك أنه لا يهمني أن...

وبالفعل، كان في صوتها شيء مفزع، رغم كل النعومة المتسلّلة من نبراته.

وقالت بالروسية، وكانت حتى ذلك الحين تتكلّم باللغة الفرنسية:

- أنا روسية، رغم أنني عشت قليلاً في روسيا... لا حاجة لك لتعرف اسمي. آنا فيدوروفنا صديقة قديمة لي، وبالفعل سافرت إلى ميخائيلوفسكويه تحت اسم أختها... حينذاك كان لا يجوز أن ألتقي به علناً... بدون ذلك بدأت الشائعات تسري... حين كانت العقبات قائمة، إذ لم يكن حراً... هذه العقبات زالت... ولكن الرجل الذي كان يجب أن أحمل اسمه، والذي رأيتني معه، قد هجرني.

وأدَّت حركة بيدها، وصمتت...

- أكيد أنك لا تعرفه؟ لم تلتق به؟

- ولا مرة واحدة.

- كل ذلك الوقت تقريباً قضاه في الخارج. بالمناسبة، هو الآن هنا... هذه قصتي كلّها، - أضافت، - وأنت ترى ليس فيها أي شيء غامض، أي شيء خاص.

قاطعتها بتوجس:

- وسورنتو؟

- تعرفت به في سورنتو.

ردَّت ببطء، وغرقت في أفكارها.

صمت كلانا. استحوذ عليّ ارتباك غريب. جلست قربها، جلست قرب تلك المرأة التي كانت صورتها غالباً ما تتراءى في أحلامي، وتقلقني بعذاب، وتثير أعصابي، جلست قربها، وشعرت بثقل بارد في قلبي. كنت أعرف أن هذا اللقاء لن يسفر عن شيء، وأن بيني وبينها هاوية لا قرار لها، وأننا حين ننصرف، سنفترق إلى الأبد. وكانت هي قد مدَّت رأسها، وأرخت ذراعيها كلتيهما، وقعدت بلا مبالاة، وبإهمال. أنا أعرف هذا الإهمال المتأتي من محنة لا شفاء لها. أعرف اللامبالاة لتعاسة محقّقة! كانت الأقنعة تمرّ بنا

أزواجاً، وأصوات رقصة الفالس الرتيبة المخبولة[1] تتناءى في البعيد خابية تارة، ومترامية دفقات حادة تارة أخرى. كانت الموسيقى الراقصة المرحة تثير فيّ الحزن والانقباض.

فكرت: «هل من المعقول أن هذه المرأة هي نفس المرأة نفسها التي ظهرت لي آنذاك، في نافذة ذلك البيت الريفي البعيد بكل ألق الجمال المنتصر؟»، ومع ذلك فقد بدا وكأن الزمن لم يمسسها. كان الجزء الأسفل من وجهها، غيرُ المحجوب بمخرمات القناع ناعماً نعومة صبوية، ولكن البرودة كانت تنبعث منها، كما تنبعث من تمثال... لقد عادت غالاتيا إلى قاعدتها، ولن تنزل منها بعد الآن.

انتصبت المرأة فجأة، وألقت نظرة إلى الغرفة الأخرى، ونهضت قائلة لي:

- أعطني يدك. ولنذهب سريعاً، سريعاً.

عدنا إلى الصالة. سارت بسرعة كبيرة، حتى كدت لا ألحق بها. وتوقفت عند أحد الأعمدة، وهمست:

- لننتظر هنا قليلاً.

شرعت أقول:

- أنت تبحثين عن أحد؟...

إلاّ أنّها لم تعرني التفاتاً. فقد كانت نظرتها المتفرسة منغرسة في جمع الناس. كانت عيناها السوداوان الوسيعتان تنظران من تحت المخمل الأسود عبوستين متوعدتين.

استدرت باتجاه نظرتها، وأدركت كل شيء. في الممرّ الذي تشكله الأعمدة والحائط كان يسير هو، ذلك الرجل الذي التقيته معها في الغابة.

١- اقتباس من الرواية الشعرية «يفغيني أونيغين» للشاعر الروسي العظيم ألكسندر بوشكين:

عاصفة الفالس الصاخبة
تدور رتيبة مخبولة
كحياة الصبا

عرفته في الحال. لم يتغيّر تقريباً. كان شاربه الأشقر يلوح بالجمال نفسه، وعيناه البنيتان تشعان بنفس بالمرح الهادئ الواثق نفسه. كان يسير دون عَجَل، وقد أمال قليلاً قوامه الممشوق، يُحدِّث امرأة متنكرة، متأبطاً ذراعها. وعندما حاذانا، رفع رأسه فجأة، ونظر إليّ أولاً، ثم إليها، إلى تلك التي كنت أقف معها، ومن المحتمل أنه عرفها، عرف عينيها، لأن حاجبيه ارتعشا قليلاً، فقلّص عينيه، وتحرّكت شفتاه بابتسامة ساخرة لا تكاد تلحظ، ولكنها وقحة إلى حدٍّ لا يطاق. انحنى نحو رفيقته، وأسرّ في أذنها كلمتين، فنظرت هذه على الفور، عيناها الزرقاوان الصغيرتان ألقتا نظرة على كلينا، وضحكت ضحكة خفيفة مهدّدة إياه بيدها الصغيرة. رفع كتفاً واحجة بحركة خفيفة، وانضغطت هي عليه بغنج...

التفت إلى امرأتي الغريبة. كانت تنظر في إثر الزوجين المبتعدين، وفجأة سحبت يدها مني، واندفعت نحو الباب. انطلقت في إثرها، إلا أنها استدارت ونظرت إليّ نظرة جعلتني أنحني لها بشعور عميق، وأظل في مكاني، لقد أدركت أن ملاحقتها ستكون فظاظة وحماقة.

بعد ربع ساعة من ذلك، قلت لصديق لي هو دليل حي لعناوين بطرسبورغ ووقائعها:

- قل لي أرجوك، يا أخي العزيز، من ذلك السيد الطويل الوسيم ذو الشاربين؟

- ذاك؟ ذاك أجنبي، مخلوق ملغز إلى حدٍّ كبير، نادراً جداً ما يظهر في وسطنا. ما الخبر؟

- لا شيء!...

وعدت إلى البيت. ومنذ ذلك الحين لم ألتق قط بامرأتي الغريبة. ومن المحتمل، وقد عرفت اسم الرجل الذي أحبّته، كنت سأعرف، أخيراً، مَنْ هي، ولكن لم أكن راغباً في ذلك. وقد قلت آنفاً إن هذه المرأة تراءت لي كحلم وكالحلم أيضاً مرّت بي، واختفت إلى الأبد.

مومو[1]

في أحد شوارع موسكو النائية، وفي بيت رمادي ذي أعمدة بيضاء، وعلية وشرفة مائلة كانت تعيش، في زمن من الأزمان، سيدة من الأكابر، أرملة، يحيطها عدد كبير من الخدم. كان أبناؤها في مناصب في بطرسبورغ، وبناتها متزوجات. وكانت نادراً ما تخرج في سفر، فكانت تقضي الأعوام الأخيرة من حياتها الشحيحة وشيخوختها المضجرة في عزلة. انقضى نهار حياتها الكئيب المكفهّر منذ زمان، ولكن مساءها كان أكثر اكفهراراً.

وكان الكناس غيراسيم أروع شخصية من بين خدمها كلهم. وهو رجل فاره القامة جداً[2]، مارد البنيان، أصم أبكم بالولادة. وقد أخذته السيدة من القرية، حيث كان يعيش في كوخ صغير، بمعزل عن إخوته، ويعتبر أكثر الفلاحين الملزمين[3] استقامة، وكان وهو الموهوب قوة غير اعتيادية، يعمل ما

١- قصة «مومو» في اتجاهها المناهض للقنانة قريبة من «مذكرات صياد».

وضمنت في أساسها القصة الواقعية للفلاح الأبكم أندريه قن والدة الكاتب فارفارا بتروفنا لوتوفينوفا، مالكة الأراضي المستبدّة ذات النزوات.

وقد غيّر تورغينيف النهاية الحقيقية للقصة. إذ في الواقع استمرّ أندريه في خدمة سيدته بولاء. ففي هذا التطوّر لحل العقد الذي ساقه تورغينيف اتخذت شخصية غيراسيم قيمة كبيرة وتعميماً فنياً.

نشرت القصة لأول مرة، في العدد الثالث من مجلة «سوفريمينيك»، عام ١٨٥٤.

٢- في النص حوالي اثني عشر «فيرشوكاً» أي ١٩٥,٥ سنتمتراً، (المعرب).

٣- اللّزمة: هي ضرائب حكومية على الفلاحين في روسيا في عهد القنانة، كانت تدفع إلى مالك القن عيناً أو سخرة لدى استثماره لقطعة أرض تعطى لعائلة واحدة.

يعمله أربعة أشخاص، فقد كان العمل يطاوع يديه، فما أبهج أن تراه يحرث سانداً المحراث بكفيه الضخمتين، فيبدو وكأنه يشق صدر الأرض الصلد وحده وبدون معونة الحصان، أو تراه في عيد القديس بطرس ينزل بمنجله كالصاعقة، حتى لكأن دغل البتولا الفتي سينقلع من جذوره، على ضرباته، أو تراه يدرس بالمدراس الطويل بخفّة واستمرار، وعضلات منكبيه الطويلة الصلبة تهبط وترتفع كالعتلة.

وكان صمته المستديم يضفي على عمله الدؤوب مهابة ظافرة. كان رجلاً لطيفاً، ولولا عاهته لقبلته كل فتاة زوجاً لها عن طيب خاطر... ولكن غيراسيم أخذ إلى موسكو، واشتروا له حذاءً طويلاً، وخاطوا له قفطاناً للصيف، وفروة طويلة للشتاء، ووضعوا في يده مكنسة ورفشاً، وعيّنوه كناساً.

في بادئ الأمر ضاق من حياته الجديدة ضيقاً شديداً. لقد تعوّد منذ الطفولة على أعمال الحقل، ومعيشة القرية. فنما، وقد عزلته محنته عن معاشرة الناس، أبكم وجباراً، كما تنمو الشجرة في أرض خصبة... وعندما نقلوه إلى المدينة، لم يكن يفهم ما الذي يجري له، فكان يشعر بالوحشة، ويتحيّر، مثلما يتحيّر ثور فتي معافى أُخذ للتوّ من أرض مزروعة، كان عشبها الريّان يبلغ بطنه طولاً، أُخذ ووضع في عربة شحن في قطار، وها هو القطار ينطلق به مغلفاً بدنه المسمّن تارة بالدخان والشرر، وتارة بالبخار المموج، القطار ينطلق به مقرقعاً زاعقاً، والله وحده يعلم إلى أين!

وكانت أشغال غيراسيم في وظيفته الجديدة تبدو له مزاحاً، بعد أعمال الفلاح الشاقة، فكان ينجز كل شيء على الفور، ويعود تارة إلى التوقف، في وسط الفناء، ينظر فاغر الفم إلى كل عابر سبيل، كأنما يريد أن يحصل منه على حل لوضعه الغريب، وتارة إلى الانزواء فجأة في ركن، يقذف المكنسة والرفش بعيداً، وينطرح ووجهه إلى الأرض، ويقضي ساعات كاملة منطرحاً على صدره بلا حراك، مثل وحش مقتنص. ولكن الإنسان يتعوّد على كل شيء، وغيراسيم تعوّد، أخيراً على حياة المدينة.

لم تكن أشغاله كثيرة. كان عمله كله لا يتجاوز الاحتفاظ بالفناء نظيفاً،

وجلب برميل الماء مرتين في اليوم، وحمل الحطب وتقطيعه ليستخدم في المطبخ وفي البيت، ومنع الغرباء من الدخول، والحراسة في الليل.

ويجدر القول أن غيراسيم كان يقوم بعمله بدأب: الفناء بين يديه خالٍ من أية قشة ونفاية، وإذا توحل، في موسم الأوحال، الحصان المنهوك القويّ الذي وضع تحت تصرفه، فقد كان غيراسيم يكتفي بهزّ كتفيه، ويجعل العربة مع برميل الماء والحصان ذاته يخرجان من الوحلة، والحطب إذا شرع في تقطيعه يرن تحت ضربات الفأس رنين الزجاج، وتتطاير الشظايا والقِضَم كل مطار.

أما بخصوص الغرباء، فالنّاس جميعاً في الجوار أخذوا يحترمونه، بعد تلك الحادثة الليلية، حين أمسك غيراسيم بلصّين، ونطح أحدهما بجبين الآخر، نطحة لم تعد هناك حاجة بعدها إلى أخذهما إلى مركز الشرطة، وليس هذا فحسب، بل إن المارين نهاراً، حتى وإن لم يكونوا محتالين أبداً، بل مجرد أناس لا يعرفون هذا الكناس، كانوا يهزون أذرعهم عند رؤيتهم له في سحنته الرهيبة، ويصيحون عليه، وكأنما كان قادراً على سماع صيحاتهم، وكان غيراسيم على علاقة وديّة مع جميع الخدم الآخرين، وإن لم تكن على علاقة صحبة، فقد كانوا يرهبونه، بينما كان غيراسيم يعتبرهم من جماعته.

كانوا يتكلّمون معه بالإشارات، وكان هو يفهمهم، وينفّذ كل الأوامر بدقة، ولكنه في الوقت ذاته كان يعرف حقوقه، فلم يجرؤ أحد على احتلال مكانه على المائدة. وعلى العموم كان غيراسيم ذا خُلق صارم جاد، يحب النظام في كل شيء، وحتى الديكة لم تكن تجرؤ على العراك في حضوره، وإلا فالويل لها! فقد كان يمسكها من أرجلها حالاً، ويديرها في الهواء عشر مرات، كما تُدار العجلة، ويقذفها بعيداً.

وكان الوز يربى في فناء السيدة كذلك، ولكن الإوزة، كما هو معروف، طائر مهيب عاقل، فكان غيراسيم يشعر بالاحترام نحوه، ويشمله بالرعاية ويطعمه، وكان هو نفسه يشبه ذكر الوز المهيب. خصّصوا له حجرة صغيرة فوق المطبخ، فأعدها لنفسه، حسب ذوقه: صنعَ فيها من ألواح خشب البلوط سريراً على أربع قوائم، هو للعمالقة عن حق، فقد كان من الممكن

أن تضع فوقه مائة بود[1]، دون أن ينوء بها، وتحت السرير صندوق ضخم وفي الركن طاولة بنفس المتانة، وبالقرب منها مقعد على ثلاث قوائم، قوي وركين أيضاً، حتى إن غيراسيم نفسه كان يرفعه أحياناً ويلقيه من يده، ويرسل ضحكة.

وكانت الحجرة تغلق بقفل يشبه بشكله كعكة مدورة، سوى أنه أسود، وكان غيراسيم يحتفظ بمفتاح هذا القفل معه في حزامه دائماً. وكان لا يحب أن يُزار.

وانقضى عام على هذه الحال، وفي نهايته حدث لغيراسيم حادث صغير.

كانت السيدة العجوز التي يخدمها غيراسيم ككناس تراعي العادات القديمة في كل شيء، وتحيط نفسها بعدد كبير من الخدم، فكان لها في بيتها غسالات، وخياطون وخياطات، ونجارون، بل وكان لها سراج كان يعتبر في الوقت ذاته طبيباً بيطرياً، ومطبباً للخدم، وكان هناك طبيب خاص للسيدة، وأخيراً، كان عندها إسكاف يدعى كابيتون كليموف، هو سكير عتيد.

كان يعتبر نفسه مخلوقاً مظلوماً لم تقدر قيمته، وإنساناً متعلماً من أهل العاصمة لا يليق به العيش في موسكو[2]، في مكان قصي، وبلا شأن، وإذا ما شرب الخمرة، فقد كان حسب قوله، وهو يضرب على صدره متقطع الأنفاس، يشربها عن شقائه.

وحدث ذات مرة أن ذُكر الإسكاف في حديث للسيدة مع رئيس خدمها غافريلا، وهو إنسان كان يبدو من عينيه الصفراوين وأنفه المعكوف وكان القدر نفسه حكم بأن يكون الشخص المهيمن. تأسفت السيدة من فساد خلق كابيتون، الذي وُجد في العشية سائباً في الشارع.

وفجأة قالت السيدة:

- ما رأيك، يا غافريلا في أن نزوجه؟ ربما سيعقل.

ردّ غافريلا:

١- البود: معيار وزن روسي قديم يعادل أكثر من ١٦ كيلوغراماً، (المعرب).

٢- كانت عاصمة روسيا في ذلك الحين بطرسبورغ. (المعرب).

- ولِمَ لا! ممكن أن نزوجه! بل وسيكون ذلك مفيداً جداً.

- نعم، ولكن من ستقبل به زوجاً؟

- بالطبع، يا مولاتي. ولكن حسب مشيئتك. ربما سينفع في شيء ما، فهو لا يخلو من جسارة.

- أظن أن تاتيانا تروق له؟

أراد غافريلا أن يعترض بشيء، ولكنه ضمّ شفتيه، ولم يقل شيئاً.

- نعم، ليخطبوا له تاتيانا، - أصدرت السيدة أمرها، وهي تشم التبغ بتلذّذ. - هل تسمع؟

- حاضر، يا سيدتي.

نطق غافريلا بذلك، وانصرف.

عاد غافريلا إلى حجرته (كانت في المبنى الملحق بالبيت، ومثقلة كلها تقريباً بالصناديق المصفحة بالمشدات الحديدية) وأول ما فعله أن أخرج زوجته، ثم جلس إلى النافذة، وراح يفكر. الظاهر أن أمر سيدته المفاجئ قد أذهله. وأخيراً نهض، وطلب أن يستدعي كابيتون. وجاء كابيتون... ولكن قبل أن أنقل للقراء حديثهما، أرى من غير الزائد أن أتحدث ببعض الكلمات عن تاتيانا التي كان على كابيتون أن يتزوجها، ولِمَ أثار تصرف السيدة قلق الخادم.

كانت تاتيانا التي تشغل وظيفة غسالة، كما قلنا آنفاً، (وبالمناسبة لم يعهد إليها، وهي الغسالة الماهرة المتعلّمة بغير البياضات الرفيعة) امرأة في نحو الثامنة والعشرين من العمر، صغيرة الجسم، نحيلة، شقراء، لها خال على خدها الأيسر. والخال على الخد الأيسر يعتبر في روسيا علامة شؤم، تنذر بحياة تعيسة... وما كان في وسع تاتيانا أن تفتخر بنصيبها من الدنيا. منذ صباها وهي تعامل معاملة سيئة، وتقوم بما تقوم به امرأتان، أما الرقة فلم ترها قط.

كانوا يلبسونها رديء الثياب، ويعطونها أقل مرتب، والأقارب سواء لديها وجودهم أو عدمه، لم يكن لها غير عم هو وكيل أقوات عجوز تُرك في القرية لانعدام الفائدة منه، وأعمام آخرين من الفلاحين. وهذا كل شيء.

كانت تاتيانا في وقت من الأوقات معروفة بجمالها، إلاّ أن الجمال سرعان ما زال عنها. كانت وديعة الخلق جداً أو مرعوبة، وهذا أصحّ ما يُقال، وكانت تحس بعدم المبالاة نحو نفسها، وتخشى الآخرين خشية الموت، ولا تفكر إلا في أن تنجز عملها في موعده، ولم تكن تتحدث إلى أحد قط، وترتجف من مجرد ذكر اسم السيدة، رغم أن هذه لم تلمحها قط. وحين جلب غيراسيم من القرية كادت تاتيانا أن تفقد وعيها ذعراً، من مجرد رؤيتها لجرمه الضخم، فكانت تحاول بكل وسيلة أن تتجنّب الالتقاء به، بل وكانت تقلّص عينيها، إذا صادف وأن مرّت به راكضة، مسرعة من البيت، إلى حجرة الغسيل.

وغيراسيم في بادئ الأمر لم يكن يعير لها أي التفات خاص، ثم أخذ يضحك عند رؤيته لها، ثم أخذ يرمقها، وأخيراً راح لا يصرف عنها بصره. فقد راقت له سواء لمسحة الوداعة في وجهها، أو للتهيب في حركاتها. الله يعلم! وذات مرة مرت تاتيانا في الفناء، رافعة بلوزة السيدة المنشاة بأصابعها الحاذقة... وإذا بيد قوية تمسك بمرفقها فجأة، فالتفتت، وأرسلت صرخة شديدة، فقد كان غيراسيم يقف وراءها. كان يمد لها كعكة على شكل ديك مذهب في ذيله وجناحيه، وكان يضحك ببلاهة ويجأر برقة. أرادت أن ترفض، إلاّ أن غيراسيم دسّها في يدها عنوة، وهزّ رأسه، وابتعد عنها، ثم التفت، وجأر لها مرة أخرى بشيء شديد المودّة.

ومنذ ذلك اليوم لم يتركها في سكينة. كانت أينما ذهبت تجده هناك مقبلاً عليها، يتسم ويجأر، ويلوح بذراعيه، ويدسّ لها شريطاً يخرجه من فتحة قميصه، أو ينظف الغبار أمامها بالمكنسة. لم تكن الفتاة المسكينة تعرف ماذا تفعل، وكيف تتصرف. وسرعان ما عرف كل مَن في البيت كله بأحابيل الكناس الأصم. فراحوا يمطرون تاتيانا بعبارات التهكم والتفكه ولواذع الكلمات. ومع ذلك لم يجرؤ الجميع على السخرية بغيراسيم، فقد كان هذا لا يحب النكات، كما أنهم لم يكونوا يتحرشون بها في حضوره.

وهكذا وجدت الفتاة نفسها تحت رعاية غيراسيم سواء أسرها ذلك أم لم يسرها. وكان غيراسيم، مثل جميع الصم البكم، فطناً يدرك جيداً حين يهزأ

الناس به أو بها. وذات مرة على الغداء أخذت مسؤولة البياضات، رئيسة تاتيانا، تقرصها بقوارص الكلم، كما يقال، إلى حدّ أن الفتاة المسكينة لم تعرف أين توجه بصرها، وكادت تبكي من شدة الضيق. وإذا بغيراسيم يرفع جذعه من مقعده، ويمد يده الضخمة، ويضعها على رأس المسؤولة، ويتفرس في وجهها بضراوة جهماء، حتى إن هذه المرأة انحنت نحو المائدة، وبقيت كذلك لا تتحرك. ولزم الجميع الصمت. وعاد غيراسيم فأمسك الملعقة، ومضى يحتسي حساء الكرنب، كما كان. تمتم الجميع بصوت خافض: «يا لك، أيها الشيطان الأصم، العفريت!»، بينما نهضت مسؤولة البياضات، وذهبت إلى حجرة الخادمات.

وفي مرة أخرى لاحظ غيراسيم أن كابيتون، وهو نفس الرجل المذكور نفسه آنفاً، راح يتودّد لتاتيانا بحرارة، فأومأ إليه غيراسيم يدعوه بأصبعه، واختلى به في سقيفة العربات، وأمسك طرف عريش عربة كان مركوناً في زاوية، وهزّه عليه هزاً خفيفاً، ولكنه كثير الدلالة مهدداً إياه به. ومنذ ذلك الحين لم يبادر أحد الكلام مع تاتيانا. وكل ذلك مرّ دون أن يكلفه عقاباً.

في الحق إن رئيسة البياضات ما أن ركضت إلى حجرة الخادمات، حتى سقطت في غيبوبة، وبشكل عام تصرفت بحذق، حتى إنها في نفس اليوم أوصلت إلى السيدة خبر تصرف غيراسيم الفظ، إلاّ أن العجوز الغريبة الأطوار اكتفت بالضحك، وشعرت هذه بإهانة بالغة، حين أجبرتها سيدتها على أن تكرر ما حدث قائلة: كيف جعلك تنحنين بيده الثقيلة، وفي اليوم التالي أرسلت لغيراسيم روبلاً.

وكانت تكافئه كحارس أمين قوي الشكيمة. وكان غيراسيم يتهيبها على قدر كبير، إلاّ أنه كان يعتمد على نعماها، فعقد العزم على أن يلتمس منها عسى أن تزوجه تاتيانا. ولم يكن ينتظر إلا القفطان الجديد الذي وعده به رئيس الخدم ليمثل أمام السيدة في مظهر لائق، وفجأة يخطر ببال السيدة أن تزوج تاتيانا لكابيتون.

والآن يسهل على القارئ أن يفهم بنفسه سبب الارتباك الذي اعترى غافريلا رئيس الخدم، بعد حديثه مع السيدة. فكر وهو جالس إلى النافذة:

«بالطبع، إن السيدة تشفق على غيراسيم (وكان غافريلا على معرفة جيدة بذلك، ولهذا كان يجاريه) ثم إنه مخلوق أخرس. من المستحيل أن أبلغ السيدة بأن غيراسيم يغازل تاتيانا. وأخيراً أيعقل، والحق يقال، أن يكون زوجاً؟ ومن جهة أخرى، إذا عرف هذا العفريت، لا قدّر الله، بأن تاتيانا ستزف إلى كابيتون، فإنه سيحطم كل ما في البيت، والله العظيم. ولا أحد يستطيع أن يتفق معه. إن هذا الشيطان لا يستطيع أحد أن يقنعه، وأرجو المغفرة من الله على هذا القول، أنا الآثم... حقاً!..».

قطع وصول كابيتول على غافريلا خيط أفكاره. دخل الإسكاف الخلي البال، وطرح يديه إلى الوراء، واتكأ رخياً على طلعة في الجدار، قرب الباب، ووضع رجله اليمنى متصالبة على رجله اليسرى، وألقى رأسه إلى الخلف، وكأنه يقول: «هذا أنا، فماذا تبتغي؟».

نظر غافريلا إلى كابيتون، وراح ينقر بأصابعه على عضادة الشباك، فاكتفى كابيتون بأن قلص قليلاً عينيه القصديرتين، دون أن يخفضهما، بل وأطلق تكشيرة خفيفة، وأرسل يده في شعره الفاتح الذي ظل نافراً، كما كان مبعثراً في كل ناحية. وكأنه يقول: طيب، هذا أنا، فلماذا تحدق فيّ؟

قال غافريلا:

– لطيف، – ثم صمت قليلاً وعاد يقول: – لطيف، دون شك!

هزّ كابيتون كتفيه ولا غير، وفكّر مع نفسه: «وهل تظن أنك أحسن؟».

بينما تابع غافريلا كلامه موبخاً:

– طيب، انظر إلى نفسك، طيب انظر. في أي حال أنت؟

ألقى كابيتون نظرة هادئة إلى معطفه المستهلك الممزق، وإلى بنطلونه المرقع، ونظر بعناية خاصة إلى حذائه الطويل المثقب، ولا سيّما إلى تلك الفردة التي كانت قدمه اليمنى تتكيء على بوزها بتلك الطريقة المتأنقة، وعاد يتفرس في رئيس الخدم.

– وماذا؟

قال غافريلا:

– وماذا؟ تقول وماذا؟ بينما أنت أشبه بشيطان، وليحاسبني الرب، أنا الآثم، بهذه الحال أنت.

راح كابيتون يرمش رمشاً شديداً.

وعاد يفكر مع نفسه: «اشتم، اشتم، يا غافريلا أندريتش».

وطفق غافريلا يقول:

– كنت سكران مرة أخرى. مرة أخرى؟ ها؟ طيب، أجب.

ردّ كابيتون قائلاً:

– لضعف الصحة عاقرت الخمرة، حقاً.

– لضعف الصحة!.. العقاب قليل في حقك، بصراحة. وتقول كنت تتعلم في بطرس[1]... فما الفائدة؟ أنت لا تستحق حتى الخبز الذي تأكله.

– في هذه المسألة يوجد قاض واحد، يا غافريلا أندريتش، هو الرب نفسه، ولا أحد سواه. هو وحده يعرف أي إنسان أنا، وهل أنا لا أستحق أكل الخبز حقاً؟ أما بخصوص السكر ففي هذه المرة أيضاً لم أكن الملوم، بل يقع اللوم أكثر على صاحب أغواني، ووسوس لي، وانصرف، بينما أنا...

– بقيت في الشارع متورطاً، آه، منك، يا طائش! طيب، ليست هذه المسألة، – تابع رئيس الخدم كلامه. – المسألة هي... – وهنا صمت قليلاً – السيدة شاءت أن تزوجك. سامع؟ وحضرتها ترى أنك ستعقل حين تتزوج. فاهم؟

– وكيف لا؟

– أشك. ومن الأفضل في رأيي أن تمسك من زمامك بشكل جيد. ولكن تلك مشيئة السيدة. كيف؟ هل أنت موافق؟

كشّر كابيتون.

– الزواج شيء حسن للإنسان، يا غافريلا أندريتش. وأنا من جانبي، بكل متعة وسرور.

١– يقصد بطرسبورغ، وهذه الصيغة المختصرة شائعة. (المعرب).

– أشك – ردّ غافريلا، وفكّر في سرّه «كلام الرجل معقول، دون شك» ورفع صوته قائلاً: – ولكن الخطيبة التي رست عليها ليست تامة الصفات.

– لو تكرمت وقلت من هي؟..

– تاتانيا.

– تاتانيا؟

وبحلق كابيتون عينيه، وابتعد عن الجدار.

– طيب، ما بك جفلت؟.. ألا تروق لك؟

– ليست مسألة رواق، يا غافريلا أندريتش! فهي فتاة لا بأس بها، شغولة ووديعة... ولكن أنت تعرف بنفسك، يا غافريلا أندريتش، تعرف العفريت ذاك، جني السهوب هذا، إنه يصبو إليها...

قاطعه رئيس الخدم في ضيق:

– أعرف، يا أخ، أعرف كل شيء، ولكن...

– عدم المؤاخذة، يا غافريلا أندريتش! سيقتلني، وحق الرب سيقتلني، سيخبطني، كما يخبط ذبابة، أنت تعرف أية يد له، ولا مؤاخذة، جبارة يد مينين وبوجارسكي[1]. وهو أصم، يضرب ولا يسمع كيف يضرب! كأنه يلوح بقبضتيه في الحلم. وليس من الممكن إيقافه أبداً. لماذا؟ لأنه أصم، كما تعرف، يا غافريلا أندريتش، وعلاوة على ذلك أبله وناشف كعقب القدم. إنه وحش ضار، صنم لا يفقه، يا غافريلا أندريتش، وأسوأ من صنم... عود غرب. ولماذا عليّ أن أقاسي منه الآن؟ بالطبع سواء لدي كل شيء الآن. فأنا رجل أتلف ماله، وشرب كأس الصبر إلى الآخر، وتشبع كما تتشبع بالدهن السلطانية الفخارية، ومع ذلك فأنا إنسان، على أية حال، وليس سلطانية حقيرة.

١– يقصد بجموعة النصب التذكاري في الساحة الحمراء في موسكو، التي أقيمت في عام ١٨٢٦ (من أعمال النحات ي. مارتوس). كوزما مينين (توفي في عام ١٦١٦) بطل شعبي. ودميتري بوجارسكي (١٥٧٨ – ١٦٤٢) أمير وصاحب أطيان، وبطل شعبي. وكلا الرجلين قاد فرقة المتطوعين، ونظم الحرب التحررية الوطنية التي خاضها الشعب الروسي ضد البولونيين.

- أعرف، أعرف، فلا تسترسل في الوصف...

- يا ربي! - تابع الإسكاف قوله بحماسة - متى ينتهي هذا؟ متى؟ يا رب! أنا تعيس، تعيس لا محال! حظي، آه يا حظي، تصور! في شبابي ضُربت بسبب الألماني الذي كنت أعمل عنده، وفي أحسن أوقات عمري ضربني من هم على شاكلتي، وأخيراً، في أعوام الرجولة يصل بي الحظ إلى هذا الحال...

قال غافريلا:

- كفاك، يا معذب. ما هذا الكلام الزائد. حقاً!

- زائد، يا غافريلا أندريتش؟ أنا لا أخاف الخبط والضرب، يا غافريلا أندريتش. فليضربني سيدي بين جدران أربعة، وليحترمني أمام الناس. عندئذٍ سأكون في عداد الناس، أما الآن فعلى يد من أضطر أن...

قاطعه غافريلا نافد الصبر:

- كفى، هيا أخرج.

استدار كابيتون، وانسل خارجاً، صاح رئيس الخدم في إثره:

- لنفرض أنه لم يكن في الوجود، فهل ستقبل عندئذ؟

- على العين والرأس. - رد كابيتون، وانصرف.

إن الفصاحة لم تكن تفارقه حتى في أشد الظروف.

ذرع رئيس الخدم الحجرة عدة مرات. وقال أخيراً:

- طيب، أدعو الآن تاتيانا.

وبعد بضع لحظات دخلت تاتيانا في خطو لا يكاد يسمع، ووقفت عند العتبة. وقالت بصوت خافت:

- ماذا تأمر، يا غافريلا أندريتش؟

حدق رئيس الخدم فيها، وقال:

- طيب، يا تاتيانا، هل تريدين أن تتزوجي؟ السيدة وجدت لك خطيباً.

- سمعاً، يا غافريلا أندريتش. ومن الخطيب الذي عينته؟

قالت ذلك بتردّد.

– كابيتون، الإسكاف.

– سمعاً.

– صحيح أنه رجل أرعن، ولكن السيدة تعتمد عليه في هذا الأمر.

– سمعاً.

– هناك محذور واحد... هو ذاك الأطرش غيراسيم، فهو يغازلك، فبأي شيء سحرته؟ سيقتلك هذا الدب، على ما أظن...

– سيقتلني، يا غافريلا أندريتش، سيقتلني حتماً.

– يقتلك... طيب، سنرى بعد. كيف تقولين: سيقتلني! هل له الحق في أن يقتلك؟ احكمي بنفسك.

– لا أدري، هل له الحق أم لا؟.

– يا لك!... ولكنك لم تعديه بشيء...

– ماذا، أرجوك؟...

صمت رئيس الخدم، وفكّر مع نفسه: «يا لك من وديعة!»، وأضاف:

– إذن، طيب، سنعاود الحديث معك. والآن، اذهبي يا عزيزة. أراك وديعة حقاً.

استدارت تاتيانا، وانصرفت مستندة قليلاً إلى عضادة الباب.

وفكّر رئيس الخدم: «ربما ستنسى السيدة الزواج هذا في الغد. فلماذا أعذب نفسي بالقلق؟ سنذلل ذلك المشاكس، وإذا حصل شيء سنخبر الشرطة...».

ونادى على زوجته بصوت عال:

– أوستينيا فيدوروفنا! انصبي السماور، يا محترمة...

قضت تاتيانا اليوم كلّه تقريباً دون أن تغادر حجرة الغسيل. في بادىء الأمر راحت تبكي، ثم مسحت دموعها، وشرعت تعمل كما كانت. أما كابيتون فقد ظل جالساً في حانة إلى ساعة متأخرة من الليل مع صاحب كئيب

المظهر، كان كابيتون يقص عليه بإطناب كيف أنه كان يعيش في بطرس عند سيد قد يكون محمود الخصال في كل شيء، إن لم يكن متعنتاً في مراقبة. و لم يخطئ إلا في شيء واحد، إذ كان يسرف في الشرب كثيراً. والجنس اللطيف لا يفرق الشين والزين... وكان النديم الكئيب يوافقه مستجيباً لحديثه، ولكن كابيتون أعلن أخيراً أن عليه أن ينتحر غداً، لسبب من الأسباب، وإذا بالرفيق الكئيب يقول: إن وقت النوم قد حان. فيفترقان صامتين وعلى غير وئام.

وخلال ذلك لم يتحقق ظن رئيس الخدم. فقد استحوذت على السيدة فكرة زواج كابيتون حتى إنها كانت في الليل لا تتحدث إلا عن ذلك لواحدة من صاحباتها، كانت لا تبقيها في بيتها إلا حين ينتابها الأرق، فكانت هذه كالحوذي الليلي لعربة الأجرة لا تعمل إلا ليلاً وتنام في النهار. وعندما دخل غافريلا عليها بعد موعد تناول الشاي ليبلغها بتقريره عن شؤون اليوم، كان أول سؤال طرحته عليه: هل قضية الزواج جارية؟ وطبيعي أنه أجاب بأن الزواج جار على أحسن ما يكون، وأن كابيتون سيمثل أمامها اليوم ذاته يخطب ودها.

كانت السيدة هذا اليوم في صحة متوعكة، فلم تشغل نفسها في هذه الشؤون طويلاً. وعاد رئيس الخدم إلى حجرته، ودعا إلى اجتماع للتشاور. كان الأمر يتطلّب مناقشة خاصة بالتأكيد. لم تكن تاتيانا تعارض، بالطبع. ولكن كابيتون أعلن أمام الحاضرين جميعاً أن له رأساً واحدة لا رأسين أو ثلاثة... كان غيراسيم ينظر إلى الجميع نظرات جهماء سريعة، و لم يغادر مدخل مأوى الخادمات، وبدا وكأنه حدس أن شيئاً منحوساً يبيت له.

بدأ المجتمعون (وكان بينهم الساقي العجوز المكنى بالعم «ذيل»، والذي كان الجميع يطلبون منه نصحاً، رغم أنهم لم يكونوا يسمعون منه غير: هكذا، إذن، ونعم، نعم، نعم) بدأوا في الاتفاق على أن يحجزوا كابيتون للأمان ودفعاً لكل طارئ، في الشونة الصغيرة التي تضم آلة تنقية الماء، وأخذوا يغرقون في تفكير عميق. كان من السهل، بالطبع، اللجوء إلى القوة. ولكن الله يستر! فقد تحدث ضجة، وتقلق السيدة، عندئذ ستحل مصيبة! فكيف إذن؟ فكروا، فكروا، ورسوا إلى فكرة في آخر الأمر.

كانوا قد لاحظوا غير مرة أن غيراسيم لا يطيق السكارى... كان في كل مرة، أثناء جلوسه وراء البوابة يستدير بحنق، حين يمر به إنسان سارح يسير في خطى متخلخلة، وظليلة طاقيته نازلة على أذنه. فقرروا أن يعلموا تاتيانا التظاهر بالسكر، فتمر بغيراسيم مترنحة متمايلة. ظلّت الفتاة المسكينة ترفض ذلك وقتاً طويلاً، إلا أنهم أقنعوها أخيراً، لا سيّما وأنها رأت بنفسها أن لا سبيل إلى الخلاص من قبضة مغازلها بغير ذلك. وسارت تاتيانا وأطل كابيتون من الشونة، فإن الأمر يخصه على أية حال. وكان غيراسيم جالساً على مقعد عند البوابة يغرس المجرفة في الأرض... والناس تنظر إليه من وراء الزوايا كلها، ومن تحت الستائر خلف النوافذ...

ونجحت الحيلة كأحسن ما يكون النجاح. أبصر غيراسيم بتاتيانيا، فهزّ رأسه لها في البداية بجؤاره الودّي على مألوف عادته. ثم أمعن النظر، وأسقط المجرفة من يده، ووثب، وتقدم منها، وقرّب وجهه من وجهها... ومن الفزع ازدادت تاتيانا ترنحاً، وأغمضت عينيها... أمسك غيراسيم يدها، وجرها عبر الفناء كله، ودخل معها الغرفة التي يجتمع فيها الحاضرون، ودفعها إلى كابيتون رأساً. وجمدت تاتيانا هناك... وقف غيراسيم قليلاً، ونظر إليها، وهز ذراعه عيوفاً، وحمّ، وانصرف إلى حجرته بخطى ثقيلة... ولم يخرج منها اليوم كله.

وفيما بعد ذكر أنتيبكا الحوذي أنه رأى غيراسيم من خلال شق، جالساً على سريره، مسنداً خده على يده، يغني بخفوت وتلحين صاهلاً من حين لآخر، أي كان يهز جسمه، ويغمض عينيه، وينود برأسه كالحوذية أو ساحبي المراكب، حين يمطون أغانيهم الشاجية. وأحسّ أنتيبكا بالرهبة، فابتعد عن الشق. وعندما خرج غيراسيم من حجرته في اليوم التالي، لم يُلحظ عليه تغيير ظاهر. إلا أنه بدا أكثر جهامة، ولم يلق أي التفات لتاتيانيا وكابيتون. وفي المساء توجه الاثنان إلى السيدة، يتأبطان وزتين، وبعد أسبوع تم زواجهما.

وفي يوم الزفاف لم يغيّر غيراسيم شيئاً من منواله، إلا أنه عاد من النهر بلا ماء، فقد حطم البرميل في الطريق، وفي الإسطبل ليلاً نظف وفرك حصانه

بقوة، حتى إن الحصان تمايل كنصل العشب في الريح، وترنح من قدم إلى أخرى تحت قبضتيه الحديديتين.

كل ذلك حدث في الربيع. وانقضى عام آخر، غرق كابيتون خلاله في الشرب تماماً، حتى أرسل كرجل لا جدوى منه كلياً إلى قرية بعيدة في قافلة من العربات، ومعه زوجته. وفي يوم السفر أظهر في البداية عزيمة كبيرة، وراح يؤكد بأنه لن يهلك حتى ولو أرسلوه إلى أقاصي الدنيا حيث السماء تنطبق على الأرض والنسوة ينشرن غسيلهن عليها، إلا أن عزيمته فترت بعد ذلك، وراح يتشكى بأنه يرسل إلى جهلاء الناس، ثم خار تماماً، حتى لم يستطع أن يضع قبعته على رأسه، فأشفق عليه أحد المشفقين، وحطها على جبينه، وعدل وضع ظليلتها، وثبّتها على رأسه بضربة من فوق. وعندما تهيأ كل شيء، وصار سائقو العربات من الفلاحين يمسكون بالأعنة، ولا ينتظرون غير الأمر بالانطلاق، خرج غيراسيم من حجرته، واقترب من تاتيانا، وأهدى لها للذكرى منديلاً قطنياً أحمر، كان قد اشتراه لها قبل عام. كانت تاتيانا حتى تلك اللحظة تبدي عدم اكتراث شديد بكل تقلّبات حياتها، غير أنها لم تتحمّل عندئذ، وانفجرت العبرة في صدرها، وقبل أن تركب العربة قبّلت غيراسيم ثلاث مرات، حسب العادة المسيحية. أراد غيراسيم أن يوصلها إلى بوابة المدينة، وسار في بادئ الأمر مع عربتها، إلا أنه توقف قرب مخاضة كريمسكي[1]، ولوّح بذراعه، وسار بمحاذاة النهر.

كان الوقت عند المساء. سار غيراسيم بهدوء، محدقاً في المياه. وفجأة خيل إليه أن شيئاً يلبط في السطح اللزج عند حافة الماء تماماً. انحنى، فرأى جرواً صغيراً أبيض مرقطاً ببقع سود لم يستطع أن يخرج من الماء رغم كل ما يبذله من جهد، فكان يتخبط وينزلق، ويرتجف بكل جسده النحيل المبلل. نظر غيراسيم إلى الكلب البائس، وأمسكه بيد واحدة، ودسّه في طية قميصه، واتجه إلى البيت بخطى واسعة. دخل حجرته، ووضع الكليب المنتشل على سريره، وغطاه بمعطفه الشتائي الثقيل، وهرع أولاً إلى الإسطبل ليجلب قشاً،

١- مكان عبور نهر موسكو في النصف الأول من القرن التاسع عشر، حين لم تكن الجسور مقامة عليه.

ثم إلى المطبخ ليأخذ طاسة من الحليب. وبعد أن رفع المعطف بحذر وفرش القش، وضع الحليب على السرير.

كان عمر الجرو المسكين لا يتجاوز الثلاثة أسابيع. كانت عيناه قد انفتحتا على الدنيا قبل حين، بل وبدت إحداهما أكبر قليلاً من الأخرى، و لم يتعلم بعد كيف يشرب من الطاسة، فكان لا يفتأ يرتجف، ويقلّص عينيه. أمسك غيراسيم من رأسه بخفّة وبأصبعين، وأحنى بوزه الصغير نحو الحليب، وفجأة شرع الكليب يشرب الحليب بنهم شارقاً به ومرتجفاً. نظر غيراسيم، ونظر، وإذا به يكشر عن ابتسامة... انشغل غيراسيم به طوال الليل، وأضجعه لينام، ودلّكه، وغط هو الآخر، في نوم هادئ فرح بالقرب منه.

ما من أم ترعى طفلها رعاية غيراسيم لصغيرته (تبين أن الكليب أنثى). وفي الفترة الأولى كانت الكلبة ضعيفة جداً، هزيلة ودميمة الشكل، إلاّ أنها تعافت شيئاً فشيئاً، وسمنت، وبعد حوالي ثمانية أشهر، وبفضل رعاية منقذها الشديدة لها صارت كليبة كريمة جداً من أصل إسباني، لها أذنان طويلتان وذيل غزير أسطواني الشكل، وعينان واسعتان معبرتان. تعلّقت بغيراسيم تعلّقاً شديداً، و لم تبتعد عنه خطوة واحدة، وصارت تسير وراءه أينما ذهب مبصبصة بذيلها. وأعطى غيراسيم لها كنية - البُكم يعرفون أن مومأتهم تلف أنظار الآخرين إليهم - فسمّاها «مومو»، وأحبها جميع من في الدار، وصاروا يكنونها أيضاً بـ «موموتيا».

كانت كلبة ذكية ذكاء فائقاً، تتلاطف مع الجميع، ولكن لا تحب إلا غيراسيم. وغيراسيم نفسه شغف بها حباً وكان يمتعض حين يمسد الآخرون عليها، والله يعلم هل كان يخاف عليها، أم يغار! كانت توقظه في الصباح، جاذبة إياه من طرف ردائه، وتقود إليه الحصان العجوز ناقل الماء من مقوده، وكانت على مودّة كبيرة مع هذا الحصان، وكانت تخرج مع غيراسيم إلى النهر، والهيبة على وجهها، وتحرس مكانسه وأرفاشه، ولا تسمح لأحد بالدخول إلى حجرته.

وكان غيراسيم قد حفر ثقباً في بابه خصيصاً لها، وكانت هي تبدو وكأنها تشعر بأنها في حجرة غيراسيم فقط ربة بيت كاملة، ولهذا كانت حين تدخل

الحجرة، تقفز على السرير حالاً، وعليها سيماء الرضى. وفي الليل لم تكن تنام قط، ولكنها لم تنبح بلا تمييز، كما تفعل الكلبة الهجينة الحمقاء التي تقعو على رجليها، وترفع بوزها، وتقلّص عينيها، وتنبح على النجوم لمجرد الضجر، ثلاث مرات متتاليات في العادة. عيب! كان صوت «مومو» الرقيق لا يصدر عبثاً، بل إما لأن غريباً يتقدم قريباً من السياج، وإما لأن ضجيجاً مريباً أو هسهسة ارتفعت في مكان ما... وباختصار كانت تحرس بشكل ممتاز. حقاً كان في الفناء، بالإضافة إليها، كلب آخر عجوز أصفر اللون ذو بقع بنية يدعى فولتشوك، ولكن هذا الكلب لم يطلق من سلسلته حتى في الليل، كما أنه هو نفسه بسبب هزاله، لم ينشد الانطلاق، فكان لا يريم قابعاً ملفوفاً على نفسه في كشكه، ومن حين لآخر فقط كان يصدر نباحاً أبح لا رنة فيه تقريباً سرعان ما يتوقف، وكان صاحبه نفسه يحس بعدم جدواه.

لم تكن «مومو» تدخل بيت السيدة؛ وحين كان غيراسيم يحمل الحطب إلى الحجرات، كانت تتخلف عنه دائماً، منتظرة إياه عند مدخل البيت بلهفة، وقد أشرعت أذنيها، محولة رأسها إلى اليمين، ومديرة إياه إلى اليسار حالما تسمع أقل وقع وراء الأبواب...

وعلى هذا النحو انقضى عام. واستمر غيراسيم في إشغاله كفراش، وكان راضياً جداً بمصيره، وإذا بظرف مفاجئ يحدث فجأة... وهو بالذات: في يوم من أيام الصيف كانت السيدة تذرع حجرة الضيوف ومعها معيلاتها. كانت في مزاج رائق، تضحك وتمزح والمعيلات يضحكن ويمزحن أيضاً، ولكنهن لم يكنّ يشعرن بفرح كثير، فأهل البيت لم يكونوا يحبون ساعة الفرح لدى السيدة، لأنها أولاً كانت تتطلب من الجميع مشاركة عاطفية تامّة وفورية، وتغضب إذا لم تستمر عندها طويلاً، وتخلف في العادة جهامة ومزاجاً متعكراً. في ذلك اليوم نهضت سعيدة، وفي فال الورق طلع لها أربعة أولاد، ومعنى ذلك تحقيق المآب (كانت دائماً تستخير الورق في الصباح)، والشاي بدا لها لذيذاً على نحو خاص تلقت الخادمة بسببه ثناء بالكلمات وعشرة كوبيكات نقداً. سارت السيدة في غرفة الضيوف والابتسامة على شفتيها المتغضنتين وتقدّمت من النافذة، أمام النافذة حديقة صغيرة، كانت «مومو» ترقد في حوض وسطي للزهور، تحت أغراس الورد، تقضم عظمة

باهتمام. ووقع بصر السيدة عليها. فهتفت فجأة مخاطبة المعيلة التي كانت برفقتها:

- يا إلهي! - أية كلبة هذه؟

فتمتمت هذه المسكينة بذلك القلق المقهور الذي يستولي عادة مرؤوس، حينما لا يزال يعرف بشكل جيد كيف يفهم كلام رئيسه:

- لا... أعرف. أظنّها كلبة الأبكم.

أوقفتها السيدة قائلة:

- يا إلهي! ولكنها كلبة لطيفة! اطلبي أن يجلبوها. هل هي من زمان عنده؟ كيف لم أرها حتى الآن؟ اطلبي أن يجلبوها.

اندفعت المعيلة إلى الرواق رأساً، وصاحت:

- يا رجل، يا رجل. اجلب «مومو» حالاً! إنها في الحديقة.

قالت السيدة:

- واسمها «مومو». اسم لطيف جداً.

- آه، لطيف، يا سيدتي، - قالت المعيلة، وأضافت: - أسرع بها، يا ستيبان!

وستيبان فتى ضخم البنية، يعمل في وظيفة خادم في الغرف، اندفع إلى الحديقة لا يلوي على شيء، وأراد أن يمسك «مومو»، إلا أن هذه انزلقت من بين أصابعه بخفّة، ورفعت ذيلها، وانطلقت إلى غيراسيم بكل ما تستطيعه أرجلها. وكان غيراسيم حينئذ عند المطبخ، ينفض البرميل، ويهزه مقلباً إياه بين يديه كما يقلّب طبلاً من لعَب الأطفال.

ركض ستيبان وراء الكلبة، وحاول أن يقبض عليها، وهي عند قدمي سيدها، إلاّ أن الكلبة الخفيفة الحركة لم تستسلم لأيدي الغريب، وراحت تنط وتدور. نظر غيراسيم إلى كل هذه المسألة باستهزاء، وأخيراً نهض ستيبان، وأسرع يخبر فريدار بالإشارات أن السيدة تريد أن تجلب الكلبة إليها. اندهش غيراسيم قليلاً، إلا أنه نادى «مومو»، ورفعها من الأرض، وسلّمها إلى ستيبان. أخذها ستيبان إلى غرفة الضيوف، ووضعها على أرضية الغرفة

الخشبية. أخذت السيدة تدعوها إليها بصوت رقيق. لم تكن «مومو» منذ ولادتها قد دخلت إلى مثل هذه الحجرات المترفة، فهلعت كثيراً، واندفعت نحو الباب، إلا أنها اصطدمت بستيبان المتهيئ دائماً للخدمة، فأخذت ترتجف، وانكمشت على الحائط.

قالت السيدة:

- «مومو»، «مومو»، تعالي إليّ، تعالي إلى سيدة البيت. تعالي يا حمقاء، يا حلوة... لا تخافي...

وكررت المعيلات:

- اذهبي، اذهبي، يا «مومو»، اذهبي إلى سيدة البيت.

إلا أن «مومو» قلّبت بصرها فيما حولها مغمومة، ولم تترك مكانها.

قالت السيدة:

- اجلبوا لها شيئاً تأكله. أي حمقاء هي! لا تقبل على سيدة البيت. ماذا تخاف؟

تمتمت إحدى المعيلات بصوت متضرع متهيب:

- لم تألف بعد.

جلب ستيبان صحن حليب، ووضعه أمام «مومو»، ولكن «مومو» لم تقدم حتى على شمه، وظلّت ترتجف وتنظر كما من قبل.

- أوه، أية كلبة أنت!

غمغمت السيدة، وهي تقترب منها، وانحنت وأرادت أن تمسد عليها، إلا أن «مومو» أدارت رأسها مرتعشة، وكشرت عن أنيابها، وسحبت السيدة يدها بسرعة...

وسادت لحظة صمت. أرسلت «مومو» زعيقاً واهناً، وكأنها تشتكي وتعتذر... ابتعدت السيدة، وقطبت أساريرها، فإن حركة الكلبة المفاجئة أرعبتها.

- آه! - صاحت جميع المعيلات دفعة واحدة، - ربما عضتك، حفظك الله! (لم تعض «مومو» أحداً في حياتها قط) آه، آه!

صاحت العجوز بصوت متغير:

- أخرجوها. كلبة خبيثة! يا لها من لئيمة!

واستدارت ببطء، واتجهت إلى غرفة مكتبها. تبادلت المعيلات النظرات في رهبة، متهيئآت للسير وراءها، إلا أن السيدة توقفت، ونظرت إليهن ببرود، وتمتمت: «لَم هذا؟ أنا لم أدعكن» وانصرفت.

هزت المعيلاتَ أذرعهن على ستيبان في قنوط. أمسك هذا «مومو»، وأسرع في إلقائها وراء الباب، عند قدمي غيراسيم تماماً، وبعد نصف ساعة كان السكون العميق يخيم على البيت، والسيدة العجوز جالسة على أريكتها أشد جهامة من سحابة ممطرة.

يحدث أن أتفه التوافه تستطيع أحياناً أن تزعج الإنسان!

ظلّت السيدة حتى المساء متعكرة المزاج، لا تكلم أحداً، ولا تلعب الورق، وقضت ليلة سيئة. وظنت أن ماء الكولونيا الذي قدم لها ليس ما يقدم لها عادة، وأن وسادتها تفوح برائحة الصابون، وأجبرت مسؤولة البياضات أن تشم كل البياضات، وباختصار اضطربت و«احتدمت» كثيراً. وفي الصباح التالي أمرت أن يدعى غافريلا قبل ساعة من حضوره المعتاد.

وحالما اجتاز هذا عتبة غرفة مكتبها، وهو يتمتم في داخل نفسه، حتى بادرت السيدة تقول:

- قل لي من فضلك، ما هذه الكلبة التي كانت تنبح طوال الليل في الفناء؟ لم تدعني أنام!

فقال هذا بصوت غير واثق تماماً:

- الكلبة... هي... ربما كلبة الأبكم، يا سيدتي.

- أنا لا أعرف أكانت كلبة الأبكم أو غيره، ولكنها لم تدعني أنام. ثم أنا مندهشة من كثرة الكلاب عندنا! أريد أن أعرف أليس لنا كلب يحرس الفناء؟

- يوجد بالضبط. فولتشوك.

- فما حاجتنا إلى كلبة أخرى، إذن؟ للإزعاج فقط. لا يوجد في البيت

رئيس، هذا كل ما في الأمر. وما حاجة الأبكم إلى كلبة؟ ومَن سمح له أن يربي كلبة في فناء بيتي؟ يوم أمس نظرت من النافذة، فإذا هي راقدة في الحديقة، تقضم قذارة جرتها إلى هنا. بينما ورودي مغروسة هناك...

صمتت السيدة.

– منذ اليوم لا أريدها هنا... سامع؟

– حاضر.

– اليوم بالذات. والآن اذهب. سأدعوك بعد ذلك بخصوص التقرير اليومي.

خرج غافريلا.

وعندما اجتاز رئيس الخدم حجرة الضيوف نقل الجرس الصغير من طاولة إلى أخرى، كما يقتضي النظام، ومخط من أنفه الطويل في الصالة خلسة، وخرج إلى الرواق. كان ستيبان ينام في الرواق على مصطبة في وضع محارب قتيل في لوحة من تلك اللوحات التي تصور المعارك، وقد مدّ رجليه العاريتين بتشنّج من تحت المعطف المذيّل الذي كان يستخدمه كغطاء، لكزه رئيس الخدم، وأبلغه أمر السيدة بصوت خافت، فردّ عليه ستيبان بما بين التثاؤب والضحك. انصرف رئيس الخدم، ووثب ستيبان واقفاً، ولبس القفطان والحذاء الطويل، وخرج وتوقف عند واجهة البيت. وقبل أن تنقضي خمس دقائق ظهر غيراسيم يحمل على ظهره حزمة هائلة من الحطب، وبصحبته «مومو» لا تفارقه. (كانت السيدة تأمر بتدفئة مخدعها وغرفة مكتبها حتى في الصيف). وجه غيراسيم جنبه إلى الباب، ودفعه بكتفه، ودخل بحمولته إلى البيت. وكالعادة بقيت «مومو» بانتظاره، عندئذ سنحت لستيبان لحظة مؤاتية، فوثب نحو الكلبة، كما تثب الحدأة على فرخة، وضغطها بصدره على الأرض، واحتضنها في خبطة واحدة، – وخرج إلى الفناء راكضاً وهي معه، حتى دون أن يضع عليه غطاء لرأسه، وركب أول عربة أجرة صادفته، وانطلقت إلى اخوتني رياد. وهناك سرعان ما وجد لها مشترياً، تنازل له عنها لقاء نصف روبل، على شرط أن يربطها في مقود أسبوعاً واحداً على الأقل، وعاد ستيبان في الحال، ولكنه قبل أن يصل إلى البيت، نزل من العربة ودار

حول الفناء وقفز السياج إليه من زقاق خلفي، فقد كان يخشى الدخول من البوابة متحاشياً لقاء غيراسيم.

إلا أن قلقه كان في غير مكانه، لأن غيراسيم لم يكن في الفناء عند وصوله. عندما خرج من البيت، افتقد «مومو» فوراً، إذ لم يكن يذكر أنها لم تنتظر عودته في وقت من الأوقات، فراح يركض، باحثاً عنها منادياً إياها بطريقته... واندفع إلى حجرته، إلى مستودع القش، وخرج إلى الشارع، وبحث هنا وهناك...

اختفت! خاطب الناس بأكثر الإشارات استماتة يسألهم عنها مشيراً بيده إلى نصف ذراع على الأرض، راسماً إياها بيديه... بعضهم كان لا يعرف بالضبط إلى أين ذهبت «مومو»، فاكتفوا بأن هزوا رؤوسهم؛ وبعضهم كان يعرف، فردّ عليه بضحكة، بينما اتخذ رئيس الخدم هيئة غاية في الوقار، وأخذ يصرخ على سائقي العربات. عندئذ ركض غيراسيم خارج الفناء.

عاد وظلام المساء قد خيم. ومن مظهره المنهك، ومشيته المتخلخلة، وثيابه المتربة كان من الممكن التصوّر بأنه لحق أن يطوف في نصف موسكو راكضاً. توقّف أمام نوافذ السيدة، وألقى نظرة على واجهة البيت التي كان يتزاحم عليها زهاء سبعة من الخدم، وأعرض وجار مرة أخرى «مومو!»، ولم تردّ «مومو». فانصرف. نظر الجميع في إثره، ولكن أحداً لم يبتسم ولم يتفوّه بكلمة... في صباح اليوم التالي، في المطبخ ذكر أنتيبكا الحوذي الفضولي أن الأبكم الأصم ظلّ طوال اللّيل يتأوّه.

طوال اليوم التالي لم يظهر غيراسيم، فكان على الحوذي بوتاب أن يذهب لجلب الماء بدلاً منه، وامتعض الحوذي كثيراً من ذلك. سألت السيدة رئيس الخدم غافريلا هل نفذ أمرها؟ فردّ غافريلا بأنه قد نفّذ.

في صباح اليوم التالي خرج غيراسيم من حجرته إلى العمل. وحضر ساعة الغداء، وأكل وخرج ثانية دون أن يسلم على أحد. ووجهه الذي كان حتى قبل ذلك، بلا حياة مثل وجوه جميع الصم البكم، بدا وكأنه تحجر. بعد الغداء خرج من الفناء ثانية، ولكن لوقت قصير، وعاد وتوجه في الحال إلى مستودع القش. وحلّ الليل قمرياً صافياً. استلقى غيراسيم ثقيل الأنفاس،

دائم التقلب، وفجأة أحس بأنه يسحب من طرف ردائه، ارتعش بكل كيانه، إلا أنه لم يرفع رأسه، بل وقلّص عينيه، وجُذب من طرف ردائه مرة أخرى أقوى من التي قبلها، فقفز من استلقائه...

كانت «مومو» تحوم حوله، وحول عنقها قطعة من مقود. ندت من صدره الأخرس صيحة فرح ممدودة، واختطف «مومو»، وعصرها في أحضانه، وما هي إلا لحظة واحدة حتى أخذت تلعق أنفه، وعينيه، وشاربيه، ولحيته... وقف، وفكّر، ونزل من كومة القش بحذر، وتلفّت فيما حوله، وبعد أن أيقن أن أحداً لا يراه، انسل إلى حجرته دون مصاعب. كان غيراسيم قبل هذا قد حدس بأن الكلبة لم تضع من تلقاء نفسها، بل ربما أبعدت بأمر من السيدة، لأن الناس شرحوا له بالإشارات أن كلبته أغاظت السيدة، فقرّر أن يتخذ تدابيره.

في بادئ الأمر أطعم «مومو» خبزاً، ولاطفها وأرقدها لتستريح، وراح يفكر وظل طوال الليل يفكر بلا انقطاع، في أحسن وسيلة لإخفائها. وأخيراً استقر رأيه على أن يبقيها اليوم كله في حجرته، ويذهب لتفقدها من حين لآخر، وفي الليل يخرج معها. سد فتحة الباب بمعطفه سداً محكماً، وكان حالما طلع النور في الفناء، وكأنما لم يحصل شيء، بل وأبقى سحنة الغم على وجهه (حيلة بريئة!). ولم يدر في خَلد الأبكم المسكين أن «مومو» يمكن أن تكشف عن نفسها بوصوصة تصدرها. وبالفعل سرعان ما عرف أهل البيت جميعاً أن كلبة الأبكم قد عادت، وأنها محبوسة في حجرته، ولكنهم إشفاقاً عليه وعليها، وخوفاً منه جزئياً ربما، لم يدعوه يفهم أنهم كشفوا سره. ورئيس الخدم وحده، حك قفاه، ولم يقدم على شيء وكأنه يقول: «وليكن! ما دام الخبر لا يصل إلى سمع السيدة!». ومقابل ذلك لم يجتهد الأبكم ويدأب مثلما فعل في ذلك اليوم: نظف وجلف الفناء كله، واجتث جميع الأعشاب الضارّة دون أن يترك واحدة، وهزّ جميع أوتاد سياج الحديقة ليتأكد من ثباتها بشكل جيد، وبعد ذلك دقها بنفسه، وباختصار اجتهد وانشغل كثيراً، حتى إن السيدة نفسها انتبهت إلى ما بذله من جهد.

وخلال اليوم انسلّ غيراسيم مرتين إلى حبيسته، وحين انسدل الليل،

استلقى لينام معها في حجرته، وليس في مستودع القش، وبعد الساعة الواحدة فقط خرج معها إلى الهواء الطلق. تمشى معها في الفناء وقتاً ليس بالقصير، واستعد للعودة، وإذا بخشخشة تصدر فجأة من جانب الزقاق وراء السياج. وتّرت «مومو» أذنيها، وأخذت تحمحم، واقتربت من السياج، وتشمّمت، وراحت تنبح نباحاً عالياً حاداً. كان أحد السكارى يريد أن ينزوي هناك ويقضي ليلته. في تلك اللحظة كانت السيدة قد غفت لتوها بعد «قلق عصبي» طويل. وفترات القلق هذه كانت تحصل لها دائماً بعد عشاء دسم جداً. وأيقظها النباح المفاجئ وخفق قلبها، وجمد. نادت متوجعة «يا بنات، يا بنات!» وهرعت الفتيات المذعورات إلى مخدعها. غمغمت السيدة باسطة ذراعيها: «آه، آه، أنا أموت! تلك الكلبة مرة أخرة!... آه، أرسلن في طلب الدكتور. يريدون أن يقتلوني... الكلبة، مرة أخرى الكلبة! آه!»، وألقت رأسها إلى الخلف، وكان ذلك يعني إغماء. هرعوا إلى الدكتور، أي إلى المطبب المنزلي خاريتون.

هذا المطبب الذي كان كل فنه يتمثّل في لبسه حذاء طويلاً ذا نعل لين، وفي قدرته على جس النبض بلباقة، كان ينام أربع عشرة ساعة في اليوم ويقضي بقية الوقت في التنهد، وتقديم قطرات أوراق الغار للسيدة. وقد خفّ على الفور، وبخّر بدخان الريش المحروق، وعندما فتحت السيدة عينيها، أسرع بتقديم قدح من القطرات المعهودة على صينية من الفضة. شربت السيدة ما في القدح، ولكنها عادت في الحال تشتكي بصوت دامع من الكلبة، ومن غافريلا، ومن نصيبها، ومن ترك الجميع لها وهي العجوز المسكينة، ومن عدم رأفة أحد بها، فالجميع يريدون أن تموت. وفي غضون ذلك واصلت «مومو» التعيسة نباحها، بينما كان غيراسيم يحاول عبثاً أن يصرفها عن السياج. «ها هي... ها هي... ثانية...» غمغمت السيدة بذلك. ومن جديد تدحرجت عيناها في محجريهما. همس المطبب بشيء لفتاة، فهرعت هذه إلى الرواق، ولكزت ستيبان، فأسرع هذا ليوقظ غافريلا، وأمر غافريلا في ثورة الحدّة أن يوقظ كل مَن في البيت.

التفت غيراسيم فرأى أنواراً وظلالاً تلوح في نوافذ البيت، فشعر قلبه بوقوع مصيبة، اختطف «مومو» تحت إبطه، وهرع إلى حجرته، وأغلق

عليه الباب. وبعد بضع لحظات هجم خمسة أشخاص على بابه، إلا أنهم توقفوا حين أحسوا بمقاومة المزلاج. جاء غافريلا راكضاً لاهث الأنفاس، وأمرهم بأن يبقوا جميعاً عند الباب ويحرسوه حتى الصباح، وانطلق بعد ذلك إلى حجرة الخادمات، وأمر لوبوف ليوبيموفنا، كبيرة المرافقات التي كان معها يسرق ويقوم بحسابات الشاي والسكر والبقوليات الأخرى، بأن تبلغ السيدة أن الكلبة عادت من جديد مع الأسف، ولكنها غداً لن تكون في عداد الأحياء، فلتتكرم السيدة وتهدأ ولا تغضب. وما كان للسيدة أن تهدأ سريعاً في أغلب الظن، لو لم يخطىء المطبب لعجالته، فيصب لها أربعين قطرة بدلاً من اثنتي عشرة، وتركت قطرات أوراق الغار مفعولها، وبعد ربع ساعة غطت السيدة في نوم عميق موزون، بينما ظل غيراسيم يرقد في سريره ممتقعاً بكليته، يضغط بقوة على بوز «مومو».

في صباح اليوم التالي استيقظت السيدة في ساعة متأخرة جداً. وكان غافريلا ينتظر استيقاظها ليأمر باقتحام حجرة غيراسيم عنوة، بينما يتهيأ هو نفسه لعاصفة شديدة، إلا أن العاصفة لم تقع. فقررت السيدة، وهي مستلقية في فراشها أن تستدعي كبيرة المعيلات إليها.

شرعت تقول بصوت خافت واهن:

– لوبوف ليوبيموفنا.

كانت تحب أحياناً التظاهر بأنها معذبة مهمة ميتمة ولا حاجة إلى القول إن كل من في البيت كانوا يحسون، عندئذ بحرج شديد.

– لوبوف ليوبيموفنا، ها أنت ترين في أي وضع أنا. فاذهبي يا عزيزتي إلى غافريلا أندريتش وتكلمي معه، هل من المعقول أن كلبة سائبة أغلى من راحة سيدة البيت وحياتها أيضاً؟ – وأضافت معبرة عن شعور عميق: – ما أود أن أصدق بذلك، اذهبي يا روحي واعملي معروفاً، اذهبي إلى غافريلا أندريتش.

ذهبت لوبوف ليوبيموفنا إلى غرفة غافريلا، ولا يُعرف ماذا جرى بينهما من حديث، إلا أن جمهرة من الناس اجتازت الفناء، بعد بعض الوقت، واتجهت صوب حجرة غيراسيم، وفي مقدمتها غافريلا سانداً قبعته بيده،

رغم سكون الريح. وبالقرب منه سار خدم المنزل والطباخون، وكان العم «ذيل» ينظر من النافذة، ويأمر، أي يبسط ذراعيه لا غير، وخلف الجميع كان بعض الصبية ينطون ويشاكسون، ونصفهم غرباء جاؤوا من الأفنية الأخرى. وعلى الدرج الضيق المؤدي إلى الحجرة جلس حارس، وعند الباب حارسان آخران مسلحان بالعصي. وأخذ الرجال يرتقون الدرج، واحتلوه بكل طوله. تقدم غافريلا من الباب، ودقه بقبضته وصاح:

- افتح.

تردّد نباح مكتوم، ولكن لا جواب.

- قالوا لك، افتح! - كرر غافريلا.

قال ستيبان من الأسفل منبهاً:

- ولكنه أطرش، يا غافريلا أندريتش، لا يسمع.

ضحك الجميع.

رد غافريلا من فوق:

- ما العمل إذن؟

أجاب ستيبان:

- في بابه ثقب، فحرّك عصا فيه.

انحنى غافريلا.

- الثقب مسدود بمعطفه.

- ادفع المعطف إلى الداخل.

وهنا صدر نباح مكتوم ثانية.

- اسمعوا، اسمعوا... ها هي تعلن عن نفسها.

تردّدت أصوات في الجمع، وعادوا يضحكون.

حك غافريلا ما وراء أذنه. وقال أخيراً:

- لا، يا أخ. ادفع أنت المعطف، إذا كنت تريد.

- تفضل!

وصعد ستيبان إلى فوق، وأخذ عصا، ودفع المعطف إلى الداخل، وأخذ يدير العصا في الثقب، وهو يردّد: «اخرج، اخرج!»، ومضى الوقت وهو يديرها، حتى انفتح باب الحجرة فجأة وبسرعة، وإذا بمعشر الخدم ينزلون الدرج في كركبة عجلى، وغافريلا قبل الجميع. وأغلق العم «ذيل» النافذة.

صاح غافريلا من الفناء:

– إياك، إياك... الويل لك!

وقف غيراسيم على العتبة بلا حراك، تجمع حشد الناس في أسفل الدرج. وحدق غيراسيم من فوق إلى كل هؤلاء الناس الصغار بمعاطفهم الألمانية، مسنداً يديه على جنبيه قليلاً. وبدا إزاءهم وهو في قميصه الفلاحي الأحمر كالعملاق. تقدّم غافريلا خطوة إلى الأمام. وقال:

– احذر، يا أخ. لا تتشاكس معي.

وراح يشرح له بالإشارات أن السيدة تريد كلبته لا محالة. فهاتها وإلا فستحصل مصيبة لك.

نظر غيراسيم إليه وأشار إلى الكلبة، وحرّك يده عند رقبته، وكأنه يشد أنشوطة، ورمق رئيس الخدم بوجه متسائل.

ردّ هذا وهو ينود برأسه:

– نعم، نعم، بالتأكيد.

أطرق غيراسيم بصره، ثم ارتعد فجأة، وأشار إلى «مومو» التي كانت واقفة بالقرب منه طوال الوقت، مبصبصة بذيلها ببراءة، موترة أذنيها بفضول، وأعاد يرسم إشارة الشنق فوق رقبته، ودق صدره بدلالة، وكأنه يعلن أنه سيأخذ على عاتقه القضاء على «مومو».

هزّ غافريلا ذراعه مجيباً إياه:

– أنت تخادع.

نظر غيراسيم إليه، وأرسل ضحكة استهزاء مقتضبة، ودق على صدره من جديد، وصفق الباب.

تبادل الجميع النظرات في صمت.

وقال غافريلا:

- ما معنى هذا؟ أغلق الباب على نفسه؟

قال ستيبان:

- اتركه، يا غافريلا أندريتش، ما دام قد وعد فسيفعل. أنت تعرفه... يفعل ما يعد بالتأكيد، هو في ذلك ليس على شاكلتنا. ما هو حق فهو حق، نعم.

كرر الجميع، وهزوا رؤوسهم:

- نعم، هذا بالفعل. نعم.

فتح العم «ذيل» نافذته، وقال أيضاً: «نعم».

وقال غافريلا:

- طيب لنر. ولكن سنبقي الحرس، على أية حال. أوه، يروشكا! - أضاف موجهاً جملته الأخيرة إلى رجل شاحب في سترة قصيرة صفراء من النسيج القطني البيتي، كان يعمل بستانياً. - ماذا تفعل بنفسك؟ خذ عصا واقعد هنا، وحالما يحصل شيء اهرع إليّ!

أخذ يروشكا عصا، وقعد على درجة السلم الأخيرة. وتفرق الجمع، ما عدا بعض الفضوليين والصبيان، بينما عاد غافريلا إلى البيت، وطلب أن تبلغ السيدة عن طريق لوبوف ليوبيموفنا أن كل شيء قد نفّذ، وأرسل هو احتياطاً الحوذي إلى الشرطي.

شدّت السيدة منديل جيب على شكل عقدة، وصبت ماء الكولونيا عليها، وشمّت وفركت صدغيها، وشربت شاياً، وغفت ثانية وهي ما تزال تحت تأثير قطرات أوراق الغار.

وبعد ساعة من كل هذا الارتياع، انفتح باب الحجرة، وظهر غيراسيم. كان في قفطان الأعياد، يقود «مومو» من حبل. تنحى يروشكا وتركه يمر، اتجه غيراسيم نحو البوابة. شيّعه الصبيان وكل من كانوا في الفناء بعيونهم صامتين. ولم تبد منه أية التفاتة إليهم. ولم يلبس قبعته إلا في الشارع. أرسل غافريلا البستاني يروشكا إياه في إثره كمراقب. ورآه يروشكا من بعيد يدخل حانة مع كلبته، فراح ينتظره عند مدخلها.

كان أهل الحانة يعرفون غيراسيم، ويفهمون إشاراته. طلب له حساء كرنب باللحمة وجلس، سانداً يديه على المائدة. وقفت «مومو» قرب مقعده، تنظر إليه في هدوء بعينيها الذكيتين. وظل شعرها على لمعته، والظاهر أنها مُشطت قبل وقت قصير. جلبوا لغيراسيم حساء الكرنب، ثرد فيه خبزاً، وقطع اللحم قطعاً صغيرة، ووضع الصحن على الأرض. أخذت «مومو» تأكل برصانتها المعهودة، وهي لا تكاد تمس الطعام ببوزها. ظل غيراسيم ينظر إليها وقتاً طويلاً. وفجأة انحدرت من عينيه دمعتان ثقيلتان. سقطت إحداهما على جبين الكلبة المدور، والأخرى في حساء الكرنب. ستر وجهه بيده. أكلت «مومو» نصف الصحن، وابتعدت تلعق شفتيها.

نهض غيراسيم ودفع ثمن حساء الكرنب، وخرج مشيعاً بنظرة النادل المتحيرة قليلاً. قفز يروشكا إلى ما وراء المنعطف حين رأى غيراسيم وتركه يمر، وعاد يتعقبه.

سار غيراسيم غير متعجل ودون أن يطلق مقود «مومو». وحين وصل إلى زاوية الشارع توقف، وكأنه يفكر مع نفسه، وفجأة اتجه نحو مخاضة كريمسكي بخطى سريعة. وفي الطريق دخل فناء بيت له ملحق في طور البناء، وخرج من هناك متأبطاً آجرتين. ومن مخاضة كريمسكي استدار سائراً بمحاذاة الشاطىء، حتى بلغ موضعاً ربط فيه قاربان بوتدين، وفي كل قارب مجذافان (وكان قد لاحظهما من قبل)، وقفز إلى أحدهما ومعه «مومو»، وخرج الحارس العجوز الأعرج من خص منصوب في ركن حديقة بيت، وراح يصيح به، إلا أن غيراسيم اكتفى بأن هز رأسه، وراح يجذف بقوة شديدة حتى أنه قطع حوالي مائة ذراع في لحظة واحدة، رغم أنه كان ضد تيار النهر... وقف العجوز دقيقة ثم أخرى، وحك ظهره بيده اليسرى أولاً، ثم اليمنى وعاد إلى الخص يقزل.

بينما ظل غيراسيم يجذف ويجذف. وها هي موسكو تتخلف إلى الوراء. وها هي المروج وحدائق الخضروات والحقول والأحراش تمتد على الشاطئين. وظهرت الأكواخ الريفية. وفاحت رائحة الريف. ألقى المجذافين، وأمال رأسه نحو «مومو»، التي كانت جالسة أمامه على العارضة الجافة – كان

قاع القارب مغموراً بالماء - وبقي جامداً، وقد صالب ذراعيه الضخمتين على ظهرها، بينما كان القارب يتحدر مع التيار عائداً قليلاً صوب المدينة.

وأخيراً، عدل غيراسيم قامته، ولفّ الحبل على الآجرتين بعجالة، وعلى سيمائه حنق مَرَضي، وعَقَد أنشوطة، وضعها حول عنق «مومو»، ورفع الكلبة فوق النهر، ونظر إليها للمرة الأخيرة. كانت تنظر إليه واثقة به، مبرأة من الخوف، مبصبصة بذيلها قليلاً. استدار بوجهه وأغمض عينيه وفك يديه... لم يسمع غيراسيم صيحة «مومو» السريعة وهي تسقط في النهر، ولا طرطشة الماء الثقيلة. فقد كان أصخب يوم من أيام الدنيا ساكناً صامتاً بالنسبة له مثلما لا تخلو أهدأ ليلة من صوت بالنسبة لنا. وعندما فتح عينيه ثانية كانت الأمواج الصغيرة تتراكض على النهر، كما كانت من قبل يسابق بعضها بعضاً، تضرب جانب القارب مثلما كانت من قبل أيضاً، وإلى الخلف فقط وعلى مسافة بعيدة كانت دوائر واسعة تنداح باتجاه الشاطئ.

عاد يروشكا إلى البيت حالما اختفى غيراسيم عن بصره، وروى كل ما رآه.

قال ستيبان:

- نعم، بالطبع. سيغرقها. يمكن أن تطمئنوا الآن. ما دام قد وعد...

خلال النهار لم ير أحد غيراسيم. و لم يتناول غيراسيم غداءه في البيت. وحل المساء واجتمع الجميع للعشاء ما عداه.

صاءت غسالة بدينة:

- غريب الأطوار غيراسيم هـذا!... معقول أن تنكبه كلبة!... صحيح!...

هتف ستيبان فجأة، وهو يغرف العصيدة لنفسه بملعقة:

- ولكن غيراسيم كان هنا.

- كيف؟ ومتى؟

- قبل ساعتين بالضبط. التقيته عند البوابة. كان قادماً من هنا، وخرج من جانب الفناء. أردت أن أسأله بخصوص الكلبة، ولكن لم يكن على بعضه،

كما يبدو. فدفعني، أظنه كان يريد أن يبعدني عن طريقه فقط ليقول لي: لا تضايقني. ولكن الدفعة التي تلقيتها على قفاي العياذ منها! – وانكمش ستيبان بتكشيرة لا إرادية، وحك قفاه، وأضاف: – نعم، يده سخية ولا شك.

ضحك الجميع من ستيبان، وبعد العشاء تفرقوا ليناموا.

وفي غضون ذلك، وفي تلك اللحظة ذاتها كان عملاق يسير في جادة... في دأب ولا يتوقف، يحمل كيساً وراء كتفيه، وعصا طويلة في يده. وكان ذلك غيراسيم. كان يسرع لا يلوي على شيء، يسرع إلى بيته، إلى قريته، إلى موطنه. بعد أن أغرق «مومو» المسكينة هرع إلى حجرته، وأسرع في جمع سقط متاعه في برذعة قديمة، وشدها على هيئة صرة، وألقاها على كتفه، وتهيأ للسفر.

وكان قد لاحظ الطريق جيداً منذ أن نقلوه إلى موسكو. وكانت القرية التي أخذته السيدة منها لا تبعد عن الجادة أكثر من خمسة وعشرين فرسخاً. وقد سار فيها بجسارة لا تقهر، واستماتة، وبتصميم متهلل في الوقت ذاته. سار يفرد صدره عريضاً، وعيناه محدقتان إلى الأمام بلهفة واستقامة. كان يسرع وكأن أمه العجوز تنتظره في موطنه، كأنما دعته إليها بعد جولان طويل في بلاد غريبة، وبين أناس غرباء...

كان الليل الصيفي الذي خيّم لتوه ساجياً دافئاً. وفي الجانب الذي غربت فيه الشمس كانت حافة السماء ما تزال تلوح بيضاء، متوردة قليلاً بآخر لمعان النهار الذاهب، وفي الجانب الآخر كانت ترتفع عتمة مزرقة شيباء. والليل جاء من هناك. وكانت طيور السمان تزعق بالمئات في كل مكان، والكراكي البرية ينادي بعضها بعضاً ملحفة... وما كان في مستطاع غيراسيم أن يسمعها، ولا كان في مستطاعه أن يسمع الحفيف الليلي المرهف الذي كانت ترسله الأشجار، حين كانت قدماه القويتان تحملانه خلالها، ولكنه كان يحس بالرائحة الأليفة للجودار الآخذ بالنضوج، المنبعثة بقوة من الحقول الداكنة، ويحس بالريح الهابة للقائه – ريح موطنه – خفاقة على وجهه برقة، مداعبة شعر رأسه ولحيته، ورأى أمامه الطريق اللاحب، الطريق إلى البيت، مستقيماً كالسهم، ورأى في السماء نجوماً لا عد لها تنير دربه، فراح يطأ

الأرض كالليث بقوة ونشاط، فلما طلعت الشمس وأنارته بأشعتها الحمراء الندية كان يفصله عن موسكو خمسة وثلاثون فرسخاً...

بعد يومين كان في قريته، في كوخه أمام ذهول زوجة الجندي التي أسكنوها الكوخ. صلى غيراسيم عند الأيقونات، واتجه إلى العمدة على الفور. اندهش العمدة في بادئ الأمر، ولكن حصاد العشب بدأ لتوه، وغيراسيم شغيل ممتاز، فسلّمه منجلاً كبيراً، وخرج غيراسيم يحصد كما في قديم عهده، حصاداً أبهر الفلاحين فراحوا يتطلعون إلى شمرة ذراعه وانقضاضها...

وفي موسكو افتقدوه في اليوم الثاني من هروبه. ذهبوا إلى حجرته، وفتشوها وبلّغوا غافريلا، فجاء هذا وتفقد، وهزّ كتفيه، واستقر رأيه على أن الأبكم الأصم هرب، أو غرق مع كلبته البلهاء. وأبلغت الشرطة، وأعلمت السيدة بالخبر. اغتاظت، وانفجرت باكية، وأقرت بأن يُعثر عليه مهما كلف الأمر، وراحت تؤكد بأنها لم تأمر قط بقتل الكلبة، وأخيراً عنّفت غافريلا تعنيفاً شديداً جعله طوال اليوم يهز رأسه مردداً «إذن!» حتى أعاده العم «ذيل» إلى صوابه بقوله «إذن... إذن!». وأخيراً وصل نبأ من قرية بقدوم غيراسيم إليها. هدأت السيدة قليلاً، وأصدرت أمرها في بادئ الأمر، بإجباره على العودة إلى موسكو، وبعد ذلك أعلنت أنها ليست بحاجة مطلقاً إلى هذا الرجل العاق. وعلى العموم فارقت السيدة الحياة بعد ذلك بوقت قصير، وورثتها لم يهمهم أمر غيراسيم، وحتى أقنانها الآخرون أطلقوهم ليعملوا بنظام اللزمة.

وحتى الآن يعيش غيراسيم في كوخه حياة عزلة معافى جباراً كما من قبل، يعمل مقابل أربعة كما من قبل، ورصيناً مهيباً كما من قبل أيضاً. ولكن جيرانه لاحظوا أنه كفّ، منذ عودته من موسكو، عن معاشرة النساء، بل لم يعد ينظر إليهن، ولا يربي أية كلبة.

ويقول الفلاحون: «وعلى العموم من حسن حظه أنه لا يحتاج إلى امرأة. أما بخصوص الكلبة، فما نفعها له؟ واللص لا تستطيع أن تجره إلى فناء بيته ولو بحبل!» مثل هذه الإشاعة تدور عن قوة الأبكم الجبارة.

نُـزُل المسافرين[1]

على طريق بـ ... الكبيرة، وعلى مسافة متقاربة بين مدينتين من مراكز الأقضية يمرّ بهما هذا الطريق، كان يقع، إلى عهد غير بعيد، نُزُل واسع للمسافرين معروف جيداً لسائقي عربات الترويكا، والفلاحين المرافقين لطوابير العربات، ولمتعهدي التجار، والباعة البرجوازيين في المدن، وبشكل عام، لكل المسافرين الكثر من شتى الأصناف، الذين يسلكون طرقنا في مختلف فصول العام.

كان الجميع يعرجون عادة على هذا النُّزُل إلا إذا كان المسافر من ملاك الأراضي الكبار يستقل عربة تجرها ستة خيول مرباة في البيت، وإن كان ذلك لا يعيق حوذي العربة والخادم الواقف على جسر مؤخرتها أن يتطلّعا إلى واجهة هذا النُزل الأليفة لهما كثيراً بشعور خاص وباهتمام، وإلا إذا كان المار صعلوكاً في عربة بائسة لا يملك غير بضعة قروش موضوعة في كيس في

١- استخدم تورغينيف في موضوع هذه القصة حادثة واقعية حدثت غير بعيد عن «سباسكويه – لوتوفينوفو» ضيعة والدته. وفي مخطوطة القصة الموجودة في باريس ملاحظة من المؤلف: «بدأتها في ١٨ تشرين الأول، وأنهيتها في ١٤ تشرين الثاني عام ١٨٥٢، سباسكويه». في كانون الأول عام ١٨٥٢ أبلغ تورغينيف أصدقاءه: «كتبت قصة طويلة تحت عنوان (نُزُل المسافرين) حالفني النجاح فيها، إذا لم أكن مخطئاً... أعتقد أنني في هذه القصة خطوت خطوة إلى الأمام. ولا أعرف هل ذلك من تأثير العزلة أم لأسباب أخرى؟ إلا أنني أشعر بانني صرت أبسط، وأسير قدماً نحو الغاية».

نُشرت القصة لأول مرة، في العدد الحادي عشر من مجلة «سوفريمينيك»، عام ١٨٥٥.

زيق قميصه، حتى إذا حاذى هذا النُزل الفاخر حث حصانه المتعب مسرعاً ليقضي ليلته في العِزَب المعزولة في ناحية من الطريق، لدى فلاح مستقلّ لا تجد عنده شيئاً غير القش والخبز، إلا أنك لن تدفع لقاء ذلك قرشاً زائداً.

كان النُزل المذكور يجذب النزلاء إليه، فضلاً عن موقعه الممتاز، بمزاياه الكثيرة الأخرى: بمائه العذب المستقى من بئرين عميقتين لهما بكرتان صارفتان يتدلى منهما دلوان حديديان بسلسلتين، وبفنائه الرحب بسقائفه المتكاثفة من الألواح الخشبية على أعمدة سميكة، وبذخيرة ثرة للشوفان الجيد، وبمبنى دافئ له موقد روسي ضخم تلصق إليه مدخنتان طويلتان تشبهان مناكب العمالقة، وأخيراً بحجرتين نظيفتين بقدر كاف، جدرانها مغلّفة بورق أحمر ليلقي ممزق قليلاً في الأسفل، فيهما أريكة خشبية مصبوغة، ومقاعد من نفس النوع، ومزهريتان من الجيرانيوم عند نوافذ لم تفتح قط، كابية من تراكم غبار السنين عليها.

وإزاء ذلك كانت توجد فضائل أخرى لنزل المسافرين هذا: كان هناك دكان حدادة على مقربة منه، وفي نفس المكان نفسه تقريباً طاحونة، ومن المستطاع تناول طعام جيد بفضل طباخة بدينة كانت تطهو الطعام لذيذاً دسماً، ولا تبخل بما لديها من مؤن. وعلى بعد نصف فرسخ حانة. كما كان صاحب النُزل يتاجر بالنشوق، وإن كان مخلوطاً بالرماد، إلا أنه نفّاذ يلذع الأنف بلطف.

وعلى العموم كانت هناك أسباب كثيرة تجعل مختلف المسافرين يتردّدون عليه بلا انقطاع. والشيء الرئيسي أنه كان يغري المسافرين. وذلك شيء لا غنى عنه بالطبع، في كل مشروع رائج. وكان سبب إغرائه الخاص يكمن حسب أقوال الناس في المنطقة المجاورة، في كون صاحبه محظوظاً، وموفقاً في كل مشاريعه، رغم أنه كان لا يستحق محظوظيته هذه كثيراً، ولكن الحظ حين يرسو على أحد لا يبارحه، كما يبدو.

كان صاحب النُزل رجلاً من سكان المدينة يدعى ناعوم إيفانوف. كان ربع القامة، بديناً، محدودباً، عريض المنكبين، له رأس كبير مدور، وشعر مموج سرى الشيب فيه، رغم أن محياه يوحي بأنه لم يتجاوز الأربعين. وجهه ممتلئ

غض، وجبينه واطئ بل أبيض أملس، وعيناه زرقاوان وضاءتان صغيرتان لهما نظرة غريبة جداً، موطأة ووقحة في الوقت ذاته، وذلك يندر أن تراه.

كان ينكس رأسه دائماً، ويديره بصعوبة، ربما لقصر رقبته الشديد. وكان يمشي كالراكض ولا يحرك ذراعيه عند المشي، بل يجنحهما. وعندما كان يبتسم، وهو غالباً ما يبتسم، ولكن دون أن يضحك، وكأنما يبتسم في سره، كانت شفتاه السميكتين تنفرجان انفراجة سمجة، وتكشفان عن صف من الأسنان المتماسكة اللامعة. وكان يتكلم بتخلخل، وفي صوته رنة جهوم. وكان حليق الذقن، ولكنه في لباسه لم يكن يشبه الألمان. فقد كان يرتدي قفطاناً طويلاً مستهلكاً، وسروالاً عريضاً، وحذاء بلا جوربين، وكان كثيراً ما يتغيب عن البيت في شؤونه الخاصة، وهي كثيرة، فقد كان يتاجر بالخيول، ويستأجر الأرض، ويدير حدائق الخضروات، ويبتاع البساتين في مناطق مختلفة، ويزاول، بشكل عام، مختلف العمليات التجارية، ولكن فترات تغيبه لم تكن طويلة قط. كان يعود إلى وكره كالحدأة التي كان له شبه كبير بها، لا سيّما في تعبير عينيه. كان يحسن إشاعة النظام في وكره. كان موجوداً في كل مكان، ويستمع لكل شيء، ويصدر الأوامر، ويفعل هذا وذاك، ويمسك الحساب بنفسه، ولا يتسامح مع أحد بفلس، ولكنه لا يأخذ فلساً زيادة.

كان المسافرون لا يحبون مبادرته بالكلام، كما أنه لم يكن يحب إطلاق الكلمات جزافاً. كان يقول وكأنه يقطع كل كلمة: «أنا بحاجة إلى فلوسكم، وأنتم بحاجة إلى طعامي. وليست بيننا صلة رحم. تعالوا، وكلوا، واشربوا، ولا تطيلوا الجلوس. وإذا كنتم متعبين فناموا، ولا حاجة إلى الكلام الفارغ». كان يختار شغيلة ضخام الأجسام معافين، إلا أنهم وديعون ومطاوعون وذوو سلوك حسن، وكانوا يخشونه كثيراً. وكان لا يضع الخمرة في فمه، إلا أنه كان يعطي شغيلته في الأعياد عشرة كوبيكات للفودكا، وفي الأيام الأخرى لم يكونوا يجرؤون على شربها. والناس من أمثال ناعوم سرعان ما يغتنون... ولكن ناعوم لم يصل إلى وضعه اللاّمع، أي أن يملك أربعين أو خمسين ألفاً من الروبلات، بطريق مستقيم...

عند بداية قصتنا هذه كان قد مضى زهاء عشرين عاماً على وجود نزل

المسافرين في مكانه على الطريق الكبير. وفي الحقيقة لم يكن له سقف من الألواح الحمراء الداكنة يضفي على منزل ناعوم إيفانوف مظهر ضيعة من ضياع الأعيان، بل كان مبنى أكثر بؤساً، السقائف في الفناء من القش، والجدران من الأغصان المضفورة بدلاً من الروافد، كما لم يكن يتميز في مقدمته بقوصرة إغريقية مثلثة قائمة على أعمدة مسحوجة، ولكنه كان مع ذلك نزلاً للمسافرين لطيفاً - واسعاً ومتماسكاً ودافئاً - وكان المسافرون يأمونه عن طيب خاطر. وصاحبه في ذلك الزمن لم يكن ناعوم إيفانوف، بل رجلاً يدعي أكيم سيميونوف، هو أحد فلاحي صاحبة أطيان مجاورة هي ليزافيتا بروخوروفنا كونتسة زوجة ضابط عالي الرتبة.

كان أكيم هذا ريفياً نابهاً واسع الحيلة خرج، وما يزال فتى ليعمل سائقاً مع حصانين رديئين، وعاد بعد عام ومعه ثلاثة خيول معتبرة، ومنذ ذلك الحين صار يقضي كل حياته تقريباً في التنقل على الطرق الكبيرة، سافر إلى قازان وأوديسا، إلى أورنبورغ ووارشو، وطلع إلى الخارج، إلى ليبتزغ، وصار أخيراً يتنقل بعربتين ضخمتين تجر كل واحدة منهما ثلاثة أفراس ضخمة قوية. ولا ندري أضجر من حياة التنقل والترحال، أم أراد أن يقيم له عائلة (في إحدى غيباته ماتت زوجته، ولحقها أولادها أيضاً) إلا أنه عزم في آخر الأمر، أن يهجر مهنته السابقة، ويدير نُزلاً للمسافرين. وبتصريح من سيدته استقرّ على الطريق الكبير، واشترى باسمها ربع فدان من الأرض[1] وأقام عليها نُزُلاً للمسافرين.

وجرى الأمر على ما يرام. فقد كان له من النقود ما يكفي وما يزيد. والخبرة التي حصل عليها خلال تجواله الطويل في كل أرجاء روسيا أتت له بنفع عظيم، وكان يعرف كيف يريح المسافرين، لا سيّما من أهل حرفته السابقة، سائقي عربات الترويكا الذين كان يعرف الكثيرين منهم شخصياً، والذين يكن لهم أصحاب أنزال المسافرين تقديراً خاصاً، فإن هؤلاء الناس

١- لم يكن لفلاحي روسيا الأقنان الحق في امتلاك الأرض، فكانوا يضطرون (كما هي الحال مع أكيم) أن يشتروها بنقودهم، ولكن باسم صاحب الأرض الذي كان يمتلكهم هم أنفسهم أيضاً.

ياكلون ويشربون كثيراً جداً، وينفقون على أنفسهم وعلى خيولهم الجبارة الشيء الكثير. وكان نزُل أكيم معروفاً في دائرة قطرها مئات الفراسخ... بل كان الناس أكثر إقبالاً عليه من إقبالهم على ناعوم الذي أعقبه فيما بعد، رغم أن أكيم كان أقل من ناعوم مقدرة على الإدارة بشوط بعيد.

كان كل شيء في نُزُل أكيم على النمط القديم، فالنزل دافئ، ولكنه غير نظيف تماماً، الشوفان دقيق أو رطب، والطعام ما بين بين، بل وكان أحياناً طعاماً كان من الخير أن يبقى في الموقد كلياً، ليس لأن الرجل كان شحيحاً فيه، بل لأن الطباخة لا تعتني به.

ومقابل ذلك كان أكيم مستعداً لأن يتساهل في الأسعار، ولربما لا يرفض أن يأتمن أحداً على دين.

وبشكل عام كان أكيم رجلاً طيباً، ومالكاً لطيفاً. كما كان مطواعاً في الحديث والقرى، وأحياناً يطلق لسانه وهو وراء السماور، حتى لتوليه أذنيك، لا سيّما إذا صار يتحدث عن بطرسبورغ، أو عن السهوب التشيركاسية[1]، أو عن مناطق ما وراء الحدود، وكان يحب بالطبع أن يحتسي الخمرة مع جليس طيب حباً في العشرة، وليس لإساءة الأدب. وهذا رأي المسافرين فيه.

كان التجار يميلون إليه كثيراً، وبشكل عام، كل الذين يسمون باتباع القديم الذين لا يخرجون إلى سفر، إلا إذا شدوا الأحزمة، ولا يدخلون حجرة دون أن يرسموا علامة الصليب، ولا يتكلمون مع أحد، إلا إذا بادروه بالتحية.

ومظهر أكيم لوحده كان لصالحه، فقد كان طويلاً في شيء من النحافة، إلا أنه ممشوق القوام جداً حتى وهو في سن الرجولة. كان له وجه طويل، قسماته بديعة متناسقة، وجبينه عال مفتوح، وأنفه مستقيم دقيق، وشفتاه معتدلتان، وكانت نظرة عينيه البنيتين الجاحظتين تشعان بالكثير من الدماثة الخفية، وشعره الخفيف الناعم يلتف حلقات عند رقبته، بينما شفّ كثيراً في قمة رأسه.

وكان صوت أكيم ذا رنة محببة جداً، رغم ما فيه من ضعف. في شبابه كان

---

١ - كان هذا الاسم يطلق على سهوب جنوب أوكرانيا. وقد بقيت هذه التسمية مثلاً، تطلق على مدينة تشيركاسي.

يغني غناءً ممتازاً، ولكن السفرات الطويلة في العراء شتاء أوهنت صدره، إلا أنه كان يتكلم بسلاسة وعذوبة كبيرتين. وعندما كان يضحك كانت تتكوّن عند عينيه غضون كالأشعة، حلوة المنظر إلى حدٍّ بعيد. ومثل هذه الغضون لا تراها إلا عند الناس الطيبين. كانت حركات أكيم، في معظمها بطيئة، ولا تخلو من بعض الوثوق والمهابة المكرمة التي يتصف بها المجرّب الذي رأى الكثير في حياته.

كان أكيم، أو أكيم سيمينوفيتش كما كانوا ينادونه في بيت سيدته، حيث كان يتردّد غالباً، وفي أيام الآحاد، بعد القداس بحكم المؤكد، كان حسناً في كل شيء، لولا ما فيه من ذلك الضعف الذي أودى بالكثير من الناس، وأودى به هو الآخر في نهاية المطاف، وهو الضعف إزاء الجنس النسوي.

كانت سرعة وقوعه في الحب تصل إلى الحد الأقصى، فقد كان قلبه لا يعرف كيف يصمد أمام نظرة امرأة، فكان يسيح فيها كما يسيح في الشمس أول الثلج في الخريف... فكان يضطر إلى أن يدفع ثمناً غالياً لحساسيته الزائدة.

خلال العام الأول من إقامة أكيم في الطريق الكبير كان مشغولاً ببناء النُزل، وتهيئة لوازمه، وبكل المشاغل التي تصحب كل إقامة في مكان جديد، حتى لم يكن له الوقت قط ليفكر في النساء، أما إذا خطرت في ذهنه أفكار آثمة فقد كان يطردها في الحال بقراءة الكتب المقدسة المختلفة التي كان يكن لها احتراماً شديداً (كان قد تعلّم القراءة منذ سفرته الأولى) وبتلاوة التراتيل بينه وبين نفسه أو بأي هم من الهموم الحميدة. وكان آنذاك قد دخل عامه السادس والأربعين، وفي مثل هذه السن تهدأ العواطف بشكل ملحوظ، وتبرد، والزواج قد حان ميقاته. كما أن أكيم نفسه بدأ يفكر بأن هذه الرعونة، على حدِّ تعبيره، زايلته... ولكن لا فرار من القدر على ما يبدو.

كانت ليزافيتا بروخوروفنا كونتسة زوجة الضابط، وسيدته السابقة قد ترملت بعد وفاة زوجها الذي كان من أصل ألماني، بينما كانت هي نفسها من مواليد مدينة ميتافا التي قضت فيها السنوات الأولى من طفولتها، وتركت

فيها عائلتها الفقيرة الكثيرة الأفراد، وكانت قليلة الاهتمام بعائلتها، لا سيّما بعد أن زارها في بيتها مصادفة أحد إخوانها، وهو ضابط مشاة، وعربد في اليوم الثاني من زيارته حتى كاد يضرب السيدة نفسها، ناعتاً إياها «Du، Lumpen mamselle»[1]، بينما في يوم وصوله دعاها بلغة روسية ركيكة: «أخية، صانعة المعروف».

كانت ليزافيتا بروخوروفنا تسكن ضيعتها الجميلة لا تكاد تفارقها، والضيعة ثمرة جهود زوجها الشخصية، وهو معماري سابق. كانت ليزافيتا بروخوروفنا تدير الضيعة بنفسها، وتحسن إدارتها، ولا تتنازل عن أقل نفع منها، وتستدر من كل شيء فائدة لها. وفي ذلك، وفي قدرتها الخارقة أيضاً في إنفاق كوبيك بدلاً من كوبيكين تتجلى طبيعتها الألمانية، ولكن في كل شيء، ما عدا ذلك، تروّست[2] كثيراً.

كان لها الكثير من الخدم، لا سيّما من الفتيات اللواتي، على أية حال، لم يأكلن الخبز بلا مقابل، فقد كانت ظهورهن محنية على العمل من الصباح حتى المساء. كانت ليزافيتا بروخوروفنا تحب التنقل في عربة يقف على جسر مؤخرتها خادمان في بزة الخدم، وتحب استماع الأقاويل والنمائم، وكانت هي نفسها تحسن إذاعة الأقاويل، وكانت تحب أن تشمل الإنسان بحظوتها، وتذهله فجأة بالتنكر له. وباختصار، كانت ليزافيتا بروخوروفنا تتصرف تصرف السيدة تماماً.

كانت تحترم أكيم – كان يدفع لها لذمته الكبيرة بشكل منتظم – وتتحدث معه بلطف، بل وكانت على سبيل المزاح، تدعوه إلى زيارتها في بيتها... ولكن في بيتها بالذات وقع المكروه لأكيم.

كانت من بين خادمات ليزافيتا بروخوروفنا فتاة في نحو العشرين من العمر، يتيمة تدعى دونياشا. كانت جذابة المحيا، هيفاء، رشيقة الحركات. وقسماتها على تنافرها يمكن أن تروق للعين: بشرة غضة، وشعر أشقر كثيف، وعينان رماديتان حيّتان، وأنف مدور صغير، وشفتان ورديتان، وسيماء وجه

١- «أنت، يا فاحشة» (بالألمانية في الأصل).

٢- أصبحت روسية. (المعرب).

تتقاسمه الدعابة والتحدي. وكل ذلك على درجة كبيرة من الحلاوة الخاصة به.

وفضلاً عن ذلك كانت رغم تيتمها، تتسم بالصرامة، وبالخيلاء تقريباً. كانت سلالة عريقة في الخدمة قضى أبوها المتوفى الريفي زهاء ثلاثين عاماً وكيل مؤنة في أحد بيوت السادة، وجدها ستيبان يعمل خادماً خصوصياً لسيد توفي منذ زمن بعيد كان أميراً ورقيباً في الحرس.

كانت دونياشا في ثياب نظيفة تتغنج بحركات يديها اللتين كانتا جميلتين جداً في الواقع. وكانت دونياشا تبدي ازدراء كبيراً لكل المفتونين بها، وتستمع إلى ملاطفتهم بابتسامة الثقة بالنفس، وإذا ردّت عليهم، ردت في أغلب الأحيان بعبارات قصيرة مبهمة من مثل «اهوه! هذا العايز! العياذ! كأنما ما عندي شغل...». هذه العبارات لم تكن تفارق لسانها. قضت دونياشا زهاء ثلاثة أعوام في التعلم في موسكو، حيث أتقنت نوعاً معيناً من الحركات واللمزات تتصف به الخادمات اللواتي قضين وقتاً في العاصمتين. فكان يقال عنها فتاة معتزة بنفسها (وذلك إطراء كبير على ألسنة الخدم) لم تهن نفسها، رغم ما رأت من تجارب. وكانت خياطتها جيدة أيضاً، ولكن رغم كل ذلك لم تحسن ليزافيتا بروخوروفنا معاملتها، بسبب رئيسة الخادمات كيريلوفنا، وهي امرأة تجاوزت الشباب متحايلة ماكرة. كانت كيريلوفنا تحظى بتأثير كبير على سيدتها، وتحسن إزاحة منافساتها بحذق شديد.

وأكيم وقع في حب دونياشا هذه! أحبها وكأنما لم يحب من قبل قط. رآها لأول مرة في الكنيسة، وكانت قد عادت من موسكو لتوها... ثم التقاها عدّة مرات في بيت السيدة، وأخيراً قضى معها أمسية كاملة عند المقاول، حيث دعي لشرب الشاي مع الضيوف المحترمين الآخرين. لم يستنكف منه الخدم، رغم أنه لم يكن منهم، وكان يطلق لحيته، ولكنه كان رجلاً مهذباً متعلماً، وصاحب نقود، وهو الأهم، وبالإضافة إلى ذلك لم يكن يرتدي ما يرتديه الفلاحون.

كان يرتدي قفطاناً طويلاً من الجوخ الأسود، وحذاءً من جلد العجل الناعم، والمنديل على رقبته. حقاً إن بعض الخدم كانوا يقولون إنه ليس من

رتبتنا، ولكنهم كانوا يقتربون من التملق له في حضوره. في تلك الأمسية، في بيت المقاول، استولت دونياشا تماماً على قلب أكيم الضعيف إزاء الحب، رغم أنها لم تجب بأية كلمة على كل كلامه المتزلف لها، واكتفت من حين لآخر، بأن ترميه بنظرة جانبية، وكأنما مندهشة من وجودِ هذا الريفي في البيت. وكل ذلك لم يزد أكيم إلا ضراماً. عاد إلى بيته، وفكر وأطال التفكير، وعزم على أن يطلب يدها... إلى هذا الحد أثّرت فيه «رقيتها»! ولكن ما أعظم غيظ دونياشا وحنقها، حين استدعتها كيريلوفنا إلى غرفتها بلطف بعد حوالي خمسة أيام، وأبلغتها بأن أكيم (والظاهر أنه إذا عزم على شيء فعل) الفلاح والملتحي الذي كانت تعتبر حتى الجلوس إلى جانبه إهانة، يخطبها زوجة له!

توهجت دونياشا كلية في البداية، ثم ضحكت ضحكة متكلفة، وبعدها أخذت تبكي، إلا أن كيريلوفنا شنّت الهجوم بحذق كبير، وأشعرتها بقوة وضعها في البيت، وألمحت ببراعة كبيرة إلى مظهر أكيم المعتبر وإلى ثروته وولائه الأعمى، وأخيراً أومأت بدلالة كبيرة إلى رغبة السيدة نفسها، حتى إن دونياشا خرجت من الحجرة، والتفكير باد على وجهها، حتى إذا التقت أكيم ظلّت تتفرس في عينيه لا غير، ولكن دون أن تصد عنه.

وتبددت بقايا حيرتها بالهدايا السخية الفريدة التي أغدقها عليها هذا الرجل المغرم... وقبلت ليزافيتا بروخوروفنا بزواجه بدونياشا بعد أن أرسل أكيم إليها مائة خوخة على طبق كبير من الفضة تيمناً بالفرح، وجرى هذا الزواج. و لم يبخل أكيم بالنفقات، حتى إن دونياشا سرعان ما تسرّت، وهي التي كانت قاعدة في أمسية الفتيات عشية الزواج كالقتيلة، وفي صباح الزواج بالذات ظلت تبكي حينما كانت كيريلوفنا تلبسها ملابس الزفاف... أعطتها السيدة شالها لترتديه في الكنيسة، وفي نفس اليوم نفسه أهدى لها أكيم شالاً مثله، إن لم يكن أحسن منه.

وبهذا الشكل تزوج أكيم، ونقل زوجته الشابة إلى نُزُله... وبدآ يعيشان سوية. وتبيّن أن دونياشا ربة بيت رديئة وعوناً سيئاً لزوجها. كانت لا تألف شيئاً، وتكتئب، وتضجر إلا إذا التفت إليها ضابط مسافر، وتلاطف معها أثناء جلوسهما وراء السماور. وكثيراً ما كانت تتغيب إما في المدينة لشراء

الحاجيات، أو في بيت السيدة الذي لم يكن يبعد عن نزل المسافرين غير أربعة فراسخ.

كانت تجد راحة في بيت السيدة، فقد كانت جماعتها تحيط بها هناك، وتغبطها الفتيات على حللها، وتستضيفها كيريلوفنا على شاي، وتتبسط ليزافيتا بروخوروفنا نفسها في الحديث معها... ولكن حتى هذه الزيارات لم تمر دون أحاسيس مريرة لدونياشا... فهي كزوجة صاحب النزل مثلاً، لا يحسن بها أن تلبس قبعة، فكانت تضطر إلى أن تشد رأسها بمنديل... مثل زوجة تاجر، كما قالت لها كيريلوفنا الداهية، أو كزوجة حَضري كما تفكر هي مع نفسها.

وكم من مرة خطرت في بال أكيم كلمات قريبه الوحيد، عمه العجوز، وهو ريفي راسخ في عزوبيته لا عائلة له. قال له حين التقاه في الشارع:

– إيه، يا أخ أكيم. سمعت أنك ستتزوج.

– طيب، وماذا في الأمر؟

– أوه، أكيم، أكيم! لست أنت من صنفها بالتأكيد، كما أنها ليست من صنفك.

– ولماذا هي ليست من صنفي؟

– على الأقل لهذا الاعتبار.

وأشار العجوز إلى لحية أكيم التي أخذ يشذبها إرضاء لخطيبته. و لم يوافق على حلقها تماماً... أطرق أكيم، واستدار العجوز، وأحكم لفّ معطفه الفلاحي الممزق عند الكتفين على جسده، وابتعد عنه هازاً رأسه.

أجل، كم من مرة فكّر أكيم في ذلك، وتأفف، وتـأوه... إلا أن حبه لزوجته الحلوة لم يفتر، وكان يفخر بها، لا سيما حين يقارنها، ولا نقول قط، بالريفيات الأخريات، أو بزوجته السابقة التي زوجوه إياها، وهو في السادسة عشر، بل بالخادمات الأخريات، وهي بينهن «واسطة العقد!..». وكانت أقل ملاطفة منها تمده بمتعة كبرى... وكان يقول لنفسه: أرجو أن تتعود، تألف العيشة... وفضلاً عن ذلك فقد كانت تحسن التصرف كثيراً، ولا يستطيع أحد أن يذكرها بسوء.

ومرّت بضعة أعوام على هذه الحال، وبالفعل انتهت دونياشا إلى أن ألفت عيشتها. وكلما تقدمت السن بأكيم ازداد تعلّقه بها، وائتمانه لها. ورفيقاتها اللواتي اتخذن أزواجاً من غير الريفيين عانين الكثير، سواء في وقوعهن في ضنك العيش، أو في أيدٍ غير صالحة... بينما ظل أكيم يثرى ويثرى، ويوفق في كل شيء. فقد حالفهُ الحظ و لم يُشقه إلا شيء واحد، هو أن الله لم يرزقه بذرية.

وكانت دونياشا قد جاوزت الخامسة والعشرين، وراح الجميع يسمونها أفدوتيا أريفيفنا[1] احتراماً لها. ومع ذلك لم تصر صاحبة بيت حقيقية، ولكنها أحبت بيتها، وأخذت تتعهد بالمؤن، وتلاحظ العاملة... والحق أنها كانت تفعل كل ذلك كيفما اتفق، ودون أن تراعي النظافة والنظام، كما تنبغي المراعاة. وعوضاً عن ذلك كانت صورتها معلقة في حجرة النُّزُل الرئيسية إلى جانب صورة أكيم، مرسومة بالألوان الزيتية، وقد أوصت هي نفسها بأن يرسمها لها رسام بدائي هو ابن شماس من الأبرشية المحلية.

كانت تصورها في ثوب أبيض وشال أصفر، وعلى رقبتها ستة صفوف من اللآلئ الكبيرة، وفي أذنيها قرطان طويلان، وفي كل أصبع خاتم. وكان من الممكن التعرف عليها من الصورة، رغم أن الرسام رسمها بيضاء موردة إلى حدٍّ مفرط، وجعل عينيها سوداوين بدلاً من رماديتين، وحولاوين قليلاً... أما في رسم أكيم فلم يوفق كلياً، فطلع من بين يديه داكناً a la Rembrandt [2]، حتى إن المسافر، كان إذا تقدّم من صورة أكيم أحياناً، ينظر إليها يحمحم قليلاً، ولا شيء آخر. وصارت أفدوتيا تهمل لباسها كثيراً. تلقي منديلاً كبيراً على كتفيها، والثوب تحته بأي شكل كان. فقد استولى عليها ذلك الكسل المتحسر الذابل الناعس الذي يميل إليه الروسي كثيراً جداً، لا سيّما إذا كان عيشه مؤمناً...

ومع كل ذلك جرت أحوال أكيم وزوجته بيسر شديد، فقد عاشا بوفاق، واعتبرا زوجين مثاليين. ولكن الإنسان كالسنجاب الذي يحك أنفه

١- عادة روسية أن ينادى الشخص باسمه واسم أبيه احتراماً. (المعرب).

٢- رمبراندت (١٦٠٦ - ١٦٦٩) رسام هولندي عبقري.

في اللحظة التي يصوب فيها الرامي عليه سهمه، لا يستشعر بالمكروه قبل وقوعه، فيتحطم فجأة كما يتحطم الجليد فجأة تحت قدميه...

في مساء خريفي نزل على أكيم في نُزُله قمّاش. كان قد سلك مختلف الطرق الجانبية في سفره من موسكو إلى خاركوف، ومعه عربتان محملتان بالبضاعة. كان من أولئك الباعة المتجولين الذين ينتظرهم أحياناً أصحاب الأراضي، ولا سيّما زوجاتهم وبناتهم بلهفة بالغة.

وقد وصل هذا البائع الذي تعدّى سن الشباب رفيقان آخران، أو بالأصح شغيلان، أحدهما شاحب ناحل محدودب، والآخر شاب بارز إلهيئة، وسيم في نحو العشرين من العمر. طلب الثلاثة أن يقدم لهم العشاء، وبعد ذلك جلسوا لشرب الشاي، ورجا البائع من صاحبي النزل أن يحتسيا معهم قدحين، و لم يرفض المضيفان. وسرعان ما انعقد الحديث بين العجوزين (كان أكيم قد بلغ السادسة والخمسين)، وراح البائع يسأل عن أصحاب الأراضي والجيران، ولا أحد، كان يفضل أكيم في الإدلاء بكل المعلومات اللازمة في هذا الموضوع.

وكان الشغيل المحدودب يروح ويجيء لتفقد العربتين، وانسحب أخيراً لينام. واضطرت أفدوتيا أن تسامر الشغيل الآخر... جلست بالقرب منه، تصغي إلى ما يقصه أكثر مما تتكلم، والظاهر أن أحاديثه كانت ممتعة لها، فقد دبّت الحيوية في وجهها، ولمع التورد على خديها، وضحكت كثيراً ومن كل قلبها. جلس الشغيل الشاب جامداً تقريباً، مميلاً رأسه الأجعد الشعر نحو المائدة، متحدثاً بهدوء، دون أن يرفع صوته، ولا يتعجل، غير أن عينيه الصغيرتين، الوضاءتين والجسورتين الزرقاوين كانتا منغرزتين في أفدوتيا، فكانت هذه تحيد عنهما في البداية، وبعد ذلك راحت هي نفسها تتفرس في وجهه.

كان وجه هذا الفتى غضاً أملس مثل تفاح القرم. وكان غالباً ما يتبسم عابثاً، وينقر بأصابعه البيض على ذقنه المكتسي لتوه بزغب خفيف داكن. كان يتكلم بتعابير التجار، ولكن بطلاقة وثقة بالنفس لا مبالية، وكان يديم النظر إليها بتفرس ووقاحة... وفجأة اقترب منها قليلاً، وقال لها دون أن يظهر أي تغير على وجهه:

– لا يوجد أحسن منك في الدنيا، يا أفدوتيا أريفيفنا. يبدو أنني مستعد أن أموت من أجلك.

أرسلت أفدوتيا ضحكة عالية.

سألها أكيم:

– مم تضحكين؟

قالت بدون أي ارتباك ظاهر:

– عندهم أحاديث مضحكة.

كشّر البائع العجوز عن أسنانه ضاحكاً:

– هاها، نعم. ناعوم هذا فتى مازح. ولكن لا تستمعي إليه.

– لا شغل لي لأسمعه. – ردت أفدوتيا وهزت رأسها.

– هاها، بالطبع، – قال العجوز، وأضاف منغماً صوته – نعم، ونرجو المعذرة. مرتاحون جداً، ولكن وقت النوم حان. وشكراً...

ونهض. وقال أكيم ونهض أيضاً:

– ونحن مثلكم مرتاحون جداً. على الضيافة يعني. نتمنى لكم ليلة سعيدة. هيا، أفدوتيا، انهضي.

اتجه الزوج والزوجة إلى حجرة منفصلة اتخذاها مخدعاً لهما. وراح أكيم يشخر في الحال. وظلّت أفدوتيا وقتاً طويلاً لا يراودها النوم... في بادئ الأمر استلقت بهدوء مديرة وجهها إلى الحائط، ثم أخذت تتقلب على حشية الريش الساخنة تلقي اللحاف عنها تارة، وتسحبه عليها تارة أخرى... وبعد ذلك أغفت إغفاءة خفيفة. وفجأة صدر من جانب الفناء صوت رجالي عال، كان يغني غناء ممطوطاً، ولكنه غير موحش، وكلماته غير مفهومة للأذن. فتحت أفدوتيا عينيها، ورفعت جذعها على كوعها، وراحت تنصت... تواصل الغناء، وانساب رناناً في الهواء الخريفي.

رفع أكيم رأسه، وسأل:

– مَنْ يغني؟

أجابت أفدوتيا:

- لا أدري.

- غناؤه لطيف - أضاف بعد أن صمت برهة - لطيف. والصوت قوي. في زماني كنت أغني أيضاً، وغنائي كان لطيفاً، ولكن صوتي تلف. أما هذا فجميل. الشاب هو الذي يغني على ما أظن. اسمه ناعوم، كما يتهيأ لي، - وانقلب إلى الجنب الآخر، وتنهد، وغفا ثانية.

استمر الصوت يغني وقتاً طويلاً قبل أن يسكت... وظلت أفدوتيا تنصت إليه وتنصت. وأخيراً بدا وكأن الصوت تقطع فجأة، ارتفع مرة أخرى بجرأة، وخمد ببطء. رسمت أفدوتيا علامة الصليب، ووضعت رأسها على المخدة... مضت نصف ساعة... رفعت أفدوتيا جسمها قليلاً، وأخذت تنسل نازلة من السرير.

- إلى أين، يا زوجة؟

سألها أكيم من خلل النعاس. فتوقفت. قالت:

- اعدّل فتيلة القنديل، لا يأتيني النوم...

- صلّي، إذن...

تمتم أكيم، وهو يغفو من جديد.

ذهبت أفدوتيا إلى القنديل، وأخذت تعدل ذبالته، فانطفأ بين يديها سهواً. عادت، واضطجعت. وهدأ كل شيء.

في بكرة الصباح التالي تابع التاجر سفره مع مساعديه. كانت أفدوتيا نائمة. رافقهم أكيم مسافة نصف فرسخ، فقد كان عليه أن يذهب إلى الطاحونة، ولما عاد إلى البيت وجد زوجته في كامل لباسها، وليست وحدها، بل ومعها فتى الأمس، ناعوم. كانا واقفين قرب الطاولة عند النافذة يتبادلان الحديث. وحين رأت أفدوتيا زوجها خرجت من الحجرة صامتة، بينما قال ناعوم إنه عاد ليأخذ قفازي سيده، زاعماً أن السيد نسيهما على المقعد. وانصرف أيضاً.

والآن نقول للقراء ما حدسوه هم أنفسهم في أغلب الظن، دون معونتنا.

إن أفدوتيا وقعت في غرام ناعوم. فكيف حصل ذلك بهذه السرعة، ذلك ما يصعب توضيحه، لا سيّما وأنها كانت في سلوكها طاهرة، رغم كل الوقائع والمحاولات لحرفها عن وفائها لزوجها.

وبعد هذا، حين انتشر خبر علاقتها بناعوم صار الناس في الجوار يقولون إن ناعوم نثر في قدح شايها، في المساء الأول، عقاراً مسحوراً (ما يزال الناس عندنا يؤمنون بتأثير مثل هذه الوسائل) وأن ذلك كان يمكن أن يحلظ بسهولة على أفدوتيا التي زعموا أنها بعد ذلك بوقت قصير بدأت تنحل وتستوحش.

ومهما يكن من شيء فقد صار الناس يرون ناعوم كثيراً في نزل أكيم. في المرة الأولى جاء مع نفس التاجر نفسه، وبعد ثلاثة أشهر أو نحوها جاء وحده مع بضاعة تعود له، وبعد ذلك أشيع أنه أقام في أقرب مركز من مراكز الفضاء، ومنذ ذلك الحين لم يمر أسبوع دون أن تظهر على الطريق الكبير عربته المتينة المصبوغة يجرها حصانان ممتلئان كان يسوقهما بنفسه. لم يكن بينه وبين أكيم صداقة، كما لم يلحظ بينهما نفور. ولم يكن أكيم يعيره كبير التفات، وكان لا يعرف عنه إلا أنه فتى نابه صعد نجمه. ولم يكن يشك بمشاعر أفدوتيا الحقيقية، وظل يثق بها كالسابق.

وعلى هذا النحو انقضى عامان آخران:

وفي نهار صيفي في الساعة الثانية قبيل الغداء، خرجت ليزافيتا بروخوروفنا ومعها كلبها ومظلة تطوى، خرجت للتنزه في الحديقة الصغيرة النظيفة المرتبة على الطراز الألماني، وقد تغضنت فجأة، خلال هذين العامين، واصفر لونها رغم كل التدليكات والبودرة وطلاء الخدين بالحمرة. كان فستانها المنشى يرسل حفيفاً خفيفاً، وهي تسير بخطى قصيرة في درب رملي بين صفين مستقيمين من زهور الأضاليا، وإذا بصاحبتنا القديمة كيريلوفنا تلحق بها، وتبلغها بأن تاجراً من مدينة ب... يود لو يراها في شأن مهم جداً.

كانت كيريلوفنا، كالسابق صاحبة حظوة لدى السيدة (كانت من الناحية الفعلية تدير ضيعة السيدة كونتسة) وقبل وقت قصير تلقت أذناً منها بأن تلبس قبعة بيضاء ذات شريط يحيط بالذقن، مما أضفى حدة أكثر على قسمات وجهها الأسمر الرقيقة.

سألت السيدة:

– تاجر؟ ماذا يريد؟

– لا أدري ماذا يريده – قالت كيريلوفنا بصوت مسارر – فقط يبدو لي أنه يريد أن يشتري من سيادتك شيئاً.

عادت ليزافيتا بروخوروفنا إلى غرفة الجلوس، وجلست في مكانها المعتاد، وهو كرسي عليه قبة يتلوى عليها اللبلاب تلوياً جميلاً، وأمرت بأن يدخل عليها هذا التاجر من ب...

ودخل ناعوم، وانحنى محيياً، ووقف عند الباب.

– سمعت أنك تريد أن تشتري شيئاً مني؟

بادرته ليزافيتا بروخوروفينا، وفكرت في سرها: «أي رجل وسيم هذا التاجر».

– بالضبط، يا سيدتي.

– وما هو بالذات؟

– ألا تتلطفين ببيع نزل المسافرين العائد لك؟

– أي نُزل؟

– الموجود على الطريق الكبير، غير بعيد عن هنا.

– هذا ليس لي، إنه نُزُل أكيم.

– وكيف ليس لك؟ مبني على أرضك.

– لنفرض على أرضي... اشتري باسمي، ولكنه عائد له.

– نعم، فهلا تتفضلين ببيعه لنا؟

– وكيف أبيعه؟

– في بساطة وسندفع ثمناً جيداً.

صمتت ليزافيتا بروخوروفنا، ثم عادت تقول:

– غريب حقاً، هذا الذي تقوله. – ثم أضافت – وكم ستدفع؟ أنا لا أسأل ذلك لي، بل لأكيم.

– طيب، بكل المبنى والملحقات وبالطبع مع الأرض التي أقيم عليها هذا النُّزل سأدفع ألفي روبل.

اعترضت ليزافيتا بروخوروفنا قائلة:

– ألفي روبل! هذا قليل.

– ثمن جيد.

– ولكن هل تكلمت مع أكيم؟

– ولماذا أتكلم معه؟ النزل لك، ولهذا أتحدث معك، يا سيدتي.

– ولكن قلت لك... غريب هذا حقاً، فكيف لا تفهمني!

– ولماذا لا أفهم، يا سيدتي. نحن نفهم.

نظرت ليزافيتا بروخوروفنا إلى ناعوم، ونظر ناعوم إلى ليزافيتا بروخوروفنا. وشرع هذا يقول:

– إذن، يا سيدتي. ماذا سيكون من جانبك، أقصد أي اقتراح؟

– من جانبي... – وتململت ليزافيتا بروخوروفنا على الكرسي – أولاً أقول لك: ألفان ثمن قليل، وثانياً...

– نزيد مائة، تفضلي.

نهضت ليزافيتا بروخوروفينا.

– أرى أنك لست تعني ما تقول. فقد قلت لك أنني لا أستطيع أن أبيع ذلك النُّزل، ولن أبيعه... لا أستطيع... يعني لا أريد.

ابتسم ناعوم، وصمت. ثم قال هازاً كتفه هزة خفيفة:

– طيب، كما تريدين... نرجو المعذرة.

وانحنى مودعاً، وأمسك بمقبض الباب.

استدارت ليزافيتا بروخوروفنا نحوه.

– بالمناسبة – قالت بلعثمة لا تكاد تلحظ – تريث قليلاً. – ودقت الجرس، وظهرت كيريلوفنا من حجرة المكتب – يا كيريلوفنا، اطلبي أن يحضّر الشاي للسيد التاجر. سأراك مرة أخرى.

أضافت ذلك، وقد هزّت رأسها هزة خفيفة.

انحنى ناعوم مرة أخرى، وخرج مع كيريلوفنا.

ذرعت ليزافيتا بروخوروفنا الحجرة مرتين، ودقت الجرس من جديد. فظهر صبي من الخدم في هذه المرة. فطلبت إليه استدعاء كيريلوفنا.

وبعد لحظات دخلت كيريلوفنا وحذاؤها الجديد من جلد الماعز يصرف صريفاً خفيفاً.

قالت ليزافيتا بروخوروفنا بضحكة متكلفة:

– هل سمعت ماذا يعرض عليّ هذا التاجر؟ إنه غريب الأطوار حقاً!

– لا، لم أسمع، يا سيدتي... ماذا؟

وقلّصت كيريلوفنا قليلاً عينيها المستطيلتين السوداوين الصغيرتين.

– يريد أن يشتري نزل أكيم مني.

– وماذا في ذلك؟

– وكيف... وماذا عن أكيم؟.. أنا أعطيته لأكيم.

– ما هذا الذي تتفضلين بقوله، يا سيدتي؟ أليس النُزل لك؟ ألسنا نحن ملكاً لك؟ وكل ما نملكه أليس ملكاً لك، ملكاً لسيادتك؟

– ما هذا الذي تقولينه يا كيريلوفنا، أرجوك؟ – وتناولت ليزافيتا بروخوروفنا منديلاً من قماش الشاش، وتمخطت بعصبية. – أكيم اشترى هذا النُزل بفلوسه.

– بفلوسه؟ ومن أين جاء بهذه الفلوس؟ أليست من أفضالك؟ ثم إنه استثمر قطعة الأرض وقتاً طويلاً. كل ذلك بفضل منك. وتظنين، يا مولاتي أنه لن تبقى له نقود؟ إنه أغنى منك، والله.

– هذا كله صحيح، طبعاً. ومع ذلك لا أستطيع... كيف أبيع هذا النُزل؟

تابعت كيريلوفنا تقول:

– ولماذا لا تبيعينه؟ ما دام هناك مشترٍ. لو سمحت أن أعرف كم يعرض عليك؟

قالت ليزافيتا بروخوروفنا بصوت منخفض:

- أكثر من ألفي روبل.

- سيعطيك أكثر، يا مولاتي، إذا هو يعرض ألفين من الوهلة الأولى. ومع أكيم يمكن أن تتفقي فيما بعد. قد تقللين ثمن اللزمة وسيكون ممتناً لك، علاوة على ذلك.

- بالطبع يجب تقليل ثمن اللزمة. ولكن، لا يا كيريلوفنا كيف أبيع النُزُل... - وأخذت ليزافيتا بروخوروفنا تقطع الحجرة ذهاباً وإياباً - هذا مستحيل، هذا لا يصح، لا، من فضلك لا تعيدي مثل هذا القول... وإلا فسأزعل...

ولكن كيريلوفنا ظلّت تتكلّم، رغم تحذير ليزافيتا بروخوروفنا المنفعلة، وبعد نصف ساعة عادت إلى ناعوم الذي وجدته وراء السماور في حجرة السفرة.

قال ناعوم، وهو يقلب القدح الذي شربه على الصحن بحركة دلع:

- ماذا عندك لتقوليه لي، يا امرأتي المحترمة؟

قالت كيريلوفنا:

- الذي أقوله لك اذهب إلى السيدة، فهي تدعوك.

- حاضر.

أجاب ناعوم ونهض، واتّجه إلى حجرة الاستقبال وراء كيريلوفنا.

أُغلق الباب وراءهما... وعندما فتح هذا الباب من جديد أخيراً، وبعد انقضاء وقت، وخرج ناعوم منه، وهو ينحني مديراً ظهره إلى الباب، كان الأمر قد سُوي، فقد صار نُزُل أكيم له. اشتراه بألفين وثمانمائة روبل من أوراق النقد[1]. واُتفق على إتمام الصفقة بأسرع وقت ممكن، ولا يعلن عنها بعد. وتسلّمت ليزافيتا بروخوروفنا مائة روبل عُربوناً، وكيريلوفنا مائتي

١- أوراق النقد كانت متداولة في روسيا من عام ١٧٦٩ إلى عام ١٨٤٣. ونسبتها إلى العملة الفضية والذهبية كانت كثيراً ما تتغير. والروبل من العملة الورقية في العهود التي يصفها تورغينيف، كان يساوي ٣,٥ مرات أقل من الروبل الفضي.

روبل إكرامية. وفكر ناعوم وهو يصعد إلى عربته: «الثمن ليس غالياً، شكراً لحسن المصادفة».

في الوقت الذي تمّت فيه، في بيت السيدة، الصفقة التي وصفناها، كان أكيم جالساً في حجرته على مقعد قرب النافذة، يمسد لحيته، والضيق باد على وجهه... قلنا آنفاً إنه لم يكن يظن أن زوجته تميل إلى ناعوم، رغم أن الناس الطيبين ألمحوا له غير مرة إلى أن الوقت قد حان ليحكم عقله. وبالطبع، كان في بعض الأحيان يلحظ بنفسه أن ربّة بيته منذ بعض الوقت صارت أكثر عناداً، ولكن ذلك معلوم، فإن جنس النسوة مشاكس وصاحب أهواء. وحتى حين كان يتراءى له بالفعل أن في بيته شيئاً على غير ما يرام كان يضرب الهواء بذراعه تسامحاً، ولا يريد أن يثير الغبار، على حدِّ قول الناس، فإن سماحة النفس لم تضعف فيه من السنين، كما أن التواني أخذ منه نصيبه. ولكنه في ذلك اليوم كان متعكر المزاج كثيراً. في عشية اليوم، وبمحض المصادفة بلغ سمعه في الشارع حديث بين خادمته وامرأة هي جارة لهما...

كانت المرأة تسأل خادمته، لماذا لم تأت إليها مساء في العيد قائلة لها: «كنت في انتظارك».

ردّت الخادمة:

- كنت في الطريق إليك، ولكن يا خسارة، صادفتني ربة البيت... عساها بالعمى!

- صادفتك... - كررت المرأة بصوت ممطوط، وأسندت خدها على يدها - أين صادفتك، يا روحي؟

- وراء حقول القنب العائدة للقس، يبدو أنها خرجت إلى هناك للقاء صاحبها ناعوم، وفي الظلام، لا أدري من أي شيء، هل أعماني ضوء القمر، أم شيء آخر، الله يعلم، فاصطدمت بهما وجهاً لوجه.

عادت المرأة تقول:

- اصطدمت بهما. طيب، وماذا كانت تفعل؟ تقف معه؟

- نعم، هو واقف وهي واقفة. ولما رأتني قالت: إلى أين أنت ذاهبة؟ عودي إلى البيت. فعدت.

– عدتِ – وصمتت المرأة – طيب، مع السلامة، فيتينيوشكا.

ومضت المرأة لحال سبيلها.

وترك هذا الحديث في أكيم تأثيراً سيئاً كان حبه لأفدوتيا قد فتر، ومع ذلك صعبت عليه كلمات الخادمة. ولكنها قالت الحقيقة، فقد خرجت أفدوتيا في ذلك المساء بالفعل للقاء ناعوم، الذي كان ينتظرها في الظلال الكثيفة التي تلقيها على الطريق سيقان القنب العالية الجامدة. كانت كل ساق مبللة بالندى من الأعلى إلى الأسفل. وكانت الرائحة نافذة تأخذ بالأنفاس، والقمر قد طلع لتوه كبيراً محمراً في الضباب المسائي الضارب إلى السواد. وكان ناعوم قد سمع من بعيد خطوات أفدوتيا العجلى، واتجه للقائها. دنت منه ممتقعة بكليتها من الجري، وكان القمر يضيء وجهها. سألها:

– كيف؟ هل جلبت؟

– نعم، جلبت، – أجابت بصوت مبلبل – ولكن، يا ناعوم إيفانيتش...

قاطعها ماداً إليها يده:

– هاتي، ما دمت قد جلبت.

أخرجت من تحت شالها صرة صغيرة، تناولها ناعوم في الحال، ووضعها في زيق قميصه.

قالت أفدوتيا ببطء دون أن تصرف عنه بصرها:

– ناعوم إيفانيتش، أوه ناعوم إيفانيتش، سأزهق روحي لأجلك...

وفي هذه اللحظة دنت الشغيلة منهما.

وهكذا كان أكيم جالساً على مقعد، يمسد لحيته بادي الضيق. ومن حين لآخر كانت أفدوتيا تدخل الحجرة، وتخرج منها. فكان يشيعها بنظره لا غير. وأخيراً دخلت الحجرة مرة أخرى، وأخذت صدرة، وعبرت العتبة، فلم يستطع أكيم صبراً، وقال كالمخاطب نفسه:

– أستغرب من النسوان في رواح ومجيء. لماذا؟ من المستحيل أن تطلب منهن أن يلازمن مكانهن في البيت. هذا لا يهمهن، ولكنهن يحببن الركض في الصباح أو في المساء. نعم، يحببن.

استمعت أفدوتيا إلى كلام زوجها حتى النهاية، دون أن تحرك ساكناً، سوى أنها حين سمعت كلمة «مساء» أمالت رأسها قليلاً، وكأنما استغرقت في تفكير. وانتهت أخيراً إلى أن تقول بانزعاج:

– أنت، يا سيميونتش، معروف عنك إذا بدأت في كلام لا تنتهي منه...

وهزّت ذراعها، وخرجت وصفقت الباب. وبالفعل لم تكن أفدوتيا تقدر ذلاقة لسان أكيم كثيراً، فكانت إذا شرع يتناقش مع المسافرين في الأمسيات، وانطلق يروي لهم الروايات، تتثاءب خلسة أو تنسل خارجة. نظر أكيم إلى الباب المغلق... وأعاد بصوتٍ خفيض: «إذا بدأت في كلام... الأمر هو أنني، لم أتحدث معك إلا قليلاً... ومن هو؟ من صنفنا، و...» ونهض وراح يفكر، ثم ضرب قفاه بقبضة يده...

بعد ذلك مرت بضعة أيام بشكل غريب جداً. كان أكيم يتطلع إلى زوجته طيلة الوقت، وكأنما يريد أن يقول لها شيئاً، وهي من ناحيتها كانت تنظر إليه بارتياب. وكلاهما كان يلزم الصمت بافتعال. وكان هذا الصمت ينقطع عادة بملاحظة متأففة يطلقها أكيم عن إهمال في شؤون البيت أو عن النساء عموماً. وكانت أفدوتيا في معظم الأحيان لا ترد عليه بكلمة. ومع ذلك ولكل ما يتسم به أكيم من سماحة، كان الأمر سينتهي بالتأكيد إلى مكاشفة تحسم الموضوع، لو لم تحدث أخيراً واقعة، كانت كل المكاشفات بعدها لا تجدي نفعاً.

وهذه هي بالذات: صباح أحد الأيام، حين تهيأ أكيم وزوجته لتناول الطعام (كان النُّزل خالياً من أي مسافر بسبب أعمال الحقل الصيفية) تردّدت فجأة كركبة عربة نشيطة على الطريق، وتوقّفت بحدّة أمام واجهة النُّزل. نظر أكيم في النافذة، وتعبّس، وأطرق برأسه. فقد نزل ناعوم من العربة غير متعجل. لم تره أفدوتيا، ولكن الملعقة ارتجفت قليلاً في يدها، حين صدر صوته في الرواق. كان يأمر الخادم بأن يدخل الحصان إلى الفناء. وأخيراً فتح الباب، ودخل ناعوم الحجرة. قال، وخلع قبعته:

– مرحباً.

رد أكيم على التحية من خلال أسنانه:

– مرحباً. من أين جاء بك الرب؟

– من جوارك – قال ناعوم، جلس على مقعد – جئت من السيدة.

– من السيدة – قال أكيم دون أن ينهض من مكانه – في شغل؟

– نعم، في شغل. احتراماتنا يا أفدوتيا أريفيفنا.

أجابت:

– مرحباً، ناعوم إيفانيتش.

وصمت الجميع. وابتدر ناعوم يقول:

– أرى عندكم حساء...

– نعم، حساء – قال أكيم، وأُمقع فجأة – ولكن ليس لك. نظر ناعوم إلى أكيم مندهشاً.

– كيف ليس لي؟

– هكذا، ليس لك – والتمعت عينا أكيم، وضرب المائدة بيده – ليس في بيتي شيء لك. هل تسمع؟

– ما هذا منك، يا سيميونيتش؟ ماذا بك؟

– ليس بي شيء، ولكن ضجرت منك يا ناعوم إيفانيتش. هكذا – ونهض العجوز وهو يرتجف بكليته – صرت تتسكع هنا كثيراً جداً. هكذا.

نهض ناعوم أيضاً. وقال بابتسامة هازئة:

– أظنك قد جننت يا أخ. أفدوتيا أريفيفنا، ماذا به؟

صرخ أكيم بصوت راعش:

– أقول لك اخرج. ألم تسمع ولا شأن لك بأفدوتيا أريفيفنا... كلامي لك، اسمع اغرب!...

سأل ناعوم باعتبار:

– ما هذا الذي تقوله لي؟

– اخرج من هنا. هذا ما أقوله لك. الرب هنا، والعتبة أمامك... هل تفهم؟ وإلا فالويل!

تقدّم ناعوم إلى الأمام.

- يا محترمين لا تتعاركوا، يا أعزائي.

تمتمت أفدوتيا التي كانت حتى هذه اللحظة جالسة وراء المائدة بلا حراك.

نظر ناعوم إليها.

- لا تقلقي أفدوتيا أريفيفنا، ولماذا نتعارك! آه منك يا أخ - تابع قوله مخاطباً أكيم - في الحقيقة رفعت صوتك كثيراً، خفة وشطارة منك! أمر غريب أن يطرد إنسان من بيت لا يخصه - أضاف ناعوم بتقطيع طويل في الكلمات - والمطرود صاحب البيت، علاوة على ذلك.

غمغم أكيم:

- كيف لا يخصه؟ وأي صاحب بيت؟

- لنفرض أنا.

وقلّص ناعوم عينيه، وكشر عن أسنانه البيض.

- كيف أنت؟ ألست أنا صاحب البيت؟

- أوه، أنت عديم الفهم، يا أخ. قلت:أنا صاحب البيت.

حملق أكيم بعينيه، ونطق بعد صمت:

- هذا كذب منك، فقدت عقلك. الشيطان يجعل من نفسك صاحب بيت؟

صاح ناعوم بنفاد صبر:

- لا فائدة من الحديث معك. هل ترى هذه الورقة؟ - وأخرج من جيبه ورقة مدموغة مطوية أربع طيات - هل ترى؟ هذه ورقة شراء لأرضك، وللنُّزل. اشتريتهما من صاحبة الأرض، من ليزافيتا بروخوروفنا اشتريتهما. تمت الصفقة يوم أمس في ب... يعني أنا صاحب الملك هنا، وليس أنت... اجمع متاعك اليوم وارحل - أضاف ذلك وهو يعيد الورقة إلى جيبه - حتى لا يكون لك أثر هنا في الغد. هل تسمع؟

وقف أكيم وكأن صاعقة صعقته. وأخيراً قال متوجعاً:

- لص... لص... هاي، فيدكا، ميتكا، يا زوجة، أمسكوا به، أمسكوا، اقبضوا عليه!

وكان في غاية الذهول.

قال ناعوم مهدداً:

- إياك، إياك. احذر، ولا تجن...

- اضربيه، يا امرأة، اضربيه حالاً - كرر أكيم بصوت دامع محاولاً الوثوب، ولكن بلا جدوى ولا حول - يا زاهق الروح، يا لص... هي لا تكفيك... وتريد أن تنتزع مني بيتي أيضاً، وكل شيء... ولكن لا، انتظر... لن يكون ذلك... سأذهب بنفسي، وأسأل بنفسي... كيف... لأي شيء يباع... انتظر، انتظر...

واندفع إلى الخارج حاسر الرأس.

اصطدمت به الخادمة فيتينيا في الباب، فقالت:

- إلى أين؟ أكيم سيميونتش، إلى أين تركض يا محترم؟

- إلى السيدة! اتركيني! إلى السيدة...

زعق أكيم، وحين رأى عربة ناعوم ما تزال في الخارج، ولم تُدخل إلى الفناء بعد، قفز إليها، واختطف العنان، وساط الحصان بكل ما لديه من قوة، وانطلق يعدو به إلى بيت السيدة...

كان طوال الطريق يكرر قائلاً:

- مولاتي، ليزافيتا بروخوروفنا على أي شيء هذا الجفاء؟ أظن كنت أبذل كل جهدي!

وكان يسوط الحصان مرة بعد الأخرى. والذين التقوا به كانوا يتنحون عن طريقه، ويطيلون النظر في إثره.

وفي خلال ربع ساعة بلغ أكيم ضيعة ليزافيتا بروخوروفنا. وأوصل العربة إلى واجهة البيت، وقفز منها، ودخل إلى الرواق رأساً.

- ماذا تريد؟

غمغم الخادم المذعور، وكان يهوم في نعاس لذيذ على المصطبة.

قال أكيم بصوت مرتفع:

- أين السيدة أريد مقابلتها بسرعة؟.

بدا الذهول على الخادم. قال:

- هل حدث شيء؟

- لم يحدث شيء، ولكن أريد مقابلة السيدة.

- ماذا، ماذا...؟

تمتم الخادم في ذهول متزايد، وانتصب ببطء.

أفاق أكيم على نفسه... وكأنما صب عليه ماء بارد. قال وهو ينحني انحناءة واطئة:

- أبلغ السيدة، يا بيتر يفغرافيتش، أن أكيم يود لو يرى سيادتها...

- طيب... سأذهب... أبلغها... ولكن لعلّك سكران، انتظر.

تذكر الخادم، وذهب.

أطرق أكيم، وكأنما أخذ يرتبك... تخلى عنه الحزم سريعاً، حالما دخل الرواق.

وارتبكت ليزافيتا بروخوروفنا أيضاً، حين أبلغوها عن قدوم أكيم. أمرت على الفور باستدعاء كيريلوفنا إلى غرفة مكتبها.

وما كادت هذه تظهر حتى أسرعت تقول:

- لا أستطيع أن أستقبله. لا أستطيع مطلقاً. فماذا سأقول له؟ قلت لك إنه سيأتي حتماً، ويتشكى - وأضافت بانزعاج وقلق - قلت لك...

ردّت كيريلوفنا بهدوء:

- ولماذا تستقبلينه، لا حاجة لذلك، ولماذا تزعجين نفسك، من فضلك؟.

- ولكن ما العمل؟

- إذا سمحت، فسأتحدث أنا معه.

رفعت ليزافيتا بروخوروفنا رأسها.

- اعملي معروفاً، كيريلوفنا. تكلمي معه. قولي له... هكذا، وكيت... وجدت من الضروري... طيب، وسأكافئه... على أية حال أنت تعرفين. أرجوك، كيريلوفنا.

- أرجوك أن لا تقلقي، يا مولاتي.

قالت كيريلوفنا ذلك، وانصرفت وحذاؤها يصرف على أرضية الغرفة.

ولم تمض ربع ساعة حتى تردد صريف الحذاء مرة أخرى، ودخلت كيريلوفنا إلى غرفة المكتب، بالهدوء السابق نفسه على وجهها، وبالنباهة الماكرة في عينيها.

سألتها السيدة:

- ها، كيف أكيم؟

- لا بأس. يقول كل شيء رهن مشيئتك ومعروفك، فقط أن تكوني بعافية وخير. له ما يكفيه لما تبقى من عمره.

- ولم يتشك؟

- لا، أبداً. ولِمَ يتشكى؟

- ولماذا قصدنا، إذن؟

قالت ليزافيتا بروخوروفنا بشيء من الحيرة:

- جاء يلتمس فضلك، عسى أن تعفيه، قبل أن تحين المكافأة، عن بدل العام الذي نحن فيه، يعني...

- بالطبع، أعفوه، أعفوه - أسرعت ليزافيتا بروخوروفنا تقول بحيوية - بالطبع. بكل سرور. وعلى العموم قولي له إنني سأكافئه. طيب، شكراً لك، كيريلوفنا. أحسب أنه فلاح طيب، انتظري. أعطيه هذه مني - وأخرجت من المكتب ورقة نقدية من فئة ثلاث روبلات - هذه، خذيها وأعطيها له.

- سمعاً يا مولاتي.

قالت كيريلوفنا عائدة بهدوء إلى حجرتها، وبهدوء أيضاً وضعت الورقة

النقدية في الصندوق الحديدي الموضوع عند رأس سريرها، وأغلقته، وكانت تحتفظ فيه بكل ما تملك من نقود، وهي ليست قليلة.

هدّأت كيريلوفنا سيدتها ببلاغها، ولكنها لم تنقل إليها تماماً ما حدث بينها وبين أكيم في الواقع. وهو كالآتي: طلبت أن يُستدعى إليها في حجرة الخادمات. امتنع في بادىء الأمر عن الذهاب إليها معلناً أنه يود مقابلة ليزافيتا بروخوروفنا نفسها، لا كيريلوفنا إلا أنه قبل أخيراً، وذهب إلى كيريلوفنا عبر الواجهة الخلفية. وجدها وحدها، دخل الحجرة وتوقف في الحال، واتكأ على الحائط عند الباب، يريد أن يبدأ بالكلام... و لم يستطع.

تفرست كيريلوفنا فيه وشرعت تقول:

– أكيم سيميونيتش، تود مقابلة السيدة؟

هزَّ رأسه و لم يقل شيئاً.

– هذا لا يجوز، يا أكيم سيميونيتش. ثم لماذا؟ ما وقع لا يمكن تغييره، مجرد أنك ستزعجها، إنها الآن لا تستطيع أن تستقبلك، أكيم سيميونيتش.

– لا تستطيع – كرر هذه الكلمة وصمت قليلاً، ثم قال ببطء – وكيف هذا، يعني سيضيع البيت؟

– اسمع، أكيم سيميونيتش. أعرف أنك دائماً كنت رجلاً حصيفاً. في هذا مشيئة السيدة، ولا يمكن تبديله. ومن المستحيل على أحد أن يبدله. دعنا لا نتناقش، فإن النقاش لن يؤدي إلى شيء، أليس كذلك؟

وضع أكيم يديه وراء ظهره، ومضت كيريلوفنا تقول:

– من الخير لك أن تفكر ربما ترجو السيدة أن تعفوك عن البدل...

فكرر أكيم بنفس الصوت السابق:

– يعني سيضيع البيت.

– أكيم سيميونيتش، قلت لك: لا يمكن، وأنت تعرف ذلك أحسن مني.

– آها. على الأقل بكم أخذوا النزل؟

– لا أعرف ذلك، أكيم سيميونيتش. لا أستطيع أن أقول لك – وأضافت – ولكن لِمَ أنت واقف... اجلس.

– واقفون، نحن الفلاحون، شغلنا أن نشكر ونطيع.

– وأي فلاح أنت، يا أكيم سيميونيتش؟ أنت تاجر. وحتى لا يجوز أن تقارن نفسك بالخدم، ما هذا منك؟ لا تقتل نفسك بلا داع. ألا تريد أن تشرب شاياً؟

– لا وشكراً. لا نتعاطى – وأضاف وهو يبتعد عن الحائط – يعني البيت راح لكم. شكراً على هذا أيضاً. نرجو المعذرة، يا سيدة.

واستدار وخرج. عدّلت كيريلوفنا مئزرها، وذهبت إلى السيدة.

قال أكيم لنفسه، وقد توقف مفكراً أمام البوابة:

– يبدو أنني صرت تاجراً من صحيح. يا لي من تاجر! – وهزَّ ذراعه وضحك باستهزاء – إذن! اذهب إلى البيت!

وانطلق ماشياً في طريقه إلى نزل المسافرين، وقد نسي تماماً حصان ناعوم الذي جاء به. وما كاد يقطع فرسخاً حتى سمع كركبة عجلة بالقرب منه، وسمع صوتاً يناديه:

– أكيم، أكيم سيميونيتش.

رفع بصره، ورأى أحد معارفه، شماس الكنيسة المحلية يفريم، الملقب بالخُلد، وهو رجل صغير الجسم محدودب ذو أنف صغير مدبب وعينين صغيرتين عمشاوين. كان يجلس على كومة من القش في عربة متداعية مائلاً بصدره على مقعد الحوذي. سأل الشماس أكيم:

– أذاهب أنت إلى البيت؟

توقف أكيم.

– إلى البيت.

– أتريد أن أوصلك؟

– حبذا لو توصلني.

تنحى يفريم، وصعد أكيم إلى العجلة قربه. كان يفريم يبدو ثملاً قليلاً، فراح يسوط حصانه الهزيل بأطراف حبال مستخدمة كأعنة، وانطلق الحصان يعدو خبب واهن محركاً بوزه المتحرر من اللجام طوال الوقت.

قطعا زهاء فرسخ دون أن يتبادلا كلمة واحدة. كان أكيم يجلس منحني الرأس، ويفريم لا يفتأ يتمتم بشيء مع نفسه حاثاً الحصان مرة، كابحاً إياه أخرى. وفجأة سأل أكيم:

- إلى أين أنت ذاهب بلا قبعة، يا سيميونيتش؟ - وقبل أن يتلقى الرد مضى يقول بصوت خفيض - أظنك تركتها في حانة. حليس خمرة أنت. أنا أعرفك، وأحبك لأنك حليس خمرة. أنت لا تحب العراك ولا المشاغبة، ولا القيل والقال. أنت صاحب الأمر والنهي، ولكنك تحب الخمرة حباً شديداً تستحق عليه أن يُمسك زمامك منذ زمان، أي والله، لأن ذلك عمل سيء... هيه! - صاح فجأة بأعلى صوته - هيه! هيه!

وصدر صوت نسائي على مقربة:

- قف! قف!

التفت أكيم. فرأى عبر الحقل امرأة تركض نحو العجلة، شاحبة شعثاء، حتى إنه في الوهلة الأولى لم يعرفها.

تأوهت المرأة مرة أخرى لاهثة الأنفاس ملوحة بذراعيها.

- قف، قف!

وارتعش أكيم. فقد كانت هذه المرأة زوجته.

وجذب العنان. فتمتم يفريم:

- لماذا تتوقف. من أجل امرأة تتوقف؟ هوه!

إلا أن أكيم أوقف الحصان بحدة.

في تلك اللحظة بلغت أفدوتيا الطريق راكضة، وانكبت بوجهها على الأرض. وراحت تولول:

- يا عزيزي أكيم سيميونيتش، طردني أنا أيضاً!

نظر أكيم إليها دون أن يتحرك، إلا أنه تمكن من سحب العنان.

صاح يفريم من جديد:

- هيه!

وقال أكيم:

- طردك، إذن؟

أجابت أفدوتيا ناشجة:

- طردني، يا عزيزي أكيم، طردني. ويقول: إن البيت لي الآن، فاخرجي من هنا، إلى حين تشائين.

قال يفريم:

- روعة، أوه، كم هو لطيف... روعة!

وقال أكيم بمرارة، وهو على جلسته في العجلة:

- وكنت تريدين البقاء؟

- أي بقاء! أوه، يا عزيزي - بادرت أفدوتيا تقول، وقد نهضت على ركبتيها، وتمرغت في الأرض ثانية - أنت لا تعرف أني... اقتلني، أكيم سيميونيتش اقتلني حالاً، في هذا المكان...

قال أكيم في جزع:

- وعلى أي شيء أقتلك، أريفيفنا؟ أنت جنيت على نفسك! فما وجه القتل هنا؟

- وما تظن أنت، أكيم سيميونيتش... الفلوس... فلوسك... لا وجود لفلوسك الآن... أخذتها، أنا الملعونة، من تحت لوحة الأرضية، وأعطيتها كلها له، لذلك الوغد أعطيتها لناعوم، أنا الملعونة... ولماذا أخبرتني بمكان تخبئة الفلوس، أنا الملعونة... بفلوسك اشترى النزل... هذا الوغد...

وكان النشيج يغطي على صوتها.

أمسك أكيم رأسه بكلتا يديه، وأخيراً صاح:

- كيف! والفلوس راحت... الفلوس، والنزل، وأنت التي... آه! أخذتها من تحت اللوحة، أخذتها... نعم، سأقتلك، أيتها الأفعى اللئيمة...

وقفز من العجلة...

- سيميونيتش، سيميونيتش، لا تضربها، لا تتعارك.

غمغم يفريم، الذي بدأ السكر يزايله مع مثل هذا الحادث المفاجئ.

وصاحت أفدوتيا وهي تتمرغ عند قدمي أكيم مرعوصة.

- بل اقتلني يا عزيزي، اقتلني أنا الملعونة. اضربني ولا تسمعه.

وقف أكيم، ونظر إليها، وابتعد بضع خطوات، وقعد على العشب، عند الطريق.

ساد صمت قصير. أدارت أفدوتيا رأسها إلى ناحيته.

قال يفريم وقد رفع جسمه من العجلة:

- سيميونيتش، يا سيميونيتش. كفاك... الآن لا مردّ للمقدور. عيب عليك، حكاية عجيبة - تابع يقول وكأنما يخاطب نفسه - وأنت يا امرأة يا ملعونة، - أضاف منحنياً على جانب العجلة - اذهبي إليه، انظري إليه كيف جن!

نهضت أفدوتيا، ودنت من أكيم، وركعت مرة أخرى عند قدميه. وقالت بصوت ضعيف:

- عزيزي.

نهض أكيم، وسار عائداً إلى العجلة. أمسكت بذيل قفطانه.

- اغربي عني!

صرخ بضراوة، ودفعها.

- إلى أين؟

سأل يفريم، حين رآه يجلس في عجلته ثانية.

غمغم أكيم:

- أردت أن توصلني إلى البيت فأوصلني إلى بيتك الآن... ها أنت ترى لم يعد لي بيت، اشتروه مني.

- طيب، تفضل، لنذهب إلى بيتي. وهي؟

لم يجب أكيم بشيء.

- وأنا، وأنا - تابعت أفدوتيا باكية - لمن تتركني... إلى أين أذهب؟

ردَّ أكيم دون أن يلتفت:

- اذهبي إليه، إلى من أخذت فلوسي له... يفريم، تحرك!

ساط يفريم حصانه، وتحركت العجلة. وراحت أفدوتيا تعول بكل صوتها...

كان يفريم يعيش على بعد فرسخ من نُزل أكيم، في بيت صغير في أرض للقس واقعة بالقرب من الكنيسة الوحيدة في المنطقة، وهي كنيسة لها خمس قباب، بناها منذ وقت قصير ورثة تاجر ثري متوفى بناء على وصيته. طوال الطريق لم يتكلم يفريم مع أكيم، ومن حين لآخر فقط كان يهز رأسه، ويتفوه بكلمات من مثل «آه، أنت!» و«ايه، أنت!». وجلس أكيم بلا حراك مديراً جسمه قليلاً عن يفريم. وأخيراً وصلا. كان يفريم أول من قفز من العجلة. هرعت للقائه صبية في نحو السادسة من العمر في ثوب محزم بحزام واطئ. وهتفت:

- أبي! أبي!

سألها يفريم:

- أين أمك؟

- تنام في الركن.

- دعيها تنام إذن. يا أكيم سيميونيتش هلاَّ تفضلت إلى حجرتي.

دخل أكيم كوخ الشماس، ويفريم يقول له:

- هنا، على المصطبة، أرجوك. اخرجوا يا عصافير - وجه جملته الأخيرة إلى صبيان ثلاثة آخرين طلعوا فجأة من زوايا مختلفة من الحجرة، ومعهم قطتان خاويتان مبقعتان بالرماد - اخرجوا من الحجرة! بس! هنا، أكيم سيميونيتش، هنا - تابع القول يشير إلى مكان جلوس الضيف - ألا تأمر بشيء؟

قال أكيم بعد وقفة:

- ماذا أقولك لك، يا يفريم، هل هناك شيء من النبيذ؟

انتفض يفريم.

– نبيذ؟ بلمح البصر. لا يوجد عندي نبيذ في البيت، ولكن سأجري بلمح البصر...

واختطف قبعته الأذنينية، وصاح أكيم في إثره:

– واجلب كمية أكبر. سأدفع. عندي فلوس ما يكفي لهذا.

– بلمح البصر!

كرر يفريم ذلك مرة أخرى، واختفى وراء الباب. وبالفعل عاد بعد وقت قصير جداً، وتحت إبطه قنينتان لحق أن يفك سداد واحدة منهما، ووضعهما على الطاولة، وأخرج قدحين أخضرين، ورغيفاً من الخبز وملحاً.

وقال وهو يجلس أمام أكيم:

– هذا ما أحبه. وما الداعي إلى الغم؟ – وصب لأكيم وله... وانطلق يثرثر... جناية أفدوتيا حيّرته، قال – أمر مذهل حقاً. كيف حصل ذلك، وبأية طريقة؟ يعني سحر لها... لتحبه؟ يعني صحيح ما يقال يجب أن تراقب الزوجة جيداً. ينبغي أن تحفظها بصرامة. على كل حال لا بأس لو عرجت على البيت. فقد تبقى لديك الكثير من المتاع هناك، على ما أظن – وظل يفريم ينسج الكثير من الأقوال على هذا المنوال. فقد كان لا يحب الصمت إذا شرب.

وهذا ما كان في بيت يفريم بعد ساعة من الوقت. كان أكيم فوق الموقد يغط في نوم عميق معذّب، وقد احمرّ كله بعد أن ظلّ يشرب قدحاً وراء قدح في جلسة الشراب تلك، دون أن يرد بكلمة واحدة على أسئلة جليسه الثرثار وملاحظاته والأطفال ينظرون إليه ذاهلين، ويفريم... أواه! يفريم هذا كان نائماً أيضاً، ولكن في حجرة للمؤنة ضيقة وباردة جداً، وقد أغلقت بابها عليه زوجته، وهي امرأة ذات بنيان رجولي قوي. وكان قد ذهب إليها، في ركنها وراح يتوعدها أو يقص عليها شيئاً، ولكن بتعابير مفككة مبهمة حتى إنها فطنت للأمر حالاً، وأمسكته من ياقته، وساقته إلى حيث يجب. وعلى أية حال كان ينام في حجرة المؤنة نوماً طيباً جداً ومريحاً. عادة!

لم تنقل كيريلوفنا إلى ليزافيتا بروخوروفنا حديثها مع أكيم بصدق تامّ... ومثل هذا يمكن أن يقال عن أفدوتيا أيضاً. إذ لم يطردها ناعوم، رغم أنها قالت لأكيم أنه طردها. لم يكن له الحق في طردها... فقد كان ملزماً على

أن يعطي أصحاب النُزل السابقين مهلة من الوقت للرحيل. كانت بينه وبين أفدوتيا محادثة من نوع مختلف تماماً.

عندما صاح أكيم أنه ذاهب إلى السيدة، وطلع راكضاً إلى الخارج، التفتت أفدوتيا إلى ناعوم، وحدَّقت فيه بكل عينيها، وبسطت ذراعيها في حيرة. وراحت تقول:

– يا إلهي! ما هذا يا ناعوم إيفانيتش؟ هل اشتريت نزلنا؟

ردّ هذا:

– ها؟ نعم، اشتريته.

صمتت أفدوتيا قليلاً، ثم انفجرت فجأة:

– إذن لهذا السبب كنت بحاجة إلى الفلوس؟

– بالضبط، لو سمحت. أها، هذا رجلك ذهب بعربتي، كما يظهر. – أضاف ذلك بعد أن سمع طرق العجلات. – يا له من شاطر!

زعقت أفدوتيا:

– ولكن هذا نهب لا غير. هذه فلوسنا، فلوس زوجي، والنُّزل نزلنا...

قاطعها ناعوم:

– لا، أفدوتيا أريفيفنا. لم يكن النزل نزلكما، فلا حاجة إلى أن تقولي ذلك. النزل كان على أرض السيدة ويعني أنه ملكها، ولكن النقود كانت لكما حقاً، ويمكن القول إنك على درجة من الطيبة، بحيث وهبتها لي، وأنا ممتن لك على ذلك، بل عند التوفيق سأعيدها لكما إذا جاءني هذا التوفيق، ولكنه لا يجوز أن أظل في عوز، أرجو أن تفهمي.

قال ناعوم كل ذلك بكثير من الهدوء، بل وابتسامة صغيرة.

صاحت أفدوتيا:

– يا أحبائي! ما هذا؟ أي شيء؟ كيف بعد كل هذا أواجه زوجي؟ أنت وغد، – أضافت وهي تنظر بكره إلى وجه ناعوم الفتي الغض – قتلت نفسي من أجلك، وصرت لصة من أجلك. وأنت تخربنا، يا وغد يا سافل! الآن لم يبق لي سوى أن أشنق نفسي من أنشوطة، يا وغد، يا محتال، يا قاتلي...

وانفجرت تبكي بدموع غزيرة...

قال ناعوم:

- أرجو ألا تقلقي، يا أفدوتيا أريفيفنا. أقول لك شيئاً واحداً: قميصك أقرب إلى جلدك. والكراكي في البحر، يا أفدوتيا أريفيفنا، خلق لكي لا يغفو الشبوط.

قالت أفدوتيا باكية:

- وإلى أين نذهب الآن؟ أين نولي وجوهنا؟

- وهذا ما لا أعرفه.

- ولكن سأذبحك، يا وغد، أذبحك، أذبحك...

- لا، يا أفدوتيا أريفيفنا، لن تفعلي ذلك، فلا حاجة إلى هذا الكلام. أرى فقط أن من الأفضل أن أبتعد عن هنا قليلاً، فأنت مضطربة جداً... أرجو المعذرة، وغداً سأعود حتماً... واسمحوا لي أن أبعث بخدمي إلى هنا، هذا اليوم ذاته.

أضاف ذلك بينما كانت أفدوتيا ماضية في التأكيد، من خلال الدموع، على أنها ستذبحه وتذبح نفسها.

نظر ناعوم من النافذة، وقال:

- ها هم قادمون، بالمناسبة. وإلا ستحصل مصيبة، الله الساتر... هذا سيكون آمن. اعملي معروفاً، واجمعي حاجياتكما اليوم، وسيحرسون البيت وسيساعدونك، على ما أعتقد. أرجو المعذرة.

انحنى وخرج، ونادى إليه خدمه...

انهدّت أفدوتيا على المصطبة، ثم طرحت صدرها على المنضدة، وأخذت تلوي يديها تفجعاً، وبعد ذلك نهضت فجأة وركضت لتلحق بزوجها... ونحن روينا لقاءهما.

عندما غادرها أكيم مع يفريم، وبقيت وحيدة في العراء، بكت طويلاً في أول الأمر، دون أن تغادر مكانها. ولما شفت غليلها من البكاء يممت صوب ضيعة السيدة. أحست بالمرارة عند دخول البيت، وبمرارة أشد عند دخول

حجرة الخادمات. هرعت جميع الفتيات للقائها في عطف وأسى عليها. لم تستطع أفدوتيا أن تكبح دموعها وهن يحطن بها، فطفرت الدموع من عينيها المنتفختين المحمرتين. جلست خائرة القوى على أول مقعد وقع عليه بصرها. ذهب مَن يستدعي كيريلوفنا. وجاءت هذه، وقابلتها بحنان كثير إلا أنها مثلما فعلت مع أكيم، لم تدعها تدخل على السيدة، وأفدوتيا نفسها لم تصرّ كثيراً على رؤية ليزافيتا بروخوروفنا. فقد جاءت إلى بيت السيدة لسبب وحيد، هو أنها لم تجد ما تولي إليه وجهها.

أمرت كيريلوفنا بإعداد السماور. وظلت أفدوتيا وقتاً طويلاً ترفض شرب الشاي، إلا أنها أذعنت أخيراً لرجاوات الفتيات وتوسلاتهن، وبعد القدح الأول شربت أربعة أقداح أخرى. ولما رأت كيريلوفنا أن ضيفتها هدأت قليلاً، سوى بعض الارتعاش والنشيج الخفيف من حين لآخر، سألتها إلى أين ينويان الانتقال، وماذا سيفعلان بأمتعتهما؟ عادت أفدوتيا إلى البكاء بعد هذا السؤال، وأخذت تؤكد أنها بعد الآن لا ترغب إلا في الموت، إلا أن كيريلوفنا امرأة لها رأس يفكر، فأوقفتها على الفور، ونصحتها بأن لا تضيع الوقت، وأن تبدأ منذ اليوم بنقل الأمتعة إلى كوخ أكيم السابق في القرية التي كان يعيش فيها عمه، وهو نفس العجوز الذي حثّه على عدم الزواج. وأعلنت كيريلوفنا بأنهما بإذن من السيدة سيحصلان على إعانة مالية وعربات ورجال للمساعدة على الانتقال. وأضافت كيريلوفنا وقد رسمت ابتسامة حامزة على شفتيها الشبيهتين بشفتي القطة: «أما من ناحيتنا، يا فتاتي، فإنك ستجدين دائماً مكاناً تأوين إليه، وسنُسر إذا أقمت عندنا حتى تتيسر أمورك، وتهيئي بيتك، والمهم ألا تجزعي، الله أعطى والله أخذ، وسيعطي من جديد، وكل شيء بإرادته. كان على ليزافيتا بروخوروفنا لاعتباراتها الخاصة أن تبيع نُزلكما، ولكنها لن تنساكما وستكافئكما، وقد أمرتني بأن أبلغ أكيم سيميونيتش بذلك... أين هو الآن؟».

أجابت أفدوتيا بأنه رحل إلى بيت الشماس يفريم بعد أن أساء إليها كثيراً حين التقته.

ردَّت كيريلوفنا بلهجة ذات مغزى:

– رحل إلى ذاك! اها، أتصوّر أنه الآن في ضيق، ولكن لا أظنك ستجدينه اليوم. كيف إذن؟ يجب تدبير الأمر. – ثم أضافت وهي تخاطب إحدى الخادمات: – مالاشكا، اطلبي أن يحضر نيكانور إيليتش إلى هنا. سنتكلم معه.

وفي الحال حضر نيكانور إيليتش، وهو رجل ضئيل الهيئة أشبه بوكيل ضيعة، وأصغى بخنوع إلى كل ما قالته كيريلوفنا له، وقال: «تأمرين» وخرج، وأصدر أوامره، وخصّص لأفدوتيا ثلاث عربات مع ثلاثة فلاحين يسوقونها، وانضم إليهم فلاح رابع، بناء على رغبته، معلناً أنه سيكون «مجداً أكثر منهم» فتوجّهت أفدوتيا معهم إلى نزل المسافرين، حيث وجدت الخدم السابقين والخادمة فيتينيا في اضطراب شديد وفزع...

منذ أن جاء في الصباح خدم ناعوم الجدد، وهم ثلاثة فتيان ضخام جداً لازموا أماكنهم، وأقاموا حسب ما عاهدوا ناعوم، حراسة مشددة جداً، حتى إن عربة من العربات الجديدة وُجدت فجأة بلا عجلات...

وصعب على أفدوتيا المسكينة، صعب عليها جداً أن تلم أشياءها، ورغم مساعدة الفلاح المُجدي ومساعدته، بالمناسبة، لم تتعد التمشي وفي يده عصا صغيرة، والنظر إلى الفلاحين الآخرين، والبصق في ناحية، لم تلحق أفدوتيا أن تجمع أشياءها وتغادر في نفس اليوم، فقضت ليلتها في النُزل، بعد أن توسلت إلى فيتينيا بأن تلازم حجرتها. وبالمناسبة لم تغفُ إلا في الفجر إغفاءة محمومة، وكانت الدموع تنزل من عينيها حتى في النوم.

في غضون ذلك استيقظ يفريم في حجرة المؤنة قبل الوقت المعتاد، وأخذ يدق الباب، ويتوسل ليخرج. في البداية لم ترد زوجته أن تطلق سراحه معلنة له، من خلال الباب أنه لم يأخذ كفايته من النوم، إلا أنه أثار فضولها بأن وعدها أن يروي لها الحكاية الغريبة التي وقعت لأكيم. فسحبت المزلاج. وقص يفريم عليها كل ما كان يعرفه، خاتماً قصته بالسؤال هل استيقظ صاحبنا؟

أجابت زوجته:

– الله يعلم. اذهب وأعرف بنفسك. لم ينزل من الموقد بعد. أوه، كلاكما ملأ بطنه بالشراب البارحة. على الأقل لو نظرت إلى وجهك وهو لا يشبه الوجه، بل كتلة من الطين. وشعرك مملوء بالقش!

- لا بأس بالقش.

قال يفريم، ودخل الحجرة، وهو يمرر يده على شعره. وجد أكيم مستيقظاً، يجلس مدلياً ساقيه من الموقد. وكان وجهه أيضاً غريباً جداً ومهروساً. والآثار التي تركها سكر البارحة على وجهه كانت أكثر قباحة، لأن أكيم لم يتعوّد الشرب الكثير.

قال يفريم:

- ايه، أكيم سيميونيتش، كيف كان نومك؟

نظر أكيم إليه نظرة مربدة. وقال بصوت أجش:

- طيب، يا أخ يفريم. هل لديك المزيد من ذاك؟

حدق يفريم في أكيم بسرعة... وأحس في تلك اللحظة برجفة في داخله، أشبه بتلك الرجفة التي يستشعرها صياد واقف عند حافة الغابة حين يسمع نباح كلبه الفجائي في أعماق الغابة، بعد أن تصوّر أن الصيد كلّه قد أفلت منه.

وأخيراً سأل:

- كيف، المزيد؟

- نعم، المزيد.

وفكر يفريم مع نفسه: «سترى زوجتي، ولا أظن أنها ستسمح».

وقال بصوت عال:

- طيب، ممكن اصبر قليلاً.

وخرج، واستطاع بفضل التدابير الحاذقة التي اتخذها أن يمرر زجاجة كبيرة إلى الحجرة خلسة.

تناول أكيم هذه الزجاجة... ولكن يفريم لم يشرب معه شرب البارحة. كان يخشى زوجته. أبلغ أكيم بأنه ذاهب ليعرف ما يحصل عنده، وكيف تُشد أمتعته، ويتأكد من أن أحداً لا يسرق منها، وتوجه على الفور إلى نُزل المسافرين على ظهر حصانه دون أن يقدم له العلف، رغم أنه لم ينس نفسه، على ما يبدو، لأن شيئاً كان يبرز من تحت قميصه.

وبعد خروجه بوقت قصير كان أكيم كالميت يغط ثانية في يوم عميق على الموقد... لم يستيقظ أو على الأقل تظاهر بأنه لم يستيقظ حتى حين عاد يفريم بعد حوالي أربع ساعات، وأخذ يهزّه ويوقظه، ويهذر فوقه بكلمات مشوشة للغاية، يقول بها إن كل شيء قد حُمِل ونقل، والأيقونات رفعت وحُملت أيضاً، وكل شيء قد تم، وأن الجميع يبحثون عنه، إلا أنه، يفريم تكفّل بالأمر، ومنعهم... وإلى ذلك.

وعلى العموم لم يهذر طويلاً، فإن زوجته ساقته مرة أخرى إلى حجرة المؤنة، ورقدت هي أيضاً على التخت في الحجرة حانقة حنقاً شديداً على زوجها، وعلى الضيف الذي تسبّب في «سكر» زوجها... ولكنها حين استيقظت على عادتها في الصباح الباكر، نظرت إلى سطح الموقد فلم تر أكيم... كان أكيم قد خرج من الباب الخارجي لبيت الشماس قبل أن تصيح الديكة الأولى صياح الفجر، والليل ما يزال حالك الظلام حتى إن السماء نفسها كانت رمادية لا تكاد تبين، وحوافيها غارقة تماماً في الظلمة. كان وجه أكيم شاحباً، ولكنه كان يحدق حاد البصر فيما حوله، و لم تكن خطواته تنم عن سكر... كان يسير باتجاه مسكنه السابق، نزل المسافرين الذي كان الآن بكليته في حوزة صاحبه الجديد، ناعوم.

وناعوم أيضاً لم يكن نائماً، حين انسل أكيم خارجاً من بيت يفريم خلسة. كان راقداً على المصطبة، بملابسه وقد فرش تحته فروة، ولكنه لم يكن نائماً. و لم يكن ضميره يعذبه فيؤرقه، لا أبداً! منذ الصباح شهد، ببرود أعصاب مذهل، شدَّ ونقل أمتعة أكيم كلها، بل وبادر أفدوتيا بالكلام غير مرة، فلم تعمد هذه إلى تقريعه لشدة انهيار أعصابها...

لقد كان ضميره مطمئناً، ولكن كانت تشغله مختلف الهواجس والحسابات. كان لا يعرف هل سيسعده الحظ في هذا الميدان الجديد، إذ لم يكن حتى هذا الحين قد أدار نزلاً للمسافرين، بل و لم يكن له منزله الخاص عموماً، ولذلك كان مؤرقاً. وكان يفكر: «بداية جميلة، ولكن ماذا سيكون فيما بعد...» بعد أن فرغ، قبيل المساء من إرسال آخر عربة من أمتعة أكيم (سارت أفدوتيا وراءه باكية) تفقد النزل كله، كل الأركان والسراديب

والسقائف، وصعد إلى العلية موعزاً إلى خدمه، غير مرة أن يشدّدوا الحراسة جيداً، وبقي بعد العشاء وحيداً، و لم يراوده النوم.

وصادف في ذلك اليوم أن أي واحد من المسافرين لم يرد قضاء ليلته في النزل. وقد سرّه ذلك كثيراً. قال لنفسه وهو ينقلب من جنب إلى جنب: «يجب أن أشتري كلباً في الغد من كل بد، كلب حراسة أشد ما يكون ضراوة، من صاحب الطاحونة. فهم أخذوا كلبهم معهم»، وفجأة رفع رأسه بسرعة... خيّل إليه أن أحداً مرَّ من تحت النافذة... أرهف سمعه... لا شيء. سوء جُدْجُد يصر من آونة إلى أخرى وراء الموقد، وفأر يخربش في مكان ما، وأنفاسه تتردّد في صدره.

كان كل شيء ساكناً في الحجرة الخالية المضاءة بقنديل زجاجي صغير يرسل أشعته الصفراء الواهنة، وكان قد استطاع أن يعلقه ويوقده أمام الأيقونة في الزاوية... أنزل رأسه وها هو مرة أخرى يسمع صوتاً أشبه بصريف الباب الخارجي... ثم خشخشة خفيفة للسياج... لم يستطع صبراً، فقفز من ضجعته، وفتح باب حجرة أخرى، وهتف مخفضاً صوته: «فيدور! فيدور!» و لم يرد عليه أحد... خرج إلى الرواق، وكاد يسقط حين اصطدم بفيدور المطروح على الأرض. تململ الخادم محمحماً من خلال النوم. لكزه ناعوم. تمتم فيدور:

– ها، ماذا تريد؟

همس ناعوم له:

– لا تزعق، اصمت. ملعون، أنت نائم! لم تسمع شيئاً؟

أجاب هذا:

– لا شيء. ماذا هناك؟

– أين ينام الآخران؟

– ينامان حيث أُمرا... يعني...

– اصمت. تعال ورائي.

فتح ناعوم باب الرواق المؤدي إلى الفناء بهدوء... كان الفناء حالك

الظلمة... والسقائف ذات الأعمدة كان يمكن تمييزها لمجرد أنها أشد حلكة من الظلام المحيط بها...

غمغم فيدور بصوت مخفَّض:

– ألا نشعل المصباح؟

إلاّ أن ناعوم هزّ ذراعه، وحبس أنفاسه... في البداية لم يسمع غير الأصوات الليلية المتردّدة دائماً تقريباً في مكان مأهول: حصان يعلك الشعير، وقباع ضعيف أرسله خنزير أثناء نومه، وشخير إنسان في مكان ما. وفجأة بلغت سمعه حركة مريبة صدرت في طرف الفناء، قرب السياج...

بدا وكأن شخصاً يتحرك هناك، وكأنه يتنفس أو ينفخ... نظر ناعوم إلى فيدور عبر كتفه، ونزل من الواجهة بحذر، وتقدم نحو مصدر الصوت... توقف مرة أو مرتين، وتسمع، وتابع تسلله من جديد... وفجأة ارتعش... في الظلمة الكثيفة على بعد عشر خطوات منه لمعت نقطة نار صغيرة كانت جمرة تتوهج، وبالقرب من الجمرة، لاح في لمحة عين، الجزء الأمامي من وجه ممطوط الشفتين... وكالقط حين يثب على فأر، بسرعة وصمت، وثب ناعوم نحو النار... نهض جسم طويل من الأرض بعجالة، واندفع للقائه، وكاد يطرحه أرضاً، ويفلت من يديه، إلا أنه تشبث به بكل قوته... صاح بأشد ما لديه من صوت: «فيدور، أندريه، بيتروشكا! أسرعوا إليّ، أمسكت لصاً، حارق بيوت...»، كان الشخص الذي أمسكه يلبط ويصارع بقوة... ولكن ناعوم لم يطلقه... وهبَّ فيدور إلى مساعدته على الفور.

صاح ناعوم به:

– أسرع بالمصباح! اجرِ لجلب المصباح، وأيقظ الآخرين، أسرع! وخلال ذلك أدبر أمري معه لوحدي. أنا جالس عليه... أسرع، واخطف معك حبلاً لشده.

ركض فيدور إلى الكوخ... والرجل الذي كان ناعوم يمسكه كفَّ عن المقاومة فجأة...

– يعني لا تكفيك الزوجة والفلوس والنزل، وتريد أن تهلكني أيضاً.

قال الرجل بصوت كامد...

وعرف ناعوم صوت أكيم. غمغم:

- يعني هذا أنت، يا حلو. جميل، انتظر إذن!

قال أكيم:

- أطلقني. أم أنت لم تكتفِ؟

- سأريك غداً كيف لم أكتف، حين أقدمك للمحكمة...

واحتضن ناعوم أكيم بقوة أشد.

جاء الخدم مسرعين، ومعهم مصباحان وحبال... أمرهم ناعوم بحدة: «شدوه!»... أمسك الخدم بأكيم، ولووا يديه وراء ظهره... بدأ أحدهم يشتمه، ولكنه صمت بعد أن عرف صاحب النزل القديم، واكتفى بمبادلة النظرات مع الآخرين.

في هذا الحين راح ناعوم يؤكد، وهو يرفع المصباح فوق الأرض:

- انظروا، انظروا. هذه جمرة في قدر. انظروا، جمرة بكاملها في القدر. يجب أن نعرف من أين أخذ القدر هذا... انظروا كم كسَّر من الأغصان. - وأخمد ناعوم النار بقدمه في عناية. وأضاف - فتشه، فيدور! هل لديه شيء آخر؟

تحسس فيدور وتلمّس أكيم، الذي كان واقفاً بلا حراك، وقد دلَّى رأسه على صدره كالميت.

- نعم، عنده سكين.

قال فيدور، وقد أخرج من زيق أكيم سكين مطبخ قديماً.

هتف ناعوم:

- هذا هو هدفك، إذن. يا أولاد، أنتم شهود... كان يريد أن يذبحني، ويحرق النُّزل... احبسوه حتى الصباح، في السرداب، لا يستطيع أن يخرج منه... وسأحرسه بنفسي طوال الليل، وفي الغد حالما يطلع الفجر سنسوقه إلى ضابط الشرطة... وأنت شهود... اسمعوا!

دفعوا أكيم إلى السرداب، وأغلقوا دونه الباب... وأقام ناعوم على الباب حارسين من خدمه، و لم يأو هو لينام.

وفي غضون ذلك، ولمّا أيقنت زوجة يفريم أن الضيف غير المدعو قد انقلع، أخذت تنشغل في إعداد الطعام، رغم أن الفجر قد طرّ لتوه... واليوم يوم عيد. قعدت أمام الموقد لتأخذ منه جمرة، وفطنت إلى أن أحداً قبلها قد أخرج من هناك جمراً. وبعد ذلك احتاجت إلى سكين فلم تجد السكين، وأخيراً عرفت أن قدراً من قدورها الأربع قد فقدت. كانت زوجة يفريم تُعتبر امرأة ذكية وليس بلا أساس. فقد وقفت تفكر وتفكر ثم ذهبت إلى زوجها في حجرة المؤنة. لم يكن من السهل إيقاظه، والأصعب من ذلك جعله يدرك لماذا فعلت ذلك... كان كل ما تقوله له لا يلقى إلا ردّاً واحداً من يفريم:

- غادر. وليكن. فماذا يعنيني؟ وأخذ سكيناً وقدراً. وليكن، فماذا يعنيني؟

إلا أنه نهض أخيراً، واستمع إلى زوجته بانتباه، واستقرّ رأيه على أن في الأمر شيئاً غير محمود، ولا يجوز أن يترك وشأنه.

قالت زوجة الشماس مؤكدة:

- نعم، غير محمود. سيصنع المصائب من اليأس... منذ البارحة رأيته راقداً على الموقد، ولكن بلا نوم. لا بأس يا يفريم ألكسندروفيتش، لو ذهبت، عرفت ماذا جرى...

قال يفريم:

- طيب، أوليانا فيدوروفنا. سأسرع في الذهاب بنفسي إلى نزل المسافرين. ولكن كوني لطيفة يا عزيزتي، وأعطيني قدح نبيذ أكسر به خمار البارحة.

فكّرت أوليانا ملياً، ثم قالت بعد برهة:

- طيب. سأعطيك نبيذاً، يا يفريم ألكسندروفيتش، ولكن إياك أن تعبث.

- كوني على ثقة أوليانا فيدوروفنا.

واتجه يفريم إلى نزل المسافرين بعد أن قوّى نفسه بقدح من النبيذ.

ووصل إلى النزل والفجر ما يزال في أوائله، إلا أن عربة كانت تقف عند الباب الخارجي، جاهزة، وأحد رجال ناعوم يجلس على مقعد السائق ممسكاً الأعنة بيديه.

سأله يفريم:

- إلى أين؟

أجابه الخادم دونما رغبة:

- إلى المدينة.

- ولأي غرض؟

اكتفى الخادم بهز كتفيه، و لم يحر جواباً. نزل يفريم قافزاً من حصانه، ودخل النُزل. التقاه ناعوم في الرواق بكامل ملابسه، وقد ارتدى قبعته.

- تهانينا بقدوم المالك الجديد - قال يفريم، وكان يعرفه شخصياً - إلى أين في هذا الوقت المبكر؟

قال ناعوم بجفاء:

- نعم، عندي ما يهنأ عليه. هذا أول يوم، وكدت أحترق.

جفل يفريم.

- كيف هذا؟

- هكذا، كان هناك رجل طيب يريد إحراق النزل. من حسن الحظ أنني قبضت عليه وهو يهم أن يفعل. وأنا الآن آخذه إلى المدينة.

سأل يفريم ببطء:

- ألعلّه أكيم؟

- وكيف تعرف؟ نعم أكيم. جاء ليلاً ومعه قدر وفيه جمرة. وقد تسلل إلى الفناء، وأشعل النار... كل رجالي شهود. هل تريد أن تراه؟ على كل حال، آن لنا أن نأخذه.

قال يفريم:

- يا عزيزي ناعوم إيفانيتش، أطلقه لا تخرب العجوز إلى الآخر، لا ترتكب لنفسك هذه الخطيئة، ناعوم إيفانيتش فكر في الأمر، إنسان يائس، فاختل عليه الأمر، يعني...

قاطعه ناعوم:

- كفى هذراً. كيف هذا! أطلقه! سيحرقني في اليوم التالي مرة أخرى...

- لن يحرق، يا ناعوم إيفانيتش. ثق. ثق أن ذلك أكثر طمأنينة لك نفسك. سيكون هناك استجواب، ومحكمة. وأنت نفسك تعرف.

- وماذا في المحكمة؟ لا أخاف من المحكمة في شيء.

- يا ناعوم إيفانيتش، يا محترم، المحكمة تخيف الجميع...

- أوه، كفاية. أرى أنك سكران منذ الصباح، واليوم عيد زيادة على ذلك.

وفجأة انفجر يفريم باكياً بمباغتة تامة.

تمتم:

- أنا سكران، ولكن أقول الحق. اصفح عنه من أجل عيد المسيح.

- طيب، دعنا نذهب، يا بكّاء.

وسار ناعوم نحو واجهة البيت.

قال يفريم وهو يتبعه:

- من أجل أفدوتيا أريفيفنا اصفح عنه.

سار ناعوم نحو الواجهة، وفتح الباب على سعته. اشرأب يفريم بعنقه من وراء ظهر ناعوم بفضول مهيب، وتبيّن أكيم بصعوبة في ركن سرداب غير عميق. كان صاحب النزل القديم هذا، الغني المحترم في الضاحية يجلس على القش موثوق اليدين كالمجرم... رفع رأسه حين سمع حركة... بدا أكيم وكأنما نحف بشدة خلال هذين اليومين الأخيرين، ولا سيّما في هذه الليلة. عيناه الغائرتان لا تكادان تلوحان من تحت جبينه العالي المصفر كالشمع، وشفتاه اليابستان مسودتان... وكل وجهه قد تغيّر، واكتسى تعبيراً غريباً قاسياً ومذعوراً.

قال ناعوم:

- انهض، واخرج.

نهض أكيم، وعبر العتبة.

ولول يفريم:

- أكيم سيميونيتش، جلبت المصيبة على رأسك، يا عزيز!...

نظر أكيم إليه صامتاً.

- لو كنت أعرف لماذا طلبت النبيذ، لما جلبته لك. حقاً ما كنت أعطيه لك، ولربما شربته كلّه بنفسي! ايه، ناعوم إيفانيتش! - أضاف يفريم وأمسك يد ناعوم - أطلق سراحه، أتوسل إليك.

ردَّ ناعوم بضحكة هازئة:

- يا له من منظر. طيب، اخرج - أضاف وتوجه بكلامه إلى أكيم ثانية... - ماذا تنتظر؟

بدأ أكيم:

- ناعوم إيفانوف...

- ماذا؟

كرر أكيم:

- ناعوم إيفانوف. اسمعني. أنا المذنب، كنت أنا أريد محاكمتك. ولكن الله هو الحاكم بيننا. أنت انتزعت مني كل شيء، تعرف بنفسك، كل شيء إلى الآخر. والآن في مقدورك أن تهلكني، ولكن اسمع ما أقوله لك: أطلقني الآن، وليكن لك كل شيء، فامتلكه! أنا موافق، وأتمنى لك كل التوفيق. ها أنا أقول لك أمام الله: إذا أطلقتني لن تندم. الله معك!

أغمض أكيم عينيه وصمت.

عارض ناعوم:

- كيف، كيف يمكن التصديق بك!

قال يفريم:

– ممكن، والله. ممكن حقاً. أنا مستعد أن أكفله، أكفل أكيم سيميونيتش برأسي. صدقني، حقاً!

هتف ناعوم:

– هراء! لنذهب!

نظر أكيم إليه.

– طيب، حسب ما تريد، ناعوم إيفانوف. سوى أنك تجني على نفسك أكثر من اللازم. طيب، لنذهب، إذا كنت متلهفاً بهذا القدر...

ونظر ناعوم بدوره إلى أكيم نظرة ثاقبة. وفكر في سره: «ربما أطلقه بالفعل وليذهب إلى الشيطان! وإلا فإن الناس سيأكلون رأسي بشتائمهم، على ما أظن. وأفدوتيا لن تتركني وشأني...».

لم يتفوه أحد بكلمة، بينما كان ناعوم يناقش نفسه، كان الخادم الجالس في العربة يرى كل شيء من خلال الباب الخارجي، فكان لا يفتأ يهز رأسه، ويضرب الحصان بالأعنة. ووقف الآخران على واجهة البيت، ولزما الصمت أيضاً.

بادر ناعوم:

– طيب، اسمع يا عجوز، إذا أطلقت سراحك، وأمرت هذين الشابين (وأشار برأسه إلى الخادمين) بألا يتفوها بشيء عما جرى بيننا، فهل سنسوي حساباتنا؟ هل نكون متصافين؟

– قلت لك امتلك كل شيء.

– ولا تعتبرني مديناً لك؟

– لا أنت مدين لي، ولا أنا مدين لك.

صمت ناعوم ثانية.

– اقسم!

قال أكيم:

– قسماً بالله.

قال ناعوم:

- أنا أعرف مقدماً أنني سأندم على ذلك. ولكن لا يهم! هات يديك.

أدار أكيم له ظهره، فأخذ ناعوم يفك يديه.

- إياك، يا عجوز - قال ناعوم، وهو يخرج الحبل من يديه - تذكر أنني رأفت بك. إياك!

وغمغم يفريم متأثراً:

- أحسنت، يا عزيزي ناعوم إيفانيتش، الله يرضى عليك!

ليّن أكيم يديه المتورمتين الباردتين، واتجه نحو الباب الخارجي...

وفجأة اغتاظ ناعوم، والظاهر أنه أحس بالندم على إطلاق سراح أكيم... وصاح في إثره:

- ليكن في بالك أنك أقسمت!

التفت أكيم، وأجال بصره فيما حوله، وجمجم في حزن:

- امتلك كل شيء، وإلى الأبد... وداعاً.

وخرج إلى الشارع بهدوء يصحبه يفريم. هزّ ناعوم ذراعه، وأمر بفك الحصان من العربة، وعاد إلى البيت.

رأى يفريم أن أكيم يحيد عن الطريق العام يميناً، فصاح به:

- أكيم سيميونيتش، إلى أين تتجه، إن لم يكن نحو بيتي؟

أجاب أكيم:

- لا، يفريم شكراً. أنا ذاهب لأرى ماذا تفعل زوجتي.

- تراها فيما بعد... والآن للفرحة يجدر أن نتذوق...

- لا، يفريم شكراً... اكتفيت به... وداعاً.

وسار أكيم دون أن يلتفت.

جمجم الشماس مهموماً:

- آها! اكتفى! بينما أنا أقسمت بالله من أجله! لم أنتظر هذا منه - قال في أسى - بعد أن أقسمت عليه. تفو!

تذكر أنه نسي أن يأخذ السكين والقدر، فعاد إلى النزل... أمر ناعوم بإعطائه إياهما، ولكن حتى دون أن يخطر بباله أن يضيّفه. وعاد يفريم إلى بيته في منتهى الغم، وفي منتهى الصحو.

سألته زوجته:

– ها، هل وجدت؟

قال يفريم:

– ماذا وجدت؟ آها، بالطبع وجدت. وها هي أشياؤك.

سألته بتشديد ملحوظ:

– هل هو أكيم؟

ناد يفريم برأسه:

– أكيم. ولكن أي رجل غير مأمون هو! أقسمت نيابة عنه، ولولاي لهلك في السجن، ولكن لم يسقني ولو قدحاً واحداً. أوليانا فيدوروفنا احترميني على الأقل، وأعطيني قدحا.

إلا أن أوليانا فيدوروفنا لم تحترمه، وطردته ليغيب عن بصرها.

وخلال ذلك سار أكيم في الطريق بخطى هادئة صوب قرية ليزافيتا بروخوروفنا. لم يقدر بعد أن يفيق على نفسه تماماً. كان كل ما في داخله يرتجف كما يرتجف داخل رجل تخلص لتوه من موت محقق. بدا وكأنما لم يصدق بحريته.

كان ينظر بذهول ساه إلى الحقول، وإلى السماء، وإلى القبّرات وهي ترفرف بأجنحتها في الهواء الدافئ. في عشية اليوم الفائت، في بيت يفريم، لم ينم منذ الغداء، رغم أنه كان مستلقياً على الموقد بلا حراك. في البداية أراد أن يخمد بالنبيذ ألم المساءة الموّار في داخله، وحشة الغم المخبولة والعاجزة... إلا أن النبيذ لم يستطع أن يغلبه حتى النهاية.

كان قلبه يضج، فراح يفكر كيف سينتقم من الوغد... لم يفكر إلا في ناعوم، ولم تخطر ليزافيتا بروخوروفنا على باله، أما أفدوتيا فقد كان يطردها من ذهنه. وفي نحو المساء استبد به الظمأ للانتقام إلى حدٍّ إلهيجان، فانتظر

بلهفة محمومة، وهو الرجل السليم الطوية الضعيف، هبوط الليل، ومثلما ينطلق ذئب ليلاحق فريسته انطلق، والنار بيده ليحرق بيته السابق... ولكنهم قبضوا عليه... احتجزوه... وجاء الليل.

وما أكثر ما فكر به في تلك الليلة القاسية! من الصعب التعبير بالكلمات عن كل ما يجري في داخل الإنسان في مثل هذه اللحظات، كل العذابات التي يعانيها. وما يزيد ذلك صعوبة أن هذه العذابات في داخل الإنسان نفسه خرساء وغير مبلورة بكلمات... وفي نحو الصباح، وقبيل مجيء ناعوم ومعه يفريم بدا وكأن الشدة تخف عن أكيم... فكر مع نفسه: «ضاع كل شيء! ذهب مع الريح!». وهزّ ذراعه عيوفاً من كل شيء... ولو كان قد خلق ذا نفس غير كريمة لتحول إلى وغد في تلك اللحظة. ولكن الشرّ ليس من طبيعة أكيم.

لقد انساق لارتكاب الجرم تحت وطأة نكبة مباغتة لا يستحقها، وفي حمى اليأس. وهزّه الجرم من الأساس، وحين أخفق، لم يترك فيه غير التعب العمق... وحين أحس بذنبه ابتعد بكل قلبه عن كل ما هو دنيوي، وراح يصلي بمرارة ولكن بحماس. في البداية صلى همساً وأخيراً، ولعلّ ذلك مصادفة، رفع صوته: «إلهي!»، وطفرت الدموع من عينيه... بكى طويلاً ثم هدأ، أخيراً...

ولعلَّ أفكاره كانت ستتغير، لو اضطر إلى أن يدفع ثمن محاولته البارحة... إلا أنه حصل على حريته فجأة... وها هو الآن يسير للقاء زوجته نصف حين، محطماً بكليته، ولكنه هادئ.

كان بيت ليزافيتا بروخوروفنا يقع على مسافة فرسخ ونصف من القرية التابعة لها، إلى يسار الطريق الجانبي الذي كان أكيم يسير فيه. توقف عند منعطف الطريق المؤدي إلى ضيعة السيدة... واجتازه. عزم أن يذهب أولاً إلى كوخه القديم، إلى عمه العجوز.

كان كوخ أكيم الصغير والمتداعي الآن بشكل كبير يقع في طرف القرية تقريباً. قطع أكيم الشارع كله دون أن يلتقي أحداً. كان جميع الأهالي قد خرجوا إلى الكنيسة لحضور القداس، إلا عجوزاً مريضة رفعت النافذة الصغيرة لتنظر في إثره، وفتاة خرجت راكضة إلى البئر تحمل جردلاً فارغاً،

ففتحت فمها على مرآه، وشيعته أيضاً بعينيها. والرجل الأول الذي التقاه هو بالذات عمه الذي كان يبحث عنه.

كان العجوز قد اقتعد الدكة تحت النافذة منذ الصباح متشمماً التبغ، متدفئاً بالشمس. كان منحرف الصحة، فلم يذهب إلى الكنيسة. وكان قد عزم لتوه على زيارة عجوز آخر، هو جار مريض أيضاً، وإذا به يرى أكيم... توقف، وتركه يدنو منه، ونظر في وجهه، وقال:

– مرحباً، أكيم!

– مرحباً.

ردَّ أكيم، ودخل باب كوخه الخارجي متجاوزاً العجوز... كان في الفناء أحصنته، والبقرة، والعربة، وبينها تسرح دجاجاته... دخل الكوخ صامتاً. تبعه العجوز. جلس أكيم على المصطبة سانداً قبضتيه عليها. وقف العجوز في الباب ينظر إليه مشفقاً.

سأل أكيم:

– أين الزوجة؟

ردَّ العجوز بسرعة:

– في بيت السيدة. هناك، جاؤوا بدوابك وصناديقك هنا، أما هي فهناك، هل أذهب لجلبها؟

صمت أكيم برهة ثم قال:

– اذهب.

وغمغم متحسراً، حين كان عمه يرفع قبعه في المسمار:

– آه يا عم، يا عم، هل تذكر ما قلت لي في عشية الزواج؟

– في كل شيء إرادة الله، يا أكيموشكا.

– هل تذكر قولك تزعم أنني لست من صنفكم، أنتم الفلاحين. والآن حل زمن... صرت فيه عرياناً كالصقر في السهوب.

أجاب العجوز:

- ما أكثر الناس الطالحين، لو كان هناك أحد يستطيع أن يؤدب معدوم الضمير هذا تأديباً قاسياً، من الأسياد مثلاً أو من أصحاب الأمر الآخرين، وإلا فما الذي يخشاه؟ الذئب له نهشته.

ولبس العجوز القبعة، وذهب.

كانت أفدوتيا قد عادت لتوها من الكنيسة، حين قالوا لها إن عم زوجها يسأل عنها. وكانت قبل هذا الحين لم تره إلا نادراً، و لم يكن هو يتردّد عليهم في نزل المسافرين، وعلى العموم كان الناس يعتبرونه غريب الأطوار. كان شغوفاً بشم التبغ، ويلتزم الصمت أغلب الوقت.

خرجت إليه.

- ماذا تريد، بيتروفيتش، هل حصل شيء؟

- لم يحصل شيء، أفدوتيا أريفيفنا. زوجك يسأل عنك.

- هل عاد حقاً؟

- عاد.

- وأين هو الآن؟

- في كوخه، في القرية.

تهيبت أفدوتيا، سألته ناظرة في عينيه:

- قل لي، بيتروفيتش: هل هو غاضب؟

غضّت أفدوتيا بصرها.

- طيب، لنذهب.

قالت وقد لبست منديلاً كبيراً، وسار الاثنان. سارا صامتين حتى القرية. وعندما صارا يقتربان من الكوخ استحوذ على أفدوتيا خوف شديد، حتى إن ركبتيها أخذتا ترتجفان، قالت:

- يا عم، بيتروفيتش. ادخل أنت الأول... قل له إنني جئت.

دخل بيتروفيتش الكوخ، ورأى أكيم جالساً في نفس المكان الذي تركه فيه مستغرقاً في تفكير عميق.

رفع أكيم رأسه، وقال:

- ما وراءك، ألعلها لم تأتِ؟

ردَّ العجوز:

- جاءت... تقف عند البوابة...

- طيب، لتأتي إلى هنا

خرج العجوز، ولوّح بذراعه إلى أفدوتيا قائلاً: «تعالي»، وعاد هو إلى جلسته على الدكة. فتحت أفدوتيا الباب مذعورة، وعبرت العتبة، وتوقفت...

نظر أكيم إليها، وابتدرها قائلاً:

- كيف، أريفيفنا، ماذا سنفعل الآن؟

همست:

- أنا المذنبة.

- طيب، أريفيفنا. كلنا أخطأنا، ولا حاجة إلى الكلام عن هذا!

- الوغد حطمنا نحن الاثنين - قالت أفدوتيا بصوت رنان، ونزلت الدموع على خديها. - لا تتركه هكذا، يا أكيم سيميونيتش، واسترجع الفلوس منه. لا تشفق عليّ. أنا مستعدة أن أقسم على أنني أعطيته الفلوس كدين. ليزافيتا بروخوروفنا حرة في بيع نزلنا، أما هو فلماذا ينهبنا... خذ منه الفلوس.

ردَّ أكيم متجهماً:

- لا يجوز أن آخذ الفلوس منه، لقد سوينا حساباتنا.

دُهشت أفدوتيا:

كيف هذا؟

- هكذا. هل تعرفين - مضى أكيم يقول، وتوهجت عيناه - هل تعرفين أين قضيت الليل؟ لا تعرفين؟ في سرداب ناعوم، مشدود اليدين والرجلين كالخروف. هناك قضيت الليل. أردت أن أحرق له النُّزل، ولكنه قبض عليّ. ناعوم هذا حاذق بما فيه الكفاية! أراد اليوم أن يسوقني إلى المدينة.

ولكنه عفا عني. إذن، لا يجوز لي استرجاع الفلوس منه. وكيف أستطيع أن أسترجعها؟... سيقول متى استدنت منك نقوداً؟ هل سأقول له إن زوجتي أخذتها من تحت الأرضية، وجلبتها إليك؟ سيقول إن زوجتك تكذب. أم الأقاويل قليلة عليك، يا أريفيفنا؟ دعيني أقولك لك: اسكتي أحسن.

همست، وقد تملكها الفزع من جديد:

- أنا مذنبة، سيميونيتش، مذنبة.

صمت أكيم برهة، ثم قال:

- ليس هذا هو المهم. ولكن ماذا سنفعل أنا وأنت؟ لم يعد لنا بيت الآن... ولا نقود أيضاً...

- سندبر أمورنا بطريقة ما. نسأل ليزافيتا بروخوروفنا، وستساعدنا، وعدتني كيريلوفنا بذلك.

- لا، أريفيفنا، اطلبي سيدتك بنفسك مع صاحبتك كيريلوفنا هذه. أنتما نبتتا حقل واحد. ولكن أقول لك: ابقي هنا في رعاية الله، أما أنا فلا أبقى هنا، ومن حسن الحظ أننا لم نوهب أطفالاً. وربما وحدي لا أضيع. الرأس الوحيد لا يعرف المصيبة.

- يعني، هل ستعود إلى التنقل في العربات؟

ضحك أكيم ضحكة مريرة.

- هذا ما أصلح له حقاً! وجدت شاباً أهلاً لذلك. لا، أريفيفنا. ليس هذا بأمر سهل كالزواج مثلاً. العجوز لا يصلح لهذا العمل. ولكن لا أريد البقاء هنا، لا غير. لا أريد أن يشير الناس إلي بأصابعهم... أتفهمين؟ أنا ذاهب للتكفير عن خطاياي، أريفيفنا. هذا ما أنوي عليه.

قالت أفدوتيا بتهيب:

- أي خطايا لك، سيميونيتش؟

- أنا أعرفها بنفسي، يا زوجة.

- ولمن تتركني، سيميونيتش؟ كيف سأعيش بدون زوج؟

- لمن أتركك؟ آه، أريفيفنا، كيف تستطيعين أن تقولي هذا، حقاً!

وكأنك بحاجة إلى زوج مثلي، عجوز ومخرّب أيضاً. كيف! كنت تدبرين أمورك بدوني، وستدبرين أمورك بدوني. وكل ما تبقى لنا من أشياء خذيها لك. لا أهمية لها عندي!...

أنشأت أفدوتيا تقول بأسى:

– أنت تعرف أحسن، سيميونيتش.

– أحسنت. فقط ألا تظني أنني قد غضبت عليك، أريفيفنا. فيم الغضب، إذا كان... من قبل كان يجب أن أنتبه. أنا الملوم، وقد عوقبت على ذلك. (وتحسر أكيم). والجزاء مِنْ جنس العمل، على حدِّ المثل. والعمر تقدم بي، وحان لي أن أفكر في روحي. الرب نفسه هداني إلى الرشاد. أردت، وأنا الأبله العجوز، أن أقتني زوجة شابة لأتمتع بالعيش معها... لا، يا عجوز، يجب أن تصلي أولاً، وتضرب الأرض بجبينك، وتصبر وصُم... والآن، اذهبي، يا عزيزتي. أنا متعب جداً، وأريد أن أنال غفوة.

وتمطى أكيم على المصطبة متنحنحاً.

أرادت أفدوتيا أن تقول شيئاً. وقفت، ونظرت، ثم استدارت وانصرفت... لم تكن تتوقع أن تُعفى بهذا الرخص.

سألها بيتروفيتش، وهو جالس على المصطبة مقوّس الظهر حين دنت منه:

– ها، هل ضربك؟

مرت أفدوتيا به صامتة. وأضاف العجوز مخاطباً نفسه:

– إذن، لم يضربها. – وهمَّ بضحكة، وراح يمشط لحيته، ويشم التبغ.

ونفّذ أكيم ما نوى عليه. سوّى أموره بسرعة، وبعد بضعة أيام من الحديث الذي أوردناه ذهب بملابس السفر ليودّع زوجته التي سكنت مؤقتاً في جناح بيت السيدة. لم يطل وداعهما... وصادف أن كانت كيريلوفنا هناك، فنصحته أن يُمثل أمام السيدة، ومثل أكيم أمامها. استقبلته ليزافيتا بروخوروفنا بشيء من الارتباك، إلا أنها تلطفت، وتركته يقبل يدها، وسألته إلى أين ينوي الذهاب؟ أجاب أنه سيذهب إلى كييف أولاً، ومِن بعد إلى حيث يقدر الله. أثنت عليه، وتركته يذهب.

ومنذ ذلك الحين لم يظهر في موطنه إلا نادراً، رغم أنه لم ينس أبداً أن يجلب معه للسيدة خبز القدّاس الرباني المشمول بالدعاء إلى الصحة... وبالإضافة إلى ذلك أينما اجتمع الروس الأتقياء كان من الممكن أن يُرى وجهه الضامر المعذّب الشائخ والمحتفظ في الوقت ذاته بحلو تقاطيعه وتناسق قسماته. سواء أكان ذلك في مزار القديس سيرغي، أو في بيليه بيريغا أو في دير أوبتوي، أو في جزيرة فالآم[1] النائية، كان في كل مكان...

ولربما قد مرَّ بكم هذا العام مع صفوف الناس اللامحدودي العدد السائرين في موكب وراء أيقونة العذراء إلى دير كورينايا[2]. وفي العام التالي وجدتموه والصرة وراء كتفه جالساً مع الحجاج الآخرين على مدخل كنيسة القديس نيقولاي صانع المعجزات في متسينسك[3]... كان يجوب الأقاليم بمشيئة المطمئنة غير المتعجّلة والدؤوب، ويقال إنه زار القدس نفسها... كان يبدو هادئاً تماماً وسعيداً، وكان الناس الذين أسعدهم الحظ بالتحدث إليه يقولون الكثير عن تقواه وحكمته الكريمة.

وخلال ذلك سارت أمور ناعوم على أحسن ما يُرتجى. انكب على عمله بحيوية واقتدار، وصعد نجمه بسرعة، كما يقال. كان الناس جميعهم في الضاحية يعرفون بأية وسائل غنم لنفسه نُزُل المسافرين، ويعرفون أيضاً أن

١- هذه أسماء الأماكن التي كان الأتقياء في روسيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر يحجون إليها أكثر من غيرها. دير ترويتسه - سيرغي (دير الثالوث المقدس والقديس سيرغي، وهو من أكبر الأديرة الروسية)، يقع على بعد ٧٢ كيلومتراً شمال موسكو، حيث مرقد القديس سيرغي رادونيجسكي، الذي تقدسه الكنيسة الأرثوذوكسية. وقد بني هذا الدير في القرن الرابع عشر. ودير بيليه بيريغا يقع في جنوب غربي روسيا، ودير أوبتوي دير للرجال، شيد في القرن الرابع عشر، يقع إلى الجنوب الغربي من موسكو غير بعيد عن مدينة كالوغا. وفالآم جزيرة على بحيرة لادوجسكويه. وفيها دير فالآم للرجال، شيد في بداية القرن الرابع عشر. وفيه بعض الصوامع للرهبان النساك.

٢- هو دير ميلاد العذراء، غير بعيد عن مدينة كورسك. في الأعياد المسيحية كان يجتمع هنا ما يصل إلى ٧٠ ألفاً من الحجاج.

٣- متسينسك مدينة في الجزء الجنوبي من روسيا الوسطى (ولاية أوريل).

أفدوتيا أعطته نقود زوجها. فلم يحبه أحد منهم لما جُبِل عليه من طبع بارد صارم... وكانوا يروون عنه باستهجان زاعمين أنه ردَّ على أكيم نفسه بـ «الله يعطيك»، حين استجدى هذا منه صدقة من تحت النافذة، و لم يعطه شيئاً. إلا أن الجميع كانوا متفقين على أنه كان أسعد حظاً من الآخرين قاطبة. غلتُه من القمح أحسن من غلة جاره، ونحله أوفر، ودجاجاته أكثر بيضاً، وماَشيته لم تمرض قط، وخيوله لم تصب بعَرَج...

ظلّت أفدوتيا لا تطيق سماع اسمه زمناً طويلاً (وكانت قد قبلت عرض ليزافيتا بروخوروفنا، وعادت إلى خدمتها من جديد كرئيسة الخياطات)، ولكن نفورها قلَّ في آخر الأمر. ويقال إن الحاجة اضطرتها إلى الالتجاء إليه، فأعطاها زهاء مائة روبل... ولن نتشدد في إدانتها، فالفقر يعجز أي إنسان. والتحول المفاجئ في حياتها أشاخها كثيراً وذلل عريكتها. ومن الصعب التصديق كيف زايلتها ملاحتها بسرعة، وكيف تطامنت وفترت عزيمتها...

وقد يسأل القارئ:

- بم انتهى كل شيء؟

انتهى بهذا: بعد أن أدار ناعوم نزله بنجاح حوالي خمسة عشر عاماً باعه إلى رجل من أهل المدينة رابحاً فيه... وما كان سيتخلى عن نزله لو لم يحدث الظرف التالي الذي يلوح قليل الأهمية: في صباحين متتاليين نبحت كلبته نباحاً ممدوداً شاكياً وهي جالسة تحت النافذة. وفي المرة الثانية خرج، ونظر بإمعان إلى الكلبة النابحة، وهزّ رأسه، وقصد المدينة، وفي نفس اليوم اتفق على سعر مع المشتري الذي كان يماكسه على النزل زمناً طويلاً...

وبعد أسبوع رحل بعيداً عن حدود الولاية. وانتقل المالك الجديد إلى مكانه. وماذا؟ في ذلك المساء ذاته احترق النزل برمّته، فلم يبق منه شيء. وأمسى خليفة ناعوم معدماً. والقارئ يسهل عليه أن يتصوّر أية أقاويل دارت في الجوار عن هذا الحريق...

كان الجميع يؤكدون: الظاهر أنه أخذ «يُمنه» معه... ويشاع عنه أنه اشتغل بتجارة الحبوب، وأثرى ثراءً فاحشاً. ولكن هل سيطيل العهد بثرائه؟ إن الأعمدة مهما استطالت لا تبقى قائمة إلى الأبد. وللشر عاقبته الوبيلة إن

عاجلاً أو آجلاً. وليس هناك شيء كثير يقال عن ليزافيتا بروخوروفنا. إنها ما تزال حية ترزق، وكما هي الحال مع الذين على شاكلتها لم تتغير في شيء، و لم تشخ كثيراً جداً سوى أنها تبدو أيبس عوداً، بينما ازداد بخلها إلى حدٍّ كبير، رغم أنه يصعب على المرء أن يدرك لمن تقتر، فهي لم ترزق أولاداً، و لم تتعلق بأحد. وفي حديثها كثيراً ما تتذكر أكيم، ولا تفتأ تؤكد أنها منذ أن عرفت كل خصاله صارت تحترم الرجل الروسي كثيراً.

وكيريلوفنا أعتقت نفسها منها بنقود معتبرة، وتزوجت عن حب، نادلاً شاباً كتاني الشعر تتجرع منه العذاب المر. وأفدوتيا ما تزال تعيش في القسم النسائي من بيت ليزافيتا بروخوروفنا، ولكنها انحدرت بعض الدركات، فهي ترتدي ثياباً بائسة، بل وقذرة، و لم يبق فيها أثر من آداب السلوك لخادمة عصرية تعلمت في العاصمة، ولا من عادات زوجة مالك نزل ميسور... ولا أحد يلتفت إليها، وهي مسرورة لأن أحداً لا يلتفت إليها. والعجوز بيتروفيتش توفي. أما أكيم فظل يجوب المناسك، والله وحده يعلم كم سيظل يجوب المناسك!

روايات قصيرة[1]

١- كان تورغينيف قد تعرف في عام ١٨٤٣ على المغنية الفرنسية المرموقة بولينا فياردو. وما كان من الممكن أن تصبح هذه المرأة المعشوقة زوجة له، فقد كان لها أولاد وزوج.

وهذه إحدى رسائل تورغينيف إلى بولينا فياردو: «في الثلاثاء القادم ستتم سبعة أعوام، منذ أن رأيتك لأول مرة. وبقينا صديقين، وصديقين حميمين، على ما يبدو لي. ويسرني أن أقول لك إنني خلال تلك الأعوام السبعة لم أر أحسن منك في الدنيا، وإن لقائي بك في طريق حياتي كان أعظم سعادة في عمري، وإن وفائي وامتناني لك ليس لهما حدود، ولا يموتان إلا بمماتي».

والروايات القصيرة «فاوست» و«آسيا» و«الحب الأول» هي روايات عن الحب - الوليد لتوه خجولاً ومن جانب واحد، أو السار السعيد - الحب الذي يجلب للإنسان الفرح تارة والهم تارة أخرى، إلا أنه في كل الأحوال يجعله أفضل وأنقى وأسمى. ولا يستطيع أن يكتب عن الحب بهذه الصورة إلا مَنْ مرّ بهذه العاطفة بكل جمالها وقوّتها.

فاوست[1]

قصة في تسع رسائل

Entbehren sollst du، sollst entbehren [2]

«فاوست» (الجزء الأول)[3]

الرسالة الأولى

من بافل ألكسندروفيتش ب... إلى سيميون نيقولايفيتش ف...

قرية «م» ٦ حزيران ١٨٥٠

وصلت إلى هنا قبل أربعة أيام، أيها الصديق الكريم، وها أنا أشرع القلم وأكتب لك وفاء بوعدي. يسح مطر خفيف منذ الصباح. والخروج غير ممكن، كما أنني أود أن أثرثر معك قليلاً. ها أنا مرة أخرى، في عشي القديم، الذي لم أكن فيه - وهذا يصعب عليّ قوله - تسعة أعوام كاملة. حقاً، يبدو وكأنني قد صرت إنساناً آخر تماماً. أجل، إنساناً آخر في واقع الأمر. أنت تذكر المرآة الصغيرة المعتمة التي خلفتها أم جدتي، والموجودة في غرفة الجلوس، بخطوطها الحلزونية الغريبة في الزوايا - كنتَ دائماً تتصوّر ما كانت تعكسه قبل مائة عام خلت. لقد اقتربت من هذه المرآة حالما وصلت،

١- نشرت لأول مرة، في العدد العاشر من مجلة «سوفريمينيك»، عام ١٨٥٦.

٢- احرم نفسك، اكبح رغباتك (بالألمانية في الأصل).

٣- البيت الـ ١٥٤٩ من الجزء الأول من تراجيديا «فاوست» للشاعر والمفكر الألماني ي.ف. غوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢).

ووجدت نفسي أُذهل رغماً عني. إذ فوجئت بأنني قد شخت وتغيرت كثيراً في الآونة الأخيرة.

وعلى العموم لم أشخ أنا وحدي، بل وبيتي الصغير المتداعي منذ زمان، فهو الآن لا يكاد يمسك نفسه، متطامناً نحو الأرض. ومدبّرة بيتي الطيبة فاسيليفنا (أظن أنك لم تنسها، فقد كانت تستضيفك على مربى رائعة) قد ضمرت تماماً، واحدودبت.

وحين رأتني لم تستطع أن تهتف باسمي، و لم تبك، بل راحت تئن وتسعل وتداعت على مقعد عاجزة تلوّح بيدها.

وترينتي العجوز ما يزال بادي الحيوية، منتصب الجذع كالسابق وإذا مشى دفع جانباً ساقيه المسربلتين بنفس البنطال الأصفر من نسيج القطن المنزلي، والمنتعلتين بنفس الحذاء الصارف من جلد المعز، المرتفع عند علوة القدم، والمزيّن بعقصات كنت تستلطفها سابقاً... ولكن يا إلهي! كيف يسترخي ذلك البنطال الآن على ساقيه العجفاوين! وكم ابيض شعر رأسه! ووجهه قد انكمش تماماً وتكور. وحين أخذ يتكلم معي، ويتعهّد، ويصدر أوامره في الغرفة المجاورة ضحكت في نفسي وأشفقت عليه أيضاً. تساقطت كل أسنانه، فهو يتمطق بشفتيه هاساً صافراً.

وإلى جانب ذلك زهت الحديقة حُسناً. والأجمات المتواضعة من الليلق والأقاسيا وصريمة الجدي (أنت تذكرها، فقد شتلناها سوية) نمت إلى أجمات كثيفة رائعة. وأشجار البتولا والقيقب ارتفعت ونشرت أغصانها. ومماشي الزيزفون ازدهت بشكل خاص، وأنا أحب هذه المماشي، أحب لونها الرمادي الأخضر، ورائحة الهواء الناعمة تحت تعريشاتها، أحب الشبكة الزاهية من الحلقات الفاتحة على الأرض الداكنة. أنت تعرف أن حديقتي ليس فيها رمل.

وشجيرة البلوط المحببة إليّ فيها أضحت شجرة فتية يانعة. نهار أمس قضيت أكثر من ساعة جالساً على مصطبة في ظلّها. وشعرت بمتعة كبيرة. العشب حولي قد اخضر خضرة تبعث على المرح، والضوء الذهبي يرتمي في كل مكان قوياً وناعماً، وينفذ حتى إلى الظل... وأصوات الطيور تداعب الأذن!

آمل أنك لم تنس هوايتي في الطيور. كانت القُماري تزقو بلا انقطاع، وصفارية تصفر بين الحين والحين، وحسون يترنّم بزقزقته العذبة، والشحارير تشدو بغضب، وفي البعيد وقواق يوقوق متجاوباً. وفجأة زعق نقار خشب زعقة نافذة كالمجنون. ظللت أستمع إلى كل هذا الهديل الرقيق المتواصل، ولم أشعر برغبة في الحركة، ينازع قلبي شيء ما بين الكسل والافتتان. لم تكبر الحديقة وحدها، فقد كان بصري يقع طوال الوقت على فتيان أشداء معافين لا أستطيع أبداً أن أتعرف فيهم على صبيان كنت أعرفهم من قبل. أما صاحبك المحبوب تيموشا، فقد صار اليوم تيموفي[1]، ولا يمكن أن تتصوّره.

كنت آنذاك تخشى على صحته، وتتنبأ له بالإصابة بالسل. ليتك تنظر الآن إلى يديه الضخمتين الحمراوين وهما تبرزان من كمي السترة القطنية الضيقتين، وترى أي عضلات مدوّرة سميكة تتراقص تحت جلده أينما وجهت بصرك! وعلباؤه علباء ثور، وشعر رأسه كله يتلوى خصلات كتانية.

هرقل الفرنيزي[2] تماماً! وعلى العموم لم يتغيّر وجهه بقدر ما تغيرت وجوه الآخرين، بل ولم يتضخم كثيراً، كما أن الابتسامة «المتثائبة» على حدّ وصفك لها بقيت كما هي. وقد اتخذته خادماً خصوصياً لي، إذ كنت قد تركت خادمي البطرسبورغي في موسكو.

كان هذا يهوى إخجالي كثيراً، ويجعلني أشعر بتفوقه بآداب السلوك في مجتمع العاصمة. لم أجد أي كلب من كلابي للصيد. انقرضت جميعها. والكلب نفكا من بينها عاش أكثرها جميعاً، ولكنه لم ينتظر أوبتي كما انتظر أرغوس عودة يوليس[3]. لم يقدر له أن يرى بعينيه الكابيتين صاحبه السابق ورفيقه في الصيد. أما الكلبة شافكا فما زالت على قيد الحياة، تنبح نباحها الأجش، والشق ما يزال في أذنها، والأشواك ملء ذيلها، كما يقتضي الحال.

١- دلالة على أنه كبر، لأن تيموشا اسم مصغر من تيموفي. (المعرب).

٢- هو تمثال لهرقل مستريحاً. وهرقل بطل الميثولوجيا الإغريقية، ابن زيوس وامرأة من البشر، وكان يملك قوة خارقة. والتمثال موجود في متحف نابولي. (إيطاليا).

٣- يقصد هنا ما جاء في «أوديسا» هوميروس عن موت أرغوس كلب أوديسا (يوليس) المحبب الذي مات حالما عاد مالكه من رحلاته. (القصيدة رقم ١٧).

سكنت حجرتك السابقة. صحيح، أن الشمس تسطع فيها، والذباب كثير، ولكن رائحة البيت الشائخ أقل فيها من الحجرات الأخر.

إنه لأمر عجيب! أن هذه الرائحة العفنة، الحامزة قليلاً، الرخوة تؤثر في مخيلتي عظيم التأثير. ولا أقول إنها مقززة لي، بل على العكس، ولكنها تثير في نفسي الحزن، وفي آخر الأمر، القنوط. وأنا مثلك أحب الأصونة المنتفخة القديمة ذات الأدراج والزينات النحاسية، والكراسي البيضاء ذات الظهور البيضاوية، والقوائم المقوسة، والثريات الزجاجية المبقعة بالذباب، تتوسطها بيضة كبيرة من الرقاق الليلقي، وباختصار أحب أي أثاث من أثاث الأجداد، ولكنني لا أطيق أن يحيطني على الدوام، فإن وحشة هالعة (وهذا بالضبط!) تستحوذ عليّ. في الحجرة التي سكنتها أثاث بسيط للغاية، من صنع بيتي، ومع ذلك أبقيت في الركن الدولاب الطويل الضيق برفوفه المثقلة بمختلف الأواني المنفوخة القديمة الطراز من الزجاج الأخضر والأزرق، لا تكاد تبين مما تراكم عليها من الغبار. وطلبت أن يعلق على الحائط صورة المرأة بإطارها الأسود، أنت تذكرها، فقد كنت تسميها صورة مانون ليسكو[1].

وقد أسودّت قليلاً خلال هذه السنوات التسع، إلا أن العينين ما تزالان تنظران تلك النظرة الساهمة المبطنة الرقيقة، والشفتين ما تزالان تبتسمان بتهاون وأسى، والوردة نصف المصوحة ما تزال مسترخية من الأصابع الدقيقة. والستائر في حجرتي تضحكني كثيراً. كانت في يوم ما، خضراء ولكنها الآن مصفرة من أثر الشمس، رسمت عليها باللون الأسود مشاهد من «الناسك» لدارلنكور[2]. ويُصور أحد المشاهد هذا الناسك بلحيته الهائلة، وعينيه الجاحظتين، والصندل في رجليه يجر فتاة شعثاء إلى جبل،

١- مانون ليسكو هي بطلة الرواية الشهيرة «مغامرات الفارس دو غريه ومانون ليسكو» (١٧٣٣) للكاهن أنطوان فرانسوي بريفو (prévost d'Exiles) (١٦٩٧ - ١٧٦٣).

٢- «الناسك» (١٨٢١)، رواية شائعة للكاتب الفرنسي ش. ف. دارلنكور (d'Arlincourt)، (١٧٨٩ - ١٨٥٦).

ويصوّر الآخر قتالاً فظاً بين أربعة فرسان ببرانيط والشراشيب على الأكتاف. أحدهم مطروح en raccourci [1]، مقتولاً.

وباختصار كل الفظائع ممثلة، بينما السكون يخيم فيما حولي، والستائر ذاتها تلقي لآلئها الوديعة علي السقف... ومنذ أن سكنت هنا شملتني سكينة روحية فلا أريد أن أرى شيئاً، ولا أحلم بشيء وأكسل على التأمل، ولكن لا أكسل على التفكير. وهذان شيئان مختلفان، كما أنت تعرف جيداً.

في البداية تدفّقت عليّ ذكريات الطفولة... كانت تنثال انثيالاً أينما ذهبت، وفي أي شيء تمعنت، واضحة وإلى أصغر التفاصيل واضحة، تبدو كالمستقرة في تبلورها الجلي... ثم أخذت هذه الذكريات تتوارد بعضها يعقب بعضاً، وبعد ذلك... بعد ذلك تحوّلت عن الماضي شيئاً فشيئاً، و لم يبق في صدري إلا ثقل كثقل النعاس. فتصور! وجدت نفسي، وأنا جالس على سدة تحت صفصافة، أنخرط في البكاء فجأة، وكنت سأبكي وقتاً طويلاً، رغم تقدم سنّي، لو لم أخجل من امرأة ريفية مرت بي، ونظرت إلي بفضول، وبعد ذلك انحنت لي انحناءة كبيرة دون أن تدير وجهها إلي، ومضت في حال سبيلها. كنت أود كثيراً لو أبقى على هذه الحال النفسية (لا أعود إلى البكاء، بالطبع) حتى رحيلي من هنا، أي حتى شهر أيلول، وكنت سأصاب بغم شديد لو عمد أحد الجيران إلى زيارتي.

وعلى العموم لا حاجة إلى الخوف من ذلك، على ما يبدو، إذ لم يكن لي جيران مقرّبون. أنا واثق من أنك تفهمني، فأنت تعرف من تجربتك الخاصة ما تجلب الوحدة من رحمة في أحيان كثيرة... وهي ضرورية لي الآن بعد كل ما قمت به من جولات.

لن يداخلني الضجر. فقد جلبت معي بعض الكتب، ولي هنا مكتبة معتبرة. يوم أمس فتحت كل خزاناتها، ونبشت طويلاً في كتبها المعثوثة، ووقعت على أشياء ممتعة كنت لم ألحظها من قبل: «كانديد»[2] في ترجمة

١- وراءه الخلفية (بالفرنسية في الأصل).

٢- المقدود هنا رواية «كانديد أو التفاؤل» (١٧٥٩) للكاتب والفيلسوف الفرنسي الشهير فولتير (١٦٩٤ - ١٧٧٨).

مخطوطة تعود إلى السبعينات، وجرائد ومجلات تلك الفترة، و«حامليون المنتصر»[١] (أي ميرابو) و«Le Paysan perverti»[٢] [٣]، وغير ذلك.

ووقعت في يدي كتب أطفال أيضاً عائدة لي، ولأبي، ولجدتي، وحتى لجدة أمي، فتصوّر، وعلى كتاب لقواعد اللغة الفرنسية متهلهل ومجلد تجليداً ملوناً كتب بحروف كبيرة: Ce Livre appartient à m-lle Eudoxie de Lavrine [٤]، ومؤرخ بعام ١٧٤١. ورأيت كتباً كنت قد جلبتها في حينها من الخارج، ومنها «فاوست» غوته بالمناسبة. ولعلك لا تعرف أنني، في وقت من الأوقات، كنت أحفظ «فاوست» عن ظهر قلب (الجزء الأول منه، بالطبع) كلمة كلمة، و لم أكن أروي غليلي من قراءته... ولكن لكل أيام أحلامها.

وخلال الأعوام التسعة ما كدت آخذ غوته في يدي. ولا أستطيع أن أصف شعوري، حين رأيت ذلك الكتاب الصغير الأليف إليّ إلى حدٍّ كبير (صبعة ١٨٢٨ البائسة). أخذته معي، واستلقيت على الفراش، وأخذت أقرأ. وما أعظم الأثر الذي تركه فيّ المشهد الأول الرائع! ظهور جن الأرض، وكلماته - أنت تذكرها: «على أمواج الحياة، وفي زوبعة الخلق» أثارت فيّ رعشة وبرودة من الغبطة لم أعرفهما منذ زمان. فتذكرت كل شيء: برلين، وسنوات الجامعة، وفراولاين[٥] كلارا شتيخ، وزيديلمان[٦] في دور

١- الاسم الكامل هو «حامليون المنتصر أو صورة لنوادر الكونت ميرابو ومناقبه»، وهو كراس ساخر ألماني غفل من اسم المؤلف.

٢- «الفلاح المفسد» (بالفرنسية في الأصل).

٣- «الفلاح المفسد» (١٧٧٥)، رواية عن السيرة الذاتية للكاتب الفرنسي ن. رتيف دو لا بريتون (Restif de la Bretonne) (١٧٣٤ - ١٨٠٦).

٤- هذا الكتاب عائد إلى الآنسة يفدوكيا لافرينا (بالفرنسية في الأصل).

٥- الآنسة (بالألمانية لفظاً). (المعرب).

٦- كلارا شتيخ (١٨٢٠ - ١٨٦٢) ممثلة مسرحية ألمانية كانت تحظى بنجاح كبير لدى الجمهور في بداية الأربعينيات في برلين، في فترة وجود تورغينيف هناك.
وكارل زيديلمان (١٧٩٣ - ١٨٤٦) ممثل مسرحي ألماني كان يعتبره معاصروه الممثل التراجيدي الأول في ألمانيا.

مفيستوفل، وموسيقى رادزيفيل[1]، وغير هذا وذاك، وكل شيء... وأرقت وقتاً طويلاً. انبعث شبابي، وشخص أمامي، كالشبح، وسرى في عروقي كالسم الحار، وانبسط قلبي، ولم يشأ أن يتقلّص، تمزّق شيء من نياطه، وأخذت الرغائب تفور في داخلي.

استسلم صديقك في سنه الموشكة على الأربعين إلى هذه الرؤى، وهو جالس وحيداً في بيته المنعزل! فماذا لو أطل شخص عليّ؟ طيب، وما في ذلك؟ عندئذ لن أخجل البتة. الخجل هو أيضاً علامة من علائم الصبا. وهل تعرف لماذا صرت ألحظ أنني آخذ بالكبر؟ لأنني أحاول الآن أن أضخّم أمام نفسي إحساساتي المرحة، وأكبت الحزين منها، بينما في أيام صباي كنت على العكس من ذلك تماماً. كنت أنغمر في حزني، وكأنه كنز، وأخجل من فورة المرح...

وعلى كل حال يبدو لي، رغم كل تجربتي في الحياة أن في الدنيا شيئاً آخر، يا صديقي هوراتسيو[2]، لم يدخل في تجربتي هذه، وأن هذا «الشيء الآخر» يكاد يكون أهم شيء.

أوه، كم استرسلت في الكتابة! وداعاً، وإلى المرة القادمة. ماذا تفعل في بطرسبورغ؟ بالمناسبة، طلب مني سافيلي طباخي في القرية أن أنقل لك تحياته. هو الآخر شاخ، ولكن ليس كثيراً جداً. سمن وترهل بعض الشيء. وهو لا يزال يجيد تحضير حساء الدجاج مع البصل المسلوق جيداً، وفطائر الجبنة ذات الحوافي المزخرفة، وطبق السهوب الشهير «بيغوس» الذي ابيض لسانك منه، وتخشب طوال يوم كامل. ومقابل ذلك ما يزال يحمّص لحماً إلى حدّ اليبوسة، فلا ينكسر بين يديك حتى ولو دققته بالصحن، كارتون تماماً. على كل حال، مع السلامة!

صديقك ب.ب.

١- رادزيفيل، أنتوني هنريك (١٧٧٥ - ١٨٣٣) مؤلف موسيقي بولوني وضع موسيقى «فاوست» غوته.

٢- عديل في عبارة وردت في «هاملت» تقول: «هناك أشياء في السماء وعلى الأرض، هوراتسيو، لا تحلم بها في فلسفتك». «There are more things in heaven and earth، Horatio، than are dreamt at in your philasophy»، (المشهد الخامس من الفصل الأول).

الرسالة الثانية

من المرسل نفسه وإلى المرسل إليه نفسه

قرية «م» ١٢ حزيران ١٨٥٠

عندي خبر مهم جداً أريد أن أبلغك به، يا صديقي الكريم. فاسمع! يوم أمس، قبيل الغداء تاقت نفسي إلى شيء من النزهة، الممتع جداً أن تسير بخطوات سريعة في طريق مستقيم طويل وبدون غاية تقصدها. كأنك تعمل وتحث خطاك لتبلغ مكاناً ما. وأربع بصري وأرى عربة تسير من الاتجاه المقابل. فكرت مع نفسي في ذعر: «أهي قادمة إلي»... ولكن، لا. كانت العربة تقل سيداً ذا شارب غريباً عليّ، وهدأ بالي. ولكن هذا السيد ما أن حاذاني، حتى أمر الحوذي فجأة بإيقاف الحصانين، وإذا به يرفع قبعته باحترام، ويسألني باحترام أكثر: ألست أنا؟ ويذكرني بالاسم. توقفت بدوري، وبخفة متهم يساق إلى استجواب، فأرد عليه: «أنا هو»، وأنظر كالأبله، إلى السيد المشورب، وأفكر في سري: «يبدو لي أنني رأيته في مكان ما!».

ويقول وهو ينزل من العربة:

- لا تعرفني؟

- لا، أبداً.

- بينما عرفتك على الفور.

ومن كلمة إلى أخرى يتبيّن أنه بريمكوف، زميلنا السابق في الجامعة، لعلّك تذكره. ربما تتساءل في هذه اللحظة يا عزيزي سيميون نيقولايفتش: «أي خبر هام يزف لي؟ بريمكوف، على ما أتذكر، كان فتى فارغاً، رغم أنه ليس خبيثاً ولا أبله». وهذا صحيح، ولكنك يا عزيزي، اسمع بقية الحديث. قال:

- سررت كثيراً حين سمعت بقدومك إلى قريتك، وإلى جوارنا. وعلى العموم لست وحدي في هذا السرور.

سألته:

- اسمح لي أن أعرف مَنْ المكرّم بهذا أيضاً؟..

– زوجتي.

– زوجتك؟

– نعم، زوجتي. إنها من معارفك القدامى.

– لو تفضلت فأعلمتني ما اسم عقيلتك؟

– فيرا نيقولايفنا. من أهالي يلتسوفا في الأصل...

فوجدتني أهتف لا إرادياً:

– فيرا نيقولايفنا!

وهذا هو الخبر المهم الذي أشرت لك به في مستهل الرسالة.

ولكن ربما لا تجد فيه أيضاً أية أهمية... فأنا مضطر إلى أن أروي لك شيئاً عن حياتي الماضية... الموغلة في الماضي.

عندما تخرجت معك من الجامعة عام... ١٨٣، كنت في الثالثة والعشرين. فدخلت أنت الوظيفة، وعزمتُ أنا السفر إلى برلين، كما هو معروف لك. ولكن لا شيء أقوم به في برلين قبل شهر تشرين الأول. فرغبت في قضاء الصيف في روسيا، في الريف ولأسترخي جيداً للمرة الأخيرة، ومن بعد ذلك أنصرف إلى العمل بجد. ولا حاجة الآن إلى الإفاضة في الحديث عن مقدار نجاحي فيما ارتأيته. كنت أسأل نفسي: «ولكن أين عليّ أن أقضي الصيف؟». لم أرغب في الذهاب إلى قريتي. أبي توفي قبل وقت قصير، وليس لي أقارب مقربون فخفت من الوحدة والضجر... ولهذا قبلت بفرح عرض أحد أقاربي الأبعدين، وهو ابن خال بعيد، حين دعاني إلى ضيعته في ولاية «ت» وهو رجل ميسور وطيب وبسيط يعيش عيشة سيد، وحجراته حجرات سادة. نزلت عنده.

كانت له عائلة عديدة الأفراد: ابنان وخمس بنات. وبالإضافة إلى ذلك كان يعيش في بيته عدد كبير من الناس. كان الضيوف يفدون عليه بلا انقطاع. ومع ذلك لا بهجة في مثل تلك الحياة. كانت الأيام تمرّ ضاجة، والخلوة مع النفس لم تكن ممكنة. الجميع يشتركون في كل شيء، والجميع يسعون إلى أن يتسلوا بشيء، وأن يختلقوا شيئاً. وفي آخر النهار كانوا يتعبون

تعباً شديداً. كانت مبتذلة تلك الحياة. وقد شرعت أحلم بالرحيل، وانتظرت فقط حلول عيد الشفيع لخالي، ولكنني في يوم العيد بالذات رأيت فيرا نيقولايفنا يلتسوفا، فبقيت.

كانت في السادسة عشرة أنئذ. وكانت تعيش مع أمها في ضيعة صغيرة على بعد زهاء خمسة فراسخ من ضيعة خالي. وأبوها، كما يقال، إنسان رائع بلغ رتبة العقيد بسرعة، وكان من الممكن أن يرتقي أكثر، ولكنه مات في سن الشباب مقتولاً برصاصة طائشة من رفيق له أثناء الصيد. وخلّف فيرا نيقولايفنا طفلة. وأمها أيضاً كانت امرأة غير اعتيادية، كانت تتحدث بعدة لغات، وتعرف الكثير. وكانت أكبر من زوجها الذي تزوجته عن حب بسبعة أو ثمانية أعوام. وقد أخرجها من بيت أبويها سراً. وكاد فقدانه يطيح بها، وظلّت تلبس أثواب الحداد حتى مماتها (ماتت، حسب أقوال بريمكوف بعد وقت قصير من زواج ابنتها).

لا يزال يحيا في ذاكرتي وجهها المعبِّر الأسمر ذو الشعر الأسود المشوب بشعرات بيض، والعينان الصارمتان الواسعتان الكامدتان قليلاً، والأنف الدقيق المستقيم. كان أبوها، ويدعى لادانوف، قد عاش في إيطاليا زهاء خمسة عشر عاماً. وأم فيرا نيقولايفنا ابنة فلاحة بسيطة من البانو اختطفها لادانوف من خطيبها. فقتلها هذا الخطيب بعد يوم من ولادتها ابنتها... وهذه القصة أحدثت في حينها لغطاً كثيراً. وحين عاد لادانوف إلى روسيا صار لا يخرج من بيته، بل ولا يخرج من مكتبه، وكان ينشغل بالكيمياء والتشريح والقبلانية[1]، ويريد إطالة حياة الإنسان، ويرى في الإمكان الاتصال بالأرواح، واستدعاء الأموات... وكان جيرانه يعتبرونه ساحراً. وكان يحب ابنته حباً جماً، وقد علّمها بنفسه كل شيء، ولكنه لم يغفر لها هروبها مع يلتسوف، ولم يرد أن تقع عيناه عليها، ولا على زوجها، وتنبأ لهما كليهما بحياة فاجعة، ومات وحيدا. وحين أصبحت السيدة يلتسوفا أرملة، كرّست كل أوقات فراغها لتربية ابنتها، ولم تكن تستقبل أحداً تقريباً. وحين تعرفت على فيرا نيقولايفنا، لم تكن قد زارت أية مدينة، بل ولم تخرج حتى إلى مركز القضاء، فتصوّر!

---

١ - فلسفة دينية سرّية. (المعرب).

لم تكن فيرا نيقولايفنا تشبه الآنسات الروسيات المألوفات. كانت لها سمتها الخاصة بها. ومنذ الوهلة الأولى بهرني فيها الهدوء المدهش لكل حركاتها وتعابيرها.

كانت لا تسعى إلى شيء، ولا تهلع من شيء، وتجيب عن كل شيء ببساطة وذكاء وتصغي إلى الآخرين باهتمام. وكان تعبير وجهها ينم عن صفاء وصدق، مثل وجه الطفل، ولكن بشيء من البرود والرتابة، وإن كان بلا استغراق في داخلها. وكانت قلّما تبتهج، وليس كبهجة الأخريات، كان صفاء النفس البريئة، الأحلى من البهجة يشع من كل كيانها.

كانت معتدلة القامة، حسنة البنيان، في شيء من النحافة، وتقاطيعها متناسقة ورقيقة: جبهة ملساء بديعة، وشعر كتاني ذهبي، وأنف مستقيم، مثل أنف أمها، وشفتان ممتلئتان بما فيه الكفاية، والعينان الرماديتان على سواد تنظران باستقامة شديدة، من تحت رموش غزيرة مرفوعة إلى فوق. كانت يداها صغيرتين، ولكنهما غير جميلتين، وبمثل هاتين اليدين لا يتسم الموهوبون من الناس... وبالفعل لم تكن لفيرا نيقولايفنا أية مواهب بارزة. كان صوتها يرن كصوت صبية في السابعة من العمر. قدمت إلى أمها أثناء حفلة راقصة أقيمت في دار خالي، وبعد عدّة أيام ذهبت إلى ضيعتهم لأول مرة.

كانت السيدة يلتسوفا امرأة غريبة الأطوار جداً، قوية الشخصية، متشبثة ودؤوبة. تركت في نفسي أثراً قوياً، فكنت أحترمها وأخشاها في الوقت ذاته. كان كل شيء عندها يخضع لنظام، وقد ربت ابنتها على هذا النظام، ولكن لم تكن تضيق على حريتها. وكانت ابنتها تحبها، وتثق بها ثقة عمياء. إذا أعطتها أمها كتاباً، وقالت لها لا تقرئي هذه الصفحة منه، كانت على الأكثر تغفل الصفحة التي قبلها، ولا تلقي نظرة على الصفحة المحظورة. لكن السيدة يلتسوفا كانت لها indeés fixes [1]، غواياتها. فهي مثلاً تخاف، كما تخاف النار، كل ما يمكن أن يثير الخيال، ولهذا فإن ابنتها، حتى السابعة عشرة من عمرها، لم تقرأ أية رواية أو أية قصيدة، بينما كانت كثيراً ما تغلبني على أمري في الجغرافية والتاريخ وحتى في التاريخ الطبيعي،

١- أفكار ثابتة. (بالفرنسية في الأصل).

أنا الحائز على لقب علمي، وبدرجة معتبرة، ولعلّك تذكر. حاولت مرة أن أنزل السيدة يلتسوفا عن بغلتها، رغم صعوبة جرها إلى الحديث. فقد كانت صموتاً جداً. هزّت رأسها فقط. ثم قالت أخيراً:

– تقول قراءة الأعمال الشعرية مفيدة وممتعة في آنٍ واحد... يجب على المرء، كما أظن أن يختار في الحياة مقدماً إما ما هو مفيد، وإما ما هو ممتع. ويثبت على ذلك مدى العمر. وأنا في وقت من الأوقات أردت أن أجمع هذا وذاك... ذلك مستحيل ويؤدي إلى الهلاك أو إلى الابتذال.

أجل، كانت مخلوقاً مدهشاً تلك المرأة، مخلوقاً نقياً وأنوفاً وبمسحة من تعصب وخرافة على طرازها. ذات مرة قالت لي: «أنا أخاف الحياة». وبالفعل كانت تخافها. تخاف تلك القوى الخفية التي أقيمت عليها الحياة، والتي تبرز نادراً، ولكن بشكل مفاجئ. والويل لمن تداهمه! وقد تبدّت هذه القوى ليلتسوفا بشكل رهيب. لتتذكر موت أمها، زوجها، وأبيها... ومثل هذه المصائب ترعب أي إنسان. لم أرها تبتسم قط. وكأنما أغلقت على نفسها بالقفل، وألقت المفتاح في النهر. لا بد أنها عانت محناً كثيرة في حياتها، ولكنها لم تفضِ بها إلى أي إنسان. كانت تخفي كل شيء داخل نفسها. تعلّمت كيف تَكتم مشاعرها حتى إنها كانت تخجل من إظهار تعلّقها بابنتها. لم تقبلها بحضوري قط، ولم تخاطبها بصيغة التحبب، بل تناديها فيرا وحسب. وما أزال أتذكر قولها: ذات مرة قلت لها: نحن، أهل العصر جميعاً، معطوبون... فقالت: «لا داعي لعطب النفس. فمن الضروري أن تحطم نفسك تماماً، أو لا تمسها قط...».

قليلون من الناس كانوا يزورون يلتسوفا، ولكنني كنت كثيراً ما أزورها. وكنت أعي في سري بأنها تكن لي الاحترام الشديد. أما فيرا نيقولايفنا فقد أعجبتني كثيراً. كنا نتبادل الأحاديث، ونتمشى سوية... ولم تكن الأم تعيق صحبتنا، بل الابنة نفسها كانت لا تحب فراق أمها، وأنا من جانبي لم أشعر بحاجة إلى أن أتحدث معها في خلوة.

كانت لفيرا نيقولايفنا عادة غريبة، هي التفكير بصوت مسموع. وفي الليل، أثناء حلمها، كانت تتحدث بصوت عالٍ وواضح عما أبهرها خلال النهار.

ذات مرّة حدّقت فيّ بعناية، وقالت، وهي تستند على يدها على جريان عادتها: «يبدو لي أن ب رجل طيب، ولكن لا يمكن الاعتماد عليه». وكانت علاقاتنا وديّة للغاية ونداً للند. وفي مرة واحدة فقط بدا لي أنني قد التقطت عميقاً في قرارة عينيها الوضاءتين شيئاً غريباً، ارتياحاً عميقاً ورقة... ولكن ربما كنت على خطأ.

وخلال ذلك انقضى الوقت، وحان موعد استعدادي إلى العودة. ولكنني تباطأت. وكنت أحس بالرهبة حالما أفكر، أو أتذكر أنني عن قريب سأفارق هذه الفتاة العزيزة التي ألفتها... أخذت برلين تفقد قوتها الجاذبة. ولم أجرؤ أن أعترف لنفسي بما كان يحصل في داخلي، كما أنني لم أكن أفهم ما كان يحصل، وكأن ضباباً يلف روحي. وذات صباح وضح لي كل شيء فجأة. فكرت مع نفسي: «عم تبحث أكثر مما بين يديك؟ وإلى أين تسعى؟ فالحقيقة، على أية حال، لا تقع بين يديك. أليس من الأفضل لك أن تبقى هنا، وتتزوج؟» تصوّر أن فكرة الزواج هذه لم ترعبني آنذاك. بل على العكس سرّتني. وبالإضافة إلى ذلك أعلنت عن نيتي في نفس اليوم لا إلى فيرا نيقولايفنا، كما كان ينبغي أن يتوقع المرء، بل وإلى يلتسوفا الأم ذاتها. نظرت العجوز إليّ، وقالت:

– لا، يا عزيزي، سافر إلى برلين، واعطب نفسك أكثر. أنت رجل طيب، ولكنك لست زوجاً يصلح لفيرا.

أطرقت، وصعد الدم إلى وجهي، ولعلّ ما سيدهشك أكثر هو أنني في داخلي وافقت يلتسوفا على قولها، وبعد أسبوع رحلت، ومنذ ذلك الحين لم أرها، ولم أر فيرا نيقولايفنا.

لقد وصفت لك مغامراتي باقتضاب لأنني أعرف أنك لا تحب «الإطناب». وسرعان ما نسيت فيرا نيقولايفنا بعد أن وصلت إلى برلين... ولكنني أعترف بأن ذكرها المفاجئ أثارني. أذهلتني فكرة قربها الشديد مني، مجاورتها لي، وأنني بعد أيام سأراها. وظهر الماضي أمامي فجأة، وكأنه نبع من الأرض، وراح يتقدم نحوي. وأعلن لي بريمكوف أنه جاء لزيارتي لهذا الغرض بالذات، أي تجديد تعارفنا القديم، وأنه يأمل أن يراني في بيتهم في أقرب وقت ممكن. وأبلغني أنه

خدم في سلاح الفرسان، وتقاعد برتبة ملازم، واشترى ضيعة على بعد ثمانية فراسخ عني، وهو ينوي الاشتغال بالزراعة، وقد رزق ثلاثة أولاد، إلا أن اثنين منهم توفيا، وبقيت ابنة في الخامسة من العمر.

سألته: وزوجتك تتذكرني؟

قال بلجلجة قليلة:

– نعم، تتذكرك. بالطبع، يمكن أن يقال إنها في ذلك الحين كانت طفلة، ولكن أمها كانت دائماً تثني عليك كثيراً. وأنت تعرف كيف تعتز فيرا بكل كلمة قالتها الراحلة.

وخطر في بالي قول يلتسوفا بأنني لا أصبح لفيرا زوجاً، وفكرت مع نفسي وأنا أحدج بريمكوف بنظرة جانبية «يعني، أنت تصلح». مكث عندي بضع ساعات، أنه رجل طيب جداً ولطيف، كلامه متواضع ونظرته سمحاء، لا يمكن ألا يُحب... ولكن قابلياته الذهنية لم تتطور منذ أن عرفناه. سأزوره بالتأكيد، ولربما غداً. يتملكني فضول بالغ لأرى إلى أي شيء صارت فيرا نيقولايفنا؟

أيها الشيطان، أغلب الظن أنك تضحك مني الآن، وأنت جالس وراء مكتبك، مكتب المدير، ورغم ذلك سأكتب لك عن الوقع الذي ستتركه فيّ. مع السلامة! وإلى الرسالة القادمة.

صديقك ب.ب.

الرسالة الثالثة

من المرسل نفسه وإلى المرسل إليه نفسه

قرية «م» ١٦ حزيران ١٨٥٠

طيب، يا أخ، كنت عندها، رأيتها. عليّ، قبل كل شيء، أن أخبرك بشيء مذهب، وأنت حر في أن تصدق أو لا تصدق، وهذا الشيء هو أنها لم تتغير تقريباً، لا في الوجه ولا في القوام. عندما خرجت للقائي كادت تند مني آهة تعجب. فتاة في السابعة عشر ولا أكثر! عيناها فقط لم تكونا عيني فتاة صغيرة، وفي صباها أيضاً لم تكن عيناها طفوليتين، بل فاتحتين.

ولكن ذاك الهدوء نفسه، ذاك الصفاء نفسه، وذاك الصوت نفسه، ولا أي غضن في جبينها، وكأنها ظلّت طوال تلك السنين محفوظة في الثلج. بينما هي الآن في الثامنة والعشرين، وقد وضعت ثلاثة أطفال... أمر غير مفهوم! أرجوك، لا تظن أنني أبالغ تحيّزاً، بل على العكس لم يعجبني فيها «عدم التبدل» هذا، على الإطلاق.

لا ينبغي لامرأة في الثامنة والعشرين، زوجة وأماً، أن تبدو كفتاة صغيرة، وكأنها لم تقطع شوطاً في الحياة. استقبلتني بحفاوة كبيرة، ولكن قدومي قد سر بريمكوف سروراً عظيماً، كأن هذا الطيب القلب يبحث دوماً عمن يتعلّق به. بيتهم مريح جداً ونظيف. وكانت فيرا نيقولايفنا تلبس كما تلبس الأوانس الصغيرات: بياضاً في بياض، والحزام أزرق سماوي، وفي العنق سلسلة ذهبية رقيقة. وابنتها عذبة جداً، ولا تشبهها، بل تشبه جدتها. وفي غرفة الجلوس، فوق الأريكة تتدلى صورة لهذه المرأة الغريبة على شبه مذهل بها. لفتت الصورة نظري حالما دخلت. وخيل إليّ أن المرأة التي تصورها تنظر إليّ بصرامة وإمعان. جلسنا، واسترجعنا الماضي، ونشط حديثنا تدريجياً. ووجدت نفسي دون أن أدري أتطلع إلى صورة يلتسوفا الكئيبة بين الحين والآخر. كانت فيرا نيقولايفنا تجلس تحتها تماماً، فقد كان ذلك مكانها المفضل. ولك أن تتصور مبلغ دهشتي. إن فيرا نيقولايفنا لم تقرأ حتى الآن أية رواية وأية قصيدة، وباختصار ولا أي مؤلف متخيّل، على حدّ تعبيرها! وأغضبتني هذه الاستهانة المطلقة بأسمى مُتع العقل.

فمثل هذا لا يغتفر أبداً من امرأة ذكية، ورفيعة الإحساس، على قدر ما أستطيع أن أحكم.

سألتها:

– إذن، وضعت لنفسك قاعدة في الامتناع عن قراءة مثل هذه الكتب؟

– هكذا جرى. لم تكن لدي فسحة قليلة من الوقت.

– قليلة! أنا مندهش! – مضيت أقول وتوجهت إلى بريمكوف: – على الأقل لو حببت القراءة إلى زوجتك.

– أنا بكل سرور...

انبرى يقول، إلا أن فيرا نيقولايفنا قاطعته قائلة:

– لا تتظاهر، أنت نفسك لست هاوياً كبيراً في قراءة الشعر.

قال:

– لست هاوياً في الشعر، بالطبع، ولكن للروايات مثلاً...

سألت:

– إذن، ماذا تفعلان؟ بم تنشغلان في الأماسي؟ تلعبان الورق؟

أجابت هي:

– نلعب أحياناً. وكم من أشياء يمكن أن ينشغل بها الإنسان؟ ونحن نقرأ أيضاً. هناك مؤلفات جيدة إلى جانب الشعر.

– لماذا تهاجمين الشعر بهذا الشكل؟

– أنا لا أهاجم الشعر. مجرد أنني تصورت، منذ الطفولة، أن لا أقرأ مثل هذه التآليف المتخيّلة. هذا ما أرادته أمي، وكلّما تقدم بي العمر ازددت اقتناعاً بأن كل ما فعلته أمي، وكل ما كانت تقوله كان صدقاً، وحقيقة مقدسة.

– كما تشائين، ولكنني لا أستطيع الاتفاق معك. أنا واثق من أنك تحرمين نفسك بدون طائل من أنقى متعة وأكثر اللذائذ شرعية. أنت لا ترفضين الموسيقى والرسم فلماذا ترفضين الشعر؟

– أنا لا أرفض الشعر، ولكن لم أطلع عليه حتى الآن. وهذا كل ما في الأمر.

– سأعتني بذلك بنفسي! هل حرّمت عليك أمك الاطلاع على مؤلفات الأدب الرفيع لطول العمر؟

– لا، حالما تزوجت رفعت عني أمي كل محظور، ولكن لم يطرأ على بالي قراءة... كيف قلت؟.. طيب، باختصار، قراءة الروايات.

استمعت إلى فيرا نيقولايفنا بحيرة، إنني لم أتوقع ذلك.

نظرت إليّ نظرتها الرصينة، كما تنظر الطيور حين يطمئن روعها.

هتفت:

- سأجلب لك كتاباً (لمع في ذهني «فاوست» الذي قرأته قبل وقت قصير).

تنهدت فيرا نيقولايفنا خفيفاً. وسألت وليس بدون رهبة:

- هل... هل هو لجورج ساند[1]؟

- آه! يعني سمعت بها؟ وليكن لها، فهل في ذلك ضرر؟.. لا، سأجلب لك كتاباً لمؤلف آخر. أنت لم تنسي الألمانية؟

- لا، لم أنسها.

فقال بريمكوف يمتدحها:

- هي تتكلم كألمانية.

- هذا رائع!... سأجلبه لك... وسترين أي شيء مذهب سأجلب لك.

حسناً، سأرى. والآن لنخرج إلى الحديقة. ناتاشا متضايقة من الجلوس في مكان واحد.

ولبست قبعة قش مستديرة، قبعة أطفال، كتلك التي ألبستها لابنتها بالضبط، سوى أنها أكبر قليلاً، واتجهنا صوب الحديقة. سرت إلى جانبها. وبدا لي وجهها في الهواء الطلق، في ظل أشجار الزيزفون الباسقة أكثر ملاحة، لا سيما حين كانت تستدير قليلاً، وتدفع رأسها إلى الخلف، لتنظر إليّ من تحت حافة القبعة. ولولا بريمكوف السائر وراءنا، والصبية القافزة أمامنا، لكان من الممكن حقاً أن أفكر بأنني ما زلت في الثالثة والعشرين، وليس في الخامسة والثلاثين، وأنني أتهيأ لتوي للسفر إلى برلين، خاصة وأن الحديقة التي كنا فيها تشبه، إلى حدٍّ كبير، الحديقة في ضيعة يلتسوفا. ولم أصطبر، فأفضيت بانطباعي هذا إلى فيرا نيقولايفنا.

أجابت:

١- جورج ساند (George Sand)، الاسم المستعار للكاتبة الفرنسية أورورا ديوديفان (Dudevant) (١٨٠٤ - ١٨٧٦) طرحت رواياتها قضايا اجتماعية جدية من مثل وضع المرأة في العالم البرجوازي.

- الجميع يقولون إنني لم أتغير في الظاهر إلا قليلاً. وعلى العموم حتى في الداخل بقيت كما أنا.

دنونا من بيت صيني صغير. قالت:

- مثل هذا البيت لم يكن لنا في أسينوفكا. ولكنٍ لا تلق بالاً إلى مظهره المتداعي وتقشر جدرانه، فهو من الداخل لطيف جداً، وفيه طراوة.

دخلنا إلى البيت، أجلت بصري، وقلت:

- حبذا، يا فيرا نيقولايفنا، لو أمرت، حين أجيء، بجلب منضدة وبعض الكراسي إلى هنا. الجو رائع هنا حقاً... سأقرأ لك هنا... «فاوست» غوته... هذا ما سأقرأه لك.

فقالت ملاحظة ببساطة نفس:

- نعم، هنا لا يوجد ذباب. متى ستأتي؟

- بعد غد.

ردّت قائلة:

- طيب، سأمر.

كانت ناتاشا قد دخلت البيت الصغير سوية معنا، فإذا بها تصيح، وتنط ممتقعة بكليتها. سألت فيرا نيقولايفنا:

- ما هذا؟

- آه، ماما - قالت البنت، وهي تشير بأصبعها إلى زاوية، - انظري، أي عنكبوت مخيف!..

نظرت فيرا نيقولايفنا في الزاوية. كان عنكبوتاً كبيراً مبرقشاً يدب على الحائط بهدوء. قالت:

- وماذا يخيف فيه؟ إنه لا يعض. انظري.

وقبل أن ألحق لأوقفها، أخذت هذه الحشرة القبيحة بيدها، وجعلتها تركض على كفها، وقذفت بها. صحت:

- أوه، أية امرأة جسور أنتِ؟

- وما وجه الجسارة هنا؟ هذا العنكبوت ليس من العناكب السامة.

– الظاهر ما تزالين قوية في التاريخ الطبيعي. أما أنا فما كنت سأمسكه بيدي.

كررت فيرا نيقولايفنا قولها:

– لا شيء يخيف فيه.

نظرت ناتاشا إلينا كلينا في صمت، وابتسمت في غير رضاً.

قلت ملاحظاً:

– ما أشبهها بأمك!

ردّت فيرا نيقولايفنا بابتسامة رضا:

– نعم. هذا يسرني جداً. عسى الله أن يجعلها تشبهها لا في الوجه فقط!

أعلنوا لنا أن الغداء جاهز. وبعد الغداء غادرت. ملحوظة مهمة – كان الغداء جيداً ولذيذاً، وأنا أسجل ذلك لك عمداً، أيها الشره! غداً سآخذ «فاوست» إليهم. أخشى أن نسقط الشيخ غوته وأنا. سأصف كل شيء لك بالتفصيل.

والآن ما رأيك في كل «هذه الماجَرَيات»؟ لعلّك تظن... أنها تركت في نفسي وقعاً شديداً، وأنني متهيء للسقوط في الحب وما إلى ذلك؟ هراء، يا أخ! كفاني تجربة. تحامقت ما فيه الكفاية، وانتهى! ومَن في مثل عمري يبدأ الحياة من جديد.

وعلى العموم في الماضي أيضاً لم ترق لي مثلها من النساء. وللمناسبة، أية نساء على هواي!!

أرتعد، ويتوجع قلبي
وأخجل من مُثُلي[1]

ومهما يكن، فأنا مسرور جداً من هذا الجوار، مسرور من فرصة الالتقاء بمخلوق ذكي بسيط مشرق، أما ما سيحصل فيما بعد، فستعرفه في حينه.

صديقك ب.ب

١– اقتباس محرّف من شعر للشاعر الروسي ألكسندر بوشكين، «حديث بائع كتب مع شاعر»، (١٨٢٤).

الرسالة الرابعة

من المرسل نفسه وإلى المرسل إليه نفسه

قرية «م» ٢٠ حزيران ١٨٥٠

يوم أمس جرت القراءة، يا صديقي العزيز. أما كيف كان ذلك فسأخبرك به نقطة بعد نقطة. قبل كل شيء أسرع لأقول إن النجاح فاق التوقعات... و«النجاح» كلمة لا تفي بالغرض... فاسمع.

وصلت عند الغداء. كنا ستة على مائدة الغداء: هي، وبريمكوف والابنة، ومربيتها (مخلوق أبيض ضئيل) وأنا، وألماني عجوز في سترة فراك بنية قصيرة، نظيف حليق مبتذل، ذو وجه غاية في الوداعة والإشراق، وابتسامة عارية من الأسنان تفوح منه رائحة القهوة الرخيصة... وشيوخ الألمان جميعاً تفوح منهم هذه الرائحة. وعرفوني به. اسمه شيميل، وهو مدرس اللغة الألمانية عند عائلة الأمير «خ» جيران بريمكوف. ويظهر أن فيرا نيقولايفنا توده، فدعته ليحضر القراءة. جلسنا إلى مائدة الغداء في وقت متأخر، ولم نتركها إلا بعد وقت طويل، وخرجنا لنتنزه.

كان الطقس رائعاً. في الصباح نزل مطر، وهبت ريح صاخبة، ولكن كل شيء هدأ عند المساء. خرجت وفيرا نيقولايفنا إلى فرجة مكشوفة، تطل عليها تماماً غيمة وردية كبيرة، خفيفة وعلى ارتفاع عال، وكانت الخطوط الرمادية تسري فيها كالدخان، وفي حافتها كانت نجمة صغيرة ترتعش متوامضة تارة، مختفية أخرى، وإلى أبعد من ذلك قليلاً لاح الهلال كمنجل أبيض على السماء اللازوردية الضاربة إلى حمرة. أشرت لفيرا نيقولايفنا إلى تلك الغيمة.

- نعم، رائعة، ولكن انظر إلى هنا.

حوّلت بصري، فرأيت سحابة هائلة داكنة الزرقة، تحجب الشمس الآفلة، وتبدو بشكلها مثل جبل يزفر شواظاً، وقمتها تنتشر في السماء كالمروحة، وقد أحاطت بها حمرة مشؤومة مثل حافة وهاجة، تسربت من خلال كتلتها الهائلة إلى مكان ما في وسطها تماماً، وكأنما أفلتت من فوهة بركان ملتهب...

قال بريمكوف:

- ستنفجر زوبعة رعدية.

ولكنني ابتعدت عن الرئيسي. في الرسالة الأخيرة نسيت أن أقول لك إنني ندمت على تسميت «فاوست» عندما وصلت إلى بيتي قادماً من عائلة بريمكوف. للمرة الأولى سيكون شيللر أكثر نفعاً، إذا كان مرادنا كاتباً ألمانياً. أفزعتني بشكل خاص المشاهد الأولى قبل التعرف بـ «غريتخين». كما لم أكن مطمئناً بخصوص مفيستوفيل أيضاً. ولكنني كنت واقعاً تحت تأثير «فاوست»، فلم تكن لي رغبة في قراءة شيء غيره. يممنا صوب البيت الصيني حين هبط الظلام تماماً. كان هذا البيت قد رتب في العشية. وضعت أمام الأريكة الصغيرة ومقابل الباب تماماً منضدة صغيرة مغطاة ببساط، تحف بها كراس وثيرة ومقاعد، وعليها مصباح. جلستُ على الأريكة، وأخرجت الكتاب. وجلست فيرا نيقولايفنا على كرسي بعيداً قليلاً، وقرب الباب.

ومن الظلمة وراء الباب التقط المصباح غصن أقاسيا أخضر يتمايل قليلاً، ومن حين لآخر كانت هبة من هواء الليل تنفذ إلى الغرفة. جلس بريمكوف إلى المنضدة بالقرب مني، والألماني إلى جانبه. وبقيت المربية في البيت مع ناتاشا. ألقيت كلمة تمهيدية قصيرة، فتحدثت قليلاً عن أسطورة دكتور فاوست القديمة، وعن أهمية مفيستوفيل، وعن غوته نفسه، وطلبت أن يعترضوني، إذا وجدوا شيئاً غير مفهوم. وبعد ذلك تنحنحت...

سألني بريمكوف عما إذا كنت محتاجاً إلى شيء من الماء مع السكر، وكان على ما يبدو من كل شيء، راضياً جداً من توجيه هذا السؤال. رفضت. وساد صمت عميق. بدأت أقرأ دون أن أرفع بصري. كنت أحس بالحرج وقلبي يدق، وصوتي يرتجف. وأول صيحة من المشاركة العاطفية ندّت من الألماني، وخلال القراءة كان وحده يحطم الصمت، تكراراً «مدهش! رفيع!» مضيفاً من حين لآخر «أوه، هذا عميق!» وكان بريمكوف ضجراً، على قدر ما لاحظت. فقد كان على مستوى واطىء في الألمانية، كما أنه كان يعترف بعدم ميله إلى الشعر!.. ولكن هذا ما أراده لنفسه! هممت أن ألمح، خلال الغداء، إلى أن القراءة يمكن أن تمضي بدونه، ولكنني خجلت أن أفعل ذلك. لم تبد فيرا نيقولايفنا أية حركة، اختلست النظر إليها مرة

أو مرتين. كانت عيناها مصوبتين نحوي مباشرة وبإمعان، ووجهها بدا لي ممتقعاً.

بعد لقاء فاوست الأول مع غريتخين انفصلت عن ظهر الكرسي، وطوت ذراعيها، وظلت جامدة على هذا الوضع حتى نهاية القراءة. أحسست أن بريمكوف متضايق مختنق، وذلك ثبّط من عزيمتي في بادئ الأمر، ولكنني نسيته شيئاً فشيئاً، وصعدت الحرارة فيّ، وقرأت بحماس وانجذاب... كنت أقرأ لفيرا نيقولايفنا وحدها، وفي داخلي صوت يقول إن «فاوست» يؤثر فيها. وعندما فرغت من القراءة (أهملت الفاصل، فهو يعود بأسلوبه إلى الجزء الثاني، واقتضبت شيئاً منه «ليلة على بروكين»[1]... عندما فرغت ونطقت بالكلمة الأخيرة «هنريخ!» هتف الألماني: «يا إلهي! ما أروعه!»، وثب بريمكوف مسروراً (المسكين!) كما يبدو وتنهّد، وشرع يشكرني على المتعة التي وفّرتها... ولكنني لم أرد عليه، ونظرت إلى فيرا نيقولايفنا... أردت أن أسمع ما ستقوله. نهضت، ومشت نحو الباب بخطى متخلخلة، ووقفت عند العتبة، وانسلت إلى الحديقة بهدوء. انطلقت في إثرها. كانت قد ابتعدت بضع خطوات، وثوبها الأبيض لا يكاد يلوح في الظل الكثيف.

هتفت:

– ماذا؟ لم تعجبك؟

توقفت، وسمعت وصوتها:

– ربما تترك هذا الكتاب لي؟

– سأهديه لك، فيرا نيقولايفنا، إذا رغبت في الاحتفاظ به.

– مع الشكر!

أجابت واختفت.

تقدم بريمكوف والألماني مني. وقال بريمكوف:

– دفء مدهش! بل وفي الجو وغرة. ولكن أين ذهبت زوجتي؟

١– مشهد «ليلة فالبورغيا» في الجزء الأول من «فاوست».

أجبته:

- إلى البيت، على ما يبدو.

قال:

- أظن موعد العشاء سيحل قريباً، - وبعد دقيقة أضاف: - قراءتك ممتازة.

قلت:

- يبدو أن «فاوست» راق لفيرا نيقولايفنا.

هتف بريمكوف:

- بدون شك!

وثنّى شيميل:

- أوه، بالطبع.

ذهبنا إلى البيت. وسأل بريمكوف خادمة التقيناها:

- أين السيدة؟

- ذهبت إلى مخدعها.

وتوجه بريمكوف إلى المخدع.

خرجت إلى الشرفة مع شيميل. رفع هذا العجوز بصره إلى السماء، ونطق ببطء، وهو يتشمم التبغ:

- ما أكثر النجوم! وكلها عوالم.

وتشمم التبغ مرة أخرى.

لم أر من اللازم أن أرد عليه، فاكتفيت برفع بصري إلى فوق. كانت حيرة مبهمة تثقل على روحي... وبدت لي النجوم تنظر إلينا بجدية. ظهر بريمكوف بعد حوالي خمس دقائق، ودعانا إلى غرفة الطعام. وبعد قليل جاءت فيرا نيقولايفنا، فجلسنا.

قال بريمكوف لي:

- انظر إلى فيروتشكا[1].

نظرت إليها.

- ها؟ ألا تلاحظ شيئاً؟

وبالفعل لاحظت تغيراً في وجهها، ولكن لا أدري لماذا رحت أجيبه:

- لا، لم ألاحظ.

تابع بريمكوف يقول:

- عيناها حمراوان.

لزمت الصمت.

- تصوّر. صعدت إلى حجرتها، فرأيتها تبكي. هذا لم يحدث لها منذ زمان. وأستطيع أن أحدد لك آخر مرة بكت فيها. كان ذلك حين توفيت ابنتنا ساشا. - ثم أضاف مبتسماً: - انظر ماذا فعلت وصاحبك «فاوست»!

قلت:

- إذن، فيرا نيقولايفنا، ها أنت ترين الآن، أنني كنت على حق، حين...

قاطعتني قائلة:

- ما كنت أتوقع ذلك، ولكن لحد الآن الله وحده يعلم هل أنت على حق أم لا. ربما أن أمي حين منعتني من قراءة مثل هذه الكتب، كانت تعلم...

وتوقفت فيرا نيقولايفنا. فأعدتُ قولها:

- ماذا كانت تعلم؟ تكلمي.

- وما الداعي؟ يكفيني خجلاً على أي شيء بكيت؟ على العموم سنواصل الحديث فيما بعد. أشياء كثيرة لم أفهمها.

- ولماذا لم تقاطعيني؟

- الكلمات فهمتها كلها، ومعانيها أيضاً، ولكن...

لم تكمل جملتها، واستغرقت في تفكير. وفي تلك اللحظة تردّد من

١- صيغة التحبب من فيرا. (المعرب).

الحديقة ضجيج أوراق هزتها هبة ريح فجأة. جفلت فيرا نيقولايفنا، وأدارت وجهها إلى النافذة المفتوحة.

هتف بريمكوف:

– قلت لكم ستهب عاصفة رعدية! ولكن، فيروتشكا، لماذا جفلت هذه الجفلة؟

حدجته بنظرة صامتة. وانعكس وميض البرق الواهن والبعيد على وجهها الجامد انعكاساً ساحراً.

ومضى بريمكوف يقول:

– كل ذلك من جراء «فاوست». بعد العشاء يجب أن نأوي إلى مضاجعنا في الحال... أليس صحيحاً، يا سيد شيميل؟

ردّ الألماني الطيب:

– الراحة الجسدية، بعد المتعة الروحية، صالحة ومفيدة على سواء.

وشرب قدح فودكا.

وتفرقنا بعد العشاء مباشرة. صافحت فيرا نيقولايفنا مودعاً. كانت يدها باردة. دخلت الحجرة المخصصة لي، وبقيت واقفاً أمام النافذة وقتاً طويلاً، قبل أن أخلع ملابسي، وأرقد في فراشي. تكهن بريمكوف تحقق. اقتربت زوبعة رعدية وانفجرت. أصغيت إلى ضجيج الريح، وإلى ضربات المطر ودقاته، ولمحت الكنيسة المطلة على البحيرة، على مقربة تظهر عند كل ومضة برق سوداء على خلفية بيضاء تارة، وبيضاء على خليفة سوداء تارة أخرى، ويبتلعها الظلام تارة ثالثة... غير أن أفكاري كانت بعيدة عنها. كنت أفكر في فيرا نيقولايفنا، أفكر فيما ستقوله لي، حين تقرأ «فاوست» بنفسها، أفكر في دموعها، وأتذكر كيف كانت تصغي.

سكتت العاصفة الرعدية منذ وقت طويل، وتألقت النجوم، ولفّ السكون كل شيء فيما حولي. وراح طائر لا أعرفه يشدو بمختلف الأصوات، مردّداً مرات متتالية نفس النغمة. وسرى صوته الرنان الوحيد بغرابة في الصمت العميق، وما زلت خارج فراشي...

في صباح اليوم التالي دخلت غرفة الجلوس أبكر من الجميع، وتوقفت أمام صورة يلتسوفا. وفكرت بشعور خفي من الانتصار الساخر: «ها، خسرت. لقد قرأت لابنتك كتاباً محرماً!» وفجأة خيّل إليّ... أغلب الظن أنك قد لاحظت أن العينين en face [1] تبدوان دائماً مصوّبتين إلى الرائي... ولكنني في هذه المرة خيل إليّ عن صدق أن العجوز كانت توجههما إليّ بتقريع.

استدرت، وتقدّمت من النافذة، ورأيت فيرا نيقولايفنا في الحديقة وعلى كتفيها مظلة، ورأسها ملتف بمنديل أبيض خفيف. خرجت من البيت فوراً، وأقرأتها تحية الصباح. قالت لي:

– لم أنم طوال الليل. عندي صداع فخرجتُ إلى الهواء الطلق. لعله يزول.

سألتها:

– هل معقول أن ذلك من قراءة البارحة؟

– بالطبع. لم أتعود ذلك. في كتابك هذا أشياء لا أستطيع أن أتخلص منها. ويخيل إليّ أنها تلذع رأسي.

أضافت، وقد وضعت يدها على جبينها.

قلت:

– جميل، ولكن السيئ في الأمر، وهذا ما أخشاه، أن يعمل هذا الأرق والصداع على تبديد رغبته في قراءة مثل هذه الأشياء.

– هل تظن ذلك؟ – ردّت بذلك، وقطعت أثناء سيرها غصناً من الياسمين البري. – الله يعلم! يبدو لي أن مَن يسير في هذا الطريق لا ينكص عنه.

وفجأة ألقت الغصن جانباً. ومضت تقول:

– تعال نجلس في ظليلة الحديقة. وأرجوك قبل أن أبدأ الحديث معك لا تذكرني... بذلك الكتاب (كأنما خافت أن تنطق باسم «فاوست»).

١– مواجهة (بالفرنسية في الأصل).

- دخلنا الظليلة، وجلسنا. ابتدرتها قائلاً:

- لن أتكلم لك عن «فاوست». ولكن اسمحي لي بأن أهنئك، وأقول لك إنني أغبطك.

- أنت تغبطني؟

- نعم، فأنت بروحك، كما أعرف الآن، ستحظين بمتع ما أكثرها! هناك شعراء عظام إلى جانب غوته: شكسبير، شيللر... وكذلك شاعرنا بوشكين... يجب أن تتعرفي عليه أيضاً.

صمتت، وراحت تخط على الرمل بطرف مظلتها.

آه، يا صديقي سيميون نيقولايتش! ليتك رأيت كم كانت عذبة في تلك اللحظة. شاحبة إلى حدِّ الشفافية، ومنحنية قليلاً، ومتعبة، ومضطربة داخلياً، ومع ذلك فهي صافية كالسماء! تكلمت، وتكلمت طويلاً، ثم سكت، وبقيت ساكناً أحدق فيها...

لم ترفع عينيها، وظلت تخط في الرمل بمظلتها، ثم تمسح ما خطته. وفجأة ترددت خطوات طفل سريعة، ودخلت ناتاشا الظليلة راكضة. رفعت فيرا نيقولايفنا جذعها، ونهضت وعانقت ابنتها، ويا لدهشتي، بحنان عصبي... لم يكن هذا من عادتها. وبعد ذلك جاء بريمكوف. أما شيميل، الأشيب والفتيّ الأنيق رغم ذلك، فقد رحل قبل أن يطر النور، حتى لا يفوّت الدرس. ذهبنا لنشرب الشاي.

على أية حال تعبتُ، وآن الأوان لختام هذه الرسالة. لا بد أنك ستعتبرها خرقاء مبلبلة. وأنا نفسي أحس بالبلبلة. خرجت عن أطواري. لا أدري ماذا بي. ومن حين لآخر تتراءى لي الحجرة الصغيرة بجدرانها العارية، والمصباح والباب المفتوح والرائحة وطراوة الليل، وهناك قرب الباب وجه فتي منتبه، وثياب بيض خفيفة... أنا أفهم الآن، لماذا أردتُ زواجها، فأنا على ما يبدو، لم أكن قبيل سفري إلى برلين أبله كما كنت أظن حتى هذه اللحظة. أجل، سيميون نيقولايتش، إن صديقك في حالة نفسية غريبة. وأنا أعرف أن كل ذلك سيزول... وإذا لا يزول، فماذا في ذلك؟ دعه لا يزول. ولكنني، مع ذلك، راض عن نفسي. أولاً لأنني قضيت أمسية مدهشة، وثانياً إذا كنت قد

أيقظت تلك النفس، فمن يستطيع أن يتهمني؟ العجوز يلتسوفا مسمّرة على الحائط، وستصمت حتماً. العجوز!... ليست كل تفاصيل حياتها معروفة لي، ولكنني أعرف أنها هربت من بيت أبيها. ولا عجب في ذلك على ما يبدو، فإن والدتها إيطالية، إنها رغبت أن تؤمن على ابنتها... سنرى.

ها أنا أضع القلم، وأنت أيها الساحر، لك أن تظن بي ما شئت أن تظن، فتفضّل، ولكن لا تتهكم بي في رسالتك. أنا وأنت صديقان قديمان، ويجب أن يرأف أحدنا بالآخر. وإلى الملتقى!

صديقك ب.ب.

الرسالة الخامسة

من المرسل نفسه وإلى المرسل إليه نفسه

قرية «م» ٢٦ تموز ١٨٥٠

منذ زمن لم أكتب إليك، يا عزيزي سيميون نيقولايتش، أكثر من شهر، على ما يبدو لي. وقد كان لديّ ما أكتب لك عنه، ولكن الكسل أعاقني. وأقول لك الحق إنك لم تخطر في بالي طوال ذاك الوقت. ولكنني أستطيع أن أستخلص من رسالتك الأخيرة أنك تظن بي ظنوناً غير منصفة، أي غير منصفة تماماً. تظن أنني فُتنت بفيرا (تسميتها باسمها الكامل فيرا نيقولايفنا لا تطيب لي كثيراً).

أنت مخطئ. أنا كثيراً ما أراها بالطبع، وهي تروق لي إلى أبعد الحدود... ولكن مَن لا تروق له؟ وددت لو أراك وأنت في مكاني. مخلوقة مذهلة! نفاذ ذهن خاطف، إلى جانبه بساطة طفل لا تجربة له، وعقل نير سليم، وإحساس فطري بالجمال، وطموح دائم إلى الحقيقة، إلى السمو وفهم كل شيء، حتى الطالح، حتى المضحك، وفتنة أنثوية هادئة تحلق فوق ذلك كجناحي ملك أبيضين... حقاً، وماذا أقول بعد! قرأنا كثيراً وتحدثنا كثيراً خلال هذا الشهر. والمطالعة معها متعة لم أذق مثلها قط، كأنها اكتشاف أقطار جديدة. لا يجعلها تستغرق في نشوة الجذل أي شيء، وكل ما هو صاخب غريب عليها، وحين يعجبها شيء تتألق بكليتها تألقاً ناعماً، ويكتسي وجهها

تعبيراً نبيلاً طيباً... بالضبط، تعبيراً طيباً. وفيراً منذ طفولتها لم تعرف ما هو الكذب، فقد تعودت الصدق، وهي تستنشقه، ولهذا فالصدق وحده في الشعر يبدو لها طبيعياً. فتعرفه على الفور وبدون جهد أو عناء، مثلما تعرف وجهاً مألوفاً لها... وتلك ميزة عظيمة وسعادة! ولا يجوز نكران فضل أمها في ذلك. وكم من مرة فكرت، وأنا أنظر إلى فيرا في صواب غوته حين قال: «الإنسان الطيب في سعيه الملتبس يحس دائماً أين طريق الصواب»[1].

شيء واحد مزعج، وهو أن زوجها يحوم أينما نكون. (أرجوك، لا ترسل ضحكة حمقاء، ولا تلوّث صداقتنا الصافية، بل ولا تدع ذلك يخطر على بالك) إنه مقتدر في فهم الشعر، مثل اقتداري في النفخ في الفليوت، ولكنه لا يريد أن يتأخر عن زوجته، ويرغب أيضاً في تنوير نفسه. وأحياناً تفقدني، هي الأخرى، صبري. يتغير مزاجها فجأة، فلا تريد أن تقرأ، أم تتحدث. فتنكب على التطريز، وتنشغل مع ناتاشا، مع مديرة البيت أو تركض إلى المطبخ، أو تقعد فقط، طاوية الذراعين، وتتطلع من النافذة، أو تلعب الورق مع المربية... وفي مثل هذه الأحوال، كما لاحظت، لا تجوز مضايقتها، ومن الأفضل الانتظار إلى أن تقترب منك نفسها، وتبدأ الحديث أو تأخذ كتاباً.

إن لها الكثير من استقلال الشخصية، وأنا مسرور بذلك. أحياناً، في صبانا، ربما تتذكر، كانت هذه الفتاة أو تلك تقلدك، وتجيد تكرار كلماتك، فيأخذك الإعجاب بهذا الصدى منك، ولربما يفتنك فتوناً كبيراً، حتى تدرك ما هو في حقيقته.

أما هذه... فلا، هذه قائمة بذاتها. لا تؤمن بشيء إيماناً عفوياً، ولا تستطيع أن تخيفها بمنزلة أحد، وهي لا تجادل ولكنها لا تستسلم. تناقشنا في «فاوست» غير مرة، ولكن العجيب في الأمر أن غريتخين لا ترد على لسانها

١- هذه ترجمة تورغينيف لبيتين من «مقدمة في السماوات» الجزء الأول من «فاوست»، («Ein gutter Mensch in seinem dunklen Drange ist sich der rechtes Weges wohl bewusst»)

أبداً، بل تصغي فقط إلى ما أقول لها. ومفيستوفيل لا يفزعها كشيطان، بل بـ «ما قد يكون في داخل كل إنسان»... وهذه كلماتها بالذات.

أخذت أقول لها إن «ما قد» هذه نسميها استبطاناً، ولكنها لم تفهم كلمة استبطان بمعناها في الألمانية، فهي لا تعرف إلا الكلمة الفرنسية «reflexion»[1]، وتعودت اعتباره مفيداً.

إن علاقاتنا مدهشة! وأستطيع أن أقول من بعض النواحي إن تأثيري فيها كبير، وإنني كمن يثقفها، ولكنها هي نفسها لا تلحظ ذلك، تدفعني، في أشياء كثيرة، نحو الأفضل. فبفضلها مثلاً، اكتشفت مؤخراً فقط أية كمية هائلة من الشائع والمنمق في الكثير من الأعمال الشعرية الشهيرة الرائعة. وأي شيء تظل باردة إزاءه يصير مشكوكاً به في نظري. نعم، صرت أفضل، وأصفى. فمن المستحيل أن تظل كما كنت وأنت بالقرب منها، تتلاقى معها.

قد تسأل: وماذا ينجم عن هذا كلّه؟ لا شيء، حقاً على ما أظنّ. سأقضي وقتاً ممتعاً جداً حتى أيلول، وبعد ذلك أغادر. ستبدو لي الحياة في الشهور الأولى قاتمة موحشة... سأتعود. أنا أعرف مقدار الخطر في اتصال رجل بامرأة شابة، مهما يكن هذا الاتصال، وأعرف أن شعوراً قد يحلّ محله شعور آخر... دون أن يلحظ. وكنت سأقدر أن أفلت، لو لم أكن أعي بأن كلينا مطمئن تماماً. حقاً لقد حدث بيننا شيء غريب ذات مرة. لا أعرف كيف وعقِب أي شيء، ولكن أذكر أننا كنا نقرأ «أونيغين»[2] فقبّلت يدها. تنحّت قليلاً. وتفرّست فيّ بنظرتها (لم أر هذه النظرة عند أحد غيرها. فيها استغراق وإمعان وصرامة)... واحمرّت فجأة، ونهضت وانصرفت.

في ذلك اليوم لم أستطع أن أنفرد بها. تحاشتني، وانصرفت تلعب الورق مع زوجها والمربية أربع ساعات كاملة! وفي الصباح التالي عرضت عليّ التمشي في الحديقة. قطعناها كلها حتى البحيرة.

وفجأة همست بخفوت، دون أن تستدير نحوي: «أرجوك، لا تفعل

١- تعني بالفرنسية: تأملية. (المعرب).

٢- المقصود هنا «يفغيني أونيغين» (١٨٢٣ - ١٨٣١)، وهي رواية شعرية للشاعر الروسي العظيم ألكسندر بوشكين (١٧٩٩ - ١٨٣٧).

ذلك في المستقبل!»، وفي الحال بدأت تحدثني عن شيء ما... فخجلت من نفسي كثيراً.

عليّ أن أعترف بأن صورتها لا تبارح ذهني، وقد أخذت أكتب لك هذه الرسالة يحدوني القصد نفسه تقريباً، وهو أن تتاح لي الفرصة لأفكر وأتحدث عنها. أسمع الآن صهيل حصان ووقع حوافره. هذه عربتي قدموها لي. أنا ذاهب إليهم. سائق عربتي ما عاد يسألني الآن، عندما أركب العربة، إلى أين سأذهب؟ بل يأخذني إلى بيت بريمكوف رأساً. ومن بعد فرسخين عن قريتهم، عند منعطف الطريق الشديد الانحدار، تطلع ضيعتهم فجأة من وراء حرش البتولا... ويغمر الفرح قلبي كلّما لاحت نوافذها من بعيد. فلا غرابة في أن شيميل (هذا العجوز غير المؤذي لا يزورهم إلاّ من حين لآخر، وآل الأمير «خ» لم يظهروا إلا مرّة واحدة والحمد لله)... لا غرابة في أن شيميل يقول بالمهابة المتواضعة المجبول عليها وهو يشير إلى بيت فيرا: «هنا مأوى السلام!» في هذا البيت حلّ ملك السلام حقاً...

غطيني بجناحك
وسرّي عن قلبي المضطرب
أجد فيه ظلاً مباركاً
لروحي المفتونة[1]...

طيب هذا يكفي، على أية حال. وإلا فالله يعلم إلى أين ستسرح بك الظنون. فإلى المرة القادمة... وأي شيء سأكتب في المرة القادمة؟ وداعاً! بالمناسبة، إنها لا تقول وداعاً أبداً، بل تقرنها دائماً بـ«طيب، وداعاً». فيعجبني هذا منها جداً.

صديقك ب.ب.

P.S.[2]: أنا لا أتذكر، هل ذكرت لك أنها تعرف أنني طلبت يدها ذات مرّة.

١- هذا المقطع الثالث من قصيدة «النهار يمسي، والليل قريب» (١٥٨١)، للشاعر الروسي فيدور تيوتشيف (١٨٠٣ - ١٨٧٣).

٢- P.S - post scriptum: (باللاتينية) يعني: بعد مكتوب. (المعرب).

الرسالة السادسة

من المرسل نفسه وإلى المرسل إليه نفسه

قرية «م» ١٠ آب ١٨٥٠

أعترفْ بأنك تتوقع مني رسالة يأس أو رسالة ابتهاج... لا هذه ولا تلك. رسالتي لا تختلف عن سائر الرسائل الأخرى. لم يحدث شيء جديد، ولا يمكن أن يحدث، على ما يبدو. قبل أيام قمنا بنزهة في القارب على البحيرة. وها أنا أصف لك هذه النزهة. كنا ثلاثة: هي، وشيميل، وأنا. لا أفهم سر رغبتها في دعوة هذا العجوز كثيراً. عائلة «خ» تتبرم به، وتقول إنه يهمل دروسه. وعلى العموم كان مسلّياً هذه المرة. لم يذهب بريمكوف معنا، فقد كان يشكو صداعاً.

كان الجوّ رائعاً بهيجاً، السحب البيضاء الكبيرة الممزّقة على ما تبدو، في السماء الزرقاء، والألق في كل ما حولنا وحفيف الأشجار، وطرطشة الماء وزمزمته على الشاطىء، والانعكاسات الضوئية الرجراجة تسري على الأمواج، والطراوة والشمس!

في البداية جذفت مع الألماني، وبعد ذلك رفعنا الشراع، وانطلق بنا القارب. فكانت مقدمته المدببة تغوص وتطلع، ووراء مؤخرته ينشق الماء ويزيد. جلست هي إلى الدفة، وأخذت توجه القارب، وقد ربطت رأسها بمنديل، فالقبعة كانت ستجرفها الريح، وأفلتت الخصلات الجعداء من تحت المنديل، ورفرفت في الهواء بنعومة.

كانت تمسك الدفة في قوة بيدها الملوّحة، وتبتسم للرشاش الذي كان يتطاير إلى وجهها من حين لآخر. وانزويتُ أنا في قاع القارب غير بعيد عن قدميها. أخرج الألماني غليونه، وأشعل تبغه القوي، وراح – تصوّر – يغني بصوته الباص اللطيف. في البداية غنى أغنية قديمة «Freu't euch des Lebens»[1]، ثم أغنية من الأوبرا «الفليوت السحري»[2]، ثم أغنية عاطفية

١- تهلّل للحياة (بالألمانية في الأصل). (الناشر).

٢- «الفليوت السحري»، أوبرا لمؤلف الموسيقى النمساوي العظيم فولفغانغ آمادي موتسارت (١٧٥٦ – ١٧٩١).

«أبجدية الحب» – «Das A.B.C. der Liebe»، تردّد فيه كل حروف الأبجدية ابتداء من أ.ب.تس.د. (فن ايخ ديخ زه)[1] وانتهاء بـ او، فو، ايكس (ماخ اينن كنيكس)[2]، وكلّها بتلاعبات مزاحية.

وغنّى جميع الأبيات بشعور دافق، ولكن ليتك رأيته كيف غمز بعينه اليسرى بمكر حين نطق بكلمة «كنيكس»[3]. ضحكت فيرا، وتوعّدته بأصبعها. ولاحظت على قدر ما تراءى لي، أن السيد شيميل في زمانه، كان صاحب غزوات. «أوه، نعم، كنت أستطيع أن أدافع عن نفسي» – قال بعظمة، وضرب الغليون بكفّه ليخرج الرماد منه، وأدخل أصابعه في كيس التبغ، ووضع الغليون بجانب فمه، وعضّ عليه بنزق، وأضاف قائلاً: «عندما كنت طالباً... أوهو – هوه!» و لم يضف على ذلك شيئاً. ولكن أي معنى «أوهو – هوه» هذه! رجته فيرا أن يغني أغنية طلابية، فغنّى «Knaster، den gelben»[4]، ولكنه غنّى النغمة الأخيرة خاطئاً. استخفه الطرب كثيراً. وخلال ذلك اشتدت الريح، وتماوجت البحيرة كثيراً، ومال القارب قليلاً، وراحت الخطاطيف تنقض حولنا. غيّرنا وضع الشراع. أخذنا نناور ضد حركة الريح، وإذا بالريح تغير اتجاهها فجأة، و لم نلحق أن نواجهها، فانزلقت موجة عبر الحاجز، وصعدت كمية كبيرة من الماء إلى القارب.

وهنا أظهر الألماني شطارته، انتزع مني الحبل وأدار الشراع إلى الجهة المطلوبة، متمتماً خلال ذلك: «هكذا يفعلون في كوكسهافين!» – «So macht man's in Cuxhafen!».

ارتعبت فيرا على ما يبدو، لأن وجهها امتقع، ودون أن تنبس ببنت شفة، على عادتها، لملمت فستانها، ووضعت قدميها على عارضة القارب. وفجأة قفزت إلى ذهني أبيات غوته (منذ بعض الأوقات كنت مفتوناً به)... أنت

١– عندما أراك (بالألمانية لفظاً). (الناشر).

٢– اثن ركبتيك بالتحية (بالألمانية لفظاً). (الناشر).

٣– كلمة Knix تعني بالألمانية: التحية التي تؤدى بثني الركبتين. (المعرب).

٤– من أصوات النساء الغنائية. (المعرب).

تذكرها: «على الأمواج تلتمع آلاف النجوم الرجراجة»[1]، فقرأت الأبيات بصوت عالٍ، وعندما وصلت إلى البيت: «عينيَّ، لماذا تخفضان؟» رفعت عينيها قليلاً (كنت أوطأ منها مكاناً، فكانت تنظر إليّ من فوق) وراحت تحدق في البعيد طويلاً، مقلصة عينيها من خفق الريح... سقط مطر خفيف لحظة خاطفة، وتناثرت فقاعات الماء. عرضت عليها معطفي، فألقته على كتفيها.

رسونا على الشاطىء، ليس على الرصيف، فسرنا ماشين إلى البيت. كنت أقودها من يدها. راودتني رغبة في أن أقول لها شيئاً، ولكن... آثرت الصمت. غير أنني أذكر أنني سألتها، لماذا حين تكون في البيت تجلس دائماً تحت صورة السيدة يلتسوفا، كالطائر الصغير تحت جنح أمه؟ قالت: «تشبيهك صحيح جداً، ما كنت سأرغب قط في الخروج من تحت جنحها». فعدت أسألها: «ما كنت سترغبين في الخروج إلى الحرية؟» لم تجب بشيء.

لا أعرف لماذا رويت لك هذه النزهة، - ربما لسبب واحد، هو أنها بقيت في ذاكرتي كأبهج حادث في الأيام الماضية، ولكن أي حادث هو في جوهره؟ كنت من البهجة والحبور الصامت ما جعل عينيّ تترقرقان بدموع الانشراح والسعادة.

نعم! فتصوّر. في اليوم التالي، أثناء مروري بالظليلة الصيفية سمعت صوتاً نسائياً عذباً رناناً يغني فجأة «Freu't euch des Lebens...»[2] تطلّعت إلى الظليلة، فإذا هي فيرا. هتفت: «أحسنتِ! لم أكن أعرف أن لك مثل هذا الصوت الرخيم!» لاح الخجل عليها، وصمتت. حقاً إن لها سوبرانور قوياً. وأظن أنها لم تكن تخمّن في أن لها صوتاً جميلاً. وكم لها من الفضائل الكامنة الأخرى! إنها نفسها لا تعرف ذلك. ولكن أليس صحيحاً أن مثل هذه المرأة ندرة في زماننا؟

١٢ آب

١- هذه الأبيات الثلاثة لقصيدة غوته «Auf der See»، في ترجمة تورغينيف، الأول من المقطع الثاني، والآخران من المقطع الثالث.

٢- من أصوات النساء الغنائية. (المعرب).

يوم أمس جرى بيننا حديث غريب. جرى في البداية عن الأشباح. تصوّر أنها تؤمن بها، وتقول بأن لها في هذا الإيمان أسبابها الخاصة. كان بريمكوف جالساً معنا، فأطرق ببصره وراح يهزّ رأسه، وكأنه يؤكد كلماتها. أخذتُ أستفسر منها، ولكن سرعان ما لاحظت أن هذا الحديث لا يطيب لها. فصرنا نتحدث عن المخيّلة، وعن قوة المخيّلة. قلت: في شبابي كثيراً ما حلمت بالسعادة (وذلك في العادة شغل الذين لم يوفقوا في الحياة أو لا يحالفهم الحظ) ومن بين ما كنت أحلم به أن أسعد بقضاء بعض الأسابيع في البندقية مع امرأة أهواها.

وكنت غالباً ما أفكر في ذلك، لا سيّما في الليالي، حتى تكوّنت في ذهني مع الزمن، صورة كاملة كان يمكنني أن أستحضرها أمامي، ساعة أريد، حالما أغمض عيني. وهذا ما كنت أتخيله: ليل، وقمر، وضوؤه الأبيض، ورائحة رقيقة... أتظنها رائحة الليمون؟ لا، بل الونيلة والصبّار، ومنبسط مائي عريض، وجزيرة مسطحة نمت فيها أشجار الزيتون، وعلى شاطئها بيت مرمري صغير ذو نوافذ مفتوحة، وتترامى موسيقى، والله يعلم من أين؟ وفي البيت أشجار ذات أوراق داكنة، وضوء مصباح مغطى إلى نصفه، ومن إحدى النوافذ انطرحت عباءة ثقيلة من القطيفة لها حاشية مذهبة، وتهدل أحد أطرافها في الماء، وجنباً إلى جنب يجلس الرجل والمرأة مرتفقين على العباءة، فينظران إلى الأمام، حيث تلوح البندقية.

وكل ذلك كان يتراءى لي بوضوح شديد، وكأنني رأيته بعيني. أصغت فيرا إلى أحلام يقظتي، وقالت إنها هي أيضاً كثيراً ما تحلم، ولكن أحلامها من نوع آخر. فهي إما تتخيّل نفسها في براري أفريقيا مع رحالة، أو تبحث عن آثار فرانكلين في المحيط المتجمّد[1]، وتتصوّر على نحو حي، كل الحرمانات التي لا بدّ أن تتعرّض لها، وكل المصاعب التي تضطر إلى مصارعتها...

قال زوجها:

- أنت قرأت الكثير من الرحلات.

١- المقصود هنا جون فرانكلين (Franklin) (١٧٨٦ - ١٨٤٧)، وهو منقّب وسائح إنكليزي شهير، هلك أثناء بعثة إلى الشمال.

قالت:

- ربما، ولكن إذا كان على المرء أن يحلم، فلماذا يحلم بالمستحيل؟

بادرتها قائلاً:

- ولم لا؟ وما ذنب المستحيل المسكين هنا؟

قالت:

- لم أحسن التعبير تماماً. كنت أريد أن أقول لماذا يحلم المرء بنفسه، بسعادته؟ لا حاجة للتفكير عن السعادة، فالسعادة لن تأتي على أية حال. فلماذا يعذب نفسه بملاحقتها؟ إنها كالعافية، إذا كنت لا تلحظها، فهي إذن موجودة.

أدهشني هذا الكلام. إن لهذه المرأة نفساً عظيمة، صدقني... وانتقلنا من حديث حول البندقية، إلى إيطاليا والايطاليين. خرج بريمكوف وبقيت وفيرا وحدنا. قلت:

- في عروقك يجري دم إيطالي.

قالت:

- نعم. هل تريد أن أريك صورة جدتي؟

- اعملي معروفاً.

ذهبتْ إلى غرفة مكتبها، وجلبتْ منها ميدالية ذهبية كبيرة. فتحت الميدالية، فرأيت فيها صورتَيْ أبي يلتسوفا وزوجته، تلك الفلاحة الإيطالية من البانو مرسومتين بشكل ممتاز. أدهشني شبه جد فيرا بابنته. سوى أن ملامحه المغشّاة بالبودرة البيضاء كانت تبدو أكثر صرامة وبروزاً وحدّة، وفي عينيه الصغيرتين يطلّ عناد جهم. ولكن أيَّ وجه كان للإيطالية! شهواني، مكشوف، مثل وردة متفتّحة، ذو عينين واسعتين نديتين في جحوظ وشفتين مبتسمتين في رضا عن النفس! وبدا وكأن فتحتي الأنف الرقيقتان المرهفتان ترتجفان وتتّسعان، وكأنما غبّ قبلات تبودلت لتوها.

وكان الخدان الأسمرين يشعان لظى وعافية، وتَرَف شباب، قوة أنوثة... وذلك الجبين لم يقطبه تفكير، والحمد لله على ذلك! كانت الفلاحة مرسومة

بلباس البانو. والرسام (الحاذق!) غرز غصن عنب في شعرها الفاحم، كالقطران، مع لمع رمادية ساطعة، وهذه التحلية الباخوسية تنجسم مع تعبير وجهها تمام الانسجام. وهل تدري بم ذكرني ذلك الوجه؟ بصورة مانون ليسكو في إطارها الأسود عندي. وأكثر ما أذهلني هو أنني تذكّرت وأنا أنظر إلى هذه الصورة، أن لفيرا في بعض الأحيان ما يشبه تلك الابتسامة، وتلك النظرة، رغم الاختلاف الكلي في الملامح...

أجل، ها أنا أكرر ثانية: ما من أحد في الدنيا، ولا حتى هي نفسها، تعرف ما يكمن فيها من أشياء أخرى...

بالمناسبة! قصت يلتسوفا على ابنتها قبل زواجها كل تاريخ حياتها، ووفاة أمها، وغير ذلك، ولغرض تهذيبي، في أغلب الظن. وقد أثّر في فيرا، بشكل خاص، ما سمعته عن جدها، عن لادانوف الغامض. فهي هي، لهذا السبب، تؤمن بالأشباح؟ غريب! أنها، وهي النقية المشرقة تخاف كل ما هو موحش غامض، وتصدق به...

ولكن، كفى. لِمَ أكتب كل هذا؟ على أية حال ما دمت قد كتبته، فليرسل إليك.

صديقك ب.ب.

الرسالة السابعة

من المرسل نفسه وإلى المرسل إليه نفسه

قرية «م» ٢٢ آب

أكتب لك بعد عشرة أيام من رسالتي الأخيرة... آه، يا صديقي، لا أستطيع أن أكتم أكثر... يا لشقائي! كم أحبها! يمكنك أن تتصوّر بأي تشنج مرير أكتب لك هذه الكلمة القاتلة.

لست صبياً، بل ولا فتى في مقتبل الشباب، وقد تخطيت العمر الذي يستحيل فيه تقريباً خداع المقابل، وخداع النفس أيسر من أي شيء. أعرف وأرى كل شيء بوضوح. أنا أعرف أنني دنوت من الأربعين، وأنها زوجة رجل آخر، وأنها تحب زوجها، وأعرف حق المعرفة أن العاطفة البائسة التي

تملكتني لا يُنتظر منها غير العذابات الداخلية، وغير تبديد تام لقوى العمر. أنا أعرف كل ذلك، ولا أتأمل شيئاً، ولا أبغي شيئاً، ولكن ذلك لا يخفف عني مصابي.

منذ شهر أخذت ألحظ أن انجذابي إليها صار يشتد ويشتد. وقد أربكني هذا من جانب، وسرّني من جانب آخر... ولكن هل كان في مقدوري توقع أنني سأعود من جديد، فأكرر كل ما لا عودة له كما الشباب؟ ولكن ما هذا الذي أقوله؟ أنا لم أحب قط مثل هذا الحب، لا قطعاً! مانون ليسكو وفريتليون[1] كانتا كل ما أعبد من أصنام. وتحطيم مثل هذه الأصنام سهل. أما الآن... الآن فقد أدركت ما يعني حب امرأة. وأنا خجلان حتى التنويه بذلك. ولكن هذا هو الواقع. أنا خجلان...

الحب، على أية حال، أنانية، ولا يُغتفر لمن في مثل عمري أن يكون أنانياً، لا يجوز أن تعيش لنفسك وأنت في السابعة والثلاثين. يجب أن تعيش حياة نافعة، حياة لها هدف على الأرض، وأن تؤدي واجبك، عملك. وهكذا بدأت أعمل... ولكن كل شيء تبدّد من جديد، وكأنما بفعل زوبعة! الآن أنا أفهم ما كتبته لك في رسالتي الأولى. وأنا أفهم ما كان يعوزني من امتحان. وإذا بهذه الضربة المفاجئة تنقض على رأسي! فأقف، وأنظر أمامي ببلاهة فأرى ستاراً أسود ينسدل أمام عيني، وفي روحي وقر ورعب!

أنا أستطيع أن أضبط نفسي ولا ألزم مظهراً هادئاً أمام الآخرين فقط، بل وحين أخلو إلى نفسي. هل من المعقول أن أضطرب كما يضطرب صبي! ولكن الدودة تسلّلت إلى قلبي، وهي تمتصه ليل نهار. بمَ سينتهي كل هذا؟ حتى هذا الحين كنت أستوحش في غيابها وأضطرب، وإذا حضرت هدأت على الفور... أما الآن، وهذا يفزعني، فأضطرب في حضورها. آه، يا صديقي، يشقيني أن أخجل من دموعي، وأن أخفيها!... الشباب وحده يباح له أن يبكي، والدموع تليق به وحده...

لا أستطيع أن أعيد قراءة هذه الرسالة. فقد أفلتت مني كالأنّة دون أن

١- فريتليون - كنية الفنانة والراقصة والمغنية الفرنسية الشهيرة كليرون (١٧٢٣ - ١٨٠٣)، كانت تحظى بنجاح كبير لدى الجمهور.

أدري. ولا أستطيع أن أضيف شيئاً، أو أقص شيئاً... أمهلني، وسأعود إلى نفسي، وأسيطر على مشاعري، وسأتحدث إليك كرجل، أما الآن فأود لو أسند رأسي إلى صدرك و...

أوه، يا مفيستوفيل! حتى أنت لا تساعدني. توقفت عن قصد، وعن قصد هززت عصب السّخرية في داخلي، ورحت أذكر نفسي بأن هذه التوجعات وفيض المشاعر كم تبدو لي مضحكة ومفرطة الحلاوة بعد عام، بعد نصف عام... أجل، إن مفيستوفيل عاجز، وسنّه كليلة... وداعاً.

صديقك ب.ب.

الرسالة الثامنة

من المرسل نفسه وإلى المرسل إليه نفسه

قرية «م» ٨ أيلول ١٨٥٠

صديقي الفاضل سيميون نيقولايتش!

أراك قد تأثّرت من رسالتي الأخيرة أكثر من اللاّزم. أنت تعرف ميلي الدائم إلى تضخيم مشاعري. وهذا يجري خارج إرادتي. طبيعة نسائية! وسيزول هذا بالطبع مع مرور السنين، ولكنني أعترف في حسرة بأنني حتى الآن لم أسر نحو الأحسن. ولهذا يمكنك أن تطمئن. لا أريد أن أنكر الأثر الذي تركته فيرا في نفسي، ولكنني أقول لك، على أية حال، لا يوجد في كل هذا شيء غير اعتيادي. مجيئك إلى هنا، كما تكتب لي، لا ضرورة له. فمن العبث أن تقطع ألف فرسخ للاشيء، بل سيكون ذلك طيشاً! ولكنني كثير الشكر لك على هذا الدليل الجديد لصداقتك، ولن أنساه، صدقني. ثم إن سفرك إلى هنا في غير أوانه، إذ أنا نفسي أنوي السفر إلى بطرسبورغ عن قريب. وسأقص عليك الكثير، وأنا جالس على أريكتك، أما الآن، فلا أرغب في ذلك. إذ لا خير في أن أعود وأثرثر من جديد، وأوشوشك. سأكتب لك مرة أخرى، قبيل سفري. فإلى لقاء قريب إذن. اعتن بصحتك، وامرح، ولا تتفجع كثيراً عن مصير صديقك الوفي لك: ب.ب.

الرسالة التاسعة

من المرسل نفسه وإلى المرسل إليه نفسه

قرية «م» ١٠ آذار ١٨٥٣

تلقيت رسالتك منذ زمان، و لم أردّ عليها. طوال تلك الأيام كنت أفكّر فيها. أحسست أنها مشبّعة بالعطف الودّي الصادق لا بالفضول الباطل. ومع ذلك فقد تردّدت سائلاً نفسي: هل عليّ أن آخذ بنصيحتك وأنفّذ رغبتك؟ وأخيراً، استقرّ رأيي، وسأقصّ عليك كل شيء. لا أدري هل سيخفّف عني اعترافي، كما تظن أنت، ولكن يخيل إليّ أنني لا أملك الحق في أن أخفي عنك ما غيّر حياتي إلى الأبد. بل ويبدو لي أنني كنت سأبقى مذنباً... أواه! وأكثر ذنباً إزاء ذلك الطيف الحبيب الذي لا يُنسى، إذا لم أبح بسرنا المؤسي إلى القلب الوحيد الذي ما أزال أعتزّ به. ربما أنت وحدك في الدنيا تتذكر فيرا، وتحكم عليها دون اهتمام وبصورة خاطئة، وهذا ما لا أستطيع أن أحتمله: فأعرف كلّ شيء، إذن. أواه، إن كل ذلك يمكن أن يعبّر عنه بكلمتين. كل ما كان بيننا، مرّ خطفاً كالبرق، وكالبرق جلب الموت والدمار...

مرّ أكثر من عامين منذ أن فارقت الحياة، منذ أن سكنتُ هذه البقعة النائية التي لن أغادرها، حتى نهاية عمري، ومع ذلك فإن كل شيء ما يزال واضحاً في ذاكرتي، كل جراحي ما تزال حية، كل مصابي ما يزال على مرارته... لا أريد أن أشكو. فالشكوى، إذ تؤجج النفس، تطفىء الأسى، ولكن ليس أساي. سأقصّ عليك إذن.

هل تذكر رسالتي الأخيرة، الرسالة نفسها التي ظننت أنني سأبدّد مخاوفك بها، و لم أنصحك بمغادرة بطرسبورغ؟ لقد شككت بطلاقتها المفتعلة، و لم تصدق بموعدنا في المستقبل القريب. وكنت محقاً في ذلك. في عشية اليوم الذي كتبت فيه لك أدركت أنها تعشقني.

بعد أن خططت هذه الكلمات أدركت مبلغ الصعوبة التي سأواجهها في الاستمرار برواية قصتي حتى نهايتها. فإن فكرة موتها الملحاحة ستعذبني بقوّة مضاعفة، وستحرقني هذه الذكريات... ولكنني سأحاول السيطرة على نفسي، وإما سأتوقف عن الكتابة، وإما سأتحفظ عن قول كلمة لا ضرورة لها.

كيف عرفت أن فيرا تحبني؟ قبل كل شيء يجب أن أقول لك (وعليك أن تصدقني): إنني حتى ذلك اليوم، لم أخمّن بشيء قطعاً. حقاً كانت في بعض الأحيان تستغرق في تفكير، وهو شيء لم يكن لها من قبل، ولكنني لم أكن أفهم سبب هذا الاستغراق. وأخيراً في أحد الأيام، اليوم السابع من أيلول – وهو يوم مشهود بالنسبة لي – حدث ما يلي. أنت تعرف كم كنت أحبها، وكم قاسيت من ذلك. همت على وجهي كالخيال، لا أستقرّ في مكان. وأردت البقاء في البيت، ولكنني لم أصطبر، وذهبت إليها. وجدتها وحدها في غرفة المكتب. ولم يكن بريمكوف في البيت. خرج إلى الصيد. وعندما دخلت عليها تفرّست فيّ، ولم تجب على تحيّتي. كانت جالسة عند النافذة، وعلى ركبتيها كتاب عرفته على الفور. كان كتابي «فاوست».

كان التعب مرتسماً على وجهها. جلست قبالتها. طلبت أن أقرأ لها جهاراً مشهد فاوست وغريتخين حيث تسأله، هذه هل يؤمن بالله؟ تناولت الكتاب، وأخذت أقرأ. وعندما فرغت تطلّعت إليها. كانت تسند رأسها على ظهر الكرسي، وتصالب ذراعيها على صدرها، وهي ما تزال تتفرّس فيّ.

ولا أعرف لماذا خفق قلبي فجأة.

قالت بصوت بطيء:

– ماذا فعلت بي؟

قلت بارتباك:

– كيف؟

كررت:

– نعم، ماذا فعلت بي؟

شرعت أقول:

– هل تريدين أن تقولي: لماذا أقنعتك بقراءة مثل هذه الكتب؟

نهضت صامتة، وخرجت من الحجرة. نظرت في إثرها.

توقفت على عتبة الباب، والتفتت نحو. وقالت:

– أنا أحبك. هذا ما فعلته بي.

اندفع الدم إلى رأسي...

ردّدت فيرا:

– أنا أحبك، أعشقك.

وخرجت، وأغلقت الباب وراءها. لا أريد أن أصف لك ما حدث لي عندئذ. أتذكّر أنني خرجت إلى الحديقة، وتوغّلت في أعماقها، واتّكأت على شجرة، ولا أدري كم من الوقت ظللت على هذه الحال، وكأنّني قد تجمدت. كان شعور الهناءة يغمر قلبي كالموجة من حين لآخر... لا، لا أريد أن أتحدث عن هذا.

أخرجني صوت بريمكوف من انصعاقي. كانوا قد أرسلوا مَنْ ينبّه بقدومي، فعاد من الصيد، وراح يبحث عني. وقد اندهش أن يراني وحيداً في الحديقة، حاسر الرأس، ورافقني إلى البيت. وقال: «زوجتي في غرفة الجلوس. فلنذهب إليها». ويمكنك أن تتصوّر أية مشاعر خامرتني، وأنا أتخطى عتبة غرفة الجلوس. كانت فيرا جالسة في ركن تطرز. رمقتها بنظرة مختلسة، وبعدها بقيت وقتاً طويلاً لا أرفع عينيّ. ولدهشتي كانت هادئة، لم أسمع نبرة هلع في صوتها حين أخذت تتحدث. وأخيراً، عزمت أن أنظر إليها. التقت نظراتنا... احمرّت هي قليلاً، وانحنت على طرة التطريز. ورحتُ أراقبها. بدت كالحائرة، ومن حين لآخر كانت ابتسامة ساخرة حزينة تمس شفتيها.

خرج بريمكوف. فرفعت رأسها فجأة، وسألتني بصوت عال إلى حدٍّ كاف:

– ماذا تنوي أن تفعل الآن؟

ارتبكت، وأسرعت أجيب بصوت كامد أنني أنوي أداء واجب رجل نزيه، وأغادر. وأضفت قائلاً: «لأنني أحبك، فيرا نيقولايفنا، ولعلّك لاحظت ذلك منذ زمن بعيد». انكبّت على طرة التطريز ثانية، وغرقت في أفكارها، ثم قالت:

– عليّ أن أتحدث معك. تعال إلى بيتنا الصغير مساء اليوم، بعد الشاي... أنت تعرفه، قد قرأت فيه «فاوست».

قالت ذلك بوضوح شديد، حتى إنني لحد الآن، لا أفهم كيف أن بريمكوف الذي دخل الغرفة في تلك اللحظة ذاتها لم يسمع شيئاً. وسار ذلك اليوم ببطء، وببطء معذّب. كانت نظرات فيرا أحياناً تبدو كالمتسائلة: أصاحبتها في حلم أم يقظة؟ وفي نفس الوقت كان الحزم يرتسم على وجهها. أما أنا... أنا لم أستطع أن أفيق على نفسي. فيرا تحبني! كانت هاتان الكلمتان تدوران في ذهني بلا انقطاع، ولكنني لم أكن أفهمهما، مثلما لم أكن أفهم نفسي ولا أفهمها هي. لم أصدق بهذه السعادة المباغتة، بهذه السعادة الصاعقة. ورحت أسترجع الماضي بجهد، وكنت أتطلع أيضاً، وأتحدث وكأنني في حلم...

وبعد الشاي، حين أخذت أفكر في الطريقة التي أنسلّ بها من البيت غير ملحوظ، أعلنت هي فجأة بأنها تودّ أن تتمشى، وعرضتْ عليّ أن أرافقها. نهضتُ، وتناولتُ قبعتي وانسللتُ وراءها. لم أجرؤ على مبادرتها بالحديث، وما كدت ألتقط أنفاسي، منتظراً كلمتها الأولى، منتظراً إيضاحات، ولكنها صمتت. ووصلنا إلى البيت الصيني صامتين، ودخلناه صامتين، وعند ذاك – أنا لحد الآن لا أدري، ولا أستطيع أن أفهم كيف حصل ذلك – عند ذاك وجدنا أنفسنا وأحدنا يعانق الآخر. إن قوّة غير مرئية ألقتني إليها، وألقتها إليّ. في ضوء النهار المتضائل، أضاءت فوراً وجهها ذا الخصائل المرسلة إلى الخلف ابتسامة تجلٍ وهناءة، وانطبقت شفاهنا بقبلة...

كانت القبلة الأولى والأخيرة.

فجأة انتزعت فيرا نفسها من بين يديّ، وارتدّت إلى الخلف والفزع بادٍ في عينيها المتّسعتين...

قالت بصوت راعش:

– انظر إلى الخلف. ألا ترى شيئاً؟

التفت بسرعة.

– لا شيء، وهل رأيت شيئاً حقاً؟

– الآن لا أرى. ولكن رأيت.

كانت تتنفّس أنفاساً عميقة متباعدة.

- مَنْ؟ ما؟

- أمي.

تفوّهت ببطء، وراحت ترتعش بكل كيانها.

وارتعدت أنا أيضاً، وكأن برودة غمرتني. تملّكني الرعب فجأة، وكأنني مجرم. ولكن أحقاً أنني لم أكن مجرماً في تلك اللحظة؟

قلت:

- كفاك! ماذا بك؟ الأفضل أن تقولي لي...

قاطعتني:

- لا، من أجل الرب، لا! - وأمسكت رأسها. - هذا جنون... أنا أجن... لا يجوز المزاح في هذا. هذا موت... وداعاً...

مددت لها ذراعيّ.

- قفي، من أجل الرب، قفي لحظة، - هتفت بنوبة لا إرادية. و لم أعرف ما كنت أقوله. ما كدت أقف على قدمي. - من أجل الرب... هذه قسوة.

رمقتني بنظرة، وقالت:

- غداً، غداً مساء. ليس اليوم، أرجوك... سافر اليوم... وغداً مساءً تعال إلى بوابة الحديقة، عند البحيرة. سأكون هناك، سآتي... أقسم لك أنني سآتي. - أضافت ذلك بهيام، ولمعت عيناها. - لن يوقفني أحد، أقسم لك! سأبوح لك بكل شيء. فقط أن تتركني اليوم.

واختفت قبل أن أستطيع التفوه بكلمة.

وقفت في مكاني مصعوقاً إلى الأعماق. وكان رأسي يدور، وشعور الوحشة يتسلل إليّ من خلال الفرحة الطاغية التي أفعمت كياني كلّه... تلفت فيما حولي. بدت رهيبة لي الحجرة الخاوية الرطبة التي تحتويني بسقفها المعقود الواطىء، وجدرانها الداكنة.

خرجت، وسرت نحو البيت بخطى متثاقلة. كانت فيرا بانتظاري في الشرفة العريضة. دخلت البيت حالما أخذتُ أقتربُ، ولاذتْ إلى مخدعها على الفور.

غادرتُ.

لا أستطيع أن أصوّر كيف قضيت الليل، والنهار التالي إلى المساء. أتذكر فقط أنني استلقيت منكفئاً، مخفياً وجهي بين يديّ، ورحت أسترجع ابتسامتها قبيل القبلة، وأهمس: «ها هي، أخيراً...».

كما تذكّرت كلمات يلتسوفا التي ذكرتها فيرا لي؛ فقد قالت لها ذات مرة: «أنت كالجليد. ما دام لا يذوب، فهو صلب كالحجارة، وحين يذوب، لا يبقى منه أثر».

وشيء آخر خطر في ذاكرتي. ذات مرة تحدثنا، فيرا وأنا، عن معنى القابلية، الموهبة. قالت:

– لا أملك إلا قابلية واحدة، وهي أن أصمت إلى آخر لحظة.

آنذاك لم أفهم شيئاً.

سألت نفسي: «ما معنى ذعرها هذا؟.. معقول أنها رأت يلتسوفا حقاً؟ تخيل!» فكّرت بذلك، واستسلمت إلى أحاسيس الانتظار من جديد.

في ذلك اليوم كتبت لك تلك الرسالة المتحايلة. ويرهبني أن أتذكر أية أفكار ضمنتها.

في المساء، وقبل أن تأفل الشمس، كنت على بعد حوالي خمسين خطوة من بوابة الحديقة، في أجمة الصفصاف العالية الكثيفة على شاطىء البحيرة. جئت من بيتي ماشياً. وأعترف خجلاً أن رعباً، خواراً إلى أقصى حد، يملأ صدري، فكنت أرتعد باستمرار... ولكنني لم أشعر بندم.

اختفيت بين الأغصان، وسمّرت بصري على البوابة. ولم تُفتح. ها هي الشمس قد غربت، وانسلّ المساء، وطلعت النّجوم، وأظلّت السماء. ولم يظهر أحد. اعترتني حمى. هبط الليل، ولم أعد أصطبر أكثر، فخرجت من الأجمة بحذر، وانسللت نحو البوابة.

كان كل شيء هادئاً في الحديقة. ناديت «فيرا» بهمس، وناديت مرة ثانية، وثالثة... ولم يلبني صوت. انقضى نصف ساعة أيضاً، انقضت ساعة. واحلولك الظلام تماماً. وأضناني الانتظار، فسحبت البوابة نحوي وفتحتها

دفعة واحدة، واتّجهت نحو البيت، على أطراف أصابعي، كاللّص. وتوقفت في ظلّ أشجار الزيزفون.

كانت نوافذ البيت مضاءة كلّها تقريباً. وكان الناس يروحون ويجيئون في الحجرات. أدهشني هذا. نظرت إلى ساعتي. كانت بقدر ما أسعفني ضوء النجوم الخافت، تشير إلى الحادية عشرة والنصف. وفجأة صدرت كركبة من وراء البيت، وطلعت عربة من الفناء.

فكرت مع نفسي: «ضيوف، على ما يبدو». وبعد أن فقدت كل أمل في رؤية فيرا، خرجت من الحديقة، وسرت إلى البيت بخطى سريعة. كان الليل حالكاً من ليالي أيلول، ولكنه دافىء ساكن الريح. والشعور الذي انتابني، الشعور بالأسى أكثر من الشعور بالضيق، زايلني شيئاً فشيئاً، فعدت إلى البيت متعباً قليلاً من المشي السريع، ولكنني مطمئن من سكون الليل، وسعيد ومرح تقريباً. دخلت إلى غرفة النوم، وصرفت تيموفي، وارتميت على السرير بملابسي، وغرقت في التفكير.

كانت أحلامي في البداية بهيجة، ولكن سرعان ما لاحظت عليّ تغيراً غريباً. أخذت أحس بوحشة خفية قارصة، وقلق عميق في داخل نفسي. و لم أستطع أن أفهم سبب ذلك، ولكنني أحسست بالرهبة والكمد، وكأن مصاباً وشيكاً كان يتهددني، كأن شخصاً حبيباً إليّ كان يتعذّب في هذه اللحظة، ويدعوني إلى نجدته.

كانت الشمعة فوق المنضدة تحترق بلهب صغير ساكن، وبندول الساعة يدق ثقيلاً موزوناً. أسندت رأسي على يدي، ورحت أحدق في الظلام الخاوي لغرفتي المنعزلة. فكرت في فيرا، فتوجّعت روحي، وبدا لي كل شيء سررت به كثيراً من قبل فاجعة، وفقداً لا محيص منه، كما كان فعلاً. صار شعور الوحشة يتنامى في داخل نفسي ويتنامى، حتى لم أعد قادراً على مواصلة الاستلقاء على السرير، وخيّل إليّ مرة أخرى أن أحداً يدعوني بصوت ضارع... رفعت رأسي، وسَرت رعدة في أوصالي. لم تكن حواسي تخدعني. إن صيحة شاكية انطلقت من بعيد، وارتطمت بزجاج النوافذ المعتم مرسلة هزيزاً خفيفاً فيه. أحسست بالفزع، وقفزت من السرير، وفتحت النافذة.

نفذ الأنين الواضح في الغرفة، وبدا وكأنه يدور فوقي. تجمد كياني كله من الهلع. ورحت أتشرف دفقاته الأخيرة المتلاشية. لاح وكأن أحداً ينحر في البعيد، وهذا البائس يتضرّع طلباً للرأفة. وفي حينها لم أستطع أن أتبين مصدر هذا الصوت، أهي بومة الحرش أم مخلوق آخر، ولكنني رددت على الصوت المشؤوم بصيحة، مثلما مازيبا على صيحة كوتشوبيه[1]. ناديت:

– فيرا، فيرا! أهذه أنت تدعينني؟

ظهر تيوفي أمامي ناعساً مذهولاً.

تمالكت مشاعري، وشربت قدح ماء، وانتقلت إلى حجرة أخرى، ولكن النوم جفاني. كان قلبي يخفق خفقاناً مؤلماً، وإن كان غير متسارع. لم أعد أستطيع الاستسلام لأحلام السعادة، ولم أعد أجرؤ. في اليوم التالي قبيل الغداء، توجّهت إلى بريمكوف. استقبلني بوجه مهموم. وبادرني قائلاً:

– زوجتي مريضة، طريحة الفراش، وقد استقدمت طبيباً.

– ماذا بها؟

– أنا لا أفهم. مساء البارحة خرجت إلى الحديقة، وفجأة عادت منها مذعورة مأخوذة. هرعت الخادمة تستدعيني. فأهرع وأسأل زوجتي ما بها؟ ولا تردّ هي بشيء، وأوت إلى فراشها حالاً، وفي الليل أخذت تهذي. والله يعلم ماذا قالت في هذيانها. ذكرتك. وأبلغتني الخادمة بشيء عجيب،

١- مازيبا إيفان (١٦٤٤ – ١٧٠٩) الحاكم الأعلى لأوكرانيا من أنصار فصل أوكرانيا عن روسيا. وفي أثناء الحرب الشمالية (حرب روسيا ضد السويد) في عام ١٧٠٨ خان القيصر الروسي بطرس الأول، وانضم إلى جانب ملك السويد كارل الثاني عشر. وكوتشوبيه (١٦٤٠ – ١٧٠٨) رجل عسكري وشخصية من شخصيات الدولة في أوكرانيا، نبّه بطرس الأول غير مرة إلى خيانة مازيبا الوشيكة، إلا أن القيصر الذي كان يثق بمازيبا اعتبر هذه المعلومات افتراء، وسلّم كوتشوبيه إلى مازيبا، فأعدمه هذا بعد أن عذّبه تعذيباً قاسياً.

وقد ضمن ألكسندر بوشكين هذه الأحداث التاريخية في قصيدته «بولتافا» (١٨٢٨ – ١٨٢٩). وبطل تورغينيف يشير إلى حادثة من الأغنية الثانية من القصيدة، حين سمع مازيبا، وهو يتمشى في الحديقة، صيحة واهنة، صيحة كوتشوبيه تحت التعذيب.

زاعمة أن فيرا تراءت لها في الحديقة أمها الراحلة، ورأتها تتقدّم نحوها مبسوطة الذراعين.

وتستطيع أن تتصوّر ما شعرت به، وأنا أسمع هذه الكلمات.

تابع بريمكوف قوله:

– هذا هراء، بالطبع، ولكن يجب أن أعترف أن أشياء غريبة من هذا القبيل كانت تحصل لزوجتي.

– ولكن قل لي، هل صحة فيرا نيقولايفنا متردية جداً؟

– نعم، متردية. في الليل كانت حالتها سيئة، وهي الآن في غيبوبة.

– وماذا قال الطبيب؟

– قال الطبيب: مرضها لم يتحدد بعد.

١٢ آذار

لا أستطيع المضي بالطريقة التي بدأتها، أيها الصديق الكريم. فإن ذلك يكلّفني جهوداً جد كبيرة، وينكأ جروحي بألم شديد. المرض قد تحدّد، على حدِّ تعبير الطبيب، وماتت فيرا من ذلك المرض. لم تقوَ على العيش أسبوعين بعد لقائنا الخاطف في ذلك اليوم المنحوس. رأيتها مرة أخرى قبل وفاتها وطلعت منها بذكرى هي أقسى ما لدي من ذكريات. عرفت من الطبيب ألاّ أمل في شفائها. وحين أوى جميع من في البيت إلى أسرتهم، وفي ساعة متأخرة من الليل انسللت إلى باب مخدعها، ونظرت فيه. كانت فيرا راقدة على السرير مغمّضة العينين، نحيفة صغيرة، يتوهّج خداها بوهج الحمّى. نظرت إليها كالمتحجر، وفجأة فتحت فيرا عينيها، وسددتهما نحوي، متفرسة فيّ، مادة ذراعاً ناحلة:

ماذا يبغي في المكان المقدس
هذا... هناك[1]؟...

١– Was will er an dem heligen Ort،
Der da... der dort...
المشهد الأخير من الجزء الأول من «فاوست». (الملاحظة للمؤلف).

نطقت بصوت رهيب جداً جعلني ألوذ بالفرار. كانت طيلة الوقت تقريباً تهذي بـ «فاوست» وأمها التي كانت تسميها مارتا تارة وأم غريتخين تارة أخرى.

ماتت فيرا. وحضرت جنازتها. ومنذ ذلك الحين تخليت عن كل شيء، وسكنت هنا إلى الأبد.

فكِّر الآن فيما حكيته لك، فكر فيها، في ذلك المخلوق الذي مات مبكراً جداً. أنا لا أعرف أبداً كيف حدث هذا، وكيف يُفسّر هذا التدخل غير المفهوم من جانب ميت في شؤون الأحياء، ولكن يجب أن توافق عليّ أن ما جعلني أبتعد عن المجتمع ليس هو نوبة من السوداوية النزقة، على حدّ تعبيرك. لم أستطع أن أظل كما عرفتني. فأنا الآن أؤمن بأشياء كثيرة لم أكن أؤمن بها من قبل.

وطوال هذا الوقت كم فكرت في هذه المرأة (وكدت أن أقول: الفتاة) التعيسة، وفي أصالتها، وفي لعبة القدر الخفية، ذلك القدر الذي نسميه، نحن العميان، بالمصادفة العمياء. ومن يدري كم يترك كل مخلوق يعيش على الأرض، من بذور مكتوب لها ألا تنبت إلا بعد وفاته؟ ومَنْ يقول لنا أية سلسلة خفية تربط مصير الإنسان بمصائر أبنائه، خَلَفه، وكيف تنعكس عليهم مطامحه، وكيف يؤخذ منهم ثمن أخطائه؟ يجب علينا جميعاً أن نتطامن ونحني رؤوسنا أمام المجهول.

أجل. هلكت فيرا. وسلّمت أنا. أتذكر، حين كنت صغيراً، كانت في بيتنا مزهرية جميلة من الرخام الشفاف. لم تشب بياضها العذري أية شائبة. وذات مرة، وقد بقيت وحيداً، أخذت أهزّ القاعدة التي كانت تقف عليها... وإذا بالمزهرية تسقط فجأة، وتتهشّم قطعاً صغيرة. جمدت من الذعر، ووقفت جامداً أمام الحطام. ودخل أبي، ورآني، وقال: «انظر ماذا فعلت. لم تعد لنا مزهريتنا الجميلة، ولا مجال لعودتها إلينا». فانفجرت باكياً. فقد خيل إليّ أنني ارتكبت جريمة.

وها أنا قد كبرت، وإذا بي أحطم باستهانة إناء أثمن بألف مرة...

من العبث أن أقول لنفسي: ما كان في مقدوري أن أتوقع خاتمة خاطفة

كهذه، وقد ذهلت أنا نفسي من وقوعها الفجائي. لم أكن أفهم أن فيرا مخلوق بهذه الصورة. لقد كانت بالضبط تحسن الصمت إلى آخر لحظة. كان ينبغي عليّ أن أهرب، حالما شعرت بأنني أحبها، أحب امرأة متزوجة. ولكنني بقيت، وحوّلت تحفة جميلة إلى حطام، وأنا الآن أنظر بيأس أبكم إلى ما فعلته يداي.

نعم، لقد كانت يلتسوفا تحرس ابنتها بغيرة. وقد صانتها حتى النهاية، وعندما خطت أول خطوة غير حاذرة، أخذتها معها إلى القبر.

حان الوقت لأنهي الموضوع... وأنا لم أقص لك واحداً بالمائة مما كان ينبغي أن أقصه عليك. ولكن كفاني هذا. فليعد إلى قرارة نفسي كل ما طفح على السطح...

وفي الختام أقول لك: لقد خرجت من تجربة السنين الأخيرة بقناعة واحدة، وهي أن الحياة ليست مزاحاً ولا لهواً، بل ولا متعة... الحياة كدح شاق. والزهد، الزهد الدائم هو سرها الخفي، حل لغزها. والإنسان ينبغي أن لا ينشغل بتحقيق الأفكار والأحلام الحبيبة إلى نفسه مهما تكن رفيعة، وأن يؤدي واجبه. ولن يستطيع الوصول إلى نهاية شوطه، دون أن يسقط، إلا إذا شد نفسه بالسلاسل، بسلاسل الواجب الحديدية. ونحن في سن الشباب نفكر: كلما تحررنا أكثر كان ذلك أفضل، وأبعد مرمى. والشباب مباح له أن يفكر هذا التفكير. ولكن من العيب تسرية النفس بالخداع، حين يتكشف وجه الحقيقة الصارم أخيراً، ويجابهك عيناً بعين.

وداعاً! ومن قبل كنت أضيف: أتمنى لك السعادة. أما الآن فأقول لك: جاهد أن تعيش، وليس هذا بالأمر السهل كما يبدو. وتذكرني لا في ساعات الأسى، بل في ساعات التأمل، واحتفظ في قلبك بصورة فيرا بكل طهارتها النقية... ووداعاً مرة أخرى!

عام ١٨٥٦

صديقك ب.ب.

آسية[1]

ترجمة: مواهب الكيالي

- ١ -

بدأ ن.ن. حديثه فقال: كنت وقتئذ في الخامسة والعشرين من عمري، فأنت ترى أن كان قد عفا عليه الزمان. كنت قد تحررت من قيود الوصاية واعتزمت السفر إلى الخارج، لا من أجل إنهاء التحصيل كما كان يقال في ذلك الحين، وإنما بدافع الرغبة في الفرجة على أرض الله الواسعة، كنت موفور الصحة والشباب، كثير المال، خليّ البال، أعيش ليومي، وأحقق ما أشتهي، مجمل القول: كنت أتفتح و لم يخطر لي آنئذ أن الإنسان ليس نباتاً وأن ازدهاره لن يدوم طويلاً، فإن الشباب يأكل الكعك المذهب ويرى أن هذا خبز حياته اليومية، ثم يأتي وقت، فإذا به يتمنى ولو كسرة من الخبز. ولكن ليس هنا بيت القصيد.

كان ترحّلي غير مقيد بهدف أو خطة، فكنت أتريث في المكان الذي يطيب لي، وأغادره إلى مكان آخر حينما أستشعر الرغبة في رؤية وجوه جديدة، فما كان ليجتذبني إلا الوجوه بالذات، فإن اهتمامي كله قد انصرف إلى الناس. كانت نفسي تنبو عن الأماكن التاريخية التي تثير الفضول، وتجفو الأوابد الباهرة، حتى أن سحنة الدليل كانت تثير في نفسي شعوراً بالضيق والنفور، وقد فزّ عصبي وأنا في «الغريونه - غيفولبه»[2] بمدينة درسدن.

١- آسية: رواية قصيرة نشرت لأول مرة في مجلة «سوفريمينيك» العدد الأول لعام ١٨٥٨.

٢- حرفياً «القبة الخضراء» (بالألمانية)، وهو الاسم الذي يطلق على «رواق

كانت الطبيعة تترك في نفسي أعمق أثر، ولكني لم أعلق بما يسمى محاسن الطبيعة، كالجبال الشاهقة والصخور الهائلة والشلالات الفريدة، فقد كرهت أن تفرض الطبيعة نفسها عليّ وتتحكم في أمري، أما الوجوه الحية، الوجوه البشرية، أحاديث الناس وحركاتهم وضحكاتهم، فإن هذا ما كان يستعصى عليّ أن أستغني عنه. كنت أشعر وأنا في غمار الناس بأني مستخفّ بالنشوة، مغتبط في أن أسير حيث يسيرون وأصرخ حين يصرخون، كان يشوقني في الوقت نفسه أن أنظر إليهم وهم يصرخون، وأعظم ما يمتعني أن أراقب الناس... لم أكن أراقبهم، بل كنت أتفحصهم بشيء من الفضول المنهوم الممراح. ولكن هاأنذا أجنح عن الموضوع من جديد.

وإذن فقد كنت أعيش قبل عشرين سنة في مدينة «ز»، وهي مدينة ألمانية صغيرة تقوم على الضفة اليسرى من نهر الراين. كنت ألتمس العزلة بعد إصابة في القلب أحدثتها أرملة شابة التقيتها عند الينابيع، كانت رائعة الجمال ذكية مغناجة تغازل كل من هبّ ودبّ، ذهبت تشجعني - أنا المارق - أول الأمر، فلما علقتها طعنت قلبي بقسوة، فهجرتني وذهبت وراء ضابط بافاري أحمر الخدين، وأعترف بأن الجرح لم يكن عميقاً في قلبي، ولكن رأيتني مضطراً إلى الاستسلام للأسى والعزلة بعض الوقت - وهل من شيء لا يتسلى به الشباب؟ - فنزلت على مدينة «ز».

أعجبتني هذه المدينة بموقعها القائم على السفح بين هضبتين مرتفعتين، وبأسوارها وقبابها المتداعية، وزيزفونها العتيق، وجسرها المقنطر على النهر الوضّاء الذي يرفد نهر الراين. أسغت على الخصوص نبيذها الطيّب. عند غروب الشمس في الأمسيات (كنا وقتئذ في شهر حزيران) كانت الألمانيات الشقراوات الجميلات، يتنزهن في شوارع المدينة الضيقة، ويحيين الأجانب بصوت رقيق ودود قائلات: (Gluten A bend!)[1] كان البعض منهن يمضي في النزهة إلى ما بعد طلوع القمر وارتفاعه من وراء السطوح الحادة التي تظل

المجوهرات» في درزدن، حيث تحفظ مجموعة من المصوغات يصل عددها ثلاثة آلاف قطعة، من بينها مجوهرات التاج لملوك ساكسونيا.

١- بالألمانية: مساء الخير! (المعرب).

البيوت العتيقة، وانعكاس ضوئه في ما يبرز من دقائق الحجر المنتثر على أرض الشارع. عندئذ كان يطيب لي أن طوف على أنحاء المدينة، والقمر يبدو كأنه يتأملها من سمائه الصافية، والمدينة تشعر بهذه النظرة فتتصدى لها في هدوء، وتغرق في ضوئه الذي يأخذها من كل جانب، ذلك الضوء الرقيق الذي تهدأ له النفس وتضطرب في آن. والديك الذهبي فوق الأبراج القوطية القديمة المستدقة في أعلى يتألق بلونه المذهب الشاحب، ومثل هذا اللون المذهب ينتشر على صفحة النهر السوداء، والشموع النحيلة (فإن الألمان معروفون بالحرص) تتوقد بتواضع في النوافذ الضيقة تحت السقوف القرميدية، وتبرز من وراء الأسوار الحجرية بطريقة مستخفية فروع الكرمة بذوائبها الملتوية، وطيف غامض يمرق في الظل قرب البئر القديمة القائمة في الساحة المثلثة الأطراف، وتقطع السكون على حين غرة صفرة ناعسة من حارس ليل، ونبحة خافنة من كلب مسالم، والهواء يجمّش الوجوه، وأشجار الزيزفون يضوع منها أريج عذب يغري الصدور بأن تعبّ منه حتى الامتلاء، وكلمة «غريتهين» تتردد على الشفاه في الأخذ والرد بين البادئين بالتحية وبين من يردونها.

تقم مدينة «ز» على مسافة فرسخين من نهر الراين، كنت في أكثر الأحيان أمشي للتمتع بمرأى هذا النهر الجليل وأنا متوفز الخاطر أفكر في الأرملة الغادرة، فأقضي الساعات الطويلة جالساً على مصطبة حجرية في ظل سنديانة ضخمة منعزلة، من خلال أغصانها كان تمثال صغير للعذراء لها وجه طفولي يرنو في أسى وعلى صدرها قلب في لون الدم غرزت فيه سيوف. وعلى الضفة المقابلة تقع مدينة «ل»، وهي أكبر قليىً من المدينة التي نزلت فيها. كنت أجلس في إحدى الأمسيات على مسطبتي الأثيرة أسرح بصري في إبعاد النهر ومراقي السماء أو في حقول الكرمة، وأمامي كان صبيان شقر يتسلقون جوانب زورق مسحوب على الشاطئ مقلوب على جوفه المطلي بالزفت. والمراكب الصغيرة تنساب في هدوء وقد نشرت أشرعة مسترخية، والأمواج الخضر تتدافع وتتواثب قليلا وهي تضوضئ في خفوت؛ وفجأة بلغت سمعي أنغام موسيقية. أصغيت، فتبينت أنها موسيقى فالس تعزف في مدينة «ل»، كان البوق الجهير يزفر في إيقاعٍ متقطع، والكمان يئن بنغمات غامضة، والناي يصفر في رح، فسألت شيخا كان مقبلا عليّ، في صدار من المخمل، وجوربين طويلين أزرقين، وخفين مزينين بقفل:

– ماذا هناك؟

فأجاب وهو ينقل غليونه من زاوية فمه إلى أخرى:

– إنهم الطلبة أقبلوا من مدينة «ب» ليقيموا احتفال «الكوميرش».

فقلت في نفسي: «أريد أن أرى هذه الحفلة، ثم إني لم أزر مدينة «ل» من قبل». وذهبت أبحث، حتى صادفت صاحب زورق حملني إلى الضفة المقابلة.

– ٢ –

قد يكون هناك من لا يعرف شيئاً عن هذا الاحتفال. إنه نوع خاص من الأعياد المهيبة، يجتمع فيها طلبة مقاطعة واحدة أو رابطة واحدة (Landsmannschaft)، ويرتدي أكثر المشتركين في الاحتفال زي الطلبة الألمان التقليدي، وهو سترة على الطرز المجري، وحذاء عال، وقبعة صغيرة مزينة بشريط له لون خاص. ويجتمعون كالعادة على مائدة غداء يرعاها أكبرهم سناً ويسمونه «السينيور»، ويمضون حتى الصباح في أكل وشرب وتدخين وفي إنشاد أغاني الطلبة (Landesvater، Gaudeamus) وإلقاء الخطب الهجائية التي يسخرون فيها من المتزمتين، وقد يستأجرون فرقة موسيقية لهذه المناسبة.

كان احتفال «الكوميرش» يجري على هذه الصورة نفسها في مدينة «ل». فقد أقيم في حديقة تطل على الشارع أمام فندق صغيرٍ يسمى «فندق الشمس». فارتفعت الأعلام فوق الفندق وفي الحديقة، وتحلق الطلبة حول موائد صفت تحت زيزفونات مشذبة الأغصان، وأقعى كلب ضخم تحت إحدى هذه الموائد، وأخذ أفراد الفرقة الموسيقية مكانهم تحت عريشة لبلاب قائمة في طرف الحديقة، وراحوا يعزفون بالآلات الموسيقية في اجتهاد ويجددون القوة بين الحين والآخر بجرعات من البيرة. واحتشد في الشارع قرب سياج الحديقة الواطئ جمع غفير من الناس. فقد شاء سكان مدينة «ل» الأطياب ألاّ تفوتهم هذه الفرصة السانحة فجاؤوا يمتعون النظر بمرأى ضيفان بلدتهم. فانضممت أيضاً إلى جمهور المتفرجين. وكان الطرب يستخفني وأنا أنظر إلى وجوه هؤلاء الطلبة، فإن ما يتبادلونه من العناق، وما يطلقونه من الصيحات، وما يتظاهرون به من الزهو البريء الذي ينتفخ به

عود الشباب، وما أراه من نظراتهم المتوقدة وضحكهم الذي يرسلونه دون سبب - وهو أمتع ضحك في الحياة - وهذا الغليان الممراح في حياة الشباب الطري، وهذا الاندفاع أبداً إلى أمام - في أي سبيل على أن يتجه إلى الأمام فقط - وهذه الآفاق المفعمة بالطيبة، كل ذلك أثر في نفسي وألهبني حتى لقد سألت نفسي: «ألا من سبيل إلى مشاركتهم بما هم فيه؟»...

وفجأة سمعت صوت رجل يقول من ورائي بالروسية:

- أما اكتفيت من المشاهدة يا آسية؟

فأجاب صوت فتاة باللغة نفسها:

- لنتريث قليلاً.

فاستدرت برأسي في سرعة... فوقع بصري على شاب حسن الوجه، في سترة عريضة، على رأسه كاسكيت، يتأبط ذراع فتاة ربعة القامة يختفي الجزء الأعلى من وجهها بقبعتها المصنوعة من القش.

- أأنتم روس؟

انزلق هذا السؤال من لساني على الرغم مني، فابتسم الشاب وقال:

- أجل، نحن روس.

فقلت لآخذ بأطراف الحديث:

- ما كنت لأتوقع... في هذا المكان النائي.

فقاطعني قائلاً:

- ونحن أيضاً لم نتوقع. لا بأس، فإنها فرصة طيبة. اسمح لي بأن أقدم إليك نفسي: اسمي غاغين، وهذه...- وتوقف لحظة ثم قال: - إنها أختي، فما اسمك إذا سمحت؟

ذكرت له اسمي، ثم ولجنا باب الحديث. فعرفت أن غاغين مثلي يلتمس المتعة في الترحال، وإنه حل بمدينة «ل» منذ أسبوع فعلقها. و لم أكن - والحق يقال - لأستشعر رغبة في التعرف إلى مواطنيّ الروس في المغترب. كنت أستطيع أن أميزهم حتى من بعيد، بمشيتهم وهندامهم وبتعبير وجوههم على الخصوص، وهو ينطق بالاعتداد والكبرياء، وبالسلطان في الأغلب.

ولكن هذا يتحول فجأة فيفصح التعبير عن الحذر والتهيب... فإذا المرء منهم نهب للقلق، تتلفت عيناه بحركات المستريب... فكأن نظرته السريعة تقول: «آه يا رب! لعلني استغفلت، هل كانوا يضحكون مني؟»... ولا تمر لحظة حتى تكون الملامح قد عادت إلى وقارها، غير دهشة جوفاء تشوبها بين حين وآخر. أجل، كنت أتجنب صحبة الروس، ولكن غاغين أعجبني في الحال، فهناك وجوه محظوظة يحب كل امرئ أن يطيل النظر فيها، فكأنها تدفئك وتلاطفك، وكان وجه غاغين منها، فهو مليح ودود، بعينين واسعتين وديعتين، وشعر ناعم متموج. فإذا تكلم شعرت من نبرات صوته، دون أن ترى وجهه، بأنه يبتسم.

أما الفتاة التي قال إنها أخته، فقد بدت لي منذ النظرة الأولى رائعة الجمال، كان في قسماتها تفرّد فذّ، وبخاصة في وجهها المستدير المشرب بسمرة خفيفة، وفي أنفها الصغير الدقيق، وخديها الشبيهين بخدود الأطفال، وعينيها السوداوين المتألقتين، وقوامها الفارع المتناسق، ولكنها رغم هذا لم تكن تبدو مكتملة النضج، ولم تكن لتشبه أخاها في شيء.

وقال غاغين يخاطبني:

– هل ترغب في أن تزورنا؟ يخيل إليّ أننا تمتعنا حتى شبعنا من النظر إلى الألمان. إنهم أكثر تواضعاً مما ينبغي، ولو كانت جماعتنا في مكانهم لكسروا الزجاج وحطموا الكراسي. ما رأيك يا آسية، أما آن لنا أن نمشي إلى البيت؟

فوافقت الفتاة بإيماءة من رأسها، فأضاف غاغين:

– إننا نقيم في بيت منعزل وراء المدينة ينهض فوق مرتفع تحيط به أشجار الكرمة، كل ما حولنا خلاب، وقد وعدت ربة البيت بأن تهيئ لنا بعض اللبن الرائب، ثم أن الظلام سيخيم بعد قليل، فالأحسن لك أن تنتظر حتى يطلع القمر لتعبر النهر في ضوئه.

وأخذنا طريقنا حتى خرجنا إلى الحقول عبر بوابات المدينة الواطئة (كانت المدينة محاطة من كل جهاتها بسور قديم من الصخر ولا تزال تحتفظ ببعض الكوى الحربية) بعد أن سرنا مئة خطة على طول السور الحجري، توقفنا أمام باب ضيق، ففتحه غاغين ومشى بنا في درب مصعّدة حادة تقود إلى الجبل.

كانت أشجار الكرمة قائمة على الجانبين، والشمس قد غربت في تلك اللحظة، وتركت وراءها خيطاً قانئاً رقيقاً من نور الشمس انسكب على عناقيد العنب وتيجان الأزهار العالية وعلى الأرض الجافة التي انتثرت عليها حجارة من الكلس متفاوتة في الحجم وعلى الجدار الأبيض من بيت صغير ذي عوارض سوداء مائلة وأربع نوافذ مضيئة كان يقوم في أعلى الجبل الذي نصعد فيه.

وصاح غاغين حينما اقتربنا من البيت الصغير:

– هذا هو منزلنا! وتلك ربة البيت تحمل اللبن.

Gluten A bend، Madame![1] سنتناول الطعام الآن، ولكن متع البصر فيما حولك أولاً – أضاف غاغين – فهل رأيت أمتع وأروع؟

كان المنظر رائعاً في الواقع، فإن نهر الراين يمتد تحت أبصارنا شريطاً من الفضة بين شاطئين أخضرين، ويتوهج في ناحية منه بحمرة قانئة؛ كشفت المدينة التي ركنت إلى أحضان الشاطئ عن بيوتها وشوارعها جميعاً، وامتدت التلال والحقول على مدى بعيد. كان المنظر من تحتنا بديعاً، ولكنه في أعلى أبدع، وأشد ما استأسر إعجابي صفاء السماء وعمقها، وهذا الشفف المضيء في الجو. كان الهواء النقي اللطيف يرتعش في وداعة وينساب في موجات هادئة فكأنه وجد منطلقه الرحيب في هذا المرتفع.

وهمست قائلاً:

– لقد أحسنت اختيار موقع سكنك.

فأجاب غاغين:

– إنها آسية التي اختارته.

وأضاف:

– هلمّي يا آسية اصدري أمرك بأن يحمل الطعام إلى هنا فنتناول العشاء في الهواء الطلق ونسمع الموسيقى من مكاننا على نحو أوضح...

واستطرد يوجه الحديث إليّ:

---

١ – مساء الخير يا سيدتي! (بالألمانية في الأصل).

- هل لحظت أن الفالس يبدو لك تافهاً مبتذل النغمات وأنت تسمعه من قريب، ولكنه يغدو رائعاً وهو يترامى من بعيد، ويهز في أعماقك أوتار العاطفة.

توجهت آسية إلى البيت (اسمها الحقيقي أنّا ولكن غاغين كان يناديها آسية، وأستأذنكم في أن أدعوها بهذا الاسم) وما لبثت أن عادت ومعها ربة الدار، وبينهما طبق كبير تعاونتا على حمله، فوقه وعاء لبن وخبز وفاكهة وسكر وصحون وملاعق. جلسنا إلى العشاء، وخلعت آسية قبعتها، كان شعرها الأسود مشذباً ممشطاً كشعر صبي، فإذا به يتهدل في جدائل كثيفة على عنقها وأذنيها. كانت تتهيبني أول الأمر، ولكن غاغين قال لها:

- كفاك انطواء يا آسية فإنه لا يعضّ.

فابتسمت الفتاة، وما لبثت بعد وقت قصير حتى بدأتني هي بالحديث. لا أذكر أنني رأيت مخلوقاً يشبهها في كثرة الحركة، فما كانت تستقر في مجلس ولو لحظة واحدة، فهي قائمة قاعدة مسرعة إلى البيت أو عائدة منه. وقد تغني بصوت خفيض أو تضحك على نحو غريب، فكأنها تضحك لما يخطر لها من الأفكار لا لما تسمعه من الحديث. كانت عيناها الواسعتان ترسلان نظرات مستقيمة فيها صراحة وجرأة، ولكن جفونها كانت تنضم بين الحين والآخر فتصبح نظراتها عميقة وديعة.

استمر الحديث بيننا ساعتين. كان ضوء النهار قد انطفأ منذ وقت بعيد، وذاب المساء في حنايا الليل، زحف في أوّله متوهجاً كاللهب، ثم صار إلى حمرة قانئة صافية، وما لبث حتى شحب واعتكر. ومضى حديثنا سمحاً هادئاً كالجو المحيط بنا. طلب لنا غاغين زجاجة من نبيذ «الراين» ترشّفنا خمرتها في تمهل، ولم ينقطع صوت الموسيقى خلال ذلك، ولكنه على ما خيل إلينا أصبح أرق وأعذب، وتلألأت الأنوار في المدينة وفوق النهر. أطرقت آسية فجأة برأسها فسقطت خصلات من شعرها على عينيها، وأمسكت عن الحديث وتنهدت، ثم قالت إنها راغبة في النوم، وقامت تسعى نحو البيت، ولكني رأيتها تقف وراء نافذتها المغلقة دون أن توقد الشموع، وبقيت في وقفتها وقتاً طويلاً. ثم طلع القمر، وأخذ ضوؤه يداعب وجه الراين، فضاءت

أشياء وتعتمت أشياء، وطرأ عليها التبدل، حتى أن ثمالة كؤوسنا كانت تتألق بوميض خفي. وسكنت حركة الأنسام، فكأنها الطير قد طوت أجنحتها وتجمدت، وانبعث من الأرض دفء مسائي عاطر. فهتفت قائلاً:

- حان وقت العودة إلى البيت، وقد لا أجد نوتياً ينقلني.

فردد غاغين:

- حان الوقت.

وسلكنا درباً ضيقاً في هبوطنا. وفجأة تدحرجت الحجارة من ورائنا. كانت آسية تجري في إثرنا.

سألها أخوها:

- أما كنت نائمة؟

ولكنها جاوزتنا دون أن تجيب بكلمة. كانت بقايا شاحبة من النار التي وقدها الطلبة في حديقة الفندق تضيء أوراق الأشجار من أسفل وتضفي عليها رونقاً وسحراً. وجدنا آسية على الشاطئ، كانت تتحدث إلى نوتي، فقفزت إلى الزورق وأنا أودع صديقيّ الجديدين، ووعدني غاغين بأن يزورني في الغد، فشددت على يده، ثم مددت يدي إلى آسية، فرفضت بإيماءة من رأسها وهي تنظر إلي. واندفع القارب في مجرى النهر السريع، وضرب النوتي - وهو شيخ نشيط الحركة - بمجذافيه في الماء الداكن بقوة.

وصرخت آسية:

- إنك صدمت عمود القمر، فجعلته حطاماً.

تحول بصري إلى اللجة. كانت الأمواج تتدافع حول القارب مربدة سوداء.

وعاد صوت آسية يدوي:

- وداعاً.

فصاح غاغين في أثرها:

- إلى الغد.

توقف القارب فقفزت منه إلى الأرض وأنا أنظر إلى الوراء، كان الشاطئ المقابل خالياً، وعاد عمود القمر يمد جسراً من الذهب عبر النهر كله. وبلغت سمعي نغمات فالس قديم من وضع لانيّر[1] فكأنها تودعني. كان غاغين على حق فإن أوتار قلبي جميعاً قد ارتعشت تجاوباً مع تلك النغمات المبتهلة المسترحمة.

اتخذت سبيلي إلى البيت عبر الحقول المظلمة وأنا أترشف الهواء المشبع بعبير الأزهار، ثم بلغت غرفتي وملء نفسي إحساس شفاف بهذا الإرهاق العذب التي عانيته من إلحاح أمنيات لا نهاية لها ولا هدف. شعرت بأنني سعيد... ولكن ممّ هذه السعادة؟ لم أكن راغباً في شيء ولا مفكراً في شيء... كنت سعيداً.

استلقيت على السرير وأنا أكاد أستغرق في الضحك طرباً لهذا الفيض من الأحاسيس اللذيذة الممراح الذي يملأ نفسي، وتذكرت حين أخذ النعاس ثقل أجفاني أن ذكرى الأرملة الحسناء القاسية لم تخطر على بالي ولو مرة واحدة طوال هذا المساء... فسألت نفسي: «ما معنى هذا يا ترى؟ هل فرغت من حبها؟» ويبدو أنني غرقت في النوم بعد هذا السؤال، فرقدت كأنني طفل في مهد.

- ٣ -

في الصباح (كنت قد استيقظت ولكني لم أبرح فراشي) سمعت دقات عصا قرب نافذتي، وصوتاً عرفت في الحال أنه صوت غاغين، وكان ينشد هذه الأغنية:

أأنت نائم؟

إذن سأوقظك بقيثارتي...[2]

أسرعت أفتح له الباب. فحياني غاغين وهو يدخل وقال:

١- يوسف لأنيّر (١٨٠١ - ١٨٤٣) مؤلف موسيقي نمساوي وأحد مؤلفي الفالس الفيني.

٢- رومانس للمؤلف الموسيقي الروسي غلينكا (١٨٠٤ - ١٨٥٧) على كلمات قصيدة لألكسندر بوشكين «أنا هنا، اينيزيليا».

– أزعجتك في هذا الوقت الباكر، ولكن انظر فما أجمل هذا الصباح. فهو طراوة ونداوة وتغريد طير...

كان غاغين يبدو طرياً كالصباح بشعره المتموج اللامع وعنقه العاري وخديه الورديين.

ارتديت ملابسي وخرجنا إلى الحديقة حيث جلسنا في مقعد هناك، طلبنا قهوة، وأخذنا في الحديث، فأخبرني عما أعده من الخطط للمستقبل: إنه يملك من الثراء ما يكفيه، ولا يلزمه أحد بشيء فاعتزم وهو في هذا الوضع المؤاتي أن يرصد حياته لفن الرسم، إنه لا يأسف إلا على الوقت الطويل الذي أضاعه هباء قبل أن يستقر على هذا العزم. أفضيت إليه بما كنت أترسّم لحياتي، وكشفت له بالمناسبة سرّ غرامي البائر، فكان ينصت إليّ في إشفاق، ولكني لحظت بقدر ما أستطيع أن ألحظ، أن لواعجي لم تثر فيه عطفاً فعلياً، فبعد أن تأوه في إثري مرتين من باب المجاملة، أقترح أن أذهب معه إلى بيته لأشاهد رسومه التمهيدية، فقبلت دعوته في الحال.

لم تكن آسية في البيت، أنبأتنا ربة الدار بأنها ذهبت إلى «الأطلال»، وهي بقايا قصر من عصر الإقطاع تبعد فرسخين عن مدينة «ل». عرض غاغين عليّ كل لوحاته، وكان في رسومه التمهيدية كثير من الحياة والحقيقة، لم تكن تخلو من الانطلاق وسعة الأفق، ولكنه لم يستتم أي لوحة منها، وتبينت أن صنعته الفنية خالية من الاعتناء والأصول، وقد أعلنت رأيي فيه صراحة، فأجاب وهو يتنهد:

– نعم نعم، إنك على حق، فكل هذا خربشة غير ناضجة، ولكن ما العمل، فإني لم أتلق دراسة جدية، ثم أن هذه الفوضى اللعينة التي تطبع «السلاف» قد أخذتني بأخذها، فإنك تحلق كالصقر حينما تتصور ما ستقوم به من عمل، وتشعر بأنك قادر على أن تزحزح الأرض من مدارها، ولكنك تتحول عند التنفيذ إلى امرئ موهون العزيمة بارد الهمة.

هممت بأن حدثه بما يبعث الشجاعة والثقة في نفسه ولكنه صدّني بإشارة من يده، وجمع لوحاته بين يديه وألقى بها على الأريكة، وهمهم من خلال أسنانه:

- لئن كفاني ما عندي من الصبر والمثابرة فسأصل إلى شيء يُذكر في حياتي، وإذا كان دون الكفاية فسأبقى عرقاً جاهلاً بين النبلاء. هلمّ بنا نذهب، فخير لنا أن نبحث عن آسية.

وغادرنا المنزل.

- ٤ -

يمتد الطريق المؤدي إلى «الأطلال» على منحدر واد ضيق ظليل، في قاعة نهير صغير يجري متوثباً صاخباً بين الصخور، فكأنه يتعجل موعد امتزاجه بالنهر الكبير الذي يتلألأ في هدوء وراء حاجز قاتم من صخور جبلية حادة الانحدار. كان غاغين يلفت نظري إلى بعض الأماكن التي ضاءت بالنور على نحو باهر. لم يكن في صوته حديث رسام بل روح فنان أصيل. ثم ظهرت لنا «الأطلال» وهي برج أسود، مربع الأطراف، يقوم على رأس صخرة هائلة جرداء، مصدوع بشق في الطول، كأنما قُطع قطعاً عمودياً، ولكنه بقي ثابت الأركان. كانت الجدران المتصلة بالبرج يغطيها الطحلب ويتسلقها اللبلاب في بعض نواحيها، والأشجار تميل بجذوعها وتطل إلى أسفل من خلال الكوى القديمة الشيباء والقبب المتهافتة. وهناك درب ضيق مرصوف بالحجر يقود إلى بوابة البرج، وقد بقي لهذه البوابة مظهرها فلم يؤثر فيه مرور الزمن. كنا قد اقتربنا منها حين مرق أمامنا قوام امرأة، جعلت تنتقل بين حطام الحجارة في سرعة، ثم توقفت على طنف ناتئ في السور عند موضع يشرف على الهاوية، فهتف غاغين:

- إنها آسية، يا لها من مجنونة!

اجتزنا البوابة وصرنا إلى ساحة غير واسعة تغطي جزءاً منها أشجار التفاح البري والقراص. كانت آسية هناك فعلاً تجلس على الطنف، التفتت إلينا بوجهها وضحكت دون أن تتحرك من مكانها، فلوّح لها غاغين بأصبعه مؤنباً على حين صرخت بها أرميها بالطيش، فهمس إلي غاغين قائلاً:

- احذر أن تغيظها فأنت لا تعرف طبعها. إنها قد لا تتردد في أن تتسلق البرج أيضاً، خير لك أن تراقب دهاء الناس هنا وتطريه.

فأدرت بصري فيما حولي. فإذا بعجوز تجلس في ركن كشك صغير تحوك

الجوارب وتخالسنا النظر من زاوية نظارتها، كانت تبيع من السائحين البيرة والكعك المحليّ والماء المعدني. جلسنا في مقعد وأخذنا نشرب البيرة، وكانت باردة قليلاً، في أكواب ثقيلة من القصدير. أما آسية فقد بقيت في مكانها جالسة القرفصاء دون حركة وعلى رأسها عصابة رقيقة؛ كان هيكلها الرشيق يرتسم واضحاً جميلاً في السماء الصافية؛ ولكني كنت أرمقها بين الحين والآخر بعين النفور. فقد لحظت من قبل أن فيها شيئاً من التوتر والجموح، ولم يكن طبيعياً هذا الشيء، وقلت لنفسي: «إنها تريد أن تثير فينا الدهشة، فعلام ذلك؟ وفيم هذا العبث الطفولي؟» وكأنما حزرت ما كنت أفكر فيه فارسلت نحوي نظرة سريعة نفاذة، وعادت تضحك ثم قفزت من السور قفزتين، واقتربت من العجوز تطلب منها كأساً من الماء، وقالت تخاطب أخاها:

- أتظن أني راغبة في الشرب؟ لا، فهناك أزهار على الجدران، ولا بدّ أن أرويها بالماء.

لم يجب غاغين بكلمة، وعادت ترتقي الأطلال وفي يدها كأس الماء، فكانت تتوقف هنا وهناك، وتنحني باهتمام طريف لتسكب بضع قطرات من الماء تتألق في ضوء الشمس. كانت حركاتها لطيفة جذابة، ولكن حنقي عليها لم يتبدد، غير أني لم أستطع أن أصرف بصري عن النظر بإعجاب إلى رشاقتها ومهارتها. في منزلق خطر أطلقت صيحة اصطنعت فيها الخوف، ثم استغرقت في الضحك... فزاد حنقي منها.

تمتمت العجوز من أنفها وهي ترفع نظرها عن الجورب الذي تحوكه:

- إنها تتسلق كالعنزة.

وعادت إلينا أخيراً بعد أن أفرغت كأسها وهي تتمايل في دلع، وابتسامة غريبة ساخرة ترقص في حاجبيها وأنفها وشفتيها؛ وقفت تخزرنا بعينيها الغامقتين في شيء من التحدي والمرح، وكأن قسمات وجهها تقول لي: «إنك تعدّ سلوكي فجاً بعيداً عن التهذيب، ولكني أعرف أنك تطيل النظر إليّ في إعجاب».

وخاطبها أخوها بصوت خفيض:

- مرحى لك يا آسية، مرحى.

ويبدو أنها شعرت بالخجل، فقد استرخت أهدابها الطويلة، وجلست إلينا في استكانة المذنب. فاستطعت هنا أول مرة أن أمعن النظر في وجهها الذي لم أر له شبيهاً في سرعة التقلب. ففي لحظات قصار كان الشحوب يغطيه جميعاً، ثم يكتسى بتعبير من التفكير يميل إلى الأسى، أو تبدو قسماتها ذاتها أكبر وأبسط وأحزم. ولم تلبث أن ركنت إلى الهدوء والرزانة. قمنا نطوف بالأطلال (وفي أثرنا تسير آسية) وتمتعنا بما حولنا من منظر. كان موعد الغداء يقترب، فطلب غاغين كوباً آخر من البيرة وهو يدفع الحساب للمرأة العجوز، والتفت يقول لي بلهجة احتفالية ماكرة:

- في صحة سيدة قلبك وسالبة لبّك!

ففاجأتنا آسية بسؤالها:

- ولكن هل عنده؟... هل عندك سيدة من هذا الطرز؟

فقاطعها غاغين:

- من ذا الذي يخلو أمره من مثل هذا؟

أطرقت آسية لحظة، وقد تغيرت أساريرها، وعادت ترتسم في وجهها ابتسامة جريئة تنطق بالتحدي والسخرية.

زادت آسية في صخبها ودلعها ونحن في طريق العودة، قطعت من إحدى الأشجار غصناً طويلاً وضعته على كتفها كما توضع البندقية وشدّت العصابة التي تعصب بها رأسها. وأذكر أننا التقينا وقتئذ أسرة كثيرة العدد من الانكليز الشقر المحافظين، فكانوا يشيعونها كلّ بدوره - كأنهم ينفذون أمراً صدر إليهم - بدهشة باردة ترتسم في عيونهم الزجاجية، فما كان منها إلا أن رفعت عقيرتها بالغناء نكاية لهم عن هذا التزمت. حينما وصلنا إلى البيت احتجبت آسية في غرفتها ولم تظهر إلا وقت الغداء، فأقبلت في أجمل ثوب وأحسن زينة، ممشطة الشعر، مشدودة الخصر، في كفّيها قفازان. أخذت أثناء الأكل بآداب المائدة، فتناولت الطعام بما لا يزيد عن اللمس، ومسّت الماء في طرف الكأس. كان واضحاً أنها أرادت أن تلعب أمامي دوراً جديداً وهو دور الست المؤدبة المهذبة. لم يزجرها غاغين. فما خفي عني أنه اعتاد أن

يغضّ النظر عن نزواتها جميعاً، كان يكتفي كلما التقت نظراتنا بأن يرفع إحدى كتفيه كأنه يريد أن يقول: «خذها بحلمك فإنها لا تزال طفلة». عقب الانتهاء من الغداء، نهضت آسية، وحيّت بالانحناء، واستأذنت غاغين وهي تتناول قبعتها في زيارة السيدة لويزة.

فأجاب غاغين:

– ومتى كنت تستأذنين في مثل هذا؟

أضاف وقد شاع في ابتسامته الدائمة شيء من الارتباك:

– أتشعرين بالسأم في مجلسنا؟

– لا، ولكني وعدت السيدة لويزة بزيارة. وأحسب أن من الأفضل لكما أن تكونا اثنين لا ثالث بينكما، وقد يستطيع السيد «ن» عندئذ (وأشارت إليّ) أن يحدثك بشيء.

وذهبت في سبيلها.

بدأ غاغين حديثه وهو يتحاشى نظراتي فقال:

– السيدة لويزة أرملة رئيس بلدية سابق في هذه المنطقة، وهي عجوز طيبة ولكنها فارغة، أحبت آسية حباً جماً، وآسية تميل إلى التعارف بأناس أدنى منها منزلة؛ ويتأتى هذا عن الزهو على ما لحظت، ولعلك رأيت أنها مدللة كثيراً.

وأضاف بعد لحظة من الصمت:

لا حيلة لي في هذا، فإني لا أعرف كيف أؤاخذ الناس ولا سيّما آسية، وأراني ملزماً بأن أتسامح معها.

لزمت الصمت، ووجه غاغين الحديث في مجرى آخر، كنت ازداد تعلقاً به كلما تعمقت في أمره. وما أسرع ما فهمت طبعه. فقد كان له ذلك الطبع الروسي الأصيل المجبول على الصدق والنبل والبساطة، ولكنه للأسف على شيء من فتور الهمة، مع افتقار إلى العزيمة والحماسة، لم تكن روح الشباب تنبثق منه كالينبوع بل كان يشعّ بضوء هادئ. كان غاغين موفور الذكاء والدماثة، ولكني لا أستطيع أن أتصور ما سيكون من أمره حين تنضج به

السنّ. أما أن يصبح رساماً... فإن تحقيق هذه الأمنية يحتاج إلى عمل مرّ ودأب متصل. ومن دون هذا لن يصبح رساماً... وأما عن العمل، فكرت وأنا أتأمل في قسماته الرقيقة وأستمع إلى حديثه الرتيب: فلا، إنك لن تبادر إلى عمل، لن تقدر على الارتباط به والانضباط فيه، ومع هذا لم أملك إلاّ أن أحب غاغين: فقد مال قلبي إليه، فقضينا أربع ساعات مع بعضنا البعض جالسين على الأريكة أو سائرين أمام الدار في بطء، وامتزج الودّ بيننا في خلال هذه الساعات.

غربت الشمس وحان وقت عودتي إلى البيت، و لم تكن آسية قد عادت بعد، فقال غاغين:

– يا لها من سائبة عنيدة! أتريد أن أمضي معك، وسنعدل في طريقنا إلى بيت السيدة لويزة فلعلّ آسية لا تزال هناك، إن بيتها ليس بعيداً.

انحدرنا نحو المدينة، وبعد أن مررنا بزقاق ضيق متعرج، وقفنا أمام بناية يبلغ عرضها نافذتين وارتفاعها أربعة طوابق، وقد برز طابقها الثاني إلى الشارع بما يزيد عن لأول، وتجاوزه الطابقان الثالث والرابع؛ فكانت البناية على العموم بتخاريمها الخشبية البالية، وبالعمودين الضخمين اللذين يسندانها من أسفل، وسقفها القرميدي الحادّ، ومرفاع بئرها الناتئ من تحت السقف كالمنقار – تشبه طائراً ضخماً أحدب.

صاح غاغين ينادي:

– آسية! أأنت هنا؟

سمعنا صرير نافذة مضاءة في الطابق الثالث، وانفتحت النافذة فرأينا رأس آسية يطل علينا بشعره القاتم ويمتد من ورائه رأس الألمانية العجوز بفمها الأهتم وعينيها العشواوين.

قالت آسية وهي تسند يدها بغنج على حافة النافذة:

– هاأنذا، وإني لمغتبطة هنا.

وأضافت وهي ترمي إلى غاغين بغصن من أزهار الغيرانيوم:

– هاك، خذ، وتوهم أنني سيدة قلبك.

فضحكت السيدة لويزة، وقال غاغين يقاطع آسية:

- إن السيد «ن» في طريقه إلى بيته ويريد أن يوعدك.

- أهو كذلك؟ إذن أعطه غصن الزهر، وسأهبط إليكما في الحال.

أغلقت النافذة، ولا بدّ أنها قبلت السيدة لويزة، ناولني غاغين عود الغرانيوم صامتاً، فوضعته في جيبي وأنا صامت أيضاً، وتوجهت إلى معبر النهر حيث ركبت قارباً نقلني إلى الشاطئ الآخر.

أذكر أنني سرت إلى البيت غير مفكر في شيء، ولكن قلبي كان يرزح تحت ثقل غريب، وأفأت لنفسي حينما تنسمت رائحة نفاذة مألوفة ولكنها نادرة في ألمانيا، توقفت أستقصي أمرها فرأيت على كتف الطريق حوضاً صغيراً فيه أعواد من نبات القنب، فذكرتني رائحته ببراري الوطن، وأثارت في نفسي حنيناً طاغياً إليه. وهفا القلب إلى استنشاق هواء روسيا، والانطلاق في أرضها. وهتفت: «أكان لي ما أعمله هنا؟ علام أتسكع في جهة غريبة بين غرباء؟» وفجأة تحول ما كان يبهظ قلبي من ثقل ماحق إلى اضطراب مرير حارق. بلغت المنزل وأنا على حال تختلف عن الحال التي كنت عليها أمس. شعرت بأنني مغيظ، وأخفقت في ردّ السكينة إلى نفسي، واشتملني غضب لم أعرف له سبباً؛ ثم جلست أفكر في الأرملة الغادرة (كان من الطقوس اليومية أن أختتم اليوم بالتفكير في هذه السيدة)، سحبت إحدى رسائلها، ولكني عزفت حتى عن فتحها، فقد سلكت خواطري فجأة سبيلاً آخر، أخذت أفكر في... آسية، ومما تذكرته أن غاغين أشار ف بعض ما ألقى عليّ من حديث إلى عقبة تحول دون عودته إلى روسيا... ورأيتني أقول بصوت عال: «أتكون أخته كما زعم؟».

خلعت ملابسي واضطجعت، حاولت أن أغفو ولكني استويت جالساً في السرير بعد مرور ساعة، اتكأت بكوعي على الوسادة وأنا أفكر في هذه «الصبية المدلعة ذات الضحكة المصطنعة...» إنها مصبوبة في قالب «غالاتيا» الصغيرة لروفائيل في فارنيزين[1]، وهمست لنفسي: «أجل، وإنها ليست أخته...».

١- الفريسكو المشهورة «نصر غالاتيا» من إبداع الرسام الايطالي العبقري روفائيل (١٤٨٣ - ١٥٢٠) في فيلا فارنيزين، في روما.

أما رسالة الأرملة فقد رقدت في سكون على الأرضية وهي تلمع في ضوء القمر.

- ٥ -

عدت في الصباح إلى «ل» وأنا أزعم لنفسي أنني أسعى إلى لقاء غاغين، ولكنني في السرّ كنت مدفوعاً إلى رؤية ما سيكون عليه مسلك آسية معي، أتراها ستعود إلى مثل تلعّبها أمس؟ رأيت الاثنين يجلسان في غرفة الاستقبال، كان من العجيب - ولعل سبب هذا أنني أطلت التفكير في روسيا أثناء الليل وفي الصباح - إن آسية بدت نموذجاً للفتاة الروسية، بل مجرد فتاة بسيطة، ولعلها أشبهت قليلاً وصيفة. كانت في فستان عتيق، شعرها مسرّح إلى ما وراء أذنيها، وقد جلست ساكنة قرب النافذة تطرز بأبرتها نسيجة مشدودة إلى طارة، كانت في هدوئها وتواضعها كأنها لم تزاول في حياتها إلا هذا العمل، بقيت صامتة لا تنطق إلا بما قل، لا ترفع بصرها عن شغلها، وقد شاع في ملامحها تعبير عادي ساذج ذكرت به دون قصد فتياتنا البسيطات من كاتيا إلى ماشا، وكأنها أرادت لهذا الشبه أن يبلغ التمام، فأخذت تغني بصوت خفيض أغنية «ماتوشكا غالوبوشكا»[1]. تأملت في وجهها الصغير الشاحب الهامد، فتذكرت أحلام أمس، وامتلأت نفسي بالحسرة على شيء. كان الجو رائعاً، وأعلمنا غاغين بأنه سيخرج لرسم منظر حي، فسألته أن يسمح لي بأن أرافقه إذا لم يكن في هذا ما يضايقه، فقاطعني بقوله:

- بل على العكس فإنك قادر على أن تنفعني بنصحك.

لبس صدارة، ووضع على رأسه قبعة مستديرة (a la Van Duck)[2] وخرج متأبطاً أدوات الرسم، فسرت في أثره. بقيت آسية في البيت، أوصاها قبل أن يخرج بأن تكون الشوربة ثقيلة المرق، فوعدته بأن تمر بالمطبخ وتشرف على الطبيخ. حينما وصل غاغين إلى الوادي الذي عرفته من قبل، جلس فوق صخرة وبدأ يرسم شجرة بلوط عتيقة حفر الدهر في جذوعها ومدّ في

١- يعني: «أمي يا محبوبتي»، أغنية روسية للمؤلف الموسيقي ألكسندر غوريليف (١٨٠٣ - ١٨٥٨) واسعة الانتشار، حتى صارت تعتبر أغنية شعبية.

٢- بالفرنسية، والمقصود أنها من طراز فان ديك (المعرب).

فروعها. اضطجعت أنا على العشب، وأخرجت كتاباً ولكني لم أقرأ منه إلا أقل من صفحتين، كان هو يوسخ الورق ليس غير، أمضينا أكثر الوقت في محادثة، وناقشنا بتبصّر ودقة على ما أعتقد: الطريقة الصحيحة في العمل. ما ينبغي أن يطرح جانباً، وما يحسن أن يتّبع، أهمية الفنان في هذا العصر. ارتأى غاغين أخيراً أنه في مزاج لا يسيغ العمل اليوم، وتمدد إلى جانبي، عندئذ أخذنا في حديث متدفق متطلق من أحاديث الشباب، كان يحتدم بالحرارة حيناً وبالتأمل حيناً آخر، أو يصخب بالحماسة، ولكن أحاديثنا كان أغلبها مشوباً بالغموض وهي الطريقة التي يحبها الروسي بكل قلبه. ثم عدنا إلى البيت بعد أن شبعنا من النظر والحديث، كنا نستشعر الرضى كأننا قمنا بعمل وأصبنا نجاحاً في هذا العمل. رأيت آسية على ما تركتها، ترصدت حركاتها فلم تنبئ ولو بظل خفيف من الغنج ولا بعلامة على أنها تتعمد تمثيل أي دور من الأدوار، وسقطت في هذه المرة ذرائع اتهامها بالتصنع.

قال غاغين:

- واهٍ لها، لقد فرضت على نفسها الصيام والندم.

في المساء تثاءبت عدة مرات تثاؤباً حقيقياً، وذهبت إلى النوم في وقت مبكر. لم أتلبث طويلاً فقمت أودع غاغين، وسرت إلى منزلي غير سابح في الأحلام: فقد كان اليوم يوم الأحاسيس الحية، ولكني أذكر أنني لما تمددت للنوم سمعتني أقول بصوت مسموع:

- أي حرباء هذه الفتاة!

وأضفت بعد لحظة من تفكير:

- ومع ذلك فإنها ليست أخته.

- ٦ -

مضى أسبوعان كنت فيهما أزور آل غاغين كل يوم، وأظن أن آسية كانت تتهرب من الالتقاء بي، ولكنها تركت ذلك التلعّب الذي أثار دهشتي في اليومين الأولين من أيام تعارفنا. كانت تبدو محزونة أو خجلى في السر، وندر ضحكها، كنت أراقبها بعين مستطلع.

كانت تتكلم باللغتين الفرنسية والألمانية في طلاقة، ولكن الواضح من أمرها أنها لم تستأنس منذ طفولتها بتربية أنثوية تأخذ بيدها، حصلت على تعليم غريب شاذ يختلف عما حصل عليه غاغين نفسه. فإنه على الرغم من قبعته الـ (a la Van Duck) وسترته القصيرة، كانت قماته ولفتاته تفوح بطراوة النعمة التي يتسم بها النبلاء الروس. لم تكن هي تشبه السيدة النبيلة؛ بل كان في حركاتها جميعاً مسحة من قلق: فهي غرسة لم تطعّم في أوانها وخمرة لم تختمر في دنانها. كان في طبيعتها حياء وتهيب، فإذا ضاقت بخجلها أجهدت نفسها في التظاهر بأنها طليقة العنان جريئة القلب فلا يحالفها التوفيق في هذا إلا قليلاً. وما أكثر ما استدرجتها إلى الحديث عن حياتها في روسيا، عن ماضي أيامها، فكانت تجيب في غير إقبال على أسئلتي، ولكني علمت أنها عاشت وقتاً طويلاً في الريف قبل أن تسافر إلى الخارج. التقيتها ذات يوم وهي تجلس وحيدة في يدها كتاب، كانت تلتهم السطور بعينيها وقد أسندت رأسها بيديها وغرزت أصابعها في شعرها. فقلت لها وأنا اقترب منها:

– مرحى، فكم أنت مثابرة!

فرفعت رأسها وأرسلت نحوي نظرات جادة حادة:

– أنت تظن أني لا أحسن شيئاً غير الضحك.

قالت ذلك وهمت بالذهاب...

نظرت في عنوان الكتاب فوجدت أنه قصة فرنسية، فقلت:

– ولكني لا أستطيع أن أهنئك على حسن اختيارك.

فصاحت:

– ماذا عليّ أن أقرأ إذن؟!

وأضافت وهي تلقي بالكتاب على المائدة:

– لعل الأولى أن أذهب لأمزح وأمرح.

وانطلقت ركضاً إلى الحديقة:

جلست في ذلك المساء أقرأ على غاغين قصة «هيرمان ودوروتييه»[1]، كانت آسية تمرّ بنا أول الأمر مروراً، ثم توقفت فجأة وألقت إلينا بسمعها، وجلست إلى جانبي هادئة مصغية حتى أتيت على آخر القصة. في اليوم التالي رأيتها فاستغلق عليّ أمرها من جديد، ثم اهتديت إلى أنها استقرت على فكرة وهي أن تشبه «دوروتييه» في اهتمامها بشؤون البيت وشدة رزانتها. مجمل القول أنها كانت تبدو لي أشبه باللغز. كانت هذه المتيمة بحب ذاتها تستهويني حتى وأنا حانق عليها. والأمر الذي كنت أزداد به اقتناعاً هو أن آسية وغاغين ليسا بأخوين. كان يعاملها بغير المعاملة بين الأخ والأخت، فيسرف في الحنو عليها والتسامح معها ولكن في شيء من التكلف.

ثم وقع حادث غريب جاء مؤكداً لما تداخلني من الشكّ.

ففي إحدى الأمسيات جئت غاغين زائراً فوجدت باب الكرمة مقفلاً، لم أقض وقتاً طويلاً في التفكير بل نفذت إلى الكرمة قفزاً فوق جزء متهدم في سياجها كنت لاحظته من قبل، اقتربت من عريش يظلله الطلح غير بعيد عن الممر، وأوشكت أن أجتازه... لولا أن جمدت فجأة على صوت آسية وهي تقول في انفعال وتبكي:

– لا، فأنا لا أريد أن أحب أحداً غيرك. أنت وحدك وإلى الأبد.

فقال غاغين:

– كفى يا آسية، اهدئي، فأنت تعرفين أني واثق بصدق ما تقولين.

كان صوتهما ينبعث من العريش، رأيتهما من فرجة غير كثيفة بين الأغصان المعرشة من دون أن يشعرا بوجودي.

وعادت آسية تقول:

– أنت، أنت وحدك.

وارتمت عليه تعانقه وتقبله وتلوذ بصدره وهي تشهق وترتجف، أما هو فكان يمسح شعرها بيده مسحاً رقيقاً ويؤكد قوله:

– كفاية، كفاية.

١– قصيدة ملحمية للشاعر والمفكر الألماني غوته (١٧٩٧).

وقفت بضع لحظات جامداً في مكاني... ثم اندفعت فجأة وقد ومضت في رأسي هذه الفكرة: «هل أدخل عليهما؟... لا!» فعدت مسرعاً إلى السياج، ونفذت من فوقه إلى الطريق، كدت أعدو في طريقي إلى البيت، وكنت أفرك كفّاً بكفّ وأنا أبتسم وأستغرب هذا الحادث الذي أثبت حدسي من حيث لا أتوقع (لم يخالطني ولو مثقال ذرة من الشكّ في صدق هذا الحدس) كان قلبي يمض مضيضاً من شعور مرّ؛ وقلت في نفسي: إنهما لقادران على التظاهر! ولكن فيم هذا؟ علام تلك الرغبة في التمويه عليّ؟... ما كنت أتوقع منه ذلك... ثم ما معنى هذه المناجاة القلبية المؤثرة؟

- ٧ -

قضيت الليلة في نوم مضطرب وأبكرت صباحاً في النهوض، فوضعت كيس السفر على ظهري، وأعلنت صاحبة الدار بأن لا تنتظر أوبتي في الليل، وذهبت على قدميّ إلى الجبل، حيث المجرى الأعلى للنهر الذي ترقد على شاطئه بلدة «ز». وهو من فقار سلسلة جبال تسمى ظهر الكلب (Hundsruck) ما زالت تجتذب اهتمام الجيولوجيين، وتستأثرهم على الخصوص بجودة طبقاتها البازلتية ونقائها من الشوائب، ولكن الأبحاث الجيولوجية لم تكن مما أحفل به؛ لم أكن قد استجليت رصيد ما يجري في داخلي، غير شعور واحد كان واضحاً في نفسي، وهو: عدم الرغبة في رؤية آل غاغين. كنت أوحي لنفسي بأن المبرر الوحيد لنفوري منهما كان الأسف لما انكشف من خداعهما، فمن أرغمهما على التظاهر بأنهما شقيقان حميمان؟ وبذلت ما وسعني من الجهد في إبعادهما عن بالي، فذهبت أطوف بالجبل والوادي متمهلاً، ومكثت وقتاً طويلاً في المطاعم الريفية فكنت أجاذب أصحابها ونزلاءها أطراف الحديث، ثم افترشت صخرة مستوية دافئة أراقب منها السحائب وهي تجري سابحة في رحاب الفضاء، ومن حسن الحظّ أن الطقس كان رائعاً. وعلى هذا النحو قضيت ثلاثة أيام لم تخل من أسباب المتعة، ولكن الضيق كان يعتصر قلبي في بعض الأحيان، وتمازجت خواطري بما خيّم على تلك الناحية من الهدوء.

استسلمت كل الاستسلام لعبث الأقدار الهادئ، وللمشاعر العابرة

تتعاقب في أناة وتسري في نفسي ثم تنصبّ أخيراً في إحساس شامل واحد اجتمع فيه كل ما رأيته وما سمعته وما شعرت به في هذه الأيام الثلاثة، وجملته: هذا الأريج الخفيف الذي يضوع من صمغ الصنوبر في الغابات، والصيحات الصاخبة التي تطلقها طيور النقار، وثرثرة السواقي الشفافة التي لا تصمت، والأسماك الملونة قرب قاعها الرملي، وخطوط الجبال الغامضة والصخور القاتمة، والقرى النظيفة بكنائسها القديمة الوقور وأشجارها، وطيور اللقلق البري في المروج، والطواحين الهوائية البديعة بمراوحها التي تدور بانتظام ودأب، ووجوه السكان المضيافة وهم في صداراتهم الزرقاء وجواربهم الرمادية وعرباتهم التي تصرّ وهي تجري في بطء تجرها خيولهم الشحيمة أو تجرها الأبقار في بعض الأحيان، والرحالون الشباب ذوو الشعور الطويلة يعبرون الطرق النظيفة المزروعة في جوانبها بأشجار التفاح والكمثرى...

ولا زلت حتى اليوم أجد الرضى في استعادة هذه الانطباعات، فسلاح عليك أيتها البقعة المتواضعة من أرض ألمانيا، أيتها البقعة الراضية بنعمتها البسيطة، المطرزة في كل جزء منها بأثر الأيدي الصناع وبأثر العمل الصابر المتأني... لك التحية وعليك السلام.

عدت إلى البيت في نهاية اليوم الثالث. وفاتني أن أقول إن غضبي على آل غاغين حداني على محاولة ابتعاث طيف الأرملة الغادرة، ولكن جهودي كانت هباء. وأذكر أنني حينما أخذت أحلم بها، رأيت أمامي طفلة فلاحة في الخامسة من عمرها، يرتسم الفضول في وجهها الصغير المستدير، والسذاجة في عينيها المتشوّفتين، وهي تنظر إليّ ببراءتها الطفولية... فاعتراني الخجل من طهر نظراتها، وعزفت عن الكذب بحضورها، ومنذئذ أمسكت عن بعث موضوع حبي الماضي و لم أعد إليه أبداً.

عثرت في البيت على كلمة من غاغين يقول فيها: إنه في دهشة من بادرتي المفاجئة، عاتب على أنني لم أستصحبه معي، راغب في أن أذهب إليه من فوري حين أعود. قرأت هذه الرسالة متأففاً، ولكني في اليوم التالي كنت في بلدة «ل».

- ٨ -

استقبلني غاغين بالترحيب، وأمطرني بسيل من عتابه الرقيق، ولكن ما إن رأتني آسية حتى انطلقت تقهقه عامدة من دون سبب، وغادرتنا من فورها على عادتها، فارتبك غاغين، وتمتم في أثرها قائلاً بأنها مجنونة، ورجاني أن أصفح عنها. وأعترف بأنني شعرت بالسأم الشديد من آسية؛ فمن دون هذا كنت معتكر النفس، فإذا هنا أيضاً هذا الضحك المصطنع وهذه الألاعيب الغريبة. ولكنني تظاهرت بأني لم ألحظ شيئاً على الإطلاق، وأقبلت على غاغين أحدثه عن تفاصيل رحلتي القصيرة، وروى عليّ كيف قضى وقته في أثناء غيابي؛ ولكن حديثنا لم يكن مؤاتياً. كانت آسية تدخل علينا الغرفة، دون أن تتلبث بل تدخل وتخرج، وأعلنت أخيراً أن لديّ عملاً عاجلاً، وقد آن لي أن أعود إلى البيت. حاول غاغين أول الأمر أن يستبقيني، ثم تأملني بإمعان، وقال بأنه سيرافقني. في المدخل رأيت آسية تقبل عليّ فجأة وتعطيني يدها، فلمست أصابعها لمسة خفيفة وانحنيت لها. ذهبت مع غاغين، فعبرنا الراين، وعندما مررنا في طريقنا بسنديانتي الحبيبة حيث يقوم تمثال العذراء، جلسنا على دكة هناك، نتأمل في المنظر الخلاب الذي نطل عليه، وهنا جرى بيننا حديث رائع.

تبادلنا كلمات متفرقة قليلة في البداية ثم خيّم الصمت بيننا، وانصرفنا إلى مشاهدة النهر المضيء، وفجأة قال غاغين وهو يبتسم ابتسامته المألوفة:

– قل لي، ما رأيك في آسية، ألا ترى أنها كشفت عن كثير من الغرائب؟

فأجبت بشيء من الحيرة لما بدهني من حديثه عنها:

– نعم.

فأضاف:

– يجب أن تعرفها على حقيقتها قبل أن تقضي في أمرها. إن لها قلباً موفور الطيبة، ولكن رأسها حار، ومعشرها صعب، ومهما يكن فلا يجوز أن تدان بحكم، حين تعرف حكايتها...

فقاطعته قائلاً:

– حكايتها؟ أظن أنك قلت إنها...

فقال غاغين وهو يحدق في وجهي:

- هل ظننت أنها ليست أختي؟...

وأضاف من دون أن يعبأ بحيرتي:

- الواقع أنها أختي، بنت أبي، فاصغ إليّ، إني أشعر تجاهك بالثقة وسأحدثك بكل شيء.

كان أبي في جملته رجلاً طيباً ذكياً مثقفاً، ولكنه سيئ الحظ، لم تكن قسمته أسوأ من كثيرين غيره، ولكنه فقد القدرة على الصمود أمام أول ضربة رماه بها القدر. فقد تزوج عن حب، وكان في غرارة الصبا، لم تعش زوجته، وهي أمي، إلا قليلاً، فعاجلها الموت وأنا في شهري السادس، فحملني أبي معها إلى القرية، و لم نغادرها طوال اثنتي عشرة سنة. أشرف هو بالذات على تربيتي، وما كان لينفصل عني لو لم يأت عمي أخو أبي إلى زيارتنا في تلك القرية. كان عمي يسكن مقيماً في بطرسبورغ وله فيها منصب رفيع، وقد ألحّ على أبي في أمر نقلي إلى رعايته ما دام أبي لا يريد أن يهجر القرية أبداً؛ كان رأيه: أن صبيا بلغ ما بلغت من العمر يجب أن يصان من العزلة والانفراد، وأنني سأتخلف عن أترابي إذا عشت ونشأت في هذا الجو الموحش الصامت الذي يعيش فيه أبي، ولا يبعد أن تسوء طباعي أنا أيضاً. وقد عارض أبي طويلاً فيما اقترحه أخوه، ولكنه وافق في النهاية، فبكيت عندما افترقت عن أبي؛ فقد كنت أحبه على الرغم من إني لم أر ابتسامة على وجهه... لم ألبث بعد أن وصلت إلى بطرسبورغ حتى نسيت وكرنا المظلم الكئيب. دخلت مدرسة عسكرية، والتحقت بعدها بإحدى كتائب الحرس. كنت أقضي في القرية بضعة أسابيع من كل سنة، في كل سنة كان أبي يزداد حزناً وانطواءً على نفسه واستغراقاً في التفكير وإمعاناً في التهيب. كان يذهب إلى الكنيسة في كل يوم، وتعيّاه أن ينطق ولا يتكلم إلا قليلاً. وفي إحدى زياراتي (كنت قد تجاوزت العشرين من عمري) وقع بصري أول مرة في منزلنا على فتاة نحيلة الجسم سوداء العينين في العاشرة من عمرها، وكانت آسية. قال أبي إنها يتيمة الأبوين وإنه آواها إليه ليطعمها من جوع - هذه كلماته بالحرف - لم ألق إليها أي انتباه، وكانت هي شديدة النفار، سريعة الحركة، مغرقة في الصمت كالوحشية، فإذا رأتني

أدخل غرفة أبي المفضلة، وهي غرفة كبيرة مظلمة لفظت فيها أمي أنفاسها الأخيرة، حيث كانت تتوقد شمعات حتى في النهار، أسرعت إلى الاختباء وراء مقعده الفولتيري أو وراء خزانة الكتب. وحدث بعد تلك الزيارة أن شغلتني أعباء الخدمة فعاقتني عن المجيء إلى القرية طوال ثلاث أو أربع سنين؛ كنت خلالها أتلقى من أبي رسالة قصيرة في كل شهر، يندر فيها الحديث عن آسية، أو يأتي الحديث عرضاً. كان قد تجاوز الخمسين من عمره، إلاّ أنه بقي شاب المظهر، ولك أن تتصور مقدار فزعي حينما فوجئت على غير توقع برسالة من وكيلنا ينبئني فيها بأن أبي يعاني مرضاً خطيراً مميتاً، ويتوسل إلي أن أسرع في المجيء بكل ما أملك من القوة إذا أردت أن أودع أبي الوداع الأخير. فسافرت من فوري بأسرع ما أستطيع، ووجدت أبي لا يزال حياً ولكنه في أنفاسه الأخيرة. تلقاني راضياً مغتبطاً قرير العين، واحتواني بذراعيه الناحلتين، وهو يطيل النظر في عينيّ كأنه يتفحصني بنظرته ويستشف دخيلتي أو يتوسل إليّ؛ فلما قطعت له وعداً بأن أنفذ رجاءه الأخير، أمر وصيفه العجوز بأن يأتي بآسية، فجاء بها العجوز وهي تكاد تستقيم على قديمها، فقد كانت ترتعد بكل بدنها. قال أبي وهو يبذل غاية جهده:

- أوصيك بابنتي، فهي أختك، وستعرف كل شيء من ياكوف.

قال ذلك وهو يومئ إلى الوصيف.

فانفجرت آسية بالبكاء، وارتمت بوجهها على السرير... بعد نصف ساعة كان أبي قد فارق الحياة.

كان ما علمته أن آسية بنت أبي من تاتيانا وصيفة أمي في الماضي. ولا أزال أذكر تاتيانا هذه، وأتذكر قوامها، الممشوق الأهيف، وقسماتها اللطيفة، ووجهها الذكي، وعينيها الغامقتين الواسعتين. كان المسموع عنها أنها فتاة عاقلة عزيزة النفس. كل ما استطعت أن أفهمه من الحديث المهذب المتحفظ الذي أدلى به ياكوف، إن أبي عاشرها بضع سنين بعد وفاة أمي، و لم تكن تاتيانا تعيش أثناء ذلك في منزل سيدها، بل كانت تقيم في بيت ريفي عند أخت لها متزوجة ترعى الماشية. كان أبي شديد التعلق بها، أراد بعد رحيلي عن القرية أن يتزوج بها ولكنها لم توافق على الرغم من إلحاحه.

وحدثني ياكوف وهو واقف قرب الباب بيدين مضمومتين إلى وراء:

– كانت المرحومة تاتيانا فاسلييفنا امرأة عاقلة شاءت ألاّ تسيء إلى أبيك، فكانت تقول: «أي عقيلة لك أنا؟ وأيّ ست بيت تكـ ن مني؟» سمعتها تقول ذلك في وجودي.

كذلك رفضت تاتيانا أن تنتقل إلى منزلنا، وآثرت أن تعيش مع آسية عند أختها. في طفولتي كنت أرى تاتيانا في الأعياد فقط، أثناء الصلاة في الكنيسة؛ كانت تعصب رأسها بعصابة غامقة، على كتفيها شال أصفر، وهي واقفة في الحشد إلى قرب النافذة – وجانب وجهها المتناسق الدقيق يرتسم واضحاً على شفيف الزجاج – كانت تصلي بتواضع ووقار، وتنحني في صلاتها إلى أدنى على العادة القديمة؛ لما أخذني عمي إليه، كانت آسية في الثانية من عمرها، فلما بلغت التاسعة كانت محرومة من الأم.

بعد وفاة تاتيانا مباشرة بادر أبي إلى نقل آسية إلى بيته، كان يتمناها إلى جانبه من قبل، ولكن تاتيانا تأبت عليه في هذا أيضاً. وتصوروا ما طرأ على شعور آسية حينما جيء بها إلى السيد. إنها لم تنس حتى الآن تلك الدقيقة التي لبست فيها أول مرة الفستان الحرير وانحنت الرؤوس تلثم يدها؛ لقد أخذتها أمها بالشدة وهي في قيد الحياة، فلما انتقلت إلى أبيها صبحت حرة طليقة من كل إسار. كان أبوها معلمها فلم يقع بصرها على غيره، لم يدللها أو يدلعها، ولكنه أحبها بكل قلبه و لم يمنعها عن كل ما تريد: ولعله كان يشعر في أعماق نفسه بأنه مذنب تجاهها. ولسرعان ما أدركت آسية أنها الوجه الرئيسي في البيت، وأن سيد البيت أبوها، ولكنها أدركت بسرعة أيضاً زيف وضعها، فاشتد في نفسها حب الذات، وانعدمت ثقتها بالناس، واستجذرت فيها الخصال السيئة، وفارقتها البساطة. لقد أرادت (وهذا ما اعترفت به إليّ ذات مرة) أن تحمل العا لم كله على نسيان منشئها، كانت تخجل من ناحية أمها، وتخجل من خجلها فتباهي بتلك الأم. الحاصل أنها عرفت، وهي تعرف، ما لا ينبغي لمن في سنّها أن يعرفه... ولكن هل كانت هي المذنبة؟ إن جذوة الشباب كانت تتوقد فيها، ودمها يغلي، وليس إلى جنبها يد واحدة تأخذ بيدها وترشدها إلى سواء السبيل. كان لها استقلالها الكامل في كل أمر! فهل

من السهل أن تنهض بهذا العبء؟ لقد اعتزمت ألاّ تتخلف عن غيرها من بنات النبلاء، فانكبّت على المطالعة في الكتب، ولكن أين وجه الفائدة من هذا؟ إن حياتها تكوّنت على نحو غير صحيح لأن بدايتها لم تكن صحيحة؛ بيد أن قلبها لم يتصدع وذكاءها لم يتزعزع.

وهكذا وجدتني وأنا في العشرين من عمري مسؤولاً عن رعاية فتاة في ربيعها الثالث عشر. في الأيام الأولى بعد وفاة أبي كانت نبرة صوتي المجردة تبعث فيها الرعدة، وملاطفاتي تشيع فيها التبرم، ثم أخذت تألفني قليلاً قليلاً في الخفاء، والحقيقة أنها أقبلت عليّ بكل قلبها حينما أيقنت أنني أعتبرها أختاً وأحبها حب الأخ للأخت، وهي في كل عواطفها لا تعرف الحال الوسط.

نقلتها معي إلى بطرسبورغ. ولئن كان الافتراق عنها شديداً عليّ، فإني لم أقدر على السكنى معها، فأدخلتها مدرسة من أحسن المدارس الداخلية. وقد أدركت آسية ضرورة افتراقنا ولكنها مرضت في بداية الأمر حتى أشرفت على الموت، وما لبث أن أخذت نفسها بالصبر فقضت في المدرسة أربع سنين، فإذا هي على غير ما توقعت، تخرج منها كما دخلتها من قبل، وكثيراً ما كانت رئيسة المدرسة تشكوها إليّ قائلة: «يمتنع علينا أن نزجرها بالمعاقبة، ولا تعبأ إذا عاملناها باللين». كانت آسية لامعة الذكاء، سارت في دراستها على نحو ممتاز تفوقت به على زميلاتها جميعاً. غير أنها رفضت أن تكون مثل الآخرين، وبقيت عنيدة متمردة ترمق من حولها بالنظر الشزر... وقد صعب عليّ أن أقسو في الحكم عليها، ففي وضعها كانت أمام طريقين، فإما أن تذعن، وإما أن تتمرد. و لم تجد بين زميلاتها من تستريح إلى صحبته إلا فتاة منبوذة رقيقة الحال عاطلة من الجمال، أما باقي رفيقاتها في الدراسة وأكثرهن بنات أسر كريمة، فقد كن ينفرن منم صحبتها، ويسعين إلى إيلامها بقوارص السخرية كلما وجدن إلى ذلك سبيلاً، ولكن آسية لم تكن تسكت لهن في واحدة. وفي ذات يوم كان مدرس اللاهوت يتحدث عن السيئات، فصاحت آسية بصوت ثاقب: «النفاق والجبن أسوأ السيئات جميعها». مجمل القول أنها مضت في سبيلها لا تحيد عنه، لم يتحسن إلا سلوكها فقط، ولعل هذا التحسن كان طفيفاً أيضاً.

وما لبثت أن جاوزت السابعة عشرة من عمرها، وتعذّر عليها أن تبقى

في المدرسة بعد هذه السنّ، كنت في حرج من الأمر، ثم خطرت ببالي فكرة طيبة مفاجئة، وهي: الاستقالة والسفر إلى الخارج مع آسية لمدة سنة أو سنتين. وقد أنجزت ما فكرت فيه، وها نحن أولاء على ضفاف الراين، أحاول أنا أن أنصرف إلى الرسم، على حين تمضي هي في عبثها وألاعيبها كما كانت من قبل؛ وآمل ألاّ تكون شديداً في حكمك عليها، فإنها تهتم بكل رأي، ولا سيّما رأيك، على الرغم مما تتظاهر به من عدم الاكتراث.

وعاد غاغين يتبسم ابتسامته الوديعة، فأخذت يده وشددت عليها، بينما استطرد يقول:

– هذا ما كان، ولكن مصيبتي معها، إنها كتلة من البارود؛ إنها لم تعجب بأحد حتى الآن، وسيكون البلاء الأعظم حينما تحب! فلا أدري أحياناً كيف ينبغي أن أتصرف معها. وإليك ما أقدمت عليه منذ أيام: لقد فاجأتني بالقول إني أصبحت لا أعني بها إلا قليلاً، وجعلت تؤكد لي أنها تحبني من دون الناس كلهم أجمعين، وستبقى على هذا الحب أبداً... ولشدّ ما بكت وقتذاك...

– وإذن كان الأمر كذلك...– تمتمت وأنا أهم بالكلام، ولكني كبحت لساني فقلت بعد أن سلك الحديث بيننا طريق الصراحة:

– أيعقل حقيقة أنها لم تعجب بأحد حتى الآن؟ أين فتيان بطرسبورغ، إذن؟

– لا، فليس يعجبها هؤلاء بالذات. أن آسية تطمح إلى بطل، إلى إنسان غير عادي، أو إلى راع جميل يضرب في وديان الجبال. ولكن ما لي أستأخرك بمثل هذا الكلام الطويل،– ذلك وهو يهم بالقيام – فقلت:

– اسمع، سأعود معك، فإني لا أرغب في الذهاب إلى بيتي.

– وعملك العاجل؟

لم أجب بكلمة، فضحك غاغين في سماحة، وعدنا معاً إلى «ل». حينما رأيت الكرمة المألوفة والبيت الأبيض الذي يطل من قمة الجبل، شعرت بالنشوة تسري في قلبي، فكأن الشهد المصفى ينسكب فيه قطرات، وغمرتني راحة شاملة بعد هذا الحديث الذي ألقاه غاغين في سمعي.

استقبلتنا آسية على عتبة الباب، كنت أنتظر أن تأخذ بالضحك على عادتها، ولكنها طلعت علينا شاحبة الوجه مطبقة الفم خفيضة العينين. وقال غاغين:

- ها هو ذا، انتبهي إلى أنه شاء أن يعود من تلقاء نفسه.

نظرت آسية إليّ نظرة تساؤل، فأخذت بيدها الممدودة، وشددت بقوة في هذه المرة على أصابعها الباردة. كنت أشعر بالإشفاق عليها منذ إن ازددت إدراكاً لما يجري في نفسها، ووضح لي ما كان يحيرني من أمر: قلقها المقيم وعجزها عن ضبط النفس وجنوحها إلى التصنع. لقد تعمقت دخائل هذه النفس، فقد كان يسحقها ظلم خفي لا يريم، وتمزق ترتطم فيه الكبرياء الساذجة بالقلق، بيد أن وجودها كله كان يسعى إلى الحقيقة. لقد أدركت لماذا ملكت على نفسي هذه الفتاة الغريبة الأطوار: فلم تكن ملاحتها الآبدة التي انسكبت في جسدها النحيل كله هي التي تجتذبني إليها فقط، بل كانت روحها تجتذبني أيضاً.

بدأ غاغين في تقليب رسومه فعرضت على آسية أن نقوم بنزهة في الكرمة فوافقتني من فورها بغبطة تشبه الإذعان. هبطنا المنحدر حتى بلغنا منتصفه حيث جلسنا هناك على صخرة مستوية عريضة. وبدأت آسية الحديث فقالت:

- ألم تشعر بالضجر وأنت بعيد عنا؟

فسألتها:

- وأنت ألم تشعري بالضجر من دوني؟

فرمقتني آسية بطرف عينيها وقالت:

- أجل.

وأضافت من فورها:

- هل قضيت وقتاً طيباً في الجبال؟ هل هي عالية؟ أعلى من الغيوم؟ حدثني عما شاهدته هناك. كنت أتحدث أخي، أما أنا فلم أسمع شيئاً.

- هل كان من الضروري أن تنسحبي من مجلسنا؟

- لقد انسحبت لأن... لن أنسحب بعد الآن،- وأضافت بصوت حنون وديع:- كنت غاضباً اليوم.

- أنا؟

- نعم، أنت.

- عفواً، وممَّ؟

- لا أدري، ولكنك كنت غاضباً، وغادرتنا غاضباً، فكان أسفي شديداً لأنك ذهبت على تلك الحال، وأنا مغتبطة بعودتك.

فأجبت قائلاً:

- وأنا أيضاً مغتبط بعودتي.

فقوست آسية كتفيها كما يفعل الأطفال حينما يكونون راضين، وتابعت قائلة:

- أوه، إني لقادرة على التنبؤ بما تخفي الصدور! كنت أعرف من سعال أبي في الغرفة المجاورة أغاضب هو مني أم راض.

لم تكن آسية قد تحدثت إليّ عن أبيها حتى ذلك اليوم، فأدهشني ذلك منها.

- هل كنت تحبين بابا؟

قلت ذلك وقد حزّ في نفسي هذا الاحمرار الذي شاع فجأة في وجهي. لم تجب آسية بل تضرج وجهها أيضاً بالاحمرار، وخيّم الصمت بيننا ونحن ننظر إلى سفينة كانت تمخر الراين من بعيد وتنفث الدخان.

وهمست آسية:

- ما لك لا تتحدث؟

فسألتها:

- لماذا استغرقت في الضحك أول ما وقع بصرك عليّ اليوم؟

- إنني بالذات لا أعرف لماذا، فقد أشعر أحياناً برغبة في البكاء فأضحك. ينبغي ألاّ تحكم عليّ... بما تراه من فعالي. وبالمناسبة، ما القصد

الذي رمت إليه تلك الأسطورة التي تتحدث عن لوريلاي[1]؟ هل هذه التي تتراءى للعين صخرتها؟ قيل إنها كانت تغرق كل إنسان، فلما أحبت أغرقت نفسها. تعجبني هذه الأسطورة. إن فراو لويزة تروي عليّ أساطير شتى وفي بيت فراو لويزة قط أسود ذو عينين صفراوين...

رفعت آسية رأسها وهزت خصلاتها، وقالت:

- آه، كم أشعر بالغبطة.

في تلك اللحظة بلغت أسماعنا أصوات متقطعة رتيبة النغمة، مئات من الأصوات كانت ترتل الصلوات في آن واحد، وتقطع النشيد بالصمت بين الحين والآخر، وظهر على امتداد الطريق في نهاية المنحدر جماعة من الحجاج يحملون الصلبان وصور القديسين... قالت آسية وهي ترهف السمع لانفجارات الأصوات وهي تبتعد قليلاً قليلاً:

- ليتنا نذهب معهم.

- هل وصل بك التدين إلى هذا الحد؟

- أتمنى أن أذهب إلى مكان بعيد، لأصلي أو لأقوم بمأثرة في عمل. - وأضافت: - إن الأيام تمضي، والحياة ستزول، فما العمل الذي قمنا به حتى اليوم؟

فقلت معلقاً:

- إنك طموحة، تأبين أن تعيشي سدى، وتطمحين إلى ترك أثر في الحياة...

- أهذا مستحيل يا ترى؟

كادت لفظة «مستحيل» تفلت مني، ولكني حدقت في عينيها اللامعتين وقلت:

---

١ - اقتبست أسطورة لوريلاي أساساً للعديد من النتاجات الشعرية: القصيدة الغنائية للشاعر الألماني ك. برينتانو (١٧٧٨ - ١٨٤٢) من روايته «غودفي»، والقصيدة الثانية للشاعر الألماني هـ. هايني من سلسلة «في الوطن مرة أخرى» (١٨٢٣) وغيرهما. كما رويت هذه الأسطورة في أدلة السياحة.

- عليك أن تحاولي.

قالت آسية بعد صمت قصير سرت في أثنائه بعض الظلال على وجهها الذي اعتراه الشحوب:

- أخبرني، أكانت تعجبك تلك السيدة... ألا تذكر، لقد شرب أخي على صحتها ونحن في الأطلال، في اليوم الثاني من تعارفنا؟

فضحكت:

- كان أخوك يمزح، فإني لم أعجب بأي سيدة، على أي حال ليس من سيدة أعجب بها الآن.

فسألت وهي تتلع رأسها بفضول بريء:

- وماذا يعجبك في النساء؟

فهتفت قائلاً:

- يا له من سؤال غريب!

فاضطربت آسية قليلاً:

- لم يكن يليق أن أطرح هذا السؤال. أليس كذلك؟ لا تؤاخذني، فقد تعودت أن أنطق بما يخطر في بالي، ولهذا أتهيب من الكلام.

- قولي ما شئت، بالله عليك، لا تخشي شيئاً، فقد أسعدني أنك خرجت أخيراً من انطوائك.

غضّت آسية طرفها، وأرسلت ضحكة هادئة رقيقة لم أكن أعرف أن لها نظيرها؛ ثم أضافت وهي تسوي أطراف فستانها وترتبها على ساقيها كأنها تستعد لجلسة طويلة:

- هيا حدثني بشيء أو اقرأ عليّ شيئاً. أتذكر، أنك قرأت لنا من «أونيغين»...

واستغرقت فجأة في التفكير ثم أخذت تقرأ في همس:

حيث الصليب وظلال الأغصان

على جدث أمي المسكينة الآن![1]

فلاحظت قائلاً:

- لم يأت البيت عند بوشكين على هذه الصورة.

فتابعت وهي لا تزال مستغرقة في التفكير:

- وددت لو أنني كنت تاتيانا[2].

وأضافت بانفعال:

- هيا حدثني بشيء.

ولكني لم أجد رغبة في الحديث. كنت أنظر إليها. كانت هادئة مطمئنة تغمرها أشعة اشمس المتألقة، وكل ما حولنا وتحتنا وقوفنا يشرق بالمرح، وخيّل إلى أن السماء والأرض والماء، بل الهواء ذاته قد فاضت جميعاً بالإشراق. فقلت بصوت خفيض من دون وعي:

- انظري، فما أجمل هذا كله!

فأجابت بهدوء من دون أن ترفع بصرها إليّ:

- نعم، إنه لجميل! لو أننا من الطير لارتفعنا وحلقنا في الأعالي وغرقنا في هذا المدى الأزرق... ولكننا لسنا من الطير.

فقلت معترضاً:

- ولكن قد تنبت لنا أجنحة.

- وكيف ذلك؟

- من يعش ير، فهناك مشاعر تسمو بنا إلى ما فوق الأرض، وستنبت لك أجنحة فلا تقلقي.

- هل كنت بأجنحة؟

١- من الرواية الشعرية «يفغيني أونيغين» لألكسندر بوشكين (١٧٩٩ - ١٨٣٧). عند بوشكين «على جدث مربيتي...».

٢- بطلة رواية ألكسندر بوشكين «يفغيني أونيغين». ومسودة المخطوطة كانت تضم مزيداً من مواضع المقارنة المباشرة وغير المباشرة بين آسية وتاتيانا بطلة بوشكين.

- ماذا أقول... يخيّل إليّ أني لم أحلّق بعد.

وعادت آسية إلى تفكيرها، فانحنيت عليها قليلاً. وسألتني فجأة:

- أتحسن رقصة «الفالس»؟

فقلت وقد شعرت بشيء من الارتباك:

- نعم.

- هيا بنا نعود إذن، هيا... وسأطلب من أخي أن يعزف لنا مقطوعة فالس لكيما نتصور أننا نحلق بأجنحتنا في أجواء الفضاء.

قامت تركض إلى البيت فركضت في أثرها، وبعد لحظات كنا ندور في الغرفة الضيقة على أنغام لانير العذبة. رقصت آسية الفالس ببراعة وحماسة، وقد شاعت فجأة في مظهر الفتاة الصارم رقة أنثوية. لقد احتفظت يدي وقتاً طويلاً بملمس خصرها الرقيق، وبقيت وقتاً طويلاً أسمع أنفاسها السريعة القريبة، وأرى عينيها الغامقتين الساكنتين وهما في شبه إغماض على وجهها الشاحب على الرغم من انتعاشه، وقد تهدلت عليه خصلات من شعرها الغزير.

- ١٠ -

انقضى ذلك اليوم على أحسن حال. سرحنا ومرحنا كالأطفال؛ كانت آسية في غاية العذوبة والبساطة، وغاغين سعيد بما يراه من غبطتها. ثم غادرتهما في وقت متأخر، فلما صرت في وسط الراين طلبت من النوتي أن يترك القارب على رسلته، فرفع الشيخ المجذافين، وانطلقنا نتهادى على غوارب هذا النهر العظيم. كنت أنظر فيما حولي مرهفاً سمعي مستعيداً ذكرياتي حينما شعرت فجأة بقلق خفيّ يمسّ شغاف قلبي... رفعت بصري إلى السماء فما وجدت هدوءاً حتى في السماء: كانت موشومة بالنجوم وكلها يتململ ويتحرك ويرتعش. انحنيت على النهر، فإذا النجوم هنا أيضاً في هذه الأعماق المظلمة الباردة، ترتجف وتتموج. خيّل إليّ أن في هذا الانتعاش قلقاً ماثلاً في كل مكان، فسرى القلق إلى نفسي أيضاً. ارتميت على حافة القارب... فكان يزعجني اصطفاق الماء على جوانبه وعزيف الريح في أذني، و لم يرح عني ما كانت ترسله الأمواج من نفحات طرية؛ وصدح بلبل

على الشاطئ فملأني بما سكب في صداحه من السمّ العذب. فاضت عيناي بالدموع، لم تكن دموع انفعال لا سبب له، فإن ما شعرت به لم يكن ذلك الإحساس الغامض الذي اختبرته مؤخراً، وهو الإحساس بالرغبة الشاملة التي تتفتح فيها النفس وتغني ويخيل إليها أنها تحيط بكل شيء وتحب كل شيء... لا! فقد توقد في نفسي ظمأ إلى السعادة، ولئن خذلتني القدرة عن النطق بهذه الكلمة، فإن السعادة، والسعادة حتى الارتواء والامتلاء، هي ما كنت أريده وأهفو إليه... وخلال ذلك كان القارب ينطلق والنوتي الشيخ يجلس منحنياً على المجذافين وهو يغالب النعاس.

- ١١ -

لم أسأل نفسي وأنا أتوجه في اليوم التالي إلى بيت غاغين: هل تراني أحب آسية؛ ولكني لم أنقطع عن التفكير فيها والانشغال بمصيرها، كنت مغتبطاً بتقاربنا الذي حدث على غير توقع، شاعراً بأني لم أعرفها إلا أمس، فهي قبل ذلك كانت تدير إليّ ظهرها؛ أما وأنها قد كشفت أخيراً عن سريرتها، فأي نور آسر أشرق في وجودها، وأي جدّة رأيت في هذا كله، وأي جاذبية خفية كانت ترف في استحياء وخفر على هذا الوجود...

سرت في الطريق المألوف بخطوات نشيطة، وبصري معلّق بالدار الصغيرة البيضاء التي تبدو من بعيد. كنت في غاية الغبطة، لا يشغلني التفكير في المستقبل، ولا في الغد القريب نفسه.

شاع الاحمرار في وجه آسية حينما دخلتُ عليها الغرفة، ولاحظت أنها عادت من جديد إلى التأنق في لباسها، ولكن ملامح وجهها لم تكن منسجمة مع هندامها، فقد كانت كئيبة. على حين أقبلت أنا مشرق الأسارير! وخيل إلي أنها جمعت أمرها على الفرار مني بحكم العادة، ولكنها أكرهت نفسها على البقاء. وكان غاغين في تلك الحالة من الحماسة والاستغراق التي تنتاب هواة الفن فجأة فيتوهمون أنهم أفلحوا على حدّ قولهم في «القبض على الطبيعة من ذيلها». كان يقف أشعث الشعر ملطخاً بالأصباغ أمام قطعة مشدودة من القماش، يطوف بريشته عليها في حركات واسعة، فلما رآني أومأ إليّ بحركة من رأسه فيها شيء من الجفوة، وتحرك إلى جانب وهو

يوصوص عينيه، ثم هجم مكرّاً على اللوحة كما ابتعد عنها. حاذرت أن أزعجه فجلست إلى جانب آسية، فتحوّلت إليّ بعينيها الغامقتين في بطء. قلت لها بعد أن أخفق جهدي في حملها على الابتسام:

– إنك اليوم على غير ما كنت عليه أمس.

فأجابت بصوت بطيء هامد النبرة:

– هذا صحيح ولكنه غير مهم. لقد نمت نوماً قلقاً وقضيت الليل مؤرقة أفكر...

– فيم؟

– أوه، في كثير من الأشياء، فتلك عادتي منذ عهد الطفولة، منذ أن كنت أعيش مع أمي...

نطقت آسية هذه الكلمة في جهد، ولكنها عادت تكررها:

– منذ أن كنت أعيش مع أمي... كم تساءلت: لماذا لا يعرف أحد ما يخبئه له الغد؟ ولماذا يرى المرء هجوم الكارثة في بعض الأحيان ثم يقف عاجزاً عن التماس النجاة منها؟ ولماذا يتعذر الإفضاء بالحقيقة الكاملة في كل الأحوال؟.. وعندئذ أقر في نفسي أنني أجهل كل شيء، وعليّ أن أتعلم، وأعيد تربيتي من أولها. إن ثقافتي سيئة جداً، فأنا لا أعرف العزف على البيانو، ولا الرسم، ولا أجيد حتى صنعة الخياطة، وليس لي أي موهبة، وقد تكون مجالستي مما يبعث على الضجر.

فاعترضت قائلاً:

– إنك تظلمين نفسك بما تقولين، فأنت واسعة الاطلاع، مثقفة العقل، بذكائك هذا...

فسألت باهتمام ساذج أضحكني على الرغم مني ولكنها لم تستجب لضحكي حتى بابتسامة:

– أتراني ذكية؟

والتفتت تسأل غاغين:

– هل أنا ذكية يا أخي؟

لم يجب غاغين بل استمر في عمله وهو لا يتوقف عن استبدال ريشة بأخرى ورفع يده إلى أعلى.

تابعت آسية قولها وهي مستغرقة في أفكارها:

– لا أدري أحياناً ما يدور في بالي، أخاف أحياناً نفسي، قسماً بالله؛ آه كم أردت... ألا ترى أن كثرة المطالعة لا تلائم النساء؟...

– كثيرها غير ضروري، ولكن...

– بماذا تنصحني أن أقرأ؟

ثم أضافت بثقة ساذجة:

– اشر عليّ بما ينبغي أن أقرأ وأعمل ولن أخالفك في شيء. لم أجد جواباً أقوله من فوري فقالت:

– هل تراك ستشعر معي بالضجر؟

– عفواً... – بدأت الكلام، فقاطعتني قائلة:

– لك الشكر إذن! لقد توهمت أنك ستشعر بالضجر.

وشدّت بيدها الصغيرة الدافئة على يدي. وهتف غاغين في اللحظة نفسها:

– «ن»! ألا تبدو أرضية الصورة مظلمة؟

قمت مقترباً منه، وقامت آسية تغادرنا.

– ١٢ –

عادت بعد ساعة فدعتني بإشارة من يدها وهي لا تزال واقفة عند وصيد الباب، وقالت:

– خبرني، لئن دهمني الموت فهل تحزن عليّ؟

فصحت قائلاً:

– ما هذه الخواطر التي تدور في رأسك اليوم؟

– يخيل إليّ أنني سأموت عما قريب، ويتراءى لي في بعض الأحيان أن كل ما حولي يودعني، فإن الموت خير من الحياة على هذا النحو... إني

لا ألقى الكلام على عواهنه، فلا ترمقني بهذه النظرة وإلا عاودني الخوف منك.

- وهل كنت تخافينني؟

فقاطعتني قائلة:

- لئن كنت على ما رأيت من غرابة الأطوار، فليس هذا ذنبي في الحقيقة. ألا ترى أنني لم أعد قادرة حتى على الضحك...

وبقيت مهمومة حزينة طوال النهار، فكأن شيئاً تعذر عليّ إدراكه يجري في داخل نفسها. كانت ترسل إليّ نظرات طويلة فينقبض قلبي تحت هذه النظرات الغامضة، وأنظر إليها فأشعر على الرغم من مظهرها المطمئن برغبة في أن أقول لها: دعي عنك هذا القلق. كم وجدت وأنا أتفحصها من الروعة المؤثرة في قسماتها الشاحبة وحركاتها المترددة البطيئة، ولكنها تصورت من دون أن أدري أنني على خير حالتي؛ وقبيل انصرافي قالت لي:

- اسمع، إني لم أعد أطيق أن تحسبني طائشة... أرجو أن تصدق كل ما سأقوله لك في المستقبل، ولتكن أنت أيضاً صريحاً معي؛ لن أحدثك إلا بالصدق، أقسم لك...

وحملتني هذه الـ «أقسم لك» على الضحك من جديد، فقالت في حماسة:

- آه، لا تضحك وإلا سألتك مثلما سألتَني أمس: «لماذا تضحكين؟».

وأضافت بعد قليل من الصمت:

- هل تذكر ما قلته لي أمس عن الأجنحة؟... لقد نبت لي جناحان، ولكن لا مجال للتحليق.

فقلت:

- ولكن اسمحي لي، إن أمامك السبل مفتوحة كلها...

فحدقت آسية في عيني مباشرة، ثم قطبت حاجبيها وقالت:

- إنك تطوي فكرة سيئة عني اليوم.

- أنا؟ أطوي فكرة سيئة؟ عنك!...

وقاطعني غاغين قائلاً:

– ما لكما اليوم مثل الماء المعتكر؟ أترغبان في أن أعزف لكما مقطوعة فالس كالأمس؟

فاعترضت آسية وهي تشد يديها:

– لا، لا، ليس اليوم ولا بحال!

– هدئي روعك فأنا لا أفرض الأمر عليك فرضاً...

فعادت تكرر قولها وقد شاع الشحوب في وجهها:

«أتراها تحبني؟» – فكرت بهذا وأنا أقترب من الراين، وكانت أمواجه القاتمة تتدفق مسرعة.

– ١٣ –

حينما استيقظت في صباح اليوم التالي كان السؤال الذي خطر ببالي: «أتراها تحبني؟». لم أشعر بالنزوع إلى سبر أغوار نفسي. كانت طلعتها، طلعة «الفتاة ذات الضحك المصطنع» قد ملأت روحي، ولم يبد أنني قادر على التخلص منها في وقت قريب. ثم مضيت إلى بلدة «ل» فبقيت فيها طوال اليوم، ولكني لم أر آسية إلا خلال لحظات، فقد كانت متوعكة الصحة تشكو من الصداع. أقبلت علينا ولم تتريث. كانت معصوبة الجبين، شاحبة، هزيلة، مسترخية الجفون، ابتسمت ابتسامة وانية وقالت:

– طارئ سيزول، وكل شيء إلى زوال، أليس كذلك؟– وذهبت.

شعرت بالضيق، وبشيء من الأسى والفراغ، ولكني شعرت بالرغبة في أن أؤخر ذهابي، فعدت في وقت متأخر من دون أن أراها مرة ثانية.

مرَّ الصباح التالي وأنا في يقظة تشبه الحلم، أردت أن أشغل نفسي بعمل فما استطعت. كنت لا أرغب في العمل ولا في التفكير... ولكني عجزت. فقمت أطوف في أرجاء البلدة، ثم أعود إلى البيت لأغادره من جديد.

وسمعت من ورائي صوتاً طفولياً يقول:

– هل أنت السيد «ن»؟

التفت فرأيت صبياً. أضاف وهو يناولني رسالة:

- هذه لك من فراولين Annette.

فتحتها - فعرفت خط آسية المتعرج السريع، وقد كتبت فيها تقول: «لا بدّ أن أراك. تعال اليوم في الساعة الرابعة إلى المعبد الحجري القائم على الدرب إلى جانب الأطلال. كنتُ شديدة التهور اليوم... سألتك بالله أن تأتي وستعرف كل شيء... قُلْ لحامل الرسالة: نعم».

وسأل الصبي:

- هل من جواب؟

فأجبت:

- قل لها، إن الجواب نعم.

فانطلق الصبي راكضاً.

- ١٤ -

عدت إلى غرفتي، فجلست وغرقت في التفكير. كان قلبي يخفق خفقاً عنيفاً... أعدت قراءة رسالة آسية مرات، ثم نظرت في الساعة: لم تكن بلغت الثانية عشرة.

فتح الباب ودخل غاغين.

كان وجهه عابساً. أطبق على يدي وشدّ عليها بقوة، وكان يبدو في غاية الاضطراب.

سألته:

- ماذا حدث لك؟

أخذ غاغين كرسياً وجلس قدّامي، ثم بدأ حديثه متلعثماً يرسم ابتسامة متكلفة:

- لقد أذهلتك بما رويته عليك منذ أربعة أريام، ولسوف أزيدك ذهولاً اليوم. لو كان أمامي شخص آخر سواك لما جرؤت... بهذه الصراحة... ولكنك إنسان نبيل، ثم إنك صديقي، أليس كذلك؟ اسمع، إن أختي آسية تحبك.

انتفضت بكل جسمي، ونهضت قليلاً...

- أتقول أختك؟...

فقاطعني غاغين:

- نعم، نعم، أقول لك إنها مخبولة، وستدفع بي إلى الجنون. من حسن الحظ إنها لا تستطيع أن تكذب، وهي تثق بي. آه، يا لروح هذه الفتاة، إنها ستورد نفسها موارد الهلاك لا محالة.

فقلت:

- لا بدّ أنك على خطأ.

- أبداً، فما أنا على خطأ. لقد لزمت فراشها أمس، أكثر النهار، وأنت تعلم ذلك، فلم تذق طعاماً، ولا نبرت عنها شكاة... فهي لا تشكو أبداً. لم يداخلني القلق على الرغم من الحمى الخفيفة التي ظهرت عليها في المساء. في الساعة الثانية من هذه الليلة، أيقظتني صاحبة البيت وقلت: «اذهب إلى أختك فإن حالتها تبدو سيئة». أسرعت إلى آسية فإذا هي لا تزال في ملابسها، كانت محمومة، دامعة العينين، يتلهب رأسها، وتصطك أسنانها. سألتها: «ماذا بك؟ هل أنت مريضة؟» فارتمت على عنقي وهي تتوسل إلى أن أرحل بها من هنا بأقصى ما يستطاع من السرعة إذا كنت راغباً في الحفاظ على حياتها... لم أفهم شيئاً مما بها، حاولت أن أهدئ من روعها... فزاد نشيجها... وفجأة سمعت من خلال زفراتها... مختصر الكلام، سمعت أنها تحبك. أؤكد لك أننا على ما نحن عليه من رجاحة العقل، قاصرون ولو بالتصور عن أن ندرك ما عندها من عمق في الشعور وبأي قوة يبرز لديها هذا الشعور، فهو يفاجئها بشكل عاصف كأنه الصاعقة.- وتابع غاغين الكلام فقال-: إنك إنسان في غاية الظرف، ولكن لماذا أحبتك هكذا؟ أعترف بأني لا أدري لماذا. قالت إنها اعتلقت بك من أول نظرة، وهذا ما أهاجها على البكاء قبل أيام حينما كانت تؤكد لي أنها لا تريد أن تحب أحداً آخر غيري. تصورت أنك تزدريها، ورجحت أنك على علم بحقيقة أمرها، وكان من الطبيعي أن أجيب: لا، حينما سألتني: هل أطلعتك على حكايتها، ولكن حدسها مخيف. إنها لا تتمنى إلا أمراً واحداً وهو الرحيل، أن ترحل من فورها. بقيت ساهراً معها

حتى انبلج الصباح، لم تغف عيناها إلا بعد أن وعدتها بأن نرحل في الغد، ثم إني مضيت أفكر وأفكر حتى انتهيت إلى قرار بأن أحدثك بالأمر. في اعتقادي أن آسية على حق، فمن الخير لنا نحن الاثنين أن نرحل من هنا؛ كنت بسبيلي إلى الرحيل معها اليوم لولا أن استوقفتني فكرة خطرت ببالي، فقلت: من يدري؟ قد تكون أختي أعجبتك، فإذا كانت الحال كذلك فهل يحق لي أن أرحَلها. على ذلك صممت على نبذ الخجل... ثم إني لاحظت أمراً... فاعتزمت... أن أعرف منك...-واضطرب غاغين المسكين وهو يضيف:- أرجوك أن تعذرني فإني لم أتعود مثل هذه المواقف الحرجة.

فأمسكته من يده وقلت بصوت حازم:

- أتريد أن تعرف هل تعجبني أختك؟ نعم إنها تعجبني...

فحدق غاغين في وجهي وقال متلعثماً:

- ولكنك لن تتزوجها؟

- كيف تريدني أن أجيبك على هذا السؤال في الحال؟ لك أن تحكم أنت، هل تراني أستطيع في الوقت الحاضر؟...

فقاطعني غاغين:

- أعرف هذا، أعرفه، فإني لا أملك ولو ذرة من الحق في مطالبتك بجواب، بل أن سؤالي هذا بعيد عن اللياقة... ولكن بماذا تأمرني أن أفعل؟ لا يجوز المزاح مع النار، فأنت لا تعرف آسية. إنها قمينة بأن تمرض، بأن تهرب، بأن تضرب لك موعد لقاء... يستطيع غيرها من الفتيات أن يتكتم وينتظر، ولكنها ليست كذلك. إن هذا يحدث لها أول مرة، وهنا المصيبة! لو رأيتها وهي تنتحب عند قدمي اليوم لفهمت مخاوفي.

أطرقت مفكراً. كانت كلمات غاغين: «تضرب لك موعد لقاء»، تخز في قلبي، ورأيت أن من المخجل ألاّ أقابل صراحته الشريفة بصراحة مثلها، فقلت بعد تردد:

- نعم، إنك على حق، فقد استلمت من أختك رسالة منذ ساعة، وها هي ذي.

أخذ غاغين الورقة ومسحها بنظرة سريعة سقطت بعدها يداه على ركبتيه. كانت الدهشة التي ارتسمت إلى وجهه مضحكة ولكنها لم تحملني على الضحك. وقال غاغين:

- أعيد القول بأنك امرؤ نبيل، ولكن ما العمل الآن؟ كيف؟ إنها بالذات ترغب في الرحيل، ثم تكتب إليك، وتلوم نفسها على تسرعها... متى تسنى لها أن تكتب إليك؟ ماذا تريد منك؟

هدأت من روعه، وأخذنا نتداول الرأي بما قدرنا عليه من الهدوء عما ينبغي أن نعمله.

وهذا ما اتفقنا عليه في النهاية: من أجل استدفاع المصيبة ينبغي أن أذهب إلى لقاء آسية، وأن أصارحها بشرف؛ على أن يبقى غاغين في البيت من دون أن يبدي ما يدل على أنه يعرف بأمر رسالتها، ثم نلتقي مرة ثانية في المساء. وقال غاغين وهو يشدّ على يدي:

- إن أملي بك وطيد. كن رحيماً بي وبها، فإننا راحلون غداً على كل حال.

ثم أضاف وهو ينهض واقفاً:

- ذلك لأنك على ما يبدو لن تتزوج بآسية.

فاعترضت قائلاً:

- أعطني مهلة حتى المساء.

- طيب، ولكنك لن تتزوجها.

ما إن ذهب غاغين حتى ارتميت على الأريكة وأغمضت عيني. كان رأسي يدور، فإن الأحاسيس التي اقتحمته دفعة واحدة كانت كثيرة. لقد ضاقت نفسي بصراحة غاغين، ومن آسية، فإن حبها أسعدني وأقلقني في آن واحد. ولم أستطع أن أهتدي إلى السبب الذي دعاها إلى البوح لأخيها بكل شيء، كان يمزقني أن لا مناص من اتخاذ قرار سريع يشبه أن يكون وليد اللحظة...

قلت وأنا أهب واقفاً: «الزواج بفتاة في السابعة عشرة من عمرها لها مثل ذلك المزاج، فهل هذا معقول؟!».

عبرت الراين في الموعد المحدد، كان أول وجه صادفته على الشاطئ الآخر ذلك الصبي الذي جاءني في الصباح، وكان ينتظرني فيما يبدو، فقد همس إليّ وهو يضع في يدي رسالة أخرى:

- هذه من فراولين Annette.

أنبأتني آسية إنها غيّرت زمان اللقاء ومكانه، فإن عليّ أن أجيء بعد ساعة ونصف الساعة من الموعد الأول، لا إلى المعبد بل إلى بيت فراو لويزة، وأن أقرع باب البناية ثم أصعد إلى الطابق الثالث.

وسألني الصبي:

- هل الجواب: نعم أيضاً؟

- نعم.

وذهبت أتمشى علي ضفاف الراين. لم يكن الوقت يسمح لي بأن أعود إلى البيت، ولا كنت راغباً في أن أطوف بالشوارع. كان وراء سور المدينة حديقة صغيرة مسقوفة فيها مكان لهواة «الكرة الخشبية» وموائد لعشاق البيرة، فدخلتها؛ ثمة نفر من الألمان الكهول يلعبون بهذه اللعبة، والكرات الخشبية تتدحرج في ضوضاء لا تتخللها صيحات الاستحسان إلا في القليل النادر. حملت إلي نادلة مليحة الوجه باكية العينين كوباً من البيرة، فلما نظرت في وجهها استدارت بتعجل وتولت عني.

- أي نعم - قال رجل سمين أحمر الخدين من أبناء البلد كان يجلس هناك - إن غانهيننا في اضطراب شديد اليوم فقد ذهب خطيبها إلى الخدمة العسكرية.

نظرت إليها حيث انتبذت ركناً قصياً وجلست مسندة رأسها إلى يدها والدموع تنفر قطرات من خلال أصابعها. طلب أحد الجالسين شيئاً من البيرة فحملت إليه الكوب وعادت إلى ركنها. لقد تأثرت بمصيبتها فأخذت أفكر في الموعد الذي ينتظرني، كانت خواطري كئيبة خالية من المرح، فإني ذاهب بقلب غير هادئ إلى لقاء لا ينتظرني فيه الاستسلام إلى أفراح حب متبادل، بل الوفاء بعهد قطعته لغاغين وتنفيذ هذا الواجب العسير. كانت كلمات غاغين: «لا

يجوز الهزل معها» تنفذ في روحي كالسهام. ولكن ألم أتحرق ظمأ إلى السعادة قبل أربعة أيام فقط وأنا في هذا القارب المحمول على الأمواج؟ لقد أصبحت السعادة قريبة المنال، وها أنا ذا أقف دونها متردداً، أهمّ بدفعها، بل إني مضطر إلى دفعها بعيداً عني... إن مفاجأتها لي قد أشاعت الحيرة والارتباك في نفسي. وأما آسية نفسها، فإنها على الرغم من رأسها الحامي وماضيها وتربيتها، فإن هذه المخلوقة الجذابة بل الغريبة بعض الشيء، أقول، لقد أخافتني. بقيت المشاعر تصطرع في داخلي وقتاً طويلاً. ثم اقترب الموعد المضروب، فقررت في آخر الأمر: «إنني لا أستطيع أن أتزوجها، ولن تعرف أيضاً إنني أحببتها».

نهضت فوضعت في يد غاغين المسكينة تاليرة (لم تنطق ولو بكلمة شكر) ثم توجهت إلى بيت فراو لويزة. كانت ظلال المساء قد بدأت تسيل في رحاب الفضاء، وفوق الشارع المعتم كانت فرجة ضيقة من السماء تبدو لامعة ببقايا الشفق القاني التي تركها الغروب. طرقت الباب طرقاً خفيفاً فانفتح في الحال، فلما تجاوزت وصيده وجدتني في ظلام دامس. وسمعت صوت عجوز تقول:

– هنا، إنها تنتظرك.

بعد خطوة أو خطوتين متلمستين، شعرت بيد هزيلة تطبق على يدي، فسألت:

– هل أنت فراو لويزة؟

فأجابني ذلك الصوت نفسه:

– هي أنا يا زينة الشباب.

قادتني العجوز إلى أعلى في سلم شديد الانحدار حتى بلغنا باحة الطابق الثالث، عندئذ رأيت على خيط ضعيف من النور يسقط من كوة صغيرة، وجه أرملة العمدة المتغضن وابتسامتها المداهنة التي وسّعت فمها الأهتم وضيّقت عينيها الحائلتي اللون. وأشارت نحو باب صغير، ففتحته بيد مترددة ثم أغلقته ورائي.

– ١٦ –

كانت الغرفة الصغيرة التي دخلتها شبه مظلمة حتى إني لم أتبين آسية في

الحال، ثم رأيتها جالسة إلى قرب النافذة، يلفّها شال طويل، وقد أدارت رأسها، وأخفت وجهها أو كادت، فكأنها الفرخ المروّع. كانت أنفاسها تتلاحق، وأوصالها ترتعد، فاعتصرني إشفاق عليها يفوق الوصف، وأقبلت عليها فأشاحت عني برأسها... فقلت:

- أنّا نيقولايفنا.

فاعتدلت بكل جسمها فجأة، ولكنها لم تقو على النظر إليّ، فأمسكت بيدها، كانت كفها باردة تسترخي كالميتة في يدي.

- كنت أتمنى - بدأت آسية الكلام وهي تحاول أن تبتسم فلم تطاوعها شفتاها الشاحبتان: - كنت أريـد... لا، فإني لا أستطيع - قالت ذلك وصمتت، فصوتها في الواقع كان ينقطع عن النطق عند كل كلمة.

جلست إلى قربها.

- أنّا نيقولايفناز.- أعدت ندائي ولكني شعرت أيضاً بالعجز فلم أضف شيئاً.

وخيّم الصمت. كنت لا أزال أمسك بيدها وأرنو إليها. أما هي فبقيت على حالها، منكمشة على نفسها، تتنفس بصعوبة، وتعضّ على شفتها السفلى في هدوء لتستدفع الانتحاب وتحتبس مسال الدموع... نظرت إليها: كان في سكونها المهيب شيء من العجز يثير الرحمة، فكأنها في جلستها قد سقطت على هذا النحو بعد أن أرهقها الجهد في الوصول إلى مقعد، وشعرت بقلبي يذوب بين جوانحي.

- آسية، - قلت بصوت يكاد لا يسمع...

فرفعت إليّ عينيها في بطء... وبالنظرة المرأة العاشقة، أين من يقدر على وصفها؟ كانت هاتان العينان تفيضان بالثقة، بالتساؤل، بالاستسلام... غلبني سحر هاتين العينين، واستشعرت في جسدي ناراً رفيعة تنفذ فيه كالإبر المحمّاة، فملت عليها، وضممت كفها إلى شفتي...

التقطت أذني همساً مرتجفاً يشبه الزفرة المتقطعة، وأحسست على شعري بلمس رقيق من يدها المرتعشة كورقة الشجر. رفعت رأسي فرأيت وجهها،

ولشدّ ما تغيّر هذا الوجه فجأة! لقد تبددت منه صورة الخوف، وانطلقت نظرتها في الأبعاد القصيّة وهي تشدني إليها وتتجاذبني، وانفرجت شفتاها قليلاً، وشحب جبينها شحوب المرمر، وانسابت خصلات شعرها إلى وراء كأنها تواجه الريح. لقد نسيت كل شيء. جذبتها إليّ فاستسلمت يدها واستجاب جسدها كله ليدها، انزلق الشال عن كتفيها، واستراح رأسها في هدوء على صدري، ثم رقد تحت شفتيّ الملتهبتين...

- إني لك...- همست بصوت خافت.

انزلقت يداي حول خصرها... ولكن ذكرى غاغين لمعت في خاطري فجأة كالبرق، فصحت وأنا أتراجع إلى وراء:

- ماذا نحن فاعلون؟... إن أخاك... إنه يعرف كل شيء... ويعرف أنني معك على لقاء.

انهارت آسية على الكرسي.

تابعت كلامي وأنا أنهض وأبتعد إلى زاوية في أقصى الغرفة:

- نعم، إن أخاك يعرف كل شيء... لقد وجب عليّ أن أفضي إليه بكل شيء.

- وجب؟- تمتمت آسية بصوت ضائع، كان واضحاً أنها لم تستعد زمام نفسها، و لم تفهم من قولي إلا قليلاً.

- نعم، نعم،- قلت مكرراً في شيء من الحدة:- في هذا أنت وحدك المذنبة، أنت وحدك. فعلام أفشيت سرّك؟ ماذا حداك على الإفضاء إلى أخيك بكل شيء؟ كان أخوك بالذات عندي اليوم، وهو الذي نقل إليّ ما تحدثت به إليه.- بذلت جهدي كي أتحاشى النظر إلى آسية، كنت أذرع الغرفة بخطوات واسعة.- لقد ضاع كل شيء الآن، كل شيء، كل شيء.

همّت آسية أن تنهض عن الكرسي، فصحت بها:

- تمهّلي، أرجوك. إنك تتعاملين مع إنسان شريف، نعم، مع إنسان شريف. ولكن أخبريني إكراماً لله ماذا حداك إلى القلق؟ هل لاحظت عليّ شيئاً من التغير؟ أما أنا فما كنت قادراً على التكتم حينما جاءني أخوك اليوم.

وفكرت: «ما هذا الذي أقوله؟» كانت تجلجل في رأسي هذه الفكرة، وهي إنني كاذب عديم الأخلاق، وإن غاغين يعرف أمر موعدنا، وأن كل شيء أصبح شائهاً مفتضحاً.

وسمعت آسية تقول في همس خائف:

– إني لم أدع أخي بل جاء من تلقاء نفسه.

فتابعت قولي:

– لقد فعلت ما فعلت، فانظري، وها أنت بعد هذا تريدين الرحيل...

فهمست بصوت خفيض هادئ:

– نعم، ينبغي أن أرحل، وما رجوتك أن تأتي إلى هنا إلا لأودعك.

فقاطعتها:

– هل تظنين أن فراقك سيكون سهلاً عليّ؟

فكررت آسية في حيرة:

– وإذن لماذا أخبرت أخي؟

– افهميني، لم يكن لي من سبيل آخر. ويا ليتك أنت لم تبوحي بسرّ قلبك...

فاعترضت ببساطة:

– لقد حبست نفسي في غرفتي و لم أعرف أن صاحبة المنزل عندها مفتاح آخر...

كاد هذا الاعتراف البريء الذي نطقت به في تلك الدقيقة أن يثير غضبي وقتذاك... أما الآن فلا أستطيع أن أذكره من دون حسرة على الطفلة المسكينة الطاهرة الصادقة!

– وها هو كل شيء ينتهي الآن! – بدأت الكلام من جديد. – كل شيء، وينبغي علينا أن نفترق.– ونظرت خفية إلى آسية... فإذا وجهها يحمرّ فجأة، وشعرت بأنها تعاني إحساساً غامراً بالخجل والخوف، كنت أنا أيضاً أذرع الغرفة وأهذي كالمحموم.– إنك لم تتركي مجالاً تنمو فيه العاطفة

التي أخذت في النضج، قطعت ما بيننا من الأواصر، لم تثقي بي، شككت في أمري...

في أثناء مضيي بهذا الكلام كانت آسية تنحني شيئاً فشيئاً إلى الأمام، وفجأة سقطت على ركبتيها، ورمت رأسها بين كفيها وهي تشهق من البكاء. أسرعت إليها وحاولت أن أعينها على النهوض فكانت تتعصى عليّ وتستدفعني. لم يكن لي طاقة على اح تمال دموع النساء، فإني لا أكاد أراها حتى أفقد صوابي في الحال:

- أنا نيقولاييفنا، آسية،- قلت في إلحاح:- أرجوك، أتوسل إليك، كفاية إكراماً لله...- وأخذت بيدها من جديد... لكنها ويا لدهشتي، هبّت فجأة، واندفعت كومضة البرق نحو الباب، واختفت.

حينما دخلت فراو لويزة عليّ الغرفة بعد بضع دقائق، كنت لا أزال واقفاً في وسطها كالمصعوق: لم أفهم كيف انتهى هذا اللقاء على مثل ما انتهى إليه من السرعة والحماقة. انتهى قبل أن أقول ولو جزءاً صغيراً مما أردت أن أقول، ومما يجب عليّ أن أقوله، بل قبل أن أعرف ما هو الحلّ الذي ينبغي أن يختتم به هذا اللقاء...

سألتني فراو لويزة وهي ترفع حاجبيها الأصفرين إلى شعرها المستعار:

- هل ذهبت الفراولين؟

فنظرت إليها كالملتاث وخرجت.

- ١٧ -

تركت المدينة، وانطلقت في الحقول، يمزقني الغيظ، وكان غيظاً مسعوراً... جعلت أنحي على نفسي باللوائم: كيف فاتني أن أدرك السبب الذي حمل آسية على تغيير مكان اللقاء، وأي ثمن استأداها اللجوء إلى هذه الحيزبون، ولماذا لم أمسكها عن الذهاب! ففي تلك الغرفة الصماء الغبشاء التي انفردت فيها بآسية، وجدت القوة والجرأة على صدها عني، بل حتى على تأنيبها... أما الآن فإن صورتها تلاحقني، وأنا أسألها الغفران، وتحرقني منها الذكريات، عن وجهها الشاحب، عن عينيها المبللتين الحائرتين، عن شعرها المسترسل على عنقها المائل، عن رأسها وهو يلتمس الاطمئنان على

صدري. كنت أسمع همستها: «أنا لك»... فأؤكد لنفسي: «إنني استجبت لنداء الضمير»... ولم يكن ذلك حقيقة! فهل أردت مثل هذا الحل بالذات؟ هل كنت قادراً على الافتراق عنها؟ هل أصبر على الحرمان من قربها؟ «مجنون، مجنون!» - كنت أردد ذلك بغضب...

وبين هذا وذاك أقبل الليل، فتوجهت بخطوات واسعة إلى البيت الذي تقيم فيه آسية.

- ١٨ -

خرج غاغين للقائي، وصاح قبل أن يصل إليّ:

- هل رأيت أختي؟

فسألته:

- أليست في البيت؟

- لا.

- أما عادت بعد؟

- لا.- وأضاف غاغين قائلاً-: اعذرني، فقد غلبني فراغ الصبر، فذهبت إلى المعبد على خلاف ما اتفقنا، لم تكن هناك، فهل أخلفت الميعاد؟

- إنها لم تكن عند المعبد.

- ألم تقابلها؟

فاضطررت إلى الاعتراف بأني قابلتها.

- أين؟

- في بيت فراو لويزة، ثم افترقنا منذ ساعة.

وأضفت:

- كنت على يقين من أنها عادت إلى البيت.

فقال غاغين:

- سننتظر.

دخلنا البيت، وجلسنا بجنب بعضنا البعض صاتين. كنا في غاية الضيق،

لا ننقطع عن التلفت نحو الباب، وإصاخة السمع، ثم نهض غاغين وهو يصيح:

- هذا شيء ما له شبيه أبداً! أصبح قلبي على شعرة، وستقصف عمري أقسم بالله... هيا نخرج للبحث عنها.

خرجنا. وكان الظلام مطبقاً في الخارج.

سألني غاغين وهو يشدّ قبعته على عينيه:

- وفيم جرى حديثك معها؟

فأجبت:

- لم يستغرق لقائي بها سوى خمس دقائق ليس غير، حدثتها بما جرى عليه الاتفاق.

فقاطعني قائلاً:

- أتعرف؟ من الخير لنا أن نفترق، فهذا أجدى علينا في البحث عنها؛ ولتعد إلى هنا بعد ساعة على كل حال.

- ١٩ -

انحدرت مسرعاً من الكرمة، وانطلقت في المدينة أمسح شوارعها جميعها بنظرة عجلى. نظرت في كل ناحية حتى في نوافذ فراو لويزة، ثم عدت إلى الراين فقطعت شاطئه ركضاً... صادفت قليلاً من النساء، ولكني افتقدت آسية في كل مكان. لم يعد يأكلني الغيظ بل إنه الرعب الخفي الذي يمزق الأوصال... ولكن لا، فقد كنت أشعر بالندم، بحرقة لأسف، بالحب، بأرق ما يكون الحب! كنت أعتصر كفي وأنادي آسية في ظلمة الليل الزاحفة، ناديتها بصوت خفيض، ثم ارتفع صوتي شيئاً مكرراً مئة مرة إنني أحبها. أقسمت ألاّ أفارقها أبداً، كنت قميناً بأن أهب كل ما في الوجود تلقاء تجدد عهدي بلمس يدها الباردة، والاستماع لنبرتها الخافتة، ورؤيتها أمامي... لشدّ ما كانت قريبة مني، وقد جاءت إلي بملء عزمها، بملء قلبها البريء وإحساسها النقي، وحملت إلي شبابها الذي لم يمسّه بشر... فلم أضمها إلى صدري، حرمت نفسي هناءة النظر إلى وجهها الحبيب وهو يشرق بالغبطة والابتهاج الهادئ... كانت هذه الخاطرة تدفع بي إلى الجنون.

صرخت من قرارة يأسي العاجز:- «أين أمكنها أن تذهب، وماذا تراها صنعت بنفسها؟» تراءى لي في تلك اللحظة، طيف أبيض على الضفة ذاتها من الراين، في موضع كنت أعرفه من قبل، فهناك يقوم صليب من الحجر غاص نصفه في الأرض، حيث يثوي رجل مات غرقاً قبل سبعين سنة أو أكثر، وعلى الصليب نقوش قديمة. فجمد قلبي في صدري... ثم انطلقت أجري نحو الضريح، وكان الطيف قد اختفى، صرخت منادياً: «آسية!»، فأرعبني صوتي الرعيب، و لم يرد عليّ أحد.

اعتزمت أن أعود لأتبين هل وجدها غاغين؟

- ٢٠ -

كنت أصعد في الدرب خلال الكرمة حينما رأيت النور يضيء في غرفة آسية... فهدأ روعي قليلاً.

واقتربت من الدار، كان الباب الأمامي مغلقاً. طرقته ففتحت كوة غير مضيئة في الطابق الأسفل بيد محاذرة، وظهر رأس غاغين. فسألته:

- هل وجدتها؟

أجاب في همس:

- بل عادت، وهي في غرفتها تستبدل ثوبها، وكل شيء في مجراه.

فهتفت مندفعاً بفرح يفوق الوصف:

- الحمد لله! الحمد لله! كل شيء في مجراه الآن، ولكن لا بدّ أن نستأنف المحادثة.

- في وقت آخر - اعترض غاغين وهو يجذب إليه إطار الكوّة:- في وقت آخر، أما الآن فوداعاً.

فقلت:

- إلى الغد؛ كل أمر سيكون مقضياً في الغد.

فكرر غاغين قوله: «وداعاً»، وانغلقت النافذة.

أوشكت أطرق على النافذة، فقد أردت أن أقول لغاغين آنئذ: إنني أطلب يد أخته. ولكن ما هذه الخطبة في مثل هذا الوقت... فقلت في نفسي:- «إلى الغد، فإنني سأكون سعيداً في الغد...».

غداً أكون سعيداً! إن السعادة ليس لها غد، وليس لها أمس، فهي لا تتذكر الماضي ولا تفكر في المستقبل، فإنها بنت الحاضر، وليس هذا الحاضر يوماً، وإنما هو لحظة.

لست أذكر كيف وصلت إلى «ز»، فلم تحملني قدمان، ولا نقلني قارب، وإنما ارتفعت على أجنحة عريضة قوية. وقد مررت قرب شجيرة فيها بلبل يغرد، فوقفت أصغي، وخيل إليّ أنه يغرد بحبي وسعادتي.

- ٢١ -

حينما كنت أقترب من البيت المألوف في صباح اليوم التالي، أذهلني أن أرى النوافذ جميعاً مفتوحة على مصاريعها، وكذلك الباب؛ وعلى وصيده ينتثر بعض الأوراق، وإليه خادمة في يدها مكنسة.

اقتربت منها...

وقبل أن أسألها: «هل غاغين في البيت؟» بدهتني قائلة:

- رحلوا!

- رحلوا؟..- كررت قولها.- كيف رحلوا؟ إلى أين؟

- رحلوا اليوم صباحاً في الساعة السادسة و لم يقولوا إلى أين. ولكن لحظة، ألا يبدو أنك السيد «ن»؟

- نعم، أنا السيد «ن».

- لك رسالة مودعة عند صاحبة البيت.

وصعدت الخادمة إلى فوق ثم عادت بالرسالة:

- هذه هي، تفضل.

قلت:

- ولكن هذا غير ممكن... كيف حدث ذلك؟...

فحدقت الخادمة إليّ في غباء وأخذت في الكنس.

فتحت الرسالة التي كتبها غاغين إليّ، لم يكن فيها سطر واحد من آسية، وقد استهلها بالرجاء ألاّ أغضب من رحليه المفاجئ، وبالثقة من إنني

سأستحسن قراره بعد إمعان النظر في الأمر، فإنه لم يجد من هذا الضيق مخرجاً آخر بعد أن تعقد الموقف وأنذر بالخطر. وكتب غاغين يقول: «لقد اقتنعت بأن الفراق ضربة لازب أثناء صمتنا ونحن نجلس معاً منتظرين آسية، فهناك تقاليد بالية شعر لها بالاحترام؛ فلا يفوتني أن أفهم أنه لا يجوز عليك أن تتزوج آسية. لقد حدثتني بكل شيء، واضطرني توفير الاستقرار لها إلى الإذعان لما طلبته هي في إلحاح وشدّة». ثم أعرب في خاتمة الخطاب عن أسفه على السرعة التي اقتضبت هذا التعارف بيننا، وتمنى لي السعادة، وشدّ على يدي في ودّ، وتوسل إليّ ألاّ أجدّ في البحث عنهما.

صرخت وكأنّه يسمعني:

– أين موضع التقاليد هنا؟ ما هذا العلك؟ ومن أين لك الحق في خطفها مني؟...– وأمسكت رأسي بيدي...

انفلتت الخادمة تنادي صاحبة المنزل بصوت ثابت، فأعادني فزعها إلى رشدي، وتأججت في باطني فكرة واحدة، وهي أن أجدهما، أن أجدهما مهما كلف الأمر. كان تقبل الصدمة والاستسلام لمثل هذه القطيعة مما يفوق الطاقة. علمت من صاحبة البيت أنهما ركبا في الساعة السادسة صباحاً سفينة أقلعت بهما متوجهة مع تيّار الراين. قصدت إدارة الميناء فأنبئت هناك بأنهما أخذا بطاقتي سفر إلى كولونيا. مضيت إلى البيت لأعفش متاعي وأركب النهر في أثرهما. كان لا معدى لي عن المرور بقرب بيت فراو لويزة... وهناك طرق سمعي صوت يناديني. رفعت رأسي فرأيت أرملة العمدة تطل من نافذة الغرفة التي قابلت فيها آسية أمس، كانت تدعوني بابتسامتها المكروهة، فأدبرت عنها وتابعت طريقي، ولكنها صاحت ورائي تقول: إن عندها شيئاً لي. استوقفتني هذه الكلمات فدخلت بيتها. وكيف يحيط الوصف بالمشاعر التي انتابتني وأنا أرى هذه الغرفة مرة ثانية...

قالت العجوز وهي تعرض عليّ رسالة صغيرة:

– كان المفروض أن أسلمك هذه الرسالة إذا مررت بي من تلقاء نفسك، ولكنك شاب رائع فإليك بها.

أخذت الرسالة.

كانت رقعة صغيرة من الورق تحمل هذه الكلمات مسطورة في تعجّل بالقلم الرصاص:

«الـوداع، لن يرى أحدنا الآخـر بعد اليوم. إني لم أرحـل بدافع من الكبرياء – لا، فما كان لي من سبيل آخر. لقد بكيت أمامك أمس، ولو أنك قلت لي كلمة واحدة، كلمة ليس غير – لآثرت أن أبقى، ولكنك لم تقلها، ويبدو أن هذا هو الأحسن... فوداعاً إلى الأبد!».

كلمة واحدة... آه، إني لمجنون! فقد قلت هذه الكلمة من قبل... رددتها بين الدموع... أطلقتها مع الريح... أكدتها في رحاب الحقول... ولكني لم أقلها لمن ينبغي أن تقال له، لم أقل لها إنني أحبها... نعم، لم أستطع وقتذاك أن أنطق بهذه الكلمة. فعندما قابلتها في تلك الغرفة النحس، لم أكن قد تبينت عاطفتي بجلاء، لم يتفتح هذا الإدراك حتى وأنا جالس مع أخيها يخيّم علينا ذلك الصمت الثقيل الأجوف... ولكنه اندلع بقوة طاغية بعد لحظات فقط، حينما كنت أبحث عنها وأناديها بقلب مفزوع من أن يكون في الأمر كارثة... ولكن ذلك جاء بعد فوات الأوان. قد يقال: «إن هذا مستحيل!»، ولا أدري أتكون الحال كذلك أم لا – ولكن ما أعرفه أن هذا حقيقة: إن آسية ما كانت لترحل لو أنها على مسحة من التغنج، أو كان وضعها خالياً من الزيف. إنها لم تكن تطيق ما يمكن أن تطيقه أي فتاة غيرها، وهذا ما فاتني أن أدركه؛ لقد احتبست المعيتي المشؤومة اعترافاً كان على فمي أثناء لقائي الأخير بغاغين أمام النافذة المظلمة، وبذلك أفلت من يدي الخيط الأخير الذي بقي مما أتعلق به.

عدت إلى مدينة «ل» في ذلك اليوم نفسه ومعي حقيبة ثيابي ثم ركبت قاصداً كولونيا. وأذكر أن السفينة أقلعت وأنا على ظهرها أودع بالفكر هذه الشوارع بكل ما فيها من الأماكن التي قدر عليّ أن لا أنساها ما حييت. وهنا رأيت غانهين. كانت تجلس على مصطبة تشرف على النهر، شاحبة الوجه ولكن في غير حزن، وإلى جنبها فتى جميل الطلعة يحدثها ويضحك. وعلى الضفة الأخرى من الراين، كانت عذرائي الصغيرة لا تزال ترنو بنظرتها الأسوانة، وقد تراءى لي تمثالها من خلال الخضرة القاتمة التي تنشرها شجرة السنديان العتيقة.

- ٢٢ -

في كولونيا وقعت على أثر لآل غاغين. عرفت أن الأخوين سافرا إلى لندن، فتبعتهما، ولكن البحث عنهما في لندن انتهى إلى إخفاق. بقيت وقتاً طويلاً أدافع عوامل الاستسلام وأقاوم، ثم اضطررت في نهاية المطاف إلى التسليم بأنني فقدت كل أمل في العثور عليهما.

لم أرهما فيما بعد – لم أر آسية. بلغتني شائعات مظلمة عنه، أما هي فقد اختفت، واختفى عنها كل أثر وخبر، بل إني لا أعرف أهي باقية على قيد الحياة أم لا. وفي ذات يوم، بعد مرور بضع سنين، وكنت خارج حدود البلاد، لمحت امرأة في عربة القطار، فذكرني وجهها في وضوح بتلك القسمات التي لا تنسى... ولكن المرجح أنني خدعت بهذا الشبه الذي جاء بالمصادفة؛ وبقيت آسية في خاطري هذه الفتاة التي عرفتها في أزهى مراحل العمر، ورايتها آخر مرة وهي تميل على مسند كرسي خفيض من خشب.

ولكن لا بدّ من الاعتراف بأن حزني عليها لم يستمر وقتاً طويلاً، وزدت على هذا فوجدت أن القدر أحسن صنعاً حين أبى أن يجمع بيني وبين آسية؛ وعزّيت نفسي بالاعتقاد أن زوجة على هذه الشاكلة لن تهيئ لي اسباب السعادة. كنت شاباً وقتذاك، وكان المستقبل، هذا المستقبل القصير السريع، يبدو لي رحيباً بغير نهاية، وفكرت: ألا يمكن أن يتكرر ما كان، على وجه أبدع وأروع؟... ثم عرفت من عرفت من النساء، ولكن العاطفة التي أثارتها آسية في نفسي، بما في هذه العاطفة من التوقد والرقة والعمق، لم تتكرر فيما بعد. كلا! فما كان بين العيون بديل يعوضني من هاتين العينين اللتين رأيتهما ذات حين ترنوان إليّ في حب، ولم يستجب قلبي بمثل هذا الخشوع وهذا الفرح العذب لأي قلب آخر خفق على صدري! وفي هذه الوحدة التي يحكم بها عليّ، على عزب محروم من الأسرة، فإني أعيش سنواتي الأخيرة الموحشة، ولكني أحتفظ بمثل ما يكون الحفاظ على المقدسات بالرسالتين الصغيرتين، وبزهرة الغيرانيوم التي رمتني بها من نافذتها. إنا جافة الآن، ضعيفة العبير، أما اليد التي أعطتني إياها، هذه اليد التي لم أرفعها إلى شفتي إلا مرة واحدة، فقد تكون ثاوية في قبرها منذ زمن بعيد... وأنا نفسي، إلى أي مصير صرت، ما الذي بقي مني، ومن تلك الأيام السعيدة المضطرمة

بالانفعالات، ومن تلك الأحلام والمطامح المجنحة؟... وإذن، فإن نفحة خفيفة من عشبة تافهة، أقدر على البقاء من أفراح الإنسان وأحزانه كلها، بل هي أقدر على البقاء من الإنسان نفسه.

عام ١٨٥٨

الحب الأول[1]

ترجمة: مواهب الكيالي

إهداء إلى ب.ف. أنينكوف

... كان الضيوف قد انصرفوا منذ وقت طويل ودقت الساعة مؤذنة بانتصاف الواحدة، و لم يبق في الغرفة إلا صاحب الدار وسيرغي نيقولايتش وفلاديمير بيتروفيتش.

قرع صاحب الدار جرساً يدعو الخادم إلى لملمة آثار العشاء عن المائدة، ثم قال وهو يسترخي في مقعده وبيده سيجار:

- وإذن فقد اتفقنا على أن يقصّ كلّ منا قصة حبه الأول، وهذا دورك يا سيرغي نيقولايتش.

فالتفت سيرغي نيقولايتش، وهو رجل جسيم لحيم منتفخ الوجه، أبيض البشرة، أشقر الشعر، ونظر إلى صاحب الدار، ثم رفع بصره إلى أعلى، وقال بعد لأي:

- لم يكن لي حب أول، وإنما بدأت بحبي الثاني.

- وكيف كان ذلك؟

١- الحب الأول: نشرت هذه الرواية القصيرة في عدد آذار لمجلة «ببليوتيكا دلا جتينيا» (مكتبة المطالعة) لعام ١٨٦٠، مهداة إلى بافل أنينكوف (١٨١٣ - ١٨٨٧) الناقد الأدبي ومؤلف المذكرات الروسي، صديق تورغينيف، وقد كرّس لإنتاجه مقالات عديدة.

– لا أبسط. كنت في الثامنة عشرة من عمري حينما تصبيّت، أول مرة، فتاة جميلة، ولكني تصرفت كأنما ليس في الأمر جديد، وكما تصبيّت غيرها فيما بعد. والواقع، أن غرامي الأول والأخير، كان بمربيتي، وأنا في السادسة من عمري، ولكن هذا أصبح ذكرى بعيدة، دارسة المعالم. ولو أني وقفت إلى ابتعاثها فمن ذا الذي يلقي إليها ببال؟

فقال صاحب الدار:

– ما العمل إذن؟ لم يكن في غرامي الأول مستطرف يغري بالاستماع، فما صبوت إلى امرأة حتى التقيت زوجتي، ولا تزال، أنّا إيفانوفنا. وقد سار كلّ شيء في لين ويسر، فدبّر والدانا أمورنا، وما أسرع ما تبادلنا الحب، فابتدرنا الزواج، لا تزيد قصتي على كلمتين. لست أكتمكم أيها السادة، أنني كنت موصول الأمل بكما حينما أثرت موضوع الحب الأول، فإنكما وإن لم تطعنا في السنّ، فما أنتما من العازبين الشباب، فهل لك يا فلاديمير بيتروفيتش أن تمتعنا بما يحضرك؟

فقال فلاديمير بيتروفيتش في تردد، وهو رجل في الأربعين من عمره، وخط المشيب شعره الأسود:

– إن حبي الأول، يتجاوز في الواقع حدود المألوف.

– آه!– صاح صاحب الدار وسيرغي نيقولايتش في آن واحد.– ذلك خير فارْوِ علينا حديثك.

– لا مانع، ولكن أستسمحكما بألاّ أفعل فما أنا ممن يجيدون الرواية، فقد تأتي جافة بإيجازها، أو زائفة بأطنابها، ولو أذنتما في أن أكتب ما تسعفني به الذاكرة، وأتلوه عليكما فيما بعد.

رفض رفيقاه هذا العرض أول الأمر، ولكنهما انتهيا إلى ما ارتآه فلاديمير بيتروفيتش، وقد وفى بما وعد حين اجتمعوا بعد أسبوعين. وها هو ذا ما جاء في أوراقه:

– ١ –

كنت في السادسة عشرة من عمري، وقد حدث ما سأرويه في صيف عام ١٨٣٣.

كنت أعيش في موسكو مع أبويّ، وكانا قد استأجرا دارة[1] قرب بوابة كالوجسكايا، تجاه حديقة «نيسكوتشني ساد». وكنت أستعد لدخول الجامعة، فأدارس ولكن في ريث وتمهّل.

كانت حريتي مدى مفتوحاً، لي فيه أن أفعل ما أشاء، وبخاصة بعد أن حلّ عني معلمي الأخير، وهو رجل فرنسي لم يكن لينسى أنه سقط على روسيا كالقنبلة (comme une bombe)، فكان يتمدد في سريره طوال النهار، وعلى وجهه سمة الغضب. كان أبي يأخذني باللطف من دون اكتراث، وأما أمي، فإنها تكاد لا تشعر بأمري، على الرغم من أني وحيدها، لأنها في شغل شاغل بهموم قلبها. كان أبي شاباً جميلاً، وقد تزوجها لثرائها، وهي تكبره بعشر سنين. فكانت حياتها تتصرم أسوانة حزينة، فما تقيم إلا على قلق، وغيرة، وغضب، ولكنها تتكتم ذلك كله في حضرته، إذ كانت تتهيبه وتخشاه، وكان هو في سلوكه، بارداً صارماً عديم الاكتراث... لم يقع بصري على من يضارع أبي في رزانته واعتداده بنفسه وقوة تأثيره.

لن أنسى الأسابيع الأولى التي قضيتها في تلك الدارة، كان الجو رائعاً حينما غادرنا المدينة في التاسع من شهر نوار (مايو)، وهو يوم القديس نيقولاي، وكنت تارة أتجول في حديقة دارتنا، أو في حديقة «نيسكوتشني ساد»، أو أتخطى حدود البلدة. وكنت أتأبط ما يقرأ، مثل كتاب كايدانوف[2]، أو مما على هذه الشاكلة، ولكني أكاد لا أفتحه إلا في النادر، بل كنت أقضي أكثر الوقت في إنشاد الشعر الذي أجيد حفظ الكثير منه وأنشده بصوت عال. كان دمي يفور، وقلبي يخالطه ألم لذيذ غريب، كنت في حال من الترقب لأمر، والخوف من هذا الأمر، أراني مدهوشاً من كل شيء، مترقباً كل شيء، كان خيالي يلعب، ويحوم مسرعاً حول عدد من الآراء، يبدئ فيها ويعيد، كما يحوم طير الخطاف حول برج الناقوس عند انشقاق الفجر. كنت أستغرق في التفكير أو أغرق في الأسى، وقد يستبدّ بي البكاء، ولكن خلل الدمع

١- ما يقابل معنى الفيلا، أو الداتشا عند الروس. (المعرب).

٢- ي. كايدانوف، الأستاذ في ليسيه (مدرسة ثانوية) تسارسكويه سيلو في أعوام (١٨١١ - ١٨٤١) مؤلف كتب مدرسية في التاريخ أعيد طبعها عدة مرات. والمقصود هنا كتابه «المرشد إلى معرفة التاريخ السياسي العام».

والشجى، يبتعثهما شعر عذب أو مساء جميل، كان ينبثق هذا الشعور من المراح الذي تصطبغ به حياة الشباب، كما يبرض العشب من الثرى في الربيع.

كان لي جواد، فكنت أسرجه بيدي، وأنطلق به وحيداً، بعيداً، وأنا أتصور أنني فارس في حلبة (ويا للغبطة حينما كانت الريح تصفر في أذني)، أو أرفع وجهي إلى السماء، لأنهل بملء روحي من إشراقها وزرقتها.

ذكر أنني حتى ذلك الحين، لم أكن قد تمثلت صورة المرأة، ولا الإثارة من حب المرأة، على نحو واضح، ولكن كل ما أفكر فيه، وكل ما شعر به، كان ينطوي على شبه إحساس مسبق خفيّ حيّ بشيء لذيذ أنثوي.

كانت هذه الخواطر، وهذا الترقب، تخالط كياني جميعاً، فأتنفس بها، وأستشعرها نبضاً في عروقي، وفي كل قطرة من دمي... وما أسرع ما تهيأ لها أن تتحقق.

كانت دارتنا تتألف من بيت كبير مزين بأعمدة، ومن جناحين منخفضي السقف، كان في أحدهما الواقع في الجانب الأيسر، مشغلة صغيرة لصنع ورق الجدران الرخيص. فكنت أتردد عليها كثيراً لأنظر إلى نفر من صبيان نحاف عجاف، شعث غبر، في أسمال قذرة، ووجوه شاحبة، وهم يتوثبون على أمخال من الخشب، حملت على إطار المطبعة المستطيل، ضاغطين بثقل أجسادهم الضامرة، لطبع الزخارف الملونة على الورق. وكان الجناح الأيمن خالياً معروضاً للاستئجار.

في ذات يوم، بعد مضي ثلاثة أسابيع على التاسع من شهر نوار (مايو)، انفتحت النوافذ في هذا الجناح، وظهرت فيها وجوه نسائية، ذلك أن إحدى الأسر قد انتقلت إليه. أذكر أن أمي سألت الوصيف في أثناء الغداء: من يكونون جيراننا الجدد؟ فلما سمعت اسم الأميرة زاسيكينا، قالت في شيء من التهيب: «آه... أميرة»، ثم أضافت قائل: «لعلها أن تكون في عسر».

وقال الوصيف وهو يضع في احترام طبقاً على المائدة:

– لقد أقبلوا في ثلاث عربات، ولكنهم لا يملكون عربة خاصة، وكان المتاع رخيصاً.

فقالت أمي:

- نعم، ولكني مسرورة على كل حال.

وعندئذ رماها أبي بنظرة باردة فسكتت.

وما كان للأميرة زاسيكينا، أن تكون في الواقع، امرأة من أهل الثراء، ذلك أن الجناح الذي استأجرته، كان على حال من التهافت والضيق والوطاء، تتأبّى فيها أي أسرة أن تسكنه، إذا كانت على شيء من أسباب اليسر. ولكني ما كنت لأبالي بهذا الحديث وقتذاك، ولم يؤثر في لقب الأمارة، لأن عهدي بمطالعة مسرحية «اللصوص» لشيللر[1] لم يكن بعيداً.

- ٢ -

درجت على عادة التطواف كل مساء في حديقة الدارة، ومعي بندقية، هناك كنت أتربص للغربان، مدفوعاً بشعور قديم من الكراهية لهذا الطائر المستريب الماكر المفترس. وتوجهت إلى الحديقة في ذلك اليوم الذي أتحدث عنه، وبعد أن سلكت مساربها جميعاً على غير طائل (كانت الغربان قد عرفتني فأخذت تنعب من بعيد بصرخات قصيرة) رأيتني فجأة قرب السياج الخفيض الذي يفصل بين أرضنا، وبين حديقة ضيقة، واقعة وراء الجناح من الناحية اليمنى وتابعة له. فذهبت أسير مطرقاً برأسي، فإذا أصوات تطرق سمعي، فنظرت عبر السياج، فجمدت حتى لكأنني أصبحت حجراً، ذلك أنني أبصرت مشهداً ولا أغرب منه.

فهناك على بعدة خطوات من موقفي، عند منفسح بين شجيرات توت خضر، كانت تقف فتاة سامقة القد رشيقة اللفتة، في فستان ورديّ مخطط، ومنديل أبيض على رأسها، وحولها أربعة شبان، وهي تجبهُهم بتلك الأزهار الرمادية الصغيرة التي لا أعرف اسمها، على حين يعرفها الأطفال جميعاً، وتكون نواويرها حقاقاً صغيرة، تنفجر وتطق إذا اصطدمت بجامد. كان الشبان يعرضون جباههم مغتبطين. وكانت لفتات الفتاة وإيماءاتها - وكنت أرى إليها من جانب - تنطوي على قدر من الجلال والحنو والجاذبية وعلى

١- «اللصوص» دراما الشاعر الألماني العظيم شيللر (١٧٥٩ - ١٨٠٥) فيها احتجاج على الطغيان، وقد أثرت تأثيراً قوياً في الشبيبة الروسية في العشرينات والثلاثينات من القرن التاسع عشر.

شيء من السلطان والسخرية، أكاد فيه أصرخ من الإعجاب والرضى؛ كنت على استعداد لأن أعطيها العالم، تلقاء لمسة تجبهني بها هذه الأصابع الرقيقة. انزلق سلاحي على العشب، وأنا ذاهل عن كل شيء، سوى النظر إلى هذا القوام الأهيف، وهذا الخصر الهضيم، وهذا العنق المستقيم، وهاتين الذراعين الجميلتين، وهذا الشعر الأشقر تطل ذوائبه من ثنيّات منديلها الأبيض، وهاتين العينين الذكيتين الناعستين تظلّهما رموشها الوطف، وهذا الخدّ الأسيل تحت تلك الرموش الوطفاء...

– أيها الشاب،– ارتفع صوت على قربي – أمن المباح أن تحملق على هذا النحو في فتيات لم تتعرف إليهن؟

فانتفضت بالمفاجأة، ولم أحر جواباً... كان ثمة رجل ذو شعر أسود قصير يقف قريباً مني وراء السياج، ويرمقني بنظرة ساخرة، وتلفتت الفتاة في اللحظة ذاتها نحوي... فريت العينين الرماديتين الكبيرتين في وجهها الطلق المراح، وترتعش قسمات هذا الوجه فجأة بالضحك، فتتلألأ أسنانها البيضاء، ويشيل حاجباها... فاحمررت وأخذت سلاحي من الأرض، وانطلقت إلى غرفتي، تصخب ورائي ضحكات مرنان، ولكنها بريئة من السوء. ارتميت على السرير مخفياً وجهي بكفيّ، وقلبي يتوثب في صدري، وشعور بالخجل والمرح في آن يملأ نفسي، وانفعالات ما عهدت مثلها من قبل تضطرب في أعماقي.

وبعد أن استرحت قليلاً، قمت أمشط شعري، وأصلح من أمري، ثم نزلت لتناول الشاي، كانت صورة الفتاة الشابة تتلامح أمامي، وحار قلبي إلى السكينة بعد توثبه، ولزبته خفقة لذيذة.

سألني أبي فجأة:

– ما بك؟ هل قتلت غراباً؟

فوددت أن أروي عليه ما حدث، ولكني أمسكت، وأنا أبتسم في داخلي، ولا أدري لَم درت على كعب واحد ثلاث مرات قبل أن أستلقي في الفراش، ثم تطيّبتَ، ونمت طوال الليل كالقتيل، ولم أستيقظ إلاّ لحظات عند الفجر، حيث رفعت رأسي، ونظرت فيما حولي في غبطة، وعدت أستغرق في النوم.

كان أول ما خطر لي حينما استيقظت في الصباح: «كيف السبيل إلى التعرف بهم؟»، وقبل أن أتناول الشاي، ذهبت أسعى إلى الحديقة، دون أن أمضي قريباً من السياج، ولم أر أحداً هناك، ثم خرجت بعد الفطور أقطع الشرع الممتد أمام الدارة، ذهاباً وجيئة، وأنا أرمق النوافذ من بعيد... وخيل إليّ أنني لمحت وجهها من شفوف الستائر، فابتعدت في خوف ولَهْوَجة، ولكني فكرت: «بل، يجب أن أتعرف إليها»، كنت أتبطأ في السير حول بقعة الأرض الرملية أمام حديقة «نيسكوتشني ساد»: «ولكن كيف؟ هذا هو السؤال». وتذكرت أدق التفصيلات من صورة لقاء الأمس، فكانت ضحكتها مني أبرز ما بقي في الذاكرة... وعلى حين كنت أجهد نفسي في تدبّر الخطط، كان القدر يشدّ أزري.

ففي أثناء غيابي عن المنزل، تلقت أمي من جارتها الجديدة رسالة، في ورق رمادي، كان مختوماً عليها بالشمع الذي يختم به على مغلفات البريد وزجاجات الخمر الرخيص. وجاء في هذه الرسالة التي كتبت بخط رديء وملئت بالغلط، ما يفيد بأن الأميرة تطلب من أمي أن تظلّها بحمايتها، لأن أمي، على حدّ ما ورد في الرسالة، وثيقة الصلة بجماعة من أهل الحلّ والربط، في يدهم مصيرها ومصير أبنائها، بخصوص عدد من القضايا الخطيرة. وقد كتبت: «إني أستقصدكم كامرأة نبيلة إلى امرأة نبيلة، وأنا مسرورة بتسنّح[1] هذه الفرصة». وختمت رسالتها بأن التمست من أمي أن تسمح باستقبالها. ورأيت أمي في حرج من أمرها، فما كان أبي في البيت، ولم يكن هناك من تشاوره في الموضوع، ولا يُعْقَلُ أن يُمسك الجواب عن «امرأة نبيلة»، بله أميرة. ولكن ما سبيلها إلى الإجابة؟ فما كانت لتستطيع أن تجيب باللغة الفرنسية، وهذا ما يناسب المقام، وكان علمها بقواعد اللغة الروسية دون المستوى الملائم للكتابة، وإنها لتعرف ذلك، وتأبى عليها الكرامة أن تكشف هذا الضعف، ولهذا فرحت بعودتي، وأمرتني بأن أذهب فوراً إلى الأميرة،

١- واضح أن الغلط الوارد هنا يصور الغلط الوارد في رسالة الأميرة. كقولها: أستقصدكم بدلاً من أقصدكم، وتسنّح بدلاً من سنوح. (المعرب).

وأنبئها مشافهة بأن أمي على استعداد دائماً لأن تبذل ما تستطيع من أجل سموّها، وإنها حاضرة لاستقبالها في الساعة الواحدة تقريباً. إنّ تحقق أمنيتي الخافية على هذا النحو المباغت قد ملأني بالفرح والخوف في آن. ولكني طويت ما كنت أستشعره من الاضطراب، ومضيت إلى غرفتي كي أضع رباط عنق جديداً، وأرتدي سترة، وكان عليّ أن أكون في البيت بالصدار والياقة المفتوحة وهذا مما يضايقني.

- ٤ -

بشعورمن الخوف العفوي عبرت مدخل الجناح، وكان ضيقاً مهملاً، قابلني خادم عجوز، أشيب الشعر، ذو وجه نحاسي قاتم، وعينين كئيبتين كعيون الخنازير، وتجاعيد في جبهته وصدغيه لم يقع بصري على مثلها من قبل؛ كان يحمل صحناً فيه بقايا من سمكة رنكة، دفع برجله باب الحجرة يغلقه، وسألني بجفوة:

- ماذا تريد؟

فسألت:

- هل الأميرة زاسيكينا في البيت؟

فصاح صوت نسائي أجش من وراء الباب: «فونيفاتي!» فاستدبرني الخادم صامتاً. كان البلى قد لحس ظهر سترته و لم يترك فيه سوى زر يتيم عليه شعار رسمي. وابتعد بعد أن وضع الصحن على الأرض.

وعاد الصوت النسائي نفسه إلى السؤال: «هل ذهبت إلى مركز الشرطة؟» فتمتم الخادم شيئاً لم أتبينه، وسمعت الصوت مرة ثانية يسأل: «هل جاء أحد؟ نجل السيد من الدارة المجاورة؟ ليتفضل». عاد الخادم يقول وهو يرفع الصحن من الأرض:

- تفضل في غرفة الاستقبال.

فأصلحت من شأني، ودخلت «غرفة الاستقبال».

رأيتني في غرفة صغيرة، قليلة الترتيب، فقيرة الأثاث، نثرت فيها الأشياء على عجل، وهناك امرأة تجلس قرب النافذة في مقعد كسير الذراع تناهز

الخمسين من عمرها عاطلة من الجمال، كانت عارية الرأس، في ثوب أخضر عتيق، وشال من الصوف ذي ألوان، حول عنقها. كانت تحدق فيّ بعينين سوداوين صغيرتين.

اقتربت منها وحييت بالانحناء:

– أيكون لي شرف الحديث إلى الأميرة زاسيكينا؟

– إنني الأميرة زاسيكينا، أفأنت نجل السيد ف.؟

– أجل يا سيدتي، وإني قادم بتكليف من أمي.

– ألا تفضلت بالجلوس؟ فونيفاتي، أين مفاتيحي، ألم ترها؟

أبلغت السيدة زاسيكينا جواب أمي على رسالتها، فكانت تصغي إليّ وهي تنقر بأصابعها الغليظة الحمراء على طرف النافذة، وعادت تحدق فيّ بعد ختام حديثي. وأخيراً قالت:

– حسن جداً، أكيد سآتي. آه، إنك شاب، اسمح لي أن أسألك، كم لك من العمر؟

فتلعثمت قائلاً:

– ست عشرة سنة.

فأخرجت الأميرة من جيبها أوراقاً قذرة مخربشة، وقربتها من أنفها، لتستعرض ما فيها، ثم قالت فجأة «سن طيبة»، وأخذت تلوب وتتململ في مقعدها، وأضافت:

– رفع الكلفة من فضلك، فنحن في غاية البساطة.

فقلت في نفسي: «بساطة زائدة»، وأنا ألقي، دون إرادة مني، نظرة اشمئزاز على قالبها القبيح.

في اللحظة نفسها، انفتح بسرعة باب آخر لغرفة الاستقبال، وظهرت عند وصيده تلك الفتاة التي رأيتها في الحديقة أمس، وقد رفعت يدها، وتألقت في وجهها ابتسامة.

قالت الأميرة وهي تشير إليها بمرفقها:

– إنها ابنتي. يا زينابيدا، هذا ابن جارنا السيد ف. ما اسمك؟ اسمح بأن نتعارف.

فوقفت أجيبها وأنا أرتجف من الانفعال، وقلت:

– فلاديمير.

– ولقبك؟

– بيتروفيتش.

– نعم، عرفت رئيس شرطة بهذا الاسم، فلاديمير بيتروفيتش. يا فونيفاتي، لا تبحث عن المفاتيح فهي في جيبي.

كانت الفتاة لا تزال تمعن النظر إليّ بعينيها المضمومتين قليلاً وابتسامتها الساخرة نفسها، وقد مالت برأسها قليلاً إلى جانب، ثم قالت:

– لقد رأيت السيد فولديمار[1] من قبل (فسرى جرس صوتها الفضي في نفسي كالرعشة اللذيذة) لو سمحت بأن أناديك من دون لقب!

قلت:

– ليكن.

وسألت الأميرة:

– أين كان ذلك؟

ولكن الأميرة الشابة لم تجب أمها، بل قالت دون أن تحسر نظرتها عني:

– أأنت مشغول؟

فقلت:

– لا!

– أتريد إذن أن تساعدني في لفّ شلّة صوت؟ تعال معي.– وأومأت إليّ برأسها، وغادرت غرفة الاستقبال، فتبعتها.

دخلنا غرفة أحسن أثاثاً، وأجمل ترتيباً، ولكني لم أكن في الواقع على حال تسمح لي بأن ألحظ شيئاً، فقد كنت أتحرك وكأني في حلم، وشعور عارم بالغبطة يشيّع في أطرافي.

---

١ – اسم فلاديمير على النمط الفرنسي. (المعرب).

جلست الأميرة الشابة، وتناولت شلّة صوف أحمر، وأومأت إلى كرسي تجاهها. أخذت تحلّ الصوف، وتلفّه حول يديّ، وكانت تفعل ذلك كله في صمت، وبطء لطيف، وعلى وجهها ابتسامة معابثة مشرقة، وشفتاها منفرجتان. ثم بدأت تلفّ الصوف حول ورقة متثنيّة، وفجأة ألقت إليّ بنظرة مختطفة صريحة، فأطرقت إلى الأرض من دون إرادة. حينما كانت تفتح عينيها على آخرهما، وهما مضمومتان، كان وجهها يتبدل جملة، فكأن قسماتها تتلألأ بالضوء. وسألت:

– ترى، أيّ فكرة خطرت لك عني أمس أيها السيد فولديمار؟– وأضافت بعد تريث:– يخيل إليّ أنك استنكرت أمري؟

فأجبت في ارتباك:

– أنا... يا أميرة... لم يخطر لي شيء... كيف أستطيع...؟

فقالت:

– إنك لا تعرفني بعد، فأنا غريبة الطبع، أريد أن يصدقني الجميع القول. لقد سمعتك تقول: إنك في السادسة عشرة، أما أنا ففي الحادية والعشرين، أرأيت إذن أني أكبر منك سناً بكثير، ولهذا ينبغي عليك أن تصدُقني القول، وأن تكون لي سميعاً مطيعاً.– ثم أضافت قائلة:– انظر إليّ. علام لا تنظر إليّ؟

فزاد ما كنت فيه من الحرج، ولكني رفعت بصري إليها، فابتسمت، وكانت ابتسامتها مختلفة عن ذي قبل، فهي ابتسامة يشيع فيها الاستحسان ثم قالت بصوت خفيض حنون:

– انظر إليّ، إن هذا يسرني، إن وجهك يعجبني، وأشعر بأننا سنكون صديقين، فهل أعجبك؟

– أيتها الأميرة...– استهللت كلامي. فقالت:

– أوّلاً، عليك أن تدعوني زينايدا ألكسندروفنا. ثم، ما هذه العادة عند الأطفال (واستدركت قائلة) عند الشباب، فإنهم لا يُفْضون مباشرة بما يشعرون به. هذا حسن للكبار. ألست معجباً بي؟

فاستغضبتني صراحتها على الرغم من غبطتي بأنها تحدثت إليّ على هذا

النحو، وودت أن عالتها انها ليست مع غلام غرير، فاصطنعت على قدر ما أستطيع، مظهراً متحرراً من الكلفة، وقلت:

- لا شكّ أني معجب بك أشد الإعجاب يا زينايدا ألكسندروفنا، ولست راغباً في إخفاء ذلك.

فأخذت تهز رأسها في بطء يمنة ويسرة، وسألتني فجأة:

- لك مربّ خاص؟

- ليس لي مربّ منذ وقت بعيد.

كنت كاذباً في هذا، فلم يكن قد مضى شهر على رحيل المربّي الفرنسي.

- آه، أرى أنك أيفعت.

ونقرت أصابعي في لمسة خفيفة، وقالت: - اجعل ذراعيك مستقيمتين! - وبدأت تلفّ شلّة الصوف في اجتهاد.

افترصت فرصة كانت أثناءها مشغولة بما في يدها من عمل، وأخذت أنظر إليها، مخالساً في البداية، ثم في جراءة أكثر. فظهر أن وجهها أجمل مما كان أمس، كان كل ما في قسماتها دقيقاً ذكياً لطيفاً. كانت تجلس وظهرها إلى النافذة، حيث كانت ستارة بيضاء، ينفذ منها شعاع من نور الشمس، فينسكب في دَعَة على شعرها الذهبي الوثير، وجيدها البريء، وكتفها المنحدرة، ونهدها الغضّ الوديع. كنت أنظر إليها، فما أعزّ ما أصبحت عندي، ما أشد قربها مني. شعرت بأني أعرفها منذ زمان بعيد، وأني لم أعرف قبلها شيئاً، ولم أعش شيئاً... كانت تلبس ثوباً غامقاً عتيقاً عليه صدار، فتاقت نفسي إلى ملامسة كل ثنية من أثناء هذا الثوب وهذا الصدار، وكان طرف حذائها يبرز من تحت ثوبها، فكنت على استعداد لأن أسجد هياماً بهذين الحذاءين... كنت أفكر: «هاأنذا أجلس إليها... ونحن متعارفان، فما أعظم هذه السعادة يا رب!» وأوشكت أنطّ عن مقعدي فرحاً، ولكني امسكت، وأخذت في تحريك ساقي كالطفل يستمرئ مضاغة لذيذة.

كنت في أحسن حال، كالسمكة في الماء، وما رغبت في أن أبارح هذه الغرفة وهذا المقعد ولو مكثت أبد الدهر.

ارتفع جفناها في هدوء، ورنت إليّ بعينين يتألق فيهما الحنو، ثم عادت تبتسم ابتسامتها المعابثة.

وقالت في تمهّل وهي تحذّرني بإصبعها:

- لشدّ ما تحدّق إليّ النظر.

فتضرج وجهي بالاحمرار، وقلت في نفسي: «لا تفوتها شاردة ولا واردة، وهل كان في مقدورها ألاّ ترى وتدرك؟».

وفجأة ندّ صوت في الغرفة المجاورة - صليل سيف. ونده الأميرة من غرفة الاستقبال:

- يا زينايدا، إنه بيلوفزوروف يحمل إليك قطة.

- قطة! - صاحت زينايدا وهبّت من مقعدها فقذفت بشلّة الصوف إلى حِجْري، وانطلقت خارجة.

قمت أنا كذلك، فوضعت شلّة الصوف على طرف النافذة، وخرجت أقصد غرفة الاستقبال، هناك توقفت حائراً مرتبكاً. كان في وسط الغرفة قطة مخططة تضطجع باسطة قوائمها، وزينايدا تجثو إلى قربها وهي ترفع وجهها في ترفّق، وكان شاب من الفرسان ذو شعر متموّج أشقر، ووجه قرمزي، وعينين جاحظتين، يقف إلى قرب الأميرة، ويوشك أن يغطي بألواحه العريضة جزء الجدار القائم بين النافذتين. وسمعت زينايدا تقول:

- إنها تثير الضحك، وما عيناها رماديتان بل خضراوان، وأذناها طويلتان. ما أطيبك يا فيكتور إيغوريتش! فالشكر لك!

فابتسم الفارس، وتبينت أنه أحد الشبان الذين رأيتهم أمس، ودق مهمازيه، فجلجلت حمائل سيفه.

- وددت أمس أن يكون لك قطة مخططة كبيرة الأذنين، فها هي ذي. إن كلمتك قانون - قال ذلك وعاد إلى الانحناء.

أخذت القطة تموء في وداعة وهي تتشمم الأرض. فصاحت زينايدا:

- فونيفاتي، سونيا، إنها جائعة، هاتوا الحليب.

دخلت الخادمة وهي تحمل صحناً مملوءاً بالحليب، وكانت ترتدي ثوباً

أصفر رثاً، وحول عنقها منديل حائل الليون، وقد انتفضت القطة حينما وُضع الصحن أمامها، وحشّفت عينيها، ثم أقبلت تلعق الحليب.

– ما أشد حمرة لسانها!– صاحت زينابيدا. وكانت جاثية يكاد رأسها يمسّ الأرض، وهي تحاول أن ترى إلى القطة من أدنى.

شبعت القطة، فأخذت تهرّ، وتبسط يديها راضية مستأنسة، فقامت زينابيدا، وأشارت إلى الخادمة بعدم اكتراث أن تأخذ القطة.

– يدك تلقاء القطة،– قال الفارس وهو يبتسم وينثني بجماع جسمه الضخم الذي يبرز ثوبه العسكري الجديد.

– بل إليك بيديّ كلتيهما،– أجابت زينابيدا، وبينما كان يقبل يديها، أرسلت بصرها إليّ عبر كتفه.

لم أكن أدري وأنا واقف في مكاني لا أبرحه، أكان عليّ أن أضحك، أو أن أقول شيئاً، أو ألتزم الصمت، وفجأة لمحت من فرجة الباب خادمنا فيودور، وكان يومئ إليّ، فذهبت إليه بصورة آلية أسأله:

– ما شأنك؟

فهمس قائلاً:

– أرسلتني والدتك في طلبك، وإنها غاضبة لأنك لم تعد إليها بجواب.

– هل قضيت هنا وقتاً طويلاً؟

– أكثر من ساعة.

– أكثر من ساعة!– رددت قوله ذاهلاً، وعدت إلى غرفة الاستقبال فاستأذنت مودعاً بتحية احتفالية[1].

فسألتني الأميرة الشابة وهي تنظر إليّ عبر كتف الفارس:

– إلى أين؟

– ينبغي أن أعود إلى البيت!

١– التلويح باليد اليمنى، والانحناء، مع وضع اليد اليسرى على الصدر، ودفع القدم إلى الأمام، طريقة في التحية معروفة في الزمن القديم. (المعرب).

أضفت وأنا التفت نحو العجوز:

– سأنبئ أمي بأنّك ستتفضلين بزيارتنا في نحو الساعة الثانية.

– أجل يا عزيزي، قل لها هكذا.

تناولت علبة سعوطها على عجل، وتنشقت بصوت مرتفع أشاع الرجفة في أوصالي، وكررت قولها وهي تطرف بعينيها الدامعتين، وتمخّط: «قل لها هكذا».

فانحنيت مرة ثانية، واستدرت خارجاً، وأنا أشعر بهذا الحرج الذي يستشعره كل شاب يعرف أنه هدف للأنظار من خلفه.

وصاحت زينايدا وهي تطلق ضحكة:

– لا تنس أن تعود إلى زيارتنا أيها السيد فولديمار.

فتساءلت في سرّي وأنا أرافق فيدور عائداً إلى البيت: «علام تكثر من الضحك على هذا النحو؟»، وبقي فيدور يتحرك صامتاً، ولكن من الواضح أنه لم يكن راضياً عني. واجهتني أمي بعتابها متسائلة عما كنت أفعل عند تلك الأميرة في هذه المدة الطويلة، فلم أنبس بكلمة، بل مضيت إلى غرفتي، وأنا أشعر بحزن مفاجئ، وبذلت جهدي لكي لا أبكي... فقد امتلأتُ بالغَيْرة من الفارس!

– ٥ –

جاءت الأميرة لزيارة أمي كما وعدت، فلم تستلفت اهتمامها. لم أحضر لقاءهما، ولكني سمعت أمي تقول لأبي أثناء الغداء: إن الأميرة زاسيكينا[١] une femme tres vulgaire لجوج، ما فتئت تبهظها بمطالب الشفاعة لها عند الأمير سيرغي، فهي مثقلة des vilaines affaires d'argent[٢]، ولا بدّ أنها مطبوعة على الدسّ. ولكن أمي أضافت قائلة بأنها دعتها وابنتها إلى الغداء في غد (حينما سمعت كلمة «ابنتها» طمرت وجهي في الصحن) لأنها جارة على كل حال، وامرأة من ذوي المحتد العريق. وقال أبي: أنه يذكر الآن

١– امرأة في غاية الابتذال (بالفرنسية في الأصل).

٢– بالمشاكل المالية الخسيسة (بالفرنسية في الأصل).

من تكون هذه السيدة، فقد عرف في شبابه الأمير الراحل زاسيكين، وكان على جانب كبير من التهذيب، ولكنه فارغ طائش، عرف في المجتمع بلقب «Le Parisian»[1] من جرّاء إقامته الطويلة في باريس. كان واسع الثراء، ولكنه بدّد ثروته كلها في المقامرة، وتزوج بنت موظف صغير، بدافع غير بيّن، لعله أن يكون المال، هنا أضاف أبي وهو يبتسم في برود:– على حين كان يستطيع أن يختار أفضل منها؛ وانغمس بعد زواجه في المضاربات المالية حتى انتهى إلى الخراب.

فقالت أمي: – أرجو ألاّ تحاول اقتراض النقود.

فقال أبي: – ذلك غير مستبعد، – ثم سأل: – أتتكلم الفرنسية؟

– في أسوأ صورة.

– مهما يكن فالأمر سواء. أظنّك قلت إنك دعوت ابنتها أيضاً. لقد بلغني إنها فتاة فائقة العذوبة والثقافة.

– آ، لئن كانت كذلك فما أشبهت أمها في شيء.

– ولا أباها، فقد كان هو أيضاً ذا ثقافة. ولكنه غبي،– استدرك أبي.

فتنهدت أمي، واستغرقت في أفكارها، وركن أبي إلى الصمت، وكنت في أشد حالات الضيق طوال هذه المحادثة.

مضيت بعد الغداء إلى الحديقة، ولكن من دون سلاح، وقد عاهدت نفسي ألاّ أقترب من «حديقة آل زاسيكين»، ولكن قوة لا تقاوم دفعتني إلى هناك، ولم يكن ذلك عبثاً. فما أن اقتربت من السياج حتى رأيت زينابيدا، كانت وحيدة هذه المرة، في يدها كتاب، وهي تسير في تمهّل، ولم تلحظني.

فأوشكت أتركها لحال سبيلها، ولكني داركت الأمر فجأة، فسعلت، فاستدارت، ولكنها لم تتوقف عن السير، بل أزاحت بيدها شريطاً أزرق عريضاً يحلّي قبعتها المستديرة المصنوعة من القش، ورمقتني بابتسامة هادئة، وعادت تنظر في الكتاب.

فرفعت قبعتي، وتلكأت قليلاً، ثم غادرت مكاني مثقل القلب، وأنا

١– الباريسي (بالفرنسية في الأصل).

أقول في سري بالفرنسية (ربك أعلم لِمَ بالفرنسية): «Que suis-je pour elle?»[1].

وسمعت وقع خطوات مألوفة قادمة من وراء، فلما تلفّت رأيت أبي يقبل نحوي بمشيته السريعة الرشيقة، وسألني قائلاً:

- أهذه بنت الأميرة؟

- نعم، إنها بنت الأميرة.

- أفأنت تعرفها إذن؟

- لقد رأيتها هذا الصباح لدى الأميرة.

فتوقف أبي، ثم استدار على كعبيه في حدة، ومضى عائداً، حتى إذا اقترب من زينايدا، انحنى لها محيياً، فردت عليه بانحناءة، وفي محياها شيء من الدهشة، وقد خفضت كتابها؛ ورأيت كيف تأثّرته بعينيها. كان أبي أنيق المظهر دائماً، يلبس في ذوق وبساطة، ولكنه لم يبد لي على مثل ما بدأ من رشاقة الجسم، ولا استقامت قبعته الرمادية بمثل هذه الرشاقة على شعره الجعد الذي بدأت تمتد إليه يد الزمن.

أقبلت أتصدّى لزينايدا، ولكنها لم تنصرف إليّ ولو بالنظر، بل عادت تبسط كتابها، وهي تمضي في سبيلها مبتعدة.

- ٦ -

قضيت ذلك المساء ثم صباح اليوم التالي كئيباً موزع النفس، وأذكر أنني حاولت أن أعمل، فتناولت كتاب كايدانوف، ولكن السطور والصفحات من هذا الكتاب المدرسي الشهير كانت تتلامح أمامي على غير جدوى. عشر مرات بدأت فيها وأعدت: «واشتهر يوليوس قيصر بشجاعته في معارك القتال»، ولكن دون أن أعي شيئاً، فتركت الكتاب. وقبيل الغداء، رجّلت شعري، وتطيّبت مرّات، ولبست حلّتي[2] وعقدت رباط عنقي.

سألتني أمي:

١- من أكون عندها؟

٢- القصد هنا الحلة الرسمية كالفراك وما إليه. (المعرب).

- علام ذلك؟ إنك لمّا تصبح طالباً، وأمر امتحانك لا يعلمه إلا الله وحده. ثم هل أصبحت سترتك قديمة العهد فنرميها؟

فقلت بصوت خفيض وقد غلبني اليأس:

- ولكن سيكون عندنا ضيوف.

- عَلْك! أيّ ضيوف هؤلاء؟

كان لا بدّ من الإذعان، فأبدلت الحلة بالسترة، واحتفظت بربطة العنق وقدمت الأميرة وابنتها قبل نصف ساعة من موعد الغداء، كانت العجوز ترتدي الثوب الأخضر إياه وعليه الشال الأصفر، وفوق رأسها قبعة عتيقة الطراز ذات شرائط صارخة الألوان. وأخذت لساعتها تتحدث عن صكوك دينها، وتتأوه وتتشكى من فقرها و«تتوحوح»[1] ولم تتحرج من أمر: فكانت تتنشَق التبغ بالصوت الصفيق نفسه، وتنوس في الكرسي وتتململ دون تحشّم، كأن دماغها لم يهضم أنها أميرة. أما زينايدا، فقد كانت مالكة لزمام نفسها، بل إنها تكاد تكون في توقّر الأميرة الحقيقية. واكتسى وجهها بالبرود والعنجهية، حتى لقد أنكرتها، وأنكرت نظرتها وابتسامتها، ولكنها ظهرت لي جميلة حتى في هذا المظهر الجديد؛ كانت ترتدي ثوباً خفيفاً من الصوف تنداح فيه زخارف زرقاء، وشعرها يسترسل في خصل متموجة على امتداد الخدين - على الزي الإنكليزي - وكان هذا يلائم التعبير الصارم الذي ارتسم في وجهها. جلس أبي إلى جانبها في أثناء الغداء، فكان يؤنس جارته بما طبع عليه من أريحية وتهذيب، وينظر إليها أحياناً فتنظر إليه، وكان في نظراتها معنى مبهم يوشك أن يكون اختصاماً. كانا يتبادلان الحديث باللغة الفرنسية، فأعجبت بما في نطق زينايدا من الصفاء والطلاقة. أما الأميرة الأم، فقد احتفظت بمسلكها الصفيق نفسه طوال وقت المائدة، فكانت تطعم في نهم، وتمتدح الطعام، وكان واضحاً أن أمي تستثقل ظلها، فقد كانت ترد عليها في جفوة وازدراء، فيقطب أبي من حين لآخر حاجبيه قليلاً. ولم تستلطف أمي زينايدا أيضاً، ذلك أنها قالت في اليوم التالي:

١- تتباكى لتستدر الحنان، من الكلام الدارج الصحيح. (المعرب).

- من تحسب نفسها هذه القنزعة؛ ليتني عرفت فيم تشمخ بأنفها وهي avec sa mine de grisette![1].

فأجابها أبي ملاحظاً:

- من الواضح أنك لم تشاهدي هؤلاء المتكسّبات.

- أيْ والحمد لله.

- له الحمد ولا ريب، فكيف سوّغت الحكم عليهن؟

لم يبد من زينايدا أيّ انتباه لشأني، وعقب الغداء، قامت الأميرة من فورها للانصراف، وقالت تخاطب أمّي وأبي كليهما بصوت مانع منغّم:

- ماريا نيقولايفنا، بيوتر فاسيليفيتش، سيكون أملي معلقاً برعايتكما. ما باليد حيلة، كان لي زمان وراح.- وأضافت في ضحكة نابية:- وها أنا كما ترون «صاحبة سموّ» أي نعم، ولكن ما نفع هذا الشرف وليس في البيت ما يؤكل!

انحنى لها أبي في توقير، ورافقها حتى الباب الخارجي، على حين وقفتُ في مكاني، بسترتي القصيرة، وأنا مطرق برأسي كالمحكوم بالإعدام. لقد أصمتني زينايدا بما فرط منها نحوي، وأجهزت عليّ. فما أشد ما تولاني من الدهشة حينما أسرّت إليّ على عجل، وهي تمر بي، وفي عينيها ما كان لي به عهد من نظرتهما الرقيقة:

- تعال إلينا في الساعة الثامنة. اسمع، من كل بدّ...

فأسقط في يدي، ولكنها كانت قد ابتعدت وهي تعصب رأسها بعصبة بيضاء.

- ٧ -

في تمام الساعة الثامنة، كنت أدخل مدخل الجناح الذي تقيم فيه الأميرة بعد أن ارتديت حلّتي ومشطت شعري إلى أعلى. ورمقني الخادم العجوز بنظرة عابسة وهو ينهض بتثاقل عن الدكة التي يجلس فيها. كانت تترامى من غرفة الاستقبال أصوات مراح، ففتحت الباب، ولكن الدهشة ردّتني إلى

١- لها مظهر المتكسبات (بالفرنسية في الأصل).

وراء، فقد كانت الأميرة الشابة تتسنّم كرسياً يقوم في وسط الغرفة، وبيدها قبعة رجالية، وحولها خمسة رجال يتزاحمون على إدخال أيديهم في القبعة، والفتاة تتخطفها إلى أعلى وتهزها بشدة. حينما رأتني صاحت قائلة:

– على مِهلكم، انتظروا! هذا ضيف جديد، ويجب أن تكون له بطاقة أيضاً.– ونطّت عن الكرسي برشاقة، وأقبلت تأخذني من أكمامي وهي تقول: هيا بنا، علام تقف هناك؟ اسمحوا لي Messieurs[1] أن أكون لسان تعارف بينكم: إنه السيد فولديمار ابن جارنا.– وتوجهت إليّ وهي تشير إلى الضيوف واحداً بعد آخر:– الغراف[2] ماليفسكي، الدكتور لوشن، الشاعر مايدانوف، القبطان المتقاعد نيرماتسكي، وهذا بيلوفزوروف من الحرس الفرسان، وقد رأيته من قبل. أرجو أن تقوم بينكم وشائج الاحترام والتعاطف.

لقد تملكني الارتباك حتى إني سهوت عن الانحناء لأحد منهم، وعرفت في الدكتور لوشن ذلك السيد الأسمر الذي ساطني بسخريته القاسية في الحديقة، وكانت وجوه الآخرين جديدة عليّ.

وأضافت زينايدا قائلة:

– أيها الغراف، اكتب للسيد فولديمار بطاقة.

فاعترض الغراف قائلاً بلكنة بولونية خفيفة:

– ليس هذا عدلاً، فإنه لم يشترك معنا في لعبة «الجزاء».

كان الغراف قسيماً وسيماً سود الشعر، بعينين بنيّتين ذكيتين، وأنف أبيض صغير دقيق، وشارب رفيع فوق فمه الصغير وثوب جميل أنيق:

– ليس هذا عدلاً.

ردد هذا أيضاً بيلوفزوروف ومعه ذلك السيد الذي يسمونه القبطان المتقاعد، وهو رجل في نحو الأربعين من عمره، ذو وجه مجدور يبدو دميماً، وشعر مفتول كشعر الزنوج، وظهر أحدب قليلاً، وساقين مقوستين، وكان في سترة عسكرية محلولة الأزرار عاطلة من الشارات.

١– أيها السادة (بالفرنسية في الأصل).

٢– كونت. (المعرب).

وأعادت الأميرة قائلة:

- قلت لكم أن تكتبوا البطاقة، فما هذا؟ أعصيان؟ تلك أول مرة يلعب فيها السيد فولديمار معنا فلا جرم أن نتجاوز الأعراف من أجله، فاصدع بما قلت لك، ولا تجادل، فأنا أريد ذلك.

فهزّ الغراف كتفيه، ولكنه طأطأ خاضعاً، وأخذ القلم بأصابعه البيضاء الحالية بالخواتم، وقطع قصاصة من ورق ومضى يكتب.

استلم الكلام لوشن فقال بصوت ساخر:

- اسمحي لي على الأقل أن أشرح للسيد فولديمار طرف الخيط فإنه غارق في حيرته. والأمر أيها الشاب أننا نلعب لعبة «الجزاء»، وقد وقعت ضريبته على الأميرة، فمن يسحب البطاقة المحظوظة يصبح من حقه أن يقبل يدها. أفهمت ما قلته لك؟

فلم أفعل إلا أن نظرت إليه وأنا لا أزال واقفاً كالمأخوذ، أما الأميرة فقد وثبت إلى الكرسي من جديد، وعادت تهزّ القبعة وفيها البطاقات، وأقبلوا عليها وأنا وراءهم.

قالت الأميرة توجه خطابها إلى شاب طويل، ذي وجه نحيل وعينين صغيرتين كليلتين وشعر أسود مسترسل: يا مايدانوف، إنك شاعر، فينبغي أن تكون أريحياً بأن تنزل عن بطاقتك للسيد فولديمار لكي تتوفر له فرصتان بدلاً من واحدة.

ولكن مايدانوف هزّ رأسه بالرفض وهو يردّ شعره إلى وراء. في أعقاب آخرهم أدخلت يدي في القبعة، وسحبت بطاقتي وفتحتها... فياللّه مما اعتراني حينما قرأت فيها كلمة: قبلة!

- قبلة!- هتفت دون وعي.

فردت الأميرة على الصوت - مرحى، لقد فاز وإني أشد الغبطة.- وهبطت من الكرسي وهي تنظر في عينيّ نظرة لا أصرح ولا أحلى حتى لقد اشتد خفق قلبي، وسألتني:- هل أنت سعيد؟

- أنا؟

وفجأة همس بيلوفزوروف في أذني:

- بعني بطاقتك تلقاء مئة روبل.

فرجمته مجيباً بنظرة لاهبة بحيث صفقت لها زينابيدا، وهتف لوشن:- يا للفتى!- وأضاف قليلاً:- ولكن باعتباري مشرفاً على المراسم، يجب أن أشرف على تطبيقها بدقة، ويقضي العرف أيها السيد فولديمار بأن تركع على ركبتك.

وقفت زينابيدا أمامي ورأسها يميل إلى جانب كأنها تتزيد من النظر إليّ، ومدّت يدها في جلال، فزاغت عيناي، كنت راغباً في أن أجثو على إحدى الركبتين، فوقعت على الثّنتين، ولمست أناملها بشفيّ على نحو أهوج جعلني أخدش أنفي بظفرها.

- طيب!- قال لوشن وهو يساعدني في النهوض.

وأجلستني زينابيدا إلى قربها بينما استمرت لعبة «الجزاء»، وما أكثر ما ابتكرته زينابيدا من ضروب الغرم. فقد اقتضى منها أن تقف كتمثال، فاختارت الدميم نيرماتسكي قاعدة لها، وأمرته بأن ينبطح على الأرض ورأسه في صدره. لم يكن الضحك لينقطع لحظة واحدة. أما وأني ترعرعت في بيت محترم، وتلقيت تربية خاصة منفردة، فقد أدارت رأسي العربدة الضاحكة وعدم الكلفة في العلاقة مع هؤلاء الأغراب، فسكرت من دون خمر، وطاولت الآخرين بالضحك والثرثرة، حتى لقد تركت الأميرة العجوز مجلسها من الغرفة المجاورة، وكانت مع موظف من بوابة ايفيرسكيه[1] دعته للاستشارة، وخرجت تنظر فيّ. كنت أستشعر السعادة إلى حدّ أطلقت فيه الأسار وخلعت العذار كما يقول المثل، فلم أعبأ بغمزة سخر، ولا بنظرة شزر. واستمرت زينابيدا فيما اختصتني به من الامتياز، ولم تسمح لي بأن أبتعد عنها. كان الغرم الذي وقع عليّ يقضي بأن أجلس ملتصقاً بها يغطي رأسينا منديل، وأن أكاشفها بما أضمره من سرّ. وإني لأذكر ما أطبق علينا في

١- عادة كان يجتمع عند بوابة ايفيرسكيه في موسكو القديمة (قرب الساحة الحمراء) المرافعون في قضايا المحاكم، والموظفون المتقاعدون، الذين كانوا يوكلون لصياغة الوثائق الرسمية، وتمشية الدعاوى القضائية.

ذلك الظلام من أريج فاغم شفاف، حيث كانت عيناها القريبتان تتألقان، وأنفاسها دافئة، وأسنانها تلمع خلال شفتيها المنفرجتين، وخصل شعرها تتافعى كألسنة النار. كنت صامتاً فابتسمت هي في استخفاء ومكر، ثم همست أخيراً: «وماذا بعد؟» فما كان مني إلا أن شاعت الحمرة في وجهي، وضحكت وأنا أدير رأسي جانباً، وقد ضاق صدري إلى حدّ الغصّة. داخلنا السأم من لعبة «الجزاء» هذه فتركناها إلى لعبة «الحبل». ويا لغبطتي حينما سهوت فعاجلتني بضربة قوية على أصابعي، وقد أخذت اصطنع الإبطاء في سحب يدي ففهمت قصدي وتجنبت أن تلمسها!

وما أكثر الألعاب التي قمنا بها في تلك الليلة، فقد عزفنا على البيانو وغنينا ورقصنا، واصطنعنا مخيماً للغجر، حيث ألبسنا نيرماتسكي هيئة دبّ وسقيناه ماء مالحاً، وعرض علينا الغراف ماليفسكي شعوذات شتى من ألعاب الورق، ووزع الورق على نحو يجمع في يده كل الأوراق الرابحة، «فتشرف لوشن بتهنئته على هذا». وقرأ علينا مايدانوف مقاطع من قصيدته «السفاح» (كانت الحركة الرومانتيكية وقتئذ في فجرها) وكان يرغب في نشر هذه القصيدة بحروف كبيرة مطبوعة بلون الدم على غلاف أسود؛ وسرقنا قبعة موظف بوابة ايفيرسكيه، وفرضنا عليه تلقاء إعادتها أن يؤدي رقصة، ووضعنا على رأس العجوز فونيفاتي قبعة نسائية، بينما اعتمرت زينائيدا بقبعة رجالية... ومن العسير أن نحصي كل ما حدث. أما بيلوفزوروف فإنه الوحيد الذي انطوى على نفسه وحيداً في ركن من الغرفة وهو غاضب مقطب الحاجبين... كانت تلتهب عيناه حيناً ويحمر وجهه حيناً آخر، ويبدو أثناء ذلك كأنه بسبيله إلى الانقضاض علينا ليبعثرنا في كل ناحية كأننا الهباء المنثور، وعندئذ كانت الأميرة تشزره بنظرتها وتهز أصبعها محذّرة، فيعود إلى الانطواء في الركن الذي هو فيه.

شاع فينا الوهن أخيراً، وشعرت الأميرة الأم بالتعب فرغبت في بعض الراحة - وهي التي كانت على حدّ قولها تدّعي القدرة على تحمل التعب والضجة. ثم قدم إلينا العشاء قبيل الساعة الثانية عشرة، وكان قطعة من الجبن الناشف القديم، وبعض الفطائر الباردة المحشوة بلحم الخنزير، وقد سغتها من أي طعام آخر. وإلى هذا كانت على المائدة زجاجة واحدة من الخمر لم

تخل أيضاً من شذوذ المظهر، فهي ذات لون مظلم وعنق أغدّ، وفي نبيذها رائحة تشبه ما يفوح من صبغة حمراء، وقد بقيت في ارضها و لم يشرب أحدْ منها. كنت منهوكاً من السعادة حينما غادرت البيت، فودعتني زينايدا وهي تشدّ على يدي، وقد عادت إلى ثغرها من جديد تلك الابتسامة المستخفية.

لفحت وجهي الملتهب أنفاس الليل المثقلة بالرطوبة، وكان يبدو أن الجو بسبيله إلى التجهم، فقد أخذت الغيوم، المكفهرة تتكثف وتتمدد في السماء وتزحف وهي كما يبدو لا تثبت على شكل. واضطربت الأنسام في قمم الأشجار القاتمة، وفي الآفاق البعيدة كان الرعد يرسل زمجرة غاضبة مكتومة كأنه يهمهم لنفسه.

قصدت إلى غرفتي من الباب الخلفي، كان الوصيف ينام على الأرض، فاضطررت أن أخطو فوقه، فاستيقظ ورائي، وأبلغني أن أمي عادت إلى استيائها مني، وكانت راغبة في أن ترسله ورائي ولكن أبي استوقفها عن ذلك. (لم أكن من قبل لأذهب للنوم إلا بعد أن تستودعني الله وأتمنى لها ليلة سعيدة) ولكن هذا ما حدث.

قلت للوصيف بأني سأخلع ملابسي دون عونه، ثم أطفأت الشمعة... ولكني بقيت في ثيابي و لم أرقد في سريري.

فقد جلست في كرسي وأنا مستغرق في جلستي كالمسحور... يغمرني شعور جديد عذب، كنت أدير بصري دون أن تنهد عني حركة، وأتنفس في هدوء، وقد تندّ بين اللحظة واللحظة ضحكة تنطلق مني في خفوت حين أستعرض ما حدث، أو تسري فيّ البرودة حين ترتادني فكرة أنني عاشق وأن هذا هو الحب. كان وجه زينايدا يسبح أمامي في الظلام، يكاد لا يغيب، وشفتاها تبتسمان في استخفاء، وعيناها ترنوان إلي بالطّرف، وفيهما سؤال وتفكير وحنان مثل حالهما لحظة ودعتني. ثم تركت مجلسي أخيراً، وذهبت إلى السرير محاذراً، في خطوات مسترقة، وأرحت رأسي على الوسادة وأنا لا أزال في ثيابي، وكأني خائف أن تندّ أي حركة شديدة قد تقطع عليّ كل ما كنت ممتلئاً به...

استلقيت دون أن يغمض لي جفن، ولسرعان ما لحظت أن بعض الأضواء

الشاحبة ما تفتأ تتسلل إلى غرفتي... فنهضت قليلاً في مرقدي وألقيت نظرة إلى جهة النافذة، كانت عوارضها السوداء ظاهرة على بياض الزجاج، ففكرت بأنها العاصفة، ولم أكن على خطأ، ولكن العاصفة كانت تمضي في الأبعاد القاصية، حتى أن الرعد لم يبلغ سمعي، وليس هناك إلا البرق يومض في السماء من غيرِ انقطاع في فروع طويلة شاحبة: والأحرى أنه لم يكن يومض بل كان يرفّ ويرتعش كجناح طائر يعالج سكرات الموت. قمت إلى النافذة حيث بقيت حتى طلع الفجر... لم يتوقف ومض البرق لحظة، فقد كانت الليلة منِ ليالي عصفور الدوري على حدّ القول الشائع بين الشعب؛ ووقفت مرسلاً بصري إلى حقول الرمال الصامتة، وإلى الظلال الغامقة التي تتكاثف في حديقة «نيسكوشنيٍ ساد»، وإلى واجهات المباني الصفر البعيدة، حيث بدت وكأنها ترتعش أيضاً بومض البرق... كنت أرى ولا أستطيع أن أنتزع بصري: فقد بدت تلك البروق الصامتة والأضواء الخافتة كأنها استجابة لذلك الانفعال الصامت الخفي الذي ينبعث في ذات نفسي. ثم آذن النهار بالإشراق، وبرز الصباح في واحات من الشفق الوردي، وأصبح ومض البرق يحول ويقصر كلما اقترب بزوغ الشمس، وما زال يرتعش ويتضاءل حتى ذاب جملة في الشروق، وغرقت تلك البروق في ضوء النهار الطالع...

انطفأت البروق في نفسي أيضاً، وآدني تعب شديد، وأطبق الصمت... ولكن طيف زينائيدا بقي يرفرف أمامي باهراً قاهراً، وما لبث أن فاء إلى الدعة. ومثلما تطير البجعة من فرجات أعشاب المستنقع كان هذا الطيف يبتعد عما يشوبه من الأطياف؛ كنت آخذاً في التهويم حينما ألممت به أودعه بأشواقي الوديعة.

إيه أيتها العواطف الوادعة والأصوات الرقيقة. أيّهذا الحنين تفيض به نفس وامقة، أيتها السعادة تشرق عذبة في فجر الحب الأول، أين أنت، أين أنت؟

- ٨ -

حينما نزلت في الصباح لاحتساء الشاي تلقتني أمي بالتأنيب ولكن بأقل مما كنت أتوقع، وأمرتني بأن أروي عليها كيف قضيت المساء أمس، فحدثتها

بكلمات مقتضبة دون خوض في التفصيلات، واجتهدت في التعبير على نحو يوحي بالبراءة، فلاحظت أمي قائلة:

– مهما يكن من الأمرِ فإنهم ليسوا comme il fault [1] وليس ما يدعوك إلى التقرب منهم بدلاً من الاستعداد للامتحان.

لم أحاول أن أدخل معها في أخذ وردّ لأني كنت أعلم أن اهتمام أمي بدراستي إنما يقف عند هذه الكلمات القليلة؛ ولكن أبي جذبني من ذراعي بعد الفراغ من احتساء الشاي، وسرنا نحو الحديقة، ورغب إلي هناك في أن أروي عليه كل ما رأيته في بيت آل زاسيكين.

وكان لأبي تأثير غريب في نفسي، وكانت الروابط بيننا غريبة أيضاً، فإنه لم يعن إلا قليلاً بتربيتي، ولكنه صان لسانه عن أي كلمة تنطوي على تأنيبي، وكان يحترم حريتي، بل إنه كان مهذباً معي – إذا جاز هذا القول – ولكنه لم يستدنني من نفسه. كنت أحبه وأنا مبهور به، وأرفعه إلى المثل الأعلى بين الرجال، ولولا المخافة أن يذودني عنه بيده لغمرته بأشواقي. بيد إنه يستطيع من فوره حينما يريد، أن يبث فيّ ثقة به لا حدود لها، وذلك بغمزة من عينيه أو بكلمة من شفتيه أو بإيماءة من يديه. فافتح له مغاليق روحي، وانطلق معه في الحديث وكأني مع صديق ذكي ومرشد متسامح... ولكن أبي كان ينأى عني فجأة كما اقبل، وينبذني، بترفق ونعومة، ولكنه ينبذني.

وقد يبدو مرحاً في بعض الأحيان، فيلهو معي ويلعب كالطفل (كان مولعاً بالحركة العنيفة) وفي ذات مرة – وهي الوحيدة – أحاطني بقدر من حنانه الغامر أوشكت فيه أن أبكي... ولكن مرحه وحنانه كانا يغيضان فلا خبر عنهما ولا أثر، فكان هذا الذي يحدث بيننا يغلق في وجهي كل أمل في المستقبل، ويمضي كأنما رأيته في حلم. وفي أحيان كنت أرسل بصري إلى وجهه القسيم الوسيم الصافي... فيرتعش قلبي ويهفو كياني كله إليه... فكان هو، وكأنه يتحسس بما يدور في نفسي، يمرّ بي عابراً ويربت على خدي، ثم يمضي أو يتشاغل بأي أمر آخر، أو يتجمد كما لم يستطع أحد سواه أن يفعل، وعندئذ أراني جامداً على حين غرة. لم تكن تلك الخفقات النادرة من حنانه

---

١ – قوما على قدّ المقام (بالفرنسية في الأصل).

لتنبعث استجابة لنداءاتي المبينة على الرغم من صمتها، بل كانت تنبعث فجأة على غير توقع. وحينما أخذت فيما بعد أفكر في طبيعة أبي، استنتجت أن السبب في عدم اكتراثه بي وبحياته العائلية، يعود إلى أنه موصول القلب بأمر آخر، وأنه مغتبط بهذا الأمر كل الاغتباط. وقد قال لي ذات مرة: «خذ بنفسك كل ما تستطيع أن تحصل عليه، ولا تسمح لأحد بأن يمتلكك. فإن لباب ما نسميه حياة إنما هو أن تكون سيد نفسك». وفي مرة أخرى انطلقت في حضرته أتحدث عن الحرية باعتباري من الشباب الديموقراطي (كان يومها «في مزاجه الطيب») حيث يكون في وسعي أن أفضي بما أريد) فقال مردداً:

– الحرية؟ أتعرف ما الذي يمكن أن يمنح الإنسان نعمة الحرية؟

– ما هو؟

– الإرادة، الإرادة الذاتية، وإنها لتعطي السلطان أيضاً وهو أفضل من الحرية. ينبغي لك أن تعرف ما تريد فتصبح عندئذ حراً تملك أن تملي إرادتك على الآخرين.

كانت غاية أبي التي لا غاية بعدها أن يعيش حياته... وقد عاشها، ولعله كان يطوي شعوراً خفياً بأنه لن يستمتع طويلاً «بهذا الذي نسميه حياة»، فقد مات وهو في الثانية والأربعين من عمره.

لقد رويت على أبي في تفصيل كل ما كان من أمر زيارتي لآل زاسيكين، فكان يستمع إلي ببعض الانتباه وبعض الشرود، وهو جالس في المقعد يرسم على الرمل بطرف سوطه، كان يستضحك أحياناً، ويرمقني بنظرة متألقة، ويشجعني على المضيّ بأسئلته المقتضبة واعتراضاته. أمسكت في البداية عن ذكر اسم زينابيدا، ولكنني لم أملك نفسي، فمضيت أمتدح خصالها، ومضى أبي يضحك، ثم استغرقه التفكير، وتمطى متثائباً وهبّ واقفاً.

تذكرت أن أبي أمر قبل خروجه من البيت بأن يسرج له الجواد، وكان فارساً لا يُشَقُّ له غبار، يستطيع أن يروّض أشد الخيول نفوراً بأسرع ما يستطيع السيد ريري[1]. وسألته:

١– ريري، مؤلف «الفن الحديث في ترويض الخيول المتوحشة» «The modern art of taming wild horses» (١٨٥٨) ولد في أمريكا كان يمتلك «مهارة فائقة في

- هل لي أن أرافقك يا أبي؟

- لا، اذهبْ وحيداً إذا شئت، وقل للسائس إني غير راغب في الركوب.- أجابني وقد عاد إلى وجهه ما يكسوه في المعتاد من عدم اكتراث مشوب بالدماثة.

ثم أدار لي ظهره، وابتعد بخطوات سريعة، بينا ذهبت أتأثره ببصري حتى اختفى وراء البوابة، ورأيت قبعته تتحرك على طول السور، ثم دخل منزل آل زاسيكين.

لم يمكث لديهم أكثر من ساعة، توجه بعدها على الفور إلى المدينة و لم يرجع إلى البيت إلا مع المساء.

بعد الغداء ذهبت أزور آل زاسيكين، وهناك رأيت الأميرة العجوز وحيدة في غرفة الاستقبال، وحينما رأتني هرشت في رأسها تحت عصابتها بصنارة الصوف، وسألتني فجأة: أأستطيع أن أحرر لها عريضة استرحام.

فأجبتها وأنا أجلس على طرف الكرسي: «على الرحب». فقالت وهي تعطيني ورقة مدعوكة: «ولكن عليك أن تكتب بحروف كبيرة، فهل لك أن تنجزها اليوم يا شيخي»؟

- سأنجزها اليوم.

انفرج باب الغرفة المجاورة قليلاً، وظهر في فتحته وجه زينايدا شاحباً ساهماً وشعرها قد عقص إلى وراء. وارسلت إليّ نظرة باردة من عينيها الكبيرتين، ثم ردت الباب في هدوء، فهتفت أمها تناديها:

- زينايدا!

لم تجب زينايدا، فحملت معي عريضة العجوز، وانكببت عليها طوال المساء.

- ٩ -

وبدأ «ولهي» في ذلك اليوم. أذكر أنني شعرت وقتذاك بما يشبه شعور امرئ عند خطوته الأولى في الوظيفة، لم أعد ذلك الصبي الغرير بل أصبحت

ترويض الخيول الجامحة».

عاشقاً. لقد قلت إن ولهي بدأ في ذلك اليوم، ولكن ينبغي أن أضيف أن عذابي بدأ أيضاً في ذلك اليوم. فقد أصبح يشجيني غياب زينايدا. أصبحت عاجزاً عن التفكير في أمر، أفلت الزمام من يدي، وانحصر فيها تفكيري طوال يومي... كنت أتـألم... ولم تكن الحال وهي حاضرة بأحسن منها وهي غائبة، فقد أصبحت غيوراً وكنت أدرك ما في شأني من الهوان وما في غضبي من الغفلة، كنت مستعبداً لها فما تفتأ تشدني إليها قوة قاهرة. وما من مرة جاوزت وصيد غرفتها إلا استشعرت رعشة من السعادة. وما أسرع ما فطنت زينايدا إلى أنني مغرم بها، ولم أفكر في إخفاء هذا الشعور، فضحكت من غرامي، وأخذت تعبث بي تارة وتعذبني تارة أخرى. ومما يلذّ للمرء أن يدرك أنه مصدر وحيد وسبب مطلق لما يستشعره امرؤ آخر من سعادة غامرة وحزن عميق. كنت في يدي زينايدا أطوع من الشمع، ولكني لم أكن الوحيد الذي يحبها، بل كان الرجال الذين يطرقون بيتها جميعاً مجانين بها، كانت تشدهم برباط إلى قدميها، وتحب أن تثير فيهم الأمل والشكّ، وأن تديرهم كالخاتم في أصبعها (كانت تسمى هذا ضرب الناس بعضهم ببعض) ولم يكن يفكر أحد منهم بالمقاومة، بل كانوا يستسلمون إليها في غبطة. كان في طبيعتها الحية الجميلة مزيج لطيف جداً من المكر وعدم الاكتراث، ومن التصنع والبساطة، ومن الهدوء والصخب. وهي في كل ما كانت تقول وتفعل، وفي كل حركة ترفرف روحاً خفيفة لطيفة، وتظهر قوّتها اللعوب. كان وجهها لعوباً أيضاً، فهو في تغير دائم، يعبّر في آن عن السخرية والتفكير والشوق. وكانت العواطف والمشاعر المختلفة تجري خفيفة سريعة في عينيها وشفتيها كأنها ظلال السحب في نهار مشمس عاصف الريح.

كان كل فرد من المعجبين بها ضرورياً لها، فإن بيلوفزوروف الذي كانت تناديه أحياناً «يا وحشي» أو تسميه أحياناً شيتي[1]، كان مستعداً لاقتحام النار في سبيلها، وكان لا يفتأ يعرض عليها الزواج دون اعتماد على مواهبه وكفاءاته، ويشير إلى أن الآخرين لم يكونوا إلاّ ثرثارين. وكان مايدانوف

١- شيتي في لهجة أهل الشام تقابل كلمة بتاعي في اللهجة المصرية، والأولى من العامي الفصيح. (المعرب).

يستجيب للجانب الشاعري من نفسها، وهو على شيء من برودة الطبع كأكثر الكتاب، وكان يؤكد لها، ولعله يؤكد نفسه أيضاً، إنه يحبها، ويمتدح خصلها في قصائد طويلة يقرأها بحماسة يشوب إخلاصها بعض التصنع. وكانت تنال منه بشيء من سخريتها على الرغم من تعاطفها معه، ولا تثق بما يقوله إلا قليلاً، وبعد أن تصغي لما يهرف به كانت تأمره بأن يقرأ شيئاً من شعر بوشكين لتنقية الهواء – على حدّ قولها. أما لوشن الطبيب، فإنه رجل ساخر لاذع في كلماته، وكان يفهم زينايدا أكثر مما يفهمها الآخرون جميعاً، ويحبها أكثر مما يحبها الآخرون رغم تعريضه بها في وجهها وفي غيابها. كانت تحترمه ولكن من دون شعور بالعطف، بل إنها كانت تفترض الفرص في شماتة مقصودة لتشعره بأنه في قبضة يدها، وفي ذات مرة قالت له وأنا حاضر: «إني لعوب من دون قلب، وممثلة بطبيعتي. طيب! هات يدك، وسأغرز فيها دبوساً، فإنك ستخجل أمام هذا الشاب، وستشعر بالألم، ولن تضن علينا رغم ذلك بالضحك أيها السيد الصدوق». فأشاح لوشن بوجهه المحمّر وهو يعضّ على شفته، ولكنه مدّ إليها يده، فوخزتها، فأخذ يضحك بالفعل... وضحكت هي أيضاً، ومضت تغرز الدبوس على نحو أعمق وهي تحدق في عينيه على حين يحاول عبثاً أن يروغ بهما في كل ناحية...

استغلق عليّ أن أفهم مقومات تلك العلاقة بين زينايدا والغراف ماليفسكي. فقد كان جميلاً ذكياً أريباً، ولكن شائبة مخاتلة من لزيف والريبة كانت تخالطه، وكان يدهشني أن زينايدا لم تكن لتلحظ ذلك، على حين شعرت به أنا الصبي، ابن السادسة عشرة؛ أو لعلها لحظت ولم تستنكر. فإن جنوح تربيتها، وغريب معارفها وعاداتها، والتصاق أمها بها، وحالة الفقر والفوضى الشاملة في البيت، وتلك الحرية التي ترتع فيها هذه الفتاة الشابة مع شعورها بالتفوق على الجماعة المحيطة بها – كل هذا غرس فيها ضرباً من الإهمال والازدراء والقناعة. فكان يحدث – على سبيل المثال – أن يأتي فونيفاتي قائلاً: إن السكر مفقود من البيت، أو تنفضح نميمة دنيئة، أو ينشب شجار بين الضيوف، فلا تزيد إلاّ أن تهز خصل شعرها وتقول: كلام فارغ. ثم لا تحفل بشيء.

أما عني، فقد كان دمي يفور حينما يقترب منها ماليفسكي بمكر الثعلب،

ويحيط ظهر كرسيها بذراعه، ويأخذ بالهمس في أذنها وهو يتبسم متلطفاً مزهواً، وهي تجلس متصلبة الذراعين، تنظر إليه في اهتمام، وتبتسم، وتهز رأسها يمنة ويسرة. وقد سألتها ذات مرة:

- ما الذي يحدوك إلى استقبال السيد ماليفسكي؟

فأجابت:

- إن له شاربين رائعين. ولكن هذا لا يخصّك.- وقالت في مناسبة أخرى:

- لعلك تظن أنني أحبه؟ لا، فإني لا أستطيع أن أحب هؤلاء الذين أنظر إليهم من عل. فما يلائمني إلا ذاك الذي يستطيع أن يكسر شوكتي... وأظنني لن أعثر على مثل هذا الرجل، فالحمد لله! و لم أقع بين براثن أحد على الإطلاق.

- أيكون معنى هذا أنك لم تحبي أحداً؟

فقالت وهي تضرب أنفي بطرف قفازها:

- وأنت؟ أفلا أحبك؟

نعم، لقد كانت زينابيدا تتسلى بي كثيراً، وكنت أراها كل يوم طوال الأسابيع الثلاثة الماضية، فما أكثر ما رأيت منها. كانت تزورنا قليلاً، و لم يؤسني ذلك، فإنها في بيتنا تأخذ بمظهر الأميرة النبيلة، فكنت أتهيبها، وأخشى أن ينكشف أمري أمام أمي، فهي لم تكن حفيّة بزينابيدا، ولا كانت تنظر إلينا بعين راضية. و لم أكن أخاف أبي إلى هذا الحدّ فإنه كان يتجاهلني، ويوجز معها الحديث، ولكن كلماته ذكية بعيدة المرمى. لقد توقفت عن العمل والمطالعة، وأمسكت حتى عن النزهة في الضواحي على صهوة الجواد، بقيت أدور حول بيت الحبيبة كالصرصور المربوط بخيط من رجله، كنت على استعداد للبقاء هناك إلى الأبد... ولكن ذلك مستحيل لأن أمي كانت تبربر عليّ، حتى زينابيدا كانت تطردني في بعض الأحيان، فانطوى عندئذ في غرفتي، أو أعتزل في آخر الحديقة، حيث اعتلى خرائب دفيئة قديمة من الحجر، واجلس على الجدار المطل على الطريق بساقين متدليتين، وأبقى هناك ساعات أنظر فيما حولي ولا أرى شيئاً، وبجانبي ترفرف بكسل

فراشات بيض فوق العشب المغبار، ودوريّ نشيط يحطّ غير بعيد على حفّ كسرة من القرميد الأحمر وهو يزقزق في نزوان ويلوب ناشراً ذيله، والغربان المحترسة تطلق نعيبها بين حين وآخر وهي تحطّ في أعلى شجرة بتولة عارية، تلاعب الشمسُ والريحُ أغصانَها الجرداء في خفوت، ويترامى إليّ أحياناً رنين هادئ حزين من أجراس دير دونسكوي[1]، فكنت أمكث في مجلسي نظر وأصغي، وملء نفسي شعور غامض ولكنه ينطوي على كل شيء، فهو: الحزن والفرح، والتشوف إلى ما سيأتي به الغد، والرغبة في الحياة والرهبة منها. ولكني لم أكن أفهم شيئاً من هذا وقتذاك، ولا أستطيع أن أسمي كل ما يختمر في نفسي، ولعلني لو فعلت لجمعت ذلك كله في اسم واحد وهو زينابيدا.

أما زينابيدا فكانت ماضية في لعبها بي كما تلعب القطة بالفأرة. كانت تقبل عليّ بمغازلتها فيداخلني الاضطراب والابتهاج، أو كانت تصدني فجأة فلا أجرؤ بعدئذ على الاقتراب منها والنظر إليها.

وأذكر أنها مضت تعاملني ببرودة طوال بضعة أيام، فامتلأت نفسي بالخوف، وذهبت إلى بيتها وأنا متردد بين الإقدام والإحجام، وحاولت هناك أن أبقى إلى جانب الأميرة العجوز على الرغم من احتدام صراخها وشتائمها في ذلك الوقت بالذات بسبب اضطراب في شؤونها المالية اضطر شرطي الحي أن يزورها بخصوصه مرتين.

وفي ذات يوم كنت أمرّ قرب حاجز الحديقة المعهود فرأيت زينابيدا. كانت تجلس على العشب لا تندّ عنها حركة معتمدة على يديها، فأردت أن أنسحب في حذر، ولكنها استدارت برأسها فجأة وأومأت إليّ بإشارة آمرة، فتوقفت في مكاني غير مدرك أول الأمر معنى إشارتها، فلما أعادتها لم أتمهل بل قفزت الحاجز وأسرعت إليها تستخفّني سعادة غامرة، ولكنها استوقفتني بنظرتها وأشارت إلى ممر الحديقة الذي يبعد خطوتين عن مجلسها، فجثوت على ركبتي وأنا حائر فيما ينبغي عليّ أن أفعل. كانت تبدو شاحبة،

---

١ – أُسس دير دونسكوي – بوغوروديتسكي في موسكو في القرن السادس عشر من قبل القيصر فيدور إيفانوفيتش في البقعة التي هُزم فيها خان القرم غازا–غيري.

تدل قسمات وجهها على ما يبهظها من الحزن، حتى لقد تمزق قلبي حسرة لحالها، فتمتمت على الرغم مني أسألها:

- ما لك؟

فمدت زينابيدا يدها، واقتلعت عوداً من العشب، واخذته بين أسنانها، ثم قذفت به بعيداً.

وسألتني بعد لأي:

- إنك تحبني كثيراً، أليس كذلك؟

فلم أجب بكلمة، وعلام ينبغي أن أجيب؟

فأعادت وهي لا تزال ترمقني بعينيها:

- بلى أن الأمر كذلك. العيون نفسها،- أضافت وشردت أفكارها فغطت وجهها بيديها وهمست:- لقد زهقت من كل شيء. ليتني أذهب إلى آخر الدنيا، فما أستطيع أن أتحمل أكثر مما تحملت، إني عاجزة... وماذا ينتظرني فيما بعد!... آه مما ينقلني... يا ربي ما أشد ما يثقل قلبي!

فسألتها في وجل:

- فيم هذا؟

لم تجب زينابيدا بل هزّت كتفيها. كنت لا أزال جاثياً على ركبتي أنظر إليها في حزن عميق. وكل كلمة همست بها كانت تنفذ في قلبي، وتراءى لي في تلك اللحظة إني على استعداد للتضحية بحياتي فداء لها مما يؤودها. كنت أنظر إليها ولا أستشف مصدر حزنها، وقد تصورت حالها: استبد بها الحزن، فهرعت إلى الحديقة، وسقطت على الأرض كالعشبة المقصولة. كان كل ما يحيط بنا صافياً أخضر، والريح تعبث بأوراق الشجر، وتؤرجح بين الحين والحين غصناً طويلاً من شجرة توت فوق رأسها، والحمام يسجع هناك، ويطنّ النحل وهو يحوّم دانياً من الأرض فوق العشب المتناثر، والسماء فوقنا زرقاء لطيفة، ولكن ما أشد كآبتي في تلك الساعة...

قالت زينابيدا بصوت خافت وهي تتكئ على ساعدها:

- ألا تنشدني شيئاً من الشعر؟ لكم أحب أن أستمع إليك وأنت تقرأ

الشعر. إنك ترتله ترتيلاً، ولكن لا بأس فإن للشباب فرحه، أنشدني «على تلال جورجيا». ولكن عليك أن تجلس أولاً. فجلست وأخذت أنشدها «على تلال جورجيا»[1]. قالت زينايدا وهي تعيد البيت الأخير:

- «لا يستطيع القلب إلاّ أن يحب». تلك هي حسنة الشعر، إنه يحدثنا عما ليس له وجود، على نحو أحسن من الموجود، بل أشد قرباً من الحقيقة... نعم أن القلب لا يستطيع إلاّ أن يحب، ولعله يريد ولكنه لا يستطيع!- وعادت إلى الصمت، ثم تحركت فجأة وهبّت واقفة وهي تقول:- هيا نذهب، فإن مايدانوف يجلس عند أمي، وقد جاءني بإحدى قصائده فتركته وهو الآن محزون أيضاً... ولكن لا حيلة لي في الأمر، ستعرف هذا ذات حين... فلا تغضب مني.

ضغطت على يدي وانطلقت في إسراع تتقدمني وعدنا إلى البيت، أخذ مايدانوف ينشد قصيدة له كان قد فرغ لساعته من طبعها، اسمها «السفاح»، ولكني لم أصغ إليه، ومضى ينشد رباعياته بصوت مرنان رتيب، وقوافيه تجلجل كأجراس الزحافة، صخابة جوفاء. كنت لا أزال أنظر إلى زينايدا محاولاً أن أستجلي معنى كلماتها الأخيرة حينما صاح مايدانوف فجأة بصوت أخن:

أو لعل غريماً مجهولاً بالمرّة
تصيّدك على حين غرّة...

فالتقت عيناي بعيني زينايدا، وما لبثت أن خفضتها وقد شاعت في وجهها حمرة خفيفة. لقد رأيتها وهي تحمر، فجمدني الخوف، كنت أغار عليها من قبل، ولكن الخاطرة التي خطرت في رأسي في تلك اللحظة هي أنها تحب: «يا إلهي! إنها لعاشقة!».

- ١٠ -

لقد بدأ عذابي الحقيقي منذ تلك اللحظة، وكنت أفكر حتى يتفجر رأسي من التفكير، وأراقب زينايدا مخالساً دون انقطاع كلما سنحت الفرصة. كان واضحاً أن طارئاً ألمّ بها فبدّل من حالها. فقد كانت تخرج للنزهة وحيدة

١- قصيدة للشاعر الروسي العبقري ألكسندر بوشكين (١٨٢٩).

وتغيب في نزهتها طويلاً أو تمسك عن الظهور للضيوف، وتعتزل في غرفتها ساعات طوالاً، ولم يكن ذلك مألوفاً من عاداتها. وفجأة هبطت عليّ الفطنة، أو لعل هذا ما تراءى لي، وذهبت أتساءل في قلق وأنا أستعرض في خاطري الرجال المحيطين بها: «أيكون هذا أم ذاك؟» وظهر لي أن الغراف ماليفسكي كان أخطرهم جميعاً (وقد خجلت من هذه الخاطرة تجاه زينابيدا).

ولكن المراقبة لم تزدني بصراً بما يتجاوز أنفي. وقد حاولت أن أتكتم في الأمر، ولكن محاولتي لم تخدع أحداً، فإن الدكتور لوشن على الأقل أدركني وكشف سري بسرعة، ومهما يكن فقد تغير هو أيضاً في الأيام الأخيرة. أصبح مهزول الجسم، لم تنفثئ حدة ضحكه، ولكنه أصبح يضحك بصوت أجوف، على نحو مستوفز متقطع، وتحولت سخريته الخفيفة وتظاهره بالاستهتار إلى لذع خليع ينطلق في حدة وعصبية.

كنا وحيدين حينما قال لي ذات مرة ونحن في غرفة الاستقبال بمنزل آل زاسيكين (كانت الأميرة الشابة لا تزال في نزهتها، وأما الأميرة العجوز فكان صوتها ينفذ إلينا من الغرفة المجاورة وهي تؤنب خادمها).- فيم لا تمسك نفسك عن التردد دون انقطاع على هذا المنزل يا فتى؟ ينبغي لك أن تدرس وتعمل ما دمت في سنّ الصبا، فانظر ما أنت تفعل؟

فأجبته بشيء من التعالي يداخله الارتباك:

- ولكن ما يدريك أنني لا أعمل في البيت؟

- عن أي عمل تتحدث وفي رأسك موّال آخر؟... لا أريد أن أجادلك فأنت وشأنك، فإن هذا طبيعي وأنت في هذه السنّ، ولكنك لم تحسن الاختيار. أفلا تدري ما طينة هذا البيت؟

فقلت:

- إني لم أفهم إلامَ تقصد.

- ألم تفهم؟ إن هذا ادعى الرثاء؛ كان من واجبي أن أحذرك. إني ومن على شاكلتي من الكهول العزّاب لا علينا من التردد على هذا البيت، فأي ضرر يصيبنا؟ نحن قوم تصلب عودنا فما يهزنا شيء، ولكنك لا تزال طريَ العود، هذا الجو ضار بك - صدقني؛ فقد تسري إليك العدوى.

– وكيف ذلك؟

– هكذا. فهل أنت موفور الصحة الآن؟ أو أنت في حالة طبيعية؟ وعل أعتقدت أن كل ما تشعر به يلائمك ويصلح لك؟ فسألت وأنا أدرك في أعماقي أن الدكتور على حق:

– وما هذا الذي أستشعره؟

واستمر الدكتور قائلاً:

– آخ منك يا فتى، أيهذا الفتى. (كان يشدّ على هاتين الكلمتين كأنما ليبث فيهما شيئاً من العتاب) إنك لا تعرف المكر، فإن وجهك مرآة نفسك والحمد لله. ولكن ما الفائدة من الشرح؟ فما كنت أنا نفسي لأطرق هذا المكان لو لم (وصرّ الدكتور بأسنانه)... لو لم أكن من الطينة ذاتها. ولكن أشد ما يحيرني من أمرك أنك أنت الذكي ثم لا تدري بما يدور حولك.

فسألته وأنا أرهف السمع:

– وما هذا الذي يدور؟

فرمقني الدكتور بعطف ساخر وقال كأنما يحدث نفسه:

– وما شأني؟ أكان من الضروري أن أحدثه بكل ذلك؟– ثم أضاف بصوت عال:– أعيد عليك القول بأن هذا الجو لا يلائمك. قد يكون هذا الجو مما يعجبك. صحيح، ولكن هذا لا يكفي، فإن الرائحة الزكية تعجبك في دفيئة الأزهار، ولكنك لا تستطيع أن تعيش في دفيئة. إي، اصغ إليّ، ولتعد إلى كتابك المدرسي.

وجاءت الأميرة العجوز، وجعلت تتشكى إلى الدكتور من ألم في أسنانها، ثم أقبلت زينايدا، فأضافت الأم:

– ها هي ذي أيها السيد الدكتور، فلا تمسك عن تأنيبها، فإنها مضت تشرب الماء المثلج طوال النهار، فهل كان هذا ليلائم صدرها الضعيف؟

فسألها لوشن:

– علام فعلت ذلك؟

– وأي ضرر فيما فعلت؟

– أي ضرر؟ قد يصيبك البرد فتموتين.

– أيحدث هذا حقاً؟ هذا ما أستحقه.

– هكذا إذن؟– تمتم الدكتور.

وغادرت الأميرة العجوز الغرفة، فأعادت زينايدا:

– هكذا. هل في هذه الحياة مرح؟ قلّب الطرف فيما حولك... فأين ترى الخير؟ أم لعلك تظن أنني لا أفهم ولا أشعر؟ لقد طاب لي أن أشرب الماء المثلج، وأنت تريدني جاداً أن أصدق أن حياة على هذه الشاكلة أثمن من أن أخاطر بها وهي على حالها تلك من أجل لحظة هناءة ولا أقول لحظة سعادة.

فقال لوشن ملاحظاً:

– آه، نعم، فإن النزوان والاستقلال كلمتان تنطويان على موجز حياتك، كل طبيعتك في هاتين الكلمتين.

فضحكت زينايدا بعصبية وقالت:

– أخبارك جاءت بعد فوات الأوان يا عزيزي الدكتور، إن تشخيصك غلط ولا يمشي مع الزمن. ضع نظارتك على عينيك، سترى أن النزوان ليس من شأني الآن. وليس هنا شيء من المرح في أن أستغفلكم وأستغفل نفسي... أما عن الاستقلال...– وأمسكت فجأة عن كلامها وهي تدق لأرض بقدمها وقالت:– مسيو فولديمار، لا تلبس هذه السحنة الكئيبة، فإني لا أطيق أن أكون موضع إشفاق – وانصرفت مسرعة لا تلوي.

فأعاد لوشن ما قاله لي:– إنه لمؤذ لك هذا الجو أيها الشاب، مؤذ.

– ١١ –

في مساء ذلك اليوم انتظم عقد الجماعة في منزل آل زاسيكين وكنت بينهم.

انطلق الحديث حول قصيدة مايدانوف فأثنت زينايدا عليها في إخلاص، قالت له: ولكن أتدري لو أنني كنت شاعرة لطرقت موضوعات أخرى. قد يكون هذا لغواً فارغاً، ولكن تراودني أحياناً أفكار غريبة، وبخاصة حينما أكون مسهّدة قبيل الفجر، وقت اصطباغ السماء باللون الوردي الرمادي. فمثلاً... ألا تضحكون مني؟

فهتفنا جميعاً بصوت واحد: «لا! لا!».

فقالت وهي تطوي ذراعيها على صدرها وتلقي ببصرها إلى جانب:

– لكنت وضعت جماعة من الفتيات، وهن على مركب عظيم يتهادى في الليل على مياه نهر هادئ، تحت ضوء القمر المنير، وقد ارتدين الأبيض، وعلى رؤوسهن أكاليل من الزهر الأبيض، وانطلقن يغنين شيئاً يشبه النشيد.

فتنطع[1] مايدانوف قائلاً وهو يصطنع هيئة الفاهم والحالم في آن:

– مفهوم، مفهوم... أمضي في حديثك.

– وفجأة تنفجر الضوضاء والضحكات، وتتألق المشاعل، وتدق الدفوف على الشاطئ، ويظهر حشد حاشد من رعية إله المجون يقبل مسرعاً وهو يغني ويصخب. وهنا ينبغي عليك أيها السيد الشاعر أن ترسم من هذا لوحة... ولكني أريد أن تكون المشاعل حمراء ينبعث منها دخان كثيف وأن تلمع عيون الماجنات تحت أزهار الأكاليل، ويجب أن تكون الأزهار قاتمة، ولا تنس جلود النمور، والكؤوس، والذهب، الوفرة من الذهب.

فسألها مايدانوف وهو يرفع شعره إلى وراء ويمد أنفه:

– وأين ينبغي أن يوضع هذا الذهب؟

– أين؟ على الأكتاف وفي الأيدي والأرجل، في كل موضع، فقد كانت النساء على ما روى، يتزيّن في قديم الزمان بالخلاخيل الذهب. وتنادي الماجنات فتيات المركب. فتمسك الفتيات عن الغناء ويتولاهن العجز عن المضي فيه، ولكنهن لا يتحركن: كأن النهر يدفع بهن إلى الشاطئ. فتقوم إحداهن فجأة في سكون... وهذا يحتاج إلى براعة في وصف قومتها الساكنة تحت ضوء القمر الساطع، ووصف الذعر الذي شاع في صديقاتها... وتخطو فوق طرف المركب، فتحيط بها الماجنات ويحملنها ويختفين بها في أعماق الليل، في الظلمة... وتصوروا سحب الدخان تنعقد ويسود الهرج فلا يسمع إلا صيحات الماجنات وإكليلها متروك على الشاطئ.

قطعت زينايدا حديثها. (فقلت لنفسي: «أوه إنها عاشقة!»).

١– تنطع بالكلام: تفصح فيه وتشدق. (المعرب).

وسألها مايدانوف قائلاً:

- أهذا كل شيء؟

فقالت:

- هذا كل شيء.

فتنطع ملاحظاً:

- لا يصلح هذا موضوعاً لقصيدة طويلة ولكني سأعتمد هذه الفكرة في قصيدة عاطفية.

فسأله ماليفسكي:

- أبالأسلوب الرومانتيكي؟

- طبعاً بالأسلوب الرومانتيكي وبالطريقة البايرونية[1].

فقال الغراف الشاب باستهتار:

- في رأيي أن هوغو أطرف من بايرون.

فقاطعه مايدانوف قائلاً:

- إن فيكتور هوغو كاتب من الطراز الأول، ويقول صديقي تونكوشييف في روايته الأسبانية «التروفادور» أن...

فقاطعته زينابيدا قائلة:

- آه... أتقصد ذلك الكتاب المملوء بعلامات الاستفهام المقلوبة؟

- نعم، فإن هذا من التقاليد الإسبانية. وكنت أريد أن أقول - أن تونكوشييف...

وعادت زينابيدا تقطع حديثه:

- إيه! ستعودون إلى جدلكم حول الكلاسيكية والرومانتيكية. هيا نلعب لعبة فإن هذا أفضل...

فتدخل لوشن وسألها:

١- جورج نويل غوردون بايرون (١٧٨٨ - ١٨٢٤) شاعر إنجليزي بارز، وممثل الرومانسية الثورية.

- ألعبة الجزاء؟

- لا، إن لعبة «الجزاء» تشيع الملل. سنلعب لعبة التشبيهات. (كانت هذه اللعبة من بنات أفكار زينابيدا، حيث تسمى الأشياء ويأخذ المتبارون في ابتكار التشبيهات المناسبة ويفوز بالجائزة من يأتي بأحسن تشبيه).

وسارت زينابيدا إلى النافذة. كانت الشمس قد انحدرت لحظتها نحو الغروب، وامتدت في أعلى السماء سحائب طويلة حمراء.

وسألت زينابيدا:

- ماذا تشبه هذه السحب؟- وأضافت دون أن تنتظر جواباً:- في رأيي إنها تشبه شراعاً قرمزياً على ذلك المركب الذهبي الذي حمل كليوباطرة إلى لقاء أنطونيو[1]. أتذكر يا مايدانوف أنك رويت عليّ هذا منذ وقت قريب.

وقررنا نحن، على طريقة بولوني في «هاملت» أن هذه السحب تشبه ذاك الشراع، ولا سبيل لأحد أن يأتي بأحسن من هذا التشبيه.

وسألت زينابيدا:

- كم كان لأنطونيو من العمر وقتذاك؟

ولاحظ ماليفسكي:

- لعل الأرجح أنه كان شاباً.

وأكد مايدانوف:

- نعم كان شاباً.

فصرخ لوشن:

- عفواً، لقد كان فوق الأربعين.

فرددت زينابيدا عبارته وهي تلقي عليه نظرة سريعة:

١- من أبطال بلوتارك (حوالي ٤٦ - ١٢٧ بعد الميلاد) الكاتب اليوناني المدوِّن والمؤرخ والفيلسوف.
مارك أنطونيو شخصية سياسية رومانية وقائد عسكري (حوالي ٨٣ - ٣٠ قبل الميلاد) وكليوباطرة ملكة من أسرة البطالسة المالكة (٦٣ إلى ٣٠ قبل الميلاد) وكانت حليفة وخليلة مارك أنطونيو (في عام ٣٧ تزوج منها).

- فوق الأربعين.

عدت إلى البيت بسرعة، وتمتمت شفتاي على الرغم مني: «إنها تحب، ولكن من المحبوب؟»).

- ١٢ -

تعاقبت الأيام، ولا تزال زينابيدا تزداد غرابة وغموضاً. دخلت عليها ذات يوم، فرأيتها تجلس في كرسي من القش ورأسها مسترخ على حدّ المائدة، فلما استقامت كان وجهها مبلولاً بالدموع. قالت وهي تبتسم ابتسامة قاسية:

- أوه، أهذا أنت، تعال.

فاقتربتُ منها، وكان أن وضعت يدها على رأسي، وأمسكت فجأة بخصلة من شعري وجعلت تبرمها.

فقلت لها بعد لأي:

- إن هذا يؤلمني.

- يؤلمك؟ أفلا يؤلمني، أفلا يؤلمني؟

وصرخت فجأة حينما رأت أنها اقتلعت خصلة من شعري:

- ما هذا الذي فعلته؟ مسكين يا مسيو فولديمار.

وأخذت تملس خصلة الشعر في هدوء وتلفها حول أصبعها حتى جعلت منها حلقة، وقالت والدموع تلمع في عينيها:

- سأضع شعرك في ميدالية لأحتفظ به تذكاراً فلعل هذا أن يحمل إليك العزاء... أما الآن فوداعاً.

عندما عدت إلى البيت رأيت الجو مشوباً بالاضطراب، والتشاحن قائماً بين أبي وأمي، فهي تلحوه في أمر، وهو على عادته صامت في برودة وتأدب، ولم يتلبث طويلاً بل غادر المنزل. وفاتني أن أسمع ما كانت تقوله أمي فما همّني ذلك فقد كنت عنه في شغل شاغل. كل ما أذكره أنها أرسلت من يدعوني إلى مكتبها بعد انتهاء المشاجرة وأبانت عدم رضاها من زياراتي الكثيرة للأميرة،

لأنها على حدّ قولها une femme capable de tout [1] فقبلت يدها (على عادتي كلما رغبت في إنهاء الحديث) وذهبت إلى غرفتي. كانت دموع زينايدا باعث حيرة في نفسي: فما أدري على أيّ وجه ينبغي تأويلها وأوشكت أنا نفسي على البكاء، كنت طفلاً على الرغم من سنواتي الست عشرة، لم أعد أفكر في الغراف ماليفسكي على الرغم من أن بيلوفزوروف كان يبدو أكثر قساوة بنظراته الماكرة التي كان يشزر بها الغراف كما يشزر الذئب الحمل؛ فقد انقطعت عن التفكير في هذا وذاك. واستغرقتني الظنون، وذهبت أنشد العزلة،وأصبحت خرائب الدفيئة مكاني الأثير، فكنت أتسلق جدارها العالي وأجلس وحيداً محزوناً حتى أصبحت أشفق على نفسي، ولشدّ ما كان هذا الشجى ماتعاً ولشدّ ما اجتذبني إلى الاستغراق فيه...

كنت أجلس ذات يوم على الجدار، مرسلاً بصري إلى الآفاق البعيدة، مصغياً إلى رنين الأجراس الكنسيّة... وإذا شعور مباغت بأن شيئاً يزحف على جلدي، فكان نسمة ولا نسيم، ورعشة ولا ارتعاش، بل لعله الإحساس بأن شخصاً يقترب مني... فنظرت إلى أسفل نحو الطريق، فرأيت زينايدا تغذّ في السير وهي في فستان رمادي خفيف وعلى كتفها مظلة حمراء. كانت قد رأتني أيضاً فتوقفت، ولوت طرف قبعتها المصنوعة من القش إلى أعلى ورفعت نحوي عينيها المخمليتين، وسألتني وهي تبتسم ابتسامة غريبة:

– ماذا تفعل هناك على هذا المرتفع؟– وأضافت:– إنك ما تفتأ تؤكد لي أنك تحبني، فاقفز إلى الطريق إن كنت صادقاً.

فما كادت زينايدا تأتي على نهاية هذه الكلمات حتى كنت أطير إلى أسفل كأنما دُفعت من وراء. كان ارتفاع الجدار يزيد على قامتين فبلغت الأرض واقفاً، ولكن عنف الصدمة أعجزني عن التماسك في وقفتي فسقطت غائباً عن الوعي واستمر ذلك لحظة، ولما أفقت لنفسي شعرت وأنا مغمض العينين أن زينايدا بجنبي، وسمعتها تقول وفي صوتها القلق والعطف وهي تنحني عليّ:

– «يا حبيبي الصغير. فيم فعلت هذا، وعلام أصغيت إليّ؟... إني أحبك... هيا انهض!».

١– امرأة لا تزع نفسها عن أمر (بالفرنسية في الأصل).

كان صدرها يتنفس قريباً من صدري، ويداها تمسحان رأسي، وفجأة – يا قلبي على ما جرى لي آنذاك؟– أخذت شفتاها الناعمتان الغضّتان تغطيان وجهي بالقبل... وتتلمسان شفتي... وهنا أدركت زينايدا من التعبير المرتسم في وجهي أنني ثبتُ إلى نفسي ولكني لا أفتح عينيّ، فهبت واقفة بحركة سريعة وقالت:

– «قم من أرضك يا عفريت يا مجنون، ما معنى رقدتك هذه على التراب؟».

فقمت من أرضي.

وقالت زينايدا:– جئني بمظلتي من حيث أسقطتها، ولا ترمقني هكذا... ما هذا السخف؟... أأصابك أذى، أو لعل القراص قرصك؟... قلت لك لا تنظر إليّ...– وأضافت كأنما تحدث نفسها:– أجل، إنه لا يفهم ولا يجيب. لتذهب إلى بيتك يا مسيو فولديمار لتتنظف، واحذر أن تسير في أثري وإلا غضبتُ، وعندئذ لن...

وأسرعت تمضي في سبيلها من دون أن تكمل خطابها، على حين ذهبت أجلس على كتف الطريق... كنت واهن الساقين، ملتهب اليدين من القراص، يؤلمني ظهري ويدور رأسي، ولكن الهناءة التي ملأت نفسي وقتئذ لن تتكرر مهما عشت في هذه الحياة. كانت تخالجني كأنها ألم عذب يسري في أطرافي كافة، ثم انفجرت أخيراً في قفزات وصيحات تلتهب بالحماسة. كان الأكيد: إني ما زلت طفلاً.

– ١٣ –

لشدّ ما كنت مرحاً فخوراً طوال ذلك اليوم، وكم كان حيّاً ذلك الإحساس بقبلات زينايدا على وجهي، وبأي نشوة كنت أستعيد ما قالت كلمة كلمة. لقد حنوت على سعادتي المفاجئة بما يشبه الرعب، وأصبحت لا أريد حتى أن أراها، وهي المسؤولة عن هذا الشعور الجديد. وخيل إليّ أنني استنفدت تطلعاتي فلم يبق لي ما أجدّ في طلبه من القدر، وكأنما آن لي «أن ألملم أنفاسي الأخيرة وألفظها جملة وأموت». ولكني شعرت في اليوم التالي بتهيّب شديد وأنا أتوجه إلى بيت الأميرة وأخفقت محاولتي في إخفاء

هذا الشعور وراء مظهر وديع من عدم الكلفة، لاعتقادي أنه المظهر الملائم لامرئ يرغب في إقامة البرهان على أنه كتوم للسرّ. واستقبلتني زينابيدا في بساطة لا أثر فيها للتحرّج، ولم تفعل إلا أنها هزّت أصبعها وسألت: أيكون فيّ أثر من بقع زرق؟ فإذا مظهر الجسارة المتواضعة والتكتم يفارقني في تلك اللحظة. وزال معهما ارتباكي. وطبيعي أنني لم أكن أتوقع أي امتياز خاص، ولكن هدوء زينابيدا وقع عليّ مثل دلقة من ماء بارد. لقد أدركت أنني ما زلت في نظرها مجرد طفل، فثقل ذلك عليّ! كانت زينابيدا تسير في الغرفة ذاهبة جائية، وترميني بابتسامة عابرة كلما تلاقت نظراتنا، رأيت في وضوح أن أفكارها كانت بعيدة عني... وخطر ببالي أن أبدأها الحديث عن حادث أمس، وفكرت: «هل أسألها إلى أين ذهبت مسرعة لأكون على علم بخاتمة المطاف...؟» ولكني لوحت بيدي وانتبذت مكاناً في زاوية الغرفة جلست فيه.

أقبل بيلوفزوروف فاغتبطت لقدومه، وقال بصوت خطير:

– أخفقت في العثور على جواد هادئ يناسبك. لقد نصحني السيد فرايتاغ بواحد[1]، ولكني لم أثق بقوله، وغلبني الخوف.

فسألت زينابيدا:

– وممّ تخاف؟ إذا سمحت بالسؤال.

– ممّ؟ إنك لا تقدرين على ركوب الخيل. ربّ يا خفيّ الألطاف احفظنا مما نخاف. ثم ما هذا الوهم الذي ملأ رأسك فجأة؟

– هذا شغلي يا مسيو وحشي وليس شغلك. وسنلجأ في هذه الحال إلى بيوتر فاسيلييفيتش... (كان هذا اسم أبي، وقد أدهشني إنها نطقت به في يسر وطلاقة كأنها على يقين من حسن استعداده لخدمتها).

فاعترض بيلوفزوروف قائلاً:

– إذن هذا هو من تريدين أن تخرجي معه على صهوة الجواد؟

---

١ – فرايتاغ مروض شهير للخيول العداءة في موسكو في الثلاثينيات من القرن الماضي، وصاحب إسطبل للخيول.

- معه أو مع غيره، فإن هذا لا يخصك، وليس معك في كل حال.

فردد بيلوفزوروف قائلاً:

- ليس معي. كما تشائين. ماذا بيدي أن أفعل؟. سأدبر لك حصاناً.

- واحرص على ألاّ يكون بقرة أو مما في هذا الجنس، فأنا أنذرك بأني سأنجرد به.

- تفضلي انجردي به، ولكن مع من؟ أهو ماليفسكي؟

- ولِمَ لا يكون ماليفسكي أيها المغوار؟

وأضافت:

- ولكن هدئ من روعك، ولا تحملق بعينيك، فإنك أيضاً من سآخذه معي، وأنت تعرف ما موضع ماليفسكي عندي الآن - أف! (ورفعت رأسها في استعلاء).

فقال بيلوفزوروف متذمراً:

- إنك تقولين ذلك من قبيل التعزية.

ضيقت زينايدا عينيها.

- هل يعزيك هذا؟ أو... و... ه أيها المغوار.- وقد نطقت بأواخر هذه الكلمة، كأنها لم تعثر على كلمة أخرى.- وأضافت:

- وأنت يا مسيو فولديمار ألا تريد أن تأتي معنا؟

فقلت من دون أن أرفع بصري:

- إني لا أحب... أن أكون في جماعة كثيرة...

- Tete- a- tete [1]، هذا ما تفضله إذن؟... لا عليك فالحرية للحرّ والجنة لمن نجا[2] - وتنهدت - امض إذن يا بيلوفزوروف، إني في حاجة إلى الحصان غداً.

فتدخلت الأميرة العجوز بقولها:

١- رأس لرأس (بالفرنسية في الأصل).

٢- مثل روسي، معناه لك ما تريد.

– طيب، والنقود؟ من أين ستحصلين عليها؟

فقطبت زينايدا حاجبيها:

– لم أطلبها منك فإن بيلوفزوروف يثق بذمتي.

فغمغمت الأميرة العجوز:

– يثق، يثق...

وصاحت فجأة بملء صوتها:

– دونياشكا!

فلاحظت الأميرة الصغيرة قائلة:

– Maman، لقد أهديتك جرساً لهذه الغاية.

وعادت العجوز تصيح:

– دونياشكا!

انحنى بيلوفزوروف مودعاً، فقمت أقصد الذهاب معه. ولم تحاول زينايدا أن تستبقيني.

– ١٤ –

نهضت مبكراً في صباح اليوم التالي، فاقتضبت قضيباً من شجرة ومضيت أتجول فيما وراء باب المدينة، وقد قيل: إذا ضقت بمطرح فاتركه واسرح. كان النهار رائعاً مشرق الضياء معتدل الجو، والأنسام المرواح تتفسّح على الأرض، وتضوضى في حفيف خافت، وتلعب فتهزّ كل ما تلمسه من دون أن تؤذيه. وأطلت في التجوال خلال الغابات والجبال، ولكني لم أشعر بسعادة، لأني غادرت المنزل وبي نزوع إلى الاستغراق في الأحزان. ثم ما لبث الشباب اليافع، والطقس الرائع، والهواء النقي، وتلك الغبطة التي يبتعثها المشي السريع، وراحة الاستلقاء على العشب الكثيف، إن عملت عملها، فتواردتني الذكريات: ذكريات الكلمات التي لا تنسى، والقبلات. استشعرت الغبطة حينما فكرت في أن زينايدا لا تستطيع أن تنفي أنني امرؤ لا تنقصه العزيمة والشجاعة... «إنها تفضل الآخرين عليّ. ليكن! ولكن الآخرين لا يتجاوزون حدود الحديث عما سيفعلون، أما أنا فقد فعلت...

وأملك القدرة على أن أفعل في سبيلها فوق ما فعلت!...» وسرّح بي الخيال، فتصورتني أنقذها من قبضة أعداء، ورأيتني غارقاً في الدم وأنا أخلصها من سجن مظلم ثم أهوي ميتاً عند قدميها. وخطرت ببالي لوحة معلقة عندنا في غرفة الاستقبال وهي صورة الملك العادل يحمل ماتيلدا[1]... وهنا شغلت بنقار كبير ذي لون محبر لامع يتسلق في اهتمام على شجرة بتولة دقيقة الساق وهو ينظر من خلفها ذات اليمين وذات اليسار في حذر كأنه عازف موسيقي وراء عنق كمان جهير.

ثم أخذت أغني: «الثلوج ليست بيضاء»، وانتقلت منها إلى الأغنية العاطفية الشائعة في ذلك الحين: «أنا في انتظارك حينما يتلاعب النسيم». وقطعتها لأقرأ بصوت مرتفع خطاب يرماك إلى النجوم في مأساة خومياكوف[2]، بل لقد حاولت أن أنظم ما يحضر من شعر العاطفة، وارتأيت أن تختتم القصيدة بهذا البيت: «أوه، زينابيدا، زينابيدا!». ولكن محاولتي أخفقت. وحلّ موعد الغداء في هذه الأثناء، فقمت أهبط الوادي. كان فيه طريق رملي ضيق يتأفعى ذاهباً حتى المدينة. فذهبت في هذا الطريق... وترامى إليّ من ورائي خلال السير إيقاع مكتوم لحوافر جياد، فالتفت إلى وراء، وتوقفت عن غير قصد وأنا أرفع قبعتي: رأيت أبي وزينابيدا، كانا متواكبين، وأبي يحدثها وهو منحن عليها بجسمه جميعاً معتمد بيده على عنق الجواد؛ كان يبتسم، وزينابيدا تصغي إليه صامتة وقد أرخت عينيها في جد، وكزّت شفتيها. لم أر غيرها أول الأمر، وبعد لحظات برز بيلوفزوروف من منعطف في الطريق، وهو في حلّة الفرسان، وتحته حصان أدهم كان يلمع بالعرق ويرمح برأسه وينخر ويتوثب. كان راكبه يكبحه بالعنان ويهمزه بالمهاز في آن، فانتحيت

١- شخصيات من رواية الكاتبة الفرنسية صوفي كوتون (ماريا صوفي ريستو) «ماتيلدا، أم مذكرات مأخوذة من تاريخ الحملات الصليبية» (١٨٠٥).

٢- رومانس على كلمات من قصيدة للشاعر والناقد بيتر فيازيامسكي «أنا في انتظارك» (١٨١٦).

«الثلوج ليست بيضاء» أغنية شعبية روسية قديمة.

«يرماك» (١٨٣٢) مسرحية تراجيدية شعرية للشاعر الروسي ألكسي خومياكوف (١٨٠٤ - ١٨٦٠).

جانب الطريق، وأخذ أبي عنان الجواد بيديه، وابتعد عن زينايدا، بينما أرسلت هي إليه نظرة وانية، وانطلقا يخبّان جواديهما متواكبين... وتبعهما بيلوفزوروف وسيفه يقعقع. قلت في نفسي: «إنه أحمر كالسرطان البحري وأما هي... ففيم شحوبها؟ إنها كانت تقضي الصباح كله في الركوب فلماذا هذا الشحوب؟».

حثثت الخطى فبلغت الدار في موعد الغداء. كان أبي قد بدّل ثيابه، واغتسل فبدا نضراً، وجلس بجنب مقعد أمي وراح يقرأ عليها بصوته الرتيب المرنان مقالة ساخرة في «Journal des Débuts»[1] كانت أمي تصغي في غير إقبال، ولما رأتني سألتني: أين كنت شارداً طوال النهار؟. ثم أضافت قائلة: إنها لا تحب من يتسكعون حيث لا يعلم إلا الله، أو يرافقون من ليس يدري بأمورهم إلا الله. وهممت بأن أقول لها إنني كنت أتنزّه وحيداً، ولكنني نظرت إلى أبي، ولا أدري لماذا التزمت الصمت؟.

- ١٥ -

لم ألتق زينايدا إلا لماماً طوال الأيام الخمسة أو الستة الأخيرة، قالت إنها مريضة، ولكن ذلك لم يمنع الزائرين التقليديين من الذهاب إلى بيتها لأداء الواجب - على حدّ قولهم. كانوا يأتون إلى بيتها جميعاً ما عدا مايدانوف، فقد كان يشتمله القنوط والوهن كلما نضب معين إلهامه. وكان بيلوفزوروف ينتبذ ركناً قصياً من الغرفة، فيجلس بوجه عبوس شديد الاحمرار، وسترة مزررة حتى العنق. واستقرت في وجه الغراف ماليفسكي الدقيق ابتسامة تنبئ أنه فقد في الواقع الحظوة عند زينايدا وأصبح شديد الحرص على استرضاء الأميرة العجوز، بل إنه رافقها ذات مرة في عربة إلى دار الحاكم الأم، ولكن تلك الزيارة لم تثمر شيئاً، وكان من نكدها عليه: أن القوم ذكّروه هناك بسابقة من السوابق اشترك فيها مع بعض الضباط، ولم يكن لديه ما يدافع به عن نفسه إلا القول بأنه كان مغفلاً عديم التجربة. أما لوشن فكان يأتي إلى الجناح زائراً مرة أو مرتين في اليوم، ولكنه لا يمكث إلا قليلاً، وقد أصبحت أخشاه بعض الخشية بعد حديثنا الأخير، وأشعر

---

١ - «Journal des Debates» - صحيفة باريسية.

بالميل نحوه في الوقت نفسه. وقد ذهبنا ذات مرة في نزهة خلال حديقة نيسكوتشني، فكان حديثه معي في غاية اللطف والرقة، جعل يذكر لي أسماء الأعشاب والأزهار المختلفة، ويحدثني بخواصها، ثم إذا هو يهتف فجأة، ونحن على حدّ القول الدارج لا هنا ولا هناك ويضرب بيده على جبينه قائلاً: «ما أنا إلا أحمق. لقد ظننت أنها مجرد فتاة لعوب، فظهر أن التضحية بالنفس مستعذبة عند البعض».

فسألته:

- ماذا تريد بهذا أن تقول؟

فأجابني لوشن في حدة:

- لا شيء أريد أن أقوله لك أنت.

كانت زينايدا تتجنب مقابلتي، لاحظت أنها تضيق ذرعاً برؤيتي، وتشيح وجهها عني بصورة غريزية... بصورة غريزية؛ وهذا بالذات ما كان يعذبني ويسحقني وأنا أن أملك شيئاً حياله. وقد جهدت في توقّي نظراتها، واكتفيت بمراقبتها من بعيد، فلم أفلح في ذلك كل الفلاح. كان يتداخلها شيء مبهم يتعصّى على الفهم: أصبح الوجه غير وجهها، وتغيرت أحوالها جملة. وأدهشني على الخصوص ما ظهر منها في ذات مساء هادئ دائ. كنت أجلس على دكة واطئة، ورأسي تحت فرع عريض من شجيرة خزام؛ وهو مضوع آثرته لأنه يكشف لي عن نافذة زينايدا. كنت أجلس وفوق رأسي طائر صغير يلوب بين الأوراق المظلمة؛ وتمطت قطة رمادية ثم انسلت إلى الحديقة في هدوء، وأوائل الصراصير تملأ الجو بأزيزها الثقيل، والفضاء ما زال شفافاً ولكنه غير مضيء. كنت أنظر من مجلسي إلى النافذة وأنتظر أن تفتح؛ وما لبثت أن فتحت، وظهرت فيها زينايدا. كان عليها فستان أبيض، وهي نفسها، بوجهها وكتفيها وذراعيها بدت شاحبة إلى حدّ البياض. طال وقوفها من دون حركة، وهي تنظر بحاجبين مقطبين نظرة ثابتة ولا تندّ منها حركة، لم أكن أعرف إنها قادرة على مثل هذه النظرة؛ ثم ضمّت يديها بأقصى ما تكون الشدة ورفعتهما إلى شفتيها فجبينها؛ وفجأة بسطت أصابعها وجعلت شعرها وراء أذنيها، وهزّت رأسها، ونفضت شعرها في عزم، وصفقت مصراع النافذة.

التقينا بعد ثلاثة أيام في الحديقة، أردت أن أمضي مجانباً ولكنها استوقفتني وقالت بلهجتها في الأيام الخالية:

– هات أعطني يدك، فإننا لم نثرثر مع بعضنا البعض منذ وقت بعيد.

نظرت إليها فإذا عيناها تضيئان بنور هادئ، وكان وجهها يبتسم من خلال ضباب خفيف.

سألتها:

– أما زلت موعوكة؟

فأجابت وهي تقطف وردة حمراء:

– لا، فقد زال كل شيء الآن. إني متعبة قليلاً، ولكن هذا سيزول أيضاً.

– هل تعودين كما كنت من قبل؟

فرعت زينايدا الوردة إلى وجهها، وعندئذ تراءى لي كأن ضياء أوراق الوردة المتألق ينعكس في خديها. وسألتني:

– أتراني تغيرت؟

فقلت بصوت خافت:

– أجل، تغيرت.

فقالت زينايدا:

– أعرف أنني كنت باردة معك، ولكن ما كان ينبغي لك أن تهتم بهذا الأمر... لم أكن أستطيع غير ذلك... ولكن فيم الحديث عن هذا!

فصحت دون قصد بنبرة حزينة:

– لا تريدين لي أن أحبك. هذا هو الأمر!

– لا جرم أن تحبني ولكن غير حبك من قبل.

– بل كيف؟

– أن نكون أصدقاء.

وأضافت وهي ترفع الوردة لأشمها:

– اسمع. إني أكبر منك سناً، وكان يمكن لي أن أكون عمتك، ليس عمتك بل أختك الكبرى، وأما أنت...

فقاطعتها قائلاً:

- مجرد طفل في نظرك.

- أجل، ولكنك الطفل الظريف الطيب الذكي الذي أحبه كثيراً. اصغ إليّ، ستكون وصيفي الخاص منذ اليوم، ولا تنس أن الوصيف لا يستطيع أن يبتعد عن سيدته. وها هي ذي شارة منصبك الجديد.- أضافت وهي تضع الوردة في عروتي - شارة رعايتنا لك.

فتمتمت قائلاً:

- لقد تلقيت لوناً آخر من رعايتك فيما مضى.

فصاحت زينابيدا:

- آت!...

وأضافت وهي ترمقني بجانب عينيها:

- يا لقوة ذاكرته! ولكن ما المانع؟ فأنا مستعدة الآن أيضاً...

وانحنت عليّ تطبع على جبيني قبلة صافية هادئة.

لم أملك سوى أن نظرت إليها، بينما استدارت تقول: «هيا اتبعني يا وصيفي»، وسارت نحو الجناح وأنا في أثرها. كنت في حيرة من كل هذا، ورأيتني أقول في نفسي: «أيعقل أن تكون هذه الفتاة الوديعة الفطنة هي نفسها زينابيدا التي عرفتها من قبل؟» لقد تغيرت حتى أن مشيتها تراءت لي أهدأ مما كانت، وزاد جسدها كله جلالاً ورشاقة...

يا إلهي، بأية قوة جديدة أصبح حبي يتلهب!

- ١٦ -

اجتمع الضيوف في الجناح بعد الغداء، وخرجت الأميرة الشابة إلى استقبالهم. التقى أفراد الشلّة جميعاً كما كانوا في تلك السهرة الأولى التي لن أنساها: بل حتى نيرماتسكي جاء؛ ووصل مايدانوف قبل الآخرين في هذه المرة ومعه قصيدة جديدة وبدأت لعبة الجزاءات أيضاً، ولكن من دون تلك المزحات الشاذة وما إليها من الهرج والمرج، فقد اختفى من ضوضائنا عنصرها النّوري، وأضفت زينابيدا على المجلس روحاً جديدة. جلست إلى

جانبها كما يقتضي من الرصيف. كانت قد اقترحت في أثناء اللعب أن يروي من يسحب الورقة الخاسرة ما رآه في المنام؛ ولكن قتراحها لم يحالفه النجاح، فالأحلام جاءت إما سخيفة (رأى بيلوفزوروف في المنام أنه يعلف حصانه سمك الشبوط، وأن للحصان رأساً من خشب)، أو لا أصل لها ولا فصل، فقد تكرّم علينا مايدانوف بقصة طافحة بالتوابيت، وبالملائكة في أيديهم المزاهر، وبالأزهار الناطقة، والترانيم القصية الرنين... ولكن زينايدا قطعت عليه حبل الاستمرار إلى النهاية، وقالت:

– ما دمنا في مجرى الاختلاق فليرو كل واحد شيئاً من بنات الخيال. كان على بيلوفزوروف أن يكون البادئ في الحديث.

ولكن الفارس الشاب أحرجه الموقف فصاح:

– إني لا أستطيع أن أبتكر شيئاً.

فقالت زينايدا:

– ما هذا الكلام الفارغ! افترض أنك، على سبيل المثال، متزوج، فحدثنا كيف تعامل زوجتك. هل تغلق دونها الأبواب؟

– أجل، كنت أحبسها.

– هل تجلس إليها أنت بالذات؟

– كيف كنت تجلس إليها.

– ظريف، ولكن هب أنها انزهقت وخانتك؟

– كنت أقتلها.

– وإذا هربت؟

– أذهب في طلبها، ومهما يكن فإني أقتلها.

– ولكن هب أني زوجتك فماذا كنت تفعل؟

فأمسك بيلوفزوروف عن الكلام لحظة ثم قال:

– كنت أقتل نفسي...

فضحكت زينايدا وقالت:

- أرى أن أنفاسك في الغناء قصيرة[1].

في السحب الثاني جاءت الورقة مع زيناييدا، فرفعت عينيها إلى السقف واستغرقت في التفكير، ثم قالت أخيراً:

- اسمعوا ماذا اخترعت. تصوروا قصراً منيفاً، وليلة صيف، وحفلة رقص رائعة. الحفلة أقامتها ملكة شابة. في كل ناحية ذهب ومرمر وبلور وحرير وأضواء وألماس وأزهار وبخور وكل ما يشتهي من الترف.

فقاطعها لوشين قائلاً:

- وهل أنت تحبين الترف؟

فأجابت:

- الترف جميل، وأنا أحب كل جميل.

فسأل:

- أكثر من الرائع؟

- هذا تعقيد لا أفهمه فلا تشوش عليّ... وإذن فإن الحفلة غاية في الروعة. الضيوف كثرة، وهم جميعاً شبان نشطاء شجعان؛ وكلهم متيّم بحب الملكة.

فسأل ماليفسكي:

- هل بين الضيوف نساء؟

- لا... بل طوّل بالك، أجل، هناك نساء.

- وهل هنّ جميعاً غير جميلات؟

- بل فاتنات الجمال، ولكن الرجال كلهم واقعون في حب الملكة، فهي هيفاء رشيقة... تزين شعرها الأسود بإكليل صغير من الذهب.

نظرت إلى زيناييدا فبدت لي في تلك اللحظة أرفع شأناً منا نحن جميعاً، ورأيت الذكاء والاقتدار يتألقان في جبينها الوضاء وحاجبيها الثابتين، فقلت في نفسي: «إنك أنت تلك الملكة!».

١- المقصود أنه ضيق الصدر قليل الصبر. (المعرب).

واستطردت زينابيدا:

– وأحاطوا كلهم بها يتملقونها بالمدائح.

فسأل لوشن:

– هل تحب الملق؟

– يا لك من رجلٍ لا يطاق، ما تفتأ تقاطعني... فمن لا يحب الملق؟

فقال ماليفسكي:

– هناك أيضاً سؤال أخير. هل للملكة زوج؟

– لم أفكر في هذا. ولكن، لا، فلماذا الزوج؟

فقال ماليفسكي موافقاً:

– طبيعي فلماذا الزوج؟

فصاح مايدانوف بالفرنسية وكانت لهجته فيها قبيحة:

– Silence! [1].

فقالت له زينابيدا:

– Merci [2]. وعلى ذلك، تستمع الملكة إلى تلك المدائح، وتصغي إلى الموسيقى، من دون أن تنظر إلى أحد من الضيوف؛ هناك ست نوافذ مفتوحة المصاريع من السقف إلى الأرض، وراءها السماء المظلمة والنجوم الكبيرة، ثم أن الحديقة مظلمة، فيها أشجار ضخمة، والملكة بصرها في الحديقة؛ بين الأشجار نافورة تسطع في الظلمة طويلة طويلة، كأنها الشبح. وتستمع الملكة من خلال الكلام والموسيقى إلى ترشش الماء الهادئ؛ وإنها لتنظر وتفكر: أنتم جميعاً أيها السادة، معشر نبلاء أذكياء أغنياء. وها أنتم أولاء تحيطون بي، وتعتزون بكل كلمة من كلماتي، كلكم مستعد للموت على قدمي، وأنا المسيطرة عليكم... ولكن هناك على مقربة من النافورة، حيث يترشش ذلك الماء، يقف ذاك الذي أحبه وينتظر، ذاك الذي يسيطر عليّ، ليس عليه

---

١ – اسكت! (بالفرنسية في الأصل).

٢ – شكراً! (بالفرنسية في الأصل).

ثوب فاخر ولا حجر كريم، وهو مجهول، ولكنه ينتظرني، وهو على يقين من أنني سأجيء، ولسوف أجيء، فما من قوة تحبسني عنه حينما أريد أن أذهب إليه، وألبث لديه، ونضيع معاً في ظلمة الحديقة، بين حفيف الشجر وخرير النافورة...

سكتت زينايدا.

فسلها ماليفسكي في خبث:

- هل هذا من نسج الخيال؟

ولكن زينايدا لم تتنازل حتى إلى النظر نحوه. وقال لوشن فجأة:

- وماذا سنفعل نحن أيها السادة، إذا كنا بين الضيوف وعلمنا بأمر ذلك المحظوظ صاحب النافورة؟

فقاطعته زينايدا بقولها:

- طوّلوا بالكم، لا تستعجلوا، فأنا بالذات أقول ما سيفعله كلّ منكم. فأنت يا بيلوفزوروف تدعوه إلى المبارزة، وأنت يا مايدانوف تهجوه بمقطوعة... ولكن لا، فإنك قصير باع في كتابة المقطوعات، ستهجوه بمعلقة على طريقة باربيه[1] وتنشر خريدتك في مجلة «التلغراف»[2]. وأنت يا نيرماتسكي تقترض منه... كلا، بل تقرضه النقود بفائدة مئوية. أما أنت يا دكتور...- وأمسكت لحظة ثم قالت: هل رأيت، إني لا أدري ما كنت ستفعله أنت؟.

فأجاب لوشن:

- بصفتي طبيب البلاط، كنت أنصح الملكة أن لا تحيي حفلات راقصة حينما تكون في مزاج ينفر منها عن الضيوف.

- لعلك أن تكون على صواب. وأنت يا غراف...

١- أوغيوست باربيه (١٨٠٣ - ١٨٨٢) شاعر ثوري فرنسي، ومؤلف المجموعة الشعرية الشهيرة «يامبي» (المعلقات) التي صدرت في باريس عام ١٨٣٢، وقد منعته الرقابة في روسيا، على الفور.

٢- «موسكوفسكي تيلغراف» مجلة أدبية نقدية تقدمية (١٨٢٥ - ١٨٣٤).

– أنا؟ – عاد ماليفسكي يسألها وعلى وجهه ابتسامة خبيثة.

– أما أنت فكنت تقدم إليه السم في قطعة حلوى.

فارتعش وجه ماليفسكي، واكتسى خلال لمحة بتعبير لئيم ولكنه ما لبث أن قهقه ضاحكاً.

وتابعت زينايدا متوجهة إليّ:

– وماذا بخصوصك يا فولديمار... ولكن بس ففي هذا القدر كفاية، وهيّا نلعب لعبة أخرى.

فقال ماليفسكي في لذع:

– إن المسيو فولديمار وصيف الملكة، وبهذا الحق سيحمل أذيال ثوبها تهرع إلى الحديقة.

فاختنق وجهي بالاحمرار، ولكن زينايدا وضعت يدها على كتفي ونهضت، وقالت بصوت فيه رجفة خفيفة:

– إني لم أسمح لسيادتك قط بأن تكون بذيئاً، ولهذا أرجوك أن تغادر هذا المنزل.– وأشارت له نحو الباب.

فتمتم ماليفسكي وقد شحب لونه:

– ما هذا الكلام يا أميرة؟

فصاح بيلوفزوروف وهو ينهض أيضاً:

– إن الأميرة على حق.

فقال ماليفسكي:

– أقسم بالله أني ما كنت أتوقع، ما كنت أظن أن في كلامي شيئاً مما... لم يخطر ببالي شيء يسيء إليك... سامحيني أرجوك.

فرمته بنظرة باردة، وضحكت في برودة، وقالت وهي تطوح يدها في استخفاف:

– لك أن تبقى إذا شئت، فقد غضبنا أنا والمسيو فولديمار من دون مبرر. أنت تمزح لتجرح... تفضل صحتين.

فعاد ماليفسكي يقول:

- سامحيني أرجوك.

وتذكرت حركة زينابيدا فقلت في نفسي، ما كان لملكة حقيقية أن تومئ لمطرود نحو الباب بجلال أعظم من تلك الإيماءة.

لم تستمر لعبة الجزاءات إلا قليلاً بعد هذا الحادث العابر؛ فقد سرى التحرج بين الحاضرين جميعاً لا بسبب الحادث نفسه، بل من جراء شعور ثقيل لم يتحدث عنه أحد، وإنما استشعره كلّ في نفسه وأدركه في جاره. وأنشدنا مايدانوف قصيدته، فاندفع ماليفسكي يثني عليها بكثير من الحماسة، فهمس لوشن في أذني: «ما أشد رغبته في أن يبدو كريم النفس الآن». وما لبثنا أن تفرقنا، فإن زينابيدا قد استغرقت في التفكير، والأميرة العجوز أرسلت من يقول إنها تتألم من رأسها، وأخذ نيرماتسكي يتشكى من روماتيزمه...

وتعصى عليّ النوم وقتاً طويلاً فقد بهرتني قصة زينابيدا.

وسألت نفسي: «هل قصدت أن تلمح بها إلى أمر، فما هو المقصود، ومن هو المقصود؟ وإذا كان ما لمحت إليه واقعاً بحذافيره فكيف أقدمت؟... لا، لا، فإن هذا مستحيل»،- همست وأنا أتقلب من خد متوقد إلى آخر... ثم تذكرت ما ارتسم في وجه زينابيدا من تعبير وهي تروي قصتها... وصيحة لوشن التي أطلقها عفو لحظته في حديقة نيسكوتشني، وما طرأ فجأة من انقلاب على مسلكها تجاهي - وأرهقتني الظنون «في من يكون؟». كانت هاتان الكلمتان بالذات نصب عيني منقوشتين في الظلام، وشعرت كأن سحابة منخفضة مملوءة بالشر تخيم فوق رأسي، شعرت بضغطها وانتظرت أن تنفجر في أية لحظة. لقد تعودت كثيراً من الأشياء في الآن الأخير، ورأيت كثيراً من الأشياء عند آل زاسيكين، حيث: الفوضى، وأعقاب الشموع الذائبة، والسكاكين المثلمة، والشوكات المهتّمة، وسحنة فونيفاتي العابسة، ورثاثة الخدم، وبدوات الأميرة العجوز. كل هذه الحياة الغريبة أصبحت لا تذهلني... ولكني لم ستطع أن أتعود ما كان يبدو مستغلقاً في زينابيدا «المغامرة»- هذا ما قالته أمي عنها ذات مرة، أن هذه «المغامرة» معبودتي، إلهتي! لقد ألهبتني هذه التسمية فالتمست الفرار منها بإغراق وجهي في

الوسادة. كنت مغيظاً... ولكني مهيأ في الوقت نفسه لكل تضحية وبذل أبهظ ثمن تلقاء أن أكون أنا ذلك المحظوظ صاحب النافورة!...

كان دمي يغلي ويفور، وفكرت: «الحديقة... النافورة... عليّ أن أخرج إلى الحديقة». وفي ومضة كنت أرتدي ثيابي وأنسل من المنزل. كان الليل مظلماً، والأشجار تتهامس في خفوت، وبرودة هادئة تسقط من السماء، ورائحة الشمّار تنبعث من المبقلة. ذهبت ارتاد دروب الحديقة، ووقع خطواتي يثير فيّ الرهبة والانتعاش في آن. كنت أتوقف وأنتظر وأصغي إلى نبض قلبي وهو يخفق قوياً سريعاً، وأخيراً بلغت السور، فأستندت إلى إحدى دعائمه الدقيقة. وفجأة شعرت - أو لعل هذا ما توهمته - أن جسماً أنثوياً على مبعدة بضع خطوات من موقفي، قد انخطف مسرعاً... فحدقت في أعماق الظلام وأنا أحبس أنفاسي... فما هذا؟ كان وقع خطواتي، أم نبض قلبي؟ وعدت همس: «من هناك؟» ولكن ما هذا أيضاً؟ أهو ضحك مكتوم؟... أم حفيف أغصان... أم أنفاس تتردد في أذني؟ لقد ملأ الرعب قلبي فهمست بطرف شفتي: «من هناك؟»».

تراوحت نسمة في خلال لحظة، وبرق بارق في السماء، وسقطت نجمة، فهمت بأن اسأل: «هل أنت زينايدا؟»»، ولكن الصوت اختنق في حلقي، وجثم فجأة سكون عميق كهذا السكون الذي يلمّ كثيراً في دلج الليل... وصمت كل شيء حتى أزيز الجنادب في دغل الشجيرات، ثم سمعت صرير نافذة، و لم ابرح مكاني بل مكثت قليلاً وعدت بعدئذ إلى غرفتي وإلى فراشي البارد. كنت اضطرم بانفعال غريب: فكأنني ذهبت إلى موعد لقاء، بقيت فيه وحيداً، ومررت عابراً بسعادة امرئ غريب.

- ١٧ -

لم أستطع أن أرى زينايدا في اليوم التالي أكثر من لمحة مختطفة وهي تمرّ في عربة مع أمها، ورأيت لوشين ولكنه اختصر التحية و لم يتلبث ثم رأيت ماليفسكي، فلبث الغراف الشاب يتبسم ويتحدث إليّ في ودّ، كان الوحيد بين زبن الجناح الذي استطاع أن يندس علينا في المنزل وأن يكون مقرباً من أمي. كان أبي يستثقل ظله ويسرف في التأدب معه إلى درجة الإهانة. وبدأ ماليفسكي قائلاً:

- Ah، monsieur le page،[1] إني لسعيد بلقائك. ترى ماذا تفعل ملكتك الرائعة؟

وبدا وجهه النضير الجميل مقرفاً في تلك اللحظة، ونظرته ماجنة مستهترة بحيث أمسكت دونه عن كل جواب.

ومضى يقول:

- ألا تزال غاضباً، دع هذا العبث، فما أنا من لقبك بالوصيف، فإن اصطناع الوصفاء من حق الملكات، ولكن اسمح لي أن ألفت انتباهك إلى أنك تهمل واجباتك.

- كيف ذلك؟

- من واجبات الوصيف ألاّ يفترق أبداً عن سيدته، وعلى الوصفاء أن يحيطوا علماً بكل أمر، وألاّ يجهلوا ما يجري في السرّ.- وأضاف بصوت خافت:- وعليهم أيضاً أن يراقبوهن في النهار والليل.

- ماذا تريد أن تقول؟

- ماذا أريد أن أقول؟ ما بعد هذا الإفصاح زيادة في الإيضاح. ليل نهار، في النهار بين بين لأنه مبصر بنوره وبالناس، وانتظر المفاجآت في الليل، وأنصح لك بأن تسهر الليالي، وأن تراقب بعين مفتوحة. راقب بكل ما تملك من القوة، وتذكر: الحديقة والليل والنافورة، فهناك ينبغي لك أن تترصد، ولسوف تشكرني.

ضحك ماليفسكي وهو يدير لي ظهره. ولعل لأرجح أنه لم يكن يحفل كثيراً بما قال؛ فالمعروف عنه أنه مهذار لا يشق له غبار، كان مشهوراً بخداعه الناس في الحفلات المقنعة يساعده ما هو عليه من زيف يتغلغل في كل طبيعته... أراد أن يعبث بي فقط، ولكن كلماته سرت في عروقي كأنها السمّ، وصعد الدم في رأسي... وقلت لنفسي: «آه، وإذن هكذا! طيبّ الأمر إذن إن هواجسي أمس كانت في محلها، وإن انجذابي إلى الحديقة لم يكن من دون سبب!» فصحت وأنا أقرع صدري بقبضة يدي: «هذا لن يكون!»

١- آه، يا سيدي الوصيف. (بالفرنسية في الأصل).

ولم يكن في مقدرتي أن أعرف ما هذا الذي لن يكون. وفكرت: «لئن جاء ماليفسكي نفسه إلى الحديقة (ولعله كان ينطق بالحقيقة ففي صفاقته ما يكفي لهذا) أو كان القادم شخصاً آخر (كان سياج حديقتنا منخفضاً فلا يصعب على أحد أن يتخطاه) فإن من سيقع في يدي لن يلقى ما يشرح الصدر، ولا أنصح لأحد أن يتصدى لمواجهتي، سأثبت للعالم كله، ولتلك الخائنة (أجل سميتها، الخائنة) أنني قادر على الانتقام!».

عدت إلى غرفتي وسحبت من درج مكتبتي سكيناً إنجليزية كنت اشتريتها منذ وقت غير بعيد، وتحسست شفرتها القاطعة، ثم وضعتها في جيبي بحركة باردة حازمة وأنا مقطب الجبين كأنني صاحب سوابق عريق في هذا التدبير، وقد توقد قلبي بالشرّ وأصبح كالحجر، وبقيت مقطب الجبين مكتزّ الشفتين حتى أقبل الليل، أروح وأجيء، ويدي في جيبي تقبض على السكين الدافئة، وقد أعددت نفسي لأمر رهيب. شغلتني هذه الأحاسيس الجديدة حتى إنها أشعرتني بالمرح أيضاً، وريتني لا أفكر في زينايدا إلا قليلاً، وأطاف بي طيف الفتى النوري «أليكو»: «إلى أين أيها الفتى الجميل؟- هيا توسد الأرض...»[1] ثم: «إنك خضبت بالدماء!.. أوه ماذا فعلت؟..» - «لا شيء!»، وبأي ابتسامة قاسية رددت هذه الكلمة: «لا شيء». لم يكن أبي في البيت، ولكن أمي، وكانت منذ أيام تقيم على حال دائمة من الانفعال المكبوت، تنبهت لما يظهر في سحنتي من علائم الشؤم، فسألتني وقت العشاء: «فيم أنت عابس الوجه مثل الفأر في الطحين؟» فتلطفت عليها بابتسامة كانت فصل الجواب، وأنا أقول في نفسي: «آه لو أنهم عرفوا!» دقت الساعة الحادية عشرة، فذهبت إلى غرفتي، ولكني لم أخلع ثيابي، بل انتظرت أن ينتصف الليل، وما لبثت الساعة أن دقت، فهمست لنفسي من خلال أسناني المطبقة: «حان الوقت!»، وزررت سترتي حتى العنق، وشمرت عن ساعدي، وانطلقت نحو الحديقة.

كنت قد انتقيت المكان الملائم للترصد: ففي آخر الحديقة حيث يتصل السياج الذي يفصل بين عقارنا وعقار آل زاسيكين، كانت تقوم شجرة

١- كلمات أليكو، بطل القصيدة الرومانسية «النورَ» للشاعر ألكسندر بوشكين (١٨٢٤). وبطل القصيدة يقتل من الغيرة زوجته زمفيرا ومحبوبها، النوري الشاب.

شوح متوحدة، فلو أنني وقفت تحت أغصانها الكثيفة المنخفضة، لتمكنت أن أرى ما يجري حولي بالمقدار الذي تسمح به ظلمة الليل؛ فهنا يتلوى الطريق الذي كان يبدو لي محاطاً بالغموض، ويتأفعى ذاهباً تحت السياج، وعليه في هذا الموضع آثار القافزين، ثم يفضي إلى عريش مستدير تناهت إليه فروع من أشجار الأكاسية. عندئذ مضيت إلى شجرة الشوح واستندت إلى جذعها وأخذت أرقب.

خيّم على الليل سكون عميق يشبه ما خيّم على الليلة الفائتة؛ ولكن السماء بدت أقل ظلمة مما كانت أمس، فظهرت أطياف الشجيرات وحتى الأطراف العالية من الأزهار على نحو أوضح. مرت الدقائق الأولى من الانتظار مملولة بل مخوفة أيضاً، كنت مستعداً لكل أمر، لا يشغلني إلاّ كيف بدأ الهجوم: أأرعد صائحاً: «إلى أين تذهب؟ قف! اعترف أو تموت!» أم أطعن فقط... كان كل صوت، وكل نأمة من حفيف أو هفيف يبدو لي مثيراً عجيباً خارقاً... فأتحفّز وأنحني إلى أمام... ولكن مضى نصف ساعة، ثم ساعة، فهدأت فورة دمي وبردت؛ وبدأت أدرك أن عملي هذا عبث لا جدوى منه، وأنني سلكت على نحو يدعو إلى الضحك، وأن ماليفسكي قصد إلى الهزء بي، وقد سرى ذلك كله في نفسي، فغادرت مكمني، وذهبت أجوس خلال الحديقة. وبدا كأن في الأمر قصداً لا صدفة، فقد اشتمل السكون كل شيء، فما يلتقط السمع نبرة ولا نامة، بل حتى طلبنا تكوّر منطوياً على نفسه عند باب الحديقة وغط في النوم. ثم تسلقت الدفيئة المتهدمة وأرسلت بصري من عليائها إلى الحقول البعيدة، وخطر ببالي التقائي بزينايدا فسرح ذهني...

ونقزت فجأة... فقد شبّه عليّ أنني سمعت صرير باب يفتح ويتبعه على الأثر صوت غصن يتقصف في خفوت؛ فرأيتني أبلغ الأرض بوثبتين وأجمد في مكاني. فهناك خطوات سريعة خفيفة ولكنها محاذرة كانت تخفق واضحة وتدب في الحديقة... أخذت تقترب مني، فومض في قلبي: «إنه هو، ها هو ذا أخيراً» وسحبت السكين من جيبي بيد يرعشها الانفعال، وفتحتها مهتزاً والشرر الأحمر يتطاير من عيني، وقد قفّ شعر رأسي من الخوف والغضب... وزادت الخطوات اقتراباً مني، فتربصت، وهممت بها... فتراءى لي شخص... ولكن يا إلهي! كان الرجل أبي!

عرفته في الحال على الرغم من معطفه الأسود الذي أسبغه على جسمه، ومن قبعته التي شدها على وجهه، واجتاز بي على أصابع قدميه. لم يكن هناك ما يحجبني، ولكنه لم يلحظني. ذلك لأنني انكمشت وتضاءلت حتى لكأنني وطأت من الأرض. وتحول عطيل الغيران الظمآن إلى الدم، دفعة واحدة، إلى مجرد تلميذ... لقد أفزعني ظهور أبي المفاجئ، حتى إنني ذهلت للوهلة الأولى فلم الحظ من أين جاء وأين اختفى؟، ولما عاد السكون يمد رواقه حولي، شددت قامتي وتساءلت: «فيم جاء الأب يسير ليلاً في الحديقة؟». كانت السكين قد سقطت مني في العشب أثناء الوهل، ولكني لم أذهب في البحث عنها جرّاء ما اعتراني من شعور طاغ بالخجل. لقد أفقت لنفسي دفعة واحدة، ولكني عجت في طريق العودة إلى البيت على دكتي تحت شجيرة الطلح، وأرسلت بصري إلى نافذة الغرفة التي تنام فيها زينابيدا!؛ لم تكن النافذة كبيرة، كان زجاجها المستدير قليلاً يبدو أزرق أغبش تحت النور الضعيف الذي يسقط من غسق السماء. وفجأة أخذ لونه يتغير... ووراءه كان ستار أبيض ينزل - لقد رأيت هذا، رأيته واضحاً بأم عيني - واستمر ينزل في بطء وهدوء حتى بلغ حافة النافذة، ثم سكن عن الحركة.

حينما صرت إلى غرفتي رأيتني أقول بصوت مرفوع:- ما هذا؟ أكان ما كان حلماً أم مصادفة أم...- لقد ازدحمت الظنون بغتة في رأسي، وكانت جديدة غريبة بحيث تعصّى عليّ أن أركن إليها.

- ١٨ -

استيقظت في الصباح برأس موجوع، وقد زال ما اعتراني في الليل من الانفعال، وتبدل بشعور من دهشة ثقيلة ومن كآبة لم أعرف مثلها من قبل، فكأن شيئاً يموت في نفسي.

وقال لوشن حينما التقينا:

- لماذا تنظر كالأرنب الذي نزع عنه نصف مخه؟

جعلت أسترق النظر في أثناء الفطور تارة إلى أمي وتارة إلى أبي، فكان هو في مألوف عادته من الهدوء، وهي في مألوف عادتها من الغيظ المكتوم. وانتظرت أن يأخذ أبي معي في حديث ودود مما يجري مثله بيننا في بعض

الأحيان... ولكنه لم يتكرم عليّ بملاطفته اليومية الباردة. وقلت في نفسي: «هل أحدث زينايدا بكل شيء، فالأمر سواء ما دام كل شيء قد انتهى بيننا». وذهبت إليها، ولكن لم يتفق لي أن أتكلم معها على أمر، بل ما تاح لي أن أتحدث معها على حدة كما رغبت. فقد كان ابن الأميرة الحميم قد وصل قادماً من بطرسبورغ لتمضية العطلة، وهو تلميذ في المدرسة العسكرية في الثانية عشرة من عمره، فعهدت إليّ زينايدا بأمر أخيها قائلة:

– إليك بهذا الرفيق يا حبيبي فولوديا (هذه أول مرة تناديني على هذا النحو)، اسمه فولوديا أيضاً، أرجو أن تحبه، إنه لا يزال وحيشاً[1] ولكن قلبه طيب. أخرج للتجول معه في حديقة نيسكوتشني، أو للنزهات، فإني أعهد به إلى رعايتك، فهل تفعل؟ إنك لطيب على ما أعرف.

ووضعت يديها على كتفي بلطف فتضعضعت وضعت. لقد أعادني قدوم هذا الصبي إلى عهد الصبا؛ ونظرت صامتاً إليه، وكان يحدق فيّ صامتاً، فقهقهت زينايدا ودفعت بنا أحدنا نحو الآخر، وقالت:

– هيا تعانقا أيها الطفلان!

فتعانقنا.

وسألت الصبي:

– أتريد أن أقودك إلى الحديقة؟

فأجابني بنبرة جشَاء ولهجة تلميذ نظامي:

– تفضلوا إذا سمحتموا.

فعادت زينايدا تضحك... فلاحظت أن وجهها لم يكن أبداً على ما كان عليه من الإشراقات البديعة. وانطلقت ذاهباً مع الصبي. كان في حديقتنا أرجوحة قديمة، فأصعدته على مقعدها الخشبي الضيق، وجعلت أؤرجحه وهو جالس من دون حركة ببدلته النظامية الجديدة المفصّلة من قماش سميك والمزينة بشرائط ذهبية عريضة، وقد تشبث بالحبال في قوة.

قلت له:

---

١ – المقصود أنه لم يألف المجتمعات من الناس. (المعرب).

– لماذا لا تحلّ ياقتك؟

فقال وهو يجلو حلقه:

– لا بأس، فنحن تعودنا.

كان يشبه أخته، وقد ذكرتني عيناه خاصة بعينيها، فأبهجني أن أعني بشؤونه، كنت موءوداً في الوقت نفسه بحزن دفين يمضّ في قلبي، وفكرت: «إني الآن لا أزيد عن طفل، وأما أمس...» وتذكرت أين سقطت مني السكين فوجدتها، وطلب الصبي أن أعيره إياها، ثم إنه قطع ساقاً غليظة من القصب فصنع مزماراً وجعل ينفخ فيه... وكذلك فعل عطيل فكان له دوره في الزمير أيضاً.

ولكن هذا العطيل بكى في ذلك المساء بكاء شديداً على ذراعي زيناييدا حينما عثرت عليه في ركن الحديقة وسألته عما يحزنه، لقد انهمرت دموعي بغزارة أفزعتها فسألتني:

– ماذا بك، ماذا بك يا فولوديا؟– أعادت سؤالها بقوة فلما رأتني لا أجيب ولا أنقطع عن البكاء، أرادت أن تقبل خدي النديّ، ولكني استدرت عنها بوجهي وأنا أتمتم من خلال الزفرات:

– إني أعرف كل شيء، فلماذا عبثت بي، وما الذي أحوجك إلى بعث هذا الحب في قلبي؟

فقالت زيناييدا:

– إني مذنبة تجاهك يا فولوديا... آه، إن ذنبي لعظيم...– أعادت قولها وهي تضم يديها – ما أكثر ما أنطوي عليه من الشرّ والظلمة والإثـم... ولكني الآن لا أعبث بك، فإنني أحبك وأنت لا تتصور لماذا، وكيف... ولكن... ما هذا الشيء الذي تعرفه؟

ماذا بمقدرتي أن أقول لها؟ كانت واقفة أمامي لا ترفع بصرها عني، كنت مملوكها من رأسي إلى قدمي تلقاء هذه النظرات إلي... وبعد انقضاء ربع ساعة كنت أجري مع الصبي وزيناييدا في سباق؛ لم أكن أبكي، بل كنت أضحك، وكان الضحك يستنفر دموعي فتطفر من أجفاني المتورمة، وقد استبدلت من

ربطة عنقي شريط زينايدا، كنت أصرخ من السعادة كلما تمكنت من اللحاق بها وتطويق خصرها؛ لقد كانت قادرة على أن تفعل بي ما شاءت.

- ١٩ -

أصعب ما يصعب عليّ أن أروي بالتفصيل، لو طلب أحد ذلك، كل ما عانيته طوال الأسبوع الذي تلا تلك الرحلة الاستطلاعية الليلية الخائبة، فقد كانت أياماً غريبة محمومة، اختلطت فيها النقائض من المشاعر والأفكار والظنون والآمال والأحزان وأخذت تدور في دوامة. لكان يفزعني أن أنظر في ذات نفسي لو أن بمقدرة صبي في السادسة عشرة من عمره أن ينظر في ذات نفسه. كنت أخاف أن أناقش نفسي الحساب عما كان، ولا أفعل إلا أن أستدفع النهار وأستعجل المساء. أما في الليل فكنت أنام، وقد ساعدتني غرارة سني، كنت لا أريد أن أعرف هل كانت تحبني، ولا أريد أن أعترف لنفسي بأنها لا تحبني؛ وقد التمست كل مهرب من أبي، أما التهرب من زينايدا فكان فوق طاقتي... كنت أضطرم كالنار وهي مني على قرب... ولم يهمني أن أعرف ما هذه النار التي احترق فيها وأذوب ما دمت ألتذّ ما أشعر به من احتراق وذوبان. كنت مستسلماً لكل انفعال مما يلمّ بي، أخدع نفسي، وأعرض عن الذكريات، وأغمض عيني عن هموم الغد... ولكن ما كان لهذا الشقاء أن يستمر وقتاً طويلاً... فقد قصفته ضربة قاصمة قضت عليه جميعاً ودفعت حياتي في مجرى جديد.

عدت ذات يوم وقت الغداء بعد نزهة طويلة، ففوجئت بمن أخبرني بأنني سأطعم وحيداً، فقد سافر أبي، واعتزلت أمي في غرفة نومها وهو موعوكة لا تشتهي أن تأكل. ولكن أدركت من وجوه الخدم إن واقعة غير عادية قد وقعت... لم أجرؤ على استجوابهم بالأسئلة، ولكن كان لي فيهم صديق وهو الساقي الشاب فيليب، وكان مولعاً بالشعر وبالعزف بالقيثارة، فلمت منه حين استجوبته أن مشاجرة مروعة شجرت بينهما (أمكن الاستماع لكل كلمة في غرفة الوصيفات وكان الحديث أكثره بالفرنسية، ولكن القهرمانة ماشا قضت خمس سنين من حياتها لدى خياطة من باريس فكانت تفهم ما يدور منه)، وأن أمي قد اتهمت أبي في أمانته الزوجية، وبأنه على صلة

موصولة بالجارة الصبية، وكان أبي يتبرأ من التهمة في أول الأمر، ولكنه غضب أيضاً بدوره، ورماها بكلمة وجيعة، «لعلها عن عمرها»، فبكت أمي، وذكرته بأمر كمبيالة أعطيتها الأميرة العجوز، وتحدثت عنها وعن الآنسة أيضاً بأشد السوء، وعندئذ استشاط ابي غضباً عليها. ثم أضاف فيليب قائلاً:

– ولكن هذا البلاء كله إنما وقع بعد رسالة خالية من التوقيع، كتبها مجهول، فانكشف بها الغطاء، ولولاها لما كان هناك دليل.

فقلت بصوت متعب، وقد شاعت برودة في أطرافي وسرت رعدة في أعماق صدري:

– هل أردت أن تقول أن أمراً قد حدث؟

فغمز فيليب غمزة ذات معنى وقال:

– لقد حدث، فهذه أمور لا تخفى، وقد كان أبوك في هذه المرة شديد الحذر، ولكن لا يخلو الأمر، مثلاً: تدبير عربة أو شيء من هذا القبيل... ولا يمكن الاستغناء عن الناس في هذه الحالة.

صرفت فيليب، وارتميت على الفراش. لم أشهق بالبكاء، ولا استغرقت في القنوط، ولا تساءلت متى حدث ذلك وكيف، ودهشت من أني لم أفطن إلى الأمر منذ وقت بعيد، بل إني لم أعذل أبي بلومة... كل ما أعلمته كان فوق ما أطيق: لقد سحقتني هذه المكاشفة... فانتهى كل شيء. وها هي أزهاري مقتلعة من الجذور، مبعثرة فيما حولي تحت مواطئ الأقدام.

– ٢٠ –

أعلنت أمي في اليوم التالي أنها راحلة إلى المدينة. فدخل أبي عليها في الصباح غرفة نومها، وجلس إليها وقتاً طويلاً. لم يسمع أحد ما قال لها، ولكن أمي انقطعت عن البكاء، واشتملتها السكينة، وأمرت بأن يأتيها الطعام من دون أن تظهر في غرفة الطعام أو تلغي قرارها. وأذكر إنني قضيت النهار في التجول، ولكني لم أطرق الحديقة، ولا ألقيت نظرة على الجناح. وفي المساء رأيت مشهداً أدهشني: كان أبي يأخذ الغراف ماليفسكي من ذراعه ويعبر به الصالة إلى المخرج ويخاطبه في برودة على مرأى من الوصيف

قائلاً: «منذ بضعة أيام مضت، حدث في أحد البيوت أن دلوا سيادتكم على الباب، والآن لا أريد أن أخوض معكم في الإيضاحات، ولكني أتشرف بإبلاغكم بأنه إذا خطر لكم أن تتفضلوا بزيارتي مرة أخرى، فسأرميكم من النافذة، إن خطكم لا يعجبني». فانحنى الغراف، وكزّ بأسنانه، واصطنع المسكنة، واختفى.

بدأت الاستعدادات للانتقال إلى المدينة حيث كان لنا منزل في شارع آربات؛ وأغلب الظن أن أبي نفسه صبح راغباً عن المكثان في الدارة، ولكن كان من الواضح أنه أفلح في إقناع أمي بأن تحسم الحكاية. وجرى كل شيء في هدوء من دون استعجال، بل أن أمي أمرت بمن يبلغ الأميرة العجوز تحيتها والاعتذار عنها بأن صحتها الموعوكة لا تساعدها في أن تمرّ بها مودعة قبل الرحيل. أما أنا فقد كنت أتجول كالمأخوذ، لا أتمنى إلا أمراً ليس غير، وهو أن ينتهي هذا كله بسرعة. فكرة واحدة لم يتهضمها عقلي، وهي: كيف أمكنها، وهي الفتاة الشابة – والأميرة على كل حال – أن يخطر لها هذا المسلك، على الرغم من علمها أن أبي امرؤ غير طليق، وفي قدرتها أن تتزوج لو أرادت، فها هو ذا بيلوفزوروف على سبيل المثال؟ فعلى أي أساس أقامت أملها؟ أفلم تخش أن تهدم مستقبلها جملة؟ وقلت في نفسي: أجل، هذا هو الحب، هذل هو إلهيام، هذا هو الوفاء... وخطرت ببالي كلمات لوشن: إن التضحية بالنفس مستعذبة عند البعض. ولمحت عيني في تلك الأثناء بقعة بيضاء تراءت في إحدى نوافذ الجناح... ففكرت: «أليس هذا وجه زينابيدا؟»... كان ذلك وجهها من دون ريب، فانتفى عني الصبر، و لم أحتمل رحيلاً عنها من غير كلمة وداع، فانتهزت فرصة سانحة وذهبت أسعى إلى الجناح.

في غرفة الاستقبال طالعتني الأميرة العجوز على عادتها من ثقل الدم والاستهتار، وسألتني وهي تدس السعوط في فتحتي أنفها:

– ما هذا يا شيخي، إن جماعتك قد أبكروا في اهتمامات الرحيل؟

نظرت إليها فانزاح عبء عن قلبي، فإن كلمة كمبيالة التي قالها فيليب كانت تثقلني، ولكن الأميرة العجوز كانت خالية البال مما حدث، أو لعل هذا ما تراءى لي آنذاك. وأقبلت زينابيدا من الغرفة المجاورة في ثوب أسود،

ووجه شاحب، وشعر محلول. من غير كلام، أمسكت بيدي، وقادتني إلى غرفتها، وابتدأتني قائلة:

- سمعت صوتك فأتيت من فوري، فهل من اليسير عليك أن تهجرنا يها الولد الشرير؟

فأجبت:

- جئت أودعك يا أميرة، وأغلب الظن إنه وداع إلى الأبد، ولعلك سمعت أننا عائدون.

فأخذت زينابيدا تمعن النظر في وجهي:

- نعم، سمعت، وأشكر لك هذه الزيارة، كنت أظن أنني لن أراك، أذكرني بالمعروف، ولئن أسأت إليك في بعض الأحيان، على كل حال لست تلك التي تداخلك فيها الظن.

استدارت واستندت إلى حافة النافذة.

- الحقيقة إني لست كذلك. ولا أجهل أنك تسيء بي الظن.

- أنا؟

- أجل، أنت... أنت.

- أنا؟- كررت القول في شجى، وقد ارتعش قلبي كما في الماضي تحت تأثير سحرها الغلاب الذي يتعصّى على الوصف.- أنا؟ صدقيني، يا زينابيدا ألكسندروفنا، ومهما يكن مما فعلت وعذّبت، فإني سأحبك وأعبدك حتى آخر يوم من حياتي.

فاستدارت بسرعة، وأقبلت بذراعين مفتوحين على رحبهما، فحاطت بهما رأسي، وقبلتني بقوة وحرارة، ولا يعلم إلا الله من كان المقصود بهذه القبلة الوداعية الطويلة، ولكني انتهلت من عذوبتها في نهم، وأنا أعرف أنها لن تتكرر على الإطلاق.

وأعدت بقوة:

- وداعاً، وداعاً...

فانتزعت نفسها وذهبت، فخرجت في اثرها. ليس في طوقي أن أصف

ذلك الشعور الذي ملأ نفسي لحظة انصرافي، ولا أتمنى أن يتكرر في يوم من الأيام، ومع هذا ما كنت أحسب نفسي في السعداء لو أنني لم أمتحن بهذه التجربة.

عدنا إلى المدينة؛ ولكن البرء من الماضي لم يكن سريعاً ولا كان إقبالي على العمل سريعاً، فقد كانت جراحي تندمل في بطء، ولكن نفسي لم تضمر ولو مثقال ذرة من الضغن على أبي، بل على العكس: لقد كبر في عيني... وليعلل علماء النفس هذا التناقض كما يشاؤون. في ذات مرة كنت أتجول في البولفار، فكانت سعادتي تفوق الوصف حينما صادفت لوشن، فقد كنت أحبه إعجاباً باستقامته وصراحته، وكان عزيزاً بما يوقظه في نفسي من الذكريات، فاندفعت إليه حينما رأيته فقال وهو ينظر إليّ بحاجبين مقرونين:

- آها، أهذا أنت يا فتى؟ دعني أتبين أحوالك. إنك بعامة لا تزال أزغب الوجه، ولكن تلك الكآبة القديمة زالت من عينيك، وأنت الآن إنسان ولست كلب غرفة، هذا حسن، والآن قل لي، هل أخذت في العمل والجد؟

فتنهدت، لأني تأبيت عن الكذب، واستحييت من قول الحقيقة. فقال لوشن:

- لا بأس عليك تشجع، فإن الأساس أن تكون حياتك طبيعية، وإلاّ تتجاذبك الأهواء. فإن هذا لا طائل فيه، والسوء كل السوء أن ينجرف المرء حيث تجرفه الموجة، على المرء أن يقف على قدميه ما دام له ولو حجر يعتمد عليه. انظر ما أنا فيه، إني أسعل... عن بيلوفزوروف - هل سمعت شيئاً؟

- لا، فماذا حدث له؟

- اختفى فلا أثر ولا خبر، ويقال إنه رحل إلى القوقاز[1]. هذا درس لك أيها الشاب. وكل ذلك يتأتى لمن لا يستطيع حين يأزف وقت الرحيل أن يتخلص من الشبكة. ويخيل إليّ على ما ظن إنك تخلصت. احذر أن تقع وقعة أخرى. وداعاً.

١- في أعوام (١٨١٧ - ١٨٦٤) قام الجيش الروسي في القوقاز بعمليات عسكرية تستهدف الاستيلاء على بعض مناطقه. وقد أبدى سكان القوقاز مقاومة صلبة ضد القوات الروسية.

فقلت في نفسي: «لن أقع، ولن أراها بعد اليوم».
ولكن قدر لي أن أرى زينابيدا مرة أخرى.

- ٢١ -

كان أبي يخرج كل يوم إلى الطراد، وكان عنده جواد إنجليزي أصيل ممتاز، طويل العنق، كميت، دقيق القوائم، قوي جموح يسميه «اليكتريك». وكان صعب المراس لا تلين صهوته لراكب غير ابي. دخل عليّ ذات يوم غرفتي وهو في مزاج رائق ما عهدته فيه منذ وقت بعيد. كان على أهبة الركوب وقد وضع في حذائه مهمازين، فالتمست منه أن يستصحبني، فأجابني قائلاً:

- الأفضل لك أن تلعب بالنطة، فإنك لا تستطيع أن تجري معي وتجاريني بقزمك.

- بلى أستطيع، وسأضع مهمازي.

- طيب تعال.

وخرجنا. كنت على جواد أشعث، أدهم، متين القوائم، خفيف الحركة؛ كان ينبغي له في الحقيقة أن ينطلق بأقصى ما تسعفه قوائمه ليجاري «اليكتريك» في سيره الخبب؛ ولكني لم أتخلف عن اللحاق في كل حال. وكان أبي فارساً لم تقع عيناي على نظيره، فهو يستوي على الصهوة في جمال ورشاقة، حتى ليبدو أن الجواد نفسه يشعر بهما ويرفع رأسه مزهواً بفارسه. وذهبنا نرود الشوارع المشجرة، ثم طفنا حول منطقة «ديفيتشيه بوله»[1]، وتواثبنا على بعض الحواجز (الحقيقة أنني فزعت من الوثوب أول الأمر، ولكني أقدمت عليه لأن أبي كان يزدري المفزّعين). وعبرنا نهر موسكو مرتين، فظننت أننا في طريقنا إلى البيت، ورجح هذا الظن حينما لاحظ أبي أن حصاني متعب، ولكنه مال بجواده فجأة نحو مخاضة كريمسكي[2] وانطلق على حفّ الشاطئ، فانطلقت وراءه حتى أدركته عند كومة من الكتل الخشبية القديمة،

١- كان ديفيتشيه بوله في الفترة التي يصفها تورغينيف حقلاً في الضاحية الجنوبية الغربية لموسكو، حيث كانت تجري التدريبات العسكرية والنزهات الشعبية.

٢- راجع تعليق رقم ٢٣.

وعندئذ وثب عن «اليكتريك» في خفة، وأمرني بأن أترجل في غثره، وألقى إليّ بعنان جواده، وقال بأن عليّ أن أنتظره هنا عند كومة الخشب، وأما هو فقد مال على طريق فرعي ضيق واختفى. فأخذت أذرع شاطئ النهر ذاهباً جائياً وأنا ممسك بأعنّة الجوادين، غير منقطع عن زجر «الكتريك» الذي لم تهدأ له حركة، فهو بين حران وجماح وتوثب واهتزاز ونخير وصهيل، فإذا وقفت به وقف يفحص الأرض بحافره، وجعل يصهل ويعض جوادي في رقبته؛ والخلاصة كان يحسب نفسه في المدللين ويأخذ بسلوك أصحاب pure sang [1] كل ذلك ولما يعد أبي. هبّت من النهر رطوبة مؤذية، وتساقط مطر خفيف فانداحت قطراته في بقع محبرة صغيرة على تلك الكتل الخشبية الرمادية البليدة التي كنت دور حولها متسكعاً حتى سئمتها. وهيمنت عليّ الكآبة، ولكن أبي لم يعد. كان هناك حارس من أبناء الشمال، كله رمادي أيضاً؛ فوق رأسه خوذة، وفي يده رمح (لم يكن في الخاطر أن يوضع حارس على شاطئ نهر موسكو!) وما لبث أن أقبل عليّ، وطالعني بوجهه العجوز وهو جلدة على عظم، وسألني:

– ماذا تفعل هنا ومعك الخيل يا سيدي الشاب؟ هات المقاود عنك.

لم أجبه، فطلب مني شيئاً من التبغ، وكنت أبتغي الخلاص منه (ثم إن صبري قد نفد)، فمشيت بضع خطوات في الاتجاه الذي ذهب فيه أبي، ومضيت في الشارع الفرعي حتى بلغت آخره، وانعطفت وراء زاويته ووقفت أنتظر. في الشارع على مبعدة أربعين خطوة مني، قرب نافذة مفتوحة من بيت خشبي صغير، كان أبي يقف، وظهره إلى ناحيتي، وقد اتكأ بصدره على حافة النافذة. في البيت جلست امرأة في ثوب غامق، يحتجب نصف جسمها وراء الستار، وأخذت في حديث مع أبي؛ وكانت هذه المرأة هي زينابيدا.

جمدت في مكاني. ولأعترف بأني لم أتوقع أن أرى ما رأيت في أي حال؛ واتجهت حركتي الأولى نحو التماس سبيل الفرار، وفكرت: «لو أن أبي التفت إلى الوراء لدهتني داهية...» ولكن شعوراً غريباً، كان أقوى من

١– الدم الأزرق والأصل الأصيل (بالفرنسية في الأصل).

الفضول وأعظم من الغيرة، وأشد من الخوف، أوقفني. فوقفت أرى وأسمع. كان يبدو أن أبي يطلب أمراً، وزينايدا ترفض هذا الأمر. وكأنني أرى وجهها الآن، كما رأيته وقتذاك، فهو محزون رصين جميل، فيه معنى يتعذر وصفه من الاستسلام والأسى والحب، ومن شيء آخر لعله القنوط - فما أستطيع أن أجد غير هذه الكلمة. كانت لا تنطق إلا بكلمات موجزة، ولا ترفع عينيها، ولكنها تبتسم في خضوع وعناد، كنت قادراً على أن أتبين زينايدا القديمة من هذه الابتسامة وحدها. ورأيت ابي يهزّ كتفيه ويعدل وضع قبعته، وهي عنده علامة تدل على فراغ الصبر... ثم سمعته يقول:

- Vous dives vous Sparer de cette ... -[1] فاعتدلت زينايدا ومدت ذراعها إلى أمام... وفجأة شهدت عيناي مشهداً يبعث على الذهول: فقد رفع أبي السوط الذي يستعمله في الركوب وكان ينفض به معطفه، وسمعت بغتة ضربة قاسية على ذلك الذراع العاري. فأمسكت نفسي عن الصراخ؛ ولكن زينايدا ارتعدت، ونظرت إلى أبي صامتة، ورفعت يدها ببطء إلى شفتيها وقبلت الأثر الدامي الذي تركه السوط. فرمى أبي السوط من يده، وانطلق يصعد في درجات المدخل، واقتحم البيت... فابتعدت زينايدا أيضاً عن النافذة، وأقبلت عليه مفتوحة الذراعين، ورأسها ملقى إلى الوراء.

ارتميت مرتداً على أعقابي في ذهول راعب هدّ عزيمتي وخلع قلبي، ثم انطلقت أعدو هارباً في الطريق يكاد يفلت من يدي مقود «اليكتريك»، ورجعت إلى شاطئ النهر، وأنا عاجز عن جمع شتيت نفسي. كنت أعرف أن أبي قد يخرج عما فيه من برودة ورصانة مسوقاً بنوبات مفاجئة من الغضب والهياج، ولكني عجزت عن أن أفهم هذا الذي رأيته... غير أني شعرت في الوقت نفسه بأنني مهما قدر لي أن أعيش، فلن أنسى من زينايدا تلك الحركة والنظرة والابتسامة، وأن صورتها التي برزت لي فجأة في هذا المظهر الجديد ستبقى في ذاكرتي إلى الأبد. كنت أنظر من دون تفكير في النهر، غير شاعر بأن الدموع تنحدر على خدي، وأنا أقول في نفسي: «إنه يضربها... يضربها... يضربها...».

١- عليك أن تنفصلي عن هذه (بالفرنسية في الأصل).

ثم سمعت صوت أبي من ورائي يقول:

– ماذا بك؟ هات ناولني الجواد.

فمددت إليه يدي بالعنان في حركة آلية، فوثب على صهوة «اليكتريك»... فشبّ الجواد المقرور وقفز إلى الأمام مقدار قامة ونصف القامة... ولكن أبي أسرع إلى كبحه، فهمزه في خاصرتيه، وضربه بقبضة يده في عنقه... وتمتم: «آه! لا سوط معي».

فتذكرت ما كان منذ قليل من فحيح هذا السوط نفسه ومن ضربته، فارتجفت، وسألت أبي بعد قليل:

– وماذا فعلت به؟

فلم يجبني أبي، بل اندفع إلى أمام، فلحقت به، فقد استبدت بي رغبة في النظر إلى وجهه؛ فقال من خلال أسنانه:

– هل سئمت الانتظار من دوني؟

– بعض الشيء.– وعدت أسأله:– أين سقط منك سوطك؟

فرمقني أبي بنظرة مختطفة وقال:

– لم يسقط مني بل رميته.

وأطرق مستغرقاً في التفكير... وعندئذ رأيت أول مرة بل آخر مرة على الأكثر أي مقدار من الرقة والحنان يمكن لقسمات وجهه الصارمة أن تعبر عنه وتفصح.

وعاد يركض جواده، ولكني لم أستطع أن ألحق به، فوصلت إلى البيت بعده بربع ساعة.

في تلك الليلة، رأيتني أقول لنفسي مرة أخرى، وأنا جالس إلى مكتبي الذي بدأت ترتكم عليه الدفاتر والكتب: «هذا هو الحب، هذا هو إلهيام! فما كان ليخطر على البال أن يقدر امروءً على الإذعان لضربة مهما كان مصدرها... ومهما كانت اليد التي ضربتها حبيبة! ولكن يبدو أن هذا ممكن، حينما تحب... أما أنا... فكنت أتصور...».

أنضجتني حوادث الشهر الأخير في السنّ – فبدا غرامي بكل ما فيه

من الانفعالات والأشجان شيئاً صغيراً طفلياً ضئيلاً تجاه ذلك الآخر، ذلك المجهول الذي استطعت أن أستشف أمره بالظنون فقط، والذي ملأني رعباً، فكأنه وجه غير معروف، جميل ولكنه مكتئب، يقصر السعي مهما بلغ من القوة عن تعمق ملامحه في الغبشة.

ورأيت حلماً غريباً مخوفاً في تلك الليلة نفسها. تراءى لي أنني أدخل غرفة مظلمة منخفضة السقف... وأبي واقف هناك في يده سوط وهو يخبط الأرض بقدميه. وفي الزاوية قبعت زينايدا لم يكن الأثر الأحمر في يدها بل في جبينها... ومن ورائهما ينهض بيلوفزوروف ملطخاً كله بالدماء، ويفتح شفتيه الشاحبتين بوجه أبي متوعداً مغيظاً.

بعد شهرين دخلت الجامعة، وبعد ستة أشهر فارق أبي الحياة (عقب نوبة قلبية) في مدينة بطرسبورغ بعد وقت قصير من انتقالنا إليها، أبي وأمي وأنا. وقبيل بضعة أيام من موته تلقى رسالة من موسكو حملت إليه قلقاً شديداً... فذهب إلى أمي يلتمس منها شيئاً، ويقال إن أبي، نعم أبي، قد بكى! وفي نفس الصباح الذي أصيب فيه بالنوبة، شرع يكتب إلي رسالة باللغة الفرنسية قال فيها: «يا ولدي، تحرّز من حب المرأة، تحرز من هذه السعادة، من هذا السمّ...» وبعد وفاته، بعثت أمي إلى موسكو مقداراً لا يستهان به من النقود.

- ٢٢ -

مضت أربع سنين، وكنت قريب العهد بالتخرج من الجامعة، ولكني لم أكن قد عرفت على التحديد بم يحسن لي أن أبدأ ولا أي باب طرق، فكنت أقضي الوقت من دون عمل. وفي ذات مساء، التقيت مايدانوف في المسرح، فعلمت أنه أفلح في الزواج، وإنه يعمل في وظيفة حكومية، ولكني لم ألاحظ فيه أي تغيير، فلا يزال على ما كان، ينبهر بصغائر الأمور ويصاب بنوبات مفاجئة من الخور. وقال لي في عرض كلامه:

- أتدري أن السيدة دولسكايا هنا؟

- ومن هذه السيدة دولسكايا؟

- هل نسيت؟ إنها من كانت تسمى الأميرة زاسيكينا، وكنا جميعاً متيمين بحبها، وأنت معنا أيضاً. ألا تذكر أيام الدارة القريبة من حديقة نيسكوتشني؟

- وهل تزوجت من دولسكي؟

- نعم.

- وهل هي هنا في المسرح؟

- لا، إنها في بطرسبورغ، وقد جاءت منذ بضعة أيام. وتتهيأ للسفر إلى خارج البلاد.

- وما سمات هذا الزوج؟

- فتى رائع، وذو ثراء أيضاً، ومن زملائي بالوظيفة في موسكو. معلومك، بعد تلك الحكاية... ولا بدّ أن هذا كله معروف لديك كل المعرفة... (وابتسم مايدانوف ابتسامة ذات مغزى) لم يكن من اليسير عليها أن تدبر أمر نفسها، فقد كان للحكاية ذيل... ولكن امرأة في ذكائها قادرة على كل شيء. اذهب إليها، فإنها ستكون مسرورة بزيارتك، ثم إنها زادت جمالاً على جمال.

أعطاني مايدانوف عنوان زيناييدا، وكانت تقيم في فندق «ديموت»[1]. وانبعثت ذكرياتي القديمة... فآليت لى نفسي أن أزور «صاحبتي» القديمة في اليوم التالي. ولكن حدث ما استأخرني، ففات أسبوع، وتلاه أسبوع آخر، ولما ذهبت أخيراً أسأل في فندق «ديموت» عن السيدة دولسكايا أعلمت أنها ماتت منذ أربعة أيام جراء عسر طارئ في الولادة.

لقد شعرت بما يشبه الصدمة في قلبي، وكانت الفكرة بأنني كنت قادراً على رؤيتها، و لم أرها، وأنني لن أراها أبداً، هذه الفكرة المرة كانت تنهش في نفسي بكلٍ قوتها وتبهظني بتأنيبها الثابت القاطع. وردّدت: «ماتت!» وأنا أنظر ذاهلاً إلى باب الفندق، وانسحبت إلى الشارع، ومضيت لا أدري إلى أين أذهب. لقد انبعثت أحداث الماضي وانتصبت جميعاً أمامي، ورأيتني أفكر: «لك هي نهاية المطاف، وهذا هو المصير الذي كانت تسعى إليه في استعجال واضطراب تلك الحياة الفتية الحارة اللامعة!» واستعدت في ذهني

١- فندق «ديموت» في بطرسبورغ، وقد سمي على اسم مالكه الأول ف. ديموت (١٧٥٠ - ١٨٠٢)، وكان موقعه على شاطئ نهر مويكا عند الجسر الأخضر (الآن شارع مويكا، رقم ٤٠).

تلك قسمات الغالية، تلك العيون، تلك الخصل - ترقد في صندوق ضيق تطويه الأرض الرطبة المظلمة - غير بعيد عني أنا الذي لا أزال حياً، بل لعلها أن تكون راقدة على بضع خطوات من أبي... فكرت في هذا كله، وحصرت فكري فيه. وفيما بين ذلك رنت في نفسي هذه الكلمات:

شفاه غير مكترثة نقلت إليّ خبر الموت

وأنا، من دون اكتراث، أصغيت...[1]

آه لك أيها الشباب! إنك طليق لا تبالي بشيء، فكأنك تملك كنوز الدنيا، بل حتى الأحزان تزدهيك وتليق بوجهك. إنك تقول وأنت واثق بنفسك معتدّ بها: انظروا إليّ، فأنا فقط من يعيش، على حين تمضي أيامك ثم تتلاشى فلا أثر ولا ثمر، ويختفي كل ما فيك، كما الشمع في وهج الشمس، وكما الثلج... وقد يكون السرّ فيما أنت عليه من السحر، لا يكمن في قدرتك على تحقيق ما تريد، وإنما في قدرتك على الإيمان بأنك قادر على تحقيق ما تريد، وأن جوهره على الخصوص في استهتارك بتلك القوى التي تذريها في الريح حينما لا تجد لها منصرفاً آخر، وفي أن كل فرد منا لا يعتقد أنه يهزل حين يحسب نفسه في المبذرين وأنه على حق إذ يقول: «أوه، كم ذا كنت أستطيع أن أعمل لو لم أبدد وقتي في العبث!».

وإليكم هذا النموذج - أنا... فإلى أي أمنية كنت أتطلع، وماذا كنت أنتظر، وما هذا المستقبل الباهر الذي كنت أرتقبه، على حين لم تندّ عني إلا زفرة و لم أحزن سوى لحظة وأنا أودع طيف غرامي الأول؟

ماذا تحقق من جميع تلك الآمال التي طمحت إليها وجددت في طلبها؟ وماذا بقي لي الآن بعد أن أخذت حياتي تمضي في ظلالها المسائية؟ هل بقي شيء أنضر عندي وأغلى من ذكريات تلك العاصفة الربيعية المبكرة السريعة التي عبرت حياتي؟

ولكن من العبث أن أفتري على نفسي، فحتى في ذلك العهد الطائش من زمان الشباب، لم أغلق سمعي دون ذلك الصوت الحزين الذي طار إليّ برنينه

---

١ - اقتباس من قصيدة لألكسندر بوشكين: «تحت سماء وطني الزرقاء...» (١٨٢٦).

المهيب من وراء القبر. وأذكر أنني بعد انقضاء بضعة أيام على معرفتي بموت زينايدا، ذهبت مدفوعاً بدافع من نفسي لا يقاوم، إلى عيادة عجوز مسكينة مشرفة على الموت كانت تعيش في البناية التي تسكن فيها. كانت تلتحف غطاء مهلهلاً، وترقد على لوح من خشب، وتحت رأسها كيس، وهي تقاسي من احتضارها مرّ العذاب. لقد تصرمت حياتها جميعاً في صراع شديد من أجل القوت، فما رأت قبساً من السعادة، ولا تذوقت قطرة من عسل الحظ، وكان المظنون أنها سترحب بالموت، وترى فيه منطلقها إلى الحرية والسكينة. ولكن أما وأن جسدها البالي ما يزال يقاوم الموت، وصدرها يتنفس في عسر شديد تحت ثقل اليد الباردة، وبقية أخيرة من ذماء، ما تزال فيها، فإن العجوز لم تنقطع عن التصليب وهي تهمس: «رب اغفر لي ذنوبي...» ومع انطفاء آخر شرارة من وعيها فقط، اختفت من عينيها آية رعبها من النهاية. وأذكر عندئذ، وأنا أشهد موت تلك العجوز المسكينة أن قلبي امتلأ بالخوف على زينايدا، ورغبت نفسي في الصلاة من أجلها، ومن أجل أبي - ومن أجل نفسي.

عام ١٨٦٠

البائسة[1]

ثم أنشأ بيتر غافريلوفيتش يقول:

-... نعم، نعم. كانت تلك أياماً صعبة... ما كنت أريد أن أعيدها إلى ذاكرتي... ولكنني قطعت لكم عهداً، وعليَّ أن أقصَّ كل شيء، فاسمعوا.

١- كتبت هذه القصة في عام ١٨٦٨، ونشرت في عدد كانون الثاني من مجلة «روسكي فيستنيك» لعام ١٨٦٩.
وقد قال تورغينيف عنها: «إنها - ببساطة - عرض للمصير المأساوي لفتاة مرّت بي خطفاً في شبابي».
والنموذج الأصلي لسوسانا فتاة تدعى ايميليا غيربل. وقد اتهم بموتها المأساوي في عام ١٨٣٣، الطالب ي. بوتشيكا، الذي يمكن أن يعتبر النموذج الأصلي لشخصية فوستوف. وتختلف مخطوطات الكاتب للقصة اختلافاً جوهرياً عن النص الذي ظهر منشوراً. وقد غيّر تورغينيف نهاية «البائسة» وحذف من القصة شخصية «المنتقم» ميركول تسيليندروف، صديق ميشيل الذي كان يحب سوسانا. فكانت، باعتراف تورغينيف «قصة كئيبة للغاية، فاحمة السواد».
و«البائسة» في تركيبها الفني قريبة من أعمال تورغينيف السابقة، إلا أن الحكم الاجتماعي الذي يصدر بحق العالم المحيط، والمؤدي إلى هلاك البطلة لا يؤلف في هذه القصة محتواها المباشر. فهو يبرز كنتيجة طبيعية للأثر الذي تخلفه في القارئ صورة حب عظيم لقلب إنسان معذّب فقد إيمانه بطيبة الناس، واستقامتهم ونبلهم.
وتورغينيف في وصفه لأخلاق عهد غابر، واستحضاره لصور «زمن النبالة السالفة» نراه، مرة أخرى، لا يوجه انتباه القارئ إلى عرض حتمية موت البطلة، بل إلى الكشف عن سايكولوجية سوسانا المرهفة، وإلى هاوية يأسها السحيقة، والاستحالة في الاستمرار في حياتها. وطبيعي أن مثل هذا الوضع السايكولوجي يمكن أن ينشأ ليس فقط، في ذلك الزمن البعيد الذي وقعت فيه هذه الحادثة.

كنت، آنذاك، أعيش في موسكو (شتاء ١٨٣٥)، عند خالتي، شقيقة المرحومة أمي. كنت في الثامنة عشرة، وكنت قد انتقلت لتوي من السنة الثانية إلى السنة الثالثة في كلية اللغة والأدب (بهذا كانت تسمى آنئذ) من جامعة موسكو. كانت خالتي امرأة هادئة وديعة، مترملة تشغل بيتاً خشبياً كبيراً في شارع أوستوجنكا عامراً بالدفء لا أظن أن له مثيلاً في غير موسكو، وكانت تلازم حجرة الجلوس من الصباح حتى المساء بصحبة صاحبتين لها ولا تقابل أحداً تقريباً، وتحتسي الشاي، وتستخير الورق، ومن حين لآخر تأمر بتدخيت الحجرة. فكانت صاحبتاها تهرعان إلى الرواق، وبعد بضع دقائق يجلب خادم عجوز يرتدي سترة فراك مما يلبسه الخدم طاساً نحاسياً فيه باقة من النعناع موضوعة على آجرة مفخورة، ويصب عليها الخل متحركاً بعجلة على حصائر ضيقة. وكان البخار الأبيض يحيط وجهه المتغضن، فيتعبّس، ويدير وجهه، وتأخذ طيور الكناري في حجرة الطعام بالسقسقة مستثارة بنشيش التدخين.

وكانت خالتي تحبني، وتدللني كثيراً، أنا الميتم من الوالدين، وقد وضعت الطابق الأعلى كله تحت تصرفي. وكانت حجراتي مؤثثة بأثاث أنيق، لا يناسب حياة الطلاب على الإطلاق. كانت حجرة النوم تزهو بستائر وردية، والسرير تحت ظليلة من الشاش الشفاف لها شراشيب زرقاء. واعترف بأن هذه الشراشيب كانت تقلقني، بعض الشيء، فإن مثل هذه «النواعم»، حسب فهمي، ستحط من نفسي في عيون رفاقي لا محالة. فقد كانوا، حتى بدون ذلك، يسمونني بـ«ربيب الدلال»، لأنني لم أكن أستطيع أن أحمل نفسي على التدخين. وكنت، والحق يقال، متخلفاً في دراستي، ولا سيما في بداية الدورة. فقد كنت كثير التغيب. وقد أهدت لي خالتي عربة زلاجة عريضة من تلك التي يقتنيها الجنرالات، لها دثار من فراء الدب، وحصانين معافيين. وكنت لا أزور البيوت «الكريمة» إلا لماماً، بينما كنت في المسرح وكأنني في مسكني، واتردد على حوانيت الحلويات ألتهم الفطائر. ومع كل هذا لم أبح لنفسي أي فسق، فكنت أعيش حياة متواضعة un jeune

homme de bonne maison.[1] وما كنت أقبل قط أن أسيء إلى خالتي. كما أن الدم كان يجري في شراييني بهدوء كاف.

- ٢ -

كنت مولعاً بالشطرنج[٢] منذ الصغر. لم أكن أفهمه نظرياً، ولكنني ألعبه بشكل لا بأس به. وذات مرة صادف أن شهدت، في مقهى، معركة مطولة بين لاعبين بدا لي أحدهما قوياً، وهو شاب أشقر في نحو الخامسة والعشرين. انتهت اللعبة بفوزه، فعرضت عليه أن نتبارى. وافق... وهزمني خلال ساعة ثلاث مرات متتالية بمنتهى البساطة.

ولعله لاحظ انكسار كبريائي، فقال بصوت مهذَّب:

- إن لك قدرة على اللعب، ولكنك لا تعرف النقلات الأولى في اللعب. وعليك أن تطالع كتاب الغاير أو بتروف[٣].

- أتظن ذلك؟ وأين يمكنني أن أحصل على هذا الكتاب؟

- زرني، وسأعطيه لك.

وقدَّم لي اسمه، واعلمني بمحل سكنه. وفي اليوم التالي توجهت إليه، وبعد أسبوع كنا لا نكاد نفترق عن بعض.

- ٣ -

كان صاحبي الجديد يدعى ألكسندر دافيدوفيتش فوستوف، يقيم مع

١- كشاب في عائلة شريفة (باللغة الفرنسية في الأصل). - الناشر.

٢- كان تورغينيف مولعاً بالشطرنج طوال حياته. وقد اشترك في عام ١٨٧٠ بالمؤتمر العالمي للشطرنج في بادن - بادن، وانتخب نائباً للرئيس.

٣- المقصود كتاب الغاير «Neue Theoretisch-praktische Anweisung zum Schaphspiel» (Wien، 1834)، وكتاب بيتروف «لعب الشطرنج المرتب في نظام منهاجي مع ملحق العاب فيلادور بالشطرنج والتعليقات عليها (الكتابان الأول والثاني، سانت - بطرسبورغ، ١٨٢٤). في مكتبة سباسكويه يوجد كتاب الغاير وعليه ملاحظات تورغينيف.

أمه، وهي زوجة موظف من المرتبة الخامسة[1] على قدر معتبر من الغنى، في جناح منفصل، مطلق الحرية، مثلما أنا مع خالتي. وكان يخدم في وزارة البلاط. وقد تعلقت به بإخلاص، فأنا لم ألتق في حياتي بشاب أكثر «جاذبية» منه. كان كل شيء فيه محبباً وجذاباً: قامته الممشوقة، ومشيته، وصوته، وعلى الأخص وجهه الصغير الرقيق بعينيه الزرقاوين الذهبيتين، وأنفه الأنيق وكأنما نحت بدلال، وبإبتسامته الحنون أبداً على شفتين قرمزيتين، وبخصلات شعره الناعمة الخفيفة فوق جبين ضيّق قليلاً، ولكنه ناصع البياض. وكان خُلق فوستوف يتسم بالهدوء البالغ، وبحفاوة لطيفة متحفظة. و لم يكن من طبعه الاستغراق في التفكير، فقد كان دائم الرضى عن كل شيء، ولكنه لم يكن يخرج عن حده في البهجة، فقد كان يحس بالمهانة من كل إفراط، حتى في الشعور الطيب. كان يقول في هذه الحال: «هذه وحشية، وحشية»، وهو ينكمش قليلاً، ويقلّص عينيه العسليتين. وكم كانت عيناه مذهلتين حقاً! كانتا دائماً تفصحان عن تعاطف، ومودة، بل وإخلاص. ومن بعد فقط لاحظت أن تعبير عينيه كان يعود أولاً وأخيراً إلى طبيعتهما، وأنه لم يكن يتغير حتى حين كان يحتسي حساء أو يدخن سيكارة. وقد أصبحت دقته مثلاً بيننا. والحق أن جدته كانت من الألمانيات. فوهبته الطبيعة قابليات متنوعة. فهو يجيد الرقص إجادة ممتازة، ويركب الفرس برشاقة، ويسبح سباحة رائعة، ويزاول النجارة والخراطة واللصق والتجليد، ويحفر الصور المظللة، ويرسم، بالألوان المائية، باقة زهور، أو بروفيل نابليون في سترة عسكرية لازوردية، ويعزف على القانون بعاطفة، ويعرف العديد من الألاعيب في الورق وغيره، ولديه معلومات معتبرة في الميكانيك، والفيزياء، والكيمياء، ولكن كل شيء باعتدال. و لم يوفق باللغات وحدها. وحتى الفرنسية لم يكن يحسن الكلام بها. وعلى العموم لم يكن يتحدث إلا قليلاً، وفي أحاديثنا الطلابية كان يميل، على الأكثر، إلى المشاركة بالنظرة والابتسامة الناعمتين البشوشتين. وكان جنس النساء معجباً به إعجاباً لا شك فيه، ولكن لم يكن يحب الإفاضة في الحديث عن هذه المسألة المهمة جداً بالنسبة للشبان، وعلى

١- يتكون «سلم الرتب» الذي وضعه بطرس الأول عام ١٧٢٢ من ١٤ مرتبة من مراتب الموظفين. - المترجم.

العموم، كان أهلاً للقب الذي أطلقه عليه رفاقه «دون جوان المتواضع». لم يكن فوستوف يدهشني، إذ لم يكن فيه ما يبعث على الدهشة، ولكنني اعتززت بمودته، رغم أنها في الحقيقة لم تكن تتجاوز سماحه لي بزيارته في أي وقت. كان فوستوف، في نظري، أسعد إنسان في العالم. وكانت حياته تسير رخاء كالنسيم. وكان الجميع يحبونه: أمه وإخوانه وأخواته وعماته وإخواله، وكان يعيش مع الجميع في وفاق ووئام غير اعتياديين، واشتهر بأنه القريب النموذجي.

- ٤ -

ذات مرة جئت إليه في ساعة مبكرة جداً، فلم أجده في غرفة مكتبه. ناداني من الحجرة المجاورة. ترامى إلى سمعي من هناك شهيق وطرطشة ماء. كان فوستوف، في كل صباح، يسكب عليه الماء البارد، وبعد ذلك ينغمر، قرابة ربع ساعة، في تمارين رياضية تفوق فيها تفوقاً كبيراً. وكان لا يهتم اهتمامات زائدة في صحته، إلا أنه لم يكن ينسى الضروري منها. (كان شعاره: «لا تنس نفسك، ولا تقلق، واعمل باعتدال»). وقبل أن يظهر فوستوف فُتح مصراعا الباب الخارجي للحجرة التي كنت فيها، ودخل رجل في نحو الخمسين من العمر، في سترة بزة رسمية، ركين البنيان، مكتنز، ذو عينين في بياض الحليب في وجه أحمر بني، وشعر أشيب أجعد كقبعة حقيقية. توقف هذا الرجل، ونظر إليّ، فاغراً فمه العريض، وارسل ضحكة معدنية، ثم ضرب بكفه فخذه من الوراء ضربة مُطنة، دافعاً رجله إلى الأمام في الوقت ذاته. وسمعت صديقي يقول من وراء الباب:

- إيفان دميانيتش؟

فأجاب الرجل الداخل:

- هو بالذات. وأنت ماذا تعمل؟ تكمل زينتك؟ يا له من عمل حميد! يا له من عمل حميد! (كان صوت الرجل المسمَّي إيفان دميانيتش يرن رنين المعدن كضحكته) جئت إلى أخيك لأعطيه درساً، فعلمت أنه مصاب بنزلة برد، دائم العطاس. لا يستطيع أن يدرس. فعرَّجت عليك لأتدفأ قليلاً.

وضحك إيفان دميانيتش نفس الضحكة الغريبة، وضرب فخذه ضربة

مرنة مرة أخرى، وأخرج من جيبه منديلاً ذات مربعات، وتمخط بصوت عال، وصرخ بأعلى صوته «تفو!» باصقاً في المنديل، مقلباً عينيه بطريقة وحشية.

دخل فوستوف الحجرة، ومدَّ يده لكلينا، وسألنا: هل أنتما متعارفان؟

هدر إيفان دميانيتش على الفور:

– لا، أبداً. إن المحارب القديم لعام اثني عشر[1] ليس له مثل هذا الشرف.

سمّاني فوستوف أولاً، ثم أشار إلى «المحارب القديم لعام اثني عشر» وقال: «إيفان دميانميتش راتش، مدرس... لمختلف المواد».

فأسرع السيد راتش يقول:

– لمختلف المواد... بالضبط... تصور، ما أكثر المواد التي درّستها ولا أزال أدرّسها الآن! درست الحساب، والجغرافية، والإحصاء، والمحاسبة الإيطالية[2]، ها، ها، ها! والموسيقى! أتشك في ذلك، يا حضرة المحترم؟ – داهمني في الحال – اسأل ألكسندر دافيديتش كيف أتفنن في النفخ في الصور، وإلا فاي يوهيمي، أي تشيكي أنا؟ نعمد يا حضرة، أنا تشيكي، وموطني براغ العتيدة! بالمناسبة، لماذا لم أرك منذ زمان، يا ألكسندر دافيديتش؟ كنا سنشترك في العزف... ها، ها! حقاً!

أجاب فوستوف:

– منذ يومين كنت عندك، يا إيفان دميانيتش.

– وهذا ما أسميه منذ زمان، ها، ها!

عندما كان السيد راتش يضحك كانت عيناه البضاوان تتحركان من جانب إلى جانب بغرابة واضطراب.

١– المقصود بذلك الحرب الوطنية التي خاضها الشعب الروسي ضد غزو الجيش الفرنسي بقيادة نابليون الأول، عام ١٨١٢.

٢– طبق نظام المحاسبة الايطالي المزدوج رسمياً في بداية القرن السادس عشر في عدد من الاقطار الأوروبية. وقد أخذ اسمه من كتاب الراهب الايطالي لوقا باتشيولو (١٤٩٤).

- أراك، أيها الشاب، مندهشاً من سلوكي. ولكن ذلك راجع إلى إنك لا تعرف هويتي، حتى الآن. استفسر عني صديقنا الطيب ألكسندر دافيديتش. ماذا سيقول لك؟ إنه سيقول لك أن العجوز راتش غرير، روسي بروحه وأن لم يكن بأصله. ها، ها! اسمي بالعماد يوحنا - ديتريخ، ولقبي إيفان دميانيتش! ما في ذهني يفيض على لساني. قلبي مكشوف على راحة يدي، على حد التعبير الشائع. ولا أعرف الشكليات بأنواعها، ولا أريد أن أعرفها! سحقاً لها! تفضل وزرني في إحدى الأماسي، وسترى بنفسك. وامرأتي - أقصد زوجتي -، بسيطة أيضاً. تطبخ لنا وتخبز... كثيراً! ألست أقول الحقيقة، يا ألكسندر دافيديتش؟

اكتفى فوستوف بإبتسامة، وصمت أنا. ومضى السيد راتش يقول:

- تعال، ولا تستنكف من عجوز. أما الآن... (وأخرج من جيبه ساعة فضية سميكة، وقرَّبها من عينه اليمنى الجاحظة) فأظن من الأفضل لي أن أنسحب. في انتظاري فرخ آخر... الشيطان يعرف ماذا أعلمه... الميثولوجيا، والله! وهذا الملعون يسكن في مكان بعيد، عند كراسنيه فوروتا! لا يهم، سأذهب مشياً على القدمين، ما دام أخوك قد مرض. وفي هذه الحال ستظل في جيبي خمسة عشر كوبيكاً، أجرة العربة. ها، ها! استأذن، يا حضرة، إلى اللقاء. أما أنت، أيها الشاب، فتفضَّل... ما هذا؟... سنعزف الثنائي، بالتأكيد!

صاح السيد راتش من الرواق، وهو يلبس كالوشه مطبطباً به، وترامت ضحكته المعدنية للمرة الأخيرة.

- ٥ -

سألت فوستوف، وكان قد لحق أن يقف إلى المخرطة.

- أي إنسان غريب هو؟! أحقاً أنه أجنبي؟ فهو يتكلم الروسية بخفة.

- أجنبي، ولكنه يقيم في روسيا منذ حوالي ثلاثين عاماً. جلبه أحد الأمراء من الخارج منذ زمن بعيد، في عام ١٨٠٢ تقريباً... ليعمل سكرتيراً... أو خادماً خصوصياً بالأحرى، كما يجب أم يفترض. إنه بالفعل يتكلم الروسية بخفة.

فأضفت قائلاً:

– وبجسارة، وحذلقات وتنميقات.

– نعم، ولكن بتصنع شديد. الألمان المترّوسون جميعاً بهذا الشكل.

– ولكنه تشيكي.

– لا أعرف. ربما. إنه يتكلم مع زوجته بالألمانية.

– ولماذا يسمي نفسه محارباً قديماً من محاربي عام اثني عشر؟ هل خدم في فيلق المتطوعين؟

– أين منه فيلق المتطوعين! بقي في موسكو أثناء الحريق، وخسر ملكيته كلها... هذه كل خدمته.

– ولكن لماذا بقي في موسكو؟

قال فوستوف غير متوقف عن السحج.

– الله يعلم! سمعت من يزعم أنه كان في الجاسوسية عندنا، ولكن ذلك كلام فارغ، على الأرجح. أما بخصوص خسائره، فمن المؤكد إنه قد حصل على تعويضات من الخزينة.

– كان يلبس سترة بزة رسمية... يعني أنه في وظيفة؟

– في وظيفة. يعمل مدرساً في فيلق الطلاب العسكريين[1]، موظف مدني من الدرجة السابعة[2].

– ومَنْ زوجته؟

– ألمانية من هنا، ابنة صانع نقانق... بائع لحم...

– وتتردد عليه كثيراً

١– فيلق الكاديت مؤسسات تعليمية عسكرية ثانوية مغلقة في روسيا، ما بين أعوام ١٧٣٢ – ١٩١٧، لأولاد الضباط بالدرجة الأولى. وفي القرن الثامن عشر خصصت فقط لاعداد أولاد النبلاء إلى الخدمة العسكرية والمدنية.

٢– وظيفة في روسيا الامبراطورية من الدرجة السابعة. وأصحابها كانوا يشغلون عادة وظائف رئيس قسم.

– نعم.

– أتجد مرحاً في زيارتهم؟

– نوعاً ما.

– هل له أطفال؟

– نعم، ثلاثة من الألمانية[1]، وابن وابنة من زوجته الأولى.

– كم عمر البنت الكبرى؟

– في نحو الخامسة والعشرين.

وخيل إليَّ أن فوستوف ينحني على المخرطة أكثر، وازدادت حركة الدولاب سرعة، وطنَّ تحت دفعات قدمه المتساوقة.

– أهي حلوة؟

– حسب ذوق الرائي إليها. الوجه رائع، بل وهي بكليتها... شخص ممتاز.

ففكرت مع نفسي: «آها!»، واستمر فوستوف في عمله، بحماس ظاهر، وردَّ على سؤالي التالي بحمحمة فقط.

فعزمت مع نفسي: «لا بد أن نتعارف!».

– ٦ –

بعد بضعة أيام ذهبت بصحبة فوستوف لقضاء أمسية عند السيد راتش. وكان يعيش في بيت خشبي ذي فناء واسع وحديقة، في زقاق كريفوي، قرب بولفار بريتشيستنسكي. خرج علينا في الرواق، وقابلنا بما جُبل عليه من ضحكة مقرقعة وطنين، وقادنا على الفور إلى حجرة الجلوس، حيث قدَّمني إلى سيدة جسيمة في فستان ضيق من القماش الصوفي المتين، هي زوجته اليونورا كاربوفنا. ولعلَّ اليونورا كاربوفنا كانت تتميز، منذ ميعة صباها، بما يسميه الفرنسيون، لسبب غير معروف، بـ «جمال الشيطان» أي

١– وفي كل المواضع الأخرى من النص، وفي كل المخطوطات ذكر أن لراتش أربعة أولاد من زوجته الثانية.

بالنضارة؛ ولكنني، حين تعرفت بها، لاحت لعيني مثل قطعة ضخمة من لحم البقر، وضعها الجزار لتوه على طاولة رخامية نظيفة. وأنا لم أستخدم كلمة «نظيفة» جزافاً، لأن سيدة البيت لم تكن وحدها تبدو نموذجاً للنظافة، بل وكل ما يحيط بها، فكل ما في البيت كان يلمع ويتألق، كل شيء قد صُقِل، وكوِي، وغُسِل بالصابون. والسماور يلمع على طاولة مستديرة، والستائر على النوافذ وفوط الأكل تخشخش من النشا، وكذلك فساتين وقمصان أولاد السيد راتش الأربعة الجالسين هناك، ضخاماً مشبَّعين، شديدي الشبه بأمهم، بوجوههم الغلاظ القوية، وخصلات شعرهم الناتئة عند الصدغين، وأصابعهم الحمر الغليظة. وكانت لأربعتهم أنوف مفلطحة قليلاً، وشفاه سميكة كالمتورمة، وعيون صغيرة رمادية فاتحة.

هتف السيد راتش، وهو يضع يده الثقيلة على رؤوس أولاده بالتتابع:

– هذا فصيلي! كوليا، وأوليا، وساشكا وماشكا! هذا في الثامنة، وهذه في السابعة، وهذا في الرابعة، وعمر هذه سنتان بالتمام والكمال! ها، ها، ها، وها أنتم ترون أنني وزوجتي غير متقاعسين. هيه؟ اليونورا كاربوفنا؟

قالت اليونورا كاربوفنا:

– أنت دائماً تقول أشياء غريبة.

وأشاحت بوجهها. فمضى السيد راتش يقول:

– كما سمت صغارها أسماء روشسية صرفة. وبعد حين ستعمدهم على المذهب الأغريقي![1] أي، والله! إنها سلافية، وليخطفني الشيطان، رغم أن دمها جرماني! اليونورا كاربوفنا، هل أنت سلافية؟

بدا الغضب على اليونورا كاربوفنا.

– أنا زوجة موظف مدني من الدرجة السابعة، هذا أنا! ومعنى ذلك أنني سيدة روسية، وكل ما ستقوله الآن...

قاطعها إيفان دميانيتش:

– ومعنى ذلك أنها تحب روسيا حباً جماً! كالزلزال، ها، ها!

١– يقصد الكنيسة الأرثوذكسية.

فمضت اليونورا كاربوفنا تقول:

- وماذا في ذلك؟ أنا أحب روسيا، بالطبع. وإلا فأين حصبت على لقب النبالة؟[١] وأولادي أيضاً أشراف الآن؟ Kolia، sitze ruhig mit den Fussen![٢].

يئس راتش منها وقال:

- حسناً، يا قيصرة سومبيكا[٣]، اهدئي. وأين فيكتور «النبيل»؟ أظنه يتسكع، على هواه! سيصادف مفتشاً، لا محالة، ويجد منه ما لا يسره. Das ist ein Bummber، dir FiKtor![٤].

غمغمت اليونورا كاربوفنا:

- Dem Fiktor Kann ich nicht Kommandieren يا إيفان دميانيتش، Sie wissen wohl![٥].

نظرت إلى فوستوف، وكأنما أود أن انتزع منه كلياً ما كان يحمله على زيارة مثل هؤلاء الناس... ولكن فتاة طويلة القامة دخلت الحجرة في تلك اللحظة في ثوب أسود، هي ابنة السيد راتش الكبرى، التي أشار إليها فوستوف... وفهمت سبب زيارات صديقي المتكررة.

- ٧ -

أتذكر قولاً لدى شكسبير عن «الحمامة البيضاء في سرب من الغربان

١- كانت الدرجة الثامنة من سلّم الرتب تعطي الحق في لقب النبالة بالوراثة. ولما كان راتش في الدرجة السابعة فقد تخطى تلك الدرجة.

٢- كوليا، اجلس بهدوء، ولا تؤرجح رجليك! (بالألمانية في الأصل). - **الناشر**.

٣- القيصرة سومبيكا (سيون - بكه) زوجة قيصر قازان الاخير سافا - هيري. وكان راتش يعرفها من باليه «سومبيكا» التي عرضت في بطرسبورغ في بداية الثلاثينات.

٤- يا به من معربد فيكتور هذا! (بالألمانية في الأصل). - **الناشر**.

٥- أنا لا أستطيع أن أؤثر على فيكتور، وأنت تعرف ذلك جيداً! (بالألمانية في الأصل). - **الناشر**.

السود»[1]؛ وقد تركت الفتاة الداخلة مثل هذا الأثر فيَّ. كان ثمة النزر القليل للغاية من الشبه بينها وبين العالم المحيط بها، بدا وكأنها هي نفسها حائرة تستغرب كيف وجدت نفسها هنا. كان جميع أفراد عائلة السيد راتش يبدون أصحاء راضين عن أنفسهم سمحاء، أما وجهها الجميل الحائل اللون، فقد بدت عليه مسحة الجزع والأنفة والمرض. كان أولئك، العوام الأقحاء، يتصرفون بلا تكلف، وربما بفظاظة، ولكن ببساطة، بينما كان فزع موحش يتبدى في كل كيانها الأرستقراطي دون شك. لم يكن في مظهرها الخارجي نفسه ذلك النمط الذي تتميَّز به السلالة الجرمانية، فقد كانت تشبه أهل الجنوب أكثر... شعر أسود كث للغاية خال من اللمعة، وعينان سودوان أيضاً، غائرتان، كامدتان، وجميلتان في الوقت ذاته، وجبين واطىء طالع، وأنف كالمنسر، وشحوب مخضوضر لبشرة ملساء، وخط مأساوي قرب شفتيها الرقيقتين، وعلى وجنتيها المخسوفتين قليلاً، وشيء حاد وعاجز أيضاً في حركاتها، ورشاقة غير مصقولة... وكل ذلك ما كان سيبدو لي غير اعتيادي، لو كان في إيطاليا، ولكنه في موسكو، في بولفار بريتشيستنسكي أثار ذهولي تماماً! نهضت من مقعدي، حين دخلت الحجرة، فألقت عليَّ نظرة سريعة مضطربة، واسبلت رموشها السوداء، وجلست قرب النافذة «مثل تاتيانالا»[2] (كان أونيغين، بطل قصيدة بوشكين، ما يزال طرياً في ذاكرة كل واحد منا، آنذاك). نظرت إلى فوستوف، ولكن صديقي كان يدير لي ظهره، ويتناول قدح الشاي من يدي اليونورا كاربوفنا الممتلئتين. وكنت قد لاحظت أيضاً أن الفتاة الداخلة علينا قد حملت معها دفقة من تيار البرودة الجسدية الخفيفة... وقلت مع نفسي: «أي تمثال هذا؟».

– ٨ –

هدر السيد راتش يخاطبني:

١– ورد ذلك على لسان روميو عن جوليت في الحلقة الراقصة في بيت كابوليتي. المشهد الخامس، من الفصل الأول من مأساة «روميو وجوليت».

٢– بطلة الرواية الشعرية «يفغيني اونيغين» للشاعر الروسي العظيم ألكسندر بوشكين (١٧٩٩ – ١٨٣٧). وقد نشرت هذه الرواية كاملة في عام ١٨٣٣ لأول مرة.

– بيتر غافريليتش! اسمح لي أن أعرفك بـ ... بـ ... بلعبتي الأولى، – ها، ها، ها! بسوسانا إيفانوفنا!.

انحنيت محيياً بصمت، وشرعت أفكر على الفور: «واسمها أيضاً لا يشبه أسماء الآخرين». رفعت سوسانا جسمها قليلاً، دون أن تبتسم، ودون أن ترخي يديها المضمومتين بقوة. ومضى إيفان دميانيتش يقول:

– ومن سيصاحبني في العزف؟ ألكسندر دافيديتش؟ ها! أيها الفاضل! القانون بقي عندنا، ثم إنني أخرجت الصور من غلافه. فلنشنف (كان السيد راتش يحب تزويق لغته الروسية، وكانت بين الحين والآخر تفلت منه تعابير من تلك التي تتناثر في كل أشعار الأمير فيازيمسكي[1] المغالية في شعبيتها، من مثل «شاطر على كل شيء» بدلاً من «في كل شيء»، «لا شغل لنا هنا»، «مجبر لا مخير» إلى غير ذلك. أتذكر أن إيفان دميانيتش الذي كان مولعاً بالكلمات المسجوعة، صار يؤكد لي ذات مرة أن لديه في حديقته الملط والزلط والسقط). – كيف؟ مناسب؟ – نادى إيفان دميانيتش، وقد رأى فوستوف غير معترض – كولكا، إلى غرفة المكتب سِرْ، وهات كراسي النوطات! أولغا، أجلبي القانون! وأنت، يا عقيلتي، تكرّمي بإشعال الشموع لكراسي النوطات! (ودار السيد راتش في الغرفة كالمصراع). بيتر غافريليتش، أنت تحب الموسيقى، ها؟ إذا كنت لا تحبها تستطيع أن تتجاذب أطراف الحديث، شرط أن يكون ذلك همساً ومسامرة! ها، ها، ها! ولكن أين ولى ذلك المهرج فيكتور؟ كان من الممكن أن يستمع أيضاً! أنت، يا اليونورا كاربوفنا أسرفت في تدليله!

– Aber was Kann ich denn [2] يا إيفان دميانيتش...

١– فيازيمسكي بيتر (١٧٩٢ – ١٨٧٨) – شاعر روسي وناقد ادبي، واكاديمي في اكاديمية العلوم في بطرسبورغ (١٨٤١). كان تورغينيف يرى في أشعار الاربعينات التي عارض فيها فيازمسكي انصار الغرب، نزعات وطنية زائفة. والتعابير التي استشهد بها، بعد ذلك، مأخوذة من مجموعة «في الحل والترحال» (١٨٦٢) التي تضمنت العديد من قصائد الشاعر المبكرة.

٢– وماذا أستطيع أن أفعل؟ (بالألمانية في الأصل). – **الناشر**.

– طيب، طيب، لا تلحي! Bleibe rihig، hast verstanden?[1] ألكسندر دافيديتش! تفضل!

نفذ الطفلان أمر أبيهما على الفور، ونصبت كراسي النوطات، وبدأت الموسيقى. وكنت قد قلت سابقاً أن فوستوف يعزف على القانون عزفاً ممتازاً، إلا أن هذه الآلة الموسيقية كانت تضايقني دائماً أشد المضايقة. فقد كان يتراىء لي حتى الآن أن في القانون روح اليهودي المرابي الهرم، وأن القانون يولول بوحشة وينوح على العازف القاسي الذي يجبره على أن يصدر أصواتاً. كما أن عزف السيد راتش ما استطاع أن يمدني بمتعة، ثم أن وجهه الذي أحمرَّ فجأة بعينيه البيضاوين المتقلبتين بشراسة اتخذ مسحة شريرة، وكأنما انتوى قتل أحد بالصور، وهو يشتم ويهدد مسبقاً، باعثاً الأنغام المتحشرجة المخنوقة واحداً أثر الآخر. جلست إلى جانب سوسانا، وانتهزت أول توقف في العزف لأسألها هل تحب الموسيقى مثلما يحبها أبوها؟

اندفع جسمها إلى جانب وكأنني دفعتها وغمغمت بصوت متقطع:

– مَنْ؟

فكررت:

– أبوك، السيد راتش.

– السيد راتش ليس أبي.

– ليس أباك؟ أرجو المعذرة... ربما لم أفهم بالشكل الصحيح... ولكن أتذكر أن ألكسندر دافيديتش...

نظرت سوسانا إليَّ بإمعان وتخوف.

– أخطأت فهم السيد فوستوف. السيد راتش زوج أمي.

صمت قليلاً، ثم أعدت السؤال:

– طيب، ألا تحبين الموسيقى؟

١– اهدئي، هل فهمت؟ (بالألمانية في الأصل). – الناشر.

نظرت سوسانا إليّ ثانية. وفي عينيها شيء وحشي واضح. والظاهر أنها لم تكن تتوقع، ولا ترغب في مواصلة حديثنا. قالت ببطء:

- لم أقل لك ذلك.

- طو، طو، طو، وو...

زعق الصُوْر بحدة فجائية نافثاً نغمته الختامية. التفت فرأيت رقبة السيد راتش الحمراء منتفخة كرقبة أفعى البواء، أسفل أذنيه الناتئتين، فبدا لي مقرفاً جداً.

قلت بصوت خافض:

- ولكن... لا أظنك تحبين هذه... الآلة.

أجابت، وكأنها فهمت تلميحي الخفي:

- نعم... لا أحبها.

قلت لنفسي «هكذا، إذن!» وكأنني سررت من شيء ما.

وفجأة قالت اليونورا كاربوفنا بلغتها الألمانية الروسية:

- سوسانا أيفانوفنا تحب الموسيقى كثيراً، كما تعزف هي نفسها على البيانو عزفاً ممتازاً، سوى أنها لا ترغب في العزف على البيانو، حين يطلب إليها كثيراً.

لم ترد سوسانا بشيء على اليونورا كاربوفنا، بل و لم تنظر إليها، سوى أنها حولت عينيها صوبها، وقد اسبلت جفنيها. وبهذه الحركة وحدها، بحركة حدقتيها، استطعت أن أدرك أي شعور تكن لزوجة أبيها الثانية... وأحسست مرة أخرى بالفرحة من شيء ما.

وفي أثناء ذلك انتهى العزف الثنائي. ونهض فوستوف واقترب بخطوات مترددة من النافذة التي كنا سوسانا وأنا نجلس قربها، وسألها هل تسلمت من لينغولد[1] النوطات التي وعد هذا بأن يطلب ارسالها من بطرسبورغ.

وأضاف مخاطباً إياي:

١- ك. ب. لينغولد، ناشر نوطات الموسيقى في موسكو.

– مقتطفات غنائية موسيقية من «روبرت الشيطان»[1]، من تلم الأوبرا! الجديدة التي يثيرون الضجيج الشديد عنها.

– لا، لم اتسلمها – أجابت سوسانا، ثم أدارت وجهها إلى النافذة، وأسرعت تهمس – من فضلك، ألكسندر دافيديتش، أرجو أن لا تجبرني على العزف اليوم! أنا متعمرة المزاج تماماً.

صاح إيفان دميانيتش، وهو يتقدم منا:

– ما هذا؟ «روبرت الشيطان» لميربير! أراهن على أنها أوبرا ممتازة! إنه يهودي، وجميع اليهود، شأنهم شأن التشيك، موسيقيون بالفطرة! واليهود على الأخص. أليس صحيحاً، يا سوسانا إيفانوفنا؟ ماذا؟ ها، ها، ها!

وكان في كلمات السيد راتش الأخيرة، وفي ضحكته ذاتها هذه المرة شيء آخر غير سخريته المعتادة، وهو الرغبة في الإهانة، وهذا ما بدا لي، على أقل تقدير، وما فهمته ابنته سوسانا. ارتعدت بشكل لا إرادي، واحمرّت، وعضت شفتها السفلى، ولمعت على رموشها نقطة مثل لمعة دمعة، ونهضت بسرعة، وغادرت الحجرة.

صاح السيد راتش في أثرها:

– إلى أين، سوسانا إيفانوفنا؟

فتدخلت اليونورا كاربوفنا قائلة:

– دعها وشأنها، يا إيفان دميانيتش. Wenn sie einmal so etwas im kopf hat ...[2]

– طبعي عصبي – قال راتش، واستدار على كعبيه، وضرب فخذه – تعاني من plexus solaris[3]، أوه! ولكن لا تنظر إليّ بهذا الشكل، يا بيتر

١- «روبرت الشيطان» (١٨٣٠) – أوبرا المؤلف الموسيقي الألماني جاكومو مايربير (Meyerbeer)، واسمه الحقيقي ياكوب ليمان بير (Beer) (١٧٩١ – ١٨٦٤). وقد عرضت هذه الأوبرا لأول مرة في روسيا على مسرح البولشوي، في بطرسبورغ.

٢- حين يخطر شيء في رأسها... (بالألمانية في الأصل). – الناشر.

٣- الضفيرة الشمسة (باللاتينية في الأصل). – الناشر.

غافريليتش! لقد درست التشريح أيضاً، ها، ها! وأستطيع أن أعالج! أسأل اليونورا كاربوفنا... أنا أشفي كل عللها! عندي طريقة.

- وتظل تمزح طوال الوقت، يا إيفان دميانيتش.

أجابت هذه في ضيق، في حين كان فوستوف ينظر إلى الاثنين ضاحكاً ومتمايلاً باستمتاع.

فاسرع إيفان دميانوفيتش يقول:

- ولِمَ لا أمزح، mein Mutterchen? [1] لقد وُهبت الحياة لنا للنفع، وللزينة أكثر، كما قال شاعر مشهور. امسح أنفك، يا كولكا، يا دلدل!

- ٩ -

في ذلك المساء كنت أقول لفوستوف، لدى عودتي معه إلى البيت:

- بفضلك كنت في غاية الحرج اليوم. قلت لي إن هذه... ما اسمها؟ ها، سوسانا هي ابنة السيد راتش، بينما هي ابنة زوجته.

- طبعاً! وهل قلت لك إنها ابنته؟ على العموم... ما الفرق؟

مضيت أقول:

- إن راتش هذا، آه، يا ألكسندر! لا يعجبني على الإطلاق! هل لاحظت بأية سخرية أصيلة ذكر اليهود في حضورها اليوم؟ أهي يهودية؟

سار فوستوف في المقدمة، مؤرجحاً ذراعيه، وكان الجو بارداً، والثلج يخشخش تحت الأقدام كالملح. وأخيراً قال:

- نعم، أتذكر إنني سمعت شيئاً من هذا القبيل. يبدو لي أن أمها كانت من أصل يهودي.

- يعني أن زوجة السيد راتش الأولى كانت أرملة؟

- ربما.

- آها!... وفيكتور الذي لم يأت في المساء هو ابن زوجته أيضاً؟

- لا، إنه ابنه من دمه. على العموم أنا، كما تعلم، لا أتدخل في شؤون الغير، ولا أحب الاستفسار. لست فضولياً.

١- يا أمي؟ (بالألمانية في الأصل). - الناشر.

توقفت عن الكلام. وظل فوستوف يحث خطاه في المقدمة. وحين وصلت إلى البيت لحقت به، ونظرت في وجهه. وسألت:

– وماذا أيضاً؟ هل أن سوسانا موسيقية جيدة حقاً؟

قطَّب فوستوف حاجبيه، وقال من خلال أسنانه:

– إنها تحسن العزف على البيانو. سوى أنها لا تستأنس بأحد وهذا ما أنبهك إليه!

أضاف بتقطيبة خفيفة. وكأنما قد ندم على إنه عرفني بها. سكت. وافترقنا.

– ١٠ –

في الصباح التالي ذهبت إلى فوستوف من جديد. صارت مجالسته في الصباحات حاجة لي. استقبلني بلطف على مألوف عادته، ولكنه لم يشر بأية كلمة إلى زيارة يوم أمس! سكت وكأن في فمه ماء، أخذت اتصفح العدد الأخير من «تلسكوب»[1].

ودخل وجه جديد في الحجرة. وتبين أنه فيكتور ابن السيد راتش الذي تشكى أبوه من غيابه في مساء اليوم الفائت.

كان شاباً في نحو الثامنة عشرة نحيفاً معتل الصحة تلوح على وجهه غير الصافي تكشيرة تهكم وقحة فيها منافقة. وترى على عينيه المتلهبتين مسحة من التعب. وكان يشبه إياه، غير أن قسماته كانت أصغر ولا تخلو من لطافة. ولكن في هذه اللطافة ذاتها كان يكمن شيء منحوس. وكان مهمل اللباس، تقطعت بعض أزرار سترته الرسمية، وانفتقت فردة من حذاءه، وكانت رائحة التبغ تفوح منه قوية.

– مرحباً.

قال بصوت أبح، وبهزات معينة من كتفيه ورأسه كنت ألحظها دائماً في الشبان المدللين والمعتدين بأنفسهم. ومضى يقول:

تصورت أنني سأذهب إلى الجامعة، وإذا بي أجد نفسي عندكم. صدري مخنوق. أعطني سيكارة.

---

١ – «تلسكوب» – مجلة تقدمية كانت تصدر في موسكو كل اسبوعين ما بين ١٨٣١ و١٨٣٦.

وسار عبر الغرفة كلها مجرجراً قدميه بفتور، ودون أن يخرج يديه من جيبي بنطلونه، وانهد على الأريكة ثقيلاً.

– هل أصبت ببرد؟

سأله فوستوف، وعرَّف أحدنا بالآخر. وكان كلانا طالباً، ولكن في كليتين مختلفتين.

– لا! مطلقاً! يجب أن اعترف... (وهنا ابتسم السيد راتش junior[1] بكل سعة فمه، ولكن ليس بدون لطافة أيضاً، غير أن أسنانه كانت تالفة) شربت أمس، شربت كثيراً. نعمر – وأشعل السيكارة، وسعل منظفاً حنجرته.

– ودَّعنا أوبيخودوف.

– إلى أين سيذهب؟

– إلى القفقاس. ويجر محبوبته إلى هناك. أنت تعرف تلك الفتاة السوداء العينين المنمَّشة. أحمق!

قال فوستوف:

– أبوك كان يسأل عنك البارحة.

بصق فيكتور في ناحية.

– نعم، سمعت. إذن، كنتم في مربعنا. ثم ماذا؟ تموسقتم؟

– حسب العادة.

– وهي... أظنها أمام الضيف الجديد (وهنا أشار برأسه إلى ناحيتي) تمانعت؟ لم ترد أن تعزف؟

سأل فوستوف:

– إلى مَنْ تشير بذلك؟

– طبعاً إلى المبجَّلة سوسانا إيفانوفنا!

واسترخى فيكتور في وضع أروح، وأدار ذراعه فوق رأسه، ونظر إلى كفه، وحمحم بصوت كامد.

١– الأصغر (باللاتينية في الأصل). – الناشر.

نظرت إلى فوستوف. فاكتفى هذا بهز كتفه، وكأنما يريد أن يفهمني أنه لا حاجة حتى إلى التساؤل من هذا السائب.

- ١١ -

أخذ فيكتور، وعيناه إلى السقف، يتحدث متمهلاً مخناً، عن المسرح، وعن ممثلين يعرفهما، وعن امرأة تدعى سيرافيما سيرافيموفنا «خدعته»، وعن البروفيسور الجديد... الذي سماه بهيمة: - ولكن هل تتصورون ماذا ابتكر هذا الدميم؟ أن يبدأ كل محاضرة بالمناداة على الأسماء، ويعتبر نفسه ليبرالياً! وددت لو أرمي كل ليبراليكم في السجن! - واستدار، أخيراً، بكل وجهه وجسمه، نحو فوستوف وقال بصوت ما بين التشكي والسخرية.

- ما أود أن أرجوه منك، يا ألكسندر دافيديتش... هو أن ترد عجوزي إلى العقل على نحو ما، أليس ذلك ممكناً... وأنتما تعزفان الثنائي سوية... إنه يعطيني خمسة وعشرين روبلاً في الشهر... اي مبلغ هذا؟ لا يكفي حتى للتبغ. وبعدها يقول: لا تستدن! وددت لو أضعه في مكاني، لأرى كيف سيتصرف! أنا لا أتلقى معاشاً مثل الآخرين (نطق فيكتور الكلمة الأخيرة بتشديد خاص). وأنا أعرف أن له فلوساً كثيرة. ولا حاجة إلى إلى أن يتمسكن معي، فأنا لن أخدع... مستحيل! وغناه غير مشروع أيضاً... حذاقة!

نظر فوستوف إل فيكتور من مؤخر عينه، وقال:

- أعتقد أنني سأتحدث إلى أبيك. وإذا شئت، استطعت في الوقت الحاضر... أن أمدّك... بمبلغ صغير...

- لا، وكيف هذا؟ الأفضل أن تجعل العجوز ألطف... على العموم - أضاف فيكتور، وقد حك أنفه بأصابعه كلها - أعطني، إذا تقدر، خمسة وعشرين روبلاً... نسيت، كم أنا مدين لك؟

- استدنت مني خمسة وثمانين روبلاً - نعم... يعني... سأكون مديناً لك بمائة وعشرة روبلات. سأسددها بالمجموع.

خرج فوستوف إلى غرفة أخرى، وجاء بورقة نقدية من فئة الخمسة والعشرين روبلاً، وأعطاها لفيكتور صامتاً. تناولها هذا، وتثاءب بكل فمه، وجأر دون أن يغلقه «شكراً»، ونهض من الأريكة متمطياً متلوياً. دمدم:

– فوا على أية حال... ضجر... حبذا السفر إلى «إيطاليا».

واتجه نحو الباب.

نظر فوستوف في أثره. وبدا وكأنه يصارع نفسه. وسأل أخيراً:

– عن أي معاش تحدثت قبل حين، يا فيكتور إيفانيتش؟

توقف فيكتور عند العتبة، ولبس قبعته.

– ألا تعرف؟ معاش سوسانا أيفانوفنا... هي التي تحصل عليه. إنها نادرة في منتهى الطرافة! سأقصها عليك في يوم ما. قضايا، يا عزيز، قضايا! ولكنِ لا تنس العجوز أرجوك. جلده سميك، بالطبع، ألماني، وبدباغة روسية فضلاً عن ذلك. ومع ذلك يمكن التأثير فيه. فقط ألا تعرف اليونورا، زوجة أبي، بذلك! أبي يخاف منها. وهي لا تجهد إلا لصالح أولادها. ولكنك دبلوماسي وتعرف الأصول. وداعاً!

هتف فوستوف حالماً أغلق الباب:

– أي قذارة هذا الصبي!

وكان وجهه متوهجاً، وكأنما بفعل نار، فأشاحه عني. ولم اعمد أنا إلى سؤاله، وانصرفت بعد قليل.

– ١٢ –

قضيت ذلك اليوم بطوله في التفكير في فوستوف، وسوسانا، وفي أقاربها. وتراءى لي ما يشبه مأساة عائلية. وحسب ما قدَّرته في ذهني، لم يكن صديقي بلا عاطفة نحو سوسانا. ولكن كيف هي؟ أكانت تحبه؟ ولماذا كانت تبدو بائسة بهذه الدرجة؟ وبشكل عام أي مخلوق هي؟ ظلَّت هذه الأسئلة تتوارد على ذهني، بلا انقطاع. وكان شعور غامض وقوي يقول لي إنه من أجل الإجابة عنها لا ينبغي طرح الأسئلة على فوستوف. وانتهى الأمر بي إلى أن أتوجه في اليوم التالي إلى بيت السيد راتش لوحدي.

أحسست بخجل شديد وحراجة حالما وجدت نفسي في ذلك الرواق الصغير. ومرق في ذهني «أظنها لا تظهر، وسأضطر إلى مجالسة المحارب القديم المضجر وزوجته الطباخة... وحتى لو ظهرت في آخر الأمر، فماذا

سأحصل من هذا؟ بل ولن أظفر منها بكلمة... فقد عاملتني بجفاء شديد، حينذاك. فلماذا جئت؟» وبينما كنت أدير في ذهني كل ذلك، والخادم قد ذهب ليعلن عن حضوري، سمعت شحطة نعال ثقيلة في الحجرة المجاورة، وبعد سؤالين أو ثلاثة أسئلة متحيِّرة: «مَنْ هو؟ ماذا تقول، مَنْ؟» انفتح الباب قليلاً، وطلع، في الفتحة بين ضلفتي الباب، وجه إيفان دميانيتش، وجه أشعث الشعر، مكفهر الأسارير. تفرَّسِ فيَّ، و لم تتغير مسحته في الحال... والظاهر أن السيد راتش لم يعرفني فوراً، إلا أن خديه تدوَّرا فجأة، وتقلَّصت عيناه، وانفلت من فمه الفاغر هتاف دهشة مع الضحكة:

- آه، عزيزي المبجل! أهذا أنت؟ على الرحب والسعة!

سرت وراءه على مضض شديد لإحساسي بأن السيد راتش الحفي المرح هذا يلعنني في سره. ولكن لم تكن لي حيلة أخرى. فادني إلى حجرة الجلوس وإذا بي أرى سوسانا جالسة فيها إلى الطاولة أمام دفتر الدخولات والمصروفات. حدجتني بعينيها الواجمتين، وعضَّت قليلاً على أظافر أصابع يدها اليسرى... وتلك عادة لها، كما لاحظت، وهي عادة يتصف بها العصبيون من الناس. و لم يكن في الحجرة أحد غيرها.

- هكذا، يا حضرة - قال السيد راتش، وضرب فخذه - وجدتنا أنا وسوسانا إيفانوفنا منخرطين بهذا العمل، نشتغل بالحسابات. زوجتي ليست قوية في «الحساب» وأنا أحافظ على بصري، واعترف لك بذلك. ولا أستطيع القراءة بدون نظارات، فماذا أفعل، إذا سمحت وقلت لي؟ فلتعمل الشبيبة، إذن، ها، ها! هذا ما يقتضيه النظام. على العموم، ليس الأمر مستعجلاً... الاستعجال، الإضحاك، صيد البراغث، ها، ها!

أغلقت سوسانا الدفتر، وهمَّت بالانصراف، إلا أن السيد راتش عاجلها:

- على مهلك، على مهلك، ليس مصيبة ألا تكوني متزينة... (كانت سوسانا ترتدي ثوباً قديماً جداً، للأطفال تقريباً، له كُمَّان قصيران). ضيفنا العزيز لا يؤاخذ، أما أنا فعلي أن انهي حساب الأسبوع الذي سبق الماضي... - وخاطبني قائلاً: - هل تسمح، ها؟ فنحن معك لا نتقيد بالشكليات.

هتفت:

- اعمل معروفاً، ولا تقلق نفسك.

- بالضبط، يا عزيز المبّجل. أنت تعرف قول المرحوم صاحب الجلالة الكسي ميخائيلوفيتش رومانوف: «للجد ساعة وللهو دقيقة!». بينما نحن نكرّس للجد دقيقة... ها، ها! أية ثلاثة عشر روبلاً وثلاثين كوبيكاً هذه؟

أضاف الجملة الأخيرة بصوت خافض، وقد أدار لي ظهره. فردَّت سوسانا بنفس الصوت الخافض:

- أخذها فيكتور من اليونورا كاربوفنا. وقال إنك سمحت له بذلك.

تمتم إيفان دميانيتش:

- قال... قال... سمحت... أظن إنني كنت موجوداً هنا. وكان من الممكن أن تسألوني. ثم هذه السبعة عشر روبلاً إلى من ذهبت؟

- إلى صانع الموبيليات.

- نعم... صانع الموبيليات. ولأي شيء؟

- بموجب وصل.

- بموجب وصل. اريني! - وانتزع الدفتر من سوسانا، وحط على أنفه نظارة مدوَّرة ذات إطار فضي، وأخذ يمرر أصبعه على السطور. - لصانع الموبيليات... لصانع الموبيليات... ليس لكم هم غير إخراج الفلوس من البيت... وأنتم مسرورون! Wi die Croaten [1]. بموجب وصل! وعلى العموم - أضاف بصوت عال، وأدار وجهه نحوي ثانية، ورفع نظارته من أنفه - ما هذا الذي أفعله؟ يمكن الانشغال في هذه التوافه، فيما بعد أيضاً. أرجوك، يا سوسانا إيفانوفنا ضعي هذه الحسابات في مكانها، وعودي إلينا، من فضلك، لتشنفي سمع ضيفنا الكريم بآلتك الموسيقية، أعني بالعزف على البيانو.

أدارت سوسانا رأسها إلى ناحية. فأسرعت أقول:

- سأكون سعيداً جداً. يسرني كثيراً أن اسمع عزف سوسانا إيفانوفنا. ولكنني لا أريد إزعاجها في كل الأحوال...

١- كالكرواتيين! (بالألمانية في الأصل). - الناشر.

– لا ازعـاج، على الإطـلاق! هيا، سوسانا إيفانوفنا، eins، zwei، drei! [1]

لم تجب سوسانا بشيء، وخرجت من الغرفة.

– ١٣ –

لم أتوقع عودتها، ولكنها سرعان ما عادت، وحتى ثوبها لم تغيِّره. انكمشت في زاوية، وأمعنت نظرها فيَّ مرتين أو نحوهما. ولا أدري هل كانت تشعر في معاملتي لها بذلك الاحترام اللاإرادي، وغير القابل للتفسير بالنسبة لي أيضاً، بذلك الاحترام الذي هو أكثر من الفضول، بل وحتى أكثر من التعاطف الذي آثارته فيَّ، أم كانت في مزاج ناعم في ذلك اليوم، ولكنها تقدَّمت من البيانو فجأة، ووضعت يدها على مفاتيحه بتردد، دفعت رأسها إلى الوراء قليلاً، عبر كتفها، إلى الناحية التي كنت فيها، وسألتني ماذا أريد أن تعرف لي؟ وقبل أن يتسنى لي الوقت لأرد عليها، جلست، وتناولت النوطات وبسطتها على عجل، وأخذت تعزف. وكنت أهوى الموسيقى منذ طفولتي، ولكنني كنت في ذلك الحين افهمها بشكل سيء، وكنت قليل الاطلاع على أعمال المبدعين العظام، ولو لم يدمدم السيد راتش، في شيء من الضيق: Aha! Wieder dieser beethove! [2] لما عرفت ما اختارته سوسانا لعزفها. وقد عرفت فيما بعد أنه كان، سوناته فا – مول، opus ٥٧ [3]. وقد بهرني عزف سوسانا بشكل لا يوصف: لم أكن انتظر مثل هذا العنفوان، مثل هذه النار، مثل هذه الضربات الجريئة. ومنذ الفواصل الأولى من الحركة allegro المندفعة الجياشة، منذ بداية السوناته أحسست بذلك الانصعاق، بتلك البرودة، والرعب الحلو لنشوة الفرح تستولي على روحي فجأة، حين يغمرها الجمال بفيض فجائي. و لم احرك أية جارحة من جوارحي حتى نهاية السوناته. وكنت طوال الوقت أريد أن أتنفس، ولكن لم أجرؤ. وصادف أن كان جلوسي وراء سوسانا، فلم استطع رؤية وجهها، و لم أر غير خصلات شعرها الداكنة الطويلة تقفز من حين لآخر،

١– واحد، اثنان، ثلاثة! (بالألمانية في الأصل). – **الناشر**.

٢– آها، بتهوفن، مرة أخرى! (بالألمانية في الأصل). – **الناشر**.

٣– سوناته بيتهوفن «اباسيوناته» (١٨٠٤).

وتضرب كتفيها، وقواها يهتز بضربات، ويديها الرقيقتين ومرفقيها العاريين تتحرك بسرعة وبشيء من اللهوجة. وتلاشت النغمات الأخيرة. فتنهدت آخر الأمر. وبقيت سوسانا جالسة وراء البيانو.

قال السيد راتش الذي كان يصغي بانتباه أيضاً:

– Ja، ja، romantische Musik![1] وهذا في الموضة، اليوم. ولكن لم هذا العزف غير الصافي! ها؟ أصبع واحدة على نوطتين دفعة واحدة. لماذا؟ ها؟ نعم، تريد أن تنهي العزف بأسرع وقت ممكن. فيصير العزف أكثر حرارة! ها؟ فطائر حارة! – صاح كالبائع المتجول.

استدارت سوسانا نحو السيد راتش قليلاً، ورأيت جانب وجهها. وارتفع الحاجب الدقيق عالياً فوق الجفن المسبل، وسرت على الخد حمرة عكرة، واحمرَّت الأذن الصغيرة تحت خصلة شعر مرفوعة.

ومضى السيد راتش يقول وقد تعبَّس فجأة:

– سمعت كل العازفين البارعين الأجاود بإذني. وكلهم إزاء المرحوم فيلد[2] قشة! صفر! زيرز! Das war ein Kerl! Und ein so reines Spiel![3] تكويناته رائعة للغاية! بينما كل هذه الأنغام الجديدة «تلو – تو – تو» و«ترا – تا – تا» مكتوبة للتلاميذ كما افترض على الأكثر. Da braucht man Keine Delicatesse![4] لك أن تضرب على المفاتيح، حسبما اتفق... ولا تخف! سيخرج شيء ما. Janitscharen Music![5] ، بفه! (ومسح

١– نعم، نعم، موسيقى! (بالألمانية في الأصل). – الناشر.

٢– فيلد (Fueld) جون (١٧٨٢ ـــ ١٨٣٧) عازف بيانو ايرلندي ماهر، ومربّ، ومؤلف موسيقي. عاش في روسيا منذ عام ١٨٠٢، وكان يدرّس الموسيقى في موسكو وبطرسبورغ، ويقيم الحفلات الموسيقية في أوروبا الغربية. وقد اخطأ تورغينيف هنا، إذ إن جون فيلد توفي عام ١٨٣٧.

٣– هذا كان شاطراً! واي عزف صاف! (بالألمانية في الأصل). – الناشر.

٤– لا حاجة هنا إلى نواعم معينة (بالألمانية في الأصل). – الناشر.

٥– موسيقى يانكشارية! (بالألمانية في الأصل). – الناشر.

إيفان دميانيتش جبينه بمنديله). بالمناسبة، أنا لا أقول ذلك بخصوصك، سوسانا إيفانوفنا. لقد كان عزفك جيداً، ولا ينبغي أن تؤذيك ملاحظاتي.

قالت سوسانا بصوت خافت، وقد ارتعشت شفتاها:

– لكل ذوقه. وأنت تعرف، يا إيفان دميانيتش أن ملاحظاتك لا تستطيع أن تؤذيني.

– أوه، بالطبع! – وخاطبني قائلاً: – فقط لا تتصور، أرجو أن لا تتصور، يا حضرة المحترم، أن ذلك يحدث من فرط طيبتنا، وسماحتنا النفسية المزعومة، بل بمجرد إنني وسوسانا إيفانوفنا نتخيل أنفسنا رفيعين جداً، أوه! حتى القبعة تسقط من الرأس، كما يقال بالروسية، ولا يمكن أن ينالنا أي نقد. إنه حب الذات، يا حضرة المحترم، حب الذات! أوصلنا إلى هذا الحد، نعم، نعم!

أصغيت إلى راتش تخامرني الدهشة. أن صفراوية، صفراوية سامة كانت تقطر من كل كلمة من كلماته... ومنذ زمن بعيد كانت تتجمع! وقد خنقت روحه. حاول أن يختم خطبه الرنانة بضحكته المعتادة، فإذا به يسعل بتشنج وحشرجة. ولم تفه سوسانا بأية كلمة في الرد عليه، سوى أنها هزَّت رأسها، ورفعت وجهها، وأمسكت كوعيها بيديها الاثنتين، وحدّقت فيه متفرِّسة. واشتعلت أعماق عينيها الجامدتين المتسعتين ببغضاء قديمة العهد، وكأنها تشتعل بنار غامضة لا تخمد. وتوجستُ خيفةً.

– أنتما من جيلين موسيقيين مختلفين – قلت بعفوية مكرهة، راغباً أن افهمهما بها إنني لا ألحظ شيئاً – ولهذا لا غرابة في أن تختلفا في الرأي... ولكن، يا إيفان دميانيتش، اسمح لي أن أكون في جانب... الجيل الأكثر شباباً. أنا رجل جاهل، بالطبع، ولكنني اعترف لك بأن أي شيء في الموسيقى لم يترك فيَّ حتى الآن الأثر الذي تركه... ما عزفته سوسانا إيفانوفنا لنا قبل لحظات.

وإذا براتش يهجم عليَّ فجأة، صارخاً، وهو ما يزال محمراً من السعال بكليته.

– ولماذا تفترض أننا نريد أن نستميلك إلى معسكرنا؟ (وقد نطق

كلمة معسكر بالألمانية). لسنات بحاجة إلى ذلك على الإطلاق، باردزو دزينكويم[1]. الحرية للحر، والنجاة للناجي! أما بخصوص الجيلين، فهذا صحيح: من الصعب، من الصعب جداً علينا، نحن الشيوخ، أن نعيش معكم، أنتم الشبان! مفاهيمنا لا تتفق بشيء، لا في الفن، ولا في الحياة، ولا حتى في الخلق. أليس صحيحاً، سوسانا إيفانوفنا؟

كشرَّت سوسانا تكشيرة ازدراء مقتضبة.

– على الأخص في الخلق، كما تقول. لا تتفق مفاهيمنا، ولا يمكن أن تتفق.

أجابت بذلك، ورفَّ شيء مخيف فوق حاجبيها، وظلت شفتاها ترتعشان قليلاً، كالسابق.

اسرع راتش يقول:

– بالطبع، بالطبع. لست فيلسوفاً. ولا أقدر أن ارتفع... هذا الارتفاع. أنا إنسان بسيط، عبد الأوهام، نعم!

مرة أخرى ضحكت سوسانا تكشيرتها الساخرة المقتضبة.

– اعتقد، يا إيفان دميانيتش، أنك أحياناً كنت تستطيع الارتفاع فوق ما يسمى بالأوهام!

– Wie so ، كيف هذا؟ أنا لا أفهمك.

– لا تفهمني؟ إلى هذا الحد تخونك الذاكرة؟

ولاح الارتباك على السيد راتش، فراح يكرر:

– أنا... أنا... أنا...

– نعم، أنت، السيد راتش.

وتبع ذلك صمت قصير. ثم قال السيد راتش:

– على العموم، اعذريني، اعذريني، كيف يمكنك أن تتجاسري بهذا الشكل...

١– شكراً جزيلاً (بالبولونية تلفظاً في الأصل). – الناشر.

وانتصبت سوسانا بكل قامتها فجأة، دون أن تنزل يديها عن كوعيها، وضغطت عليهما، محركة أصابعها عليهما، ووقفت أمام راتش. وبدا وكأنها تدعوه للنزال، وتهاجمه. وقد تغيّر وجهها فصار فجأة، في لمحة عين، جميلاً بشكل غير اعتيادي، ورهيباً، وراحت عيناها الكامدتان تلمعان لمعاناً بهيجاً بارداً، كلمعان الفولاذ، وانطبقت شفتاها اللتان كانتا ترتعشان قبل حين في خط واحد مستقيم صارم بشكل لا يلين. تحدت سوسانا راتش، ولكن هذا راح يلتهمها ببصره، كما يقال، وصمت فجأة، وتهاوى كالزكيبة، وسحب رأسه بين كتفيه، بل و لمَّ ساقيه تحته. لقد جبن المحارب القديم لعام اثني عشر، ولا مجال للشك في ذلك.

حوّلت سوسانا عينيها عنه إليَّ ببطء، وكأنما تدعوني إلى أن أكون شاهد انتصارها، وإذلال عدوها، وكشرت بسخرية للمرة الأخيرة، وخرجت من الغرفة.

بقي المحارب القديم بعض الوقت جالساً على مقعده بلا حراك، وأخيراً هزَّ نفسه، وكأنما تذكر دوره المنسي، ونهض، وضربني على كتفي، وضحك ضحكته الجهورية.

– هل رأيت؟ ها، ها، ها! حياتنا مع هذه الآنسة ليست قريبة العهد، ولحد الآن لا تستطيع أن تفهم أبداً، متى أهزل، ومتى أقول الجد! كما أنك، يا محترم، تبدو في حيرة... ها، ها، ها! يعني إنك لا تعرف العجوز راتش بعد!

فكرت مع نفسي يخامرني شي من الفزع والقرف: «لا... أنا الآن أعرفك».

– لا تعرف العجوز، لا تعرفه!

كان يردد هذه الكلمات، وهو يرافقني إلى الرواق، ويمسد عل بطنه:

– أنا إنسان صعب، عانيت المحن، ها، ها! ولكنني طيب، والله!

غادرت مدخل البيت إلى الشارع بعجالة. كنت أريد أن أتخلص من هذا الرجل الطيب، بأسرع وقت.

كنت أقول لنفسي، وأنا عائد إلى البيت: «واضح أن أحدهما يكره الآخر، كما لا مجال للشك في أنه رجل لئيم، وهي فتاة طيبة. ولكن ما الذي حدث بينهما؟ وما هو السبب في هذا التهيج الدام؟ وما معنى تلك التلميحات؟ وتلك الفورة المفاجئة! ولحجة واهية!».

في اليوم التالي تهيأت وفوستوف إلى الذهاب إلى المسرح لمشاهدة تمثيل شيبكين[1] في «المحنة من العقل». وكانت هذه الكوميديا المسرحية قد سمح لها لتوها، بعد أن شوهت مسبقاً بالحذف الذي أجرته الرقابة عليها. صفقنا كثيراً لفاموسوف، وسكالوزوب. ولا أتذكر أي ممثل قام بدور تشاتسكي[2]، ولكنني أتذكر بشكل جيد جداً أنه كان رديئاً بشكل لا يوصف منذ ظهوره في سترة الفرسان، والحذاء الطويل ذي الشراشيب، ثم في سترة فراك بلون flamme de punch [3] الشائع في ذلك الوقت، وكانت هذه السترة تليق به، مثل لياقتها ببوابنا العجوز. كما أتذكر أيضاً أن الحفلة الراقصة في الفصل الثالث أثارت أعجابنا، رغم أن من المستبعد أن يكون واحد من الناس قد قام بمثل هذه الحركات الراقصة في الواقع، في يوم من الأيام، ولكنها كانت من العادة المتبعة، وما تزال تمثل بهذا الشكل حتى يومنا هذا، على ما يبدو. وقد قفز أحد الضيوف قفزة عالية جداً، حتى أن شعره المستعار تطاير في كل الجوانب، وانفجر الجمهور بالضحك. وعندما خرجنا من المسرح التقينا فيكتور في الممر.

١- شيبكين ميخائيل (١٧٨٨-١٨٦٣) - ممثل روسي عظيم. اشتهر في تمثيل دور فاموسوف في كوميديا «المحنة من العقل» للكاتب الروسي البارز، والدبلوماسي ألكسندر غريبويدوف (١٧٩٥ - ١٨٢٩)، وفي أدوار أخرى.
وفاموسوف، وسكاليوزوف، وتشاتسكي شخصيات من «المحنة من العقل». وقد مثلت هذه الكوميديا لأول مرة في مسرح مالي (الصغير) في موسكو، في ٢٧ تشرين الثاني ١٨٣١.

٢- مثل دور تشاتسكي، ودون أي نجاح، الممثل الروسي الشهير بافل موتشالوف (١٨٠٠ - ١٨٤٨).

٣- «لهيب البونش» (بالفرنسية في الأصل). - الناشر.

لوح بذراعيه، وهتف:

– كنتما في المسرح! وكيف لم أركما؟ أنا مسرور جداً بلقياكما. ستتعشيان معي، من كل بد. هيًا، أنتما في ضيافتي!

وبدا راتش الشاب في حالة من الانفعال، بل وفي غمرة الحماس تقريباً. كانت عيناه الصغيرتان تتقلبان، وكان يكشِّر، وتظهر بقع حمر على وجهه. سأله فوستوف:

– وبأية مناسبة سارة هذا؟

– وبأية مناسبة؟ إلا تحب أن تمتع ناظريك؟

وتنحى فيكتور بنا قليلاً، وأخرج من جيب بنطاله حزمة كاملة من الأوراق النقدية الحمراء والزرقاء[1] التي كانت شائعة آنذاك، وهزها في الهواء.

بدت الدهشة على فوستوف.

– فاض بها سخاء والدك؟

ضحك فيكتور:

– وجدت من تصفه بالسخاء! وكيف يمكن هذا!... صباح اليوم وقد أملت إنك أوصيته بي خيراً، طلبت منه بعض النقود. فماذا أجابني هذا البخيل؟ يقول: «طيب، سأدفع ديونك. ومن ضمنها الخمسة والعشرون روبلاً». تسمعان: من ضمنها! لا، يا حضرة المحترم، هذا ما أكرمني به الله على تيتمي. فرصة سانحة.

غمغم فوستوف في غير اكتراث:

– سلبت أحداً؟

قطَّب فيكتور حاجبيه:

– أوه، هذا ما حصل! ربحت، ربحت باللعب مع ضابط من سلاح

١– أخذت الاوراق النقدية تصدر في روسيا منذ عام ١٦٧٩. وقد الغيت منذ الأول من كانون الثاني عام ١٨٤٩ نظراً لهبوط قيمتها الحاد واستخدام الفضة.

الفرسان. وكان قد وصل من بطرسبورغ يوم أمس لتوه. هكذا اقتضت الملابسات! وتستحق أن تحكى... ولكن المكان غير مناسب هنا... لنذهب إلى فندق «يار»[1]، إنه لا يبعد أكثر من خطوتين. قلت: أنتما في ضيافتي!

ولربما كان ينبغي أن نرفض، ولكننا سرنا دون اعتراض.

- ١٥ -

في «يار» قادونا إلى حجرة خاصة، وقدموا لنا العشاء، والشمبانيا. حكى لنا فيكتور بكل التفاصيل كيف إنه التقى في أحد البيوت الكريمة بهذا الضابط من سلاح الفرسان، اللطيف جداً، ومن عائلة طيبة، غير أنه أبله جداً، وكيف تعارفا، وكيف أن الضابط عرض عليه، على فيكتور، أن يلعب للتسلية لعبة «البلهاء» بأوراق لعب قديمة، ولقاء قروش زهيدة. وشريطة أن يلعب الضابط على فأل ولهلمينا، ويلعب فيكتور على فأله هو، وكيف أن الأمر تحول بعد ذلك إلى رهان حقيقي.

وهتف فيكتور، ونهض، وصفق بيده:

- ولكن لم يكن في جيبي غير ستة روبلات. فتصوروا!... في البداية لم أوفق تماماً... أي وضع هذا؟! ولكن الحظ ابتسم لي فيما بعد، ولا أعرف مَنْ دعا لي بالتوفيق. وتهيج الضابط، وصار يكشف أوراقه علناً. وبعد فترة قصيرة خسر سبعمائة وخمسين روبلاً! ثم أخذ يطلب الاستمرار في اللعب. ولكنني فتى صاحب تدبير، فقلت لنفسي: لا يحسن بي إساءة استغلال هذا الذي أحسن إليٍّ. تناولت قبعتي، ومشيت في حال سبيلي! والآن لا حاجة بي حتى إلى التخضع إلى العجوز، بل ويمكن استضافة رفاقي... هاي، يا رجل! زجاجة أخرى! أيها السادة، دعونا نقرع الكؤوس!

قرعنا الكؤوس مع فيكتور، ومضينا نشرب ونضحك، رغم أن قصته لم تعجبنا قط، كما أن صحبته لم تكن تروق لنا كثيراً. أخذ يتلطف، ويمزح، وباختصار، اطلق عنانه وصار أكثر قرافة. وأخيراً لاحظ فيكتور الأثر الذي كان يخلفه فينا، فتجهم وصار كلامه أكثر تقطعاً، ونظراه أشد جهامة...

١- «يار» - اسم مطعم مشهور في موسكو، في عهد ما قبل الثورة.

وأخذ يتثاءب، وأعلن أنه نعسان يريد أن ينام، وبعد أن شتم النادل بفظاظته المعهودة منه، على عدم تنظيفه الشبق بشكل جيد، اتجه نحو فوستوف فجأة، وعلى وجهه المصعر مسحة التحدي قائلاً:

– اسمع، يا ألكسندر دافيديتش، قل لي أرجوك، لماذا تزدريني؟

تلكأ صاحبي قبل أن يجد الجواب:

– وكيف ذلك؟

– نعم، إنه كذلك... أنا أشعر تماماً وأعرف إنك تزدريني، وهذا السيد (وأشار إليّ بإصبعه) يفعل ذلك أيضاً! على الأقل لو تتميزت أنت بخلق رفيع جداً، إلا أنك خاطىء، مثلنا جميعاً نحن الخطاة. بل وأسوأ. تحت السواهي... أنت تعرف المثل؟

احمّر فوستوف، وسأل:

– ماذا تريد أن تقول بذلك؟

– أقول أنني لم أعْمَ بعد، وما زلت أرى جيداً كل ما يجري أمامي. أرى مغازلاتك لأختي... وليس لي أي اعتراض على ذلك، لأن ذلك ليس من أصولي أولاً، وثانياً لأن أختي، سوسانا إيفانوفنا هي نفسها مرّت بكل الشدائد... ولكن لماذا تزدريني؟

– أنت نفسك لا تفهم ماذا يلوك لسانك! أنت سكران – قال فوستوف، وهو يتناول معطفه من الحائط – يبدو أنك ربحت فلوس أحد الحمقى باللعب، وتلفق الآن ما لا يعلمه إلا الشيطان!

بقي فيكتور راقداً على الأريكة، سوى أنه أخذ يؤرجح ساقيه المطروحتين فوق مسندها.

– ربحت! ولماذا شربت الشراب؟ فقد اشتريته بالفلوس التي ربحتها. أما التلفيق فلا حاجة لي به. ليس ذنبي أن تكون سوسانا إيفانوفنا في حياتها الماضية...

صرخ به فوستوف:

– اصمت! اصمت... وإلا...

– وإلا، ماذا؟

– ستعرف ماذا. لنذهب، يا بيتر.

– آها! – مضى فيكتور يقول – فارسنا الشهم يلوذ بالفرار. الظاهر أنه لا يريد معرفة الحقيقة! الظاهر أن الحقيقة توجعه!

– لنذهب، يا بيتر، لنذهب – كرر فوستوف، وقد فقد كلياً برودة أعصابه المعتادة، ورباطة جأشه – لنترك هذا الصبي الخبيث!

صاح فيكتور في أثرنا:

– هذا الصبي لا يخاف منكم، أسامعون؟ يحتقركم هذا الصبي، يحتقركم! أسامعون؟

سار فوستوف في الشارع بسرعة شديدة، حتى كنت إلاحقه بصعوبة. وتوقف فجأة، واستدار إلى الخلف بحركة حادة. سألت:

– إلى أين؟

– يجب أن أعرف ما إذا... هذا الأحمق... لسكره، الله يعلم ماذا... ولكن لا تأت معي... سنلتقي في الغد. إلى اللقاء!

وصافحني بعجالة، واتجه نحو فندق «يار».

في اليوم التالي لم أوفق في رؤية فوستوف، وفي اليوم الذي تلاه، عرفت، حين ذهبت إلى مسكنه، أنه سافر إلى قرية عمه، في ضواحي موسكو. سألت هل ترك مذكرة باسمي، و لم تكن هناك أية مذكرة. عند ذاك سألت الخادم، عما إذا كان يعرف كم سيمكث ألكسندر دافيديتش في القرية. فأجابني الخادم: «حوالي أسبوعين، ولربما أكثر، كما يفترض». أخذت عنوان فوستوف للحيطة، واتجهت إلى بيتي، مستغرقاً في أفكاري. أن هذا التغيب المفاجىء عن موسكو، في الشتاء، أثار حيرتي تماماً. وعلى مائدة الغداء لاحظت خالتي الطيبة أنني انتظر شيئاً، طوال الوقت، وانظر إلى الفطائر المحشوة بالكرنب، وكأنني أراها لأول مرة في حياتي. أبعدت مرافقتيها مسبقاً، وهتفت أخيراً: Pierre، vous netes pas amoureux? [1] ولكنني هدأتها قائلاً: لا، لم أقع في الحب.

١– بيير، ألم تقع في الحب؟ (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

انقضت ثلاثة أيام. راودتني رغبة قوية في أن أزور آل راتش، فقد خيل إليَّ أنني لا بد واجد في بيتهم حلاً لكل ما كان يشغل بالي من لغز، ولما لم أكن قادراً على فهمه... ولكنني كنت سأضطر إلى الإلتقاء بالمحارب القديم مرة أخرى... وكانت هذه الفكرة توقفني. وفي إحدى الأماسي السيئة الطقس، حيث كانت زوبعة من زوابع شباط تعوي وتعصف في الفناء، والثلج الجاف يضرب النوافذ من حين إلى آخر، مثل حبات رمل كبيرة تقذفها يد قوية، كنت جالساً في غرفتي أحاول أن أقرأ في كتاب. دخل خادمي، وابلغني بطريقة لا تخلو من بعض الغموض أن سيدة تريد مقابلتي. وأخذتني الدهشة... فإن السيدات لم يكنَّ يزورنني، ولا سيما في وقت متأخر كهذا. ومع ذلك طلبت أن يدخلها. فُتح الباب ودخلت بخطوات سريعة امرأة مسربلة بممطر صيفي خفيف على طول قامتها، وبشال أصفر. وبحركة حادة ألقت عنها هذا الشال وذلك الممطر المغطيين بالثلج، ورأيت سوسانا أمامي. ذهلت ذهولاً شديداً، حتى إنني لم أنطق بكلمة، فدنت هي من النافذة، وأسندت كتفها على الحائط، وجمدت بلا حراك، سوى أن صدرها كان يرتفع بارتعاص، وعيناها تهيمان، والأنفاس تفلت من شفتيها المتقعتين بتأوه خفيف. وأدركت أن محنة ليست باليسيرة قد حملتها إليَّ، أدركت رغم تهاوني وشبابي أن مصير حياة كاملة، مصيراً مريراً وقاسياً قد تقرر أمامي في تلك اللحظة.

قلت:

- سوسانا إيفانوفنا، كيف...

أمسكت يدي بأصابعها المتثلجة، إلا أن صوتها خانها. زفرت زفرة متقطعة، واطرقت برأسها، ووقعت خصلات شعرها الأسود الثقيلة على وجهها... ولم يكن نثار الثلج قد نزل عنها.

قلت ثانية:

- أرجوك، اهدئي، واجلسي هنا، على الأريكة. ما الذي حصل؟ اجلسي، رجاء.

- لا، - قالت بصوت لا يكاد يسمع، وجلست على افريز النافذة - هنا أحسن لي... اتركني... لم يكن في وسعك أن تتوقع... ولكن لو كنت تعرف... لو كنت أستطيع... لو كنت...

كانت تريد مغالبة نفسها، إلا أن الدموع انفجرت من عينيها بقوة مذهلة، وملأت الغرفة نشجات عجول لهوفة. تلوَّى قلبي في صدري... وذهلت عن نفسي. أنا لم أر سوسانا غير مرتين. وكنت أخمن أنها تجد مشكلة في حياتها، ولكنني كنت أعتبرها فتاة أنوفاً، وذات خلق صلب، وإذا بي أجابه بهذه الدموع اليائسة الجموح... يا إلهي! الناس لا يبكون هذا البكاء إلا في مواجهة الموت!

وقفت أناد كالمحكوم بالإعدام. وأخيراً قالت ماسحة هذه العين وتلك العين عدة مرات، وبما يشبه الغيظ:

- اعذرني. ستزول هذه الحال فوراً. لقد جئت إليك - وكانت ما تزال تنشج، ولكن بدون دموع - لقد جئت... أنت تعرف أن ألكسندر دافيديتش قد سافر؟

وبهذا السؤال وحده اعترفت سوسانا بكل شيء، وفي الوقت نفسه نظرت إليَّ نظرة كأنما تريد أن تقول: «أنت تفهمني، وترأف بي، أليس كذلك؟». البائسة! إذن، لم يعد لديها مخرج آخر!.

لم أعرف بماذا أجيبها... وخلال ذلك كانت سوسانا تقول:

- سافر، سافر... لقد صدَّق! لم يرغب حتى في أن يسألني. ظنَّ أنني لن أقول له الحقيقة. وكان في وسعه أن يأخذ مثل هذه الفكرة عني! كأنني خدعته في وقت ما!

وعضت شفتها السفلى، وانحنت قليلاً، وأخذت تحك بظفرها الأشكال التي كونها الجمد على زجاج النافذة. خرجت إلى الغرفة الأخرى مسرعاً، وأبعدت خادمي، وعدت على الفور، وأشعلت شمعة أخرى. ولم أعرف بالضبط لماذا فعلت كل ذلك... فقد كنت مرتبكاً جداً.

كانت سوسانا على جلستها السابقة على إفريز النافذة، وهنا فقط لاحظت كم خفيفة ملابسها: ثوب رمادي ذو أزرار بيضاء، وحزام جلدي

عريض، ولا غير. اقتربت منها، ولكنها لم تعرني التفاتاً. كانت تهمس، وهي تتمايل قليلاً من جانب إلى آخر:

– صدّق... صدق. ولم يخامره شك، ووجّه هذه... هذه الضربة الأخيرة! – وفجأة استدرات نحوي – هل تعرف عنوانه؟

– نعم، سوسانا إيفانوفنا... عرفته من خدامه... عنده في البيت. لم يقل لي بنفسه ما نواه. يومين لم أره، فذهبت للاستفسار، وإذا به قد غادر موسكو.

كررت:

– هل تعرف عنوانه؟ طيب، أكتب له أنه قتلني. أنا أعرف أنك إنسان طيب. لا أحسب أنه كان يحدثك عني، بينما كان يحدثني عنك. أكتب... له أن يعود بأقرب وقت، إذا كان ما يزال راغباً في أن يراني حية!... ولكن لا! إنه لن يجدني على قيد الحياة.

وكان صوت سوسانا يهدأ مع كل كلمة، وهي بكليتها قد هدأت. ولكن هذا الهدوء بدا لي أكثر روعة من النشيج الذي سمعته منها قبل حين.

– صدِّق به...

قالت مرة أخرى، وهي تسند حنكها على ذراعيها المطويتين.

وفجأة قرعت النافذةَ خفقة ريح مفاجئة بصفير حاد ولطمة ثلج، وسرى في الغرفة تيار بارد من الهواء... تمايل لهيب الشمعتين... وجفلت سوسانا.

رجوتها مرة أخرى أم تجلس على الأريكة. ردَّت:

– لا، لا، اتركني. أنا مرتاحة هنا، أرجوك – وانضغطت على الزجاج المتجمِّد، وكأنما وجدت في كوة النافذة وكناً لها – أرجوك.

هتفت:

– ولكنك ترتجفين، بردت. انظري إلى حذاءك كيف تبلل تماماً.

– أتركني... أرجوك.

همست بذلك، وأغمضت عينيها.

وتملكني الرعب.

قلت بما يقرب من الصياح:

– سوسانا إيفانوفنا! تمالكي نفسك، أرجوك! ماذا حدث لك؟ لا حاجة إلى كل هذا القنوط! سترين أن كل شيء سيتوضح، لا بد أن هناك سوء تفاهم... مصادفة غير متوقعة... سترين إنه سيعود سريعاً. سأعلمه، واكتب له اليوم... ولكنني لن أعيد له كلماتك... كيف يمكن!

قالت سوسانا بنفس الصوت الهادىء:

– لن يجدني على قيد الحياة. هل معقول أنني كنت سآتي إليك، وأنت الإنسان الغريب، إذا لم أكن أعرف أنني لن أبقى حية؟ آه، كل ما تبقى لي ذهب بدون رجعة! لذلك ما كنت أريد أن أموت بهذا الشكل، وحيدة، وفي صمت، دون أن أقول لأحد «إنني خسرت كل شيء... وها أنا أموت... فانظروا!».

وانزوت ثانية في رُكنها البارد... ولن انسى، إلى الأبد، ذلك الرأس، وتينك العينين الجامدتين بنظرتهما العميقة المنطفئة، وذلك الشعر الداكن المتناثر على زجاج النافذة الباهت، وذلك الثوب الرمادي الضيق الذي كانت الحياة الفتية الحارة ما تزال تخفق تحت كل طية من طياته.

ووجدت نفسي أصفق يداً بيد.

– الموت ليس لك، يا سوسانا إيفانوفنا! الحياة وحدها لك... يجب أن تعيشي!

نظرت إليًّ... بدت كلماتي، وكأنما ادهشتها.

– آه، أنت لا تعرف – قالت وأنزلت ذراعيها كليهما بهدوء – لا يحق لي أن أعيش. صادف أن كابدت الكثير، والكثير جداً، جداً! وتحملت... وكنت آمل... ولكن الآن... حين أنهار هذا أيضاً... حين...

ورفعت عينيها إلى السقف، وبدا وكأنها استغرقت مفكرة. وصار الخط المأساوي الذي لاحظته من قبل قرب شفتيها أكثر وضوحاً الآن وانتشر في كل وجهها، وكأن إصبعاً قاهرة قد جرته وخطته على هذا المخلوق الهالك، بشكل لا يمحى، وإلى الأبد.

ظلت صامته، وقلت لأحطم بشيء ما ذلك الصمت الرهيب:

- سيعود، سوسانا إيفانوفنا، أؤكد لك!

ونظرت سوسانا إليّ مرة أخرى. وقالت بجهد ظاهر:

- ماذا تقول؟

- سيعود، سوسانا إيفانوفنا، سيعود ألكسندر دافيديتش!

كررت:

- يعود؟ وحتى إذا عاد، لا أستطيع أن أغفر له هذه الإهانة، عدم الثقة هذا...

- يا إلهي! يا إلهي! ما هو الذي أقوله؟ و لَمَ أنا هنا؟ ما هذا؟ وماذا؟... ماذا جئت اطلب... وممن؟ سأفقد صوابي!...

وجمدت عيناها. وأسرعت ألقنها قائلاً:

- أردت أن تطلبي مني أن أكتب لإلكسندر.

وانتفضت سوسانا.

- ولكن أكتب... أكتب ما تشاء... وهذا... - ونبشت في جيبها بعجلة، وأخرجت دفتراً صغيراً - هذا كتبته له... قبيل هروبه... ولكنه صدَّق... صدَّق ذاك!

كنت افهم أنها تشير بذلك إلى فيكتور، و لم ترد سوسانا تسميته، لم ترد أن تنطق باسمه الكريه.

قلت:

- على أية حال، اسمحي لي، سوسانا إيفانوفنا. لماذا تتصورين أن ألكسندر دافيديتش تحدث... مع ذلك الرجل؟

- لماذا؟ لماذا؟ لأن هذا نفسه جاء إليّ، وروى لي كل شيء، وتباهى... وضحك مثلما يفعل أبوه! هاك، خذ - مضت تقول، وهي تدس الدفتر في يدي - اقرأه، أرسله له، أحرقه، أرمه، اُفعل به ما تشاء وكيفما تشاء... ولكن لا يجوز أن أموت، دون أن يعرف أحد... والآن حان الوقت... يجب أن أذهب.

ونهضت من إفريز النافذة... أوقفتها.

- إلى أين، سوسانا إيفانوفنا، رحماك! اسمعي أية زوبعة ثلجية تعول! وأنت خفيفة الملابس بهذا الشكل... وبيتك ليس قريباً من هنا. اسمحي لي على الأقل أن ارسل في طلب عربة، حوذي...

- لا حاجة، لا حاجة إلى أي شيء - قالت منحية إياي، وتناولت ممطرها وشالها - لا تستوقفني، بحق الرب! وإلا فلن أكون مسؤولة عن أي شيء! أحس بهاوية، بهاوية مظلمة عند قدميَّ... لا تقترب! لا تمسني! - وارتدت ممطرها، وألقت عليها شالها بعجالة محمومة - وداعاً... وداعاً... أوه، يا جيلي، جيلي المسكين، جيل الجوّالين الأبديين، اللعنة عليك! ولكن لم يحبني أحد، فبأي حق يأخذ عليَّ... - وصمتت فجأة - لا، أحبني شخص واحد - عادت تقول ثانية، طاوية ذراعيها - ولكن الموت في كل مكان، الموت المحتوم في كل مكان! الآن جاء دوري... لا تلحقني - صاحت صيحة مرنة - لا تلحق! لا تلحق!

جمدت مصعوقاً، وانطلقت هي خارجة، وبعد برهة سمعت الباب الثقيل المفضي إلى الشارع يصطفق في الأسفل، وارتجت أطر النوافذ من جديد تحت ضغط العاصفة الثلجية.

و لم أفق على نفسي سريعاً. وكنت قد بدأت آنذاك أعيش لتوي، لم أشعر بهوى ولا بشجن، ونادراً ما كنت أرى كيف تظهر هذه العواطف القوية لدى الآخرين... ولكنني ذُهِلت من صدق هذا الشجن، وهذا الهوى. ولولا ذلك الدفتر الصغير في يدي لكان من الممكن، بالفعل، أن اتصور أن كل ذلك كان يتراءى لي في الحلم، إلى هذا الحد كان كل شيء غير اعتيادي ومرَّ مسرعاً كزخة مطر لزوبعة خاطفة. ظللت اقرأ هذا الدفتر إلى منتصف الليل. وكان يتألف من بضع صفحات من الأوراق البريدية مملوءة كلها بكتابات بخط كبير وغير سليم، وبلا تصحيحات تقريباً. وما من سطر مستقيم فيها، حتى ليحس المرء وكأن اليد التي كانت تمسك بالريشة ترتجف ارتجافة فزع، وهذا ما كان مكتوباً في الدفتر (لقد احتفظت به حتى الآن).

- ١٧ -

قصتي

في هذه السنة سأتجاوز الثامنة والعشرين. وهذه ذكرياتي الأولى:

كنت أعيش في ولاية تامبوف. عند مالك أراضٍ ثري، هو إيفان ماتفييتش كولتوفسكي، وفي حجرة صغيرة في الطابق الثاني من بيته القروي. ومعي تقيم أمي، اليهودية، زوجة رسام متوفى استقدم من الخارج. وهي امرأة معتلة الصحة ذات وجه جميل جمالاً غير اعتيادي، شديد الشحوب كالشمع، وعينين حزينتين إلى حد أنها ما أن تتمعن فيَّ طويلاً، حتى أشعر حتماً، ودون أن انظر إليها، بتلك النظرة الحزينة، الحزينة، وانخرط بالبكاء، وارتمي لاحتضنها. وكان المعلمون يأتون إليَّ يعلمونني الموسيقى، ويسمونني بالسيدة. وأنا آكل على مائدة السادة مع أمي. والسيد كولتوفسكي عجوز طويل القامة ذو قيافة مهيبة، يفوح منه شذى العنبر دائماً. وأنا أخشاه كما أخشى الموت، رغم أنه يسمينس Suzon ، ويدعني أقبل يده المعروقة الجاسية من خلال الكم المدنتل. وهو مع أمي مهذب بحذلقة، ولكنه قليل الحديث معها. يقول لها كلمتين أو ثلاث كلمات ودية ترد عليها في الحال، وبعجالة. يقولها ويصمت، ويجلس يتمعن فيما حوله بعظمة، مقلباً ببطء قبضة من التبغ الإسباني[1] في علبة نشوق ذهبية مدورة عليها طغراء الإمبراطورة يكاترينا[2].

بقيت السنة التاسعة من عمري عالقة في ذاكرتي إلى الأبد... عرفت آنذاك عن طريق الوصيفات في غرفة الخادمات أن إيفان ماتفييتش كولتوفسكي هو أبي، وفي نفس اليوم تقريباً، تزوجت أمي، حسب أمره، بالسيد راتش الذي كان عنده كمدير أعماله. و لم استذع أن أفهم قط كيف يمكن هذا، وتملكتني الحيرة، وكدت أقع صريعة المرض، واعتل رأسي، وتشربك ذهني، سألتها: «هل صحيح، يا ماما، هل صحيح أن هذا البعبع المعطر (بذلك كنت اسمي إيفان ماتفييتش) هو أبي؟» ارتعبت أمي للغاية، وكمت فمي... وقالت بصوت مرتعش، وهي تضم رأسي إلى صدرها بشدة: «لا تقولي هذا لأحد

١- والتبغ الإسباني - تبغ غال من جزر الهند الشرقية الإسبانية.

٢- يكاترينا الثانية (١٧٢٩ - ١٧٩٦) امبراطورة روسية منذ عام ١٧٦٢.

أبداً، أتسمعين، سوسانا، تسمعين، ولا كلمة!...». وبالفعل لم أتحدث بذلك إلى أي إنسان... فقد فهمت أمر أمي هذا... فهمت إنني يجب أن أصمت، وأن أمي كانت تطلب مني الغفران!

عند ذاك بدأ بؤسي. كان السيد راتش لا يحب أمي، ولا كانت هي تحبه. وقد تزوجها من أجل النقود، وكان عليها أن تذعن. ولعل السيد كولتوفسكي وجد أن كل شيء قد سُوي إلى الأحسن، بهذه الطريقة la position était régularisée [1]. أتذكر عشية الزفاف أن أمي وأنا - كلتينا - ظللنا نبكي متعانقتين طوال الصباح كله تقريباً، نبكي بمرارة شديدة، وبصمت. ولا غرابة في أن تلتزم أمي الصمت... فماذا كان بوسعها أن تقول لي؟ أما كوني لم أسألها، فلا يدل إلا على أن الأطفال البائسين يصبحون أكثر ذكاء بسرعة أكبر من الأطفال السعداء... لبؤسهم.

ظل السيد كولتوفسكي يتعهد تربيتي، بل وقربني شيئاً فشيئاً من شخصه... كان لا يتحدث معي... لكنه بعد أن ينفض بإصبعيه ذرات التبغ الدقيق من طوق القماش المحيط برقبته، كان يربت في الصباح وفي المساء على خدي بتينك الإصبعين الباردتين كالثلج، ويعطيني قطع حلوى داكنة، مضمخة بشذى العنبر أيضاً، لم آكلها أبداً. وفي الثاني عشر من عمر صرت قارئته. sa petite lectrice [2]. كنت اقرأ عليه مؤلفات فرنسية من القرن الماضي، ومذكرات سان - سيمون، ومابلي، ورينال، وهيلفيتوس، ومكاتبات فولتير، والموسوعيين [3]، دون أن أفهم شيئاً بالطبع،

١- «حُسِم الأمر» (بالفرنسية في الأصل). - الناشر.

٢- «قارئته الصغيرة» (بالفرنسية في الأصل). - الناشر.

٣- المقصود بذلك الأدباء الفرنسيون لعهد التنوير. والدوق سان سيمون (Saint-Simon), دي ريفروا (١٦٧٥ - ١٧٥٥) شخصية سياسية وكاتب، وقد صودرت مذكراته في عهد لويس الخامس عشر لاتجاهها المعادي للحكم المطلق. ومابلي (Mably) جابرييل - بونو دي (١٧٠٩ - ١٧٨٥) مؤرخ انتقد الكنيسة والحكم المطلق بشدة، وهيلفيتوس (Helvetius) كلود ادريان (١٧١٥ - ١٧٧١) فيلسوف فرنسي مادي، ومؤلف اطروحتين شهيرتين «عن العقل» و«عن الإنسان وقابلياته الذهنية وتربيته».

لم أفهم حتى حين يأمرني مكشراً عن أسنانه، مغمضاً عينيه: relire ce dernier paragraphe، qui est bien remarquable![1] كان إيفان ماتفييتش فرنسياً كلياً. وكان يعيش في باريس قبل الثورة[2]، ويتذكر ماري انطوانيت[3]، وقد تلقى دعوة لزيارتها في ترابنون[4]، بل ورأى ميرابو[5] كان يستخدم، على حد تعبيره، أزراراً كبيرة جداً – exagére en tout[6] – وكان، بشكل عام، رجلاً سيء الذوق – en dépit de sa naissance![7]. وعلى العموم كان إيفان ماتفييتش نادراً ما يتحدث عن تلك العهود، ولكنه كان يلقي مرتين أو ثلاث مرات في العام، ما ارتجله ذات مرة في أمسية عند الدوقة بولينياك[8]، كان يلقيه بصوته الأخن البطيء على المهاجر العجوز

وفولتير (Voltaire)، والاسم الحقيقي ماري فرانسوا ارويه (Aroue) (١٦٩٤ – ١٧٧٨) هو الكاتب الفرنسي العظيم، والفيلسوف المنوّر. لعب دوراً جباراً في التحضير الفكري للثورة الفرنسية الكبرى، وتطوير الفكر الاجتماعي الفلسفي العالمي، بما فيه الفكر الروسي. والموسوعيون هم الكتّاب والعلماء، والفلاسفة الذين تجمعوا حول اصدار «الموسوعة، أو المعجم التفسيري للعلوم والفنون والحرف» د. ديدرو.

١– اقرئي مرة أخرى الفقرة الأخيرة الرائعة للغاية! (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

٢– يقصد بها الثورة الفرنسية الكبرى ١٧٨٩ – ١٧٩٤.

٣– ماريا انطوانيت (Marie Antounette) – الملكة زوجة لويس السادس عشر. وكان الترف الذي تعيش فيه يبهر السياح. وكانت تساند كل المؤامرات المعادية للثورة منذ بداية الثورة الفرنسية الكبرى. وقد اعدمت عام ١٧٩٣ بحكم اصدرته المحكمة الثورية.

٤– جناح في منتزه فرساي، قصر ملوك فرنسا في ضواحي باريس.

٥– ميرابو اونوره غبرايل – ريكيتي (١٧٤٩ – ١٧٩١) كونت، ورجل مقرب من بلاط لويس السادس عشر. صار احد الشخصيات الكبرى في الثورة الفرنسية الكبرى.

٦– «مبالغاً في كل شيء» (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

٧– رغم أصله (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

٨– كانت ايولانتا – مارتينا – غابرييلا بولاسترون، ادوقة دي بولينياك الوصيفة الكبرى لماريا انطوانيت...

الأعور الذي كان يعيش عالة عليه والذي كان يسميه، لسبب غير معروف بـ «M. le Commandeur»[1]. وأنا لا أذكر غير البيتين الأولين... (كان الأمر يتعلق بالمقارنة بين الروس والفرنسيين):

Laigle se plait aux régions austeres‹ Où le ramier ne saurait habiter...[2]

فكان M. le Commandeur يهتف في كل مرة:

– Digne de M. de Saint Aulaire[3].[4]

وظل إيفان ماتفييتش، إلى آخر عمره، يبدو فتي المظهر. كانت وجنتاه حمراوين، وأسنانه بيضاء، وحاجباه كثيفين ثابتين، متقلب الأطوار مطلقاً، وكان يعامل الجميع، وحتى الخدم، باحترام شديد... ولكن، يا إلهي! كم كان ثقيلاً على نفسي، وما أشد فرحتي، حين ابتعد عنه، وكم من أفكار سيئة كانت تعتمل في نفسي بحضوره! آه، لم أكن مذنبة في آثارتها!... أنا لست مذنبة فيما جعلوا مني...

خُصص للسيد راتش، بعد الزواج، جناح غير بعيد عن بيت السادة. وكنت أعيش فيه مع أمي. ولم تسعدني الحياة هناك أيضاً. وسرعان ما ولدت أمي طفلاً، هو فيكتور الذي يحق لي أن اعتبره واسميه عدوي. منذ ولادته لم تتحسن صحة أمي التي كانت ضعيفة من قبل أيضاً. في ذلك الوقت لم يجد السيد راتش من الضروري أن يظهر روح المرح التي يبديها الآن. كان دائماً جهم الأسارير، يحاول أن يُعرف عنه بأنه رجل عمل. كان فظاً قاسياً معي. كنت اشعر بالارتياح، حين ابتعد عن إيفان ماتفييتش، ولكنني كنت أضجر

١- السيد الكوماندور (بالفرنسية في الأصل). - الناشر.

٢- تروق للنسر المناطق القاسية، حيث لا تستطيع الحمامة البرية أن تعيش فيها.. (بالفرنسية في الأصل). - الناشر.

٣- لائقة بالسيد دي سانت أولير! (بالفرنسية في الأصل). - الناشر.

٤- فرانسوا - جوزيف سان اولير (١٦٤٣ - ١٧٤٢) - عضو اكاديمية العلوم الفرنسية، وشاعر ذو شهرة كبيرة في الوسط الارستقراطي، كان مشهوراً في تنظيمه الحفلات الراقصة للطبقة الراقية، وفي تأليفه الارتجاليات الأنيقة.

من مسكني أيضاً... ما اتعس صباي! أهيم من شاطىء إلى آخر أبداً ولا أريد أن أرسو إلى أي منهمات! أحياناً، كنت أركض عبر الفناء، على الثلج العميق في الشتاء، وليس على جسدي غير ثوب خفيف، أركض إلى بيت السادة، لأقرأ لإيفان ماتفييتش، وكأنني فرحة... وحين أصل، وأرى تلك الغرف الكبيرة الموحشة، وذاك الأثاث المريّش، وذلك العجوز الحفي والخالي من القلب في «صداره» الحريري المفكوك الأزرار، وفي طوق القماش الأبيض، ورباط أبيض والأكمام في الأصابع، و«سوبسون» البودرة (على حد قول خادمه الشخصي) على شعره المسرّح إلى الخلف، حتى تغمرني رائحة العنبر الخانقة، ويغوص قلبي. وكان إيفان ماتفييتش يجلس، على عادته، في كرسي وثير من الكراسي الفولتيرية العريضة. وعلى الحائط فوق رأسه علقت لوحة تصور امرأة شابة ذات وجه صبوح جسور الملامح، ترتدي بدلة يهودية مترفة، وقد تغطت كلياً بالأحجار الكريمة واللآليء... وكنت غالباً ما انظر إلى هذه اللوحة، ولكنني، فيما بعد فقط، عرفت أنها كانت صورة أمي رسمها أبوها بطلب من إيفان ماتفييتش. وقد تغيَّرت عن ذلك الزمن تغيراً شديداً! كان يجيد هدمها وتحطيمها! وكنت أفكر مع نفسي قائلة: «وكانت تحبه! تحب هذا العجوز! كيف يمكن هذا! أن تحبه». ومع ذلك، فحين كنت أتذكر نظرات أمي الأخرى، وتكتماتها وحركاتها اللاارادية الأخرى... كنت أوكد بفزع: «نعم، نعم، كانت تحبه!». آه، عسى الله أن لا يجعل أحداً يعاني من هذه المشاعر.

كنت اقرأ لإيفان ماتفييتش كل يوم، ثلاث ساعات أو أربعاً متتاليات أحياناً... وكان يضرُّ بي أن أقرأ بهذه الكثرة وبذلك الصوت العالي. كان طبيبنا يخشى على صدري، بل وابلغ ذلك لإيفان ماتفييتش ذات مرة. ولكن هذا اكتفى بالابتسام (أي لا: إنه لم يكن يبتسم البتة، بل يكوّر ويمط شفتيه) وقال له: Vous ne savez pas ce qu'il ya de ressources sans cette jeunesse[1]. فتجرأ الطبيب ليقول: «ولكن M. le Commandeur... كان في شفتيه مرة أخرى في سخرية: Vous revez، mon cher، le

١- أنت لا تعرف كم في العمر الفتي من قوة (بالفرنسية في الأصل). - الناشر.

commandeur n'a plus se sents et il crache à chaque mot. J'aime les voix jeunes[1].

وتابعت القراءة، رغم أنني كنت أسعل كثيراً في الصباح وفي الليل...

وأحياناً كان إيفان ماتفييتش يجبرني على العزف على البيانو. ولكن الموسيقى كانت تؤثر على أعصابه تأثير المنوِّم. فتنغلق عيناها على الفور، ويرتخي رأسه متذبذباً على الايقاع، ومن حين لآخر فقط كان يتردد: C'est du Steibelt n'est-ce pas Jouez-moi du Steibelt[2] وإيفان ماتفييتش كان يعتبر شتايبلت[3] عبقرياً عظيماً يعرف كيف يقهر في نفسه la grossière lourdeur des Allemands[4]، ويأخذ عليه شيئاً واحداً هو: Trop de fougue! Trop d'imagination![5]... وحين كان إيفان ماتفييتش يلاحظ أنني قد تعبت وراء البيانو كان يقترح عليّ du cachou de bologne[6]. وعلى هذا النحو انقضت الأيام تلو الأيام...

وذات ليلة – ليلة لا تنسى! – صعقتني فاجعة رهيبة. توفيت أمي بغتة تقريباً. وكنت قد تجاوزت الخامسة عشرة لتوي. أوه، ما أعظمها من بلية، داهمتني كزوبعة حقود! وكم أفزعتني هذه المجابهة مع الموت! يا لأمي المسكينة! كانت علاقاتنا غريبة. فقد كانت إحدانا تحب الأخرى بوله... بوله وبلا أمل. وكأن كلتينا كانت تحفظ وتخفي عن نفسها سراً مشتركاً لنا، وتصمت عنه بعناد، رغم أننا نعرف كل ما كان يجري في أعماق قلبينا! كانت أمي لا تحدثني حتى

١– أنت تهذي، يا صديقي، الكوماندور ليست له أسنان، وهو يبصق عند كل كلمة. أنا أحب الأصوات الفتية (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

٢– إنها من موسيقى شتيبلت، أليس كذلك؟ أعزفي لي شتيبلت (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

٣– دانييل شتايبلت (١٧٦٠ – ١٨٢٣) – عازف بيانو ألماني، ومؤلف موسيقي من الدرجة الثانية.

٤– ثقل الألمان الفظ (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

٥– كثير جداً من الحماس، وكثير جداً من الخيال (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

٦– «بلسم بولونيا للمعدة» (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

عن ماضيها، ماضيها البعيد، و لم تتشك قط بالكلمات، رغم أن كيانها كله كان شكاية خرساء لا غير! كنا نتحاشى أي حديث جدي بعض الشيء. آه! كنت آمل بأن الوقت سيحين، وستبوح لي أخيراً بمكنون صدرها، وسأبوح أنا أيضاً، وسيخفف ذلك مما يثقل علينا... ولكن المشاغل اليومية، والخلق المتردد المتهيب، والأمراض، ووجود السيد راتش، والشيء المهم هذا السؤال الأبدي «ولأي شيء؟»، وذلك الجريان الدائب المستمر للزمن، للحياة... كل شيء انتهى بضربة صاعقة، و لم يعد في إمكاني أن أسمع من أمي لا تلك الكلمات التي كان من الممكن أن تكشف سرنا، بل وحتى كلمات الوداع الاعتيادية قبيل الموت! و لم يبق في ذاكرتي إلا هتاف السيد راتش «سوسانا إيفانوفنا، أدخلي، أمك تريد أن تباركك!» ثم اليد الشاحبة من تحت اللحاف الثقيل، والأنفاس الموجعة، والعين الغائرة... أوه، كفى! كفى!

وفي اليوم التالي، وفي يوم الدفن كنت انظر بقدر عظيم من الفزع ومن الحنق والفضول المفجوع إلى وجه أبي... نعم إلى وجه أبي! فقد وجدت رسائله في حقة الراحلة... وخيل إليّ أنه قد شحب بعض الشيء ونحف... ولكن! لم يتحرك شيء في هذا القلب الحجري. وتماماً، كما كان يفعل من قبل استدعاني إلى غرفة مكتبه بعد أسبوع، وبنفس الصوت تماماً طلب إليّ أن أقرأ: Si vous le noulez bien، les observations sur l'Histoire de France de Mably، à la page ٧٤... là، ou nous avons êtê interrompus[1]. وحتى لم يأمر بحمل صورة أمي من غرفة مكتبه! حقاً أنه حين سمح لي بالانصراف، دعاني لاقترب منه، ومد لي يده لأقبلها مرة ثانية، قائلاً: «Suzanne، la mort de votre mére a privée de voter appui naturel; mais vous pourrez toujours compter sur ma protection»[2]. ولكنه أسرع فدفعني بيده

١- أرجوك «ملاحظات على تاريخ فرنسا» لمابلي. صفحة ٧٤... في الموضع الذي أوقفونا عنده (بالفرنسية في الأصل). - الناشر.

٢- «سوسانا، إن موت أمك حرمك من السند الطبيعي ولكنك تستطيعين دائماً أن تعتمدي على حمايتي» (بالفرنسية في الأصل). - الناشر.

الأخرى من كتفي، وأضاف بتكويره المعتاد لشفتيه Allez، mon enfant[1].
واردت أن أصيح به «ولكنك أبي!»، غير أنني لم أقل شيئاً، وخرجت.

توجهت إلى المقبرة في بكرة صباح اليوم التالي. وكان شهر إيار، حينذاك، يسطع بكل جمال أزاهيره وأوراق أشجاره، وجلست وقتاً طويلاً على القبر الطري. لم أبك، و لم أحزن. فقد كانت فكرة واحدة تدور في رأسي: «أتسمعين، يا أمي؟ إنه يريد أن يعرض حمايته عليَّ أيضاً!». وتصورت أن أمي ما كان من الممكن أن تتكدر من الإبتسامة التهكمية التي أطلت على شفتي دون إرادتي.

أحياناً أسأل نفسي: ما الذي كان يحملني على أن أرغب بإلحاح، أن أظفر... لا بالإعتراف... كة! ولو بكلمة أبوية دافئة واحدة على الأقل، من إيفان ماتفييتش؟ ألم أكن أعرف أي رجل هو، وكم هو بعيد عن تصوراتي عن الأب؟... ولكنني كنت وحيدة، وحيدة جداً على الأرض! وإلى ذلك ظلت فكرة ملحاحة تتردد عليَّ وتعذبني ولا تدعني ارتاح حين أقول لنفسي: «ولكنها كانت تحبه؟ أحبته لشيء ما؟».

مضت ثلاث سنوات أخرى، و لم يتغير شيء في حياتنا الرتيبة، المقاسة والمرسومة سلفاً. وترعرع فيكتور. وكنت أكبره بثمانية أعوام، وكان من الممكن أن أرعاه عن طيبة خاطر، إلا أن السيد راتش وقف ضد ذلك... اتخذ له مربية كان يجب عليها أن تحرص بصرامة على أن لا «يتشاكس» الطفل، أي على أن لا تتركني اقترب منه. ثم أن فيكتور نفسه كان يستوحش مني. وذات مرة جاء السيد راتش إلى غرفتي منزعجاً منفعلاً، مغتاظاً. وكنت قد سمعت في عشية ذلك إشاعات سيئة عن زوج أمي هذا. فقد زعم الناس أنه متهم بابتزاز مبلغ كبير من المال، وأخذ الرشوة من تاجر.

قال، وهو يدق المنضدة بأصابعه بنفاد صبر:

– أنت تستطيعين أن تساعديني. أذهبي، وترجَّي إيفان ماتفييتش بشأني.

– أترجَّاه؟ ولماذا؟ وعن أي شيء؟

١– «أذهبي يا طفلتي» (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

– اسعيْ إليَّ عنده... فأنا، على أية حال، لست غريباً عنك. إنهم يتهمونني... طيب، باختصار، يمكن أن يُقطع خبزي. وخبزك أيضاً.

– ولكن كيف أذهب إليه؟ كيف أضايقه؟

– تضايقينه! لك الحق في أن تضايقيه!

– أي حق، يا إيفان دميانيتش!

– طيب، لا تتصنعي... لا يمكن أن يرفض لك طلباً لأسباب عديدة. هل معقول أنك لا تفهمينني؟

ونظر في عيني بوقاحة، فأحسست بأن وجنتيّ تلتهبان. وانبعثت الكراهية والاحتقار في نفسي دفعة واحدة، وماجا كالموج، وغمراني. وأخيراً قلت له:

– نعم، أنا أفهمك، إيفان دميانيتش – وبدا صوتي غريباً عليّ أيضاً – ولكنني لا أذهب إلى إيفان ماتفييتش، ولا أترجّاه إذا حرمونا من الخبز، فليكن!

ارتعد السيد راتش، وكزّ على أسنانه، وشدّ قبضتيه. وهمس بصوت مبحوح:

– حذار، يا ابنة القيصر، يا ميليكتريسا![1] لن أنسى لك ذلك!

في ذلك اليوم استدعاه إيفان ماتفييتش، ويقال إنه هدده بالعصا، نفس العصا التي بادلها، ذات مرة، مع الدوق دي لاروشفوكو[2]، وصاح: «أنت وغد ومرتش. سأطردك!» (كان إيفان ماتفييتش لا يكاد يحسن الكلام بالروسية كلياً، وكان يحتقر «عاميتنا الفظة» ce jargon vulgaire et rud[3]. وذات مرة قال أحد في حضورة «هذا طبيعي بحد ذاته». فاغتاظ إيفان ماتفييتش، وفيما بعد كان غالباً ما يستشهد بهذه العبارة كمثل لسخافة وتفاهة اللغة الروسية. وكان يسأل بالروسية مجزءاً كل مقطع: «ما معنى

١– هي الأميرة ميلتريسا كيربيتوفنا التي صارت زوجة للأمير غفيدون، وأم بوفا كوروليفيتش في حكاية «بوفا كوروليفيتش».

٢– لاروشفوكو (La Rochefoucauld) – كاتب اخلاقي. يبدو أن المقصود هنا هو لويس ألكسندر دوق لاروشفويون ولاروشفوكو دانفيل (١٧٤٣ – ١٧٩٢) وهو احد الشخصيات البارزة في الثورة الفرنسية الكبرى.

٣– هذا الكلام العامي المبتذل للرعاع (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

طبيعي بحد ذاته؟ ولماذا لا يقال ببساطة: طبيعي؟ وما فائدة «بحد ذاته»؟!).

ومع ذلك لم يطرد إيفان ماتفييتش السيد راتش، بل و لم يجرده من عمله. ولكن زوج أمي لم يحنث بوعده: لم ينس هذا لي.

أخذت ألحظ تغيراً في إيفان ماتفييتش. صار يكتئب ويستوحش، وتزعزعت صحته. واصفرَّ وجهه الوردي الغض، وتجعَّد، وفقد سناً أمامية من أسنانه. وكفَّ تماماً عن السفر، والغى الأيام التي كان قد خصصها للاستقبال وضيافة الفلاحين، دون مشاركة رجال الدين sans le concoures du clerge. وكان إيفان ماتفييتش في مثل تلك الأيام يخرج إلى الفلاحين في القاعة أو في الشرفة، وفي عروته وردة، وكان يمس شفتيه بقدح فضي من الفودكا، ويقول كلمة من هذا القبيل: «أنتم راضون عن أفعالي، وأنا راض بهذا القدر عن جهودكم. يسرني هذا حقاً. نحن جميعاً إخوان، الولادة تساوي بيننا. أشرب نخب صحتكم!». وكان ينحني إليهم، والفلاحون ينحنون إليه، إلى النصف، وليس إلى الأرض، لأن ذلك كان محرماً قطعاً. استمرت أيام القرى كالسابق، ولكن إيفان ماتفييتش لم يعد يخرج إلى رعيته. أحياناً كان يقطع قراءتي بهتافات: La machine se détraque! Cela se ga,te![1]. وحتى عيناه، تانك العينان الوضاءتان الحجريتان قد كمدتا، بل وكأنهما صَغُرتا. وكان النعاس يغلبه أكثر من ذي قبل، ويزفر زفرة ثقيلة في نومه. والشيء الوحيد الذي لم يتغيَّر هو معاملته لي، أضيفت له مسحة من لطف الفرسان. وكان في كل مرة أدخل فيها عليه ينهض من كرسيه، ولو بصعوبة، وكان يرافقني إلى الباب، ويمسكني من مرفق يدي، وبدلاً من Suzon صار يدعونني ma chère demoiselle[2] تارة، mon Antigone[3] تارة أخرى. توفي M. le Commandeur بعد عامين من وفاة أمي. والظاهر أن أثر وفاته على إيفان ماتفييتش كان أعمق بكثير. لقد اختفى تربه، وهذا ما أثار بلبلته. في حين أن الخدمة

١- «الماكنة تختل! الحال تتسوأ!» (بالفرنسية في الأصل). - **الناشر.**

٢- «آنستي العزيزة» (بالفرنسية في الأصل). - **الناشر.**

٣- «أنتيغو ناي» (بالفرنسية في الأصل). - **الناشر.**

الوحيدة التي كان يقدمها السيد الكوماندور في المدة الأخيرة هو هتافه: Bien joué، mal réussi! [1] كلما طاشت ضربة إيفان ماتفييتش، حين كان يلعب البليارد مع السيد راتش، و لم تسقط الكرة في الجيب، ثم حين كان إيفان ماتفييتش يخاطبه، وهما إلى المائدة.بمثل هذا مثلاً: [2] N'est-ce pas، M. le Commandeur، c'est Montesquieu qui a dit cela dans ses Lettres Persanes? [3] عند ذاك كان هذا يدلق ملعقة الحساء على قميصه، ويجيب بجد: Ah، Monsieur de Montesquieu? Un grand écrivain، monsieur، un grand écrivain. [4] مرة واحدة فقط، حين قال له إيفان ماتفييتش [5] les ont en pourtant du bon thé philantropes [6] هتف العجوز بصوت منفعل: Monsieur de Kolontouskoi! (طوال خمسة وعشرين عاماً لم يتعلم النطق باسم معيله بشكل صحيح) Monsieur de kolontouskoi! Leur fondateur، l'instigateur de cette secte، ce la était un bonnet rouge! [7]

١- «الضربة الجيدة، والنتيجة سيئة» (بالفرنسية في الأصل). - **الناشر**.

٢- السيد مونتسكيو، شارل لويس (Montesquieu) (١٦٨٩ - ١٧٥٥) منوّر وقانوني وفيلسوف فرنسي. وقف ضد الحكم المطلق و«الرسائل الفارسية» مؤلف ساخر معاد للاقطاع (١٧٢١).

٣- «أليس صحيحاً، يا حضرة الكوماندور، أن هذا ما قاله مونتسكيو في «رسائله الفارسية»؟» (بالفرنسية في الأصل). - **الناشر**.

٤- آه، مسيو دي مونتسكيو؟ إنه لكاتب عظيم، مسيو، كاتب عظيم (بالفرنسية في الأصل). - **الناشر**.

٥- الثيولونثوبيه: مذهب ديني سلوكي ظهر في فرنسا في عهد الثورة الفرنسية العظمى، معاد في طابعه لليعقوبية. ونادى هذا المذهب بعبادة «الشعور الديني الطبيعي» للإنسان مقابل العبادة اللاعقلانية للكائن الأعلى، حظر في عام ١٨٠١.

٦- كان للاهوتيين الإنسانيين شيء طيب على أية حال (بالفرنسية في الأصل). - **الناشر**.

٧- لويس ماريا ريفولر - ليبو (١٧٥٣ - ١٨٢٤) - كاتب وعالم ورجل من رجال الثورة الفرنسية. كان زعيم ومنظر «الثيولونثوبيين». عدو الحكم المطلق وجمهوري وقد صوّت إلى جانب اعدام لويس السادس عشر.

Reveillére lepeaux [1]، فكان إيفان ماتفييتش يقول مكشراً تكشيرة ساخرة، وهو يأخذ قبصة من التبغ: Non، non، des fleurs، des jeunes vuerges، le culte de la nature... Ils ont en du bon، ils ont du bon [2]... وكنت اندهش دائماً من كثرة معارف إيفان ماتفييتش، ومن قلة فائدة هذه المعارف له نفسه.

والظاهر أن إيفان ماتفييتش كان يذبل، ولكنه ما زال يتحامل على نفسه. وذات يوم، وقبل حوالي ثلاثة أسابيع من وفاته داهمته بعد الغداء مباشرة نوبة قوية من دوار الرأس. سهم مفكراً، ثم قال: C'est la fin [3]، وبعد أن زايلته الغمة واستراح كتب رسالة إلى أخيه، في بطرسبورغ، وهو وريثه الوحيد، وكان قد قطع علاقته معه منذ حوالي عشرين عاماً. وسمع جاره بتردي صحته فزاره. وكان هذا ألمانياً كاثوليكياً، وطبيباً شهيراً في وقت ما، وكان يخلد إلى الراحة في القرية. وكان من النادر جداً أن يزور إيفان ماتفييتش، إلا أن إيفان ماتفييتش كان يستقبله دائماً باهتمام خاص، وعلى العموم كان يحترمه كثيراً. ويكاد يكون الشخص الوحيد الذي يحترمه في الدنيا. نصح العجوز إيفان ماتفييتش بأن يرسل في طلب القس، ولكن إيفان ماتفييتش رد عليه قائلاً أن: ces messieurs et moi، nous n'avons rien a nous dire [4] الحديث، وبعد خروج جاره أوعز لخادمه الخاص بأن لا يستقبل أحداً بعد الآن. ثم أمر باستدعائي. وحين رأيته فُزعت. فقد ظهرت بقع زرق تحت عينيه، واستطال وجهه، وتخشّب، وتدلّى فكه. Vous voilà grande، Suzon – نشأ يقول ناطقاً الحروف الساكنة بصعوبة، ولكنه ما يزال يحاول أن يبتسم (وكنت قد تجاوزت الثامنة عشرة آنذاك) – vous allez peut-etre bientot rester

---

١- «يا سيد كولونتوسكي! لقد كان لا ريفيلير ليبو مؤسس هذه النحلة وملهمها يعقوبياً!» – (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

٢- «لا، لا، الزهور، والأوانس الصغيرات وعبادة الطبيعية... كان لديهم شيء ما جيد، شيء ما جيد!» (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

٣- «تلك هي النهاية» (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

٤- «ليس لهؤلاء السادة ولي ما يقوله بعضنا لبعض» (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

C’est (وسعل) seule. Soyez toujours sage et vertueuse d’un – la dernière recommandation d’un vieillard qui vous veut du bien. Je vous ai recommandé à mon frere et je ne doute pas qu’il respecte mes volontés... – وسعل ثانية، وتلمس صدره باهتمام – Du reste، J’espère encore pouvoir faire quelque chose pour vous... dans mon testament [1]. وعبارته الأخيرة طعنتني في قلبي كالخنجر. آه، لقد كان في ذلك احتقاراً وإهانة شديدين جداً جداً! ومن المحتمل أن إيفان ماتفييتش عزا ما ارتسم على وجهي إلى شعور آخر، شعور الأسى أو الإمتنان، وربَّت على كتفي، كمن يرجو لي السلوى، وفي نفس الوقت أبعدني عنه بلطفه المعتاد، ونبس: Voyons، mon enfant، du courage! Nous sommes tous mortels. Et puis، il n’y a pas encore de danger. Ce n’est qu’une précaution que J’ai cru devoir prendre... Allez! [2] وكما في المرة الأولى، حين استدعاني بعد وفاة والدتي أردت أن أصرخ به «ولكنني ابنتك! أنا ابنتك!»، ولكنني فكرت في أنه ربما لا يسمع، في هذه الكلمات، في صراخ القلب هذا، غير الرغبة في إظهار حقوقي، حقوقي في ورثه، في ماله... آوه، مستحيل! لن أخبر بشيء هذا الرجل الذي لم يذكر اسم أمي ولو مرة واحدة في حضوري، والذي لا يعنيه من أمري غير القليل، حتى أنه لم يجشم نفسه عناء أن يستطلع ما إذا كنت أعرف نسبي! أو ربما كان يخمن ذلك ويعرف، ولكنه لا يريد أم «يثير متاعب» (وهذه هي العبارة الروسية الوحيدة التي يفضلها ويستخدمها) ولا يريد أن يحرم نفسه من قارىء جيدة ذات صوت فتي! لا! لا! فليبق إذن، عظيم الذنب إزاء ابنته، كما كان مذنباً إزاء أمها! وليأخذ معه إلى قبره هذين الذنبين! أقسم، أقسم

١- «أنت الآن كبيرة، سوسان، وربما ستبقين وحيدة عن قريب. كوني دائماً حصيفة وفاضلة... هذه آخر وصية... من العجوز الذي يريد لك الخير. أوكلتك لأخي، وأنا لا أشك في أنه سيحترم وصيتي... على العموم آمل أنني سأتمكن من فعل شيء ما لأجلك... في وصيتي الأخيرة» (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

٢- «كفى، يا طفلتي، تشجعي! كلنا ذاهبون إلى الموت. كما أنه لا خطر الآن. وما ذلك إلا تحسل من جانبي. أذهبي!» (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

على إنني لن أُسمعه من شفتي تلك الكلمة التي لا بد أن ترن بشيء مقدس عذب في كل الآذان! لن أقول له: أبي! ولن أغفر له جريرته إزاء أمي وإزائي! إنه ليس بحاجة إلى هذه المغفرة، لا إلى هذا الاسم... مستحيل، مستحيل إنه لا يحتاج إليه! ولكنه لن يظفر بمغفرة، لن يظفر!

الله يعلم هل كنت سأتمسك بقسمي، وهب أن قلبي لا يترقق، ولا أتغلب على تهيبي، خجلي، كبريائي... ولكن ما حصل لأمي حصل لإيفان ماتفييتش. فخطفه الموت فجأة، وفي الليل أيضاً. وأيقظني السيد راتش نفسه كما فعل من قبل، وهرعت وإياه إلى بيت السيد، إلى مخدع إيفان ماتفييتش... ولكنني لم ألحق حتى على حركات الاحتضار الأخيرة، تلك التي كانت قد انغرست في ذاكرتي، وأنا عند سرير أمي. رأيت دمية جافة داكنة اللون ذات أنف مدبب، وحاجبين أشيبين ناتئين ترقد على وسائد مؤطرة بالمخرمات... أخذت أصرخ من الرعب، من الاشمئزاز، واندفعت خارجة، فاصطدمت في الباب بأشخاص ملتحين في معاطف فلاحية من القماش الصوفي الخشن، وأحزمة حمراء مما يلبس في الأعياد، ولا أدري كيف وجدت نفسي في الهواء الطلق...

ورُوِي، فيما بعد، أن الخادم الخاص، حين هرع إلى غرفة النوم، على رنين قوي من الجرس، لم يجد إيفان ماتفييتش في سريره، بل على بعد خطوتين منه. وزُعِم إنه كان جالساً على الأرض منكمشاً، وكرر مرتين متتاليتين: «هاك، يا جدتي، يوم يوري!»[1]. وزُعِم أن هذه هي كلماته الأخيرة. ولكنني لا أستطيع أن أصدق بذلك. فمن غير المعقول أن يتكلم بالروسية في مثل تلك اللحظة، وبهذه العبارات!

وبعد ذلك انتظرنا أسبوعين كاملين قدوم السيد الجديد سيميون ماتفييتش

١- يوم يوري عند الكنيسة الارثوذكسية هو يوم القديس غيورغي (يوري) في ٢٦ تشرين الثاني (في التقويم القديم). بهذا اليوم في القرنين ١٥ - ١٦ ارتبط حق الفلاحين في الانتقال من صاحب أراض إلى آخر. وكان هذا الحق يطبق قبل اسبوع من ذلك اليوم، وخلال اسبوع بعده. وكان الغاؤه في نهاية القرن السادس عشر يعني مرحلة في الطريق إلى استعباد الفلاحين التام. وعند ذاك ظهر المثل القائل «هاك يوم يوري، يا جدة!» وهو يضرب حين تضيع الفرصة لتحقيق ما رسا الفكر عليه.

كولتوفسكي. وكان قد بعث بأمر أن لا يُمس شيء، ولا يُبدل أحد قبل أن يتفقد هو شخصياً. أغلقت وختمت جميع الأبواب والأثاث، والصناديق، والمناضد. وجزع الجميع وراحوا يتوجسون. وصرت فجأة أحد الأشخاص الرئيسيين في البيت، أو كدت أكون الشخص الرئيسي. وكان الناس، حتى من قبلٍ أيضاً، يسمونني «السيدة». ولكن هذه الكلمة اتخذت الآن معنى جديداً، وصارت تنطق بتشديد خاص. وسرى تهامس، وقال الناس: «أن «السيد العجوز مات موت الفاجأة، ولم يلحق أن يستدعي القس إليه، ومنذ زمان لم يطهب للاعتراف في الكنيسة، وكتابة الوصية لا تتطلب وقتاً طويلاً». كما أن السيد راتش رأى من اللازم تغيير أسلوب تصرفاته. لم يتظاهر بالرقة وطيبة القلب، فقد كان يعرف أنه لن يخدعني بذلك، ولكن وجهه اكتسى خنوعاً جهوماً. وكأنه يقول: «ها أنت ترين أنني خاضع». والجميع استعطفوني، وراحوا يسترضونني... بينما كنت لا أعرف ماذا أفعل، وكيف اتصرف، ولا أنفك استغرب كيف لا يفهم الناس أنهم يهينونني. وأخيراً، وصل سيميون ماتفييتش.

كان سيميون ماتفييتش أصغر سناً من إيفان ماتفييتش بعشر سنين، وقد قضى عمره كله في طريق مختلفة. وكان يشغل وظيفة في بطرسبورغ، ويحتل مركزاً مهماً... وكان قد تزوج وترمل في وقت مبكر، وكان له ولد واحد. وكان سيميون ماتفييتش يشبه أخاه الكبير بالوجه، إلا أنه أقصر قامة وأكثر أمتلاء، وكان له رأس مدور، أصلع، وعينان سوداوان وضاءتان كعيني إيفان ماتفييتش، ولكن بمسحة داكنة ناعمة، وشفتان حمراوان سميكتان. وكان سيميون ماتفييتش يتكلم الروسية دائماً تقريباً، على عكس أخيه الذي كان يسميه، حتى بعد وفاته، بالفيلسوف الفرنسي، وحتى بغريب الأطوار أحياناً، وكان يتكلم بصوت جهوري، وبذلاقة، ويضحك مراراً، ويغمض عينيه تماماً، خلال ذلك، مهتزاً بكل جسده بشكل غير لطيف، وكأن غيظاً قد استبد به. وشمّر للأمر بحزم شديد، ونفذ إلى كل شيء، وطلب من الجميع أجوبة مستفيضة. وفي اليوم الأول من وصله دعا القس بكل بطانته، وطلب إقامة قداس بالماء المقدس، ورش الماء في كل مكان، وفي كل حجرات البيت، وحتى العليّات، حتى السراديب، لكي «تطرد الروح الفولتيرية واليعقوبية

كلياً» على حد تعبيره. وفي الأسبوع الأول خُلع بعض المحظوظين لدى إيفان ماتفييتش من أعمالهم، بل ونفى أحدهم، وتعرّض آخرون لعقوبات جسدية، وحتى العجوز خادم إيفان ماتفييتش الخاص - كان تركي الأصل يعرف الفرنسية، وقد أهداه لإيفان ماتفييتش المرحوم الفيلدمارشال كامينسكي[1] - حتى هذا الخادم الخاص، الذي تسلّم وثيقة انعتاقه حقاً، أمره في الوقت ذاته بالرحيل خلال أربع وعشريت ساعة «حتى لا يكون غواية للآخرين». وتبين أن سيميون ماتفييتش سيد صارم. ولعل الكثيرين ترحموا على روح الراحل. وتحسّر أحد الخدم في حضوري، وهو عجوز هرم: «في زمان سيدنا إيفان ماتفييتش كنا لا نهتم إلا بأن تكون البياضات نظيفة، والحجرات تفوح برائحة طيبة، وألا يسمع صوت خدم في الرواق. أما هذا فأعوذ بالله! لا يهمه أي شيء! والمرحوم لم يؤذ في حياته ذبابة! والآن مصيبة! الموت أهون!». كما أن الوضع الذي وجدت نفسي فيه لبضعة أيام، وخلاف إرادتي سرعان ما تغيَّر أيضاً... لم يعثر في أوراق إيفان ماتفييتش على أية وصية، ولم يُخط أيّ سطر لصالحي. وصدَّ الجميع عني فجأة... وصار الآخرون أيضاً، ولا أقول السيد راتش وحده، يغتاظون مني، ويحاولون إظهار غيظهم لي، وكأنني قد خدعتهم. واستدعاني سيميون ماتفييتش في يوم أحد، بعد القدّاس الذي كان يحضره في المحراب دائماً. وكنت حتى ذلك اليوم لا أراه إلا خطفاً، وكان يبدو وكأنه لا يلحظني. استقبلني في غرفة مكتبه واقفاً عند النافذة. وكان يرتدي بزة فراك مزينة بوسامين. توقفت قرب الباب، وقلبي يدق بقوة في صدري ذعراً، ولشعور آخر، غير محدد بعد، ولكنه يثقل على النفس. نظر سيميون ماتفييتش إلى قدمي أولاً، ثم إلى وجهي نظرة كأنما دفعتني عنه، وقال: «أردت أن أراك أيتها الفتاة الشابة أردت أن أراك، لأعلن لك قراري وؤوكد لكك رغبتي الأكيدة في أن أكون نافعاً لك - ورفع صوته - ليست لك أية حقوق، بالطبع، ولكنك... كقارئة لأخي، يمكنك أن تعوّلي دائماً عليّ... على اهتمامي. أنت... بالطبع، واثق في حصافتك، وفي آداب سلوكك. السيد راتش، زوج أمك، قد تلقّى مني

١- الكونت م. كامينسكي (١٧٣٨ - ١٨٠٩) اغتيل على أيدي الفلاحين الأقنان في ضيعته في ولاية اوريل.

التعليمات الضرورية. وبالإضافة إلى ذلك يجب أن أقول لك أن مظهرك السعيد أهل لأن يكون لي عربوناً على مشاعرك النبيلة – وفجأة انفجر سيميون ماتفييتش بضحك ناعم. أما أنا... فلم اتكدر... ولكنني شعرت بالرثاء لنفسي... وأحسست في ذلك الوقت بتيتمي الكلي. سار سيميون ماتفييتش نحو المنضدة بخطوات قصيرة قوية، وأخرج من الجرار ضمة من الأوراق النقدية، ودسَّها في يدي، وأضاف: – هذا مبلغ غير كبير مني لمصاريفك. وفي المستقبل أيضاً لن أنساك، يا حلوتي، والآن، مع السلامة، كوني عاقلة». تناولت هذه الضمة من الأوراق النقدية آلياً، وكنت سآخذ كل ما سيعطيني، وعندما عدت إلى حجرتي بكيت طويلاً، وأنا جالسة على فراشي. و لم أفطن إلى وقوع ضمة الأوراق من يدي على الأرض. عثر عليها السيد راتش ورفعها، وسألني ماذا أنوي أن أفعل بها، وأبقاها معه.

عند ذاك حدث في حياته تغير مهم. وبعد بعضِ الأحاديث مع سيميون ماتفييتش صار ذا حظوة كبيرة عنده، وسرعان ما حل في مكان المدير العام. ومنذ ذلك الحين ظهرت عليه روح المرح، وولدت تلك الضحكة الدائمية: في البداية كان يريد كسب وُدّ صاحبه... وفيما بعد صار كل ذلك عادة له. ومنذ ذلك الحين صار وطنياً روسياً. وكان سيميون ماتفييتش يميل إلى كل ما هو وطني، ويسمي نفسه روسياً قحاً، ويضحك من اللباس الألماني الذي كان يلبسه مع ذلك، وقد أبعد الطباخ الذي انفق إيفان ماتفييتش على تربيته مالاً كثيراً، أبعده إلى قرية نائية لعدم إجادته طهي حساء «الراسولنيك» الروسي المطعم بإعناق الوز. وكان سيميون ماتفييتش يصاحب الشماسين في الغناء من المحراب، وحين كان الفتيات يدفعن إلى الرقص الدائري والغناء الجماعي كان يترنم معهن، ويضرب بقدميه، ويقرص خدودهن... إلا أنه سرعان ما رحل إلى بطرسبورغ، وترك زوج أمي يكاد يكون صاحب السلطة التامة في كل الضيعة.

وبدأت أيام مريرة بالنسبة لي... وكانت الموسيقى سلوتي الوحيدة، فاستسلمت لها بكل قلبي. ومن حسن الحظ أن السيد راتش كان مشغولاً جداً، ولكنه كان يشعرني بكراهيته كلما سنحت الفرصة، وكما وعد «لم ينس» رفضي. كان يجور عليّ، ويحملني على أن استنسخ تقاريره الطويلة الكاذبة لسيميون ماتفييتش، وأصلح فيها الأخطاء الإملائية، وكنت مضطرة

إلى أن اخضع له دون اعتراض، وقد خضعت. وأعلن أنه سيذللني، ويجعلني مطيعة. وكان أحياناً يصرخ عند الغداء، وهو قد ثمل من شرب البيرة، ويطرق المائدة بباطن كفه: «أية عينين متمردتين لك؟ ربما تظنين إنك على حق إذا كنت صموتاً كالحمل... لا! تفضلي وانظري إليّ، أنا أيضاً، كالحمل!». وصار وضعي شائناً، لا يطاق... وتقسّي قلبي، وصار يراوده أكثر فأكثر شيء ينذر بالخطر. وكنت أقضي الليالي بلا نوم وبلا نور، أفكر وأفكر، وفي ظلام الخارج، ودجنة الباطن صار ينضج قرار رهيب. أن قدوم سيميون ماتفييتش وجّه أفكاري إلى وجهة أخرى.

لم يكن أحد يتوقعه. فالخريف قد حلّ منذ زمان. اتضح أنه تقاعد بسبب منغّص، إذ كان يأمل بتسلّم وسام ألكسندر بوشاح، فإذا به يمنح مسعطاً[1]. فاستاء من الحكومة التي لم تقدر مواهبه، ومن مجتمع بطرسبورغ الذي أظهر تعاطفاً قليلاً معه، ولم يشاطره استياءه، فقرر الإقامة في الريف، والانقطاع إلى شؤون استثمارته. وصل لوحده، وبعد ذلك وصل ابنه ميخائيل سيميونيتش لقضاء عبد العام الجديد. وكان زوج أمي لا يكاد يغادر مكتب سيميون ماتفييتش، فاشتدت حظوته عنده. وتركني وشأني، فلم يكن لديه الوقت آنذاك ليلتفت إليّ... عنّ لسيميون ماتفييتش أن ينشيء معملاً للورق، وكان السيد راتش لا يفقه شيئاً في شؤون المعامل، وكان سيميون ماتفييتش يعرف أنه لا يفقه شيئاً. ولكن زوج أمي كان، بالمقابل «منفذاً» (وكانت هذه الكلمة محبوبة في ذلك الحين)، «اراكتشييف!»[2] وبهذا الاسم بالذات «اراكتشييف الخاص بي!» كان سيميون ماتفييتش يسمسه. وكان سيميون ماتفييتش يؤكد: «هذا كاف لي. وعند الحماس سأقدم أنا التوجيهات» واستطاع

١- شرط وسام ألكسندر نيفسكي أحد الأوسمة الرفيعة لروسيا القيصرية.
والمسعط هو هدية قيصرية تحمل طابعاً شبه رسمي.

٢- اراكتشييف الكسي (١٧٦٩ - ١٨٣٤) - رجل دولة وصاحب حظوة واسع القدرة في حكم الامبراطور ألكسندر الأول، ومنظم الدساكر العسكرية، حيث طبق الضبط بالعصا، والتدريب العسكري الصارم. وفي اعوام ١٨١٥ - ١٨٢٥ صار الموجه الفعلي للدولة، وانتهج سياسة رجعية مغالية، والاستبداد البوليسي. وكان يؤكد باستمرار ولاءه للامبراطور، واستعداده لأن يكون مجرد «منفذ» لارادته.

سيميون ماتفييتش أن يلتفت إليّ أيضاً، وسط مشاغله الكثيرة في المعمل، وفي الضيعة، وفي تنظيم الإدارة، والأعمال الكتابية، والوظائف والمناصب الجديدة. استدعاني، ذات مساء، إلى حجرة الجلوس، وجعلني أعزف على البيانو. وكان سيميون ماتفييتش أقل حباً للموسيقى من الراحل، ومع ذلك استحسن عزفي، وشكرني، وفي اليوم التالي دعيت إلى مائدة الغداء. وبعد الغداء كان سيميون ماتفييتش يتحدث معي وقتاً طويلاً جداً، ويسألني، ويضحك من بعضٍ أجوبتي، رغم أنها لم تكن تحتوي، كما أتذكر، على ما يضحك، وينظر إلي نظرات غريبة... وشعرت بالحرج. لم أكن ب عينيه، لم أحب تعبيرهما الصريح، ولا نظرتهما المكشوفة... فقد كان يبدو لي دائماً أن هذه الصراحة نفسها تضمر شيئاً شريراً، وأن شيئاً قاتماً في روحه تختفي تحت هذا اللمعان الوضيء. وأخيراً أعلن لي سيميون ماتفييتش، وهو يتزين ويعدِّل قيافته بشكل منفر: «لن تكوني قارئة عندي. فأنا، والحمد لله، لم أفقد بصري بعد، وأستطيع أن أقرأ بنفسي، ولكن القهوة ستبدو ألذّ إذا أخذتها من يديك، وسأسمع عزفك على البيانو بمتعة». وبعد ذلك اليوم صرت أتناول طعام الغداء في بيت السيد باستمرار، وأظل في حجرة الجلوس أحياناً حتى المساء. شملتني الحظوة، مثلما شملت زوج أمي، و لم تسعدني هذه الحظوة. يجب أن اعترف أن سيميون ماتفييتش كان يبدي لي بعض الاحترام، ولكنني كنت أشعر بأن في هذا الشخص شيئاً ينفرّني ويخيفني. و لم يكن هذا «الشيء» يبدو في كلماته، بل في عينيه، في تينك العينين غير اللطيفتين، وفي قهقهته أيضاً. لم يحدثني قط عن أبي، عن أخيه، وخيّل إليّ أنه لا يتحاشى هذا الحديث لعدم رغبته في أن يوقظ في نفسي الأفكار الطموحة أو المطالب، بل لسبب آخر، لم استطع أن أحدسه في ذلك الوقت، ولكنه كان يجعلني أتحيّر، وأحمرّ... ووصل ابنه ميخائيل سيميونيتش في أعياد الميلاد.

آه، إنني أشعر بأنني غير قادرة على مواصلة ما بدأته، فإن تلك الذكريات مشبعة بالحزن. والآن بشكل خاص لا أستطيع أن أروي بهدوء أعصاب... ولكن لماذا أخفي ما في نفسي؟ لقد أحببت ميشيل[1]، وأحبني هو.

١- صيغة أخرى لاسم ميخائيل. - المترجم.

لا أريد أن أتحدث كيف حصل ذلك. أعرف أنني لم استطع أن أنساه، لم استطع أن أنسى محياه الفتي السمح، منذ أن دخل في ذلك المساء إلى حجرة الجلوس (وكنت جالسة إلى البيانو أعزف سوناته فيبر[1]) دخل وسيماً ممشوق القد في معطف مخملي طويل الذيل، وحذاء لبادي طويل العنق، وعليه نثار الصقيع، ونفض قبعته من فراء السمور مما علق بها من الجمد، وقبل أن يسلم على أبيه، نظر إليّ بسرعة، وبدت عليه الدهشة... وأنشأ يتحدث... ونفذ صوته إلى قلبي في الحال... صوت رجولي هادئ، وفي كل نبرة فيه نفس نقية صافية! فرح سيميون ماتفييتش بوصول ابنه، وعانقه، إلا أنه سأله على الفور: «لأسبوعين؟ ها؟ للإجازة؟ ها». وصرفني. بقيت وقتاً طويلاً جالسة إلى نافذة غرفتي، انظر إلى الأنوار تتنقل في حجرات بيت السيد. راقبتها، وارهفت سمعي إلى الأصوات الجديدة غير المعروفة لي، واستغرقتني هذه الرهبة المنعشة، وسرى في روحي أيضاً شيء جديد، وضاء، غير مألوف لي...

وقبيل الغداء، في اليوم التالي، كان لي أول حديث معه. وكان قد جاء إلى زوج أمي بتكليف من سيميون ماتفييتش ووجدني في حجرتنا الصغيرة للجلوس. أردت أن أخرج، إلا أنه أوقفني. وكان حيوياً جداً، وعفوياً في كل حركاته وكلامه. ولكن لم يكن فيه أي أثر للاستعلاء أو الجسارة، ونبرة سكان العاصمة الازدرائية، وليس فيه شيء عسكري مما يتصف به سلاح الحرس... بل بالعكس، كان في عفوية معاملته شيء حنون، خجول تقريباً، وكأنما يطلب منك أن تعذره. إن عيون بعض الناس لا تضحك أبداً، حتى حين يضحكون. وكانت شفتاه لا تكادان تغيران اطباقتهما الجميلة، بينما كانت عيناه لا تكادان تكفان عن الابتسام. وهكذا تحادثنا حوالي ساعة... ولا أتذكر عمَّ، ولكنني أتذكر فقط أنني كنت أحدق في عينيه طوال الوقت. وكم كان خفيفاً عليّ التعامل معه. في المساء عزفت على البيانو، وكان يحب الموسيقى حباً جماً، فجلس على مقعد وثير، ووضع رأسه الأجعد على يده، وأصغى بانتباه. لم يمتدحني قط، ولكنني كنت أدرك أن عزفي أعجبه، فعزفت

١- فيبر كارل ماريا فون (١٧٨٦ - ١٨٢٦) - مؤلف موسيقي ألماني وقائد فرقة موسيقية، وناقد موسيقي.

بحماس. وفجأة تجهم سيميون ماتفييتش الذي كان يجلس قرب ابنه يدقق في المشاريع. وقال متأنقاً معدلاً قيافته على عادته: «طيب، يا آنسة، كفاية. ما هذه السقسقة، وكأنك كنارية؟ على هذا النحو يمكن أن يصاب الإنسان بالصداع». - ثم أضاف بصوت خافض: «لا أظنك ستسعين هذا السعي لعجوز من أمثالي...». وصرفني مرة أخرى. شيعني ميشيل بعينيه، ونهض من مقعده. صاح سيميون ماتفييتش «إلى أين؟ إلى أين» وضحك فجأة، ثم قال شيئاً آخر... لم استطع تبيان كلماته، إلا أن السيد راتش، الذي كان حاضراً في زاوية من حجرة الضيوف (وكان «يحضر» دائماً، وفي هذه المرة كان قد جلب المشاريع) أخذ يضحك بتذلل، فبلغت ضحكته سمعي... وتكرر هذا بكليته أو على وجه التقريب في المساء التالي... وفجأة بردت معاملة سيميون ماتفييتش لي، وراح يجفوني.

وبعد أربعة أيام التقيت ميشيل في الممر الذي يقسم بيت السيد إلى شطرين. أمسك يدي، وأدخلني حجرة قرب غرفة الطعام تسمى حجرة الصور. فاتبعته ليس بدون قلق، ولكن بثقة تامة. وحتى في ذلك الوقت كنت سأذهب معه إلى آخر الدنيا، رغم أنني لم أكن أتصوّر ما أصبح هو بالنسبة لي. آه، لقد تعلقت به بكل هواي، بكل استماتة كياني الفتي الذي ليس له أن يحب أحداً، بل ويشعر بأنه ضيف غير مدعو ولا لزوم له، وسط أناس غرباء، وسط أناس معادين!...

قال ميشيل لي... ويا للغرابة! حدقت فيه بإمعان وجسارة - ولم ينظر هو إليّ، وأحمرَّ قليلاً - قال لي إنه يفهم وضعي، ويتجاوب معي، ويطلب أن أعذر أباه... وأضاف: «أما بخصوصي، فأرجو أن تكوني واثقة بي دائماً، وأن تعرفي أنك لي أخت، نعم، أخت». وهنا شدَّ على يدي بقوة. ارتكبت، واطرقت بدوري، كأنني كنت انتظر شيئاً آخر، كلمة أخرى. ومع ذلك أخذت أشكره. فقاطعني قائلاً «لا، أرجوك، لا تتحدثي بهذا الشكل... ولكن تذكري واجب الإخوة في حماية أخواتهم، وإذا كنت بحاجة إلى حماية من أي كان فبوسعك الاعتماد عليَّ. لم أقض مدة طويلة هنا، ولكنني فهمت الكثير... وبالمناسبة، فهمت زوج أمك أيضاً». وضغط على يدي ثانية، وانصرف.

وعلمت، فيما بعد، أن ميشيل أحس بالنفور من السيد راتش من أول لقاء معه. حاول السيد راتش التزلف إليه أيضاً، ولكنه، حين أيقن من عقم محاولاته، صارت له علائق عدائية معه فوراً، و لم يخف عن هذه العلائق عن سيميون ماتفييتش، بل على العكس حال إظهارها، والتعبير في الوقت ذاته عن الأسف على سوء حظه مع الوريث الشاب. وكان السيد راتش قد درس جيداً خلق سيميون ماتفييتش، فنجح في حساباته. وكان العجوز يقول مؤكداً إن «ولاء هذا الرجل لي لم يعد مدعاة للشك فإنه سيهلك بعدي، لأن وريثي لا يطيقه...». ويقال أن ذوي السلطة من الناس، حين يشيخون، يقعون عن طيب خاطر في هذه المصيدة، مصيدة الولاء الشخصي التام.

وليس جزافاً أن يسمي سيميون ماتفييتش السيد راتش بأراكتشييف الخاص به... وكان في وسعه أن يطلق عليه اسماً آخر. كان يقول له: «أمن عندي وديع». وكان قد بدأ منذ وصوله بمخاطبته بصيغة المفرد، وكان زوج أمي ينظر إلى شفتي سيميون ماتفييتش في استعطاف، ويميل رأسه إلى جانب كاليتيم، ويضحك بطيبة نفس، وكأنما يريد أن يقول: «أنا كلياً هنا، أنا كلياً لك...» آه، اشعر بأن يدي ترتجف، وقلبي يضرب حافة الطاولة التي أكتب عليها في هذه اللحظة... يفزعني أن أتذكر تلك الأيام، ودمي يتوهج... ولكنني سأقول كل شيء إلى النهاية... إلى النهاية.

اتخذت معاملة السيد راتش لي صبغة جديدة في فترة حظوتي القصيرة. أخذ يتملق لي، ويتبسط معي باحترام، وكأنني قد رشدت، وصرت أقرب إليه. وذات مرة قال لي، ونحن عائدان من البيت الرئيسي إلى جناحنا: «ها أنت قد تركت الجموح. مرح! كل هذه الفضائل، والحساسيات، تقر في الكتب. وباختصار، لا تخصنا، يا آنسة، لا تخص المدقعين من الناس!». وحين انتهى عهد الوصال والحظوة، ولم يعد ميشيل يجد من الضروري أن يستر ازدراءه له، ولي مودة، شدّد السيد راتش من صرامته فجأة، وراح يراقبني باستمرار، وكأنني قادرة على كل جريمة، ويجب أن أُقيّد. فصاح وهو يقتحم على حجرتي دون استئذان في حذاءه الطويل القذر، والقبعة على رأسه: «حذار مني! فأنا لا أطيق مثل هذا! لا تتشامخي عليّ! وليس في وسعك أن تخدعيني. سأكسر أنفتك!». وفي ذلك الصباح أبلغني بأن

سيميون ماتفييتش أصدر أمراً يقضي بأن أتوقف منذ اليوم عن المجيء إلى الغداء إلا بإذن... ولا أدري أي منقلب سينقلب كل هذا، لو لم يقع حادث حسم مصيري بشكل نهائي...

كان ميشيل ذا ولع كبير في الخيول. وقد عنّ له أن يقود بنفسه حصاناً عداءاً فتياً مشدوداً إلى زلاجة. في البداية جمح الحصان، ثم أخذ يرفس، والقى بميشيل عن الزلاجة... وجيء به إلى البيت فاقد الوعي مرضوض اليد، مكسور الصدر. وارتعب العجوز رعباً شديداً، واستدعى أحسن الأطباء من المدينة. واسعفوا ميشيل، ولكنه اضطر إلى لزوم الفراش شهراً تقريباً. وكان لا يحسن لعب الورق، والأطباء منعوه من الكلام، كما أن القراءة غير مريحة وهو يمسك الكتاب بيد واحدة. وانتهى الأمر بأن يرسلني سيميون ماتفييتش نفسه إلى ابنه بصفة قارئة. وعندئذ جاءت ساعات لا تنسى! كنت أجيء إلى ميشيل بعد الغداء مباشرة، واجلس إلى طاولة مستديرة قرب النافذة المسدلة الستار إلى النصف. كان يرقد في حجرة صغيرة قرب حجرة الضيوف على أريكة جلدية عريضة من طراز «الإمبراطورية»[1] موضوعة عند الحائط الخلفي لها ظهر عال منتصب ذو نقوش ذهبية. وكانت هذه النقوش تمثل موكب زفاف عند القدماء. وكان رأس ميشيل الشاحب المائل قليلاً ينقلب على الوسادة في الحال ويتجه نحوي ويبتسم، ويتألق بكل محياه، ويدفع إلى الوراء شعره الناعم الرطب، ويقول لي بصوت خافت: «مرحباً بك، يا فتاتي الطيبة، يا عزيزتي». وكنت أتناول الكتاب - في ذلك الحين كانت روايات والتر سكوت رائجة - وقد علقت في ذاكرتي بشكل خاص قراءتي لرواية «ايفينغو»[2] وكم كان صوتي يرن ويرتعش دون أن أدري،

١- يتميز طراز «الامبراطورية» بالجمع بين الاشكال الهندسية الدقيقة والتحليات والتماثيل إلى غير ذلك. وكان هذا الطراز يصنع في عهد نابليون الأول.

٢- سكوت والتر (١٧٧١ - ١٨٣٢) - كاتب انجليزي، ومنشئ الرواية التاريخية التي تجمع بين النزعات الرومانسية والواقعية.

و«آيفينغو» (١٨٢٠) إحدى روايات سكوت التاريخية بطلها الفارس آيفينغو الذي رفض حب اليهودية الحسناء الشجاعة «ريفيكا» من اجل العروس النبيلة «روفينا».

حين كنت أتلو كلام ريفيكا! إذ كان الدم اليهودي يجري في عروقي أيضاً، ثم ألم يكن مصيري شبيهاً بمصيرها، ألم أكن أعتني مثلها بشاب مريض عزيز عليّ؟ وكنت كلما انتزع بصري من الكتاب، وارفعه إليه القى عينيه بنفس الابتسامة الهادئة الوضاءة في وجهه كله. كنا نتحدث قليلاً جداً، إذ كانت حجرة الضيوف مفتوحة الباب على الدوام، ولا تخلو من أحد يجلس فيها. ولكن حين كان الهدوء يسودها، كنت أتوقف عن القراءة، لسبب لا أعرفه، وأرخي الكتاب على ركبتي، وانظر إلى ميشيل بلا حراك، وينظر هو إليّ أيضاً، ويشعر كلانا بالراحة، وبالفرح، وبالخجل ويبوح أحدنا للآخر بكل شيء، بكل شيء، دون أن نبدي حركة، أو ننبس بكلمة! آه، كان قلبانا يتآلفان، ويلتقي الواحد بالآخر، مثلما تلتقي الينابيع تحت الأرض، بصورة غير مرئية، وغير مسموعة... ولا يمكن أن تُكبح.

سألني ذات مرة:

- أتجيدين لعب الشطرنج أو الداما؟

أجبته:

- أعرف لعب الشطرنج قليلاً.

- وهذا رائع. اطلبي أن تجلب اللوحة وقرّبي الطاولة.

جلست قرب الأريكة، فجمد قلبي تماماً، فلم أجرؤ على النظر إلى ميشيل... أما من النافذة، فكنت أنظر إليه بيسر كبير عبر الحجرة كلها!

وأخذت أرتّب قطع الشطرنج... ارتجفت أصابعي.

قال ميشيل بصوت خفيض، وهو يصف قطع الشطرنج أيضاً:

- أنا... لا أقصد لعب الشطرنج معك، بل أريد أن تكوني قريبة مني.

لم أجبه بشيء، وحرّكت جندياً دون أن اسأل من الذي سيبدأ اللعب... لم يحرك ميشيل شيئاً في الرد على حركتي... نظرت إليه. مدّ رأسه قليلاً، والشحوب طاغ عليه، وأشار بنظرة متضرعة إلى يدي...

ولا أتذكر هل فهمت إشارته أم لا، ولكن شيئاً دار في رأسي لحظة كالدوامة... ورفعت الملكة بارتباك، وأنفاسي مبهورة، وحركتها عبر الرقعة

كلها إلى ما ما. انحنى ميشيل بسرعة، وخطف أصابعي بشفتيه، وضغطها على الرقعة، وصار يقبلها بصمت ونهم... لم استطع، و لم أرد أن أخفيها، وغطيت وجهي بيدي الأخرى، وإذا بالدموع، الباردة، والهانئة في الوقت ذاته، كما أتذكر... وما أهنأها من دموع!... تقطر على الطاولة دمعة بعد دمعة. آه، لقد كنت أعرف، واشعر بكل قلبي آنذاك مَنْ الذي استحوذ على يدي!... كنت أعرف أن الذي يمسكها ليس صبياً تملكته سورة عابرة، وليس دون جوان، ولا زير نساء عسكري، بل أنبل وأحسن الناس... وكان يحبني!

سمعت همس ميشيل:

- يا عزيزتي سوسانا! لن اجعلك تذرفين دموعاً أخرى.

وكان مخطئاً... فقد جعلني.

ولكن لا جدوى من التوقف على مثل هذه الذكريات... لا سيما، لا سيما الآن!

وأقسمنا، ميشيل وأنا، على أن يكون الواحد للآخر. وكان بعرف أن سيميون ماتفييتش لن يسمح أبداً بأن يتزوجني، ولم يخف ذلك عني. وأنا أيضاً لم أكن أشك في ذلك، وقد سررت لا لأنَ ميشيل لم يكن يتخايل فلم يكن في وسعه أن يتخايل، بل لأنه لم يكن يحاول خداع نفسه. وأنا نفسي لم أطلب شيئاً، وكان من الممكن أن أسير وراءه، إينما يريد. كان يكرر: «ستكونين زوجتي. لست ايفينغو، وأعرف أن السعادة ليست مع الليدي روفينا». وسرعان ما تشافى ميشيل. ولم يعد في مقدوري الذهاب إليه، ولكن كلِ شيء كان قد تقرر بيننا. واستسلمت للمستقبل بكليتي. و لم أكن أرى شيئاً مما حولي، وكأنما أعوم على نهر جميل سبط، ولكنه سريع الجريان محاطاً بالضباب. بينما كنا تحت الرقابة والحراسة. وكنت، من حين لآخر، الحظ عيني زوج أمي الحقودتين، واسمع ضحكته الكريهة... ولكن تلك الضحكة، وتينك العينين كانت تبدو وكأنها تطل من خلل ضباب، ولبرهة... وكنت أجفل، ولكنني أنسى على الفور، وأعود مرة أخرى مستسلمة إلى ذلك النهر الجميل السريع الجريان.

في عشية رحيل ميشيل الذي اتفقنا عليه (كان يجب أن يرجع عن الطريق

سراً، ويأخذني) تلقيت منه وبواسطة خادمه الخاص مذكرة مذكرة حدد لي فيها موعداً للقاء في الساعة التاسعة والنصف ليلاً في غرفة البليارد الصيفية، الكبيرة الواطئة، الملحقة بالبيت الرئيسي من ناحية الحديقة. وكتب لي أنه يريد أن يتم الحديث كلياف، ويتفق معي. وكنت قد اجتمعت بميشيل مرتين في غرفة البليارد قبل هذا... وكان معي مفتاح بابها الخارجي. وما أن دقت الساعة معلنة التاسعة والنصف، حتى القيت الصدرة على كتفي، وخرجت من الجناح بهدوء، ووصلت إلى غرفة البليارد بسلام، والثلج يخشخش تحت أقدامي، وكان البدر المبرقع بغمامة يطل كبقعة كامدة فوق قُنة السطح، والريح تصفر صفيراً زاعقاً من وراء منعطف الدار. كانت الرجفة تسري في أوصالي، ولكنني وضعت المفتاح في القفل. ودخلت الغرفة، وأغلقت الباب خلفي، واستدرت... انفصل شبح قاتم من حائط بين النافذتين، وخطا خطوتين وتوقف...

همست:

– ميشيل!

– ميشيل مغلق عليه بالقفل، بناء على أمري. ها ذا أنا! ردّ صوت انتفض له قلبي...

وقف سيميون ماتفييتش أمامي!

انطلقت لأهرب، إلا أنه أمسكني من يدي.

وهمس:

– إلى أين؟ أيتها الفتاة اللعينة! تقدرين أن تهرعي للقاء الشبان الحمقى، فاقدري أن تتحملي المسؤولية!

شلّني الفزع، ولكنني بقيت أحاول الوصول إلى الباب... وبلا جدوى! انغرزت أصابع سيميون ماتفييتش في يدي كالكلاليب الحديدية. وتمتمت أخيراً:

– اتركني، اتركني!

– قلت لك لا تتحركي!

وأجبرني سيميون ماتفييتش على الجلوس، وفي الظلمة الشاحبة لم استطع أن اتبين وجهه، وكنت استدير عنه، ولكنني كنت اسمع تنفسه الثقيل، وصريف أسنانه. لم أشعر بالذعر، ولا بالقنوط، بل بدهشة غير معقولة... ولعل الطائر المقتنص يجمد بهذا الشكل في براثن الحدأة... ثم أن يد سيميون ماتفييتش التي ظلت تمسك بي بتلك القوة كانت تعصرتي كالمخلب...

كان يكرر:

– آها! آها! هكذا إذن... إلى هذا الحد... هيه، يا ويلك!

حاولت أن أنهض، إلا أنه هزني هزة شديدة، حتى كدت أصرخ من الألم، وارسل سيلاً من الشتائم والإهانة والوعيد...

صرخت بأنين:

– ميشيل، ميشيل، أين أنت، أنقذني.

هزني سيميون ماتفييتش مرة أخرى... و لم احتمل هذه المرة... فصرخت.

والظاهر أن ذلك ترك مفعوله فيه. فهدأ قليلاً، وترك يدي، ولكنه بقي حيث كان، على بعد خطوتين مني، بين الباب وبيني.

مضت بضع دقائق... ولم أتحرك... وكان ثقيل الأنفاس، كما كان. وأخيراً قال:

– اجلسي بهدوء، واجيبيني. اثبتي لي أن خلقك لم يفسد كلياً بعد، وأنك ما تزالين قادرة على الإصغاء لصوت العقل. أنا أستطيع أن أعذر الغواية، ولكنني لن أعذر العناد المتأصل! هل أن ابني... – والتقط أنفاسه – هل أن ميخايلو سيميونيتش وعد بأن يتزوجك؟ أصحيح هذا؟ أجيبي! هل وعد؟ ها؟

وطبيعي أنني لم أرد بشيء.

وكاد سيميون ماتفييتش يهتاج ثانية. وبعد برهة قصيرة مضى يقول:

– اعتبر صمتك بمثابة جواب إثبات. إذن، فقد اعتزمت أن تكوني كنتي؟ رائع! ولكن، رغم أنك لست طفلة في الرابعة عشرة، وأنك يجب أن تعرفي أن جميع الشبان الحمقى لا يبخلون بأكثر الوعود سخافة، لمجرد

الحصول على مبتغاهم، رغم هذا... هل من اتلمعقول إنك قدرت أن تأملي، بأنني، أنا النبيل العريق، سيميون ماتفييتش كولتوفسكي، سأوافق، في وقت من الأوقات، على مثل هذا الزواج! أم كنتما تريدان الاستغناء عن بركة الوالد؟... أردتما أن تهربا، وتتزوجا سراً، وبعد ذلك تعودان، وتمثلان تمثيلية فكاهية، وتتوسلان على أمل أن تتحرك عواطف العجوز... أجيبي، عليك اللعنة!

فما كان مني إلا أن اطرقت برأسي. كان يستطيع أن يقتلني، ولكنه لم يكن قادراً على إجباري على الكلام...

ذرع الغرفة جيئة وذهاباً بعض الوقت... ثم أنشأ يقول بصوت أكثر هدوءاً:

– اسمعي، إذن. لا يذهب بك الظن... ولا تتخيلي... أرى أنني يجب أن أتكلم معك بطريقة أخرى. اسمعي. أنا أفهم وضعك. أنت مرعوبة، مضطربة... فتمالكي نفسك. لا بد أنني أبدو لك في هذه اللحظة غولاً... طاغية. ولكن افهمي وضعي أنا أيضاً. كيف لا أحنق، ولا أقول كلاماً زائداً؟ وفوق كل ذلك أثبت لم أنني لست غولاً، وأن لي قلباً، أنا أيضاً تذكري كيف عاملتك بعد مجيئي إلى القرية، وبعد ذلك... إلى الآونة الأخيرة... إلى مرض ميخائيل سيميونيش. وأنا لا أريد أن اتبجح بفضائلي، ولكنني أتصور أن الإمتنان بحد ذاته كان يجب أن يصدك عن هذا السبيل الزلق الذي نويت أن تسيري فيه!...

وعاد سيميون ماتفييتش يذرع الغرفة مرة أخرى، وتوقف، وربّت قليلاً على يدي، نفس اليد التي ما زالت توجعني من ضغطه الشديد عليها، وظلت تحمل كدمات زرق وقتاً طويلاً بعد ذلك.

وتكلم من جديد قائلاً:

– هكذا إذن... رأسنا، رأسنا حار! نحن لا نريد أن نجشم أنفسنا عناء التفكير، لا نريد أن نعي ما هي فائدتنا، وأين يجب أن نبحث عنها. تسألينني: أين هذه الفائدة؟ لا حاجة بك إلى الذهاب بعيداً... ربما هي، بين يديك... ولكن خذيني مثلاً. فأنا، كوالد، كرب العائلة، كان يجب، بالطبع، أن ألجأ

إلى العقاب... فهذا واجبي. ولكنني إنسان، في نفس الوقت، وأنت تعرفين ذلك. لا جدال في أنني إنسان عملي، ولا يمكن، بالطبع، أن اتساهل مع أية تفاهة، ولا بد بالطبع من التخلي عن أية آمال غير معقولة، إذ، ما الفائدة منها؟ دعي عنك ما ينطوي هذا التصرف نفسه من انعدام الخلق... وهذا كله يجب أن تفهميه بنفسك، حين تعودين إلى رشدك. أما أنا فأقول لك، بدون تبجح، إنني ما كنت سأكتفي بما فعلته لك. لقد كنت مستعداً دائماً، - وما أزال مستعداً حتى الآن - إلى أن أوفر لك رفاهيتك وأعزها، وأضمن لك كل ما تحتاجين إليه، لأنني أعرف قيمتك، وأقدر مواهبك، عقلك، ثم، أخيراً... (وانحنى سيميون ماتفييتش عليّ قليلاً) أن لك عينين، ويجب الاعتراف... وأنا العجوز، ولكن النظر إليهما بعدم اكتراث كلي... أنا أفهم... هذا صعب، هذا صعب بالفعل.

وتملكتني القشعريرة من هذه الكلمات. وما كدت أصدق أذنيَّ. في الوهلة الأولى تصورت أن سيميون ماتفييتش كان يريد أن يشتري امتناعي عن ميشيل، ويقدم لي «تعويضاً»... ولكن هذه الكلمات! أخذت عيناي تتعوداتن على الظلام، واستطعت أن أتبين وجه سيميون ماتفييتش. كان يبتسم، ذلك الوجه الهرم، بينما كان صاحبه يسير بخطوات صغيرة، ويدلف أمامي... وأخيراً سأل:

- ما رأيك، إذن؟ أيعجبك اقتراحي؟

- اقتراحك؟... - كررت لاإرادياً... لم أكن أفهم أي شيء البتة.

ضحك سيميون ماتفييتش... ضحك بالفعل ضحكته الناعمة المقززة. وهتف:

- بالطبع! أنتن جميعاً، الفتيات الصغيرات... - وصحح كلامه - الأوانس... الأوانس، لا تحلمن إلا بشيء واحد: الشبان، والشبان فقط! ولا تستطيعن الحياة بدون حب! طبعاً، لا داعي للكلام! فالشباب شيء جميل! ولكن هل صحيح أن الشبان وحدهم يستطيعون أن يحبوا؟.... قد يكون للشيخ قلب أكثر حرارة، وإذا أحب واحدة كان حبه قوياً كالصخرة! وإلى الأبد! وليس مثل أولئك المُرد العاطلين ذوي العقول الفارغة! نعم، نعم،

لا يجوز الترفع عن الشيوخ! إنهم يستطيعهون القيام بالكثير! يجب فقط أن يعاملوا باقتدار! نعم... نعم! والشيوخ يحسنون المداعبة أيضاً، هي، هي، هي... - وضحك سيميون ماتفييتش من جديد - أعطيني يدك... أرجوك... للتجربة... فقط... للتجربة.

وثبت من الكرسي، ودفعته من صدره بكل قواي. مال إلى الوراء، وندّ منه صوت مذعور خائر، وكاد أن يسقط. وليس في لغة الإنسان كلمات يمكن أن تعبر عن القدر الذي بدا لي فيه دنيئاً وضيعاً. وزاتيلني كل ما يشبه الخوف.

وانفلت من صدري:

- أخرج، أيها العجوز المحتقر، أخرج يا سيد كولتوفسكي، أيها النبيل العريق! في عروقي يجري دمك، دم آل كولتوفسكي، وأنا ألعن ذلك اليوم والساعة التي جرى فيها في عروقي!

- ماذا؟... وماذا تقولين؟... ماذا؟ - جمجم سيميون ماتفييتش لاهث الأنفاس - تجرئين... في اللحظة التي وجدتك فيها... حين كنت آتية إلى ميشيل... آ؟آ؟آ؟

ولكنني لم أعد قادرة على التوقف... استيقظ في أعماقي شيء مستميت بشكل لا رحمة فيه.

- وأنت، أنت مثل... مثل أخيك، تجاسرت، وعزمت. مَنْ كنت تحسبني؟ هل معقول إنك من العمى بحيث لم تستطع أن تلحظ منذ زمان النفور الذي تثيره في نفسي؟... تجرأت على أن تستخدم كلمة اقتراح!... اطلقني حالاً، في هذه اللحظة.

آها! هكذا إذن! حين انطلق لسانها! - غمغم سيميون ماتفييتش في فورة الغيظ، ولكنه كان متردداً في الاقتراب مني، على ما يبدو... - انتظري! يا سيد راتش، إيفان دميانييتش! تعالى إلى هنا!

وانفتح مصراعاً باب غرفة البليارد المقابل للباب الذي كنت أدنو منه، وظهر زوج أمي يحمل شمعدان شموع مشتعلة في كل يد، وأضاءت الشموع وجهه الأحمر المدور من كلا الجانبين، فبدا متألقاً بنشوة الظفر لثأر

أُخِذ، وفرحة خادم بخدمة موفقة... أوه، تانك العينان البيضاوان اللئيمتان! متى ستغربان عني!

وصاح سيميون ماتفييتش، وهو يخاطب زوج أمي، ويشير إليَّ بيده المرتعشة في لهجة آمرة:

– خذ هذه الفتاة في الحال. خذها إلى بيتك، واغلق عليها بالقفل والمفتاح... بحيث... لا تستطيع أن تحرك إصبعاً، ولا تدخل عليها ذبابة! إلى أن يصدر أمري! سمّر النوافذ إذا كانت هناك ضرورة! أنت مسؤول عنها أمامي برأسك!

وضع السيد راتش الشمعدانين على طاولة البليارد، وانحنى لسيميون ماتفييتش إلى الوسط، واتجه نحوي مترنحاً قليلاً، مبتسماً بتشفٍ. لا بد أن القط يقترب بهذا الشكل من فأر لا مهرب له. وتسربت مني شجاعتي كلها على الفور. كنت أعرف أن هذا الرجل كان على استعداد إلى... أن يضربني. أخذت ارتجف، نعم، يا للعار! يا للخجل! أخذت ارتجف.

قال السيد راتش:

– طيب، يا آنسة. لنذهب.

وامسكني من يدي فوق المرفق، دون عجالة... وكان يدرك أنني لن أقاوم. سرت بنفسي نحو الباب. لم أكن أفكر، في تلك اللحظة، إلا بشيء واحد: أن أتخلص من وجود سيميون ماتفييتش بأقرب وقت.

إلا أن العجوز الدنيء وثب نحونا من الخلف، فأوقفني السيد راتش، وأدار وجهي نحو صاحبه. صاح هذا، وهو يهز قبضته:

– ها! ها! ها! أنا مثل... مثل أخب! أواصر الدم؟ ها؟ وهل الزواج من ابن العم محلل؟ ها؟ محلل، ها؟ أخرجها! – قال لزوج أمي: – وتذكر أن تنتبه عليها! أن أقل اتصال معها سيكون الإعدام قليلاً بحقه... خذها!

قادني السيد راتش إلى غرفتي. ولم يقل لش شيئاً ونحن نجتاز الفناء، بل كان يضحك في سره، طوال الوقت، وبدون صوت. أغلق الصفاقات والباب أيضاً، وبينما كان يخرج منحنياً إليَّ إلى الوسط كما فعل مع سيميون

ماتفييتش، انفجر ضاحكاً ضحكة انتصار سمجة، وولول باختناق «ليلة سعيدة، يا ابنة القيصر، يا ميليكتريسا. لم تصطد ميتروفان ابن القيصر! خسارة! الفكرة بحد ذاتها لا تخلو من حذق! هذا درس للمستقبل، حتى لا تقومي باتصالات. هو، هو، هو! ومع ذلك فكيف انتهى كل ذلك بروعة!» وخرج، وفجأة اطل برأسه من وراء الباب «ماذا؟ يعني لم أنس لك؟ وفيت بكلمتي؟ هو، هو!» وقلقل المفتاح في القفل. تنفست الصعداء. خشيت أن يشد الوثاق على يدي... ولكنهما كانتا لي... طليقتين! أسرعت فسللت الشريط الحريري من روب النوم، وعقدت أنشوطة، وقرَّبتها من رقبتي، ولكنني رميت الشريط جانباً على الفور. وقلت بصوت عال: «لن أفرحكم! وبالفعل؟ ما هذا الجنون؟ وهل يمكن أن اتصرف بحياتي دون علم ميشيل، حياتي التي وهبتها له بنفسي؟ لا، أيها الأوغاد! لا! لم تكسبوا القضية بعد! سينقذني، سينتزعني من هذا الجحيم،... حبيبي ميشيل!».

ولكنني تذكرت في تلك اللحظة أنه محجوز مثلي، فانكببت بوجهي على الفراش، وأخذت انتحب... انتحب... والفكرة الوحيدة التي جعلتني ابتلع دموعي هي تصوُّري بأن معذبي، ربما هو الآن واقف وراء الباب، يتسمعني، ويتهلل...

أنا متعبة. أنا أكتب منذ الصباح، والوقت الآن مساء. وإذا انتزعت نفسي من هذه الورقة فلن أكون قادرة على الإمساك بالريشة مرة أخرى... ليتني، ليتني أمهي ذلك بسرعة! كما أن التوقف عند القبائح التي أعقبت ذلك اليوم الرهيب فوق طاقتي!

بعد يوم نقلوني في عربة مغلقة إلى كوخ منعزل للخدم، وأحاطوني بالحراس من الريفيين، واحتجزوني بالقفل ستة أسابيع كاملة! ولم أترك وحيدة لحظة واحدة... وفيما بعد علمت أن زوج أمي قد بثَّ الأرصاد عليَّ وعلى ميشيل منذ مجيئه، وأنه رشا الخادم الذي جلب إليَّ الرسالة من ميشيل، وعلمت أيضاً أن مشهداً مريعاً شائناً قد حدث بين ميشيل وأبيه، في صباح اليوم التالي... فلعنه أبوه، كما أن ميشيل من جانبه أقسم بأن لا تطأ قدماه بيت أبيه بعد اليوم، ورحل إلى بطرسبورغ. ولكن الضربة التي

وجهها زوج أمي إليَّ انقلبت عليه أيضاً. فقد أبلغه سيميون ماتفييتش أن من غير الممكن بعد الآن بقاؤه في القرية لإدارة الضيعة، والظاهر أن سماحته في المسعى لا تغتفر، وكان يجب أن يقع عقاب الفضيحة التي حدثت على أحد من الناس. وعلى العموم فقد كافأ سيميون ماتفييتش السيد راتش بسخاء، فأعطاه المال اللازم للانتقال إلى موسكو، والإقامة فيها. وقبيل الرحيل إلى موسكو أعادوني إلى الجناح، ولكنهم أبقوني تحت الحراسة المشدَّدة كالسابق. وزاد من حقد زوج أمي عليَّ فقدانه مكاناً «دافئاً» «بسببي».

وكان يقول، وهو يكاد ينخر غيظاً:

– من فكرت أن تثيري دهشته؟ حقاً! العجوز استبد به الغيظ بالطبع، وتعجَّل، ووقع في ورطة. وطبيعي أن عزة نفسه قد جرحت، والآن ليس من الممكن اصلاح الخطأ. ولو تريثت يومين لجرت الأمور في يسر، ولما أصابك عسر، ولبقيت أنا كما كنت! نعم، بالضبط. شعر النسوة طويل... وعقولهن قصيرة! طيب، لا بأس، سآخذ نصيبي، ولن ينساني ذلك الطير (وكان يقصد ميشيل).

كان عليَّ، بالطبع، أن اتحمل كل هذه الإهانات بصمت. ومنذ ذلك الحيسن لم أر سيميون ماتفييتش قط. أن فراق ابنه زعزعه هو أيضاً. ولا أدري هل شعر بالندم أم لا، وهذا أكثر احتمالاً، رغب في أن يشدني نهائياً إلى بيتي، إلى عائلتي – إلى عائلتي! – إلا أنه خصص لي نفقة كانت يجب أن تصل إلى زوج أمي، وتستمر إلى أن أتزوج... ولحد الآن أحصل على هذه الصدقة المهينة، هذه النفقة... وأقصد أن السيد راتش يتسلَّمها نيابة عني.

وسكنا في موسكو. أقسم بذكرى أمي المسكينة، أنني ما كنت سأبقى مع زوج أمي يومين، ساعتين، وأنا في المدينة... كنت سأذهب إلى حيث لا أدري... إلى الشرطة، أرتمي على قدمي حاكم الولاية، الشيوخ، كنت سأفعل ما لا أدري، لو لم أتسلم رسالة من ميشيل عن طريق خادمتي السابقة، في لحظة رحيلي عن القرية. ويا لها من رسالة! كم مرة أعدت قراءة كل سطر فيها، كم مرة غطيتها بقبلاتي! كان ميشيل يتوسل إليَّ ألا تثبط عزيمتي، وأن آمل، وأكون واثقة بحبه الثابت. وأقسم عليَّ أن يبقى لي، وكان يسميني

زوجته، ويعد بإزالة كل العقبات، ويرسم صورة لمستقبلنا، ورجاني شيئاً واحداً: أن اصبر وانتظر قليلاً... وعزمت على أن انتظر واتحمَّل. آه، سأوافق على كل شيء، واتحمل أي شيء، لتنفيذ إرادته لا غير! لقد أضحت تلك الرسالة قُدُسي، نجمي الهادي، مرساتي. كان يحدث أن زوج أمي يبدأ بتقريعي، وأهانتي، فأضع يدي على صدري خلسة (كنت أحمل رسالة ميشيل مخاطة بحجاب) واكتفي بالابتسام. وكلما أوغل السيد راتش في عربدته وسبابه كان ذلك أروح عليَّ وأعذب. وأخيراً رأيت في عينيه أنه أخذ يفكر في أنني ربما أفقد عقلي... أعقبت الرسالة الأولى - رسالة ثانية مترعة بآمال أكثر... كانت تتحدث عن لقاء قريب.

آه، وبدلاً من هذا اللقاء حلّ صباح رأيت فيه السيد راتش يدخل عليّ غرفتي - والنصر المتشفي يطل من وجهه مرة أخرى - حاملاً صحيفة «اينفاليد»[1] وفيها نبأ وفاة رائد سلاح الفرسان ميخائيل كولتوفسكي... مشطوب من القوائم.

ماذا أستطيع أن أضيف؟ بقيت على قيد الحياة، أواصل العيش عند السيد راتش. إنه كان يكرهني كالسابق، وأكثر من السابق، وقد كشف أمامي تماماً عن نفسه السوداء، وما كان في وسعه أن يغفر لي ذلك. ولكن كل شيء سواء لديّ. لقد أصبحت عديمة الشعور، و لم يعد مصيري يشغلني. وليس لي فرحة غير تذكره، نعم تذكره! لقد فارق حبيبي ميشيل الحياة، واسمي على شفتيه... ذكر لي ذلك شخص وَفيّ له[2] كان قد جاء معه إلى القرية. وفي ذلك العام عرّس زوج أمي على اليونورا كاربوفنا. وبعد قليل توفي سيميون ماتفييتش، وقد أكد في وصيته الأخيرة راتبي التقاعدي وزاده... وفي حالة وفاتي سينتقل إلى السيد راتش، حسب الوصية...

مرت سنتان، ثلاث... مرت ست سنوات، سبع... كانت الحياة تمر، تجري... وليس لي إلا أن أراقب جريانها. ومثلما كان يحدث في الطفولة،

١- هي جريدة «روسكي اينفاليد» التابعة لوزارة الحربية، كانت تنشر الأوامر الإدارية العسكرية.

٢- المقصود هنا ميركول تسيليندروف. راجع الملاحظة رقم ١ ص٢٥.

تبني على شاطىء جدول مشتلاً من الرمال، وتقيم سداً، وتسعى بكل جهدك أن لا يخترقه الماء، ويجتاحه... ولكنه يجتاحه، أخيراً، فتترك أنت كل مشاغلك، وتحس بالمرح، وأنت ترى أن ما بنيته يسيح إلى آخر قطرة...

وهكذا كنت أعيش، هكذا كان الزمن يمضي عليَّ، إلى أن ظهر، أخيراً، شعاع جديد، غير متوقع من الدفء والنور...

توقفت المخطوطة عند هذه الكلمة، وكانت الأوراق التالية مخلوعة، وبعض السطور التي تختم العبارة مشطوبة، وممسوحة بلطخات الحبر.

- ١٨ -

أربكتني قراءة هذا الدفتر ارباكاً عظيماً، وكان وقع زيارة سوسانا لي عظيماً جداً حتى إنني أرقت الليلة كلها، وفي الصباح الباكر بعثت رسالة مع الساعي إلى فوستوف أحثه فيها بالعودة إلى موسكو بأقرب وقت ممكن، لأن غيابه قد يتسبب بأوخم العواقب. كما لمحت له، إلى لقائي بسوسانا، وإلى الدفتر الذي وضعته بين يدي. وبعد ارسالي هذه الرسالة بقيت طوال اليوم في بيتي لا أبرحه، مفكراً فيما يمكن أن يحدث في بيت السيد راتش. و لم أزمع الذهاب إلى هناك. ومع ذلك ما كان من الممكن أن لا الاحظ أن خالتي كانت في حالة اضطراب دائم، وكانت تأمر، في كل دقيقة تقريباً، بأن يدخنوا الغرفة، وتصفّ الورق لتستخيره على طريقة معروفة بأنها لا تجلب فالاً حسناً! لم تعد سراً لها زيارة سيدة غريبة لي وفي ذلك الوقت المتأخر فضلاً عن ذلك. فصوَّر لها خيالها في الحال هاويةً فاغرة كنت أقف أنا على حافتها، فكانت تتنهد باستمرار، وتتأوه، وتتفوه بصوت خافت جملاً فرنسية استقتها من كتاب مخطوط بعنوان Extraits lectuer [1]، وفي المساء وجدت على منضدتي الصغيرة مؤلف دي جيراندو[2] مفتوحاً على

١- «مقتطفات من المطالعات» (بالفرنسية في الأصل). - الناشر.

٢- المقصود هنا مؤلف الفيلسوف الاخلاقي الفرنسي جوزيف ماري جيراندو (١٧٧٢ - ١٨٤٢) «حول تحسين الاخلاق وتربية نفسه لنفسه» (١٨٢٥). كان هذا المؤلف من عداد المواد الدراسية الالزامية في بعض المعاهد.

فصل «حول مضارّ العواطف». وقد جلبت هذا الكتاب إلى غرفتي بأمر من خالتي، بالطبع، رفيقتها الكبرى التي كان أهل البيت يسمونها «تميشكا» لشبهها بكلبة «بوديل» صغيرة تحمل هذا الاسم، وهذه الرفيقة آنسة عاطفية جداً، بل ورومانسية، ولكن موسم نضجها قد فات. وقضيت اليوم التالي كله بانتظار مضن لوصول فوستوف، أو رسالة منه، أو أخبار من بيت راتش... رغم أنني ما كنت أتوقع ذلك، ولأي موجب؟ الأكثر احتمالاً أن تفترض سوسانا أن أزورها... ولكن لم تكن لديّ، مطلقاً، العزيمة الكافية لرؤيتها قبل التحدث إلى فوستوف أولاً. استرجعت في ذاكرتي كل التعابير التي سطرتها في رسالتي... يبدو أنها كانت قوية بما فيه الكافية، وأخيراً، ظهر في ساعة متأخرة من المساء.

- ١٩ -

دخل عليّ حجرتي بمشيته المعتادة، السريعة والمتأنية في الوقت ذاته. بدا لي وجهه ممتقعاً، ترتسم عليه الحيرة والفضول وعدم الارتياح، من آثار تعب السفر كما يبدو، وهذه مشاعر قلّ أن يعرفها في الأوقات الاعتيادية. اندفعت نحوه، وعانقته، وشكرته بحرارة لاستجابته لي، ونقلت ببضع كلمات حديثي مع سوسانا، وسلمته دفترها. ابتعد إلى النافذة، نفس النافذة التي جلست سوسانا عليها قبل يومين، وأخذ يقرأ، دون أن يقول لي كلمة واحدا. تنحيت فوراً إل طرف الحجرة المقابل، وتناولت كتاباً متظاهراً باللامبالاة، ولكنني كنت، واعترف بذلك، طوال الوقت اختلس النظر إلى فوستوف عبر حافة الكتاب. في البداية كان يقرأ بهدوء لا بأس به، وهو لا يفتأ يعبث بطرف الشعرات على شفته، بيده اليسرى، ثم أنزل يده، وانحنى إلى الأمام، وجمد لا يريم حراكاً. كانت عيناه تمران على السطور بسرعة، وفمه مفتوح قليلاً. وها قد انتهى من قراءة الدفتر، وقلّبه، ورجال بصره فيما حوله، واطرق مفكراً، ثم عاود القراءة من جديد، وقرأ الدفتر للمرة الثانية من البداية إلى النهاية. ثم نهض، ووضع الدفتر في جيبه وتوجه نحو الباب، ولكنه عاد، ووقف في وسط الغرفة.

بدأت أقول دون أن انتظر أن يبادر هو بالكلام:

- طيب، ما رأيك؟

قال فوستوف بصوت كامد:

- أنا مذنب إزاءها. تصرفت... بلا ترو، وبشكل وحشي لا يغتفر... صدقت به... بفيكتور.

هتفت:

- كيف! بفيكتور الذي تحتقره تماماً؟ ولكن ماذا كان في إمكانه أن يقول لك؟

طوى فوستوف ذراعيه، ووقف مولياً جنبه إليّ. كان خجلاً وهذا ما رأيته.

قال وليس بدون اجهاد:

- أنت تذكر... فيكتور... هذا أشار إلى النفقة. وتلك الكلمة التعيسة انغرزت فيّ. وهي سبب كل شيء. أخذت استفسر منه... حسناً، وهو...

- وماذا هو؟

- قال لي أن العجوز ذاك... ما اسمه؟... كولتوفسكي. خصص هذه النفقة لسوسانا لأنه... طيب، باختصار، على شكل مكافأة.

بسطت يدي حيرة.

- وصدقته؟

احنى فوستوف رأسه.

- نعم! صدقته... وقال أيضاً ومع الشاب كذلك... باختصار لم يكن لسلوكي ما يبرره.

- ورحلت حتى تقطع كل شيء؟

- نعم، هذه أحسن وسيلة... في مثل هذه الأحوال - وانتهى إلى القول - لقد تصرفت بوحشية، بوحشية.

صمت كلانا. وأحس كل واحد منا أن الآخر خجل، ولكنني كنت شعوراً، إذ لم يكن خلي من نفسي.

- ٢٠ -

مضى فوستوف يقول صاكاً على أسنانه:

- كنت سأحطم عظام فيكتور هذا كلها، لو لم أدرك بنفسي إنني مذنب. أنا أفهم الآن السبب في تدبير هذه المكيدة كلها. الأوغاد! أن هؤلاء كانوا سيحرمون من النفقة لو تزوجت سوسانا...

أمسكت يده، وقلت:

- هل كنت عندها يا ألكسندر؟

- لا، جئت إليك من السفر رأساً. سأذهب غداً... غداً في الصباح الباكر. لا يجوز ترك هذه المسألة بهذا الشكل. لا يجوز، مطلقاً!

- أتحبها، يا ألكسندر؟

وبدا فوستوف كالمتكدر.

- أحبها، بالطبع شغفت بها كثيراً.

فهتفت:

- إنها فتاة رائعة، نزيهة!

ضرب فوستوف الأرض بقدمه بنفاد صبر.

- وماذا تتصور؟ كنت مستعداً إلى أن أتزوجها - فهي مسيحية - والآن أيضاً مستعد إلى أن أتزوجها. وقد وطدت فكري على ذلك بالفعل، وأن كانت أكبر سناً مني.

وفي تلك اللحظة خيل إليّ فجأة أن امرأة شاحبة تجلس على النافذة متكئة على يديها. وكانت الشموع قد احترقت، والظلام يخيم على الغرفة. جفلت، ورحت أحدق تحديقاً أشد، ولم أر، بالطبع، شيئاً على إفريز النافذة، إلا أن شعوراً غريباً، مزيجاً من الذعر والوحشة والأسف قد استولى عليَّ.

أنشأت أقول بحماس مفاجىء:

- ألكسندر! أرجوك، أتوسل إليك، أن تذهب الآن إلى بيت راتش، ولا تؤجل ذلك إلى غد! إن صوتاً في داخلي يحدثني بوجوب رؤية سوسانا اليوم حتماً، وليس غداً!

هزّ فوستوف كتفيه.

– ما هذا، أرجوك! الساعة تجاوزت العاشرة الآن. وجميع أهل البيت نائمون، في أغلب الظن.

– وليكن... فاذهب بحق الرب! عندي هاجس... أرجوك، اطعني! أذهب الآن، استأجر عربة...

– ولكن أي هراء هذا! – اعترض فوستوف ببرود أعصاب – بأي موجب أذهب الآن؟ سأذهب غداً صباحاً واستوضح كل شيء.

– تذكر، يا ألكسندر، أنها كانت تقول إنها ستموت، وأنك لن تجدها حيّة... ثم ليتك رأيت وجهها! فكر، وتصوَّر أن أقدامها على المجيء إليّ... كم كلفها...

– أن لها رأساً حامياً – قال فوستوف وقد تمالك نفسه من جديد كلياً، على ما يبدو – وجميع الفتيات بهذا الشكل... في الفترات الأولى. أكرر أن كل شيء سيعود إلى نصابه غداً. والأن، وداعاً. لقد تعبت، كما إنك تريد أن تنام.

وتناول قبعته، وخرج من الغرفة. صحت في أثره:

– وهل تعد بأن تأتي إليّ حالاً، وتبلغني بكل شيء؟

– إعدك... وداعاً!

تمددت على السرير، ولكن الهدوى لم يدخل إلى قلبي، وانزعجت من صديقي. و لم أنم إلا في ساعة متأخرة، حيث رأيت في الحلم أنني وسوسانا نتجول في ممرات رطبة تحت الأرض، ونهبط سلماً ضيقاً شديد الانحدار، وتوغل إلى الأسفل أكثر فأكثر، وإن كان يتحتم علينا الصعود إلى فوق، إلى الهواء، وأن صوتاً كان ينادينا طوال الوقت، باستمرار ورتابة وتشك.

– ٢١ –

استقرَّت يد على كتفي، ودفعتني عدة مرات... فتحت عيني، وفي الضوء الباهت للشمعة الوحيدة رأيت فوستوف أمامي. أرعبني. كان يتمايل على رجليه، ووجهه أصفر يشابه لون شعره. وشفتاه متدليتان، وعيناه الكدرتان

تحدقان في ناحية بلا معنى. فأين ذهبت نظرتهما الحنون الودود أبداً؟ كان لي ابن عن قد أصيب بالعته بسبب الصرع... وكان فوستوف يشبهه في تلك اللحظة.

رفعت جسمي بسرعة.

– ما هذا؟ ماذا بك؟ يا إلهي!

لم يجب بشيء.

– ماذا حصل؟ فوستوف! تكلم حالاً! سوسانا؟...

ارتعش فوستوف ارتعاشاً خفيفاً.

– هي...

شرع يقول بصوت أبح، وصمت.

– ماذا بها؟ هل رأيتها؟

تفرّس فيَّ.

– لم تعد موجودة.

– كيف لم تعد موجودة؟

– انتهت. ماتت.

قفزت من السرير.

– كيف ماتت! سوسانا؟ ماتت؟

وارتد ببصره إلى ناحية مرة أخرى.

– نعم، ماتت، في منتصف الليل.

ومرق في ذهني: «لقد جُنّ!»

– وكم الساعة الآن؟

– الساعة الثامنة الآن. بعثوا من يخبرني بذلك، وغداً ستُدفن.

اختطفت يده.

– ألا تهذي، يا ألكسندر؟ أما زلت محتفظاً بعقلك؟

أجاب:

- ما زلت، وحالما علمت بذلك هرعت إليك.

تحجر قلبي في صدري بشكل ممرض، مثلما يحدث دائماً عند التيقّن من مصيبة وقعت، ولا مردّ لها. رحت أكرر:

- يا إلهي! يا إلهي! ماتت! كيف يمكن هذا! بهذا الشكل المباغت! أم ربما هي التي قضت على حياتها؟

قال فوستوف:

- لا أدري. لا أعرف أي شيء. أبلغوني أنها توفيت في منتصف الليل. وغداً ستدفن.

فكرت مع نفسي: «في منتصف الليل... إذن، كانت ما تزال حيَّة يوم أمس، حين تراءت لي جالسة على النافذة، حين كنت أتوسل إليه أن يهرع إليها...».

قال فوستوف، وكأنه حدس أفكاري:

- كانت ما تزال حية يوم أمس، حين كنت تريد أن ترسلني إلى إيفان دميانيتش.

وفكرت ثانية: «ما أقل معرفته بها! ما أقل معرفتنا كلينا بها! كان يقول رأسها حام، وجميع الفتيات بهذا الشكل... وفي تلك اللحظة، ربما كانت تقرب من شفتيها... هل من الممكن أن يحب الإنسان إنساناً آخر ويخطىء فيه هذا الخطأ الفظ؟».

كان فوستوف يقف أمام سريري جامداً، وذراعاه مسبلتان، كالمذنب.

- ٢٢ -

لبست على عجل. وسألت:

- وماذا تنوي أن تفعل الآن، يا ألكسندر؟

كان ينظر إليَّ بحيرة، وكأنما يندهش من سخافة سؤالي. ولكن، ما العمل حقاً؟ قلت:

– على كل حال لا يمكن أن تمتنع عن الذهاب إليهم. يجب أن تعرف كيف حصل ذلك. لعلّ الأمر يخفي جريمة، يجب توقع كل شيء من هؤلاء الناس... يجب التحقق من كل شيء كلياً. تذكر ما في دفترها: النفقة تحوّل إلى راتش في حالة الوفاة. وعلى كل حال يجب القيام بالواجب الأخير، الصلاة على روحها!

كنت أحدث فوستوف كالمعلم، كالأخ الكبير. فإن شعوراً لا إرادياً في التفوق على فوستوف استولى عليَّ فجأة، وسط كل هذا الفزع والمحنة، والذهول... والله يعلم هل كان ذلك لأنني رأيته مسحوقاً بإحساسه بالذنب، منهاراً، مقضياً عليه أم لأن المصيبة حين تحل بإنسان تفتك به على الدوام تقريباً، وتحط منه في أعين الآخرين، ولسان حالهم يقول: «يعني أنت سيء، ما دمت لم تستطع أن تتحاشاها». سوى أن فوستوف بدا لي كالطفل تقريباً، ورثيت لحاله، وكنت أدرك ضرورة ابداء الحزم. كنت أمد إليه يداً من علٍ. والشفقة النسائية وحدها لا تأتي من فوق إلى تحت.

إلا أن فوستوف ظل ينظر إليّ بكمد ووحشية. والظاهر أن منزلتي لم تؤثر فيه، فردّ على سؤالي الثاني: «ستذهب إليهم، بالطبع؟» بـ «لا، لا أذهب».

– وكيف هذا، أرجوك! ألا تريد أن تعرف، أن تستفسر كيف حصل ذلك؟ ربما تركت رسالة... وثيقة ما... أتوسل إليك!

هزّ فوستوف رأسه، وقال:

– لا أستطيع أن أذهب إلى هناك. ولقد جئت إليك لأطلب منك أن... بدلاً مني... أما أنا فلا أستطيع... لا أستطيع...

وجلس فوستوف إلى المنضدة فجأة، وغطى وجهه بكلتا يديه، واجهش يبكي بمرارة. وظل يقول من خَلَل الدموع:

– آه، آه، آه... مسكينة... بائسة... كنت... كنت أحبها... آه، آه!

وقفت بالقرب منه، ويجب أن اعترف أن هذه النشجات الصادقة حقاً لم تخلف فيَّ أي عطف، سوى أنني دهشت من قدرة فوستوف على أن يبكي هذا البكاء، وبدا لي أنني أدركت الآن أنه رجل ضئيل، وأنني، لو كنت في مكانه، لتصرفت بشكل آخر تماماً. ويا للعجب بعد هذا! لو أن فوستوف بقي

هادئاً تماماً لكرهته ونفرت منه، ولكن ما كان سيسقط في نظري. لبقيت مكانته في نفسي. لظل دون جوان دون جواناً! أن الإنسان في وقت متأخر جداً من حياته - وليس إلا بعد تجارب كثيرة - يتعلم، لدى رؤيته لسقوط أو ضعف صاحبه، التعاطف معه، ومساعدته دون تلذذ خفي بطيبته وقوته، بل على العكس، قبول وتفهم لطبيعية ذنبه وحتميته تقريباً!

- ٢٣ -

كنت أحث فوستوف بشجاعة كبيرة وحزم على الذهاب إلى آل راتش، ولكنني حين أتجهت إليهم في نحو الساعة الثانية عشرة (لم يوافق فوستوف على الذهاب معي مهما حاولت، وطلب مني فقط أن أقدم له وصفاً مفصلاً لكل شيء) وحين أطل عليَّ من بعيد، من وراء عطفة الزقاق، بيتهم وقد لاحت من إحدى نوافذه شمعة التابوت بلهب ذبالتها المصفر، هبط على أنفاسي رعب لا يوصف، فوددت بطيبة خاطر أن أعود من حيث أتيت... ولكنني سيطرت على نفسي، ودخلت الغرفة الأمامية، كانت تفوح منها رائحة البخور والشمع. كان غطاء التابوت الوردي المحاط بحاشية فضية مركوناً على الحائط في أحد الأركان. وكانت دمدمة الشماس الرتيبة تطن في إحدى الحجرات المجاورة، في غرفة الطعام، طنين نحلة طائرة. أطلّ من حجرة الجلوس وجه خادمه ناعس، وبعد أن قالت بصوت خافت: «هل جئت للصلاة على روحها؟» أشارت إلى باب غرفة الطعام. دخلت الغرفة. كان رأس التابوت يواجه الباب، فكان أول ما وقعت عيناي عليه شعر سوسانا الأسود تحت إكليل أبيض صغير يتوسد وسادة مخملية مرفوعة قليلاً. ووقفت من جنب، ورسمت علامة الصليب، وانحنيت في خشوع، ونظرت... يا ربي! أي منظر حزين! البائسة! حتى الموت لم يشفق عليها، ولك يكسبها - ولا أقول الجمال - بل وحتى تلك السكينة، الحنون والمؤثرة التي غالباً ما ترتسم على قسمات الموتى. وكان وجه سوسانا الصغير، الداكن، البني تقريباً يشله وجوه الإيقونات العتيقة، ثم أي تعبير كان على هذا الوجه! تعبير مَنْ كان يهم، على ما يبدو، باطلاق صيحة استماتة، فجمد دون أن يطلقها... وحتى التغضن بين الحاجبين لم يرتخ، وأصابع اليدين مقلوبة مضمومة. وجدت نفسي أشيح بصري دون إرادتي، وبعد قليل أجبرت نفسي على

النظر، على النظر إليها بإمعان ولوقت طويل. وامتلأت روحي بالرثاء، وليس بالرثاء وحده. فقد قررت في سري أن «هذه الفتاة أجربت على الموت. هذا بلا شك». وبينما كنت أحدق في الميتة عاد الشماس إلى الطنين، وتثاتءب مرتين، وكان لدى دخولي قد رفع نبرته، واطلق بعض اا كلمات الواضحة. انحنيت للمرة الثانية، وخرجت إلى الرواق. وكان السيد راتش في انتظاري على عتبة حجرة الضيوف يرتدي روباً منزلياً زاهي اللون، وأشار لي بيده يدعوني إليه، وقادني إلى غرفة مكتبه، وكدت أقول إلى جحره. فقد كانت غرفة المكتب هذه الكئيبة الضيقة، المشبعة كلياً برائحة التبغ الألماني الحامزة القوية تلح على الذهن أن يقارنها بمأوى الذئب أو الثعلب.

- ٢٤ -

وحالما أغلق السيد راتش الباب حتى انبرى يقول:

- تمزق! تمزق تلك الأغشية... الأغلفة... أنت تعرف... الأغشية! يا للمصيبة! وحتى مساء البارحة لم يكن من الممكن ملاحظة شيء. وفجأة... دفعة وا..حدة! طراق! وإلى نصفين! وحلّت المنية! بالضبط كما يقال: morgen todt، morgec todt [1] والحق أن هذا كان متوقعاً. كنت أتوقع ذلك باستمرار. أخبرني طبيب الفوج في تامبوف، غاليمبوفسكي فيكينتي كازيميروفيتش... لعلك قد سمعت به... ممارس ممتاز، أخصائي.

قلت:

- لأول مرة اسمع باسمه.

- طيب، وليكن. كان - مضى السيد راتش يقول بصوت خافت في البداية، ثم راح يرفعه أكثر فأكثر، بلكنة ألمانية ملحوظة دهشت لها - كان يحذرني دائماً «هاي، إيفان دميانيتش! هاي، يا صديقي، احترس! إن ابنة زوجتك مصابة بقصور في القلب !hypertrophia cirdialis [2] لأقل شيء وتكون النهاية! يجب تجنب الأحاسيس القوية أكثر من أي شيء آخر...

١- «اليوم حي وغداً ميت» بالألمانية في الأصل. - الناشر.

٢- تضخم القلب (باللاتينية في الأصل). الناشر.

ويجب التصرف بتعقل... «وكيف يمكن هذا مع فتاة في ريعان الشباب! التصرف بتعقل؟ ها... ها... ها...

وكاد السيد راتش يضحك ضحكته المعتادة لو لم يتنبه في الوقت المناسب، ويغيِّر الصوت الذي بدر منه إلى سعال.

وهذا ما كان يقوله السيد راتش بعد كل ما عرفته عنه!... وعلى أية حال، رأيت من الضروري أن أسأله: هل استدعي الطبيب؟

ورأيت السيد راتش ينط.

– بالطبع، استدعي... استدعينا طبيبين، ولكن الأمر كان قد قُضي. abgemacht!. تصور أن كليهما كأنما توافق (ومن المحتمل أن السيد راتش كان يريد أن يقول: تواطأ) تمزق! تمزق القلب! أطلقا هذه الكلمة معاً، واقترحا تشريح الجثة، ولكنني... أنت تفهم، لم أوافق.

فسألت:

– والدفن غداً؟

– نعم، نعم، غداً. سندفن حبيبتنا غداً! الخروج من البيت سيكون في تمام الحادية عشرة عند منتصف الليل... من هنا إلى كنيسة نيقولا على كورينيه نوجكي[1]... تعرفها؟ لكنائسكم الروسية أسماء غريبة! ثم مثواها الأخير في أمنا الأرض الرطبة! هل تتفضل؟ تعارفنا منذ وقت قصير، ولكن أجرؤ على القول، أن أدب خلقك، وسمو مشاعرك...

أسرعت بهز رأسي.

– نعم، نعم، نعم – وزفر السيد راتش – أن ذلك بالضبط حسب التعبير القائل بروق في سماء صاحية! Ein Blitz aus heiterem Himmel!.

– ألم تقل سوسانا إيفانوفنا شيئاً قبيل وفاتها، ألم تترك شيئاً؟

– لا شيء على الإطلاق. ولا قشة! ولا قصاصة ورق! تصور، حين استدعوني إليها، حين أيقظوني، كانت قد فارقت الحياة! لقد تأثرت عظيم التأثر. غمتنا جميعاً غماً شديداً! أظن أن ألكسندر دافيديتش، سيتأسف أيضاً، حين يعرف... يقولون: إنه ليس في موسكو؟

١– الترجمة الحرفية «على أرجل الدجاج». – **الناشر**.

– بالفعل سافر لبضعة أيام...

قطعت كلامي الخادمة التي رأيتها في الرواق، إذ دخلت وقالت:

– فيكتور إيفانيتش يشكو من أنهم يتأخرون في إعداد الزلاجة له.

وجهها الناعس، كما كان من قبل، ادهشني هذه المرة بما ارتسم عليه من غلظة جسور، تبدو لدى الخدم حين يكونون عارفين أن أسيادهم لا يستغنون عنهم، ولا يتجاسرون على شتمهم ولا على معاقبتهم. فراح إيفان دميانيتش يكرر:

– حالاً، حالاً. اليونورا كاربوفنا! Leonore; Lenchen! تعال إلى هنا، أرجوك!

واضرب وراء الباب شيئاً متثاقلاً، وصدر في تلك اللحظة هتاف فيكتور الآمر: «لماذا لا يشدون الحصان إلى الزلاجة؟ أيعقل أن أذهب ماشياً إلى البوليس؟».

– حالاً، حالاً – غمغم إيفان دميانيتش مرة أخرى – اليونورا كاربوفنا، تعاليْ إلى هنا أرجوك!

فتردد صوتها:

– Aber إيفان دميانيتش، !ich habe keine Toilette gemacht.

– !Macht nichts. Komm herein [1].

ودخلت اليونورا كاربوفنا، وهي تمسك بإصبعين منديلاً على رقبتها العارية، مرتدية روب الصباح، و لم تلحق أن تصفف شعرها بعد. اندفع إيفان دميانيتش إليها في الحال.

– أنت تسمعين أن فيكتور يطلب حصاناً – قال وهو يشير بإصبعه في عجالة إلى الباب تارة، وإلى النافذة تارة أخرى – أرجوك تصرفي بنشاط أكثر! Der Kerl schreit so.

أجابت اليونورا كاربوفنا:

١– ولكنني لم ألبس بعد! – توافه. ادخلي! (بالألمانية في الأصل). – الناشر.

- إيفان دميانيتش، Der Fictor schreit inner، Sie wissen wohl[1]- وقد قلت للحوذي بنفسي، ولكن عنّ له أن يقدم الشوفان للحصان. ثم هذه المصيبة التي حلّت على غفلة - أضافت وهي تستدير نحوي - مَنْ كان في وسعه أن يتوقع ذلك من سوسانا إيفانوفنا؟

- كنت دائماً أتوقع ذلك، دائماً! - صاح راتش، ورفع ذراعيه عالياً، فانفتحت طيتا روبه من أمام، وانكشفت سراويل تحتانية مقيتة مصنوعة من جلد الشموا وأبازيم نحاسية على النطاق - تمزق! تمزق الأغشية! غيبرتروفيا!

فراحت اليونورا كاربوفنا تردد في أثره:

- نعم، نعم. غيبو... هذا هو، سوى أنني آسفة جداً جداً، على أية حال أقول... - وتلوى قليلاً وجهها الفج، وارتفع حاجباها قليلاً على شكل مثلث، وتدحرجت دمعة صغيرة على خدها المدوّر المصقول كخد دمية تماماً... - يؤسفني كثيراً أن مثل هذه الإنسانة الشابة التي ما كان لها إلا أن تعيش وتتمتع بكل شيء... بكل شيء... يصيبها اليأس بهذا الشكل!

قاطعها السيد راتش:

- Na، gut، gut... geh، alte! [2].

- Geh schon، geh schon [3].

دمدمت اليونورا كاربوفنا بذلك، وانصرفت، وهي ما تزال تمسك منديلها بأصابعها، وتذرف قطرات الدموع.

سرت وراءها. كان فيكتور يقف في الرواق مرتدياً معطفاً طلابياً له ياقة من فراء القندس، وقبعة ممالة. ألقى عليّ نظرة خاطفة عبر كتفه، وهز ياقته، و لم يسلم عليّ، فشكرته كثيراً في ذهني على ذلك.

وعدت إلى فوستوف.

١- إنه يصرخ صراخه هذا! - فيكتور دائماً يصرخ، وأنت تعرف ذلك جيداً (بالألمانية في الأصل). - الناشر.

٢- آها، طيب، طيب... أذهبي، يا عجوز! (بالألمانية في الأصل). - الناشر.

٣- ذاهبة، حسناً ذاهبة (بالألمانية في الأصل). - الناشر.

وجدت صديقي جالساً في ركن مكتبه مطرق الرأس، مطوي الذراعين على صدره. كان في حالة من الذهول، وكان ينظر فيما حوله بانشداه بطيء لإنسان نام نوماً عميقاً جداً، وأُوقظ لتوه. رويت له زيارتي لراتش، ونقلت له كلام المحارب القديم، وكلام زوجته، والانطباع الذي طلعت به منهما كليهما، وأبلغته اعتقادي بأن الفتاة البائسة هي التي قضت على نفسها... استمع فوستوف إليّ دون أن يغير التعبير المرتسم على وجهه، وكان ينظر فيما حوله بنفس الانشداد.

وأخيراً سألني:

- هل رأيتها؟

- رأيتها.

- في التابوت؟

وبدا فوستوف وكأنه يشك في أن سوسانا قد ماتت بالفعل.

- في التابوت.

تعبّس فوستوف، وغضّ بصره، وفرك يديه بهدوء.

سألت:

- هل تحس ببرد؟

- نعم، يا أخ، أحس ببرد.

أجاب بوقفات بين الكلمات، وهزّ رأسه بلا معنى.

أخذت أثبت له أن سوسانا قد سممت نفسها بالتأكيد، أو ربما سممها آخرون، ولا يجوز أن يُترك هذا الأمر كما هو...

تفرس فوستوف فيَّ.

- وما العمل هنا؟ - قال وراح يرمش رمشاً بطيئاً وبسعة. سيكون أسوأ... إذا عرف الناس. فلا تُدفن يجب ترك الأمر... بهذا الشكل.

و لم تكن هذه الفكرة البسيطة جداً قد خطرت في ذهني. و لم يكن تفكير صاحبي العملي قد خانه. تابع يقول:

– متى... ستدفن؟

– غداً.

– هل ستذهب؟

– نعم.

– إلى البيت أم إلى الكنيسة مباشرة؟

– إلى البيت وإلى الكنيسة، ومن هناك إلى المقبرة.

– أما أنا فلا أذهب... لا أقدر، لا أقدر.

همس فوستوف، وأخذ يجهش، مثلما أجهش في الصباح على نفس هذه الكلمات. وقد لاحظت أن هذا غالباً ما يحصل للباكي، وكأن كلمات معينة، ومعظمها غير مهمة، ولكنها هي دون غيرها تفجّر في الإنسان ينبوع الدموع، وتهزه، وتثير في نفسه شعور الإشفاق على الغير وعلى نفسه أيضاً... أتذكر أن فلاحة أخذت تتحدث في حضوري عن موت ابنتها الفجائي، أثناء الغداء، فانفجرت باكية، و لم تستطع أن تستمر فيما بدأت تقصه، ما أن نطقت بهذه العبارة: «قلت لها: ما بك يا فيكلا؟ ردت عليَّ: ماما، الملح... أين... الملح أين... الملح...» أن كلمة «ملح» كانت تثير كمدها. ولكن دموع فوستوف، مثلما هي في الصباح، لم تؤثر كثيراً في نفسي. فأنا لم أكن أفهم لماذا لم يستطع أن يسألني هل تركت سوسانا له شيئا؟ وعلى العموم كان حبهما المتبادل لغزاً بالنسبة لي. وبقي لغزاً بالنسبة لي، كما كان.

بكى فوستوف حوالي عشر دقائق، نهض بعدها، ورقد على الأريكة، وأدار وجهه إلى الحائط، وبقي جامداً. تريثت قليلاً، ثم تهيأت للانصراف بعد أن رأيته لا يتحرك، ولا يجيب عن أسئلتي. ربما أنا أتهمه بالباطل. ولكن لا أحسب أنه لم يغف. وعلى كل حال ما كان هذا ليكون دليلاً على عدم شعوره بالأسى... ولكن جبلته لم تكن تتحمل الأحاسيس الحزينة وقتاً طويلاً... إن جبلته كانت طبيعية جداً!

– ٢٦ –

في تمام الحادية عشرة من اليوم التالي كنت هناك. كانت ندف بَرَد دقيقة تتناثر من السماء المنخفضة، والصقيع ليس شديداً، والذوبان على الأبواب،

إلا أن في الهواء تيارات حادة مزعجة... كان طقساً رديئاً من ذلك النوع الذي يصادف أيام الصوم الكبير. وجدت السيد راتش على مدخل بيته. كان في سترة سوداء عليها مشدات الحداد، حاسر الرأس، يلغط، ويلوح ذراعيه، ويضرب فخذيه، يصرخ تارة في داخل البيت، وتارة في الشارع باتجاه عربة الموتى الواقفة هناك عليها منصة بيضاء، وعربتين للأجرة كان يقف قربهما أربعة جنود من الحامية ساهمين يشدون على معاطفهم القديمة شارات سوداء، وينكسون قبعات الحداد على وجوه متغضنة، وقد ركزوا في الثلج الرخو مقابض مشاعل لم تشعل بعد. وكان الشعر الأشيب الشبيه بالقبعة يعلو وجه السيد راتش الأحمر كالعادة، وصوته النحاسي يتقطع من شدة التوتر. كان يزعق: «أغصان التنوب! أغصان التنوب، هاتوها! أغصانها! سيخرجون التابوت الآن! أغصان التنوب! اطرحوها! بسرعة!» - صاح مرة أخرى، واندفع إلى البيت. وتبين أنني تأخرت، رغم دقتي في ضبط الوقت، فقد رأى السيد راتش أن من الضروري الاستعجال. وقد انتهت الصلاة على الميت. وظهر القسيسان على مدخل البيت مع بطانتهما - أحدهما يرتدي قبعة القسيس الإسطوانية العالية، والثاني أصغر سناً منه، وقد صفَّف شعره بعناية شديدة ودهنه. وسرعان ما ظهر التابوت يحمله الحوذي وخادمان وسقاء. وسار السيد راتش إلى الخلف ممسكاً غطاء التابوت بأطراف أصابعه، وهو يردد «أخف، أخف!» وخرجت اليونورا كاربوفنا وراءه تتهادى في ثوب أسود وأشرطة حداد أيضاً، محاطة بكل أفراد أسرتها. وخرج فيكتور آخر الجميع في بزة جديدة وحسام على مقبضه ويتبادلون اللوم فيما بينهم، وأشعل جنود الحامية المشاعل التي أخذت تفرقع على الفور وترسل الدخان. وأعولت امرأة متسكعة في معطف رث. وأخذ الشماسان يرتلان، واشتد وَفَر الثلج فجأة، وراح «الذباب الأبيض» يدوِّم في الهواء. وصاح السيد راتش: «سيروا، بحفظ الله!» وتحرك الموكب. ولم يصحب النعش إلى جانب عائلة السيد راتشٍ غير خمسة أشخاص: ضابط متقاعد من طرق المواصلات مهروس كثيراً يتدلى من عنقه شريط وسام ستانسلاف، ربما أخذه بالاستعارة، ومساعد رئيس شرطة الحيْ، وهو رجل ضئيل ذو وجه متغضن وعينين جشعتين، وعجوز صغير الجرم في وصاية من القماش الصوفي،

وتاجر سمك بدين للغاية عليه رداء طويل من الجوخ مما يرتديه التجار تفوح منه رائحة تجارية، وأنا. وأدهشني في الوهلة الأولى غياب العنصر النسائي (لأنه من المستحيل أن تُنسب إليه عمتا اليونورا كتربوفنا، وهما أختا بائع النقائق، وآنسة أخرى مائلة الجنب، تستقر على أنفها الأزرق نظارة زرقاء)، غياب الصديقات والصواحب. ولكنني فطنت، بعد التأمل، إلى أن سوسانا بخلقها، وتربيتها وبذكرياتها، ما كان من الممكن أن تكون لها صديقات من الوسط الذي عاشت فيه. واجتمع في الكنيسة عدد لا بأس به من الناس، الغرباء فيهم أكثر من المعارف، وكان من الممكن معرفة ذلك من سحناتهم. ولم تستغرق الصلاة على الميت طويلاً. وقد ادهشتي أن السيد راتش كان يرسم علامة الصليب بحماس شديد، مثل أورثوذوكسي تماماً، وما كاد يتخلف عن مصاحبة الشماسين بترتيلاتهما ولكن بالأنغام وحدها، بشكل عام. وحين آن الأوان، أخيراً، لتوديع الراحلة انحنيت لها انحناءة واطئة، ولكنني لم أقبلها القبلة الأخيرة. وعلى العكس، فإن السيد راتش الذي قام بهذه الفريضة الرهيبة بيسر شديد، دعا الضابط صاحب الوسام إلى التابوت بانحناءة احترام من جذعه وكأنه يستضيفه على شيء، كما أنه رفع أولاده من آباطهم عالياً وبهمة، وقربهم واحداً بعد الآخر من الجسد المسَّجى. وودَّعت اليونورا كاربوفنا سوسانا، وإذا بعويلها يملأ ارجاء الكنيسة فجأة. إلا أنها هدأت بسرعة، وراحت تسأل بهمس منزعج: «ولكن أين حقيبتي اليدوية؟».
وكان فيكتور ينتحي جانباً، وبدأ وكأنه كان يريد أن يفهم الآخرين بكل قيافته إنه بعيد جداً عن كل هذه العادات، وإنه يؤدي واجب اللياقة لا غير. وكان العجوز ذو الصاية أكثر الجميع إظهاراً لمشاعر الحنان، وكان مسَّاح أراض في ولاية تامبوف قبل خمسة عشر عاماً، ولم يكن قد رأى راتش منذ ذلك الحين. ولم يكن يعرف سوسانا على الإطلاق، إلا أنه استطاع أن يجد الوقت ليشرب قدحين من الفودكا في المشرب. كما أن خالتي وصلت إلى الكنيسة أيضاً. ولا أدري كيف عرفت أن المتوفاة هي نفس السيدة التي زارتني فجاءت منفعلة انفعالاً لا يوصف! لم تعزم أمرها لأن ترتاب بي في الإقدام على فعلة شائنة، ولكن ما كان في وسعها أيضاً أن تفهم هذه الملابسات الغريبة... حتى كادت أن تتصور أن سوسانا قررت الانتحار حباً بي، فركعت على ركبتيها وهي

متشحة بأكثر ثيابها دُكنة، وراحت تصلي بقلب مسحوق ودموع رقراقة طالبة السكينة للروح المتوّفاة حديثاً، وأوقدت شمعة بسعر روبل إلى أيقونة «إطفاء الحـزن»[1]... وقد جاءت «آميشكا» معها، وصلّت أيضاً، ولكنها قضت أكثر وقتها في النظر إليّ وإظهار فزعها... لقد كانت هذه الآنسة العجوز، وآسفاه، تميل إليّ. ولدى خروج خالتي من الكنيسة وزعت على الفقراء كل نقودها، أكثر من عشرة روبلات.

وانتهى التوديع أخيراً. وأخذوا يسدون التابوت. خلال صلاة الجناز كلها لم تسعفني الشجاعة في أن انظر إلى وجه الفتاة المشوّه، ولكن كلما أنزلق بصري عليه خطفاً، كان يبدو لي وكأنه يريد أن يقول: «لم يأت، لم يأت». صاروا يرفعون الغطاء فوق التابوت. و لم أتحمل. ألقيت نظرة سريعة إلى الميتة. وسألت بشكل لا إرادي: «لماذا فعلتِ ذلك؟»... وتراءى لي للمرة الأخيرة: «لم يأت!».

ودقت المطرقة على المسامير، وانتهى كل شيء.

– ٢٧ –

وسرنا في أثر الجنازة إلى المقبرة. وكنا حوالي أربعين شخصاً غير متجانسين، جمهوراً من العاطلين في حقيقة الأمر. واستمرت المسيرة المضنية أكثر من ساعة. والطقس صار يسوء أكثر فأكثر. في منتصف الطريق ركب فيكتور في العربة، ولكن السيد راتش كان يسير خفيفاً على الثلج الذائب، تماماً كما كان يسير، على ما يبدو، على الثلج أيضاً، بعد لقائه المشهود مع سيميون ماتفييتش، وقد قاد إلى بيته بانتصار الفتاة التي تسبب بهلاكها. غطت ندف الثلج شعر «المحارب القديم» وحاجبيه، كان تارة يلهث ويصيح من حين لآخر، وتارة يستنشق الهواء بجسارة، فتصير وجنتاه القويتان البنيتان مدورتين... والحق أن الرائي إليه يمكن أن يظنه يضحك في سره. تذكرت ثانية كلمات سوسانا في دفترها: «والنفقة يجب أن تعود إلى إيفان دميانيتش بعد وفاتي». وصلنا إلى المقبرة أخيراً، وبلغنا القبر المحفور حديثاً. وتمت آخر الشعائر بسرعة. فقد كان الجميع متثلجين فاستعجلوا. ونزل التابوت على حبال في اللحد

١– اسم ايقونة لمريم العذراء يحتفل بعيدها في ٢٥ كانون الثاني.

الفاغر، وأخذوا يهيلون التراب عليه. وفي هذه المرة أيضاً أبدى السيد راتش خفة نفسه. أخذ يلقي كتل التراب على غطاء التابوت بنشاط وهمة شديدين وبحركة عريضة من ذراعه، دافعاً قدمه إلى الأمام في كل حركة، مطوّحاً بجذعه بشطارة... وما كان في طاقته أن ينشط أكثر من ذلك لو قيّض له أن يرجم بالحجارة عدوه اللدود. وظل فيكتور في ناحية كالسابق، يلف عليه معطفه طوال الوقت، ويحرك ذقنه في ياقته من فراء القندس. وكان أولاد السيد راتش الآخرون يحذون حذو أبيهم بحماس. فقد وجدوا متعة كبيرة في قذف الرمل والتراب، ولا لوم عليهم في ذلك، على أية حال. وظهرت حدبة في مكان حفرة القبر. وكنا قد تهيأنا للانصراف، حين استدار السيد راتش فجأة إلى اليسار بحركة عسكرية حادة، وضرب فخذه، وأعلن لنا جميعاً، نحن «السادة الرجال» بأنه يدعونا، وكذلك «رجال الكنيسة المحترمين» إلى مائدة «حفلة تأبين»[1] هيئت في مكان غير بعيد عن المقبرة، في القاعة الرئيسية لحانة محترمة جداً «بجهود صديقنا الفاضل سيغيزموند سيغيز موزروفيتش...». وعند النطق بهذه الكلمات أشار إلى مساعد رئيس شرطة الحي، وأضاف بأنه، أي إيفان دميانيتش راتش، كأي روسي أصيل، ورغم كل أساه، ومذهبه البروتستانتي، يقدر العادات الروسية القديمة أكثر من أي شيء آخر. وهنف: «أما عقيلتي، والسيدات اللواتي تفضلن بالمجيء معها، فليذهبن إلى البيت. وسنحيي نحن، معشر الرجال، ذكرى عبد الرب الراحلة على مائدة متواضعة!». وقبِل اقتراح السيد راتش بتجاوب صادق. وتبادل رجال الكنيسة «المحترمون» النظرات فيما بينهم بشكل موح، أما ضابط خطوط المواصلات فقد ربّت على كتف إيفان دميانيتش ووصفه بالوطني وروح المجتمع.

واتجهنا إلى الحانة جماعة واحدة. في الطابق الثاني من الحانة، وفي وسط غرفة طويلة عريضة فارغة تماماً نصبت مائدتان صفت عليهما القناني والمأكولات وأدوات الطعام، وأحيطتا بالمقاعد. كانت رائحة ملاط الحائط

١- جرت العادة الروسية على أن يجتمع المشيعون في بيت أهل المتوفى حول مائدة يأكلون ويشربون، ويلقون فيها خطب التعزية تسرية لأهله. - المترجم.

المخلوطة برائحة الفودكا والزيت النباتي تفعم الأنـوف، وتضيق على الأنفاس. أجلس مساعد رئيس شرطة الحي، باعتباره المشرف، رجال الكنيسة في مكان الصدارة، حيث كانت تزدحم، في الغالب، المأكولات غير الدسمة، وجلس بعد رجال الدين الضيوف الآخرون. وبدأت المأدبة. ما كانت نفسي تطاوعني لأستعمل هذه الكلمة الاحتفالية: المأدبة، ولكن أية كلمة أخرى ما كانت ستطابق واقع الحال. في البداية سار كل شيء بما فيه الكفاية من الهدوء. ولم يكن يخلو من مسحة أسى. كانت الأفواه تلوك، والأقداح تشرب، ولكن الزفرات كانت تسمع أيضاً، ولكنها قد تكون هضمية، وقد تكون تعاطفية. وذُكِر الموت، وأشير إلى قصر حياة الإنسان، وإلى هشاشة الأماني الدنيوية، وروى ضابط طرق المواصلات نادرة حربية حقاً، ولكنها تهذيبية، وأيده القس ذو القبعة الأسطوانية، وروى هو الآخر نبذة ممتعة من حياة الموقر يوحنا المحارب[1]. أما القس الآخر ذو الشعر الرائع التصفيف، فعلى الرغم من اهتمامه بالطعام أكثر، إلا أنه قال شيئاً ذا عظة بشأن عفاف الأوانس. ولكن كل شيء قد تغير بالتدريج. أحمرت الوجوه، وراحت الأصوات تهدر، وأخذ الضحك ما له من حقوق، وصارت الهتافات تتردد منقطعة، وصدرت نداءات حنون، من مثل «يا أخيَّ اللطيف» و«يا روحي» و«أيها الأهبل» بل وحتى «أيها الخنزير»؛ وباختصار تناثر كل ما تجود به النفس الروسية، حين تنفتح كلياً، حسب قول الناس. وحين أخذت السدادات تزاح عن زجاجات الشمبانيا ساد الهرج كلياً. بل أن أحدهم صاح صياح الديك، واقترح زائر آخر أن يقضم بأسنانه ويزدرد القدح الذي شرب به النبيذ لتوه. أما السيد راتش الذي تحوَّل لونه من الأحمر إلى أزرق، فقد نهض فجأة من مكانه، وكان حتى هذا الحسن قد ضج وضحك كثيراً، إلا أنه الآن طلب إذناً بإلقاء خطبة. فراح الجميع يهتفون: «تكلم! انطق!». بل إن العجوز ذو الصاية هتف: «مرحى!» وصفق... وبالمناسبة كان هذا قد قعد على الأرض. رفع السيد راتش قدمه فوق رأسه عالياً، وأعلن أنه يريد

١- عاش يوحنا المحارب في عهد يوليان المرتد (٣٠١ - ٣٦٣) وكان مقاتلاً في أحد أفواج الاسقوث. ولهذا اعتبر سلافي النسب. وكان يفضح اللصوص، ويشتهر بعطفه نحو المسيحيين.

أن يشير بعبارات قصيرة، ولكنها «معبّرة» عن مناقب تلك النفس الرائعة التي «تركت هنا، ما يمكن أن يقال سقط متاعها الأرضي (die irdische Hulle) وطارت إلى السماوات، واغرقت – وصحح السيد راتش كلامه – وانغمست... – ثم عاد فصحح من جديد – واغرقت...».

وتردد همس مكبوت، ولكنه مقنع:

– الأب الشماس! المحترم! يا روحي! يقولون أن لك حنجرة جهنمية. هيا، أنشد: «نحن نعيش وسط الحقول!»[1].

وسرت على شفاه الضيوف:

– هس، هس! كفاكم! ما هذا!

– أغرقت كل أسرتها الوفية – تابع السيد راتش يقول بعد أن ألقى نظرة صارمة باتجاه هاوي الغناء – أغرقت كل أسرتها في حزن لا يعوض بشيء! نعم! – هتف إيفان دميانيتش – عادل ذلك المثل الروسي القائل: «يحنيك القدر ويكسرك ولا يحنون عليك...».

– على مهلكم! يا سادة! – صاح صوت مبحوح فجأة في آخر المائدة – الآن سرقوا مني كيس نقودي!

– آه، يا محتال! – زعق صوت آخر و... طراق! وصدرت صفعة.

يا إلهي! أي شيء حدث هنا؟ كان ذلك بالضبط مثل حيوان وحشي، لم تكن تبدو منه حتى ذلك الحين غير الدمدمة والململة بين الآونة والأخرى، وإذا بهذا الوحش يقطع سلاسه، ويشب على قائمتيه الخلفيتين بكل البهاء الفظ للبدتة النافرة. لقد بدا وكأن الجميع كانوا ينتظرون في سرهم «فضيحة» كلازمة طبيعية ونهاية للمأدبة، فإذا بهم يندفعون ويتخاطفون... رنت الصحون والأقداح، وتدحرجت، وانقلبت الكراسي، وارتفعت صيحة مصمة، ولبطت أذرع في الهواء، وارتفعت أزيال ملابس، ونشب عراك!

١– السطر الأول من أغنية غجرية من أوبرا «بان تفاردوفسكي» (١٨٢٨) للمؤلف الموسيقي الروسي ألكسي فيرستوفسكي (١٧٩٩ – ١٨٦٢). ومنذ ذلك الحين صارت هذه الاغنية شائعة.

- اضربوه! اضربوه!

صاح جاري، بائع السمك، كالمسعور، دكان حتى اللحظة الأخيرة يبدو وكأنه أودع إنسان في العالم. والحق أنه احتسى، في صمت، حوالي عشرة أقداح من النبيذ:

- اضربوه!

كان الرجل لا يعي البتة من يجب ضربه، ولأي شيء يضرب، ولكنه كان يجأر بضراوة.

حاول إعادةَ الهدوء مساعدُ رئيس شرطة الحي، وضابط طرق المواصلات، والسيد راتش الذي لم يكن يتوقع قط أن تكون لفصاحة لسانه هذه النهاية السريعة... ولكن جهودهم باءت بالفشل. وهاجم جاري، بائع السمك، السيد راتش نفسه، وقد صاح به ملوحاً بقبضتيه:

- قتلت الفتاة، أيها الألماني، الملعون ثلاثاً. رشوت الشرطة، والآن تتعجرف؟!

وهنا جاء خدم الحانة...

ولا أدري ماذا حصل بعد ذلك. أسرعت باختطاف قبعتي، وأطلقت رجليَّ للريح! أتذكر فقط أن شيئاً أخذ يفرقع بشكل مخيف، وأتذكر أيضاً هيكل الرنجة العظمي العالق فيشعر العجوز ذي الصاية، وقبعة القس وقد طارت عبر الغرفة كلها، ووجه فيكتور الشاحب في جلسته في زاوية ولحية صهباء في يد عضلية... وكانت هذه آخر الانطباعات التي خرجت بها من مأدبة «التأبين» التي أقامها الفاضل سيغيزموند سيغيزموندوفيتش تأبيناً لسوسانا المسكينة.

استرحت قليلاً، وتوجهت إلى فوستوف، ورويت له كل ما شهدته خلال ذلك اليوم. وقد أصغى إلي، وهو جالس، دون أن يرفع رأسه، وبعد أن دس كلتا يديه تحت رجليه نطق ثانية: «آه، المسكينة، المسكينة!» واستلقى ثانية على الأريكة، مديراً لي ظهره.

وبعد أسبوع استعاد صحته تماماً، وعاد إلى حياته السابقة. طلبت منه دفتر سوسانا للذكرى. فأعطاه لي دون أية ممانعة.

انقضت عـدة أعـوام. وتوفيت خالتي، وانتقلت من موسكو إلى بطرسبورغ. وانتقل فوستوف أيضاً إلى بطرسبورغ. واشتغل في وزارة المالية، ولكننا لم نكن نلتقي إلا نادراً، و لم أعد أجد فيه أي شيء خاص. فهو موظف مثل جميع الموظفين، وهذا يكفي! وإذا كان ما يزال حياً و لم يتزوج، فمن المحتمل أنه لم يتغير حتى الآن. يخرط ويلصق، ويزاول التمارين الرياضية، ويلتهم القلوب كالسابق، ويرسم نابليون ببزة لازوردية في ألبومات صاحباته. ذات مرة سافرت إلى موسكو في بعض الشؤون. وفيها عرفت، ولدهشتي غير القليلة، واعترف بذلك، أن أحوال صاحبي السابق، السيد راتش، قد انقلبت منقلباً لا يبعث على الرضى. صحيح أن عقيلته أنجبت له توأمين سماهما وهو «الروسي القح» برياتشيلاف وفياتشيسلاف، إلا أن بيته قد هرم، واضطر هو إلى الاستقالة، والشيء الرئيسي أن ابنه الأكبر، فيكتور، لم يبارح قسم المدينين من السجن. وأثناء مكوثي في موسكو، وفي أحد المجالس ذُكرت سوسانا، في حضوري، بأكثر الصور إساءة وإهانة! حاولت بكل وسيلة ممكنة أن أدافع عن ذكرى الفتاة البائسة التي بخل عليها القدر حتى برحمة النسيان، إلا أن حججي لم تترك وقعاً كبيراً في نفوس المستمعين إلي. ومع ذلك فقد استطعت أن أزحزح أحدهم، وهو طالب شاب، فأرسل لي، في اليوم التالي، قصيدة نسيتها، ولكنها كانت تنتهي بهذه الأبيات الأربعة:

وصوت الإفتراء

يحوّم حتى فوق قبر مهمل...

فيروّع الطيف اللطيف

ويحرق الزهور على القبر.[1]

١- اقتباس محرف من قصيدة لنيقولاي ستانكيفيتش «على قبر إيميليا» كتبت بمناسبة موت إيميليا غيربل، راجع الملاحظة رقم ١ ص٢٥.

ونيقولاي سانكيفيتش (١٨١٣ - ١٨٤٠) شخصية اجتماعية روسية، وفيلسوف وشاعر.

قرأت تلك الأبيات، واستغرقت أفكر عفوياً. وظهرت صورة سوسانا أمامي، وتراءت لي من جديد تلك النافذة المتجمدة في حجرتي، وتذكرت ذلك المساء، ودفعات الزوبعة الثلجية، وتلك الكلمات، تلك النشجات... أخذت أفكر بم يمكن تفسير حب سوسانا لفوستوف، ولَمِ استولى عليها اليأس بتلك السرعة والاندفاع حالما وجدت نفسها مهجورة؟ لماذا لم ترد أن تنتظر قليلاً، وتسمع الحقيقة المرة من فم حبيبها، أو تكتب له الرسالة على أي حال؟ وكيف يمكن أن تلقي بنفسها في الهاوية رأساً؟ قد يقال لي: لأنها كانت تحب فوستوف حباً دنفاً، لأنها لم تكن قادرة على تحمل أدنى شك في وفائه، واحترامه لها. قد يكون ذاك. وقد يكون أيضاً أنها لم تكن تحب فوستوف ذلك الحب الدَّنف، وأنها لم تكن مخطئة فيه، بل مجرد أنها وضعت فيه آمالها الأخيرة، ولم تقدَر أن تتحمل فكرة أن هذا الرجل أيضاً ينصرف عنها بازدراء لدى أول كلمة تقال عنها بالباطل! ومَنْ يدري ما الذي قتلها: عزة نفسها المهانة. الضيق (من وضعها الميؤوس، أو أخيراً، مجرد تذكرها لذلك المخلوق الأول، الجميل، المنصف، الذي استسلمت له في صبيحة أيامها بفرح شديد، والذي كان يثق بها ثقة عظيمة، ويحترمها ذلك الاحترام؟ من يدري: فلربما في تلك اللحظة التي خيل إليَّ فيها أن جملة «لم يأتِ!» كانت ترف على شفتيها الميتتين، في تلك اللحظة كان الفرح يغمر روحها، ربما، لأنها هي نفسها قد رحلت إليه، إلى حبيبها ميشيل؟ إن أسرار الحياة الإنسانية عظيمة، والحب أكثر هذه الأسرار انغلاقاً... ولكنني، حتى الآن، كلما تتراءى صورة سوسانا أمامي، لا أستطيع أن أخنق في نفسي الإشفاق عليها، ولا معاتبة القدر، فتهمس شفتاي دون إرادتي: «البائسة! البائسة!».

.١٨٦٩

ملك لير السهبي[1]

كنا حوالي ستة أشخاص مجتمعين في أمسية شتائية عند رفيق قديم من رفاق الجامعة. وكان الحديث يدور عن شكسبير، وعن شخصياته، وكيف أنها منتزعة بعمق وصدق من أعمق أعماق «الخلاصة» الإنسانية. أبدينا إعجابنا، بشكل خاص، في حقيقتها الحياتية، وفي شموليتها، وراح كل واحد منا يسمي الأشخاص الذين التقاهم من أمثال هملت، وعطيل، وفالستاف، وحتى رتشارد الثالث، وماكبث (واحتمال الالتقاء مع الشخصيتين الأخيرتين).

١- ملك لير السهبي: بدأ تورغينيف العمل في هذه القصة في شباط ١٨٦٩، وفرغ منها في نهاية آذار ١٨٧٠، ونشرت في عدد تشرين الأول من مجلة «فستنيك يفروبي» لعام ١٨٧٠.

وقبل أن يشرع تورغينيف في كتابتها وضع «قوائم وصفية» تفصيلية لأبطالها المقبلين، مسجلاً الملامح المميزة لأوصافهم الخارجية، وعاداتهم، وسلوكهم، وطريقة حديثهم، وكيفية تصرفهم.

وكان الكاتب في الوقت الذي يسعى فيه إلى الصدق السايكولوجي، يهتم أيضاً بالدقة التاريخية والحياتية للرواية.

وكل ذلك كان ضرورياً لتورغينيف لكي يفهم أفعال أبطاله، ويجعل دوافع عملهم مقنعة.

ومعروف رأي الكاتب الروسي الرائع إيفان غونتشاروف في هذه القصة، إذ كتب إلى صوفيا تولستايا، زوجة ليف تولستوي في ١١ تشرين الثاني ١٨٧٠:

«لقد قرأت «ملك لير السهبي» بالطبع. إن طريقة روايتها حافلة بالحياة، فتنة! أنا أعتبر هذه القصة في مستوى «يوميات صياد» التي تجلّى فيها تورغينيف فناناً حقيقياً، مبدعاً، لأنه يعرف هذه الحياة، وقد رآها بنفسه وعاشها، فهو يكتب من الطبيعة...».

وهتف مضيفنا، وهو رجل كهل:

– أما أنا، يا سادة، فكنت أعرف ملك ليرا!

فسألناه:

– وكيف هذا؟

– هكذا. هل تريدون أن أقص عليكم؟

– اعمل معروفاً.

وشرع صديقنا يروي لنا دون إبطاء.

– ١ –

أنشأ يقول:

«قضيت طفولتي كلها، وصباي الأول حتى الخامسة عشرة من عمري، في القرية، في ضيعة أمي، وهي صاحبة أراض غنية... في ولاية... ولعل أشد انطباع نخلف في ذاكرتي عن تلك الأيام الخوالي هو شخصية جارنا الجنب، وهو رجل يدعى مارتين بيتروفيتش خارلوف. نعم، لقد كان من الصعب محو مثل هذا الانطباع، فأنا لم ألتق في حياتي بعد ذلك بشخص مثل خارلوف. تصوروا رجلاً بطول العمالقة! يستقر على جذعه الضخم رأس الغيلان مائلاً قليلاً، ودون أي أثر للرقبة، تشب منه كتلة كبيرة من الشعر الرمادي الأصفر المتشابك يكاد يبدأ من الحاجبين الكثيفين تماماً. وفي المساحة الواسعة لوجهه المزرق كالمسلوخ يبرز أنف ضخم مدور، وتبصبص عينان زرقاوان صغيرتان بعجرفة، وينفتح فم صغير أيضاً، ولكنه معوج مشقق الشفتين لا يختلف لونه عن لون الوجه كله. والصوت الذي يصدره هذا الفم قوي للغاية وجهوري، رغم بحته... يشبه صلصلة قواطع حديدية محمولة على عربة تسير في درب وعر، وإذا تكلم خارلوف بدا وكأنه يصرخ على أحد في الريح الشديدة، عبر منخفض واسع من الأرض. وكان من الصعب تسمية التعبير المرتسم على وجه خارلوف، لما فيه من سعة... وما كان من الممكن أن يستوعب بنظرة واحدة! ولكنه لم يكن سمجاً، بل وكان فيه شيء من مهابة، سوى أنه غريب كثيراً وغير اعتيادي ثم أي يدين له – مخدتان، وأي أصابع، وأي قدمين!

أتذكر أنني ما كنت أستطيع أن أنظر، بدون شيء من الرعب التبجيلي، إلى ظهر مارتين بيتروفيتش بطول ذراعين، وإلى كتفيه الشبيهتين برحوي طاحونة. ولكن أذنيه كانتا تبهرانني أكثر من أي شيء آخر فيه! كأنهما كعكتان كاملتان بكل انحناءاتهما والتواءاتهما، وكان خداه يسندانهما من الجانبين. كان مارتين بيتروفيتش يرتدي شتاء وصيفاً، سترة قصيرة من الجوخ الأخضر، محزمة بحزام تشركسي، وحذاءين طويلين ملمّعتين. و لم أره لابساً رباط عنق قط، ولكن على أي عنق كان سيشده؟ كان مديد الأنفاس ثقيلها، كالثور، ولكنه كان يطأ الأرض في مشيته بنعومة. وكان من الممكن أن يتصور المرء أنه كان في خوف دائم، إذا كان في حجرة، من أن يحطم ويقلب كل شيء، ولهذا كان يتحرك من مكان إلى آخر باحتراس، ومن جنب في معظم الأحيان، وكأنه ينسل انسلالاً. وكانت له قوة هرقلية حقاً، وتبعاً لذلك كان يتمتع باحترام فيما حوله. فإن قومنا، لحد الآن، يعبدون العمالقة. حتى حيكت حوله الأساطير، فكان يروى أنه التقى، ذات مرة، بدب في الغابة، وكاد يغلبه، وأنه وجد في منحلته فلاحاً غريباً، فألقاه وعربته وحصانه من فوق السياج، وإلى غير ذلك. وخارلوف نفسه لم يتبجح بقوته قط. وكان يقول: «إذا كانت يمناي مباركة، فتلك إرادة الرب!» وكان فخوراً. ولكنه لم يكن يفخر بقوته، بل بحسبه ونسبه وبعقله وتبصره. وكان يؤكد:

– ننحدر من الشفيد (هكذا ينطق السويد) نحن ننحدر من خارلوس الشفيدي، في عهد إمارة إيفان فاتسيليفيتش تومني[1] (في ذلك الزمن البعيد!) وصل خارلوس الشفيدي هذا إلى روسيا، ولم يرد أن يكون كونتاً فنلندياً، ورغب في أن يكون نبيلاً روسياً، ويُدرج اسمه في الكتاب الذهبي[2]. من هنا انحدرنا، نحن الخارلوفيين!... ولهذا السبب أيضاً نولد جميعاً، نحن الخارلوفيين، شقراً، ذوي عيون فاتحة الألوان، ووجوه صافية! لأننا من سكان الثلج!

١– تعني «الأعمى» باللغة الروسية. – المترجم.

٢– خارلوف مخطئ في ذلك. فإن الكتاب الذهبي لم يكن في روسيا، بل كان هناك الكتاب المخملي الذي يحتوي على أنساب الأسر الشريفة.

حاولت أن اعترض عليه قائلاً:

– ولكن، يا مارتين بيتروفيتش، ليس لإيفان فاسيليفيتش تومني وجود على الإطلاق. كان هناك إيفان فاسيليفيتش الرهيب[1]. الأمير الكبير فاسيلي فاسيليفيتش هو الذي لقب بـ «الأعمى»[2].

– تكذب! إذا كنت قد قلت ذلك، فمعنى أنه صحيح.

وذات مرة ارتأت أمي أن تمتدحه، في حضوره، على نزاهته الرائعة حقاً. فقال في ضيق تقريباً:

– إيه، ناتاليا نيقولايفنا! لا شيء يمتدح عليه! هذا ما ينبغي أن تكون عليه، نحن السادة، حتى لا يجرؤ أي قن أو واحد من العوام أو مرؤوس أن يسيء الظن بنا! أنا خارلوف، وعائلتي بهذه الرفعة... (وأشار بإصبعه إلى نقطة عالية جداً في السقف فوق رأسه) وتريدينني أن أفتقر إلى الشرف؟! كيف يمكن هذا؟

وذات مرة عنّ لموظف كبير نزل في ضيافة أمي أن يتحرش بمارتين بيتروفيتش. وكان هذا قد عاد يتحدث من جديد عن الشفيدي خارلوس الذي قدم إلى روسيا... قاطعه الموظف الكبير:

– في عهد القيصر مشمش؟

– لا، ليس في عهد القيصر مشمش، بل في عهد الأمير الأكبر إيفان فاسيليفيتش تومني.

فمضى الموظف الكبير يقول:

١– إيفان فاسيليفيتش الرهيب: هو إيفان الرابع فاسيليفيتش الرهيب (١٥٣٠ – ١٥٨٤) الأمير الأكبر لكل روسيا القديمة منذ عام ١٥٣٣، والقيصر الروسي منذ عام ١٥٤٧، رجل دولة بارز.

٢– الأمير فاسيلي فاسيليفيتش الملقب بـ «تومني» (المعتم) هو فاسيلي الثاني أمير موسكو الأكبر (١٤١٥ – ١٤٦٢) فقأ عينيه مدع آخر لعرش موسكو، هو دميتري شيمياكا، ونفاه إلى أوغليتش، ولكنه سرعان ما أعاد الاستيلاء على موسكو، وترأس الدولة، بعد أن سمّي بلقب فاسيلي تومني.

– ولكنني أظن أن أسرتك أكثر قدماً، بل تصل أصولها حتى إلى زمن ما قبل الطوفان، حيث كانت الماستودونات والميغالوتيريات ما تزال في الوجود.

كان مارتين بيتروفيتش يجهل تماماً هذه التعابير العلمية، ولكنه أدرك أن الموظف الكبير يهزأ به. قال:

– ربما، فإن أسرتنا، بالفعل، عريقة في قدمها. يقول الناس: إن أكبر أجدادي، حين قدم إلى موسكو، كان يعيش فيها أحمق أكثر من سيادتك. ومثل هؤلاء الحمقى لا يولدون إلا مرة واحدة في كل ألف سنة.

وتميّز المكوظف الكبير غيظاً، بينما دفع خارلوف رأسه إلى الخلف، وأشرع ذقنه، وحمحم، وانصرف. وبعد يومين جاء مرة أخرى. وأخذت أمي تقرّعه. فقاطعها قائلاً: «هذا درس له، يا سيدتي، حتى لا يهاجم أحداً، بدون أن يعرف من المهاجم. ما يزال شاباً غريراً، ويجب تعليمه». وكان الموظف الكبير بنفس عمر خارلوف تقريباً، ولكن هذا العملاق قد تعود على اعتبار الناس كلهم قاصرين. وكان كثير الثقة بنفسه، لا يهاب أحداً على الإطلاق. «هل يعقل أن أحداً يستطيع أن يفعل شيئاً بي؟ وهل لهذا وجود في الدنيا؟» كان يسأل، ثم يأخذ بالضحك فجأة، ضحكاً مقتضباً يذهب بالأسماع.

– ٢ –

كانت أمي متأنقة جداً في اختيار معارفها. ولكنها كانت تستقبل خارلوف بحبور شديد، وتتسامح معه في أشياء كثيرة. فقد كان، قبل زهاء خمسة وعشرين عاماً، قد أنقذ حياتها، حين أمسك عربتها على حافة وهدة عميقة كانت الخيول قد هوت فيها بالفعل. وقد تقطعت السيور والمشدّات، ولكن مارتين بيتروفيتش لم يفلت من يديه العجلة التي أمسكها، رغم أن الدم تناثر من تحت أظافره. فزوجته أمي بفتاة يتيمة في السابعة عشرة تربت في بيتها. وكان آنذاك قد تجاوز الأربعين. وكانت زوجة مارتين بيتروفيتش ضعيفة البنية، ويقال أنه حملها إلى بيته على كفه، ولم تعش معه طويلاً. إلا أنها أنجبت له ابنتين. وظلت أمي، بعد وفاتها أيضاً، تشمل مارتين بيتروفيتش بالرعاية فأدخلت البنت الكبيرة في مدرسة داخلية في حاضرة الولاية، ثم

وجدت زوجاً لها، وادخرت للأخرى عريساً آخر. كان خارلوف رجلاً يحسن إدارة أعماله، وكان له ما يقرب من ثلاثمائة ديسياتينا[1] من الأرض، وقد بنى مزرعته شيئاً فشيئاً. أما بخصوص إطاعة فلاحيه له فلا يشوبها ريب! وبسبب ضخامته لم يكن يسير على قدميه تقريباً، فإن الأرض ما كانت ستتحمل ثقله. كان يتنقل في كل مكان في عربته الواطئة، ويقود بنفسه الفرس العجفاء، ذات الثلاثين عاماً من العمر، والندبة على كتفها من أثر جرح. وقد أصيبت الفرس بهذا الجرح في معركة بورودينو[2] وهي تحت رقيب أول في فوج حرس الفرسان. وكانت هذه الفرس تعرج دائماً، وكأنما على أرجلها الأربع مرة واحدة، ولا تستطيع أن تسير سيراً اعتيادياً، بل تعدو عدواً مهتزاً، ناطاً. وكانت تأكل الحسك والأفسنتين من بين الأخاديد، وهو شيء لم ألحظه عند أية فرس أخرى. أتذكر أنني كنت استغرب كيف تتحمل هذه الفرس العجوز شبه الحيّة جرّ مثل هذا الثقل الهائل. وأنا لا أتجرأ أن أخمن كم بوداً[3] يزن جارنا؟ ووراء ظهر مارتين بيتروفيتش كان خادمه ماكسيمكا الأسمر البشرة يتخذ مكانه على العربة، وقد انضغط بكل جسده ووجهه على سيده، مثبتاً قدميه الحافيتين على محور العربة الخلفي، فكان يبدو مثل ورقة أو دودة التصقت بالمصادفة في جسد العملاق المنتصب أمامه. وكان هذا الخادم يحلق مارتين بيتروفيتش مرة كل أسبوع. ويقال أنه كان يقف على منضدة ليقوم بهذه العملية، بل أن بعض المازحين كانوا يؤكدون أنه كان يضطر إلى أن يحوم راكضاً حول ذقن سيده. وكان خارلوف لا يحب القعود في بيته طويلاً، ولهذا كان من الممكن أن يُرى كثيراً راكباً عربته المألوفة، ممسكاً بالأعنة بيد واحدة (وبالأخرى المطوية الكوع كان يتكيء على ركبته بشطارة) وعلى قمة رأسه قبعة صغيرة قديمة. وكان ينظر فيما حوله بخفة من عينيه الشبيهتين بعين الدب. ويصيح بصوتهخ الجهوري

١- مقياس روسي قديم للأرض يساوي هكتاراً واحداً تقريباً. - المترجم.

٢- معركة بورودينو - أكبر معركة في الحرب الوطنية التي خاضها الشعب الروسي عام ١٨١٢ ضد غزو الجيش الفرنسي بقيادة نابليون الأول.

٣- وحدة وزن زنته ١٦,٣٨ كيلو غراماً. - المترجم.

على جميع الفلاحين والحضريين والتجار الذين يلتقيهم، ويمطر القساوسة الذين كان ينفر منهم كثيراً بالنذر القوية، وذات مرة حاذاني (وقد خرجت من البيت للنزهة ومعي بندقية) وزعق على أرنب راقد قرب الطريق قائلاً: «اقضه» زعقة ظل صداها ورنينها يترددان في أذني حتى المساء.

- ٣ -

كانت أمي، كما أشرت سابقاً، تستقبل مارتين بيتروفيتش بحبور. فقد كانت تعرف أي احترام عميق كان يكن لشخصها. وكان يسميها «سيدتنا مولاتنا! ثمرة حقلنا!» وكان يناديها: محسنة، وكانت ترى في شخصه عملاقاً وفياً ما كان ليتردد في أن ينافح عنها لوحده مقابل رهط كامل من الرجال، رغم غياب حتى احتمال وقوع مثل هذا التصادم، ومع ذلك فما كان من اللائق استصغار منافح مارتين بيتروفيتش بالنسبة لمفاهيم أمي، كامرأة بلا زوج (فقد ترملتا باكراً). بالإضافة إلى أنه كان رجلاً مستقيماً لا يتزلف لأحد لكسب حظوته، ولا يستدين نقوداً، ولا يشرب خمرة، ولم يكن قاصر العقل، رغم أنه لم يحصل على أي تعليم. وكانت أمي تثق بمارتين بيتروفيتش. وحين خطر لها أن تترك وصيّة طلبت أن يكون شاهداً، وقد ذهب، خصيصاً، إلى بيته ليجلب نظارته المدورة الحديدية الإطار والتي لم يكن يقدر أن يكتب بدونها، وما كاد يكفيه ربع ساعة، والنظارة على أنفه، ليخط، وهو يلهث وينفخ، لقبه واسمه، واسم أبيه، وعائلته، وفضلاً عن ذلك جعل الحروف كبيرة مربعة بالتواءات وذيول، وبعد أن أتم عمله أعلن أنه قد تعب، وأن الكتابة عنده مثل صيد البراغيث سواء بسواء. نعم، كانت أمي تحترمه... ومع ذلك لم تكن تدعه يتجاوز غرفة الطعام في بيتنا. فقد كانت له رائحة قوية جداً. كانت تفوح منه رائحة الأرض، أعماق الغابة، غروية المستنقع. وكانت مربيتي العجوز تؤكد قائلة: «غول الغابة تماماً!». وفي الغداء كانت تفرد له مائدة خاصة في الزاوية، ولم يكن يتكدر من ذلك، فقد كان يعرف أن الآخرين يشعرون بالحراجة في الجلوس إلى جانبه، كما أن ذلك أرفه له في الأكل، وكان يأكل، على ما اعتقد، ما لم يكن يأكله

أحد منذ عهد بوليفموس[1]. وفي بداية الغداء كانت تعد له تحوطاً، ودفعاً لكل طارئ، سلطانية فيها حوالي ستة أرطال من الهريسة، وكانت أمي تقول «وإلا فستأكل كل ما عندي!». فكان مارتين بيتروفيتش يرد ضاحكاً: «ومع ذلك سآكله، يا سيدتي!».

كانت أمي تحب أن تستمع إلى آراءه في موضوع من المواضيع العملية، إلا أنها كانت لا تستطيع أن تتحمل صوته كثيراً.

وكانت تقول:

– ما هذا منك، يا محترم! على الأقل لو عالجت نفسك من هذا! ثقبت أذني تماماً. كأنك تنفخ في بوق!

فكان يرد عادة:

– ناتاليا نيقولايفنا! أيتها المحسنة! هذه هي حنجرتي ولا مفر لي منها. تفقضلي، وقولي لي: أي دواء اتناول؟ الأفضل أن أسكت قليلاً.

وبالفعل لا أظن أن أي دواء سينفع مارتين بيتروفيتش. ثم أنه لم يمرض قط.

وكان لا يحسن أن يروي شيئاً، ولا يحب ذلك. وكان يقول بعتاب: «الكلام الطويل يجلب ضيق النفس». إلا حين كان يجري التطرق إلى عام ١٨١٢ (وكان قد خدم في جيش المتطوعين، وحصل على ميدالية برونزية كان يلبسها في أيام الأعياد على شريط لوسا القديس فلاديمير) وحين كان يُسأل عن الفرنسيين فكاد يسرد بعض الحكايات، رغم أنه كان يؤكد دائماً عند ذلك، بأن الفرنسيين الحقيقيين لم يغيروا على روسيا قط، بل الذي أغار عليها هم الناهبون من الجوع، وأنه قتل العديد من هؤلاء الحثالات في الغابات.

– ٤ –

ومع ذلك فقد كانت تنتاب حتى هذا العملاق الجبّار الواثق من نفسه

١– إحدى شخصيات «الاديسا» لهوميروس، وهو سيكلوب عملاق فقأ اوديسوس عينيه.

لحظات من السوداوية والاستغراق. فكان يضجر فجأة، وبدون سبب ظاهر، ويغلق على نفسه باب حجرته مختلياً بنفسه، ويطن - يطن بالفعل طنين سرب كامل من النحر! أو كان يدعو خادمه ماكسيمكا، ويأمره بأن يقرأ به بصوت عال شيئاً من الكتاب الوحيد الذي وجد نفسه في بيته، وهو مجلد غير كامل من «المحب للعمل يستريح»[1] لنوفيكوف[2] أو أن يغني. وكان ماكسيمكا الذي شاءت المصادفة الغريبة أن يعرف القراءة تهجياً، يأخذ بالصياح مهشماً الكلمات كعادته، محرفاً التشديد من مواضعه الأصلية، ليقرأ عبارات من مثل «لكن الإنسان المتحمس يستخرج من ذلك الخلاء الذي يجده في المخلوقات استنتاجات مناقضة تماماً. وي - ... - يقول: كل مخلوق بحد ذاته ليس قوياً ليجعلني شعيداً!» إلى غير ذلك، أو يغني بصوت رقيق جداً أغنية شجية ما كان من الممكن أن يفهم المرء منها إلا «أي... ي... آ... ي... آآآ... سكا!... و... أو... أو... بي... بي... ي... ي... ي... لا!» وكان مارتين بيتروفيتش يهز رأسه، ويتذكر هشاشة الأشياء، وأن كل شيء يزول، يذبل كحشيشة، يمر وينقضي! وذات مرة صادف لوحة تصور شمعة تحترق تنفخ عليها الرياح الشديدة من كل الجهات، وقد كتب في الأسفل «هذه حياة الإنسان!». وقفد أعجبته هذه اللوحة كثيراً، فعلقها في غرفة مكتبه، ولكنه في الأوقات الاعتيادية غير السوداوية، كان يدير وجهها إلى الحائط، حتى لا تزعجه. أن خارلوف، ذلك المارد، كان يخشى الموت. إلا أنه كان نادراً ما يستعين بالدين والصلاة حتى في نوبات السوداوية هذه. وكان يعتمد على عقله أكثر... ولم يكن له ورع مخصوص، ولم يكن يذهب إلى الكنيسة كثيراً، صحيح أنه كان يقول أنه لا يذهب إليها لأنه كان يخاف أن يخرج الجميع منها بجرمه الضخم. وكانت النوبة تنتهي عادة بأن يأخذ مارتين بيتروفيتش بالصفير، ويأمر فجأة بصوته الجهوري أن يشد الحصان إلى العربة، ويستقل العربة إلى ما يجاوره من الأمكنة، ويده الطليقة تهتز فوق ظليلة طاقيته دون

١- «المحب للعمل يستريح» طبعة دورية إلى غير ذلك. موسكو، ١٨٧٥، الجزء الثالث، صفحة ٢٣، السطر ١١ من فوق (الملاحظة من المؤلف).

٢- هو عنوان مجلة كان نيقولاي نوفيكوف الكاتب والمنوّر الروسي البارز (١٧٤٤ - ١٨١٨) يصدرها في عامي ١٧٨٤ - ١٧٨٥.

أن يخلو ذلك من شطارة، وكأنما يريد أن يقول: سواء لدينا كل شيء الآن! لقد كان رجلاً روسياً حقاً.

- ٥ -

أن العمالقة من أمثال مارتين بيتروفيتش هم من ذوي الأمزجة الفاترة في معظم الأحوال، ولكن مارتين بيتروفيتش كان على العكس من ذلك، إذ يغتاظ بسهولة. وكان يخرجه عن أطواره، بشكل خاص. أخو زوجته المتوفاة المدعو بيتشكوف وكان يعيش في بيتنا كمهرج أو عالة، وكان يكنى، منذ نعومة أظفاره، بسوفينير ، وبقي سوفينيرا للجميع، حتى للخدم الذين كانوا، في الحقيقة، يسمونه سوفينير[1] تيموفييتش. ويبدو أنه هو نفسه لا يعرف اسمه الحقيقي. كان رجلاً تافهاً يحتقره الجميع، عالة بكلمة واحدة. وكانت أسنان أحد جانبي فمه قد وقعت كلها، فكان وجهه الصغير المتغضن يبدو معوجاً بسبب ذلك. وكان شديد الحركة دائماً، لعوباً، يتسلل أما إلى حجرة الخادمات أو إلى المكتب، وإلى القساوسة في البلدة، أو إلى العمدة في بيته، فكان يطرد من كل مكان، فيكتفي عند ذاك بهز كتفيه، وتضييق عينيه الحولاوين، ويضحك بسخف وغرغرة، وكأنما يغسل زجاجة. وكان يخيل إليّ دائماً أن سوفينير، لو كان يملك نفوداً، لصار أخبث إنسان، عديم الخلق، شريراً، بل وفظاً. وأن فقره «صغّره» رغماً عنه. وكان لا يسمح له في شرب الخمرة إلا في الأعياد. وزكان يكسى بشكل معتبر، وبناتء على أمر من أمي، لأنه كان يلاعبها لعبة «البيكيت» أو «البوستون» في الأمسيات. وكان سوفينير يردد مراراً: «من فضلك، لحظة، لحظة». فكانت أمي تسأله في ضيق: «ولم هذه اللحظة؟» فكان يلقي ذراعيه إلى الوراء فورا، ويتهيب ويغمغم: «حسب أمرك!». وكان لا شغل له غير استراق السمع من وراء الأبواب، وتلفيق الأقاويل، وكان «يعاكس» الناس، وكأنما يملك الحق في ذلك، كأنما ينتقم لشيء. وكان يسمي مارتين بيتروفيتش بالأخ، وكان يضايقه أكثر من الفجل المر، ويناكده قائلاً: «لأي شيء أوديت بأختي مارغريتا تيموفييفنا العزيزة؟» وينفتل أمامه، ويقهقه. وذات مرة كان مارتين بيتروفيتش جالساً في حجرة البليارد البليلة

١- بالروسية تعني الهدية، أو التذكار. - المترجم.

التي لم ير أحد فيها قط ذبابة واحدة، والتي كان جارنا، عدو الحر والشمس، يفضلها كثيراً لهذا السبب. وكان جالساً بين الحائط ومنضدة البليارد. وراح سوفينير يمرق رائحاً غادياً من أمام «بطنه» ويناكده، ويلوي قسمات وجهه... أراد مارتين بيتروفيتش أن يصده، فدفع كلتا يديه إلى الأمام. ومن حسن حظ سوفينير أنه ابتعد في الوقت المناسب، فارتطمت راحتا أخيه بحافة منضدة البليارد فتطايرت المنضدة القروية الثقيلة من كل براغيها الستة... فأية عصيدة سيكون سوفينير لو أنه وقع تحت هاتين اليدين الجبارتين!

- ٦ -

كان الفضول يستولي عليَّ، منذ زمان، لأرى كيف بنى مارتين بيتروفيتش مسكنه، وأي بيت له. وذات مرة عرضت أن أصاحبه راكباً حتى يسكوف (كان هذا اسم ضيعته) فقال مارتين بيتروفيتش: «يا لك! تريد أن تعاينت مملكتي؟ تفضل! سأريك الحديقة، والبيت، والبيدر، وكل شيء. عندي الكثير من كل شيء!». وسرنا. كانت المسافة بين قريتنا ويسكوف زهاء ثلاثة فراسخ. وفجأة هدر مارتين بيتروفيتش مجاهداً ليدير رأسه الثابت، وبتسطاً يده يميناً وشمالاً: «هذه هي مملكتي! كل شيء لي!». وكانت ضيعة خارلوف تقع في قمة تل قليل الانحدار. وفي الأسفل، عند بركة صغيرة كانت تتزاحم بعض الأكواخ الفلاحية الرثة. وعلى طوافة عند البركة كانت امرأة عجوز في تنورة مخططة تضرب غسيلها المبروم بمضرب.

- اكسينيا - صاح مارتين بيتروفيتش صيحة أفزعت أسراب غربان القيظ فطارت من حقل الشوفان المجاور كل مطار... - تغسلين سراويل زوجك؟

التفت المرأة بحدة، وانحنت إلى الوسط. وتردد صوتها الواهن:

- سراويل، يا محترم.

- جيد! انظر هناك - تابع مارتين بيتروفيتش يقول، وهو ينطلق على طول سياج شبه متعفن من الأغصان المضفورة - هذا قنّبي، وذاك قنّب الفلاحين. هل ترى الفرق؟ وهذه حديقتي، غرست فيها أشجار التفاح، والصفصاف أيضاً. بينما لم تكن هناك أية شجرة. انظر، وتعلّم.

استدرنا إلى الفناء المسيّج. مقابل البوابة تماماً بيت صغير شائخ ذو سقف من القش. ومدخل على أعمدة صغيرة، وفي ناحية أخرى يقف بيت آخر أكثر جدة له عليّة صغيرة جداً، ولكنه على أعمدة صغيرة أيضاً. وقال خارلوف: «وهنا أيضاً انظر وتعلّم. آباؤنا كانوا يعيشون في مثل تلك البيوت. ولكن انظر الآن أية قصور بنيت لي». وكانت هذه القصور شبيهة ببيت من ورق اللعب. وكان هناك خمسة إلى ستة كلاب بعضها أكثر شعثاً من الآخر وأشد قبحاً، وقد حيتنا بالنباح. وقال مارتين بيتروفيتش: «كلاب رعاة! كلاب حراسة حقيقة! كفى، يا عفاريت. سأمسككم جميعاً، وأشنقكم». وظهر على مدخل البيت الجديد شاب في صاية طويلة، هو زوج ابنة مارتين بيتروفيتش الكبيرة. قفز خفيفاً نحو العربة، بل وأدى بيد واحدة حركة كمن يريد أن يمسك برجل العملاق الذي فعها هذا فوق المقعد بشمرة واحدة، وهو ينحني بجذعه إلى الأمام. وبعد ذلك ساعدني في الترجل من الحصان. هتف خارلوف:

– آنا! ابن ناتاليا نيقولايفنا تكرم بالمجيء إلينا. ويجب استضافته جيداً. ولكن آنا ويفلامبيا؟ (آنا اسم ابنته الكبيرة ويفلامبيا اسم الصغيرة).

ظهرت آنا في نافذة صغيرة قرب الباب، وقالت:

– ليست في البيت. ذهبت إلى الحقل لتجمع القنطريون العنبري.

سأل خارلوف:

– هل عندنا جبنة هشة؟

– عندنا.

– وقشدة؟

– عندنا.

– ضعيها على المائدة، أثناء ما سأريه غرفة مكتبي. تفضلوا، إلى هنا، إلى هنا، – أضاف يخاطبني، داعياً إياي بسبابته. لم يخاطبني في بيته بضمير المفرد. فإن المضيّف يجب أن يكون مهذّباً. سار بي في الممر – هنا، أقضي وقتي – قال وقد عبر عتبة باب واسع من جانب – هذه غرفة مكتبي. شرّفوا!

وظهر أن غرفة المكتب هذه واسعة غير مملوطة الجدران، وفارغة تقريباً. وتدلى من مسامير معوجة على جدرانها سوطان، وقبعة مثلثة مصفرة، وبندقية أحادية الماسورة، وسيف، وطوق رقبة لحصان غريب الشكل مزركش بصفائح معدنية، ولوحة تصور شمعة تحترق في خفق الرياح. وفي أحد الأركان أريكة خشبية مغطاة ببساط زاه. ومئات الذباب تطن قرب السقف. وكانت الغرفة ندية، على أية حال، سوى أنها تفوح كثيراً برائحة الغاب التي كانت تصاحب مارتين بيتروفيتش أينما ذهب.

سألني خارلوف:

– ما رأيك، هل الغرفة جيدة؟

– جيدة جداً.

– انظر إلى ذلك الطوق الهولندي المعلق عندي هناك – قال خارلوف، وقد عاد من جديد إلى ضمير المفرد – طوق رقبة رائع! اشتريته من يهودي بالمقايضة. أمعن نظرك فيه!

– طوق حصان جيد.

– عملي للغاية! ولكن شمّه... أي جلد!

شممت الطوق. كانت تفوح منه رائحة دهن الحوت الزنخة، ولا شيء آخر.

– طيب، اجلس. هناك على الكرسي، وحلّ ضيفاً – قال خارلوف، وانهد هو على الأريكة، وبدا وكأنما غشيته إغفاءة، أغمض عينيه، بل ونشج من أنفه. نظرت إليه صامتاً، و لم استطع أن آخذ كفايتي من الدهشة وأنا أنظر إليه. إنه طود، لا أكثر ولا أقل! وفجأة جفل.

– آنا – صاح، وارتفع بطنه عند ذلك، وهبط كموجة في البحر – ماذا تفعلين؟ تحركي! أم أنت لا تسمعينني؟

تناهى صوت ابنته:

– كل شيء جاهز، يا أبتي، تفضلوا.

اندهشت في سري بالسرعة التي نفذت فيه أوامر مارتين بيتروفيتش،

وتبعته إلى غرفة الاستقبال، حيث أعدت المشهيات على مائدة ذات مفرش أحمر بنقوش بيض: الجبنة الهشة، جلس مارتين بيتروفيتش في زاوية بعد أن قال: «تفضل، يا صاحبي، وكل يا عزيزي، ولا تستنكف من طعامنا الريفي» وبدا، وكأنه قد غفا من جديد. وكانت آنا مارتينوفنا واقفة أمامي دون حراك، غاضة بصرها، بينما كنت أرى زوجها، من خلال النافذة، يقود حصاني في الفناء لكي يهدئه وكان ينظف سلسلة القرطمة بيديه.

- ٧ -

لم تكن أمي تميل إلى ابنة خارلوف الكبيرة، وكانت تصفها بالمتكبرة. وما كانت آنا مارتينوفنا تزورنا تقريباً، لتؤدي واجب الاحترام، وكانت في حضور والدتي تتصرف بتشامخ وبرود، رغم أنها تعلّمت، بفضلها، في مدرسة داخلية، وتزوجت، وحصلت منها، في يوم الزفاف، على ألف روبل من أوراق النقد[١]، وشالاً ركياً أصفر، وإن كان ملبوساً قليلاً. كانت امرأة متوسطة القامة، جافة العود، في حركاتها حيوية وخفة، وشعرها كتاني كثيف، ووجهها أسمر جميل، تطل منه عينان ضيقتان بزرقة دقيقاً، والشفتان رقيقتين أيضاً، والذقن مدبباً. لعل كل مَنْ ينظر إليها كان سيقول لنفسه: «أية ذكية أنت، ومحتدة المزاج!». ومع كل ذلك فقد كان فيها شيء جذاب، وحتى الخالات القاتمة المتناثرة على وجهها «كحبات الحنطة السوداء» كانت تناسبها، وتعزز الشعور الذي كانت تثيره. وضعت يديها تحت منديلها، واختلست النظر إليّ من فوق لتحت (كنت جالساً، وكانت واقفة) وطافت ابتسامة غير طيبة على شفتيها، ووجنتيها، وفي ظلال رموشها الطويلة. وكأن بهذه الابتسامة كانت تقول: «أوه، يا لك من سيد صغير مدلل!». وكانت كلما تنفسّت اتسع منخراها قليلاً، وفي ذلك بعض الغرابة أيضاً. ومع ذلك فقد خيل إليّ أن آنا مارتينوفنا لو أحبتني، أو حتى لو ودت أن تقبلني بشفتيها القاسيتين الدقيقتين، لقفزت إلى السقف من شدة الفرح. كنت أعرف أنها صارمة ومتصلبة جداً، وأن النساء والفتيات يخفنها كما يخفن النار، ولكن

١- هي اوراق نقدية كانت متداولة في روسيا منذ عام ١٧٦٩ إلى عام ١٨٤٣. الروبل الفضي يعادل روبلين ونصف الروبل من الاوراق النقدية، حسب القيمة القديمة.

ذلك لا يهم! كانت آنا مارتينوفنا تثير خيالي سراً... وعلى العموم كنت آنذاك قد تجاوزت الخامسة عشرة لتوي، وفي ذلك العمر!...

جفل مارتين بيتروفيتش مرة أخرى. وصاح:

– آنا. حبذا لو عزفت على البيانو... السادة الشبان يحبون ذلك.

تلفت فيما حولي. كان في الحجرة ما يشبه البيانو.

أجابت آنا مارتينوفنا:

– سمعاً، يا أبتي. فقط ماذا أعزف لهم[1]؟ ربما لا يروف لهم ذلك.

– ماذا علموك في المدرسة الداخلية؟

– نسيت كل شيء... كما أن الأوتار مقطوعة.

كان صوت آنا مارتينوفنا عذباً جداً رناناً، وكالشاكي... ومثل هذا الصوت يوجد بين الطيور الكاسرة.

– طيب – قال مارتين بيتروفيتش واستغرق في التفكير – طيب – عاد يقول من جديد: – ألا تريدون رؤية البيدر، والتمتع بالنظر إليها؟ سيصحبكم فولودكا. هاي، فولودكا! هتف بصهره الذي كان لا يزال يتمشى مع حصاني في الفناء – خذهم إلى البيدر... وعلى العموم... أرهم استثمارتي، أما أنا فأحتاج إلى غفوة! حسناً! أترككم بطيب المقام!

خرج، وخرجت في أثره. وصارت آنا مارتينوفنا ترفع ما على المائدة بخفة، وكالمتضايقة. التفتُّ عند عتبة الباب، وانحنيت لها مودعاً، ولكنها كمن لم تلحظ انحناءتي، واكتفت بالابتسامة، ولكن بغيظ أشد من ذي قبل.

أخذت حصاني من صهر خارلوف، وقدته من مقوده. وسرنا معاً إلى البيدر، ولكننا سرعان ما تحولنا إلى الطريق عبر الحديقة، لأننا لم نكتشف ما يمتع النظر بشكلٍ خاص، ثم أن مصاحبي لم يستطع أن يجد في صبي صغير مثلي حباً خالصاً لشؤون الزراعة.

– ٨ –

كنت أعرف صهر خارلوف جيداً. كان يدعى فلاديميلا فاسيليفيتش

١– صيغة الجمع هذه للشخص الثالث يراد بها المفرد وتدل على الاحترام. – المترجم.

سلوتكين. كان يتيماً، ابن موظف صغير. عمل وكيل أعمال عند والدتي، وقد تربى في بيتها. في البداية أدخلته مدرسة في مركز قضاء، ثم عمل في «مكتب الأراضي المورثة»، ثم ألحق في وظيفة في المخازن الحكومية، وأخيراً تزوج ابنة مارتين بيتروفيتش. وكانت أمي تسميه «اليهودي»، وكان بالفعل يشبه اليهودي بشعره الأجعد، وبعينيه السوداوين النديتين دائماً مثل إجاصتين من مربى الإجاص، وبأنفه المعكوف، وفمه الأحمر الواسع، سوى أن لون بشرته أبيض، وكان غير دميم على الإطلاق، وخدوماً شرط أن لا تمس هذه الخدمة منفعته الشخصية. وإذا مستها كان الطمع الشديد يظهر عليه في الحال، حتى تصل به الحال إلى ذرف الدموع. وكان من أجل سقط متاع مستعداً لأن يتوسل يوماً كاملاً، ويذكر ما وعد به مائة مرة، ويتكدر ويصوصي حين لا ينفذ على الفور. وكان يهوى الطواف في الحقول، ومعه بندقية، وحين يصادف أن يصطاد أرنباً أو بطة كان يضع صيده في جعبته باعتزاز قائلاً: «آها، تمّ الأمر الآن، ولا مهرب لك! ستخدمني الآن!».

قال لي بصوته الألثغ، وهو يساعدني لأمتطي صهوة الحصان:

– إن لك حصاناً كريماً. حبذا لو كان لي مثل هذا الحصان! ولكن أنى لي! ليس لي مثل هذا الحظ السعيد. على الأقل لو طلبت إلى والدتك... ذكرتها.

– وهل وعدتك؟

– يا ليت! لا، لم تعد. ولكنني فكرت في أن فيض عطائها...

– الأحرى بك أن تتوجه إلى مارتين بيتروفيتش.

كرر سلوتكين بصوت ممطوط:

– إلى مارتين بيتروفيتش! أنا عنده شخص تافه مثل خادمه ماكسيمكا، سواء بسواء. إنه يعاملنا معاملة سيئة، ولا مكافأة منه، مهما عملنا.

– معقول؟

– نعم، والله. يقول: «لكمتي لا تنقض!» ولكن لن تخرج منه بطائل، مهما حاولت، ومهما ألحت في السؤال. كما أن آنا مارتينوفنا، زوجتي، لا تجد عنده الحظوة التي تجدها يفلامبيا مارتينوفنا.

وفجأة قاطع نفسه بنفسه باسطاً ذراعه بقنوط:

– آه، يا إلهي، يا محترم! انظر: ما هذا؟ أحد الأوغاد حصد قطعة ضخمة من الشوفان، شوفاننا. أي شيء هذا؟! هذه هي حياتنا! لصوص! لصوص! حق ما يقول الناس: لا تصدق يسكوف، بسكوف، يرين، بيلين (وتلك هي أسماء القرى المتجاورة الأربع). آه، آه، ما هذا! خسارة روبل ونصف، بل وحتى لروبلين!

وكان في صوت سلوتكين ما يشبه النحيب. ضربت حصاني من جنبه، وانصرفت مبتعداً.

ظلت صيحات سلوتكين تتناهى إلى سمعي طويلاً حتى مرّت بي فجأة، وعند منعطف الطريق، ابنة خارلوف الثانية، يفلامبيا، التي ذهبت إلى الحقل لتجمع زهور القنطريون العنبري، على حد قول آنا مارتينوفنا. كان إكليل كثيف من هذه الزهور يطوق رأسها. تبادلنا انحناءة التحية صامتين. كانت يفلامبيا أيضاً على جانب من الملاحة لا تقل عن ملاحة أختها، ولكنها من نوع آخر. كانت طويلة القامة، ضخمة البنيان. كان كل شيء فيها ضخماً: رأسها، وقدماها، ويداها، وأسنانها الناصعة كالثلج، وعيناها، بشكل خاص، جاحظتان، فاترتان، قاتمتا الزرقة كقطعتين من الزجاج، بل كان كل شيء فيها جباراً (ولا عجب فهي ابنة مارتين بيتروفيتش) ولكنه جيل. والمظاهر أنها كانت لا تعرف كيف تتصرف مع ضفيرتها الشقراء الكثيفة، فكانت تلفها ثلاث مرات حول يافوخها. كان فمها فاتناً غضاً، كالوردة، بلون القرمز، وحين كانت تتحدث كان وسط شفتها العليا يرتفع قليلاً بعذوبة كبيرة. ولكن نظرة عينيها الهائلتين كانت تنطوي على شيء ثابت، يقرب من الصرامة. وكان مارتين بيتروفيتش يدعوها «المحبة للحرية بدمها القوزاقي». وكنت اتهيبها... كانت هذه الحسناء المهيبة الطلعة تذكرني بأبيها.

ولما ابتعدت مسافة أخرى سمعتها تغني بصوت موزون قوي، حاد قليلاً، كصوت فلاحي تماماً، ثم صمتت فجأة. التفت إلى الوراء فرأيتها، من قمة التل، واقفة قرب زوج أختها، أمام بقعة الشوفان المحصودة. كان زوج أختها يلوح ويشير بذراعيه، بينما هي تقف بلا حراك. وكانت الشمس تضيء قامتها العالية، وتجعل إكليل زهور القنطريون تلوح زرقاء ساطعة فوق رأسها.

يبدو أني ذكرت لكم آنفاً، أيها السادة، أن أمي قد ادخرت زوجاً لابنة خارلوف الثانية هذه. وكان هذا من أفقر جيراننا، ضابطاً متقاعداً برتبة رائد يدعى غافريلو فيدوليتش جيتكوف، تخطى سن الشباب، وكان يصرح، واصفاً نفسه بشكل لا يخلو من اعتداد بالنفس، بأنه «رجل حنكه الضرب والسحق». وكان أمياً تقريباً لا يكاد يعرف القراءة والكتابة، وبليداً جداً، ولكنه كان يأمل في سره بأن يصير مدير أعمال أمي، لأنه كان يشعر بأنه قادر على أن يكون «منفذاً». وكان يقول وهو يكاد يصرف بأسنانه: «ربما لا أحسن أي شيء، ولكني أفهم حتى أدق الدقائق كيف أقلع أسنان الفلاحين - ثم أوضح قائلا - إذ تعودت على ذلك في وظيفتي السابقة». ولو كان جيتكوف أقل بلادة لفهم أنه لن يفلح في أن يصير مدير أعمال والدتي، لأن ذلك كان يحتاج إلى أن يحل محل مدير الأعمال الحالي، وهو بولوني قوي الشكيمة كفوء يدعى كفيتسينسكي كانت أمي تثق به ثقة تامة. كان وجه جيتكوف طويلاً كوجه الحصان، مغطى كله، وحتى وجنتيه تحت العينين، بشعر أشقر مغبّر، وكان العرق الغزير ينتشر فيه كقطرات الندى حتى في أوقات الزمهرير الشديد. وكان حين يرى أمي يسرع في اتخاذ وقفة استعداد ويأخذ رأسه بالارتعاش من المجاهدة، ويداه الضخمتان تضربان فخذيه قليلاً، وكل شخصه يبدو وكأنه يقول: «مُري!.. وسأصدع بأمرك!». كانت أمي لا يأخذها الوهم في قابلياته، ومع ذلك فلم يمنعها هذا من الاهتمام بتزويجه من يفلامبيا.

ذات مرة سألته:

- ولكن هل ستقدر أن تدبر أمرك معها، يا فتاي؟

ابتسم جيتكوف باعتزاز في النفس:

آجوك، ناتاليا نيقولايفنا! كنت اضبط سرية كاملة، فتسير في مشية عسكرية. فأين هذه من تلك؟ ولا أسهل منها.

فقالت والدتي في ضيق:

- تلك سرية، يا صاحبي، أما هذه ففتاة نبيلة، زوجة.

فقال جيتكوف يهتف:

– أرجوك، ناتاليا نيقولايفنا! نحن نستطيع نفهم ذلك جيداً. باختصار: إنها بنت أكابر، إنسانة رقيقة!

– طيب! – قالت أمي أخيراً: – ستعرف يفلامبيا كيف تنافح عن نفسها.

– ١٠ –

ذات مرة، في أواخر شهر حزيران، والنهار يجنح إلى المساء، أعلن خادم وصول مارتين بيتروفيتش. اندهشت أمي. وكنا لم نره منذ أكثر من أسبوع، وكان لا يزورنا في هذا الوقت المتأخر قط. هتفت بصوت هامس: «حدث شيء، لا بد!». حين دخل مارتين بيتروفيتش الحجرة وهوى في الحال على مقعد قرب الباب كان على وجهه تعبير غير مألوف، لما عليه من شرود بل وشحوب، حتى أن أمي وجدت نفسها تعيد هتافها بصوت عالٍ دون أن تدري؛ تفرس مارتين بيتروفيتش فيها بعينيه الصغيرتين، وصمت قليلاً، وزفر زفرة ثقيلة، وصمت ثانية، وأخيراً أعلن إنه جاء في مسألة... من النوع الذي... بالسبب...

غمغم بهذه الكلمات المفككة، وإذا به ينهض فجأة، ويخرج.

دقت أمي الجرس، وأمرت الخادم الذي دخل عليها بأن يلحق مارتين بيتروفيتش حالاً، ويعيده من كل بد. ولكن مارتين بيتروفيتش كان قد لحق أن يركب عربته ويغادر.

في صباح اليوم التالي تهيأت أمي لإرسال موفد إليه، وقد أذهلها، بل وأزعجها تصرفه الغريب، والتعبير غير المألوف الذي كان مرتسماً على وجهه، وإذا به يظهر أمامها ثانية. ولكنه كان أكثر هدوءاً في هذه المرة. فهتفت أمي، حالما رأته:

– تحدث، يا عزيزي، تحدث، ما الذي جرى لك؟ الحقيقة فكرت يوم أمس: يا إلهي! قلت لنفسي، ألعل شيخنا فقد عقله؟

أجاب مارتين بيتروفيتش:

– لم أفقد عقلي، يا سيدتي. لست من هذا الطراز. ولكنني بحاجة إلى التشاور معك.

– بأي خصوص؟

– أخشى فقط أن يضايقك الموضوع...

– تكلم، تكلم، يا أبتي، ولكن بطريقة أبسط. لا تجعلني أقلق! ما تعني بالموضوع؟ تحدث أبسط. أم أن سوداويتك عادت إليك مرة أخرى؟

قطب خارلوف حاجبيه.

– لا، لا سوداوية. إنها تأتيني في منزلة الهلال. اسمحي لي أن أسألك، يا سيدتي، ما رأيك في الموت؟

انزعجت أمي.

– في أي شيء؟

– في الموت. هل يمكن أن يعفو الموت إنساناً في هذه الدنيا؟

– بهذا أيضاً تفتق عقلك، يا صاحبي؟ من الخالد من بيننا؟ لقد ولدت عملاقاً، ومع ذلك فستأتي نهايتك، أنت أيضاً.

– ستأتي، آه، ستأتي! – وافقها خارلوف، وأطرق برأسه، وأخيراً غمغم – حلمت في نومي برؤيا...

قاطعته أمي قائلة:

– ما هذا الذي تقوله؟

كرر:

– برؤيا... فأنا أحلم بالرؤى!

– أنت؟

– أنا! ولم تكوني تعرفين؟ – وزفر خارلوف – طيب، هذا هو يا سيدتي... قبل أكثر من أسبوع، في عشية صوم القديس بطرس[1] استلقيت بعد الغداء لأستريح قليلاً، فغفوت! فرأيت في نومي مهراً أسحم يدخل عليّ الحجرة. وأخذ هذا المهر يلعب، ويكشر عن أسنانه. وهو أسود فاحم كالخنفس.

١– صيام بطرس يقع قبيل عيد الرسولين بطرس وبول عند الأرثوذوكس (٢٩ حزيران حسب التقويم القديم). وفي عشية هذا العيد يمكن تناول طعام لحمي.

وصمت خارلوف.

فقالت أمي:

- وبعد؟

- وإذا بهذا المهر يستدير فجأة، ويرفس كوعي الأيسر، عند عظم الكوع تماماً! فاستيقظت، فأشعر بأن يدي لا تتحرك، وكذلك رجلي اليسرى. فتصورت أنه الشلل، إلا أنني تحركت وعدت إلى سابق وضعي... إلا أن التنميل ظلّ يجري في مفاصلي طويلاً، وهو ما يزال يجري. حالما أفك راحة يدي حتى أحس به يجري.

- ولكن ربما نمت على يدك طويلاً، يا مارتين بيتروفيتش.

- لا، يا سيدي. ليس هذا، وأرجو المعذرة! إن ذلك إنذار مسبق لي... انذار مسبق بموتي، كما يبدو.

انشأت أمي تقول:

- لا أظن!

- إنذار مسبق! يعني هيىء نفسك، يا رجل! ولهذا أرى من واجبي، يا سيدتي أن أبلغك حالاً وعلى الفور - وفجأة صاح خارلوف - ورغبة مني في أن لا يباغتني الموت، أنا العبد للرب، عزمت على ما يلي: تقسيم ضيعتي الآن، وقبل أن أموت، بين ابنتيّ آنا ويفلامبيا، كما أراه مناسباً - وتوقف مارتين بيتروفيتش، وتأوه، وأضاف: - حالاً وعلى الفور.

قالت أمي:

- وماذا أقول؟ إنه عمل جيد. فقط أتصوّر أنك تستعجل من غير داع.

فمضى خارلوف يقول رافعاً صوته أكثر:

- ولما كنت أود في هذا الموضوع أن أراعي النظام الواجب والقانون فأنا ألتمس من ابنك دميتري سيميونوفيتش، بخضوع، - فأنا لا أجرؤ على مضايقتك، يا سيدتي - ألتمس من ابنك دميتري سيميونوفيتش، ومن قريبي بيتشكوف، حيث اعتبر ذلك واجباً مباشراً له، أن يحضرا توقيع الصك الرسمي لنقل الملكية إلى ابنتيّ آنا المتزوجة ويفلامبيا الآنسة. وسيجري

ذلك بعد يوم غد، في الساعة الحادية عشرة ظهراً، في ضيعتي يسكوف، كوزيولكينو، وبمشاركة أصحاب السلطة والموظفين الذين دعوا أيضاً.

ولم يكد مارتين بيتروفيتش يتم هذا الكلام الذي يبدو أنه قد حفظه عن ظهر قلب وقد تخچللته تنهدات متتابعة... وكأن صدره لا يأخذ كفايته من الهواى، وعادت الحمرة إلى وجهه الشاحب ومسح العرق عنه عدة مرات. سألت أمي:

– يعني وضعتصك التقسيم، بالفعل؟ متى تسنى لك الوقت لتفعل ذلك؟

– تسنى... أوه! دون أن أشرب أو آكل...

– وكتبته بنفسك؟

– ساعدني، أوه... فولودكا.

– قدمت الطلب؟

– قدمته، وصادقت عليه الغرفة، وأعطيت التعليمات إلى محكمة القضاء، والفرع المؤقت لمحكمة زيمستفو[1]... أوه!.. عيّن للحضور.

ظهرت بسمة على شفتي أمي.

– أراك، يا مارتين بيتروفيتش، قد دبّرت كل شيء، كما ينبغي له، وبتلك السرعة أيضاً! يعني أنك لم تبخل بالفلوس؟

– لم أبخل، يا سيدتي!

– حقاً! وتقول أنك تريد أن تتشاور معي. طيب ليذهب دميتري. وسأترك سوفينير يذهب معه. وسأخبر كفيتسينسكي أيضاً.. ألم تدع. غافريلا فيدوليتش؟

– غافريلا فيدوليتش.. السيد جيتكوف... أُبلغ عني أيضاً. ينبغي عليه، كخطيب!

والظاهر أن كل ذخيرة مارتين بيتروفيتش من الفصاحة قد نفدت. وفي

١– الزيمستفو – إدارة محلية في الأرياف في روسيا ما قبل الثورة للنبلاء في الغالب. – المترجم.

الحق كان دائماً يبدو لي أنه لا يميل كثيراً إلى الخطيب الذي وجدته أمي لابنته يفلامبيا. ولعله كان يتوقع زوجاً لها أكثر نفعاً.

نهض من المقعد، وشحط بقدمه.

– شكراً على الموافقة.

سألته أمي:

– إلى أين ذاهب؟ أجلس قليلاً، سأطلب أن تقدم لك المشهيات..

أجاب خارلوف:

– متشكر جداً. ولكنني لا أقدر... أوه! يجب أن أعود إلى البيت.

وتراجع، وأخذ ينسل في الباب من جنب، على عادته.

ومضت أمي تقول:

– انتظر، انتظر. هل تترك ضيعتك كلها إلى ابنتيك، دون أن تبقي لنفسك شيئاً؟

– كلها، بالطبع، بدون أن أبقي لنفسي شيئاً.

– طيب، وأنت... أين ستعيش؟

استغرب خارلوف حتى راح يلوح بذراعيه.

– كيف أين؟ في بيتي، مثلما عشت من قبل.. سأعيش في المستقبل أيضاً. أي تبدل يمكن أن يحصل؟

– هل أنت واثق تماماً بابنتيك، وبصهرك أيضاً؟

– تقصدين فولودكا؟ ذلك الخرقة؟ سأقذف به حيث اشاء، هنا وهناك... أية سلطة له؟ أما هما، أقصد ابنتيّ، فستطعمانني وتسقيانني وتكسيانني حتى القبر... لا حاجة إلى هذا الكلام! إن ذلك واجبهما الأول! ثم أني لن أضجرهما في بقائي طويلاً في هذه الدنيا. فالموت ليس بعيداً وراء الجبال، بل وراء الكتفين...

قالت أمي:

– الأعمال بيد الله. والواجب واجبهما، بالفعل. ولكن أعذرني، يا

مارتين بيتروفيتش، أن ابنتك الكبيرة آنا معروفة بتشامخها، كما أن الثانية تبدو كالذئبة...

قاطعها خارلوف:

- ناتاليا نيقولايفنا! ما هذا الذي تقولينه؟ تتصورين أنهما... ابنتيّ.. وتتصورينني أنا... تخرجان عن الطاعة؟ لن يخطر ذلك حتى في أحلامهما... تتمردان؟ وعلى من؟ على أبيهما؟ تتجاسران؟ وهل يقتضيني كثيراً أن أسلط عليهما لعنتي؟ طوال حياتهما عاشتا في رهبة مني وخنوع... وعلى غلفة!.. معاذ الله!

وراح خارلوف يسعل. فأسرعت أمي تهدئه:

- طيب، وليكن ذاك.لا ولكنني، على أية حال، لا أفهم لماذا عنّ لك أن تفعل ذلك الآن؟ إنهما بعد وفاتك سترثانك على أية حال. أعتقد أن سوداويتك هي السبب في كل ذلك.

فاعترض خارلوف وليس بلا ضيق:

- آه، يا سيدتي! لماذا تعيدين هذا القول: سوداويتك. ربما تتحكم في هذا الأمر قوة من الأعلى، بينما أنت تنسبينه إلى السوداوية! عنّ لي هذا الموضوع يا سيدتي لأنني أريد أن أقرر شخصياً، ما دمت «على قيد الحياة» وفي حضوري، ماذا ولمن أعطي. والتي أكافئها بشيء يحكون لها ذلك الشيء، فتشعر بالامتنان، وتنفذ. وما فعله أبوها والمحسن إليها مكرمة عظيمة...

وتقطع صوت خارلوف من جديد. قاطعته أمي:

- أوه، كفى، كفى، يا صاحبي. وإلا فسيظهر ذلك المهر الاسحم حقاً.

تأوه خارلوف:

- أوه، ناتاليا نيقولايفنا، لا تذكريه لي! إنه حتفي جاء يلاحقني. نستأذن بالانصراف. أما أنت فسيكون لي شرف انتظارك بعد غد، يا سيدي!

وخرج مارتين بيتروفيتش، وشيعته أمي ببصرها، وراحت تهز رأسها بدلالة. وهمست:

- لا يبشر ذلك بخير، لا يبشر بخير - ثم التفتت نحوي قائلة: - هل

لاحظت؟ إنه يتكلم ويقلص عينيه، كأنما يتقي الشمس. وذلك فأل سيىء لو علمت. يعني أن مثل هذا الرجل موقر القلب، تهدده نكبة. اذهب بعد غد مع فيكينتي أوسيبوفيتش وسوفينير.

- ١١ -

في اليوم المحدد انسابت إلى مدخل دارنا عربتنا العائلية ذات المقاعد الأربعة، تجرها ستة خيول كمت[١] ويجلس على مقعد الحوذي فيها «رئيس الحوذية» الكسييتش الأشيب اللحية، البدين. أثرت في والدتي أهمية العمل الذي نوى خارلوف الإقدام عليه، والفخفخة التي دعانا بها. فأصدرت أمرها في تهيئة هذه العربة الاستثنائية، وأوعزت إلى سوفينير وإليّ بأن نلبس كما نلبس بالأعياد.. والظاهر أنها أرادت أن تظهر الاحترام لمن تشمله بـ «رعايتها». أما كفيتسينسكي فكان دائماً في سترة فراك وربطة عنق بيضاء. ظل سوفينير، طوال الطريق، يزقزق كالعقعق، ويضحك في سره، ويتساءل هل سيترك له الأخ شيئاً، ويسميه في الوقت ذاته بالصنم وبالهولة. وفي آخر الأمر نفد صبر كفيتسينسكي، الجهم الصفراوي المزاج. فقال بلكنته البولونية الواضحة: «أتغويك مثل هذه الثرثرة السخيفة؟ وهل يعقل أنك لا تستطيع أن تجلس بدون هذه السفاسف التي «لا حاجة لأحد بها»؟ (تعبيره المفضل). «طيب، حالاً» - تمتم سوفينير في ضيق، وثبت عينيه الحولاوين في نافذة العربة. وما كاد ربع ساعة يمر، وما أن بدأت الخيول تعرق في عدوها المتساوق تحت السيور الناعمة لعددها الجديدة حتى تبدّت ضيعة خارلوف للعيان. عبرت عربتنا البوابة المفتوحة على مصراعيها، إلى الفناء. وقفز صبي الحوذي الضئيل للمرة الأخيرة على السرج الناعم للحصان الذي يمتطيه، وقدماه لا تكادان تصلان إلى نصف بطنه، وأطلق صيحة صبوية، وتحرك كوعا العجوز الكسييتش إلى الجانبين وإلى الأعلى في آن واحد، وتردد صوته أمر الخيول بالوقوف، فتوقفنا. لم تستقبلنا كلاب بالنباح. بل ولم تقع أبصارنا على الصبيان الخدم في ثيابهم الطويلة عادة، المكشوفة قليلاً عند بطونهم الكبيرة. كان صهر خارلوف في انتظارنا على مدخل البيت. وأاتذكر أن ما بهرني،

١- جمع كميت: وهو الأحمر الداكن. - المترجم.

بشكل خاص، أشجار البتولا الفتية المغروسة على جانبي مدخل البيت، كما في عيد الثالوث المقدس[1]. إن سوفينير كان أول من نزل من العربة: «احتفال الاحتفالات!». وبالفعل كان جو الاحتفال يشيع في كل شيء. كان صهر خارلوف يرتدي ربطة عنق مخملية من القطن مع شدة من الأطلس، وسترة فراك سوداء ضيقة بشكل غير اعتيادي، أما ماكسيمكا الذي خرج من وراء ظهره فقد بلل شعره بمشروب الكفاس حتى كان الكفاس يقطر من شعره. دخلنا إلى حجرة الجلوس، ورأينا مارتين بيتروفيتش يشمخ جامداً – يشمخ حقاً وفعلاً – وسط الحجرة. ولا أدري ماذا شعر سوفينير وكفيتسينسكي لدى مرأى جرمه الهائل، ولكنني شعرت بما يشبه الإجلال. كان مارتين بيتروفيتش في سترة رمادية لعلها سترته حين كان يخدم في جيش المتطوعين عام ١٨١٢، لها باقة سوداء قائمة، وقد برزت الميدالية البرونزية على صدره، والسيف يتدلى من جنبه، وقد وضع يده اليسرى على مقبضه، واستند باليمنى على المنضدة المغطاة بقماشة حمراء، وكانت على هذه المنضدة ورقتان مكتوبتان. لم يتحرك خارلوف، بل ولم يلهث، وكان في قيافته مهابة، وثقة في النفس، في سلطته غير المحدودة والمحققة! حيانا بهزة من رأسه لا غير، وتمتم: «تفضلوا!» وأشار بسبابة يده اليسرى باتجاه مقاعد صفت على مقربة. كانت ابنتاه كلتاهما تقفان عند الحائط الأيمن لحجرة الجلوس، وقد لبستا ثياب أيام الأحد: آنا في ثوب أخضر ليلقي له حزاماً حريرياً أصفر؛ ويفلامبيا في ثوب وردي بشرائط قرمزية. وبالقرب منهما جيتكوف في سترة جديدة، عيناه تعبران عن توقع بليد جشع، وعلى وجهه المشعر كمية كبيرة من العرق أكثر من المعتاد. وعند الحائط الأيسر من حجرة الجلوس جلس قسيس عجوز ذو شعر بني خشن في غفارة عتيقة بلون التبغ. وكان هذا الشعر، والعينان الجزعتان الكامدتان، واليدان الكبيرتان الجاسئتان، اللتان كانتا تستقران على ركبتيه، مثل كتلتين كبيرتين، وكأنما تثقلان على صاحبهما نفسه، والحذاء اللمّاع البارز من تحت الغفارة، كل ذلك كان شاهداً على حياة كادحة لا تداخلها فرحة. فقد كانت أبرشيته فقيرة جداً. وكان يجلس إلى جانبه مدير الشرطة، وهو رجل بدين شاحب الوجه، مهمل

١– أحد أكبر الاعياد لدى المسيحيين تكريماً للثالوث المقدس. وكانت البيوت في روسيا تزين في هذا اليوم بشجيرات البتولا الفتية والأغصان والاكاليل.

الهندام ذو يدين وقدمين ممتلئتين قصيرتين، وعينين سوداوين، وشاربين أسودين مشذبين، وعلى وجهه ابتسامة صغيرة مستديمة، مقرفة، وإن كانت مرحة. وكان يعرف عنه بأنه مرتش كبير، بل وطاغية، كما كانوا يقولون في ذلك الوقت، إلا أن أصحاب الأراضي قد تعودوا عليه وحتى الفلاحون، وأحبوه. كان ينظر فيما حوله بوقاحة كبيرة، وبشيء من السخرية. وكان واضحاً أن هذا «الإجراء» كله كان، بالنسبة له، شيئاً من التفكهة. وفي الحق كان كل همه منصباً على المشهيات التي ستقدم مع الفودكا. إلا أن الوكيل القضائي الجالس إلى جانبه، وهو رجل جاف العد مستطيل الوجه، ذو قذالين ضيقين يصلان بين أذنيه وأنفه، على النمط السائد في عهد القيصر ألكسندر الأول[1]، كان يشترك بكل قلبه فيما يصدره مارتين بيتروفيتش من أوامر، ولا يصرف عنه عينيه الكبيرتين الجادتين؛ ومن شدة اهتمامه وتجاوبه كان طوال الوقت يحرك ويلوي شفتيه دون أن يفرجهما، على أية حال. وقد انضم سوفينير إليه، وراح يتحدث معه همساً، بعد أن أعلن لي، في أول الأمر، أن هذا الرجل هو الماسوني الأول في الولاية. وكان الفرع المؤقت لمحكمة زيمستفو مكوّناً، كما هو معروف، من رئيس شرطة المنطقة ووكيل القضاء وضابط الشرطة المحلية. إلا أن ضابط الشرطة لم يكن موجوداً. إما لأنه غير موجود على الإطلاق، وإما لأنه انسل دون أن ألحظ، وبالمناسبة كان يلقب في قضائنا بـ «غير الموجود» مثلما هناك من يوصف بـ «غير الذاكر». جلست قرب سوفينير، وجلس كفيتسينسكي إلى جانبي. وقد ارتسم على وجه البولوني العملي ضيق واضح من هذه الرحلة التي «لا حاجة لأحد بها»، ومن تضييع الوقت بدون طائل... وكان يبدو كمن يهمس لنفسه: «يا لها من سيدة! فنطازيات الأسياد الروس! يا لي من هؤلاء الروس!».

– ١٢ –

عندما اتخذنا مجالسنا جميعاً، رفع مارتين بيتروفيتش كتفيه، وتنحنح، وأجال بنا جميعاً عينيه الشبيهتين بعيني الدب، وأرسل زفرة صاخبة، وبدأ هكذا:

١– ألكسندر الأول امبراطور روسي من عام ١٨٠١ إلى عام ١٨٢٥.

- أيها السادة المحترمون! دعوتكم للمناسبة التالية. السن تتقدم بي، يا سادتي، والعللِ تغلبني على أمري... وقد تلقيت انذاراً مسبقاً بدنو أجلي، كالحرامي ينسل في الليل... أليس كذلك، يا أبانا؟ - توجه إلى القس بهذا السؤال.

انتفض القس، وغمغم هازاً لحيته:

- كذلك، كذلك.

فتابع مارتين بيتروفيتش قوله، وقد رفع صوته فجأة:

- ولهذا، ورغبة مني في أن لا يباغتني الموت عزمت على... - كان مارتين بيتروفيتش يكرر كلمة بكلمة العبارات التي قالها في حضور أمي قبل يومين - وبموجب قراري هذا... - صاح بصوت أعلى - وضعت هذا الصك (وضرب بيده على الورقتين المطروحتين على الطاولة) ودعوت أصحاب السلطة ليشهدوا على ذلك. وقد ضيغدت أرادتي بالبنود التالية. كنت صاحب الأمر والنهي زمناً طويلاً، وكفاني الآن!

وركّب مارتين بيتروفيتش نظارته المدوّرة الحديدية الإطار على أنفه، وتناول إحدى الورقتين المكتوبتين من الطاولة وأخذ يقرأ:

- أن صك التقسيم هذا وضعه النبيل العريق والضابط المتقاعد مارتين خارلوف في كامل صحته العقلية، وبناء على رغبته الخاصة وتدبيره ينص بدقة على ماهية الممتلكات التي ستؤول إلى ابنتيه آنا ويفلامبيا (انحنيا! - فانحنتا)، وباية طريقة يقسّم الاقنان والأملاك الأخرى والحيوانات بين هاتين الابنتين! بحكم السلطة التي في يده!

همس مدير الشرطة لكفيتسينسكي، وهو يبتسم ابتسامته التي لا تغيب عن شفتيه:

- ورقته هذه يريد قراءتها لجمال أسلوبها، ولكن الوثيقة القانونية وضعت بالشكل المتداول، خالية من كل هذه التزاويق.

بدأ سوفينير يضحك...

و لم تفت ملاحظة مدير الشرطة على خارلوف، فقال:

- بموجب إرادتي!

فأسرع هذا يجيب بلهجة مرحة:

- كل النقاط صحيحة. ولكنك تعرف، يا مارتين بيتروفيتش، الصيغة الازمة، وقد ازيحت منها التفاصيل الزائدة. لأن الغرفة لا يمكن أن تشغل بالها بالأبقار الرقطاء، والوز التركي.

- يا أنت، تعال إلى هنا!

صاح خارلوف على صهره الذي كان قد دخل الحجرة وراءنا، وتوقف عند الباب بمظهر متذلل. فاندفع إليه في الحال.

- خذ، أمسك، واقرأ! إذ يصعب لاعليّ. ولكن إياك أن تتمتم! حتى يستطيع جميع السادة الحاضرين أن ينفذوا إلى لب النص.

أمسك سلوتكين الورقة بكلتا يديه، وأخذ يقرأ صك التقسيم بارتجاف، ولكن بوضوح، وبتذوق وعاطفة. وقد دوّن في الصك بدقة متناهية ما آل على وجه التحديد إلى آنا وإلى يفلامبيا، وكيف ينبغي أن تتقاسماه فيما بينهما. وكان خارلوف من حين لآخر يقطع القراءة بعبارات من مثل: «اسمعي، هذا لك، يا آنا على جهدك!» أو «هذا أهبه لك، يا يفلامبيا!» وانحنت كلتا الشقيقتين. آنا إلى الوسط، ويفلامبيا برأسها فقط. وكان خارلوف يتمعن فيهما بعظمة جهماء. وقد أعطي «بيت الضيعة» (البيت الجديد) إلى يفلامبيا «للبنت الصغيرة، حسب العرف القديم». ورنّ صوت القارىء وارتجف، وهو ينطق الكلمات غير المريحة له. أم جيتكوف فلعق شفتيه. حدجته يفلامبيا بنظرة جانبية. ولو كنت في مكان جيتكوف لما أعجبتني هذه النظرة. في هذه المرة كان تعبير الإزدراء المرتسم على وجه يفلامبيا، والمميز لها كأية حسناء روسية حقيقية، يكتسي مسحة خاصة. وأعطى مارتين بيتروفيتش الحق لنفسه في أن يسكن الغرف التي يحتلها الآن، وحكم لنفسه بصفته «المتولي» بأن يموّن كلياً بـ «المواد الغذائية العينية» وبعشرة روبلات من العملة الورقية في الشهر للملابس والأحذية. ورغب في أن يقرأ بنفسه العبارة الأخيرة من صك التقسيم. وأعلن «وبناء على إرادتي الأبوية هذه تلزم ابنتاي بتنفيذ ومراعاة الوصية بقدسية وثبات، لأنني بعد الله أبوهما ورأس العائلة،

ولا أخضع و لم أخضع لأحد، فإن نفذتا مشيئتي شملتهما بركتي، وإن لم تنفذاها، لا سمح الله، فستحل بهما لعنتي الأبوية الصاعقة، الآن وإلى الأبد. آمين!» ورفع خارلوف الورقة عالياً. أسرعت آنا فركعت في الحال وقرعت جبينه الأرض. وتبعها زوجها فانكب برأسه أيضاً. فالتفت خارلوف إلى يفلامبيا قائلاً: «طيب، وأنت؟». فاحمرّت هذه كلية، وانكبت على الأرض أيضاً. وانحنى جيتكوف بكل جذعه في المقدمة.

– وقعوا! – هتف خارلوف، وهو يشير بإصبعه إلى طرف الورقة – هنا: اتقبلها شاكرة، آنا! اتقبلها شاكرة يفلامبيا!

نهضت الابنتان كلتاهما، ووقعت الواحدة تلو الأخرى. ونهش سلوتكين، وأراد أن يمسك لاريشة، إلا أن خارلوف أبعده، دافعاً إياه بإصبعه الوسطى عند ربطة العنق، حتى جعله يتأوه. ساد الصمت حوالي دقيقة. وإذا بمارتين بيتروفيتش يتمتم، وكأنه ينتحب: «حسناً، والآن كل شيء لكم!» وتنحى جانباً. تبادلت الابنتان والصهر النظرات، وتقدموا منه، وأخذوا يقبلونه إلى الأعلى من كوعه. إذ لم يكن في وسعهم الوصول إلى كتفه.

– ١٣ –

قرأ مدير شرطة القضاء الصك الحقيقي الموضوع حسب الأصول، وقائمة الممتلكات المهداة التي وضعها مارتين بيتروفيتش. وبعد ذلك خرج مع وكيل القضاء إلى مدخل البيت، وأبلغ الجيران المجتمعين هنا والشهود، والفلاحين، وبعض الخدم بالحدث الذي تم. وبدأت مراسم تمليك المالكتين الجديدتين اللتين خرجتا إلى مدخل البيت أيضاً، فأشار إليهما مدير الشرطة بيده، حين قوّس أحد حاجبيه قليلاً، مضفياً في الحال على وجهه الخلي مظهر الغاضب، موحياً للفلاحين بـ «الطاعة». وكان في إمكانه أن يستغني عن هذا الإيحاء. فأنا لا أظن أن في الطبيعة وجوهاً أكثر وداعة من وجوه فلاحي خارلوف. كانوا واقفين جامدين كالحجارة فذي معاطفهم الرثة وفرواتهم الممزقة، المحزّمة، بقوة، على أية حال، كما هو دائماً في مثل هذه المناسبات الاحتفالية، وحالما كان مدير الشرطة يطلق عبارات من مثل: «تسمعون، يا عفاريت! تفهمون، يا شياطين!» كانا ينحنون دفعة واحدة، وكأنما بإيعاز،

وكان كل واحد من هؤلاء «العفاريت والشياطين» يمسك قبعته بقوة وبكلتا يديه، ولا يصرف بصره عن النافذة التي لاح فيها مارتين بيتروفيتش. وحتى الشهود أحسوا بشيء من الرهبة.

صاح مدير الشرطة بهم:

- هل لديكم علم بعقبات تحول دون نقل الملكية إلى ابنتي مارتين بيتروفيتش خارلوف المالكتين الشرعيتين الوحيدتين لها؟

وبدا وكأن الشهود جميعهم قد انكمشوا على أنفسهم. وعاد مدير الشرطة يصيح:

- هل لديكم علم، يا عفاريت؟

- لا، يا صاحب السيادة، ليس لنا أي علم.

رد برجولة عجوز مجدّر الوجه ذو لحية مقصوصة، وشاربين، هو جندي في المعاش.

وصار الشهود يقولون عنه، وهم يتفرقون:

- أوه،لا إنه لجريء، يريمييتش هذا!

لم يرغب خارلوف بالخروج مع ابنتيه إلى مدخل البيت، رغم رجاء مدير الشرطة. فقد ردّ قائلاً: «رعاياي سيذعنون لإرادتي بدون هذا!». فقد اعتراه بعد إتمام الصك، ما يشبه الكآبة. عاد الشحوب إلى وجهه. وكانت مسحة الكآبة الجديدة غير المألوفة هذه لا تناسب كثيراً ملامح مارتين بيتروفيتش العريضة الجسيمة، حتى أنني لم أعرف كلياً أي شيء ذلك! ألعل سوداويته عادت إليه؟ والفلاحون، على ما يظهر، شعروا من جانبهم بالحيرة.

وبالفعل: «ها هو السيد حياً أمامهم، وأي سيد! أنه مارتين بيتروفيتش! وإذا به لم يعد مالكاً لهم... أعجوبة!». ولا أعرف هل حدس خارلوف ما يدور في رؤوس «رعيته» من أفكار، وهل أراد للمرة الأخيرة أن يتعجرف، إلا أنه فتح الفتحة العليا من النافذة فجأة، وأخرج رأسه منها، وصاح بصوت هائل: «أطيعوا!»، ثم صفق الفتحة. ولكن حيرة الفلاحين، لم تتبدد، بالطبع، و لم تقل. بل صاروا أكثر تحجراً، وكأنما كفوا عن النظر. وكان رهط

الخدم يبدو أكثر حيوية من الفلاحين فقد راوح في مكانه على الأقل (كان من بينه فتاتان جسيمتان في ثوبين قطنيين قصيرين، لكل منهما ساقان ربلتان لا يمكن أن ترى مثيلاً لهما إلا في «يوم الحساب» الرهيب لميكل أنجلو[١]، وعجوز شائخ تماماً، بل ومكسو بصوفة، شبه أعمى في معطف مهلهل من القماش السميك، كان، حسب ما يشاع، «نافع بوق فرنسي» في عهد بوتومكين[٢]؛ أما ماكسيمكا فأبقاه خارلوف لنفسه). وتصرفت المالكتان المحدثتان بأبهة كبيرة، ولا سيما آنا. صكت على شفتيها اليابستين، وراحت تحدق إلى الأرض بثبات... ولم توح هيئتها الصارمة بخير كثير للخدم. كما أن يفلامبيا لم ترفع بصرها أيضاً، سوى أنها التفتت مرة واحدة، وألقت نظرة بطيئة إلى خطيبها جيتكوف، كالمندهشة، وكان هذا، قد رأى من الضروري أن يخرج إلى مدخل البيت، في أثر سلوتكين. وكانت عيناها الجميلتان البارزتان تبدوان وكأنما تقولان له: «بأي حق أنت هنا؟». وسلوتكين هذا قد تغيّر أكثر من الجميع. فقد بدت على كيانه كله حيوية عجول، وكأن شهيته قد تفتحت؛ ظلت حركات رأسه ورجليه على تذللها السابق، ولكن، ما أكثر ما في شمرات ذراعيه من مرح وما في حركات كتفيه من اهتمام. وكأنه يقول: «كل ذلك لي، أخيراً!». ولما انتهت «مراسم» التمليك كان اللعاب يسيل من شفتي مدير الشرطة لقرب الوليمة، فمسح يديه بتلك الطريقة الخاصة التي تسبق، في العادة، «احتساء الكأس الأولى» ولكن تبين أن مارتين بيتروفيتش كان يريد أولاً أن تتلى الصلاة وينثر الماء المقدس. لبس القس رداءه الكهنوتي العتيق المهلهل وخرج الشماس من المطبخ بين الموت والحياة ينفخ البخور بعسر في مبخرة نحاسية قديمة. وبدأت الصلاة. وكان خارلوف يتنهد بين الفينة والفينة، أعاقته بدانته عن السجود، إلا أنه رسم علامة الصليب باليد اليمن، وأحنى رأسه، وأشار بإصبع يده اليسرى إلى الأرض.

١- لوحة في جدار مذبح كنيسة سيكستينيا في روما للرسام والنحات الايطالي العظيم ميكايلوبجيلو بوونا روتي (١٤٧٥ - ١٥٦٤).

٢- الأمير غيريغوري بوتيكين (١٧٣٩ - ١٧٩١) - رجل سياسي روسي. البوق الفرنسي آلة موسيقية تدخل ضمن آلات الفرق الموسيقية البيتية لأصحاب الأراضي الأغنياء.

وتألق وجه سلوتكين، بل ودمعت عيناه. وكان جيتكوف يحرك أصابعه حركات خفيفة بين الزر الثالث والرابع، بنبل وعلى الطريقة العسكرية. وتخلّف كفيتسينسكي، ككاثوليكي، في الغرفة المجاورة، أما وكيل القضاء فقد صلّى بورع شديد، وراح يتنهد في أثر مارتين بيتروفيتش بتأثر كثير، ويهمس ويحرك شفتيه بمجاهدة، رافعاً عينيه نحو السماء، حتى لشعرت بالتأثر، وأنا أنظر إليه، وأخذت أصلي بلهفة أيضاً. وبعد الصلاة ونثر الماء المقدس، بلل الحاضرون جميعاً، وحتى «نافخ البوق الفرنسي» الأعمى من عهد بوتيمكين، بل وكفيتسينسكي، بللوا عيونهم بالماء المقدس. وشكرت آنا ويفلامبيا، مارتين بيتروفيتش مرة أخرى، بناء على طلبه، بانحناءة إلى الأرض، وبعد ذلك حلت أخيراً ساعة الفطور! كان الطعام كثيراً، ولذيذ المذاق بكل أنواعه. وشبعنا كلنا لحد التخمة. وظهرت زجاجة خمرة الدون التي لا بد منها في مثل هذه المناسبات. وكان مدير الشرطة، باعتباره أكثرنا معرفة بالعادات الراقية، وبصفته ممثلاً للسلطة أيضاً، أول من رفع كأسه نخب صحة «المالكتين الرائعتين». وهو نفسه عرض علينا فيما بعد أن نشرب نخب صحة الأكثظر تبجيلاً والأعظم أريحية مارتين بيترفيتش! صاء سلوتكين لدى سماعه كلمة «الأعظم أريحية» واندفع يقبل صاحب نعمته. وجمجم خارلوف بما ينم عن انزعاج «طيب، طيب، لا داعي»، دافعاً إياه بكوعه... وهنا حدث ما يسميه الناس بالمفاجأة غير المريحة.

- ١٤ -

وما حدث كالآتي: كان سوفينير، منذ بداية الفطور، يحتسي الكؤوس دون توقف، وإذا به ينهض من مقعده فجأة، محمراً كلية كالشمندر، وانفجر ضاحكاً ضحكته المتهافتة القذرة، مشيراً إلى مارتين بيتروفيتش، وقال زاعقاً:

– أريحي! أريحي! أما نحن فسنرى هل ستكون هذه الأريحية على ذوقه، حين يرمى، هذا العبد لله عاري الظهر... على الثلج!

قال خارلوف بازدراء:

– ما هذا الهراء؟ أحمق!

كرر سوفينير:

- أحمق! أحمق! الله وحده يعرف مَنْ الأحمق الحقيقي بيننا، نحن الاثنين. أنت، يا أخ، قد أوديت بحياة زوجتك، أختي، وها أنت الآن قد قضيت على نفسك... ها، ها، ها!

- كيف يجسر على إهانة وليّ نعمتنا المحترم؟ - زعق سلوتكين، وأفلت من كتف مارتين بيتروفيتش الممسكة به، وهجم على سوفينير - ولكن هل تعرف أن ولي نعمتنا لو أراد ذلك، استطعنا أن نمزق الصحك نفسه في التو واللحظة؟...

- ولكنكم مع ذلك، سترمونه عاري الظهر على الثلج... - أطلق سوفينير هذا الكلام، واختفى وراء كفيتسينسكي.

هدر خارلوف:

- اسكت! سأسحقك، حتى لا يبقى في مكانك غير لطخة دبقة. ثم أنت، أيها الجرو، اصمت! - توجه بالجملة الأخيرة إلى سلوتكين - لا تتدخل فيما لم تؤمر به! إذا كنت أنا، مارتين بيتروفيتش خارلوف، قد عزمت على كتابة هذا الصك، فمن يستطيع أن يمزقه؟ أن يقف ضد إرادتي؟ لا وجود لمثل هذه السلطة في الدنيا...

- مارتين بيتروفيتش - قال وكيل القضاء فجأة بصوت عالي النبرة مترع، وكان أيضاً قد شرب كثيراً، ولن ذلك لم يزده إلا عظمة - طيب، ماذا لو أن السيد مالك الأرض تفضّل وقال الحقيقة! إن ما قمت به عمل عظيم، طيب، بالفعل، ولكن ماذا لو يحصل عقوق، لا سمح الله... بدلاً من الشكر المتوجب؟

اختلست النظر إلى ابنتي مارتين بيتروفيتش كلتيهما. كانت آنا تغرز عينيها في المتكلم، وبالطبع، لم أر وجهاً أكثر حقداً، وغلاً، وأكثر جمالاً في ذروة الحقد هذه من وجهها! وأشاحت يفلامبيا وجهها، وعقدت يديها على صدرها، ولوت شفتيها الممتلئتين الورديتين ابتسامة ساخرة ازدرائية أكثر من أي وقت مضى.

نهض خارلوف من مقعده، وفغر فمه، ولكن لسانه خانه، على ما يبدو... فضرب المائدة بجمع يده فجأة، ضربة جعلت كل ما في الحجرة ينط ويهتز.

انبرت آنا تقول مسرعة:

– إنهم لا يعرفوننا، يا أبتي، ولهذا يفهموننا بهذا الشكل، فلا داعي لأن تؤذي نفسك، وتغضب بدون سبب. ها هو وجهك وكأنه قد تشوّه.

نظر خارلوف إلى يفلامبيا. فلم تبد حركة، رغم أن جيتكوف الجالس بجوارها دفعها في جنبها.

قال خارلوف بصوت أصم:

– شكراً لك، يا بنتي آنا. أنت راجحة العقل. وأنا أعتمد عليك، وعلى زوجك أيضاً. – وعاد سلوتكين يصوء، ودفع جيتكوف صدره إلى الأمام، وضرب الأرض بقدمه ضربة خفيفة، إلا أن خارلوف لم يلحظ عناءه، وقال وهو يشير بذقنه إلى سوفينير – إن هذا الطائش يسره أن يناكدني، ولكنك يا حضرة المحترم – واتجه إلى وكيل القضاء – لا يجوز لك أن تحكم على مارتين خارلوف، لم تصل بعد إلى تلك المنزلة. أنت إنسان موظف، ولكن ما تقوله هراء. وعلى العموم قضي الأمر، ولن يُنقض قراري... أرجو لكم مقاماً طيباً! أنا ذاهب. لم أعد صاحب الأمر هنا. أنا ضيف. آنا، اعتني بهم، كما تعرفين، وأنا ذاهب إلى مكتبي. كفاية!

وأدار مارتين بيتروفيتش إلينا ظهره، وخرج من الحجرة ببطء، دون أن يضيف كلمة أخرى.

وما كان من الممكن ألا تفسد مغادرة سيد البيت لقاءنا، لا سيما وأن سيدتي البيت الأخيرتين انصرفتا أيضاً بعد قليل. وحاول سلوتكين عبثاً أن يبقينا، و لم ينس مدير الشرطة تقريع وكيل القضاء على صراحته النابية.

أجاب هذا:

– لا يجوز السكوت! الضمير نطق!

همس سوفينير لي:

– واضح أه ماسوني!

فرد مدير الشرطة:

– الضمير! نحن نعرف ضميرك! أظنه يقبع في جيبك، مثلما هو عندنا، نحن الخاطئين!

وخلال ذلك كان القس واقفاً، إلا أنه شعر بقرب انتهاء الوليمة، فكان يحشو فمه قطعة وراء قطعة دون توقف.

فقال سلوتكين له بحدة:

– أما أنت، فأرى شهيتك عظيمة.

– للاحتياط.

ردّ القس بحركة خنوع من وجهه. فنمّ هذا الجواب عن جوع مزمن.

ترددت كركبة عربات.... وانصرف كل واحد إلى جهته.

في طريق العودة لم يمنع أحد سوفينير من التهريج والثرثرة، لأن كفيتسينسكي أعلن أنه ضجر من هذه التصرفات الشنيعة التي «لا حاجة لأحد بها» وذهب إلى بيته قبلنا ماشياً. واحتل جيتكوف مكانه في عربتنا، وكانت هيئة هذا الرائد المتقاعد تشي بالاستياء الشديد، وكان يحرك شاربيه بين الحين والآخر كالصرصار.

جمجم سوفنير:

– ما لك، يا صاحب السيادة، التابعية تخلخلت؟ انتظر، فقد لا يقتصر الأمر على ذلك. ربما ستتضرر أنت أيضاً. آه، يا خطيّب، خطيّب، تعساً لك من خطيّب!

وانطلق سوفينير يعزف على هذا النغم. ولم يحرك جيتكوف المسكين إلا شاربيه.

ولمّا عدت إلى البيت حكيت لأمي كل ما رأيته. أصغت إليّ حتى النهاية، وهزت رأسها/عدة مرات وقالت:

– ذلك لا يبشر بخير. لا تعجبني كل هذه البدع!

– ١٥ –

في اليوم التالي جاء مارتين بيتروفيتش قبيل الغداء. هنأته أمي بالنهاية الميمونة لما عزم عليه. وقالت:

أنت الآن حر. ولا بد أنك تشعر بأنك أخف حملاً.

– أخف، أخف، يا سيدتي – أجاب مارتين بيتروفيتش، إلا أن ذلك لم يكن يبدو على تعبير وجهه قط – يمكن الآن التأمل في النفس، والاستعداد لساعة الأجل، كما ينبغي.

فسألته أمي:

– ما هذا؟ أما يزال التنميل يسري في ذراعك؟

ضمّ خارلوف كف يده اليسرى وبسطها مرة أو مرتين.

– يسري يا سيدتي، وأقول لك إنني ما أن أغفو حتى يصرخ صوت في دماغي «احذر! احذر!».

– هذه... الأعصاب.

علّقت أمي، وأخذت تتحدث عن يوم أمس، ولمّحت إلى بعض الملابسات التي صحبت أجراءات أنجاز صك التقسيم...

قاطعها خارلوف:

– أي، نعم، نعم.. حصل ما لا يُحمد عليه. سوى أنني أقول لك – أضاف متكلماً بوقفات بين الكلمات – لم يربكني ما قاله سوفينير يوم أمس من كلمات فارغة. وحتى السيد وكيل القضاء، لم يربكني، مع أنه رجل معتبر... ولكن الذي أربكني..

وتلجلج خارلوف. فسألته والدتي:

– مَنْ؟

حملق خارلوف فيها.

– يفلامبيا.

– يفلامبيا؟ ابنتك؟ بأي شكل؟

– أواه، يا سيدتي، كالحجر! صنم الأصنام! أليس لها إحساس؟ أختها آنا، طيب، كل شيء كما يجب. إنها رقيقة! ولكن يفلامبيا التي كنت – ويجب أن أعترف! – أنعم عليها كثيراً! هل معقولٍ أنها لا تشفق عليّ؟ إذن، سألاقي السوء، إذن، أشعر بأنني لن أعمر طويلاً في هذه الدنيا، ما دمت أتخلى لهما عن كل شيء، وهي كالحجر! على الأقل لو تأوهت! انحنت إليّ بالطبع، ولكنها لم تقل كلمة شكر.

قالت أمي:

– على مهلك. سنزوجها إلى غافريلا فيدوليتش.. وستلين قناتها.

نظر مارتين بيتروفيتش إلى أمي بشزر، مرة أخرى:

– غافريلا فيدوليتش هذا! هل تأملين فيه، يا سيدتي؟

– آمل.

– طيب، أنت أعرف به. أما عن يفلامبيا فأقول لك أن لها نفساً طبعياً، بلا اختلاف. الدم قوزاقي والقلب متقد بالجمرة!

– ألك مثل هذا القلب، يا سيدي؟

لم يجب خارلوف. ورانت برهة صمت، قالت أمي بعدها:

– طيب، يا مارتين بيتروفيتش، بأي شكل تنوي افتداء روحك؟ هل تحج إلى ميتروفاني أم إلى كييف، أم لعلك تتوجه إلى دير أوبتا[1]، لأنه قريب؟ يقال ظهر هناك راهب صاحب قدسية... يسمونه الأب ماكاري. لا أحد يتذكر مثيلاً له! ينفذ إلى كل الخطايا.

قال خارلوف بصوتاجش:

– لئن تبين أنها ابنة عاقة بالفعل، فمن الاهون عليّ، على ما يبدو، أن أقتلها بيدي!

صاحت أمي:

– ما هذا منك! جازاك الله! افق على نفسك! أية أقوال تتفوه بها؟ هذه هي النتيجة! ليتك سمعتني قبل أيام، حين جئت تستشيرني! وها أنت تعذب نفسك، بدلاً من أن تتأمل في مآل روحك! ستعذب نفسك. ولكن لا مرد إلى ما وقع علي أية حال! نعم! وها أنت الآن تتشكى، ترتعد..

١– ميتروفاني هو أسقف فورونيج اعتبر، بعد وفاته، من عداد القديسين منذ عام ١٨٣١، وصار المؤمنون يحجون إلى مرقده في فورونيج. وكان في مدينة كييف العديد من الأديرة والكنائس – المزار التقليدي للمؤمنين.

ودير أوبتين للرجال أقيم في القرن الرابع عشر، وهو يقع إلى الجنوب الغربي من موسكو، غير البعيد عن مدينة كالوغا.

وبدا وكأن هذا التقريع نفذ إلى قلب خارلوف بالصميم. فغمرته أنفته السابقة كالموجة. نفض نفسه، ودفع حنكه إلى الأمام. وقال عبوساً:

- لست ذلك الرجل الذي يتشكى أو يرتعد، يا سيدتي ناتاليا نيقولايفنا. مجرد أنني رغبت في أن أشرح لك عواطفي، باعتبارك محسنتي وموضع احترامي. ولن الله يعلم (ورفع ذراعه فوق رأسه) أن تحول الكرة الأرضية إلى حطام، أقرب إلى الاحتمال من عدولي عن عهدي، أو... (وهنا أرسل صوتاً كالنخير) أو الارتعاد، أو الندم على ما فعلته! يعني، كانت هناك أسباب! ولن تخرج ابنتاي عن طاعتي، إلى أبد الآبدين، آمين!

سدّت أمي أذنيها بيديها.

- أوه، يا أب، كأنك لا تتكلم، بل تنفخ في بوق! الحمد لله، إذن، ما دمت واثقاً بابنتيك هذه الثقة! صدّعت رأسي تماماً.

اعتذر مارتين بيتروفيتش، وزفر زفرة أو زفرتين، وسكت. وعادت أمي تذكر كييف، ودير أوبتا، والأب ماكاري.. وافقها خارلوف قائلاً: «ضروري، ضروري.. لا بدَّ.. التكفير عن روحي...» وسكت. ولم يبد عليه أي مرح، حتى مغادرته. كان يضم ويبسط يده بين الحين والآخر، وينظر إلى باطن كفه، ويقول إن أرهب شيء له أن يموت بسكتة دون أن يكفر عن ذنوبه، وأنه قطع عهداً على نفسه بأن لا يستبد به الغضب، لأن الدم، عند ذاك، يرتد فاسداً عن القلب، ويفيض على الدماغ... فضلاً عن أنه منصرف عن الانشغال بأي شيء الآن ولأي داع يغضب؟ خلِّ الآخرين يعملون الآن، ويفسدون دماءهم!

ولدى توديعه لأمي نظر إليها بطريقة غريبة، في سهوم وتساؤل... وفجأة، وبحركة سريعة أخرج من جيبه مجلد «المحب للعمل يستريح»، ودسه في يد أمي.

فسألت:

- ما هذا؟

قال بعجالة:

– اقرئي... هذه الصفحة المعكوفة من حافتها، عن الموت. يبدو لي أنه مكتوب بشكل جيد، ولكنني لا أستطيع فهمه أبداً. لعلك تفسرينه لي، يا محسنتي؟ سأعود لتفسريه لي.

وخرج مارتين بيتروفيتش، حالما نطق بهذه الكلمات.

وما أن غيّبه الباب حتى قالت أمي:

– نحس آه، نحس! – وتناولت الكتاب.

وكان في الصفحة التي علّمها خارلوف هذه الكلمات:

«الموت عمل مهم وعظيم من أعمال الطبيعة. أنه ليس إلا الروح، لكونه أخف وأرهف وأنفذ من تلك العناصر التي أعطيت السلطة عليها، بما في ذلك القوة الكهربائية ذاتها، تنظف نفسها بطريقة كيمياوية، وتطمح حتى تحس بالمكان المساوي لها روحياً....» إلى غير ذلك[1].

قرأت أمي هذه الفقرة مرة ومرتين، وهتفت: «تفو!» وألقت الكتاب جانباً.

وبعد ثلاثة أيام تلقت نبأ وفاة زوج أختها، فذهبت إلى قرية أختها، آخذة أياي معها. وكانت أمي تنوي الإقامة عند أختها شهراً، ولكنها بقيت حتى أواخر الخريف، فلم نعد إلى قريتنا إلا في نهاية أيلول.

– ١٦ –

كان أول نبأ تلقاني به خادمي الخاص بروكوفي (وكان يعتبر أيضاً صيّاد سيده) أن الطيور المسماة دجاج الأرض قد وصلت بكثرة كاثرة، لا سيما في حرش البتولا قرب يسكوف (ضيعة خارلوف) حيث يصل هديلها إلى عنان السماء. كان يفصلنا عن موعد الغداء زهاء ثلاث ساعات، فاختطفت بندقيتي وجرابي، وانطلقت إلى حرش يسكوفو بصحبة بروكوفي وكلبة صيد. وبالفعل وجدنا في الحرش الكثير من هذه الطيور. اطلقت حوالي ثلاثين طلقة فاصطدت زهاء خمسة منها. اندفعت راجعاً إلى البيت بصيدي،

١– انظر: «المحب للعمل يستريح» لعام ١٧٨٥. الجزء الثالث. موسكو (**الملاحظة من المؤلف**).

فرأيته فرحاً يحرث قرب الطريق. توقف حصانه، فأخذ يشتمه بعبرة وتشك، ويشد رأسه المائل إلى جنب بقسوة من حبل اتخذه عناناً له. أمعنت النظر في الحصان البائس الذي كادت أضلاعه تبرز إلى الخارج، وجنباه المسربلان بالعرق، يصعدان ويهبطان بارتعاص وتخلخل، مثل منفاخ الحداد المثقوب، فعرفت فيه على الفور ذلك الحصان العجوز الهزيل ذا الندبة على الكتف، الذي خدم مارتين بيتروفيتش لسنين عديدة.

سألت بروكوفي:

– هل السيد خارلوف حي؟

وكان الصيد استولى علينا «كلية» حق أننا لم نتكلم عن شيء آخر، حتى هذه اللحظة.

– حي. ولماذا تسأل؟

– أليس هذا حصانه؟ ألعله باعه؟

– الحصان حصانه، بالضبط. ولكنه لم يبعه، ولكنهم أخذوه منه وأعطوه لذلك الفلاح.

– كيف أخذوه؟ هل وافق هو؟

– لم يطلبوا موافقته. في غيابكم سارت الأمور بهذا الشكل – قال بروكوفي بتكشيرة ساخرة خفيفة رداً على نظرتي المندهشة: مصيبة! يا ربي! الآن سلوتكين السيد يتحكم بكل شيء عندهم.

– ومارتين بيتروفيتش؟

– مارتين بيتروفيتش صار أوطأ رجل بينهم. يأكل الخبز بلا إدام. وماذا أكثر؟ قضوا عليه تماماً. من المحتمل أنهم سيطردونه من البيت.

ولم يستوعب عقلي إمكانية طرد مثل هذا العملاق. وأخيراً قلت:

– وماذا عن جيتكوف؟ هل تزوج الابنة الثانية؟

– تزوج؟ – كرر بروكوفي، وكشّر في هذه المرة بملء فمه – إنهم يمنعونه حتى من دخول البيت، قائلين له: لا داعي، استدر، غير ذلك. والحقيقة الواضحة أن سلوتكين هو الذي يحكم.

– وماذا عن خطيبته؟

– يفلامبيا مارتينوفنا؟ آه، يا سيدي، كنت سأقول لك.. ولكنك ما تزال غريراً. الأمور سارت بحيث أية.. أية... أية... ولكن ديانكا يبدو أنها واقفة!

وبالفعل، كانت كلبتي واقفة، كالمستمّرة، أمام شجيرة بلوط عريضة تخف منخفضاً ضيقاً يقترب من الطريق. ركضت وبروكوفي إلى الكلبة، فطلع من الشجيرة طائر دجاج الأرض. صوبنا عليه كلانا، وأخطأناه. غيّر الطائر موقعه. فاتجهنا وراءه.

عندما عدت إلى البيت كان طبق الحساء على المائدة. عاتبتني أمي قائلة بتذمر: «ما هذا؟ في اليوم الأول وجعلتنا ننتظر على الغداء». قدّمت لها الطيور المصادة، فلم تلتفت إليها ولو بنظرة. كان في الحجرة، ما عداها، سوفينير، وكفيتسينسكي، وجيتكوف. كان هذا الرائد المتقاعد منزوياً في ركن، كتلميذ مذنب، وكان التعبير على وجهه مزيجاً من الارتباك والضيق، وعيناه محمرتين.. بل كان من الممكن الظن بأنه قد بكى قبل برهة. ظلت أمي متعكرة المزاج، ولم أجد صعوبة كبيرة لأن حدس أن تأخري لا علاقة له بتعكر مزاجها. طوال ساعة الغداء لم تفه بشيء تقريباً. وكان الرائد يلقي عليها، من حين لآخر، نظرات شاكية، ولكنه كان يأكل بشهية مفتوحة. وكان سوفينير يرتعد، بينما احتفظ كفيتسينسكي بثقة قيافته المعتادة.

التفتت إليه أمي:

– فيكينتي أوسيبيتش، أرجوك أن ترسل العربة في الغد لتجلب مارتين بيتروفيتش، لأنني علمت أن عربته لم تعد له. وأطلب أن يقال له أن يأتي بالتأكيد، وإنني أريد أن أراه.

كان كفيتسينسكي يريد أن يعترض، إلا أنه أمسك نفسه. فمضت أمي تقول:

– وليبلّغ سلوتكين بأنني آمره بالمجيء إليّ... تسمع؟ آ... م–... ره!.

– بالضبط... هذا الوغد ينبغي...

شرع، جيتكوف يقول بصوت خفيض، إلا أن أمي نظرت إليه بازدراء شديد، حتى أنه أدار وجهه في الحال، وسكت.

عادت أمي تقول:

– أتسمع؟ أنا آمره!

– سمعاً.

قال كفيتسينسكي بخضوع، ولكن بلياقة.

همس سوفينير لي، وقد خرج معي من غرفة الطعام بعد الغداء:

– لن يأتي مارتين بيتروفيتش! سترى ماذا حصل له! لا يقبله العقل! أظنه لا يفهم شيئاً مما يقال له. نعم! امسكوا حية الزرع بأسنان المذراة!

وانفجر سوفينير بضحكته الرخوة.

– ١٧ –

وتبين أن ما تنبأ به سوفينير صحيح. لم يرد مارتين بيتروفيتش الذهاب إلى أمي. واستاءت أمي من ذلك، وبعثت له رسالة. فأرسل لها قصاصة ورق كتب فيها هذه الكلمات بحروف كبيرة: «لا اقدر على المجيء. الخجل سيقتلني. اتركيني أموت. شكراً. لا تعذبيني. خارلوف مارتين» وجاء سلوتكين، ولكن ليس في اليوم الذي «أمرته» أمي بالمجيء فيه، بل بعد أربع وعشرين ساعة كاملة. أمرت أمي بأن يؤخذ إليها في غرفة مكتبها... والله يعلم أي حديث جرى بينهما، ولكنه لم يستغرق وقتاً طويلاً، لا أكثر من ربع ساعة. خرج سلوتكين من أمي محمراً كلية، وعلى وجهه تعبير ضاغن سام وسليط، بحيث إنني صعقت تماماً حين التقيته في حجرة الجلوس، ولم يتم سوفينير الذي كان هناك الضحكة التي كان قد بدأها. وخرجت أمي من مكتبها محمرة الوجه أيضاً وأعلنت على رؤوس الأشهاد بأن يمنع السيد سلوتكين من الدخول إليها منذ الآن، بأي شكل من الأشكال. وإذا عنّ لابنتي مارتين بيتروفيتش أن تأتيا إلى هنا – وأن لهما الكفاية من الوقاحة لتقدما على ذلك – يجب أن تمنعا أيضاً. وعلى مائدة الغداء هتفت أمي: «يا له من وغد قذر هو! أنا التي أخرجته من الوحل من أذنيه، وجعلته بين الناس.

وهو مدين لي بكل شيء، بكل شيء. بينما هو يجسر ليقول لي: عبثاً تتدخلين في شؤوننا! وإن مارتين بيتروفيتش يتصرف برعونة، ولا يجوز التساهل معه! التساهل! ما هذا؟ آه، إنه جرو عقوق! وغد وضيع!». وتصور الرائد جيتكوف الذي كان من بين الذين كانوا يتناولون الطعام على المائدة أن الله نفسه، سبحانه وتعالى، كان يأمره الآن بانتهاز الفرصة، وقول كلمته.. إلا أن أمي ألجمته في الحال قائلة: «آها، وأنت أيضاً لطيف، يا ابتي! لم تحسن التصرف مع الفتاة، وتسمي نفسك ضابطاً! كان يقود سرية! أتصور كيف كان تطيعك هذه السرية! ونت تطمح لتكون مدير أعمال! أي مدير أعمال كان سيطلع منك!».

كانّ كفيتسينسكي جالساً في نهاية المائدة فابتسم في سره، وليس بدون تشف، واكتفى المسكين بتحريك شاربيه وحاجبيه، واندس بكل وجهه المشعر في الفوطة.

بعدالغداء خرج إلى مدخل البيت ليدخن الغليون، على عادته، وقد بدا لي بائساً ويتيماً، حتى أنني انضممت إليه، رغم أنني كنت أنفر منه. قلت دون مداورات حاذقة:

– كيف تعكرت خطبتك ليفلامبيا مارتينوفنا؟ كنت أتصور أنك تزوجت منذ زمان.

نظر الرائد المتقاعد إليّ نظرة جزعة.

– ذلك الثعبان اللئيم – قال ناحتاً كل حروف من كل مقطع بسعي مغرض – لدغني بحمته، وحوّل كل آمالي في الحياة إلى رفات! وددت لو أقص عليك، يا دميتري سيميونوفيتش، كل تصرفاته اللئيمة، ولكن أخشى أن أثير غضب والدتك (وقفز إلى ذهني قول بروكوفي: «ما زلت غريراً») ذلك هو...

وتنحنح جيتكوف:

– يجب أن أصبر... أن أصبر... لا يبقى غير هذا! (وضرب صدره بجمع يده). تصبّر، أيها الجندي القديم، تصبّر! خدمت القيصر بصدق وبإخلاص... ونزاهة... نعم! ولم تبخل بعرق ولا دم. وإلى هذا الحد

وصلت الآن! لو كان ذلك قد حدث في الفوج – والأمر متعلق بي – مضى يقول بعد برهة من الصمت، وهو يمص شبقه الكرزي بتشنج – لضربته... لضربته بالعصا ثلاثاً... أي إلى أن يشبع...

أخرج جيتكوف غليونه من فمه، وحدّق في المدى البعيد، وكأنما يتلذذ في سره بالصورة التي رسمها.

جاء سوفينير راكضاً، وأخذ يلسع الرائد. انتحيت عنهما جانباً، وعزمت على أن أرى مارتين بيتروفيتش، مهما كلف الأمر... لقد أثير فضولي الطفولي بشدة.

– ١٨ –

في اليوم التالي توجهت إلى حرش يسكوفو ومعي بندقيتي وكلبتي، ولكن بدون بروكوفي. كان النهار رائعاً. أن مثل هذه الأيام في شهر أيلول لا أظن لها وجوداً إلا في روسيا. كان السكون مطبقاً حتى لكان في وسعك أن تسمع السنجاب، من بعد مائة خطوة، يقفز على الورق اليابس، والغصن المنكسر يتشربك أولاً في الأغصان الأخرى مرسلاً صوتاً واهناً، ثم يسقط، أخيراً، على العشب الطري، يسقط إلى الأبد، ويظل بلا حراك حتى يرم. والهواء ليس دافئاً ولا طرياً، بل عبق، كأنه حامز قليلاً، يلمس العيون والوجنات بدغدغة لذيذة. انساب نحوي خيط عنكبوت طويل رقيق كالقز، في وسطه كرة صغيرة بيضاء، والتصق بماسورة البندقية، وتمطّى صُعداً في الهواء، أمارة على طقس دافىء دائم! وكانت الشمس تسطع، ولكن بلطف، وكأنها البدر. رأيت الكثير من طيور دجاج الأرض، ولكنني لم أعرها كبير التفات. كنت أعرف أن الحرش يصل إلى ضيعة خارلوف تقريباً، إلى سياج حديقته تقريباً، فاتجهت إلى تلك الناحية، رغم أنني لم استطع أن أتصوّر، كيف سأنفذ إلى الضيعة ذاتها، بل تساءلت في شك من أمري أيجوز لي أن أنفذ إلى هناك، وأمي غاضبة على مالكتيها الجديدتين؟

تناهت إليّ أصوات بشرية طليقة على مسافة غير بعيدة. أخذت أنصت... كان شخص يسير في الغابة... متهجاً نحوي تماماً.

تردد صوت نسائي: هذا ما كان يجب أن تقوله.

قاطعه صوت آخر، رجالي:

– آها! كل شيء دفعة واحدة؟

كان الصوتان مألوفين لي. لاح ثوب نسائي أزرق من خلال أجمة جوز قلت كثافة أشجارها. وظهر قربه قفطان داكن. وبعد لحظة خرج سلوتكين ويفلامبيا إلى الفرجة، على بعد خمس خطوات مني.

اضطربا على الفور. تراجعت يفلامبيا إلى الأجمات رأساً، أما سلوتكين، فبعد أن فكر قليلاً، تقدم نحوي. كان وجهه خالياً من أي أثر للخنوع المتذلل الذي كا بادياً على وجهه قبل أربعة أشهر، حين كان يمسح شكيمة حصاني، وهو يسير به في فناء خارلوف، كما أنني لم أجد على وجه ذلك التحدي لاجسور الذي كان قد بهرني، في اليوم السابق، حين طلع على عتبة غرفة مكتب أمي. كان الوجه أبيض وسيماً كما كان من قبل، إلا أنه بدا أكثر رصانة وأعرض.

– ها، هل اصطدت الكثير من طيور دجاج الأرض؟ – سألني وقد رفع قبعته، وكشّر عن أسنانه، وسرّح يده على شعره الأسود الأجعد – أنت تصطاد في حرشنا.. تفضل! نحن لا نعارض... بل على العكس!

قلت راداً على سؤاله الأول:

– لم أصطد شيئاً اليوم. سأخرج من حرشكم على الفور.

لبس سلوتكين قبعته على عجل.

– أرجوك، و لم ذاك؟ نحن لا نبعدك، بل ونحن مسرورون جداً... وها هي يفلامبيا مارتينوفنا ستقول نفس الشيء أيضاً. يفلامبيا مارتينوفنا، تعالي هنا، أرجوك! أين أنت؟

ظهر رأس يفلامبيا من وراء الأجمات، ولكنها لم تتقدم منا. وكانت قد ازدادت ملاحة في الآونة الأخيرة، فكانت تبدو أطول من ذي قبل، وأكثر بدنة.

ومضى سلوتكين يقول:

– إذا أردت. الحق يجب أن أقول إن «التقائي» بك يطيب لي جداً.

أن لك عقلاً راجحاً، وإن كنت ما تزال في مقتبل العمر. والدتك يوم أمس غضبت عليّ كثيراً، و لم ترد أن تقبل أية حجة من حججي. وأنا، مثلما أقول أمام الله، أقول أمامك إنني لست مذنباً في شيء. لا يمكن التصرف مع مارتين بيتروفيتش بغير هذا الشكل. فقد ارتد إلى صغره تماماً. ولا يمكن لنا أن نحقق كل نزواته، صدقني. ونحن نوليه الاحترام اللائق! اسأل يفلامبيا مارتينوفنا، على الأقل.

لم تتحرك يفلامبيا. وكان ابتسامة الازدراء المعتادة تطوف على شفتيها، ونظرات عينيها الجميلتين خالية من الرقة.

– ولكن، يا فلاديمير فاسيليفيتش، لماذا بعتم حصان مارتين بيتروفيتش؟ (وكان هذا الحصان الذي كان في حوزة الفلاح يحيّرني بشكل خاص).

– لماذا بعنا حصنه؟ ولكن رحماك، أي نفع لهذا الحصان؟ مجرد أن يأكل العلف بلا جدوى. ولكنه يستطيع أن يحرث عند الفلاح، على أية حال. أما إذا عنّ لمارتين بيتروفيتش أن يسافر، فما عليه إلا أن يطلب إلينا. لا نرفض تزويده بعربة. في غير أيام العمل، بكل سرور!– فلاديمير فاسيليفيتش!

قالت يفلامبيا بصوت كامد، وكأنما تناديه، وهي ما تزال لا تبارح مكانها. كانت تلف حول أصابعها بعض سيقان آذان الجدي، وتضرب الواحد بالآخر لتقطع رؤوسها.

وتابع سلوتكين يقول:

– ومارتين بيتروفيتش يتشكى بخصوص الخادم ماكسيمكا، قائلاً: لماذا أخذناه منه، وأعطيناه ليتعلم؟ ولكن أرجو أن تحكم بنفسك: ماذا تبقى له أن يفعل لدى مارتين بيتروفيتش؟ نفض القش عن كتفيه، ولا شيء آخر. بينما هو لا يستطيع أن يخدم كما ينبغي، لبلاهته وصغر سنه. ولكننا أعطيناه الآن ليتعلم صنعة عدد الخيول. وسيطلع منه حرفياً جيداً، وسيفيد نفسه، ويدفع لنا إتاوة، علاوة على ذلك. وهذا شيء مهم في استثماراتنا الصغيرة! لا يجوز التساهل بشيء في استثماراتنا الصغيرة!

فكرت في نفسي: «ومارتين بيتروفيتش سمّى هذا الرجل خرقة!».

وسألت:

- ولكن من يقرأ لمارتين بيتروفيتش الآن؟

- ولكن ماذا يقرأ؟ كان هنا كتاب واحد، ولكنه، والحمد لله، اختفى إلى حيث لا ندري... ثم ما نفع المطالعة في سنه هذه!

وعدت أسأل:

- ومن يحلق له؟

ضحك سلوتكين مستحسناً، وكأنما يرد على نكتة قيلت.

- لا أحد. في بادئ الأمر كان يشذب لحيته بحرقها بشمعة، والآن أطلقها تماماً. والحمد لله!

راحت يفلامبيا تكرر بإصرار:

- فلاديمير فاسيليفيتش، يا فلاديمير فاسيليفيتش! أشار سلوتكين لها بيده.

- مارتين بيتروفيتش يُكسى ويأكل ما نأكله، فأي شيء آخر يريد؟ هو نفسه كان يكرر بأنه لا يرغب في هذه الدنيا أكثر من الاعتناء بروحه. على الأقل لو فكر في أن كل شيء الآن لنا. ثم إنه يقول إننا لا ندفع له معاشه، ولكن الفلوس ليست متوفرة دائماً، حتى بالنسبة لنا. ثم ما حاجته إليها، وكل شيء ميسر له؟ نحن نعامله معاملة القريب للقريب، وأنا أقول ذلك صادقاً. ونحن في مسيس الحاجة، مثلاً، إلى الغرف التي يسكنها! بدونها لا يسعنا، ولكن لا بأس! إننا نصبر. بل ونفكر في أن نوفر له تسلية. فمثلاً اشتريت له صنارات ممتازة من المدينة بمناسبة عيد القديس بطرس[1]، انجليزية أصلية، صنارات غالية! ليصطاد به السمك. في بركتنا يكثر سمك الشبوط. فليجلس هناك، وليصيد! وما هي إلا ساعة وساعتان ويكون له ما يكفي. لصنع. حساء السمك. وذلك اليق عمل للشيوخ!

- فلاديمير فاسيليفيتش!

نادت يفلامبيا للمرة الثالثة بلهجة حازمة، وقذفت بعيداً عنها سيقان آذان الجدي التي كانت تلفها على أصابعها.

- أنا ذاهبة! - والتقت عيناها بعينيّ - أنا ذاهبة، يا فلاديمير فاسيليفيتش!

١- عيد الرسولين بطرس وبول لدى الأرثوذوكس (٢٩ حزيران من التقويم القديم).

كررت ذلك، وغيّبتها الأجمات.

صاح سلوتكين:

- حالاً، يفلامبيا مارتينوفنا، حالاً! - ومضى يقول موجهاً كلامه إليّ مرة أخرى - مارتين بيتروفيتش نفسه يؤيدنا. فذي بادئ الأمر تكدّر، بل وراح يتذمّر، إلى أن وعى الأمر بنفسه. أنت تتذكر أنه كان رجلاً حد المزاج، متصلباً كثيراً! ولكنه الآن صار سلساً جداً. لأنه رأى في ذلك نفعاً له. أوه، أمك انهالت عليّ... والعياذ بالله! مفهوم أنها كسيدة، تريد أن تحافظ على سطوتها، مثلما كان مارتين بيتروفيتش يفعل في الماضي. ولكن تعال أنت، وتفقّد الأمور بعينيك، وقل رأيك لها عند سنوح الفرصة. أنا ممتن لناتاليا نيقولايفنا كثيراً، ولكن علينا أن نعيش نحن أيضاً.

- ثم كيف رفضتم جيتكوف؟

- تقصد فيدوليتش؟ ذلك الأبله؟ وهزّ سلوتكين كتفيه - ولكن اعذرني، لأي شيء يمكن أن يصلح؟ قضى عمره في الجندية، والآن دار في ذهنه أن يمارس الزراعة. يقول إنه يستطيع التنكيل بالفلاحين، لأنه تعوّد أن يضرب على البوز. أنه لا يتقن أي شيء. كما يجب أن يعرف كيف يضرب على البوز. يفلامبيا مارتينوفنا هي التي رفضته. رجل لا يناسبها أبداً. سينهار كل اقتصادنا، إذا صار بيده!

وتردد صوت يفلامبيا الصداح:

- هالو!

- حالاً! حالاً!

ردّ سلوتكين، ومدّ لي يده، وصافحتها، ولو في غير ما رغبة.

- استئذن بالانصراف، يا دميتري سيميونوفيتش - قال سلوتكين كاشفاً كل أسنانه البيض - اصطد ما تشاء من طيور دجاج الأرض. فهذه الطيور وافدة، ولا تعود لأحد. ولكن إذا وقع في طريقك أرنب، فلا تطلق عليه النار. إنه عائد لنا. وهناك شيء آخر. هل لديك جرو من كلبتكم؟ سأكون ممتناً جداً.

- هالو!

صدر صوت يفلامبيا من جديد.

- قادم! قادم!

رد سلوتكين، وانطلق إلى الاجمات.

- ١٩ -

أتذكر أنني، حين بقيت وحيداً استحوذت عليّ هذه الفكرة: لماذا لم يسحق خارلوف سلوتكين «حتى لا يبقى في مكانه غير لطخة دبقة»؟ وكيف لم يخف سلوتكين هذا من هذا المصير؟ قلت لنفسي: الظاهر أن مارتين بيتروفيتش صار «سلساً»، وقد زاد ذاك في رغبتي في الانسلال إلى يسكوفو، وأن ألقي نظرة وإن بعين واحدة، على الأقل، على ذلك المارد الذي لم أستطع قط أن أتصوره مطروداً وراضخاً. وكنت قد وصلت حافة الحرش، حين رأيت طائر دجاج الأرض كبيراً يطلع من تحت قدميّ فجأة يصفق بجناحيه بقوة، وينطلق إلى قلب الحرش. صوبت بندقيتي، فأخطأته. وتأسفت عظيم الأسف، كان الطائر رائعاً جداً، فعزمت على أن أحاول لعلي أجعله يظهر ثانية. سرت باتجاه طيرانه، وبعد أن خطوت حوالي مائتي خطوة لم أر الطائر بل رأيت السيد سلوتيكين، في فرجة صغيرة تحت شجرة بتولا. كان مستلقياً على ظهره، وقد طوى يديه تحت رأسه، يحدق في السماء بابتسامة راضية، مؤرجحاً قليلاً ساقه اليسرى المطروحة على ركبته اليمنى. لم يلحظ اقترابي. وعلى بعد بضع خطوات منه كانت يفلامبيا تذرع المرجة بخطى بطيئة مطرقة عينيها إلى الأرض، والظاهر أنها كان تبحث عن شيء في العشب، ربما هو الفطر، ومن حين إلى آخر كانت تنحني، وتمد يدها، وتغني خافتة الصوت. تعوقفت فوراً، وأخذت أتسمع. في البداية لم أستطع أن أفهم ماذا كانت تغني، ولكنني، فيما بعد، تبيّنت جيداً هذه الأبيات من أغنية قديمة:

تجمعي، تجمعي، يا سحابة الرعد،
واقتلي، اقتلي أبا الزوجة
واعصفي، اعصفي أم الزوجة
أما زوجتي الشابة فسأقتلها بنفسي!

ارتفع صوت يفلامبيا بالغناء أقوى فأقوى، وقد أطالت البيت الأخير بشكل خاص. بينما بقي سلوتكين منطرحاً على ظهره، ويضحك، وظلت هي وكأنها تدور بالقرب منه. وأخيراً، قال سلوتكين:

– عجباً منك! ما أكثر ما يخطر في أذهان الناس من أفكار!

سألت يفلامبيا!

– ماذا تعني؟

رفع سلوتكين رأسه قليلاً.

– ماذا أعني؟ ما هذه الأقوال التي تتفوهين بها؟

– من أغنية، يافولوديا[1]، وأنت نفسك تعرف أن الأغنية هي الأغنية – أجابت يفلامبيا، والتفتت ورأتني. وندت من كلينا في آن واحد آهة مباغتة، واندفع كلانا إلى جهتين مختلفتين.

أسرعت بالخروج من الحرش، واجتزت فرجة ضيقة، ووجدت نفسي أمام حديقة خارلود.

– ٢٠ –

لم يكن لي الوقت ولا الرغبة في أن أفكر فيما رأيت. سوى أنني تذكرت عبارة «تعويذة الحب»، التي كنت قد عرفتها قبل وقت قصير، وادهشتني معناها كثيراً. سرت بمحاذاة السياج، وبعد بضع لحظات أتت من خلال أشجار الحور الفضي (لم تكن قد سقطت أية ورقة منها بعد، فكانت تنتفش بوفرة أوراقها، وتلمع) رأيت الفناء وبيتي مارتين بيتروفيتش. بدت لي الضيعة كلها مشذبة منسّقة. ينم كل شيء فيها عن رقابة صارمة ومستديمة. ظهرت آنا مارتينوفنا على مدخل البيت، وضيّقت عينيها الزرقاوين على شحوب، ونظرت طويلاً باتجاه الحرش. ثم سألت فلاحاً كان يسير في الفناء:

– هل رأيت سيد البيت؟

نزع هذا قبعته من رأسه، وأجاب:

١– صيغة التحبب والألفة من اسم فلاديمير. – المترجم.

– فلاديمير فاسيليفيتش؟ أعتقد أنه ذهب إلى الحرش.
– أعرف أنه في الحرش، ولكن هل عاد؟ ألم تره؟
– لم أره... غير موجود.
وظل الفلاح واقفاً أمام آنا مارتينوفنا حاسر الرأس. قالت:
– طيب، اذهب... أو، لا... انتظر.. أين مارتين بيتروفيتش؟ هل تعرف؟
– أما مارتين بيتروفيتش فيجلس عند البركة هناك ومعه صنارة – أجاب الفلاح بصوت صادح رافعاً ذراعه اليمنى ثم ذراعه اليسرى بالتناوب، وكأنما تشير إلى هناك – يجلس في القصب. يبدو أنه يصطاد السمك، والله يعلم.
– طيب، اذهب – كررت آنا مارتينوفنا – وارفع العجلة، المرمية هناك. انظر!
هرع الفلاح ينفذ أمرها، وبقيت هي بضع دقائق أخر تحدق باتجاه الحرش، ثم هددت ملوحة بإحدى يديها بخفة، وعادت إلى البيت ببطء.
ومن وراء الباب صدر صوتها الآمر:
– اكسيوتكا!
كان لآنا مارتينوفنا مظهر المنزعج، وكانت تزم بشدة ملحوظة شفتيها النحيلتين أصلاً! كانت مهملة الهندام، وكانت خصلة من شعرها المحلول تسقط على كتفها. إلا أنها رغم هندامها المهمل، وانزعاجها تبدو لي جذابة، كما من قبل، ونت سأقبل، برغبة قوية، يدها الضيقة، والحاقدة، على ما تبدو، تلك التي دفعت بها خصلتها المحلولة في ضيق، مرة أو مرتين.

– ٢١ –

ساءلت نفسي، وأنا أتجه إلى البركة الواقعة في الجانب الآخر من الحديقة: «أصحيح أن مارتين بيتروفيتش أصبح صياد سمك عن حق وحقيق؟». صعدت إلى السدة، وأجلت ببصري هنا وهناك... ولم أجد مارتين بيتروفيتش. سرت بمحاذاة أحد شواطىء البركة، ورأيت كتلة هائلة رمادية، وسط أعواد القصب المسطّحة المكّسرة المصفرة، عند خور صغير في طرف

البركة تقريباً... دققت النظر. كان ذلك خارلوف جالساً على الأرض، حاسر الرأس، منفوش الشعر، في قفطان من الجنفاص مفتوق عند خطوط الدرز، وقد عكف ساقيه تحته، وكان جامداً تماماً، حتى أن طائر الشنقب الصغير الذي كان جالساً على الطين اليابس على بعد خطوتين منه، غادره بعجالة لدى اقترابي، وطار فوق المنبسط المائي مرفرفاً بجناحيه صافراً. ومعنى ذلك أن أحداً لم يتحرك قربه منذ وقت بعيد، ولم يروع. وكانت هيئة خارلوف كلها غير اعتيادية تماماً، حتى أن كلبتي، ما أن رأته، حتى تثبّتت بالأرض بقوة، ووضعت ذنبها بين وركيها، وراحت تنبح مزمجرة. أدار خارلوف رأسه قليلاً، وثبت فيّ وفي كلبتي عينيه المتوحشتين. غيّرته كثيراً لحيته القصيرة، والكثيفة معاً، الملتفة الشعر، بخصلات بيض، أشبه بفروة حملٍ. كان طرف الصنارة في يده اليمنى، والطرف الآخر يتراوح في الماء قليلاً. وشعرت بأن قلبي يغوص، إلا أنني استجمعت شتات نفسي، وتقدمت منه، وسلمت عليه. أخد يرمش ببطء كمن غلبته إغفاءة.

قلت:

– ماذا تفعل، يا مارتين بيتروفيتش، تصطاد السمك هنا؟

– نعم... السمك.

ردّ بصوت أجش، وجذب عود الصنارة إلى فوق، كان في طرفها قطعة من خيط بطول ذراع، وبلا شص.

– خيط صنارتك مقطوع.

قلت له، وفي تلك اللحظة لم تقع عيناي على إبريق، ولا على ديدان بالقرب من مارتين بيتروفيتش... ثم أي صيد هذا في شهر أيلول؟

– مقطوع؟ قال، ومرر يده على وجهه – ولكن لا يهم. وألقى الصنارة مرة أخرى.

– أأنت ابن ناتاليا نيقولايفنا؟

سألني بعد دقيقتين أمعنت خلالهما النظر فيه، وليس بدون دهشة خفية. لقد هزل كثيراً، إلا أنه ما زال يبدو جباراً، ولكن أي ثياب عليه، وأي إهمال لاح في كل هيئته! أجبت:

– نعم. أنا ابن ناتاليا نيقولايفنا ب...

– بخير؟

– أمي بخير – وأضفت قائلاً: اغتمت كثيراً لامتناعك. لم تتوقع قط أنك لا تحب المجيء إليها.

أطرق مارتين بيتروفيتش.

– وهل كنت... هناك؟

سأل، وقد أشار برأسه إلى ناحية.

– أين؟

– هناك... في الضيعة. لم تكن؟ اذهب! أيّ شأن لك هنا؟ اذهب. لا شيء نتحدث عنه. لا أحب.

وصمت.

– ما ألطف الخروج إلى الصيد ببندقية! في شبابي كنت أسير في هذا الدرب. سوى أن أبـي... ولكن كنت أحترمه كثيراً! وليس مثل أولاد اليوم. كان أبي يضربني بالسوط، ولا غير! يعني يكفي جولاناً! ولهذا كنت أحترمه... أو!.. نعم...

وصمت خارلوف مرة أخرى. وعاد يقول:

– لا تظل واقفاً هنا. واذهب إلى الضيعة. الأمور هناك على أحسن ما يرام الآن. فولودكا – وتلعثم لحظة – فولودكا ماهر في كل شيء. شاطر! ولكنه ماكر أيضاً!

لم أعرف ماذا أقول. كان مارتين بيتروفيتش يتكلم في كثير من الهدوء.

– وألق نظرة إلى ابنتيّ. كانت لي ابنتان، أظنك تذكرهما أنهما صاحبتا ملك أيضاً... حاذقتان. بينما صرت طاعناً في السن، يا أخ وانصرفت عن الأشغال، حان وقت الخلود إلى السكينة، تعرف...

قلت لنفسي: «ونعم السكينة!»، ونظرت فيما حولي وقلت بصوت مسموع:

– مارتين بيتروفيتش! عليك أن تزورنا من كل بد.

نظر خارلوف إليّ.

– اذهب، يا أخ، ابتعد. هذه كلمتي.

– زرنا، ولا تجعل والدتي تكتئب.

كرر خارلوف:

– اذهب، يا أخ، اذهب، ما شأنك في التحدث معي؟

– سترسل أمي عربتها لك، إن لم تكن لديك عربة.

– اذهب!

– حقاً، يا مارتين بيتروفيتش!

وأطرق خارلوف مرة أخرى، وخيل إليّ أن حمرة خفيفة سرت في خديه الداكين، كالمتربين. ومضيت أقول:

– حقاً، زرنا. ما الذي يقعدك هنا؟ تعذب نفسك؟

قال بتوقف على الكلمات:

– كيف، أعذب نفسي.

كررت:

– نعم، تعذب نفسك.

صمت خارلوف، وكأنما غرق في أفكاره.

شجعني هذا الصمت فعزمت على أن أكون صريحاً، وأواجه الأمر على المكشوف. (لا تنسوا أنني كنت في الخامسة عشرة آنذاك). قلت وأنا أجلس بالقرب منه:

– مارتين بيتروفيتش! أنا أعرف كل شيء، كل شيء تماماً! أعرف كيف يسلك صهرك معك، بالاتفاق مع ابنتيك، بالطبع. وأنت الآن في هذا الوضع... ولكن لم الابتئاس؟

ظل خارلوف على صمته، سوى أنه ألقى الصنارة من يده، فشعرت بأنني ذكي وفيلسوف ذو باع! قلت ثانية:

- لقد تصرفت، طبعاً، بدون احتراس، حين تخليت عن كل شيء لابنتيك. وكان ذلك اريحية عظيمة من جانبك. ولا أريد أن ألومك. هذه الصفة، في زماننا، نادرة جداً. ولكن إذا كانت ابنتاك على هذه الدرجة من العقوق فإن ما يتوجب عليك هو أن تظهر الازدراء... نعم الازدراء بالضبط... لا أن تحزن...

- كفى! - همس خارلوف فجأة صارفاً بأسنانه، وبرقت عيناه المثبتتان في البركة بريق الغيظ... - انصرف!

- ولكن يا مارتين بيتروفيتش...

- قلت لك: انصرف... وإلا سأقتلك.

كنت قد دنوت منه تماماً، ولكنني وجدت نفسي أثب على قدمي، لدى سماعي هذه الكلمات.

- ما هذا الذي قلته، يا مارتين بيتروفيتش؟

- قلت لك: اقتلك، انصرف - صدر صوت خارلوف فالتاً من صدره كأهة وحشية، كزمجرة، ولكنه لم يدر رأسه، وبقي مسمراً بصره أمامه بضراوة - سألقيك ونصائحك البلهاء في الماء، وعند ذاك ستعرف ماذا تجني من وراء إزعاج كبار السن. أيها الرضيع!

وخطر في ذهني: «إنه جن!».

أمعنت النظر فيه أكثر، وصعقت تماماً. لقد كان مارتين بيتروفيتش يبكي! كانت الدمعة تلو الدمعة تقطر من رموشه إلى خديه... واتخذ وجه تعبيراً غاية في الشراسة. صاح مرة أخرى:

- انصرف! وإلا سأقتلك، والله! عظة للآخرين!

وارتج بكل جسده جانباً، وكشّر كالخنزير البري. اختطفت بندقيتي، وانطلقت أعدو. واندفعت الكلبة ورائي نابحة! فقد ارتعبت أيضاً.

وطبيعي أنني، لدى عودتي إلى البيت، لم ألمح لأمي بكلمة إلى ما رأيت، ولكن الشيطان وسوس لي، فأفضيت بكل شيء لسوفينير، حين التقيته. وقد سرّ الرجل المقيت بحكايتي كثيراً، حتى أنه قهقه بصوت زاعق، بل وراح يقفز حتى كدت أضربه. وأخذ يقول، وهو يغص بضحكته:

– آه، ليتني رأيت هذا الصنم، كارلوس «الشفيدي» الذي نزل في الوحل، ويبرك فيه...

– اخرج إليه على البركة، إذا كان ذلك يثير فضولك.

– ولكن ماذا لو يقتلني؟

ضجرت كثيراً من سوفينير هذا، وندمت عليٍ مكاشفتي الرعناء له... بينما نظر جيتكوف، إلى الأمر، نظرة مغايرة قليلاً، وكان سوفينير قد نقل له ما قصصته عليه. قال عازماً:

– ينبغي إبلاغ الشرطة، كما سيتوجب استدعاء قوة عسكرية، على ما أظن.

و لم يتحقق ما تنبأ به بخصوص القوة العسكرية، إلا أن شيئاً غير اعتيادي قد حدث بالفعل.

– ٢٢ –

في منتصف تشرين الأول، بعد حوالي ثلاثة أسابيع من لقائي مع مارتين بيتروفيتش، كنت واقفاً قرب نافذة حجرتي في الطابق الثاني من بيتنا، غير مفكر في شيء، أنظر بجزع إلى الفناء، وإلى الطريق الممتد وراءه. كان الطقس منفراً منذ خمسة أيام. اختبأ كل شيء حي، وحتى العصافير هدأت، واختفت غربان الزرع منذ زمان. وكانت الريح تارة تعول كامدة الصدى، وتارة تصفر بدفقات حادة. وتحولت السماء الواطئة دون أي شق فيها، من اللون الأبيض المنفرّ إلى لون رصاصي أكثر نحساً، وصار المطر الذي كان يسح بلا انقطاع ينزل قطرات أكبر، وبميلان أشد، ويضرب زجاج النوافذ مصوّتاً، تعرّت الأشجار تماماً، وصارت رمادية، حتى لكن أي شيء لم يبق عليها، ولكن الريح كانت تهدأ تارة ثم تأخذ بتحريكها من جديد. وفي كل مكان برك متسخة بأوراق الشجر الميتة. وكانت الفقاعات الكبيرة من حين لآخر تنط عليها وتنزلق منفجرة ثم طالعة من جديد. وكانت الطرق موحلة لا يمكن اجتيازها، والبرد ينفذ إلى الحجرات، وتحت الثياب، وإلى العظام نفسها، فتسري في الأوصال قشعريرة لا إرادية، فتشعر النفس بضيق شديد! بضيق حقاً، وليس بأسى. وكان يخيّل للمرء وكأنه لن يرى، بعد الآن، شمساً،

ولا ألقاً، ولا ألواناً، وأن هذا الوحل، واللزوجة، والرطوبة الرمادية والندى البليل الحامض سيظل إلى الأبد، وأن الريح ستمضي في زعيقها وعويلها إلى ما لا نهاية! كنت واقفاً عند النافذة تنازعني هذه الأفكار. وأتذكر أن ظلاماً مفاجئاً، ظلاماً أزرق قد خيّم، رغم أن الساعة لم تكن تتجاوز الثانية عشرة. وفجأة تراءى لي أن دباً مرق عبر فنائنا من الباب إلى مدخل البيت! لم يكن على الأربع، حقاً، ولكن كما يُرسم، حين يشب على قائمتيه الخلفيتين. لم أصدق عيني. وإذا لم يكن ما رأيته دباً، فهو، في كل الأحوال، شيء هائل، أسود، أشعث... وما كدت أتأمل فيما يمكن أن يكون ذلك، حتى صدر طرق لجوج في الأسفل. وبدأ وكأن شيئاً غير متوقع، شيئاً مريعاً داهم بيتنا. وارتفعت جلبة، وتراكض...

هبطت الدرج بخفة، واندفعت إلى حجرة الطعام...

كانت أمي تقف عند باب حجرة الجلوس كالمسمّرة مديرة وجهها إليّ، ووراءها لاحت بعض الوجوه النسائية المذعورة، ورئيس الخدم، وخادمان، وساع فاغري الأفواه من الذهول، يتدافعون عند باب الرواق. وفي وسط حجرة الطعام كان ذلك الغول الذي رأيته بعيني يمرق في الفناء راكعاً على ركبتيه، مغطى بالوحل، أشعث، مهلهل الثياب، مبللاً إلى حد أن البخار كان يتصاعد من حوله، والماء يسيح على الأرض سيولاً، والغول يتمايل ثقيلاً، وكأنه يتهافت. ومَنْ هو، في ظنكم، هذا الغول؟ خارلوف! وقفت من جنب، فلم أر جهه، بل رأسه، كان خارلوف يمسك شعره المتلزج بالوحل بكفيه. كان يتنفس بثقل وتشنج، بل أن شيئاً كان يخرخش في صدره. وفي هذه الكتلة الملطخة الداكنة كلها كان لا يمكن أن يتبين بوضوح إلا بياض عينيه الضئيل الهائم الوحشي. كان مرعباً! وتذكرت الموظف الكبير الذي أسكته خارلوف ذات مرة، حين قارنه بالمستدون. وبالفعل لا بد أن هذا الحيوان المنقرض ستكون له مثل هذه الهيئة، إذا كان قد نجا لتوه من وحش آخر أكثر قوة منه هاجمه وسط الغرين السرمدي لمستنقعات ما قبل التاريخ.

– مارتين بيتروفيتش! – هتفت أمي أخيراً رافعة ذراعيها في رعب – أهذا أنت؟ يا إلهي، يا رحيم!

– أنا... أنا... – قال بصوت متقطع، وكأنما يخرج كل حرف بعناء وألم – أوه! أنا!

– ولكن ما الذي حلّ بك، يا إلهي؟!

– ناتاليا نيقولاف–... –نا... جئت إليك... هارباً من... البيت... مشياً...

– في هذا الوحل! أنت لا تشبه إنساناً! انهض، واجلس على الأقل... أما أنتن – خاطبت الخادمات – فأسرعن لجلب المناشف – ثم سألت رئيس الخدم – أليست لديك ثياب ناشفة؟

وأشار رئيس الخدم بذراعيه، وكأنه يقول: ومن أين لنا ثياب لمثل هذا الجسم؟.. ثم أعلن:

– على العموم، يمكن أن أجلب حراماً. وعندنا أيضاً غطاء فرس جديد.

– ولكن انهض، انهض، مارتين بيتروفيتش، وأجلس.

كررت أمي ذلك. وفجأة قال خارلوف متأوهاً:

– طردوني، يا سيدتي – وألقى رأسه إلى الوراء، ومدّ ذراعيه إلى الأمام – طردوني، ناتاليا نيقولايفنا! طردتني ابنتاي من بيتي أنا..

تأوهت أمي.

– كيف تقول ذاك! طردوك! يا للخطيئة! يا للخطيئة! (ورسمت على صدرها علامة الصليب). ولكن انهض، يا مارتين بيتروفيتش، أترجاك!

دخلت خادمتان تحملان المناشف، وتوقفتا أمام خارلوف. وكان واضحاً أنهما لم تستطيعا أن تهتديا إلى وسيلة لإزالة هذا الوحل الكثير.

وخلال ذلك كان خارلوف يردد:

– طردوني، يا سيدي، طردوني.

عاد رئيس الخدم يحمل حراماً صوفياً كبيراً، وتوقف أيضاً في حيرة من أمره. أطل رأس سوفينير من الباب، واختفى.

أمرت أمي بلهجة حازمة:

– مارتين بيتروفيتش! انهض! واجلس! واحك لي كل شيء بالترتيب.

رفع خارلوف جسمه... أراد رئيس الخدم مساعدته، إلا أنه لطخ يده لا غير، وتقهقر نحو الباب، نافضاً أصابعه. سار خارلوف إلى المقعد مترنحاً متمايلاً، وجلس. اقتربت الخادمتان منه ثانية، وفي أيديهما المناشف، ولكنه أبعدهما بحركة من يده، ورفض الحرام أيضاً. وعلى أية حال لم تلح أمي. فإن تنظيفه لم يكن ممكناً، على ما يظهر. و لم يفعلوا غير ما مسحوا آثاره من أرض الغرفة.

– ٢٣ –

وما أن «التقط» خارلوف أنفاسه قليلاً، حتى سألته أمي:

– كيف حدث أن طردوك؟

قال خارلوف بصوت متوتر:

– سيدتي! ناتاليا نيقولايفنا! – ومرة أخرى أذهلني تقلب بياض عينيه القلق – سأقول الحق. أنا المذنب أكثر من الجميع.

– هكذا إذن. لم ترد أن تصغي إليّ في حينه.

قالت أمي، وهي تقعد على كرسي وثير، محركة أمام أنفها منديلاً معطراً بخفة، بسبب الرائحة الكريهة التي كانت تنبعث من خارلوف.. أقوى من تلك التي تنبعث من مستنقع في غابة.

– لا، ليس ذنبي في هذا، يا سيدتي، بل في كبريائي. كبريائي هي التي أهلكتني كالملك نبوخذ نصر[1]. كنت أظن أن الرب لم يبخلا عليّ بالعقل والحصافة. وما دمت قد قررت شيئاً، فهذا ما كان ينبغي أن يفعل... ثم تملكني خوف الموت... فأسقط في يدي تماماً! وأقول لنفسي لأريهم سلطتي في آخر عمري! وأنعم عليهم، فلا بد أن يشعروا بالامتنان حتى آخر أيامهم... (واهتز خارلوف فجأة بكل جسمه...) ولكنني طردت من البيت مثلما يطرد كلب أجرب! ذلك هو ثوابهم!

١– ملك بابل (٦٠٤ – ٥٦٢ق.م) اشتهر بغزواته. وتقول الأسطورة أن الرب عاقبه على كبريائه.

وعادت أمي تقول:

- ولكن كيف كان ذلك؟

قاطعها خارلوف:

- انتزعوا مني خادمي ماكسيمكا - (وظلت عينا خارلوف تتقلبان، وكان يمسك يديه عند ذقنه متشابكتين بالأصابع) - أخذوا مني العربة، وقلّصوا مخصصاتي الشهرية من الغذاء، ولم يدفعوا الراتب المتفق عليه - وعموماً اختزلوا كل شيء تماماً - وأنا صامت، صبرت! صبرت عن سبب... أوه! إنها كبريائي على أية حال. حتى لا يقول أعدائي الالداء. ها هو العجوز الأحمق يعض أصبع الندم الآن. نعم، وأنت، أيضاد، حذرتني، يا سيدتي، أنت تذكرين، حين قلت ذنبك على جنبك! وقد صبرت... ولكنني اليوم، وأنا ذاهب إلى غرفتي، رأيتها مشغولة، وفراشي قد نقل إلى العلية! وقيل لي يمكن أن تنام هناك أيضاً. نحن، بدون هذا، نتحملك متفضلين عليك. وحجرتك لازمة لنا لشؤون البيت. ومن يقول لي هذا؟ فولودكا سلوتكين، الجلف، الوضيع...

وتقطع صوت خارلوف. سألت أمي:

- وابنتاك؟ ما موقفهما؟

ومضى خارلوف في روايته:

- صبرت على كل شيء. تجرعت المرارة، المرارة، وخجلت من نفسي... ولم أرد أن أرى الدنيا. ولهذا لم أرد أن أجيء إليك، يا سيدتي، بسبب ذلك، خجلاً وعاراً! لقد جرّبت كل شيء، يا سيدتي: جربت اللطف، والتهديد، وحاولت أن أقنعهم. وبعد ذلك! انحنيت... هكذا. (وأشار خارلوف كيف كان ينحني). وكل ذلك لم ينفع شيئاً! لقد صبرت على كل شيء! في البداية، في الأيام الأولى، كانت لي أفكار مغايرة. كنت أقول لنفسي: أضربهم، وأقذف بهم جميعاً، حتى لا يبقى منهم بذرة... وسيعرفون! ولكنني خضعت، فيما بعد! وأقول لنفسي إن ذلك عقابي. يعني يجب أن تتهيأ للموت. وإذا به اليوم كالكلب المسعور! ومن هو؟ فولودكا؟ وتسألينني عن ابنتيّ، وهل لهما رأي يسمع؟ إنهما أمتان لدى فولودكا! نعم!

واندهشت أمي.

– قد أستطيع أن أفهم هذا، إذا صدر عن آنا، فهي زوجته... ولكن ما علاقة الثانية...

– يفلامبيا؟ اسوأ من آنا! استذلت ليد فولودكا تماماً. ولهذا السبب أيضاً رفضت صاحبك العسكري.. بناء على أمره، أمر فولودكا. وطبيعي أن تتكدر آنا، فهي لا تستطيع أن تطيق أختها. إلا أنها ترضخ! سحرهما هذا الملعون! ولكن آنا تجد متعة من مجرد التفكير في أن يفلامبيا، التي كانت أنوفاً من قبل، تصير كما هي الآن! أوه، أوه! يا ربي، يا ربي!

نظرت أمي إليّ في قلق، فابتعدت جانباً، خوفاً من أن تطلب مني الخروج من الغرفة...

قالت:

– آسفة جداً، يا مارتين بيتروفيتش، على أن ربيبي السابق سبّب لك هذا القدر من الضيم، واتضح أنه رجل سيىء بهذا الشكل، ولكن أنا أيضاً أخطأت فيه... لم يكن في مقدور أحد أن يتوقع هذا منه!

– سيدتي – توجّع خارلوف، وضرب صدره – ليس في طاقتي أن أتحمل عقوق ابنتيّ! لا أطيق، يا سيدتي! لأنني وهبتهما كل شيء، كل شيء! وصار ضميري يعذبني، علاوة على ذلك. آوه، كم فكرت، وفكرت، وأنا جالس عند البركة، أصطاد السمك! كنت أقول لنفسي: «على الأقل لو صنعت الخير لأحد في حياتك. أكرمت الفقراء، وأعتقت الفلاحين تكفيراً عما ألحقت بهم من أذى في الحياة. فأنت المسؤول عنهم أمام الرب! وهذا عقابك على الدموع التي جعلتهم يذرفونها» والآن هذا مصيرهم: في عهدي أيضاً كانوا أمام حفرة عميقة، أما الآن، فهم في الحقيقة أمام هاوية لا قرار لها! كل هذه الخطايا صارت من نصيبي. ضحيت بضميري من أجل ابنتيّ، فلم أحصل على طائل! بل طردت من البيت برفسة، كالكلب!

قالت أمي:

– كفى تفكيراً في هذا، مارتين بيتروفيتش.

واستأنف خارلوف يقول بدفق جديد:

– حين قال لي، ربيبك فولودكا هذا، لا بقاء لك في حجرتك بعد الآن، في الحجرة التي صففت كل قرمة فيها بيديّ الاثنتين، حين قال لي ذلك، الله يعرف ماذا حصل لي! دار كل شيء في رأسي، وشعرت بوخز السكين في قلبي... طيب! إما أن أنحره، أو أترك البيت!... وها أنا قد هرعت إليك، يا محسنتي، ناتاليا نيقولايفنا... وأين كنت سأضع رأسي؟ والمطر يسح، والطريق موحل... وقد سقطت، ربما عشرين مرة! وها أنت ترينني، في هذه الحال السيئة...

وألقى خارلوف نظرة إلى نفسه،وتحرك على الكرسي، كمن يهم بالنهوض. فأسرعت أمي تقول:

– كفى، كفى يا مارتين بيتروفيتش. وأية مصيبة هذا؟ وسخت أرضية الغرفة؟ لا أهمية لذلك! ولكنني أريد أن أقدم لك اقتراحاً، فاسمع! سيأخذونك الآن إلى حجرة مخصوصة، ويقدمون لك فراشاً نظيفاً، فاخلع ملابسك، واغتسل، واستلق، ونم...

قال خارلوف في جزع:

– لن يأتيني النوم، يا ناتاليا نيقولافنا. في دماغي مطارق تطرق! عاملوني معاملة الحيوان المنبوذ...

كررت أمي بإصرار:

– استلق، ونم. وبعد ذلك سنسقيك الشاي، ونتبادل الأحاديث معك. لا تجزع، أيها الصديق القديم! إذا كنت قد طردت من بيتك، فإنك واجد مأوى لك في بيتي، دائماً... فأنا لم أنس أنك أنقذت حياتي.

– أيتها المحسنة! – قال خارلوف متوجعاً، وغطى وجهه بيديه – أنت منقذتي الآن!

وقد أثرّت هذه الاستغاثة في أمي إلى حد إدرار الدموع.

– مستعدة بكل سرور أن أساعدك، يا مارتين بيتروفيتش، بكل ما أستطيعه. ولكن يجب أن تعدني بأن تسمع كلامي في المستقبل، وتبعد عن ذهنك كل فكرة شريرة.

أنزل خارلوف يديه عن وجهه. وقال:

- وأستطيع حتى أن أصفح عنهم، إذا اقتضى الأمر.

هزّت أمي رأسها مؤيدة.

- يطيب لي جداً أن أراك بهذه النفسية المسيحية حقاً، مارتين بيتروفيتش، ولكننا سنتكلم عن هذا فيما بعد. الآن رتّب نفسك، ونم، ذلك أهم شيء. - واتجهت أمي إلى رئيس الخدم: - خذ مارتين بيتروفيتش إلى غرفة المكتب الخضراء للسيد المرحوم وأجلب له كل ما يطلبه على الفور! اطلب أن تنشّف ملابسه، وتنّظف، وخذ من مديرة البيت ما تحتاجه من بياضات.

أجاب ريس الخدم:

- سمعاً!

- وحالما يستيقظ، اطلب من الخياط أن يأخذ مقاساته، ثم يجب حلق لحيته. فيما بعد، وليس الآن.

كرر رئيس الخدم:

- سمعاً. تفضل، يا مارتين بيتروفيتش.

نهض خارلوف، ونظر إلى أمي، وأراد أن يقترب منها، إلا أنه توقف، وانحنى إلى وسطه، ورسم علامة الصليب ثلاثاً عند الإيقونة، وسار في أثر رئيس الخدم. وانسللت أنا من الغرفة عقبه.

- ٢٤ -

قاد رئيس الخدم خارلوف إلى غرفة المكتب الخضراء. وهرع فوراً إلى مديرة البيت، لأنه لم يجد بياضات للفراش. التقانا سوفينير في الرواق، ودخل معنا إلى غرفة المكتب، ومضى على الفور يدور حول خارلوف ضاحكاً ملاعباً صفحة وجهه، وكان خارلوف قد توقف وسط الغرفة مفكراً، مباعداً ساقيه وذراعيه قللاً، والماء ما يزال يسيل منه.

- أيها الشفيدي! خارلوس الشفيدي! - وصوص سوفينير وقد طوى جذعه إلى النصف، ممسكاً بخاصرتيه - أيها المؤسس العظيم لأسرة خارلوف الشهيرة، انظر إلى سليلك! في أي حال هو؟ هل في وسعك أن تتعرف عليه؟

ها، ها، ها! هات يدك رجاء، يا صاحب السمو! ما هذه القفازات السود التي ترتديها؟

أردت أن أمنع سوفينير، وأخجله... ولكن جهودي ذهبت عبثاً!

– كان يصفني بالطفيلي، بالأمعة! قائلاً: ليس لك مأوى! وأحسب أنه الآن صار أمعة، مثلي، أنا الآثم! لا فرق بين مارتين خارلوف وسوفينير الصعلوك. هما الآن سيّان! سيقتات على الصدقات أيضاً! سيلقون عليه كسرة خبز مرمية تشممتها كلبة وعافتها قائلين: خذ.. وكلّ!.. ها، ها، ها!

بقي خارلوف واقفاً بلا حراك، مطرق الرأس، مباعداً رجليه وذراعيه. ومضى سوفينير يوصوص:

– مارتين بيتروفيتش! النبيل العريق! أي عظمة اتخذ لنفسه! يا عيب الشوم، يا عيب الشوم! لا تقترب، وإلا ضربتك! لبلاهته أهدى ضيعته للتقسيم، وملأ الدنيا فأفأة! ها هو يصيح: «عرفان الجميل! عرفان الجميل!» وأنا لِمَ تركتني جانباً، ولم تكرمني؟ ربما كان من الممكن أن أكون أكثر عطفاً عليكَ! كنت صادقاً، إذن، حين قلت: سيتركونه عاري الظهر...

صرخت:

– سوفينير!

إلا أن سوفينير لم يفتر. وخارلوف ما زال على جموده. وبدا وكأنه الآن فقط شعر إلى أي درجة كان مبللاً في كل ما عليه من ثياب، وكان ينظر أن يخلع عنه كل شيء. إلا أن رئيس الخدم لم يعد.

وعاد سوفينير يقول:

– وعلاوة على ذلك مقاتل! أنقذ الوطن عام ١٨١٢! أظهر شجاعته! يعني نحن شجعان حين ننزع من الناهبين الذين ماتوا من البرد سراويلهم، وحين تضرب فتاة برجلها مهددة تنزل أرواحنا إلى سراويلنا...

صرخت ثانية:

– سوفينير!

نظر خارلوف إلى سوفينير من مؤخر عينه، وكان حتى هذه اللحظة يبدو وكأنه لم يلحظ وجوده، وندائي وحده أثار انتباهه.

دمدم بصوت أصم:

– حذار، يا أخ، لا تضع يدك في النار!

فانفجر سوفينير ضاحكاً.

– أوه، كم أرعبتني، أيها الأخ المحترم جداً! ما أرهبك حقاً! على الأقل لو مشطت شعرك، وإلا فسيجف، والله الساتر، ولا تستطيع أن تغسله بعد ذلك، وتضطر أن تحشه بالمحش – وهاج سوفينير فجأة – ويتغطرس، علاوة على ذلك! عريان ويتباهى! خير لك أن تقول لي: أين السقف الذي كان يظلك وكنت تتفاخر به دائماً؟ كنت تقول لي: عندي سقف آوي إليه، وأنت متشرد! سقفي ورث لي! (ما أكثر ما ردد سوفينير هذه الكلمة!).

قلت:

– يا سيد بيتشكوف. أي شيء هذا الذي تفعله! أفق على نفسك!

ولكنه ظل يهذر، ويقفز ويتواثب قرب خارلوف تماماً... ورئيس الخدم ومديرة البيت ما يزالان متغيبين!

شعرت بالفزع. أخذت ألحظ أن خارلوف الذي كان، خلال الحديث مع أمي، يهدأ بالتدريج، بل وقبل بنصيبه في النهاية، على ما يبدو، صار يحتد، فقد تلاحقت أنفاسه، وظهر فجأة ما يشبه الورم تحت أذنيه، وراحت أصابعه تضطرب، وعادت عيناه تتقلبان وسط القناع الأسود الذي صنعه الوحل على وجهه الملطخ...

صرخت:

– سوفينير! سوفينير! توقف، سأخبر أمي.

ولكن سوفينير بدا وكأن الشيطان قد ركبه. عاد يوصوص:

– نعم، نعم، يا حضرة المحترم! ها أنت وأنا نجد أنفسنا الآن في أوضاع دقيقة. بينما ابنتاك، وصهرك فلاديمير فاسيليفيتش يتفكهون بك تحت سقفك ما وسعهم التفكه! على الأقل لو لعنتهم، كما وعدت! حتى هذا لا تقدر عليه! نعم، وأنّى لك أن تصارع فلاديمير فاسيليفيتش؟ وتسميه فولودكا بدون كلفة! وكيف تجسر على هذه التسمية؟ أنه فلاديمير فاسيليفيتش، حضرة السيد سلوتكين، مالك الأراضي، والوجيه. أما أنت، فمن أنت؟

وغطى هدير عارم على كلام سوفينير... لقد انفجر خارلوف غيظاً. انضمت قبضتاه، وارتفعتا، وأزرق وجهه، وظهر الزبد على شفتيه المتشققتين. وراح يرتجف ضراوة. وهدر بصوته الحديدي:

– تقول سقف! تقول... العنهم! لا، لن العنهم... لن بعبأوا لذلك أبداً! أما السقف... سقفهم فسأهدمه، حتى يبقوا بلا سقف، مثلي! سيعرفون من هو مارتين بيترفويتش! لم تهجرني قوتي بعد! سيعرفون كيف يسخرون مني!.. لن يكون لهم سقف!

وصعقت. فأنا لم أشهد في حياتي مثل هذا الغضب العارم! لم يكن الذي يتحرك أمامي إنساناً، بل وحشاً! صعقت!.. أماا سوفينير، فقد اختبأ تحت المنضدة من الفزع.

– لن يكون!

صرخ خارلوف للمرة الأخيرة، وانطلق خارجاً من البيت، وهو يكاد يوقع مديرة البيت ورئيس الخدم اللذين دخلا الحجرة في تلك اللحظة... واندفع عبر الفناء، واختفى وراء البوابة.

– ٢٥ –

غضبت أمي غضباً شديداً، حين جاء رئيس الخدم مضطرب الهيئة ليعلن لها عن خروج مارتين بيتروفيتش من جديد، وبشكل مفاجىء، و لم يجروء أن يخفي سبب خروجه هذا. واضطررت أنا أن أؤكد كلامه.

– إذن، كل هذا منك! – صاحت أمي بسوفينير الذي كان قد سبقنا، كالأرنب الخبيث، بل وقبّل يدها – الذنب كل الذنب على لسانك القذر!

– رحماك... الآن... الآن...

غمغم سوفينير متلجلجاً دافعاً كوعيه وراء ظهره.

– الآن... الآن...

كررت أمي بلهجة تهديد، وصرفته. ثم دقّت الجرس، وأمرت بأن يستدعى كفيتسينسكي، وأصدرت له أمراً بالتوجه في العربة إلى يسكوفو حالاً، والعثور على مارتين بيتروفيتش مهما كلف الأمر، والمجيء به، وختمت كلامها قائلة: – لا تأتي بدونه!

انحنى البولوني الجهم صامتاً، وانصرف.

عدت إلى حجرتي، وجلست إلى النافذة ثانية، وأتذكر أنني رحت أفكر طويلاً فيما حدث أمام بصري. وكنت في حيرة من أمري، فأنا لم أستطع أن أفهم قط لماذا لم يستطع خارلوف الذي تحمل إهانات أهل بيته، دون تأفف تقريباً، أن يسيطر على نفسه، ويتحمل سخريات ولواذع مخلوق تافه مثل سوفينير. آنذاك لم أكن أعرف بعد أي مرارة لا تطاق يمكن أن تنطوي عليه أحياناً ملامة فارغة، حتى ولو كانت صادرة من فم مزدرٍ... إن اسم سلوتكين البغيض، وقد نطق به سوفينير، وقع كالشرارة على بارود، ولم يتحمل الموضع الموجع هذه الوخزة الأخيرة.

مضى زهاء ساعة. ودخلت عربتنا فناء بيتنا، ولكنها كانت تحمل مدير أعمالنا وحده. بينما قالت له أمي: «لا تأتي بدونه!». قفز كفيتسينسكي من العربة عجولاً، وصعد إلى مدخل البيت. وكان الانزعاج بادياً على وجهه، وهو أمر لم يحدث له تقريباً. نزلت إلى الأسفل فوراً، وسرت في أعقابه إلى حجرة الجلوس.

سألت أمي:

– ها؟ أتيت به؟

أجاب كفيتسينسكي:

– لا. لم أقدر أن آتي به.

– ولماذا؟ هل رأيته؟

– رأيته.

– هل حصل له شيء؟ نوبة؟

– لا، لم يحصل أي شيء.

– إذن، لماذا لم تأت به؟

– إنه يهدم بيته.

– كيف؟

– إنه واقف على سطح البيت الجديد يهدمه. افترض بأنه خلع حتى الآن

أربعين لوحة أو أكثر، وحوالي خمسة روافد أيضاً.(وتذكرت قول خارلوف: «لن يكون لهم سقف!»).

تفرست أمي في كفيتسينسكي.

– وحده... يقف على السطح ويهدمه؟

– نعم، يا سيدتي. يسير على أرضية العلية، ويحطم يميناً ويساراً. أنت تعرفين أن له قوة خارقة. ولكن السقف، والحقيقة تقال، غير متين، أقيم بلا أصول، صنع برقائق، والمسامير صغيرة[1].

نظرت أميّ إليّ، وكأنما تريد أن تتأكد من أن سمعها لم يخنها.

كررت:

– رقائق، بلا أصول.

والظاهر أنها لم تفهم شيئاً من ذلك. وأخيراً قالت:

– طيب، ماذا تريد؟

– جئت لتلقي أوامرك. لا أستطيع أن أفعل شيئاً بدون رجال. وفلاحوه جميعاً اختفوا من الفزع.

– وابنتاه؟

– ابنتاه لا تفعلان شيئاً. تتراكضان، بلا جدوى... تصيحان... وما الفائدة من ذلك؟

– وسلوتكين هناك؟

– هناك أيضاً. يصيح أكثر من الجميع، ولكن لا يستطيع أن يفعل شيئاً.

– ومارتين بيتروفيتش واقف على السطح؟

– على السطح... اقصد في العلية، ويحطم السقف.

قالت أمي:

١– السطوح المقامة «بلا أصول» هي التي تترك فيها فرجات بين كل لوحتين، وتغطي هذه الفرجات بلوحة أخرى. ومثل هذه السطوح أرخص، ولكنها أقل متانة. والرقائق هي التي يكون سمكها ثلثي سمك الألواح الاعتيادية. **(الملاحظة من المؤلف)**.

- نعم، نعم، رقائق.

كان مأزقاً غير اعتيادي، كما يبدو.

وأي أجزاء يتخذ؟ استدعاء مدير الشرطة من المدينة؟ جمع الفلاحين؟ وأسقط في يد أمي تماماً.

كما ذهل جيتكوف أيضاً، وقد جاء للغداء. صحيح أنه عاد فذكر القوة العسكرية، ولكنه عموماً لم يقدم أي مشورة، سوى أنه راح ينظر خضوعاً وولاء. أما كفيتسينسكي، فبعد أن رأى أنه لن يحصل على أية أوامر عرض على أمي - بلهجة احترام ازدرائية مجبول عليها - أنه، إذا سمحت له بأن يأخذ معه بعض السوّاس والبستانيين والخدم الآخرين سيحاول أن...

قاطعته أمي:

- نعم، نعم، حاول، يا فيكينتي أوسيبيتش الفاضل! سوى أن تستعجل أرجوك، وسآخذ أنا كل المسؤولية على عاتقي.

ابتسم كفيتسينسكي ابتسامة باردة.

- شيء واحد اسمحي لي، يا سيدتي، أن أوضحه لك مسبقاً: من المستحيل أن أضمن النتيجة، لأن قوة السيد خارلوف عظيمة، ويأسه أيضاً. يعتبر نفسه قد أهين بشدة!

تابعت أمي تقول:

- نعم، نعم، الذنب كله يقع على سرفينير الحقير! لن أغفر له ذلك أبداً! اذهب، وخذ الرجال معك، يا فيكينتسي أوسيبيتش!

قال جيتكوف بصوت عميق:

- خذ معك، أيها السيد المدير، المزيد من الحبال وخطاطيف الحريق، إذا كانت هناك شبكة، فلا بأس في أخذها أيضاً. ذات مرة في فوجنا...

قاطعه كفيتسينسكي في انزعاج:

- أرجوك يا حضرة المحترم، لا تعلمني. أنا أعرف ما هو لازم، بدونك.

فتكدر جيتكوف، وأعلن أنه، حسب ظنه، مدعو أيضاً للخروج...

تدخلت والدتي قائلة:

– لا، لا، الأفضل أن تبقى.. دع. فيكينتي اوسيبيتش يعمل وحده... اذهب، فيكينتي اوسيبيتش!

وتكدر جيتكوف أكثر، بينما أنحنى كفيتسينسكي مودعاً وانصرف.

اندفعت إلى الأسطبل، واسرجت حصاني للركوب بسرعة، وانطلقت أعدو في الطريق إلى يسكوفو.

– ٢٦ –

كفّ المطر عن النزول. إلا أن الريح كانت تعصف بقوة مضاعفة ضدي تماماً. وفي منتصف الطريق كاد السرج أن ينقلب، وارتخى حزام السرج. ترجلت، وأخذت أشد السيور مستخدماً أسناني... وفجأة سمعت من يناديني باسمي... كان سوفينير يركض نحوي على الزرع. وصاح عليّ، وهو ما يزال بعيداً:

– ماذا، أثار فضولك يا عم؟ ولا يمكن... أنا أيضاً ذاهب إلى هناك قدماً، في أثر خارلوف... لأن مثل هذه التحفة لن تراها مدى الحياة!

قلت في حنق:

– تريد أن تتمتع بما صنعت يداك.

وقفزت إلى الحصان، وجعلته يعدو بي من جديد، ولكن سوفينير اللجوج لم يتأخر عني، بل كان يضحك ويهزل، وهو يركض. وها هي يسكوفو أخيراً. ها هي السدة، وهناك السياج الطويل من الأغصان المضفورة، وصفصاف الضيعة... وصلت إلى البوابة، ونزلت من فرسي، وربطته، وتوقفت مذهولاً.

لم يبق من الثلث الأمامي لسقف البيت الجديد غير الهيكل. وكانت الألواح والرقائق ملقاة أكواماً متناثرة على الأرض على جانبي البيت كليهما. فلنفرض أن السقف كان غير متين، حسب وصف كفيتسينسكي، ولكن الأمر كله كان لا يصدق! كانت كتلة رمادية مسودة تتحرك على أرضية العلية بخفة خرقاء مثيرة الغبار والقذارة، تارة تهز المدخنة المتبقية المبنية

من الطابوق (المدخنة الأخرى قد قلعت فعلاً) وتارة تخلع اللوح، وتلقيه إلى الأسفل، وتارة تمسك بالدعائم نفسها. كان ذلك خارلوف. وهنا أيضاً بدا لي دباً تماماً. الرأس رأس دب، وكذلك الظهر والكتفان، وكان يفرج رجليه، دون أن يعوج قدميه، كالدب أيضاً. كانت الريح الحادة العاصفة تهب عليه من كل الجهات ناشرة شعره المشربك. وكانت تبعث على الرعب رؤية جسده العاري يلوح بقعاً حمراء من خلال شقوق ثيابه الممزقة، وسماع دمدمته الوحشية الجشّاء. وكان الناس يحتشدون في الفناء. النساء الريفيات والصبيان والخادمات يلتصقون على طول السياج، وبعض الفلاحين يتحشدون على مبعدة في جماعة منفصلة. وكان القس العجوز الذي عرفته يقف اسر الرأس على مدخل البيت الآخر، وقد أمسك بكلتا يديه صليباً نحاسياً كان يرفعه بصمت ويأس، من حين لآخر، وكأنما يريه لخارلوف. بينما وقفت يفلامبيا إلى جانب القس، متكئة بظهرها على الحائط، تنظر إلى أبيها جامدة. وكانت آنا تطل برأسها من النافذة، ثم تختفي، ثم تخرج إلى الفناء، ثم تعود إلى البيت. وكان سلوتكين شاحباً مصفراً في روب بيتي قديم، وقلنسوة مستديرة صغيرة، يحمل بندقية ذات ماسورة واحدة، وينتقل بخطوات قصيرة من مكان إلى آخر. وكان وحشي المظهر تماماً، على حد ما يقول الناس. كان يلهث، ويهدد، ويصوب على خارلوف، ثم يلقي البندقية على كتفه، ويصوب مرة أخرى، ويصرخ، ويبكي... وحين رآني وسوفينير اندفع نحونا، وأعول:

– انظروا، انظروا ماذا يحصل هنا! انظروا. جنّ، فقد عقله... هذا ما يفعله! أرسلت لاستدعاء الشرطة. ولكن لا أحد يأتي! لا أحد يأتي! إذا أطلقت عليه النار لن يعاقبني القانون، لأن لكل إنسان الحق في الدفاع عن ملكيته! سأطلق النار!.. والله، سأطلق النار!

واندفع نحو البيت.

– مارتين بيتروفيتش، احترس! سأطلق النار إن لم تنزل!

– أطلق! – صدر الصوت الأجش من السقف – أطلق! وهذه هدية لك!

وطارت لوحة طويلة من الأعلى، وبعد أن تقلبت في الهواء مرة أو مرتين، وقعت على الأرض عند قدمي سلوتكين تماماً، فقفز هذا، وراح خارلوف يقهقه.

غمغم شخص من ورائي:

- أيها السيد المسيح!

التفت، فإذا هو سوفينير. قلت في سري: «ها! بطلت أن تضحك الآن!».

أمسك سلوتكين بتلابيب الفلاح الذي كان واقفاً قربه. وراح يصيح هازاً إياه:

- تسلّق، تسلق، تسلقوا، يا شياطين، وانقذوا ملكي!

خطا الرجل خطوة أو خطوتين، ودفع رأسه إلى الوراء ولوّح بذراعيه، وصاح:

- هاي! يا أنتم! يا سيد!

وتخبّط في مكانه، وعاد القهقرى. قال سلوتكين للفلاحين الآخرين:

- هاتوا سلّماً! هاتوا سلّماً!

وأجيب:

- ومن أين نأتي به؟

وقال صوت بتأن:

- حتى لو كان هناك سلَم. فمن يرغب في الصعود؟ لسنا حمقى! سيلوي رقابنا بلمحة!

- ويقتل في الحال!

قال شاب أشقر تلوح البلاهة على وجهه.

- وتتصوره لا يفعل؟

ردّ الآخرون. وخيل إليّ أن الفلاحين، لن ينفذوا أمر سيدهم الجديد عن رضى، حتى وإن لم يكن ثمة خطر باد للعيان. لقد بدوا وكأنهم يؤيدون خارلوف، رغم اندهاشهم منه.

قال سلوتكين متوجعاً:

- أوه، يا لكم من شراذم! كلكم سأ...

ولكن المدخنة الأخيرة انهبدت في تلك اللحظة بدوي فظيع، ومن خلال سحابة الغبار الأصفر التي تصاعدت للتو أطلق خارلوف صيحة مصمة، ورفع عالياً ذراعيه الداميتين، وأدار لنا وجهه. صوّب سلوتكين بندقيته نحوه مرة أخرى.

جذبته يفلامبيا من كوعه. فصرخ بها في ضراوة:

- لا تعيقيني!

فقالت له:

- وأنت، لا تتجاسر! - ولمعت عيناها الزرقاوان بوعيد من تحت حاجبيها المرفوعين - أبي يهدم بيته، ملكه.

- تكذبين، إنه ملكنا!

- أنت تقول ملكنا، وأنا أقول ملكه.

تميّز سلوتكين غيظاً. وغرزت يفلامبيا عينيها فيه.

هدر خارلوف من فوق:

- آها، أهلاً! أهلاً بك، يا ابنتي الكريمة! أهلاً بك، يفلامبيا مارتينوفنا! كيف حياتك مع صاحبك؟ تتبادلان القبل والعناق بلذاذة؟

- أبي!

تردد صوت يفلامبيا الصدّاح.

- ماذا، يا ابنتي؟ أجاب خارلوف، واقترب حتى حافة الجدار، وقد ظهرت على وجهه ابتسامة ساخرة غريبة، وضاءة ومرحة، على قدر ما لاح ذلك لبصري، ولهذا السبب بالذات بدت رهيبة بشكل خاص، ومنطوية على نحس... وبعد سنين كثيرة رأيت مثل هذه الابتسامة بالضبط على وجه رجل محكوم بالإعدام.

- كفاك، يا أبي، انزل (لم تناده يفلامبيا بالضيعة المحببة، «يا أبتي!»). الذنب علينا. سنعيد لك كل شيء. انزل.

فتدخل سلوتكين قائلاً:

– ولماذا تتحدثين باسمنا؟

فلم تقابله يفلامبيا إلا بتقطيبة من حاجبيها أشد.

– سعيد لك حصتي. أعطيك كل شيء. فأترك، وأنزل، يا أبي! سامحنا، سامحني.

ومضى خارلوف على تكشيرته. وقال وكل كلمة من كلماته ترن رنين النحاس.

– فات الأوان، يا عزيزتي! قلبك الحجري تحرك بعد فوات الأوان! صخرة وتدحرجت من جبل، ولا تستطيعين الآن إيقافها! لا تنظري إليّ الآن. أنا رجل هالك! الأحسن أن تنظري إلى صاحبك فولودكا، انظري أية وسامة عليه! وانظري إلى أختك الخبيثة؛ ها هو أنفها الثعلبي يطل من الشباك. انظري إليها تحرض بعلها! لا، يا سيدات! اردتن أن تحرمنني من السقف، وها أنا لا أترك لكن رافدة على رافدة! صففتها بيديّ، وأهدمها بيديّ، بنفس اليدين! انظروا، لم استخدم حتى الفأس!

وبصق بكلتا يديه، وعادإلى الروافد من جديد.

وفي أثناء ذلك كانت يفلامبيا تقول، وقد صار صوتها عجيباً في رقته.

– كفى، يا أبي، أنس الماضي. وصدقني، كنت دائماً تصدقني. حسناً، أنـزل، وتعال إلى غرفتي، ونم على فراشي الوثير. سأجفف ملابسك، وأدفئك، وأضمد جراحك. انظر إلى يديك مجروحتين. ستعيش عندي هانئاً مرتاحاً، وتأكل لذيذ الطعام، وتنام بلذاذة أكثر. طيب، كنا مذنبين! تطاولنا وأذنبنا، فاغفر لنا ذنوبنا!

هزّ خالوف رأسه.

– ارسمي وزوّقي! لا، لا أصدق بكم! قتلتم فيّ الثقة! قتلتم كل شيء! كنت نسراً، فإذا بين انقلب إلى دودة بالنسبة لكم... وأنتم تستحقون الدودة، ها؟ كفى! كنت أحبك، وأنت تعرفين ذلك. غير أنني الآن لست أباً لك، ولا أنت ابنة لي... أنا إنسان هالك! لا تقفي في طريقي! اطلق، أيها الجبان، أيها العملاق الزائف! – صرخ بذلك على سلوتكين فجأة – لماذا تصوب

فقط؟ أم لعلك تذكرت القانون؟ إذا كان قابل الهبة حاول الاعتداء على حياة صاحب الهبة – قال خارلوف بتوقف على الكلمات – فإن لصاحب الهبة الحق في المطالبة بإعادة كل ما وهبه! ها، ها، ها! لا تخف، يا قانوني: لن أطالب. سأهدم بنفسي كل شيء... هيا!

نادت يفلامبيا للمرة الأخيرة:

– أبي!

– اصمتي!

غمغم سوفينير:

– مارتين بيتروفيتش! يا أخ، سامح باريحية.

– أبي، عزيزي!

– اصمتي، كلبة!

صرخ خارلوف، و لم ينظر إلى سوفينير – إلا أنه بصق باتجاهه.

– ٢٧ –

في تلك اللحظة ظهر كفيتسينسكي عند البوابة بكل معيته على ثلاث عربات. صهلت الخيول المتعبة. وقفز الناس واحداً أثر الآخر في الوحل.

هتف خارلوف بكل حنجرته:

– آها! الجيش... ها هو قد جاء! يوجهون جيشاً كاملاً ضدي. حسناً! أحذركم فقط أن كل مَنْ يتفضل ويصعد على السطح، سأرسله من هنا يتقلب إلى الأسفل. أنا صاحب ملك صارم، ولا أحب الضيوف يأتون غير مدعوين! هكذا أنا!

تشبث بيديه الاثنتين في الرافدتين الأماميتين، أو ما يسمى بـ «قدمي» القوصرة، وأخذ يخلخلها بقوة، وكان يبدو، وهو يتدلى من حافة الأرضية، وكأنه يجرهما وراءه، مترنماً على طريقة ساحبي المراكب «هيلا هيلا هوب، هيلا هيلا هوب! أوه!»).

ركض سلوتكين إلى كفيتسينسكي، وأخذ يتشكى ويولول... طلب هذا إليه أن «لا يعيقه»، وأخذ ينفذ الخطة التي وضعها. وقف أمام البيت، وأخذ يشرح لخارلوف، كنوع من الإلهاء، أن عمله هذا لا يليق بالنبلاء...

ترنم خارلوف:

- هيلا، هيلا هوب، هيلا، هيلا هوب.

... وأن ناتاليا نيقولايفنا مستاءة جداً من أفعاله، وأنها لم تكن تتوقع ذلك منه...

وظل خارلوف يترنم:

- هيلا، هيلا هوب، هيلا، هيلا هوب!

وخلال ذلك بعث كفيتسينسكي أقوى وأجرأ أربعة من السوّاس إلى الجهة المقابلة من البيت ليتسلقوا إلى السطح من الخلف. إلا أن خطة الهجوم لم تنطل على خارلوف، ترك الرافدتين فجأة، وركض بخفة إلى خلفية العلية. وكان مظهره مرعباً جداً، حتى أن السائسين اللذين استطاعا أن يتسلقا إلى العلية، عادا إلى الأرض، بلمح البصر، منزلقين على ماسورة تصريف الماء، وأثار هذا مرح الصبيان الخدم، وحتى ضحكهم. هزّ خارلوف قبضته في أثرهما، وعاد إلى الجزء الأمامي من البيت، وأمسك بالرافدتين من جديد وصار يهزهما مرة أخرى، وعاد إلى ترنيمة ساحبي المراكب.

وفجأة توقف، وحملق... ونادى:

- ماكسيمكا، صديقي! صاحبي! أهذا أنت؟

التفت... وبالفعل انفصل الخادم ماكسيمكا من حشد الفلاحين، وكشر، كاشفاً عن أسنانه، وتقدم إلى الأمام. ومن المرجح أن أستاذه، صانع العدد للخيول، تركه يذهب إلى بيته لبعض الوقت. مضى خارلوف يقول:

- اصعد إليّ، ماكسيمكا، يا خادمي الوفي، لنصد سوية هجوم التتار الأشرار، واللصوص الليتوانيين!

أخذ ماكسيمكا يصعد إلى السطح، وهو على تكشيرته... إلا أنهم أمسكوه، وأبعدوه - والله يعلم السبب - ربما لكيلا يحذو الآخرون حذوه، فهو ما كان سيقدم لمارتين بيتروفيتش عوناً كبيراً.

- طيب، حسناً! حسناً!

قال خارلوف بصوت متوعد، وأمسك بالرافدتين مرة أخرى.

قال سلوتكين لكفيتسينسكي:

- فيكينتي اوسيبوفيتش! اسمح لي أن أطلق لآثارة خوفه، فإن بندقيتي محشوة بخردق صغير.

ولكن قبل أن يتسنّى الوقت لكفيتسينسكي ليرد عليه، مالت الرافدتان الأماميتان اللتان كان خارلوف يخلخلهما بعنف، وقرقعتا، وانهبدتا في الفناء، ومعهما انهبد خارلوف نفسه، حين لم يستطع، أن يوازن نفسه، وانطرح ثقيلاً على الأرض. جفل الجميع، وتأوهوا.. انطرح خارلوف على صدره بلا حراك، وقد انغرزت في ظهره العارضة الطولانية العليا للسطح، حيث سقطت بعد سقوط القوصرة.

- ٢٨ -

هرع الناس إلى خارلوف، ورفعوا العارضة عنه، وقلبوه على ظهره. كان وجهه بلا حياة، والدم يبرز من فمه، والأنفاس لا تتردد في صدره. دمدم الفلاحون الذين اقتربوا منه: «غابت روحه». هرعوا لجلب الماء من البئر، وجلبوا جردلاً مملوءاً، وسكبوه على رأس خارلوف، فتناثر الوحل والغبار من وجهه، ولكن الوجه بقي بلا حياة، كما كان. جلبوا مصطبة، ووضعوها عند البيت تماماً، ورفعوا الجسد الضخم بصعوبة، وأجلسوه على المصطبة، واسندوا رأسه إلى الحائط. اقترب الخادم ماكسيمكا، وركع على ركبة واحدة، وترك القدم الأخرى بعيدة، وأمسك يد سيده السابق بحركة مسرحية. ووقفت يفلامبيا أمام أبيها شاحبة، كالموت نفسه، مثبتة فيه عينيها الوسيعتين. ولم تقترب آنا ولا سلوتكين. وصمت الجميع، منتظرين شيئاً ما. وأخيراً صدرت قرقرات متقطعة من حنجرة خارلوف، وكأنه يغص بشيء... ثم حرك إحدى يديه، اليمنى بوهن (كان ماكسيمكا يمسك باليسرى) وفتح إحدى عينيه، اليمنى، وأجال بصره فيما حوله ببطء كالسكران سكرة قوية، وأرسل آهة، ونطق بلعثمة:

- س-... -قطت... - وسكت وكأنه يفكر، ثم أضاف:

- ذلك هو الم-... -هر... إلا...-سحم! - وفجأة شخب الدم من فمه. وراح جسده كله يرتعد...

قلت لنفسي: «هذه هي النهاية!» ولكن خارلوف فتح العين اليمنى نفسها (كان الجفن الأيسر لا يتحرك كفن الميت) وحدج يفلامبيا، وقال بصوت لا يكاد يسمع: «ها، بن-... -تي... أنا لا أ...ك». دعا كفيتسينسكي القس بحركة حادة من يده، وكان هذا ما يزال واقفاً على مدخل البيت... جاء العجوز وركبتاه الضعيفتان تصطدمان بردائه الكهنوتي الضيق. ولكن رجلي خارلوف ارتعصتا رعصة قبيحة فجأة، وكذلك بطنه، وسرى تشنج ملتو من أسفل وجهه إلى أعلاه، فبدا كالمشوّه. وتشوه وارتعش وجه يفلامبيا أيضاً. أخذ ماكسيمكا يرسم علامة الصليب على صدره.. وأحسست برهبة، وركضت نحو البوابة، وضغطت صدري عليها دون أن ألتفت إلى الوراء. وبعد دقيقة صدرت همهمة ورائي من كل الأفواه، وأدركت أن مارتين بيتروفيتش فارق الحياة.

كانت العارضة قد حطمت قفاه، بينما هشّم هوصدره بسقوطه، كما دلّ التشريح.

- ٢٩ -

سألت نفسي وأنا أعود إلى بيتي على حصاني: «ماذا كان يريد أن يقول لدى احتضاره؟» «أنا لا أ...لعنك؟ أم أنا لا أ... أسامحك؟». هطل المطر من جديد، ولكني سرت على فرسي بخطذوات غير متعجلة. كنت أريد أن أخلو إلى نفسي أطول وقت ممكن، أريد أن أرسل لأفكاري العنان. كان سوفينير يركب إحدى العربات التي جاءت مع كفيتسينسكي. ورغم صغر سني، وخفة عقلي في ذلك الحين إلا أن ظاهرة الموت التي تثير النفوس دائماً سواء كانت متوقعة أو غير متوقعة (لا فرق في ذلك!)، ومهابته، وخطورته وحقيقته، ما كان من الممكن إلا أن تحدث في نفسي تغيّراً مفاجئاً شاملاً (ليس في التفاصيل فقط). وقد حدث ذلك لي بالفعل... ولكن مع كل هذا التقط بصري الطفولي المرتبك أشياء كثيرة على الفور. التقط كيف قذف سلوتكين بندقيته جانباً بخفة ورهبة، وكأنها شيء مسروق، وكيف صار هو وزوجته، على الفور، موضع تنكر عام، وإن كان صامتاً، وكيف خلا المكان حولهما... ولم يشمل هذا التنكر يفلامبيا، رغم أن ذنبها لم يكن، ربما، أقل

من ذنب أختها. بل وأثارت بعض اشفاق الناس عليها، حين ارتمت على قدمي أبيها، وقد فارق الحياة. إلا أن الجميع كانوا يشعرون بأنها كانت مذنبة أيضاً. قال أحد الفلاحين، وهو ذو رأس كبير تفشى فيه الشيب، وهو يستند بكلتا يديه ولحيته على عصا طويلة، كالقاضي في قديم الزمان: «جرتم على العجوز، والخطيئة في رقابكم! جرتم!». واعتبر الجميع، على الفور، كلمة «جرتم» حكماً قاطعاً. أنه حكم الشعب، كما أدركت حالاً. ولاحظت أيضاً أن سلوتكين لم يجرؤ، في الأوقات الأولى، أن يصدر الأوامر. وبدونه رفعوا الجثمان وحملوه إلى البيت، وذهب القس إلى الكنيسة، دون أن يستأذنه، ليجلب لوازمه الضرورية، وهرع العمدة إلى القرية ليرسل عربة إلى المدينة. ولم تقدم آنا مارتينوفنا على استخدام لهجتها الآمرة المعتادة لتأمر بتهيئة السماور «لتسخين الماء لغسل الميت»، بل كان أمرها أشبه بالرجاء، وقد أجيبت بخشونة...

ظل طوال الوقت يشغلني هذا السؤال: ماذا كان يريد أن يقولا لابنته، على وجه التحديد؟ أكان يريد أن يسامحها أم يلعنها؟ وقرّ رأيي أخيراً على أنه كان يريد أن يسامحها.

وبعد ثلاثة أيام جرت مراسم دفن مارتين بيتروفيتش على نفقة أمي التي أحزنها موته حزناً شديداً، فأمرت بأن لا يبخل في المصروفات. ولم تذهب هي إلى الكنيسة، لأنها لم ترد، على حد تعبيرها، أن ترى تينك الوضيعتين، وذلك الوغد الحقير، ولكنها أرسلتني وكفيتسينسكي، وجيتكوف الذي لم تكن تسميه، منذ ذلك الوقت، إلا بالخنثي. أما سوفينير، فمنعته من الوصول إلى حضرتها، ثم غضبت عليه زمناً طويلاً، ناعتة إياه بقاتل صديقها. وكانت هذه الجفوة ذات تأثير كبير عليه، فكاني سير دائماً على رؤوس أصابعه في الحجرة المجاورة لغرفة أمي، وأصابته سوداوية فازعة حقيرة، فكان يجفل، ويهمس «حالاً!».

وأثناء مراسم التشييع في الكنيسة بدا لي سلوتكين قد عاد ثانية إلى «قالبه». كان يصدر الأوامر، ويروح ويجيء كالسابق، ويراقب بجشع حتى لا ينفق أي كوبيك زيادة، رغم أن الفلوس لم تكن فلوسه. وكان ماكسيمكاك في

قفطان قصير جديد من عطايا والدتي أيضاً يرتل في جوقة المرتلين بنبرات عالية لم يعد أحد بعدها يشك، طبعاً، في صدق ولائه للمرحوم! كانت كلتا الابنتين ملتزمتين بلباس الحداد، كما ينبغي، ولكنهما بدتا مرتبكتين أكثر مما هما حزينتان، ولا سيما يفلامبيا. واتخذت آنا لنفسها هيئة الخشوع والوداعة، إلا أنها لم تجبر نفسها على البكاء، وظلت طوال الوقت تمرر يدها الجميلة النحيلة على شعرها وخدها. والتزمت يفلامبيا مظهر التأمل. وهنا أيضاً خيل إليّ أنني أرى التنكر العام القاطع، والإدانة، التي لاحظتها يوم وفاة خارلوف، تلوح على جميع وجوه الحاضرين في الكنيسة، وعلى جميع حركاتهم، ونظراتهم، إلا أنها أكثر رصانة، وأقل تأثراً، على ما يبدو. وكأن كل هؤلاء الناس كانوا يعرفون أن الإثم الذي تورطت فيه عائلة خارلوف، ذلك الإثم الكبير، صار الآن بين يدي الديان العادل الأوحد، وبالتالي لا حاجة، بعد الآن، إلى أن يقلقوا ويحنقوا، صلّوا بحماس على روح المتوفى الذي لم يكونوا يحبونه في حياته، بل كانوا يرهبونه. لقد كان نزول الموت مباغتة شديدة.

كان أحد الريفيين يقول للآخر عند مدخل الكنيسة:

– على الأقل لو كان يشرب الخمرة، يا أخانا!

ردّ هذا:

– هناك خمار من غير خمرة. هذا ما يحصل أحياناً.

وكرر الفلاح السابق كلمته الحاسمة:

– جاروا عليه.

وردد آخرون بعده:

– جاروا عليه.

سألت ريفياً، وقد عرفت فيه أحد فلاحي خارلوف.

– ألم يكن يظلمكم؟

ردّ الفلاح:

– كان سيداً، بالطبع. ولكنهم جاروا عليه، على أية حال.

وتردد في الجمع ثانية:

- جاروا عليه...

وقفت يفلامبيا عند القبر كالذاهلة أيضاً، يستغرقها تفكير عميق... تفكير مثقل. لاحظت أنها كانت تعامل سلوتكين الذي بادرها الكلام بضع مرات، كما كانت تعامل جيتكوف، بل اسوأ.

بعد عدة أيام سرت في ناحيتنا شائعة تقول أن يفلامبيا مارتينوفنا خارلوف غادرت بيت أبيها إلى الأبد، بعدأن تركت لأختها وزوج أختها كل حصتها من الضيعة، و لم تأخذ غير بضع مئات من الروبلات.

قالت أمي:

- الظاهر أن آنا اشترتها منها - ثم أضافت مخاطبة جيتكوف الذي كانت تلعب الورق معه بدلاً من سوفينير - وأنا وأنت فقط ليست لنا أيد مقتدرة!

نظر جيتكوف بجزع إلى يديه القويتين، وكأنه يفكر «نعم، ليستا مقتدرتين!».

وبعد ذلك بزمن قصير انتقلت مع أمي للإقامة في موسكو، وانقضت أعوام كثيرة، قبل أن التقي بكلتا ابنتي مارتين بيتروفيتش.

- ٣٠ -

ولكنني رأيتهما. التقيت آنا مارتينوفنا بصورة اعتيادية للغاية. بعد وفاة والدتي زرت قريتنا التي لم أسافر إليها منذ أكثر من خمسة عشر عاماً، وتلقيت من أحد الوسطاء دعوة (آنذاك كان يجري في روسيا كلها رسم حدود الأراضي المتداخلة[1] بذلك البطء العالق بالذاكرة حتى الآن) - دعوة لحضور اجتماع مع المالكين الآخرين لارضنا، في ضيعة مالكة الأراضي الأرملة آنا سلوتكينا. وأعترف أن رحيل مَنْ كانت تصفه أمي بـ «اليهودي» ذي العينين السوداوين إلى الآخرة لم يحزنني أبداً، ولكنني أحسست بفضول لرؤية أرملته. وكانت لها شهرة بيننا على أنها مدبّرة ممتازة. وبالفعل كانت

١- في عام ١٨٣٦ شكلت في روسيا لجان وساطة تستهدف التوصل إلى اتفاقات اختيارية بين مالكي الأراضي على تقسيم الأراضي المتداخلة.

ضيعتها، ومجال البيت، والبيت نفسه (وجدت نفسي أنظر إلى سقفه دون إرادتي، فرأيته حديدياً) وكل شيء في نظام رائع، معتنى به، ونظيفاً، ومرتباً، ومصبوغاً حيث ينبغي، وكأن صاحبة البيت ألمانية. وقد بان كبر السن على آنا مارتينوفنا ولكن فتنتها ذات النكهة الخاصة، الناحلة، وكالمحنّقة، تلك الفتنة التي كانت تثيرني في وقت من الأوقات، لم تزايلها تماماً. كانت تلبس على الطريقة الريفية، ولكن باناقة. لم تستقبلنا بترحاب – فإن هذه الكلمة لم تكن تناسبها – بل بأدب، وحين رأتني، أنا الشاهد على الماضي الرهيب لم يرف لها جفن. ولم تشر، ولو بطرف خفي، لا إلى أمي، ولا إلى أبيها، ولا إلى أختها، ولا إلى زوجها، وسكتت عنهم سكوت الأموات.

كانت لها ابنتان كلاهما على قدر كبير من الملاحة، هيفاوان، ذواتا وجه صبوح، وفي عيونهما السود تعبر مرح رقيق. وكان لها ابن أيضاً له بعض الشبه بأبيه، ولكنه صبي في منتهى الحلاوة أيضاً! وخلال الجدال بين المالكين حافظت آنا مارتينوفنا على هدوئها ولياقتها، ولم تبد عناداً خاصاً، ولا روحاً نفعية خاصة، ولكنها كانت تتفوق عى الحاضرين بفهم منافعها، وبالقدرة على طرح حقوقها والدفاع عنها بشكل أكثر اقناعاً. وكانت مطلعة بشكل جيد على القوانين «الملائمة» بل وعلى النشريات الوزارية. وكانت تتكلم بكلمات قليلة وصوت هادئ، إلا أن كل كلمة كانت تصيب الهدف. وانتهى الأمر إلى أن نوافق على جميع مطاليبها، وقوم بتنازلات تثير الاستغراب. بل أن بعض السادة الملاكين لعنوا أنفسهم، في طريق العودة، وراح الجميع يتذمرون ويهزون رؤوسهم.

قال أحدهم:

– يا لها من امرأة ذكية!

وقال مالك آخر أقل لياقة:

– محتالة ماكرة. تأخذك إلى النهر وتعود بك عطشان.

وأضاف ثالث:

– وبخيلة أيضاً. قدح فودكا وقطعة كافيار للشخص الواحد. أية ضيافة هذه؟

وفجأة زعق مالك آخر كان صامتاً حتى ذلك الحين:

– وماذا تنتظر منها؟ ومن لا يعرف أنها سممت زوجها؟

ولدهشتي لم يجد أحد من الضرورة أن يدحض هذا الاتهام الفظيع، ولربما غير القائم على أساس. وقد أثار دهشتي أكثر أن الجميع كانوا يشعرون بالاحترام نحو آنا مارتينوفنا، بمن فيهم المالك وقل لياقة، رغم التعابير الفادحة التي أوردتها. وحتى الوسيط أثيرت حماسته. فهتف قائلاً:

– ضعها على عرش وستكون سميراميس أو يكاترينا الثانية![1] إطاعة الفلاحين لها مثالية. وتربية أولادها مثالية أيضاً! لها رأس! دماغ!

ولنترك سميراميس ويكاترينا الثانية جانباً، ولكن لم يكن هناك شك في أن آنا مارتينوفنا كانت تعيش حياة سعيدة جداً. فقد كان الارتياح نفسياً وظاهرياً، والاطمئنان الحلو بالعافية الروحية والجسدية يطفحان عليها، وعلى عائلتها، ومعيشتها كلها. أما إلى أي حد كانت تستحق هذه السعادة... فهذه مسألة أخرى. وعلى العموم لا تطرح مثل هذه المسائل إلا إبان الصبا. فإن كل ما في الدنيا – من خير وشر لا يعطى للإنسان، حسب ما له من مناقب، بل وفق قوانين مجهولة ولنها منطقية لا آخذ على عاتقي حتى الإشارة إليها، وأن يبدو لي أحياناًأنني أتحسسها بشكل غامض.

– ٣١ –

استفسرت من الوسيط عن يفلامبيا، فعلمت أن أخبارها انقطعت منذ أن خرجت من بيتها و«من المحتمل أنها صعدتإلى السماء منذ زمان».

وهذا ما قاله الوسيط... ولكنني واثق من أنني رأيت يفلامبيا، والتقيتها. وذلك كالآتي:

بعد أربع سنوات من لقائي بآنا مارتينوفنا، سكنت لموسم الصيف في مورينو، وهي قرية صغيرة قرب بطرسبورغ، مشهورة للمصطافين من الفئات المتوسطة الحال. وكان الصيد حول مورينو ليس سيئاً في ذلك الوقت،

١– سميراميس – ملكة آشور شبه الأسطورية. ويكاترينا الثانية إمبراطورة روسيا من عام ١٧٦٢ إلى عام ١٧٩٦.

وكنت أخرج ومعي بندقيتي كل يوم تقريباً. كان لي رفيق يدعى فيكولوف، من أهل المدينة - شاب راجح العقل وطيب - ولكنه يعيش حياة «ضائعة» تماماً، على حد تعبيره هو. وما أكثر ما رأى هذا الرجل، وما جرّب! فكان لا يأخذه العجب من شيء، ولا يجهل أي شيء. ولكنه كان يحب الصيد والخمرة فقط. وذات مرة، أثناء عودتي معه إلى مورينو، صادف أن مررنا ببيت معزول على مفترق طريقين، محاط بسياج عال من الألواح المنحوتة. ولم تكن هذه هي المرة الأولى التي أرى فيه هذا البيت، وفي كل مرة كان يثير الفضول في نفسي. كان فيه شيء غامض، مغلق، جهم أخرس، شيء يشبه السجن أو المستشفى. ومن الطريق لا يمكن للرائي أن يرى إلا سقفه المستدير المطلي بطلاء داكن. ولم يكن للسياج غير بوابة واحدة، وحتى هذه كانت مغلقة تماماً، لا يتردد من ورائها أي صوت قط. ومع كل هذا كنا نشعر بأن في هذا البيت يسكن أحد الناس لا محالة. فالبيت لا يلوح مسكناً مهجوراً على الإطلاق، بل على العكس كان كل شيء فيه متين، متماسك، ركين يستطيع أن يقف في وجه أي حصار!

سألت رفيقي:

- أي حصن هذا؟ ألا تعرف؟

خاوص فيكولوف عينيه بمخاتلة:

- مبنى عجيب، أليس كذلك؟ كم دّر على رئيس الشرطة المحلية من أيراد!

- وكيد ذاك؟

- هكذا. أظنك سمعت بشيعة الرافضين[1] الذين لا يعترفون بالقساوسة؟

- سمعت.

- حسناً، هنا تعيش رئيستهم.

١- شيعة الرافضين نحلة دينية متعصبة محظورة من قبل الكنيسة الرسمية الروسية أسست على عقيدة تجسد المسيح في إنسان أثناء إقامة الشعائر الدينية من غناء وركض ودوران.

– امرأة؟

– نعم. الأم، مريم العذراء عندهم.

– أحقاً؟

– أقول لك الحق. يقال أنها صارمة... صاحبة أمر ونهي! تتصرف بالآلاف! وددت لو آخذ كل هؤلاء العذراويين... ولكن لا حول ولا قوة!

ونادى بيغاشكا، وهو كلبه المدهش ذو الحساسية الفائقة، ولكن دون أي فهم في اقتناص الطريدة، فكان فيكولوف مضطراً إلى أن يشد قائمته الخلفية، حتى لا يركض بتلك العجالة.

انغرزت كلماته في ذاكرتي. كنت أحياناً أتعمد أن انحرف جانباً، لأمر بهذا البيت الغامض. وذات مرة حاذيته، وإذا بي أمام معجزة! صلصل الرتاج وراء البوابة، وقلقل المفتاح في القفل، ثم انفتحت البوابة نفسها، وظهر رأس حصان ضخم، تتدلى شاربة مضفورة تحت قوسه المزركش، وطلعت إلى الطريق متماهلة عربة صغيرة من تلك التي يركبها بائعو الخيول، والتجار المتجولون. وقد جلس إلى الجهة القريبة مني، وعلى مقعد جلدي رجل في نحو الثلاثين من العمر ذو وسامة رائعة، ومظهر جليل، يرتدي معطفاً أسود حسن الهيأة، وقبعة ذات ظليلة مسرّحة على جبينه، ويسوقبرصانة حصاناً مسمناً عريضاً كالموقد الروسي، وجلست إلى جانب الرجل، في الجهة الأخرى من العربة، امرأة مديدة القامة، مستقيمة كالسهم. وقد غطت رأسها بشال أسود ثمين. كانت ترتدي سترة مخملية قصيرة زيتونية اللون، وتنورة داكنة الزرقة من النسيج الصوفي الدقيق. وكانت يداها البيضاوان المطويتان على صدرها برصانة متماسكتين. استدارت العربة في الطريق إلى اليسار، وإذا بالمرأة على بعد خطوتين مني، أدارت رأسها قليلاً، فعرفت في شخصها يفلامبيا خارلوفا. عرفتها بسرعة، ودون أية لحظة من التردد، ولم يكن ثمة مجال للتردد. فإنني لم أر لدى أحد عينين مثل عينيها، والأكثر من ذلك اضمامة شفتين متعجرفة حسية، كتلك التي عندها. صار وجهها أكثر طولاً، وجفافاً، وأسودت البشرة، ولاحت تجاعيد هنا وهناك. ولكن ما تغيّر بشكل خاص هو تعبير وجهها! أن الكلمات عاجزة عن وصف ما

بلغه من الثقة بالنفس، والصرامة، والأنفة! كانت كل قسمة من قسماته لا توحي فقط بالثقة البسيطة بسلطانها، بل بالتشبع بهذا السلطان. وتبدّت في النظرة العارضة التي ألقتها عليّ، تلك العادة القديمة المتأصلة في أن لا تستقبل غير الخضوع التبجيلي المتطامن. والظاهر أن هذه المرأة عاشت محاطة بالعبيد وليس بالمعجبين، والظاهر أيضاً أنها نسيت ذلك الوقت الذي لم ينفذ فيه أمر لها أو رغبة على الفور! ناديتهاا باسمها واسم أبيها بصوت عال. فجفلت قليلاً، ونظرت إليّ ثانية، لا بفزع، بل بسخط ازدرائي. وكأنها تقول: مَنْ هذا الذي يجرؤ على أقلاقي؟ وفتحت شفتيها قليلاً وتفوهت بكلمة آمرة. انتفض الرجل الجالس إلى جانبها، وضرب الحصان ضربة قوية بالعنان، فانطلق هذا في عدو سريع واختفت العربة.

ومنذ ذلك الحين لم ألتق بيفلامبيا. ولا أستطيع أن أتصور كيف صارت ابنة مارتين بيتروفيتش السيدة العذراء لشيعة الرافضين. ولكن من يدري، فلعلها أسست النحلة التي ستسمى أو سميت بالفعل باسمها: النحلة اليفلامبية! فإن كل شيء يمكن أن يحدث.

وهذا ما أردت أن أخبركم به عن ملكنا لير السهبي، وعن عائلته، وأفعاله».

وصمت الراوي، وتحدثنا قليلاً، ثم تفرقنا إلى حال سبيلنا.

١٨٧٠

توك... توك... توك[1]

دراسة

- ١ -

... اتخذنا مجالسنا جميعاً في حلقة، وبدأ ألكسندر فاسيليفيتش ريدل، صاحبنا الطيب (كان اسم عائلته ألمانياً، ولكنه روسي أصيل) بدأ ألكسندر فاسيليفيتش يقول:

١- توك... توك... توك!

كتبت هذه الرواية القصيرة في آب - ايلول ١٨٧٠، ونشرت لأول مرة في مجلة «فيستنيك يفروبي» ١٨٧١، العدد الأول.

وقد اشار تورغينيف بنفسه إلى عنصر السيرة الذاتية لهذه الرواية. يعيد الراوي في تذكره لظروف حياته وولع تيغليف بمارلينسكي ذكريات الكاتب في اعوام شبابه.

وفي الرواية يقترن تسجيل الأحداث التي وقعت في الثلاثينات من القرن الماضي بالمشاكل اتي كانت تقلق الكاتب في السبعينات من هذا القرن.

ان «توك... توك... توك!» من ناحية هي «ذكريات الشباب» (رسالة تورغينيف المؤرخة في ١٣ تشرين الأول ١٨٧٠) ومن الناحية الأخرى «دراسة الانتحار، والانتحار الروسي بالذات، المعاصر، المعتد، البليد، الخرافي، والسخيف، الانتحار القدري...» (الرسالة المؤرخة في ١٦ كانون الثاني ١٨٧٧). وتورغينيف فور فراغه من هذا العمل سماه «تفاهة صغيرة»، وفيما بعد كان يصر على المعنى الجدي لهذه الرواية: «تصوّر انني اعتبر هذا العمل، وإن لم يكن ناجحاً، - فقد يكون التنفيذ ضعيفاً وذا ثغرات - بل واحداً من أكثر الاعمال الجدية التي كتبتها في أي وقت مضى».

وقد اشاد غوستاف فلوبير في رسالة لتورغينيف مؤرخة في ٣١ أيار ١٨٧٣ بابداع شخصية تيغليف - الجمع بين النمط النفسي الساذج بالروح الادعائية. ونوّه فلوبير أيضاً عن الغموض المثير للفزع، على البساطة، وطبيعية حل العقدة.

- سأروي لكم، أيها السادة، حادثة وقعت لي في الثلاثينيات... قبل حوالي أربعين عاماً، كما ترون. سأوجز في القول، فأرجو أن لا تقاطعوني.

كنت، حينئذ، أعيش في بطرسبورغ، وقد تخرجت لتوي في الجامعة. وكان أخي ضابطاً برتبة ملازم ثان في سلاح مدفعية خيالة الحرس. وكانت كتيبته تعسكر في كراسنويه سيلو[١]. وكان الفصل صيفاً. وكان أخي، على وجه الدقة، لا يقيم في كراسنويه سيلو، بل في إحدى القرى المجاورة، وقد نزلت عنده غير مرة، وتعرفت على جميع رفاقه. وكان يسكن في بيت خشبي حسن الترتيب مع ضابط آخر من كتيبته يدعى إيليا ستيبانيتش تيغليف. وقد عقدت معه أواصر صداقة جيدة.

صار مارلينسكي[٢] الآن قديماً، ولا أحد يقرأه، بل ويهزأون من اسمه، ولكنه في الثلاثينيات كان بعيد الصدى لا يجاريه أحد، وحتى بوشكين، حسب فهم الشباب آنذاك، لا يمكن أن يضاهيه. وكان يتمتع بشهرة الكاتب الروسي الأول، وليس هذا فقط، بل وترك ختمه على الجيل المعاصر له إلى حد ما، وهو شيء أصعب وأندر بكثير. وكان الأبطال à la مارلينسكي موجودين في كل مكان، ولا سيما في الأقاليم، وعلى الأخص بين رجال الجيش والمدفعية. وكانوا يتكلمون ويتكاتبون بلغته. وكان سلوكهم في مجتمع الناس جهوماً متحفظاً، «في نفوسهم عاصفة وفي دمهم لهب» كالملازم بيلوزور «فرقاطة الأمل»[٣]. وكانوا «يلتهمون» قلوب النساء. وأطلق عليهم آنذاك لقب «القدري». وقد بقي هذا النموذج

١- محطة قرب بطرسبورغ.

٢- مارلينسكي هو الاسم المستعار للكاتب الروسي من الديسمبريين ألكسندر بيستوجيف (١٧٩٧ - ١٨٣٧) مؤلف قصائد وروايات قصيرة رومانسية عديدة.

٣- هنا خلط بين بطلين لروايتين من روايات مارلينسكي: الملازم بيلوززور (اسم إحدى الروايتين) والكابتن برافين («فرقاط «الأمل»). ومن المحتمل أن هذا الخلط لا بد أن يؤكد أن مارلينسكي لم يعد أحد يقرؤه.

وقتاً طويلاً، كما هو معروف، حتى زمن بيتشورين[1]. وما أكثر ما في هذا النموذج فيه البايرونية، والرومانسية، وذكريات عن الثورة الفرنسية، وعن الديسمبريين[2]، وعبادة نابليون، والإيمان بالقدر، والتنجيم، وقوة الخلق، وقيمة الموقف، والعبارة، ووحشة الفراغ، والانفعالات المفزعة لحب الذات التافه، والقوة والشجاعة الحقيقيتان، والمطامح النبيلة، والتربية السيئة، والجهالة، والتقاليد الارستقراطية، والهوس باللعب... ولكن كفى تفلسفاً... لقد وعدت أن أقص عليكم.

- ٢ -

كان الملازم تيغليف من بين هؤلاء «القدريين»، رغم أنه لا يشبه هؤلاء الأشخاص في المظهر الذي يتخذونه عادة. فهو، مثلاً، لم يكن يشبه «قدري» ليرمنتوف. كان هذا الرجل متوسط القامة، مكتنز البنيان، مكور المنكبين، كتاني الشعر، أشقر تقريباً، له وجه مدوَّر، غض، مورد الوجنتين، وأنف مرفوع إلى الأعلى، وجبين واطىء وصدغان كثان، وشفتان مدورتان، ومرسومتان بدقة، جامدتان أبداً، فقد كان لا يضحك قط، بل ولا يتسم، إلا في أحيان قليلة، حين يأخذه التعب، ويلهث، فتظهر أسنانه المربعة البيضاء كالسكر. كما أن الجمود المصطنع كان يشيع في كل قسماته. ولولاه لنمَّت هذه القسمات عن طيبة نفس. عيناه الصغيرتان فقط، من كل وجهه، كانتا غير اعتياديتين، بحدقتيهما الخضراوين، ورموشهما الصفر. كانت العين اليمنى أعلى قليلاً من اليسرى، والجفن على عينهما اليسرى يرتفع أقل من ارتفاع جفنه الأيمن، مما كان يضفي على نظراته تبايناً، وغرابة، ونعاساً. ولكن سحنة تيغليف، لم تخل، على أية حال، من بعض اللطافة، وكان تعبر، على الدوام تقريباً،

١- بيتشورين - هو بطل رواية «بطل زماننا» للشاعر الروسي العظيم ميخائيل ليرمنتوف (١٨١٤ - ١٨٤١). وقد صدرت هذه الرواية عام ١٨٤٠.

٢- الديسمبريون - نبلاء ثوريون (كان بينهم الكثيرون من الكتاب والشعراء، ونقاد الأدب) قاموا عام ١٨٢٥ عن وعي وتنظيم بانتفاضة ضد الحكم المطلق، ونظام القنانة. واسمهم جاء نسبة إلى الشهر الذي قاموا فيه بالانتفاضة وهو ١٤ ديسمبر (كانون الأول).

عن عدم الارتياح مع شيء من الحيرة. وكأنما كن يتتبع في داخله فكرة غير مبهجة لم يستطع قط أن يلتقطها. ومع كل ذلك لم يكن يوحي بالأنفة، وكان من الممكن اعتباره رجلاً مهاناً أكثر منه رجلاً أنوفاً. وكان يتكلم قليلاً جداً، ويتلعثم، وبصوت أبح، مكرراً كلماته دون لزوم. وهو. على الضد من معظم القدريين، لا يكثر من استخدام التعابير المزركشة، ولا يلجأ إليها إلا في الكتابة. وكان خطه خط أطفال تماماً. وكان الرؤساء يعتبرونه ضابطاً «بين بين»، ليس كثير المقدرة، ولا كثير المواظبة. وكان جنرال اللواء ذو الأصل الألماني يقول «عنده دقة، ولكن بدون عناية». وكان تيغليف مع الجنود، «بين بين»، أيضاً لا بارداً ولا حاراً. وكان يعيش حياة متواضعة، وحسب موارده. وقد تيتم من أبويه، وهو في التاسعة من العمر، فقد غرق أبوه وأمه في الربيع أثناء الفيضان لدى عبورهما نهر أوكا في معدّية. وتلقى تيغليف تعليمه في مدرسة داخلية خاصة، حيث كان يعتبر من أبلد التلاميذ وأكثرهم خنوعاً. وصار طالباً في سلاح مدفعية خيالة الحرس، بناء على رغبته الخاصة، وبتوصية من عم له، ذي جاه. واستطاع أن يجتاز الامتحان، ولو بصعوبة، في البداية كملازم ثان، ومن ثم كملازم. كانت علاقته غير طبيعية مع الضباط الآخرين. كانوا لا يحبونه، ولا يزورونه إلا نادراً، كما لم يكن يزور أحداً تقريباً. وكان وجود الغرباء يضايقه، فيصير في الحال غير طبيعي ومحرجاً... لم يكن فيه أي شيء رفاقي، وكان لا يخاطب أحداً بضمير المفرد، رفعاً للكلفة. ولكنهم كانوا يحترمونه، ولم يحترموه لخلقه أو لعقله أو لثقافته، بل لأنهم كانوا يتحسسون فيه ذلك الختم الخاص الذي يختم «القدريين» من الناس. ولم يكن أحد من لعاملين معه يتوقع أن «يترقى تيغليف وأن يتفوق بشيء» ولكن ليس من المستبعد «أن يبتدع تيغليف لنفسه لعبة غير اعتيادية» أو «ينقلب تيغليف إلى نابليون فجأة». لأن «النجم» هو الذي يتحكم هنا. وهو إنسان وُلِد في «برج السعد» مثلما يولد آخرون في برج «الآهات» أو «الدموع».

– ٣ –

حادثان دشَّنا بداية خدمته كضابط ساعداً كثيراً على ترسيخ صفة «قدري» به. وهما كالآتي:

في اليوم الأول من إعطائه رتبة ضابط - حوالي منتصف آذار - كان مع الضباط الآخرين الذين تخرجوا لتوهم، يمشي على شارع النهر في بزة الاستعراض الكاملة. وكان الربيع قد جاء مبكراً في تلك السنة. وتحطم الجليد على نهر «النيفا»، وكانت قطع الجليد الكبيرة قد زالت، ولكن كِسَر الجليد الصغيرة المتماسكة، المشبعة بالماء، ما تزال تعوم في النهر كله. وكان الضباط الشبان يتحدثون ضاحكين... وإذا بأحدهم يتوقف فجأة، فقد رأى كلباً صغيراً على سطح النهر المتحرك ببطء، على بعد حوالي عشرين خطوة من الشاطىء. كان الكلب يدور على كسرة الجليد البارزة، ويرتجف بكل جسمه، ويهر. وقال الضابط من خلال أسنانه: «سيموت». وحمل تيار الماء الكلب ببطء مروراً بأحد المهابط المقامة على طول شارع النهر. وإذا بتيغليف ينزل فجأة على هذا المهبط دون أن يتفوه بكلمة، ويقفز على الجليد الرقيق، ويقع ثم ينهض حتى يصل إلى الكلب، ويلتقطه من شعر ظهره، ويعود إلى الشاطىء سالماً سليماً، ويلقي الكلب على الرصيف. وكان الخطر الذي تعرض له تيغليف عظيماً، وعمله غير متوقع، حتى أن رفاقه وقفوا جامدين كالمصعوقين. ونادى تيغليف على عربة لتحمله إلى البيت، وكانت سترته كله مبللة، عند ذاك فقط أخذوا يتكلمون دفعة واحدة. وقال تيغليف رداً على هتافاتهم بلا مبالاة: المكتوب على الجبين لا بد أن تراه العين. وأمر الحوذي بالإقلاع.

صاح أحد الضباط:

- ولكن خذ الكلب معك للذكرى.

إلا أن تيغليف هزّ ذراعه ممتنعاً، فتبادل رفاقه النظرات في صمت واندهاش.

ووقع الحادث الثاني بعد بضعة أيام من الحادث الأول، في أمسية قمار لدى آمر الكتيبة. جلس تيغليف في زاوية، و لم ياشرك في اللعب. هتف ضابط برتبة ملازم ثان وكان يخسر ألفه الثالث من الروبلات: «آه، لو أن الجدة تقول لي مقدماً أي أوراق رابحة، مثلما في قصة بوشكين «ملكة البستوني»[1].

١- حسب شهادة بوشكين نفسه حظيت «ملكة البستوني» بنجاح عظيم: «دخلت «ملكة البستوني» في الموضة الشائعة. إن اللاعبين يقامرون على الثلاثة والسبعة والآس».

اقترب تيغليف من المنضدة بصمت، وتناول شدة الورق، وأخذ ورقة، وقال: «ستة أحمر ديناري!» وقلب الورقة، فإذا بها ستة أحمر ديناري. وقال «آس أسباتي!»، وتناول ورقة مرة أخرى، وقلبها، وإذا بها آس أسباتي. وفي المرة الثالثة قال بهمس غاضب من خلال أسنانه المصكوكة «ملك أحمر ديناري!»، وحزر للمرة الثالثة... وعلته الحمرة فجأة. والظاهر أنه هو نفسه لم يتوقع ذلك. قال آمر الكتيبة: «خدعة ممتازة! أرنا مرة أخرى». ردّ تيغليف بجفاف: «أنا لا أمارس الخدع» وخرج إلى غرفة أخرى. أنا لا أستطيع أن أفسر كيف حدث ذلك، وكيف كان يحزر أوراق اللعب من قبل، ولكنني رأيت ذلك بأم عيني. بعده حاول الكثيرون من اللاعبين الحاضرين أن يفعلوا ما فعل، ولكن أي واحد منهم لم يوفق. فأنت تستطيع أن تحزر ورقة واحدة أحياناً، ولكن من المستحيل أن تحزر ورقتين بالتتابع. بينما حرز تيغليف ثلاث ورقات! وهذا الحادث عزز مرة أخرى سمعته كقدري غامض. وبعد ذلك كثيراً ما كان يجول في خاطري، ترى ماذا سيكون من شأن هذه السمعة لو لم يوفق في حدسه للأوراق، وكيف كان سينظر هو إلى نفسه. ولكن هذا التوفيق المباغت حسم الموضوع كلياً.

- ٤ -

وبالطبع تمسك تيغليف بهذه السمعة في الحال. فقد أعطته أهمية خاصة، نكهة خاصة Cela le posait [1]، كما يقول الفرنسيون، وكانت هذه السمعة نافعة له تماماً، وهو الرجل الذي وهب عقلاً صغيراً، ومعارف هزيلة، واعتداداً هائلاً. كان اكتسابها صعباً، ولكن الحفاظ عليها لم يك يكلفه شيئاً، مجرد أن يصمت، وينكمش. ولكنني ليس بتأثير هذه السمعة صادقت تيغليف، بل ويمكن أن يقال، وأحببته. لقد أحببته أولاً، لأنني أن نفدسي كنت منكمشاً بقدر كبير، فوجدت فيه أخاً لي. وثانياً، لأنه كان رجلاً طيباً، وبسيط النفس في الحقيقة. كان يوحي لي بما يشبه الشفقة، فقد كنت أتصور، إذا تركنا جانباً قدريته المصطنعة، أن قدراً مأساوياً ينيخ عليه بالفعل، قدراً لا يعرفه هو نفسه. وطبيعي أنني لم أفصح له عن شعوري هذا.

١- أعطاه ذلك وضعاً (بالفرنسية في الأصل). - الناشر.

فإن الإيحاء بالشفقة قد يكون إهانة أسوأ بالنسبة لرجل «قدري»، من يدري؟ وكان تيغليف يشعر بميل نحوي أيضاً. كان معي يحس بطلاقة أكثر، معي كان يتكلم، بوجودي عزم أن يترك القاعدة الغريبة التي وجد نفسه عليها، أو صعدعليها بنفسه. ومن المحتمل على أية حال، أنه كان، وهو المعتد اعتداداً موجعاً ممرضاً، يعي، في قرارة نفسه، أنه لا يستطيع أن يبرر هذا الاعتداد بشيء، وأن الآخرين يمكن، ربما، أن يترفعوا عنه... أما أنا، الفتى في التاسعة عشرة، فلم أكن أضيّق عليه. والخوف من أن يقول في حضوري قولاً بليداً في غير محله، لم يكن يعصر قلبه المتحفز أبداً. بل كان أحياناً يأخذ بالثرثرة، ومن حسن حظه أن أحداً، ما عداي، لم يكن يسمع كلامه! إن سمعته كانت ستنهار. كان قليل المعرفة جداً، بل و لم يكن يقرأ شيئاً تقريباً، وكان يقتصر على التقاط النوادر والقصص المناسبة. وكان يؤمن بالهواجس، والتكهنات، والفأل، والتطير، والأيام الميمونة والمنحوسة، وسخط القدر أو ابتسامه، وباختصار يؤمن بعظمة الحياة. وكان يؤمن أيضاً بسنوات «التحول» التي ذكرها أحدهم بحضوره، والتي لا يفهم معناها جيداً. والقدريون الحقيقيون لا يحسن بهم أن يعربوا عن مثل هذه المعتقدات، بل ينبغي أن يوحوا بها للآخرين... ولكن هذه الناحية في تيغليف كانت معروفة لي فقط.

- ٥ -

أتذكر أنني ذهبت في عيد القديس إيليا، في ٢٠ تموز لأنزل في ضيافة أخي. فلم أجده. فقد أوفد لأسبوع كامل إلى وحدة أخرى و لم أرد العودة إلى بطرسبورغ. فتجولت، ومعي بندقيتي، في المستنقعات المجاورة، واصطدت شنقبين، وقضيت المساء مع تيغليف تحت ظليلة سقيفة فارغة بناها، على حد قوله، مقره الصيفي. قضينا بعض الوقت في الحديث، ومعظمه في شرب الشاي، وتدخين الغليون، وتكلمنا تارة مع صاحب البيت، وهو فنلندي متروّس، وتارة مع بائع متجول يحول حول الكتيبة، كان يبيع «البرتقان والليمون الريّان»، وهو شخص لطيف مازح كان يحسن، إلى جانب مواهبه الأخرى، العزف على القيثار، ويحدثنا عن حب بائس كان يكنه «في صباه» لابنة ساع في الشرطة. وعندما تقدم العمر بهذا الدون جوان بقميصه الاسكندراني لم يعد يعرف العواطف الفاشلة. كان ينداح أمام بوابة

سقيفتنا وادٍ عريض يعمق باستمرار. ومن بعيد كان جدول صغير يلمع ببعض المواضع فيِ الحفر المتعرجة، وفي مكان أبعد، في منحدر السماء لاحت غابات واطئة. كان الليل يقترب، وبقينا لوحدنا. ومع الليل جثم على الأرضِ بخار رطب رقيق، راح يتكاثف أكثر فأكثر، حتى صار، في الآخر، ضباباً متماسكاً وطلع القمر في السماء، ونفذ من خلال الضباب كله، وبدا وكأنما يذهبِّه بضيائه. كان كل شيء يتنقل بغرابة، ويتدثر، ويتشابك. وكان البعيد يبدو قريباً، والقريب بعيداً، والكبير صغيراً، والصغير كبيراً... وصار كل شيء وضيئاً ومبهماً. وكأننا انتقلنا إلى مملكة أسطورية، مملكة العتمة البيضاء الذهبية، والصمت العميق، والنعاس الرهيف... وكانت النجوم تلوح من الأعلى كشُريرات مفضضة غامضة! صمت كلانا. أثرّ فينا محيّا هذه الليلة السحري، فطعمنا بشيء خيالي.

- ٦ -

كان تيغليف أول مَنْ تحدث بلعثمته المعتادة، وبابتلاعه لبعض الكلمات، وتكراره، تحدث عن الهواجس... عن الأشباح. في مثل هذه الليلة بالضبط، على حد تِعبيره، رأى أحد معارفه، وهو طالب اشتغل لتوه مربياً لطفلين يتيمين، وأنزل معهما في جناح في الحديقة، رأى سبح امرأة ينحني على أسرتهما، وفي اليوم التالي تعرف على هذا الشبح في صورة رسمت لأم هذين اليتيمين لم يلحظها من قبل. وبعد ذلك زعم لي تيغليف أن أبويه قبل وفاتهما ببضعة أيام خيل إليهما أنهما يسمعان ضجيج ماء، وأن جده تخلص من الموت في معركة بورودينو لأنه رأى حصوة مدورة بسيطة ملقاة على الأرض فانحنى ليلتقطها، وفي تلك اللحظة طارت من فوق رأسه قنبلة مدفع، وكسرت الريشة الطويلة السوداء التي تزين قبعته العسكرية. ووعدني تيغليف بأن يريني الحصوة التي أنقذت جده، وقد وضعها في علبة من تلك التي تدلّى من العنق. ثم تحدث عن مهمة كل إنسان، وعن مهمته بشكل خاص، مضيفاً أنه يؤمن به حتى الآن، وإنْ تخامره شكوك في ذلك، يوماً ما، فإنه يستطيع أن يصفيها، ويصفي حيته معها، لأن الحياة آنذاك تفقد أي معن. وقال، وهو ينظر إليَّ من مؤخر عينه: «لعلك تظن أنني لا أملك الشجاعة الكافية لفعل ذلك؟ أنت لا تعرفني... أن لي إرادة حديدية!».

قلت في سري: «كلام لطيف».

سهم تيغليف، وأرسل زفرة عميقة، وأنزل الشُبُق من يده، وأعلن لي أن هذا اليوم مهم جداً له.

– عيد إيليا اليوم، هو عيد القديس شفيعي... وهو... هو وقت صعب عليَّ دائماً.

لم أرد عليه بشيء، سوى أنني نظرت إليه، وهو جالس أمامي، محنياً، فاتراً، يثبت في الأرض بصره الناعس الكئيب. ومضى يقول:

– اليوم قالت لي متسولة عجوز (كان تيغليف لا يترك متسولاً يفوت دون أن يعطيه صدقة) أنها ستصلي على روحي... أليس هذا غريباً حقاً؟

وفكرت مع نفسي مرة أخرى: «أي حاجة لهذا الرجل في الاهتمام بنفسه إلى هذا الحد!». وعليّ أن أضيف، على أية حال، أنني أخذت ألاحظ، في الأونة الأخيرة، مسحة غير اعتيادية من الاهتمام والقلق على وجه تيغليف. و لم تكن هذه السوداوية «قدرية»، فقد كان هناك، بالفعل، شيء ينغصه ويعذبه. وفي هذه المرة أذهلني طابع الجزع المرتسم على قسماته كلها. فهل بدأت تخامره تلك الشكوك التي حدثني عنها؟ وكان رفاق تيغليف قد قالوا لي إنه قبل فترة وجيزة سلّم للقيادة مشروعاً لإعادة تكوين «قاعدة المدفع»، وقد أعيد له هذا المشروع مع «كتابة» أي مع تأنيب. و لم أشك، وأنا أعرف طبعه، في أن مثل هذا الاستخفاف من جانب القيادة قد أشعره بالإهانة العميقة... ولكن ما تخيلته في تيغليف كان أقرب إلى الحزن، وله طابع شخصي أكثر.

– على أية حال صار الجو رطباً – قال ذلك فجأة، وهزّ كتفيه – لندخل إلى الكوخ، ثم أن أوان النوم قد حان.

وكانت له عادة هزّ كتفيه، وأمالة رأسه من جانب إلى جانب، وكأن ربطة عنقه صارت تضايقه، وكان إلى جانب ذلك يمسك حنجرته بيده اليمنى. وكان طبع تيغليف يظهر – أو على الأقل هذا ما كان يبدو لي – في هذه الحركة العصبية الحزينة. وكان ضيقاً بالعالم أيضاً.

عدنا إلى الكوخ، واستلقى كل واحد على تخت، هو في الركن الماذي للنافذة، وأنا في الجانب المقابل، على التبن المفروش.

تقلب تيغليف وقتاً طويلاً على تخته، وأنا أيضاً لم يراودني النوم. فهل أثارت حكاياته أعصابي، أو أن هذه الليلة الغريبة أججت الدم في عروقي؟ لا أعرف، ولكنني لم أستطع. أن أغفو. بل اختفت لديّ أية رغبة في النوم، في آخر الأمر، فاستلقيت مفتوح العينين أفكر، أفكر بمجاهدة، في كل ما يخطر على البال من شتى التوافه، كما يحدث دائماً أثناء الأرق. مددت ذراعي، وأنا أنقلب من جنب إلى جنب... فاصطدمت أصبعي بإحدى روافد الحائط. وصدر صوت خفيف، ولكنه مدوي، وكالممطوط... فلا بد أن أصبعي وقعت على مكان أجوف.

أعدت النقرة بإصبعي.. عن قصد، هذه المرة. وتكرر الصوت ونقرت مرة أخرى... وفجأة رفع تيغليف رأسه قليلاً، وقال:

- ريدل. هل تسمع من يدق على النافذة.

تظاهرت بأنني نائم. راودتني رغب مفاجئة في أن أمازح رفيقي القدري. فإن النوم لا يطاوعني على أية حال.

ألقى رأسه على الوسادة. انتظرت قليلاً، ونقرت مرة أخرى ثلاث نقرات متتالية.

رفع تيغليف جسمه ثانية، وراح يتسمع.

نقرت مرة أخرى. كنت أدير له وجهي، ولكنه لم يكن يستطيع رؤية يدي... ألقيتها إلى الوراء، تحت البطانية.

صاح تيغليف:

- ريدل!

لم أرد عليه. فكرر بصوت عال:

- ريدل! ريدل!

- ها؟ ماذا؟

قلت متظاهراً بأنني بين النوم واليقظة.

- أما تزال لا تسمع مَنْ يدق على النافذة. لعلّ أحداً يطلب الدخول.

همهمت:

- عابر سبيل...

- يجب أن ندعه يدخل، أو نعرف من هو؟

لم أجب، وتظاهرت بالنوم من جديد.

ومضت عدة دقائق.. وأعدت الكرة...

«توك.. تعوك.. توك!».

انتصب تيغليف في الحال، وأخذ يتسمع.

«توك... توك... توك! توك... توك... توك!».

كنت أستطيع أن أرى كل حركاته جيداً، من خلال جفنيَّ نصف المغلقين، وفي ضوء الليل المائل إلى بياض. كان يدير رأسه إلى النافذة تارة، وإلى الباب مرة أخرى، وبالفعل كان من الصعب أن يتبين المرء مصدر الصوت. كان الصوت يبدو وكأنه يطوف في الحجرة، وينزلق بمحاذاة الجدران. لقد وقعت مصادفة على عِرقٍ صوتي.

«توك... توك... توك!».

- ريدل! - صاح تيغليف أخيراً - ريدل! ريدل!

قلت متثائباً:

- ماذا؟

- معقول أنك لا تسمع شيئاً؟ شخص يدق.

- طيب، دعه يدق!

أجبت، وتظاهرت ثانية بالنوم... بل وشخرت.

هدأ تيغليف.

«توك... توك... توك!».

صاح تيغليف:

- مَنْ هناك؟ ادخل.

وطبيعي أن أحداً لم يجب.

«توك... توك... توك!»

قفز تيغليف من سريره، وفتح النافذة، وأخرج رأسه منها، وسأل بصوت وحشي: «مَنْ هناك؟ مَنْ الطارق؟» ثم فتح الباب، وكرر سؤاله. ومن بعيد صهل حصان، ولا صوت آخر.

عاد إلى فراشه...

«توك... توك... توك!».

انقلب تيغليف فوراً، وجلس.

«توك.. توك... توك!»

لبس تيغليف حذاءه بخفة، وألقى معطفه على كتفيه وأنزل السيف من الحائط، وخرج من الكوخ. سمعته يدور حوله مرتين، ويردد: «مَنْ هناك؟ مَنْ يسير هناك؟ مَنْ الطارق؟» ثم صمت فجأة، ووقف في مكان واحد في الشارع، غير بعيد عن الركن الذي أرقد فيه، وعاد إلى الكوخ دون أن يقول كلمة أخرى، واستلقى دون أن يخلع ملابسه.

وبدأت من جديد: «توك... تك... توك! توك... توك... توك!».

إلا أن تيغليف لم يتحرك، و لم يسأل: من الطارق. بل أسند رأسه على يده.

ولما رأيت أن حيلتي لم تعد تؤثر، تظاهرت بعد بضع دقائق بأنني آخذت أفيق، ونظرت إلى تيغليف، وأتخذت مظهر المستغرب، وسألت:

- هل طلعت؟

قال بعدم أكتراث:

- نعم.

- وبقيت تسمع الطرق؟

- نعم.

- و لم تلتق بأحد؟

- لا.

- وتوقف الطرق؟

– لا أدري. سواء لدي الآن.

– الآن؟ و لمَ الآن بالذات؟

لم يجب تيغليف.

شعرت بشيء من الخجل، وبشيء من الأسى عليه. إلا أنني لم أعزم على الاعتراف بمزاجي. قلت:

– هل تعرف؟ أعتقد أن كل ذلك محض خيال منك.

قطب تيغليف حاجبيه.

– آ! تظن ذلك!

– أنت تقول أنك سمعت طرقاً...

قاطعني قائلاً:

– لم أسمع طرقاً فقط.

– وأي شيء آخر؟

تمايل إلى الأمام، وغضّ شفتيه. والظاهر أنه كان متردداً... وأخيراً قال بصوت خافت:

– سمعت مَنْ يناديني!

وأشاح وجهه.

– مَنْ يناديك؟ ومَنْ المنادي؟

– واحدة... – وبقي تيغليف مشيحاً وجهه – مخلوق كنت أتصور لحد الآن أنه قد مات... ولكنني الآن أعرف ذلك مؤكداً.

هتفت:

– احلف لك، يا إيليا ستيبانيتش، أن ذلك محض خيال!

كرر:

– خيال؟ أتريد أن تتأكد عملياً؟

– أريد.

– طيب، لنخرج إلى الشارع.

لبست ثيابي بسرعة، وخرجت من الكوخ مع تيغليف. كانت جهة الشارع المقابلة للكوخ خالية من البيوت، يمتد فيها سياج من الغصون المضفورة واطيء محطم في مواضع منه، يبدأ وراءه منحدر يؤدي إلى الوادي. وكان الضباب يغلف كل الأشياء، كالسابق، ولا شيء يرى تقريباً، بعد مسافة عشرين خطوة أو نحوها. سرت وتيغليف إلى السياج وتوقفنا.

- هنا - قال ذاك، وأطرق برأسه - قف، ولا تتكلم، وتسمَّع! - وارهفت سمعي مثله، و لم أسمع غير طنين الليل المعتاد المألوف في كل مكان ضعيفاً إلى أقصى حد، لم أسمع غير أنفاس الليل. وقفنا بضع دقائق، واحدنا ينظر إلى الآخر أحياناً، وتهيأنا للسير أبعد...

- «ايليوشا!»[1] تراءى لي هذا الهمس قادماً من وراء السياج.

نظرت إلى تيغليف، ولكن بدا لي أنه لم يسمع شيئاً، وظل مطرق الرأس كما هو.

«ايليوشا.. يا ايليوشا...» تردد أوضح من ذي قبل، حتى لتستطيع الأذن أن تتبين أنه صوت امرأة.

جفلنا معاً وحملق أحدنا بالآخر.

سألني تيغليف همساً:

- ها؟ والآن لا يخامرك شك؟

- انتظر - أجبته بنفس الصوت الخافت - هذا لا يثبت شيئاً. يجب أن نتأكد فيما إذا كان هناك أحد. ربما أحد المازحين.

وقفزت عبر السياج، وسرت باتجاه مصدر الصوت، على حسب ظني.

وأحسست تحت قدمي بالأرض الناعمة الهشة. كانت أشرطة الأحواض الوثيلة تتلاشى في الضباب. لقد كنت في حديقة خضروات. ولكن لم يتحرك شيء حولي، ولا أمامي، وبدا كل شيء مستغرقاً في غيبوبة النوم. خطوت بضع خطوات أخر.

١- صيغة التحبب من إيليا. - المترجم.

صحت وليس اسوأ مما صاح تيغليف:

- مَنْ هناك!

بررر! - طار سمّن مذعور من بين قدمي تماماً، ومرق مبتعداً كالطلقة. وجدت نفسي اترنح... يا للحماقة!

التفت إلى الوراء. لاح لي تيغليف في نفس البقعة التي تركته فيها. رحت اقترب منه. قال:

- عبثاً نداؤك. وصل هذا الصوت إلينا.. إليّ.. قادماً من بعيد...

ومرر يده على وجهه. وسار عبر الشارع عائداً إلى البيت بخطوات هادئة. ولكنني لم أرد أن استسلم بهذه السرعة، فعدت إلى حديقة الخضروات. ما كان من الممكن أن يخامرني الشك في أن أحداً بالفعل نادى «ايليوشا» ثلاث مرات. وكان في هذا النداء شيء شاك غامض لا بد أن اعترف بذلك. ولكن مَنْ يدري، فلعل كل ذلك بدا غامضاً في الظاهر، إلا أن من الممكن تفسيره عملياً، مثل ذلك الطرق الذي أقلق تيغليف؟

اتجهت بمحاذاة السياج متوقفاً من حين لآخر، وناظراً فيما حولي. قرب السياج تماماً وعلى مسافة غير بعيدة من كوخنا نمت شجرة صفصاف عجوز ملتفة الأغصان، كانت تبرز كبقعة سوداء كبيرة وسط بياض الضباب الشامل، ذلك البياض الذي يعمي ويغشي البصر أكثر من الظلام. فجأة خيل إليّ أن شيئاً حياً يتحرك على الأرض قرب الصفصافة. اندفعت إلى الأمام هاتفاً: «قف! من هذا؟» وتردد وقع خطوات خفيفة كخطوات أرنب. ومرق من أمامي بسرعة شبح مطوي الجذع لم استطع أن اتبين أهو شبح امرأة أم رجل... أردت أن أمسك به، ولكن لم استطع، تعثرت، ووقعت، ولذعا لقراص وجهي. ولما رفعت جسمي مستنداً على الأرض أحسست بشيء صلب تحت يدي. كان ذلك مشطاً نحاسياً محفوراً مربوطاً بحبل صغير، تشبه تلك الأمشاط التي يحملها فلاحونا تحت أحزمتهم.

صار الاستمرار في بحثي غير مجد، فرجعت إلى الكوخ والمشط في يدي، ووجنتاي ملذوعتان بالقراص.

وجدت تيغليف جالساً على التخت. وعلى منضدة أمامه كانت شمعة مشتعلة، وكان يكتب شيئاً في ألبوم صغير كان يحمله مع باستمرار. ولما رآني أسرع فدّس الالبوم في جيبه، وأخذ يحشو غليونه. قلت:

- هذه هي، يا عزيزي، الغنيمة التي عدت بها من تجوالي - وأريته المشط، وحكيت له ما وقع لي بالقرب من الصفصافة واضفت - ربما أرعبت أحد اللصوص فجعلته يفر. هل سمعت بأن حصاناً قد سرق من جارنا يوم أمس؟

ابتسم تيغليف ابتسامة باردة، واشعل غليونه. جلست بالقرب منه. وقلت:

- أما تزال، يا إيليا ستيبانيتش، على اعتقادك السابق بن الصوت الذي سمعناه قادم من تلك الأقطار المجهولة...

أوقفني بحركة آمرة من يده. وقال:

- ريدل! مزاجي لا يقبل المزاح، فأرجو أن لا تمزح أيضاً.

وبالفعل لم يكن تيغليف في مزاج يقبل المزاح. كان وجهه قد تغير، فبدا أكثر شحوباً وأقوى تعبيراً وأطول. وكانت عيناه الغريبتان «المختلفتان» تحومان بهدوء. وعاد يقول:

- لم أكن اعتقد، أنني سأبلغ يوماً ما إنساناً.. آخر بما ستسمعه الآن وكان يجب أن يموت... نعم، يموت في صدري. ولكن هناك ضرورة لذلك، على ما يبدو، كما أنني لا أملك خياراً آخر. القدر! فاسمع.

وحكى لي هذه القصة.

كنت قد قلت لكم، أيها السادة، أنه لم يكن يحسن أن يقص. ولكن ما بهرني في تلك الليلة ليس فقط عدم قدرته على نقل الأحداث نفسها التي حدثت له، بل ورنة صوته، ونظراته، والحركات التي كان يصدرها بأصابعه ويديه، وباختصار كان كل شيء فيه يبدو غير طبيعي، غير ضروري، زائفاً في المحصلة الأخيرة. كنت آنذاك في مقتبل الصبا، وبلا خبرة، ولا أعرف أن عادة التعبير بتنميق، وكذب التنغيم والطرائق قد تتغلغل في الإنسان إلى

حد أنه لا يعود قادراً على التخلي عنها. أنها لعنة من نوع خاص. وفيما بعد التقيت مصادفة بسيدة راحت تحدثني بلغة مزوّقة وبإيماءات مسرحية، وبهزة ميلودرامية من الرأس، وتقلّب الحدقتين عن الأثر الذي تركته فيها وفاة ابنها، عن مصابها «الذي لا يسبر»، عن الخوف من فقدانها لعقلها، حتى رحت أفكر في نفسي: «كم تكذب هذه السيدة وتتظاهر! إنها لم تكن تحب ابنها على الإطلاق!» وبعد أسبوع علمت أن هذه المرأة المسكينة قد فقدت عقلها، بالفعل. ومنذ ذلك الحين صرت أكثر حذراً في أصدار الأحكام، وأقل كثيراً في الاعتماد على انطباعاتي الخاصة.

- ١٠ -

القصة التي حكاها لي تيغليف، وهي كالآتي باختصار. كان له في بطرسبورغ، إلى جانب العم ذي الوظيفة الكبيرة، عمة ليست من ذوي المقام الرفيع، ولكنها صاحبة ثروة. وكانت بلا أولاد، فتبنّت فتاة يتيمة من الطبقة المتوسطة، ووفّرت لها تربية معتبرة، وعاملتها كابنة. وكانت هذه تدعى ماشا، وكان تيغليف يراها كل يوم تقريباً، وانتهى الأمر إلى أن يحب أحدهما الآخر، واستجابت ماشا له. وانكشف هذا فغضبت عمة تيغليف غضباً شديداً، وطردت الفتاة المسكينة من بيتها شر طردة، وانتقلت إلى موسكو، واتخذت لنفسها سيدة من النبيلات كربيبة ووريثة. وعادت ماشا إلى أقربائها السابقين، الفقراء والسكيرين، ولقيت مصيراً مريراً. وعد تيغليف بأن يتزوجها، و لم يفِ بوعده. وفي آخر لقاء له معها اضطر إلى أن يصارحها. كانت تريد أن تعرف الحقيقة، وحصلت عليها. قالت: «طيب الآن أعرف ما بقي عليّ أن أفعل، إذا كنت لا تريد أن أكون زوجتك». ومضى أكثر من أسبوعين منذ اللقاء الأخير.

أضاف تيغليف:

- و لم أكن أشك لحظة بمعنى كلامها الأخير. كنت واثقاً من أنها ستقضي على نفسها و... وذاك كان صوتها، وأنها كانت تدعوني إلى هناك.. للحاق بها... وقد عرفت صوتها... نعم! لا مفر!

سألته:

– ولكن لماذا لم تتزوجها، يا ايليا ستيبانيتش؟ لم تعد تحبها؟
– كلا. أنا لحد الآن أحبها من كل قلبي.

وهنا، يا سادة، ثبتّ بصري في تيغليف. تذكرت صاحباً لي آخر، رجلاً نابهاً جداً، كانت له زوجة دميمة، لا عقل لها، ولا مال، فكان شقياً جداً في زواجه، وقد سئل بحضوري: ولماذا تزوجها إذن؟ عن حب، على الأرجح؟ أجاب: «ليس عن حب إطلاقً! بل هكذا!» بينما تيغليف يحب الفتاة من كل قلبه ولا يتزوجها. فأي شيء هذا؟ هكذا أيضاً؟!

عدت أسأله:

– ولماذا لا تزوج؟

تحركت عيناه الناعستان الغريبتان لتشملا المنضدة بنظرتهما. وقال متلعثماً:

– هذا... لا يمكن التعبير عنه... بكلمات قليلة... كانت هناك أسباب... ثم أنها كانت من الطبقة المتوسطة... طيب، وكان يجب أن آخذ العم بنظر الاعتبار.

صحت:

– عمك؟ ولكن ما علاقة عمك في الموضوع، وأنت لا تراه إلا مرة واحدة في رأس السنة، حين تذهب إليه لتهنئته؟ أتعوّل على ثروته؟ ولكن عدد أولاده يصل إلى دزينة!

كنت أتحدث بحماس... وامتعض تيغليف، واحمرّ... لم تنتشر الحمرة في كل وجهه، بل في نقاط... لست أبرر فعلتي..

– أرجوك، بلا مواعظ. على العموم، لست أبرر فعلتي.. حطمت حياتها. والآن يجب أن أؤدي الدين...

وأطرق برأسه، وصمت. كما أنني لم أجد شيئاً أقوله.

– ١١ –

وبقينا جالسين على هذا النحو زهاء ربع ساعة. كان ينظر في ناحية، وأنا انظر إليه، فلاحظت أن الشعر فوق جبينه شبّ بشكل خاص، التفت

خصلات، وذلك، حسب رأي طبيب عسكري عالج جرحى كثيرين، يدل دائماً على وجود حرارة قوية جافة في الدماغ... ومرة أخرى جال في خاطري أن يد القدر تثقل بالفعل على هذا الإنسان، ولس جزافاً أن رفاقه وجدوا فيه شيئاً قدرياً. وفي ذات الوقت أدنته في دخيلة نفسي. وفكرت في سري: «من الطبقة المتوسطة! وأي أرستقراطي أنت؟».

– لعلك تدينني، يا ريدل – قال فجأة، وكأنه حدس ما جال في سري – أنا نفسي... أشعر بتعاسة كبيرة. ولكن ما العمل؟ ما العمل؟

وأسند ذقنه على كفه، وأخذ يعض أظافره العريضة المسطحة في أطراف أصابعه القصيرة الحمراء، القوية كالحديد.

– أنا، يا ايليا ستيبانيتش أرى من الواجب أن تتأكد أولاً هل أن هواجسك صادقة حقاً... قد تكون محبوبتك بخير الآن (ودار في ذهني: «هل أخبره بسبب الطرق الحقيقي؟ لا، فيما بعد»).

قال تيغليف:

– لم تكتب لي مرة واحدة، منذ أن وصلنا لى المعسكر.

– هذا لايثبت شيئاً، يا ايليا ستيبانيتش.

هزّ تيغليف ذراعه:

– لا! أعتقد أنها فارقت الحياة. وكانت تناديني...

وفجأة أدار رأسه نحو النافذة.

– شخص يطرق مرة أخرى!

ضحكت رغم إرادتي:

– الآن، أرجو المعذرة، يا إيليا ستيبانيتش. إنها أعصابك في هذه المرة. انظر. الدنيا تتنور. وبعد عشر دقائق ستطلع الشمس. الساعة تجاوزت الثالثة الآن، والأطياف لا تعمل في النهار.

ألقى تيغليف عليّ نظرة كئيبة، وقال من خلل أسنانه: «طابت أوقاتك» واستلقى على التخت، وأدار لي ظهره.

واستلقيت أنا أيضاً. أتذكر أنني فكرت، قبل أن أغفو، لأي شيء يلمح

تيغليف دائماً إلى نيته في... القضاء على حياته! أي هراء هذا! ما هذه النغمة! لم يرد أن يتزوج... تركها... والآن يريد أن يقتل نفسه! بلا أي معنى! ضروري أن يتباهى!

وبهذه الأفكار غرقت في نوم عميق، وعندما فتحت عيني كانت الشمس تقف عالياً في السماء. و لم يكن تيغليف في الكوخ...

ذهب إلى المدينة، حسب ما قال الخادم.

- ١٢ -

قضيت يوماً متعباً جداً ومضجراً. لم يعد تيغليف لا وقت الغداء، ولا عند العشاء. و لم أكن أتوقع عودة أخي. وعند المساء انتشر، من جديد، ضباب كثيف، أشد كثافة من ضباب الأمس. استلقيت للنوم في وقت مبكر جداً. وأيقظني طرق تحت النافذة.

والآن جاء دوري وجفل!

تكرر الطرق. وبشكل ملح وواضح حتى لم يكن في الإمكان الشك في حقيقته... نهضت، وفتحت النافذة، ورأيت تيغليف. كان واقفاً بلا حراك ملفوفاً بمعطفه العسكري، مسرحاً قبعته على عينيه.

هتفت:

- أهذا أنت، يا ايليا ستيبانيتش؟ كنا في انتظارك. ادخل، أم أن الباب مغلق؟

هزّ تيغليف رأسه بالنفي. وقال بصوت كامد:

- لا أنوي الدخول. أردت أن أرجوك فقط أن تعطي هذه الرسالة إلى آمر الكتيبة في الغد.

ومدّ لي ظرفاً كبيراً مختوماً بخمسة أختام. استغربت، إلا أنني تناولت الظرف بطريقة آلية. فابتعد تيغليف فوراً إلى منتصف الشارع. قلت:

- انتظر، انتظر. إلى أين ذاهب؟ ألم تصل الآن فقط؟ وما هذه الرسالة؟

- أتعدني بإيصالها إلى العنوان؟ - قال تيغليف، وتراجع مرة أخرى بضع خطوات. وغشي الضباب على معالم شخصه - هل تعدني؟

- أعدك... ولكن أولاً...

وابتعد تيغليف أكثر، وصار بقعة داكنة مستطيلة. وترامى صوته:

- وداعاً، وداعاً، يا ريدل، ولا تذكرني بالسوء... ولا تنس سيميون...

وتلاشت البقعة نفسها.

وكان ذلك أكثر مما يحتمل. قلت لنفسي: «أوه، يا منمق العبارات اللعين! تحتاج دائماً إلى الضرب على وتر حساس!» إلا أنني أحسست بالرهبة، وأطبق على صدري رعب لا إرادي. ألقيت معطفي عليّ، وركضت خارجاً إلى الشارع.

- ١٣ -

ولكن إلى أين أذهب؟ احاط بي الضباب من كل جانب. كان من الممكن النظر من خلاله لخمس أو ست خطوات، ولكنه إلى أبعد من ذلك كان يقف كالجدار، رخواً، أبيض، كالقطن. سرت يميناً في شارع القرية الصغيرة حيث كان ينتهي، وكان كوخنا مجاوراً لطرفها، وبعده يبدأ حقل عارٍ إلا من أجمات تنمو هنا وهناك. ووراء الحقل، على بعد ربع فرسخ من القرية يوجد حرش من أشجار البتولا، يجري خلاله نفس الجدول الذي كان يحدق بالقرية إلى الأسفل. وكنت أعرف ذلك كله جيداً، لأنني رأيت كل ذلك نهاراً، ولعدة مرات، والآن لم أر شئاً، سو أنني استطعت أن أحدس من كثافة الضباب، وأبيضاضه أين كانت الأرض تهبط، وأين مجرى الجدول. كان القمر يطل من السماء مثل بقعة شاحبة، ولكن ضوءه لم يكن قادراً، كما في الليلة الماضية، على اختراق كثافة الضباب الداخنة، فكان يتدلى كظُلّة عريضة مغبّشة. طلعت إلى الحقل، وارهفت السمع... ولم يلتقط سمعي أي صوت، سوى تنادي طيور الشنقب.

صحت:

- تيغليف! ايليا ستيبانيتش! تيغليف!

تلاشى صوتي حولي بلا جواب. فكأن الضباب نفسه لم يدعه ينفذ إلى أبعد من ذلك.

كررت: تيغليف!

ولم يرد أحد.

سرت بلا هدى. اصطدمت بالسياج مرة أو مرتين، وكدت في مرة ثالثة أقع في ساقية، وكدت أتعثر بحصان لأحد الفلاحين مطروح على الأرض. صحت:

- تيغليف! تيغليف!

وفجأة سمعت إلى الخلف مني، ومن أقرب مسافة صوتاً خافتاً يقول:

- طيب، هذا أنا... ماذا تريد مني؟

التفت بسرعة...

كان تيغليف واقفاً أمامي، مسبل الذراعين، حاسر الرأس من قبعته العسكرية. كان وجهه شاحباً. إلا أن عينيه بدتا حيويتين وأوسع مما في العادة... كان يتنفس تنفسً ممدوداً من شفتيه المنفرجتين.

- حمداً لله!.. - صحت في غمرة الفرح، وأمسكت بكلتا يديه - حمداً لله! لقد يئست من العثور عليك. أليس عيباً عليك أن تفزعني هذا الفزع؟ إيليا ستيبانيتش، رحماك!

كرر تيغليف يقول:

- ماذا تريد مني؟

- أريد... أريد أولاً أن تعود معي إلى البيت. وثانياً، أريد، أطالب، أطالبك كصديق بأن توضح لي على الفور ما تعني تصرفاتك هذه، وتلك الرسالة إلى العقيد؟ هل حدث لك في بطرسبورغ شيء غير متوقع؟

أجاب تيغليف، وهو ما يزال يلازم مكانه:

- في بطرسبورغ، وجدت ما كنت أتوقعه بالذات.

- يعني... تريد أن تقول... صاحبتك... ماشا تلك...

- قتلت نفسها - أكمل تيغليف مسرعاً، في شيء من الغيظ - دُفنت قبل يومين، ولم تترك لي حتى رسالة. سممت نفسها.

نطق تيغليف بهذه الكلمات المريعة بسرعة، وهو على وقفته الجامدة، كالمتحجر.

نشرت ذراعي في حيرة.

معقول؟ يا لها من مصيبة! هاجسك تحقق... هذا شيء فظيع!

وسكت بارتباك. صالب تيغليف ذراعيه بهدوء وبما يشبه المهابة. قلت:

- على أي حال. لماذا نحن واقفان هنا؟ لنذهب إلى البيت.

قال تيغليف:

- لنذهب. ولكن كيف سنجد طريقنا في هذا الضباب!

- في نوافذ كوخنا ضوء. وسنتجه نحو مصدر الضوء. لنذهب.

قال تيغليف:

- سر في المقدمة. وأنا وراءك.

وسرنا. مشينا نحو خمس دقائق، ولم يظهر ضوؤنا الهادي. وأخيراً لاح إلى الأمام كنقطتين حمراوين. كان تيغليف يسير ورائي متئد الخطى. وكنت شديد الرغبة في الوصول إلى البيت بأسرع وقت ممكن، لأعرف منه كل تفاصيل رحلته التعيسة إلى بطرسبورغ. كنت مذهولاً بما أخبرني به، وفي نوبة من الندم، يداخلني شيء من الرعب الخرافي، أعترفت له، قبل أن أبلغ كوخنا بأن الطرق الغامض الذي سمعه البارحة كان من صنعي... فكيف انقلبت هذه المزحة هذا المنقلب المأساوي!

اكتفى تيغليف بأن قال، لا علاقة لي بذلك، وأن يدي كانت منساقة بشيء آخر، وهذا يبرهن فقط على أنني قليل معرفة به. كان صوته الهادىء والموزون بشك غريب يرن في أذني تماماً.

وأضاف:

- ولكنك ستعرفني. لقد رأيت كيف ابتسمت البارحة، حين ذكرت قوة الإرادة. ستعرفني، وتتذكر كلامي.

طلع كوخ القرية الأول من الضباب أمامنا عائماً مثل وحش خرافي قاتم... وها ه الكوخ الثاني، كوخنا يبرز أيضاً، وأخذ كلبي ينبح، ومن المحتمل أنه عرفني.

طرقت على النافذة. وصحت على خادم تيغليف:

- سيميون! آي، سيميون! افتح لنا باب الحديقة بسرعة.

أصدر الباب صوتاً، وانفتح، وعبر سيميون العتبة.

- تفضل، ايليا ستيبانيتش.

قلت ذلك، والتفت.

ولكن ايليا ستيبانيتش لم يعد ورائي. اختفى وكأن الأرض انشقت وابتلعته.

دخلت الكوخ كالمعتوه.

- ١٤ -

تحول الانزعاج من تيغليف، ومن نفسي، إلى ذهول استولى عليّ بادىء ذي بدء. صحت بسيميون:

- سيدك مجنون! مجنون تماماً! خطف رجله إلى بطرسبورغ، ثم عاد، وها هو يحوم بلا غاية! جئت به، وقدته إلى البوابة تماماً، وفجأة لا وجود له! اختفى من جديد! في مثل هذه الليلة ولا يستقر في البيت! أهذا وقت للتمشي!

وأنّبت نفسي في سري: «ولكن لماذا تركت يده!».

كان سيميون ينظر إليّ صامتاً، وكأنه يريد أن يقول شيئاً ولكن راوح في مكانه قليلاً، على عادة خدم ذلك الزمان، لو لم يقل شيئاً.

سألته بحدة:

- في أي ساعة ذهب إلى المدينة؟

- في الساعة السادسة صباحاً.

- وهل كان يبدو مشغول البال مهموماً؟

أطرق سيميون ببصره. وقال:

- سيدنا مبهم، ومَنْ يستطيع أن يفهمه؟ تهيأ للسفر إلى المدينة، وأمر بأن تقدم له بزته الجديدة، وتجعد.

- كيف تجعّد؟

- جعد شعره. دّبرت له مكواة لتجعيد الشعر.

وأعترف أنني لم أتوقع ذلك. سألت سيميون:

- هل تعرف سيدة تدعى ماشا، صديقة ايليا ستيبانتش؟

- وكيف لا نعرفها؟ ماريا انيمبوديستوفنا اسمها الكامل، سيدة طيبة.

- كان سيدك يحب ماريا هذه... طيب، وبعد؟

تنهد سيميون.

- بسبب هذه السيدة نفسها سيهلك ايليا ستيبانيتش، لأنه يحبها حباً شديداً، بينما هو لا يريد أن يتزوجها، ويأسف على تركها أيضاً. من خور العزم هذا، بينما هو يحبها كثيراً.

سألت مستفسراً:

- وهل هي جميلة؟

اتخذ سيميون سيماء الجد.

- السادة يحبون هذا الصنف.

- وأنت، حسب ذوقك؟

- لا تناسبنا البتة.

- ولماذا؟

- جسمها نحيف جداً.

أخذت أقول له:

- هل تظن أن ايليا ستيبانيتش سيبقى حياً بعدها، إذا كانت قد فارقت الحياة؟

تنهد سيميون ثانية.

- لا نجسر على أن نقول ذلك. هذا أمر يتعلق بالسادة... ولكن سيدنا مبهم!

تناولت من المنضدة الرسالة الكبيرة والسميكة نوعاً ما، تلك التي

أعطانيها تيغليف وقلبتها في يدي.. كان العنوان باسم «صاحب المعالي السيد آمر الكتيبة العقيد صاحب الاوسمة» مع ذكر اسمه واسم العائلة مكتوباً بوضوح شديد وعناية. وفي الركن العلوي من الظرف كلمة «ضروري» تحتها خطان.. قلت:

– اسمع، يا سيميون. أنا خائف على سيدك. أظنه يضمر في رأسه أفكاراً غير سليمة. ويجب العثور عليه لا محالة.

أجاب سيميون:

– سمعاً!

– في الحقيقة يوجد في الخارج ضباب لا يدعك تبصر شيئاً من بعد ذراعين. ولكن لا يهم، يجب أن نحاول. سنأخذ مصباحاً، ونشعل شمعة في كل نافذة، للاحتياط.

– سمعاً!

– كرر سيميون، واشغل المصباح والشموع، واتخذنا طريقنا.

– ١٥ –

يستحيل عليّ أن أصف كيف تُهت مع سيميون، وكيف تشربكنا! لم يستطع المصباحان أن يسعفانا في شيء، ولم يزيحا ولو قليلاً ما كان يحيط بنا من عتمة بيضاء وضاحة تقريباً. أضاع أحدنا الآخر عدة مرات، رغم أن أحدنا كان يهتف للآخر، ونصيح «هوهوه!» وبين الفينة والفينة ننادي. أنا أنادي «تيغليف، إيليا ستيبانيتش!» وسيميون: «يا سيد تيغليف! يا صاحب النبلة!». وقد سدّ الضباب علينا مسالكنا، حتى كنا نطوف، وكأننا في حلم. وسرعان ما بُح صوتانا كلينا، فقد نفذت الرطوبة إلى صدرينا. واستطعنا بطريقة من الطرق، وبفضل الشموع في النوافذ أن نجد أنفسنا عند الكوخ. ولم يسفر بحثنا المشترك عن شيء، بل مجرد أن أحدنا كان يعرقل الآخر، ولهذا قررنا أن نترك التفكير في أن نكون معاً، ويذهب كل واحد في طريقه. اتجه سيميون يساراً، واتجهت أنا يميناً، وبعد قليل لم أعد اسمع صوته. وخيل إليّ أن الضباب نفذ حتى داخل رأسي، وتجولت كمأخوذ لا افتأ أصيح: «تيغليف! تيغليف!».

سمعت الجواب فجأة.

يا رب الأرباب! ما أشد فرحتي! وكيف اندفعت إلى حيث ترامى الصوت نحوي.. لاح شبح إنسان أمامي... اتجهت نحوه... وأخيراً!

ولكن بدلاً من تيغليف رأيت أمامي ضابطاً آخر من نفس الكتيبة يدعى تيليبنيف. سألته:

- أنت الذي رددت عليّ؟

فسألني بدوره:

- أنت الذي ناديتني؟

- لا، بل ناديت تيغليف.

- تيغليف؟ التقيت به قبل لحظة أية ليلة بلهاء! لا تستطيع أن تهتدي فيها إلى بيتك.

- هل رأيت تيغليف؟ إلى أين كان ذاهباً؟

- يبدو لي إلى هناك - وأشار الضابط بيده، في الهواء - ولكن الآن لا شيء يُفهم. فمثلاً هل تعرف أين تقع القرية؟ والانقاذ في لو أن كلباً ينبح. ليلة غاية في البلاهة! اسمح لي أن أدخن سيكارة... على الأقل كما وأنها تضيئ لك الطريق بشكل ما.

كان الضابط، على قدر ما أسعفتني الملاحظة، ثملاً قليلاً، سألته:

- ألم يقل لك تيغليف شيئاً؟

- بالطبع! قلت له «مرحباً، يا أخ!» قال: «وداعاً، يا أخ!» «ما هذه وداعاً؟ ولما وداعاً؟» فيقول: «أريد في هذه الساعة أن أطلق المسدس على نفسي» يا له من موسوس!

وتقطعت أنفاسي في صدري.

- تقول إنه قال لك...

- موسوس!

كرر الضابط، وانفتل مبتعداً عني.

وكا كدت أفيق على نفسي مما قاله الضابط لي، حتى سمعت مَنْ يهتف باسمي بصوت عال عدة مرات. وعرفت صوت سيميون.

رددت على النداء... فتقدم سيميون مني.

- ١٦ -

سألته:

- ها؟ هل وجدت ايليا ستيبانيتش؟

- وجدته.

- أين؟

- هنا، غير بعيد.

- وكيف... وحدته؟ حياً؟

- بالطبع. لقد تحدثت معه. (انزاح الثقل عن قلبي). أنه جالس تحت شجرة بتولا في معطفه.. لا يفعل شيئاً. قلت: تفضلوا إلى البيت، إيليا ستيبانيتش. فإن ألكسندر فاسيليتش قلق عليكم جداً. فيقول لي: دعه يقلق! أريد أن اشم الهواء الطلق. عندي صداع. عد إلى البيت. وسآتي فيما بعد.

- وانصرفت!

هتفت طارحاً ذراعيّ في دهشة. ردَّ:

- وماذا غير ذلك؟ أمرت بالانصراف.. فكيف أبقى في مكاني؟

عادت مخاوفي إليّ كلها دفعة واحدة.

- قدني إليه حالاً. سامع؟ في التو واللحظة! آه، يا سيميون، سيميون، لم أتوقع ذلك منك! تقول غير بعيد عن هنا؟

- قريب، هناك حيث يبدأ الحرش. يجلس هناك... لا يبعد عن الجدول، عن الشاطىء غير ستة أذرع. وجدته حين كنت أسير عند الجدول.

- دلني، دلني!

سار سيميون في المقدمة.

- تفضلوا، أرجوكم... حالما تنزلون إلى الجدول تجدونه هناك..

ولكن بدلاً من أن ننزل إلى الجدول دخلنا وهدة، ووجدنا أنفسنا أمام سقيفة صغيرة فارغة.

– هاي! توقف! – صارح سيميون فجأة – يبدو أني أنحرفت إلى اليمين... يجب السير إلى اليسار أكثر.

تياسرنا أكثر. ووقعنا في أجمات الأعشاب الضارة، حتى لم نستطع أن نتخلص منها إلا بشق الأنفس... وبقدر ما أتذكر لم تكن بالقرب من القرية أية منطقة تكثر فيها الأعشاب الضارة بهذا الشكل. وإذا بالمستنقع يبقبق فجأة تحت أقدامنا، وظهرت حدَب من الصحلب لم أرها من قبل أيضً... عدنا إلى الوراء، فطلعت أمامنا تلّة شديدة الانحدار عليها خُص يصدر منه شخير. صحت وسيميون عدة مرات في الخص. صدرت حركة في أعماقه، وخشخش التبن، وصدر صوت أجش: حارس!

رجعن إلى الوراء مرة أخرى... فضاء.. فضاء... وفضاء بلا نهاية...

كنت متهيئاً للبكاء.. تذكرت كلمات المهرج في «الملك لير»: «هذه الليلة ستفقدنا عقولنا جميعاً، في النهاية...».

خاطبت سيميون في يأس:

– إلى أين نذهب؟

أجاب الخادم حائراً:

– يبدو أن عفريت الغابة كان يقودنا، يا سيدي وليس بدون قصد... أنه فأل لا يبشر بخير.

هممت أن أصرخ به، إلا أن سمعي التقط في تلك اللحظة صوتاً منفرداً ضعيفاً جذب انتباهي في الحال. طق شيء كما لو أن أحداً قلع سدادة محكمة من فتحة زجاجة ضيقة، وقد صدر هذا الصوت غير بعيد عن المكان الذي كنت واقفاً فيه. لا أقدر أن أحدد السبب الذي جعل هذا الصوت يبدو لي غريباً وغير اعتيادي، ولكنني سرت باتجاهه على الفور.

تبعني سيميون. وبعد بضع لحظات لاح من خلل الضباب شيء مسود، عال، عريض. هتف سيميون بفرح:

- الحرش! ها هو الحرش... وهناك السيد يجلس تحت شجرة البتولا.. يجلس حيث تركته. إنه هو بعينه!

أمعنت النظر. وبالفعل كان ثمة رجل يجلس على الأرض، عند جذور البتولا مديراً ظهره إلينا، متكوراً في وضع ناشز. اقتربت منه بسرعة، وعرفت معطف تيغليف، وعرفت شخصه، ورأسه المطروح على صدره.

ناديت: تيغليف! -... إلا أنه لم يرد. كررت:

ـ تيغليف!

وضعت يدي على كتفه. وعندها اهتز إلى الأمام فجأة مطواعاً عجولاً، وكأنما كان ينتظر لمسة يدي، وارتمى على العشب. رفعته فوراً بمساعدة سيميون، وقلبناه على ظهره. ولم يكن الوجه شاحباً، بل جامداً وبلا حياة. ولاحت أسنانه المصكوكة بيضاء، ونظرته الناعسة المعتادة «المختلفة» ما تزال تطل من عينيه الجامدتين أيضاً، وغير المغمضتين..

قال سيميون فجأة: يا إلهي!

وأشار لي إلى يده المضرجة بالدم... وكان هذا الدم يخرج من تحت معطف تيغليف المفتوح الأزرار من جانب الصدر الأيسر.

لقد أطلق النار على نفسه من مسدس صغير أحادي الماسورة كان ملقى بالقرب منه. وكان الصوت الضعيف الذي التقطه سمعي هو صوت الطلقة القاتلة.

- ١٧ -

لم يندهش رفاق تيغليف كثيراً من انتحاره. لقد قلت لكم أنهم كانوا يعتقدون بأنه، كرجل «قدري»، لا بد أن يتدع لنفسه لعبة غير اعتيادية، رغم أنهم لم يكونوا، ربما، ينتظرون منه هذه اللعبة بالذات. طلب تيغليف في رسالته إلى آمر الكتيبة، أولاً، أن يأمر بأن يُحذف من القوائم الملازم إيليا تيغليف زاعماً أنه مات برغبته الخاصة، وأعلن في الوقت ذاته أن لديه في صندوق صغير مبلغاً من المال أكبر مما يمكهن أن يسد ما عليه من الديون. وثانياً أن يوصل إلى شخصية رفيعة المقام كانت تقود، في حينها، فيلق الحرس

كله، رسالة أخرى غير مختومة، موضوعة في نفس الظرف. وبالطبع قرأنا جميعاً الرسالة الثانية هذه، وبعضنا استنسخها. والظاهر أن تيغليف تعب في تدبيج هذه الرسالة. وأتذكر أنها تبدأ بالشكل التالي: «أنت، يا صاحب الفخامة، حين يمثل أمامك ضابط مسكين مرتجف تكون صارماً تتسقط عليه أي إهمال في البزة، وأي تسيب في القيافة، ولكنني الآن أمثل أمام ديانا جميعاً، المنزه، العَدْل، أمام الكائن الأسمى، أمام الكائن الذي يعلو في الأهمية، حتى عليك أنت، يا صاحب الفخامة، امثل أمامه ببساطة، بمعطفي العسكري، وحتى بدون ربطة عنق...» آه، ما أثقل واكره الانطباع الذي خلفته هذه العبارة التي رسم المرحوم كل كلمة، وكل حرف فيها بخطه الشبيه بخط الأطفال! ساءلت نفسي: أية جدوى من افتعال كل هذا الهراء في مثل هذه الساعة؟ ولكن هذا التزويق كان يلذ لتيغليف، على ما يبدو، فقد وفرَّ له كل هذه النعوت والتهويلات الهائلة التي كانت سائدة آنذاك على طريقة مارلينسكي. وبعد هذا تحدث عن القدر والملاحقات، وعن رسالته التي بقيت غير منفذة، وعن السر الذي يحمله معه إلى القبر، وعن الناس الذين لم يريدوا أن يفهموه، بل وأورد شعراً لشاعر يقول: إن العامة من الناس تحمل الحياة كـ «الطوق في رقبة الحيوان» وتتشبث بالرذيلة تشبث «أشواك الأرقطيون». وكل ذلك لا يخلو من أخطاء املائية. والحق أن رسالة تيغليف هذه قبيل موته كانت رخيصة بما فيه الكفاية – وأنا أتصور تلك الحيرة الازدرائية التي تملكت ذلك الشخص الرفيع المقام الذي عنونت الرسالة إليه، وأتصور لهجته حين نطق: «ضابط تافه! يجب تنظيف الحقل من هذه العشبة الضارة!». وقبيل خاتمة الرسالة فقط صدرت من قلب تيغليف هذه الصيحة الصادقة، فقد ختمها بهذا الشكل: «آه، يا صاحب الفخامة، أنا يتيم، وما كان لأحد أن يحبني منذ الصغر، والجميع كانوا يتحاشونني... والقلب الوحيد الذي استجاب لي، أهكلته بنفسي!».

وجد سيميوت في جيب معطف تيغليف، الألبوم الذي كان سيده لا يفارقه. ولكن جميع أوراقه قد انتزعت إلا ورقة واحدة كانت فيها الجدول التالي:

نابليون مواليد ١٥ آب عام ١٧٦٩	إيليا تيغليف مواليد ٧ كانون الثاني عام ١٨١١
١٧٦٩	١٨١١
١٥	٧
٨ (آب – الشهر الثامن من العام)	١ (كانون الثاني – الشهر الأول من العام)
الناتج ١٧٩٢	الناتج ١٨١٩
١+٧+٩+٢	١+٨+١+٩
الناتج ١٩!	الناتج ١٩!

نابليون توفي ٥ أيار ١٨٢٥	إيليا تيغليف توفي ٢١ تموز ١٨٣٤
١٨٢٥	١٨٣٤
٥	٢١
٥ (أيار – الشهر الخامس من العام)	٧ (تموز – الشهر السابع من العام)
الناتج ١٨٣٥	الناتج ١٨٦٢
١+٨+٣+٥	١+٨+٦+٢
الناتج ١٧!	الناتج ١٧!

المسكين! ألهذا السبب دخل المدفعية؟

دفن بصفته منتحراً – خارج المقبرة – وسرعان ما نسوه.

– ١٨ –

في اليوم الذي تلا دفن تيغليف (وكنت ما أزال في القرية انتظر أخي) دخل سيميون عليّ الكوخ، وأعلن أن إيليا يرد أن يراني – سألت:

– أي إيليا؟

– بائعنا المتجول.

أمرته بإدخاله.

جاء البائع، وتأسف قليلاً على السيد الضابط، وأبدى دهشته مما حصل له. سألت:

– هل بقي لك دين عليه؟

– لا، مطلقاً، كان يدفع على الفور ثمة كل ما يأخذه، ولكن... – وكشّر البائع المتجول عن بسمة عريضة – بقذي لديكم شيء يخصني...

– ما هو؟

– ها هو هناك – وأشار بإصبعه إلى المشط المنحوت، الذي كان موضوعاً على منضدة الزينة ومضى هذا المازح يقول – أنه قليل الأهمية، ولكنه هدية قُدِّمت لي...

رفعت رأسي فجأة. وأحسست كالضوء يبرق في ذهني.

– اسمك إيليا؟

– نعم.

– إذن، ألست أنت ذلك الذي... رأيته تحت شجرة الصفصاف.. قبل أيام؟

– نعم – غمزني البائع المتجول بعينه وكشر عن ابتسامة أوسع.

– وكانوا ينادونك أنت؟

– نعم – كرر البائع المتجول بتواضع لعوب، ومضى يقول بصوته العالي النبرة – هناك فتاة بسبب من تصلب والديها الشديد...

قاطعته:

– حسناً، حسناً.

وناولته المشط، وتركته يذهب.

فكرت في نفسي: هذا هو «ايليوشا» الذي سمعت صوتاً يناديه، وغرقت في أفكار فلسفية لا أريد، على أية حال، أن أفرضها عليكم، لأنني لا أنوي أن أمنع أحداً من الايمان بالقدر، والهواجس، والقدريات الأخرى.

ولدى عودتي إلى بطرسبورغ جمعت معلومات عن ماشا. بل ووجدت الدكتور الذي كان يعالجها. وقد دهشت، حين سمعت منه أنها لم تمت بالتسمم، بل بالكوليرا. وأبلغت الدكتور ما سمعته من تيغليف. فإذا بالدكتور يهتف فجأة:

- أي! أي! تيغليف! أهو ضابط المدفعية المعتدل القامة، المكَّور المنكبين، المتكلم بهسهسة؟

- نعم.

- ذلك هو إذن. أن هذا السيد ذاته جاءني - ولم أكن قد رأيته من قبل - وراح يصر على أن الفتاة سممت نفسها. قلت له: «ماتت بالكوليرا»، فيقول: «لا، بالسم». فأقول له «بالكوليرا»، فيقول: «بالسم». واتبين أنني أمام شخص كالمعتوه، ذي قفا عريض، يعني عنود، يلح عليَّ بلا ود. وأفكر: أن الفتاة قد ماتت على أية حال... فأقول له: حسناً، سممت نفسها، إذا كان هذا يريحك أكثر. فشكرني، بل وصافحني، وانصرف.

وحكيت للدكتور كيف أطلق هذا الضابط على نفسه النار، في نفس ذلك اليوم.

لم يحرك الدكتور شعرة، ولم يقل إلا أن الموسوسين في الدنيا أصناف.

فكررت وراءه: أصناف.

نعم، صدق مَنْ قال عن المنتحرين: لا أحد يصدق بهم قبل أن يقدموا على ما ينوون عليه، ولا أحد يشفق عليهم بعد أن يقدموا على ما نووا عليه.

١٨٧١

فيوض الربيع[1]

ترجمة: مواهب الكيالي

السنوات الرغيدة والأيام السعيدة
مثل فيوض الربيع غيضها سريع!

• من اغنية قديمة

١- عمل تورغينيف في الرواية القصيرة «فيوض الربيع» من أواسط ١٨٧٠ وحتى نهاية ١٨٧١، ونشرت لأول مرة في العدد الأول من مجلة «فيسنيك افروبي» لعام ١٨٧٢.

ومثلما فعل بطل الرواية سانين يلتقي تورغينيف الشاب لدى عودته إلى وطنه من إيطاليا، في فرانكفورت على المابن، بفتاة جميلة في محِل لبيع الحلويات توسّلت إليه أن يساعد أخاها الذي كان في غيبوبة عميقة. وقد تغلب تورغينيف آنذاك على حبه العارم للفتاة بالعودة السريعة إلى وطنه. كما يستند القسم الثاني من «فيوض الربيع» على عناصر من السيرة الذاتية. وقد تحدث تورغينيف نفسه عن ذلك: «إن هذه الرواية كلها حقيقية. وقد عشتها وعانيتها شخصياً. إنها قصتي الشخصية. والسيدة بولوزوفا هي تجسيد للأميرة تروبتسكيا التي كنت أعرفها بشكل جيد... لم أغير إلا في التفاصيل، وبدّلت مواضعها، لأنني لا أستطيع أن أصور تصويراً فوتوغرافياً بطريقة عمياء...».

وكان لهذه الرواية حظ كبير من النجاح، حتى إنها طبعت للمرة الثانية في عدد كانون الثاني لمجلة «فيسنيك افروبي» وسرعان ما ظهرت ترجمات لها في فرنسا، وانجلترا، وأميركا، وإيطاليا، والدنمارك، وبولنده...

وكان تقييم غوستاف فلوبير فيها مهماً بشكل خاص، من بين التقييمات العديدة للمعاصرين. فقد كتب لتورغينيف: «أحب أن أقول لك إنني قرأت «فيوض الربيع»... تأثرت بها ودمعت عيناي، وكأنني قد عانيت من مجاهدة. وهذا ما حدث لكل واحد منا! اواه! وما يجعل كل واحد يحمر خجلاً من نفسه. أي إنسان صديقي تورغينيف، أي إنسان... إنك تعرف الكثير عن الحياة، يا صديقي العزيز... وتستطيع أن تقص ما تعرفه وهذا أكثر ندرة».

... كانت الساعة قد جاوزت الواحدة بعد نصف الليل حينما عاد إلى مكتبه، وبعد أن صرف الخادم الذي أوقد له الشموع، ارتمى في مقعد إلى جانب الموقد وغطى وجهه بكلتا يديه.

لم يحدث له أن شعر من قبل بمثل هذا التعب في الجسم والروح. كانت سهرته الليلة مع نساء لطيفات ورجال مثقفين، وبين السيدات بعض الجميلات، والرجال أكثرهم يمتازون بالذكاء والموهبة، وهو نفسه قد جاذبهم الحديث فأحسن ولمع... ولكنه مع هذا كله لم يشعر بهذا **taedium vitae**، «السأم من الحياة» الذي تحدث عنه الرومان القدامى، كما شعر الليلة. لقد طغى عليه وعذب روحه. ولو أنه في سن اصغر لبكى من الحزن والضيق والغيظ. كانت نفسه تمتلئ بمرارة نفاذة لاذعة كالعلقم، وشيء لاصق ثقيل يحيط به من كل ناحية يشبه ليلة خريفية داجية، وهو لا يدري كيف ينجو من هذا الظلام وهذه المرارة. لم يحاول أن يلجأ إلى النوم، فقد كان يعرف أن النوم سيجفوه.

أطلق العنان لأفكاره... فسرحت به في بطء فاتر وشعور بالغيظ.

وجعل يفكر في ما يتصف به البشر من الزهو والرياء والتفاهة والزيف، واستعرض بباله مراحل حياة الإنسان في كل جيل على التتابع (كان وقتئذ في الثانية والخمسين من العمر) فلم يجد مرحلة واحدة تستحق منه المغفرة. ففي كلها جميعاً نفس الميع الذي يسيل من فراغ إلى فراغ، وهذا الدق في الماء وهو ماء، والغرور الذي يوهم بأن نصفه نزاهة ونصفه حكمة – وليتسل الطفل بما يشاء على أن ينقطع عن البكاء – وفجأة تسقط الشيخوخة كما يسقط الثلج على أمّ الرأس، ويحلّ معها خوف من الموت يقيم في النفس وينخرها من غير انقطاع، ولا تلبث هاوية النهاية أن تنفتح على حين غرة! وليت الحياة تقف عند هذا العبث، فهناك فوق هذا ما يأتي قبل النهاية من العجز والألم كما يتأتى الصدأ على الحديد.... لم يكن يرى الحياة بحراً هائجاً مائجاً على ما وصفه الشعراء، وإنما تصورها بحراً هادئاً عديم الحس والحركة يشف ماؤه عما فيه حتى أغواره الأخيرة، وهو نفسه جالس في قارب صغير متقلقل، وهناك في القاع المظلم المغطى بالطمى، تعيش وحوش

مهولة على هيئة السمك، تمثل ما في الحياة من ألوان المساءة: كالمرض والحزن والجنون والحرمان والعماية... وينظر فإذا هولة من هذه الوحوش تشق ظلمة القاع وترتفع إلى أعلى في بطء حتى تظهر جملة بكل ما في حقيقتها من البشاعة... فقد بدأ أن الهولة ستقّلب القارب بعد لحظات معدودات! ولكن ها هي ذي تعود إلى الاختفاء، وتأخذ في الابتعاد، ولا تزال تهبط إلى أسفل حتى تستقر في القاع، تستلقي هناك لا تكاد تتحرك إلا قليلاً... ولكن اليوم الموعود سيحين، وسيقلب الوحش هذا القارب.

هزّ رأسه وهبّ من المقعد واقفاً. ذرع الغرفة ذهاباً وجيئة مرة أو مرتين، ثم سار إلى مكتبه ففتح ادراجه، وأخذ يقلب في اوراقه ورسائله القديمة واكثرها من نساء. لا يدري لماذا فعل ذلك، فإن لم يكن يبحث عن شيء، وإنما أراد أن يشغل نفسه بشاغل يهرب إليه من أفكاره التي تعذبه. حرك الرسائل بيده وأخذ منها رزمة كيفما اتفق (كانت فيها رسالة تطل منها زهرة ذابلة عقدت بشريط حائل اللون). لم يفعل إلا أن هز كتفيه، ونظر إلى الموقد، وقذف بالرزمة إلى ناحيته، كأنما كان يريد أن يحرق هذه المهملات القديمة، ثم عاد يدس يده في ادراج المكتب، تارة هنا وتارة هناك، وفجأة اتسعت عيناه، وأخذ يسحب في بطء، صندوقاً متوسط الحجم، قديم الطرز، مثمن الأضلاع، وفي بطء أيضاً رفع عنه الغطاء، كانت في طيات الصندوق أوراق صبغها القدم بالاصفرار، بينها صليب صغير من العقيق الأحمر.

بقي بضع لحظات يحملق مدهوشاً في هذا الصليب، وفجأة ندت عنه صرخة خافتة... وارتسم في قسماته تعبير لعله الفرح أو لعله الأسى. إن مثل هذا التعبير يرتسم في وجه امرئ يلتقي فجأة مع إنسان فقد أثره وخبره وكان يحبه في الماضي حباً رقيقاً، فإذا هو يراه أمام عينيه، يخطر كما كان في الماضي، ولكن السنين بدلته تبديلاً.

نهض وسار نحو الموقد، ثم عاد فجلس في المقعد وغطى وجهه بيديه... وتساءل في نفسه: «لماذا اليوم، هذا اليوم بالذات»؟، وخطرت بباله ذكريات كثيرة من الماضي البعيد.

وهذا ما تذكره...

ولكن علينا أن نبدأ الحديث بالتعرف إلى اسمه ولقبه وكنيته، اسمه ديميتري بافلوفيتش سانين.

وهذا ما تذكره:

- ١ -

حدث ذلك في صيف سنة ١٨٤٠. كان سانين يجاوز الثانية والعشرين من عمره، وهو في فرانكفورت بطريق عودته من إيطاليا إلى روسيا. لم يكن من أهل الثراء، ولكنه رجل طليق الاسار، يكاد يكون خالياً من أعباء الأسرة. ورث بضعة آلاف من الروبلات بوفاة رجل تربطه به قرابة بعيدة، فزينت له نفسه أن ينفق هذا المال في الخارج، قبل أن يبدأ حياته العملية، ويطوق عنقه بأغلال الوظيفة، وهي الوسيلة الوحيدة التي بقيت له في الحياة الموفورة. وكان سانين حاذقاً في إنفاق المال، حتى إنه في حين وصوله إلى فرانكفورت، لم يكن في جيبه إلا القدر الذي يكفيه للعودة إلى بطرسبورغ. وكانت السكك الحديدية قليلة سنة ١٨٤٠، والسادة السياح يسافرون في العربات، فدفع سانين ثمن بطاقة في عربة «بايفاغين» وكانت لا تتحرك للسفر إلا في الساعة الحادية عشرة مساء، فوجد أن الوقت طويل حتى هذا الموعد. ومن حسن حظه أن الطقس كان رائعاً، فتناول طعام الغداء في فندق شهير اسمه «البجعة البيضاء»، وأطلق بعدئذ يتجول في المدينة، فذهب لرؤية الاريادنا لدانيكر[1] فما اعجب بها إلا قليلاً، ثم زار بيت غوته[2]، مع أنه لم يقرأ من أعماله الأدبية سوى كتاب «فرتر» وحتى هذا قرأه في الترجمة الفرنسية، وتفسح على ضفة الماين، وهو آخذ بمظهر الوحشة الذي يناسب مقام سائح يرعى الأصول. وفي الساعة السادسة مساء، انتهى به المطاف بقدمين متعبتين مغبرتين إلى شارع صغير من شوارع فرانكفورت، وهو الشارع الذي سيعلق في ذاكرته زمناً طويلاً، هناك رأى على أحد

١- «اريادنا على فهد» - عمل شهير للنحات الألماني الكبير دانيكر (١٧٥٨ - ١٨٤١) موجود في أحد متاحف فرانكفورت على الماين.

٢- البيت الذي ولد فيه الكاتب الألماني العظيم غوته (١٧٤٩ - ١٨٣٢) في فرانكفورت على الماين.

بيوته القليلة، لافتة كتب فيها «الحلويات الايطاية - جيوفاني روزيللي»، فكأنها تدعو عابر السبيل إليها. فقصد سانين إلى الدكان ليشرب كأساً من عصير الليمون. كانت تمتد في الغرفة الاولى منصة متواضعة ظهرت وراءها رفوف لامعة تشبه الصيدلية، عليها بضع زجاجات محاطة بورق مذهب، ومرطبانات من الزجاج للبسكويت والشوكلاته والكعك والملبس، لم يكن فيها من يتنفس سوى قط رمادي يطرف بعينيه ويهر ويتمطى بأظفاره وهو على مقعد مرتفع إلى قرب النافذة، وشعاع من الشمس الغاربة يسيل نوره المتألق على كرة كبيرة من خيوط الصوف الاحمر ملقاة على الأرض بجانب سلة مقلوبة من الخيزران. كانت أصوات خافتة تسمع من الغرفة المجاورة، فانتظر سانين حتى هدأ رنين جرس الباب، وسأل بصوت مرتفع: «أليس من أحد هنا»؟، انفتح باب الغرفة المجاورة اللحظة نفسها، ورأى سانين ما - عقد لسانه من الدهشة.

- ٢ -

اندفعت إلى الدكان فتاة في التاسعة عشرة من عمرها، يتهدل شعرها خصلات سوداء على كتفيها العاريين، لما رأت سانين مدت إليه ذراعيها الحاسرتين، وارتمت نحوه، فقبضت على يده، وجرته وراءها، وقالت من خلال أنفاسها اللاهثة: «اسرع، سرع إلى إنقاذه»!. لم يبادر سانين من فوره إلى تلبية نداء الفتاة، و لم يمسكه العزوف عن هذا بل أمسكته الدهشة لرؤيتها، فوقف جامداً لا يبدي ولا يعيد وهو يرى إلى هذه الحسناء التي لم يشاهد لها نظيراً في حياته. التفتت إليه، ويا لليأس الذي شاع في صوتها، في نظرتها، في حركة يدها المقتضبة المرفوعة في توتر إلى خدها الشاحب حينما قالت له: «تحرك، تعال»!، فأسرع يتبعها في الحال، وعبر الباب المفتوح.

في الغرفة التي دخلها وراء الفتاة، كان صبي في الرابعة عشرة من عمره يستلقي على ديوان عتيق الطرز من شعر الخيل، لبسه الشحوب فهو أبيض مشوب بالصفرة كما الشمع أو المرمر العريق. كان يشبه الفتاة كل الشبه، ما يرجح أنه أخوها. كانت عيناه مغلقتين، وظل شعره الكثيف يرتمي كالبقعة على جبهة كأنها من الحجر وعلى حاجبيه الساكنين اللازجين، وكانت شفتاه

مزرقّتين تنفرجان عن أسنانه المطبقة، وبدا كأنه لا يتنفس، واسترخت إحدى يديه حتى بلغت الأرض، ورقدت الثانية خلف رأسه. كان لا يزال في ثيابه، وفي صداره المزرر، ورباطه يشد على عنقه.

صاحت الفتاة وهي تندفع نحوه:

- مات، لقد مات! منذ لحظة كان جالساً هنا يكلمني، وفجأة وقع هامداً من الحركة... يا إلهي، ألا يمكن أن نساعده بشيء؟ وأمي، إنها غائبة! بانتالوني، يا بانتاليوني، ماذا عن الطبيب؟ - قالت فجأة بالإيطالية - هل ذهبت تدعو الطبيب؟.

فانبعث من وراء الباب صوت أجش يقول:

- لم أذهب أنا يا سينيورة، وإنما أرسلت لويزة.

وأقبل يظلع في الغرفة عجوز ضئيل الجسم في سترة فراك ليلكي بأزرار سوداء وربطة عنق بيضاء عالية وسروال قصير من القطن وجوربين من الصوف الأزرق. كانت رقعة وجهه الصغير مختفية وراء طوفان كثيف من شعر تثنى وتنافر في كل ناحية فأفضى على العجوز منظر دجاجة قنبرانية، وزاد في هذا الشبه أنفه المدبب وعيناه الصفراوان تحت هذا الطوفان الكثيف من الشعر الرمادي القاتم.

وتابع العجوز الضئيل كلامه بالإيطالية:

- تستطيع لويزة أن تركض بسرعة، أما أنا فلا أستطيع. وتحرك ينقل على التوالي بقدميه المفرطحتين العليلتين بالنقرس المحشوتين في حذاء طويل ذي اربطة، واضاف:

- لقد جئت أنا بالماء.

كان يقبض على عنق زجاجة طويل بأصابعه الجافة المعقوفة. وقالت الفتاة وهي تبسط يديها لسانين:

- ولكن إميل، سيموت إذن! آه يا سيدي، **O mein Herr** هل يصدق أنك لا تستطيع أن تساعده؟.

فلاحظ العجوز المسمى بانتاليوني قائلاً:

- يجب أن يفصد، فإن هذه صدمة عصبية.

على الرغم من أن سانين لم يكن يعرف مثقال ذرة من الطب، فقد كان واثقاً من أمر واحد، وهو أن الصدمة العصبية لا تصيب صبياً في الرابعة عشرة من عمره، فقال يخاطب بانتاليوني:

- إنه إغماء، وليست صدمة، فهل عندكم فرشاة؟ - فرفع العجوز وجهه وسأل:

- ماذا؟

فردد سانين بالألمانية وبالفرنسية وهو يعبر عن مراده بما يشبه حركة مسح الثياب:

- فرشاة، فرشاة.

فهم العجوز آخر الأمر ما يراد منه:

- آه، فرشاة! Spazzette أيعقل ألا تكون عندنا فرشاة!.

- هاتها، وسنخلع سترته ونفرك جسده.

- طيب...! Benone والماء، أليس من حاجة لصبه على رأسه؟.

- ليس الآن، بل فيما بعد، اذهب بسرعة وهات الفرشاة - وضع بانتالوني الزجاجة على الارضية، وأسرع يغادر الغرفة، ثم عاد مسرعاً بفرشاتين، احداهما للشعر والثانية للثياب، ودخل في أثره كلب من نوع البوديل جعد الشعر طفق يهز ذيله بقوة وهو يدير نظرات فضول بين العجوز والفتاة، ويرسلها إلى سانين أيضاً، كأنه يريد أن يتبين سبب هذا الارتباك.

ونشط سانين إلى خلع السترة عن الصبي الراقد، ثم فكّ ياقته، وشمر له عن ذراعيه، وتسلح بالفرشاة وأخذ يفرك بها صدر الصبي ويديه، وحذا بانتاليوني حذوه بالفرشاة الثانية، وهي فرشاة الشعر، فأخذ يفرك بها حذاءه وسرواله. كانت الفتاة جاثية على ركبتيها إلى قرب الديوان، وقد غرست أصابعها في شعرها، وعلق بصرها بوجه أخيها فما يطرف لها جفن.

كان سانين يعمل بالفرشاة، ويسترق النظر إلى الفتاة. يا إلهي، ما أبدع هذه الحسناء الفاتنة!.

كان أنفها يميل قليلاً إلى الكبر، ولكنه أنف أقنى جميل، وفوق شفتها العليا زغب خفيف يكاد لا يدرك، أما لون وجهها ولا خلاف في أنه يشبه العاج أو الكهرمان الحليبي، ولكن من غير تفاوت ولا بريق. شابهت يوديفه - اللوري[1] المعروضة بقصر بيتي[2] بشعرها المتموج اللامع، وبدت عيناها على الخصوص، رائعتين آسرتين، بلونهما الرمادي الغامق، وإنسانيهما المؤطرين بالسواد، حتى حين انخطف بريقهما في وهلة الخوف والحزن... لقد تذكر سانين من دون قصد تلك المنطقة الرائعة التي كان عائداً منها، ولكنه لم ير في إيطاليا ما يضارع هذا الجمال! كانت الفتاة تتنهد بين الحين والآخر، كأنها تنتظر في كل مرة: ألم يبدأ أخوها في التنفس؟.

مضى سانين في مسح جسم الصبي، ولكنه لم يعلق بصره بالفتاة فقط، فقد لفتت انتباهه هيئة بانتاليوني الطريفة. كان العجوز يلهث من التعب، وينط إلى أعلى عند كل ضربة فرشاة، وينح، فتتأرجح لبدته الكثيفة التي اثقلها العرق من ناحية إلى ناحية، مثل جذر شجرة عتيقة يتجاذبه الماء في جريانه، وكان سانين يهم بأن يقول له:

- اخلع الحذاء عن قدميه على الأقل...

ويبدو أن الكلب البوديل قد انفعل بما يجري حوله، فجثا على قائمتيه الأماميتين وأخذ يعوي، فزجره العجوز قائلاً: Tartaglia- Canaglia [3].

في هذه اللحظة، كان وجه الفتاة يتغير، فارتفع حاجباها قليلاً، واتسعت عيناها، وتلألأت فيهما الغبطة...

التفت سانين، فإذا الاحمرار يدب في وجه الفتى وجفونه تختلج،

١- يوديف لوحة موجودة في فلورنسا للرسام الايطالي المشهور كريستوفانو اللوري (١٥٧٧ - ١٦٢١).

٢- وقصر بيتي متحف في فلورنسا يضم لوحات رسامين إيطاليين وأجانب في القرنين ١٦ و١٧.

٣- تارتاليا - شيطان (بالايطالية في الأصل). - الناشر.

وتحركت فتحتا أنفه، وأخذ نفساً طويلاً من خلال أسنانه المطبقة، وتنهد... فصاحت الفتاة:

– إميل! إميليو ميو!.

أخذ الفتى يفتح عينيه السوداوين في بطء، وألقى نظرة فارغة خالطتها ابتسامة واهنة، وانحدرت هذه الابتسامة على شفتيه الشاحبتين، ثم حرك يده المتدلية وقذف بها إلى صدره في عنف.

– إميليو! – رددت الفتاة، وهمت بالنهوض. كانت طلعتها قوية متألقة فكأنها توشك أن تنفجر بالبكاء أو بالضحك.

– إميل! ماذا حدث! إميل! – ترامى صوت من وراء الباب، ودخلت بخطوات سريعة سيدة انيقة يتألق شعرها الفضي على وجهها الأسمر، وفي أثرها رجل متقدم في السن، وكان وجه الخادمة يتراءى من خلف كتفيه.

ركضت الفتاة إلى لقاء القادمين، وهتفت قائلة وهي تعانق السيدة بانفعال:

لقد نجا يا ماما، وهو حي!.

فقالت الأم:

– ماذا حدث؟... لقد كنت عائدة... وفجأة وجدت السيد الطبيب ولويزة...

أخذت الفتاة تروي على أمها ما حدث، وتحول الطبيب إلى المريض، وكان هذا يستعيد وعيه ولا ينقطع عن الابتسام: فكأنه بدأ يستشعر الخجل من هذه الهزة التي سببها لهم.

وقال الطبيب يخاطب سانين وبانتاليوني:

– رأيت أنكما فركتما جسده بالفرشاة. هذا عمل رائع... وفكرة طيبة... فلننظر الآن ماذا ينبغي له من العلاج... وجس نبض الفتى:

– هم! هات أرني لسانك!.

انحنت السيدة على الفتى وهي مستطارة اللب، فاتسعت ابتسامته، وارتفع إليها بصره، واصطبغ وجهه بالاحمرار...

خطر ببال سانين أن بقاءه لم يعد ملائماً فخرج إلى الدكان، ولكنه لم يكن

قد أمسك بمقبض الباب المؤدي إلى الشارع حين رأى الفتاة تقف وتستوقفه قائلة وهي تنظر إليه في رقة:

– إنك ذاهب، فلا أملك أن أستبقيك، ولكن لا بد أن تجيء إلينا في هذا المساء. نحن مدينون لك، وقد تكون أنت من أنقذ أخي، نريد أن نشكر لك جهدك، وماما تريد ذلك. ثم لا بد أن نتعرف إلى أحوالك، وأن تشاركنا في سرورنا...

فقال سانين متداركاً:

– ولكني مسافر إلى برلين اليوم.

فاعترضت الفتاة بحماسة:

– لا تزال لديك فسحة من الوقت، فتعال بعد ساعة على فنجان شوكولاته. فهل تعد بالمجيء؟ ينبغي أن اعود إليه، فهل تأتي؟.

ماذا يستطيع سانين أن يفعل؟ أجاب:

– سأجيء.

فصافحت الحسناء يده بسرعة، وطارت من الدكان – أما هو فقد وجد نفسه في الشارع.

– ٤ –

لما عاد سانين إلى دكان الحلويات بعد نحو ساعة ونصف، استقبل هناك كأنه قريب حميم. وكان إميل يجلس على نفس الديوان الذي أدركته عليه أيدي المدلكين. لقد وصف له الطبيب بعض الدواء، اوصى «بالأناة الشديدة فيما يتعلق بشعوره وإحساسه» – لأنه سريع الإنفعال، مهيأ للأزمات القلبية. لقد ألّمت به نوبات الإغماء من قبل، ولكنها لم تبلغ المقدار الذي بلغته هذه المرة من العنف والطول. ولكن أفاد الطبيب بأن الخطر قد زال. ولبس إميل ما يناسب حالة الناقه: عباءة فضفاضة، وأحاطت أمه عنقه بوشاح من الصوف الأزرق، ولكنه بدا مرحاً، بل لعله في مزاج يشبه مزاج العيد، وكل ما حوله كان أيضاً في هذا الابتهاج الغامر. أمام الديوان، أقيمت مائدة مستديرة مغطاة بغطاء النظيف، شمخ فوقها إبريق كبير من الخزف

تفوح منه رائحة الشوكولاته اللذيذة، وأحاطت به الفناجين وآنية المرطبات وصحاف فيها البسكويت والكعك والخبز، وكان كل شيء موفوراً حتى الأزهار، وحول هذه الآنية الخزفية، تألقت ست شمعات دقاق في شمعدانين قديمين من الفضة. وإلى جانب الديوان كان المقعد الفولتيري يفتح ذراعيه وحضنه الوثير، فأجلس سانين في هذا المقعد بالذات، وكل من تعرف إليه في دكان الحلويات هذا اليوم كان حاضراً بالوجه، حتى الكلب البوديل تارتاليا والقط، كلهم كان سعيداً بصورة تفوق الوصف، حتى لقد عطس الكلب من الجذل، ما عدا القط، فقد جلس وحده يهر ويتغنج ويطرف بعينيه. حاصروا سانين بالأسئلة عن أهله وبلده واسمه، فلما قال بأنه روسي ظهر على السيدتين بعض الدهشة، بل ندّت عنهما شهقة أيضاً، وقالتا بصوت واحد إن نطقه بالألمانية ممتاز، ولكنه يستطيع أن يستعمل الفرنسية إذا كانت ادعى لراحته، لأنهما تفهمان هذه اللغة جيداً وتنطقان بها. لم يبطئ سانين في انتهاز هذا العرض. «سانين؟ سانين!»، لم تنتظر السيدتان أن يكون في الكنى الروسية كنية عل مثل هذه السهولة في النطق. واستظرفتا كذلك اسمه «ديميتري»، وقالت الست الكبيرة بأنها سمعت في صباها أوبرا رائعة اسمها Demetrio e Golibio [1]، – ولكن اسم Dimitri أجمل من Demetrio وعلى هذه الصورة قضى سانين حوالي ساعة في جلسة وحديث، وأطلعته السيدتان من ناحيتهما على أدق التفاصيل من حياتهما. أدارت الأم ذات الشعر الأشيب دفة الحديث أكثر الوقت، فعرف سانين منها أن اسمها ليونورا روزيللي، وأنها أرملة وزوجها المرحوم جيوفاني باتيستا روزيللي الذي أقام طوال خمس وعشرين سنة في فرانكفورت يصنع الحلويات وأنه في الأصل من أبناء فيشنزا، وهو رجل طيب، ولكنه لم يخل من بعض النزق والتكبر، يضاف إلى هذا أن نزعته جمهورية! وأشارت في أثناء كلامها إلى صورته الزيتية المعلقة على الجدار القائم وراء الديوان، وتنهدت قائلة: – لا يبعد أن يكون الرسام الذي رسمها «جمهورياً أيضاً»!، فإنه لم ينجح كل النجاح في التقاط الخطوط المشابهة لملامح زوجها، فظهر المرحوم جيوفاني باتيستا على

١– واحدة من الأوبرات المبكرة لجورجيو روسيني، عرضت لأول مرة في روما عام ١٨١٢.

هذا القدر من التجهم والصرامة، حتى كأنه قاطع طريق على شاكلة رينالدو رينالديني![1] أما السيدة روزيللي فإنها من «المدينة القديمة الرائعة بارما، حيث القبة المعجزة التي حليت برسوم كوريجيو الخالد»![2]. لكنها أقامت وقتاً طويلاً في ألمانيا، واستوطنتها حتى تألمنت أو كادت. ثم قالت في أسى وهي تهز رأسها: لم يبق لها إلا هذه البنت وهذا الابن (وأشارت بإصبعها إلى كل منهما على التتابع)؛ وأن البنت اسمها – جيما، والولد – إميل؛ وأنهما ولدان طيبان مطيعان – ولا سيما إميل... (فقاطعتها ابنتها قائلة: «وهل أنا غير مطيعة»؟ – فأجابت الأم: «اه، أنت أيضاً نزعتك جمهورية»! – أما الأحوال فإنها أسوأ منها مما كانت على أيام زوجها الذي كان معلماً عظيماً في صنع الحلويات... (وعندئذ نبذ بانتاليوني قائلاً بهيئة صارمة: un grand'uomo [3]، ولكن الحياة، مع ذلك لا تزال ميسورة والحمد لله!.

– ٥ –

كانت جيما تصغي إلى أمها – وهي تبتسم تارة، أو تتنهد تارة أخرى، أو تمسح بيدها على كتف أمها، أو تهز إصبعها محذرة، أو ترنو إلى سانين. ثم قامت فطوقت أمها بذراعيها، وقبلتها في عنقها، فأضحكت الأم هذه الحركة، التي أن غشتها، وقدم بانتاليوني أيضاً إلى سانين، فظهر أنه في ذات زمان كان مغني أوبرا بالصوت الباريتون، ولكنه انقطع عن اعمال المسرح منذ وقت بعيد، وأصبح في أسرة روزيللي بمقام وسط بين صديق العائلة وخادمها. أقام زمناً طويلاً في ألمانيا، ولكنه لم يتعلم من لغتها إلا كلمات الشتائم، ولم تسلم هذه الألفاظ أيضاً من التحريف والتشويه عند نطقه بها، فكان يلفظ النعت الذي يطلقه عى كل ألماني بقوله: «فيروفلو كتو سبيتشيبويو»[4]. بيد أن نطقه

١– رينالدو رينالديني بطل رواية مغامرات للكاتب الالماني فولبيوس (١٧٦٢ – ١٨٢٧) «ورينالدو رينالديني، زعيم اللصوص».

٢– المقصود هنا قبة كاتدرائية بارم بالفريسكو الشهيرة للكوريدجيو «صعود الأم العذراء إلى السماء».

٣– رجل عظيم (بالايطالية في الأصل). **الناشر**.

٤– معناها «النصاب الملعون» (وصحيحها بالألمانية): (verfluchte Spitzbube)– **الناشر**.

بالإيطالية في غاية الإتقان، ذلك أنه من أبناء سينيغاليا حيث تسمع Lingua toscana in bocca romana [١]. أما إميل فكان مستسلماً لأحاسيس امرئ نجا وشيكاً من خطر، أو شفي من مرض، ومن الواضح فوق هذا، أنه في كل شيء صبي الأسرة المدلل. لقد شكر سانين في استحياء، ولكنه أقبل على المرطبات والحلويات في جراءة. وأجبروا سانين على شرب فنجانين كبيرين من الشوكولاته الجيدة، وأكل مقداراً هائلاً من البسكويت: فما يكاد يزدرد واحدة حتى تأتيه جيما بواحدة غيرها، ولا مجال عندئذ للرفض! وسرعان ما شعر بأنه في بيته: لقد مر الوقت بسرعة لا تصدق، وكان مضطراً إلى إرجاء كثير من القصص – عن روسيا بعامة، عن الجو الروسي، والمجتمع الروسي، والفلاحين الروس – وبخاصة عن القوزاق[٢]، وعن حرب ١٨١٢، وعن بطرس الأكبر[٣]، والكرملين، وعن الأغاني الروسية، وعن الأجراس. كانت معلومات السيدتين ضئيلة عن بلادنا النائية المترامية الأطراف، فان السيدة روزيللي أو فراو لينوري قد افزعت سانين بهذا السؤال: ألا يزال قائماً في بطرسبورغ ذلك القصر الذي اشتهر منذ القرن الماضي باسم قصر الجليد؟[٤] وقالت إنها قرأت عنه مقالاً طريفاً في كتاب وجدته عند المرحوم زوجها عنوانه «Bellezze delle arti»[٥] فكان جواب سانين: «وهل ظننت أن الصيف لا يحل في روسيا أبداً»؟، فاعترضت فراو لينوري قائلة بأنها تتصور روسيا حتى الآن على هذه الصورة: الثلج الأبدي، والناس جميعاً في الفرو، وكلهم عساكر،

١– اللغة التوسكانية من أفواه رومانية (بالايطالية في الأصل). – الناشر.

٢– القوزاق – فئة عسكرية ذات امتيازات في روسيا ما قبل الثورة من القرن الثامن عشر إلى بداية القرن العشرين. وفي القرون ١٤ إلى ١٧ كانوا أناساً أحراراً يشتغلون بالاستئجار، كما كانوا يعملون في الوحدات العسكرية على أطراف البلاد، وهم القوزاق الأحرار.

٣– بطرس الأول (١٦٧٢ – ١٧٢٥) قيصر روسي (من ٢٧ نيسان عام ١٦٨٢) وامبراطور روسيا (من ٢٢ تشرين الأول ١٧٢١) ورجل دولة، وقائد عسكري، ودبلوماسي.

٤– شيد في بطرسبورغ في عام ١٧٤٠، بأمر من الإمبراطورة آنا ايوانوفنا. وقد وصف في رواية «البيت الجليدي» اي. لاجيتشنيكوف.

٥– مطبوع فني غير دوري كان يصدر في نهاية القرن الثامن عشر.

ولكنهم على درجة رائعة من الكرم، وفلاحوها طيعون كل الطاعة! وحاول سانين أن يعطي الأم وابنتها معلومات أكثر دقة عن بلاده. لما لامس الحديث جانب الموسيقى الروسية، رجته السيدتان أن يغني أحادية روسية من إحدى الأوبرات، وأشارتا إلى بيانو صغير قائم في الغرفة وضعت مفاتيحه السود في موضع البيض، والبيض موضع السود، فأذعن سانين من غير تمنع أو اغراق في انتحال الأعذار، وأخذ يغني وهو يعزف بإصبعين من يده اليمنى، وثلاث من يده اليسرى (وهي الإبهام والوسطى والخنصر) فغنى بصوت رفيع «تينوري» يخرج من أنفه أغنية «سارفان»، ثم غنى أغنية «خلال الشارع الرحيب»، فامتدحت السيدتان غناءه وعزفه، وأرسلتا آهات الإعجاب بعذوبة اللغة الروسية ولطف جرسها، وطلبتا إليه أن يترجم لهما معاني الأغنيتين، فاستجاب سانين لهذا الطلب، ولكن كلمات أغنية «سارافان» وبخاصة أغنية «خلال الشارع الرحيب» (جاءت في ترجمته لها على هذا النحو الطريف: sur une rue pavée une jeune fille allait à l'eau)[1]، فلم ينقل إلى مستمعيه كثيراً من دقائق الشعر الروسي. لهذا غنى الأغنية «إني لأذكر اللحظة الرائعة» وهي من تلحين غلينكا وشعر بوشكين، بعد أن قرأها، وترجم معانيها، ولكنه غالط قليلاً في المقطع المينوري. هنا عصفت الحماسة بالسيدتين - بل أن فراو لينوري اكتشفت في اللغة الروسية شبهاً مدهشاً باللغة الإيطالية. وحتى اسما بوشكلين (كانت تنطقه: بوسيكين) وغلينكا - رأت أن في جرسهما رنيناً مألوفاً في سمعها. ثم جاء دور سانين، فرجا السيدتين أن تغنيا ما يحضرهما من الأغاني، ولم تتمنعا أيضاً، فجلست فراو لينوري إلى البيانو، واشتركت معها جيما في غناء بعض المقطوعات الآحادية والثنائية. كان الكونترال ذات يوم رائعاً في صوت الأم، أما صوت البنت فإنه على شيء من الضعف ولكنه مطرب.

- ٦ -

ولكن سانين كان معجباً بجيما لا بصوتها. جلس بجانبها إلى وراء منها قليلاً وطفق يفكر قائلاً في نفسه: ليس من نخلة - حتى في شعر بينديكتوف[2]

١- في شارع رحيب تسير فتاة صبية إلى الماء. - المترجم.

٢- فلاديمير بنديكتوف (١٨٠٧ - ١٨٧٣) شاعر روسي.

وكانت موضته شائعة وقتذاك - بقادرة على منافسة امتشاق قامتها وهيف خصرها، وخيل إليه وهو يرى إليها منصرفة بحواسها إلى الغناء، رافعة عينيها إلى أعلى، أن السماء التي لا تفتح رحابها لمثل هذه النظرات لم توجد في هذا الكون. بل إن العجوز بانتاليوني الذي استند بكتفه إلى الباب وأغرق ذقنه وفمه في ربطة عنقه الواسعة، وأصغى في وقار إصغاء الخبير العارف، كان ينظر في افتتان إلى وجه الفتاة الرائع، كان مذهولاً به، وهو الذي تعود رؤيته ولا شك! لما انتهت فراو لينوري من الغناء مع ابنتها اشارت قائلة: إن إميل له صوت ممتاز، مثل رنين الفضة الأصيلة، - ولكنه الآن في السن التي يتغير فيها الصوت (كان في الواقع يتكلم بصوت فيه خشونة متقطعة)، ولهذا فهو ممنوع من الغناء، أما بانتاليوني فأنه قد يستطيع أن يجدد أيامه الخوالي على شرف الضيف! اظهر بانتاليوني عدم الرضى من فوره، وتجهم وجهه، وأخذ ينبش في شعره، ثم أعلن: أنه أهمل ذلك وتركه منذ وقت بعيد، على الرغم من أنه استطاع في صباه أن يثبت وجوده، وأنه بصورة عامة ينتمي بزمانه إلى ذلك العصر العظيم الذي عاش فيه المغنون الكلاسيكيون الحقيقيون الذين يجل غناؤهم عند الموازنة بمواء المغنين المحدثين! فوقتئذ كانت مدرسة حقيقية للغناء. وأنه هو بانتاليوني تشيباتولا من أبناء فاريزه، قدموا إليه في مودينا إكليلاً من الغار، واطلقوا الحمائم البيض في المسرح لهذه المناسبة، وأن الأمير الروسي تاربوسكي (il principe Trabusski) الذي كانت بينهما صداقة وثيقة كان يدعوه كثيراً أثناء عشائهما للسفر إلى روسيا، ووعده بأن يكون له جبل من الذهب، جبل!... ولكنه أبى أن ينفصل عن إيطاليا وطن دانتي - il paese del Dante - ثم حدثت أمور مؤسفة، وهو بالذات لم يلتزم جانب الحذر... وهنا قطع الشيخ حديثه، وصعد زفرة عميقة مرة أو مرتين، وأطرق برأسه، ثم عاد يتحدث عن عظمة عصر الغناء الكلاسيكي، وعن المغني التينوري الشهير غارسيا[1] الذي يشعر له بقدر غير محدود من الاحترام، وقال:

- يا له من إنسان! فأن فغارسيا العظيم il gran Garcia لم يهن نفسه أبداً بغناء

١- مانوئيل غارسيا (١٧٧٥ - ١٨٣٢) مغنّ أوبرا ومؤلف موسيقي إسباني ذو شهرة عالمية، هو والد ومعلم بولينا فياردو، المغنية الشهيرة التي كان لتورغينيف معها علاقة ود عميقة.

يسفّ به إلى مستوى مطربي هذا الزمان - tenoracci - كان غناؤه من صدره، من صدره !voce di petto، si[١]- وهنا أخذ العجوز يدق بيده الصغيرة اليابسة على صدارته - ويا له من ممثل! بركان ,signori mie[٢] يا سادتي (بالإيطالية في الأصل). - الناشر. بركان، un Vesuvio لقد تشرفت وسعدت بالغناء معه في أوبرا «عطيل» التي وضعها ,dell'illustrissimo maestro[٣] روسيني! وكان غارسيا في دور عطيل وأنا في دور ياغو - ولما أخذ يؤدي هذا المقطع...

هنا اتخذ بانتاليوني وضعاً مسرحياً، وبدأ يغني بصوت مرتعش مبحوح ولكنه جهير فخم:

L'o... ra daver... so daver... so il fato
Io più no... no... no non، temer[٤]

- لقد اهتز المسرح signori miei ولكني لم أتقهقر بل غنيت بعده:

L'i... ra daver... so daver... so il fato
.Temèr più non dovr[٥]

- وانقض هو فجأة كالبرق، كالنمر، بهذا المقطع:

Morro!... ma vendicato!...[٦]

- أو اسمعوا هذا أيضاً، عندما غنى... عندما غنى هذه الآحادية الشهيرة ...Pria che spunti[٧] من أوبرا «Matrimonio segreto»[٨]... هنا

١- صوت الصدر، نعم (بالإيطالية في الأصل). - الناشر.

٢- يا سادتي (بالإيطالية في الأصل). - الناشر.

٣- المايسترو الأشهر (بالإيطالية في الأصل). - الناشر.

٤- لتغضب الأقدار فإني لن أخافها بعد اليوم (بالإيطالية في الأصل). - الناشر.

٥- لتغضب الأقدار فليس حتماً أن أخافها بعد اليوم (بالإيطالية في الأصل). - الناشر.

٦- إني أموت!... ولكني أموت منتقماً!... (بالإيطالية في الأصل). - الناشر.

٧- قبل يطلع... (بالإيطالية في الأصل). الناشر.

٨- «الزواج السري» أوبرا للمؤلف الموسيقي الإيطالي دومينيكو تشيماروز (١٧٤٩ - ١٨٠١).

أضاف il gran Garcia بعد كلمتي: L'cavalli digaloppo [1] - قوله Senza posa caccera [2] فاسمعوا ما أروع هذا، com'è stupendo! - وهنا بدأ العجوز في ترديد نغمة فذة، نغمة فذة، لكنه توقف عند نوطتها العاشرة، وأخذ يسعل، ثم لوّح بيده، وغمغم وهو يستدير برأسه: - لماذا تعذبونني؟.

فنهضت جيما من مقعدها في تلك اللحظة، وهتفت وهي تصفق بملء قوتها: برافو!... برافو! وأسرعت إلى ياغو المتقاعد المسكين تهزه من كتفيه بترفق وحنان. ولكن إميل وحده كان يضحك من دون شفقة، فإن هذه السن - Cet age est sans pitié [3]- لا تعرف الشفقة - هكذا قال لافونتين.

حاول سانين أن يواسي المغني العجوز: فخاطبه باللغة الإيطالية، (كان قد التقط بضع كلمات منها أثناء جولته الاخيرة) وحدثه عن paese del Dante، dove il si suona [4] وكانت هذه الجملة مع جملة Lasciate ogni speranza [5] هي كل ما حملته من إيطاليا حقيبة السائح الشاب من المتاع الشعري الإيطالي. ولكن بانتاليوني لم يؤخذ بهذا التملق، فزاد رأسه انخفاضاً، وذقنه غوصاً في رباط عنقه، واكتأبت نظراته الشتيتة، وصار من جديد يشبه الطائر، بل إن الغضب جعله كالغراب، أو أدهى، كالحدأة، وعندئذ سرت حمرة خفيفة في وجه إميل كما يحدث للأولاد المدللين، والتفت يقول لأخته: إن خير ما تفعله إذا كانت ترغب في امتاع الضيف أن تقرأ عليه شيئاً من أعمال الكاتب الفكاهي مالتز فإنها تجيد قراءتها. فضحكت جيما وقالت وهي ترشق أخاها بيدها: «إنه هكذا في تفكيره دائماً!» ولكنها قامت من فورها إلى غرفتها، وعادت بكتاب صغير، فجلست إلى المائدة أمام

١- جياد تخبّ (بالإيطالية في الأصل). - الناشر.

٢- سنحثها من غير انقطاع (بالإيطالية في الأصل). - الناشر.

٣- اقتباس من حكاية لافونتين «الحمامتان». وجان دو لافونتين (١٦٢١ - ١٦٩٥) كاتب فرنسي مؤلف الحكايات الشهيرة المعروفة باسمه.

٤- اقتباس غير دقيق من «الكوميديا الإلهية» لدانتي.

٥- كتابة على بوابة الجحيم: «أيها الداخل، تخلّ عن الأمل» (دانتي «الكوميديا الإلهية» «الجحيم» النشيد الثالث).

المصباح، ثم التفتت وهي ترفع اصبعها - «صمتاً. همس!» - حركة إيطالية صرف - وطفقت تقرأ.

- ٧ -

كان مالتز اديباً من فرانكفورت، اشتهر في الثلاثينات[١]، بضرباته القلمية الهزلية التي أرسلها في مقطوعات قصيرة، مكتوبة باللغة المحلية الدارجة. لم تكن عميقة المعنى ولكنها ظريفة مرحة، وقد صوّر بهذا كله نماذج من سكان فرانكفورت. وظهر أن جيما تحسن الإلقاء كالممثلين. كانت تعبر بحركات وجهها عن سمات كل شخصية، وتلتقط خصائصها بصورة ممتازة، مستعينة بوسائلها الموروثة عن جنسها الايطالي في إبراز هذه الخصائص. لم تأخذها الرحمة بصوتها الرقيق ولا بوجهها الرائع، فحين تقتضي منها المناسبة تقليد عجوز ملتاث العقل، أو حاكم بليد، كانت تقلب سحنتها في أشكال هزلية شتى، وتكيفها على أوضاع ساخرة شائهة، فتغرب عينيها، وتجعد أنفها، وتلثغ أو ترأرئ، وتموء، وتصيء... لم تضحك وقت القراءة، ولكن حينما كان المستمعون (ما عدا بانتاليوني، فقد خرج غاضباً عندما بدأ الحديث عن (quel ferroflucto Tedesko)[٢]، حينما كان المستمعون يقاطعونها بانفجار من قهقهتم المشتركة المشجعة، كانت تضع الكتاب على ركبتيها، وترن ضحكتها، وعندئذ ترتد برأسها إلى الوراء، وترتعش خصل شعرها الأسود في حلقات ناعمة على عنقها، وعلى كتفيها المهتزين، فإذا سكن الضحك، عادت إلى الكتاب، وجعلت ملامحها في الوضع الملائم، واستأنفت القراءة في جد وتوتر. لم يستطع سانين أن يكبح جماح إعجابه بها. بهرته خصوصاً بأن وجهها المثالي الرائع اتخذ، على نحو يشبه الإعجاز، هذه السمات الهازلة بل حتى الماجنة في بعض الأحيان. ولكن جيما لم توفق إلا قليلاً في تأدية أدوار الفتيات التي تمثلها من تسمى jeunes premières[٣]، لم تنجح على الخصوص في تأدية المقطوعات الغرامية، وقد شعرت هي

١- واضح أن المقصود هنا ثلاثينات القرن التاسع عشر. - المترجم.

٢- الألماني الملعون (بالايطالية في الأصل). - الناشر.

٣- الفتاة الأولى (بالفرنسية في الأصل). - الناشر.

بذلك، فكانت تضيف على هذه الأدوار نبرات خفيفة من السخرية - كأنها لا تصدق كل هذه المطارحات الغرامية الحارة، وهذه الخطب الرنانة التي حاول المؤلف أن يتجنبها بقدر ما استطاع.

لم يلحظ سانين أن الوقت يطير. تذكر موعد سفره القريب عندما دقت الساعة العاشرة، فقفز من مقعده كالملسوع، فسألته فراو لينوري:

- ماذا بك؟.

- ينبغي أن أسافر اليوم إلى برلين. وقد احتجزت مكاناً في العربة.

- متى تتحرك العربة للسفر؟.

- في منتصف الساعة الحادية عشرة.

فقالت جيما:

- فاتك الموعد إذن، فابق... سأواصل القراءة. فسألت فراو لينوري باستطلاع:

- أدفعت قيمة التذكرة كلها أم دفعت عربوناً فقط؟ فأجاب سانين وهو يزفر من صدر مثقل:

- كلها!.

نظرت إليه جيما، ورأت بعينيها وضحكت، فأنبتها أمها قائلة:

- أضاع الشاب نقوده في الهواء وأنت تضحكين، فقالت جيما:

- لا بأس، فأن هذا لن يفقره، وسنحاول أن نخفف عنه، هل تريد ليموناضة؟.

فشرب سانين كأساً من الليمونادة، وشرعت جيما في القراءة من مالتز، وسار كل شيء في سهولة ويسر.

دقت الساعة الثانية عشرة، فتهيأ سانين للانصراف، وقالت جيما:

- لا بد لك أن تبقى بضعة أيام في فرانكفورت، فإلى أين يقتضيك الإسراع في الرحيل؟ لن تجد مدينة أكثر مرحاً من فرانكفورت وبعد أن أمسكت قليلاً عن الكلام أضافت بابتسامة ـ الحقيقة لن تكون. ـ لم يجب

سانين بشيء. كان يفكر: إن فراغ جيبه سيضطره إلى البقاء في فرانكفورت حتي يأتي جواب صديق من برلين اعتزم أن يكتب إليه «ويطلب أن يقرضه شيئاً من النقود، وقالت فراو لينوري:

– ابق، ابق، سنعرفك إلى السيد كارل كلوبير خطيب جيما. لم يستطع أن يجيء اليوم لأن لديه مشاغل كثيرة في مخزنه... لا شك أنك رأيت في شارع تسيل أكبر مخزن للأجواخ والحرير. إنه مدير هذا المخزن، ولكنه سيكون مسروراً جداً بأن يقدم لك نفسه.

شعر سانين بالخيبة، ولا يعلم سببها إلا الله، تلقاء هذه الأنباء، ولمعت في ذهنه هذه الخاطرة – «ما أسعد هذا الخطيب»، ونظر إلى جيما فخيل إليه أن مسحة من السخرية خالطت نظرتها. أخذ يودع مضيفيه، فسألته فراو لينوري:

– إلى الغد إذن، هل اتفقنا؟.

فأجاب سانين:

– إلى الغد!.

سار معه إميل وبانتاليوني والكلب تارتاليا يشيعونه حتى زاوية الشارع، و لم يصبر بانتاليوني على كتمان عدم رضاه عن طريقة جيما في الإلقاء:

– ما أقل حياءها! تتمسخر، تصيء، una carricatura [1]، كان عليها أن تمثل ميروبه أو كليتيمنيسترا[2]، أي شيئاً لشوامخ التراجيديين، ولكنها تمثل وتقلِّد ألمانية مريبة! أنا أيضاً أستطيع أن أرطن بهذه الميرتز والكيرتز والسميرتز – قال ذلك بصوته الخشن المبحوح وهو يدفع ذقنه إلى الأمام ويمد أصابع يده، فأخذ الكلب تارتاليا ينبحه، وأغرق إميل في الضحك، فاستدار الشيخ مرتداً إلى الوراء.

١– واحدة كاركاتورية (بالإيطالية في الأصل). – **الناشر**

٢– ميروبا بطلة أسطورة قديمة، وزوجة كريسفونت قيصر ميسينيا. وقد قتل الطاغية باليفونت زوجها وطفلها وأجبرها على الزواج منه. وكليتيمنسترا في الأساطير الإغريقية القديمة زوجة القيصر اغاممنون، قتلت زوجها، فقتلها ابنها أوريستيس.

عاد سانين إلى فندق «البجعة البيضاء» (كان قد ترك أشياءه في الصالة العامة)، بنفس يعتلج فيها إحساس غامض، وفي اذنيه يرن هذا الخليط من الألمانية والفرنسية والإيطالية.

- خطيبة! - همس وهو يستلقي على السرير في الغرفة المتواضعة التي اعطيها - وما أروع جمالها! وإذن ما بقائي في هذه المدينة؟.

ولكنه في اليوم التالي أرسل رسالة إلى صديقه في برلين.

- ٨ -

ما كاد يلبس ثيابه حتى دخل الخادم ينبئه بأن سيدين ينتظران مقابلته. وظهر أن إميل إحدهما، أما الثاني، وهو رجل يملأ النظر، مديد القامة، في مقتبل العمر، وسيم الملامح، فكان الهر كارل كلوبير خطيب الحسناء الرائعة جيما.

أغلب الظن أن مدينة فرانكفورت من أولها لآخرها لم تعرف وقتذاك في أي مخزن من مخازنها مديراً تجارياً يشبه السيد كلوبير في لياقته وتهذيبه وخطورة شأنه بمظهره المتحرز المهذب. والحقيقة أن أناقته مشوبة بقليل من برود الانكليز وتحفظهم (كان قد قضى سنتين في انجلترا)، ولكنه مع هذا كله آسر ساحر بمحضره ومظهره. لا تخطئ العين منذ النظرة الأولى أن هذا الشاب الجميل، الصارم قليلاً، الجم التربية والتهذيب، النظيف كل النظافة، قد تعود أن يخضع للأعلين، ويأمر الأدنين، وأن عليه وهو إلى جانب منصة البيع في المخزن أن يوحي حتى إلى الزبائن أنفسهم بالاحترام. وما عليك إلا أن تنظر إلى ياقته المنشأة الصلبة لتدرك أن نزاهته أبعد من أن يعلق بها ولو مثقال ذرة من الشك! أما صوته فهو مما تتوقعه من رجل على طرازه، فهو قوي واثق ريان، هادئ وقور رقيق النبرات، يلائم على الخصوص توزيع الأوامر على المرؤوسين بمثل هذه العبارات: «انزل هذه القطعة الوردية من المخمل»! أو «أحضر كرسياً لهذه الست»!.

بدا السيد كلوبير بتقديم نفسه، فبأي جلال أحنى جذعه، وبأي لباقة شد ساقيه، وبأي تأدب ضم كعبيه. وكان لهذا من قوة التأثير ما يشعر «بأن لهذا الإنسان ثوباً وروحاً من الصنف الأول»!. وأن أناقة يده اليمنى النظيفة العارية (اليسرى مكسوة بقفاز سويدي، ممسكة بقبعة سوداء عالية تلمع

كالمرآة، وفي داخلها الفردة الثانية من القفاز) التي مدها إلى سانين في تواضع ولكن في قوة، برزت على نحو يبهر العقل: كل ظفر منها قد أخذ ما يكفيه من العناية والإتقان. ثم أفاد بلغة ألمانية عالية: إنه يود أن يعبر عن احترامه وامتنانه وعرفانه لجميل السيد الأجنبي الذي أدى مثل هذه الخدمة الجليلة لقريبه العتيد شقيق خطيبته، وبسط اثناء ذلك يده على رحبها إلى ناحية إميل، وكان يقف هذا في استحياء ملتفتاً بوجهه نحو النافذة واصبعه في فمه. وأضاف السيد كلوبير أنه سيكتب نفسه في السعداء إذا استطاع من جهته أن يكون في حالة استعداد لتوفير البهجة للضيف الكريم. فأجاب سانين بلغة ألمانية لا تخلو من العسر أنه سعيد جداً... وأن ما قدمه لا يستحق الذكر، ودعا ضيفيه إلى الجلوس. الهر كلوبير عبر عن امتنانه، ورفع ذيل فراكه كلمح البرق، وانزلق على الكرسي ولكن بأي رشاقة وخفة انزلق، وجلس من دون استقرار، حتى ليتعذر على المرء ألا يدرك أن «هذا الإنسان يجلس من باب المجاملة ويوشك أن يطير»!. والواقع أنه لم يبطئ، فقد رفرف فجأة، وراوح بقدميه مرة أو مرتين في خفر وحياء كأنه يهم بأن يرقص، وأعلن أنه على غير ما يتمنى لا يستطيع أن يطيل المكوث وقتاً أطول، وأنه عليه أن يسرع إلى مخزنه – فإن العمل قبل كل شيء – ولكن ما دام الغد يوم أحد، فإنه سيعدّ نزهة مرحة إلى «سودين» بعد موافقة فراو لينوري وفراولين جيما، ويشرفه أن يدعو السيد الأجنبي إليها، والمأمول ألا يرفض السيد الأجنبي إضفاء البهاء على هذه الرحلة. فقدم الهر كلوبير نفسه مرة ثانية وذهب، وكانت سراويله تخفق بلونها الفستقي اللطيف، ونعل حذائه الجديد يبعث صريراً مستعذب الوقع.

– ٩ –

بقي إميل واقفاً في مكانه ملتفتاً بوجهه إلى النافذة حتى بعد دعوة سانين له بأن يستريح: فلما غادر صهره العتيد الغرفة، استدار من فوره يسره، وأقبل مبرطما كالطفل، احمرّ الوجه من استحياء، ورجا سانين أن يسمح له بالمكوث عنده قيلاً، وقال: «إن حالتي الصحية الآن أحسن مما كانت قبل، ولكن الطبيب لم يسمح لي بالعمل»، فأسرع سانين إلى القول:

– لك أن تبقى فإنك لا تعيقني في شيء.

كان يسره مثل أي روسي أصيل أن يعتصم بأول ذريعة تعرض له، على ألا يوضع في موضع المضطر إلى القيام بعمل من الأعمال.

شكره إميل، وبعد قليل من الوقت، كان في أُلفة مع المضيف وغرفته، فأخذ يتفرج على أغراضه وأشيائه، ويسأل عن هذا وذاك منها، من أين اشتراه، وما ثمنه؟ ثم ساعده في الحلاقة، واقترح عليه أن يطلق شاربه ،وانتهى به المطاف إلى الإفضاء بكثير من التفصيلات عن شؤون أمه وأخته، وعن بانتاليوني، بل حتى عن الكلب البوديل تارتاليا، وعن كل شاردة وواردة من أمور حياتهم وسعيهم، وزال عنه كل أثر من آثار الحياء، وشعر فجأة بميل عار إلى سانين، لا لأنه أنقذ حياته أمس، بل لأنه مؤنس جذاب، وأسرع إلى البوح له بكل أسراره، وبخاصة ما تخمر لديه من أن أمه تريد جاهدة أن تصنع منه تاجراً، ولكنه يعرف، وهو على يقين مما يعرف، أنه ولد رساماً، موسيقياً، مغنياً، وأن المسرح هو المكان الحقيقي الذي يدعوه، وأن بانتاليوني يشجعه في هذا، ولكن السيد كلوبير يدعم أمه في موقفها بما له من نفوذ عليها، والفكرة عن إعداده ليكون تاجراً انما جاءت على الخصوص من السيد كلوبير هذا، ففي عرفه أنه ليس من شيء في العالم يستحق أن يوازن ويقارن بلقب تاجر! والتاجر يبيع الجوخ والمخمل ويغش الناس بأسعار Narren oder Russen-Preise – (يدفعها الحمقى أو الروس) – هذا هو مثله الأعلى»!.[1]

وما كاد يفرغ سانين من ارتداء ملابسه وكتابة رسالة إلى برلين حتى هتف به إميل قائلاً:

– ولكن الوقت مبكر الآن.

قال إميل وهو يدنو منه في نعومة:

– لا عليك، فلنذهب. سنمر بمكتب البريد، ومنه الينا. ستكون جيما سعيدة! وستفطر عندنا... ولسوف تتحدث إلى أمي في امري وامر مستقبلي.

١– كانت الحال في الماضي، بل لا تزال حتى الآن أن يبدأ الروس في التوافد على مدينة فرانكفورت عند بداية شهر مايو من كل سنة، فيطرأ عندئذ ارتفاع على أسعار السلع في كل المخازن ولذلك أطلق اسم Russen (روسية) – أو للأسف! – Narren– Preise («أسعار الحمقى») على هذه الأسعار المرتفعة، **(ملاحظة المؤلف)**.

فقال سانين:

- طيب، لنذهب.

وغادرا الغرفة.

- ١٠ -

أقبلت عليه جيما في غبطة لا شك فيها، واستقبلته فراو لينوري بأعظم ترحيب: كان واضحاً أنه ترك في نفسيهما أثراً طيباً أمس، وقبل أن يجري إميل ليوصي بإعداد الفطور، همس في إذن سانين قائلاً: «لا تنس»! فأجاب سانين «لن انسى»!.

كانت فراو لينوري متوعكة الصحة، تشكو صداعاً، وتسترخي في مقعدها من دون حركة، وجيما تلبس بلوزة صفراء، وتشد خصرها بزنار أسود من الجلد. كانت تبدو متعبة أيضاً، يكسو وجهها بعض الشحوب، وتحت عينيها ظل من السواد، لكن بريقهما لم يكن أقل، بل إن الشحوب قد أضفى على قسمات وجهها ذات الطابع الكلاسيكي شيئاً من الغموض والعذوبة. وكان سانين في هذا اليوم بالذات مأخوذاً بهذا الجمال المنساب من كفيها، كلما رفعتهما ترد خصلاتها اللامعة أو لتسويتها - لم يكن قادراً على أن يحول بصره عن أصابعها الرشيقة الطويلة المتباعدة بعضها عن بعض مثل فورنارينا[1] كما رسمها رافائيل.

كان الحر شديداً في فناء الدار، فأراد سانين أن ينصرف بعد الفطور، ولكن القوم أشاروا إلى أن خير ما يفعله المرء في مثل هذا اليوم القائظ ألا يتحرك من مكانه، فوافق ونزل. كانت الغرفة الخلفية التي جلس فيها مع مضيفيه تمتاز بشيء من لطف الجو، تطل نوافذها على حديقة صغيرة مزروعة بشجيرات الأكاسيا، المكسوة بالازهار الذهبية حيث اجتمعت في خمائلها أسراب النحل والدبابير والزنابير، وانتثرت في طنين متصل كان يتسرب إلى الغرفة من صفق النافذة الموارب، ومن خلال الأستار المسدلة، فكأنه ينبئ بما يسيل في الخارج من القيظ، وأن الاستقرار في منزل مغلق مريح أحلى من العسل.

١- هي، حسب أسطورة بيوغرافية، فتاة بائسة عشقت الرسام رفائيل. وباسمها سميت لوحة في قصر باربيريني في روما.

تحدث سانين كثيراً كما فعل أمس، ولكنه لم يتحدث عن روسيا ولا عن الحياة الروسية. لقد تمنى أن يرضي صديقه الشاب الذي أرسل بعد الإفطار مباشرة إلى السيد كلوبير ليتمرن على أعمال المحاسبة، فدفع الحديث دفعاً إلى الموازنة بين ما يفيد وما لا يفيد في كل من الفن والتجارة. و لم يدهشه أن فراو لينوري وقفت إلى جانب التجارة فقد توقع ذلك منها، ولكن جيما كانت أيضاً متفقة مع أمها في الرأي:

– حينما تكون فناناً، ومغنياً على الخصوص – أكدت هذه الكلمة بحركة حماسية من يدها من أعلى إلى أدنى – فلا بد أن تكون في المقام الأول! ولا يليق المقام الثاني أبداً، فمن يدري، هل تستطيع أن تستأثر بالمقام الأول؟.

كان بانتاليوني يشترك في الحديث (سمح له بالجلوس على مقعده في حضرة السادة باعتباره خادماً قديماً وشيخاً عجوزاً، ثم إن الطليان بعامة لا يتشددون في الرسميات). وصمد بانتاليوني كالجبل في دفاعه عن الفن، ولكن الحجج التي أدلى بها لم تكن مما يعتدّ به كثيراً، فقد اعتمد في أكثر دفاعه على القول بأن المفروض في الفنان أن يتمتع قبل كل شيء d'un certo estro – d'inspirazione – بنفحة من الالهام! فلاحظت فراو لينوري قائلة بأنه كان يتمتع أيضاً بهذا estro ولكنه مع ذلك... فأجاب بانتاليوني في جفوة:

– كان لي أعداء.

– ولماذا تعرف أنت (الطليان يستعملون ضمير المفرد بسهولة) أن إميل لن يكون له أعداء حتى حين يكتشف لديه هذا estro؟

فأجاب بانتوليوني غاضباً:

– هيا إذن، اعملي منه تاجراً، ولكن ما كان جبوفاني باتيستا ليفعل هذا على الرغم من أنه بالذات كان حلوانياً!.

– جيوفاني باتيستا، زوجي، كان إنساناً عاقلاً، ولو أنه في صباه شغف...

ولكن الشيخ كان قد عزف عن الإصغاء، فخرج وهو يكرر في عتاب؛

– آه! جيوفاني باتيستا!.

واندفعت جيما إلى القول لو أن إميل كان يشعر مواطناً بأن عليه أن

يحشد قواه جميعاً من أجل تحرير إيطاليا، فإن هذه الغاية السامية المقدسة تستحق ولا شك أن يضحي بمستقبله الرخي في سبيلها، ولكن ليس في سبيل المسرح! هنا ظهر القلق على فراو لينوري، فأخذت تتوسل إلى ابنتها ألا تضلل أخاها على الأقل، وتكتفي هي بأن تكون تلك المتحمسة للجمهورية! وما إن انتهت من قولها حتى أخذت تتأوه وتشكو من رأسها الذي «يوشك أن ينفجر» (كانت فراو لينوري تخاطب ابنتها بالفرنسية مجاملة للضيف).

وأسرعت جيما من فورها إلى العناية بها، فكانت تنفخ على جبينها في هدوء، وتبلله بماء الكولونيا، وتقبل خديها في رقة وتمهد وضع الوسادة تحت رأسها، وتوصيها بالصمت عن الكلام، ثم تعود إلى تقبيلها، والتفتت أخيراً تروي على سانين ما كانت عليه أمها من الجمال والفتنة، واستدركت قائلة: «لماذا أقول كانت وهي الآن ساحرة! انظر ما افتن عينيها»!.

واختطفت جيما من جيبها منديلاً أبيض غطت به وجه أمها، ثم أخذت تسحبه من طرفه في بطء إلى أسفل، فكان جبينها يبرز شيئاً فشيئاً، ثم برز حاجباها، ولما ظهرت عينا فراو لينوري، انتظرت جيما لحظة، ثم طلبت إلى أمها أن تفتح عينيها، فأطاعت الأم، وعندئذ صرخت جيما صرخة افتتان (كانت عينا فراو لينوري جميلتين جداً ولا شك) ثم أزلقت المنديل بسرعة إلى أسفل حيث ظهر جزء من وجه أمها أقل تناسقاً مما عداه، وعادت تقبلها من جديد. طفقت فراو لينوري تضحك وهي تصطنع مدافعة ابنتها عن نفسها، وكذلك أخذت جيما تصطنع المقاومة وتتمسح بأمها أثناء ذلك، ولكن بحركات لا تشبه تغنج القطط، ولا تشبه التشخيصات الفرنسية، ولكنها في تلك الرشاقة الإيطالية التي تنطوي دائماً على الشعور بالقوة.

أعلنت فراو لينوري أخيراً أنها متعبة... فنصحت لها جيما بأن تغفو قليلاً هي على مقعدها، – وسنبقى أنا والسيد الروسي – avec le monsieur russe [1]– هادئين هادئين... مثل فارين صغيرين comme des petotes souris [2]– فأجابتها فراو لينوري بابتسامة وهي تغمض عينيها، وبعد أن

١– بالفرنسية.

٢– بالفرنسية.

تنهدت قليلاً، أخذت تهوم، فانزلقت جيما على المقعد اللاصق بمقعد أمها، وجلست ساكنة لا تند عنها حركة إلا فيما ندر - كانت تضع سبابتها على شفتيها، وتسند الوسادة تحت رأس أمها بالثانية - وتهمس لسانين بصوت خافت: «هس» وهي ترمقه بجانب عينيها حينما تند عنه حركة ولو ضئيلة. وانتهى ذلك كله بسانين إلى التجمد عن الحركة، والجلوس كالمسحور، والاتجاه بكل روحه وقلبه إلى النظر في إعجاب إلى هذه اللوحة التي تعرض عليه في هذه الغرفة المعتمة، حيث تتألق هنا وهناك ازرار الورد الحمراء وتطل من أكمامها الناضرة المؤنقة في كؤوسها الخضراء العتيقة، وهذه المرأة النائمة بيديها الململومتين في تواضع، ووجهها الطيب المتعب، تؤطره وسادة في بياض الثلج، وهذه الصبية اليقظة الحساسة، وهي إلى هذا طيبة ذكية طاهرة، ولا جدال في أنها مخلوق رائع فوق الوصف بعينيها السوداوين العميقتين اللتين تتلألآن على الرغم من هذه الظلال الوطفاء التي تغمرها. ما هذا؟ أهو حلم أم حكاية؟ وكيف وقع هو نفسه هنا؟.

- ١١ -

رنّ الجرس المعلق في الباب الخارجي، ودخل الدكان فتى من الفلاحين، بقبعة من الفرو، وصدار أحمر، لم يكن قبله أي زبون قد دخل الدكان منذ الصباح...

- على هذه الصورة نحن نتعاطى التجارة! - تنهدت فراو لينوري وهي تخاطب سانين أثناء الإفطار. وعادت إلى تهويمها.

تهيبت جيما أن تسحب يدها من تحت الوسادة، فهمست إلى سانين قائلة: «دبر الأمر هناك بدلاً مني»!.

فقام سانين يسعى إلى الدكان على أصابع قدميه كي يعطي الفتى مطلوبه وهو ربع رطل من أقراص النعناع، وهمس من خلال الباب إلى جيما:

- كم يطلب منه؟.

فأجابت هامسة مثله:

- ستة كريتزورات[1]!.

١- نقود ألمانية. - المترجم.

وزن سانين ربع رطل، وانتقى ورقة جعلها على شكل مخروط، وما كاد يضع فيه الأقراص حتى سقطت، فأعادها إلى الورقة، ولكنها تبعثرت من جديد، وأخيراً اعطاها الفتى، وقبض منه النقود... كان الفتى يراقبه في دهشة وهو يعتصر قبعته على بطنه، وفي الغرفة المجاورة، كانت جيما تشد بيدها على فمها وهي تكاد تموت من الضحك، وما إن ذهب هذا الزبون حتى جاء زبون آخر، ثم ثالث... فقال سانين في نفسه: «لا بد أن يدي مباركة». طلب الزبون الثاني كأساً من عصير اللوز، وطلب الثالث نصف رطل من السكاكر، فأقبل سانين يلبي ما طلباه، وارتفع رنين الملاعق، ونقل الأطباق وكان يدس أصابعه في الصناديق والمرطبانات من دون تهيب، وظهر له بعد الحساب أنه تقاضى في عصير اللوز أقل من سعره، وأخذ في السكاكر زيادة بلغت كريتزورين، ولم تنقطع جيما عن ضحكها المكتوم، بل إن سانين نفسه كان يستشعر مرحاً يزيد عن المألوف، ونفخة من السعادة العارمة تسري في روحه، وخيل إليه أنه يستطيع أن يبقى قرناً من الزمن وراء هذه المنصة يبيع السكاكر وعصير اللوز، بينما هذه المخلوقة الجذابة تنظر إليه من وراء الباب بعينيها العابثتين، وشمس الصيف تتدفق في الظهيرة من خلال فروع الكستناء الكثيفة النامية قرب النافذة وتملأ الغرفة كلها بذهب الاشعة المخضوضر وبالظلال، وقلبه الهانئ يحس تراخياً عذباً وفراغاً من الهموم، ويحس بالشباب - بفورة الشباب الأولى.

طلب الزبون الرابع فنجاناً من القهوة فاضطر سانين أن يدعو بانتاليوني (لم يكن إميل قد عاد من مخزن السيد كلوبير حتى تلك اللحظة). وجلس سانين إلى جنب جيما من جديد، كانت في فرح عظيم لأن أمها مستغرقة في قيلولتها، وقالت لسانين في همس:

- إن الصداع يزول عن أمي اثناء النوم.

وحدثها سانين - في همس كما من قبل - عن «تجارته»، واستعلم منها في جد عن اسعار الحلويات، فأجابته جيما بنفس لهجته الجدية عن هذه الاسعار، وكانا يضحكان في سرية وألفة كأنما يدركان أنهما يمثلان دوراً في

تمثيلية كوميدية مرحة للغاية. وفجأة ارتفع في الشارع صوت «شارمانكا»[1]، وهي ترسل اغنية من أوبرا «فريشيوتس»[2] Durch die Felder، durch die Auen [3]، وانبعثت النغمة رنانة نائحة، تهتز في الهواء الساكن وتصفر، ففزعت جيما... «سيوقظ أمي»!، فأسرع سانين إلى الشارع، وفرك كف الرجل ببضعة كريتزورات، وأجبره على أن يصمت ويبتعد عن هذا المكان. ولما عاد، شكرته جيما بإيماءة خفيفة من رأسها، وأخذت تدن بصوت يكاد لا يسمع، متذكرة وهي تبتسم، تلك المقطوعة من موسيقى فيبر التي يعبر فيها ماكس عن حيرته من احاسيس الحب الأول. ثم سألت سانين عما إذا كان يعرف «فريشيوتس» ويحب مؤلفها فيبر، واضافت أنها على الرغم من اصلها الايطالي تسيغ هذه الموسيقى أكثر مما تسيغ غيرها. ثم تفرع الحديث من فيبر إلى الشعر والرومانسية، إلى هوفمان[4]، وكان دارجاً بين القراء حتى في ذلك الزمان...

أما فراو لينوري فقد بقيت نائمة طوال هذا الوقت، بل إنها شخرت قليلاً، وضوء الشمس يرسل من صفق النافذة خيوطاً رفيعة تكاد لا ترى، ولكنها في تدفقها الدائم، تنتقل منسابة على الأرض والاناث، وعلى فستان جيما وأوراق الازهار وأكمامها.

- ١٢ -

كان الواضح أن جيما لا تشعر بالميل إلى هوفمان، بل إنها تراه... مملاً! فأن الطابع الضبابي في خيال أبناء الشمال، وهو الطابع الغالب في قصصه، كان مستغلقاً على طبيعتها الجنوبية وفطرتها. لقد أكدت باستخفاف: «ان هذه حكايات كتبت جميعاً للأطفال»!، وأحست كذلك، ولو بصورة

١- آلة موسيقية تدار باليد. - المترجم.

٢- «القناص الحر» - أوبرا رومانسية للمؤلف الموسيقي الألماني كارل ماريا وبير (١٧٨٦ - ١٨٢٦).

٣- «خلال السهول، خلال الوديان...» (بالألمانية في الأصل). - الناشر.

٤- هوفمان (١٧٧٦ - ١٨٢٢) كاتب ومؤلف موسيقى ألماني. في بداية الفصل الثاني عشر نشرت حادثة من قصة هوفمان «الاخطاء».

غامضة، غياب الشاعرية عند هوفمان بل إن قصة واحدة من قصصه نسيت اسمها، قد اعجبتها جداً، أو الاصح أنها اعجبت ببدايتها أما نهايتها فإنها لا تدري هل اهملت قراءتها أم قرأتها ونسيتها. تدور احداث القصة حول شاب يلتقي فتاة في موضع يبدو أنه دكان حلوى، والفتاة اليونانية رائعة الجمال يرافقها شيخ غامض شرير. ويحب الشاب هذه الفتاة من أول نظرة، فتبادله هي نظرة حزينة كأنها تتوسل إليه أن يحررها. ويخرج الشاب لحظة ثم يعود فلا يجد أثراً لا للفتاة ولا للشيخ، فينطلق في طلبهما، وكلما لاح له أثر جديد ذهب وراءه لعله يلقاهما، ولكنه اخفق في العثور عليهما بأي صورة أو وسيلة. لقد اختفت الحسناء إلى الأبد، وتعذر عليه طوال حياته أن ينسى نظرتها المتوسلة، وبقي معذباً بهذه الفكرة، وهي إن سعادة العمر قد انزلقت من يديه...

من المشكوك فيه أن هوفمان وضع لقصته هذه الخاتمة، ولكن جيما تصرفت بها على هذا النحو، وهكذا استقرت في ذاكرتها.

وأضافت:

– اعتقد أن أمثال هذا اللقاء وهذا الفراق تحدث في العالم أكثر مما نتصور.

بقي سانين صامتاً... ثم أخذ بعد أن امسك قليلاً عن الكلام يتحدث عن... السيد كلوبير، وهذه أول مرة يتذكره فيها، فأنه لم يخطر بباله حتى هذه اللحظة.

صمتت جيما بدورها، وطفقت تفكر في هدوء وهي تقضم ظفر سبابتها وتحد النظر إلى ناحية، ثم أخذت تمدح خطيبها، واشارت في حديثها إلى رحلة الغد التي اعد العدة لها، ثم عادت إلى الصمت بعد أن اختلست نظرة سريعة إلى سانين.

لم يعرف سانين عمّ ينبغي له أن يتحدث، فكان في غاية السرور حينما اندفع إميل إلى الغرفة في ضوضاء فأيقظ فراو لينوري...

نهضت فراو لينوري عن المقعد عندما ظهر بانتاليوني ليعلن أن الغداء جاهز، ذلك أن صديق الاسرة، المغني بالامس والخادم اليوم، كان يقوم أيضا بوظيفة الطاهي.

بقي سانين بعد الغداء أيضاً، استبقاه مضيفوه متذرعين بالحر المخيف، ولما خفَّ الحر في الاصيل دعوه إلى شرب القهوة في الحديقة تحت ظلال الاكاسيا، فوافق سانين. كان يشعر بأنه في حالة طيبة، فإن الحياة تنطوي على فتنة عظيمة في تواترها الهادئ وجريانها المطمئن، وقد استسلم سانين إلى لذاذة تلك الفتنة، فلا يطلب شيئاً معيناً من يومه الحاضر ولا يفكر بهموم الغد ولا يستعيد ذكريات الامس. وأي نعمة أغلى من هذا التداني المجرد مع فتاة مثل جيما؟ إنه سيفارقها عما قريب، ولعله فراق الابد، ولكن الزورق المسحور الذي وصفته اغنية اولاند[١] العاطفية لا يزال نفسه حتى الآن يحملهما في مجرى حياة مروضة التيار - فاسعد وتمتع، أيها السائح! فكل شيء يبدو له سائغاً جذاباً. عرضت عليه فراو لينوري مبارزة يشترك فيها بانتالوني بلعبة «التريستو»، وعلمته هذه اللعبة الإيطالية البسيطة من العاب الورق، وقد ربحت منه بضعة كريتزورات فكان في غاية الرضى، واستجاب بانتاليوني لرجاء إميل، فحمل الكلب تارتاليا على أن يعرض كل العابه، فقفز على العصا، و«تكلم»، أي أنه نبح وعطس وأغلق الباب بأنفه، وحمل إلى صاحبه حذاءه المفلطح - ثم وضعت على رأسه قبعة «كيفر»[٢]، قديمة، ومثل دور الماريشال برنادوت[٣] وهو يواجه من الامبراطور نابليون حملة عنيفة من التأنيب لقاء خيانته. وطبيعي أن بانتاليوني كان في دور نابليون، وقد مثله بدقة وأمانة: صلب يديه على صدره، وكبس قبعته المثلثة حتى عينيه، وأخذ يتحدث على نحو خشن قاطع لاذع بالفرنسية، ولكن رباه! بأي لغة فرنسية!

١- المقصود رومانس الشاعر الرومانسي الألماني لودفيغ اولاند (١٧٨٧ - ١٨٦٢) «الزورق» (Das Schifflein)

٢- قبعة عسكرية بولونية من الجلد مزينة بالريش. - **المترجم.**

٣- برنادوت - مارشال فرنسي، اشترك في حروب نابليون. في عام ١٨١٠ انتخبه مجلس الدولة في السويد وريث العرش، ووصي البلاد. ومنذ ذلك الحين احتل برنادوت في السياسة الأوروبية موقفاً معادياً لنابليون، وفي عام ١٨١٣ ترأس القوات السويدية التي اشتركت في القتال ضد الفرنسيين، وصار ملك السويد منذ عام ١٨١٨.

أما الكلب تارتاليا فقد أقعى أمام مولاه خاشعاً مرتبكاً منكمش الذيل، وهو يطرف بعينيه، شعوراً بالخجل واعترافاً بالذنب، أو يوصوص بهما من تحت القبعة المائلة على رأسه، وكلما رفع نابليون صوته بين الحين والآخر، كان برنادوت يقف مستقيماً على قائمتيه الخلفيتين، وأخيراً صرخ نابليون – Fuori traditore [1]– كأنما أخرجه الغضب عن طوره فنسي أن موقفه يقضي بأن يستمر إلى النهاية محتفظاً بمزاجه الفرنسي، فإذا برنادوت يندفع من غير تبصر ويرمي بنفسه تحت الأريكة، ولكنه عاد من مخبئه في اللحظة نفسها وهو ينبح جذلاً مغتبطاً كأنما يريد أن يعلن للحاضرين أن العرض انتهى. لقد ضحك المتفرجون كثيراً، وضحك سانين أكثر مما ضحكوا جميعاً.

كانت لجيما ضحكة لطيفة، متصلة، خافتة، مأنوسة برنين خفيف عذب... وقد خلبت سانين بهذه الضحكة حتى لقد تمنى أن يقبلها من أجل رنينها المأنوس!.

ثم هبط الليل، وأصبح من حسن الذوق أن ينصرف، فقام يودع مضيفيه واحداً واحداً، ويردد لكل منهم قوله: إلى الغد! (حتى إنه قبّل إميل) ثم ذهب إلى مسكنه حاملاً في نفسه صورة الفتاة الصبية، فهي ضاحكة، أو مفكرة، أو هادئة، أو حتى غير مكترثة، ولكنها في كل حالاتها فاتنة! كانت عيناها تتفتحان على رحبهما تارة، فهما مشرقتان كالنهار، أو تسترخيان تارة أخرى في ظل أهدابها الوطف، فهما عميقتان مظلمتان كالليل. هكذا مثلت عيناها أمام عينيه، نافذتين في غرابة وعذوبة من خلال مختلف الصور والأوضاع.

أما عن السيد كلوبير، وعن دواعي بقائه هو في فرانكفورت – فإنه على الجملة، لم يفكر بكل هذا، ولا بكل ما كان يقلقه أمس ولو مرة واحدة.

– ١٤ –

ولكن يجب علينا أن نتحدث ببضع كلمات عن سانين بالذات.

أولاً – كان جذاباً في غاية الجاذبية، ممشوقة القامة أهيفها، ملامحه لطيفة ولكنها مهزوزة قليلاً، شعره ذهبي، وعيناه وديعتان مكحولتان

١– «اغرب عن وجهي أيها الخائن»! (بالايطالية في الأصل). – الناشر.

بالزرقة، وبياضهما مشرب بالحمرة - والأهم: أن ملامحه تفيض بالبساطة وطيب السريرة، مع صراحة توحي للوهلة الأولى بأنه ساذج. مثل هذا الوجه كان يحملك في الماضي على التسليم من فورك بأن صاحبه ولد من أولاد الذوات سليل أسرة محافظة ذات حسب ونسب، «ابن أبيه»، فهو فتى طيب، ولد وترعرع في رحابنا الطليقة التي يقتسمها السهل والغابة، مشيته متعثرة، وفي صوته نبرة، ما تكاد تنظر إليه حتى يتبسم كالطفل... فهو في الجملة كل الطراوة والنضارة والصحة والنعومة، كل النعومة، هذا هو سانين. ولكنه، ثانياً - لم يكن بليداً، ولا فارغاً من بعض ما جمع واستوعى، حافظ على طهارته ونضارته على الرغم من تنقله في الخارج، أما الأحاسيس المقلقة التي كانت تسرق خيرة شباب آنذاك فما كان يعرف منها إلا قليلاً.

بعد اخفاق أدبنا مؤخراً في العثور على «الناس الجدد» بدؤوا يخرجون طرزاً من الشباب ممن يبذلون كل ما في وسعهم ليحافظوا على نضارتهم... وهي نضارة تشبه أصداف فلينزبورغ التي تستورد إلى بطرسبورغ... لم يكن سانين يشبه هؤلاء. فإذا ذهبنا إلى التشبيه والمقارنة، فإن سانين يذكر بفرع غض من فروع التفاح طعم منذ وقت قريب في تربة حدائقنا الخصيبة - أو أنه في أحسن الحالات: مهر من المهار المدللة، ناعم الجلد، سمين القوائم، رقيق، في عامه الثالث، ترعرع في اسطبل سيد من «أصحاب الاصطبلات»، ولا يزال رسن الترويض جديداً عليه... أما الذين رأوا سانين فيما بعد، حينما صوحته الحياة وبدلته تبديلاً وأذبلت لحمه المكتنز بالشباب، فقد رأوا فيه امرأ يختلف كل الاختلاف عن ذلك الإنسان.

في اليوم التالي كان سانين لا يزال راقداً في فراشه حينما اقتحم إميل عليه الغرفة، وهو في حلة العيد، في يده عصا أنيقة، وفي زينته إسراف شديد، وأنبأه أن الهر كلوبير قادم إليه بالعربة، والطقس يعد بأن يكون مدهشاً، وأن كل شيء لديهم جاهز، ولكن ماما لن تذهب معنا، لأن رأسها يؤلمها من جديد. ثم أخذ يستعجل سانين ويحثه على ألا يضيع دقيقة واحدة... أكيد أن الهر كلوبير وصل قبل أن يتم سانين زينته. طرق الباب، وانحنى بجذعه، وأبدى استعداده للانتظار مقدار ما يلزم - ثم جلس، ووضع قبعته على ركبتيه في

أناقة. كان البياع في ابهى منظر، فهو يلمع من شدة الغندرة، تفوح منه رائحة عطر نفاذة: كل حركة من حركاته ترافقها دفقة قوية من العطر. جاء في عربة مكشوفة فارهة مما كان يطلق عليه اسم «لاندو»، استقرت وراء حصانين ضخمين قويين ولكنهما عاطلان من الجمال. بعد ربع ساعة كانت عجلات هذه العربة تخب في أبهة، حاملة سانين وكلوبير وإميل إلى دكان الحلوى. هناك رفضت السيدة روزيللي بكل قوتها أن تشارك في هذه الرحلة، فأرادت جيما أن تبقى مع أمها، ولكن أمها ذادتها عن نفسها وقالت في ثقة:

– لست في حاجة إلى أحد، فإني سأنام، لقد أردت أن أرسل معكم بانتاليوني أيضاً، ولكن الدكان ما فيه أحد.

وسألها إميل:

– هل أستطيع أن آخذ تارتاليا؟.

– تستطيع ولا شك.

لم يبطئ تارتاليا فاندفع في جذل يتسلق العربة ويجلس في موضع السائق وهو يلمظ بلسانه، وكان واضحاً أنه متعود على مثل هذه الرحلة. وكانت جيما تضع على رأسها قبعة واسعة من القش، ذات شريط بني، التوت حافتها من أمامها إلى أسفل فأخفت وجهها، ووصل ظلها حتى شفتيها: وكانت شفتاها تفيضان بالحمرة والطراوة والرقة كما تكون براعم الورد، وأسنانها تلمع في استخفاء وبراءة مثل براءة الأطفال. وكان مجلسها في مقعد الصدر إلى جنب سانين، وجلس كلوبير وإميل في المقعد المقابل، ولما ظهر هيكل فراو لينوري الأبيض من خلال النافذة، لوحت جيما لها بمنديلها، وانطلق الجوادان.

– ١٥ –

سودين – بلدة غير كبيرة تقع على مسافة نصف ساعة من فرانكفورت، وترقد في منطقة جميلة في اذيال جبل تاؤونوس، مشهورة عندنا في روسيا بمياهها التي يقال بأنها مفيدة للمصدورين. أكثر ما يقصدها أهل فرانكفورت للفسحة، لأن في هذه البلدة حديقة غنّاء، فيها مختلف المقاصف التي تقدم البيرة والقهوة تحت ظلال أشجار الزيزفون والاسفندان العالية. والطريق

من فرانكفورت إلى سودين يمتد على ضفة نهر الماين اليمنى، وكله مغروس بأشجار الفاكهة. كانت العربة تدرج في هدوء خلال طريق رائع، وسانين يراقب في الخفاء كيف تعامل جيما خطيبها: فهو أول مرة يراهما مجتمعين. أما هي، فقد احتفظت بهدوئها وبساطتها ولكن مع مقدار يزيد على المعتاد من الانطواء والجد، وأما هو، فكان ينظر في تسامح الوصي الذي سمح لنفسه ولمن في معيته بشيء من المتعة المتواضعة المهذبة. و لم يلحظ سانين أنه يخص جيما بتلك الاهتمامات التي يسميها الفرنسيون empressement [1]. كان واضحاً أن الهر كلوبير يحسب هذه القضية منتهية، فلا يرى ما يدعوه للهم أو القلق، ولكن التسامح لم يفارقه لحظة! فحتى قبيل الغداء، اثناء الجولة الكبيرة خلال الغابات الجبلية والوهاد المحيطة ببلدة سودين، وفي وقت الاستمتاع بجمال الطبيعة، كان يخصها في هذه الطبيعة بكل تسامحه، وقد ينفذ هذا التسامح في بعض الاحيان من خلال صرامته الآمرة الناهية، مثلاً: لاحظ على ساقية من السواقي أنها تجري في وهدة تزيد استقامة عما ينبغي، بدلاً من أن ترسم بعض الالتواءات العفوية، واستهجن سلوك طائر – من الحساسين لأن تغريده يفتقر إلى شيء من التشكيل والتنويع! لم يبد على جيما أنها تشعر بالسأم، بل كانت تبدو راضية مغتبطة، ولكن سانين لم يرها كما عرفها: وما ذلك لأن موجة من الظل طغت عليها، فإن جمالها لم يتلألأ كما تلألأ في هذا الحين، ولكن نفسها انطوت في قرارة ذاتها. فتحت مظلتها من غير أن تنزع قفازيها، وذهبت تتفسح في مظهر رصين وخطوات وئيدة كما تتفسح البنات المثقفات ولا تتكلم إلا قليلاً. وقد احس إميل أيضاً بالخجل، فكيف سانين. كان يزيده ارتباكاً أن الحديث في هذا الظرف يجري بالألمانية. أما تارتاليا فإنه الوحيد الذي لم يكتئب و لم يمل! كان يجري وراء ما يصادفه من الشحارير، وهو يهر وينبح من غير انقطاع، ويقفز فوق الحفر وفوق جذور الاشجار وبقايا جذوعها، ويرمي بنفسه في الماء، ويلعق قطراته في سرعة ونهم، ويهز جسمه وهو ينبح، ويطوح لسانه الأحمر إلى كتفه من جديد. وعمل السيد كلوبير من ناحيته كل ما ارتأى أنه باعث على المرح، فعرض عليهم أن يجلسوا في ظل شجرة بلوط كثيفة الاغصان، ونسل من

١– اهتمامات حميمة (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

جيبه كتيباً يسمى – Knallerbsen oder du sollst und wirst lachen («متفجرات[1]– أو يجب أن تضحك وستضحك!») وبدأ يقرأ بعض النوادر الطويلة المفصلة التي امتلأ بها الكتاب فقرأ حوالي اثنتي عشرة نكتة، ولكن المرح الذي اشاعته كان قليلاً. ما عدا سانين فإنه طفق يكشر عن أسنانه من باب المجاملة، وكان السيد كلوبير نفسه يصدر بعد كل نكتة ضحكة قصيرة لازمة مع أنها متسامحة أيضاً. وفي الساعة الثانية عشرة عادت الجماعة إلى سودين، وقصدوا إلى أحسن نزل في البلدة.

ثم حان الوقت للايعاز بتحضير الغداء.

كان من رأي السيد كلوبير أن يكون الغداء في عريش محتجب من كل جانب – in Gartensalon[2]، ولكن جيما اعترضت فجأة على هذا، وأعلنت أنها لن تتغدى إلا في الهواء الطلق، في الحديقة، على إحدى الموائد الصغيرة الموضوعة أمام النزل، لأنها سئمت أن تكون مع نفس الناس ونفس الوجوه، وتريد أن ترى غيرهم. وكانت جماعات من الضيوف قد وصلت وجلست إلى بعض الموائد.

ومع هذا اذعن السيد كلوبير «لأهواء خطيبته»، وذهب لبحث الأمر مع النادل، ووقفت جيما من غير حركة، مسترخية العينين مطبقة الشفتين. كانت تشعر بأن سانين يلح عليها بنظراته المتسائلة – ويبدو أن ذلك اغضبها. وأخيراً عاد الهر كلوبير وأعلن أن الغداء سيكون جاهزاً بعد نصف ساعة، وارتأى أن يقضوا هذا الوقت في لعب القناني الخشبية، وأضاف أن ذلك مفيد لتحسين الشهية – خه – خه – خه! ولعب بمهارة المعلم، اتخذ اثناء قذف الكرة وضع فتوة تصنع العجائب، فأرقص عضلات يديه، وتأرجح متغندراً على ساق واحدة. كان عتلاً على طريقته، رائع الجسم! ويداه أيضاً كانتا رائعتين وكذلك منديله الذي كان يمسح به يديه، فإنه من الحرير الهندي الثمين المطرز بالنقوش المذهبة!.

ثم حانت لحظة الأكل فجلست الجماعة إلى المائدة.

١– المقصود هنا ما يؤدي إلى تفجير الضحك.

٢– صالة في الحديقة. (بالألمانية في الأصل). – الناشر.

هل يجهل أحد ما هو الغداء الألماني؟ إنه حساء مائع، فيه حبات من العجين والقرفة، وقطع من اللحم ممزقة من طول الغلي، جافة مثل الفلين، يعلق بها الدهن الأبيض، ومعها قطع ملساء من البطاطا، وشيء من الشوندر المنفوخ والفجل الحار. ثم قطعة مزرقة من السمك تسبح في الخل والخردل، ولحم مقلي مع المربى، ولا مفر بعد هذا من Mehlspeise وهي شيء من قبيل الخشاف ذو مرق احمر وطعم حامض قليلاً، تلقاء هذا كان النبيذ والبيرة غاية ما هناك! هذا هو الغداء الذي قدمه النادل «السوداني» إلى ضيوفه. لقد مر الغداء بسلام ولكن للحقيقة أنه كان من دون بهجة، و لم تظهر هذه البهجة حتى حين شرب الهر كلوبير وهو يهتف بصحة «ما نحب»! (Was wir lieben) وكان كل شيء يجري في غاية الاحتشام والتهذيب. ثم قدمت القهوة بعد الغداء، فكانت مائعة مصفرة – أو بصراحة، كانت قهوة ألمانية. وطلب السيد كلوبير من جيما، كما يكون الفارس الحقيقي، أن تسمح له بتدخين سيكارة... ولكن حدث فجأة أمر لم يكن في البال ولا في الخاطر، وهو على التحديد حادث مكدر، بل حادث فظيع!.

كان يحتل إحدى الموائد المجاورة بعض الضباط من حامية الماين، وكان يلحظ بسهولة من نظراتهم وهمساتهم أن جمال جيما اذهلهم. بينهم واحد يبدو أنه من رواد فرانكفورت، فكان لا يرفع نظره عنها، كأنه يعرفها كل المعرفة، أو لعله فيما يبدو يعرف من تكون. وفجأة هبّ هذا الضابط واقفاً، وكأسه في يديه – كان السادة الضباط قد أسرفوا في الشرب ولا يزال على مائدتهم كثير من الزجاجات – واقترب من المائدة التي تجلس جيما إليها. كان شاباً صغير السن، أشهب الشعر، على قسط من حسن المظهر، ومن جمال الملامح أيضاً، ولكن السكر شوّه هذه الملامح، فكان خداه المختلجان، وعيناه الزائغتان المؤرقتان، تضفي عليه مظهراً شائهاً سليطاً. حاول رفاقه أن يمنعوه أول الأمر عما هو مقدم عليه، ولكنهم ما لبثوا إن تركوه: وليكن ما يكون – فماذا سيحصل من هذا؟.

وقف الضابط أمام جيما وهو يترنح قليلاً على ساقيه، وصرخ بصوت مرتفع انفلت من دون إرادته اثناء صراع قام في داخل نفسه، فقال: «اشرب

على صحة أجمل صاحبة مقهى في كل فرانكفورت وفي العالم (و«بلع» الكأس دفعة واحدة) - وتعويضاً عن كل عطل وضرر أخذ هذه الزهرة التي قطفتها اناملها الإلهية»! وأخذ الوردة الملقاة على المائدة قرب صحن جيما. اعترتها الدهشة أول الأمر، ثم اعتراها الخوف ففرّ لونها... وما لبث خوفها أن صار إلى اشمئزاز، فاحمرت فجأة حتى منابت شعرها، وأسلطت عينيها على هذا المتهجم السليط، وغامت عيناها في الوقت نفسه واستطار منهما الشرر، ثم أظلمتا وهما تتوقدان بلهب من غيظ افلت كل عقال. ولا بد أن الضابط تلبك من هذه النظرات، فتمتم بشيء غير مفهوم، وانحنى، ثم استدار عائداً إلى جماعته. وهناك استقبلوه بالضحك والتصفيق الخفيف.

عندئذ نهض السيد كلوبير عن المائدة في الحال، واستقام على طول قامته، ووضع قبعته على رأسه، وقال بصوت وقور لا يتجاوز ارتفاعه حدود السمع: «هذا شيء لم يسمع بمثله! وقاحة لم يسمع بمثلها»! (Unerhrt; Unerhrte; Frechheit)! وفي اللحظة نفسها دعا إليه النادل بصوت صارم وطلب قائمة الحساب... و لم يكتف بذلك بل أمر بإعداد العربة، وأضاف: إن كرام الناس ينبغي ألا يقصدوا هذا المكان، لأنهم يلقون الاهانات! كانت جيما لا تزال جالسة في مكانها وهي جامدة عن الحركة، فلما نطق بهذه الكلمات أخذ صدرها يخفق، واستدارت إليه بعينيها. وأحدّت إليه النظر كما فعلت حين كانت تشزر الضابط. وكان إميل ينتفض من الغضب. وقال الهر كلوبير بالصوت الصارم نفسه:

- قومي يا «مايين فراولين»[1]، هذا مكان لا يليق بك أن تبقي فيه، سنذهب إلى داخل المطعم!.

قامت جيما صامتة، فثنى ذراعه وقدمه إليها فتأبطته - فسار إلى المطعم في تعاظم وخيلاء يزيدان كلما ابتعد عن مائدة الغداء. وسار إميل المسكين يجر قدميه في أثرهما.

كان الهر كلوبير لا يزال يحاسب النادل، وقد امسك يده عن البخشيش على سبيل العقاب فلم ينقده كريتزراً واحداً. في هذه الاثناء كان سانين

١- يا آنستي. (بالألمانية). - المترجم.

يذهب بخطوات مسرعة إلى المائدة التي يجلس إليها الضباط - وخاطب الضابط الذي أهان جيما (كان في هذه اللحظة يطوف بالوردة على رفاقه ليشموها بالدور) وقال بلسان فرنسي مبين:

- إن ما عملته الآن يا سيدي الكريم لا يليق برجل شريف، بل لا يليق بالزي العسكري الذي ترتديه، وقد جئت لأقول لك بأنك وقح فاسد التربية!.

هبّ الشاب واقفاً على قدميه، ولكن ضابطاً آخر أكبر منه سناً أجلسه بحركة من يده، ثم التفت إلى سانين وسأله بالفرنسية أيضاً:

- ماذا، هل أنت قريب حميم لهذه البنت؟ أأخوها أم خطيبها؟ فصاح سانين:

- أنا غريب عنها قطعاً، فأنا روسي، ولكني لا أستطيع أن أقف مكتوف اليدين تجاه السفاهة. هذه هي بطاقتي وعنواني حيث يستطيع السيد الضابط أن يجدني.

وأتبع قوله بأن رمى بطاقته على المائدة، وانتزع في اللحظة نفسها وردة جيما وكانت ملقاة في صحن أحد الضباط الجالسين، فحاول الشاب أن يقوم مرة ثانية عن مقعده، ولكن زميله أمسكه من جديد وهو يقول: «دونغوف، الزم الهدوء»! (Dnhof، sei still!) ونهض هو نفسه فرفع يده بتحية عسكرية، وكان الاحترام بادياً في هيئته وصوته حين قال لسانين بأن أحد ضباط كتيبته سيكون له الشرف في أن يوافيه إلى مسكنه. أجاب سانين بانحناءة مختصرة، وعاد مسرعاً إلى جماعته.

تظاهر السيد كلوبير بأنه لم يلحظ غياب سانين ولا الإيضاح الذي رمى به السادة الضباط، وأخذ يستحث الحوذي على الاسراع في شد الجوادين إلى العربة، وهو غاضب من بطئه. كذلك لم توجه جيما أي كلمة إلى سانين، بل إنها لم تلتفت إليه: ولكن تقطيب حاجبيها، وانطباق شفتيها، وجمودها عن الحركة، كانت تنبئ جميعاً بما في حالتها النفسية من الكدر. كان واضحاً أن إميل وحده يتمنى الحديث مع سانين. تمنى أن يستوضحه: فقد رآه يذهب إلى الضباط، ويدفع إليهم بشيء أبيض - لعله ورقة أو رسالة أو بطاقة... كان

قلب الفتى يخفق خفقاً عنيفاً، ووجنتاه تشتعلان، وكله استعداد للارتماء على سانين، والبكاء مقدار ما تسعفه الدموع، أو الذهاب معه في هذه اللحظة إلى هؤلاء الضباط السفهاء، ونتف زغبهم ووبرهم وتكسير عظامهم! لكنه أمسك بزمام نفسه، واكتفى بأن ينظر في انتباه إلى كل حركة تصدر عن صديقه الروسي النبيل.

فرغ الحوذي أخيراً من شد الجوادين، واستقرت الجماعة في العربة، أما إميل فقد تسلقها إلى مقعد الحوذي وراء تارتاليا: لقد شعر في هذا المكان بهدوء البال، فما كان ليستطيع أن ينظر إلى كلوبير بعدم اكتراث، فآثر أن يبتعد عن مجال نظره.

مضى الهر كلوبير يتشدق طوال الطريق. كان يتشدق وحده، لا يعترض عليه أحد، ولا يوافق على كلامه أحد أيضاً، وكان يلف ويدور على الخصوص حول هذه النقطة، وهي أن هذا الحادث المكدر ما كان ليحدث لو أنهم أصغوا إلى نصيحته ولم يضيعوها سدى حينما اقترح أن يكون الغداء في العريش المحتجب. ثم أزجى بعض الآراء اللاذعة وحتى الليبيرالية، عن تسامح الحكومة مع هؤلاء الضباط وتهاونها في الرقابة على تقيدهم بواجبات النظام، وعدم احترامها للعناصر المدنية في المجتمع – (das bürgerliche Element in der Societt) وأن هذا سيؤدي بمرور الزمن إلى انفجار السخط، وليس السخط بعيداً عن الثورة، وأن هذا المثل المؤسف (وزفر في حنان ولكن في صرامة أيضاً) – قد يفضي إلى المثل المؤسف الذي وقع في فرنسا! ولكنه استدرك هنا أيضاً بأنه شخصياً عظيم الولاء للحكومة، ولن يكون ثائراً قطعاً... وأبداً! ولكنه لا يستطيع أن يحبس استنكاره تجاه هذه السفاهات! ثم أضاف بضع ملاحظات عامة عما هو أخلاقي وغير أخلاقي، وعن الاحتشام والشعور بالكرامة!.

أثناء هذا «التشدق» كله لم يظهر على جيما شيء من الرضى تجاه السيد كلوبير، كالحال التي كانت عليها خلال النزهة التي سبقت وقت الغداء – ولهذا احتفظت بشيء من التباعد عن سانين، فكأن وجوده زادها استحياء، وكان واضحاً أنها أصبحت تشعر بالخجل لأن لها هذا الخطيب! وما أشرفت

الفسحة على نهايتها حتى كان ضيق جيما شاملاً، ولكنها بقيت على تباعدها عن سانين فلا تبادله بالحديث وفجأة أرسلت إليه نظرة متوسلة... وكان يشعر من جهته أن شفقته عليها أشد من غضبه على السيد كلوبير، بل لعله شعر في السر بغبطة مبهمة تجاه ما حدث في هذا النهار على الرغم من الدعوة التي قد تنتظره في صباح الغد.

وانتهى أخيراً عذاب partie d plaisir [1] هذه. وعند نزول جيما من العربة أمام الدكان وضع سانين في يدها وردتها التي استردها من غير أن ينطق بكلمة، فالتهبت بالاحمرار، وضغطت على يده وهي تخفي الوردة في لمح البصر. لم يشأ أن يدخل البيت، رغم أن المساء كان في لحظات بدئه، ثم إنها لم تدعه إلى الدخول، وزاد على هذا أن بانتاليوني ظهر في مدخل الباب، وأعلن أن فراو لينوري أوت إلى سريرها، وأقبل إميليو على استحياء فودع سانين كأنه يلتمس الفرار منه: وهو شديد الإعجاب بهذا الإنسان، أما كلوبير فقد أوصل سانين إلى فندقه، وانحنى يودعه في تأدب. إن هذا الألماني المطبوع على الدقة كان يشعر بالارتباك على الرغم من كل ثقته بنفسه، وكذلك كان شعورهم جميعاً.

ولكن هذا الشعور – الشعور بالارتباك – تبدد عن نفس سانين بسرعة، وصار إلى شيء من الارتياح المبهم، بل إلى شعور بالغبطة، وأخذ يذرع الغرفة وهو يصفر، خلي البال من كل تفكير، وكان راضياً عن نفسه.

– ١٧ –

«سأنتظر السيد الضابط لتبادل الايضاح حتى الساعة العاشرة – قال هذا في نفسه وهو يأخذ زينته في صباح اليوم التالي – وعليه بعدها أن يبحث عني»!. ولكن الالمان يستيقظون مبكرين، فما كادت الساعة تدق التاسعة حتى دخل الخادم ليخبر سانين بأن الملازم الثاني (der Herr Seconde Lieutenant) فونريختر يرجو رؤيته. اسرع سانين إلى وضع سترته على كتفيه وأشار إلى الخادم قائلاً: «ليتفضل». وعلى غير ما انتظر سانين، كان الهر ريختر صغير السن، بل إنه يكاد يكون غلاماً وقد اراد أن يكسب وجهه الأمرد طابع

١– رحلة المرح (بالفرنسية في الأصل). – **الناشر.**

الخطورة - ولكنه اخفق، بل اخفق حتى في اخفاء حيرته - فعندما جلس على الكرسي اوشك أن يقع متعثراً بسيفه، و لم يسعه النطق فتلعثم وتأتأ وهو يعلن لسانين بلغة فرنسية ركيكة بأنه قدم بناءً على تكليف من صديقه البارون فون دونغوف، وأن الغاية من هذا التكليف هي دعوة السيد فون زانين إلى الاعتذار عما فرط منه امس من كلمات الاهانة، فإذا رفض السيد فون زانين هذا من جهته، فان البارون فون دونغوف يتشرف بدعوته إلى المبارزة. وأجاب سانين بأنه لا ينوي الاعتذار، وأنه على استعداد لتنفيذ التسوية، وعندئذ سأل الهر فون ريختر بطريقته المتعثرة عمن يكون شاهده، وفي أي مكان وأي زمان يستطيع أن يقابله لمحادثته في كل ما ينبغي لهذا الامر؟ فأجابه سانين بأنه يستطيع المجيء إليه بعد ساعتين فإنه، أي سانين، سيسعى إلى العثور على شاهد (وفكر في هذه الاثناء بينه وبين نفسه: «إلى الشيطان، من أين لي أن ادبر هذا الشاهد؟»). وقف الهر فون ريتر متهيئاً للانصراف... ولكنه توقف عند وصيد الباب كأنه شعر بتأنيب اضمير، والتفت إلى سانين يقول بأن صديقه البارون فون دونغوف... لم يخف عن نفسه أنه إلى حد محدود... يستحق المؤاخذة عما حدث امس - ولهذا يرتضي بكلمة اعتذار خفيفة - des exghizes léchères وأجاب سانين على هذا بأنه لا ينوي أن يقدم كلمة اعتذار، لا ثقيلة ولا خفيفة، فهو لا يعتقد أنه ملوم في شيء.

فأجاب الهر فون ريختر وقد زاد احمراراً:

- في هذه الحالة لا بد أن يكون تبادل اطلاق النار بصورة ودية - des goups de bisdolet à l'amaiaple.

فقال سانين:

- لم افهم هذا على الإطلاق، فهل سنطلق النار في الهواء يا ترى؟.

فتمتم الملازم وقد بلغ به الارتباك نهايته:

- اوه، ليس هذا ولا ذاك، ولكني ظننت أن ما يحدث بين كرام الناس... ولكني سأبحث الأمر مع شاهدك.

قال ذلك قاطعاً كلامه نفسه وانصرف.

غاص سانين في مقعده فور انصراف الملازم، وأخذ يحدق في الأرض: «ماذا

يعني كل هذا؟ وكيف ادار هذا دولاب حياتي فجأة؟ كل ما فات، وكل ما هو آت، غاب فجأة. واختفى، ولم يبق منه إلا أنني في فرانكفورت وهناك مبارزة، وفيم»؟ وخطرت بباله عمة له مجنونة كانت تحب كثيراً أن ترقص وتغني:

يا ملازمنا!
يا خيارتنا!
يا ساكن في مهجتنا!
تعال نرقص في سهرتنا!

وأخذ يقهقه ضاحكاً وهو يغني كما كانت تغني: «يا ملازمنا! تعال نرقص في سهرتنا»!، ثم قال بصوت عال:

– ولكن حان وقت المبادرة، وينبغي ألا نضيع الوقت! وهب واقفاً، فإذا بانتالوني أمامه وفي يده رسالة.

– طرقت الباب مراراً ولكنك لم تجب، خطر لي أنك غائب عن الغرفة
– هذه لك من السينورينا جيما.

وأعطاه الشيخ الرسالة، فتناولها سانين بحركة آلية كما يقال، ثم فضها وقرأها. كتبت إليه جيما بأنها قلقة الآن من جراء القضية التي يعرفها، وترجو أن تراه في الحال. وبدأ بانتاليوني الكلام:

– السينورينا قلقة (وكان واضحاً أنه يعرف مضمون الرسالة) وقد امرتني أن أرى ما تعمل وأعود بك إليها.

نظر سانين إلى الايطالي الشيخ، وطفق يفكر. وفجأة ومض في رأسه خاطر مفاجئ، بدا له غريباً في اللحظة الأولى حتى لكأنه المستحيل... ولكنه سأل نفسه: «ولماذا لا»؟، ثم هتف بصوت عال:

– أيها السيد بانتاليوني!.

فجفل الشيخ، وأخفى ذقنه في رباط عنقه وشخص ببصره إلى سانين، بينما تابع سانين يقول:

– هل تعرف ماذا حدث امس؟.

لمظ بانتاليوني بشفتيه، وهزّ خصلة شعره المتدلية.

- أعرف.

(إميل حدثه اثر عودته بكل شيء).

- آ! أنت تعرف! - هه، هذا هو اذن. منذ قليل ذهب من عندي ضابط، فقد ارسل ذلك الوقح يدعوني إلى المبارزة، وقبلت دعوته، ولكن ليس عندي شاهد، فهل تريد أن تكون شاهدي؟.

اضطرب بانتاليوني ازاء هذا العرض، وارتفع حاجباه إلى أعلى حتى اختفيا تحت فروة شعره. ثم قال بالايطالية وكان حتى هذه اللحظة يتكلم بالفرنسية:

هل عليك أن تعارك من كل بد؟.

- من كل بد، وإذا احجمت لحقني العار إلى الأبد.

- هم - وإذا لم اوافق على أن اذهب معك شاهداً فهل تنشد عندئذ شاهداً آخر؟.

- سأفعل ولا شك.

فأطرق بانتاليوني.

- اسمح لي أن اسألك يا سينور دو تسانيني، ألا ترى أن هذه المبارزة ستلقي شيئاً من الظل لا يليق بسمعة شخص معين؟.

- لا اعتقد، ولكن الأمر هكذا، وليس من حل آخر.

فاختفى بانتاليوني كله في ربطة عنقه، ثم صرخ فجأة وهو يرفع رأسه إلى أعلى:

- ولكن هذا الفيروفلوكتو كلوبيريو - ماذا عنه؟.

- هو؟ لا شيء.

فهزّ بانتالوني كتفيه بازدراء.

- كه! (Che)[1].

ثم قال بصوت مرتجف:

١- صرخة عيب إيطالية لا يمكن ترجمتها مثل: «نو!» عندنا. (ملاحظة المؤلف). وبالعربية معناها «يا للعجب!». - المترجم.

- يجب عليّ أن اشكرك في كل حال، لأنك استطعت أن تقر، وأنا في حالتي المهينة الراهنة، بأني إنسان شريف -! un galant'uomo - وبهذا برهنت على أنك إنسان galant'uomo حقيقي، ولكن ينبغي لي أن افكر فيما عرضته.

- ولكن الوقت لا ينتظر يا عزيزي المحترم السيد تشيبـ... تشيبا...

فذكره الشيخ قائلاً:

- تولا - أرجو أن تأذن لي مقدار ساعة، فإن الأمر يمسّ بنت أولياء نعمتي... ولهذا يجب عليّ، بل يفرض عليّ أن افكر!! بعد ساعة... بعد ثلاثة ارباع الساعة ستعرف رأيي.

- طيب سأنتظر.

- والآن... ما هو الجواب الذي سأحمله إلى السينورينا جيما؟.

فسحب سانين قطعة من الورق وكتب فيها: «لتطمئني، يا صديقتي العزيزة، بعد ثلاث ساعات سأجيء إليكم، وسأشرح لك كل شيء. اشكر لك من كل قلبي هذه المشاركة» - ثم سلم بانتاليوني الرسالة.

تناولها بانتاليوني في حرص، ووضعها في جيبه، وكرر مرة ثانية قوله: «بعد ساعة»! - واتجه نحو الباب ثم استدار إلى سانين، وأسرع فأمسك بيده، وشدها إلى صدره وهو يرفع عينيه إلى السماء، وصاح:

- أيها الشاب النبيل، أيها القلب الكبير! (Nobil giovanotto; Gran cuore) اسمح لشيخ ضعيف (a un vecchiotto) يشد على يدك القوية (la vostrs valorosa destra) ثم قفز قفزة قصيرة إلى الوراء، وبسط يديه مرفرفاً بهما، واندفع خارجاً.

نظر سانين في اثـره... وتناول جريدة وأخذ يقرأ. ولكن عينيه كانتا تجريان على السطور ولا تريان المسطور، لم يكن يفهم شيئاً على الإطلاق.

- ١٨ -

بعد انقضاء ساعة، دخل الخادم الغرفة على سانين وقدم إليه بطاقة عتيقة رثة فيها هذه الكلمات: «بانتاليوني تشيباتولا، من فاريزي، مغني بلاط (cantante di camera) صاحب السمو دوق مودينا»، وظهر في أثر الخادم

بانتاليوني بالذات وقد تبدل كله من المفرق حتى القدمين. كان عليه فراك حال سواده إلى اصفرار، وصدار من البيكية الأبيض تتدلى منه سلسلة براقة من النحاس الأصفر ذات طرة ثقيلة من العقيق تنوص على سرواله الأسود الضيق. في يده اليمنى قبعة سوداء من وبر الأرنب، وفي اليسرى قفازان من الجلد المخملي. ربطة عنقه معقودة بشكل زادها عرضاً وارتفاعاً عما هي في الحالة المعتادة، وصدرته المنشأة مشكوكة بدبوس، في رأسه حجر مما يسمى «عين القط» (ocill de chat) إصبعه الشاهدة باليد اليمنى مزينة بخاتم على شكل يدين مضمومتين على قلب ملتهب، وفي هذا كله ثوت رائحة هي شيء من الكافور والمسك، وفاحت من حضرة الشيخ جميعاً... كان هذا الاحتفال الشديد بمظهره جديراً أن يدهش حتى من ليس يدهشه شيء! ونهض سانين إلى استقباله.

- إني شاهدك.

قال بانتاليوني بالفرنسية وهو ينحني بكل جسمه إلى الأمام ويفرج قدميه كما يفعل الراقصون وأضاف:

- جئت أتلقى تعليماتك فهل تنوي أن تقاتل من غير رحمة؟.

- لماذا من غير رحمة يا عزيزي السيد تشيباتولا؟ إن ما قلته أمس لا يغريني شيء في العالم على سحبه، ولكني لست سفّاك دماء! إن شاهد خصمي سيأتي الآن فأصبر، وسأذهب إلى الغرفة المجاورة، ريثما تتفقان، وثق بأني لن أسيء يدك طوال حياتي، وأنا شاكر لك صنيعك من كل قلبي. فأجاب بانتاليوني:

- الشرف فوق كل شيء! - وارتمى على أحد المقاعد قبل أن يدعوه سانين إلى الجلوس، وقال في مزيج من الايطالية والفرنسية: - إذا كان هذا الفيروفلو كتو سبيتشيبو، إذا كان هذا البياع الغشاش كلوبيريو قد عجز عن إدراك واجبه بالذات، أو جبن عنه، فإن هذا أسوأ له!... وهو تافه النفس وبس! أما بخصوص المبارزة فإني شاهدك، ومصلحتك عندي مقدسة! عندما كنت أعيش في بادويا كانت كتيبة ترابط هناك من فرسان الدراغون البيض، وكانت العلاقة بيني وبين أكثر ضباطها وثيقة، فكل قواعدهم معروفة لديّ،

وما أكثر ما جلسنا أنا وبرنسكم تاربوسكي وتناقشنا حول هذا الموضوع... أما كان ينبغي على هذا الشاهد أن يسرع في المجيء؟.

- إني أنتظره دقيقة فدقيقة - وأضاف وهو ينظر إلى الشارع: - ولكن ها هو ذا، إنه نفسه القادم.

نهض بانتاليوني وهو ينظر في الساعة ويهز فروة شعره، وأسرع إلى دس رباط جوربه في حذائه وكان متدلياً من سرواله، ثم دخل الملازم الشاب احمر الوجه متلبكاً، فقدم سانين الشاهدين أحدهما إلى الآخر:

- M-r Richter، souslieutenant;- M-r Zippatola، artiste ! .[1]

دهش الملازم قليلاً وهو ينظر إلى الشيخ... فماذا تراه يقول لو همس في أذنه وقتئذ أن «الفنان» الذي قدم إليه فنان في الطبخ أيضاً!... ولكن بانتاليوني اتخذ وضعاً يناسب الموقف، فكأنه تعود المشاركة في المبارزات الفردية حتى أصبحت من أموره العادية. والواقع أن ذكرياته المسرحية ساعدته في هذا، فأدّى دور الشاهد كما يؤدي دوراً على المسرح، وبعد أن ساد الصمت قليلاً بينه وبين الملازم، بدأ الكلام وهو يلعب بطرته العقيق، فقال:

- ماذا؟ هل نبدأ؟.

فأجاب الملازم:

- سنبدأ، ولكن وجود أحد الخصمين...

فصاح سانين:

- سأترككم من فوري أيها السادة...

وانحنى لهما، وذهب إلى الغرفة الداخلية وأغلق الباب وراءه.

تهافت على الفراش، وطفق يفكر في جيما... ولكن حديث الشاهدين تسرب إليه من خلال الباب المغلق، كان يدور بالفرنسية، وكل منهما يشوه هذه اللغة بطريقته من غير رحمة. وعاد بانتاليوني فأقحم ما رواه عن الدراغون في بادويا وعن البرنس تاربوسكي. وتحدث الملازم عن exghizes

---

١- السيد ريختر، ملازم ثان! - السيد زيباتولا، فنان! (بالفرنسية في الأصل). - الناشر.

léchères [1]، وعن goups à l'amiaple [2]، ولكن الشيخ أبى حتى مجرد الإصغاء لشيء يتعلق بـ exghizes [3] وأفزع سانين إن الشيخ بدأ يحدث جليسه فجأة عن بنت صبية بريئة إصبعها البنصر أغلى من كل ضباط العالم...

oune zeune damigella innoucenta، qu'a ella sola dans soun) péti doa vale iu que toutt le zouffissié del mondo! وكرّر قائلاً في انفعال: «هذا معيب، هذا معيب»! (E ouna onta، ouna! onta) لم يعارضه الملازم أول الأمر، ولكن نبرة غاضبة سرت في صوت الشاب، ولاحظ قائلاً بأنه لم يأت ليصغي إلى المواعظ الاخلاقية، فقال بانتاليوني:

– من المفيد لمن في سنك أن يصغي دائماً لكلمة الإنصاف! وتطورت المناقشة بين الشاهدين فكانت تشتد أحياناً وتعصف، ودامت على هذا المنوال أكثر من ساعة ثم اختتمت في النهاية بالاتفاق على هذه الشروط: «يجري تبادل إطلاق النار بين البارون فون دونغوف والسيد دي سانين في الساعة العاشرة من صباح الغد، في الغابة الصغيرة الواقعة قرب غاناو. تفصل بينهما مسافة مقدارها عشرون خطوة، ويحق لكل منهما أن يطلق النار مرتين بعد إشارة الشاهد، ويكون المسدسان غير محلزني الفوهة». ثم انصرف السيد فون ريختر أما بانتاليوني فقد فتح الغرفة الداخلية على سانين بحركة احتفالية، وأبلغه نتائج الاجتماع وهو يصيح: – Bravo، Russo; bravo giovanotto! [4]، سيحالفك النصر»!.

بعد دقائق ذهبا يقصدان دكان روزيللي، واشترط سانين على بانتاليوني قبل ذلك أن يحتبس قضية المبارزة في سر عميق، فكان جواب الشيخ أنه رفع إصبعه إلى أعلى، وضيق عينيه، وهمس مردداً مرتين متتاليتين: Segredezza (هذا سر)! وكان يبدو عليه أنه عاد إلى عهد الشباب، بل إنه أصبح طليق الحركة خفيفها أيضاً، فإن هذه الأحداث الخارقة التي لا تخلو أيضاً من

١– كلمة اعتذار خفيفة (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

٢– إطلاق النار بصورة ودية (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

٣– بالاعتذار (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

٤– برافو أيها الروسي، برافو أيها الشاب! (بالايطالية في الأصل). – الناشر.

بواعث الضيق، قد بعثت فيه بهاء ذلك العصر الذي كان يتلقى فيه التحدي ويستجيب إلى دعوة الخصم - صحيح أن ذلك جرى على المسرح، ولكن المعروف عن هؤلاء المغنين أنهم مزهوون بأدوارهم كالديوك...

- ١٩ -

خرج إميل يعدو إلى استقبال سانين، بعد انتظار زاد على ساعة وأسرع يهمس إليه في اذنه بأن الأم لا تعرف شيئاً عما حدثَ أمس من السوء ولا يجوز حتى مجرد التلميح إليه، وقد أرسلوه إلى المخزن من جديد!! ولكنه لم يذهب، بل ارتأى أن يتوارى عن النظر. شرح هذا في ثوان معدودات، ثم التصق فجأة بكتف سانين واختطف منه قبلة، وانطلق يهبط الشارع. في الدكان جاءت جيما تستقبل سانين. كانت تريد أن تقول له شيئاً ولكن أعياها أن تنطق، فوقفت بشفتين مرتعشتين، وعينين توصوصان في كل ناحية، فأخذ يهدئ من روعها ويؤكد لها أن القضية انتهت وهي حادث طفيف، فسألت:

- ألم يأت إليك أحد اليوم؟.

- نعم، جاءني وجه واحد وتبادلنا الحديث، وقد توصلنا إلى تفاهم.

فاستدارت جيما وعادت تقف وراء المنصة، ففكر في نفسه: إنها لم تصدقني.

ولكنه ذهب إلى الغرفة المجاورة، فوجد هناك فراو لينوري.

لقد ذهب عنها الصداع، ولكنها بدت مكتئبة النفس، وابتسمت لسانين في حفاوة، ولكنها حذرته في الوقت نفسه من أنه سيشعر معها بالملل لأنها ليست على استعداد لإيناسه، ورأى عند اقترابه منها أن إجفانها محمرة منتفخة:

- فراو لينوري، ماذا بك؟ أتراك كنت تبكين؟.

- هس، - وأومأت برأسها إلى الغرفة التي كانت فيها بنتها - لا تقل ذلك بصوت عال.

- ولكن لماذا تبكين؟.

- آه، يا مسيو سانين. أنا نفسي لا أعرف لماذا.

– ألم يسئ إليك أحد؟.

– أوه، لا!... شعرت فجأة بالاكتئاب. تذكرت جيوفاني باتيستا... شبابي وما بعده. ما أسرع ما تولى هذا. إني أتقدم في السن يا صديقي، ولم أستطع بأي وجه من الوجوه أن أتلاءم مع هذه الفكرة، ويخيل إليّ أنني لا أزال كما كنت من قبل، أما الشيخوخة فها هي ذي، كما ترى!.

ونفرت الدموع من عيني فراو لينوري.

– أرى أنك تنظر إليّ في دهشة... ولكن السن ستتقدم بك أيضاً يا صديقي، وستعرف كم في هذا من مرارة!.

أخذ سانين يواسيها، فذكرها بولديها اللذين يتفتح فيهما شبابها وينبعث، وحاول أن يمازحها فزعم لها أنها فعلت ذلك لتسمع الإطراء... ولكنها طلبت إليه من غير مزح أن «يكف»، فأيقن عندئذ للمرة الاولى أن مثل هذا الأسى الذي يشعر به من تتقدم به السن يجل عن كل تعزية، ويجب الانتظار حتى يذهب من حد ذاته. عرض عليها أن يلعبا بالتريستو، وكان هذا أحسن ما يستطيع أن يفكر به، فوافقت من فورها، وبدا كأنما عاد إليها الانشراح.

بقي سانين يلعب معها بالورق قبل الغداء ثم بعد الغداء، واشترك بانتاليوني أيضاً في اللعب وقد زادت غرته نزولاً على وجهه، وذقنه غوصاً في ربطة عنقه بشكل لم يسبق له نظير أبداً. كل حركة من حركاته كانت تتنفس بالتركيز والاهتمام، والنظرة إليه توحي من غير قصد بهذه الفكرة: على أي سر يحافظ هذا الرجل بمثل هذه القوة؟.

– ولكن – segredezza، segredezza

سلك كل سبيل طوال اليوم لإبداء احترامه وتقديره لسانين، فتجاوز الجالسين جميعاً في اثناء الأكل وأقبل عليه يقدم له الطعام باهتمام وحفاوة، وحاباه في اللعب، ولم يطبق عليه جزاءات اللعبة، وقال من دون مناسبة بأن الروس أعظم أهل الأرض أريحية وشجاعة وعزيمة! ففكر سانين في نفسه: «آه منك أيها العجوز المراوغ»!.

ولم تدهشه هذه الحالة النفسية الطارئة في السيدة روزيللي مقدار ما أدهشته معاملة ابنتها له، ولا يعود هذا إلى أنها كانت تتجنبه... بل على

العكس، فإنها كانت تجلس إليه كثيراً، وتصغي إلى حديثه في اهتمام، وتديم إليه النظر، ولكنها وطّدت نفسها على ألا تأخذ معه في أي حديث، بل إنه ما يكاد يبدأ الحديث إليها، حتى تنسل من مكانها، وتبتعد في هدوء بضع دقائق، ثم تعود مرة ثانية، فتنزوي في ركن من الغرفة من غير أن تند عنها حركة، وتجلس مفكرة ذاهلة... ولكنها ذاهلة أكثر مما هي مفكرة. وقد سألتها أمها مرة مرتين عما بها؟ فاجابت جيما:

- لا شيء، فأنت تعرفين أنها حالة تنتابني في بعض الأحيان، فوافقت أمها قائلة:

- الأمر كذلك بالضبط.

وانقضى ذلك اليوم الطويل على هذا النحو. كان فاتراً خالياً من الحياة، لم يشع فيه المرح ولا الملل، ولو أن جيما ساست نفسها بشكل آخر، فمن يدري كيف يكون سانين؟ لعله لا يملك نفسه وقتئذ عن التظاهر قليلاً، أو لعله كان يستسلم إلى الشعور بالأسى تلقاء ما قد يجد من فراق إلى الأبد... فلما تعذر عليه أن يتحدث إلى جيما ولو مرة، اصبح عليه أن يلتمس الراحة ربع ساعة على الأقل قبيل قهوة المساء، فجلس إلى البيانو يعزف بعض الألحان الهادئة.

عاد إميل في وقت متأخر، ولم يلبث أن انسحب ليتجنب الأسئلة عن السيد كلوبير، ثم حان وقت انصراف سانين، فلما أخذ في توديع جيما، تذكر ولا يدري لماذا، ساعة الوداع بين لينسكي وأولغا في رواية «اونيغين»[1]. شد بقوة على يدها، وحاول أن ينظر في وجهها، ولكنها استدارت قليلاً، وحررت أصابعها من يده.

- ٢٠ -

حينما خرج إلى الشارع كانت النجوم تملأ السماء، وتنتثر في رحابها كبيرة صغيرة حمراء زرقاء بيضاء، كلها يومض ويتلألأ ويتبارى بهذا اللعب البديع. لم يكن القمر قد طلع ولكن كل شيء على الرغم من غيابه كان واضحاً في غبش المساء الخالي من الظلال. تمشّى سانين في الشارع حتى

١- من تأليف بوشكين. - المترجم.

نهايته... فما كان راغباً في العودة إلى مسكنه في هذه الساعة. كان يشعر بالحاجة إلى الفسحة في الهواء الطلق. ثم استدار عائداً، وما كاد يقترب من واجهة البناية التي فيها دكان روزيللي حتى انبعث صرير من إحدى النوافذ المطلة على الشارع، وانفتحت النافذة فجأة على مصراعيها، ورأى من خلال زواياها المظلمة (لم تكن الغرفة مضاءة) جسماً أنثوياً، وسمع صوتاً يناديه باسمه: Monsieur Dimitri

فاندفع من فوره نحو النافذة... جيما!

كانت متكئة بكوعيها على حافة النافذة وهي منحنية إلى الأمام. وبدأت الكلام بصوت محترس.

- Monsieur Dimitri، حاولت طوال هذا النهار أن اعطيك شيئاً... ولكني ترددت في الأمر، ثم رأيتك الآن على غير توقع، فخطر ببالي أن هذا قدر على ما يبدو...

وتوقفت جيما فجأة عن الكلام غير قادرة على أن تزيد كلمة: فقد حدث في هذه اللحظة بالذات حادث من الخوارق.

ففي أعماق هذا السكون، وتحت سماء خالية من الغيوم، هبّت فجأة نفحة من الهواء فزلزلت الأرض تحت الأقدام، وتدفق خيط نجمي رفيع مرتعش، وأخذ الهواء يدور في دوامات ليست باردة ولكنها دافئة وحتى حارة، جعلت تعصف بالأشجار، وبسطح المنزل وجداره، وبالشارع، اختطفت قبعة سانين، وبعثرت شعر جيما في كل ناحية. كان رأس سانين قريباً من حافة النافذة، فانحنى نحوها بحركة عفوية، وإذا جيما تتشبث بكتفيه، وتلقي بصدرها على رأسه. استمر الصخب والرنين والهدير حوالي دقيقة، فكأن سرباً من الطيور الهائلة مرّ ذاهباً في مهب الريح، ثم عاد السكون العميق يخيم من جديد.

ويا للمعجزة التي رآها سانين فوقه حينما استقام. أي وجه خائف مضطرب متهيج، وأي عينين واسعتين باهرتين، وأي حسناء رأى حتى لقد جمد لحسنها القلب، فلمس بشفتيه خصل الشعر المرسلة على صدره، وقال عندما أسعفته القدرة على الكلام:

- آه يا جيما!.

فسألت وهي تدير عينين واسعتين في الفضاء، من غير أن ترفع ذراعيها العاريتين عن كتفيه:

– ما هذا الذي حدث؟ هل هو برق؟.

فكرر سانين قائلاً:

– جيما!.

فتنهدت. ثم نظرت خلفها في الغرفة، وانتزعت من نطاقها في لمح البصر، وردة ذابلة، رمت بها إلى سانين.

– أردت أن أعطيك هذه الوردة...

وعرف سانين فيها تلك الوردة التي استعادها بالقوة أمس... وانصفقت النافذة، وأصبح الزجاج مظلماً لا يرى وراءه ظل ولا طيف...

وعاد سانين إلى مسكنه من غير قبعة... و لم يلحظ أنه فقدها.

– ٢١ –

لم ينم إلا في الصباح، ولا غرابة في ذلك، فبعد هذه الصدمة التي حملتها العاصفة الصيفية الخاطفة، ومض في نفسه شعور لا يزيده علماً بأن جيما رائعة الجمال أو أنها تستأثر بإعجابه، فإن هذا قد عرفه من قبل، وإنما هو الشعور بأنه يحبها! لقد داهمه الحب في لحظة خاطفة مثل تلك العاصفة. ولكن أمامه هذه المبارزة السخيفة! وبدأت تعذبه الهواجس. وعلى فرض أنه لم يمت... فما يجديه أن يحب فتاة مخطوبة لآخر؟ أو على فرض أن هذا «الآخر» لم يعد خطراً عليه، وأن جيما ستحبه هو، أو أنها أحبته... فماذا بعد هذا؟ لماذا السؤال؟ فتاة على مثل هذا الجمال الرائع...

أخذ يذرع الغرفة، ويجلس إلى المنضدة، ثم سحب ورقة فخط فيها بعض السطور وما لبث أن شطبها... وتذكر جسم جيما المدهش في النافذة المظلمة تحت النجوم المنتثرة في السماء وكله مبعثر في العاصفة الحارة. تذكر ذراعيها المرمريتين كما عند آلهة الأولمب، وأحس بثقلها الحي على كتفيه... ثم أمسك بالوردة التي القتها إليه، فخيل إليه أن وريقاتها الذاوية يضوع منها شذى أرقّ من شذى الورود المألوفة...

«وإذا قتلوه فجأة أو شوهوه؟»

لم يستلق في فراشه بل نام بثيابه على الديوان.

شعر بمن يهزه من كتفيه...

فتح عينيه فرأى بانتاليوني، وقال الشيخ:

– إنك تنام مثل الاسكندر المقدوني ليلة معركة بابل![1].

يسأله سانين:

– كم الساعة الآن؟.

– السابعة إلا ربعاً، والركوب إلى غاناو يستغرق ساعتين، ولكن يجب أن نكون السباقين الأوائل إلى المكان، فإن الروس سباقون دائماً على الأعداء! لقد أخذت أحسن عربة في فرانكفورت! وبدأ سانين في الاغتسال.

– وأين المسدسان؟.

– سيحملهما ذلك الفيروفلوكتو تيديسكو، وسيأتي أيضاً بطبيب.

كان واضحاً أن بانتاليوني يحاول أن يبدو نشيطاً كما بدا أمس، ولكن المغني السابق صديق فرسان الدراغون في بادويا تبدل بغتة حينما جلس في العربة مع سانين وساط الحوذي الجوادين فانطلقا يخبّان مسرعين، فقد اعتراه الانزعاج والخوف، وكأن شيئاً قد انهار في نفسه كما ينهار الحائط الهش. وصاح فجأة بصوت رفيع وهو يمسك بشعر رأسه:

– ما هذا الذي نعمله يا إلهي، ايتها santissima Madonna [2] ما هذا الذي أعمله أنا الأحمق العجوز، أنا المجنون Frenetico؟..

فوجئ سانين فأخذ يضحك، وطوق بانتاليوني قليلاً بذراعه وهو يذكره بالمثل الفرنسي القائل: Le vin est tiré–il faut le boire [3] (أو بالمثل الروسي: «حين تمسك باللجام لا تقل إنه صعب»).

١– يروى أن الاسكندر المقدوني نام نوماً عميقاً ليلة المعركة التي قادها بوجه دارا الثالث ملك الفرس (٣٣١ ق. م.) لأنه كان مطمئناً إلى أن النصر سيكون حليفه. – المترجم.

٢– العذراء المقدسة (بالايطالية في الأصل). – الناشر.

٣– «الزجاجة مفتوحة، فيجب أن نشرب». – المترجم.

فاجاب الشيخ:

– نعم، نعم، سنشرب هذه الكأس معاً، ولكني في كل حال معتوه – أنا معتوه. كم كانت الحال هادئة طيبة... وفجأة تا – تا – تا – ترا – تا – تا!.

فعلّق سانين قائلاً:

– هذا يشبه tutti [1] في الأوركسترا.

وأضاف مع ضحكة مغتصبة:

– ولكن المسؤول ليس أنت.

– أعرف أني لست المسؤول، فما كان ناقصني إلا هذا، ولكن هذا كله تهور، Diavolo; Diavolo! [2].

أخذ بانتاليوني يكرر ذلك وهو يهز غرته.

أما العربة فكانت تجري، وتجري.

كان الصباح رائعاً، والحياة بدأت في شوارع فرانكفورت، فهي تفيض نظافة وأناقة، ونوافذ البيوت تتألق بألوان شتى مثل ورق الزينات، ولما جازت العربة بأبواب المدينة، كانت أصوات القنابر تتساقط من أعلى، من السماء الزرقاء القاتمة. وفجأة تراءى لسانين وجه مألوف كان وراء شجرة حور عالية ثم تقدم بضع خطوات، ووقف لا يريم، فحدق سانين إليه... يا إلهي! هذا إميل! والتفت إلى بانتاليوني يسأله:

– هل كان يعرف شيئاً؟.

فأجاب الإيطالي المسكين بصوت كأنه النحيب:

– قلت لك بأنني معتوه، وهذا الولد المنحوس لم يترك لي كل الليل سبيلاً إلى الهدوء – وفي النهاية، كشفت له هذا الصباح عن كل مخبأ!.

فقال سانين في نفسه: «أما segredezza معك»!.

١– التوتي – اصطلاح موسيقي معناه اشتراك الآلات كلها في تأدية نغمة واحدة في وقت واحد، والكلمة إيطالية. – المترجم.

٢– شيطان! شيطان! (بالايطالية في الأصل). – الناشر.

لما صادرت العربة في محاذاة إميل، أمر سانين الحوذي بأن يوقف الجياد، ودعا إليه هذا «الولد المنحوس»، فأقبل إميل متردداً شاحب الوجه يشبه ما كان عليه في يوم إغمائه، ويكاد لا يتماسك على ساقيه. سأله سانين بلهجة صارمة:

- ماذا تعمل هنا؟ ولماذا لست في البيت؟ فتمتم إميل بصوت مستعطف:

- اسمح لي... اسمح لي أن أذهب معك.

وضم يديه، واصطكت أسنانه كأنما أدركته رعدة الحمى.

- لن أعيقك عما أنت فيه، ولكن خذني معك! فقال سانين:

- لو أنك متعلق بي مقدار شعرة، أو لو أنك تشعر نحوي بالاحترام، لعدت من فورك إلى البيت، أو لذهبت إلى مخزن السيد كلوبير، وانتظرت عودتي من غير أن تقول كلمة لأحد.

فقال إميل بصوت يرن ويتقطع:

- عودتك؟ ولكن إذا...

فقاطعه سانين وهو يومئ بعينيه إلى ناحية الحوذي:

- إميل... ثب إلى نفسك. أرجوك يا إميل، عد إلى البيت. اصغ إليّ يا صديقي! أنت على يقين أنك تحبني، وإذن أرجوك!

قال ذلك ومد يده مودعاً، فانحنى إميل عليها، واستعبر باكياً وهو يضمها إلى شفتيه، ثم قفز إلى جانب الطريق، وعاد ركضاً إلى فرانكفورت من خلال الحقول، فغمغم بانتاليوني قائلاً:

- قلب نبيل أيضاً.

ولكن سانين نظر إليه عابساً، فانزوى الشيخ في زاوية العربة. لقد أقر بذنبه، وفوق هذا كان يزداد دهشة في كل لحظة: أيعقل أن يكون هو من اصبح في عالم الحقيقة شاهد مبارزة، وأنه هو من دبر الجياد وأعد كل أمر، ثم فارق مسكنه الهادئ في الساعة السادسة من الصباح؟ يضاف إلى هذا أن ساقيه ترمضان وتؤلمان.

رأى سانين أن عليه أن يترضاه، فاختار ناحية حساسة، وانتقى لها الكلمات الملائمة.

- أين همتك القديمة يا سينوري المحترم تشيباتولا؟ أين ــ

فشد السينور تشيباتولا قامته وقطب وجهه، وقال بصوت عميق: Il antico valor? Non e ancora spento il antico valor (لم تتبدد الهمة القديمة كلها).

واتخذ وضعاً ملائماً، وطفق يتحدث عن فلاحه ونجاحه: عن الأوبرا، وعن المغني العظيم غارسيا، فلما وصل إلى غانا وكان مثل شيخ الشباب، فتأمل: ليس في العالم شيء أقوى من الكلمة... ولا أضعف منها!

- ٢٢ -

تقع الغابة الصغيرة التي تقرر أن تجري فيها المبارزة على مسافة مقدارها ربع ميل من غاناو، وقد وصل إليها سانين مع بانتاليوني قبل غيرهما كما تنبأ الشيخ: أمرا الحوذي بأن ينتظر على طرف الغابة، وتوغلا في ظلال شجر كثيف الأغصان كثير الفروع، وقد اقتضى منهما الانتظار حوالي ساعة.

لم يشعر سانين بثقل الانتظار، فقد راح يتمشى ذهاباً وجيئة في الدروب، مصغياً إلى تغريد الطير، متبعاً طيرانه، وحاول، كأكثر الروس في هذه المواقف، ألا يفكر في شيء. لم تخطر بباله هذه الفكرة إلا مرة واحدة: فقد صادف شجيرة زيزفون قصفتها عاصفة امس على ما اظن، فرقدت ميتة... ويبس كل ما عليها من الأوراق. «ما هذا؟ أنذير شؤم؟»، لمع هذا السؤال في رأسه كالبرق، ولكنه جعل يصفر في اللحظة نفسها، ووثب فوق الزيزفونة ذاتها متابعاً سيره في الدرب. أما بانتاليوني، فقد وقف يتذمر ويسب الألمان ويتأوه ويحك في ظهره وفي ساقيه، بل كان يتثاءب أيضاً من القلق فيضفي التثاؤب شكلاً مضحكاً على وجهه الصغير المنكمش، وكاد سانين يقهقه ضاحكاً لما نظر إليه.

طرق السمع أخيراً وقع عجلات على الطريق الناعم فصاح بانتاليوني:

- هؤلاء هم!.

واستقام مرهفاً سمعه وهو يرتجف قليلاً من الانفعال، ويغطي انفعاله بهذا الصوت: برر! متذرعاً بالقول بأن الصباح بارد، والأنداء كانت تفيض على العشب وأوراق الأشجار، ولكن الحر اللافح ينفذ في أعماق الغابة نفسها.

لاح بعد قليل ضابطان تحت قبة الغابة، ومعهما رجل صغير الجسم مفتول الاعضاء بارد المزاج له وجه ناعس - وهو الطبيب العسكري، وكان يحمل بإحدى يديه جرة ماء من أجل الطوارئ، ومن كتفه اليسرى تتدلى حقيبة فيها عدة الجراحة والضمادات. والواضح أنه تعوّد مثل هذه الجولات فهي من جملة موارده: كل مبارزة تدر عليه ثمانين روبلاً - يدفع منها كل مقاتل أربعين. أما السيد فون ريختر فقد حمل صندوق المسدسات، وكان الهر فون دونغوف يدير سوطاً صغيراً بيده - لعله على الارجح من مقتضيات «الشياكة».

همس سانين إلى الشيخ:

- بانتاليوني، إذاً... إذاً هم قتلوني - ولا يستبعد أمراً عن الحدوث - فاسحب من جيبي الجانبي ورقة ملفوفة على زهرة، وسلم السينيورينا جيما هذه الورقة، أتسمع؟ وتعد؟

نظر إليه الشيخ في أسى، وأومأ برأسه موافقاً... ولكن هل فهم ما طلبه سانين؟ علم ذلك عند الله وحده.

تبادل الخصمان والشاهدان الانحناء بعضهم لبعض تبعاً للتقاليد. أما الطبيب، فإنه الوحيد الذي لم يتحرك له حاجب، فجلس يتثاءب على العشب: «ليس ما يدعوني إلى التظاهر بآداب الفروسية». وطلب السيد فون ريختر إلى السيد «تشيبادولا» أن يختار المكان، فأجاب السيد «تشيبادولا» بصوت متبلد ولسان سقيم (انهار «الحائط» مرة ثانية في نفسه): «أبداً أنت يا مولاي صاحب السعادة، وعليّ أن أراقب...».

بدأ السيد فون ريختر في العمل، فوقع في الغابة على بقعة رائعة مكسوة كلها بالازهار، فذرع المسافة بخطواته، وحدد مكانين للمتبارزين بعصا اقتضبها من شجرة وأعدها في تعجل، ثم أخرج من الصندوق مسدسين وقعد القرفصاء ليحشوهما بالرصاص. مجمل القول: عمل الرجل ما عليه، وبذل غاية جهده، وما انقطع عن مسح وجهه المستعرق بمنديل أبيض. وقد رافقه بانتاليوني فكان كثير الشبه برجل مقرور، وفي خضم هذه الاستعدادات، كان الخصمان يقفان كل منهما في ركن قصي، وفي منظرهما ما يذكر بتلميذين نزل بهما العقاب فوقفا يرمقان مؤدبهما بالنظر الشزر.

ثم حانت اللحظة الحاسمة...

وكل أمسك بمسدسه...[١]

هنا لفت الهر فون ريختر انتباه بانتاليوني إلى أن أعراف المبارزات تقتضي منه بصفته الشاهد الأسن، أن يعرض على الخصمين قبل أن يحين وقت العد: «واحد، اثنان، ثلاثة» هذا العرض الأخير، وهو: أن يجنحا إلى السلم. وعلى الرغم من أن هذه النصيحة لم تسفر في وقت من الأوقات ولا في حالة من الحالات عن نتيجة، فإنها على العموم إجراء شكلي مجرد، ولكن قيام السيد تشيباتولا بهذا الإجراء الشكلي سيخفف عن نفسه بعض المسؤولية، وأن مثل هذه «الآلوكوتسيا»[٢]، في الحقيقة يجب أن يعهد بتأديتها إلى من يطلق عليه اسم «الشاهد المحايد» (unparteiischer Zeuge)، ولكن ما دام مثل هذا الشاهد لا وجود له عندهم، فإنه هو، فون ريختر، يتنازل بطيبة خاطر عن هذا الشرف لزميله المحترم؛ أما بانتاليوني الذي كان مختبئاً وقتئذ وراء بعض الشجيرات لكيلا يقع بصره على الضابط المسيء، فإنه لم يفهم أول الأمر شيئاً من خطبة السيد ريختر، لا سيما وأن هذا كان يتكلم بصوت أجش، ولكنه اختلج فجأة، واندفع ناشطاً إلى الأمام وهو يضرب بيديه على صدره صارخاً بصوت أجش يرتجف من الانفعال وكلام اختلطت فيه اللغات: A la la la… Che bestialit; Deux zeun'ommes comme ca qué si battono–perchè? Che diavolo? Andate a casa![٣].

فأسرع سانين يقول:

– إني لا اوافق على الصلح.

فردد خصمه في اثره:

١– اقتباس من «يفغيني اونيغين» لألكسندر بوشكين.

٢– آلوكوتسيا: عند قدماء الرومان، هي الخطبة التي كان يلقيها القائد قبيل بدء المعركة. – المترجم.

٣– ما هذا التوحش! لماذا القتال بين اثنين لهما مثل هذا الشباب؟ اخزوا الشيطان واذهبوا إلى البيت. (بالايطالية والفرنسية في الأصل). – الناشر.

– وأنا أيضاً لا اوافق.

فقال فون ريختر يخرج بانتاليوني من ذهوله:

– عليك إذن أن تصيح: واحد، اثنان، ثلاثة!

هنا أسرع بانتاليوني إلى الاختباء في مكمنه وراء الشجيرات. ومن هناك وقف يتلوى، وبعد أن أغمض عينيه وأشاح بوجهه، صاح بملء صوته: Una... due... e tre

كان سانين الاول في اطلاق النار، فأخطأ الهدف، ورنت رصاصته في شجرة، وأطلق بعده البارون فون دونغوف، مصوباً إلى الفضاء عن عمد.

وخيّم صمت مشحون بالتوتر... لم يتحرك احد من مكانه، ثم تأوه بانتاليوني، وقال دونغوف:

– أتأمر بمتابعة المبارزة؟

فسأله سانين:

– لماذا اطلقت في الهواء؟.

– ليس هذا شغلك.

فعاد سانين يسأل:

– أتنوي أن تطلق مرة ثانية في الفضاء؟

– يجوز، فإني لا ادري.

واعترض فون ريختر قائلاً:

– اسمحوا لي، من فضلكم أيها السادة. ليس من حق المتبارزين أن يتبادلوا الكلام، هذا مخالف للنظام.

– إني اتنازل عن اطلاق رصاصتي.

قال سانين هذا ورمى بالمسدس إلى الأرض.

فصاح دونغوف وهو يلقي أيضاً بمسدسه:

– وأنا كذلك لا أنوي أن امضي في المبارزة، وأضيف إلى هذه أنني مستعد الآن للاعتذار، فقد كنت مسيئاً أول امس.

ووقف منطوياً في مكانه، ثم مد يده في تردد إلى أمام، فأسرع إليه سانين يصافحه، وأخذ الشابان ينظران إلى بعضهما البعض مبتسمين محمرين.

وصرخ بانتاليوني فجأة مثل المجنون:

- Bravi! Bravi!

واندفع مثل الحمامة من خلال الشجيرات وهو يصفق بيديه. أما الدكتور، وكان يجلس في ناحية على جذع شجرة مقطوع، فقد بادر إلى النهوض، وسفح الماء من الجرة، ثم مضى يغربل في مشيته الكسول إلى طرف الغابة.

وأعلن فون ريختر قائلاً:

- لقد استوفى الشرف حقه، وانتهت المبارزة!

وعاد بانتاليوني يصرخ مرة ثانية من خلال ذكريات الماضي: Fuori![1].

انحنى سانين لكل من الضابطين، وجلس في العربة. كان يملأ وجوده شعور، إن خلا من الغبطة، فإنه لم يخل من بعض الراحة، كالحال بعد الخلاص من عملية جراحية... ولكن شعوراً آخر أخذ يدب في نفسه اشبه بالخجل... لقد ظهر له أن هذه المبارزة التي فرغ قبل لحظات من لعب دوره فيها، كانت شيئاً زائفاً، وإجراء شكلياً تم الاتفاق عليه من قبل، وحيلة مألوفة بين الضباط والطلبة. وتذكر سانين الطبيب الخامل، تذكر كيف ابتسم حتى تغضن أنفه حينما رآه يغادر الغابة، مع البارون دونغوف بل إنه كان يأخذ بذراع البارون. ثم تذكر لحظة دفع بانتاليوني لهذا الطبيب استحقاقه وهو أربعين روبلاً... أيخ! قد حدث شيء لا خير فيه!.

لا شك أن سانين كان يحس بشيء من تأنيب الضمير، ومن الخجل... ولكن ماذا كان عليه - من ناحية ثانية - أن يفعل؟ اكان عليه أن يترك سفاهة الضابط الشاب من غير عقاب ويتشبه بالسيد كلوبير؟ لقد فعل ما فعل من

١- بالايطالية، صيحة معناها: بديع أو رائع، كان النظارة - قبل عصر المؤلف - يحيون بها الممثلين المجيدين. ثم استبدلت بكلمة «برافو» التي كانت متداولة في زمان تورغينيف كما هي اليوم. - المترجم.

أجل جيما، ودافع عنها... ومع هذا، كانت نفسه تعذبه، وضميره يؤنبه، ويؤوده الخجل.

يقابل هذا عند بانتاليوني أنه - ببساطة - في حالة عيد! فقد استأثر به الزهو دفعة واحدة، فما يباريه في الرضى عن نفسه جنرال منتصر يعود من المعركة التي انتصر فيها. لقد استفاض إعجابه بسلوك سانين اثناء المبارزة، فنادى به بطلاً، وأبى أن يستجيب إلى نصح هذا البطل حتى بعد أن صار نصحه إلى رجاء، فشبهه بنصب من المرمر أو من البرونز، ثم شبهه بتمثال القائد في قصة «دون جوان» واعترف بأنه شعر ببعض الاضطراب، ثم لاحظ قائلاً: «ولكني فنان عصبي الطبع، أما أنت - فإنك ابن الثلوج وصخور الغرانيت».

ولم يعرف سانين على التحديد ما السبيل إلى تهدئة فنان أطلق لهياجه العنان.

في المكان نفسه من الطريق، أو غير بعيد عنه، حيث تركا إميل قبل ساعة - ساعتين، وجداه يندفع من وراء شجرة وهو يطلق صيحات السعادة، ويلوح بقبعته فوق رأسه، ويتوثب، ثم قذف بنفسه نحو العربة حتى لقد أوشك أن يقع تحت عجلاتها، ولم ينتظر حتى تقف الجياد، فتسلقها خلال بابها المغلق، وأخذ يحدق في سانين مردداً بإلحاح:

- أنت حي، ما بك جرح! اصفح عني فإني عصيت كلمتك فلم أرجع إلى فرانكفورت... ما قدرت! فانتظرتك هنا... قص عليّ ما حدث، هل قتلته؟...

وجد سانين مشقة شديدة حتى هدأ من روع إميل وأجلسه.

روى عليه بانتاليوني تفاصيل المبارزة فأطنب وتزيّد وهو في غاية الرضى، وطبيعي أنه عاد إلى قصة نصب البرونز وتمثال القائد، حتى إنه استقام واقفاً من مكانه يمثل القائد سانين، ففرج ساقيه لحفظ التوازن، وصلب يديه على صدره، وأرسل نظرة ازدراء من فوق كتفه وأصغى إميل إلى روايته متهيباً لا يقاطعه إلا بهتفة يطلقها بين الحين والآخر، أو بقبلة يتطاول مسرعاً إلى خطفها من صديقه تلقاء بطولته.

ثم أخذت عجلات العربة تقعقع على المرصوف من شوارع فرانكفورت، وتوقفت في النهاية لدى باب الفندق الذي ينزل فيه سانين.

لما رافق زميليه مصعداً في الدرج إلى الطابق الثاني – مرّت فجأة في الممر الصغير المظلم امرأة محجبة تسير بخطوات سريعة، ثم اقتربت منه لاهثة الأنفاس، فتوقفت قليلاً وهي تميل بجسمها إلى ناحيته، وما لبثت أن ركضت خارجة إلى الشارع – واختفت عن النظر، فقال خادم الفندق وهو في دهشة عظيمة: إن هذه السيدة قد انتظرت السيد الأجنبي أكثر من ساعة». وأدرك سانين منذ اللمحة الأولى إنها جيما، عرف عينيها من وراء خمارها البني الحريري السميك، فقال يوجه الكلام بالألمانية إلى إميل وبانتاليوني وهو يمد في نطق الحروف:

– هل كانت فراولين جيما تعرف؟...

فتمتم إميل من خلال ما اعتراه من الخجل والارتباك:

– لقد حدست هي بالأمر، و لم أستطع شيئاً، فاضطررت أن أروي عليها كل شيء.

وأضاف في حماسة:

– ولكن لم يبق للتحرج معنى الآن، فقد انتهى ذلك نهاية رائعة، ورأتك سليماً معافى.

فغمغم سانين وهو يتولى عنهما غاضباً:

– يا لكما من ثرثارين!.

ودخل غرفته وجلس على مقعد.

فتوسل إليه إميل قائلاً:

– لا تغضب، أرجوك.

– طيب لن اغضب. (أكيد أن سانين لم يكن غاضباً – يكاد يتمنى ألا تجهل جيما كل شيء) – طيب، كفاكما الآن معانقات، فانصرفا، أريد أن أبقى وحدي، لأنام، فاني متعب.، فصاح بانتاليوني:

– فكرة رائعة، إنك بحاجة إلى الراحة، ولأنت تستحقها أيها السينور

النبيل. هيا نذهب يا إميليو! على رؤوس الأصابع، على رؤوس الأصابع! شش!

زعم سانين أنه يرغب في النوم ليتخلص من رفيقيه ليس غير، فلما بقي وحيداً، شعر حقيقة بالتعب الشديد يسري في اعضائه جميعاً، ففي الليلة البارحة لم يغمض له جفن إلا لماماً، وما إن القى بجسمه المكدود على السرير حتى غط في نوم عميق.

- ٢٣ -

لم يستيقظ طوال بضع ساعات متتاليات، ثم تراءى له أنه يخوض مبارزة جديدة، وأن الخصم الذي يقف أمامه هو السيد كلوبير؛ وعلى شجرة من أشجار الشربين تحط ببغاء تشبه بانتاليوني، توقع بمنقارها مرددة: واحد - واحد! واحد - واحد - واحد!

ثم أصبح الصوت بيِّناً في سمعه: «واحد... واحد... واحد!!» ففتح عينيه، ورفع رأسه قليلاً... كان هناك من يطرق عليه الباب.

صاح سانين:

- ادخل!.

ظهر الخادم ليخبره بأن سيدة تتلهف كثيراً إلى رؤيته.

خطرت بباله - «جيما»!، ولكن ظهر أن السيدة هي أمها - فراو لينوري.

ما كادت تدخل حتى سقطت من فورها على كرسي واستعبرت باكية.

- ماذا بك يا طيبتي، يا عزيزتي السيدة روزيللي؟ - بدأ سانين قوله وهو يجلس إلى جنبها، ويلمس ذراعها بترفق وحنان - اهدئي، أرجوك.

- آه يا Herr Dimitri، إنني... في غاية التعاسة!.

- أنت تعيسة؟.

- آه، كثيراً! هل كان من الممكن أن أتوقع؟ لقد انقض ذلك فجأة، كالصاعقة من سماء صافية...

كانت تتنفس في عسر.

- ولكن أخبريني، ماذا حدث؟ أتريدين كأس ماء؟.

- لا، وشكراً لك، - وما إن مسحت فراو لينوري عينيها بمنديلها حتى عادت تبكي على نحو أشد - إني أعرف كل شيء! كل شيء!.

- ماذا يعني: كل شيء؟.

- كل ما حدث اليوم، وكذلك السبب في ما حدث... لم يعد خافياً عليّ! لقد سلكت مسلك الرجل النبيل، ولكن ما أشد ما تعاقب من البلاء! ما كان عبثاً أنني لم ينشرح قلبي لتلك الرحلة إلى سودين... ما كان عبثاً! (لم تكن فراو لينوري قد أشارت إلى شيء من هذا يوم الرحلة، ولكنها تراءى لها الآن أن حدسها أنبأها «كل شيء») - لقد قصدتك كما يقصد الرجل النبيل، كما يقصد الصديق، على الرغم من أنني لم أتعرف إليك إلا منذ خمسة أيام... ولكني أرملة! وحيدة... وابنتي...

وطغى البكاء على صوت فراو لينوري، فردد سانين قائلاً وهو لا يعرف ماذا هناك:

- بنتك؟.

فانفلت أنين فراو لينوري من خلال منديلها المبلل بالدموع وقالت:

- ابنتي جيما، لقد أنبأتني اليوم أنها لا تريد الزواج من السيد كلوبير، وأن عليّ أن أخبره بذلك!.

تزحزح سانين قليلاً من مكانه: فإنه لم يتوقع هذا. وتابعت فراو لينوري:

- وأنا لم أتحدث عن وجه العار في هذ الأمر الذي لم يحدث مثله في العالم، وهو أمر الخطيبة التي تهجر خطيبها، ولكن فيه الخراب لنا يا Herr Dimitri.

وأخذت فراو لينوري تكور منديلها بقوة ومثابرة، كأنها تريد أن تحتبس كل أحزانها في هذه الكرة الصغيرة.

- موردنا من الدكان لم يعد فيه ما يكفي للعيش يا Herr Dimitri أما الهر كلوبير فإنه واسع الثراء، وسيكون أوسع ثراء، فماذا حداها إلى رفضه؟ ألأنه لم يتقدم للذياد عن خطيبته؟ إني أسلم بأن تصرفه غير محمود على الإطلاق،

ولكنه رجل مدني، لم ينشأ في جامعة، وينبغي له بحكم مركزه كتاجر محترم أن يترفع عن أعمال الطيش التي يعبث بها ضابط صغير مغمور، فيا لها إساءة يا Herr Dimitri.

– اسمحي لي يا فراو لينوري، يبدو أنك تتهمينني.

– إنني لا أتهمك بشيء، فأنت لك شأن آخر. إنك مثل الروس جميعاً رجل عسكري...

– اسمحي لي، فإني لست ابداً...

– إنك غريب الدار، عابر سبيل، وأنا شاكرة لك ما قدمت – تابعت فراو لينوري كلامها من غير أن تصغي إلى سانين، كانت تتنهد وتلوح بيديها، وتبسط منديلها، وتنفث فيه، وكان واضحاً من الطريقة التي عبرت فيها عن همومها أنها لم تولد تحت سماء شمالية.

– هل من سبيل للسيد كلوبير إلى البيع في المخزن لو أنه ذهب يصارع المشترين؟ لا يعقل هذا أبداً! ثم ينبغي عليّ أن أعلنه بالقطيعة، ولكن على أي مورد سنعيش؟ كنا الوحيدين من قبل في صنع غزل البنات والنوكة بالفستق، وكان المشترون كثرة، أما الآن فإن كل حلواني يصنع غزل البنات!! فتأمل: من غير هذا سيتحدث كل أهل البلد عن مبارزتك... فهل من السهل إخفاء أمرها؟ ثم يأتي فجأة فسخ الخطبة! إن هذا فضيحة وأي فضيحة! جيما فتاة رائعة ولا شك، وهي تحبني كثيراً، ولكنها جمهورية عنيدة، تخشى رأي الناس، وأنت الوحيد من يستطيع إقناعها!.

فزاد سانين دهشة عما كان عليه من قبل.

– أنا، يا فراو لينوري؟.

– نعم، أنت... أنت وحدك، ولهذا جئت أقصدك. لم يسعفني التفكير بحل آخر! إنك في غاية الثقافة والطيبة، وقد زدت عنها على الخصوص، فهي تثق بك ويجب أن تثق بك، فقد جازفت بحياتك من أجلها، إنك قادر على تبصيرها بالأمر، أما أنا فما عدت قادرة على شيء! – تستطيع أن تثبت لها أنها ستدمر حياتها وحياتنا معها. لقد أنقذت ابني، فلعلك أن تنقذ ابنتي أيضاً! إن الله قد أرسلك إلينا... وإني لمستعدة أن أتوسل إليك وأنا جاثية على ركبتي...

وهمّت فراو لينوري بالقيام عن الكرسي كأنها بسبيلها إلى الارتماء عند قدمي سانين... فأمسك بها.

- فراو لينوري! نشدتك الله، ما هذا منك؟

فأطبقت على يده في انفعال وقالت:

- هل تعدني؟.

- فراو لينوري، فكّري، هل يحق لي...؟

- هل تعدني؟ أتطلب مني أن أموت هنا أمامك في الحال؟ اسقط سانين في يديه، فإنها المرة الأولى في حياته التي يواجه فيها التجربة مع الدم الإيطالي الملتهب، ثم صاح قائلاً:

- سأفعل كل ما يبعثك على الرضى! - ساتحدث إلى فراولين جيما...

فأطلقت فراو لينوري صيحة فرح.

- ولكني لا أدري على التحديد ما هي النتيجة التي ستطلع باليد...

فقالت فراو لينوري بصوت متوسل:

- آه، لا ترفض، لا ترفض، لقد وافقت! أما النتيجة فلا بد أن تكون رائعة، ومهما يكن فإني لم أعد قادرة على أن أزيد عما فعلت، فإنها لن تصغي إليّ!.

فسألها سانين بعد قليل من الصمت:

- هل كانت قوية العزيمة لما أعلنت إليك رفضها الزواج من السيد كلوبير؟.

- كانت قاطعة مثل السكين! فهي صورة من أبيها جيوفاني باتيستا - جريئة!.

فردد سانين وهو يمد في نطق الحروف:

- جريئة! هي؟

- نعم، إنها كذلك، ولكنها ملاك أيضاً، ولسوف تطيعك، فهل تأتي من دون إبطاء؟ أوه يا صديقي الروسي العزيز!.

وهبت فراو لينوري ناهضة عن الكرسي، وسانين يجلس إلى جنبها، فأحاطت رأسه بيديها، وقالت:

– تقبل البركة من أم... واعطني ماء!

حمل سانين إلى السيدة روزيللي كأساً من الماء، ووعدها بألا يبطئ عليها في المجيء، ثم ودعها منحدراً معها في الدرج حتى الشارع، وعاد إلى غرفته وهو يضرب كفاً بكف، ويحملق مذهولاً.

فكّر في نفسه: «ها هي ذي الحياة تدور الآن! وإنها لتدور على نحو يدور له رأسي». لم يحاول أن ينظر في طوية نفسه ليستشف ما يجري في باطنه: هناك الفوضى – وبس! وهمست شفتاه من غير قصد: «يوم مشهود! جريئة... هذا ما قالته أمها، وينبغي عليّ أنا أن أنصح لها – لها؟ فبماذا أنصح؟!».

كان رأس سانين يدور بالفعل، وفي كل هذه الزوبعة من العواطف المختلفة والانطباعات والأفكار المبتورة، كانت تطفو على نحو ثابت صورة جيما، هذه الصورة التي انغرست في ذاكرته فما تزول، كما رآها في تلك الليلة المضطربة الدافئة المكهربة، وهي في نافذتها المظلمة، تحت اشعة النجوم المتعاكسة!

– ٢٤ –

كان سانين يقترب من منزل السيدة روزيللي بخطوات مترددة وقلبه يخفق خفقاً شديداً شعر به واضحاً وأحس به يقرع في ضلوعه. ماذا تراه سيقول لجيما، وكيف سيفاتحها بالحديث؟ دخل البيت من بابه الخلفي لا بطريق الدكان، وقابل فراو لينوري في الغرفة الصغيرة الأمامية، فكانت فرحة وخائفة من هذه المقابلة؛ قالت له همساً وهي تأخذ يده بإحدى يديها ثم بالثانية:

– لقد انتظرتك وانتظرتك – اذهب إلى الحديقة فإنها هناك، وانتبه للأمر فإني أعقد عليك الأمل!

وسار سانين إلى الحديقة.

كانت جيما تجلس على دكة خشبية قريبة من الممر، وأمامها سلة مملوءة بالكرز، وقد شغلت بانتقاء الحبات الناضجة منها ونقلها إلى طبق، والشمس منحدرة إلى الغروب فقد جاوزت الساعة السادسة من المساء، وفيض عرض من أشعتها المائلة يغرق حديقة السيدة روزيللي اشد حمرة مما هو ذهبي، وأوراق الأشجار يندّ عنها بين الحين والآخر همس خفيض يكاد لا يسمع

إلا قليلاً، والنحل المتخلف عن سربه يطنّ متنقلاً من زهرة إلى زهرة، وقمرية ترسل من مجثمها هديلاً رتيباً متصلاً.

كان على رأس جيما تلك القبعة المستديرة التي لبستها أثناء الرحلة إلى سودين، فرفعت بصرها تحدث إلى سانين من تحت طرف القبعة الملتوي، ثم عادت تنحني على سلة الكرز.

كانت خطوات سانين تبطئ عن غير قصد كلما زاد اقتراباً منها و... و... و... لم يجد ما يقوله بل وجد ما يسأل عنه فقال: لماذا تنتقين هذا الكرز؟.

فأمسكت جيما قليلاً عن الجواب، ثم تمتمت أخيراً:

– هذه الحبات الناضجة من أجل المربى، وهذه لحشو الفطائر، فأنت تعرف أننا نبيع مثل هذه الفطائر المحلاة بالسكر.

قالت هذه الكلمات وعادت تنحني على السلة برأس أكثر انخفاضاً عن ذي قبل. أما يدها اليمنى التي تحمل بين أصابعها حبتين من الكرز فقد بقيت معلقة في الهواء بين السلة والطبق.

سألها سانين:

– أتأذنين لي في الجلوس معك؟.

فتزحزحت جيما قليلاً عن الدكة الخشبية وقالت:

– تفضل.

جلس سانين إلى قربها وهو يفكر: «كيف ابدأ»؟، ولكن جيما انتشلته من حيرته فقالت في حماسة:

– لقد اشتبكت اليوم في مبارزة.

والتفتت إليه بكل وجهها الرائع المشرب بحمرة الحياء، ويا للامتنان العميق الذي كان يشع في عينيها!

– ثم أراك على مثل هذا الهدوء، أفلا تعرف الشعور الخطر؟

– خلي عنك فإني لم أواجه أي خطر، وقد مضى كل هذا في سلام، و لم يصب أحد بسوء.

فرفعت جيما إصبعها وحركتها يمنة ويسرة أمام عينيه... وهذه أيضاً عادة إيطالية.

– لا! ابداً! لا تقل ذلك! فإنك لا تستطيع أن تخدعني، لقد انبأني بانتاليوني بكل ما حدث!.

– لقد عثرت على من تثقين بقوله! ألم يشبهني أيضاً بتمثال القائد؟.

– قد تكون طريقته في التعبير مضحكة، ولكن شعوره وما عملته اليوم لم يكن مضحكاً، وكل ذلك من جرائي... ومن أجلي... لن أنسى هذا أبداً.

– اؤكد لك يا فراولين جيما...

فكررت قولها وهي تشد على الحروف:

– لن أنسى هذا ما عشت.

وعادت تحدق فيه متملية ثم أدارت وجهها.

لقد استطاع عندئذ أن يرى إلى جانب وجهها النقي الناعم، فخيل إليه أنه لم ير في حياته وجهاً يشبهه، و لم يشعر في حياته بما شعر به في هذه اللحظة، واشتعلت روحه جملة.

«أين ما وعدت به»؟ – لمع في رأسه هذا الخاطر فبدأ الكلام بعد لحظة من التردد:

– فراولين جيما...

– يا نعم

إنها لم تلتفت إلى ناحيته بل استمرت في انتقاء الكرز فكانت تأخذ الحبة من ذيلها بأطراف أصابعها في ترفق، وترفع أوراقها في حرص... ولكن بأي ثقة وحنان نطقت بهذه الكلمة: «يا نعم»!

– ألم تخبرك أمك بشيء... حول...؟

– حول؟

– حولي أنا.

قذفت جيما بما في يدها من الكرز فجأة إلى الوراء، في السلة، وسألته بدورها:

– هل تحدثت إليك؟.

– نعم.

– ماذا قالت لك؟

– قالت لي أنك... غيرت فجأة ما كان في نيتك من قبل. خفضت جيما رأسها فاختفى وجهها كل تحت قبعتها، و لم يبد غير عنقها اللدن الناعم الذي يشبه ساق زهرة كبيرة.

– أي نية؟

– نيتك... بخصوص... بناء مستقبل حياتك.

– المقصود... أنك تتحدث بهذا... عن السيد كلوبير؟

– نعم

– هل قالت لك أمي بأنني لا أريد الزواج من السيد كلوبير؟

– نعم.

تحركت جيما في مقعدها فمالت السلة وسقطت، وتدحرج منها بضع حبات من الكرز على الممر... وانقضت دقيقة... ثم أخرى، وسمع صوتها تقول:

– لماذا تحدثت إليك أمي في هذا؟

بقي وجه جيما مختفياً عن نظر سانين كما كان من قبل، فما يبدو له غير عنقها، وكان صدرها يرتفع وينخفض في عنف...

– لماذا؟ لقد فكرت أمك بأننا اصبحنا أصدقاء في وقت قصير، وأنك تشعرين نحوي بشيء من الثقة يمكنني من اسداء بعض النصح إليك، وأنك ستنتصحين بها.

فانزلقت يدا جيما في هدوء إلى ركبتيها... وبدأت تسوي طيات فستانها، ثم سألت بعد انتظار قليل:

– وأي نصيحة تريد أن تسديها إليّ يا monsieur Dimitri رأى سانين أن أصابع جيما كانت ترتجف على ركبتيها... وأن تسوية الفستان لم تكن إلا لاخفاء هذا الارتجاف، فوضع يده في رفق على هذه الأصابع الشاحبة المرتعشة وقال:

– جيما – لماذا لا تنظرين إليّ؟

فأزاحت قبعتها إلى الوراء من خلال كتفيها بأسرع من ومض البرق، ونظرت إليه في عينيه مباشرة نظرة فيها كل الثقة وعرفان الجميل، وانتظرت

أن يتكلم... ولكن مرأى وجهها حيره وخفف بصره، فقد استضاء هذا الوجه الفتي ببريق شمس الأصيل الدافئة، فبدت قسماته أشد سناءً وبهاءً من هذه الشمس.

- سأطيعك يا Monsieur Dimitri

بدأت قولها وقد ارتسمت على ثغرها ابتسامة خفيفة وارتفع حاجباها قليلاً.

- ولكن ما هذه النصيحة التي تريد أن تسديها إليّ؟ فكرر سانين:

- ما هذه النصيحة؟ على علمك أن والدتك تعتبر أن لرفضك السيد كلوبير سبباً وحيداً وهو أنه لم يظهر منذ ثلاثة أيام ما ينبغي له من الشجاعة...

- أهذا هو السبب الوحيد؟

قالت جيما ذلك وانحنت فتناولت السلة ووضعتها إلى جنبها على الدكة الخشبية.

- وترى... إن رفضك... بصورة عامة، بعيد من جهتك عن التبصر، وإن عواقب مثل هذه الخطوة يجب أن تحسب جميعاً أدق حساب، وأن وضعكم يفرض واجبات واضحة على كل فرد من أفراد الأسرة...

فقاطعته جيما:

- كل هذا آراء ماما، وكلماتها، وأنا أعرف هذا جميعاً، فما رأيك أنت؟.

- رأيي؟

وصمت سانين، فقد شعر بشيء يسري في حلقه ويحبس انفاسه، ثم أضاف في جهد جهيد:

- وأنا أظن أيضاً...

فاعتدلت جيما:

- وأنت أيضاً؟ انت؟.

- نعم... ولكن قصدي...

واعياه القول فما استطاع أن يضيف كلمة، وقالت جيما:

– طيب، ما دمت تنصح لي، باعتبارك صديقاً، أن أغير رأيي... أقصد أن لا أغير ما أرتأيته من قبل – فإني سأفكر في الأمر... – ومن غير أن تدري ما تفعل أخذت تنقل من الطبق إلى السلة ما انتقته من الكرز.

– إن أمي تأمل في أن استمع لنصحك... واذن، لا يبعد أن أعمل بما تنصح لي به على وجه الضبط.

– ولكن أرجوك يا فراولين جيما. هل لي أن أعرف الأسباب التي حملتك على...

فكررت جيما وقد تغضن جبينها وشحب خداها وانطبقت أسنانها على شفتها السفلى:

– سأستمع لنصحك. فقد جهدت كثيراً من أجلي، فوجب عليّ أن احقق لك ما تريد، وأعمل بمشيئتك، وسأنبئ أمي... سأفكر في الأمر، ولكن ها هي ذي تجيء إلى هنا.

والواقع أن فراو لينوري ظهرت على عتبة البيت المؤدية إلى الحديقة. لقد برحت بها اللهفة وفراغ الصبر فلم تطق الجلوس في مكانها، وقدرت أن سانين لا بد قد أنجز منذ وقت طويل ما سيشرحه لجيما في حين أن جلسته لم تستغرق أكثر من خمس عشرة دقيقة.

وصاح سانين في سرعة وتخوف:

– لا، لا، لا، نشدتك الله ألا تنبئيها بشيء أبداً، انتظري... سأقول لك. سأكتب إليك... فلا تنجزي أمراً حتى ذلك الوقت... انتظري!

وشد على يد جيما وهو ينهض من المقعد، ويا لدهشة فراو لينوري لما رأته ينسل ماراً بها مر الجانب، رافعاً لها قبعته، متمتماً بكلام غير مفهوم ثم يختفي... فتقدمت من ابنتها وقالت:

– قولي أرجوك يا جيما...

فقامت جيما فجأة واحتضنت أمها:

– ماما، يا حبيبتي، هل تستطيعين أن تنتظري قليلاً حتى الغد؟ أقل القليل من الصبر، فهل تستطيعين؟ ولا تنطقي بكلمة حتى الغد؟... آه!...

وفاضت دموعها المتلألئة فجأة على غير توقع منها بالذات، وقد أدهش فراو لينوري على الخصوص أن ملامح جيما كانت بعيدة عن الأسى، بل إنها اقرب إلى السعادة، فسألتها:

– ماذا بك؟ لم يكن البكاء من شأنك ابداً، ثم فجأة...

– لا شيء يا ماما، لا شيء! انتظري وحسب، ينبغي لنا نحن معاً أن ننتظر، لا تسألي عن شيء حتى الغد، وهيا بنا ننتق الكرز ما دامت الشمس لم تمل إلى الغروب.

– ولكن هل ستكونين متبصرة؟.

– أوه، إني لشديدة التبصر؟.

اومأت جيما برأسها إيماءة اهتمام وإدراك، وبدأت تنظم الكرز في عناقيد صغيرة كانت ترفعها إلى أعلى أمام وجهها المشرب حمرة، و لم تمسح دموعها، فقد نشفت الدموع من تلقاء ذاتها.

– ٢٥ –

كاد سانين يركض وهو عائد إلى مسكنه، فقد شعر، بل أدرك، أنه سيقدر آخر الأمر، حين ينفرد بنفسه في هذا المسكن فقط، أن يتبين ما به، فماذا به؟ والواقع: ما إن وصل إلى غرفته وجلس إلى مكتبه مرتفقاً عليه بكلتا يديه، آخذاً وجهه بين راحتيه، حتى صاح من أسى بصوت أصم: «أحبها، وأنا مجنون بحبها!» – لقد التهب في دخيلته فجأة كما الفحم نفخ عنه الرماد المنطفئ. مرت لحظة... وهو لا يملك القوة على أن يفهم كيف استطاع أن يجلس إلى جنبها ويتحدث إليها دون أن يشعر بأنه يعبدها حتى طرف فستانها، وأنه مستعد على حد تعبير الشباب «للموت عند قدميها». لقد كان اللقاء الأخير في الحديقة حاسماً – وحينما يفكر الآن، فإنه لا يذكرها وهي مبعثرة الشعر تحت ضوء النجوم، وإنما يذكرها كما رآها جالسة على مقعد الحديقة، كما رآها تحسر قبعتها فجأة وتنظر إليه في ثقة... فيسري ظمأ الحب الملتهب في كل عروقه. تذكر الوردة التي يحتفظ بها في جيبه منذ ثلاثة أيام – فسحبها وجذبها إلى شفتيه بقوة محمومة فإذا وجهه يتغضن من الألم. إنه لا يستطيع الآن أن يعقل امراً ولا أن يفكر في أمر، ولا أن يحسب لشيء

حساباً ولا أن يستشف ما يطويه الغد. لقد تفلت من الماضي كله ووثب إلى الأمام: منفصلاً من شاطئ حياة الوحدة والعزوبية الكئيب وألقى بنفسه في هذا التيار الممراح العارم المتدفق - غير متحسر على شيء، ولا راغباً في أن يعرف إلى أين سيحمله، أو على أي صخرة قد يحطمه؛ وهو بعد ليس هذه السيول الهادئة لرومانس اولاند التي كانت تهدهده منذ وقت قريب... وإنما هو أمواج عارمة لا تقاوم! وإنها لتطير وتتواثب مندفعة إلى الأمام وهو معها يطير!.

أخذ ورقة، ومن غير أن يشطب ريشته على كلمة أو يتوقف عند كلمة كتب ما يلي:

«عزيزتي جيما»!.

أنت تعرفين أي نصيحة أخذت على نفسي أن أزجيها إليك، وتعرفين ما تتمناه والدتك وما طلبته مني، ولكنك لم تعرفي شيئاً مما ينبغي لي أن أقوله الآن - وهو انني احبك. احبك بكل اشواق قلب يحب أول مرة! وقد اشتعلت في هذه النار على حين غرة، أما عن قوتها فلست أجد ما يعبر عنها من الكلمات!! لما قصدتني والدتك وطلبت مني ما جاءت من أجله - لم تكن هذه النار قد التهبت بل كانت ترمضٍ مستخفية في سريرتي، وإلا لرفضت من كل بد أن ألبي طلبها باعتباري رجلاً شريفاً... وكذلك هذا الاعتراف الذي أفضي به الآن، لهو اعتراف رجل شريف؛ يجب أن تعرفي طرز من تتعاملين معه - وألا يكون بيننا غموض في الفهم. وأنك ترين أنني لا أستطيع أن أزجي إليك أي نصيحة، فإني أحبك... أحبك... أحبك - وليس غير هذا في عقلي وفي قلبي!!.

ديم. سانين»

طوى هذه الرسالة وجعلها في غلاف، ثم أراد أن يدعو الخادم ليرسلها معه، ولكن... «لا! فان هذا غير مستحسن - فهل نتوسل بإميل؟ ولكن الذهاب إلى المخزن والبحث عنه بين المستخدمين غير مستحسنين أيضاً، ثم إن الظلمة قد انتشرت في الخارج والأرجح أنه غادر المخزن». وضع سانين

قبعته على رأسه وهو لا يزال يقلب الأمر على وجوهه وخرج إلى الشارع، فما اجتاز زاوية وانعطف في زاوية أخرى حتى رأى إميل أمامه ففرح به فرحاً عظيماً. كان الشاب المتحمس مسرعاً إلى البيت: حقيبة تحت إبطه وصرة كبيرة من الورق في يده، ففكر سانين وهو يناديه: «ليس عبثاً ما قيل من أن لكل عاشق نجمة».

التفت إميل وأقبل مسرعاً من فوره.

لم يترك سانين أن يمضي في فرحته بل ناوله الرسالة وأوضح له لمن ينبغي أن يسلمها وكيف يوصلها... وكان إميل يصغي إليه في انتباه.

– أي بحيث لا يرى أحد؟.

سأل وهو يعطي لوجهه تعبيراً من الخطورة والسرية كأنه يقول: «نحن ندرك أين بيت القصيد».

فقال سانين وقد اعتراه شيء من الخجل:

– نعم يا صديقي.

ولكنه أضاف وهو يربت بيده على خد إميل:

– وإذا كان ثمة جواب... فاحمله أنت إليّ، أليس كذلك؟ وسأنتظر في غرفتي.

فهمس إميل بمرح:

– لا تقلق من هذه الناحية!.

وانصرف راكضاً، ثم التفت اثناء ركضه فأومأ لسانين برأسه.

عاد سانين إلى سكنه، وارتمى على الأريكة دون أن يوقد الشموع، فوضع يديه وراء رأسه، وأرسل نفسه مع الاحاسيس التي ابتعثها إدراكه أنه عاشق، وهي مما لا يجدي وصفه: فمن يكابد عذابها ويرتشف عذوبتها يعرفها، أما الذي لم يكابدها فمن المستحيل إفهامه.

فتح الباب وظهر رأس إميل، وهمس قائلاً:

– جئت بالجواب، وها هو ذا...

ورفع فوق رأسه ورقة مطوية.

فنهض سانين عن الأريكة واختطف الورقة من يد إميل. كان الشوق يعصف به فاستهتر بالكتمان، و لم يبال بأعراف التوقر حتى أمام هذا الصبي الذي هو أخوها، وإنه لجدير أن يستحي منه، وأن يقسر نفسه على هذا لو أنه استطاع!.

مشى نحو النافذة حيث يبلغها النور من فانوس أمام الفندق، وقرأ هذه السطور:

«أرجوك، بل أتوسل إليك – ألا تأتي إلى زيارتنا طول يوم غد، وألا تظهر في طرفنا، فإن هذا ضروري، وضرورته محتومة، وسيكون حل لكل ما هناك. أعرف أنك لن ترفض هذا الطلب لأن...

جيما».

قرأ سانين هذه السطور مرتين – ويا لخطها كم بدا له مؤثراً لطيفاً جميلاً! – وبعد أن فكر قليلاً التفت إلى إميل – وكان الفتى بدافع من رغبته في لفت الانتباه إلى أنه جم التواضع، يقف مديراً وجهه إلى الجدار وينكث فيه بأظفاره – فناداه باسمه.

فأسرع إميل من فوره إلى سانين.

بم تأمر؟.

– استمعوا إليّ يا صديقي...

فقاطعه إميل بصوت مستعطف قائلاً:

– مسيو ديميتري، لماذا لا تخاطبني بضمير المفرد؟ فابتسم سانين:

– طيب إذن، اسمع يا صديقي (إميل نط عندئذ قليلاً من الفرح) اسمع: ستقول لمن هناك، وأنت تدرك من المقصود، أن كل ما طلب سينفذ بما ينبغي من الدقة (إميل ضغط على شفتيه، وهز رأسه باهتمام) وأنت... ماذا ستعمل يوم غد؟.

– أنا؟ ماذا سأعمل؟ ما الذي تريدني أن أعمله؟.

– إذا امكنك المجيء، فتعال إليّ في الصباح الباكر، لنقوم بجولة حتى المساء في ضواحي فرانكفورت... فهل تريد؟.

نط إميل مرة ثانية.

– يا سلام، هل الدنيا أحسن من هذا؟ النزهة معك معجزة، سأحضر ولا شك.

– وإذا منعوك؟

– لن يمنعوني!.

– اسمع... لا تقل هناك إنني دعوتك لقضاء النهار كله.

– وعلام الكلام؟ سأخرج وحسب، فهل في هذا ضير؟ وقبّل سانين بحرارة وانطلق يجري.

بقي سانين يذرع الغرفة وقتاً طويلاً، لم يستلق في فراشه التماساً للنوم إلا في ساعة متأخرة – كان يترشف تلك الأحاسيس الرهيبة اللذيذة نفسها وتلك السعادة المبهورة أمام الحياة الجديدة؛ وفكر سانين وهو في غاية الغبطة من أنه خطر بباله أن يدعو إميل إلى نزهة الغد: «إنه سيذكرني بأخته».

كان أشد ما أدهشه في هذا كله: كيف استطاع أن يكون أمس غير ما، كأنه اليوم؛ فقد خيل إليه أنه أحب جيما طوال عمره، وأنه أحبها هذا الحب الذي يستشعره لها اليوم.

– ٢٦ –

في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي كان إميل يدخل الغرفة على سانين وهو يمسك بطوق الكلب البوديل تارتاليا؛ ولو أنه كان من أبوين ألمانيين لما استطاع أن يكون أكثر دقة مما ظهر منه. لقد خدع الأهل في المنزل فقال بأنه سيذهب للفسحة مع سانين حتى وقت الفطور، ومن ثم سيقصد المخزن. وفيما كان سانين يلبس ثيابه أخذ إميل يحدثه – ولكن في شيء من الارتباك – عن جيما، وعن اختلافها مع السيد كلوبير، ولكن سانين صمت متجهماً عن الجواب، فاتخذ إميل وضع من يفهم لماذا يجب لا تلمس هذه النقطة الحساسة، ولم يعد إلى الخوض في حديثها، واكتفى بأن يصطنع بين الحين والآخر هيئة رزينة بل صارمة أيضاً.

بعد شرب القهوة، سار الصديقان - على الأقدام بطبيعة الحال - إلى غاوزين، وهي قرية صغيرة ترقد في موقع قريب من فرانكفورت، تحيط بها الغابات، وتبدو منها سلسلة جبال تاؤونوس مثل راحة الكف. كان الطقس رائعاً، والشمس ساطعة ولكنها غير لافحة، والهواء الصافي يضوضي ممراحاً في الأوراق الخضراء، وظلال السحب المدورة العالية ترتمي بقعاً غير كبيرة، وتنزلق متموجة مسرعة خلال الأرض. غادر الشابان المدينة بعد وقت قليل، وراحا يطويان الطريق الممهد النظيف يستخفهما النشاط والمرح، ثم أوغلا في الغابة، وهاما وقتاً طويلاً في مساربها، وبعد غداء دسم تناولاه في نزل القرية، ذهبا يتسلقان الجبل ويتمتعان بما حولهما من منظر، وطفقا يقذفان الحجارة من أعلى، ويصفقان بأيديهما وهما ينظران كيف تتواثب على نحو مضحك غريب، حتى أن عابر سبيل في أسفل الجبل لم يكن ظاهراً لأعينهما، وقف يشتمهما بصوت مجلجل عال. ثم تمددا مبسوطي الأيدي على الطحالب القصيرة الجافة ذوات اللون البنفسجي الضارب إلى الصفرة، وشربا البيرة في مقصف آخر، وتسابقا في الركض، وتباريا بالقفز الطويل، وفتحا حواراً مع الصدى، فتحدثا وغنيا، وصوّتا، وتصارعا، ثم قطعا الأغصان من الشجر، وزينا قبعتيهما بأزهار السرخس، بل إنهما رقصا أيضاً. وأسهم تارتاليا بما اطاقه وقدر عليه في كل هذه الاهتمامات: صحيح أنه لم يقذف الحجارة ولكنه تدحرج وراءها على عقب، ونبح عندما غنى الشابان - بل إنه شرب البيرة أيضاً، ولكنها لم ترق له: وقد تعلم هذا الفن من طالب كان يؤويه ذات حين؛ وظهر أنه لا يقر لإميل بالطاعة التامة مثلما يطيع صاحبه بانتاليوني، فإذا امره إميل بقوله: «تكلم» أو «اعطس» كان لا يزيد عن تحريك ذيله ومد لسانه وتكويره مثل الانبوب. وتجاذب الشابان أطراف الحديث. ففي بداية الرحلة، بدأ الكلام سانين - فالأرشد في السن أرشد في العقل - فتحدث عن معنى القضاء والقدر، وعن تعيين المصائر، وعن مفهوم رسالة الإنسان وعناصرها؛ وما لبث الحديث أن جنح إلى ناحية أسهل، فسأل إميل صديقه ومرشده عن روسيا، وعن المبارزات التي تجري فيها، وهل نساؤها جميلات، وهل يمكن تعلم اللغة الروسية بسرعة، وما شعوره حينما صوّب إليه الضابط؟

وسأله سانين بدوره عن أبيه وأمه، وعن أحوال أسرته بعامة، وجهد في ألا يذكر اسم جيما - وهو لا يفكر إلا فيها - ولكنه والحق يقال لم يفكر فيها بل في الغد؛ في هذا الغد الغامض الذي سيحمل إليه سعادة خفية لا مثيل لها! فهو كالستار... وإنه لستار رقيق شفاف يتموّج في سكون أمام نظرته الواعية، وهو يشعر بأن وراء هذا الستار يتراءى وجه في رونق الصبا، ثابت عن الحركة، ملائكي الملامح على شفتيه ابتسامة رقيقة، وفي عينيه المسبلتين قسوة مصطنعة، لم يكن وجه جيما، وإنما هو وجه السعادة نفسها! وها هي ذي ساعته الموعودة قد حانت أخيراً، فإذا هذا الستار الشفاف ينحسر، وتنفرج الشفتان المطبقتان، وترتفع الرموش، وتتجلى له الحضرة الآلهية - وعندئذ يشرف نور كأنه يتدفق من الشمس ومعه فيض لا نهاية له من السعادة والغبطة! ما إن يفكر في هذا الغد حتى عادت نفسه تجمد من بهر السعادة وتذوب من لوعة الانتظار!.

لم يؤثر هذا الشوق وهذه اللوعة في شيء، فإنهما معه في كل حركة من حركاته - ولكنهما لم يمنعاه عن شيء. لم يمنعاه عن تناول غداء فاخر كامل مع إميل - ما عدا حالات نادرة كانت تخطر بباله هذه الفكرة مثل ومضة البرق الخاطفة: لو أن أحداً في العالم عرف؟! ولم تمنعه هذه اللوعة من اللعب بعد الغداء مع إميل بالنطة... كانت تجري هذه اللعبة فوق مرج رحيب معشب. كان الكلب يطلق نباحه الحماسي، وسانين مثل الطائر ينشر ساقيه بقفزة حاذقة يطير بها فوق ظهر إميل، حينما رأى فجأة أمامه ما جعله في غاية الارتباك والخجل، ففي طرف هذا المرج الأخضر الرحيب نفسه، كان يقف ضابطان عرف فيهما من فوره خصمه امس السيد فون دونغوف، وشاهده السيد فون ريختر! كان كل منهما يضع على عينيه عوينة واحدة وينظر إليه مبتسماً... فأسرع سانين في النزول على قدميه وهو يدير وجهه، ولبس معطفه على عجل، وطلب من إميل في اقتضاب أن يلبس سترته وذهبا مسرعين.

وصلا إلى فرانكفورت في ساعة متأخرة. وقال إميل وهو يودع سانين:

- سيوبخونني - ولكن لا بأس، فقد قضيت نهاراً كأنه المعجزة.

عاد سانين إلى الفندق فرأى رسالة من جيما، فيها تضرب له موعداً في الساعة السابعة من صباح الغد في إحدى الحدائق العامة التي تحيط بمدينة فرانكفورت.

كم خفق قلبه! وكم كان سعيداً بامتثاله لأمرها دون اعتراض! يا إلهي بم يعد هذا الغد... وبم لم يعد هذا الغد الفريد المستحيل، ولكنه - المؤكد؟!.

غرس نظرته في رسالة جيما. إن هذا الذيل الطويل الأهيف لأول حرف من اسمها، وهو حرف G، الذي يقف في نهاية الرسالة، قد ذكره بأصابعها الجميلة، وبيدها... تذكر أنه لم يلمس هذه اليد بشفتيه ولا مرة واحدة، ففكر: «إن الإيطاليات يختلفن عما يشاع عنهن، فإنهن رصينات حصينات، وأما جيما فهي أرصن وأحصن، إنها ملكة... إلهة... عذراء نقية مثل المرمر...».

ولكنهم الآن سيئون - وليس هذا بعيداً...

في تلك الليلة كان في فرانكفورت رجل سعيد واحد... أوى إلى النوم ولكنه يستطيع أن يقول عن نفسه ما قاله الشاعر:

إني أنام... ولكن قلبي المرهف لم ينم...[1].

كان قلبه يدق في اطمئنان، كارتعاش اجنحة فراشة تعلق زهرة تحت شلال من أضواء شمس صائفة.

- ٢٧ -

استيقظ سانين في الساعة الخامسة، وفي السادسة كان قد فرغ من ارتداء ثيابه، وفي منتصف السابعة، كان يتمشى في الحديقة العامة قرب العريشة الصغيرة التي ذكرتها جيما في رسالتها.

كان الصباح هادئاً دافئاً رمادياً، وبدا أحياناً أن المطر يوشك أن يهطل، ولكن الكف لا تشعر بشيء إذا بسطت نحو السماء، وقد تلحظ العين أثراً من رذاذ ينتشر على الأكمام مثل الخرز الدقيق، بل حتى هذا الرذاذ لسرعان ما انقطع، وسكن الهواء فكأنه فقد من هذا العالم، وكل صوت لا يطير بل

١- اقتباس غير دقيق من قصيدة للشاعر الروسي ليف ماي. (١٨٢٢ - ١٨٦٢) موجودة في مجموعة «الأغاني اليهودية».

ينتشر، وفي البعيد تكاثف ضباب أغبر، وتضوع في الهواء عبير الخزامى وأزهار الأكاسيا البيضاء.

وفي الشوارع، لم تكن الدكاكين قد فتحت أبوابها، ولكن ظهر فيها بعض العابرين، وبين الحين والآخر كانت تقعقع عجلات عربة منفردة... أما الحديقة فكانت خالية من رواد النزهة؛ هناك البستاني، وكان يكنس الممر بمجرفته في تراخ، وعجوز بمعطف من الجوخ الأسود كانت تظلع خلال الطريق. لم يشبّه لسانين لحظة أن هذه المسكينة جيما، ولكن قلبه ضج في صدره لمرآها وراح يتابعها بنظرة في انتباه وهي تبتعد عنه حتى أصبحت نقطة سوداء.

دقت ساعة البرج سبع دقات!.

وتوقف سانين - أيحتمل ألا تأتي؟ فإذا رعدة برد تسري فجأة في جسمه، ثم شعر بهذه الرعدة بعد لحظة، ولكن من جراء سبب آخر، فقد سمع سانين خطوات خفيفة من خلفه، وحفيف ثوب نسائي... فالتفت إلى وراء: فكانت هي!.

أقبلت جيما وراءه خلال الممر. كان عليها شال رمادي وقبعة غامقة غير كبيرة؛ نظرت إلى سانين ثم التفتت إلى ناحية ثانية، ولما حاذته أسرعت في سيرها مبتعدة عنه، فناداها بصوت مهموس:

- جيما.

فاومأت إليه بحركة خفيفة من رأسها وتابعت سيرها إلى الأمام، فتبعها.

كان لاهث الأنفاس، تكاد قدماه لا تطاوعانه إلا في عسر.

جازت جيما بالعريشة منعطفة إلى اليمين، ومرت بحوض صغير مسطح يطبطب في مائه عصفور، ثم دارت من وراء مسكبة مشجرة بأشجار الليلك العالية، وجلست على دكة خشبية في هذا الركن المريح المحتجب، وجلس سانين إلى جنبها.

مرت دقيقة - لم ينطق خلالها هو ولا نطقت هي بكلمة، بل إنها لم تنظر إليه. ونظر هو إليها، و لم ينظر في وجهها بل نظر في يديها المشتبكتين على مظلة صغيرة. وما عسى أن يقولا؟ وأي كلام أفصح في التعبير من وجودهما

في هذا المكان على انفراد في هذه الساعة المبكرة على مثل هذا التداني أحدهما من الآخر؟.

ما لبث سانين أن قطع حبل الصمت فقال:

- هل أنت غاضبة مني؟.

لقد تعذر على سانين أن يقول شيئاً أكثر سخفاً من هذه الكلمات... كان يعرف هذا، ولكنهما خرجا عن الصمت، في كل حال، أجابت:

- أنا؟ لماذا؟ لا.

فأضاف:

- وهل تثقين بي؟.

- أتقصد بما كتبت؟.

- نعم.

فخفضت جيما رأسها من غير أن تجيب، وأفلتت المظلة من يدها ولكنها أدركتها قبل أن تقع على الأرض. وصاح سانين:

- آخ، صدقيني، ثقي بما كتبته إليك.

تبدد تهيبه فجأة وأخذ يتكلم في حماسة:

- إن كان على الأرض حقيقة مقدسة لا ريب فيها فهي أني أحبك، احبك وأنا مدله بحبك يا جيما.

فرمقته بنظرة جانبية - وكادت المظلة تسقط مرة ثانية، فقال مؤكداً:

- ثقي، ثقي بي.

ومد إليها يديه متضرعاً من دون أن يجرؤ على لمسها.

- ماذا تريدين مني أن أفعل لأقنعك؟.

فعادت تنظر إليه، ثم قالت:

- قل لي يا Monsieur Dimitri، لما أقبلت عليّ منذ ثلاثة أيام لتقنعني - أكنت لا تعرف... ولا تشعر...

فتابع سانين قائلاً:

– بلى كنت أشعر، ولكني لم أعرف، لقد أحببتك لحظة رأيتك أول مرة – ولكني لم أدرك وقتئذ موقعك عندي! ثم إني سمعت بأنك مخطوبة، وأنك بسبيل إلى الزواج... أما بخصوص ما كلفتني به والدتك، فهل كنت قادراً على رفض طلبها أولاً؟ ثم إني أديت المهمة – ثانياً – على نحو تستطيعين فيه أن تحدسي...

بلغ سمعهما صوت خطوات ثقيلة، وظهر سيد ممتلئ الجسم يحمل حقيبة وراء ظهره، ويبدو أنه أجنبي، ثم برز لهما من وراء المسكبة، وأرسل من قمة رأسه إلى الجالسين على المقعد هذه النظرة المتطفلة التي تعودها السياح، وسعل بصوت عال وهو يتابع طريقه.

وقال سانين حينما خفّ وقع الخطوات الثقيلة:

– لقد أنبأتني أمك بأن رفضك سيحدث فضيحة (عبست جيما قليلاً)، وأني بالذات أعطيت لألسنة السوء ولو شيئاً، تتذرع به، وأني بالتالي أحمل نصيباً من الواجب في إقناعك فسخ الخطبة بينك وبين خطيبك السيد كلوبير.

فقالت جيما وهي تمسد شعرها بيدها من الجهة التي يجلس فيها سانين:

– monsieur Dimitri، لا تسمه خطيبي، أرجوك؛ لن أكون زوجة له، وقد أعلنته برفضي.

– أأعلنته؟ متى؟

– أمس.

– في وجهه بالذات؟

– في وجهه بالذات حينما جاء يزورنا.

– جيما! هذا معناه أنك تحبينني؟.

فاستدارت إليه، وقالت في همس:

– أكنت أجيء إلى هنا لولا أن الأمر كذلك؟.

وسقطت كلتا يديها على المقعد.

فأخذ سانين بيديه هاتين الراحتين الضعيفتين المفتوحتين، ورفعهما

ضاغطاً بهما على عينيه وشفتيه... ها هي اللحظة التي انحسر فيها الستار الذي تراءى له أمس! وها هي ذي السعادة، وها هو ذا محياها المتألق!.

رفع رأسه قليلاً ونظر إلى جيما - مباشرة وبجرأة. ونظرت إليه أيضاً، من أعلى إلى أدنى، بعينين مسبلتين، تلمعان قليلاً بما استفاض فيهما من دموع الغبطة. أما وجهها، فلم يكن يبتسم... لا! كان يضحك، وكان يضحك من غبطة أيضاً ومن غير صوت.

أراد أن يجذبها إلى صدره فانحرفت عنه وهي لا تزال تضحك ضحكتها الصامتة وتومئ برأسها رفضاً، وبدا كأن عينيها السعيدتين تقولان: «انتظر»، فصاح سانين:

- أوه جيما! أكان يخطر ببالي أنك ستحبينني؟

(ارتعش قلبه مثل الوتر لما لفظت شفتاه أول مرة «إنك»! هذه)[1].

فقالت جيما بصوت يكاد لا يسمع:

- وأنا بالذات لم أنتظر ذلك.

وأضاف سانين:

- أكان يخطر ببالي لما وصلت إلى فرانكفورت، حيث ظننت أنني سأمكث بضع ساعات، أنني سأعثر هنا على سعادة الحياة كلها؟.

فسألته جيما:

- الحياة كلها؟ هل أنت متأكد؟.

فقال سانين في فورة جديدة:

- كل الحياة، وعلى مدى العمر، وإلى الأبد!.

أخذت مجرفة البستاني فجأة تنقر في الدرب على بعد خطوتين من المقعد الذي يجلسان عليه، فهمست جيما:

- لنذهب إلى البيت - لنذهب معاً فهل تريد ذلك؟.

١- يقصد المؤلف إن المخاطبة كانت تجري بينهما بضمير الجمع قبل أن يزيل الحب مظاهر الكلفة بين المحبين. - المترجم.

لو أنها قالت له في هذه اللحظة: «ألق بنفسك في البحر - هل تريد؟»، لطار مندفعاً إلى الهاوية قبل أن تأتي على آخر كلمة.

وغادرا الحديقة متوجهين إلى البيت لا من خلال شوارع المدينة بل من خلال أطرافها.

- ٢٨ -

لم يرفع سانين بصره عن جيما، و لم ينقطع عن الابتسام، وهو يسير إلى جانبها تارة ويتخلف عنها تارة أخرى. كانت تبدو أنها تعجل في خطواتها تارة وتتوقف تارة أخرى، ومجمل القول أنهما كانا يسيران إلى أمام كأنهما يسبحان في الضباب. كان شاحباً كل الشحوب، وكانت هي متوردة من الانفعال، فإن ما فرغا منه منذ لحظات - حين وهب كل منهما قلبه إلى الآخر، كان قوياً جديداً رهيباً إلى حد تبدل فيه فجأة كل ما في حياتهما وانقلب، وتعذر عليهما أن يفيقا إلى نفسيهما؛ كل ما أدركاه أن عاصفة فاجأتهما، تشبه تلك العاصفة الليلية التي كادت تلقي بكل منهما في أحضان الآخر، مشى سانين وهو يشعر بأن نظرته إلى جيما قد تغيرت: فقد لحظ في لمحة عين بضع سمات في مشيتها وحركاتها، - فيا إلهي! ما أغلى هذا وما أعزّه عنده! كانت تشعر هي بأنه يرمقها بهذه النظرة.

إنهما، سانين وهي، يعرفان الحب أول مرة، فإذا كل معجزات الحب الأول تهبط عليهما. وما الحب الأول؟ - إنه يشبه ثورة: تفجر فيها هذه الرتابة المتواترة التي تصوغ الحياة اليومية وتتحطم في لحظة واحدة، ويقف الشباب وراء المتاريس - يرفرف علمه المشرق عالياً، وسواء كان في انتظاره - الموت أو الحياة الجديدة - فإنه يقابل ما يلقاه أمامه بتحيته الملتهبة.

قال سانين:

- من يكون؟ أليس هذا شيخنا؟.

وأشار بإصبعه إلى جسم ملتف بثيابه كان يمرّ مسرعاً مجانباً كأنه يحرص على أن يبقى بعيداً عن العيون. ففي هذا الفيض من الغبطة شعر سانين بالرغبة في أن يتحدث إلى جيما بموضوع آخر غير موضوع الحب الذي أصبح مؤكداً مقدساً لا ريب فيه.

فأجابت بلهجة مرحة سعيدة:

– نعم، هذا بانتاليوني، أظن أنه خرج من البيت في أثري، وكان طوال اليوم الفائت وراء كل خطوة من خطواتي... لقد حزر!

فـردّد سانين في ابتهاج، – وهل من كلمة قالتها جيما لم تبعث فيه الابتهاج؟.

– لقد حزر!.

ثم طلب منها أن تقصّ عليه كل ما حدث في اليوم الفائت.

فأسرعت إلى الحديث في لهوجة وإعجال وهي تبتسم وتتنهد وتبادل سانين نظرات قصيرة مضيئة، فروت عليه: إن أمها بعد الحديث الذي جرى قبل يومين، جهدت في أن تحصل منها، من جيما، على جواب، وأنها افلتت من فراو لينوري تلقاء وعد بأن تعلمها برأيها خلال أربع وعشرين ساعة، وأن اضطلاعها بهذا الوعد كبّدها كثيراً من المشقة، ثم إن السيد كلوبير جاءهم على غير توقع، وهو مترصن متحصن مقولب أكثر مما كان من قبل، وأنه عبر عن سخطه على نزوة الروسي الغريب الصبيانية التي لا تغفر (هذا ما قاله بالحرف الواحد)، فإنها – وكان يقصد مبارزتك إهانة عميقة الأثر له، لكوبير – وطالبنا بأن نطردك من البيت: «لأن هذا – قال هو – وهنا حاولت جيما قليلاً أن تقلد صوته وحركاته – يلقي ظلاً على شرفي، فكأنني لم أقدر على الدفاع عن خطيبتي حينما وجدت أن ذلك قاطع ناجع! وستعرف فرانكفورت غداً أن غريباً بارز ضابطاً في سبيل خطيبتي، فما معنى هذا؟ إنه إساءة لشرفي!». فتصور، كانت ماما تؤيده فيما قال ولكنني أخبره فجأة أن خوفه على شرفه وسمعته غير ذي موضوع، ولن تلحق به إهانة من جراء التقول على خطيبته، لأني لست خطيبته بعد اليوم، ولن أكون زوجته أبداً! ولأعترف بانني أردت أول الأمر أن أتحدث معكم... معك قبل أن أعلمه بالقطيعة، ولكنه جاء... ولم أقدر على درء نفسي. واستبد الخوف بأمي فأخذت تصرخ، أما أنا فقد ذهبت إلى الغرفة وجئته بخاتم الخطبة وأعطيته إياه – ولعلك لم تلحظ أنني نزعت هذا الخاتم منذ يومين، كان غيظه شديداً، ولكن أنانيته وغطرسته المغرقتين فرضتا عليه ألا يتكلم طويلاً وأن يذهب.

فكرت أن الأمر يقتضي مني أن أصبر على أمي كل الصبر وأكون معها طويلة البال، وآلمني أن أراها على هذا المقدار من الحزن، وخطر ببالي أنني عجلت قليلاً، ولكن رسالتك كانت عندي، وأنا من دونها كنت أعرف...

- إنني أحبك - قال سانين متمماً عبارتها.

- نعم، إنك... وقعت في حبي.

هذا ما قالته جيما، وكانت تتحدث بعبارة مشوّشة، وهي تبتسم، وتخفض صوتها في الحديث، أو تسكت عن القول كلما أقبل عابر سبيل أو مر بهما. أما سانين فكان يستمع إليها معجباً مذهولاً متلذذاً برنين صوتها كما كان مفتوناً في اليوم الفائت بخط يدها.

وعادت جيما تقول بكلمات متدفقة يزاحم بعضها البعض:

- أمي في كرب عظيم، فإنها لا تريد أن تسيغ، بأي صورة من الصور، إن السيد كلوبير يملك ما يعثني على المقت، وإنني استجبت لطلبه بدافع من الحاحها الشديد لا بدافع من حب... وهي تنظر إليكم... إليك... بعين الارتياب - والواقع، من دون لف ودوران، أنها أيقنت أنني أحبك، فكان هذا شديد الوقع في نفسها، لأن مثل هذا الخاطر لم يخطر ببالها قبل يومين، حتى إنها كلفتك بأن تقنعني، فيا له تكليفاً عجيباً، أليس كذلك؟ والآن، إنها تراك... تراكم جديراً أن تلقب بالخبيث الماكر، وتقول بأنك كذبت ثقتها بك، وتتنبأ بأنك ستكذب عليّ...

فصاح سانين:

- جيما، ألم تقولي لها؟...

- لم أقل لها شيئاً! فأي حق كان لي في أن أقول قبل أن أتحدث إليك؟.

فأسبل سانين يديه:

- جيما، أرجو أن تصارحيها الآن على الأقل... أن تقوديني إليها... أريد أن أبرهن لأمك على أني لست كذاباً!.

كان صدر سانين يعلو وينخفض من توقّد العواطف الكريمة والأحاسيس الملتهبة.

ونظرت إليه جيما بما وسعت عيناها.

– أواثق أنك تريد الآن أن تجيء معي إلى أمي؟ أمي التي توقن إن... إن كل ما بيننا مستحيل، وأنه لن يسفر عن شيء؟.

كانت هناك كلمة تحرق شفتي جيما ولا تجد القوة على النطق بها؛ ولكن سانين قالها بطيبة خاطر:

– عن الزواج بك يا جيما؟ إن منتهى الغبطة أن أكون لك زوجاً!.

لم يكن لغرامه ولا لشهامته ولا لعزيمته حدود يعرف أنها تنتهي عندها.

لما سمعت جيما هذه الكلمات تحركت بسرعة بعد أن توقفت قبيلها لحظة عن السير... فكأنها تلتمس الفرار من هذا الفيض المفاجئ من السعادة!.

ولكن ساقيها تخاذلتا على حين غرة، فقد برز السيد كلوبير من زاوية الزقاق على بضع خطوات منها، وهو في قبعة جديدة ومعطف جديد، مستقيماً كالسهم أجعد الشعر مثل الكلب البوديل. لما رأى جيما ورأى سانين بدا كأنه انفجر ضاحكاً في سره، واعتدل إلى الوراء بقوامه الأهيف، وأقبل عليهما متبختراً، فوجم سانين؛ ولكنه لما نظر إلى كلوبير الذي بذل ما بذل من الجهد ليكسو وجهه بمظهر الاستخفاف والدهشة بل حتى بمظهر الشفقة أيضاً، ورأى هذا الوجه الرقيع المبتذل، طغى عليه الغضب فجأة – وخطا إلى الأمام.

أطبقت جيما على يده، وأعطته يدها الثابتة المطمئنة وهي تغرز بصرها في وجه خطيبها السابق... فوصوص هذا عينيه، وتضاءل، ومر بهما مر المجانب وهو يتمتم من خلال أسنانه المطبقة: «النهاية المألوفة لكلِ أغنية»! (Das alte Ende vom Liede;)، وابتعد متبختراً وهو ينطنط قليلاً.

فسألها سانين:

– ماذا قال هذا النذل؟.

وهمّ بأن يندفع في اثر كلوبير، ولكن جيما أمسكت به، وسارت معه مبتعدة وذراعها لا تزال مشبوكةً بذراعه.

لما ظهر أمامهما دكان روزيللي توقفت جيما مرة ثانية وقالت: Dimitri

monsieur Dimitri، إننا لا نزال هنا لم ندخل البيت و لم نقابل ماما... فإذا اردت مزيداً من التروي في الامر... وإذا... فإنك لا تزال حراً يا دميتري.

كان جواب سانين أنه ضغط بيدها على صدره بقوة، وجذبها من هذه اليد إلى أمام.

قالت جيما وهي تدخل مع سانين الغرفة التي تجلس فيها فراو لينوري:

– لقد جئتك بالرجل الحقيقي!.

– ٢٩ –

لو أن جيما اعلنت أنها جلبت معها الكوليرا أو الموت نفسه، لما كانت فراو لينوري أكثر قنوطاً مما ألّم بها لمّا تلقت هذا النبأ. اسرعت تجلس في زاوية الغرفة راحت بوجهها إلى الحائط وغرقت بدموعها، بل إنها طفقت تندب، فكانت من دون زيادة ولا نقصان مثل فلاحة روسية على تابوت زوجها أو ابنها. بلغت الحيرة بجيما في اللحظة الأولى أنها لم تهرع إلى أمها بل وقفت كالتمثال في وسط الغرفة؛ أما سانين فقد طاش صوابه جملة حتى لقد تهيأت نفسه لذرف الدموع! ساعة كاملة! استمر هذا البكاء الذي جلّ عن كل عزاء، ساعة كاملة! وفكر بانتاليوني أن الخير في أن يقفل باب الدكان منعاً لدخول غريب – ومن حسن الحظ أن الساعة مبكرة. لقد شعر الشيخ نفسه بالحيرة، فإنه لم يحبذ في ما جرى هذا الإسراع الذي لجأ إليه سانين وجيما، ولكنه لم يخطر بباله أن يدينهما، بل إنه كان مستعداً لنصرتهما وأخذهما برعايته عند الاقتضاء، فإن كراهيته لكلوبير شديدة! وكان إميل يحسب نفسه وسيطاً بين صديقه وشقيقته – فشعر ببعض الزهو من أن هذا كله انتهى إلى نهاية رائعة، ولم يكن في وسعه أن يفهم لماذا اكتربت فراو لينوري هذا الكرب، وفكر في قلبه أن النساء حتى أحسنهن تعقلاً وحكمة يعانين من نقص في العقل والحكمة. كان سانين أسوأهم حالاً، فقد كانت فراو لينوري تصرخ من رأسها وتلطم بيديها كلما همّ بالاقتراب منها، ولم يجده نفعاً أنه عمل على أن يبقى بعيداً وصاح بضع مرات بصوت عال: «إني أطلب يد ابنتك!». لقد انصبّ غضب فراو لينوري على نفسها بالذات: «كيف عميت عن هذا ولم ابصر شيئاً»؟ وأكدت من خلال الدموع: «لو أن جيوفاني باتيستا حي يرزق

لما حدث شيء من هذا!» - وفكر سانين: «يا إلهي ماهذا؟ لا شك أنه غاية السخف!». لم يجد في نفسه الجرأة على النظر إلى جيما ولا هي اعتزمت أن ترفع إليه عينيها. لقد حزمت أمرها على المصابرة فأقبلت تُعنى بأمها، ولكن أمها صدتها في البداية عن نفسها كما صدت غيرها...

ثم انتهت العاصفة شيئاً فشيئاً إلى الهدوء، فأمسكت فراو لينوري عن البكاء، وأذنت لجيما أن تأخذ بيدها من الركن الذي كانت تنزوي فيه وتجلسها في مقعد قريب من النافذة، وأن تعطيها للشرب ماء معطراً بعطر البرتقال، وسمحت لسانين - لا، لم تسمح له بأن يقترب منها، أوه، لا - وإنما سمحت له بما قل، بأن يبقى في الغرفة (وكانت تصر من قبل على أن يذهب) وأمسكت عن قطع سبيل الكلام عليه كلما بدأ. وانتهز سانين فرصة الهدوء المخيم فأظهر البديع الرفيع من فصاحة اللسان: وما كان ليستطيع إلا في عسر أن يعرض على جيما نفسها ما أن يعتزمه ويشعر به بمثل ما اظهر وقتئذ من توقد الحماسة وقوة الإقناع، كانت هذه المشاعر هي النيات نفسها، والنيات طاهرة نقية كما هي عند آلمافيفا في «حلاق اشبيلية» - و لم يخف على فراو لينوري ولا على نفسه وجوه الغبن في هذه النيات، ولكنه غبن سطحي: فالحقيقة أنه أجنبي، لم يتعرف إليهم إلا منذ وقت قريب، هم لا يعرفون شيئاً قاطعاً مانعاً عن أحواله الشخصية والمالية، ولكنه مستعد لتقديم كل ما يؤكد أنه ذات محترم ميسور الحال، مع الإشارة إلى كثير من الشهود الموثوق بهم من مواطنيه! - ويأمل في أن تكون جيما سعيدة معه، وأن يقدر على تعويضها بالمسرة بدلاً من فراق الأهل!... - كادت الإشارة إلى الفراق بهذه الكلمة أن تخرب العملية كلها... فقد اهتز بدن فراو لينوري أي اهتزاز، ونبا بها المقعد... فأسرع سانين إلى القول بأن الفراق سيكون وقتياً ليس غير، وقد لا يكون في النهاية فراقاً على الإطلاق.

لم تذهب فصاحة سانين نفخة في رماد، فقد بدأت فراو لينوري تنظر إليه، ولئن لم تخل نظرتها من الحسرة واللوم، فإنها خلت مما كان فيها من النفور والغضب؛ ثم إنها أذنت له بالاقتراب منه، بل اذنت له بالجلوس إلى جنبها أيضاً (وكانت جيما جالسة في الجانب الآخر) وأخذت تعاتبه بالكلمات بعد النظر مما دل على أن قلبها بدأ يلين، وأخذت تتشكى ولكن

شكواها أصبحت خافتة هادئة. وتناوبت شكواها مع أسئلتها التي كانت توجهها إلى كل من سانين وجيما؛ ثم سمحت له بأن يسندها من يدها و لم تسحب يدها في الحال... وما لبثت أن عادت إلى البكاء - ولكن بدموع مختلفة كل الاختلاف عن الدموع التي ذرفتها منذ قليل... ثم ابتسمت في أسى وتحسرت على غياب المرحوم جيوفاني باتيستا ولكن ليس بالمعنى السابق... وانقضت لحظة أخرى - فإذا المذنبان سانين وجيما كلاهما راكع على ركبتيه أمامها، وهي تضع يدها فوق رأسيهما، وانقضت لحظة في أثر اللحظة الماضية، فإذا هما يعانقانها ويقبلانها، وإميل يجري في أنحاء الغرفة مبتهجاً متهلل الوجه، ثم اندفع نحو المتعانقين وارتصّ معهم في كتلة واحدة.

أطل بانتاليوني على الغرفة، فابتسم في امتعاض واستدار عائداً إلى الدكان يفتح بابه المفضي إلى الشارع.

- ٣٠ -

حدث الانتقال من القنوط إلى الحزن، ومن الحزن إلى «ريزينيتسيا الهادئ»[١]، على نحو سريع عند فراو لينوري، ولكن هذا الاستسلام الهادئ لم يلبث أن صار إلى غبطة خفية تكتمت أمرها جملة وكبتتها حفاظاً على الوقار. لقد انفتح قلبها لسانين منذ اليوم الأول الذي تعرفت فيه إليه، واعتادت فكرة أنه سيكون صهرها، و لم تجد في هذه الفكرة أي شائبة ولكنها حسبت أن واجبها يقضي بأن تحتفظ في وجهها ببعض الاستياء... أو على الأصح بمظهر الهم وانشغال البال، يضاف إلى هذا أن ما حدث في الأيام الاخيرة كان بعيداً عن المألوف... يحدث دائماً كل شيء في آن واحد! كذلك حسبت فراو لينوري أن واجبها، امرأة عملية وأماً، يتأداها أن تمتحن سانين بمختلف الأسئلة: أما سانين الذي ذهب في الصباح إلى لقاء جيما وهو خالي البال من فكرة الزواج بها - فالحقيقة أنه لم يفكر بهذا وقتذاك، وإنما كان منطلقاً مع اشواقه فقط - فإنه قام بدوره أحسن قيام، بل يمكن القول بأنه أداه في حماسة، وهو دور الخاطب الراغب، فأجاب على ما طرح عليه من الاسئلة في دقة وتفصيل ورحابة صدر. وبعد أن تحققت فراو لينوري من أنه نبيل حقيقي نسباً

١- الإذعان للقدر، الاستسلام (حاشية المؤلف).

وأرومة، وأظهرت دهشتها من أنه ليس أميراً، اتخذت هيئة الجد، و«حذرته مقدماً» من أنها لن تتحرج معه ولن تتكلف بل ستكون صريحة كل الصراحة - لأن هذا مما يفرضه واجب الأم! - وأجاب سانين على قولها بأنه لا ينتظر منها غير ذلك، وأنه يرجوها ويلح في الرجاء - ألا تشفق عليه!.

عندئذ قالت فراو لينوري بأن الهر كلوبير (لما نطقت بهذا الاسم أرسلت زفرة قصيرة وضغطت على شفتيها وتلعثمت بالكلام) - الهر كلوبير خطيب جيما السابق له الآن دخل يبلغ ثمانية آلاف غولدن، وسيزداد هذا الدخل في كل عام، فكم يبلغ دخل السيد سانين؟.

- ثمانية آلاف غولدن، - كرر سانين وهو يمد في صوته - هذا يساوي بعملتنا - ما يقرب من الخمسة عشر ألفاً من روبلات ورقية... إن دخلي أقل من هذا كثيراً. عندي ضيعة غير كبيرة في ولاية تولا إذا أحسنت إدارتها أعطت - بل يجب أن تعطي خمسة آلاف أو ستة آلاف من الروبلات... وإذا أخذت بالعمل في وظيفة حكومية - فإني أستطيع في يسر وسهولة أن أحصل على راتب مقداره ألفان من الروبلات.

صرخت فراو لينوري:

- وظيفة في روسيا؟ هذا معناه الافتراق عن جيما! فالتقط سانين الكلام:

- قد أعمل في السلك الدبلوماسي فإن لي روابط ببعض النافذين، وتكون الوظيفة عندئذ في خارج روسيا، بل هناك ما يفضل هذا جميعاً: بيع الضيعة واستعمال ما نقبضه من المال في عملية رابحة، كإصلاح شؤون الدكان على سبيل المثال - كان يشعر سانين بأن ما يقوله كلام فارغ، ولكن جرأة غير مفهومة عصفت فيه. لما نظر إلى جيما، وكانت منذ أن بدأ الحديث «العملي» لا تستقر على حال، فهي واقفة، أو رائحة جائية في الغرفة، أو جالسة - لقد تداعت الحدود لما نظر إليها، واصبح على استعداد لتدبير كل أمر في الحال، وعلى أحسن الوجوه، تلقاء عودة السكينة إلى نفسها وزوال كل ما بها من القلق. وقالت فراو لينوري بعد قليل من التردد:

- لقد أراد السيد كلوبير أيضاً أن يعطيني مقداراً من النقود لتحسين أحوال الدكان.

فهتفت جيما بالايطالية:

- ماما، نشدتك الله!.

فأجابت فراو لينوري بالايطالية أيضاً:

- ما يقال في مثل هذه الشؤون يجب أن يقال في وقته يا بنتي.

وعادت تلتفت إلى سانين لتسأله عن قانون الزواج المعمول به في روسيا، وما هي المحاذير التي تحول دون الزواج من كاثوليكية كما هي الحال في بروسيا (في ذلك الوقت، وهو سنة ١٨٤٠، كانت ألمانيا تذكر تلك الضجة التي قامت بين الحكومة البروسية وبين رئيس أساقفة كولونيا حول الزواج المختلط)[1]. لما سمعت فراو لينوري أن ابنتها ستتزوج من نبيل روسي، وأن ابنتها نفسها ستصبح من النبلاء - أظهرت شيئاً من الغبطة، وقالت: - وإذن، يجب عليك أن تذهب أولاً إلى روسيا؟.

- لماذا؟.

- كيف لا؟ لتستأذن القيصر.

فأوضح سانين لها أن هذا لا ضرورة له... ولكن ينبغي له بالفعل أن يعود إلى روسيا قبل الزواج ويقضي وقتاً قصيراً (قال هذه الكلمات وقلبه يعتصره الألم - وأدركت جيما أنه يتألم حينما نظرت إليه - فتورد وجهها واستغرقت في التفكير) - وأنه سينتهز فرصة عودته إلى بلاده فيحاول أن يبيع ضيعته... ومهما يكن من الأمر فإنه سيعود حاملاً ما يلزم من النقود.

قالت فراو لينوري:

- أرجوك كذلك أن تحمل إلي من هناك فراء استراخان للمعطف، فالمسموع أنه هناك مدهش بجودته ورخصه!

فصاح سانين:

١- قاد ك. دروسته المدافع المتعصب لمصالح الكنيسة الكاثوليكية (انتخب في عام ١٨٣٥ رئيس أساقفة كولن) نضالاً ضد قرار الحكومة البروسية التي سمحت بالزواج المختلط بين الكاثوليكيين وغير الكاثوليكيين. وقد استمر هذا الجدال إلى عام ١٨٣٧. حين نحته حكومة بروسيا، وسجن في القلعة.

– من كل بد، سأحمل هذا الفراء لك ولجيما بكل سرور! وتصدى إميل للكلام وهو يطل برأسه من الغرفة المجاورة:

– واحمل لي قبعة من الجلد مطرزة بالفضة.

– طيب سأفعل، وسآتي بانتاليوني بحذاء.

ولاحظت فراو لينوري قائلة:

– ما هذا؟ إننا نتكلم الآن عن أمور جدية، نعم فهناك شيء آخر أيضاً – قالت السيدة العملية – إنك تحدثت عن بيع الضيعة، فما سبيلك إلى هذا؟ هل عليك أن تبيع الفلاحين أيضاً؟.

شعر سانين بوخزة في جنبيه، وتذكر ما دار بينه وبين السيدة روزيللي وابنتها من حديث عن استرقاق الفلاحين، الذي يثير على حد قوله غيظاً عميق الغور في نفسه فذهب يؤكد ويعيد تأكيده، بأنه لن يبيع فلاحيه في أي حال لأنه يعتقد أن مثل هذا البيع عمل غير أخلاقي.

وقال في كلمات متعثرة:

ـ سأجتهد في أن أبيع ضيعتي لإنسان أعرف أنه من طراز طيب، أو عسى أن يقدر الفلاحون على افتداء أنفسهم.

– هذا أحسن حل، فإن بيع البشر...

– Barbari [1].

صاح بانتاليوني بهذا وهو يطل من وراء إميل خلال الباب، وهز فروة شعره ثم اختفى.

فكر سانين في نفسه: «هذا سيئ»! وهو يسترق نظرة إلى جيما. وبدا أنها لم تسمع كلماته الأخيرة، فاستدرك مفكراً في نفسه أيضاً: «وإذن لا بأس!».

استمر الحديث عن الشؤون العملية على هذا النحو حتى حلّ موعد الغداء؛ وارتاضت فراو لينوري أخيراً، وأخذت تنادي سانين باسمه المجرد – ديميتري، وتهدده بإصبعها في لطف، وتتوعده بالثأر منه تلقاء

١– برابرة (بالايطالية في الأصل). – الناشر.

غدره بها، وسألته عن تفصيلات كثيرة عن أهله – «لأن هذا على جانب كبير من الأهمية أيضاً»، وفرضت عليه أن يصف لها طقوس الزفاف كما ترسمها تقاليد الكنيسة الروسية – واستسلمت مقدماً لنشوة الإعجاب بجيما وهي في الثوب الأبيض والتاج الذهبي على رأسها، وصاحت بزهو الأمومة:

– انها جميلة كالملكة – بل إن نظائرها من الملكات لم يخلقن في العالم!.

والتقط سانين الكلام فقال:

– لم يخلق في العالم إلا جيما واحدة!.

– نعم، ولهذا سميت جيما! (من المعروف أن جيما باللغة الإيطالية معناها الدرة الكريمة).

اندفعت جيما تقبل أمها... وبدا أنها تستطيع الآن فقط أن تتنفس في حرية وأن عبئاً ثقيلاً زال عن صدرها. وشعر سانين فجأة بأنه في غاية السعادة وأن مرحاً طفولياً يملأ قلبه، منبعثاً من هذه الفكرة، وهي أن أمانيه التي خطرت بباله في هذه الغرفة نفسها قد تحققت، فإذا نفسه تشتعل رغبة في أن يذهب مسرعاً إلى الدكان، وكان يتمنى من كل قلبه أن يقف إلى منصة البيع هناك كما فعل منذ بضعة أيام... «إني كما يقال أملك هذا الحق الآن، فإني واحد من أهل الدار!».

ذهب بالفعل يقف وراء المنصة، ويقوم بأعمال البيع، فباع ذات مرة لطفلتين رطلاً واحداً من الملبس فأعطاهما رطلين بدلاً من واحد وقبض منهما نصف الثمن فقط.

واقتضت الرسميات أن يجلس أثناء الغداء إلى جنب جيما باعتباره خطيبها، واستأنفت فراو لينوري أفكارها العملية، وكان إميل يضحك بين الوقت والآخر، وقد رجا سانين أن يستصحبه إلى روسيا؛ ثم استقر الرأي عى أن يكون سفر سانين بعد أسبوعين. أما بانتاليوني فإنه الوحيد الذي ظهر متجهم السحنة قليلاً حتى أن فراو لينوري عرضت به في قولها: «لقد كنت شاهد المبارزة!» – فقطب وجهه وصار ينظر من تحت حاجبيه.

ركنت جيما إلى الصمت أكثر الوقت، ولكن وجهها لم يبلغ ما بلغه

وقتئذ من الملاحة والإشراق، ثم دعت سانين بعد الغداء إلى دقيقة يقضيانها في الحديقة ووقفت هناك عند المقعد الذي كانت تنتقي عليه الكرز وقالت:

– ديميتري، لا تغضب مني ولكني أود أن أذكرك مرة ثانية بأنك غير مضطر إلى حسبان نفسك مقيداً بشيء.

لم يعطها فرصة للاستمرار في الكلام...

ادارت جيما وجهها.

– أما بخصوص ما لمحت أمي إليه – أتذكر؟ – عن اختلاف مذهبينا فها هو ذا...

واجتذبت صليباً من العقيق الاحمر معلقاً حول عنقها بشريط دقيق، فقطعته بنترة شديدة، وقدمت إليه الصليب.

– ما دمت لك – فإن مذهبك مذهبي!.

لما عاد سانين مع جيما إلى البيت كانت الدموع لا تزال آثارها في عينيه.

ثم جاء المساء، فإذا كل شيء يذهب في مجراه الطبيعي، حتى إنهم لعبوا بالورق لعبة «التريستي».

– ٣١ –

استيقظ سانين مبكراً في صباح اليوم التالي. كان في قمة الهناءة الإنسانية، ولكن لم يكن هذا الذي أقضّ مضجعه، وإنما هو موضوع حيوي، موضوع محتوم: ما السبيل إلى بيع ضيعته، بأسرع وقت، وأنسب ثمن؟ هذا ما كان يعكر اطمئنانه؛ وقد تعارضت في رأسه مشروعات شتى من غير أن يكون بينها مشروع واضح راجح؛ ثم غادر مسكنه لاستنشاق الهواء النقي، وأراد ألا يمثل أمام جيما إلا بمشروع جاهز، لا غير.

لمن هذا الجسم الذي يسير أمامه ثقيل الوزن غليظ الأطراف ولكنه حسن الهندام، وهو يتمايل قليلاً ويظلع؟ وأين رأى هذا القذال الذي تتدلى منه هذه الخصل الشهباء، وهذا الرأس الذي يبدو كأنه لاصق بالكتفين، وهذا الظهر الشحيم اللحيم اللين، وهاتين اليدين المنتفختين المسترخيتين؟ أليس هذا بلوزوف زميل الدراسة القديم الذي اضاع سحنته منذ خمس سنين؟ أسرع

سانين حتى اجتاز بالجسم الذاهب ثم التفت... فاذا وجه عريض مصفار، بعينين صغيرتين خنزيريتين، وشعر أبيض في الحاجبين والرموش، وأنف قصير مسطح، وشفتين غليظتين مزمومتين، وذقن حليقة مدورة. اما سيمة هذا الوجه جميعاً، فإنها حامضة، كسلى، مرتابة – نعم، هذا هو بالذات: ايبوليت بولوزوف!.

«أليس معنى هذا أن نجمي يثبت وجوده مرة ثانية؟» – ومضت هذه الخاطرة ببال سانين.

– بولوزوف! ايبوليت سيدوريتش، أهذا أنت؟ فتوقف الجسم، ورفع عينيه الصغيرتين، وانتظر قليلاً – ثم شق شفتيه الملتزقتين، وقال بصوت أجش:

– ديميتري سانين؟.

فصاح سانين:

– هو بالذات!.

وصافح إحدى يدي بولوزوف المحشورتين في قفازين رماديين من جلد الماعز، وهما كالعهد بهما مسترخيتان على جنبيه من غير حياة – أأنت هنا منذ وقت طويل؟ من أين قادم؟ وأين تقيم؟ فأجاب بولوزوف في بطء:

– وصلت من فيسبادن أمس، في شراء أشياء لزوجتي، وسأعود إلى فيسبادن اليوم.

– آه، نعم، أنت متزوج، ويقولون بأن زوجتك حسناء وأي حسناء!.

فقال بولوزوف وهو يدير وجهه:

– نعم، هذا ما يقولونه.

فضحك سانين:

– أرى أنك لا تزال عديم الاكتراث كما كنت على أيام المدرسة.

– ولماذا اتغير؟.

– ويقولون – شد سانين على كلمة «يقولون» – إن زوجتك واسعة الثراء.

– يقولون هذا أيضاً.

– وأنت يا ايبوليت سيدوريتش، ألا تعلم هذا؟.

– إنني يا أخ ديميتري... بافلوفيتش؟ أي نعم بافلوفيتش! لا اتدخل في شؤون زوجتي.

– لا تتدخل؟ ولا في أي شأن آخر؟.

فطرف بولوزوف بعينيه:

– ولا في أي شأن آخر يا أخ. إنها في حالها، وأنا في حالي. فسأله سانين:

– وإلى أين ذاهب أنت الآن؟.

– لا أذهب إلى أي مكان، وانما أقف في الشارع، وأبادلك الحديث، وعندما نفرغ من بعضنا البعض، سأحمل نفسي إلى الفندق لأتناول طعام الفطور.

– أتريدني في رفقتك؟.

– أتقصد رفقتي على الفطور؟.

– نعم.

– تفضل، فالطعام مع رفيق أهنى. هل أنت قليل الكلام؟.

– أعتقد ذلك.

– وأذن اتفقنا.

فتحرك بولوزوف إلى الأمام وهو يلهث ويتمايل، والتزقت الشفتان الغليظتان، فكر سانين وهو يسير إلى جانبه: بأي وسيلة استطاع هذا البليد أن يقتنص زوجة جميلة غنية؟ فما هو بالغني ولا باللامع ولا بالذكي، كان معروفاً في المدرسة بأنه ولد راكد الهمة والذهن نؤوم أكول، لقبه الشائع «أبو ريال»[1] – إنها المعجزة!.

«ولكن إذا كانت زوجته واسعة الثراء – ويقال بأنها بنت واحد من

١– الريال ـــ اللعاب. – المترجم.

المتعهدين – أفلا تشتري ضيعتي؟ لقد زعم أنه لا يتدخل في شؤون زوجته، ولكن هذا لا يصدق! فوق هذا سأعرض ثمناً ملائماً مغرياً! فلماذا لا احاول؟ لعل هذا دليل على أن نجمي يثبت وجوده، فلنعزم، ونجرب»!.

سار بولوزوف بسانين إلى واحد من أحسن فنادق فرانكفورت، وطبيعي أنه حجز أحسن غرفة فيه. كانت العلب والصناديق والصرر متكوّمة على المناضد والمقاعد... «كل هذه المشتريات يا أخ تخص ماريا نيقولاييفنا»! (وهو اسم زوجة ايبوليت سيدوريتش)، وارتمى بولوزوف على مقعد وهو يئن: «يا له من قيظ!» حل رباط عنقه، ثم قرع الجرس يدعو الوصيف، وأوصاه في عناية أن يهيئ فطوراً سخياً. «يجب أن تكون العربة جاهزة – اسمع، في تمام الساعة الواحدة!».

فانحنى الوصيف في خنوع، وتوارى كالعبد.

حلّ بولوزوف أزرار صدرته. كان في مظهره حين ارتفع حاجباه، وضاق نفسه، وتغضن خطمه، أن الكلام سيكون عبئاً ثقيلاً عليه، وأنه يستشعر بعض القلق من أن يضطره سانين إلى تحريك لسانه، أو لعله أن يحمل عنه كل أعباء المحادثة.

فهم سانين مزاج صاحبه فأمسك عن إرهاقه بالأسئلة، واقتصر على الضروري منها فعرف: أنه قضى سنتين في الخدمة العسكرية (في سلاح الفرسان! فيا سلام على اللباقة واللياقة وهو في السترة العسكرية القصيرة!) وتزوج منذ ثلاث سنين، وهذه السنة الثانية التي يقضيها مع زوجته في الخارج «وهي الآن تستشفي من شيء ما في فيسبادن»، وستروح بعدئذ إلى باريز. لم يستفض سانين من جهته في الحديث عن حياته الماضية وعن مشاريعه، بل دخل لبّ الموضوع، وتحدث عما يهمه وهو بيع ضيعته.

كان بولوزوف يستمع إليه صامتاً، وينظر بين الحين والآخر إلى جهة الباب حيث ينبغي أن يأتي الفطور، ثم جاء الفطور أخيراً. ظهر الوصيف ومعه اثنان من الخدم وقد حمل عدداً من الأطباق بأغطية من الفضة. وقال بولوزوف وهو يجلس إلى المائدة ويضع فوطة في ياقة قميصه:

– هل تقع ضيعتك في ولاية تولا؟.

– في ولاية تولا.

– إنها في منطقة يفريموف... أعرف... فسأله سانين وهو يجلس أيضاً إلى المائدة:

– أأنت تعرف ضيعتي في قرية الكسييفكا؟.

– وكيف لا أعرف؟ – وحشر بولوزوف في فمه لقمة من البيض المقلي بالكمأة – تملك زوجتي ماريا نيقولاييفنا ضيعة في جوارها... – أيها الوصيف، افتح هذه الزجاجة – الأرض كبيرة ولكن فلاحيك قطعوا الغابة – لماذا تريد أن تبيع ضيعتك؟.

– إنها الحاجة إلى النقود يا اخ، وأنا مستعد للبيع بثمن بخس، فلعلك أن تشتريها... إنها فرصة طيبة.

ابتلع بولوزوف كأساً من النبيذ ومسح شفتيه بالفوطة وعاد يمضغ في بطء وشفشقة، ثم قال:

– حمْ... نعم، – أنا لا أشتري الضيع: ليس عندي نقود – ناولني الزبدة. لَعل زوجتي تستطيع أن تشتري، فتحدث إليها، وإذا عرضت ثمناً معقولاً فإنها لا تتعفف... ولكن ما طينة هؤلاء الألمان – حمير! لا يستطيعون أن يقلوا سمكة وهذا من أبسط الأمور، ثم يتحدثون فوق هذا عن: «توحيد الأراضي الألمانية»، يا وصيف، ارفع هذه الفظاعة.

سأله سانين:

– أتقصد أن زوجتك تشرف بالذات على... إدارة أملاكها؟.

– هي بالذات، – هذه الشرائح جيدة، أوصيك بأن تذوقها. قلت لك يا ديميتري بافلوفيتش إني لا أتدخل في شيء من شؤون زوجتي، وأعيد عليك الآن ما قلت من قبل.

واستأنف بولوزوف المضغ.

– هم... ولكن كيف السبيل إلى الحديث معها يا ايبوليت سيدوريتش؟.

– هذا بسيط للغاية يا ديمتيري بافلوفيتش. سافر إلى فيسبادن، فهي غير

بعيدة عن فرانكفورت. يا وصيف، هل عندكم خردل إنكليزي؟ لا؟ بهائم! ولكن عليك ألا تضيع الوقت فإننا راحلون بعد غد. اسمح بأن أملأ قدحك: النبيذ المنتقى يخلو من الحموضة.

دبت الحيوية في وجه بولوزوف وتضرج بالإحمرار، فهو لا ينتعش إلا حينما يأكل... أو يشرب.

وتمتم سانين:

– الحقيقة أنني لا أعرف السبيل إلى تحقيق هذه الغاية.

– وما هذا الأمر الذي استعجلك فجأة؟.

– لديّ ما يعجلني يا أخ.

– هل تحتاج إلى كثير من المال؟.

– إلى كثير منه، فاني... كيف أشرح لك؟ لقد اعتزمت.... أن أتزوج.

وضع بولوزوف القدح على المائدة وكان قد رفعه على شفتيه، وصاح بصوت يحشرج من الدهشة:

– تتزوج؟.

وأضاف بالصوت نفسه وهو وضع يديه المنتفختين على بطنه:

– أهكذا على جناح السرعة؟.

– نعم... على جناح السرعة.

– الخطيبة – في روسيا بطبيعة الحال؟.

– ليست في روسيا، لا.

– أين هي اذن؟.

– هنا في فرانكفورت.

– وممن تكون؟.

– ألمانية، لا، بل إنها إيطالية تعيش هنا.

– ذات مال؟.

– من غير مال.

– معنى هذا أن الحب عنيف جداً؟.

– يا لك مضحكاً! أي نعم عنيف.

– ومن أجل هذا تحتاج إلى النقود؟.

– أي نعم... نعم، نعم، نعم.

ابتلع بولوزوف النبيذ، وتمضمض وغسل يديه وجففهما بالفوطة في عناية، وأشعل سيجاراً. وكان سانين ينظر إليه صامتاً.

وغمغم بولوزوف أخيراً وهو يلقي برأسه إلى الوراء وينفث الدخان في خيط رفيع:

– أمامك وسيلة واحدة. قابل زوجتي، فإذا أرادت مسحت مصيبتك باليد.

– طيب، ولكن ما السبيل إلى رؤية زوجتك وأنت تقول بأنكما مسافران بعد غد؟.

أغمض بولوزوف عينيه، ثم قال وهو يدير السيجار بين شفتيه ويتنهد:

– أتعرف ما سأقوله لك؟ إذهب إلى مسكنك، وجهّز نفسك بسرعة – وعد إلى هنا. سأرحل في الساعة الواحدة، فعربتي رحبة وأستطيع أن آخذك معي. هذا أحسن حل. والآن أريد أن أنام، فإني يا أخ لا أكاد آكل حتى اطلب النوم. حكم الطبيعة وأنا لا أعارض فيه، وعليك ألا تزعجني.

فكر سانين وفكر، ثم رفع رأسه فجأة وقال في حزم:

– طيب وافقت، وأنا شاكر لك هذا. سأكون هنا في منتصف الساعة الواحدة، ونرحل معاً إلى فيسبادن. فأتمنى ألا تغضب زوجتك.

ولكن بولوزوف كان يهوّم، وتمتم مستعطفاً: «لا تزعجني!» وهز رجليه وهو ينام مثل الطفل الرضيع.

عاد سانين ينظر إليه جملة، إلى جسده الهائل، إلى رأسه، إلى عنقه وإلى ذقنه المستديرة كالتفاحة، المرفوعة إلى أعلى، وغادر الفندق بخطوات مسرعة قاصداً دكان روزيللي، فقد كان لا بد من أن يحمل النبأ إلى جيما.

وجدها في الدكان مع أمها. كانت فراو لينوري تحني ظهرها وبيدها مقياس فوتات[1] صغير تقيس به ما بين النوافذ. فاستقامت لما رأت سانين وحيّته في مرح يشوبه بعض التحرج، وقالت:

- كل الأفكار تدور في رأسي بعد كلامك أمس عن تحسين مخزننا. انظر، أتمنى أن أضعِ هنا خزانتين برفوف من المرايا، معلومك أن موضتها دارجة الآن، ثم أيضاً...

قاطعها سانين:

- رائع، رائع، كل هذا يجب أن يكون موضع تفكير... ولكن تعالا إلى هنا، أريد أن أنبئكما بشيء - وأخذ فراو لينوري وجيما من الذراعين، وقادهما إلى غرفة أخرى. قلقت فراو لينوري فسقط المقياس من يدها، وكذلك قلقت جيما، ولكنها شعرت بالإطمئنان لما أمعنت النظر في سانين. كان وجهه يدل في الحقيقة على انشغال البال، ولكنه يعبر في الوقت نفسه عن الانشراح والنشاط والعزم.

رجا المرأتين أن تجلسا. أما هو فقد وقف أمامهما ملوحاً بيديه مشعثاً شعره، وهو يروي عليهما كل ما جرى: لقاءه ببولوزوف، وسفره المتوقع إلى فيسبادن، وإمكان بيع الضيعة؛ وهتف في الختام:

- تصوروا سعادتي فالأمور تطورت على نحو قد لا يبقى فيه ما يدعوني للسفر إلى روسيا! ونستطيع أن نجعل الزفاف في موعد أقرب مما توقعت!.

فسألته جيما:

- متى ينبغي لك أن تسافر؟.

- اليوم - بعد ساعة، فقد استأجر صديقي عربة وسيصحبني معه.

- أستكتب إلينا؟.

- من دون بطء! فما أن أتحدث إلى هذه السيدة حتى أكتب من فوري.

١- وحدة قياسية للاطوال. - المترجم.

فسألته فراو لينوري العملية:

– أتقول بأن هذه السيدة غنية جداً؟.

– جداً. كان أبوها من أصحاب الملايين وقد ورثت ثروته جميعاً.

– كل ثروته لها وحدها؟ وإذن هذا من حسن حظك. ولكن خذ بالك، لا تبخس في ثمن ضيعتك! كن متبصراً صلباً، ولا يدفعنك الهوى إلى التساهل! إني أدرك أمنيتك، فأنت تبحث عما يعجل في زواجك من جيما، ولكن التروي قبل كل شيء – ولا تنس أن كل زيادة في ثمن الضيعة سيكون زيادة في ما يبقى لكما ولأولادكما.

استدارت جيما بوجهها وعاد سانين إلى التلويح بيديه.

– تستطيعين يا فراو لينوري أن تثقي بنياتي! ليس في نيتي أن أساوم، بل سأقول الثمن الحقيقي، فإذا دفعت – كان خيراً، وإذا لم تدفع – فالله معها.

وسألته جيما:

– هل تعرف هذه السيدة؟.

– لم أرها في الوجه أبداً.

– ومتى تعود؟.

– بعد غد إذا لم تسفر القضية عن نتيجة، أما إذا سارت الأمور على ما يرام فقد أعود في بحر يومين – ثلاثة، ومهما يكن من الأمر فإني لن أتأخر دقيقة واحدة. فإني أترك روحي كلها هنا! ولكني استغرقت معكما في الكلام، وينبغي أن أعرج على مسكني قبل الرحيل... فراو لينوري، أعطني يدك على نية الحظ – فان هذا عادة عندنا في روسيا.

– أتريد اليمنى أم اليسرى؟.

– اليسرى فهي قريبة من القلب. سأعود بعد غد حاملاً درعي أو محمولاً عليها! ولكن هاتفاً يهتف بي، إنني سأعود منتصراً! إلى اللقاء يا أعزائي يا احبائي...

ثم عانق فراو لينوري وقبّلها، وطلب من جيما أن تأتي معه مقدار دقيقة إلى غرفتها لأن عليه أن يفضي إليها بأمر ضروري جداً، وكان يرمي ببساطة

إلى الانفراد بها لتوديعها، وأدركت فراو لينوري ذلك فلم تتطفل بالسؤال عن هذا الأمر الضروري...

لم يدخل سانين غرفة جيما قبل هذه المرة، فإذا أشواق الحب ونيرانه وبهجته وعذوبته المروعة تقتحم نفسه وتشتعل فيه، حينما اجتاز العتبة المقدسة... وتلفت يلقي فيما حوله نظرة مبهور، ثم ركع أمام فتاته الحبيبة وألصق وجهه بجسمها فهمست:

– هل أنت لي؟ أتعود بسرعة؟.

فقال مؤكداً وهو يلهث:

– أنا لك... وسأعود.

– سأنتظرك يا عزيزي.

بعد لحظات كان سانين يركض في الشارع بطريقه إلى مسكنه، ولم يلحظ أن بانتاليوني اندفع من باب الدكان في أثره، أشعث مهتاجاً، وهو يصرخ بكلمات مبهمة، ويهز يده المرفوعة إلى أعلى كأنما يتوعده.

في تمام الساعة الواحدة إلا ربعاً عاد سانين إلى بولوزوف. كانت عربة بأربعة جياد تقف أمام بوابة الفندق. لما رآه بولوزوف لم يزد على أن قال: «آ – واذن صممت؟»، ولبس قبعته ومعطفه وقالوشه، وحشر في أذنيه بعض القطن على الرغم من فصل القيظ وخرج إلى فناء الفندق. كان الوصفاء قد رتبوا مشترياته الوافرة في داخل العربة بناء على تعليماته، وغطوا مقعدها بالوسائد الحريرية والحقائب والحزم، ووضعوا عند قدميه صندوق الزاد، وربطوا أحدى الحقائب الكبيرة إلى مقعد الحوذي. وزع بولوزوف النقود بيد سخية – على الرغم من عناية البواب ولباقته وهو يسنده من وراء بترفق وإجلال، فإنه كان ينفخ ويتأوه وهو يتسلق سلم العربة، ثم قبع في مكانه فرتب ما حوله ومهده، وبعد أن انتقى سيجاراً وأشعله وأومأ باصبعه إلى سانين: «تعال أنت انحشك أيضاً»، فجلس سانين بجنبه، وارسل بولوزوف أمره إلى الحوذي بطريق البواب أن يقود العربة ملتزماً بالدقة، وسيكون له «حلوتها» إذا احسن عملاً. ثم قعقعت السلالم، وانصفقت الأبواب، ودارت دواليب العربة.

يستغرق السفر بالقطار الآن من فرانكفورت إلى فيسبادن أقل من ساعة. كانت عربة البريد الممتازة تقطع هذه المسافة في ذلك الزمن بثلاث ساعات، وتستبدل الجياد خلال الطريق خمس مرات. كان بولوزوف يغفو تارة، أو يتأرجح والسيجار بين أسنانه، لم يتكلم إلا قليلاً، ولم يلق من النافذة نظرة واحدة: فالمناظر الطبيعية لا تعجبه، بل لقد افاد بأن «الطبيعة – موت له!». كذلك ركن سانين إلى الصمت، ولم يستطرف هذه المناظر، ثم إنه كان في واد آخر، فاستغرق في التفكير وفي الذكريات. كان بولوزوف دقيقاً في توزيع النقود على مستحقيها في المحطات، والنظر في ساعته للتحقق من الوقت، وقد وزع الهبات على السواقين والسواس كل بحسب جده واجتهاده، وفي منتصف الطريق سحب من صندوق الزاد برتقالتين، فاختص نفسه بأحسنهما، وناول سانين الثانية، فحدق سانين في رفيقه وانفجر ضاحكاً على حين غرة؛ فسأله بولوزوف وهو يسلخ جلد البرتقالة بأظفاره البيضاء القصيرة:

– ماذا أضحكك؟.

فكرر سانين:

– ماذا؟ إني اضحك من رحلتنا.

فعاد بولوزوف يسأله وهو يمرر في فمه جزءاً هَبَرَهُ من لحمة البرتقالة:

– وماذا فيها؟.

– إن أمرها في غاية الغرابة، فقد كنت لا تخطر ببالي أمس – بصراحة – إلا كما يخطر امبراطور الصين – فإذا أنا أرحل معك اليوم، لأبيع ضيعتي لزوجتك التي ليس لي عنها أي فكرة.

فأجاب بولوزوف:

– لا يستبعد شيء – وكلما عشت كثيراً رأيت كثيراً، مثلاً: أتستطيع أن تتصورني على صهوة جواد ضابطاً في سلاح الفرسان؟ ولكني كنت، وركبت، وأمرني الأمير الكبير ميخائيل بافلوفيتش: «خبباً، خبباً أيها السمين حامل العلم![1] خبباً أكثر!».

١– حامل العلم؛ رتبة عسكرية. – المترجم.

فحكّ سانين وراء أذنه.

– قل لي من فضلك يا ايبوليت سيدوريتش، ما أحوال زوجتك؟ وما طرز مزاجها؟ لا بد لي أن أعرف هذا.

فاستأنف بولوزوف منفعلاً على غير توقع:

– إنه يتلذذ بإصدار الأوامر: «خبباً!»، فماذا كان مني؟ فكرت في نفسي: خذ مراتبك وشاراتك فالله معها... أي نعم، سألتني أنت عن زوجتي. زوجتي؟ ماذا اقول؟ إنها إنسان مثل باقي الناس. لا تضع إصبعك في فمها إذا أردت أن يسلم لك ذراعك. نعم فإنها لا تحب هذا. النقطة الرئيسية أن تحدثها على نحو يشيع بينكما فيه الضحك – حدثها عن حبك، كيف... بصورة فكهة، معلومك.

– فكهة؟.

– نعم، على هذا النحو. لقد رويت عليّ أنك عاشق تريد الزواج، فصور لها هذا أيضاً.

فقال سانين متأذياً:

– وماذا رأيت في هذا من المضحك؟.

لم يجب بولوزوف بل طفق يزيغ عينيه وعصير البرتقالة يسيل من ذقنه. ثم سأله سانين بعد صمت قصير:

– أهي زوجتك التي أرسلتك إلى فرانكفورت في شراء هذه الأشياء؟.

– هي نفسها.

– وما هذه الأشياء؟.

– واضح: إنها لعب.

– لعب؟ هل عندك أولاد؟.

فتزحزح بولوزوف مبتعداً عن سانين.

– غريب! وما الداعي لأن يكون عندي أولاد؟ إنها أشياء نسائية، خرق... لوازم خاصة للتواليت.

– هل أنت خبير في هذا المذهب؟

- خبير.

- كيف قلت إنك لا تتدخل في شؤون زوجتك؟.

- لا أتدخل في شؤونها الأخرى، أما في مثل هذه الشؤون فلا جرم، دفعاً للملل، ثم إن زوجتي تطمئن إلى ذوقي، فأنا لها متسوّق حاذق.

وبدأ بولوزوف يلهث في كلامه من شدة التعب.

- وهل زوجتك غنية جداً؟.

- من جهة الغنى، غنية، ولكن لنفسها فقط.

- أحسب إنك أيضاً لا تستطيع أن تشتكي.

- كيف لا أنتفع وأنا زوج؟ ثم إني امرؤ مفيد لها، وهي معي - في أحسن حال! فأنا - رجل مريح!.

ومسح بولوزوف وجهه بمنديل من الحرير وهو يتنفس مجهداً كأنه يقول: «كن رحيماً بي ولا تحملني على الإسراف في الكلام فأنت ترى أن الكلام عسير عليّ».

تركه سانين ينعم بالهدوء وعاد يستغرق في التفكير.

كان الفندق الذي توقفت أمامه العربة في فيسبادن يشبه القصر. تسارعت الأجراس إلى القرع في اعماقه، وساد الهرج والمرج، وارتفع خفق الأقدام المسرعة، وأقبل من الباب الخارجي رجال في سمت محترم، كلهم بالفراك الأسود، وسبقهم البواب بذهبه وقصبه وأشرطته ففتح باب العربة.

نزل بولوزوف كأنه الغازي المنتصر، وبدأ يصعد في سلم معطر مفروش بالسجاد، وطار نحوه رجل في ثياب فاخرة ووجه روسي - وهو وصيفه الخاص. قال له بولوزوف سيأخذه معه في المستقبل أينما ذهب لأن القوم في فرانكفورت تركوه الليلة الفائتة، هو بولوزوف، من غير ماء ساخن! فعبر الوصيف بوجهه عن استفظاعه للأمر وانحنى في رشاقة ينزع القالوش من قدمي سيده. وسأله بولوزوف:

- هل ماريا نيقولايفنا في جناحها؟.

في جناحها، تتفضل بارتداء ثيابها، وستتكرم بالغداء على مائدة الكونتيسة لاسونسكايا.

– آه، على مائدة هذه. انتظر، في العربة أشياء، احملها أنت بالذات إلى مسكننا – وأضاف بولوزوف: – وأنت يا ديمتيري بافلوفيتش، احتجز لنفسك غرفة، ثم عد إليّ بعد ثلاثة أرباع الساعة لتناول الغداء معاً.

سبح بولوزوف مبتعداً، أما سانين فقد احتجز لمبيته غرفة بسيطة – وبعد أن رتب شأنه وأصاب قسطاً من الراحة توجه إلى الجناح الفخم الذي ينزل فيه صاحب الفخامة (Durchlaucht) الأمير فون بولوزوف.

هناك وجد هذا «الأمير» مستوياً فوق مقعد فاخر من المخمل يقوم في وسط صالة رائعة. كان صديق سانين الخمول الكسول قد استحم ولبس عباءة ثمينة من الأطلس ووضع على رأسه طربوشاً أحمر. اقترب منه سانين وتأمله بالنظر قليلاً. أما بولوزوف فكان يجلس من دون حركة مثل الصنم، فما التفت له وجه، ولا تحرك في وجهه حاجب، ولا ند عنه صوت، فكانت هيئته جليلة مهيبة في الواقع! وقف سانين يتفرج عليه مقدار دقيقتين، وما إن همّ بالكلام ليخرق هذا الصمت المقدس، حتى فتح باب الغرفة المجاورة فجأة، وظهرت عند العتبة سيدة صبية حسناء في فستان من الحرير الأبيض مطرز بمخرمات سوداء، وحجارة الألماس تتألق في عنقها ومعصميها – كانت ماريا نيقولاييفنا نفسها؛ وكان شعرها الكثيف الاصهب يتهدل على جانبي وجهها في ضفيرتين لم تلملما إلى أعلى.

– ٣٤ –

– أوه، عفواً! – قالت السيدة من خلال ابتسامة يمتزج فيها الحياء بالسخر، ورفعت في اللحظة نفسها ضفيرة من شعرها وهي تحدق في سانين بعينين واسعتين مضيئتين رماديتين، وأضافت: – لم يخطر ببالي أنك جئت.

قال بولوزوف من غير أن ينظر إلى سانين أو يتحرك من مقعده وإنما أشار إليه بإصبعه:

– سانين – ديمتيري بافلوفيتش، صديق الطفولة.

نعم، أعـرف... فقد حدثتني عنه من قبل، وإني لسعيدة جداً بهذا التعارف، ولكني أردت أن أرجوك يا ايبوليت سيدوريتش... فإن وصيفتي في غاية التلبد اليوم...

- تصفيف شعرك؟.

- نعم، نعم، أرجوك. عفواً، - كررت ماريا نيقولايفنا الاعتذار من خلال الابتسامة نفسها وهي تحني رأسها لسانين، واختفت وراء الباب تاركة خلفها أثراً لانطلاقها، ومعه انطباع لا تشوبه شائبة تجاه جيدها البديع، وكتفيها المدهشتين، وقوامها الخلاب.

نهض بووزوف وسار يتمايل في إعياء حتى اختفى وراء الباب نفسه.

لم يشك سانين لحظة في أن ربة البيت كانت تعلم علم اليقين بوجوده في صالون «الأمير بولوزوف» كل ما قصدت إليه أن تزهو بإظهار شعرها الذي كان جميلاً في الواقع، وقد اغتبط سانين في سره لهذه النزوة التي ظهرت من السيدة بولوزوف: لئن أرادت أن تبدو أمامي جذابة لامعة فمن يدري؟ لعلها أن تكون لينة العريكة في موضوع الضيعة. كانت جيما تملأ نفسه جميعاً حتى لم يعد لغيرها من النساء أي معنى عنده و لم يعد يلحظ وجودهن. واقتصر في هذه المرة على التفكير فقط: «نعم صحيح ما قيل لي عنها: فإنها سيدة ليس عليها ما يؤخذ»!.

ولكنه لو كان في غير هذه النفسية الاستثنائية لاختلف قوله من دون ريب: فإن ماريا نيقولايفنا بولوزوفا، وكنيتها قبل الزواج كوليشكينا، كانت شخصية رائعة، إنها لم تكن كاملة الجمال، فإن طابع الدهماء وأضح الأثر فيها: كانت جبهتها ضيقة، وأنفها معافى قليلاً وأرنبته معقوفة إلى أعلى، و لم تكن بشرتها رقيقة، أما رشاقة يديها وقدميها فلم تكن مما تحسد عليه. ولكن ما قيمة هذا؟ فإن من يقابلها لا يقف أمام «الجمال المقدس» على حد تعبير بوشكين[1]، وإنما يقف أمام جاذبية عارمة طاغية تشع من امرأة هي بين الروسية والغجرية، وتزهر في جسدها الأنثوي كله... ولا تكون وقفة الواقف من دون قصد!...

ولكن صورة جيما كانت تصون سانين كما الدرع المثلثة التي تغنى بها الشعراء.

١- من قصيدة «الحسناء» (١٨٣٢) لبوشكين.

انقضت عشر دقائق، ظهرت بعدها ماريا نيقولايفنا في صحبة زوجها، وأقبلت على سانين... بهذه المشية التي تكفي وحدها في تلك الأزمنة - الأزمنة الغابرة البعيدة - أن تخرج اصحاب الطور الغريب عن عقولهم، وفيهم من كان يقول: «عندما تقبل عليك هذه المرأة فان سعادة العمر كله تقبل عليك» - وأعطته يدها، قائلة بالروسية، في صوت رقيق كأنه متحفظ:

- ستنتظرني، أليس كذلك؟ وسأعود مسرعة.

فانحنى سانين باحترام؛ أما ماريا نيقولايفنا فقد غابت وراء الستار المسدل على الباب، واستدارت قبل أن تتوارى فنظرت مبتسمة إلى الوراء من خلال كتفها، وكان الانطباع الذي تركته في هذه المرة لا تشوبه شائبة أيضاً.

لما ابتسمت - لم ترتسم غمازة واحدة ولا غمازتان، بل ارتسمت ثلاث غمازات في كل خد - وابتسمت عيناها أكثر مما ابتسمت شفتاها الورديتان الممتلئتان الشهيتان المنقوطتان بشامتين صغيرتين في جانبهما الأيسر.

اقتحم بولوزوف الغرفة فاتخذ مكانه المعتاد على المقعد واجماً على عادته، ولكن ابتسامة ساخرة غريبة كانت تنفخ خديه المنطفئين وتغضنهما.

كان له مظهر الشيوخ في حين لم يكن يكبر سانين إلا بثلاث سنين.

ولا شك أن الغداء الذي دعا إليه ضيفه جدير أن يرضي حتى أشد خبراء الطعام تزمتاً، ولكنه ظهر لسانين كأنه حكاية من غير نهاية، ثقيلة لا حد لثقلها! وقد أكل بولوزوف مبطناً ملتذاً بما يستشعره من مغزى في تركيب ألوانه. كان ينحني على الصحن منتبه الحواس، فيتشمم كل جزء من اجزائه، ثم يبدأ بالنبيذ فيتمضمض بجرعة ويبلعها وهو يخفق بشفتيه... عندما جيء بالشواء بدأ الكلام فجأة - ولكن عمّ تكلم؟ عن اغنام الميرينوس التي اعتزم أن يستورد منها قطيعاً كاملاً - ويا للرقة وهو يتحدث عنها في تفصيل مستعملاً في تسميتها صيغ التدليل والتصغير. بعد أن شرب القهوة وكانت حارة إلى درجة الغليان (ذكر للوصيف بضع مرات بصوت يرتجف انفعالاً وعينين دامعتين أن القهوة التي قدمت إليه أمس كانت باردة، «باردة مثل الجليد») - قضم سيجاراً هافانياً بأسنانه الصفراء المعوجة - وأغفى على عادته، فكان سرور سانين عظيماً، وقام يروح ويجيء بخطوات استخفى وقعها في السجادة الناعمة - مفكراً

بجيما، حالماً بمستقبل حياتهما، مستعرضاً ما سيحمله إليها من الأنباء. ولكن بولوزوف استيقظ، ولاحظ نفسه أنه استيقظ قبل وقته المعتاد – جملة ما نام مقدار سويعة ونصف السويعة – فشرب كأساً مثلجاً من ماء زيلتر، وابتلع ثماني ملاعق من المربى، وهو مربى روسي حمله إليه وصيفه في جرة خضراء غامقة «كييفية»[1] اصلية، لا يستطيع – على حد قوله – أن يعيش من دونه. ثم حملق إلى سانين بعينيه المتورمتين وسأله ألا تريد أن يلعب لعبة «المجنونة»[2]؟ فوافق سانين مرحباً، فقد خاف أن يعود بولوزوف إلى الكلام عن الخراف والنعاج الاليانة[3]، وما إليها. وانتقل المضيف والضيف إلى صالة الاستقبال، حيث جاء الوصيف بالورق، وبدأ اللعب – وطبيعي أنه كان من غير نقود.

على هذه التسلية الساذجة وجدتهما ماريا نيقولايفنا عند عودتها من بيت الكونتيسة لاسونسكايا.

ما أن دخلت الغرفة ورأت ورق اللعب على غطاء المائدة الأخضر حتى أخذت تضحك بصوت عال، وصاحت لما نهض سانين من مقعده:

– اجلسوا، والعبوا، سأعود من فوري بعد استبدال ثيابي. كان لثوبها حفيف لما ذهبت، وأخذت تنتزع قفازيها أثناء ذهابها.

والحقيقة أنها لم تبطئ في العودة. استبدلت من ثوبها الأنيق غلالة فضفاضة من الحرير البنفسجي بأكمام مفتوحة متهدلة عند الكتفين، وشدت خصرها بزنار مجدول، وجلست إلى جانب زوجها، فانتظرت حتى فرغ من لعبة المجنونة فقالت له:

– والآن يكفيك هذا يا فطيرة، (لما قالت هذه الكلمة نظر إليها سانين مدهوشاً، فابتسمت بسمة مرحة، وقابلت نظرته بمثلها وقد ظهرت في خديها كل غمازاتها) – يكفيك، فإني ارى حاجتك إلى النوم. هيا قبّل يدي وانصرف، وسنبقى نحن مع السيد سانين للحديث.

١– نسبة إلى مدينة كييف. – المترجم.

٢– نوع من ألعاب الورق. – المترجم.

٣– ما عظمت أليته من الغنم. – المترجم.

فقال بولوزوف وهو ينهض في عسر شديد من مقعده:

– لا أريد النوم، ولكنني سأنصرف؛ سأنصرف، وأقبل يدك. مدت إليه راحتها وهي لا تنقطع عن الابتسام والنظر إلى سانين.

نظر إليه بولوزوف أيضاً، ثم انصرف دون تحية.

– تحدث، هات، تحدث.

قالت ماريا نيقولاييفنا بحيوية، وهي تسند كوعيها العاريين إلى المائدة دفعة واحدة، وتنقر بأصابع يدها على اليد الثانية بصبر فارغ.

– أصحيح ما يقال من أنك ستتزوج؟.

قالت ماريا نيقولاييفنا هذه الكلمات، ومالت برأسها إلى جنبها قليلاً، لكي تنظر بعينين ثاقبتين حادتين في عيني سانين.

– ٣٥ –

كان تصرف السيدة بولوزوفا الخالي من الكلفة جديراً أن يلبك سانين أول وهلة رغم أنه لم يكن مبتدئاً في معاشرة الناس أو بعيداً عن الاحتكاك بهم – ولكنه وجد في عدم التكلف هذا فألاً حسناً بخصوص مشروعه. وقال في نفسه: «سنغض الطرف عن نزوات هذه السيدة الغنية»، وعلى ذلك أخذ يجيب في غير تكلف على أسئلتها التي كانت تطرحها في غير تكلف، فقال:

– نعم، سأتزوج.

– بمن؟ بأجنبية؟.

– نعم.

– هل تعارفتما منذ وقت قريب في فرانكفورت؟.

– هذا هو الواقع.

– من تكون؟ إذا سمحت بأن أسأل.

– طبيعي، انها ابنة حلواني.

فقالت ماريا نيقولاييفنا وهي تفتح عينيها على سعتها وترفع حاجبيها:

– هذا رائع.

وأضافت في تمهل:

– هذا أعجوبة. يخطر ببالي أن مثلك من الشباب في الدنيا لم نعد نلقاهم، ابنة حلواني!.

فقال سانين في شيء من الكبرياء:

– أرى أن هذا قد ادهشك – ولكني، أولاً، لا أشارك بكل هذه العنعنات الباطلة...

فقاطعته ماريا نيقولاييفنا:

– أولاً، لم يدهشني هذا ولو أقل من الدهشة، ولا مكان عندي لمثل هذه العنعنات، فأنا أيضاً ابنة فلاح. آ؟ خذ... ولكن الذي أدهشني، وسرني، أن أرى رجلاً لا يخاف الحب. إنك تحبها، أليس كذلك؟.

– نعم.

– أهي جميلة جداً؟.

صدم سانين قليلاً بهذا السؤال، ولكن لم يبق أمامه سبيل إلى التراجع، فقال:

– معلومك، ماريا نيقولاييفنا، كل رجل يعتقد أن الوجه الذي يحبه أجمل الوجوه، ولكن خطيبتي – جميلة ولا شك.

– هل هذا حقيقة؟ ما جمالها؟ طلياني؟ كلاسيكي؟.

– نعم، قسماتها في غاية التناسق.

– هل تحمل رسماً لها؟.

– لا. (لم يكن للتصوير الفوتوغرافي ذكر في ذلك الحين، وكانت طريقة داغير[1] في بدء انتشارها).

– ما اسمها؟.

– اسمها – جيما.

– واسمك؟.

١– نسبة إلى مكتشفه داغير، وهي طريقة مبكرة للتصوير الشمسي لا يمكن بواسطتها أن تسحب عدة نسخ في تصوير واحد.

- ديميتري.
- وما لقبك؟.
- بافلوفيتش.

فقالت ماريا نيقولايفنا في بطء:

- أتعرف؟ أنك تعجبني كثيراً يا ديميتري بافلوفيتش، لا بد انك رجل طيب. أعطني يدك، وسنكون أصدقاء.

وضغطت علي يده بأصابعها الجميلة البيضاء القوية - وكانت كفها أصغر من كفه قليلاً، ولكنها أكثر دفئاً ونعومة وليناً وحيوية.

- ولكن أتدري ماذا يخطر ببالي الآن؟.
- ماذا؟.
- إنك لن تغضب؟ لا؟ قلت بأنها خطيبتك، ولكن هل... هل هذا ضربة لازب؟.

فتجهم سانين:

- لم أفهم قصدك يا ماريا نيقولايفنا.

ضحكت ماريا نيقولايفنا ضحكة خفيفة، وردت بحركة من رأسها ما تهدل من شعرها إلى الوراء، وقالت - إما عن وعي أو عن ذهول:

- لا شك أنه رائع. إنه فارس! ثم صدق بعد هذا زعم القائلين بأن المثاليين اندثروا!.

كانت ماريا نيقولايفنا تتحدث على نحو مدهش، طوال الوقت، بلغة روسية خالصة، ولهجة مسكوفية صحيحة، لهجة الشعب لا لهجة سكان القصور.

- لا بد أنك تربيت ونشأت في أسرة محافظة تخاف الله، فمن أي ولاية؟.
- من تولا.
- وإذن نحن من نبعة واحدة فان أبي... أتعرف من كان أبي؟.
- نعم، أعرف.
- لقد ولد في تولا... كان تولاوياً... ولكن طيب. (تعمدت ماريا

نيقولايفنا أن تنطق بكلمة «طيب» بلهجة الطبقة المتوسطة) – لنشرع الآن في القضية.

– أعني... كيف هذا، أي قضية؟ ماذا قصدت أن تقولي؟ فوصوصت ماريا نيقولايفنا بعينيها.

– طيب، وفيم جئت إلى هنا؟.

(عندما ضيقت عينيها اصبحت قسماتها في غاية الرقة وإن شابها بعض السخرية، ولما فتحتهما على سعتهما نضجت أعماقهما المضيئة الباردة بمعنى كأنه القسوة أو كأنه الوعيد – أما جمالهما الخاص فإنه مستمد من حاجبيها الكثيفين المقوسين قليلاً الشبيهين بالسمور الحقيقي).

– تريد مني أن أشتري منك ضيعة، والنقود ضرورية لك من أجل الزفاف، أليس كذلك؟.

– نعم، ضرورية.

– وهل تحتاج إلى كثير منها؟.

– يكفيني مقدماً بضعة آلاف من الفرنكات، زوجك يعرف ضيعتي ويمكنك أن تستخبريه عنها، ثم اني لم أحدد ثمناً غالياً.

فهزت ماريا نيقولايفنا رأسها يميناً ويساراً، وقالت وهي تقطع الكلمات وتنقر برؤوس أصابعها على طرف سترة سانين:

– اعلم أولاً – أنني تعودت ألا أستشيره إلا في شؤون زينتي وملابسي، فهو في هذا لا يشق له غبار. ثانياً – لماذا تقول إنك لن تحدد ثمناً غالياً؟ فإني لا أريد الإفادة من انك عاشق الآن وأنك مستعد لكل تضحية... هل يليق ان اضطرك إلى أي تضحية بدلاً من تشجيعك... ولكن ما السبيل إلى التعبير عن هذا بطريقة احسن؟ اقصد... هل يليق تلقاء عواطفك النبيلة أن أسلخك كما تسلخ القشرة؟ ليس هذا من عاداتي، وإذا حدث – فإني لا أرحم الناس، ولكن ليس بهذه الطريقة.

لم يستطع سانين أن يدرك أكانت تهزل أم كانت تجد، ولكنه قال في نفسه: «أوه، ينبغي للمرء أن يكون معك منتبه السمع!».

دخل الخادم يحمل صينية كبيرة عليها سماور روسي وأدوات الشاي وما إليها من الحليب والسكر والكعك، ثم صف هذه الطيبات على المائدة بين سانين والسيدة بولوزوفا واختفى.

ملأت فنجانه بالشاي وقالت وهي تضع فيه السكر بأصابعها على الرغم من وجود الملقط:

– هل تقرف؟.

– لا بأس بهذا!... من مثل هذه اليد الرائعة...

و لم يتم عبارته فقد كاد يشرق بجرعة الشاي، أما هي فكانت تنظر إليه نظرة متنبهة واضحة.

واستأنف يقول:

– السبب في قولي أنني لا أحدد ثمناً غالياً لضيعتي يعود إلى إنك خارج الحدود، ولهذا لم يخطر ببالي أن تكون نقودك الزائدة كثيرة. لم يفتني أيضاً أن بيع ضيعة وشراءها في مثل هذه الظروف فيهما شيء غير طبيعي، وأن عليّ أن آخذ بحسن التقدير.

شعر سانين بالتلبك والحيرة، أما ماريا نيقولايفنا فقد أسندت ظهرها إلى مقعدها في هدوء، وأخذت تراقبه، مصلبة الذراعين، بعين واعية نافذة، فركن أخيراً إلى الصمت؛ وقالت كأنها تحاول أن تسعفه:

– لا بأس، تكلم – فإني مصغية – يسرني أن أستمع إليك، فتكلم.

أخذ سانين يصف ضيعته: مساحتها، موقعها، ما يزرع في أراضيها، طرق استغلالها... وتحدث أيضاً عن الدار الريفية وما تطل عليه من المناظر الطبيعية. كانت ماريا نيقولايفنا تنظر إليه ولا ترفع بصرها عنه، وهي تزداد إشراقاً وإصغاء، وشفتاها ترتعشان قليلاً – قليلاً من غير ابتسام: كانت تعضها. وشعر في النهاية بالارتباك، فعاد يركن إلى الصمت.

– ديمتيري بافلوفيتش...

بدأت ماريا نيقولايفنا كلامها، وفكرت قليلاً قبل أن تكرر:

– ديمتيري بافلوفيتش... أتعرف؟ اني على يقين أن ضيعتك صفقة

رابحة، واننا سنتفق، ولكن عليك أن تعطيني موعد يومين – نعم يومين، فهل تستطيع ان تبتعد عن خطيبتك يومين؟ لن احتبسك أكثر من هذا الوقت عما ترغب فيه – خذها مني كلمة شرف. أما إذا كنت الآن بحاجة إلى خمسة آلاف أو ستة آلاف فرنك، فيسرني أن أقرضك هذا المبلغ، ثم نحسمه فيما بعد.

نهض سانين واقفاً.

– من واجبي يا ماريا نيقولاييفا أن أشكر لك طيب حفاوتك وضيافتك ولطف معاملتك وحسن استعدادك لخدمة رجل لا تعرفينه إلا قليلاً... وإذا طاب لك، فاني أفضل ان انتظر رأيك بشأن ضيعتي – وسأبقى هنا مقدار يومين.

– نعم، يطيب لي ذلك يا ديميتري بافلوفيتش، فهل سيكون هذا ثقيلاً عليك؟ جداً؟ قل.

– إني أحب خطيبتي يا ماريا نيقولاييفنا – وليس فراقها هيناً.

– آه، إنك لرجل من ذهب!.

ثم تنهدت ماريا نيقولاييفنا وقالت:

– أعدك بألا أرهقك بالانتظار، أأنت ذاهب؟.

فقال سانين.

– الوقت متأخر.

– ولا بد لك من الراحة من عناء الطريق ومن عناء اللعب بالمجنونة مع زوجي. خبرني – أأنت صديق حميم لزوجي ايبوليت سيدوريتش؟.

– كنا في مدرسة واحدة.

– هل كان وقتئذ كما هو الآن؟.

– ما معنى «كما هو الآن»؟.

فضحكت ماريا نيقولاييفنا فجأة حتى احمر وجهها كله، ورفعت منديلها إلى شفتيها، ثم نهضت عن المقعد وهي تتمايل كأنها متعبة، ومدت إلى سانين يدها.

فانحنى مودعاً وسار يقصد الباب، فصاحت في اثره:

- تكرم بالمجيء غداً، وأبكر - أتسمع؟.

التفت إلى الوراء قبل أن يخرج من الغرفة، فرآها قد عادت إلى مقعدها، ووضعت يديها وراء رأسها، فانحسرت أكمام غلالتها الواسعة حتى الكتفين، ولا مناص من الاعتراف بأن منظر هاتين الذراعين وهذا الجسد كله، كان رائعاً فياضاً بالسحر.

- ٣٦ -

بقي المصباح مضيئاً في غرفة سانين إلى ما بعد منتصف الليل بوقت طويل. كان يجلس إلى المائدة ويكتب «إلى جيماه»، روى عليها كل ما حدث، ووصف لها آل بولوزوف - الزوج والزوجة، ولكنه افاض بخاصة في وصف شعوره الخاص - وختم هذا بأن حدد موعداً للقائها بعد ثلاثة أيام!!! (مع ثلاث علامات للتنبيه). وحمل الرسالة في الصباح الباكر إلى مكتب البريد، وذهب للفسحة في حديقة كورغاوزة حيث كانت الموسيقى تعزف. وكان الناس لا يزالون قلة، فوقف أمام العريشة التي تجلس فيها الأوركسترا، حيث استمع إلى مقطوعة «روبرت الشيطان»[1] وبعد شرب القهوة، قصد إلى ناحية منعزلة، وجلس على مقعد ثم استغرقه التفكير.

قبضة مظلة رشيقة ولكنها قوية، دقت على كتفه، فاختلج... كانت في فستان خفيف من الصوف، رمادي - أخضر - اشهب، وقبعة من التول الأبيض، وقفازين سويديين: ناضرة متوردة مثل صباح صيفي، ولكن حركاتها ونظراتها لا تزال مشوبة بهذا الفتور الذي يدل على أن نوم الليل كان هنيء الأحلام - على هذا النحو وقفت أمامه ماريا نيقولايفنا.

- صباح الخير. أرسلت في طلبك اليوم فقيل لي أنك خرجت. لقد شربت كأسي الثانية منذ قليل، فإنهم هنا يرغمونني على شرب الماء، ولا يعلم إلا الله ما القصد من هذا... هل أنا معتلة الصحة؟ وفوق هذا ينبغي عليّ أن أمشي ساعة كاملة، فهل تريد أن ترافقني؟ وسنشرب القهوة فيما بعد.

١- أوبرا ج. ميربير. عرضت لأول مرة في عام ١٨٣١ وجاكومو ميربير (١٧٩١ - ١٨٦٤) مؤلف موسيقي مشهور وعازف بيانو، وقائد أوركسترا.

قال سانين وهو ينهض واقفاً:

- لقد شربت قهوتي، ولكن يسرني جداً أن اتمشى معك.

- أعطني ذراك اذن... ولا تخش شيئاً، فان خطيبتك ليست هنا، ولن تراك.

اصطنع سانين الابتسام، فقد كان يشعر بالضيق كلما نطقت ماريا نيقولاييفنا باسم جيما، ولكنه بادر إلى الانحناء لها في إذعان... وأخذت يد ماريا نيقولاييفنا تنزلق على ذراعه في بطء ولين وتجوس خلاله وكأنها تشده إليها.

قالت وهي تسند مظلتها المفتوحة إلى كتفها:

- تعال معي - إلى هنا ـــ، فاني في هذه الحديقة كأني في بيتي، وسأدلك على مكان حسن. أتعرف كيف (كانت تردد هاتين الكلمتين كثيراً)، لن نتحدث عن هذه الصفقة، بل سنبحث أمرها بعد الفطور، وعليك ان تحدثني الآن عن نفسك... لكي أعرف مع من أتعامل. وبعد هذا سأحدثك عن نفسي إذا أردت، هل اتفقنا؟.

- ولكن، ماريا نيقولاييفنا، ما المستطرف بالنسبة لك...

- قف، ولا تزد، فإنك لم تفهم قصدي، لا أريد أن أتصدى لك بالمغازلة.

وأضافت ماريا نيقولاييفنا وهي تهز كتفيها:

- عنده خطيبة مثل التمثال العريق وأتصدى له بالمغازلة؟! القضية إنك تملك بضاعة، وأنا الشارية، وأريد أن أعرف ما هي البضاعة التي عندك، فهات ما عندك، اعرضه علينا - كيف هو، أريد أن أعرف، لا يكفي ما سأشتري، بل يجب أن أعرف أيضاً ممن سأشتري، كذلك كانت خطة أبي، فابدأ إذن... وإذا كنت لا تريد فلا ضرورة إلى البدء من طفولتك - مثلاً، هل أنت منذ وقت بعيد خارج الوطن؟ فأين تجولت حتى الآن؟ على أن تمشي في هدوء - فليس هناك ما يدعونا للعجلة.

- قدمت إلى هنا من إيطاليا بعد أن قضيت هناك بضعة اشهر.

- يبدو أنك شديد الولع بكل ما هو إيطالي؟ غريب كيف لم تعثر هناك على بغية قلبك - هل تحب الفنون؟ الرسم؟ أو لعلك تفضل الموسيقى؟.

- أحب الفن... أحب كل رائع.

- وتحب الموسيقى؟.

- والموسيقى أيضاً.

- أما أنا فلا أحبها على الإطلاق. تعجبني الأغاني الروسية - إما في الريف وإما في الربيع - مع الرقص الروسي... في الجلابيب الحمر والبودنيزات[1]، على الرؤوس، وفي الحقول أعشاب نضيرة، ورائحة الدخان تهب... يا للروعة! ولكن ما لي أمضي في الحديث، هيا تحدث أنت حدثنا.

وتابعت ماريا نيقولايفنا السير وهي ترنو إلى سانين. كانت طويلة القامة يكاد وجهها يرتفع إلى مستوى وجهه.

بدأ يحدثها في غير إقبال، أو في شيء من العجز أول الأمر، ثم تدفق حديثه حتى أصبح لغواً - وكانت ماريا نيقولايفنا تصغي إليه منتبهة واعية، فإن ما تظهره من الصراحة كان يحدو غيرها إلى الاسترسال بصورة عفوية في الصراحة. كانت تملك الموهبة العظيمة في هذه «المؤالفة العائلية» - Le terrible don de la familiarité التي اشار إليها الكاردينال ريتس[2]. وتحدث سانين عن رحلاته، وعن حياته في بطرسبورغ، وعن صباه... ولو أن ماريا نيقولايفنا كانت من سيدات المجتمع المؤنقات لأمسك سانين عن الاسترسال معها، ولكنها وصفت نفسها بأنها «غلام طيب» لا تعنى أبداً بالمراسم والأعراف. على هذا النحو قدمت نفسها إلى سانين. ولكن هذه «الغلامة الطيبة» كانت في الوقت نفسه تسير إلى جنبه بخطوات قطة، جسمها مائل إليه قليلاً، وبصرها عالق في وجهه - كانت طلعة أنثى شابة تفيض بهذه الجاذبية الآسرة الغلابة الهادئة الملتهبة التي تملك القدرة على إضناء أخوتنا الرجال الضعفاء الخاطئين - هذه الجاذبية التي اختص بها بعض

١- البودنيزة: غطاء نسائي للشعر مطرز بالخرز أو بالحجر الكريم، وهو من الأزياء الشعبية القديمة في روسيا. - المترجم.

٢- شخصية سياسية فرنسية. ومؤلف مذكرات موهوبة.

الذين انحدروا من عرق سلافي، ولكنه ليس خالصاً، بل متشوباً في قدر محدود بأعراق شتى.

واستمرت نزهة سانين مع ماريا نيقولاييفنا اكثر من ساعة لم يتوقفا خلالها لحظة. كانا يطوفان بأنحاء الحديقة التي لا نهاية لها، يصعدان في مرتفعاتها ليتمتعا بالمناظر الجميلة، أو ينحدران في وهدانها ليغوصا في ظلالها الكثيفة، والذراع بالذراع طوال هذا الوقت، كان هذا يغيظ سانين أحياناً، فإنه مع جيما، جيماه الحبيبة، لم يقض مثل هذه المدة الطويلة في النزهة... ثم يأتي إلى هنا فإذا هذه السيدة تستأثر به - وبس!.

سألها عدة مرات:

- ألم تتعبي؟.

فأجابت:

- إني لا أتعب أبداً.

أكثر الذين قابلوهما أحياناً من رواد الحديقة كانوا ينحنون لها، بعضهم انحنى باحترام وهم الكثرة، وبعضهم في تملق، وبين هؤلاء رجل جميل الطلعة أنيق الثياب أسود الشعر، نادته من بعيد وخاطبته بلهجة باريسية رفيعة: Comte، vous savez، il ne faut pas venir me voir- ni aujourd'hui، ni demain [1].

فرفع قبعته صامتاً، وانحنى كثيراً إلى أسفل. فسألها سانين مدفوعاً بهذه العادة السيئة التي تميز الروس جميعاً وهي «الفضولية»:

- من هذا؟.

- هذا؟ واحد فرنساوي - أمثاله ممن يلفون يدورون هنا كثرة... وهو يلاحقني بغزله أيضاً. ولكن حان موعد شرب القهوة، فلنرجع إلى البيت، لا بد أنك جعت، وأظن أن رجلي الأمين قد ثقب عينيه.

ردد سانين قائلاً: «رجلي الأمين! ثقب عينيه!! ومع هذا تتكلم بالفرنسية على هذا النحو الرفيع، يا للغريبة الأطوار»!.

١- «أتعرف يا كونت، لا تأت إلى زيارتي لا اليوم ولا غداً» (بالفرنسية في الأصل). - الناشر.

لم تخطئ ماريا نيقولايفنا، فإنها لما عادت إلى الفندق مع سانين كان «الأمين» أو «الفطيرة» يجلس إلى المائدة وعلى رأسه طربوشه، فقال وهو يلوي وجهه الحامض:

– لقد انتظرتك حتى هممت بأن اشرب القهوة من دونك. فقاطعته ماريا نيقولايفنا في مرح:

– لا بأس. هل غضبت؟ وهذا يفيدك أيضاً، فإنك هنا تكاد تجمد. لقد جئتك بضيف، فبادر إلى قرع الجرس! لنشرب القهوة، قهوة، احسن قهوة – في فناجين سكسونية، فوق غطاء أبيض مثل الثلج!.

نزعت قبعتها وقفازيها وصفقت بيديها.

نظر بولوزوف إليها من تحت حاجبيه وسألها بصوت خافت:

– ما وراء هذه النطنطة اليوم يا ماريا نيقولايفنا؟

– ليس هذا شغلك يا ايبوليت سيدوريتش! دق الجرس! اجلس يا ديميتري بافلوفيتش واشرب القهوة مرة ثانية! آه، لشد ما أشعر بالغبطة وأنا اصدر الأوامر! ليس في العالم غبطة سواها!.

فغمغم زوجها قائلا:

– عندما تطاعين.

– طبيعي عندما أطاع! ولهذا أشعر بالغبطة وبخاصة معك، أليس كذلك يا فطيرة؟ – ولكن ها هي ذي القهوة.

كان بين ما حمله الوصيف على الصينية الكبيرة إعلان مما توزعه المسارح، فاختطفته ماريا نيقولايفنا من فورها، وصاحت غاضبة:

– دراما! دراما ألمانية. لا بأس، فإنها خير من الكوميديا الألمانية.

ووجهت كلامها إلى الوصيف قائلة:

– اطلب إليهم أن يحجزوا لي أحد الألواح، لوج بينوار، ولكن لا، فالأحسن أن يحجزوا Fremden-Loge [1]، استمع: Fremden-Loge ليس غير؟.

١– لوج الأجانب (بالألمانية في الأصل). – **الناشر**.

فتجرأ الوصيف على القول:

– ولكن إذا كان محافظ المدينة (seine Excellenz der Her Stadt-Director) قد احتجز Fremden-Loge.

– أعط سعادته عشرة تاليرات[1]، ليكون اللوج لي! – خذ بالك!.

فأحنى الوصيف رأسه في حزن واذعان.

– ديميتري بافلوفيتش، أتذهب معي إلى المسرح؟ لا شك ان الممثلين الألمان رهيبون، ولكنك ستجيء... موافق؟ موافق! يا لك من رجل لطيف! وأنت يا فطيرة أتجيئين أيضاً؟.

فقال بولوزوف من خلال فنجانه المرفوع إلى فمه:

كما تأمرين.

– أتعرف. بل ابق هنا. فأنت ستنام في المسرح على كل حال، ولا تحسن فهم الألمانية، فاليك ما تفعله: اكتب رسالة إلى وكيلي، أتذكر، بخصوص طاحونتنا... موضوع حبوب الفلاحين، قل له أني لا أريد لا أريد لا أريد! وسيشغلك هذا طوال السهرة...

فقال بولوزوف:

– سمعاً وطاعة.

– أرأيت ما أروعك وأفهمك! أما الآن يا سادة، فما دمنا قد تحدثنا عن الوكيل، فلنتحدث عن لب أعمالنا بعد أن يرفع الوصيف ما على المائدة، وستحدثنا يا ديميتري بافلوفيتش عن كل ما يتعلق بضيعتك. مثلاً: الثمن الذي تطلبه فيها، مقدار الدفعة التي تريدها مقدماً، عن كل شيء بالإجمال! (قال سانين في نفسه: «الحمد لله – أخيراً!») أذكر أنك قلت لي شيئاً، عن الحديقة، على ما أذكر، فوصفتها بصورة جيدة، أي نعم، فإن الفطيرة لم يحضر هذا الحديث... فاتركه يسمع لعل عنده رأياً يغمغم به أمامنا! يسرني جداً أنني قادرة على أن أساعدك في زواجك، وقد وعدتك بأن أتدبر الأمر معك بعد الإفطار، وأنا أحافظ على وعدي دائماً – أليس كذلك يا ايبوليت سيدوريتش؟.

١– تالير: نقود ألمانية. – المترجم.

مسح بولوزوف وجهه براحة كفه.

– الحقيقة هي الحقيقة. إنك لم تكذبي أبداً على احد.

– لم اكذب على أحد! ولن أكذب، أبداً؛ وإذن هات اعرض قضيتك، على حد ما اصطلحنا عليه في مجلس الشيوخ.

- ٣٧ -

أخذ سانين «يعرض قضيته» – أي أنه عاد يصف ضيعته مرة ثانية، ولكنه لم يتطرق إلى جمال طبيعتها – كان يستشهد بولوزوف بين الوقت والآخر في توكيد «الوقائع والارقام»، فلا يزيد بولوزوف شيئاً على الغمغمة وهز الرأس، إما الاستحسان أو غير الاستحسان فلا يعرف أمره حتى الشيطان. ولكن ماريا نيقولاييفنا لم تفتقر لمساهمته، فقد اظهرت من ضروب الخبرة بالاعمال التجارية والإدارية ما يبعث على الدهشة! كانت تعرف كل ما يتعلق بالشؤون الاقتصادية على نحو ممتاز، فتسأل عن كل أمر بالتدقيق، وتصيب بكل كلمة هدفاً، وتضع النقط على الحروف. لم ينتظر سانين مثل هذا الامتحان ولا كان مستعداً له، فشعر في وقته الذي دام ساعة ونصف الساعة أنه مذنب يجلس في قاعة محكمة على مقعد ضيق أمام قاض صارم دقيق، فهمس لنفسه متململاً: «ولكن هذا استجواب!». طوال هذا الوقت كانت ماريا نيقولاييفنا تبتسم كأنها كانت تسخر، ولكن هذا لم يسهل الأمر على سانين، ولما ظهر أثناء «الاستجواب» إنه لا يعرف المعنى المحدد لمثل هذه العبارات: «المحاصص» و«الحراثة» نضح كله عرقاً...

وقالت ماريا نيقولاييفنا أخيراً بلهجة حازمة:

– لا بأس على كل حال، فإن ما أعرفه عن ضيعتك الآن ليس أسوأ مما تعرفه أنت، فما الثمن الذي تطلبه تلقاء كل نفس (من المعروف أن ثمن الضيع في ذلك الحين كان يقدر بحسب عدد الأنفس).

فقال سانين في عسر شديد:

– أي نعم... أظن... لا أقل من خمسمئة روبل (آه يا بانتاليوني! أين أنت يا بانتاليوني، فهذا وقتك لتصبح من جديد: Barbari [1].

١– برابرة (بالايطالية في الأصل). – الناشر.

فرفعت ماريا نيقولايفنا رأسها إلى السماء كأنها تفكر في الأمر ثم قالت:

– لا أعتقد أن هذا الثمن باهظ، ولكني أخذت على نفسي ان اتمهل مقدار يومين، فعليك أن تنتظر حتى الغد، وأرجو أن نتفق، وستقول عندئذ كم تريد على الحساب – وأضافت لما رأت سانين يهم بجواب: – أما الآن basta cosi [1]، فنحن شغلنا بالمعدن الخسيس ما يكفينا... à demain les affaires [2] أتعرف؟ سأطلق سراحك الآن (ونظرت في ميناء ساعة معلقة بزنارها) حتى الساعة الثالثة... يجب ان تعطي فرصة للراحة، فالعب إذا شئت بالروليت.

فقال سانين:

– أنا كل عمري لم ألعب بالقمار.

– أهذا صحيح؟ أنت رجل في غاية الكمال، فانا لا ألعب أيضاً. من الحماقة أن ترمي النقود إلى الريح، هذا أكيد، ولكن اذهب إلى صالة اللعب، وانظر إلى أوضاع الوجوه، فإنها أشكال وألوان. هناك عجوز لها قلادة في جبينها وشاربان، يا للعجب! وأحد أمرائنا، فهو أيضاً ظريف بجسمه الهائل وأنفه الذي يشبه منقار النسر. إنه يضع لتالر الواحد ويرسم علامة الصليب في السر تحت صدرته؛ أو اقرأ مجلة، اذهب للفرجة، تفسح؛ مجمل القول اعمل ما تريد... وفي الساعة الثالثة سأكون في انتظارك... de pied ferme [3]، يجب أن نبكر في تناول الغداء، فإن المسرح يبدأ عند هؤلاء الالمان المضحكين في منتصف الساعة السابعة (أضافت وهي تمد إليه يدها) ،Sans rancune n'est-ce pas [4]؟.

– العفو يا ماريا نيقولايفنا، فيم ينبغي أن أزعل منك؟

فقالت وهي تضيق عينيها وقد ظهرت غمازاتها دفعة واحدة في خديها المتوردتين:

١– فيكفي! (بالايطالية في الأصل). – الناشر.

٢– الأعمال إلى الغد! (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

٣– من كل بد، أكيد (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

٤– من دون زعل، أليس كذلك؟ (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

- لأني أرهقتك. ولكن على مهلك، فأنت ما رأيت مني شيئاً بعد - إلى اللقاء!.

انحنى سانين ومضى، فجلجل في أثره ضحك ممراح، وانعكس في المرآة التي مر بجنبها في تلك اللحظة هذا المنظر: ماريا نيقولاييفنا تكبس طربوش زوجها على عينيه، وهو يخبط بيديه عاجزاً عن المقاومة.

- ٣٨ -

أوه، ما أعمق الزفرة التي أرسلها سانين وما أحفلها بالغبطة لما وجد نفسه يؤوب إلى غرفه؛ فإن ماريا نيقولاييفنا نطقت بالحقيقة لما قالت إنه يحتاج إلى الراحة. الراحة من كل هؤلاء المعارف الجدد، ومن الارتطام بهم ومحادثتهم، من هذا الدخان الخانق الذي انعقد في رأسه وفي نفسه - من هذه الألفة التي لم يترقبها و لم يتطلبها من امرأة غريبة عنه! ومتى جاء هذا جميعاً يفرض وجوده؟ في اليوم التالي تقريباً بعد اليوم الذي عرف فيه أن جيما تحبه، وأنه أصبح خطيبها! أليس هذا تدنيساً للمقدسات؟ ألف مرة ألتمس في سره المغفرة من حمامته الطاهرة البريئة، وذلك على الرغم من أنه لم يجد ما يدعوه إلى اتهام نفسه في شيء، ألف مرة لثم الصليب الذي أعطته إياه؛ ولولا أمله في أن القضية التي جاء من أجلها إلى فيسبادن سينتهي منها بسرعة - لاندفع عائداً إلى الوراء، إلى فرانكفورت الحبيبة، إلى ذلك المنزل العزيز الذي اصبح منزله الحميم، إليها، وركع عند قدميها الحبيبتين... ولكن هل باليد حيلة؟ لا بد من شرب الكأس حتى الثمالة، وعليه ان يلبس ثيابه ليذهب إلى الغداء - ومن هناك إلى المسرح... فيا ليتها تسرع غداً في إطلاق سراحه!.

هناك شيء آخر عذبه وأثار حفيظته: فإنه على الرغم من حبه وعطفه، وعلى الرغم من اعتزازه واغتباطه اثناء التفكير في جيما، وفي حياتهما زوجين، وفي السعادة التي تنتظره في المستقبل - كانت تتدخل بين هذا جميعاً هذه المرأة الغريبة، هذه السيدة بولوزوفا؛ لم تكن تتراءى له... لا! لم تكن تتراءى بل كانت تتصدى له - ولا تبرح أمام عينيه - كانت تتصدى له، وهو لا يستطيع أن يقصي صورتها من بصره، ولا يستطيع أن يغلق سمعه دون صوتها وحديثها - ولا يستطيع أن يستدفع حتى هذا العبير الخاص الذي

يهف من ثيابها رقيقاً ناضراً آخاذاً نفاذاً مثل عبير السوسن الأصفر. كان من الواضح أن هذه السيدة تعبث به، وتسلك كل طريق إلى إغوائه، فعلام هذا؟ وماذا تريد؟ ألا يكون هذا مجرد نزوة من امرأة مدللة غنية ولا يعد أن تكون امرأة فاسقة؟! وهذا الزوج؟! ما هذا المخلوق، وما طرز علاقاته بها؟ ثم لماذا دارت هذه الأسئلة في رأسه، أي في رأس سانين، وهو الذي ليست له علاقة خاصة تربطه إلى السيدة بولوزوفا أو إلى زوجها؟ ولماذا لا يستطيع أن يطرد هذه الصورة التي تلح عليه في الوقت الذي تتجه فيه روحه إلى صورة أخرى مضيئة مشرقة كأنها الفجر الإلهي؟ كيف استطاعت هذه القسمات أن تتسلل متطفلة على تلك القسمات الإلهية؟ بل إنها لم تتسلل وحسب بل جاءت هازئة سليطة، فهل لزقت به هذه العيون الرمادية المفترسة، وهذه الغمازات الآسرة، وهذه الضفائر المتأفعية، فليس يقدر على ان يبعدها عنه، ولا يملك القدرة على الخلاص منها؟.

لغو فارغ! لغو فارغ! فكل هذا سيزول غداً ولن يبقى له أثر ولا خبر... ولكن هل تحل وثاقه؟.

طرح هذه الأسئلة كلها على نفسه، ولما اقتربت الساعة الثالثة لبس الفراك الأسود، وخرج يتفسح قليلاً في الحديقة قبيل ذهابه إلى آل بولوزوف.

وجد هناك في صالة الاستقبال سكرتير سفارة من الالمان، وهو رجل طويل – طويل أصهب الشعر، وجهه من جانب مثل وجه الحصان، وشعره مفروق من خلف (كان ذلك من البدع الجديدة وقتذاك) – ولكن... يا للعجب، من كان هناك أيضاً؟ فون دونغوف وهو الضابط الذي كان خصمه في المبارزة التي حدثت منذ بضعة أيام. إنه لم يتوقع ان يقابله وبخاصة هنا، فاعتراه الارتباك من دون ان يدري، ولكنه انحنى له يحييه. و لم يفلت تحرج سانين من عينين ماريا نيقولاييفنا:

– هل كان بينكما تعارف؟.

– نعم... كان لي هذا الشرف، – قال دونغوف ومال قليلاً يهمس إلى ماريا نيقولاييفنا مبتسماً – هذا هو مواطنك... الروسي...

فقالت بصوت هامس أيضاً وهي تهدده بإصبعها:

- هذا خبر عجيب!.

وقامت من فورها تودعه، وتشيع سكرتير السفارة الطويل الذي دل وضعه جميعاً على أنه ميت في هواها. فقد كان يفغر فاه كلما نظر إليها. وذهب دونغوف من غير تمهل، مذعناً، ولكن بطيبة خاطر كما يكون صديق البيت الذي يدرك من الإشارة قبل العبارة ما يطلب منه. أما السكرتير فقد حاول أن يتمرد، ولكن ماريا نيقولاييفنا طردته من دون مجاملة قائلة:

- اذهب إلى مولاتك (كانت تقيم في فيسبادن وقتذاك إحدى أميرات دي - موناكو، وهي تشبه الخليلات العاديات) - فما جلوسك إلى امرأة من عامة الناس مثلي أنا؟.

فقال السكرتير التعس:

- العفو يا سيدتي، فكل أميرات العالم...

ولكن ماريا نيقولاييفنا لم تأخذها به شفقة، فذهب السكرتير بشعره المفروق من خلف.

كانت ماريا نيقولاييفنا في هذا اليوم تبدو في أحسن زينة، أو مثل «العروس» على حد تعبير جداتنا؛ فقد ظهرت في فستان وردي من الحرير اللماع بأكمام à la Fontanges وفي كل أذن حجر كبير من الألماس، وعيناها تلمعان بما لا أقل من هذين الحجرين، كانت مشرقة النفس منشرحة كل الإنشراح.

اجلست سانين إلى جنبها وطفقت تحدثه عن باريس التي تتهيأ للسفر إليها بعد بضعة أيام، وعن سأمها من الألمان لأنهم حمقى حينما يحاولون أن يكونوا أذكياء، ولا محل لذكائهم حينما يحمقون، - وفجأة سألته في الوجه - à brule pour point - كما يقال - هل صحيح أنه اشتبك بمبارزة من أجل سيدة مع هذا الضابط الذي كان هنا منذ قليل؟.

فتمتم مدهوشاً:

- من أين سمعت بهذا الخبر؟.

- الأرض ملأى بما تسمعه يا ديميتري بافلوفيتش. ولكنك كنت في

الواقع على حق، أنت على حق ألف مرة، وقد سلكت سلوك الفارس. قل لي، أكانت هذه السيدة خطيبتك؟.

قطّب سانين حاجبيه، فقالت بسرعة:

– وأذن، التوبة، التوبة، لقد ازعجتك، سامحني، ولن أعود لمثلها! فلا تغضب!.

أضافت لما برز بولوزوف من الغرفة المجاورة وفي يده جريدة:

– وأنت ما لك؟ أم أن الغداء جاهز؟

– سيقدم الغداء في الحال، ولكن تعالي انظري ماذا قرأت في «النحلة الشمالية»... لقد مات الدوق غروموبوي.

فرفعت ماريا نيقولايفنا رأسها.

– آه، رحمة السماء على سموه.

والتفتت إلى سانين:

– كان كل سنة قبيل عيد ميلادي في شهر فبراير يملأ غرفتي كلها بأزهار الكاميليا، ولكن هذا لا يستأهل مني قضاء الشتاء في بطرسبورغ.

ثم سألت زوجها:

– كم يبلغ من العمر؟ أظن أنه جاوز السبعين.

– نعم إنه كذلك – والجريدة وصفت الجنازة. كان فيها البلاط كله، وها هي ذي قصيدة الامي كوفريجكين[1].

– عظيم اذن.

– أتريدين أن أقرأها عليك؟ لقد وصفه الأمير بأنه رجل الجلائل من الأعمال.

– كلا، لا أريد. ثم من رجل الجلائل هذا؟ إنه لم يكن سوى رجل تاتيانا يوريفنا. هيا بنا إلى مائدة الغداء، فان الحي لا يفكر إلا بالحي. ديميتري بافلوفيتش، هات ذراعك.

١– هجاء ساخر ضد الأمير ب. فيازيمسكي الذي انتقل في الأربعينات إلى معسكر الرجعية.

كان الغداء مدهشاً مثل غداء امس، وقد استفاضت فيه الحيوية، وظهر أن ماريا نيقولاييفنا تجيد فن الحديث... وهي موهبة تندر بين النساء ولا سيما الروسيات! كانت لا تستحي من أي تعبير، واختصت مواطناتها بأكثر لذعاتها حتى لقد انفجر سانين بالضحك أكثر من مرة لبعض كلماتها الجريئة الصائبة. كانت ماريا نيقولاييفنا تضيق خاصة بالكذب والنفاق... وقد وجدتهما في كل مكان تقريباً. وكانت تزهو فخورة بالوسط البسيط الذي بدأت فيه حياتها، وروت كثيراً من النوادر عن أهلها وعن أيام نشأتها الأولى، ولقبت نفسها بلقب «اللبادة الخشنة»، شأنها شأن ناتاليا كيريلوفنا ناريشكينا[1]. وأدرك سانين أنها خبرت من الحياة أكثر مما خبرت الكثرة الكاثرة ممن في سنها.

أما بولوزوف فكان يأكل ويشرب مستغرقاً بما بين يديه كأنه يتأمل في عجائب الأكل والشرب، ولا يخرج عن هذا إلا في لحظات نادرة ليلقي نظرة على زوجته أو نظرة على سانين من عينين عمياوين في الظاهر نفاذتين في الواقع. وقالت ماريا نيقولاييفنا وهي تلتفت إليه:

– يا سلام عليك وعلى ذوقك! تلقاء ما انجزته في فرانكفورت من المشتريات تستحق قبلة من جبينك، ولكنك لا تسعى إلى مثل هذا...

فقال وهو يقطع جوز اناناس بسكين من الفضة:

– لا أسعى.

فنظرت إليه ماريا نيقولاييفنا وهي تنقر بأصابعها على المائدة وقالت بلهجة خاصة:

– ألا يزال رهاننا قائماً؟

– لا يزال قائماً.

– عال، ستكون أنت الخسران.

فدفع بولوزوف ذقنه إلى أمام وقال:

١– الزوجة الثانية للقيصر الكسي ميخائيلوفيتش، وأم بطرس الأول، منحدرة من أسرة نبيلة غير ثرية.

– على الرغم من كل ثقتك بنفسك فانك أنت التي ستخسرين في هذه المرة.

وقال سانين يسأل:

– هل يحق لي أن أعرف موضوع الرهان؟.

فأجابت ماريا نيقولايفنا وهي تضحك:

– لا... فإن هذا لا يجوز لك الآن.

دقت الساعة سبع دقات، وجاء الوصيف يقول بأن العربة جاهزة، فقام بولوزوف يقود زوجته ثم عاد يجر نفسه وارتمى في مقعده، فصاحت به ماريا نيقولايفنا حينما وصلت إلى الممر:

– إياك أن تنسى الكتابة إلى الوكيل!.

– سأكتب، ولك أن تطمئني، فإني رجل دقيق.

– ٣٩ –

كان المسرح في فيسبادن سنة ١٨٤٠ سيئ المظهر، أما فرقه فإنها من حيث جعجعتها وابتذالها وانحطاطها ونمطيتها لم ترتفع مقدار شعرة عن المستوى الذي يمكن أن نعده المستوى الطبيعي للمسارح الألمانية حتى اليوم، وقمة ما تحقق في محيطها مؤخراً، كان على يد فرقة كارلسروئيه التي يقودها السيد ديفرينت[1]. كان اللوج قد حجز لصاحبة السمو حرم فون بولوزوف (ولا يعلم إلا الله كيف دبره الوصيف، فإنه لم يرش محافظ المدينة في الحقيقة)! كانت وراء هذا اللوج غرفة صغيرة فيها بعض الأرائك، وقد طلبت ماريا نيقولايفنا من سانين قبل أن تدخلها أن يرخي الستائر التي تحجب اللوج عن الصالة، وقالت:

– لا أريد أن يراني أحد فيسرعون إليّ.

ثم جلست وأجلسته إلى جانبها وظهراهم نحو الصالة ليبدو اللوج كأنه فارغ.

١– ديفرينت ادوارد (١٨٠١ – ١٨٧٧) ممثل ألماني، وكاتب حي، ورجل من رجال المسرح.

عزفت الأوركسترا افتتاحية من «عرس الفيغارو»... وارتفع الستار، وبدأت التمثيلية.

وكانت واحدة من تمثيليات مهلهلة كثيرة شتى وضعها مؤلفون واسعو الاطلاع ولكنهم من غير موهبة، ودأبوا فيها وانتقوا موضوعها ولكنهم عرضوه بلغة ميتة اثقلوها بالأفكار «العميقة النابضة» على نحو أخرق، ثم حشكوا فيها ما يسمى الصدمة المأساوية فجاءت مثيرة للغثيان كما يحدث أثناء الإصابات بالكوليرا الآسيوية. صبرت ماريا نيقولايفنا فاستمعت إلى نصف الفصل الأول، ولكن عندما جاء دور العاشق الأول الذي عرف أن حبيبته قد خانته (كان يلبس سترة بنية بأكمام منتفخة وياقة مثناة وصدرة مخططة بأزرار من الصدف وسروال أخضر بسير من الجلد اللامع في أسفله وعلى يديه قفازان من الجلد المخملي الأبيض) عندما اسند هذا العاشق قبضته إلى صدره ودفع كوعيه إلى الأمام في زاويتين حادتين، وأخذ ينوح نواحاً يشبه نباح الكلب، لم يبق عند ماريا نيقولايفنا مثقال ذرة من الصبر، فصرخت مغيظة وهي تدخل الغرفة الخلفية.

– إن أقل ممثل فرنسي في آخر بلدة فرنسية اسلم طبعاً واحسن تمثيلاً من أشهر الممثلين الألمان.

وقالت لسانين وهي تمسح بيدها على موضع من الديوان قربها:

– تعال إلى هنا لنثرثر.

أذعن سانين.

ونظرت ماريا نيقولايفنا إليه.

– أرى أنك لين مثل الحرير! وستكون حياة زوجتك معك مريحة.

واضافت وهي تشير بطرف مروحتها إلى الممثل النباح (كان يقوم بدور مدرس خصوصي):

– ذكّرني بأيام صباي، فأنا أحببت أيضاً مدرساً، وكان ذلك غرامي الأول... لا بل كان الثاني، ففي المرة الأولى أحببت شماساً في دير دونسكوي. كنت في الثانية عشرة من عمري، وكنت أراه في أيام الآحاد فقط، كان يلتف

بمسح من المخمل ويتعطر بماء اللاوندة، ويشق طريقه بين الناس مخاطباً النساء بالفرنسية: «باردون، ايكسكوزه»، لم يكن يرفع بصره أبداً، كانت رموش عينيه هكذا! – وأشارت ماريا نيقولايفنا إلى طول نصف إصبعها الطويلة – أما المدرس فكان يدعى! monsieur Gaston وينبغي القول بأنه كان مدرساً صارماً جداً؛ وهو سويسري، يفيض وجهه بالحيوية، سالفاه أسودان مثل القطران، ووجهه من جانب يشبه الإغريق، شفتاه كأنهما من الحديد المسكوب! كنت أخافه، ولم اخش احداً سواه في كل عمري! كان مربياً لأخي مات فيما بعد... غريقاً، وقد تنبأت لي إحدى الغجريات أيضاً بأنني سأموت قتلاً – ولكن هذا كلام فارغ، فانا لا أصدق ذلك. أتتصور ايبوليت سيدوريتش بيده خنجر؟!.

فقال سانين:

– قد يحدث الموت بغير خنجر.

– كل هذا كلام فارغ! هل أنت متطير؟ إني لا اعتقد بشيء من هذا، لا سبيل إلى الخلاص مما سيكون. كان monsieut Gaston يعيش معنا في البيت، فوق رأسي، وكان يحدث ان استيقظ في الليل فأسمع وقع خطواته، فقد كان لا ينام إلا في وقت متأخر، فأشعر بقلبي يتجمد من الرهبة... أو من شعور آخر... وكان محصول أبي من القراءة والكتابة قليلاً، ولكنه احسن تنشئتنا، هل تعرف أنني أفهم اللغة اللاتينية؟.

– أنت – تفهمين اللاتينية؟.

– نعم، أنا. علمني إياها monsieur Gaston، وقرأت معه الأنياذة[1]، إنها شيء ممل، ولكن بعض موضوعاتها لا بأس بها – أتذكر اللقاء بين ديدونه وانياذ في الغابة[2]؟.

فقال سانين بسرعة؛

١– قصيدة للشاعر الاغريقي القديم فرجيلي (القرن الأول قبل الميلاد).

٢– في الكتاب الرابع من هذه القصيدة يجري الحديث عن لقاء ديدونه وانياذ في الغابة.

- نعم، نعم، أذكر.

كان لا يذكر شيئاً مما تعلمه من اللاتينية، ولم يبق في ذهنه إلا ذكريات مبهمة عن الأنياذة.

فرمقته ماريا نيقولايفنا بنظرتها الجانبية المعتادة من أدنى إلى أعلى وقالت:

- ولكن لا تحسب أنني امرأة متعلمة جداً. آخ يا آلهي، لست متعلمة، ولا املك أي موهبة، وأكاد لا اقدر على الكتابة... ولا أستطيع أن أقرأ بصوت عال، ولا أحسن العزف على البيانو، ولا الرسم، ولا خياطة الثياب... لا أحسن شيئاً! فانا كما تراني!.

بسطت يديها وأضافت:

- إني أحدثك بكل هذا لتجنب الاستماع إلى هؤلاء الحمقى أولاً (وأشارت إلى المسرح، وكان في مكان الممثل، ممثلة تنبح وقد دفعت كوعيها أيضاً إلى الأمام) - ثم إني مدينة لك ثانياً، فقد حدثتني عن نفسك أمس.

فقال سانين:

- ولكنك أنت رغبت في ذلك.

فالتفتت إليه ماريا نيقولايفنا فجأة.

- وانت، ألا تريد أن تعلم ما هي حقيقة هذه المرأة؟.

واضافت وهي تتكئ من جديد على وسادة الديوان:

- ولكن هذا لن يثير دهشتي - فأين لرجل يستعد للزواج، وبدافع من الحب، وبعد مبارزة... أن يفكر في أمر آخر؟.

واستغرقت ماريا نيقولايفنا في التفكير وهي تعض مروحتها بأسنانها النضيدة البيضاء كالحليب.

وخيل لسانين أن في رأسه هذا الدخان الذي لم يستطع ان يتخلص منه طوال اليومين الأخيرين.

وكان الحديث يدور بينه وبين ماريا نيقولايفنا خافتاً، بل هامساً، وقد زاد هذا في هياجه وقلقه.

متى ينتهي هذا كله؟.

إن الضعفاء لا يقدرون على انهاء شيء بل ينتظرون نهايته.

وعطس أحد الممثلين على المسرح، وقد أدخل المؤلف هذه العطسة في تمثيليته على أنها «لحظة هزل» أو «عنصر» هزل وهو العنصر المفقود منها ولا شك ولكن المتفرجين وفوا هذه العطسة حقها من الضحك.

وأزعج سانين هذا الضحك أيضاً.

لقد مضت دقائق لم يستطع ان يعرف خلالها على وجه اليقين: أكان مغيظاً أم راضياً، منكداً أم مغتبطاً. أوه لو أن جيما رأته! وقالت ماريا نيقولايفنا فجأة:

– أليس غريباً أن تجد من يقول بصوت مطمئن «إني أعتزم الزواج»، ولا تجد من يقول لك بهذا الاطمئنان «أريد أن ألقي بنفسي في الماء» فما الفرق بين الحالين؟ فريب، والحق يقال.

فأجاب سانين مغيظاً:

– الفرق كبير يا ماريا نيقولايفنا! فان الماء ليس مخيفاً على من يقذف بنفسه إليه، فقد يستطيع أن يسبح، وفضلاً عن ذلك... ما يتعلق بغرابة الزواج... إذا كان الحديث عن هذا...

وسكت فجأة.

ضربت ماريا نيقولايفنا على كفها بمروحتها.

– تابع قولك يا ديميتري بافلوفيتش تابع قولك، فإني أعرف ماذا أردت أن تقول. لقد أردت أن تقول: «يا سيدتي العزيزة ماريا نيقولايفنا... لا يخطر بالبال شيء ادعى إلى الاستغراب من زواجك... ثم إني أعرف زوجك منذ الطفولة!» أليس هذا ما أردت ان تقوله أنت يا من تقدر على السباحة؟.

فقال سانين:

– اسمحي لي...

فقالت ماريا نيقولايفنا في توكيد:

– أقلتُ الحقيقة أم لا؟ انظر في وجهي ثم صارحني أقلت الحقيقة أم لا؟.

ارتبك سانين فما يعرف أين يبعد نظراته، ثم قال أخيراً:

– نعم، إنها الحقيقة ما دمت تلحين على هذا بالذات.

– هذا هو... ولكن ألم تسأل نفسك أنت يا من تجيد السباحة، عن سبب هذه الخطوة... الغريبة من امرأة ليست فقيرة... ولا حمقاء... ولا قبيحة؟ قد لا يهمك هذا، ولكن لا بأس، فسأفضي إليك بالسبب ولكن ليس الآن، بل بعد انتهاء فترة الاستراحة، فإني أخشى أن يجيء أحد...

ما كادت ماريا نيقولايفنا تقول هذه الكلمات حتى انفتح الباب وأطل منه رأس أحمر يلمع كالزيت من العرق، وامتد نحو اللوج، كان من غير أسنان على الرغم من صغر سنه، بشعر طويل سبط، وانف طويل معقوف وأذنين كبيرتين مثل أذني الوطواط، ونظارة ذهبية ذات صنارة تشف عن عينين فضوليتين بليدتين؛ ودار الرأس في كل ناحية فلما رأى ماريا نيقولايفنا، كشر فمه الأهتم عن ابتسامة كريهة وأخذ ينحني ويكرر الانحناء... فتهتز لحمة العنق مع هذا الرأس... فنفضت ماريا نيقولايفنا منديلها في وجهه.

– أنا لست في البيت!! Fch bin nicht zu Hause، Herr P..; Ich bin nicht zu Hause [1]، كش، كش!.

دهش الرأس، ولكنه تكلف الابتسام، وقال بصوت كأنه الشهيق مقلداً «ليست» الذي كان هذا الرأس يتمرغ على قدميه:

– Sehr gut; Sehr gut! [2].

واختفى.

فسألها سانين:

– من يكون هذا بالذات؟.

– هذا؟ إنه ناقد من فيسبادن. «اديب» أو خادم بالأجر، أو سمّه ما تشاء – لقد استأجره احد المتعهدين، ولهذا ينبغي عليه ان يستحسن كل شيء

١– أنا لست في البيت، أيها السيد ب!... أنا لست في البيت... (بالألمانية في الأصل). – الناشر.

٢– طيب جداً! طيب جداً! (بالألمانية في الأصل). – الناشر.

ويعجب بكل شيء على الرغم من امتلاء صدره بالحقد الاصفر المكظوم الذي لا يجرؤ على التنفيس عنه. إني خائفة، فهو نمام فظيع، وسيسرع في الحال إلى إبلاغ الجميع أنني في المسرح، ولكن لا بأس.

انتهت الأوركسترا من عزف موسيقى فالس، وارتفع الستار مرة ثانية... وبدأ على المسرح تصعير الوجه وتكتم البكاء. وقالت ماريا نيقولايفنا وهي تعود إلى استرخاءتها على الديوان:

– وإذن ما دمت قد وقعت فلا مندوحة لك من الجلوس إليّ بدلاً من الاستمتاع بقرب خطيبتك... لا تحملق بعينيك ولا تغضب، فإني أدرك حالتك، وقد وعدتك بأن أطلق سراحك في جهات الدنيا الأربع، فاسمع اعترافي الآن. أتريد أن تعرف ما هو أحب شيء عندي؟.

فقال سانين مخمناً:

– الحرية.

وضعت ماريا نيقولايفنا يدها على يده، وقالت بصوت يرن على نحو خاص يسمع فيه الاهتمام والخطورة والاخلاص، على نحو لا يقبل الشك:

– نعم يا ديميتري بافلوفيتش. الحرية، فإنها أحب إليّ من كل شيء، وقبل كل شيء. ولا يخطرن ببالك انني اتبجح فليس في هذا مجال للتبجح، وانما كانت الحرية كذلك، وستبقى كذلك بالنسبة إليّ حتى آخر لحظة من حياتي. لا بد أنني رأيت في طفولتي كثيراً من العبودية، وعانيت منها كثيراً، واسهم مدرسي monsieur Gaston في هذ أيضاً، وقد تستطيع أن تدرك الآن لماذا رضيت بالزواج من ايبوليت سيدوريتش: إنني معه حرة مطلقة كالهواء، كالريح... وقد عرفت هذا قبل الزواج. كنت أعرف أنني سأكون معه مثل القوزاقي الطليق!.

سكتت ماريا نيقولايفنا وألقت بمروحتها جانباً.

– أقول لك شيئاً آخر: إني لا أعترض على التفكير... فإنه مدعاة للمرح، وقد أعطينا الذكاء لنفكر، ولكني لا أفكر أبداً في عواقب ما أفعله، ومهما تكن الحال فإني لا أشفق على نفسي ولو مقدار ذرة، لا يجوز، ومبدئي

ان: Cela ne tire pas à conséquence [1]، لست أدري كيف أقول هذا بالروسية، نعم فما الذي tire à conséquence ولن يكون حسابي عن هذا هنا على هذه الأرض، وأما هناك (ورفعت رأسها إلى السماء) فليكن تدبيره على قد تقديره، فإني لن أكون من أنا حينما يحاسب هناك. أتصغي إليّ أم لعلك شعرت بالملل؟.

كان سانين يجلس منحنياً على نفسه فرفع رأسه.

– ليس هذا مما يبعث على الملل يا ماريا نيقولاييفنا بل إني أستمع إليك متشوقاً، ولكني... بصراحة... سألت نفسي: لماذا تتحدثين إلي بهذا كله؟.

فاقتربت ماريا نيقولاييفنا منه قليلاً.

– تسأل نفسك... أفانت بطيء الحزر أم أنك متواضع؟ فرفع سانين رأسه أكثر قليلاً، وأضافت ماريا نيقولاييفنا بصوت هادئ يختلف عما عبرت ملامح وجهها:

– لقد حدثتك بهذا كله لأني في غاية الإعجاب بك. نعم لا تندهش فإني لا أمزح، فبعد التقائي بك، كان مما يضايقني ان تحتفظ عني بذكرى سيئة... بل إن الذكرى السيئة وغير السيئة عندي سواء، وأما الذكرى الغلط... فمن أجل هذا رأيت أن أدعوك إلى هنا، واجتمع بك على انفراد، وأتحدث إليك بصراحة... نعم، نعم بصراحة. انني لا أكذب، ومعلومك، ديميتري بافلوفيتش، إني أعرف أنك واقع في هوى فتاة أخرى، وإنك بسبيلك إلى الزواج بها... ولكن اسمع ما أقوله وعليك أن تقدر سخائي حق التقدير! وقد جاء دورك لتقول: cela ne tire pas à conséquence.

وضحكت، ولكن ضحكها انقطع فجأة، وبقيت جالسة من دون حركة، فكأن ما قالته قد أذهلها، ولمح في عينيها المراحتين الجريئتين في الحالة العادية شيء يشبه الخفر أو الأسى.

وكان سانين يفكر في هذه الأثناء: «أفعى! آه، إنها أفعى، ولكن يا لها من أفعى جميلة!».

١– هذا لا يستحق الاهتمام. (بالفرنسية في الأصل). – الناشر.

وقالت ماريا نيقولايفنا فجأة:

- أعطني منظاري فإني أريد أن أرى: أتكون هذه Jeune première على مثل هذا القبح؟ لا يبعد ان تكون الحكومة أعدتها لحماية أخلاق الشباب من الغواية.

قدم سانين إليها المنظار، ولكنها حين أخذته من يده، طوقت يده بيديها في حركة سريعة بل خفيفة، وهمست إليه مبتسمة:

- لا تأخذ نفسك بمثل هذا الجد. هل تعرف؟ إن تقييد حريتي بالسلاسل مستحيل، وكذلك أنا لا أقيد حرية أحد بالسلاسل -إني أحب الحرية، ولا أعترف بالواجبات - ولا أختص نفسي بهذا، فتزحزح قليلاً الآن ولنستمع إلى هذه التمثيلية.

أخذت ماريا نيقولايفنا تجوس أنحاء المسرح بنظرة من خلال المنظار، وكذلك انصرف سانين ببصره إلى التمثيل وهو في موضعه إلى قربها في اللوج المظلم وكان يستنشق من دون وعي هذا العطر الدافئ الذي ينبعث من جسدها البديع، وقد اختلط في رأسه كل ما حدثته به في هذا المساء وبخاصة ما قالته في الدقيقة الأخيرة.

- ٤٠ -

استمر عرض التمثيلية ساعة أو أكثر من ساعة، ولكن ماريا نيقولايفنا وسانين ما لبثا أن انقطعا عن النظر إلى المسرح وعادا إلى الحديث من جديد، وتسلل الحديث إلى مجراه السابق، ولكن سانين كان صمته أقل في هذه المرة. كان في باطنه غاضباً على نفسه وعلى ماريا نيقولايفنا، فحاول أن يبرهن لها على البطلان المطلق «لنظريتها» فكأنها ممن يعنى بالنظريات! واحتدّ في مناقشتها فأفرحها ذلك في السر كثيراً لأن معناه: إن المرء يتنازل حينما يناقش أو أنه بسبيله للتنازل. لقد مشى إلى معلفه مذعناً مرتاضاً وانتهى توحشه وعناده! وكانت هي وراءه على الكعب، تخالف وتوافق وتضحك وتفكر وتناوش... وبين هذا كله كان الوجهان يتدانيان، ولم تعد عيناه تتجنبان عينيها... عينيها اللتين تحومان حول وجهه وتطوفان في قسماته، وصار يجيب على ابتسامتها بابتسام، وهو في هذا متأدب مجامل ولكنه كان يبتسم.

إنه راح يتحدث عن المجردات، فناقش قضية الشرف في العلاقات القلبية، وتحدث عن الواجب وعن قدسية الحب والزواج... جلية الأمر: إن هذه المجردات بداية طيبة تلائم الغاية، بل إنها نقطة الانطلاق...

فالناس الذين يعرفون ماريا نيقولايفنا يؤكدون ان طبيعتها القوية العنيفة، حينما تأخذ فجأة بشيء من الرقة والتواضع أو بشيء من الخف العذري، - وأنّى لها أن تأخذ بمثل هذا؟... فعندئذ... نعم عندئذ، تكون الحالة قد تفاقمت وأنذرت بالخطر.

ويبدو أن الحال قد صارت بسانين إلى هذا المآل... وكان جديراً أن يشعر باحتقاره لنفسه لو اتيحت له لحظة يقدر فيها على تركيز أفكاره، ولكن الوقت لم يؤاته لا لحصر أفكاره ولا لاحتقار نفسه.

أما هي فإنها لم تفرط بالوقت، وكل ذلك قد حدث له لأنه جميل الطلعة!. وهذا يضطرنا إلى القول: «كيف نعرف أين تكون الضارة وأين النافعة»!.

انتهت التمثيلية، فطلبت ماريا نيقولايفنا من سانين أن يضع الشال، ووقفت من غير حركة ريثما لف كتفيها الملكيتين بالنسيج الناعم، ثم تأبطته من ذراعه وخرجت إلى الممر - وهناك كادت تصرخ، فقد تراءى لها دونغوف مثل الشبح على باب اللوج نفسه، وشاهدت وراء ظهره وجه الناقد الفيسبادني الكريه، وكان وجه «الأديب» اللامع كالزيت يتهلل بالتشفي. وقال الضابط الشاب يخاطب ماريا نيقولايفنا بصوت لم يستطع أن يكظم فيه رنة الغضب:

- هل تأمرين يا سيدتي بأن أبحث لك عن عربتك؟ فأجابت:

- لا، وشكراً لك، سيبحث خادمي عنها - وأضافت في همسة آمرة:

- فالزم مكانك!.

وابتعدت مسرعة وهي تسحب سانين من ورائها.

وصاح دونغوف في وجه الأديب فجأة:

- اذهب إلى الشيطان! لماذا تلتزق بي؟ - كان لا بد له من وجه يصب عليه غضبه، فغمغم وهو يبتعد: -.

- Sehr gut; Sehr gut![1].

وجاء خادم ماريا نيقولاييفنا بالعربة في غمضة عين، وكان ينتظرها في الأروقة، فأسرعت إليها، ووثب سانين وراءها، ولما انصفقت أبوابها انفجرت ماريا نيقولاييفنا بالضحك، فسألها سانين:

- لماذا تضحكين؟.

- آخ، سامحني أرجوك... فقد خطر ببالي: ماذا لو دونغوف دعاك إلى مبارزة جديدة... ولكن من أجلي، أليس هذا عجيباً؟.

فسألها سانين:

- هل صلتك به وثيقة جداً؟.

- به؟ بهذا الصبي؟ إنه يأتمر بأمري فلا تقلق.

- لا شيء يقلقني على الإطلاق.

- آخ. أعرف أنك لا تقلق، ولكن اسمع، أتعرف أنك وأنت على مثل هذا اللطف لا بد ألا ترفض لي هذا الطلب الأخير. ولا تنس أنني سأرحل بعد ثلاثة أيام إلى باريس، وستعود أنت إلى فرانكفورت... فمن يعرف متى نلتقي!؟.

- ما هذا الطلب؟.

- يمكنك ولا شك أن تركب الخيل؟.

- نعم يمكنني.

- وإذن سآخذك معي، ونذهب غداً في الصباح الباكر إلى ضاحية المدينة. ستكون لدينا خيول ممتازة، وحينما نعود سننتهي من القضية ثم... آمين! لا تأخذك الدهشة، ولا تقل لي إن هذه نزوة أو أنني مجنونة، فكل هذا جائز عليّ، ولكن عليك أن تقول فقط: إنني موافق!.

والتفتت ماريا نيقولاييفنا إليه بوجهها والظلام مطبق في داخل العربة ولكن عينيها كانتا تلمعان في هذا الظلام نفسه.

قال سانين وهو يطلق زفرة:

١- طيب جداً! طيب جداً! (بالألمانية في الأصل). - الناشر.

- طيب موافق.

فقالت تشاكسه:

- آخ، إنك تتنهد! ولكن ما المآل: ليس يشكو تعب البدن من يمسك بالرسن[1]. ولكن، لا، فأنت - رجل لطيف، طيب، وإليك يدي اليمنى من غير قفاز، وهي يد العمل، فأمسك بها وصافحها في ثقة. لست أدري أي طرز من النساء أنا، ولكني إنسانة شريفة يمكن التعامل معي.

لم يحسب سانين حساب ما فعل حينما رفع هذه اليد إلى شفتيه، فسحبتها ماريا نيقولايفنا في رفق، وركنت فجأة إلى الصمت واحتفظت بصمتها حتى وقف العربة.

ثم أخذت في النزول من العربة... فما هذا؟ أكان سانين واهماً أم كان على يقين من شعوره بأن شيئاً حاراً سريعاً لذعه في خده؟.

وهمست ماريا نيقولايفنا وهي على درجات السلم:

- إلى الغد!.

سارت مسبلة الجفنين، يتقدمها البواب ذو الحلة المذهبة المقصبة وهو يحمل شمعداناً تضيء فيه أربع شمعات.

- إلى الغد!.

لما عاد سانين إلى غرفته وجد على المائدة رسالة من جيما. فاعتراه الخوف لحظتها، ولكنه عاد من فوره يصطنع الغبطة قناعاً لهذا الخوف تجاه نفسه، كانت الرسالة تنطوي على بضعة اسطر - فقد سرتها «البداية الطيبة» التي استهل بها قضيته، ونصحت له بأن يتذرع بالصبر، وقالت إن كل من في البيت يتمتع بصحة جيدة، وإنهم جميعاً يترقبون عودته ليبتهجوا بها. وجد سانين في هذه الرسالة ما فيها من الجفوة - ولكنه تناول ريشة وورقة... وطرح كل شيء جانباً... - «علام الكتابة؟! سأعود غداً... فقد آن أوان العودة، آن!».

وأسرع إلى الاستلقاء في سريره لعل النوم يسرع إليه فلا بد أن يفكر في

١- مثل شعبي معناه: إذا بدأت أمراً فلا تتراجع عنه. - المترجم.

جيما إذا بقي ساهراً وهو على قدميه، وكان هذا مما... يخجله دون سبب واضح، لقد استيقظ ضميره، ولكنه طمأن نفسه بأن كل شيء سينتهي غداً إلى الأبد، وسينفصل عن هذه المرأة المغامرة إلى الابد، مقتلعاً من ذاكرته كل هذا العبث!...

إن الضعفاء من الناس يستهويهم أن يستعملوا العبارات الطنانة حينما يتحدثون إلى أنفسهم.

- Et puis... Cela ne tire pas à conséquence! [1].

- ٤١ -

هذا ما فكر به سانين حينما اضطجع للنوم. أما ما فكر به في اليوم التالي لما وقفت ماريا نيقولايفنا تدق عليه الباب في استعجال بمقبض سوطها المرجاني، ثم لما رآها على عتبة غرفته وهي تحمل على يدها أذيال ثوب الركوب الأزرق الغامق، وتلملم شعرها الكثيف بقبعة رجالية صغيرة، والوشاح الفوال سارح على كتفها، وابتسامة التحدي في شفتيها وعينيها وفي قسمات وجهها كله - كل ما فكر به وقتذاك - سكت عنه التاريخ.

وصاحت بصوت ممراح:

- هل أنت مستعد؟

فوقف سانين يزرر سترته، ثم تناول قبعته وهو صامت فأرسلت إليه ماريا نيقولايفنا نظرة مضيئة، وأومأت برأسها ثم أسرعت تهبط الدرج راكضة، وقفز هو في أثرها.

كانت ثلاثة جياد تقف في الشارع أمام الباب، إحداها فرس ذهبية شقراء أصيلة، سحنتها مكشرة جافة، وعيناها سوداوان جاحظتان، لها قوائم ظبي، وجسم ضامر، ولكنها جميلة متوقدة مثل النار - وقد أعدت لماريا نيقولايفنا. وأعد لسانين جواد ضخم صعب المراس في لون الغراب الأسحم، ولم يكن فيه ميزة، وكان الجواد الثالث للسائس. قفزت ماريا نيقولايفنا إلى فرسها في خفة، فاختبطت الفرس الأرض بقوائمها، ودارت

١- ولكن هذا... لا يستحق الاهتمام! (بالفرنسية في الأصل). - الناشر.

على نفسها وهي رافعة ذيلها، وناءت بكفلها، ولكن ماريا نيقولاييفنا (وهي فارسة ماهرة!) استوقفتها في مكانها: كان ينبغي لها أن تودع بولوزوف الذي خرج إلى الشرفة بطربوشه الذي لا ينزعه عن رأسه وعباءته المحلولة، ووقف يلوح بمنديل من الباتيسة، من دون ابتسام ولو قليل، بل كان أقرب إلى العبوس. وتسلق سانين جواده، فحيت ماريا نيقولاييفنا السيد بولوزوف بسوطها، وساطت به الفرس في عنقها السوي، فشبت على رجليها ووثبت إلى الأمام، وانطلقت بخطوات مرتاضة، وهي ترتعش بأعصابها جميعاً وتعلك الشكائم، وتعض الهواء، وتنتفض متوفزة، وتنخر؛ وتبعها سانين وهو لا يرفع بصره عن ماريا نيقولاييفنا: كان إيقاع جسمها وهي على صهوة الفرس واثقة رشيقة يبرز الدقة واللين في قوامها الذي احتبسه المشد في ضيق ولكن في حرية. والتفتت برأسها إلى الوراء تدعوه بعينيها فلحق بها وحاذاها، وقالت:

– أرأيت ما أطيب هذا. أقول لك قبل أن نفترق: أنت فاتن – ولن تندم.

كانت تهز رأسها من أعلى إلى أسفل وهي تنطق بهذه الكلمات الأخيرة كأنها ترغب في توكيدها وفي إشعاره بمغزاها.

وقد ظهرت سعيدة إلى حد دهش له سانين، فقد ارتسم في وجهها تعبير رصين مثل الذي يحدث عند الأطفال حيما يكونون راضين... غاية الرضى.

لما بلغت خيولهم اطراف المدينة، انطلقوا بها خبباً على الطريق المرصوف، وكان الجو جميلاً، كأجواء الصيف، والريح تتدفق على الوجوه وتوشوش أو تصفر في الآذان على نحو مستعذب. كانا مغتبطين، يستأثرهما الوعي العارم لحياة الصحة والشباب بما يبدو من حريتهما وخفة حركتهما إلى الأمام، وكان هذا الوعي يزداد نمواً في كل حظة.

وهدأت ماريا نيقولاييفنا فرسها وأرسلتها متمهلة فحذا سانين حذوها، وقالت وهي تزفر زفرة عميقة:

– لا شيء يستحق أن يعاش من أجله سوى هذا: أن تنال ما تريد بعد أن كان يبدو في المستحيل – فتمتع ـــ واغترف من المتع ملء ما تقدر عليه!.

وأمرت بيدها على عنقها بالعرض.

– ولشد ما يعتقد المرء بطيبته حينما يشعر بهذا! انظر... ما أطيبني أنا الآن! حتى ليخالجني الاحساس بأنني أستطيع أن أحتضن العالم، ولكن لا، فليس كل العالم!... لا أريد أن أحتضن هذا – وأشارت بسوطها إلى رجل عجوز في أسمال كان يعبر الطريق – ولكني مستعدة لإسعاده – تناول، خذ – صاحت بالألمانية بصوت عال وقذفت عند قدميه بكيس مملوء بالنقود حتى آخره (لم تكن جزادين النقود معروفة في ذلك الحين) فخبط الكيس الأرض، وتوقف عابر السبيل مذهولاً، فقهقهت ماريا نيقولايفنا، وانطلقت تخب فرسها، فسألها سانين حينما لحق بها:

– هل يبهجك الطراد على هذا النحو؟.

فأوقفت ماريا نيقولايفنا فرسها دفعة واحدة، و لم تتبع وسيلة أخرى في وقفها:

– أردت أن أبتعد عن كلمات الشكر، فمن يشكرني يعكر متعتي، فإني لم أفعل ما فعلت من أجله بل من أجل نفسي، فمن أين له الحق في أن يشكرني؟ عم سألتني، إني لم أسمع.

– سألت... أردت أن أعرف فيم أنت على مثل هذا الابتهاج اليوم؟.

فقالت ماريا نيقولايفنا، وكأنها لم تسمع سؤال سانين، أو لأنها ظنت أن سؤاله لا يحتاج إلى جواب:

– هل تعرف؟ لقد ضقت بهذا السائس الذي يلازمنا ولا يفكر إلا بالوقت الذي سيعود فيه هؤلاء السادة إلى البيت، فكيف السبيل إلى التخلص منه؟ – وسحبت في تعجل مفكرة من جيبها – هل أرسله في رسالة إلى المدينة؟ لا، فإن هذا لا يجدي نفعاً! آ! إليك كيف. ما هذا المكان الذي يواجهنا؟ مشرب؟.

نظر سانين إلى حيث أشارت.

– نعم، يبدو أنه مشرب.

– عظيم، سآمره إذن بأن يتخلف في هذا المشرب ويحتسي البيرة حتى نعود.

- ولكن ما تراه سيفكر؟.

- وماذا يهمنا من هذا؟ إنه لن يفكر، بل سيشرب بيرته ليس غير. هيا بنا يا سانين (كانت المرة الاولى التي تناديه فيها بكنيته المجردة) خبباً إلى الأمام!.

لما وصلا إلى المشرب دعت ماريا نيقولاييفا السائس إليها، وأعلمته بما ينبغي عليه، وكان السائس انكليزياً بأصله وعاداته، فرفع يده بالتحية إلى طرف قبعته وهو صامت، وترجل عن جواده، وسحبه من مقوده.

وقالت ماريا نيقولاييفنا:

- إننا طليقان الآن مثل الطيور، فأين نذهب؟ أشمالاً أم جنوباً أم شرقاً أم غرباً؟ انظر، ألا تراني مثل ملك مجري في يوم تتويجه (وأشارت بطرف سوطها إلى جهات الدنيا الاربع) إنها جميعاً لنا! لا أتعرف: هل ترى أي جبل بديع هناك وأي غابة! هيا إلى هناك! ونجوس خلال الجبال! In die Berge، wo die Freiheit thron[1].

انحرفت بفرسها عن الطريق المعبد، وأخبته في درب ضيق غير مطروق كان يبدو كأنه يقود إلى الجبل، وانطلق سانين في إثرها.

- ٤٢ -

أفضى هذا الدرب بعد قليل إلى طريق تسلكه السابلة، وانتهى أخيراً إلى خندق يقطعه بالعرض، فأشار سانين بالعودة، ولكن ماريا نيقولاييفنا قالت: «لا، بل أريد التصعيد في الجبل، ولنمض قدماً كما تطير الطيور» - وحثت فرسها على اجتياز الخندق، وكذلك اجتازه سانين، وكان فيما يلي الخندق مرج، بدأ جافاً، ثم اصبح رطباً، وما زال حتى صار إلى مستنقعات، كان الماء يرشح فيؤلف واحات شتى، وقد تعمدت ماريا نيقولاييفنا ان تغوص بفرسها في هذه الواحات، وهي لا تفتأ تطلق القهقهات، وتكرر في الحاح: «هيا نتزعرن كالتلاميذ!»، ثم سألت سانين:

- أتعرف ماذا يعني الصيد في العشب المبلول؟.

فأجاب سانين:

١- إلى الجبال حيث الحرية تبسط سلطانها! (بالألمانية في الأصل). - الناشر.

– أعرف.

فتابعت كلامها:

– كان لي عم يصطاد بالكلاب، وكنت أركب معه في فصل الربيع، يا للروعة! وها نحن اولاء معك الآن – خلال الأعشاب المبلولة. ولكن يخطر ببالي: أنك روسي وتريد الزواج من إيطالية. تلك هي مشغلتك إذن. ما هذا؟ أخندق آخر؟ هوب!.

فقفزت الفرس واجتازت، ولكن القبعة سقطت عن رأس ماريا نيقولاييفنا وتبعثرت خصل شعرها عى كتفيها، فلما همّ سانين بأن يترجل عن صهوة جواده ليرفع القبعة، صاحت به: «لا تلمسها، فسألتقطها أنا بالذات»، وانحنت من سرجها، وأخذت القبعة بمقبض سوطها من اذيال الفوال، ورفعتها، ثم وضعتها على رأسها ولكنها لم تلملم شعرها المبعثر، وانطلقت بفرسها من جديد وهي تطلق صيحاتها، وأسرع سانين يخبّ بجواده إلى جنبها، وإلى جنبها كذلك راح يقفز الحفر والحواجز والسواقي، ويتسلق الجبل، ويطير مسرعاً في السفوح وفي شعاب الجبل، ولا يرفع بصره عن وجهها أثناء ذلك كله. ويا لهذا الوجه! كان يبدو كأنه مفتوح على رحبه: فعيناها المنهومتان المضيئتان الوحشيتان مفتوحتان، وشفتاها مفتوحتان، وأنفها مفتوح تعب به الهواء في نهم، وهي تنظر أبداً إلى الأمام، فكأنها تريد أن تمتلك كل ما تراه: الأرض والسماء والشمس والهواء نفسه، ولم تكن آسفة إلا على أمر واحد، وهو أن مخاطر الرحلة كانت قليلة، وأنها قادرة على ان تذللها جميعاً! وصاحت: «سانين، ألا يشبه هذا ما حدث في قصة لينور لبرغر![1] والفارق الوحيد أنك غير ميت – آه؟ غير ميت؟... وأنا على قيد الحياة!» كانت قواها العارمة تضطرم فيها، ولم تعد فارسة تنطلق بجوادها في طراد، بل صبية من بنات الاساطير – نصفها وحش ونصفها إله – وكانت هذه الانحاء الرزينة المؤدبة مدهوشة من هذه العربدة الجامحة التي استباحت حرمتها!.

ثم كبحت ماريا نيقولاييفنا جماح فرسها المزبدة المعفرة، فأخذت الفرس

١– لينورا: قصيدة غنائية للشاعر الألماني بيورغر (١٧٤٧ – ١٧٩٤).

تتمايل تحتها، أما حصان سانين الضخم الثقيل، فكان يلهث بشدة، وسألت ماريا نيقولاييفنا في همسة ذاهلة:

- كيف؟ أليس هذا رائعاً؟.

فأجاب سانين في حفاوة، ودمه يغلي في عروقه:

- رائع!.

- عليك أن تنتظر اذن، فإن الخافي أعظم!.

ومدت يدها، وكان قفازها ممزقاً.

- قلت إني سأذهب بك إلى الغابة فالجبال... وها هي ذي الجبال!.

والواقع أن الأشجار العالية كانت على بعد مئتي خطوة من المكان الذي كانا يطيران في انحائه.

- انظر، هذا هو الطريق - سنتوقف قليلاً، ثم نمضي إلى الأمام. ولكن على رسلنا، فلا بد أن نترك للجوادين فرصة للراحة.

ثم استأنفا السير، ورفعت ماريا نيقولاييفنا شعرها إلى الوراء بحركة قوية، ونظرت في قفازيها، ثم نزعتهما:

- ستفوح من يدي رائحة الجلد، ولكن لا بأس عليك من هذا، آ؟.

ابتسمت ماريا نيقولاييفنا، وابتسم سانين كذلك. فكأن هذا الطراد المسعور قد ختم علاقتهما بالقربى والصداقة، وسألته فجأة:

- كم عمرك؟.

- اثنتان وعشرون سنة.

- أيمكن هذا؟ أنا في الثانية والعشرين أيضاً. انها لسنّ طيبة، ولو جمعنا مقدار عمرك وعمري معاً لبقيت الشيخوخة بعيدة. ما اشد هذا القيظ، هل أنا محمرة؟.

- نعم، مثل لون الأقحوان!.

جففت ماريا نيقولاييفنا وجهها بمنديل.

- حسبنا أن نبلغ الغابة، فهناك سيكون الجو لطيفاً. هذه الغابة القديمة كأنها صديق قديم. هل لك أصدقاء؟.

فكر سانين قليلاً:

– نعم، ولكنهم قلة، وليس لي أصدقاء حقيقيون.

– أما أنا فلي أصدقاء حقيقيون، ولكنهم ليسوا قدماء، وهذا الجواد صديق أيضاً، فانه يحملنا بحرص وترفق. آخ، ما أروع هذه البقعة! هل صحيح أني سأرحل بعد غد إلى باريس؟.

فكرر سانين قائلاً:

– نعم... هل صحيح؟.

– وانت، أفترحل إلى فرانكفورت؟.

– أنا؟ من دون شك، راحل إلى فرانكفورت.

– ليكن فالله معك! ولكن هذا اليوم لنا... لنا... لنا!.

بلغ الجوادان أطراف الغابة ثم ذهبا فيها وظلالها الوارفة العريضة تظلّهما وتحنو عليهما من كل ناحية. وصاحت ماريا نيقولايفنا:

– أوه. هنا أرض الجنة! فلنتوغل يا سانين في أكناف هذه الظلال.

سار الجوادان في هدوء «يتوغلان في الظلال» وهما يتمايلان وينخران قليلاً، وما لبث الطريق ان التف فجأة بهما ممتداً نحو شعب ضيق لا يكاد يسمح بالمرور، وانبعثت رائحة كثيفة آسنة يمتزج فيها عبير البابونج والخطمية وصمغ الصنوبر بعفونة الأوراق الرطبة القديمة، وهبت من شقوق صخرة ضخمة قاتمة رطوبة شديدة، وارتفعت التلال المستديرة على جانب الطريق المكسو بالطحالب الخضراء، وصاحت ماريا نيقولايفنا:

– توقف! فإني أريد أن أستريح بالجلوس قليلاً على هذا المخمل. ساعدني في النزول.

فترجل سانين عن جواده وأسرع إليها، فاعتمدت على كتفه ووثبت إلى الأرض في لمحة، ثم جلست على إحدى التلال المكسوة بالطحالب، ووقف هو إزاءها ممسكاً بمقودي الجوادين.

رفعت إليه عينيها...

– سانين، أتستطيع أن تنسى؟.

فخطر ببال سانين ما كان في العربة... امس...

– أهذا سؤال أم عتاب؟.

– أنا لم أعاتب أحداً في شيء، ولكن هل تؤمن بقوة السحر؟[1].

– كيف؟.

– بالسحر؛ ألا تعرف بماذا يتغنون عندنا في الأغاني الروسية الشعبية؟.

فقال سانين وهو يمد في نطق الحروف:

– آه، عن هذا تتكلمين إذن.

– نعم، عن هذا، فإنني أؤمن به... وستؤمن به أنت، فكرر سانين:

– السحر... كل شيء ممكن في العالم. لم أكن أؤمن بذلك من قبل، ولكني أؤمن به الآن، فقد أصبحت لا أعرف نفسي.

وسرحت ماريا نيقولايفنا مع أفكارها ثم التفتت إلى وراء:

– يخيل إليّ أنني أعرف هذه البقعة، انظر، يا سانين، ألا يرتفع وراء هذه البلوطة العريضة صليب أحمر من الخشب؟.

سار سانين بضع خطوات في كل ناحية.

– نعم، يرتفع.

فابتسمت ماريا نيقولايفنا.

– آه، طيب فأنا أعرف أين نحن، لمّا نضل طريقنا بعد. ما هذا الطريق؟ أهناك حطاب؟.

نظر سانين في الدغل الكثيف.

– نعم... هناك رجل يقلم الفروع اليابسة.

فقالت ماريا نيقولايفنا:

– يجب أن أرتب شعري، وإلا يتهمني إذا رآني... وحسرت قبعتها عن رأسها، أخذت ترتب شعرها الطويل وقد ران عليها صمت وقور. وكان سانين يقف قدامها، وأعضاؤها المتناسقة ترتسم واضحة من خلال ثنيات ثوبها الغامق الذي اعتلقت بعض أجزائه ألياف الطحالب.

١– المقصود هنا اجتذاب المحبوب بأعمال السحر. – المترجم.

وانتفض أحد الجوادين على حين غرة من خلف سانين... فإذا الرعشة تسري فيه من رأسه إلى قدميه، واختلط في ذهنه كل شيء، وتوترت أعصابه مثل الوتر، لم يكن عبثاً قوله بأنه أصبح لا يعرف نفسه... فقد كان مسحوراً بالفعل. كل وجوده كان ممتلئاً بأمر واحد... بفكرة واحدة، برغبة واحدة. وأرسلت إليه ماريا نيقولايفنا نظرة فاحصة، ثم قالت وهي تلبس قبعتها:

– وإذن. كل شيء على ما ينبغي الآن – ألا تريد أن تجلس؟ ها هنا! لا، بل أنتظر لا تجلس! فما هذا؟.

ترددت في أعالي الأشجار وفي رحاب الغابة هزة صماء.

– أليس هذا رعداً؟.

فأجاب سانين:

– يبدو أن هذا رعد.

– آخ، إنه لعيد! عيد حقيقي! لم يكن ينقصه إلا هذا! وعاد الهدير الاصم يدوي مرة ثانية، وارتفع إلى أعلى ثم انقض منفجراً قاصفاً.

– برافو! Bis تذكر انني حدثتك عن الأنياذة امس! فانهما قد رضخا أيضاً لعاصفة في غابة – ولكن لا بد لنا ان نتزحزح.

وهبّت واقفة على قدميها.

– قرب الفرس مني... وهيئ راحة يدك، نعم كذلك، فما أنا بالعبء الثقيل.

وقفزت مثل الطائر وحطت على السرج، وامتطى سانين أيضاً صهوة الجواد، ثم سألها بصوت غير واثق:

أتعودين إلى المنزل؟

فقالت تمط الكلمات:

– إلى المنزل؟؟.

ولملمت بيديها لجام الفرس، وقالت له بلهجة آمرة لا تخلو من خشونة:

ـ اتبعني.

مضت بجوادها في الطريق ، فجازت بالصليب الخشبي الأحمر، وانحدرت في السفح فبلغت المفترق، فانعطفت إلى اليمين نحو الجبل مرة ثانية... كانت فيما تبدو تعرف إلى أين يفضي هذا الطريق. وغاص هذا الطريق في جوف الغابة ومضى يتعمق فيها، وهي لا تنطق بكلمة، ولا تلقي بنظرة ، بل كانت مندفعة إلى الأمام في اعتداد الآمر وهو في أثرها طائع مذعن، لا ينقدح من قلبه المتجمد ولو شرارة من الإرادة. وبدأ المطر يرش، فاستحثت فرسها، و لم يتلكأ هو بل كان الحافر على الحافر. وأخيراً برز من خلال الخضرة المظلمة، من بين أغصان شجرة شوح ، فوق طنف صخرة رمادية كوخ حقير للحراسة له باب واطئ في حائطه المضفور من القش فدفعت ماريا نيقولايفنا فرسها يشق الطريق بين الأغصان المتواشجة، ثم ترجلت عنه، فإذا هي فجأة أمام باب الكوخ، فاستدارت عائدة إلى سانين، وهمست إليه:

أنياذ؟

بعد اربع ساعات عادت ماريا نيقولايفنا وسانين ومعهما السائس يهوّم على سرج الجواد إلى الفندق في فيسبادن ، فاستقبل السيد بولوزوف حرمه وفي يده الرسالة التي كتبها إلى الوكيل. لما أرسل إليها نظرته الفاحصة عبّر وجهه عن شيء من الزعل ، بل لقد غمغم أيضاً: هل تراني خسرت الرهان؟

فهزت ماريا نيقولايفنا كتفيها وليس غير.

في اليوم نفسه ، بعد انقضاء ساعتين، كان سانين يقف أمامها في غرفته وهو مثل الضائع الهالك... فسألته:

- إلى أين سترحل؟ أإلى باريس أم إلى فرانكفورت؟ فأجاب في قنوط:

- أنا ذاهب إلى حيث تذهبين، وما لم تنبذيني فسأبقى معك. وارتمى على يدي مولاته، فحررت يديها ووضعتهما على رأسه، واستجمعت شعره بأصابعها العشرة، وأخذت تعبث بهذه الخصل الطيّعة في بطء وتخوتمها... وقد انتصبت كلها جملة، وتأفعى الابتهاج في شفتيها، وعشمت عيناها الواسعتان فليس فيهما سوى معنى أوحد يعبّر عن غباء القسوة وشبع الانتصار. وللباشق مثل هاتين العينين وهو ينشب مخالبه في طائر.

هذا ما تذكره ديميتري سانين في غرفته الهادئة لما وجد الصليب من العقيق الأحمر وهو يقلب في أوراقه القديمة. كل ما رويناه من الأحداث كان يتتابع واضحاً جلياً أمام بصيرته... ولكنه لما بلغ تلك الدقيقة التي أخذ يتحدث فيها إلى السيدة بولوزوفا في ابتهال مهين وهو راكع عند قدميها حيث بدأت عبوديته - اشاح عن تلك الذكريات التي ابتعثها لأنه لم يشأ أن يستزيد منها. إن ذاكرته لم تخنه - لا! فقد كان يعرف، و لم يغب عنه شيء مما حدث في أعقاب تلك الدقيقة، ولكن العار يختنقه حتى بعد انقضاء هذه السنوات الطويلة. فكان يخشى هذا الشعور الطاغي من احتقار النفس، ولا شك في أن هذا الشعور لا بد أن ينصب عليه كالموجة فيغمره ويغرقه ويمحو كل ما عداه من المشاعر إذا لم يزجر ذكرياته ويأمرها بالصمت. ولكنه كلما حاول التخلص من شعوره هذا وجد نفسه عاجزاً عن كبت هذه الذكريات. فقد تذكر تلك الرسالة المهينة الدامعة الحقيرة التي أرسلها إلى جيما. وبقيت خطاباً من غير جواب... أما الذهاب إليها بعد هذا الكذب، والعودة إليها بعد هذه الخيانة - فلا! لا! فلا تزال فيه بقية باقية من الضمير والشرف. ثم إنه لم يجرؤ على التكفل بشيء بعد أن فقد ثقته بنفسه واحترامه لها. وتذكر سانين أيضاً - ويا للعار! - كيف ارسل خادم بولوزوف بعدئذ ليعود إليه بثيابه من فرانكفورت، وكيف جبن فلم يفكر إلا بأمر واحد، وهو الرحيل بسرعة إلى باريس... إلى باريس؛ وكيف أخذ يتودد إلى ايبوليت سيدوريتش بناء على أمر ماريا نيقولايفنا، ويجامل دونغوف الذي كان في إصبعه خاتم حديدي لا يختلف عن الخاتم الذي اعطته اياه ماريا نيقولايفنا!!! ثم تدفقت عليه الذكريات وهي أحفل بالسوء وادعى إلى العار. فتذكر بطاقة الزيارة التي حملها إليه الخادم وعليها اسم بانتاليوني تشيباتولا مغني بلاط صاحب السمو دوق مودينا! لقد راغ عن الشيخ وقتئذ، ولكنه لم يجد محيصاً عنه لما التقاه في الممر. كان يقف أمامه بوجهه الغاضب تحت غرته الشائبة المرفوعة إلى أعلى، وعيناه اللتان اذبلتهما الشيخوخة تتوهجان مثل الجمر،

وهو يصب في سمعه صرخاته الهادرة باللعنات Maledizione [1] بل لقد أسمعه مثل هذه الكلمات الرهيبة: Codardo; Infame traditore [2]
أغمض سانين عينيه، ونفض رأسه يذود عن خاطره هذه الذكريات واحدة بعد واحدة، ومع هذا فقد تذكر تلك الجلسة التي انحشك بها في موضع ضيق من المقعد الأمامي... وفي الصدر، حيث الموضع المريح، جلست ماريا نيقولايفنا وايبوليت سيدوريتش - والجياد الأربعة تطلق خبباً في سرعة ويسر إلى باريس، إلى باريس! وايبوليت سيدوريتش يأكل اجاصة قشرها له هو، سانين، أما ماريا نيقولايفنا فكانت تنظر إليه، وتبتسم ساخرة منه، من الرجل المستعبد الذي ألف هذه الابتسامة من مالكته المسيطرة عليه...

ولكن يا إلهي! من كان هنالك عند زاوية الطريق في موضع غير بعيد عن نهاية المدينة - أليس هذا بانتاليوني؟ ومن هذا الذي معه؟ أيكون اميليو؟ نعم آه هو، هذا الفتى الذي يفيض بالحماسة والإخلاص! وكان قلبه حتى وقت قريب يفيض بالإجلال تجاه بطله المفضل ومثله الأعلى - أما الآن فإن هذا الوجه الشاحب الجميل الذي استلفت جماله عيني ماريا نيقولايفنا وحملها على أن تمد رأسها من نافذة العربة - كان هذا الوجه النبيل يشتعل غيظاً واحتقاراً، وكانت عيناه الشبيهتان بتلك العيون! - تشزران سانين، وشفتاه تنطبقان على غيظ... ثم انفرجتا فجأة على ما يكره من القول!...

أما بانتاليوني فقد مد يده يشير إلى سانين، فمن راح يلفت بهذه الإشارة؟ الكلب البوديل تارتاليا الذي كان واقفاً إلى جانبه، فانطلق تارتاليا ينبح على سانين - وحتى هذا النباح الذي أطلقه الكلب الأمين كان يرن مثل إهانة لا تحتمل... فظاعة!.

ثم - الحياة في باريس حيث لقي من صنوف الاذلال والتحقير ما يلقاه العبد الذليل الذي لا يسمح له بأن يغار ولا بأن يندم، على ان يرمى في النهاية كما الثوب الرث.

ثم العودة إلى الوطن، والحياة الموبوءة الفارغة، والمتاعب الغثة، والمشاغل

١- أيها الملعون! (بالايطالية في الأصل). -الناشر.

٢- جبان! غدار دنيّ! (بالايطالية في الأصل). - الناشر.

التافهة، والندم المر الذي لا جدوى فيه، والنسيان المر الذي لا جدوى فيه أيضاً، كان كل هذا عقاباً غير بيّن، ولكنه قائم دائم في كل لحظة، فكأنه داء ضئيلِ الوزن والخطر ولكنه داء عضال لا يرجى له شفاء. وكان هذا جميعاً سداداً بالكوبيك بعد الكوبيك لمقدار من الدين لا يعد ولا يحصر...

لقد امتلأت الكأس بما كفى وزاد!.

ولكن كيف سلم هذا الصليب الذي اعطيه سانين من جيما، وعلام لم يرده إليها، ولماذا لم يصادفه ولو مرة قبل اليوم؟ لقد جلس يفكر، واستغرقه التفكر وقتاً طويلاً، فكان يستغلق عليه هو، الذي علمته الحياة والسنون العديدة، ان يفسر كيف استطاع أن يهجر جيما التي أحبها في قوة ورقة من أجل امرأة لم يحبها على الإطلاق؟... في اليوم التالي أدهش أصدقاءه ومعارفه جميعاً حين اعلنهم انه راحل إلى الخارج.

وساد الذهول في المجتمع لما شاع ان سانين غادر بطرسبورغ خلال الشتاء، وقد حدث هذا بعد أن استأجر منزلاً وفرشه بأثاث رائع، واحتجز مكاناً لموسم الأوبرا الإيطالية الذي تسهم فيه السيدة باتي[1] بالذات - نعم السيدة باتي نفسها بالذات وليس غيرها! لقد ذهل الأصدقاء والمعارف، ولكن الناس أكثرهم ليس من طبعهم أن يشغلوا بالهم وقتاً طويلاً بما لا يعنيهم من شؤون الغير، فلما كان سانين بسبيله إلى السفر لم يجئه من المودعين إلى محطة القطار سوى خياط ملابسه، وهو فرنسي، ولم يجئ هذا إلا آملاً في الحصول على المتبقي من أجرته - pour un saute-en- barque en velours noir، tout à fait chic[2].

- ٤٤ -

قال سانين لأصدقائه إنه مسافر إلى الخارج، ولكنه لم ينبئهم بوجهة سفره على التحديد، وقد حزر القراء في يسر أنه مسافر قاصداً فرانكفورت،

١- قامت بجولات فنية في الكثير من أقطار أوروبا في الستينات. وفي موسم ١٨٧٠ - ١٨٧١ غنت في أوبرا إيطاليا في بطرسبورغ.

٢- «عن سترة بحرية من المخمل الأسود على آخر طرز» ــ (بالفرنسية في الأصل). - الناشر.

وبفضل انتشار السكك الحديدية في كل مكان وصل إليها في اليوم الرابع لارتحاله عن بطرسبورغ، ولم يكن قد زارها منذ سنة ١٨٤٠. وجد فندق «البجعة البيضاء» لا يزال في موضعه القديم، عامراً بالحركة، ولكنه لم يعد من فنادق الدرجة الأولى، وشارع فرانكفورت الرئيسي «تسييل» تغير قليلاً، أما الموضع الذي كانت فيه دار السيدة روزيللي، وكل الشارع الذي كان فيه دكان الحلويات فقد زال ولم يبق له أثر. ذهب سانين يتمشى في الشارع وهو ذاهل، فالأماكن المعروفة في حينها لم يعرف منها شيئاً: زالت الأبنية القديمة، واستقامت شوارع جديدة، وقامت في هذه الشوارع بنايات ضخمة لا نهاية لها، ودارات بديعة، بل حتى الحديقة العامة التي شهدت نجاوى المكاشفة بينه وبين جيما، نمت أشجارها كثيراً، وتغير تغيراً حدا سانين إلى مساءلة نفسه – هل هذه الحديقة هي تلك؟ فماذا كان عليه ان يفعل؟ كيف يستخبر وأين؟ ثلاثون سنة مضت حتى الآن... فليست المهمة يسيرة! كل الذين استعملهم لم يكن فيهم حتى من سمع باسم روزيللي. ثم أشار عليه صاحب الفندق بأن يراجع المكتبة العامة في الامر: فقد يعثر هناك على كل الجرائد القديمة، أما الفائدة التي سيجنيها من هذا، فإن صاحب الفندق لم يستطع أن يأتي بإيضاح عنها. واضطر سانين وهو في بحران القنوط أن يسأل عن أنباء السيد كلوبير، فكان صاحب الفندق يعرف هذا الاسم كل المعرفة، وهنا موضع الخيبة، فإن التاجر الأنيق الرشيق تبحبح وترحرح حتى صار من اصحاب رؤوس المال – ولكنه خسر وافلس – ومات في السجن... وقد سمع سانين هذه الأنباء دون ان تتحرك فيه نأمة من الأسى. ثم انتهى إلى أن رحلته كانت بعيدة عن الأناة... ولكن المصادفة أوقعته وهو يقلب ذات مرة في دليل فرانكفورت على اسم المقدم المتقاعد فون دونغوف (Major a. D.)، فقام من فوره يقصد إليه في عربة – أما لماذا اقتضى أن يكون دنغوف هذا هو دونغوف ذاك، أو لماذا وجب أن يفيده ذاك الدونغوف بشيء من المعلومات عن أسرة روزيللي؟ فالأمر عنده سواء، والغريق يتعلق بقشة.

وجد سانين المقدم المتقاعد فون دونغوف في بيته حيث استقبله سيد أشيب عرف فيه من فوره خصمه القديم، وعرفه هذا أيضاً، فكان مغتبطاً بهذا اللقاء: فقد ذكره بعهد الشباب ومجون الشباب. وسمع سانين منه أن

أسرة روزيللي رحلت إلى أميركا منذ زمن بعيد وسكنت نيويورك، وأن جيما تزوجت من تاجر، ولكن دونغوف له صديق من رجال الاعمال يعرف عنوان زوجها لأنه على علاقات واسعة بأميركا - فرجا سانين إلى دونغوف أن يذهب إلى هذا الرجل الذي يعرفه، ثم - ويا للسعادة! فقد عاد دونغوف يحمل إليه عنوان زوجها وهو: السيد جيرو سلوكوم، M- r J.Slocum، New- York، Broadway، No. 501 [1]، ولكن هذا العنوان يعود تاريخه إلى سنة ١٨٦٣.

وهتف دونغوف:

- سنبقى على أمل في أن حسناءنا الفرانكفورتية السابقة لا تزال تتمتع بالحياة، ولم ترحل عن نيويورك! وبهذه المناسبة - غمغم قائلاً بصوت خافت: ما حال تلك السيدة الروسية، هل تذكر، كانت وقتذاك نزيلة فيسبادن - السيدة فون بو... فون بوزولوف - ألا تزال حية؟.

أجاب سانين:

- لا، فقد ماتت منذ وقت بعيد.

رفع دونغوف عينيه - ولما لاحظ ان سانين يستدير بوجهه عابساً - ابتعد دون ان يزيد كلمة.

أرسل سانين في اليوم نفسه رسالة إلى السيدة جيما سلوكوم في نيويورك، وقال في هذه الرسالة إنه يكتب إليها من فرانكفورت حيث جاء ليستقصي آثارها فقط، وهو يعلم كل العلم أنه محروم من أي حق يستأديها جواباً على رسالته، فانه لم يفعل شيئاً يستحق من اجله غفرانها - ولكنه يرجو أن تكون في حال من السعادة أنستها وجوده منذ وقت بعيد. وأضاف أنه اعتزم أن يذكرها بنفسه أثر مناسبة عرضت له فأيقظت فيه صوراً من الماضي فياضة بالحياة، وحدثها بحديث حياته التي اقفرت من الانيس والعشير والزوج والسعادة، وناشدها أن تقدر الدافع الذي دفعه إلى هذا الخطاب، وإلا تدعه مثقلاً بذنبه حتى يحمل إلى مثواه الأخير - وهو

١- السيد جيروم سلوكوم، نيويورك، برودواي، رقم ٥٠١. (بالانكليزية في الأصل). - الناشر.

ذنب على تقادم عهده لم يغفر، وأن تسر خاطره ولو بقبس من البشرى عن حياتها في هذه الدنيا الجديدة التي هاجرت إليها. وختم رسالته قائلاً: «لئن كتبت ولو كلمة واحدة، فإن صنيعك الطيب سيكون جديراً بروحك النبيلة، وسأذكره لك بالامتنان حتى النفس الأخير. سأتريث هنا في فندق «البجعة البيضاء» (أكد هذه العبارة بوضع خط تحتها) وسأبقى حتى الربيع منتظراً جوابك».

بعث بهذه الرسالة ومكث على انتظار. أقام في الفندق ستة أسابيع يكاد لا يبرح غرفته، لم يقابل أحداً على الإطلاق، وليس في مقدرة أحد أن يكتب إليه لا من روسيا ولا من غيرها، وقد صادف هذا هوى في نفسه فان أي رسالة ترد إليه ستكون أشعاراً له بأنها الرسالة المنتظرة. كان يقرأ من الصباح حتى المساء، ولم يقرأ الجرائد، بل أكب على المطالعة الرصينة في كتب الأبحاث التاريخية، وكان هذا الانقطاع إلى القراءة، والانقطاع عن الناس، والانطواء في هذه الحياة المغلقة مما يلائم حالته النفسية، والفضل في هذا يعود كله إلى جيما! ولكن أتراها لا تزال على قيد الحياة؟ أتراها ستبعث بجواب؟.

وجاء الجواب في نهاية المطاف إلى اسمه من نيويورك وعليه طابع بريد أميركي، وكان خط العنوان انكليزياً... فلم يعرفه، واغتم قلبه، فتلبث لا يفض الرسالة دفعة واحدة، ثم رأى إلى التوقيع: جيما! فطفرت الدموع من عينيه: كان توقيعها بالاسم من دون اللقب دليلاً على أنه ضمن التسامح والمغفرة! ونشر ورقة رقيقة زرقاء من أوراق الرسائل البريدية، فانزلقت منها صورة فوتوغرافية، ويا لذهوله حينما أسرع يتناولها فإذا: جيما بملء حياتها وشبابها كما عرفها قبل ثلاثين سنة، بعينيها، وشفتيها، وقسمات وجهها! وعلى ظهر الصورة هذه الكلمة: «ابنتي ماريانا». وكانت الرسالة جميعاً في غاية الرقة والبساطة. شكرت جيما لسانين انه لم يتردد في الكتابة إليها، وأنه محضها الثقة، ولم تخف عليه أنها عاشت بعد ارتحاله لحظات قاسية، وأضافت إلى هذا أنها اعتقدت ولا تزال على هذا الاعتقاد – بأن لقاءها به كان سبيلها إلى السعادة – فإن هذا اللقاء حال دون زواجها من السيد كلوبير، وعلى ذلك كان سبباً، ولو غير مباشر، للاقتران بزوجها

الحالي الذي تعيش معه ٢٨ سنة سعيدة رغيدة موفورة، وأن بيتها معروف في نيويورك كافة.

وأنبأت جيما سانين بأن أولادها خمسة، بينهم أربعة أبناء، والبنت في الثامنة عشرة من عمرها، مخطوبة، وهي صاحبة الصورة، التي ترسلها إليه - لأنها على ما يقال كثيرة الشبه بأمها. أما الأنباء المحزنة فإن جيما أمسكت عنها حتى نهاية الرسالة. فقد ماتت فراو لينوري في نيويورك حيث لحقت بابنتها وصهرها - ولكنها عاشت حتى سعدت بالأولاد ودللت الأحفاد، وكان بانتاليوني يتهيأ أيضاً للانتقال إلى أميركا، ولكنه مات قبل أن يغادر فرانكفورت. «أما ايميليو، حبيبنا ايميليو الوحيد الفريد، فقد استشهد في صقلية حيث التحق بفصائل «الالف» التي قادها غاريبالدي[1] وكان موته المجيد في سبيل حرية الوطن. لقد بكينا الشقيق الغالي بالدمع السخين، ولكننا مع فجيعتنا بفقده، كنا فخورين به، وسنبقى به فخورين نقدس ذكراه على مدى الحياة! فإن روحه الابية النزيهة لجديرة بهالة الشهداء!». ثم عبرت جيما عن أسفها لما يبدو من التعاسة التي آلت إليها حياة سانين، وتمنت له الاستقرار وهدوء النفس قبل كل شيء، وقالت أن لقاءه من دواعي غبطتها على الرغم من علمها أن الرجاء في تحقيق مثل هذا اللقاء ضعيف...

ولن نقدم على وصف الشعور الذي امتحن به سانين أثناء قراءته هذه الرسالة، فليس لمثل هذا الشعور ما يلائمه من التعبير: أنه بعمقه وقوته اخفى على كل تعبير، والموسيقى وحدها هي التي تستطيع ان تعبر عنه.

أجاب سانين من فوره - وكانت الهدية التي أرسلها باسم «صديق مجهول» إلى الصبية المخطوبة «ماريانا سلوكم» صليباً من العقيق الأحمر مطعماً باللآلئ الثمينة الباهرة، ولم تبهظه هذه الهدية على الرغم من ثمنها الباهظ فقد استطاع في بحر السنوات الثلاثين التي تعاقبت بعد سيرته الأولى

١- يشير تورغنيف إلى حدث من النضال في سبيل تحرير إيطاليا الوطني ـــ وهي الحملة المظفرة لفصيلة من ألف شخص (ذوي القمصان الحمر) بقيادة جوزيف غاريبالدي (١٨٦٠).

في فرانكفورت أن يجني ثروة لا بأس بها. وفي شهر مايو عاد إلى بطرسبورغ وقد لا يكون لوقت طويل، فقد شاع وذاع إنه يبيع ضياعه جميعاً ليرحل إلى أميركا.

١٨٧٢

الحلم
قصة[1]

- ١ -

آنذاك كنت أعيش مع أمي في مدينة ساحلية صغيرة. وقد تخطيت السابعة عشرة من العمر، بينما لم تكن أمي قد بلغت الخامسة والثلاثين، فقد تزوجت في صباها المبكر. وحين توفي والدي كنت في السابعة، غير إنني أتذكره جيداً. كانت أمي امرأة متوسطة القامة، شقراء الشعر لها وجه فاتن ولكنه حزين دائماً، وصوت هادئ متعب، وحركات متهيبة. في شبابها كانت معروفة بجمالها، وبقيت، حتى النهاية، جذابة ولطيفة. وأنا لم أرَ عينين

١- الحلم: تنفرد «الحلم» وحدها من بين الروايات القصيرة التي كتبها تورغينيف في السبعينات، وهي بمثابة تجربة ادبية من نوع خاص.

نشرت لأول مرة في مجلة «نوفويه فريما» عام ١٨٧٧، ١و٢ كانون الثاني في العددين ٣٠٣ و٣٠٤.

وكان تورغينيف ينظر إلى عمله هذا كشيء لا يستحق الاهتمام: «قصة صغيرة شبه خيالية»، «قطعة صغيرة فارغة كثيراً في جوهرها...».

في هذه القصة يتحاشى الكاتب تحديد الزمان والمكان، اللذين كان في العادة يشبع بهما رواياته بعناية.

وقد اعتبر النقد الروسي المعاصر لتورغينيف أن «الحلم» «مرويّة بنصاعة تامة» وأن فيها «عصبية، والشفافية شبه الخيالية، إذا صح التعبير، وذلك ما يلائم محتواها غير الاعتيادي نوعاً». ومن الممكن أن تكون تجربة تورغينيف الفنية هذه مرتبطة بنزعات فترة الاخيرة من ابداعه، وهي السعي إلى النفاذ إلى أسرار وألغاز الحياة الإنسانية، في ميدان اللاوعي والغريزي.

أعمق وأرق وأشجن من عينيها، ولا شعراً أكثر نعومة وسلاسة من شعرها، ولا يدين أكثر رشاقة من يديها، كنت اعبدها، وكانت تحبني... غير أن حياتنا كانت خالية من البهجة، وكأن بلية خفية، عضال، مجحفة كانت تفتت كيانها من الجذور وباستمرار. و لم تكن هذه البلية تعود إلى حزن أمي على أبي فقط، رغم شدة فجيعتها به، وعظيم حبها له، وقدسية ولائها لذكراه... لا! فقد كان هناك شيء آخر مخفي لم أكن أفهمه، وإن كنت أشعر به، أشعر في غموض وقوة، حالما كنت انظر إلى عينيها الوديعتين الجامدتين، وشفتيها الجميلتين، الجامدتين أيضاً، اللتين لم تكونا مزمومتين بمرارة بل كالمتيبستين إلى الأبد.

قلت أن أمي كانت تحبني إلا أنها كانت تقصيني عنها في بعض اللحظات، وكأن وجودي يضايقها، فلا تطيقه. في مثل تلك اللحظات كان يعتريها ما يشبه النفور اللاإرادي مني، وبعدها كان الرعب يتملكها، فتذرف دموع الندم، وتضمني إلى موضع القلب من صدرها. كنت أعزو هذه النوبات الخاطفة من الكراهية إلى اعتلال صحتها، وإلى فجيعتها... والحق كان من الممكن أن تعزى هذه المشاعر العدائية، لدرجة معينة، إلى تلك السورات الغريبة، غير المفهومة لنفسي، من الأحاسيس الخبيثة والمجرمة، تلك التي كانت تنتابني بين الحين والآخر... ولكن هذه السورات لم تكن تتزامن مع لحظات النفور تلك.

كانت ملابس أمي سوداء دائماً، وكأنها في حداد. وكنا نعيش حياة ميسورة بما فيه الكفاية، رغم أننا لم نكن نعاشر أي إنسان تقريباً.

- ٢ -

كانت أمي تركز كل أفكارها واهتماماتها عليَّ. فقد اندمجت حياتها في حياتي. ومثل هذا النوع من العلاقات بين الوالدين والأبناء ليس دائماً في منفعة الأبناء... فهي، على الأكثر، مضرة. وفضلاً عن ذلك كنت الوحيد لأمي... ومثل هؤلاء من الابناء لا ينمون في معظم الأحيان النمو السليم. والآباء حين يربونهم يهتمون بأنفسهم بقدر ما يهتمون بهم... وهذا غير صحيح. لم أكن أتدلل ولا أغلظ (وهذا وذاك يحدث للأولاد الوحيدين). ولكن أعصابي انهارت قبل الأوان. وفي الوقت ذاته كنت ضعيف البنية

كثيراً، مثل أمي التي كنت كثير الشبه بها في الوجه أيضاً. وكنت أتحاشى صحبة لداتي، وابتعد عن الناس عموماً، كما كنت قليل الحديث حتى مع أمي. وكانت القراءة، والنزهة وحيداً، والاستغراق في الاحلام أحب الأشياء إلي! ومن الصعب أن أقول فيم كنت احلم حقاً، كنت في بعض الأحيان، اتخيل نفسي واقفاً أمام باب نصف مغلق، تختفي وراءه أسرار خفية. اظل واقفاً انتظر، ذائباً، وأفكر طوال الوقت، - دون أن اتخطى العتبة - ترى، أي شيء هناك وراء الباب، وأظل أنتظر وأجمد... أو أستغرق في النوم. ولو كان في قلبي عرق شاعري، لأخذت انظم الشعر في الغالب ولو كنت أشعر بميل إلى التقوى، لصرت راهباً ولكن لم يكن لي شيء من هذا، فمضيت أحلم... وأنتظر.

- ٣ -

تذكرت الآن كيف كنت أستغرق في النوم أحياناً تحت تأثير أفكار واحلام غير واضحة. وعلى العموم كنت أنام كثيراً، وكانت الأحلام تلعب في حياتي دوراً كبيراً، وكنت ارى الأحلام كل ليلة تقريباً. ولم أكن أنساها، وكنت أوليها مغزى، وأعتبرها تشير إلى أشياء مقبلة، محاولاً أن أفك معناها الخفي، وكان بعضها يتكرر من وقت إلى آخر، وهو أمر كان يبدو لي دائماً مدهشاً وغريباً. حيرني بشكل خاص حلم رأيت فيه أنني أسير في شارع ضيق سيئ التبليط في مدينة قديمة، بين بيوت حجرية متعددة الطوابق مدببة السقوف. وأنا أفتش عن أبي الذي لم يمت، ولكنه يختفي عنا، لسبب ما، ويعيش في أحد هذه البيوت بالذات. وها أنا ادخل بوابة واطئة معتمة، واجتاز فناء طويلاً، تتناثر فيه الروافد والألواح، وأدلف، أخيراً، إلى حجرة صغيرة ذات نافذتين مستديرتين، وفي وسط الحجرة يقف أبي في روب بيتي، يدخن الغليون. وهو لا يشبه أبي الحقيقي مطلقاً. فهو طويل القامة نحيل العود، أسود مقوّس الأنف، عيناه عابستان نفّاذتان يبدو في الأربعين من العمر. إنني مستاء من عثوري عليه، كما أنني لم أكن مسروراً من لقائنا البتة، فأقف حيران. ويشيح أبي عني قليلاً، ويهمهم بشيء، ويروح ويجيء بخطوات قصيرة... ثم يتراجع شيئاً فشيئاً، وهو مستمر بالهمهمة، ومن حين إلى آخر ينظر إلى الوراء، من فوق كتفه، وتتسع الحجرة، ويغمرها

الضباب... ويتملكني الرعب فجأة، حين أفكر في أنني سأفقد أبي ثانية، فأندفع وراءه، ولكنني لم أعد أراه، ولا أسمع غير همهمته الغاضبة، الشبيهة بهمهمة الدب... ويجمد قلبي في صدري، فأستيقظ، وأظل وقتاً طويلاً لا يراودني النوم... وطوال اليوم التالي افكر في هذا الحلم، ولكن دون أن أصل إلى نتيجة، بالطبع.

- ٤ -

حلَّ شهر حزيران. وفي مثل هذا الوقت كانت المدينة التي أعيش فيها مع أمي تكتسب حيوية غير اعتيادية. كان المرفأ يحفل بعدد كبير من السفن، والشوارع تشهد عدداً كبيراً من الوجوه الجديدة. عندئذ كنت أحب التجوال في الشارع الساحلي، ماراً بالمقاهي والفنادق، والتمعن في القيافات المختلفة للبحارة والناس الآخرين الجالسين تحت ظليلات الخيش إلى طاولات صغيرة بيضاء، وأمامهم أقداح قصديرية مملوءة بالبيرة.

وفي إحدى المرات، بينما كنت أمر أمام مقهى وقع بصري على رجل أثار كل اهتمامي في الحال. كان يرتدي جلباباً أسود طويلاً، وقبعة من القش مسرَّحة إلى عينيه، ويجلس بلا حراك وقد طوى ذراعيه على صدره، وكانت خصلات حلزونية خفيفة من شعره الأسود تتدلى وتكاد تمس أنفه، وشفتاه الرقيقتان تصكان على أنبوبة غليونه القصير. وقد بدا لي هذا الرجل مألوفاً لي، وكل قسمة من قسمات وجهه الأسمر الأصفر، وكحل هيئته مطبوعة في ذاكرتي دون شائبة من شك، حتى أنني لم أستطع إلا أن اتوقف أمامه، وأسأل نفسي: مَنْ هذا الرجل؟ وأين رأيته؟ ولعله شعر بتحديقتي، فصوَّب إليّ عينيه السوداوين الواخزتين... وتأوهت لا إرادياً...

لقد كان هذا الرجل هو الأب الذي كنت أبحث عنه، والذي رأيته في الحلم!.

ما من مجال للخطأ، فقد كان الشبه مذهلاً تماماً وحتى ذلك الجلباب الطويل الذي يسربل أوصاله النحيلة كان يشبه باللون والتفصيل ذلك الروب الذي ظهر فيه أبي في حلمي.

ورحت أقول لنفسي: «ألعلي نائم؟»... لا... الآن نهار، وجموع الناس

تضج فيما حولي، والشمس تشع ساطعة من السماء الزرقاء، وأمامي إنسان حي، وليس طيفاً.

دنوت من طاولة شاغرة، وطلبت لنفسي قدح بيرة، وجريدة، وجلست غير بعيد من هذا المخلوق الغامض.

- ٥ -

وضعت الجريدة في مستوى وجهي، ومضيت ألتهم الغريب بعيني. لم يتحرك تقريباً سوى أنه كان يرفع قليلاً رأسه المنكس من حين إلى آخر. والظاهر أنه كان ينتظر أحداً. كنت انظر وأنظر... وكان يبدو لي في بعض الأحيان أن كل ذلك من صنع الوهم، ولا يوجد أي شبه على الإطلاق، وأنني أسير خداع شبه لا أرادي لمخيلتي... إلا أن «ذاك» ما إن يستدير على المقعد قليلاً، أو يرفع ذراعيه بعض الشيء حتى تكاد تفلت مني آهة مرة أخرى، وأجد أمامي من جديد أبي «الليلي»!.

وأخيراً لحظ الرجل انتباهي الملحاح، فنظر إلى ناحيتي في حيرة أول الأمر، ثم في ضيق، وتهيأ للنهوض، وأوقع عصا صغيرة كان قد ركنها إلى الطاولة. قفزت على الفور، ورفعتها، وناولتها إياه، وخفق قلبي خفقاناً شديداً.

ابتسم ابتسامة متكلّفة، وشكرني، وقرّب وجهه من وجهي، ورفع حاجبيه، وفتح شفتيه قليلاً، كالمبهور من شيء وفجأة قال بصوت جاف حاد أخن:

- أنت مؤدب جداً، أيها الشاب. هذا نادر في أيامنا هذه. اسمح لي أن أهنئك، إن لك تربية حسنة.

ولا أتذكر بماذا أجبته بالضبط. ولكن الحديث سرعان ما انعقد بيننا. فعلمت أنه من أبناء وطني، وأنه قد عاد قبل مدة وجيزة من أميركا حيث قضى عدة سنوات. وسيعود إليها عن قريب. ووصف نفسه بأنه بارون... وفات على سمعي اسمه. كان مثل أبي «الليلي» ينهي كل عبارة بهمهمة داخلية غير واضحة. رغب في ان يعرف اسم عائلتي... ولمّا سمعها، بدا كالمبهور مرة أخرى، وبعد ذلك سألني هل أعيش في هذه المدينة منذ مدة طويلة، ومع مَنْ، أجبته إنني أعيش مع أمي.

ـ ووالدك؟.

– والدي توفي منذ زمان.

سأل عن اسم أمي، وضحك على الفور ضحكة شوهاء، ثم اعتذر، قائلاً إن له هذه الطريقة الأميركية، وإن له بشكل عام، قدراً معتبراً من غرابة الاطوار. ثم أحب ان يعرف أين يقع منزلنا، فقلت له أين.

– ٦ –

وبالتدريج هدّأ القلق الذي استحوذ عليَّ في بداية حديثنا، سوى انني كنت أجد تقاربنا غريباً بعض الشيء. لم تعجبني الابتسامة التي كان البارون يتسمها حين يسألني، و لم يعجبني التعبير الذي يطل من عينيه، حين كان وكأنه يغرزهما فيَّ... كان فيهما شيء كاسر متفضِّل على الآخرين... شيء مرعب. لم أر هاتين العينين في حلمي. وكان وجه البارون غريباً! ذابلا، متعباً، وصبوياً في نفس الوقت، صبوياً بشكل يبعث على الارتياح! كما لم يكن لأبي «الليلي» تلك الندبة العميقة التي كانت تخترق بخط مائل جبهة صاحبي الجديد كلها، و لم ألحظها إلا حين اقتربت منه أكثر.

وقبل أن اسمي للبارون الشارع ورقم البيت الذي نعيش فيه دنا منه من الخلف زنجي طويل القامة مدثر بممطره حتى حاجبيه، وطبطب على كتفه طبطبة خفيفة فالتفت البارون، وقال: «اها!» واحنى لي رأسه قليلاً، ودخل المقهى مع الزنجي. بقيت وحدي تحت الظليلة، واردت ان انتظر خروج البارون لا لاتابع الحديث معه (كنت لا أعرف بالضبط عمّ يمكن أن اتحدث معه)، بل على الأكثر لاستوثق مجدداً من انطباعي الأول. غير ان نصف ساعة قد مرَّ، مرت ساعة... و لم يظهر البارون. دخلت المقهى، وطفت في كل حجراته، و لم أر البارون ولا الزنجي في أية واحدة منها... فلا بد أنهما طلعا من الباب الخلفي.

شعرت بشيء من الصداع، ولكي اروِّح عن نفسي، سرت بمحاذاة ساحل البحر حتى المنتزه الواسع في ضاحية المدينة، وتاريخه يعود إلى حوالي مائتي عام. وبعد أن تنزهت زهاء ساعتين في ظلال أشجار البلوط والدلّب الضخمة عدت إلى البيت.

ما إن ظهرت في الرواق حتى هرعت الخادمة للقائي مفزَّعة مذعورة. من تعبير وجهها حدست على الفور أن مكروهاً قد وقع في بيتنا اثناء غيابي. وفي الحال علمت منها أن صيحة رهيبة صدرت من مخدع أمي قبل ساعة، فدخلت الخادمة المخدع راكضة، ووجدت أمي مطروحة على الأرض في غيبوبة استمرت عدة دقائق. وأخيراً افاقت أمي من غيبوبتها، ولكنها اضطرت إلى ملازمة الفراش، في هيئة مذعورة غريبة، و لم تنطق بكلمة، و لم ترد على الاستفسارات بل مضت تحملق وترتعد، ولا شيء آخر. ارسلت الخادمة البستاني لاستدعاء الطبيب. وجاء الطبيب، وكتب عقاراً مهدئاً، ولكن أمي لم ترد ان تقول شيئاً حتى له. وكان البستاني يؤكد أنه رأى بعد لحظات من صدور الصيحة من مخدع أمي، رجلاً غريباً يركض عجولاً عبر أحواض الزهور في الحديقة نحو البوابة المؤدية إلى الشارع (كنا نعيش في بيت من طابق واحد تطل نوافذه على حديقة كبيرة بشكل معتبر) و لم يستطع البستاني أن يتبين وجه هذا الرجل، ولكنه كان شخصاً نحيلاً، يلبس قبعة قش واطئة، وسترة طويلة... ومضى في خاطري في الحال: «ملابس البارون!» و لم يستطع البستاني اللحاق به، فقد دعي في نفس اللحظة إلى البيت، وأرسل لاستدعاء الطبيب. دخلت على أمي، فرأيتها مستلقية على السرير ولونها أشد شحوباً من الوسادة التي يستقر عليها رأسها. ولما عرفتني ابتسمت ابتسامة واهنة، ومدت لي يدها، جلست قربها، ورحت أسألها. في البداية ظلَّت تتمنع، إلا أنها اعترفت، أخيراً، بأنها رأت شيئاً افزعها كثيراً.

سألتها: «هل دخل أحد إلى هنا؟».

أسرعت تجيب: «لا! لم يأت أحد، ولكن بدا لي... تراءى لي...».

وسكتت وغطت عينيها بيدها، أردت أن ابلغها ما عرفته من البستاني، وأحدثها، بالمناسبة، عن لقائي مع البارون... إلا أن الكلمات جمدت على شفتي دون أن أدري السبب، ومع ذلك عزمت على أن أذكر لأمي أن الأشباح، في العادة، لا تتراءى في النهار...

همست: «خلِّ عنك، ارجوك. لا تعذبني الآن. ستعرف يوماً ما...».

وسكتت ثانية. كانت يداها باردتين، ونبضها متسارعاً وغير منتظم. قدمت لها الدواء لتشربه، وابتعدت قليلاً حتى لا أزعجها. لزمت الفراش طوال اليوم. كانت ترقد ساكنة وبلا حراك، إلا أنها كانت تزفر زفرة عميقة من حين إلى آخر، فاتحة عينيها بذعر. وظل جميع أهل البيت حيارى.

- ٨ -

عند حلول الليل المّت بأمي حمّى خفيفة، فصرفتني. إلا أنني لم أذهب إلى حجرتي، بل استلقيت على الأريكة في الحجرة المجاورة. وكنت أنهض كل ربع ساعة، وأقترب من الباب على اطراف أصابعي، أتسمّع... كل شيء بقي على سكونه، ولكن أمي لم تراودها أي سنة من نوم في ذلك الليل على الارجح. وعندما دخلت عليها مخدعها في الصباح الباكر بدا وجهها ملتهباً، وعيناها تلمعان لمعاناً غير طبيعي. خفّت حالتها خلال النهار بعض الشيء، إلا أن الحرارة ارتفعت ثانية عند المساء. وكانت تلتزم الصمت بعناد، حتى ذلك الوقت، إلا أنها الآن أخذت تتحدث فجأة بصوت عجول متقطع. لم تكن تهذي. فقد كان في كلماتها معنى، ولكن دون أي ترابط. وقبيل منتصف الليل رفعت جسمها عن الفراش فجأة، وبحركة متشنجة (كنت أجلس قربها) وأخذت تحكي بنفس ذلك الصوت العجول، وهي تشرب الماء من القدح جرعة بعد جرعة وتلوح بذراعيها في وهن دون أن تلقي عليّ أية نظرة... وكانت تتوقف، وتبذل قصاراها، وتتابع الحديث من جديد... وكان ذلك كله غريباً، حتى لكأنها تفعل كل ذلك في الحلم، لكأنها غير موجودة، وأن شخصاً آخر يتحدث بلسانها، ويجبرها على الحديث.

- ٩ -

أنشأت تقول:

- اسمع ما سأقصه عليك. فأنت لم تعد صبياً. ويجب أن تعرف كل شيء. كانت لي صديقة طيبة... تزوجت رجلاً احبته من كل قلبها. وكانت سعيدة جداً مع زوجها، وفي العام الأول من زواجها سافرا سوية إلى العاصمة لقضاء بضعة أسابيع فيها، للترفيه عن النفس. وأقاما في فندق جيد، وأكثرا من التردد على المسارح والحفلات، وكانت صديقتي جميلة جداً، جذبت

انتباه الجميع، وراح الشبان يغازلونها، وكان من بينهم رجل... ضابط، ظل يلاحقها بلا كلل فأينما ذهبت، كانت ترى عينيه السوداوين الخبيثتين في كل مكان. و لم يتعارف معها، و لم يكلمها قط، سوى أنه كان ينظر إليها دائماً بجسارة وبطريقة غريبة، صارت جميع مسرات العاصمة مسممة بحضوره، فأخذت تقنع زوجها بالرحيل في اقرب وقت، واستعدا للسفر تماماً.

وذات مرة تلقى زوجها دعوة للعب الورق من ضباط ينتمون إلى نفس الفوج الذي ينتمي إليه ذلك الضابط. فتوجه إلى النادي... وبقيت هي وحدها لأول مرة. ومضى وقت طويل دون أن يعود الزوج، فصرفت الخادمة، وأوت إلى فراشها... وفجأة تملكها رعب شديد، حتى إنها أحست بالبرودة في جسدها، وراحت ترتجف. خيل إليها أنها تسمع طرقاً خفيناً وراء الحائط، وكأن كلباً يخربش، فأخذت تنظر إلى ذلك الجدار. كانت المسرجة تشتعل في ركن، الحجرة كلها مغلفة بالدمقس... وفجأة تحرك شيء هناك، وارتفع، وانكشف... وإذا بذلك الرجل المريع ذي العينين الخبيثتين يخرج من الحائط مسوداً طويلاً! ارادت ان تصرخ، و لم تستطع. فقد جمّدها الرعب تماماً. تقدم منها سريعاً كوحش كاسر، وألقى على رأسها شيئاً يكتم الأنفاس، ثقيلاً، أبيض... وما حدث بعد ذلك، لا أتذكره... لا أتذكره! كان ذلك صنو الموت، صنو القتل... وحين انقشع ذلك الضباب الرهيب، أخيراً، حين أفقت... يعني حين أفاقت صديقتي على نفسها، لم يكن في الحجرة أي شخص. فلم تستطع، ولوقت طويل أن تصرخ، ثم صرخت أخيراً... وبعد ذلك اختلط كل شيء من جديد...

ثم رأت زوجها بالقرب منها، وكان قد بقي في النادي حتى الثانية ليلاً... كان مربد الوجه. أخذ يسألها، ولكنها لم تقل له شيئاً... ثم لزمت الفراش عليلة... ولكنها، أتذكر، حين بقيت وحدها في الحجرة فتشت في ذلك المكان من الجدار... تبين أن هناك باباً خفياً وراء غطاء الدمقس، وكان خاتم الزواج قد اختفى من يدها. وكان لهذا الخاتم شكل غير اعتيادي. فقد كان مرصعاً بسبع نجيمات ذهبية تتخللها سبع نجيمات فضية. وكان تحفة ثمينة قديمة للعائلة. وكان زوجها يسألها عن الخاتم فلا تحير جواباً. ففكر الزوج أنها أوقعته من إصبعها. فبحث عنه في كل مكان، ولكن لم يجده.

واستولت الكآبة على الزوج، فعزم على العودة إلى بيته في أقرب وقت. وغادرا العاصمة حالما أذن الطبيب بذلك... ولكن تصور! في يوم سفرهما بالذات، وقع بصرها فجأة على نقالة في الشارع... وعلى هذه النقالة رجل قتيل مفلوع الرأس، والعجيب ان هذا الرجل هو نفس ذلك الضيف الليلي المريع ذي العينين الخبيثتين... وقد قتل اثناء لعبة قمار!.

ثم سافرت صديقتي إلى القرية... وولدت بكرها... وعاشت مع زوجها عدة سنوات. و لم يعرف الزوج شيئاً قط، ثم ماذا كان في وسعها ان تقول له، وهي نفسها لا تعرف شيئاً؟.

إلا أن السعادة الماضية قد اختفت. وصارت الحياة ظلاماً في عيونهما، و لم يقشع هذا الظلام قط... و لم ينجبا اطفالاً آخرين لا من قبل، ولا من بعد... أما هذا الابن...

وراحت أمي ترتعش بكل جسدها، وغطت وجهها بيدها... ومضت تقول في قوة مضاعفة:

– ولكن قل لي الآن هل أن صديقتي مذنبة في شيء؟ وبم يمكن أن تلوم نفسها؟ لقد عوقبت، ولكن أليس لها حق في أن تعلن أمام الرب أن العقاب الذي أصابها ظالم؟ ولماذا يمكن لها، وهي كالمجرمة التي تمزقها عذابات الضمير، أن تتمثل الماضي في تلك الصورة المرعبة، بعد تلك السنوات العديدة؟ ماكبث قتل بانكو[1]، فليس غريباً لو تراءى له... ولكن أنا...

ولكن كلام أمي تشربك عند ذلك واختلط اختلاطاً شديداً حتى لم أعد أفهمها... و لم أعد اشك في أنها في حالة هذيان...

– ١٠ –

من السهل على أي إنسان ان يفهم الانطباع المؤثر للغاية الذي خلفته في نفسي القصة التي روتها لي أمي. حدست منذ اللحظة الأولى أنها تتحدث عن نفسها، لا عن صاحبة لها، وفلتة لسانها لم تزدني إلا ثقة بما حدسته،

١– في مأساة «ماكبث» لشكسبير يحتل شبح بانكو القتيل اثناء الوليمة مكان ماكبث (الفصل الثاني، المشهد الرابع).

يعني ان ذلك كان أبي بالذات، الأب الذي كنت ابحث عنه في حلمي، والذي رأيته في يقظتي! لم يقتل، كما ظنت أمي، بل جرح فقط... وكان يتردد عليها، ويهرب مذعوراً من ذعرها. وصار كل شيء واضحاً لي فجأة: شعور النفور اللاإرادي الذي كان ينتابها أحياناً مني، وحزنها المستديم، وحياتنا المنعزلة... أتذكر أن رأسي دار، فأمسكته بكلتا يدي، وكأنما أريد ان ابقيه في مكانه. ولكن فكرة واحدة انغرزت فيَّ كالمسمار عزمت أن أجد هذا الرجل من جديد مهما يكن! لماذا؟ لأي غرض؟ لم أسأل نفسي، ولكن العثور... العثور عليه صار بالنسبة لي مسألة حياة أو موت! في صباح اليوم التالي هدأت أمي أخيراً... وزالت الحمى عنها... وغفت أوكلتها إلى رعاية القائمين على شؤوننا والخدم، وخرجت لبحث.

- ١١ -

وطبيعي أنني توجهت، قبل كل شيء، إلى المقهى الذي التقيت البارون فيه، ولكن ما من أحد في المقهى كان يعرفه، بل و لم يفطن إليه. كان زائراً طارئاً على المقهى. أما الزنجي فقد لحظه اصحاب المقهى، لأن مظهره كان مثيراً للانتباه تماماً. ولكن لا أحد كان يعرف من هو، وما شأنه. تركت عنواني في المقهى، للاحتياط، ورحت اجوب شوارع المدينة وتلك التي تحاذي الساحل، قرب المرفأ، في البولفارات، وانظر في كل منتزه عمومي، و لم أجد في أي مكان شبهاً للبارون ولا لزميله!... وكان قد فاتني سماع اسم عائلة البارون بوضوح، فحرمت من امكانية الالتجاء إلى الشرطة ولكنني اعلمت اثنين أو ثلاثة من حفظة النظام اتفق ان صادفتهم (والحقيقة أنهم نظروا إليَّ مذهولين، و لم يثقوا فيَّ تماماً) أعلمهم بأنني سأكافئ جهودهم بسخاء، لو نجحوا في العثور على أثر لهذين الشخصين اللذين جاهدت لأن اصف لهم مظهرهما، بالدقة التي استطعتها. ومضيت أبحث هذه الطريقة حتى وقت الغداء، وعدت إلى البيت منهوك القوى. نهضت أمي من فراشها، ولكن حزنها المعتاد كان مصحوباً بحيرة جديدة ساهمة نفذت إلى قلبي كالسكين. قضيت المساء جالساً بالقرب منها. لم تنطق بأي كلمة تقريباً. كانت تستخير الورق، وكنت اراقب تصفيفها الورق صامتاً. لم تشر بكلمة واحدة إلى قصتها، ولا إلى ما حدث البارحة. وكأنما تعاهدنا سراً على ألا نمس كل تلك

الوقائع المخيفة والغريبة...وبدا وكأنها منزعجة من نفسها، وخجولة مما انفلت منها لاإرادياً، ولربما لم تكن تتذكر جيداً ما قالته في هذيانها الشبيه بهذيان الحمى، وهي تأمل في أنني أرأف بها... نعم، وقد رأفت بها حقاً، وقد شعرت هي بذلك وتحاشت نظرتي، كما في الأمس. لم أستطع أن أغفو طيلة الليل. هبّت في الفناء عاصفة عنيفة مفاجئة، واعولت الريح، وعربدت بضراوة، ورنَّ زجاج النوافذ، وارتج، وارتفعت في الهواء ولولات وتأوهات، وكأن شيئاً في الأعالي تمزق، ومرَّ طائراً فوق البيوت المهتزة في عويل مجنون. وقبيل الفجر غرقت في اغفاءة... فجأة خيل إليّ أن احداً دخل عليَّ حجرتي، وناداني، نطق اسمي لا بصوت عال، بل حازم. رفعت رأسي، فلم أر احداً، ولكن الغريب في الأمر انني لم ارتعب، بل وسررت أيضاً. فجأة انبعثت في نفسي الثقة بأنني سأبلغ الآن هدفي حتماً. اسرعت في ارتداء ملابسي، وخرجت من البيت.

- ١٢ -

هدأت العاصفة... ولكن خفقاتها الأخيرة لا تزال في الجو. كان الوقت مبكراً، والشوارع خالية من الناس، وفي أماكن كثيرة تتناثر شظايا مداخن، وقراميد، وألواح أسيجة مخلوعة، وأغصان أشجار مكسرة... وجدت نفسي أفكر وأنا أرى الآثار التي تركتها العاصفة: «أي شيء حدث في البحر ليلاً!» أردت الاتجاه إلى المرفأ، إلا أن رجليَّ حملتاني إلى جهة أخرى، وكأنهما تخضعان لإرادة لا مردَّ لها. وما ان انقضت عشر دقائق حتى رأيت نفسي في جزء من المدينة لم تطأه قدماي من قبل قط. لم اسر بسرعة. ولكن دون توقف خطوة خطوة، يخامر قلبي احساس غريب. كنت اتوقع شيئاً غير اعتيادي، وغير ممكن، وفي الوقت ذاته كنت واثقاً من ان هذا الشيء غير الاعتيادي سيقع.

- ١٣ -

وها قد حلّ هذا غير الاعتيادي، هذا المنتظر! فجأة رأيت، على بعد حوالي عشرين خطوة أمامي، ذلك الزنجي الذي تحدث مع البارون في المقهى بحضوري! بدا وكأنه طلع من الأرض ملفوفاً بنفس الممطر الذي لحظته عليه

في تلك المرة، يسير بخطى نشيطة على الرصيف الضيق لزقاق معكوف، مديراً ظهره إليَّ! انطلقت على الفور للحاق به، إلا أنه هو الآخر ضاعف خطوه، رغم أنه لم يلتفت إلى الوراء، وفجأة التف التفافة حادة وراء ركن بيت ناتئ. ركضت إلى ذلك الركن، ودرت حوله بنفس سرعة الزنجي... ويا للأعجوبة! رأيت أمامي شارعاً طويلاً ضيقاً، وخالياً تماماً، والضباب الصباحي قد جثم عليه بكلكله الرصاصي الكامد، ولكن بصري ينفذ فيه حتى نهايته، وفي وسعي أن أعدّ كل أبنيته... وما من كائن حي يتحرك في أي مكان منه! والزنجي الطويل ذو الممطر اختفى فجأة مثلما طلع فجأة! انذهلت... ولكن للحظة واحدة فقط. تملكني شعور آخر على الفور. أن هذا الشارع الممتد أمام بصري أخرس وكالميت قد عرفته! إنه الشارع الذي رأيته في الحلم. فرائصي ترتعد، فأنكمش على نفسي - الصباح شديد الطراوة - وأسير إلى الأمام فوراً، ودون أقل تردد، وبشيء من فزع الثقة.

وآخذ بالبحث ببصري... نعم، هذا هو البيت الذي حلمت به إلى اليمين، وركنه يطل على الرصيف، وهذه هي البوابة القديمة بحلزونياتها الحجرية على كلا الجانبين... ولو أن نوافذ البيت ليست مستديرة... وأطرق البوابة. أطرق مرتين، ثلاث مرات، أشد فأشد... وتنفتح البوابة ببطء بصريف مثقل، وكأنما تتثاءب وأجد أمامي خادمة شابة منفوشة الشعر، ناعسة العينين. والظاهر أنها استيقظت من النوم لتوّها.

سألت: هل البارون يعيش هنا؟.

وأطوف ببصري في الفناء الطويل الضيق... كما هو... تلك هي الألواح والروافد التي رأيتها في الحلم.

وتجيب الخادمة:

- لا، لا يعيش البارون هنا.

- وكيف لا! غير ممكن!.

- ليس موجوداً الآن... رحل يوم أمس.

- إلى أين؟.

– إلى أميركا.

– إلى أميركا! – كررت لاارادياً – وهل سيعود؟ رمقتني الخادمة بنظرة مرتابة.

– هذا لا نعرفه. ربما لن يعود ابداً.

– وهل عاش طويلاً هنا؟.

– لا، نحو أسبوع. والآن لم يعد له وجود.

– وما اسم عائلة هذا البارون؟ تفرست الخادمة فيَّ.

– لا تعرف اسم عائلته؟ كنا نسميه البارون لا غير... يا بيتر! – صاحت، وقد رأتني أتقدم – تعال هنا. هناك غريب يلح في السؤال.

وظهر من البيت شغيل ضخم الجثة ناشز إلهيئة، وسأل بصوت قوي:

– ماذا؟ ماذا تريد؟.

وبعد أن أصغى إلى كلامي جهوماً كرر ما قالته الخادمة، قلت:

– ومن يعيش الآن هنا؟.

– سيدنا.

– ومن هو؟.

– نجار، سكان هذا الشارع كلهم نجارون.

– وهل يمكن أن أراه؟.

– غير ممكن الآن، إنه نائم.

– وهل يمكن أن أدخل إلى البيت؟.

– غير ممكن، انصرف.

– طيب، وهل يمكنني أن أرى سيدكم فيما بعد؟.

– و لم لا؟ ممكن... مقابلته دائماً ممكنة... فهو بائع. ولكن انصرف الآن فالوقت مبكر جداً.

سألته بغتة:

– طيب، وذلك الزنجي؟.

نظر الشغيل إليَّ في حيرة، ثم إلى الخادمة. وأخيراً قال:

– وأي زنجي هنا؟ انصرف، أيها السيد. يمكنك أن تأتي فيما بعد، وتتكلم مع رب البيت.

خرجت إلى الشارع. انطبقت البوابة ورائي دفعة واحدة بثقل وحدة، وبدون صريف هذه المرة.

علَّمت الشارع والبيت جيداً، وتركته، ولكن لا إلى البيت. كنت أحس بشيء من خيبة الأمل. فإن كل ما حصل لي كان غريباً وغير اعتيادي إلى درجة كبيرة، وإذا به ينتهي هذه النهاية الحمقاء! كنت واثقاً، كنت على يقين من أنني سأرى في هذا البيت الحجرة التي أعرفها، وأرى في وسطها أبي، البارون، في روبه البيتي وغليونه... وإذا بي أرى صاحب البيت نجاراً ومن الممكن أن اقابله قدر ما أشاء، ولربما يمكن أيضاً أن أوصيه ليصنع لنا موبيليات...

وأبي رحل إلى أميركا! فماذا بقي لي أن أفعل الآن؟ أن أقص كل شيء على أمي، أم احتفظ بذكرى هذا اللقاء لنفسي إلى الأبد؟ لم أكن على الإطلاق قادراً على أن اوطن نفسي على أن مثل تلك البداية الخارقة للطبيعة والمبهمة يمكن أن تسفر عن مثل هذه الخاتمة السخيفة العادية!.

لم أرد العودة إلى البيت. فسرت على غير هدى، خارج المدينة.

– ١٤ –

سرت مطرق الرأس بلا أفكار، وبدون أحاسيس تقريباً، ولكنني غائص كلياً في داخل نفسي. أخرجني من جمودي ضجيج متساوق صلد غاضب. رفعت رأسي. كان البحر يضج ويهدر على بعد حوالي خمسين خطوة مني. وجدت أسير على رمل كثيِب. كان البحر الذي أثارته العاصفة ليلاً يمتد حتى الأفق بأثباجه البيض، وكانت الأمواج الطويلة العالية تندفع، وتتكسر على الساحل المنبسط. اقتربت منها، وسرت على طول الخط الذي تركته حركة المد والجزر على الرمل الاصفر المضلع المرقَّط بمزق النباتات البحرية اللزجة، وقطع الصدف، وأشرطة السعد الحلزونية. وكانت النوارس المدببة الأجنحة

تنساب مع الريح في زعيق حزين، آتية من أغوار الجو البعيدة، لتحلّق بيضاء كالثلج في السماء الرمادية الغائمة، وتنقض نزولاً حتى لكأنها تقفز من موجة إلى أخرى، وتبتعد من جديد، وتتلاشى كشارات فضية في اشرطة الزبد الفوار. لاحظت أن بعضها كان يحوم بعناد فوق صخرة كبيرة كانت تبرز وحيدة بين بساط السواحل الرملية بنمطه الواحد. كان السعد البحري الخشن ينمو على شكل حزم غير متناسقة على أحد جوانب الصخرة. وكان ثمة شيء، مستطيل، مدوَّر، متوسط في حجمه يلوح أسود في البقعة التي تبرز فيها اعواد السعد المتشربكة طالقة من السبخة الصفراء... اخذت امعن النظر... كان هناك شيء داكن منطرح هناك، منطرح قرب الصخرة بلا حراك... وكان هذا الشيء يصير أكثر وضوحاً، وأكثر تحديداً، كلما اقتربت منه...

لم يعد يفصلني عن الصخرة غير حوالي ثلاثين خطوة... إن لذلك الشيء ملامح جسم إنساني! إنه جثة، جثة غريق قذف بها البحر! دنوت من الصخرة تماماً.

إنها جثة البارون، أبي! وقفت كالمسمّر. عند ذاك فقط أدركت أن قوى خفية كانت تقودني منذ الصباح، تضعني في أسرها، وخلال بضع لحظات فرغت روحي إلا من هدير البحر المستمر، والخوف الأخرس إزاء القدر الذي استولى عليّ...

- ١٥ -

كان ينطرح على ظهره، مائلاً إلى جنبه قليلاً، وقد ألقى ذراعه اليسرى وراء رأسه... واليمنى كانت مطوية تحت جسده المحني، وكان الطين اللزج قد مص طرفي قدميه في حذاءيهما الطويلين من أحذية البحارة. وكانت السترة الزرقاء القصيرة المشبعة كلياً بملح البحر مزررة، واللفاح الأحمر يطبق على رقبته على شكل شدة ضيقة. وأن الوجه الأسمر المواجه للسماء يبدو وكأنه يبتسم، ومن تحت الشفة العليا المقلوبة تظهر أسنان صغيرة متقاربة. وكانت الحدقتان الكامدتان لعينيه المغمضتين إلى النصف لا تكادان تختلفان في اللون عن بياضهما المعتم. والشعر المتسخ المغطى بفقاعات الزبد يتناثر على الأرض

كاشفاً عن جبين أملس ذي ندبة حوافيها شبه بنفسجية، والأنف الضيق يطلع من بين الخدين الغائرين كحد رهيف، مبيض. لقد فعلت زوبعة الليلة الماضية فعلها... فلم ير أميركا! إن الرجل الذي أهان أمي، وأفسد عليها حياتها - أبي، نعم! أبي - وليس لي شك في ذلك - كان يرقد ممدداً في الوحل تحت قدمي بلا حول. كان يخامرني شعور الأخذ بالثأر والرثاء والنفور، والفزع أكثر من أي شيء آخر... الفزع المضاعف، إزاء ما رأيت، وإزاء ما حدث كان ذلك الشيء الحاقد، ذلك الشيء الإجرامي الذي كنت أتحدث عنه، تلك السورات غير المفهومة تتصاعد في داخلي... تخنقني. «أها! - دار في خاطري - لهذا السبب أنا لهذا الشكل... ذلك نداء الدم!» وقفت قرب الجثة انظر وانتظر: هل ستتحرك هاتان الحدقتان الميتتان، وهل ستختلج هاتان الشفتان المتيبستان؟ - كلا! كل شيء بلا حراك، وحتى ذلك السعد، حيث قذفته اليه أمواج البحر بدا جامداً، وحتى النوارس غادرت، وما من كسرة في أي مكان، وما من لوحة، ولا عدة محطمة. الخواء في كل مكان... لا شيء إلا هو - وأنا - والبحر الصاخب من بعيد. التفت إلى الوراء، فرأيت الخواء نفسه هناك أيضاً... لا شيء غير سلسلة الكثبان الساحلية بلا حياة! افزعني أن أترك هذا البائس في هذه العزلة، في طين الساحل، نَهْباً للأسماك والطيور. وكان صوت داخلي يقول لي يجب أن أبحث عن أناس، وأدعوهم إن لم يكن للإسعاف - وما من شيء يسعفه الآن! فعلى الأقل ليحملوه، ويدفنوه... إلا أن رعباً لا يوصف تملكني فجأة، فتصورت أن هذا الرجل الميت يعرف أنني جئت إلى هنا، وأنه هو الذي رتَّب هذا اللقاء الأخير، بل وتخيلت تلك الهمهمة الجوفاء المعروفة لي... ابتعدت جانباً... ونظرت مرة أخرى... وقع بصري على شيء لامع، اوقفني. كان ذلك حلقة ذهبية في يد الجثة المحدودبة... عرفت خاتم الزواج لأمي. أتذكر كيف أجبرت نفسي إلى أن أعود، وأقترب من الجثة وأنحني... واأتذكر كيف لمست أصابعها الباردة الملتزجة، وأتذكر كيف تلاحقت أنفاسي، فقلّصت عيني، وصككت على أسناني، وأنا أحاول أن أنزع الحلقة المتشبثة...

وأخيراً انخلعت... وأركض، أركض بكل ما في قواي، وشيء يلاحقني، ويبلغني، ويمسك بك.

- ١٦ -

لعل كل ما أحسست به وعانيته كان مرتسماً على وجهي، حين عدت إلى البيت. حالما دخلت على أمي حجرتها حتى انتصبتْ بغتة، وراحت تنظر إليّ بإلحاح وتساؤل. ففشلت في محاولتي لأن أوضح لها، وانتهى بي الأمر إلى أن أمد لها الخاتم صامتاً. امتقعت امتقاعاً شديداً، واتسعت عيناها بشكل غير اعتيادي، وماتتا، مثل عينيْ ذاك وصاحت صيحة خافتة، واختطفت الخاتم، وترنحت، وارتمت على صدري، وجمدت عليه، وقد ألقت رأسها إلى الخلف، وراحت تلتهمني بتينك العينين الواسعتين المخبولتين. طوّقت قامتها بكلتا ذراعي، ورحت وأنا أقف في مكاني بلا حراك اقص عليها بتؤدة وبصوت هادئ كل شيءٍ دون أن أخفي خافية: حلمي، ولقائي، وكل شيء، كل شيء... أصغت إليّ حتى نهاية كلامي دون أن تنطق بكلمة، سوى أن صدرها كان يعلو ويهبط أشد فأشد، وفجأة انتعشت عيناها واسترختا. وبعد ذلك لبست الخاتم في بنصرها، وابتعدت قليلاً، وأخذت تخرج معطفها والقبعة، سألتها إلى أين تريد الذهاب، رفعت إليّ عينين مندهشتين، وأرادت أن تجيب، إلا أن صوتها خانها. ارتعدت عدة مرات، وفركت يديها، وكأنها تحاول أن تتدفأ، وأخيراً قالت: «لنذهب الآن إلى هناك».

- إلى أين، يا أمي؟.

– إلى حيث يرقد... أريد أن أرى... أريد أن أعرف... أنا سوف أعرف...

حاولتُ أن أقنعها لتعدل عن قرارها، ولكن نوبة عصبية كادت تلم بها. فأدركت أن الوقوف ضد رغبتها مستحيل، فخرجنا.

- ١٧ -

وها أنا أسير على رمل الكثيب مرة أخرى، ولكنني لا أسير وحيداً هذه المرة. بل أقود أمي من يدها. كان البحر قد انحسر، وابتعد أكثر. إنه في سبيله إلى أن يهدأ. ولكن ضجيجه لا يزال مخيفاً منذراً بالشؤم، حتى بعد هدوئه القليل هذا. وها هي الصخرة المعزولة قد لاحت إلى الأمام، أخيراً. وها هو السعد. رحت اتمعن، وأحاول أن ألحظ ذلك الشيء المدور الذي كان ممدداً

على الأرض. لكنني لا أرى شيئاً. ونقترب أكثر. وأتباطأ بخطوي لاإرادياً، ولكن أين ذلك الأسود الجامد؟ أعواد السعد وحدها تلوح سوداء على الرمل الذي جفَّ الآن. وندنو من الصخرة تماماً... لا وجود للجثة في أي مكان، ولم يبق في المكان الذي كان يرقد فيها غير تقعر، كما كان من الممكن أن يعرف الناظر إليه أين كانت اليدان والرجلان... والسعد من حول المكان يبدو مسحوقاً، وآثار مواطئ قدمي إنسان تلوح على الرمل أنها تتجه عبر الكثيب، ثم تتلاشى، بعد أن تصل إلى سلسلة تلال سليكية.

وأتبادل وأمي النظرات، أحدنا يفزع مما قرأ في وجه الآخر...

ألعله نهض بنفسه من رقدته، وانصرف؟.

وتسألني همساً:

- ولكنك رأيته ميتاً؟.

استطعت أن أهز رأسي لا غير. لم تمر ثلاث ساعات منذ أن وقعت على جثة البارون... ربما اكتشفها أحد، وحملها. يجب البحث على هذا الفاعل، وماذا حصل له؟.

ولكني يجب الاهتمام بأمي اولاً.

- ١٨ -

بينما كانت أمي تسير إلى المكان المنحوس اعترتها حمى، ولكنها تمالكت نفسها. أذهلها اختفاء الجثة، كمصيبة قاضية. غشيها انصعاق. خشيتُ أن تفقد صوابها. اوصلتها إلى البيت بصعوبة كبيرة. أرقدتها في الفراش من جديد، وجعلت الطبيب يزورها مرة أخرى. ولكنها حالما أفاقت على نفسها بعض الشيء حتى طلبت على الفور ان اتوجه إلى البحث عن «ذلك الرجل» دون إبطاء. امتثلت لها. ولكنني لم أكتشف شيئاً، رغم كل الإجراءات الممكنة. راجعت الشرطة عدة مرات، وزرت جميع القرى القريبة، ونشرت عدة إعلانات في الصحف. وجمعت الشهادات من كلِ مكان، ولكن لم احصل على جدوى! حقاً لقد سمعت أن أحد الغرقى أوصل إلى إحدى القرى الساحلية... فانطلقت إلى هناك رأساً، ولكن الغريق كان قد دفن، كما أن أوصافه لم تكن تشبه أوصاف البارون. عرفت على أية سفينة سافر

إلى أميركا، في البداية كان الجميع موقنين بأن هذه السفينة قد غرقت اثناء عاصفة، ولكن شائعات أخذت تتردد بعد عدة شهور تزعم أن السفينة هذه وجدت راسية في مرفأ نيويورك. و لم اكن أعرف ماذا أفعل أخذت أبحث عن الزنجي الذي كنت قد رأيته، وعرضت عليه، عن طريق الجرائد، مبلغاً كبيراً من المال، إذا هو جاء إلى بيتنا. وبالفعل جاء إلينا في غيابي زنجي طويل يرتدي ممطراً... ولكنه انصرف فجأة، بعد أن سأل الخادمة بعض الأسئلة، و لم يعد بعد ذلك.

وهكذا ضاع أثر أبي، وهكذا تلاشى في العمه المدلهم، إلى الأبد – و لم نتحدث أنا وأمي عنه قط. سوى أنها مرة واحدة، على ما أتذكر، أبدت دهشتها لماذا لم أشر من قبل إلى حلمي الغريب، ولكنها أضافت على الفور «يعني، هو بالضبط...» و لم تكمل فكرتها. وظلت أمي مريضة لفترة طويلة، ومن بعد شفائها لم تعد علاقتنا السابقة إلى ما كانت عليه. وكانت تجد حراجة معي، حتى وفاتها... تجد حراجة بالذات، ولا حيلة لي في هذه البلوى. إن كل شيء يسلس ويُمحى. والذكريات عن أكثر الأحداث العائلية مأساوية تفقد قوتها ولذعها بالتدريج. ولكن شعور الحراجة إذا نشأ بين قريبين يستحيل محوه! ومنذ ذلك الحين لم أحلم ذلك الحلم الذي كان يقلقني، و لم أعد «أبحث» عن أبي، ولكن كنت أحلم أحياناً – وأحلم حتى الآن – بأنني أسمع ولولات بعيدة، شكايات موصولة جزعة، تأتي من مكان وراء جدار عال لا يمكن تسلقه، فيتمزق قلبي لها وأبكي – بعينين مغمضتين، ليس في طاقتي أن أفهم ما هذا: أنين إنسان حي، أم عويل ممطوط وحشي لبحر هائج كان يبلغ سمعي؟ ويتحول من جديد إلى همهمة وحش، فأستيقظ، ونفسي مثقلة بالوحشة والذعر.

١٨٧٧

أغنية حب منتصر[1]

(MDXLII)[2]

١- أغنية حب منتصر: نشرت هذه الرواية القصيرة لأول مرة في مجلة «فيسنيك افروبي» عام ١٨٨١، العدد ١١.

بدأ تورغينيف كتابة هذه الرواية القصيرة في خريف ١٨٧٩ في فرنسا، وعاد إليها بعد أكثر من عام، وفرغ منها في حزيران ١٨٨١ في ضيعته سباسكويه - لوتوفينوفو في روسيا. في ٢٥ حزيران ابلغ تورغينيف كلودي فياردو أنه قد عدّل وأكمل - «رواية قصيرة خيالية» كان قد قص عليها موضوعها من قبل. وكتب تورغينيف لابنة بولينا فياردو: «كنت، وأنا أؤلفها أكرر على نفسي غير مرة: «هذا جنون حقيقي، وإذا ما نُشر في وقت ما، سيضحك الناس مني!» ولكن ما يهمني من هذا! مضيت في عملي. ولشيللر بيت من الشعر اعطاني الجرأة...» (الاقتباس في بداية الرواية).

تطلبت أسلبة قصة إيطالية من تورغينيف عملاً مثابراً وتدقيقاً في التفاصيل التاريخية الحياتية لإبراز نكهة الزمان والمكان. وعمل الكاتب بتمحيص شديد على لغة الرواية. والشكل الذي اختاره تورغينيف لرواية القصة أثبت جدواه، فالرواية تخلق الوهم بالصدق، وتجعلنا نستمتع بمهارة الأسلوب الأدبي. في عام ١٨٨١ كتب تورغينيف: «إن مصير قصتي الايطالية غير متوقع. لأن الناس في روسيا ليس فقط لا يعيبونها، بل يمتدحونها، بينما يؤكدون لي في فرنسا بجدية انني لم أكتب أحسن منها».

٢- في البداية لم يكن هذا العنوان الفرعي موجوداً، وكانت القصة تبدأ بهذه الكلمات: «حوالي الأربعينات من القرن السادس عشر». ولاحظ محرر «فيسنيك يفروبي» أن مثل هذا التاريخ لا يناسب طابع «مخطوطة إيطالية قديمة» فعدّل تورغينيف البداية، ووضع لها «١٥٤٢» كعنوان فرعي. القصة كانت مكرسة لذكرى غوستاف فلوبير. توفي غوستاف فلوبير في ٨ آيار ١٨٨٠.

مهداة إلى ذكرى غوستاف فلوبير

Wage Du zu irrén und zu traumen;

Schiller[1].

هذا ما قرأته في مخطوطة إيطالية قديمة:

- ١ -

في حوالي منتصف القرن السادس عشر كان يعيش في فيرارا (وكانت آنذاك تزدهر تحت صولجان دوقاتها الأجلاء رعاة الفنون والشعر) كان يعيش شابان أحدهما يدعى فابي، والآخر موتسي. كانا، وهما في عمر واحد، وقرابة دانية، لا يكادان يفترقان، وقد ربطتهما صداقة حميمة منذ الطفولة المبكرة... وعززت وحدة المصير هذا الرباط. كلاهما كان ينتمي إلى أسرة عريقة، وكلاهما غني، مستقل، وغير متزوج. وكانا متشابهين في الأذواق والميول. كان موتسي يزاول الموسيقى، وفابي الرسم. وكانت فيرارا كلها تفخر بهما كأحسن زينة للبلاط، وللمجتمع وللمدينة. إلا أنهما كانا غير متشابهين في المظهر، رغم أن كلاً منهما كان يمتاز بجمال الشباب المقدود. كان فابي أطول قامة، أبيض الوجه وأشقر الشعر، أزرق العينين. بينما كان موتسي، على العكس منه، أسمر الوجه، أسود الشعر، ليس في عينيه البنيتين الداكنتين اللمعان المرح، ولا على شفتيه تلك الابتسامة الخفية، مثلما هما عند فابي. كان حاجباه الكثان يخيمان على جفنيه الضيقين، بينما كان حاجبا فابي الذهبيان يرتسمان كهلالين رقيقين على جبين ناصع أملس. وكان موتسي، حتى في الحديث، أقل حيوية. ومع كل هذا كانت السيدات معجبات بكليهما على حد سواء، فلا غرو ان يكون كلاهما نموذجاً لشهامة الفرسان وسخائهم.

في ذلك الوقت كانت تعيش معهم في فيرارا فتاة تدعى فاليريا. وكانت تعتبر إحدى حسناوات المدينة الأول، رغم أن خروجها إلى الناس كان نادراً جداً، فقد كانت تعيش حياة منعزلة، ولا تطلع إلا للكنيسة، ثم للنزهة في الأعياد الكبيرة. وكانت تقيم مع أمها، وهي ارملة نبيلة ولكنها ليست ثرية،

١- تجرأ على أن تضلّ وتحلم!». شيللر (بالألمانية في الأصل).

ولم يكن لها أطفال آخرون. وكانت فاليريا توحي لكل مَن التقاها بشعور الدهشة اللاإرادية، وبمثل ذلك من الاحترام الرقيق اللاإرادي، لما لها من قيافة متواضعة، ولما كان يبدو عليها من قلة وعي بقوة مفاتنها. بعض الناس، في الحقيقة، كانوا يرونها على شيء من الشعوب، ونظرة عينيها المنكستين في معظم الوقت تفصح عن شيء من الخجل، وحتى عن التخوف. كانت شفتاها لا تبتسمان إلا نادراً، وحتى إذا ابتسمتا، فابتسامة خفيفة، وكان صوتها لا يكاد يسمعه أحد. ولكنْ كان يشاع عنه أنه جميل، وأنها حين تكون وحيدة في غرفتها الموصدة الباب، كانت تحب أن تترنم في باكر الصباح، والمدينة لا تزال هاجعة كلها، بأغان قديمة تحت رنات العود الذي كانت تعزف عليه بنفسها. كانت فاليريا تشع عافية، رغم شحوبها، وحتى الشيوخ كان لا يسعهم، حين ينظرون إليها، إلا أن يقولوا في انفسهم: «آه، ما اسعد ذلك الشاب الذي ستتفتح له أخيراً هذه الزهرة البكر العذراء المطوية الآن في تويجاتها!».

- ٢ -

رأى فابي وموتسيس الفتاة فاليريا، لأول مرة، في مهرجان شعبي فخم أقيم بأمر من ايركول دوق فيرارا، وابن لوكريتسي بورجيا[١] الشهيرة تكريماً لأعيان وجهاء قدموا من باريس بدعوة من الدوقة ابنة لويس الثاني عشر ملك فرنسا. كانت فاليريا جالسة إلى جانب أمها في وسط منصة أنيقة نُصبت وفق رسم بالايو[٢] في ساحة فيرارا الرئيسية تجلس عليها كرائم سيدات المدينة. ووقع كلاهما - فابي وموتسي - في غرامها الشديد منذ ذلك اليوم. ولما كان أحدهما لا يخفي عن الآخر شيئاً، فإن أحدهما سرعان ما عرف ما

١- بورجيا ــ أسرة أعيان من أصل إسباني لعبت دوراً مهماً في القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر في إيطاليا. (في الإيطالية Borgia وفي الإسبانية Borja ولوكريتسيا بورجيا (١٤٨٠ - ١٥١٩) - ابنة بابا روما ألكسندر السادس. وفي زواجها الثالث صارت دوقة فيرارا، وجذبت إلى البلاط الفنانين والشعراء.

٢- بالاديو (Palladio) اندريه (١٥٠٨ ــ ١٥٨٠) معماري إيطالي ممثل العهد المتأخر من النهضة.

وقع في قلب رفيقه. واتفقا على أن يسعى كلاهما في كسب ود فاليريا، وإذا هي اختارت واحداً منهما، فما على الآخر إلا الاذعان لقرارها. وبعد عدة أسابيع استطاعا أن ينفذا إلى بيت الأرملة لما كانا يتمتعان به من ذكر عن حق وجدارة، فسمحت الأرملة لهما بزيارتها. ومنذ ذلك اليوم صار في وسعهما أن يريا فاليريا كل يوم تقريباً، ويتحادثا معها، وفي كل يوم الغرام الذي اشتعل في قلب هذين الشابين يزداد شدة واضطراماً. إلا أن فاليريا لم تبدِ تفضيلا لأي منهما، رغم أن حضورهما كان يطيب لها، على ما يبدو. كانت تزاول الموسيقى مع موتسي، ولكنها كانت تتحدث إلى فابي أكثر، فقد كانت أقل تهيباً معه. وأخيراً عزما على أن يعرفا نصيبهما بشكل نهائي، فأرسلا إلى فاليريا رسالة طلبا فيها ان تصارحهما، وتسمي مَنْ هي على استعداد لأن تقدم لها يدها. عرضت فايريا هذه الرسالة على أمها، وأبلغتها أنها مستعدة لأن تظل عذراء، ولكن إذا وجدت أمها أن أوان زواجها قد حان، فإنها ستتزوج مَنْ يقع عليه اختيارها. ذرفت الأرملة المحترمة بعض الدموع، وهي تفكر في فراق ابنتها الحبيبة. ولكن لم يكن هناك سبب لرفض الخطيبين، وقد اعتبرتهما كليهما أهلاً ليد ابنتها بقدر واحد. ولكنها كانت تفضل فابي في سرها، وترى أنه أقرب إلى فاليريا في الخلق، فأشارت إليه. وفي اليوم التالي علم فابي بسعادته، ولم يبق على موتسي إلا الوفاء بكلمته، والخضوع.

وهذا ما فعله. ولكنه لم يستطع أن يكون شاهداً على انتصار رفيقه، ومنافسه. فأسرع إلى بيع معظم ممتلكاته، وجمع بضعة آلاف من الدوكات، وخرج في رحلة بعيدة إلى الشرق. وقال لفابي لدى توديعه إنه لن يعود إلا بعد أن يشعر أن آخر عقابيل هواه قد اختفت من قلبه. وعزّ على فابي أن يفارق صديق طفولته وصباه... إلا أن التوقيع البهيج لسعادة دانية سرعان ما التهم أية أحاسيس أخرى، واستسلم فابي بكليته إلى افراح الحب المتوج.

وسرعان ما عقد قرانه على فاليريا، وعند ذاك فقط عرف كل قيمة الكنز الذي وُفق في امتلاكه. وكانت له دارة جميلة محاطة بحديقة وارفة الظل على مسافة غير بعيدة عن فيرارا. وقد انتقل إليها مع زوجته وأمها. وحلّ عهدهما الزاهر آنئذ. وأبانت الحياة الزوجية كل محاسن فاليريا في النور الفتّان الجديد. وصار فابي رساماً رائعاً، استاذاً، وليس مجرد هاوٍ. وكانت أم فاليريا تبتهج

وتشكر الرب، وهي تنظر إلى الزوجين السعيدين. وانقضت أربعة أعوام دون أن تلحظ، مثل حلم هانئ. و لم يكن ينقص الزوجين الشابين غير شيء واحد وقع عليهما كالنكبة، إذ لم يرزقا أطفالاً... ولكن الأمل لم يزايلهما. وفي نهاية العام الرابع حلّت بهما نكبة عظيمة، حقيقية هذه المرة، فقد قضت أم فاليريا نحبها، بعد ان مرضت عدة أيام.

ذرفت فاليريا دموعاً كثيرة، وبقيت طويلاً، وهي لا تستطيع أن توطن نفسها على هذا الفقد. إلا سنة أخرى انقضت، وعادت الحياة من جديد إلى أحوالها، وسارت في مجراها الطبيعي. وفي مساء يوم صيفي رائع عاد موتسي إلى فيرارا، دون ان يبلغ احداً بذلك مسبقاً.

- ٣ -

في السنوات الخمس التي انقضت منذ رحيله لم يعرف أحد عنه شيئاً، ولم ترد عنه أية شائعة، وكأنما امحى من وجه الأرض. وحين التقى فابي بصديقه في أحد شوارع فيرارا كاد يصرخ، من الفزع في البداية، ومن الفرح فيما بعد. ودعاه في الحال، إلى دارته. وكان له في حديقتها جناح مفصول رحب، عرض على صديقه أن يقيم فيه. ووافق موتسي بطيب خاطر، وانتقل إليه في نفس اليوم مع خادمه، وهو رجل من الملايو أبكم، ولكنه يسمع، بل وكان فطيناً جداً بالنظر لحيوية نظراته... وكان لسانه قد قطع. جلب موتسي معه عشرات الصناديق المملوءة بمختلف الأشياء الثمينة، التي جمعها أثناء سياحاته الطويلة. فرحت فاليريا بعودة موتسي، وحياها هو بود وبهجة، ولكن بهدوء. وكان يبدو من كل شيء أنه وفيّ بالكلمة التي أعطاها لفابي. وخلال اليوم استطاع أن يستقر في جناحه، وبمساعدة الملاوي رتّب النوادر التي جلبها: الأبسطة، والأقمشة الحريرية، والثياب المخملية والمقصّبة، والاسلحة، والأكواب، والصحون والكؤوس المحلاة بالمينا، والمصوغات الذهبية والفضية المطعمة باللؤلؤ والفيروز، والعلب المنحوتة من الكهرمان وعظم العاج، والقناني المضلعة، والتوابل، والدخائن، وجلود الوحوش، وريش الطيور الغريبة، وعدداً كبيراً من الأشياء الأخرى التي بدا استعمالها غامضاً وغير مفهوم. وكانت بين كل هذه الأشياء الثمينة قلادة غالية من اللؤلؤ

حصل عليها موتسي من شاه فارس لقاء خدمة سرية عظيمة. استأذن موتسي من فاليريا أن يضع هذه القلادة في رقبتها بيديه. فبدت لها ثقيلة تشع دفئاً غريباً فالتصقت بالجلد. وفي العصر، بعد انتهاء الغداء جلس موتسي في ظلال الدفلى والغار في سطيحة الدارة، وراح يقص جولاته. تحدث عن البلدان البعيدة التي شاهدها، والجبال الشاهقة، والصحارى القاحلة، وعن الأنهار الشبيهة بالبحار، تحدث عن المباني والمعابد الهائلة وعن الأشجار المعمرة ألف عام، وعن الزهور والطيور بألوان قوس قزح، وسمّى المدن والشعوب التي زارها... واسماؤها وحدها تبدو اسطورية. كان موتسي يعرف الشرق كله. زار فارس، وبلاد العرب، حيث الخيول أكثر أصالة وجمالاً من كل الكائنات الحية الأخرى، وتغلغل إلى أعماق الهند، حيث الجنسِ البشري يشبه نباتات مهيبة، ووصل إلى حدود الصين والتبت، حيث يعيش إله حي يدعى دالاي – لاما، يعيش على الأرض بهيئة إنسان صامت ضيق العينين. وكانت حكاياته عجيبة! استمع إليها فابي وفاليريا كالمسحورين. في الحق ان قسمات وجه موتسي لم تتغير إلا قليلا، فالوجه الاسمر، منذ الطفولة، ازداد دكنة، وقد أسودَّ تحت اشعة شمس أكثر سطوعاً، وكانت عيناه تبدوان أكثر غوراً من السابق ولا أكثر. إلا أن تعبير ذلك الوجه قد تغيَّر؛ صار يلوح عليه التركيز والعظمة، ولا تسري فيه الحيوية، حتى حين كان يذكر المخاطر التي تعرض إليها، ليلاً، في الغابات الضاجة بزئير النمور، أو نهاراً، في الطرق الخالية، حيث يترصد السيّاح متوحشون يخنقونهم ويقدمونهم قرابين لآلهة حديدية تطالب بقرابين بشرية. كما ان صوت موتسي صار أكثر خفوتاً واستقامة. وفقدت حركات يديه، وكل جسده الطلاقة المعهودة للسلالة الايطالية. وبمعونة خادمه الملاوي الخنوع النشيط، عرض لأهل البيت بعض الاعيبه التي علمها إياه البراهمة الهنود. فمثلاً غطى نفسه بستارة، وبعد ذلك ظهر فجأة جالساً في الهواء مطوي الساقين مستنداً قليلاً بأطراف أصابعه على عصا من البامبو وُضعت عمودياً، ما أثار دهشة فابي غير القليلة، بل وأفزع فاليريا. فقد فكرتِ مع نفسها: «أهو ساحر أرواح؟» وحين أخذ ينفخ في فليوت صغير، داعياً ثعابين مروَّضة من سلة مغطاة، وظهرت من تحت قماشة ملوَّنة رؤوسها المسطَّحة الداكنة تحرك ألسنتها تملك الفزع فاليريا، وطلبت

إلى موتسي أن يخفي هذه الزواحف الكريهة بسرعة. في العشاء استضاف موتسي صديقيه على شراب شيراز من قنينة مدورة لها عنق طويل. وحين صبَّ هذا الشراب الشذيّ للغاية، الكثيف، الذهبي اللون مع لمعة خضراء في اقداح صغيرة من حجر اليش تلألأ لألاء اسطورياً. و لم يكن يشبه في طعمه النبيذ الأوروبي، فقد كان حلواً جداً، ومطيَّباً، وإذا شرب ببطء، وبجرعات صغيرة، اشاع في جميع اوصال الجسم احساساً بنعاس لذيذ. جعل موتسي كلاً من صديقيه فابي وفاليريا يشرب قدحاً، وشرب هو. انحنى موتسي على قدح فاليريا، وهمس بشيء، وهزَّ أصابعه. لاحظت فاليريا ذلك، ولكنها كانت قد لاحظت شيئاً دخيلاً وغير مألوف في حركات موتسي عموماً وفي كل سلوكه، فاكتفت بأن سألت في سرها: «ترى هل اعتنق موتسي مذهباً جديداً في الهند، أم تلك عاداتهم هناك»؟ ثم سألته، بعد قليل من الصمت: هل ظل يمارس الموسيقى اثناء رحلته؟ وفي الرد عليها طلب موتسي من الملاوي ان يجلب كمانه الهندي. وكان يشبه الكمان الحالي، إلا أن له ثلاثة اوتار بدلاً من أربعة، وسطحه مغطى بجلد ثعبان مائل إلى الزرقة. وكان قوس الكمان الرقيقة من الأسل نصف مدوَّر، وفي نهايتها ماسة مدببة.

في البداية عزف موتسي عدة أغانٍ مشجية قليلاً، شعبية كما وصفها، غريبة وحوشية على الاذن الإيطالية، كان صوت الاوتار المعدنية شاكياً وضعيفاً. إلا ان هذا الصوت اشتد فجأة، حين أخذ موتسي يعزف الاغنية الاخيرة، وارتعش برنين وقوة، وانساب لحن جيَّاش من تحت القوس العريضة، انساب متلوياً بجمال، مثل ذلك الثعبان الذي يغطي بجلده سطح الكمان، وشعَّ ذلك اللحن وتأجج كالنار، كالفرح المنتصر، حتى إن فابي وفاليريا احسّا برهبة في القلب، وترقرقت الدموع في عيونهما... بينما بدا موتسي برأسه المائل المضغوط على الكمان، وبوجنتيه الشاحبتين، وحاجبيه المنعقدين في خط واحد، أكثر تركيزاً وعظمة، والألماسة الموضوعة في طرف القوس تلقي في غمار العزف شرراً مشعاً، وكأنها قد احترقت أيضاً بنار هذه الاغنية العجيبة. وعندما انتهى موتسي من العزف، انزل يده التي كانت تمسك بقوس الكمان، وهو لا يزال ممسكاً بالكمان بين حنكه وكتفه. هتف فابي: «ما هذا؟ ما هذا الذي عزفته لنا»؟ و لم تنطق فاليريا بكلمة، ولكن

هيئتها كلها كانت تبدو وكأنها تكرر سؤال زوجها. وضع موتسي الكمان على المنضدة، ودفع شعره بهزة خفيفة، وقال بابتسامة مهذبة: «هذا؟ سمعت هذا اللحن... هذه الأغنية، ذات مرة، في جزيرة سيلان. وتعرف هذه الأغنية هناك بين الشعب بأغنية الحب السعيد الموفق». همس فابي: «اعدها» أجاب موتسي: «لا، غير ممكن ان أعيدها. الوقت متأخر الآن. والسنيورا فاليريا يجب ان تستريح، وأنا أيضاً... تعبت». خلال اليوم كله كان موتسي يعامل فاليريا باحترام وبساطة، مثل صديق قديم. ولكنه عند الانصراف صافحها بقوة، وعصر بأصابعه كفها، محدقاً في وجهها بامعان شديد، حتى إنها شعرت بهذه النظرة، على خديها اللذين احمرا فجأة، وإن لم ترفع رأسها. و لم تقل شيئاً لموتسي، ولكنها سحبت يدها، وحين خرج، نظرت إلى الباب الذي خرج منه. وتذكرت كيف كانت تتخوف منه في الاعوام الماضية... والآن اعترتها حيرة. ذهب موتسي إلى جناحه، وأوى الزوجان إلى مخدعهما.

– ٤ –

لم تنم فاليريا رأساً. كان دمها يمور بهدوء وفتور، ورأسها يطن طنيناً خفيفاً... من ذلك الشراب الغريب، كما كانت تظن، أو ربما من حكايات موتسي، من عزفه على الكمان... وقبيل الصباح غفت في آخر الامر، وحلمت بحلم عجيب.

حلمت بأنها تدخل حجرة واسعة لها سقف مقوس واطئ... لم تر مثلها في حياتها قط. الجدران كلها مرصوفة بترابيع صغيرة زرقاء ذات «اعشاب» ذهبية، والأعمدة المنحوتة الرقيقة من الالباستر تسند السقف المقوَّس المرمري، والسقف هذا والأعمدة تبدو نصف شفافة... وضوء وردي شاحب ينفذ إلى الحجرة من كل مكان، ويضيء كل الأشياء بغموض ورتابة. ووسائد من القماش المقصَّب موضوعة على بساط ضيق في وسط أرض الحجرة الصقيلة كالمرآة. وفي الاركان مباخر عالية على شكل وحوش مخيفة، يتصاعد منها دخان لا يكاد يُرى. ولا وجود للنوافذ، والباب المغطى بظُلة مخملية يلوح أسود أصم في تجويف في الجدار. وإذا بهذه الظلة تنسرح ببطء

وتنفرج و... يدخل موتسي. وينحني موتسي، ويفتح ذراعيه، ويضحك... وتطوق ذراعاه القاسيتان قوام فاليريا، وشفتاه اليابستان تحرقانها كلها... وتسقط طريحة على الوسائد...

استيقظت فاليريا بعد جهود كثيرة، وهي تئن من الرعب. وترفع جسمها في السرير، وتنظر، وهي لم تدرك بعد أين هي، وماذا حصل لها... وتسري الرعشة في كل جسدها... فابي يرقد إلى جانبها نائماً، ولكن وجهه في ضوء البدر الساطع الساقط من النوافذ شاحب شحوب وجه الميت... وأشدّ حزناً منه. ايقظت فاليريا زوجها، وحالما ألقى هذا نظرة عليها هتف: ماذا جرى لك؟». همست، وهي لا تزال ترتجف: «رأيت... رأيت حلماً مرعباً».

في تلك اللحظات ترامت من ناحية الجناح أصوات قوية. وعرف الاثنان – فابي وفاليريا – اللحن الذي عزفه لهما موتسي، وسمَّاه اغنية الحب الموفق، المنتصر. نظر فابي إلى فاليريا بحيرة... فأغمضت عينيها واستدارت عنه – واستمع الاثنان للأغنية إلى آخرها، حابسين أنفاسهما. وحين تلاشى الصوت الأخير، وغاب البدر وراء سحابة، وخيَّم الظلام على الحجرة فجأة... ألقى الزوجان رأسيهما على الوسائد، دون أن يتبادلا كلمة، و لم يلحظ أحدهما متى غفا صاحبه.

– ٥ –

في صباح اليوم التالي جاء موتسي للفطور، وبدا مرتاحاً، وحيَّا فاليريا بمرح. ردَّت عليه بارتباك، ونظرت إليه نظرة خاطفة، وأحست بالخوف من وجهه المرح المرتاح، ومن تينك العينين الثاقبتين الفضوليتين. وأخذ موتسي يقص من جديد... ولكن فابي قاطعه من كلمته الأولى.

– أرى انك لم تستطع ان تغفو في مكانك الجديد؟ فقد سمعتك وزوجتي تعزف أغنية الأمس.

قال موتسي:

ـــ صحيح؟ سمعتما؟ عزفتها بالفعل، ولكنني كنت قد نمت قبل ذلك، بل ورأيت في نومي حلماً مدهشاً.

ارهفت فاليريا أذنيها، وسألت فابي:

- أي حلم؟.

أجاب موتسي، وهو لا يصرف عينيه عن فاليريا:

- رأيت، وكأنني ادخل غرفة رحيبة مقوَّسة السقف، مرتَّبة على الطريقة الشرقية. والأعمدة المنحوتة تسند السقف، والجدران مغطاة بالترابيع، ورغم أن الحجرة كانت بلا نوافذ ولا شموع فقد كانت مغمورة كلها بضوء وردي، وبدت وكأنها مبنية بكليتها من الحجر الشفاف. وفي الأركان تصاعد الدخان من المباخر الصينية، وعلى الأرض وسائد من القماش المقصَّب تحف ببساط ضيق. دخلت من باب مغطى بظُلة، ومن الباب الآخر، المقابل تماماً، ظهرت امرأة كنت قد أحببتها ذات مرة. وقد بدت لي فتَّانة بجمالها، حتى شعرت بالحب السابق يضطرم في قلبي من جديد...

وصمت موتسي بمغزى. وبقيت فاليريا جالسة بلا حراك، سوى أنها شحبت بالتدريج... وصارت أنفاسها أعمق من ذي قبل.

وتابع موتسي يقول:

- حينذاك استيقظت، وعزفت تلك الأغنية.

سأل فابي:

- ولكن مَنْ كانت تلك المرأة؟.

- مَنْ كانت؟ زوجة أحد الهنود... التقيت بها في مدينة دلهي... وهي الآن ليست بين الأحياء، ماتت.

- وزوجها؟.

سأل فابي، وهو لا يعرف لماذا يسأل ذلك.

- وزوجها أيضاً يقولون بأنه مات، سرعان ما غاب عني كلاهما.

قال فابي:

- غريب! زوجتي أيضاً رأت هذه الليلة حلماً غير اعتيادي - تفرَّس موتسي في فاليريا، واضاف فابي - حلماً لم تقصه عليّ.

إلا أن فاليريا وقفت في تلك اللحظة، وخرجت من الحجرة. وخرج موتسي أيضاً بعد الفطور مباشرة، وقد أعلن أن عليه أن يذهب إلى فيرارا لبعض الأشغال، وأنه لن يعود حتى المساء.

كان فابي قد بدأ قبيل عودة موتسي بعدة أسابيع، يرسم صورة لزوجته صوَّرها فيها بأوصاف القديسة سيسيليا[١]. وقد تقدم كثيراً في فنه. وكان لويني الشهير تلميذ ليونارد دافينتشي[٢] قد زاره في فيرارا، وساعده بنصائحه، ونقل إليه تعاليم معلمه العظيم. كانت الصورة جاهزة كلياً تقريباً، لم يبق إلا الفراغ من الوجه ببعض اللمسات، وسيكون فابي اهلاً بالافتخار بعمله. ترك فابي صديقه موتسي يغادر إلى فيرارا، واتجه إلى مرسمه حيث كانت فاليريا تنتظره في العادة. إلا أنه لم يجدها هناك، ناداها، و لم يسمع رداً. استولى على فابي قلق غامض، فأخذ يبحث عنها. لم يجدها في البيت، فهرع إلى الحديقة، فرآها هناك، في إحدى المماشي المعرَّشة البعيدة. كانت تجلس على الأريكة مطرقة الرأس، طاوية الذراعين على ركبتيها، ومن خلفها كان تمثال للأساطير مصنوعاً من المرمر يلوح من وراء خضرة السرو الداكنة، والمزمار على شفتيه المدببتين المشوهتين بابتسامة خبيثة. لاح الفرح على فاليريا من مجيء زوجها، وردَّت على اسئلته الهلعة بأن صداعاً خفيفاً قد ألَّم بها. ولكن ذلك لا يهم، وهي مستعدة لأن تذهب معه ليكمل رسمها. قادها فابي إلى المرسم، وأجلسها، وتناول الفرشاة، ولكنه انزعج كثيراً لأنه لم يستطع أن يكمل الوجه بالشكل الذي كان يريده. ليس لأن الوجه كان شاحباً بعض الشيء، ويبدو عليه التعب... كلا، بل لأنه لم يجد اليوم ذلك التعبير النقي القدسي الذي كان يعجبه في هذا الوجه، والذي جعله يفكر في ان يصورها في صورة القديسة سيسيليا. ألقى الفرشاة، أخيراً، وقال لزوجته بأنه ليس في أحسن اطواره، كما أنها بحاجة إلى أن تتمدد وتستريح، لأنها في مظهرها تبدو كالمعتلة الصحة. وأدار حمالة الصورة إلى الحائط. وافقته

١- قديسة كاثوليكية، راعية الموسيقى، قطعت عهداً بأن تظل عذراء، وكانت تصور عادة قرب اورغن في ثوب أبيض، وإكليل ذهبي على رأسها والسوسن في يدها.

٢- ليوناردو دافينتشي (Leonardo da Vinci) (١٤٥٢ - ١٥١٩) - رسام ونحات ومعماري وعالم ومهندس إيطالي عظيم.
لويني برناردينو - رسام إيطالي من تلامذة دافينتشي. ولد حوالي ١٤٧٥ - ١٤٨٠، وتوفي بعد ١٥٣٣ بقليل.

فاليريا على إنها بحاجة إلى الراحة، وكررت شكواها من الصداع، وانصرفت إلى مخدعها.

بقي فابي في المرسم. كان يحس بارتباك غير مفهوم له ذاته. كانت تضايقه إقامة موتسي في بيته، الإقامة التي عرضها هو نفسه. لم يكن غيوراً... وهل يمكن ان يغار على فاليريا! ولكن لم يجد في صديقه رفيقه القديم. فهذا الشيء الغريب، غير المعلوم، والجديد الذي جلبه موتسي معه من تلك الأقطار البعيدة – والذي بدا وكأنه قد صار لحمه ودمه – كل هذه الألاعيب السحرية، والأغاني، والمشروبات الغريبة، وذلك الملاوي الاخرس، وحتى رائحة الطيب التي تفوح من ثياب موتسي، ومن شعره، ومن أنفاسه، كل ذلك كان يبعث في نفس فابي شعوراً شبيهاً بعدم الثقة، بل والتخوف، ربما. ثم لماذا ينظر هذا الملاوي إليه، إلى فابي، بذلك التمعن غير المريح، حين يخدم على المائدة؟ قد يظن البعض حقاً أنه يفهم الإيطالية. كان موتسي يقول إن هذا الملاوي، وقد دفع لسانه ثمناً، قدَّم قرباناً عظيماً، ولهذا فهو يملك الآن قوة عظيمة. أية قوة؟ وكيف أمكن أن يكسبها بتقديم لسانه ثمناً لها؟ كل ذلك غريب جداً! غامض جداً! ذهب فابي إلى زوجته في غرفة النوم. كانت راقدة في الفراش، بثيابها، إلا أنها غير نائمة. جفلت حين سمعت وقع أقدامه، وبعد ذلك فرحت به مرة أخرى، كما فرحت به في الحديقة، جلس فابي عند السرير، وتناول يدها، وسألها، بعد صمت قصير: ما هو ذلك الحلم الغريب الذي أفزعك في هذه الليلة؟ أكان مثل الحلم الذي حكاه موتسي؟ احمرت فاليريا، وغمغمت بسرعة: «لا! لا! رأيت... غولاً كان يريد أن يمزقني»، سأل فابي: «غول؟ في صورة إنسان»؟ ردَّت: «لا! وحش... وحش»! واستدارت فاليريا، ودفنت في الوسائد وجهها المحمر. ظل فابي ممسكاً بيد زوجته بعض الوقت، ثم رفعها إلى شفتيه صامتاً، وانصرف.

أمضى كلا الزوجين هذا اليوم دون أن ينعما بفرحة. وبدا، وكأن شيئاً أسود يخيم على رأسيهما... ولكن لم يكن في وسعهما أن يعطيا اسماً لذلك الشيء. كانا يريدان أن يكونا سوية، وكأن خطراً يهددهما، ولكن لم يعرفا ماذا يقول أحدهما للآخر. حاول فابي أن يعمل في الصورة، أن يطالع

أريوسطو[1] الذي ظهرت قصيدته قبل حين في فيرارا، وهي الآن تجوب إيطاليا، ولكن لم يوفق في أي شيء من ذلك... وفي ساعة متأخرة من المساء، عند العشاء، عاد موتسي.

- ٧ -

كان يبدو هادئاً وراضياً، ولكنه تحدث قليلاً، وأكثر من سؤال فابي عن معارفهما السابقين، وعن الحملة الألمانية، وعن الامبراطور شارل، وتحدث عن رغبته في السفر إلى روما، والنظر إلى البابا الجديد. وعرض على فاليريا شراب شيراز مرة أخرى، وردَّ على رفضها بأن قال كالمخاطب نفسه: «الآن صار غير مرغوب فيه». عاد فابي مع زوجته إلى مخدعهما، وسرعان ما غفا... وبعد ساعة استيقظ، واستطاع ان يتيقن من أن أحداً لا يشاركه المخدع، إذ لم تكن فاليريا معه. رفع جسمه بسرعة، وفي تلك اللحظة رأى زوجته في ثوبها الليلي تدخل الحجرة قادمة من الحديقة. كان ضوء القمر ساطعاً، رغم أن المطر كان يهطل قبل حين. اقتربت فاليريا من السرير مغمضة العينين، يرتسم على وجهها الجامد ذعر غامض، وتلمسته بيديها الممتدتين إلى الأمام، ورقدت مسرعة صامتة. سألها فابي إلا أنها لم تجب بشيء، وبدت كالنائمة... مسَّها، وشعر بقطرات المطر على ملابسها وشعرها، وحبات الرمل عالقة في قدميها الحافيتين. عند ذاك وثب، وركض، عبر الباب الموارب إلى الحديقة. كان ضوء القمر الساطع إلى حد القساوة يغمر الأشياء كلها. تلفت فابي فيما حوله، ورأى على رحل الدرب آثاراً لزوجين من الأقدام، وكان احد الزوجين لقدمين حافيتين، وكانت هذه الآثار تتجه إلى تعريشة ياسمين تقع في ناحية بين الجناح والبيت. توقف حائراً، وإذا بأنغام الأغنية التي سمعها في الليلة الماضية تتردد فجأة! ويرتعد فابي، ويدخل الجناح راكضاً... فيرى موتسي واقفاً وسط الحجرة يعزف على الكمان، يندفع فابي إليه.

ـ أرى أنك كنت في الحديقة، خرجت، ثوبك مبلل من المطر؟.

١- أريوسطو (Ariosto) لودفيكو (١٤٧٤ - ١٥٣٣) شاعر إيطالي. وقصيدته عن بطولة الفرسان «رولاند المقدام» (١٥١٦) المشبعة بالسخرية الرهيفة تجسد الافكار الإنسانية لعصر النهضة.

– لا... لا أدري... يبدو... لم اخرج... – يجيب موتسي مقطعاً كلامه، كالمندهش من دخول فابي إلى جناحه وانفعاله.

ويمسكه فابي من يده.

– ولماذا تعزف هذا اللحن مرة أخرى؟ هل رأيت الحلم من جديد؟.

يتمعن موتسي في فابي بنفس الدهشة، ولا يقول شيئاً.

– أجب!.

ويترنم موتسي كالناعس:

كالترس المدور صار البدر[1]
والنهر يلمع كالثعبان...
استيقظ الصديق، والعدو وسنان
والفرخة بين براثن صقر جوعان...
النجدة!.

تراجع فابي خطوتين، وتفرَّس في موتسي، وفكر... ثم عاد إلى البيت، إلى المخدع.

كانت فاليريا تغط في نوم عميق، طاوية رأسها على كتفها، باسطة ذراعيها بوهن. لم يوقظها بسرعة... ولكنها، ما إن رأته، حتى ارتمت على رقبته، طوقته متشنجة، وجسمها كله يهتز.

– ماذا بك، يا عزيزتي، ماذا بك؟.

كرر فابي محاولاً أن يهدئها، ولكنها بقيت جامدة على صدره. همست، وهي تضغط وجهها عليه:

– آه، أية أحلام رهيبة أرى.

أراد فابي أن يستفسر... ولكنها ظلت على ارتعاشها... كانت أشعة الصباح الباكر تضرج زجاج النوافذ، حين غفت، أخيراً، بين ذراعيه.

١– يذكر الشاعر ي. بولونسكي صديق تورغينيف أن تورغينيف طلب إليه ذات مرة في سباسكويه في صيف ١٨٨١، أن ينظم له: «حوالي أربعة أبيات تكون بلا معنى، ولغزية في الوقت ذاته» دون الكشف عن المسمَّى. لم ترق أبيات بولونسكي لتورغينيف، فكتب الأبيات بنفسه.

- ٨ -

في اليوم التالي اختفى موتسي منذ الصباح، بينما أخبرت فاليريا زوجها أنها تنوي الذهاب إلى دير مجاور كان يعيش فيه أبوها الروحي، وهو راهب عجوز رزين كانت تثق به ثقة مطلقة. وأجابت رداً على استفسار فابي، بأنها تريد أن تخفف بالاعتراف عن روحها المثقلة بما في الأيام الأخيرة من انطباعات غير معهودة. بادر فابي بنفسه إلى الموافقة على ما نوت عليه، وهو ينظر إلى وجهها الناحل، ويستمع إلى صوتها الهامد، لأن الأب المحترم لورنتسو قادر على إسداء النصح النافع لها، وتبديد شكوكها... وذهبت فاليريا إلى الدير بحراسة أربعة مرافقين، وبقي فابي في البيت، وراح، إلى حين عودة زوجته، يتجول في الحديقة، محاولاً أن يفهم ما حصل لها، وشاعراً بفزع موصول، وحنق، وألم مبعثه ريب غير محددة... عرّج إلى الجناح غير مرة، إلا أن موتسي لم يعد، وكان الملاوي يحني رأسه بتذلل، وينظر إلى فابي كالصنم، وعلى وجهه البرنزي ابتسامة مخلّقة جداً، أو هذا ما بدا لفابي، على الأقل. وخلال ذلك كانت فاليريا، في اعترافها، قد قصت كل شيء على راهبها مذعورة أكثر مما هي خجلى. أصغى الراهب إليها بانتباه، وباركها، وغفر لها خطيئتها غير المتعمَّدة، بينما كان يقول لنفسه: «سحر، فتنة الابالسة... ولا يجوز إهمال ذلك»... واتجه، مع فاليريا، إلى الدارة، وكأنما لتهدئتها والتسرية عنها كلياً. فزع فابي بعض الشيء حين وقع بصره على الراهب، ولكن هذا الشيخ المحنك فكر مقدّماً بما ينبغي أن يفعله. وحين اختلى بفابي، لم يكشف، بالطبع، عن أسرار الاعتراف، إلا أنه نصحه بأن يبعد عن بيته، لدى سنوح الفرصة، الضيف الذي دعاه والذي كان يفسد خيال فاليريا بقصصه، وأغانيه، وبكل سلوكه. ثم إن موتسي، في رأي الشيخ، وحسب ما يتذكر لم يكن، من قبل أيضاً، راسخ الإيمان، ومن الممكن، بعد أن بقي زمناً طويلاً في بلدان لا يضيئها نور المسيحية، أن يجلب من هناك جرثومة التعاليم الخاطئة، بل ومن الممكن أن يكون قد اطلع على أسرار السحر، ولهذا ورغم ما للصداقة القديمة من حقوق، فإن الحذر الراشد كان يقضي بأن ينفصلا! وافق فابي الراهب المحترم موافقة تامة. بل أن فاليريا تألقت كلياً، حين انبأها زوجها بنصيحة الراهب. وعاد الأب لورنتسو إلى

بيته مودّعاً بتمنيات الزوجين الطيبة، ومحملاً بالهدايا الثمينة للدير وللفقراء.

وعقد فابي عزمه على مصارحة موتسي بعد العشاء مباشرة، ولكن ضيفه الغريب لم يعد في وقت العشاء. عندئذ قرر فابي تأجيل الحديث مع موتسي إلى اليوم التالي، وأوى الزوجان إلى مخدعهما.

- ٩ -

سرعان ما غفت فاليريا، ولكن النوم لم يراود فابي. في هجعة الليل كان يتراءى له أكثر حيوية كل ما رآه وشعر به. القى على نفسه بإلحاح أشد تلك الأسئلة التي لم يجد لها جواباً كالسابق. هل صار موتسي ساحراً شيطانياً فعلاً، ألم يسمم فاليريا؟ إنها مريضة... ولكن بأي مرض؟ وبينما كان يغرق في تفكير مضن، وقد وضع رأسه على يده، وحبس أنفاسه الحارة، طلع البدر مجدداً في السماء الصافية. ومع أشعته صارت تنسكب - أو هذا ما تراءى لفابي؟ - نفحة شبيهة بدفقة عطر خفيفة، من خلال زجاج النوافذ نصف الشفاف... ويتردد همسٍ شهواني ملحاح... وفي تلك البرهة لحظ أن فاليريا قد أخذت تتململ تململاً خفيفاً. ارتجف فابي، وراح ينظر. فإذا هي ترفع جسمها، وتنزل من السرير رجلاً واحدة أول الأمر، ثم الأخرى، وتتجه نحو باب الحديقة، كالسائر في نومه، مثبتة إلى الأمام وبلا حياة، عينيها الكامدتين، مادة ذراعيها أمامها. خرج فابي من باب المخدع الآخر، على الفور، ودار حول ركن البيت خفيفاً، وقفل الباب المؤدي إلى الحديقة... وما كاد يمسك بالقفل، حتى أحس بأن أحداً يجاهد لفتح الباب من الداخل، ويضغط عليه بجسمه... أشد فأشد... ثم صدرت أنّات راعشة...

وخطر في ذهن فابي: «ولكن موتسي لم يعد من المدينة حتى الآن»؟ واندفع نحو الجناح...

فماذا يرى؟.

في الطريقِ المغمور بألق أشعة القمر، رأى موتسي يسير للقياه، كالسائر في نومه أيضاً، ماداً ذراعيه إلى الأمام، فاتحاً عينيه الخاليتين من الحياة... ويهرع فابي إليه، ولكن هذا يسير، في خطو موزون، دون أن يلحظه، ووجهه الجامد يبتسم في ضوء القمر كوجه الملاوي. ويريد فابي أن يناديه

باسمه... ولكنه سمع في تلك اللحظة ارتطام نافذة في البيت، وراءه... ويلتفت...

كانت نافذة المخدع قد انفتحت بالفعل من فوق إلى الأسفل، وفاليريا واقفة عليها، وقد تخطت عتبتها بقدمٍ واحدة... وكأنها تبحث عن موتسي بيديها... مندفعة إليه بكليتها.

واجتاحت صدر فابي ضراوة لا توصف، كموجة طفحت فجأة. وصرخ بشراسة «أيها الساحر اللعين!» وأمسك موتسي من حنجرته بيد واحدة، وتلمَّس بالأخرى الخنجر في حزامه، وغرز حده في جنبه حتى المقبض.

صرخ موتسي صرخة حادة، وضغط على موضع الجرح بكفه، وعاد إلى الجناح راكضاً متعثراً... وفي اللحظة التي طعنه فيها فابي صرخت فاليريا صرخة حادة أيضاً، وسقطت على الأرض، كالمطعونة.

اندفع فابي إليها، ورفعها من الأرض، وحملها إلى السرير، وأخذ يتكلم معها...

ظلت راقدة بلا حراك وقتاً طويلاً، ولكنها فتحت عينيها أخيراً، وتنهدت بعمق وتلاحق وفرح، كمن أُنقذ لتوه من موت محقق. وحين رأت زوجها، طوقت رقبته بذراعيها، وارتمت على صدره، وراحت تغمغم: «أنت، انت، هذا انت». وارتخت ذراعاها شيئاً فشيئاً، وارتمى رأسها إلى الوراء، وهمست بابتسامة هانئة: «حمداً لله، انتهى كل شيء... ولكن كم أنا متعبة!» – وغرقت في نوم عميق ولكن ليس بالثقيل.

– ١٠ –

جلس فابي قرب سريرها، وراح يتأمل فيما حدث، وهو لا يصرف بصره عن وجهها الشاحب الناحل، ولو أن الطمأنينة قد عادت إليه... وفكر أيضاً كيف سيتصرف الآن؟ وعلى أي شيء سيقدم؟ إذا كان قد قتل موتسي – وحين تذكر كيف انغرز حد الخنجر عميقاً في جسده، لم يكن قادراً على أن يشك في ذلك – إذا كان قد قتل موتسي فليس من الممكن إخفاء ذلك! يجب إبلاغ الدوق والقضاة بذلك... ولكن كيف يمكن أن يفسر، أن يحكي هذه الحكاية غير المفهومة؟ فهو قد قتل، في بيته، قريبه وصديقه الحميم!

سيسألونه: ولأي شيء؟ بأية ذريعة؟... ولكن ماذا لو ان موتسي لم يُقتل؟ و لم يستطع فابي ان يظل في ظلام الجهل أكثر من ذلك. اطمأن إلى أن فاليريا نائمة، فنهض من المقعد بحذر، وخرج من البيت، وتوجه نحو الجناح. كان كل شيء هادئاً فيه، إلا ضوءاً واحداً كان يلوح من نافذة واحدة. فتح فابي الباب الخارجي واجم القلب (كان على الباب أثر أصابع مدماة، وعلى رحل الطريق قطرات دم داكنة) واجتاز الحجرة الأولى المظلمة... وتوقف على العتبة مبهوراً.

كان موتسي يرقد منفرج الأطراف في وسط الغرفة على بساط فارسي موسداً رأسه بوسادة من القماش المقصَّب، ومغطى بشال أحمر عريض ذي نقوش سود. وكان وجهه الأصفر كالشمع، بعينيه المغمضتين، وجفنيه المزرقين موجهاً إلى السقف، وبلا أنفاس. كان يبدو ميتاً. وكان الملاوي راكعاً على ركبتيه عند قدميه، ومغطى أيضاً بشال احمر. كان يمسك بيده اليسرى غصناً لنبات مجهول يشبه السرخس، ولا يحيد ببصره عن سيده، منحنياً قليلاً إلى الأمام. وكان ثمة مشعل صغير منغرز في الأرض يشتعل بلهب مخضوضر، ويضيء الغرفة وحده. كان اللهب لا يتأرجح ولا يرسل دخاناً. لم يتحرك الملاوي لدى دخول فابي، سوى أنه وجه إليه عينيه، ثم عاد فثبتهما على موتسي. وكان يرفع بين الحين والآخر، وينزل الغصن، ويهزه في الهواء، وكانت شفتاه الخرساوان تتفتحان ببطء، وتتحركان، وكأنهما تنبسان بكلمات لا صوت لها. كان الخنجر الذي طعن به فابي صديقه يرقد بين الملاوي وموتسي، ضرب الملاوي الحدّ المدمي بذلك الغصن مرة واحدة. ومضت دقيقة... وأخرى. واقترب فابي من الملاوي، وانحنى عليه، وقال بصوت خافض: «مات»؟ هزّ الملاوي رأسه من الأعلى إلى الأسفل، وأخرج يده اليمنى من تحت الشال، وأشار إلى الباب إشارة آمرة. أراد فابي أن يكرر سؤاله، إلا أن اليد الآمرة أعادت حركتها فخرج فابي حانقاً مستغرباً، ولكنه طائع.

وجد فاليريا في نومتها، ووجهها أكثر هدوءاً من ذي قبل. لم يخلع ملابسه، وجلس قرب النافذة متكئاً على يده، وغرق في التفكير من جديد. وطلعت الشمس عليه، وهو في هذه الحال، ولم تستيقظ فاليريا.

كان فابي ينتظر استيقاظها ليذهب إلى فيرارا، وإذا بدق خفيف يصدر من باب المخدع. خرج فابي، ورأى أمامه رئيس خدمه العوز أنتونيو، قال العجوز:

– سينيور، أبلغنا الملاوي الآن، أن السينيور موتسي قد مرض، ويريد الانتقال مع كل أمتعته إلى المدينة، ولهذا يرجوك أن تعيِّن له أشخاصاً ليساعدوه في ترتيب أمتعته، وأن ترسل قبيل الغداء خيولاً للحمولة وأخرى للركوب مع بعض المرافقين، فهل تسمح بذلك؟.

سأل فابي:

– الملاوي هو الذي أخبرك بذلك؟ وبأية طريقة؟ فهو أخرس.

– هذه يا سينيور، الورقة التي سطَّر عليها كل ذلك بلغتنا، وعلى نحو سليم جداً.

– وتقول إن موتسي مريض؟.

– نعم، مريض جداً، وتتعذر رؤيته.

– وهل أرسلوا في طلب الطبيب؟.

– لا، لم يوافق الملاوي.

– وهذا أيضاً كتبه الملاوي لك؟.

– نعم، هو.

صمت فابي قليلاً، وقال أخيراً:

– حسناً، أجرِ ما هو مطلوب. وخرج أنتونيو.

شيَّع فابي خادمه محتاراً، وخطر له: «لم يُقتل، إذن؟»... ولم يعرف هل يفرح أم يأسف. مريض؟ ولكن قبل ساعات قليلة رآه ميتاً!.

عاد فابي إلى فاليريا. استيقظت ورفعت رأسها. تبادل الزوجان نظرة طويلة ذات دلالة. وفجأة قالت فاليريا: «لم يعد موجوداً؟» جفل فابي، ومضت تقول: «كيف... لا؟ معقول أنت... هل رحل؟» انزاح الثقل عن قلب فابي: «لا، لم يرحل بعد، ولكنه سيرحل اليوم». «وأنا لن أراه بعد الآن؟» – «لن تريه» – «وتلك الاحلام لن تتكرر؟» – «لن». وتنهدت فاليريا ثانية في فرح، وعادت الابتسامة الهانئة فظهرت على شفتيها. مدّت

كلتا يديها إلى زوجها. «وننقطع عن الحديث عنه منذ الآن؟ أسامع انت، يا عزيزي؟ وأنا لن أخرج من الحجرة قبل أن يرحل. ابعث لي الآن خادماتي... ولكن، على مهلك، خذ هذا الشيء - وأشارت إلى قلادة لؤلؤية موضوعة على الطاولة، وهي القلادة التي أهداها موتسي لها - وألقها في اعمق آبارنا حالاً. عانقني، أنا زوجتك فاليريا، ولا تعد إلي... حتى... يذهب هو».

تناول فابي القلادة، بدا له ان لؤلؤها قد كمد بريقه، ونفذ ما أمرته به زوجته. ثم راح فابي يجوب الحديقة، وهو ينظر من بعيد إلى الجناح، حيث بدأت جلبة الرحيل قربه. كان الناس يخرجون الصناديق، ويحملون الخيول... ولكن الملاوي لم يكن بينهم. وتملك فابي شعور قاهر بأن ينظر مرة أخرى إلى ما كان يجري في الجناح. تذكر أن باباً خفياً يقع في واجهته الخلفية، يمكن النفاذ من خلاله إلى داخل الحجرة التي كان موتسي يرقد فيها صباحاً. انسل إلى ذلك الباب، فوجده غير مغلق. أزاح طرفي الستارة، وألقى نظرة مترددة.

- ١٢ -

لم يكن موتسي ممدداً على البساط، كما كان من قبل. بل كان في لباس السفر، جالساً على مقعد، ولكنه كان كالجثة، مثلما كان في زيارة فابي الأولى. كان رأسه المتحجر مطروحاً على ظهر المقعد، وذراعاه الممدودتان على ركبتيه بلا حراك تظهران بلون أصفر. وصدره لا يتنفس. وكانت ثمة أقداح مسطحة موضوعة قرب المقعد على الأرض حيث يتناثر عشب يابس. وفي الأقداح سائل داكن اللون يبعث رائحة قوية خانقة تقريباً هي رائحة المسك. وقد التفت حول كل قدح أفعى صغيرة بلون النحاس تبرق عيناها الذهبيتان من حين إلى آخر. وعلى بعد خطوتين من موتسي وقف خادمه الملاوي بقامته الطويلة، مدثراً بطرحة من القماش المقصَّب الزاهي اللون محزمة بذيل نمر، وعلى رأسه قبعة عالية على شكل تاج باباوي ذي قرنين. ولكنه لم يكن بلا حراك، كان ينحني بإجلال تارة، وكأنه يصلي، ثم ينتصب ثانية بكل قامته، بل ويقف على أطراف أصابع رجليه، وتارة يبسط ذراعيه باتساق وعلى سعة، وتارة يحركهما باتجاه موتسي بإلحاح، وكأنما يهدده أو يأمره، ويقطب حاجبيه، ويضرب الأرض بقدمه. والظاهر أن كل هذه الحركات تكلفه جهداً كبيراً، بل وتعذبه. فكانت أنفاسه ثقيلة، والعرق

يتصبب من وجهه. وفجأة جمد في مكانه، واستنشق الهواء ملء صدره، وغضَّن جبينه، ووتر يديه المضمومتين وجذبهما إليه، وكأنما كان يمسك عناناً بهما... وفزع فابي فزعاً لا يوصف، حين رأى رأس موتسي ينفصل ببطء عن ظهر المقعد، ينجذب منقاداً وراء يدي الملاوي... ولما أنزل الملاوي يديه عاد رأس موتسي وانطرح ثقيلاً إلى الخلف. كرر الملاوي حركاته، والرأس يتبعه طائعاً. أخذ السائل الداكن يغلي في الاقداح. وراحت الاقداح نفسها ترن رنيناً خفيفاً، وتحركت الأفاعي النحاسية الصغيرة حول الأقداح متماوجة. وعندئذ تقدم الملاوي خطوة إلى الأمام، ورفع حاجبيه عالياً، وفتح عينيه على سعة، وهزَّ رأسه لموتسي... فإذا بجفني الميت يختلجان، وينفتحان بصعوبة، ومن ورائهما لاحت الحدقتان كامدتين كقطعتين من الرصاص. وتألق وجه الملاوي بانتصار فخور، وفرح حقود تقريباً، وفتح شفتيه على سعة، واندفع من أعماق حلقه عويل ممطوط جاهد... انفتحت شفتا موتسي أيضاً، وارتعشتا بأنين خافت رداً على ذلك الصوت غير الإنساني...

إلا أن فابي لم يعد يتحمل، فقد تصور انه يشهد تعاويذ شيطانية! فصرخ أيضاً، واندفع راكضاً إلى بيته، لا يلوي على شيء، مردداً الصلوات، راسماً علامة الصليب.

- ١٣ -

بعد زهاء ثلاث ساعات جاء أنتونيو إليه بأن كل شيء قد تهيأ، وجميع الأمتعة قد حُزِمت وأن السنيور موتسي يتهيأ للرحيل. لم يرد فابي على خادمه بأية كلمة، وخرج إلى الشرفة. كان الجناح يُرى من عليها. وكانت بعض خيول الحمل تتجمع أمام لجناح، وعند مدخله تماماً اقتيد فرس ضخم أسحم ذو سرج عريض أعد لراكبين. كما كان الخدم الحاسرو الرؤوس يقفون هناك، ومعهم المرافقون المسلحون. فتح باب الجناح وظهر موتسي يسنده الملاوي وقد عاد إلى لباسه الاعتيادي. كان وجه موتسي كوجه الميت، وذراعاه مسبلتين، مثل ذراعي الميت، ولكنه كان يحرك... نعم! كان يحرك قدميه، وحين وضع على الفرس، رفع قامته، وعثر على العنان بالتلمس. دسَّ الملاوي قدميه في الركاب، وقفز وراءه على السرج، وطوَّق جذعه بذراعه، وتحرك الركب كله. سارت

الخيول بتؤدة، وحين انعطفت أمام البيت، خيل إلى فابي انه رأى نقطتين بيضاوين صغيرتين لمعتا على وجه موتسي الداكن... ألعلهما حدقتاه موجهتين إليه؟ والملاوي وحده انحنى له بالتحية... بسخرية، على العادة.

وهل رأت فاليريا كل ذلك؟ كانت صفاقات نوافذها مغلقة... ولكن ربما كانت تقف وراءها.

- ١٤ -

جاءت إلى غرفة الطعام في وقت الغداء، وكانت هادئة جداً، ورقيقة، ولكنها لم تزل تشكو من التعب. إلا أن الهلع السابق لم يكن بادياً عليها، ولا ذلك الذهول المستديم السابق، والخوف الخفي. وفي اليوم التالي، حين عاد فابي، بعد رحيل موتسي، يعمل في صورتها من جديد رأى في قسماتها ذلك التعبير الصافي الذي اربكه كثيراً اختفاؤه الخاطف... ومضت الفرشاة على الجنفاص خفيفة واثقة.

وعاد الزوجان إلى حياتهما السابقة. واختفى موتسي بالنسبة لهما، كأن لم يكن له وجود قط. وبدا وكأن فابي وفاليريا اتفقا على ألا يذكراه بنأمة واحدة، ولا يستفسرا عن مصيره. وعلى العموم بقي هذا المصير مجهولاً للجميع. لقد اختفى موتسي، بالفعل، وكأن الأرض انشقت وابتلعته. وذات مرة بدا لفابي أنه ملزم على أن يقص لفاليريا ما حدث بالضبط في تلك الليلة المشؤومة... إلا أنها حدست ما كان يريده، على ما يظهر، وحبست أنفاسها، وتقلصت عيناها، وكأنها كانت تتوقع ضربة... وفهمها فابي، فلم يوجه تلك الضربة إليها.

وفي يوم رائع من أيام الخريف أكمل فابي صورة القديسة سيسيليا. وكانت فاليريا جالسة وراء الأرغن، تمرر أصابعها على مفاتيحه... وفجأة، ومن حيث لا تدري، طلعت من تحت يديها أغنية الحب المنتصر التي كان موتسي قد عزفها ذات مرة. وفي تلك اللحظة، احست، لأول مرة في حياتها الزوجية، رعشة حياة جديدة تولد في داخلها... ارتعدت فاليريا، وتوقفت... فماذا كان يعني هذا؟ معقول...

وكانت المخطوطة تنتهي بهذه الكلمة.

١٨٨١

كلارا ميليتش[1] (بعد الوفاة)

١- كلارا ميليتش (بعد الوفاة): نشرت لأول مرة في مجلة «فيسنيك يفروبي»، ١٨٨٣، العدد الأول مذيلة بهذا التاريخ: «بوجيفال، تشرين الأول، ١٨٨٢».
كتبت هذه الرواية القصيرة في مدة وجيزة جداً، في آب وأيلول ١٨٨٢.
كان اسمها الأول: «بعد الوفاة». غير أن محرر المجلة وجد هذا الاسم كئيباً، واقترح تسمية الرواية باسم البطلة. وفي الترجمة الفرنسية للرواية احتفظ تورغينيف باسمها الأول – Après la mort.
كان أبطال الرواية أناساً حقيقيين. فقد التقى تورغينيف بـ«ف. د. آلينيتسين» الماجستير في علم الحيوان، في بيت الشاعر بولونسي. وقد عرف منهما قصة حب آلينيتسين. ذات مرة رأى تورغينيف الممثلة ي. ب. كادمينا في المسرح عندما كانت مغنية في الأوبرا. (كانت كادمينا قد أنهت كونسرفاتور موسكو، وصارت تغني على مسرح البلشوي، ثم في مسرح مارينسكي في بطرسبورغ). وفي ٤ تشرين الثاني ١٨٨١، وقد صارت ممثلة درامية، انتحرت بتناول السم أثناء تمثيلها. وقد أحدثت هذه القصة ضجة، وألفت عنها أعمالاً أدبية عديدة.
«إن قصة كادمينا... كانت بالنسبة لي دافعاً فقط لكتابة روايتي القصيرة. فقد الفت أنا سيرة كلارا الحياتية، وكذلك علاقتها بأراتوف، وهو نموذج بقي عالقاً في ذاكرتي منذ سن الشباب».
وقد ابتعد تورغينيف كثيراً عن الأشخاص الفعليين في رسمه للشخصيات، وظروف حياتهم، وفي تصوير العملية السايكولوجية نفسها للتعرف على شخصية إنسان صار في عداد الموتى.
وحظيت رواية تورغينيف القصيرة هذه بقبول. فامتدحت كثيراً من قبل غونتشاروف، والكاتب الروسي المشهور ليسكوف، الذي ظل طول شهرين أو ثلاثة أشهر، حسب رواية ابنه: «يلاحق الجميع، ولا يتحدث معهم إلا عن رواية تورغينيف القصيرة الجديدة».
وحلّل الناقد الأدبي بافل انينكوف مناقب رواية «كلارا ميليتش» في رسالة ضافية إلى تورغينيف في ١٩ أيلول ١٨٨٢ حيث كتب: «كلارا شخصية حية، ولغز

في ربيع ١٨٧٨ كان يعيش في بيت خشبي صغير في منطقة شابلوفكا من موسكو، شاب في نحو الخامسة والعشرين يدعى ياكوف أراتوف، مع عمته بلاتونيدا إيفانوفنا شقيقة أبيه، وهي عانس عجوز تخطت الخمسين. كانت تدير له شؤون بيته، وتشرف على النفقات التي لم يكن يلم بها قط. و لم يكن له أقارب آخرون. وكان أبوه، وهو نبيل غير موسر، من مقاطعة «ت» قد انتقل منذ عدة سنوات إلى موسكو معه ومع بلاتونيدا إيفانوفنا التي كان يسميها «بلاتوشا» دائماً، وكان ابن أخيها يسميها بهذا الاسم أيضاً. كان العجوز أراتوف بانتقاله من القرية التي كان الجميع يعيشون فيها حتى ذلك الحين، إلى العاصمة يستهدف ادخال ابنه إلى الجامعة، وكان قد أعده بنفسه لها. واشترى، بثمن بخس، بيتاً صغيراً في احد الشوارع القصية، وأقام فيه مع جميع كتبه و«مستحضراته». وكان كثير الكتب والمستحضرات، لأنه كان رجلاً لا يخلو من علمانية... «غريب أطوار صرفاً»، حسب أقوال جيرانه. بل كان معروفاً لديهم بالساحر، حتى حصل على لقب «المراعي للغرائز». وكان يزاول الكيمياء، وعلم المعادن، والحشرات، والنبات، والطب. وكان يعالج المرضى المتطوعين بالأعشاب، والمساحيق المعدنية من ابتكاره، على طريقة باراتسيلوس[1]. وبهذه المساحيق نفسها أودى إلى القبر زوجته الشابة الجميلة، والنحيلة جداً. وكان يحبها حباً جماً، ورُزِق منها ولده الوحيد.

أدبي في الوقت ذاته» و«شعور أراتوف» الانتقادي من كلارا يمتزج «بالعاطفة والحب»، وقد صوّر ذلك «برهافة وقوة تأثير» و«وأية مهارة يتطلبها الوقوف عند الحد الذي يبدأ منه ما فوق الطبيعة، والانطلاق الصوفي، والوقوف معهما في أرض واحدة تقريباً، وتمسك زمامهما». «والصفحات الأخيرة التي تصف رؤيا أراتوف هي نفائس لهذا النوع من الوصف. والقارئ لا يزايله الايمان الصادق في واقعية هلوسات أراتوف بينما يستشعر تحتها طوال الوقت سلكاً غير مرئي من التوضيح الطبيعي لواقع الحال».

أثار الطابع الخيالي لقصة تورغينيف الجديدة آراء مختلفة لدى النقاد. وقد اعترف معظمهم بمهارة الكاتب العالية.

١- باراتسيلوس (Paracelsus) تيوفراست بومباست (١٤٩٣ - ١٥٤١) طبيب وطبيعي سويسري.

وبهذه المساحيق المعدنية أيضاً أتلف، بقدر كبير، صحة ابنه، التي كان، على العكس من ذلك، يريد تقويتها، واجداً فيه فقر دم وميلاً إلى الإصابة بالسل، وكلاهما موروث من أمه. ولقب «الساحر»، بالمناسبة، جاءه لأنه كان يعتبر نفسه حفيد حفيد بروس[1] الشهير - ليس من صلبه، بالطبع - وتكريماً له سمِّي ابنه ياكوف. كان إنساناً تنطبق عليه «طيبة القلب»، ولكنه كان سوداوياً في طبعه، بطيئاً، متخوفاً، ميَّالاً إلى كل ما هو غامض وخارق... وكان من عادته أن يهتف في شيء من الهمس «آ»، ومات وهذه الـ«آ» على شفتيه، بعد سنتين من انتقاله إلى موسكو.

كان ابنه ياكوف في مظهره لا يشبه أباه الذي كان قبيحاً وحركاته خرقاء غير متناسقة، بل كان اشبه بأمه. أخذ منها قسماتها الرقيقة الحلوة، وشعرها الناعم الرمادي اللون، وانفها الصغير المحدودب، وشفتيها البارزتين الطفوليتين، وعينيها الوسيعتين الرماديتين على اخضرار مع شيء من الرقة، ورموشها الوطف. إلا أنه كان يشبه أباه في الخلق. فكان لوجهه المختلف عن وجه أبيه مسحة من التعبير المرتسم على وجه الأب. وكان له يدان معقَّدتان، وصدر خاسف، مثل صدر أراتوف العجوز الذي لا يكاد يليق به أن يسمى بالعجوز، على أية حال، لأنه لم يعش حتى إلى الخمسين. وقد دخل ابنه إلى كلية الفيزياء والرياضيات في الجامعة، والأب لا يزال حياً، إلا أنه لم يكمل الدراسة، لا لكسله. بل لأنه كان يعتقد ان الإنسان لا يتعلم في الجامعة أكثر مما يمكن أن يتعلمه في البيت. أما الدبلوم فلم يكن يصبو إليه، لأنه لم يكن ينوي الانخراط في وظيفة. كان يتحاشى رفاقه، و لم يتعرف على أي واحد منهم تقريباً، وكان يتجنب النساء، بشكل خاص، وعاش حياة منعزلة جداً، غارقاً في الكتب. كان يتجنب النساء، رغم أن له قلباً رقيقاً جداً، ويأسره الجمال... بل واقتنى كتاب «التذكار» الانجليزي بطبعته الفاخرة، وراح (ويا للعار!) يتمتع بالرسوم التي «تزيِّنه» مختلف الفاتنات من إضراب غولنار وميدورا... ولكن خجله الفطري كان يحده باستمرار. في البيت احتل حجرة مكتب

١- بروس ياكوف (١٦٧٠ - ١٧٣٥) مساعد الإمبراطور الروسي بطرس الأول، ودبلوماسي، وقائد عسكري وعالم. ألَّف تقويماً يحتوي على عرض مبسّط لكثير من المعلومات العلمية الهامة.

أبيه التي كانت غرفة نومه أيضاً، وسريره أيضاً كان نفس السرير الذي توفي عليه أبوه.

وكانت عمته، تلك التي كان يسميها بلاتوشا، السند العظيم لكل وجوده، رفيقه الوفي وصديقه، رغم أنه لا يكاد يبادلها عشر كلمات في اليوم، ولكنه لا يستطيع بدونها أن يخطو خطوة واحدة. وكانت هذه مخلوقاً طويل الوجه طويل الأسنان ذا عينين شاحبتين في وجه شاحب يعلوه تعبير لا يتغير ما بين الحزن والهلع المغموم. كانت تجوب البيت كالظل بخطوات لا تسمع، وهي دائماً في ثوبها الرمادي وشالها الرمادي الذي تفوح منه رائحة الكافور، وتتحسر، وتهمس بالأدعية، ولا سيما دعاءها المفضل المؤلف من كلمتين: «عونك، يا رب!» وتسيّر أمور البيت بكفاءة كبيرة، وتحرص على كل كوبيك، وتشتري كل شيء بنفسها. وكانت تحب ابن أخيها حب العبادة، وتأسو على صحته - تخاف كل شيء - لا عليها، بل عليه، وما إن تتوهم شيئاً ما، حتى تنسل إليه فوراً، وتضع له قدحاً من الأعشاب المغلية على منضدة الكتابة، أو تمسّد ظهره بيديها الرخيتين كالقطن. و لم يكن ياكوف يتضايق من هذه العناية، إلا أنه لم يكن يشرب الاعشاب المغلية، ولكنه كان يهز رأسه استحساناً. وعلى العموم لم يكن في وسعه أن يتباهى بصحته. وكان شديد التأثر، عصبياً، موسوساً، يعاني من خفقان القلب، ومن ضيق النفس أحياناً. وكان مثل أبيه يعتقد بأن في الطبيعة والنفس الإنسانية أسراراً يمكن تحسسها أحياناً، ولكن إدراكها مستحيل. وكان يؤمن بوجود بعض القوى والنزعات، الخيِّرة أحياناً، والعدوانية في الغالب الأعم... كما كان يؤمن بالعلم، وفي جدارته، واهميته. وفي المدة الأخيرة شغف بالتصوير الشمسي. وكانت رائحة المحاليل المستخدمة في ذلك تقلق العمة العجوز كثيراً، وفي هذا أيضاً، لا عليها، بل على ياشا[1]، على صدره، ولكنه، رغم كل ما في طبعه من نعومة، كان ينطوي على قدر غير قليل من العناد، فكان يستمر بالحاح في العمل الذي يستهويه. وكانت بلاتوشا ترضخ، إلا أنها كانت تتحسر، وتهمس: «عونك، يا رب!» أكثر من ذي قبل، وهي تنظر إلى أصابعه المصبوغة باليود.

١- صيغة التحبب من ياكوف. - المترجم.

كان ياكوف، كما ذكر آنفاً، يتحاشى رفاقه، ومع ذلك فقد تآلف مع أحدهم كثيراً، وصار يلتقيه غالباً، حتى بعد ان تخرج هذا الرفيق في الجامعة، واشتغل في وظيفة قليلة التبعات، على أية حال. فقد «حشر نفسه»، على حد تعبيره، في بناء كنيسة المنقذ، رغم أنه لا يفقه شيئاً في المعمار. والغريب أن صديق أراتوف الوحيد هذا، الألماني المسمَّى كوبفر تروِّس إلى حد أنه لم يكن يعرف أية كلمة ألمانية، بل كان إذا شتم أحداً سماه «ألمانياً»، ولم يكن له أي شيء مشترك مع صديقه، على ما يبدو. كن شاباف أسود الشعر أجعدد، مورَّد الوجنين، مراحاً، محباً للكلام، شديد الهواية بمعاشرة النساء التي كان أراتوف يتحاشاها. كان، في الحقيقة غالباً ما يتناول فطوره وغداءه عنده، بل ولقلة موارده كان يقترض منه مبالغ قليلة من النقود، ولكن لم يكن هذا ما يحمل الألماني السمح على الإكثار من زيارة البيت المتواضع في شابلوفكا. لقد كان يروق له نقاء ياكوف الروحي، «مثاليته» كنقيض، ربما، لما كان يراه كل يوم ويصادفه، أو ربما كان دمه الألماني يتجلى بهذا الولع ذاته بالشاب «المثالي». بينما كان ياكوف معجباً بصراحة كوبفر الصميمة، كم كان هذا الناسك الشاب يتلذذ في سره، بل وينفعل بحكايات كوبفر عن المسارح والحفلات الموسيقية والحفلات الراقصة، التي كان يتردد عليها بكثرة، وما يحكيه عموماً عن العالم المستغرب الذي لم يتجاسر ياكوف على الدخول فيه، ولكن ذلك لم يكن يثير فيه الرغبة في اختبار كل ذلك بنفسه. وكانت بلاتوشا تكرم كوبفر، ولو أنها تعتبره قليل الحشمة جداً في بعض الأحيان، ولكنها كانت تشعر وتفهم غريزياً أنه متعلق بعزيزها ياكوف عن إخلاص، فكانت تتحمل هذا الضيف الصاخب، بل وتكرمه.

– ٢ –

في تلك الفترة التي نتحدث عنها كانت تعيش في موسكو أرملة هي أميرة جورجية، وشخصية مبهمة ومريبة تقريباً. كانت تقارب الأربعين من العمر، ولعلها، في شبابها، كانت تزهو بذلك الجمال الشرقي الذي سرعان ما يذبل. وهي الآن تتبودر وتتزين بالحمرة، وتصبغ شعرها بصبغة صفراء. وكانت تدور عنها إشاعات مختلفة ليست لصالحها تماماً، وليست واضحة تماماً. لم يكن أحد على معرفة بزوجها، ولم تمكث في أية مدينة مدة طويلة. ولم يكن لها أطفال، ولا ثروة، ولكنها كانت تعيش في سعة بالديون أو بغير ذلك، وكانت

تدير صالوناً، على حد التعبير الشائع. وتستقبل زواراً أخلاطاً، معظمهم من الشبان. وكل ما في بيتها عليه طابع الرخص والزيف والوقتي، ابتداء من زينتها وأثاثها والأكل الذي تقدمه، وانتهاء بعربتها وخدمها... ولكن الأميرة نفسها وضيوفها لم يكونوا يطالبون بأحسن من ذلك، على ما يبدو. كانت الأميرة مشتهرة بهوايتها بالموسيقى والأدب، وبرعايتها للفنانين والرسامين، وبالفعل، كانت تهتم بكل هذه «المسائل» - بل وإلى حد الطرب - والطرب غير المصطنع كلياً. وليس من شك في أن العرق الاستيتكي ينبض فيها. كما أنها كانت لينة الجانب كثيراً، مؤدبة، وبدون نفج أو جموح، والكثيرون لم يكونوا يحدسون أنها، في جوهرها، طيبة جداً، رقيقة القلب، مجاملة... وهذه صفات نادرة، والأكثر من ذلك ثمينة، وفي مثل هذا النوع من الأشخاص بالذات! وقد قال أحد الاذكياء عنها: «امرأة فارغة، ولكنها ستدخل الجنة لا محالة، لأنها تغفر كل شيء، وكل شيء سيغفر لها!» كما كان يقال عنها إنها، حين كانت تترك مدينة كانت دائماً تخلف فيها من الدائنين بقدر ما تخلف من الذين أنعمت عليهم. فإن قلبها الرقيق يميل حيث تريد له أن يميل.

ومثلما ينبغي أن يُنتظر وجد كوبفر نفسه في بيتها، وصار قريباً إليها... وكانت ألسنة السوء تؤكد أنه صار قريباً اكثر من اللازم. وهو نفسه كان يتكلم عنها بود دائماً وباحترام، ويصفها بأنها امرأة من ذهب - مهما قيل عنها! - ويثق بحبها للفن، وبفهمها له! وذات مرة، بعد الغداء في بيت أراتوف أخذ، اثناء حديثه عن الأميرة وحفلاتها، يقنع ياكوف بأن يخرج، ولو مرة واحدة، عن حياته الاعتزالية، ويسمح له، لكوبفر، أن يقدمه إلى صديقته. وفي البداية لم يرد ياكوف حتى أن يستمع إليه، وأخيراً هتف كوبفر:

- وأنت ماذا تظن؟ بأية صورة سيتم هذا التقديم؟ مجرد أن آخذك، بالشكل الذي أنت فيه الآن، في سترتك هذه، واذهب بك إلى الحفلة في بيتها. لا توجد هناك اية اتيكيتات، يا أخ! وأنت رجل عالم، إلى جانب حبك للأدب والموسيقى (وبالفعل كان في مكتب أراتوف بيانو عمودي كان يداعب مفاتيحه أحيانا) وفي بيتها ستجد الكثير من كل هذا!... ستلتقي عندها بأناس جذابين، بدون أية ادعاءات! ثم، وأخيراً، في مثل عمرك وفي مثل محيَّاك (خفَّض أراتوف بصره، وهزّ ذراعه معترضاً) نعم، نعم، في مثل محياك لا يجوز تحاشي المجتمع،

المجتمع الراقي بهذا الشكل! أنا لا آخذك إلى جنرالات! على العموم أنا نفسي لا أعرف جنرالات. فلا تعاند، يا عزيزي! الأخلاق شيء حسن، مبجل... ولكن لِمَ الإسراف في الزهد؟ فأنت لا تعد نفسك لتكون راهباً!.

ومع ذلك فقد ظل أراتوف يعاند. ولكن بلاتونيدا إيفانوفنا خفَّت لنصرة كوبفر على غير انتظار. ورغم أنها لم تكن تعرف ما تعني كلمة «زهد»، إلا أنها رأت لا ضير في أن يرفه ياشا عن نفسه، وينظر إلى الناس، ويدع الآخرين ينظرون إليه، وأضافت: «على الأخص وانني واثقة في فيدور فيدوروفيتش! فهو لن يأخذك إلى مكان مريب!...» - فأكد كوبفر لبلاتونيدا إيفانوفنا التي ألقت عليه، رغم وثوقها، نظرات قلقة: «سأعيده إليك بكل طهارته!». واحمرَّ أراتوف حتى أذنيه، ولكنه كفَّ عن الاعتراض.

وانتهى الأمر إلى أن يأخذه كوبفر، في اليوم التالي، إلى أمسية عند الأميرة. إلا أن أراتوف لم يمكث طويلاً هناك. فهو، اولاً، وجد عندها ما يقرب من عشرين ضيفاً رجالاً ونساء، ولنقل، إنهم جذابون، إلا أنهم غرباء على أية حال. وقد ضايقه هذا، رغم أنه لم يضطر إلى الحديث إلا قليلاً جداً - وهذا ما كان يخشاه اكثر من أي شيء آخر. وثانياً لم ترق له ربة البيت نفسها، رغم أنها استقبلته بفرح شديد وبلا كلفة. لم يعجبه أي شيء فيها: لا وجهها المزوَّق، ولا عقصات شعرها، ولا صوتها المبحوح المعسَّل، ولا ضحكتها الزاعقة، ولا طريقتها في تقليب حدقيها إلى فوق، ولا فتحة ثوبها الواسعة عند الصدر، ولا تلك الأصابع الصقيلة الممتلئة بخواتمها العديدة!... فانزوى في أحد الأركان، وراح يجيل بصره بسرعة في جميع وجوه الضيوف، حتى دون أن يتبينها بوضوح، أو يثبت عينيه عند قدميه بإصرار. وأخيراً حين جلس إلى البيانو فنان زائر ذو وجه ضامر، وشعر مفرط في الطول، وعدسة نظارته الوحيدة تحت حاجبه المنكمش، وأخذ يطنطن بفنطازيا ليست عن موضوعات فاغنرية[1] رافعاً ذراعيه إلى الأعلى ليهبط بهما على المفاتيح

١- ليست فيرينتس (١٨١١ ــ ١٨٤٦) عازف بيانو مجري ومؤلف موسيقى. فاغنر ريخارد (١٨١٣ ــ ١٨٨٣) مؤلف موسيقى ألماني شهير. والمقصود هنا «فانطازيا على موضوع «رينتسا» لليست (١٨٥٩).

محركاً الدوَّاسة بقدميه، لم يتحمل أراتـوف، وانسل خارجاً، حاملاً معه انطباعاً غامضاً مرهقاً، مشوباً بشيء غير مفهوم له نفسه، ولكنه ذو اعتبار، بل ومنذر.

- ٣ -

جاء كوبفر في اليوم التالي للغداء، إلا أنه لم يرد الاسترسال في الحديث عن الأمسية الماضية، بل ولم يعاتب أراتوف على هروبه السريع، سوى أنه أسف على عدم انتظار العشاء، حيث قدِّمت الشمبانيا: (ولنقل بين القوسين إنها من صنع نيجني نوفغورود[1]. ومن المحتمل أن كوبفر ادرك عدم جدوى إقدامه على تنشيط صديقه، و«عدم صلاح» أراتوف كلياً إلى هذا المجتمع ونمط الحياة هذا. ولم يبادر أراتوف من جانبه ليتحدث لا عن الأميرة، ولا عن الأمسية البارحة. ولم تكن بلاتونيدا إيفانوفنا تعرف أتفرح من فشل هذه المحاولة الأولى أم تأسف عليه؟ واستقرت، أخيراً، على أن صحة ياشا ربما ستتأذى من مثل هذه الزيارات، وهدأت. خرج كوبفر بعد الغداء مباشرة، وغاب أسبوعاً كاملاً لم يزرهما فيه. لا لأنه غضب على أراتوف لفشله فيما أوصاه به - فقد كان هذا الطيب القلب غير قادر على ذلك - بل لأنه وجد شغلاً آخر، على ما يبدو، استغرق كل وقته، وكل أفكاره، ولهذا لم يكن يتردد على بيت أراتوف، فيما بعد، إلا نادراً، وفي حالة من شرود الذهن، ولا يتكلم إلا قليلاً، وسرعان ما اختفى... ومضى أراتوف يعيش حياته السابقة، إلا أن شيئاً كالعلقة قد ترسب في نفسه. فقد ظل يتذكر شيئاً لا يعرف بالضبط ما هو، وكان لهذا «الشيء» علاقة بالأمسية التي قضاها عند الأميرة. ومع كل هذا لم تكن لديه أية رغبة في العودة إليها، وصار المجتمع الذي رأى جزءاً منه في بيتها بأم عينيه بغيضاً إليه اكثر من أي وقت مضى. وعلى هذا النحو انقضت ستة أسابيع، أو نحوها.

وفي صباح أحد الأيام جاء كوبفر، وعلى وجهه مسحة من الارتباك في هذه المرة، وقال له بضحكة مصطنعة:

- أنا أعرف أن تلك الزيارة لم تكن على ذوقك. ومع ذلك آمل ان توافق على اقتراحي... ولا ترفض رجائي!.

١- مدينة في أواسط الفولغا (مدينة غوركي حالياً).

سأل أراتوف:

- ما الخبر؟.

مضى كوبفر يقول في حيوية متزايدة:

- طيب، هناك جماعة من الهواة، الفنانين تنظم، من وقت إلى آخر، مطالعات، حفلات موسيقية، وحتى عروضاً مسرحية لأعمال البر...

فقاطعه أراتوف:

- والأميرة تساهم؟.

- الأميرة دائماً تساهم في الاعمال الخيرية. ولكن هذا لا يهم. هيأنا حفلة صباحية أدبية موسيقية... وفي هذه الحفلة الصباحية يمكنك أن تستمع إلى فتاة... فتاة فريدة! ونحن حتى الآن لا نعرف جيداً أهي راشيل أم فياردو[1] لأن غناءها ممتاز، كما أن لها إلقاء جيداً وتمثل... موهبة، يا أخي، من الدرجة الأولى! ولا مبالغة في كلامي... طيب، ألا تشتري تذكرة؟ بخمسة روبلات، إذا كان في الصف الأول.

سأل أراتوف:

- ومن أين طلعت هذه الفتاة المدهشة؟.

كشّر كوبفر عن أسنانه.

- ليس لي جواب عن ذلك... في المدة الأخيرة كانت تعيش عند الأميرة. وأنت تعرف أن الأميرة ترعى كل الذين على شاكلتها... ثم من المحتمل انك رأيتها في ذلك المساء.

ارتعش أراتوف في داخله ارتعاشة خفيفة... ولكنه لم يقل شيئاً.

واستسل كوبفر يقول:

- بل وكانت تمثل في بعض الأقاليم... وهي، على العموم، خُلِقت للمسرح، وسترى بنفسك!.

١- ايليزا (Rachel) راشيل (١٨٢٠ - ١٨٥٨) ممثلة تراجيدية فرنسية لامعة جاءت إلى روسيا في جولة فنية عام ١٨٥٠. فياردو - غارسيا (Viardo Garcia) بولينا (١٨٢١ - ١٩١٠) مغنية فرنسية شهيرة.

سأل أراتوف: ما اسمها؟.

- كلارا...

فعاد أراتوف يقاطعه:

- كلارا؟ غير ممكن!.

- ولماذا غير ممكن؟ كلارا... كلارا ميليتش. وهذا ليس اسمها الحقيقي... ولكن الناس يسمونها بهذا الاسم. وستغني رومانس غلينكا... وتشايكوفسكي، وبعدها ستقرأ رسالة من «يفغيني اونيغين»[1]. إذن؟ هل ستأخذ تذكرة؟.

- متى سيكون ذلك؟.

- غداً... غداً في الساعة الواحدة والنصف، في قاعة خاصة في اوستوجينكا[2]... سآتي لآخذك. تذكرة بخمسة روبلات؟ هذه هي... لا، هذه بثلاثة روبلات. هذه هي. وهذا هو البرنامج، أنا أحد المنظمين.

صمت أراتوف يفكر. وفي تلك اللحظة دخلت بلاتونيدا إيفانوفنا، وحدَّقت في وجهه، وتملكها الفزع فجأة، هتفت:

- ياشا، ماذا بك؟ لماذا أنت مرتبك بهذا الشكل؟ أي شيء قلت له، يا فيدور فيدوروفيتش؟.

إلا أن أراتوف لم يدع صديقه يرد على سؤال عمته، فقد اختطف التذكرة التي كان قد مدَّها إليه، وأمر بلاتونيدا إيفانوفنا بأن تعطي لكوبفر خمسة روبلات على الفور.

ذهلت هذه، وراحت ترمش بعينيها... ولكنها قدمت النقود لكوبفر صامتة. فقد صاح ياكوف عليها صيحة حادة جداً.

- أؤكد لك، اعجوبة من الأعاجيب! - هتف كوبفر، واندفع إلى الباب

١- غلينكا ميخائيل (١٨٠٤ - ١٨٥٧)، تشايكوفسكي بيتر (١٨٤٠ - ١٨٩٣) - مؤلفان موسيقيان روسيان شهيران. و«يفغيني اونيغين» رواية شعرية للشاعر الروسي العظيم ألكسندر بوشكين (١٧٩٩ - ١٨٣٧).

٢- أوستوجينكا - اسم أحد الشوارع في موسكو القديمة.

- انتظرني غداً!.

قال أراتوف في أثره:

- وعيناها سوداوان؟.

- كالفحم!.

ردَّ كوبفر بمرح، واختفى.

ذهب أراتوف إلى حجرته، بينما بقيت بلاتونيدا إيفانوفنا في مكانها تردد بهمس: «عونك، يا رب! عونك، يا رب!».

- ٤ -

حين وصل أراتوف وكوبفر كانت القاعة الكبيرة في بيت لأحد الناس في اوستوجينكا قد امتلأ نصفها بالزائرين. وكانت العروض المسرحية تقدم في هذه القاعة أحياناً، ولكن القاعة في هذه المرة كانت خالية من الديكورات ومن الستارة. فقد اقتصر منظمو الحفلة «الصباحية» على إقامة المنصة في أحد طرفي القاعة، ووضعوا عليها بيانو، وحمَّالتين للنوطات، وبعض الكراسي، ومنضدة عليها دورق ماء، وقدح، ثم غطوا بالجوخ الأحمر الباب المؤدي إلى الحجرة المخصصة للفنانين... وكانت الأميرة تجلس في الصف الأول في ثوب أخضر يانع، بينما جلس أراتوف على بعد عنها، بعد أن تبادل معها انحناءة التحية بشكل لا يكاد يلحظ. وكان الجمهور من ذلك النوع الذي يوصف بالخليط، ومعظمه شبان من طلبة المعاهد. وكان كوبفر، بوصفه أحد المنظمين، يروح ويجيء، والشدَّة البيضاء على طرف كم سترته، ويبذل قصارى جهده. كانت الأميرة قلقة، على ما يظهر، تتلفت، وترسل الابتسامات إلى جميع الجهات، وتتحدث إلى الجالسين بجوارها... وليس حولها غير الرجال. وكان أول مَنْ ظهر على المنصة عازف فليوت يبدو كالمسلول، راح يبصق بدأب وهمة... العفو! راح يصفر بأغنية ناحلة مسلولة أيضاً. وهتف شخصان «برافو!» استحساناً له. ثم وقف رجل بدين ذو نظارة، رزين الهيئة جداً، بل وجهم المحيا، وقرأ بصوت جهير قصة

لشيدرين[1]؛ صفقوا لها، لا له، ثم ظهر عازف البيانو، الذي كان أراتوف قد رآه في الامسية السابقة، ودقّ فنطازيا ليست نفسها، وطلبوا منه إعادة العزف. راح ينحني متكئاً بذراعه على ظهر المقعد، وبعد كل انحناءة يتهدل شعره، مثل ليست تماماً! وأخيراً، وبعد فترة طويلة نوعاً ما، تحركت القماشة الحمراء على الباب وراء المنصة، وانفرجت على الجانبين، وظهرت كلارا ميليتش. وضجت القاعة بالتصفيق. تقدمت كلارا إلى الجزء الأمامي من المنصة بخطى متهيبة، وتوقفت، وبقيت جامدة، وقد طوت أمامها يديها الكبيرتين الجميلتين غير المقفزتين، دون ان تثني ركبتيها بالتحية، ولا تحني رأسها، ولا تبتسم.

كانت فتاة في نحو التاسعة عشرة، طويلة، عريضة المنكبين قليلاً، ولكنها حسنة البنيان. والوجه أسمر، ما بين الطراز اليهودي والغجري. والعينان صغيرتان، سوداوان، تحت حاجبين كثيفين متصلين تقريباً، والأنف مستقيم مرفوع قليلاً، والشفتان رقيقتان مع تقوس جميل ولكنه حاد. وكانت لها ضفيرة سوداء ضخمة، ثقيلة حتى في ظاهرها، وجبين ضيق، جامد كالحجري، وأذنان صغيرتان... والوجه كله مستغرق، صارم تقريباً. وكان كل ما فيها يفصح عن نفس مشبوبة العاطفة، عفوية – ليست طيبة أو ذكية جداً – ولكنها موهوبة.

ظلت بعض الوقت لا ترفع بصرها. إلا أنها ارتعشت بغتة، واجالت في صفوف الحاضرين نظراتها المتفرسة، ولكن بدون امعان، كالغائصة في داخلها... «أي عينين مأساويتين لها!» – قال ذلك غندور أشيب الشعر كان جالساً وراء أراتوف له وجه محظية من ريفيل، معروف في موسكو بأنه متعاون ومخبر شرطة. وكان هذا الغندور أبله أراد أن يتفوه ببلاهة... ولكنه قال الحقيقة! كان أراتوف منذ ظهور كلارا لا يصرف بصره عنها، إلا أنه في تلك اللحظة فقط تذكر أنه قد رآها، عند الأميرة، بالفعل. وليس هذا فحسب، بل ولاحظ أنها كانت تنظر إليه بعينيها الداكنتين المتفرستين بإصرار ظاهر. والآن

١– سالتيكوف شيدرين ميخائيل (١٨٢٦ – ١٨٨٩) كاتب ساخر روسي رائع، وديمقراطي ثوري، مؤلف بعض السلسلات من الأوتشركات الساخرة.

أيضاً... أم هذا ما تراءى له؟ – حين رأته في الصف الأول بدت وكأنها قد سُرَّت، واحمرت – ومرة أخرى راحت تنظر إليه بإصرار. وبعد ذلك ودون ان تستدير تراجعت خطوة أو خطوتين باتجاه البيانو، الذي كان يجلس وراءه العازف الذي سيصاحب غناءها، وهو رجل أجنبي طويل الشعر. كان عليها أن تغني رومانس غلينكا «حالما عرفتك...»[1] وشرعت تغني على الفور دون أن تغير وضع يديها، ودون أن تنظر في النوطة. كان صوتها صداحاً رقيقاً – كونترالتو – وكانت تنطق الكلمات بوضوح وبثقل. غنت برتابة، وبدون تلاوين، ولكن بقوة تعبيرية كبيرة. وقال ذلك الغندور الجالس وراء أراتوف: «هذه الفتاة تغني بثقة» – ونطق بالحقيقة مرة أخرى. وترددت الهتافات من كل جانب: «روعة! مرحى!»... ولكنها ألقت نظرة سريعة على أراتوف، وهو الذي لم يهتف، ولم يصفق – إذ لم يعجبه غناؤها كثيراً – وانحنت انحناءة خفيفة، وخرجت دون أن تلتفت إلى اليد التي مدها عازف البيانو الأشعر لها ليساعدها. وهتف الحضور يطلبون عودتها... وظهرت، ولكن بعد وقت ليس بالقصير، واقتربت من البيانو بنفس الخطى المتهيبة، وهمست بكلمتين لعازف البيانو الذي اضطر ان يتناول نوطات أخرى غير التي أعدها، ووضعها أمامه. وبدأت رومانس تشايكوفسكي: «لا، ليس إلا مَنْ عرف ظمأ اللقاء...»[2] غنت هذا الرومانس بشكل يختلف عن غنائها الرومانس الأول. غنته بصوت خافت، وكأنها قد تعبت... وفي البيت ما قبل الأخير فقط «سيعرف، كم شقيت» أفلتت منها صيحة رنانة حارة. والبيت الأخير «وكم اشقى...» غنته كالهمس، مادة الكلمة الاخيرة بحزن. كان وقع هذا الرومانس علي الجمهور أقلَّ من وقع رومانس غلينكا، ومع ذلك فقد كان التصفيق كثيراً... لاسيما من جانب كوبفر. فقد كان يكوِّر كفيه بطريقة خاصة، على شكل برميل، ويضربها فيصدر صوت رنان بشكل

١– رومانس غلينكا «حالما عرفتك» لحنت في عام ١٨٣٤ على كلمات الشاعر الروسي انطون ديلفيغ.

٢– «رومانس تشايكوفسكي زلا، ليس إلا...» لحنت عام ١٨٦٩ على كلمات الشاعر الألماني العظيم هايني (١٧٩٧ – ١٨٥٦) ترجمها إلى اللغة الروسية الشاعر الروسي ليف ماي.

غير اعتيادي. اعطته الأميرة باقة زهور كبيرة منفوشة ليقدمها للمغنية، ولكن كلارا استدارت وخرجت وكأنها لم تلحظه وهو ينحني ماداً لها ذراعه بباقة الزهور، وللمرة الثانية لم تنتظر عازف البيانو الذي وثب أسرع مما في المرة الأولى ليرافقها، ولما وجد نفسه مهملاً هزّ شعره هزة لعل لِيسْت نفسه لم يفعلها قط.

كان أراتوف يراقب وجه كلارا طوال الوقت. وكان يخيل إليه أن عينيها مصوبتان إليه من خلال رموشهما المسبلة، ولكن ما اذهله بشكل خاص هو جمود هذا الوجه، والجبين والحاجبين، وعندما ندت منها تلك الصيحة الحارة، عند ذاك فقط استطاع أن يلمح صفاً من الأسنان البيض المتراصة يلمع لمعاناً دافئاً من خلال شفتيها المفتوحتين قليلاً. اقترب كوبفر منه، وسأله متألقاً من المتعة:

– طيب، ما رأيك، يا اخ؟.

أجاب أراتوف:

– صوتها جيد. ولكنها لا تزال لا تجيد الغناء. ليست لها مدرسة حقيقية. (والله يعلم لماذا قال هذا، وماذا يقصد بـ«المدرسة»!).

اندهش كوبفر، وكرر مقطعاً الكلمات:

– ليست لها مدرسة... حسناً، هذا... ما يمكن أن تستزيد منه في المستقبل. وبالمقابل أية روح هي! انتظر قليلاً، وستسمعها تقرأ رسالة تاتيانا.

وانصرف عن أراتوف مسرعاً، فراح هذا يفكر: «روح! بهذا الوجه الجامد!» وكان يرى أنها في وقوفها وحركتها تبدو كالممغنطسة، كالسائرة في النوم. وفي الوقت ذاته، لا يشك في انها... نعم! لا يشك في أنها تنظر إليه.

وخلال ذلك كانت «الصباحية» مستمرة. الرجل البدين ذو النظارة ظهر من جديد. ورغم رزانة مظهره الخارجي، جعل من نفسه فكاهياً، وقرأ مشهداً من غوغول[1]، دون أن يثير أية علامة على الاستحسان في هذه المرة.

١– غوغول نيقولاي (١٨٠٩ – ١٨٥٢) – الكاتب الروسي الشهير، ومؤلف رواية

وطلع عازف الفليوت ليصفر من جديد، ودندن عازف البيانو مرة أخرى. وظهر صبي في الثانية عشرة مطليّ الوجه بالدهان، معقوص الشعر، وإن كانت آثار الدموع على خديه، وصرصر متنوعات على الكمان. وكان غريباً أن تصدر أصوات متقطعة لبوق فرنسي من حجرة الممثلين في الفترات بين القراءة والموسيقى، بينما ظلت هذه الآلة مخفية لم تستخدم. وفيما بعد اتضح، أن الهاوي الذي تطوع للعزف عليها ارتعب في لحظة خروجه إلى الجمهور، و لم يظهر. وأخيراً خرجت كلارا ميليتش مرة أخرى.

كانت تمسك بيدها مجلداً صغيراً لبوشكين. إلا أنها لم تنظر فيه اثناء القراءة ولو مرة واحدة... كانت الرهبة بادية عليها، فقد كان الكتاب الصغير يهتز قليلاً وهو في أصابعها. كما أن أراتوف لاحظ غشاوة الجزع تسري الآن في قسماتها الصارمة كلها. قرأت البيت الأول: «اكتب لك... وماذا أكثر من ذلك؟» ببساطة مفرطة تقرب من السذاجة، ومدّت كلتا ذراعيها إلى الأمام بحركة ساذجة، صادقة، وبلا حول. ثم اخذت تسرع قليلاً. ولكنها ابتداء من الأبيات: «رجل آخر!... لا! قلبي لن أهبه لأي إنسان في هذا العالم!» سيطرت على نفسها، وشاعت الحيوية فيها، وحين وصلت إلى كلمات: «حياتي كلها رهنتها للقائي الوفي معك» صار صوتها الذي كان كثير البهوت حتى الآن يرن جليلاً جريئاً، وبنفس تلك الجرأة انغرزت عيناها في أراتوف مباشرة. ومضت في قراءتها بنفس الحماس، وعند الختام فقط انخفض صوتها من جديد، وظهر الجزع السابق عليه وعلى وجهها. وفي البيت الرباعي الأخير ارتخت تماماً، وإذا بكتاب بوشكين يسقط من يديها فجأة، فخرجت مسرعة.

أخذ الجمهور يصفق بحماس شديد، ويستعيدها... وكان أحد طلبة المدارس، وهو أوكراني بالمناسبة، يزعق بصوت هادر بلهجته الأوكرانية «ميليتش! ميليتش!» حتى إن جاره راح يترجاه بأدب ووجدان أن «إرأف بنفسك، يا مَنْ ستصير رئيس شمامسة في المستقبل!» ولكن أراتوف نهض في الحال، واتجه نحو الباب. لحق كوبفر به، وأعول قائلاً:

«النفوس الميتة» وروايات وقصص ومسرحيات أخرى.

ـ رحماك، إلى أين؟ هل تريد أن اقدمك لكلارا؟ رد أراتوف بعجالة:

ـ لا، شكراً.

واندفع إلى البيت في مشي كالهرولة.

ـ ٥ ـ

أقلقته أحاسيس غريبة غير مفهومة له. في الحقيقة لم تعجبه قراءة كلارا كثيراً أيضاً... ولو أنه لم يستطع أن يحدد بالضبط لماذا لم تعجبه؟ إن هذه القراءة أثارته، وبدت له حادة وغير متناسقة... فكأنها حطمت شيئاً في داخله، وكانت نوعاً من العنف. ثم تلك النظرات المتفرسة، الملحاحة، المتشبثة تقريباً، لأي شيء؟ وماذا تعني؟.

ولم يدع تواضع أراتوف أية فكرة عابرة تخطر في باله عن احتمال أن تعجب هذه الفتاة الغريبة به، وأن يبث في نفسها شعوراً شبيهاً بالحب، والهوى!... كما أنه لم يتمثل لنفسه لحد الآن، تلك المرأة المجهولة، تلك الفتاة التي يستسلم لها بكليته. والتي ستحبه، وتصير عروسه، زوجته... فقد كان نادراً ما يفكر في ذلك. فقد كان عذرياً في الروح والجسد. ولكن الشخصية النقية التي ظهرت في مخيلته آنذاك كانت من وحي شخصية أخرى، هي شخصية أمه المتوفاة التي لا يكاد يتذكرها، ولكنه يحتفظ بصورتها كشيء مقدس. وكانت هذه الصورة قد رسمتها بالالوان المائية صديقة وجارة لها في كثير من عدم الإتقان، ولكن بشبه مذهل، حسب تأكيد الجميع. والمرأة، أو الفتاة التي ليس له الآن حتى الجرأة على توقعها لا بد أن يكون لها هذا البروفيل الرقيق، وهاتان العينان الوضيئتان الطيبتان، وهذا الشعر الحريري، وهذه الابتسامة، وهذا التعبير الصافي...

أما تلك الفتاة الداكنة البشرة، السمراء ذات الشعر الخشن، والشارب الخفيف فوق شفتها، فلا بد أنها خالية من الطيبة، متهورة... «غجرية» (وما كان في مقدور أراتوف أن يبتكر أسوأ من هذه الكلمة) فما شأنه بها؟.

ومع ذلك لم يكن أراتوف قادراً على أن يطرد من فكره هذه الغجرية الداكنة البشرة التي لم يرق له غناؤها وقراءتها وشكلها. فكان متحيراً، غاضباً على نفسه. وكان قد قرأ، قبل فترة قصيرة، رواية والتر سكوت «بئر القديس

رونان» (كانت أعمال والتر سكوت الكاملة موجودة في مكتبة أبيه الذي كان يحترم هذا الروائي الانجليزي ككاتب جدي علمي تقريباً). وبطلة هذه الرواية تدعى كلارا موبراي. وقد كتب عنها كراسوف[1] شاعر الأربعينات، قصيدة تنتهي بهذه الكلمات:

البائسة كلارا! المجنونة كلارا!
البائسة كلارا موبراي!

وكان أراتوف يعرف هذه القصيدة أيضاً... والآن صارت هذه الكلمات تطوف في ذاكرته باستمرار... «البائسة كلارا! المجنونة كلارا!...» (وهذا سبب دهشته حين ذكر له كوبفر اسم كلارا ميليتش). وبلاتوشا نفسها لاحظت شيئاً في ياكوف - ليس تغيراً في مزاجه، إذ لم يحدث أي تغير معين فيه - بل لاحظت شيئاً مريباً في نظراته، وفي كلامه. سألته بحذر عن الصباحية الأدبية التي حضرها. وهمست وتنهدت، ونظرت إليه من قدام، ونظرت إليه من جنب، ومن خلف، وإذا بها تضرب فخذيها بيديها، وتقول:

- والآن، ياشا، أعرف ما الخبر!.

سألها أراتوف:

- ما هو؟.

- اظنك التقيت في تلك الصباحية بواحدة من ذوات الأذيال الطويلة... (كانت بلاتونيدا إيفانوفنا تنعت بهذه الصفة كل الفتيات اللواتي يلبسن الفساتين على الموضة). وجهها مليح وهيك تتبختر، وهيك تتخطر (وقلّدت بلاتوشا هذه الحركات) وترسم بعينيها هذه الدوائر (ومثّلت هذا أيضاً بأن رسمت بسبابتها دوائر كبيرة في الهواء)... وأنت لم تتعود على ذلك فسرى بك الخيال... ولكن هذا يا ياشا... لا يعني شيئاً! اشرب الشاي قبل النوم... وخلاص!... عونك، يا رب!.

وسكتت بلاتوشا، وانصرفت... في حياتها كلها لم تلق مثل هذه الخطبة

١- كراسوف فاسيلي (١٨١٠ - ١٨٥٥) شاعر روسي رومانسي، ومؤلف عدد من المراثي.

الطويلة الفوارة... وفكر أراتوف مع نفسه: «ربما عمتي على حق... كل ذلك لأنني لم أتعود... (وبالفعل هذه هي المرة الأولى التي يثير فيها اهتمام واحدة من الجنس الآخر إليه... أو على الأقل لم يلحظ ذلك من قبل)، ولا حاجة إلى أن أمني النفس».

وعاد إلى كتبه – وقبل النوم شرب شاياً من منقوع زهور الزيزفون – بل ونام طوال تلك الليلة نوماً هادئاً – ولم ير احلاماً. وفي صباح اليوم التالي أخذ يشتغل بالتصوير الشمسي، وكأن شيئاً لم يحدث...

ولكن سكينة نفسه عادت فاضطربت في المساء.

– ٦ –

ذلك لأن ساعياً جاءه بهذه الرسالة مكتوبة بخط نسائي كبير غير سليم:

«إذا حدست مَنْ يكتب لك هذا، ولم تضجر فتعال غداً، بعد الغداء، إلى تفيرسكوي بولفار – حوالي الساعة الخامسة – وانتظرني. لن أستبقيك كثيراً. ولكن الأمر مهم جداً. فتعال».

والرسالة خالية من التوقيع. وحدس أراتوف كاتبتها على الفور. وهذا هو الذي أثار سكينة نفسه. قال بصوت يكاد يكون مسموعاً: «أي هراء! لم يبق إلا هذا. طبيعي، لن أذهب». ومع ذلك أمر بإدخال الساعي، فلم يعرف منه إلا أن خادمة سلمته هذه الرسالة في الشارع. تركه أراتوف يذهب، وقرأ الرسالة من جديد، ورماها على الأرض... ولكنه رفعها بعد قليل، وقرأها مرة أخرى، وهتف ثانية: «هراء!» – إلا أنه لم يرم الرسالة على الأرض، بل أخفاها في جرار. وجلس أراتوف إلى أعماله المعتادة. مرة إلى هذا العمل، ومرة إلى ذاك. ولكنه لم يوفق في العمل. وفجأة وجد نفسه متلبساً بانتظار كوبفر! لعله كان يريد أن يسأله، أو، ربما، حتى أن يبلغه الخبر... ولكن كوبفر لم يظهر. وبعد ذلك تناول أراتوف كتاب بوشكين، وقرأ رسالة تاتيانا، وأيقن مرة أخرى أن تلك «الغجرية» لم تفهم قط المعنى الحقيقي لهذه الرسالة. بينما ذلك المهرج كوبفر يصيح: «راشيل! فياردو!» وبعد هذا ذهب إلى البيانو العمودي، ورفع غطاءه بطريقة غير واعية، وحاول أن يستحضر في ذاكرته لحن رومانس تشايكوفسكي. إلا أنه أسرع فصفق غطاء البيانو بانزعاج.

وذهب إلى عمته في حجرتها الخصوصية المدفأة دائماً تدفئة حارة، والمطيبة دائماً برائحة النعناع والمريمية والأعشاب الطبية الأخرى، وفيها العديد من الأبسطة الصغيرة، والرفوف، والمصاطب الصغيرة والوسائد الصغيرة، ومختلف الأثاث الوثير الذي يجعل الإنسان غير المتعود يجد صعوبة في الاستدارة في هذه الحجرة، وعسراً في التنفس فيها. كانت بلاتونيدا إيفانوفنا جالسة عند النافذة، وفي يديها إبر الحياكة (كانت تحوك لياكوف شالاً، هو الثامن والثلاثون خلال حياته!(فاندهشت كثيراً. كان أراتوف نادراً ما يأتي إلى حجرتها، وإذا كان بحاجة إليها صاح، في كل مرة، من غرفة مكتبه بصوت نحيل: «عمة بلاتوشا!» ومع ذلك أجلسته، وأرهفت سمعها بانتظار كلماته الأولى، وهي تنظر إليه بعين واحدة من خلال نظارتها المستديرة، والعين الثانية أعلى من النظارة. لم تسأله عن صحته، ولم تعرض عليه الشاي، لأنها أدركت أنه لم يأت لهذا. تردد أراتوف قليلاً... ثم أخذ يتحدث... يتحدث عن أمه، وكيف عاشت مع أبيه، وكيف تعرف أبوه عليها. وكان يعرف كل هذا معرفة جيدة... ولكنه كان يريد أن يتحدث عن ذلك بالذات. ومن سوء حظه أن بلاتوشا لا تعرف كيف تحاور مطلقاً فكانت ترد باقتضاب شديد، وكأنها تشك في أن يكون ذلك السبب الذي دفع أراتوف إلى المجيء.

– بالطبع! – قالت وهي تسرع في تحريك إبر الحياكة في شيء من الضيق – معروف أن أمك كانت حمامة... حمامة، بالضبط... وأبوك كان يحبها، كما ينبغي للزوج ان يحب زوجته، باخلاص وصدق، إلى يوم مماتها. ولم يحب أية امرأة أخرى – اضافت جملتها الاخيرة رافعة صوتها بها، وخلعت نظارتها.

وبعد قليل من الصمت سأل أراتوف:

– هل كانت خجولة بطبعها؟.

– معلوم خجولة. كما يجدر بالمرأة. الجسورات لم يطلعن إلا في الفترة الأخيرة.

– وفي زمانك لم يكنّ موجودات؟.

- كُـنَّ موجودات في زماننا أيضاً... وكيف لا! ولكن مَـنْ هُنَّ؟ المستهترات... الخليعات العذار. يرفعْنَ أذيالهن ويسرحن عابثات. وماذا يهمهن؟ وماذا يضيرهن؟ سيأتي الحمقى، ويلتقطونهن. بينما الرصينون من الناس كانوا يحتقرونهن، تذكر هل رأيت مثلهن في بيتنا؟.

لم يرد أراتوف بشيء، وعاد إلى غرفة مكتبه. شيعته بلاتونيدا إيفانوفنا ببصرها، وهزت رأسها، ولبست النظارة ثانية، وعادت تحوك الشال... ولكنها كانت تستغرق في أفكارها، وتوقع إبر الحياكة على ركبتها أكثر من مرة.

أما أراتوف فقد كان في سحابة يومه حتى حلول الليل، يفكر بين الفينة والأخرى بنفس الضيق، وبنفس الغيظ في تلك الرسالة، في «الغجرية» وفي اللقاء الذي عينته له، والذي لا يظن انه سيذهب إليه! وفي الليل عادت تقلقه. ظلت تتراءى له عيناها المتقلصتان تارة، والمتسعتان تارة أخرى، بنظرتهما الملحاحة المصوَّبة إليه تماماً، وتلك القسمات الجامدة بتعبيرها الآسر...

وفي صباح اليوم التالي ظل، لسبب ما، يتوقع كوبفر، وكاد أن يكتب له رسالة... وعلى أية حال لم يقم بأي عمل... ظل، معظم الوقت، يروح ويجيء في غرفة مكتبه. ولم يسمح لنفسه لحظة واحدة حتى أن تخامره فكرة الذهاب إلى ذلك «الرانديفو» الأبله... وفي الساعة الثالثة والنصف، وبعد أن ازدرد غداءه على عجل، لبس معطفه فجأة، وثبَّت قبعته على رأسه، وانسل إلى الشارع خفية عن عمته، واتجه إلى تفيرسكوي بولفار.

- ٧ -

وجد أراتوف في البولفار بعض السابلة. كان الجو رطباً يميل إلى البرودة. حاول أن لا يفكر فيما فعل، وأجبر نفسه على أن يوجه انتباهه إلى كل الأشياء التي صادفته، وكأنما ليؤكد لنفسه أنه هو أيضاً خرج للنزهة كهؤلاء السابلة.. كانت الرسالة التي تلقاها امس في جيبه الجانبي وكان يحس دائماً بوجودها. ذرع البولفار مرة أو مرتين متمعناً في خيال أية امرأة تقترب منه. وكان قلبه يخفق، ويخفق... شعر بالتعب، فجلس على مصطبة، وفجأة خطر له: «حسناً، وماذا لو أن هذه الرسالة ليست منها، بل من شخص آخر،

امرأة أخرى؟» لا بدَّ أن يكون ذلك سواء لديه... ومع هذا فلا بدَّ أن يعترف لنفسه أن ذلك ليس الذي كان يرغب فيه. لقد وجد نفسه يقول: «إن ذلك سيكون حماقة، أكثر حماقة من ذاك!» وبدأ قلق عصبي يستولي عليه، فأخذ يحس بالبرد من الداخل، لا من الخارج. أخرج الساعة من جيب صداره عدة مرات، ونظر في وجهها، وأعادها إلى جيبه، وفي كل مرة كان ينسى كم دقيقة بقيت على الساعة الخامسة. وخُيِّل إليه ان جميع الذين يمرون به كانوا ينظرون إليه نظرة خاصة، وبدهشة ساخرة، وفضول. دنت منه كلبة صغيرة قذرة، وتشممت قدميه وراحت تبصبص بذيلها. هشَّها عنه بغضب، وكان أكثر المضايقين له صبي من صبيان المعامل في لباس العمل الرث، جلس على مصطبة في الجانب الآخر من البولفار. وكان ينظر إليه من حين إلى آخر صافراً، هارشاً جسمه، مؤرجحاً رجليه في حذاءيه الضخمين الطويلين الممزقين. وفكر أراتوف مع نفسه: «أغلب الظن أن هذا العاطل ينتظره سيده، بينما هو يتلكأ هنا بلا عمل...».

إلا أنه في تلك اللحظة تخيل أن شخصاً دنا وصار قريباً منه، من الخلف... فاح دفء من هناك...

التفت... فإذا هي!.

عرفها على الفور، رغم أن نقاباً داكن الزرقة لا يشف كان يغطي قسمات وجهها. وثب ناهضاً من المصطبة، وبقي في مكانه غير قادر على قول كلمة واحدة. وصمتت هي أيضاً. أحس بارتباك شديد... ولكن ارتباكها لم يكن أقل شدة. وحتى من خلال النقاب ما كان من الممكن ألا يلحظ كيف امتقعت امتقاع الموت. ومع ذلك كانت هي أول من بادر بالكلام... قالت بصوت متقطع:

- شكراً، شكراً على مجيئك. لم أكن آمل...

واستدارت قليلاً، وسارت في البولفار. وسار أراتوف وراءها... قالت دون أن تدير رأسها:

- ربما أسأت الظن بي. سلوكي غريب جداً، بالفعل... ولكنني سمعت عنك كثيراً... ولكن، لا!... ليس لهذا السبب... ليتك تعرف... كم أود

أن أتحدث إليك بالكثير، اوه، يا رب!... ولكن كيف أفعل ذلك... كيف أفعل ذلك!.

سار أراتوف إلى جانبها، متأخراً قليلاً عنها. ولم ير وجهها. لم ير غير القبعة وجزءاً من النقاب... والعباءة الطويلة، السوداء، المستهلكة. وفجأة عاد إليه كل انزعاجه منها، ومن نفسه، وتمثّل له فجأة كل ما هو مضحك وسخيف في هذا اللقاء وهذه المكاشفات بين شخصين غريبين تماماً، في شارع عمومي.

وقال من جانبه:

- حضرت بناء على دعوتك، حضرت، يا سيدتي (اهتز كتفاها قليلاً. استدارت إلى درب جانبي، فتبعها) لمجرد أن اتبين، أن أعرف أي سوء تفاهم غريب دفعك إلى أن تتوجهي إليّ، أنا الرجل الغريب لك، الذي... وهو لم يحدس إلا لأنك خلال تلك الصباحية الأدبية، كنت تريدين ان تبدي له الكثير... الكثير من الاهتمام الجلي!.

وقد قال أراتوف هذا الخطاب القصير كله بصوت مهتز، رغم رنينه، وهو الصوت نفسه الذي يجيب به صغار السن في الامتحان بمادة تهيؤوا لها جيداً... لقد كان غاضباً، وحانقاً... وكان هذا الحنق نفسه يطلق له لسانه غير الطليق نوعاً ما في الأوقات الاعتيادية.

مضت تسير في الدرب بخطوات متباطئة قليلاً... وكان أراتوف يسير وراءها، كالسابق، وكالسابق كان لا يرى غير تلك العباءة القديمة، والقبعة. وهي أيضاً لم تكن جديدة تماماً. وأحس بجرح في كبريائه حين خطر له أنها تفكر الآن، لا محالة: «ما إن أعطيته إشارة، حتى هرع إليّ راكضاً!».

صمت أراتوف... انتظر أن ترد عليه. إلا أنها لم تنطق بكلمة، فانبرى يقول ثانية:

- أنا متهيئ لسماعك، بل وسأكون مسروراً لو أقدر أن أنفعك بشيء... ولو يدهشني، وأعترف لك بذلك... في حياتي المنعزلة...

واستدارت كلارا إليه فجأة، حين نطق بالكلمات الأخيرة، ورأى الفزع والحزن العميق المرتسمين على وجهها، والدموع الكبيرة المتلألئة في عينيها،

ومسحة الكآبة حول شفتيها المنفرجتين، وكم كان ذلك الوجه جميلاً إلى الحد الذي جعله يتلعثم دون أن يدري. ويشعر، هو أيضاً، بما يشبه الفزع والشفقة والحنان.

قالت بإحساس صادق وإخلاص لا يقهر:

– آه، لـمَ... لـمَ أنت هكذا – ورن صوتها رنيناً مؤثراً – أيعقل أن لجوئي إليكَ يمكنٍ أَن يشعرك بالإهانة... معقول أنك لم تفهم شيئاً؟ آه، نعم! أنت لم تفهم شيئاً، لم تفهم ما كنت اقوله لك. والله يعلم اية صورة اخذت عني. بل أنت لم تفكر حتى فيما كلفتني كتابة الرسالة إليك!... لم تهتم إلا في نفسك، في كرامتك، في راحتك!... وهل يعقل أنني (وضمّت يديها المرفوعتين إلى شفتيها بقوة شديدة، حتى أن أصابعها قرقعت بوضوح)... وكأنني طلبت منك بعض المطالب، كأنما كانت هناك ضرورة للإيضاحات أولاً... «سيدتي...»، «بل ويدهشني...»، «لو أقدر أن أنفعك...» آه، أنا المجنونة! انخدعت فيك، في وجهك!... عندما رأيتك لأول مرة... وها... أنت واقف... ولو كلمة على الاقل! يعني ولا كلمة؟.

وصمتت... وتوهج وجهها فجأة، وبتلك الفجاءة اكتسى هذا الوجه تعبيراً حانقاً متحدياً.

– يا إلهي! يا لبلاهة هذا! – هتفت فجأة مع قهقهة حادة – يا لبلاهة لقائنا! ويا لبلاهتي!... وأنت أيضاً... فو!.

وحركت يدها بازدراء، وكأنها تدفعه عن الدرب، وتخطته، وخرجت من البولفار بسرعة، واختفت.

وحركة اليد هذه، وتلك القهقهة المهينة، وتلك الكلمة الأخيرة الهاتفة أعادت أراتوف دفعة واحدة إلى حالته النفسية السابقة، وأخمدت فيه ذلك الشعور الذي انبعث في قلبه، حين استدارت إليه، والدموع في مآقيها. عاد غاضباً من جديد، وكاد يصرخ في إثر الفتاة المبتعدة: «يمكن أن تطلع منك ممثلة جيدة، ولكن لم خطر لك أن تمثلي هذه الكوميديا معي؟».

وعاد إلى بيته بخطوات واسعة، ورغم أنه ظل ممتعضاً حانقاً طوال الطريق، ولكن ذكرى ذلك الوجه المدهش الذي رآه في لمحة واحدة فقط تسربت إليه

عفوياً، من خلال كل هذه المشاعر السيئة المعادية... بل وسأل نفسه: «لماذا لم أجبها، حين طلبت مني أن أنطق ولو بكلمة؟ لم يتسن لي... - فكر مع نفسه - لم تدعني انطق بهذه الكلمة، ثم بأية كلمة كنت سأنطق؟».

إلا أنه نفض رأسه حالاً، وقال بتقريع: «ممثلة!».

وفي الوقت نفسه بدا وكأن كبرياء الشاب العصبي غير المجرب، قد استعادت رضاها، بعد أن جرحت، لأن صاحبها اوحى مثل هذه العاطفة...

ومضى أراتوف يفكر: «ولكن كل هذا قد انتهى الآن، طبعاً... ولا بد أنني أبدو لها مضحكاً...».

وازعجته هذه الفكرة، فعاد غاضباً من جديد... عليها... وعلى نفسه. ولما عاد إلى بيته اغلق عليه باب مكتبه. لم يرد ان يلتقي ببلاتوشا. اقتربت هذه العجوز الطيبة من بابه مرتين، ووضعت اذنها على ثقب المفتاح، وتنهّدت وهمست بدعائها، ولا شيء آخر...

ودار في خلدها: «وقع المحذور! وما زال لم يتجاوز الخامسة والعشرين... آه، مبكر، مبكر!».

- ٨ -

طوال اليوم التالي كان أراتوف متعكر المزاج. كانت بلاتونيدا إيفانوفنا تقول له: «ما هذا، ياشا؟ ما لي أراك اليوم مهوّشاً؟!» وقد عيَّرت العجوز بلغتها المتميزة هذه عن حال أراتوف النفسية بدقة كافية. فالعمل لم يطاوعه، كما أنه لم يكن يعرف ما يريد. عاد ينتظر كوبفر من جديد (كان يتصوَّر أن كلارا حصلت على عنوانه من كوبفر بالذات... ومَنْ غيره يمكن أن «يحدثها الكثير» عنه؟)؛ ثم تملكته الحيرة: هل يحسن حقاً أن ينتهي تعارفه بها بهذا الشكل؟ وبعد ذلك أخذ يتصوّر أنها ستكتب له مرة أخرى. ثم يعود فيسأل نفسه: ألا يحسن به أن يكتب لها رسالة يوضح فيها كل شيء، فهو لا يريد أن يترك عنه انطباعاً سيئاً... ولكن، ماذا يوضح؟ وبعد ذلك أخذ يثير في نفسه النفور منها، ومن إلحافها، وتحديها. ثم يعود فيتصوَّر ذلك الوجه العاطفي بشكل لا يصدق، ويرن في أذنه صوتها الآسر. ثم تذكر غناءها وقراءتها، و لم يكن يعرف هل كان محقاً في حكمه المبتسر؟ إنه باختصار إنسان مهوَّش! وفي

آخر الأمر ضجر من كل ذلك. فعزم على أن «يأخذ بزمام نفسه» على حد هذا التعبير الشائع، ويشطب على كل هذه الحكاية، لأنها عرقلت اعماله، دون شك، وسلبته الطمأنينة. و لم يكن تنفيذ هذا العزم بالأمر السهل عليه... و لم يعد إلى وضعه الطبيعي إلا بعد مضي أكثر من أسبوع. ومن حسن الحظ أن كوبفر لم يزره، وكأنه غادر موسكو. وكان أراتوف قبل هذه «الحكاية» بوقت قصير قد بدأ يدرس الرسم لأغراض التصوير الشمسي، فانغمر فيه بحماس مضاعف.

وعلى هذا النحو وبصورة غير ملحوظة انقضى شهران... أو ثلاثة أشهر... وعاد أراتوف كالسابق، باستثناء بعض «النكسات» حسب تعبير الأطباء ومن ذلك، مثلاً، أنه أوشك أن يقوم بزيارة إلى الأميرة. غير ان شيئاً ثقيلاً معتماً، تحت سطح حياته، ظل يرافقه سراً في كل دروبه، مثل سمكة كبيرة اصطيدت بالشص، ولكنها لم تخرج بعد، فظلت تسبح في قاع النهر العميق، تحت الزورق الذي يجلس فيه الصياد ممسكاً الخيط القوي بيده.

وذات مرة كان أراتوف يتصفح عدداً ليس بالجديد من جريدة «موسكوفسكيه فيدوموستي»[1] فعثر على هذا الخبر:

كتب أديب من قازان:

«نسجل ببالغ الأسى، في سجل تاريخنا المسرحي، نبأ وفاة ممثلتنا الموهوبة كلارا ميليتش بشكل مفاجئ، وهي التي استطاعت في فترة قصيرة من نشاطها، أن تصير محبوبة جمهورنا المدقق. ويزيد من أسانا أن السيدة ميليتش هي التي وضعت حداً لحياتها الشابة المبشرة بالكثير، بتسميم نفسها. والأكثر فظاعة في هذا التسمم أن الممثلة تناولت السم، وهي في المسرح! وما كادت تُنقل إلى بيتها، حتى وافاها الأجل، وأسفاه. ويشاع في المدينة أن حباً فاشلاً هو الذي حملها على الإقدام على هذه الفعلة الرهيبة».

وضع أراتوف عدد الجريدة على الطاولة بهدوء بقي في مظهره هادئاً

١- «موسكوفسكويه فيدوموستي» - جريدة كانت تصدر في موسكو من عام ١٧٥٦ إلى عام ١٩١٧. وكانت حتى منتصف القرن التاسع عشر أكبر جريدة في روسيا.

تماماً... إلا أن شيئاً صدمه بلحظة واحدة في صدره، وفي رأسه، وبعد ذلك انتشر ببطء في كل أطرافه. نهض، ووقف في مكانه قليلاً، ثم جلس ثانية، وأعاد قراءة ذلك الخبر. ثم نهض مرة أخرى، واستلقى على السرير طاوياً ذراعيه تحت رأسه، وظل ينظر في الحائط طويلاً، كالمخبول. وشيئاً فشيئاً بدا وكأن هذا الحائط يشف... واختفى... ورأى أراتوف أمامه البولفار تحت سماء رمادية، وهي في عباءتها السوداء... ثم هي على المنصة... بل ورأى نفسه بالقرب منها. والآن صار ذلك الشيء الذي صدمه في صدره بقوة في اللحظة الأولى يتصاعد... ويتصاعد إلى حلقومه... أراد أن يتنحنح، أراد أن يدعو أحداً. ولكن صوته خانه. واندهش حين شعر بالدموع تفيض من عينيه دون أن يستطيع كبحها... ما الذي أفاض هذه الدموع؟ الشفقة؟ الندامة؟ أم مجرد أن اعصابه لم تتحمل الصدمة المباغتة؟ فهي لم تكن شيئاً عنده، أوليس كذلك؟.

وفجأة خطرت له هذه الفكرة: «ولكن قد يكون الخبر غير صحيح؟ يجب أن أعرف! ممن؟ من الأميرة؟ لا، من كوبفر... من كوبفر! ولكن يقولون بأنه ليس في موسكو. لا يهم! لأذهب إليه أولاً!» ولبس أراتوف ثيابه على عجل، وهذه الأفكار تدور في رأسه، واستأجر عربة، وانطلق بها إلى كوبفر.

- ٩ -

لم يكن يأمل في ان يجده... ولكنه وجده. وبالفعل كان كوبفر قد غادر موسكو لبعض الوقت، إلا أنه عاد منذ أسبوع، بل وكان ينوي زيارة أراتوف من جديد. استقبله كوبفر بفرحه المعتاد، وأخذ يوضح له شيئاً... إلا أن أراتوف قاطعه فوراً بسؤال لهوف:

ـ هل قرأت؟ هل صحيح؟.

أجاب كوبفر متحيراً:

– ما الصحيح؟.

– بشأن كلارا ميليتش؟.

ولاح الأسف على وجه كوبفر:

– نعم، يا أخ. سممت نفسها! أية مصيبة!.

صمت أراتوف قليلاً، وسأل:

– وهل قرأت ذلك في الجريدة أيضاً؟ أم لعلك كنت مسافراً إلى قازان؟.

– سافرت إلى قازان بالفعل، أخذناها أنا والأميرة إلى هناك. ومثلت على المسرح في تلك المدينة، ولقيت نجاحاً كبيراً. ولكنني لم أكن هناك حين وقعت الكارثة... كنت في ياروسلافل.

– في ياروسلافل؟.

– نعم، رافقت الأميرة إلى هناك... إنها الآن ساكنة هناك.

– وهل لديك معلومات موثوق بها؟.

– أوثق المعلومات... من المصادر الأولى! في قازان تعرفت على عائلتها. ولكن انتظر، يا أخ... يبدو أن هذا الخبر يقلقك كثيراً؟ بينما أاتذكر ان كلارا لم تعجبك حينذاك؟ خسارة! كانت فتاة رائعة. سوى رأسها! رأس جسور! كم أسيت عليها!.

لم ينطق أراتوف بكلمة، وانهبد على مقعد، وبعد قليل طلب من كوبفر أن يحكي له... وتلعثم.

سأله كوبفر:

– أي شيء؟.

– كل... شيء – أجاب أراتوف مقطعاً الكلام – على الأقل عن تلك العائلة... وغير ذلك، كل ما تعرف!.

– ويهمك هذا؟ تفضل!.

لم يكن في وجه كوبفر ما يدل على أنه قد أسى عليها كثيراً، وأخذ يحكي.

وعرف أراتوف من كلامه أن اسم كلارا ميليتش الحقيقي هو كارتينا ميلوفيدوفا. وكان أبوها، المتوفى الآن، معلم رسم في قازان، كان يرسم الصور الرديئة، والأيقونات الرديئة، كما كان معروفاً بأنه سكير ومستبد في البيت... فيا له من رجل مثقف حسن. (وهنا ضحك كوبفر في رضى عن النفس ملمحاً إلى الطباق بين حسن ورديء)، وخلّف بعده: أولاً أرملة هي

ابنة تاجر، بلهاء تماماً، كأنها إحدى شخصيات كوميديات لاوستروفسكي[1]، وثانياً: ابنة أكبر كثيراً من كلارا، ولا تشبهها، فتاة ذكية جداً، سوى أنها سريعة التأثر، عليلة، فتاة رائعة، ومتفتحة الذهن، يا أخ! وكانت كلتاهما – الأرملة والأبنة – تعيشان بلا عوز في بيت صغير لا بأس به، أشتري من بيع تلك الصور الرديئة والأيقونات. وكانت كلارا... أو كاتيا، إذا شئت، تذهل الجميع بموهبتها، منذ نعومة أظفارها، ولكنها كانت عنيدة الخلق صاحبة أطوار، تتشاحن دائماً مع أبيها، لقد وُلِدت وحب المسرح يجري في عروقها، حتى إنها هربت من بيت أبيها، وهي في السادسة عشرة من عمرها مع ممثلة...

– مع ممثل؟.

– لا، بل مع ممثلة تعلّقت بها... وكان لتلك الممثلة، في الحقيقة، راع، هو سيد ثري تقدمت به السن، لم يتزوجها لأنه كان متزوجاً، كما ان الممثّلة كانت متزوجة، على ما يبدو. – بعد ذلك أخبر كوبفر أراتوف بأن كلارا كانت قبل سفرها إلى موسكو تمثل وتغني في مسارح الأقاليم، وأنها بعد أن فقدت صديقتها الممثلة (وكان السيد قد مات، كما يبدو، أو عاد إلى زوجته، وهذا ما لا يتذكر كوبفر على وجه التحديد...) تعرفت على الأميرة، تلك المرأة من ذهب، يا عزيزي ياكوف اندرييتش، المرأة التي لم تحسن تقديرها، كما ينبغي – قال الراوي هذه الكلمات بعاطفة – فاقترح عليها، أخيراً، عقداً للتمثيل في قازان، فقبلت به، رغم أنها كانت تؤكد من قبل أنها لن تغادر موسكو! إلا أن أهالي قازان أحبوها حباً يبعث على الذهول. فما من عرض إلا وينتهي بباقات الزهور وهدية! باقات زهور وهدية! بل إن تاجر حبوب، وهو ثري الولاية الأول، أهدى لها محبرة ذهبية! – وكان كوبفر يقص كل ذلك بحيوية كبيرة، دون أن يبدي أية عاطفة، على كل حال، وحين كان أراتوف الذي ظل يستمع باهتمام لاهب، يطلب المزيد والمزيد من التفاصيل كان كوبفر يتوقف ليسأل «ولِمَ تريد أن تعرف ذلك؟...» أو «ما علاقتك

١– اوستروفسكي (١٨٢٣ – ١٨٨٦) كاتب مسرحي روسي شهير صوَّر في عدد من مسرحياته أخلاق التجار الروس.

بهذا؟». وأخيراً فرغ كوبفر من تزويده بكل ما يعرفه، وصمت، وكافأ نفسه بسيغار، على الجهد الذي بذله.

سأل أراتوف:

– ولماذا سممت نفسها؟ تذكر الجريدة...

بسط كوبفر ذراعيه.

– طيب... هذا ما لا أستطيع أن أبت به... لا أعرف. والجريدة تكذب. كانت كلارا نموذجاً في التصرف... بلا غراميات... ثم أين ذلك؟ وهي بتلك الأنفة! لقد كانت أنوفاً، كالشيطان نفسه، وحصينة! رأس جسور! صلبة كالحجر! ربما لا تصدق بي، ولكن أقول لك انني خلال معرفتي بها تلك المعرفة القريبة لم أر دمعة في عينيها قط.

فقال أراتوف في سره: «ولكنني رأيت».

وتابع كوبفر يقول:

– بقي شيء واحد، وهو أنني، في الفترة الاخيرة، لاحظت تغيراً كبيراً فيها. صارت كئيبة، صموتاً، لا تظفر منها كلمة واحدة خلال ساعات. وكنت أسألها: هل كدَّرك أحد، يا كاترينا سيميونوفنا؟ لأنني أعرف طبعها: لم تكن تتحمل أية إساءة! كانت تصمت ولا تحير جواباً! وحتى نجاحاتها على المسرح لم تفرحها. باقات الزهور تنثال... وهي لا تبتسم! والمحبرة الذهبية ألقت عليها نظرة، وازورَّت عنها! وكانت تشكو من أن أحداً لن يكتب لها الدور الحقيقي، كما هي تفهمه. أما الغناء فقد تركته كلياً. وكنت أنا مذنباً يا أخ، حين أبلغتها، آنذاك، بأنك لا ترى لديها مدرسة. ومع ذلك... تستحيل معرفة السبب في تسميم نفسها! وبتلك الطريقة!...

– في أي دور... لقيت نجاحاً أكبر؟ – سأل أراتوف، وكان يريد أن يعرف آخر دور مثَّلته، ولكنه سأل عن شيء آخر، لسبب ما.

– على ما أتذكر، في «غرونيا» لأوستروفسكي[1]. ولكن أكرر لك:

١– يقصد في الظاهر البطلة الرئيسية لمسرحية أوستروفسكي «لا تعش كما تهوى» (١٨٥٥) غرونيا (اغرافينا).

لا غراميات! احكم بنفسك. لقد كانت تعيش مع أمها في بيت واحد... وأنت تعرف بيوت التجار هذه. في كل ركن ايقونات، والمسرجة أمامها، والهواء جد خانق، فيه رائحة حموضة. والمقاعد في غرفة الجلوس مصفوفة عند الحائط وحدها وأصص الجيرانيوم على النوافذ، وحين يأتي ضيف تأخذ ربة البيت بالولولة، وكأن عدواً أطل من على العتبة. فمن أين يأتي العشاق والمغازلون؟ أحياناً حتى أنا لا يسمحون لي بالدخول. كانت الخادمة، وهي امرأة ضخمة في سرفان قطني أحمر، ذات ثديين متدليين، تقف في طريقي في الرواق، وتصرخ: «إلى أين؟» كلا، أنا لا أدري مطلقاً لماذا سممت نفسها؟ يعني سئمت الحياة.

وبهذه الخاتمة الفلسفية أنهى كوبفر كلامه.

كان أراتوف يجلس مطرق الرأس، وأخيراً قال:

- هل يمكنك أن تعطيني عنوان ذلك البيت في قازان؟.

- يمكن. ولكن ما حاجتك إليه؟ أم لعلك تريد أن تبعث رسالة إلى هناك؟.

- ربما.

- حسب ما تريد. ولكن العجوز لن ترد عليك. لأنها أمية. إلا إذا كانت أختها... أوه، ما اذكى الأخت! ومع ذلك فأنا مستغرب منك، يا أخ! في البداية عدم اكتراث مطلق... والآن هذا الاهتمام! كل هذا من الوحدة، يا محترم!.

لم يرد أراتوف على هذه الملاحظة بشيء، وخرج بعد أن سجّل عنوان البيت في قازان.

عندما ذهب إلى كوبفر كان وجهه يفصح عن القلق والذهول والتوقع... بينما سار الآن بخطى موزونة، وعيناه مطرقتان، وقبعته نازلة على جبينه. و لم يحفل بالسابلة الذين كانوا جميعاً تقريباً يلقون عليه نظرة متفحصة... ليس كمثل ما كان في البولفار!...

كان يتردد في حناياه: «البائسة كلارا! المجنونة كلارا!» في عمله أو في وقت فراغه، يفكر دائماً في كلارا، وفيما قال له كوبفر بالأمس. وإن كانت أفكاره أيضاً ذات طابع هادئ. كان يبدو له أن تلك الفتاة الغريبة اهتمت به

من وجهة نظر سايكولوجية، باعتباره لغزاً يستحق إعمال الفكر لحله. كان يقول في سره: «هربت مع ممثلة مُعالة، ورضيت برعاية تلك الأميرة، وعاشت عندها، كما يبدو. كل هذا ولا غراميات؟ شيء لا يصدق!... كوبفر يقول: أنفة. ولكن أولاً نحن نعرف (وكان الاحرى به ان يقول قرأنا في الكتب)... نحن نعرف أن الأنفة يمكن أن تقترن بالخفة في السلوك، وثانياً: كيف يمكن لها، وهي الأنوف، أن تعين موعداً للقاء مع رجل كان يمكن أن يبدي لها إزدراءً... وقد أبدى بالفعل... وفي مكان عمومي... في بولفار!» وهنا تذكر أراتوف مشهد البولفار بكامله، وسأل نفسه:

«أحقاً أنه أبدى إزدراءً لكلارا؟! – قرر مع نفسه... – لقد كان ذلك شعوراً آخر... شعور الحيرة... الارتياب، أخيراً! البائسة كلارا! – رنَّ في رأسه من جديد، فقرر مع نفسه مرة أخرى: – هذه أحسن كلمة ملائمة. وإذا كان الأمر كذلك فقد كنت جائراً. وكانت صادقة، حين قالت إنني لم أفهمها. خسارة! مثل هذه المخلوقة، الرائعة، ربما، مرَّت بي بهذا القرب... و لم انتهز الفرصة، ابعدتها عني... ولكن، لا بأس! ما زلت في مقتبل العمر، وستتاح لي غير هذه اللقاءات، على ما اظن!.

ولكن لم اختارتني أنا دون الآخرين؟ – ونظر في المرآة التي مرَّ بها – بم أتميَّز؟ وأي وسامة فيَّ؟ وجهي... مثل سائر الوجوه... على العموم، هيَ أيضاً لم تكن وسيمة.

غير وسيمة... ولكن أي وجه معبَّر! جامد... ولكنه معبر! لم أر مثله من قبل. ولها موهبة... أقصد كانت لها، موهبة أكيدة. بدائية، غير مطوَّرة، بل وفجة... ولكنها أكيدة. وفي هذا الحال كنت جائراً عليها – وانتقل أراتوف بفكره إلى الصباحية الأدبية الموسيقية... وفطن بنفسه إلى أنه كان يتذكر بوضوح فائق كل كلمة غنتها أو قالتها، كل نبرة.... – وما كان ذلك سيحدث لو كانت بلا موهبة.

وكل ذلك الآن في القبر، حيث ألقت بنفسها هناك... ولكن لا علاقة لي بذلك... لست ملوماً! بل وسيكون مضحكاً لو فكرت في أنني ملوم – ومرة أخرى خطر في ذهن أراتوف: حتى لو كان في نفسها «شيء من هذا»

فإن تصرفه، أثناء اللقاء، قد خيب أملها، بالتأكيد... ولهذا السبب أطلقت تلك الضحكة الفظة عند الفراق. - ولكن أين الدليل على أنها سممت نفسها بسبب حب فاشل؟ إن مراسلي الصحف وحدهم يعزون كل موت من هذا الصنف إلى الحب الفاشل! ومن السهل أن تصير الحياة كريهة... مضجرة، بالنسبة لمن لهم طبع كطبع كلارا. نعم، مضجرة، وكوبفر على حق، بمجرد أنها سئمت الحياة.

رغم النجاحات، والتصفيق؟».

استغرق أراتوف في التفكير. حتى طاب له التحليل النفسي الذي انغمر فيه. لم تكتشف خطورة هذا التوغل المجهد في نفس امرأة بالنسبة لإنسان مثله يبعد حتى الآن عن أي تماس مع النساء.

وتابع أفكاره: «يعني أن الفن لم يكن يُطمئن نفسها ويملأ فراغ حياتها. والفنانون الحقيقيون يعيشون للفن قط، للمسرح... وسائر الأشياء تتصاغر أمام ما يعتبرونه رسالتهم... وكانت هي هاوية!».

وسهم أراتوف من جديد. لا، لم تنسجم كلمة «هاوية» مع ذلك الوجه، مع تعبير ذلك الوجه، تينك العينين...

وعادت صورة كلارا تنهض أمامه بنظرتها المتفرسة به، والمغرورقة بالدموع، ويديها المضمومتين على شفتيها...

وهمس: «آه، لا حاجة، لا حاجة... ولأي شيء؟».

وهكذا انقضى النهار كله. وعلى الغداء تحدث أراتوف مع بلاتوشا كثيراً، وسألها عن الماضي القديم الذي كانت لا تتذكره جيداً، ولا تحسن التحدث عنه، لأنها لا تجيد الكلام كما أنها لم تكن تلحظ أي شيء تقريباً خلال حياتها كلها ما عدا ياشا. إنها فرحت فقط لأنها تراه اليوم طيباً حنوناً! وعند المساء هدأت نفس أراتوف، حتى أنه لعب الورق مع عمته بضع مرات.

وهكذا انقضى النهار... - ولكن الليل!!.

- ١١ -

بدأ الليل بداية جيدة. غفا بسرعة، وحين دخلت العمة إلى غرفته على

أطراف أصابعها، لترسم علامة الصليب عليه ثلاث مرات، وهو نائم - وهذا ما كانت تفعله كل ليلة - رأته يرقد منتظم الأنفاس، كالطفل. ولكنه قبيل الفجر رأى حُلماً.

حلم بأنه يسير في سهب أجرد تتناثر عليه الأحجار. وقد رأى درباً ضيقاً يتلوى بين الأحجار، فسار عليه.

وفجأة ارتفع أمامه ما يشبه غمامة رقيقة. فيتمعن فيها، وإذا بالغمامة تصير امرأة في ثوب أبيض يطوق خصرها نطاق وضاء. وهي تبتعد عنه مسرعة. لم ير وجهها، ولا شعرها... كانت تغطيهما قماشة طويلة. ولكنه كان يريد أن يلحق بها لا محالة، وينظر في عينيها. ومهما غذّ في السير كانت أسرع منه سيراً.

اعترض الدربَ حجر عريض مسطح شبيه بشاهدة قبر سدَّ على المرأة طريقها... فتوقفت. ركض أراتوف إليها. التفتت إليه ومع ذلك لم ير عينيها... كانتا مغمضتين. وكان وجهها أبيض، أبيض كالثلج. وكانت اليدان تتدليان بلا حراك. فكانت تبدو كالتمثال.

مالت المرأة إلى الخلف، دون أن تحني أي عضو فيها، وارتمت على تلك الشاهدة... وإذا بأراتوف يرقد إلى جانبها ممدداً، مثل تمثال قبر، ويداه معقودتان كالميت.

إلا أن تلك المرأة نهضت بغتة، وابتعدت. وأراتوف يريد أن ينهض أيضاً... ولكنه لا يقوى على الحركة، ولا يستطيع أن يبسط يديه. فيشيعها ببصره في يأس.

عندئذ التفتت المرأة فجأة، فرأى عينين وضاءتين حيتين، في وجه حيٍّ، ولكنه غريب عليه. وتضحك المرأة، وتومئ بيدها... ولكنه يظل غير قادر على الحركة... ضحكت المرأة ثانية، وابتعدت مسرعة، هازة رأسها بمرح، وعلى الرأس إكليل من الورود الصغيرة.

ويجاهد أراتوف أن يصرخ، يجاهد أن يحطم هذا الكابوس الرهيب...

وفجأة أظلم كل شيء حوله... عادت المرأة إليه. ولكنها ليست ذلك التمثال الغريب... بل هي كلارا. توقفت أمامه، وطوت ذراعيها، وراحت

تنظر إليه بحدة وإمعان. وشفتاها مضمومتان. ولكن أراتوف يتخيل أنه يسمع كلمات.

«إذا كنت تريد أن تعرف من أنا، اذهب إلى هناك!...».

فيسأل: «إلى أين؟».

فيسمع صوتاً يئن: «إلى هناك! إلى هناك!».

واستيقظ أراتوف من نومه.

رفع جسمه من الفراش، وأشعل شمعة كانت على المنضدة الصغيرة قرب السرير، ولكنه لم ينهض، وجلس على سريره وقتاً طويلاً، متثلجاً كلياً، مديراً بصره ببطء فيما حوله. وخيل إليه أن شيئاً قد حدث له منذ أن استلقى لينام، شيئاً نفذ إلى داخله... شيئاً استحوذ عليه. وهمس بدون وعي: «أهذا ممكن؟ أتوجد مثل هذه السلطة؟».

و لم يستطع البقاء في السرير. ارتدى ملابسه بهدوء، وجال في الحجرة حتى الصباح. ويا للغرابة! لم يفكر في كلارا لحظة واحدة. لم يفكر لأنه عزم على السفر في اليوم التالي إلى قازان!.

لم يفكر إلا في السفر، وكيف يقوم به، وماذا يأخذ معه، وكيف سيستقصي كل شيء هناك، ويعرف، وتقر نفسه. وقال لنفسه: «أظنك ستجن، إذا لا تسافر!» وكان يخشى ذلك، يخشى اعصابه. كان موقناً بأنه ما أن يرى «كل ذلك» هناك رأي العين، حتى تتبدد كل الوساوس، مثل ذلك الكابوس الذي جثم عليه في الليل. وكان يفكر: «ولا يستغرقك السفر هذا غير أسبوع... وما قيمة الأسبوع؟ وإلا فإنك لن تستطيع أن تتخلص».

اضاءت الشمس الطالعة الحجرة، ولكن ضوء النهار لم يبدد عنه طيوف الليل، و لم يبدل عزمه.

كادت بلاتوشا تصاب بصدمة، حين ابلغها بعزمه هذا. حتى أنها قرفصت على الأربع... فقد ساخت رجلاها تحتها. همست وهي تحملق بعينيها العمياوين أصلاً: «كيف إلى قازان؟ ولماذا إلى قازان؟» وما كانت ستدهش أكثر لو أنها عرفت أن عزيزها ياشا سيتزوج جارتها صاحبة المخبز، أو يرحل إلى أميركا.

- وهل ستغيب طويلاً في قازان؟

- سأعود بعد اسبوع.

اجاب أراتوف واقفاً مستديراً نصف استدارة إلى عمته التي ما زالت مقرفصة على الأرض.

ارادت بلاتونيدا إيفانوفنا ان تعترض مرة أخرى، إلا ان أراتوف صرخ بها بطريقة غير متوقعة كلياً وغير معتادة.

- لست طفلاً - صاح وعلاه الشحوب، واخذت شفتاه ترتعشان، وعيناه تلمعان بغيظ - أنا في الخامسة والعشرين، وأعرف ما افعله. وأنا حر في أن افعل ما أريد! ولن أسمح لأحد... اعطيني نقوداً للسفر، وهيئي حقيبة السفر بالثياب والملابس... ولا تعذبيني! بلاتوشا، سأعود بعد اسبوع - اضاف الجملة الاخيرة بصوت أنعم.

نهضت بلاتوشا متأوهة، وقد كفت عن المعارضة، وذهبت إلى حجرتها ساكتة. ارعبها ياشا. قالت للطباخة التي ساعدتها في ترتيب حاجيات ياشا: «ليس فوق كتفيّ رأس، بل خلية نحل... ولا ادري أي نوع من النحل يطن هناك. يسافر إلى قازان، يا أم، إلى قازان!» وكانت الطباخة قد رأت في البارحة بوابهم يتحادث طويلاً مع الشرطي، فارادت أن تبلغ السيدة بذلك، ولكنها لم تجرؤ، وراحت تفكر: «إلى قازان؟ حمداً لله على أنه لا يسافر إلى مكان أبعد!» بينما كانت بلاتونيدا إيفانوفنا عى درجة من الذهول أنستها حتى دعاءها المعتاد.

وفي ذلك اليوم سافر أراتوف إلى قازان.

- ١٢ -

ما كاد يصل إلى تلك المدينة، ويستأجر غرفة في الفندق، حتى انطلق يبحث عن بيت الأرملة ميلوفيدوفا. كان طوال رحلته في حالة من الخدر، إلا أن ذلك لم يمنعه، على أية حال، من اتخاذ كل ما يلزم: الانتقال في نيجني نوفغورد من القطار إلى الباخرة، وتناول طعامه في المحطات إلى غير ذلك. وكان على يقينه السابق من أن كل شيء سيقرر هناك، ولهذا ابعد عن نفسه كل الذكريات والأفكار، قانعاً بشيء واحد: ان يتهيأ ذهنياً إلى ذلك الخطاب

الذي سيعرض فيه على عائلة كلارا ميليتش السبب الحقيقي لقدومه. وها هو قد وصل أخيراً إلى بغيته، وطلب أن يبلّغ بحضوره. وسمحوا له بالدخول... في حيرة وخوف، ولكنهم سمحوا له.

وظهر أن بيت الأرملة ميلوفيدوفا بالشكل الذي وصفه كوبفر به فعلاً. والأرملة نفسها تشبه تماماً إحدى زوجات التجار في مسرحيات اوستروفسكي، رغم أنها كانت زوجة موظف. فقد كان زوجها موظفاً من الدرجة الثامنة[1]. اعتذر أراتوف مقدماً عن جسارته، وغرابة زيارته، وألقى، وليس بدون بعض الصعوبة، الخطاب المعد سلفاً ذكر فيه أنه يريد أن يجمع كل المعلومات الضرورية عن ممثلة موهوبة ماتت في سن مبكرة جداً، لا يحدوه في ذلك الفضول الرخيص، بل العطف العميق على موهبتها التي كان هو من عشاقها (هكذا قال: من عشاقها)، وقال أخيراً أن من الإثم أن يظل الجمهور يجهل ما فقده، والسبب في ضياع آماله! لم تقاطع السيدة ميلوفيدوفا كلام أراتوف، إذ لم تكن تفهم جيداً ما يقوله لها هذا الضيف الغريب، فظلت منفوخة قليلاً، محملقة فيه بعينيها، إلا أنها كانت تجده وديعاً في مظهره، حسن الملبس، وليس محتالاً... فهو لا يطلب نقوداً.

وما أن سكت أراتوف حتى سألته:

- تقصد كاتيا في كلامك؟.

- بالضبط... ابنتك.

- ولأجل هذا جئت من موسكو؟.

- نعم. من موسكو.

- من أجل هذا فقط؟

- من أجل هذا.

وانتعشت السيدة ميلوفيدوفا فجأة.

- ألعلك كاتب؟ تكتب في المجلات؟.

- لا، لست كاتباً. ولم اكتب في المجلات حتى الآن. خفضت الأرملة رأسها. وأخذتها الحيرة.

١- كان سلم الرتب المدنية في عهد روسيا القيصرية من ١٤ درجة. ـ المترجم.

- يعني... جئت مدفوعاً برغبتك الخاصة؟.

سألت الأرملة فجأة. و لم يجد أراتوف ما يرد به على الفور، وأخيراً قال:

- تعاطفاً مني، واحتراماً للموهبة.

وأعجبت كلمة «احترام» السيدة ميلوفيدوفا. قالت وهي تتنهد:

- وليكن!... أنا أمها، على الأقل، وقد حزنت عليها حزناً شديداً... مصيبة كهذه تنزل علينا فجأة!... ومع ذلك يجب أن أقول بأنها كانت طائشة دائماً، وقد انهت حياتها بهذه الطريقة الطائشة!... يا للعار!... احكم بنفسك: أي وقع لهذا على الأم؟ شكراً على أنها دفنت على الطريقة المسيحية... - ورسمت السيدة ميلوفيدوفا علامة الصليب - منذ صغرها لم تخضع لأحد. تركت بيت والديها... وأخيراً - وهل هذا قليل! - صارت ممثلة! وطبيعي أنني لم أطردها من البيت. فقد كنت أحبها! وأنا أم، على الأقل! ولا يجوز لها أن تعيش مع الغرباء، وتتسوَّل!... - وهنا ذرفت الأرملة بعض الدموع، وعادت تقول، وهي تمسح عينيها بطرف منديلها - إذا كانت لديك، أيها السيد، مثل هذه النية حقاً، ولا تضمر لنا ما يشيننا، بل على العكس، تريد أن تبدي اهتماماً، فتحدث إلى ابنتي الأخرى. فهي ستحكي لك كل شيء أحسن مني... آنوتشكا - نادت السيدة ميلوفيدوفا - آنوتشكا، تعالي إلى هنا! عندي سيد قادم من موسكو، ويريد أن يتحدث إليك بخصوص كاتيا.

صدر طرق في الحجرة المجاورة، ولكن احداً لم يدخل. وصاحت الأرملة مرة أخرى:

- آنوتشكا! آنا سيميونوفنا! أقول لك تعالي!.

انفتح الباب بهدوء، وظهرت على العتبة فتاة تخطت ريعان شبابها، عليلة المظهر، عاطلة من الجمال، ولكن لها عينان وديعتان حزينتان. نهض أراتوف من مكانه للقائها، وقدَّم نفسه لها، وذكر، في الوقت ذاته، اسم صديقه كوبفر.

- آه! فيدور فيدروفيتش!.

قالت الفتاة بهدوء، وجلست على مقعد بهدوء أيضاً. قالت السيدة ميلوفيدوفا، وهي تنهض من مكانها ثقيلة:

– طيب، فتحدثي إلى السيد. جشَّم نفسه العناء، وجاء من موسكو خصيصاً، يريد ان يجمع المعلومات عن كاتيا – ثم اضافت مخاطبة أراتوف – أما أنا فاعذرني، أيها السيد... أنا ذاهبة لقضاء شؤون البيت. يمكنك أن تستوضح جيداً من آنا. وستحدثك عن المسرح أيضاً... وكل شيء. إنها ذكية مثقفة وتتكلم الفرنسية، وتقرأ الكتب، ولا أسوأ من أختها المرحومة. ويمكن القول بأنها هي التي علمتها... كانت أكبر منها سناً، فعلَّمتها...

وانصرفت السيدة ميلوفيدوفا. ولما بقي أراتوف وحيداً مع آنا، اعاد عليها خطابه، ولكنه فهم منذ الوهلة الأولى أن أمامه فتاة مثقفة بالفعل، وليست ابنة تاجر، فتوسع في الحديث بعض الشيء واستخدم تعابير أخرى، وقبل ان ينتهي من خطابه ارتبك، واحمرَّ وأحس بأن قلبه يدق. اصغت آنا إليه صامتة، واضعة يداً على يد، لا تفارق وجهها ابتسامة حزينة... كانت هذه الابتسامة تنطوي على محنة مريرة غير قديمة العهد.

سألت أراتوف:

– هل كنت تعرف اختي؟.

اجاب:

– لا، لم اكن أعرفها عن قرب. لقد رأيتها، وسمعت صوتها مرة... ولكن يكفي للمرء أن يرى ويسمع اختك مرة...

فعادت آنا تسأل:

– أتريد ان تكتب سيرة حياتها؟.

لم يكن أراتوف يتوقع هذه الكلمة، ولكنه رد على الفور: ولِمَ لا؟ ولكن الشيء الرئيسي أنه كان يريد ان يعرّف الجمهور...

اوقفته آنا بحركة من يدها.

– ولأي شيء ذاك؟ الجمهور، بدون ذلك، سبب لها الكثير من الأذى، وكاتيا آنذاك لم تزل على عتبة الحياة. ولكن إذا كنت (ونظرت آنا إليه،

وابتسمت من جديد نفس تلك الابتسامة الحزينة، ولكنها أكثر حفاوة... وكأنها فكرت: نعم أنك توحي لي بالثقة). - ولكن إذا كنت تضمر لها مثل هذا العطف، اسمح لي أن أطلب إليك أن تأتي إلينا اليوم بعد الظهر... بعد الغداء. أنا الآن، لا أستطيع... هذه مفاجأة... سأستجمع قواي... أحاول... آه، كم أحببتها!.

وادارت آنا وجهها، وأوشكت أن تنتحب.

نهض أراتوف من مقعده مسرعاً، وشكرها على دعوتها، وقال: إنه سيأتي بالتأكيد... بالتأكيد! وخرج حاملاً في قلبه ذكرى صوتها الهادئ، وعينيها الوديعتين الحزينتين، ومتلظياً بنار الانتظار.

- ١٣ -

عاد أراتوف في اليوم نفسه إلى آل ميلوفيدوفا، وقضى ثلاث ساعات بكاملها يتحادث مع آنا سيميونوفنا. وكانت السيدة ميلوفيدوفا تأوي إلى فراشها بعد الغداء مباشرة، - في الساعة الثانية - و«استراحت» حتى ساعة شاي المساء، أي إلى الساعة السابعة. لم يكن حديث أراتوف مع أخت كلارا أخذاً ورداً، فقد ظلت آنا تتحدث وحدها تقريباً، في البداية بتلعثم وارتباك، وفيما بعد بحماس كاسح. والظاهر أنها كانت تحب أختها حب العبادة. وتنامت الثقة التي أوحاها لها أراتوف وقويت، فلم تعد تتحرج. بل وبكت أمامه مرة أو مرتين في صمت. فقد بدأ لها جديراً بأحاديثها الصريحة ومكاشفاتها... وذلك شيء لم يحدث قط في حياتها المنعزلة!... أما هو... فقد كان يتشرب كل كلمة من كلماتها.

وهذا ما عرفه... والكثير منه، بالطبع، مما حاولت أن تخفيه... والكثير أضافه من عنده.

كانت كلارا منذ صغرها طفلة غير مريحة بكل تأكيد، ولم يسلس خلقها قليلاً عندما صارت فتاة. وكانت، وهي الجموح، السريعة الهياج، المحبة لنفسها، على علاقة غير طيبة مع أبيها الذي كانت تحتقره لسكره ولخلوه من أية موهبة. وكان الأب يحس بذلك، ولم يغفر لها اياه. وقد تبدّت قابلياتها الموسيقية، في وقت مبكر، ولكن الأب وقف في طريق تفتحها، معتبراً الرسم

وحده هو الفن الذي لم ينجح فيه كثيراً، ولكنه كان يطعم نفسه وعائلته منه. وكانت كلارا تحب أمها... ولكن بلا عناية، كما يحب الطفل مربيته... وكانت تحب أختها حب العبادة، رغم أنها كانت تتشاجر معها، وتعضها... وإن كانت، فيما بعد، تركع أمامها، وتقبل المواضع التي عضتها. كانت بكليتها ناراً وعاطفة مشبوبة، وتناقضاً. كانت انتقامية وطيبة القلب، شهمة وشموتاً، تؤمن بالقدر، ولا تؤمن بالله (همست آنا بهذه الكلمات بذعر)، وكانت تحب كل ما هو جميل، بينما لم تكن تهتم بجمالها هي، ولا تعتني بثيابها، ولم تكن تطيق أن يغازلها الشبان، وفي الكتب كانت لا تعيد إلا قراءة الصفحات التي يجري فيها الحديث عن الحب، ولم تحب أن يعجب بها الناس، ولم تحب الملاطفة، ولم تنسَ قط، مثلما لم تنسِ الإهانة. كانت تخاف الموت، بينما قتلت نفسها بنفسها! كانت تقول أحياناً: الرجل الذي أريده أنا لن ألتقي به... أما الآخرون فلست بحاجة إليهم!» فكانت آنا تسألها: «وإذا التقيت به؟»، «إذا التقيت به... آخذه»، «وإذا لم يستجب لك؟»، «طيب... عندئذ سأقتل نفسي. يعني أنني لا أنفع». وكان أبو كلارا (كان أحياناً يسأل زوجته، وهو سكران: «ممن أنجبت هذه العفريتة الداكنة البشرة؟ – ليس مني!») كان أبو كلارا يسعى إلى التخلص منها بأسرع ما يمكن، وقد وجد لها خطيباً، هو تاجر شاب غني شديد البلاهة من «المتعلمين». وقبل أسبوعين من الزفاف (كانت كلارا لا تتعدى السادسة عشرة) ذهبت إلى خطيبها، وطوت ذراعيها، وراحت تضرب كوعيها بأصابعها (وقفتها المفضلة) وهوت فجأة بصفعة على خده المورَّد بكفها القوية الكبيرة! فوثب متراجعاً، وفغر فاه لا غير – يجب القول بأنه كان يحبها حباً مدنفاً... ويسأل: «ولِمَ هذا؟» ضحكت وانصرفت. وقالت آنا: «كنت في نفس الغرفة. وشهدتَ ذلك». ركضت وراءها وقلت لها: «كاتيا، ما هذا الذي فعلته، ارجوك؟» فردت عليَّ قائلة: «لو كان رجلاً حقيقياً لضربني، ولكنه دجاجة لا تبيض! وعلاوة على ذلك يسأل: ولِمَ هذا؟ إذا كنت تحب ولا ترد الإهانة، فتحمل، ولا تسأل: لِمَ هذا؟ لن يَحصل مني على شيء إلى الأبد!» وهكذا لم تتزوجه. وبعد قليل تعرفت بالممثلة، وتركت بيتنا. بكت أمي، بينما اكتفى أبي بأن قال: «لا مكان في القطيع للنعجة الحرون!» ولم يهتم بها، ولم يبحث عنها.

كان أبي لا يفهم كلارا، وأضافت آنا: في عشية هروبها كادت تخنقني وأنا بين أحضانها، وظلت تقول: «لا أقدر! لا اقدر ان اتصرف بغير ذلك!... قلبي ينغلق ولا أستطيع. ففصكم ضيق... لا يتسع لجناحيّ! كما لا مفر من قدري...».

وقالت آنا:

– وعبعد هذا ندرت لقاءاتنا... وحين توفي أبونا جاءت ليومين، و لم تأخذ شيئاً من الإرث، واختفت مرة أخرى. كان العيش عندنا يرهقها... رأيت ذلك بنفسي. وبعد ذلك وصلت إلى قازان، وهي ممثلة.

أخذ أراتوف يسأل آنا عن المسرح والادوار التي ظهرت كلارا فيها، وعن نجاحاتها... واجابت آنا بتفصيل، وبنفس اللهفة الحزينة، والحيَّة في الوقت ذاته. بل وأطلعت أراتوف على صورة شمسية تمثل كلارا وهي في حلة احد ادوارها. وكانت الصورة تظهرها، وهي تنظر جانباً، وكأنها تزوِّر عن المشاهدين. وكانت ضفيرتها الكثيفة المحبوكة بشريط تنساب كالأفعى على ذراعها العارية. امعن أراتوف النظر طويلاً في هذه الصورة، ووجد فيها شبهاً لها، وسأل عما إذا كانت كلارا تشارك في القراءات على الجمهور، فأجيب بالنفي، وبأنها كانت بحاجة إلى تأجج المسرح وخشبته... وكان سؤال آخر يتحرق على شفتيه، هتف به أخيراً وليس بصوت عال، ولكن بجهد ملحوظ:

– آنا سيميونوفنا! خبريني، اتوسل إليك، لِمَ... لِمَ اقدمت على تلك الفعلة الرهيبة؟.

غضَّت آنا بصرها:

– لا أعرف! – قالت بعد بضع لحظات، ثم مضت تقول بحرارة، حين لاحظت أراتوف يبسط ذراعيه، وكأنما لا يصدق بها – لا أعرف وحق الرب! منذ وصولها إلى هنا كانت ساهمة تماماً وكئيبة. لا بد أن شيئاً حصل لها في موسكو، شيئاً لم يكن في مقدوري ان اتبينه! ولكنها، على العكس من حالها، كانت في ذلك اليوم المشؤوم... ان لم تكن أكثر مرحاً، فهي اكثر هدوءاً من المعتاد. حتى انني لم أهجس أي شيء – اضافت آنا بابتسامة مريرة، فكأنها توبخ نفسها على ذلك.

وانبرت تقول ثانية:

– أحسب أن كاتيا قد كُتب لها، منذ الولادة، أن تكون بائسة. وكانت واثقة من ذلك في وقت مبكَر. تضع رأسها على يدها، وتستغرق، وتقول: «لن أعيش طويلاً!» كانت الهواجس تنتابها. فتصور، إنها كانت ترى مسبقاً، في المنام أحياناً، وفي اليقظة أحياناً أخرى، ماذا سيقع لها! كان من أقوالها أيضاً: «ليس بوسعي ان أعيش كما أريد، ولست بحاجة إلى أن أعيش بهذا الشكل...» «وعلى العموم حياتنا بأيدينا!» وقد أثبتت ذلك!.

وغطت آنا وجهها بيديها، وسكتت.

وبعد وقت قصير قال أراتوف:

– آنا سيميونوفنا، لعلك سمعت تأويل الصحف...

– الحب الفاشل؟ – قاطعته آنا، وقد انتزلت يديها عن وجهها فجأة – هذا افتراء، افتراء، تزوير!... أختي كاتيا العفيفة، الحصينة... كاتيا! وحب بائس مرفوض؟!! وأنا لا أعرف ذلك؟... الجميع وقعوا في حبها... وهي... مَنْ كان يمكن أن تقع في هواه هنا؟ من كان اللائق بها من كل هؤلاء الناس؟ ومَن ارتفع إلى هذا المثال من النزاهة، والصدق، والنقاء، وهذا الشيء المهم، مثال النقاء الذي مثل أمامها دائماً، رغم كل نقائصها؟... رُفض حبها... حبها...

وتقطع صوت آنـا... وارتجفت أصابعها قليلاً. وإذا بالحمرة تعلو وجهها... احمرَّت من الحنق. وفي تلك اللحظة، ولبرهة واحدة صارت شبيهة بأختها.

أخذ أراتوف يعتذر، قاطعته آنا مرة أخرى:

– اسمع. أريد من كل بد ألا تصدق أنت أيضاً بهذا الافتراء، وأن تبدده، إذا كان ذلك ممكناً! ها أنت تريد ان تكتب عنها مقالة، أليس كذلك؟ وها هي الفرصة قد سنحت لك لتحمي ذكراها! ولهذا السبب أتحدث إليك بهذه الصراحة. اسمع تركت كاتيا يوميات...

جفل أراتوف، وهمس:

– يوميات.

– نعم، يوميات... أعني بضع صفحات لا غير. لم تكن كاتيا تحب

الكتابة... كانت لا تكتب شيئاً لشهور كاملة... كما أن رسائلها كانت قصيرة أيضاً. ولكنها كانت دائماً، دائماً صادقة، و لم تكذب قط... هل يمكن أن تكذب وهي بهذه العزة بالنفس!... أنا... أنا سأريك هذه اليوميات! وسترى بنفسك ما إذا كان فيها، ولو تلميح عن حب فاشل!.

وأسرعت آنا فأخرجت من جرار المنضدة كراساً قليل الصفحات، لا تزيد صفحاته عن عشر، وقدمته إلى أراتوف. فاختطفه هذا بلهفة، وعرف خطها العريض غير السليم، خط تلك الرسالة غير المذيلة بتوقيع، وفتحه عرضاً، وفي الحال وقع على هذه السطور:

«موسكو، الثلاثاء، الـ... من حزيران. غنيت وقرأت في صباحية أدبية. اليوم يوم مشهود بالنسبة لي. ويجب أن يقرر مصيري (خط تحت هذه الكلمات خطان) رأيت مرة أخرى...» وتبع ذلك عدة سطور مشطوبة بشكل معتنى به. ثم: «لا! لا! لا!... ان أعود كما كنت، فقط لو...».

وأنزل أراتوف اليد التي تمسك الكراسة، وتدلّى رأسه على صدره بهدوء، وهتفت آنا:

- اقرأ. لماذا لا تقرأ؟ اقرأ من البداية... لا تأخذ القراءة من وقتك غير خمس دقائق، رغم أن هذه اليوميات امتدت عامين كاملين. حين انتقلت إلى قازان لم تعد تكتب شيئاً...

نهض أراتـوف من مقعده ببطء، وركع على ركبتيه أمام آنا فجأة. وتحجرت آنا من الانذهال والفزع. وقال أراتوف بصوت غائص، ومد إلى آنا كلتا يديه:

- أعطيني... أعطيني هذه اليوميات... أعطينيها، أعطيني... الصورة. أظن أن عندك صورة أخرى... وسأعيد اليوميات إليك... ولكنني بحاجة، بحاجة...

وكانت في ضراعته، في قسمات وجهه الملتوية استماتة كبيرة تشبه الحنق، تشبه العذاب... وكان يتعذب بالفعل. وكأنما ما كان في مقدوره أن يتصور مسبقاً أن مصيبة كهذه ستحل به. لكان يتضرع بانفعال طلباً للرحمة، للإنقاذ... كرر:

- أعطيني...

- ولكن... هل... هل كنت تحب أختي؟.

نطقت آنا أخيراً، وبقي أراتوف راكعاً.

- لم أرها غير مرتين... صدقيني!... ولو لم تحفزني أسباب لا أستطيع أنا أن أفهمها أو أتبينها جيداً... ولو لم تأسرني سلطة أقوى مني... لما رجوتك... ولما جئت إلى هنا. أنا بحاجة... يجب عليَّ... أنت نفسك قلت انني ملزم بأن أستعيد صورتها!.

سألت آنا مرة أخرى:

- ألم تكن تحب أختي؟.

لم يجب أراتوف حالاً. أدار وجهه قليلاً، وكأنما من ألم وهتف بنفس تلك الاستماتة:

- نعم، بلى! كنت! وحتى الآن أعشقها... تردد وقع خطوات في الغرفة المجاورة. فاسرعت آنا تقول:

- انهض... انهض. أمي قادمة إلينا.

نهض أراتوف.

- خذ اليوميات والصورة، والله معك! مسكينة، مسكينة كاتيا!... ولكن أعد اليوميات إليّ - قالت بحيوية - وإذا كتبت شيئاً أرسله لي من كل بد... هل تسمع؟.

وأنقذه ظهور السيدة ميلوفيدوفا من ضرورة الجواب، إلا أنه استطاع أن يهمس:

- أنت ملاك! شكراً! سأرسل لك كل ما سأكتبه...

كان النوم لا يزال عالقاً في عيني السيدة ميلوفيدوفا، فلم تحدس شيئاً.

وهكذا غادر أراتوف قازان، وفي جيب سترته الجانبي صورة كلارا. أما الكراسة فقد أعادها إلى آنا، ولكن بعد أن قطع الورقة التي فيها الكلمات المعلّمة بخطين، دون أن تلحظ آنا.

وفي طريق العودة إلى موسكو عاودته حالة الخدر ثانية. ورغم أنه كان فرحاً في سره بحصوله على ما سافر من أجله، إلا أنه أجَّل التفكير في كلارا إلى حين عودته إلى بيته، بينما انصب تفكيره على أختها آنا في معظم الوقت، كان يقول لنفسه: «إنها مخلوق رائع جذاب! تفهُّم مرهف لكل شيء. وقلب محب، وتجرد من الأنانية! وكيف تتفتح مثل هذه الفتيات عندنا في الأقاليم، وفي مثل هذا الوضع! إنها عليلة، ودميمة، وقد تخطت سن الشباب، ولكن أية صديقة ممتازة يمكن أن تكون لرجل مثقف معتبر! تلك هي الجديرة بالحب!...» كان أراتوف يفكر بهذا الشكل... ولكن الأمر اتخذ منحى مختلفاً تماماً حين وصل موسكو.

- ١٤ -

سُرَّت بلاتونيدا إيفانوفنا بعودة ابن أخيها سروراً لا يوصف. وما أكثر الظنون التي تواردت عليها في غيابه! كانت تهمس، وهي جالسة في غرفتها بلا حراك: «إلى سيبيريا على أقل تقدير، ولمدة عام على أقل تقدير!» كما أن الطباخة أخافتها، وهي تحكي لها اخباراً غاية في الموثوقية عن اختفاء هذ الشاب أو ذاك من جيرانهم. ولم يهدئ العجوز قط عرفانها بطهارة ياشا التامة وبأنه موضع ثقة. «لأنه... وفضلاً عن ذلك! يشتغل في التصوير... طيب، هذا يكفي! فاقبضوا عليه!» وها هو عزيزها ياشا يعود سالماً سليماً! صحيح أنها لحظت متوهمة أنه نحف واستطال وجهه - وهذا أمر مفهوم... لأنه خرج عن مراقبتها! ولكنها لم تجرؤ أن تسأله عن رحلته، سألته على الغداء: «هل قازان مدينة جميلة؟» - أجاب أراتوف: «جميلة». «اظن ان كل سكانها من التتر؟» - «لا، ليس التتر وحدهم» - «ألم تجلب عباءة من هناك؟» - «لا، لم أجلب»، وانتهى الحديث بذلك.

ولكنه حالما اختلى أراتوف بنفسه في غرفة مكتبه، حتى شعر في الحال بأن شيئاً قد أحاط به كالطوق، وأنه في قبضة تلك السلطة مرة أخرى، وبالضبط في قبضة سلطة حياة أخرى، مخلوق آخر. ورغم أنه قال لآنا - في تلك السورة من السُّعار المفاجئ - إنه يحب كلارا، إلا أن ذلك بدا لنفسه الآن غير معقول، وحوشياً. لا، لا يحب، ثم كيف يحب امرأة ميتة، لم ترق

له حتى حين كانت حيَّة، امرأة كاد ينساها. مستحيل! ولكنه في قبضة... قبضة سلطتها... لم يعد يملك نفسه الآن. إنه مأخوذ. ومأخوذ إلى حد أنه لا يحاول حتى إعتاق نفسه بالضحك من سخافته، ولا بأن يثير في نفسه – ان لم يكن الثقة – فالأمل، على الاقل، في ان كل ذلك سيزول، وأن ذلك مجرد اعصاب، ولا باستقصاء الدلائل على ذلك، ولا بشيء آخر! وعادت إلى ذاكرته كلمات كلارا التي روتها آن: «إذا التقيت به أخذته»... وها هو مأخوذ. «ولكنها ميتة؟ نعم، جسدها ميت... وروحها؟ أليست خالدة؟... وهل هي بحاجة إلى اعضاء دنيوية لتظهر سلطتها؟ ها هي المغناطيسية قد اثبتت لنا تأثير نفس إنسانية حية على نفس إنسانية حية أخرى. فلماذا لا يستمر هذا التأثير إلى ما بعد الموت، إذا كانت الروح تبقى حيّة؟ ولكن لأي هدف؟ وماذا يمكن ان ينشأ عن ذلك؟ ثم هل من المعقول أننا – بشكل عام – ندرك هدف كل ما يجري حولنا؟» وكانت هذه الأفكار تشغل أراتوف كثيراً، حتى إنه سأل بلاتوشا فجأة، وهما يشربان الشاي: «هل تؤمنين بخلود الروح؟» في البداية لم تفهم هذه ما تُسأل عنه، ولكنها رسمت علامة الصليب بعد ذلك، واجابت: وكيف يمكن الا تكون الروح خالدة! فعاد أراتوف يسألها: «ما دام الأمر كذلك فهل يمكن ان تؤثر بعد الموت؟» فردت العجوز: يمكن... انها تصلي من اجلنا، وبعد ان تُمتحن بضروب العذاب تبقى تنتظر يوم الدينونة. وفي الأيام الأربعين الأولى تحوم فقط حول المكان الذي أخذها الموت فيه.

– الآيام الأربعون الأولى؟.

– نعم، ثم تُمتحن بضروب العذاب.

أعجب أراتوف بمعارف عمته، وذهب إلى حجرته. وشعر مرة أخرى بنفس الشيء، بتلك السلطة تقبض على نفسه. وكانت هذه السلطة تتجلى أيضاً في تخيله المستديم لصورة كلارا بأدق تفاصيلها، وإلى دقائق لا يبدو أنه قد لاحظها في حياتها. فقد رأى... رأى أصابعها، قدميها، خصلات شعرها على وجنتيها، تحت صدغيها، والخال الصغير تحت عينها اليسرى، رأى حركة شفتيها، ومنخريها، وحاجبيها... ثم أية مشية لها، وكيف تميل

برأسها قليلاً إلى جنبها الأيمن... رأى كل شيء! ولم يكن يجد أية متعة في تملّي هذا كله، ولكن ما كان بوسعه ألا يفكر فيه وأن يراه. ومع ذلك فلم يحلم بها في الليلة الأولى من عودته... كان متعباً فنام كالميّت...إلا أنه حالما استيقظ دخلت عليه حجرته من جديد، وبقيت فيها وكأنها صاحبتها، وكأنما بموتها الاختياري اشترت هذا الحق، دون أن تستأذنه، ولا تحتاج إلى إذنٍ منه. تناول صورتها الشمسية، وأخذ يعيد طبعها، ويكبرها، ثم فكر في أن يضعها في الفانوس السحري. واقتضاه ذلك الكثير من العناء... وأخيراً نجح في ذلك. واعترته رعدة حين رأى صورتها من خلال الزجاج كالمجسّدة. ولكن هذه الصورة كانت رمادية، وكأنها مغبرة... كما أن عينيها... عينيها كانتا تنظران في ناحية، وكأنهما تشيحان عنه. أدام النظر فيهما طويلاً، وكأنما كان يتوقع أن تستديرا نحوه... بل وقلّص عينيه متعمداً... ولكن عينيها بقيتا جامدتين، والصورة كلها اتخذت شكل دمية. ابتعد عنها، وألقى نفسه علي مقعد، وتناول الورقة التي قطعها من دفتر يومياتها، بتلك الكلمات المعلمة بخطين، وفكر: «يقولون العشاق يقبّلون السطور التي خطتها يد الحبيبة. ولكن لا أجد في نفسي الرغبة لأفعل ذلك. كما أن الخط يبدو لي غير جميل. إلا أن هذا السطر يتضمن الحكم عليَّ». وهنا تذكر الوعد الذي قطعه لآنا بخصوص المقالة التي سيكتبها. وجلس إلى المنضدة، وأخذ يكتبها. ولكن كل ما كتبه كان كثير الكذب، كثير التزويق... والمهم أنه كان كثير الكذب... وكأنه لم يصدق لا بما كتبه، ولا بمشاعره ذاتها... كما أن كلارا بدت له غريبة عليه، وعسيرة على الفهم! كانت تمتنع عليه. وفكر وهو يلقي الريشة من يده: «كلا! إما أنني لا أحسن الكتابة البتة، أو يجب التريُّث أكثر!» وأخذ يسترجع في ذاكرته زيارته إلى بيت ميلوفيدوفا، وكل رواية آنا، آنا الطيبة، العجيبة... بهرته فجأة الكلمة التي قالتها: «العفيفة!»... فكأن شيئاً أحرقه وأضاءه في الوقت ذاته.

قال بصوت مسموع:

– نعم. إنها عفيفة، وأنا أيضاً عفيف... وهذا الذي أعطاها هذه السلطة!.

وعاودته أفكاره عن خلود الـروح، والحياة الآخـرة، ألم يُذكر في الكتاب المقدس «أيها الموت، أين حُمتك؟»[1] وقول شيللر: «والأموات أيضاً سيعيشون!» (Auch die Todten sollen leben)[2] ثم هذا القول لميتسكيفيتش[3] على ما يبدو: «سأحب حتى نهاية الحياة... وبعد نهاية الحياة!» وقد قال كاتب انجليزي[4]: «الحب اقوى من الموت!» وكان أراتوف يتأثر بشكل خاص في قول مأثور في الكتاب المقدس. فأراد أن يبحث عنه. ولم يكن له نسخة من الكتاب المقدس، فذهب إلى بلاتوشا يطلب نسختها. وقد دهشت هذه، إلا أنها أخرجت نسختها القديمة في غلاف جلدي مقفع، وكلابات نحاسية، وقد تبقع كله بالشمع، وناولته لأراتوف، فأخذه إلى حجرته، ولكنه ظل وقتاً طويلاً يبحث عن ذلك القول المأثور، ولم يجده... ولكنه وجد قولاً آخر:

«ليس لأحد حب أعظم من هذا، أنْ يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (إنجيل يوحنا، الإصحاح الخامس عشر، السطر ١٣).

وفكر «ما هذا يجب أن يقال، كان يجب أن يقال: «ليس لأحد سلطة اعظم...»».

«وماذا إن كانت لم تضع نفسها من أجلي؟ إن كانت لم تقض على نفسها إلا لضيقها بالحياة؟ وأخيراً، إذا كان مجيئها إلى الموعد لم يكن إطلاقاً لغرض البوح بحب؟».

ولكنه في تلك اللحظة تخيل كلارا قبيل انصرافها عنه في البولفار...

١- هذا القول من «كلمة» يوحنا ذي الفم الذهبي التي تتلى في القداس في اليوم الأول من عيد الفصح، ولا تدخل في الإنجيل.

٢- السطر الأكثر شبهاً وارد في قصيدة شيللر Siegesfest («والأموات يستمرون في العيش»)، Und die Fodten dauern immer.

٣- هذا اقتباس محرّف من قصيدة للكاتب البولوني العظيم آدام ميتسكيفيتش (١٧٩٨ ــ ١٨٥٥) بعنوان «حديث» (١٨٥٥).

٤- بطل تورغينيف يخطئ. فهذه الكلمات هي مستهل قصة للكاتب الفرنسي فيليه دو ليل أدان (Villiers de l'Ysle-Adam) «إيمان» (١٨٧٤).

تذكر التعبير الحزين المرتسم على وجهها، وتلك الدموع، وتلك الكلمات: «آه، أنت لم تفهم شيئاً!...».

لا، ما كان في مقدوره أن يشك في السبب الذي من أجله وضعت نفسها، ولأجل مَنْ...

وهكذا انقضى ذلك النهار حتى حلول الليل.

- ١٥ -

أوى أراتوف إلى فراشه في وقت مبكر، وبدون رغبة في النوم. ولكنه كان يأمل في أن يجد راحة في الفراش. لقد سببت له حالة أعصابه المتوترة إرهاقاً أشد وقعاً بكثير من التعب الجسدي الذي يخلفه السفر والطريق. ومع ذلك فلم يستطع أن يغفو رغم شدة إرهاقه. حاول أن يقرأ... ولكن السطور كانت تتشابك أمام عينيه. أطفأ الشمعة، وخيّمت الظلمة على حجرته. ولكنه بقي مؤرقاً لا يراوده النوم، وعيناه مغمضتان... وإذا به يتخيل صوتاً يهمس في أذنه... فقال في سره: «هذا وجيب القلب، سريان الدم...» ولكن الهمس تحوَّل إلى كلام مربوط. كان شخص يتحدث بالروسية عجولاً شاكياً وفي غير ما وضوح. لم يستطع ان يميز اية كلمة... ولكن ذلك كان صوت كلارا!.

فتح أراتوف عينيه، ورفع جسمه، واتكأ على مرفقه... صار الصوت اضعف، ولكنه استمر بكلامه الشاكي العجول غير الواضح، كما من قبل...

ذلك صوت كلارا من دون شك!.

تراكضت أصابع على مفاتيح البيانو العمودي بتلاحق خفيف... ثم عاد الصوت يتكلم من جديد. ترددت أصوات أكثر استطالة... كالأنَّات... متشابهة. ثم أخذت بعض الكلمات تتوضح...

«ورود... ورود... ورود...».

فكرر أراتوف همساً:

- ورود. آه، نعم... هي تلك الورود التي رأيتها على رأس تلك المرأة في الحلم...

وتردد مرة أخرى: «ورود».

سأل أراتوف بنفس الهمس: أهذا انت؟.

سكت الصوت فجأة.

انتظر أراتوف... وانتظر. وألقى رأسه على الوسادة، وفكر: «هلوسة سمع. طيب، وإذا... إذا كانت هي هنا، بالفعل، على مقربة؟... لو كنت رأيتها هل كنت سأفزع؟ أم أفرح؟ ولكن مم أفزع؟ وبم أفرح؟ لو كان ذلك لكان دليلاً على وجود دنيا أخرى، وعلى خلود الروح. ولكن حتى إذا كنت قد رأيت شيئاً، فإن ذلك كان سيعني هلوسة بصر...».

ومع ذلك فقد أشعل الشمعة، وأجال في الحجرة كلها نظرة سريعة لا تخلو من بعض الفزع... و لم ير فيها أي شيء غير اعتيادي. نهض، وتقدم من الفانوس السحري... ها هي الدمية الرمادية مرة أخرى بعينيها المنحرفتين. وتملك أراتوف شعور بالضيق بدلاً من الشعور بالفزع. فكأنما خُدِع في توقعاته... كما أن تلك التوقعات نفسها بدت مضحكة له، وغمغم: «هذا، في آخر الأمر، بلاهة!»، فعاد واستلقى في فراشه، ونفخ على الشمعة فأطفأها. وخيّمت الظلمة العميقة على الحجرة من جديد.

وعزم أراتوف على أن يستسلم للنوم في هذه المرة... ولكن احساساً جديداً نشأ في داخله. تصوَّر ان شخصاً يقف في وسط الغرفة، غير بعيد عنه، لا تكاد أنفاسه تسمع. استدار بسرعة، وفتح عينيه... ولكن ماذا كان في مقدوره ان يرى في هذا الظلام الدامس؟ أخذ يبحث عن علبة الكبريت على الطاولة الصغيرة قرب السرير... وفجأة خيل إليه أن زوبعة رخية من الهواء تندفع بلا ضجيج خلال الحجرة، وخلاله، وتخترقه. وترددت في أذنيه كلمة «أنا!» بوضوح...

«أنا!... أنا!».

مضت بضع لحظات قبل أن يستطيع إشعال الشمعة.

كانت الحجرة خالية كما كانت، و لم يعد يسمع غير دقات قلبه المتقطعة: شرب قدح ماء... وبقي جامداً واضحاً رأسه على يده، وراح ينتظر.

قال لنفسه: «سأنتظر. فإما كل هذا وهم.. وإما أنها هنا. لا أعتقد أنها تلعب معي لعبة القط والفأر»! وانتظر، انتظر طويلاً جداً حتى خدرت يده التي كانت تمسك رأسه... ولكن لم يتكرر أي إحساس من الأحاسيس السابقة. انغلقت عيناه مرة أو مرتين... فكان يفتحهما على الفور... أو على الأقل تصوّر أنه كان يفتحهما. وشيئاً فشيئاً تفرستا في الباب، وعلقتا به. تغطت الشمعة بالهباب، وساد الظلام الحجرة من جديد... ولكن الباب كان يلوح كبقعة بيضاء مستطيلة وسط الظلام الباهت... وإذا بهذه البقعة تتحرك، وتتضاءل، وتتلاشى... وفي مكانها، على عتبة الباب لاح شبح امرأة. ويمعن أراتوف النظر... إنها كلارا! في هذه المرة كانت تحدق فيه تماماً، وتتقدم نحوه... وعلى رأسها إكليل من الورود الحمراء... صار يهتز بكل كيانه، ونهض...

كانت عمته أمامه في طاقيتها الليلية ذات العقدة الحمراء الكبيرة، وبلوزة بيضاء.

ـ بلاتوشا! – قال بصعوبة – أهذه أنت؟.

ردت بلاتونيدا إيفانوفنا:

– هذه أنا. أنا، يا عزيز القلب ياشا، أنا.

– ولماذا جئت؟.

– أنت الذي ايقظتني. في البداية أرسلت ما يشبه الأنين... ثم رحت تصرخ: انقدوني! انجدوني!».

– أنا صرخت؟.

– نعم، صرخت. وبصوت أبح هكذا: «انقذوني!» قلت لنفسي: «يا ربي! ألعله مريض؟» ودخلت. هل أنت بخير؟.

– بتمام الخير.

– إذن، كنت ترى حلماً مزعجاً. هل تريد أن أحرق البخور؟ حدَّق أراتوف في عمته مرة أخرى، وضحك ضحكة عالية... وبالفعل كان شكل العجوز الطيبة بطاقيتها والبلوزة، وبوجهها المسحوب والمفزوع مضحكاً

جداً. تبدد على الفور كل ما يحيط به وما يسحقه من غموض، كل ذلك السحر، قال:

- لا، يا عزيزتي بلاتوشا، لا لزوم. اعذريني، أرجوك، على أنني أفزعتك دون أن أدري. نامي، بهدوء. وسأنام أنا أيضاً.

بقيت بلاتونيدا إيفانوفنا واقفة في مكانها بعض الوقت، واشارت إلى الشمعة، وتمتمت قائلة: لماذا لا تطفئها... الشيطان لم يمت! - و لم تستطع لدى انصرافها إلا أن ترسم علامة الصليب له، ولو من بعيد.

غفا أراتوف بسرعة، ونام حتى الصباح. كما أنه استيقظ رائق المزاج... رغم أن حسرة كانت تدب في نفسه عن شيء ما... احس بنفسه خفيفاً طليقاً. وقال لنفسه مبتسماً: «أوه، أية ألاعيب رومانسية تختلق لنفسك» و لم يلق أية نظرة على الفانوس السحري، ولا على الورقة التي قطعها من الكراسة. إلا أنه توجه إلى كوبفر بعد الفطور مباشرة.

و لم يكن يعي جيداً ما الذي كان يدفعه إليه...

- ١٦ -

وجد أراتوف صديقه الدموي المزاج في بيته. تحدث معه قليلاً، وعاتبه على أنه نسيه وعمته كلياً، واستمع إلى مدائح جديدة للمرأة الذهبية، الأميرة، التي أرسلت له قبل حين، من يارسلافل، قلنسوة مطرزة بحراشف السمك... وإذا بأراتوف، وقد قعد أمام كوبفر فجأة، وأعلن له وهو يحدق في عينيه أنه سافر إلى قازان.

- سافرت إلى قازان؟ و لِمَ هذا؟.

- أردت أن أجمع معلومات عن تلك... كلارا ميليتش.

- عن تلك التي سممت نفسها؟.

- نعم.

هز كوبفر رأسه.

- انظر كيف أنت! ويعتبر وديعاً! قطع ألف فرسخ في الرواح والمجيء... ولأي شيء؟ ها؟ على الأقل لو كانت في القضية امرأة، لفهمت كل شيء،

إذن! كل شيء، مختلف أنواع الجنون! – ونفش كوبفر شعره – ولكن لجمع المعلومات فقط، كما تقولون أنتم، رجال العلم... لا، يا حضرة المحترم! لهذا الغرض يُوجد مكتب الإحصاء! يعني تعرفت على العجوز والأخت؟ أليست فتاة رائعة؟.

قال أراتوف مؤكداً:

– رائعة، وقد أخبرتني بأشياء كثيرة تثير الاهتمام...

– هل وصفت لك كيف سممت كلارا نفسها؟.

– يعني... كيف؟

– أقصد، بأية طريقة؟.

– لا... لقد كانت في غاية التأثر... فلم أجرؤ على سؤالها... وهل كان في ذلك ما يلفت النظر؟.

– بالطبع، كان. تصور. كان عليها أن تمثل في اليوم نفسه، فمثلت. وأخذت معها قارورة السم، وقبل بداية الفصل الأول شربته، وبهذا الشكل مثلت هذا الفصل كله. أقصد، والسمّ في بطنها! فيا لها من قوة ارادة! أي طبع هذا!؟ ويقولون إنها لم تمثل أي دور قط بمثل ما مثلت آنذاك بعاطفة وحماس! و لم يشك الجمهور في شيء، وراح يصفق لها، ويستعيدها... وما أن أسدلت الستارة، حتى سقطت على خشبة المسرح. وراحت تتلوى... وبعد ساعة طلعت روحها! ألم احدثك بذلك؟ والصحف أيضاً نوهت به.

تثلجت يدا أراتوف فجأة، وسرت الرعشة في صدره.

وأخيراً قال:

– كلا، لم تحدثني بذلك. ألا تعرف أية مسرحية كانت تمثل؟. فكر كوبفر.

– سمّوا لي هذه المسرحية... تظهر فيها فتاة مخدوعة... لا بد أنه ادراما. وقد خُلِقت كلارا للأدوار الدرامية... وهيأتها نفسها... ولكن إلى أين أنت؟.

غيّر كوبفر كلامه، حين رأى أراتوف يتناول قبعته، أجاب هذا:

– أشعر بشيء من التوعك... مع السلامة... سآتي في مرة أخرى.

أوقفه كوبفر، ونظر في وجهه.

– أي رجل عصبي أنت، يا أخ! انظر إلى نفسك... شحبت كالطين!.

– أشعر بتوعك – كرر أراتوف، وأطلق نفسه من يد كوبفر، ووجه إلى بيته. وعندئذ فقط وُضح له أنه لم يذهب إلى كوبفر إلا ليتحدث عن كلارا...

«عن كلارا المجنونة، البائسة...».

إلا أنه سرعان ما هدأ بعض الشيء، حين وصل إلى بيته.

في بادئ الأمر تركت الملابسات التي صحبت موت كلارا وقعاً عنيفاً في نفسه، ولكن هذا التمثيل «والسم في بطنها»، على تعبير كوبفر، بدا له، بعد ذلك، نوعاً قبيحاً من الشجاعة المصطنعة، فحاول ألا يفكر في ذلك، خشية أن يثير في نفسه ما يشبه النفور. على الغداء، وهو جالس قبالة بلاتوشا، تذكر فجأة ظهورها في منتصف الليل، وتذكر تلك البلوزة القصيرة، وتلك الطاقية ذات العقدة العالية (وما الحاجة إلى عقدة في طاقية ليلية؟!) وكل ذلك الشكل المضحك الذي تبددت بسببه كل رؤاه وكأنما فوجئ بصفير قاطرة في باليه فنطازية! بل وجعل بلاتوشا تحكي له ثانية كيف سمعت صيحته، فارتعبت، وهرعت، دون أن تقدر أن تعثر رأساً على بابها، ولا على بابه، إلى غير ذلك. وفي المساء لعب معها الورق، وذهب إلى حجرته حزيناً بعض الشيء، ولكنه على درجة كافية من هدوء النفس.

لم يفكر أراتوف في الليل المقبل، و لم يخشه. فقد كان واثقاً بأنه سيقضيه على أحسن ما يرام. كان فكره يسرح إلى كلارا من حين إلى آخر، ولكنه كان يتذكر على الفور كيف قتلت نفسها «باصطناع»، فيصد عنها. وكانت هذه «القباحة» تطرد الذكريات الأخرى حولها. بل إن بصره حين وقع خطفاً على الفانوس السحري، تصوّر أنها تزوّر ببصرها خجلاً مما فعلت. وكانت صورة أمه معلقة على الجدار فوق الفانوس السحري تماماً. خلعها أراتوف من مسمارها، وتمعّن فيها طويلاً، وقبلها، وخبأها في الصندوق بحرص. فلماذا فعل ذلك؟ هل لأن هذه الصورة لا يجدر بها أن تجاور تلك المرأة... أم لسبب آخر... ان أراتوف لم يكن يعرف ذلك بالضبط. ولكن صورة أمه

أثارت ذكريات عن أبيه... الذي رآه يحتضر في هذه الحجرة ذاتها، وعلى هذا السرير نفسه. خاطبه في ذهنه: «ما رأيك في كل هذا، يا أبي؟ كنت تفهم هذا كله، بل وتؤمن بـ«عالم الأرواح» لشيللر. فأسدِ إليَّ النصح!».

– لو فعل لنصحني أبي بأن اترك كل هذه السخافات.

قال أراتوف بصوت عال، وتناول كتاباً. إلا أنه لم يستطع ان يستمر في القراءة طويلاً، شاعراً بثقل في كل جسده، ورقد في فراشه ابكر من المعتاد، وهو واثق تماماً بأنه سيغفو حالاً.

وهذا ما حصل... ولكن آماله في ليلة هادئة قد خابت.

– ١٧ –

وقبل أن تدق ساعة منتصف الليل رأى حُلُماً غريباً منذراً بالشؤم.

رأى نفسه في بيت ثري لصاحب أراض هو ملكه الآن. كان قد اشتراه منذ وقت قصير مع كل الضيعة المتصلة به. وهو يفكر طوال الوقت: «لطيف الآن، ولكن سيقع شر!» وكان يحوم حوله رجل ضئيل هو مدير اعماله، يضحك طوال الوقت وينحني، ويريد أن يظهر لأراتوف ان كل شيء في البيت والضيعة قد رُتِّب بشكل ممتاز. فيردد، وهو يضحك مع كل كلمة: «تفضلوا، تفضلوا، وانظروا كيف أن كل شيء عندنا على ما يرام؛ هذه الخيول... أية خيول رائعة!» ويرى أراتوف صفاً من الخيول الضخمة، في مرابطها، وهي تدير له مؤخراتها، وأعرافها وذيولها مذهلة... ولكن ما ان يمر أراتوف بها حتى تدير رؤوسها نحوه، وتكشر عن أسنانها بخبث، ويفكر أراتوف: «لطيف... ولكن سيقع شر!» ويكرر مدير الأعمال «تفضلوا، تفضلوا إلى الحديقة، وانظروا أي تفاح رائع عندنا». والتفاح رائع حقاً، أحمر، مدور، ولكن ما إنْ يتمعن أراتوف فيه، حتى يتغضن التفاح، ويسقط... ويفكر أراتوف «سيقع شر». ويغمغم مدير الأعمال «وهذه بحيرة. وما اروع زرقتها وما اصلها! وهذا زورق ذهبي... أتحبون أن تركبوه؟... يسير من تلقائه». فيفكر أراتوف: «لا اركبه! سيقع شر!» ومع ذلك ركب الزورق. وفي قعره يتلوى مخلوق صغير يشبه القرد، ويمسك بمخلبه قارورة سائل داكن اللون. ويصيح مدير الاعمال من الشاطئ «لا تقلق. هذا لا شيء!

هذا هو الموت! أتمنى لك طريقاً ميموناً!» وينطلق الزورق بسرعة... ولكن زوبعة لا تشبه زوبعة الأمس الرخية غير الضاجة، بل زوبعة سوداء رهيبة، معولة تهب فجأة! ويختلط كل شيء فيما حوله، وفي وسط الظلام المدوّم يرى أراتوف كلارا في حُلة مسرحية ترفع القارورة إلى شفتيها، ويتردد من بعيد: «برافو! برافو!» ويصرخ صوت غليظ في أذن أراتوف «آها! كنت تظن أن كل ذلك سينتهي بكوميديا؟ لا، أبداً! هذه تراجيديا! تراجيديا!»».

واستيقظ أراتوف، وجسده كله يرتعش. والحجرة ليست مظلمة... من مكان ما يتسلل ضوء خفيف، ويضيء الأشياء كلها اضاءة حزينة جامدة. وأراتوف لا يعرف من أين يأتي هذا الضوء... ولا يشعر إلا بشيء واحد، وهو ان كلارا هنا، في هذه الحجرة... يتحسس وجودها... ويعود في قبضة سلطتها وإلى الأبد!.

ويفلت صوت من شفتيه:

– هل أنت هنا؟ يا كلارا؟.

– نعم!.

يصدر صوت واضح وسط الحجرة المضاءة بضوء جامد. ويكرر أراتوف سؤاله بلا صوت... ويسمع من جديد:

– نعم!.

– اذن، أريد أن أراك!.

يصرخِ، ويثب من الفراش.

وقف بضع لحظات في مكان واحد، مثبتاً قدميه الحافيتين على الأرض الباردة. وطافت نظراته وهمست شفتاه: «أين؟ أين؟» ولا يرى شيئاً، ولا يسمع شيئاً...

أدار بصره فيما حوله، فعرف أن الضوء الخفيف الذي كان يملأ الحجرة يصدر عن مصباح ليلي محجوب بورقة، وموضوع في أحد الأركان، ومن المرجح أن بلاتوشا وضعته هناك، أثناء نومه. بل وشمَّ رائحة بخور... هو من فعلها أيضاً، على الأرجح.

أسرع يرتدي ملابسه. فقد كان من غير المعقول بقاؤه في السرير ونومه. ثم وقف وسط الحجرة، وصالب ذراعيه. وكان الاحساس بوجود كلارا أقوى في نفسه من أي وقت مضى.

وأخذ يتكلم بصوت ليس بالعالي، ولكن ببطء مهيب وكأنما يتلو تعويذة، وبدأ بهذا الشكل:

- كلارا، إذا كنت هنا حقاً، وإذا كنت ترينني، إذا كنت تسمعينني فاظهري!... وإذا كانت هذه السلطة التي أشعر بقبضتها عليّ هي سلطتك، فاظهري! وإذا كنت تفهمين الندم المرير الذي أحسه لأنني لم افهمك، وابعدتك عني، فاظهري! وإذا كان ما سمعته هو صوتك حقاً وإذا كان الشعور الذي يملكني هو الحب، وإذا كنت الآن واثقة من أنني أحبك، أنا الذي لم احب، ولم أعرف حتى الآن امرأة واحدة، وإذا كنت تعرفين أنني، بعد موتك، أحببتك حباً لاهباً قهّاراً، وإذا كنت لا تريدين أن أجن، فاظهري، كلارا!.

وما كاد أراتوف ينتهي من آخر كلماته حتى شعر فجأة بأن شخصاً قد اقترب منه بسرعة، من الخلف، كما في تلك المرة، في البولفار، ووضع يده على كتفه. التفت، ولم ير احداً. ولكن احساسه بوجودها صار من الوضوح واليقين بحيث أنه التفت ثانية عل عجل...

ما هـذا؟! على مقعده، على بعد خطوتين منه، تجلس امـرأة متشحة بسواد. ورأسها يميل جانباً، كما في الفانوس السحري... إنها هي! انها كلارا! ولكن أي وجه صارم لها أي وجه جزع!.

ركع أراتوف على ركبتيه برفق. أجل، لقد كان على صواب، آنذاك. لم يشعر بفزع، ولا بفرح، بل ولا بدهشة... حتى قلبه صار يدق اهدأ من ذي قبل. وليس في داخله غير إدراك واحد، شعور واحد، وهو: «آه! إنها أخيراً! أخيراً!».

- كلارا! - قال بصوت واهن، ولكنه موزون - لماذا لا تنظرين إليّ؟ أنا أعرف أن هذا أنت... ولكن يمكن أن أتصوّر أن خيالي هو الذي خلق صورة شبيهة بتلك... (وأشار بيده نحو الفانوس السحري) اثبتي لي أن هذا أنت... التفتي إليّ، انظري إليّ، كلارا!.

وارتفعت ذراع كلارا ببطء... وسقطت ثانية!.

- كلارا! كلارا! التفتي إليّ!.

واستدار رأس كلارا برفق، وانفتح جفناها المسبلان، وانغرزت حدقتا عينيها السودوان في أراتوف.

تقهقر قليلاً، ونبس بـ«آ!» ممطوطة مرتعشة.

كانت كلارا تتفرس فيه... ولكن عينيها، وقسمات وجهها احتفظت بتعبيرها السابق المستغرق الصارم، المستاء تقريباً. وكان على وجهها هذا التعبير نفسه حين طلعت على المنصة في تلك الصباحية الأدبية، قبل ان تقع عيناها على أراتوف. ومثلما في تلك المرة احمرّت فجأة، وشاعت الحياة في وجهها، وشعّت عيناها، وانفرجت شفتاها عن ابتسامة فرحة ظافرة...

صاح أراتوف:

- نلت الغفران! انتصرتِ... خذيني، اذن! فأنا لك، وأنت لي!.

واندفع نحوها، واراد ان يقبل تينك الشفتين الباسمتين، تينك الشفتين الظافرتين. وقبلهما. وشعر بحرارة لمسهما، بل وشعر ببرودة الأسنان الرطبة، وامتلأت الحجرة شبه المظلمة بصيحة ابتهاج.

وعندما هرعت بلاتونيدا إيفانوفنا إليه، وجدته في غيبوبة. كان واقفاً على ركبتيه، ورأسه ملقى على المقعد، وذراعاه الممدودتان تتدليان بلا حياة، ووجهه الشاحب كان مشبعاً بنشوة سعادة طافحة.

سقطت بلاتونيدا إيفانوفنا إلى جانبه، وطوقت جذعه، وراحت تغمغم:

- ياشا! ياشينكا! عزيزي ياشا!.

وحاولت أن ترفعه بيديها العظميتين... ولكنه لم يتزحزح. عندئذ اخذت تصرخ بكل ما لها من صوت. جاءت الخادمة راكضة. واستطاعت كلتاهما أن ترفعاه، على نحو ما، وتجلساه، واخذتا تنثران عليه الماء، وتباركانه بالايقونة أيضاً...

آفاق على نفسه. غير أنه لم يرد على اسئلة عمته إلا بالابتسام وعلى وجهه هناءة غامرة جعلت فزع عمته يشتد، أي راحت ترسم المزيد من علامات

الصليب عليه، وعلى نفسها... وأخيراً أبعد أراتوف يدها عنه، وقال بتلك الهناءة الغامرة على وجهه:

– ولكن، ماذا بكِ، يا بلاتوشا؟.

– وماذا بكَ، يا ياشا؟.

– بي؟ أنا سعيد... سعيد، بلاتوشا... هذا ما بي. والآن لا أود إلا أن اتمدد وأنام. – وأراد أن ينهض، ولكنه أحس بوهن شديد في رجليه، وفي جسمه كله، حتى إنه لم يستطع أن يخلع ملابسه ويتمدد في السرير بدون معونة عمته والخادمة. إلا أنه سرعان ما غفا، محتفظاً في وجهه بتلك الهناءة الغامرة البهيجة. سوى أن وجهه كان شاحباً جداً.

– ١٨ –

حين دخلت بلاتونيدا إيفانوفنا عليه في اليوم التالي، رأته في نفس الوضع... إلا أن الوهن لم يزايله، بل وفضّل البقاء في السرير. ولم يرق لبلاتونيدا إيفانوفنا شحوب وجهه بشكل خاص. دار في خلدها: «ما هذا، يا رب! ولا قطرة دم في وجهه. وهو يمتنع عن شرب الحساء، ويظل يتمدد ويبتسم، ويؤكد: أنا بخير!» وامتنع حتى عن الفطور. سألته عمته: «ما هذا منك، ياشا؟ تنوي الاستلقاء هكذا، طوال اليوم؟» – اجابها برقة: «وما الضير في ذلك؟» – ومرة أخرى لم ترق لبلاتونيدا إيفانوفنا هذه الرقة. وكان أراتوف، فيما يلوح عليه، يبدو كرجل عرف سراً عظيماً مفرحاً له، وهو يحتفظ به لنفسه ويصونه في غيره. وانتظر حلول الليل – لا بنفاد صبر، ولكن بتطلع. وكان يسأل نفسه «ماذا بعد؟ ماذا سيكون؟» وكفّ عن الاندهاش والحيرة. ولم يعد يشك في أنه صار على اتصال بكلارا، كما لم يعد يشك في أن احدهما يحب الآخر. فقط... ماذا يمكن أن ينجم عن مثل هذا الحب؟ وأن يتذكر تلك القبلة... فتسري في كل اوصاله برودة عجيبة، سريعة ولذيذة.

فيقول لنفسه: «حتى روميو وجوليت لم يتبادلا مثل هذه القبلة! ولكنني في المرة القادمة سأسيطر على نفسي أحسن... سأمتلكها... ستأتي وعلى خصلاتها السود إكليل من الورود الصغيرة...

ولكن كيف سيكون من أمرنا فيما بعد؟ نحن لا نستطيع أن نعيش سوية؟ إذن يجب أن أموت، لأكون معها؟ أليست لهذا الغرض جاءت، أليست بهذه الطريقة تريد ان تأخذني؟.

وماذا في الأمر؟ وليكن الموت، إذا لم يكن من الموت بد. لم يعد الموت يرعبني البتة. وهو لا يستطيع أن يقضي عليّ. ها؟ على العكس، لن أكون سعيداً إلا بهذه الطريقة وإلا هناك... إذ لم أكن سعيداً في الحياة، مثلما لم تكن هي... فنحن كلانا عفيفان! آه، يا لتلك القبلة!».

كانت بلاتونيدا إيفانوفنا تأتي إلى حجرة أراتوف مراراً، ولم تزعجه بالأسئلة، سوى أنها كانت تتمعن فيه، وتهمس، وتتنهد، وتنصرف، ورفض الغداء أيضاً... يعني في منتهى السوء. فذهبت العجوز لاستدعاء طبيب الحي، وهو تعرفه، وتثق به لا لشيء إلا أنه رجل لا يحتسي الخمرة، ومتزوج من ألمانية. واندهش أراتوف حين أدخلته عليه. ولكن بلاتونيدا إيفانوفنا ظلت تلح على ابن أخيها ياشنكا لأن يسمح لبارامون بارامونيتش (اسم الطبيب) بأن يفحصه – على الأقل من أجل خاطرها – فقبل أراتوف. جسَّ بارامون بارامونيتش نبضه، ونظر في لسانه، وسأل هذا السؤال وذاك، وأعلن أخيراً، ضرورة «التسمع لصدره». وكان أراتوف في مزاج سمِح، فقبل بهذا أيضاً. عرّى الطبيب صدره بلطف، ودق بلطف، وتسمع، وحمحم، ووصف له قطرات ومشروباً، والأهم من ذلك نصحه بأن يكون هادئاً، ويتحاشى العواطف الحادة، وفكر أراتوف: «هكذا، إذن! جئت متأخراً، يا أخ!».

سألت بلاتونيدا إيفانوفنا الطبيب وهي تقدم له ورقة من فئة ثلاثة روبلات عند عتبة الباب:

– ماذا حصل لياشا؟.

وكان طبيب الحي هذا، مثل كل الأطباء المعاصرين – لا سيما أولئك الذين يرتدون بزات رسمية – يحب تطعيم كلامه بالاصطلاحات العلمية، فقال: أن لدى ابن أخيها كل «الأعراض الديوبطرية للعصابية الكارديولغية، كما توجد حموية» – ردت بلاتونيدا إيفانوفنا بحدة: «على الأقل لو تكلمت أبسط من هذا، يا سيدي. فلا تخفني بلغتك اللاتينية. أنت لست في صيدلية!» – فشرح

لها الطبيب: «قلبه مختل، كما عنده حمى...» - وكرر نصيحته بخصوص التزام الهدوء، وعدم الانفعال. فسألت بلاتونيدا إيفانوفنا بصرامة (وكأنها تنبهه ألا يعود إلى اللاتينية ثانية): «ألا يوجد خطر؟» - فأجاب: «لا، في الوقت الحاضر؟»».

انصرف الطبيب. ولاح الهم على بلاتونيدا إيفانوفنا... إلا أنها أرسلت للصيدلية مَنْ يجلب الدواء، ولو أن أراتوف لم يتناوله رغم رجاواتها. كما أنه امتنع عن منقوع الاعشاب المغلية. وكان يقول لها: «ولماذا أنت قلقة بهذا الشكل، يا عزيزتي؟ اؤكد لك أنني الآن أصح وأسعد إنسان في الدنيا كلها!» فلم يكن من بلاتونيدا إيفانوفنا إلا أن هز رأسها. وفي نحو المساء أصابت حمى خفيفة، ومع ذلك أصرّ على ألا تبقى في حجرته، وأن تذهب لتنام في حجرتها. استجابت بلاتونيدا إيفانوفنا له، ولكنها لم تخلع ملابسها، ولم ترقد في فراشها، بل جلست على مقعد، تتسمع طوال الوقت، وتهمس بدعائها.

وكانت على وشك أن تغفو، حين أيقظتها صيحة مفاجئة رهيبة مصمة. قفزت من مكانها، وهرعت إلى غرفة أراتوف، فوجدته راقداً على الأرض، كما في الليلة السالفة.

ولكنه لم يفق على نفسه، كما في تلك المرة، وضاعت كل الجهود فيه. فقد أصابته في تلك الليلة حمّى شديدة ضاعف من خطورتها التهاب القلب.

وبعد بضعة أيام قضى نحبه.

وقد صاحب غيبوبته الثانية ظرف غريب. فحين رُفع ومُدد على السرير وجدوا في يده اليمنى المضمومة خصلة صغيرة من شعر نسائي أسود. فمن أين جاء هذا الشعر؟ كانت آنا سيميونوفنا تحتفظ بهذه الخصلة من شعر كلارا، ولكن بأية مناسبة تخلت لأراتوف عن هذا الحرز العزيز عليها؟ أم لعلها وضعته في كراسة اليوميات، وأعطتها له، دون أن تفطن؟.

في هذيان الاحتضار كان أراتوف يسمي نفسه روميو... بعد التسمم، ويتحدث عن زواج تَمَّ في آخر الأمر، ويقول إنه الآن يعرف ما هي المتعة. وقد فزعت بلاتوشا بشكل خاص، حين قال لها، بعد أن أفاق على نفسه قليلاً، ورآها عند سريره:

– لماذا أنت تبكين، يا عمتي؟ ألأنني يجب أن أموت؟ هل معقول أنك لا تعرفين أن الحب أقوى من الموت؟... أيها الموت! يا موت، أين حُمتك؟ يجب ألا تبكي، بل أن تفرحي مثلما افرح أنا...

ومرة أخرى تألقت على وجه المحتضر تلك الابتسامة الهانئة جعلت العجوز تفزع فزعاً شديداً.

١٨٨٣

مقطوعات نثرية[1]

١- مقطوعات نثرية: نشر الجزء الأول منها لأول مرة: مجلة «فيسنيك يفروبي» في العدد ١٢ لعام ١٨٨٢، الجزء الثاني: Tourguenev. Nooveaux poémes en prose. Texte russe pblit par André Mazon. Traduction de Charles Colomon. Editions de la Pléiade، Paris، ١٩٣٠.، (تورغينيف. مقطوعات نثرية جديدة. اعد النص الروسي اندريه مازون، ترجمها إلى الفرنسية شارل كولومون، منشورات بلياد باريس، ١٩٣٠). ونشرت كاملة تحت عنوان: ي. س. تورغينيف. مقطوعات نثرية. موسكو - لينينغراد، دار نشر Academia ١٩٣١.

كتبت «مقطوعات نثرية» في المدة ما بين ١٨٧٧ و١٨٨٢. ويروي ميخائيل ستاسيوليفيتش، محرر «فيسنيك يفروبي» الذي كان قد زار تورغينيف في بوجيفال في تموز ١٨٨٢ يروي قصة نشرها، فيقول: "وخلال الحديث سألت تورغينيف عما إذا كان قد قرأ في الصحف الانجليزية النبأ السار الزاعم بأنه على وشك ان يفرغ من رواية كبيرة. نفى هذا الزعم نفياً قاطعاً". وقال: «أنا اوشك أن أفرغ من «بعد الوفاة» كما تعرف، وحين تعود تكون المخطوطة قد أعدت» - ثم اضاف بعد شيء من التفكير: «وعلى العموم هل تريد أن اثبت لك انني ليس فقط لا اكتب رواية، بل ولن اكتبها؟» ثم مال، وتناول من جرار جانبي من مكتبه محفظة، وأخرج منها رزمة كبيرة من الاوراق المكتوبة من مختلف الحجوم والالوان... وانتهى إلى القول: «هذه موادي. ولو كنت اعمد إلى عمل كبير لفرغت منها. وكبرهان لك على انني لا اكتب شيئاً، ولن اكتب شيئاً، سأضع كل هذا في مظروف مختوم، واعطيه لك لحفظه حتى مماتي». اعترفت له، بأنني، على اية حال، لا افهم جيداً ما هي هذه «المواد»، وطلبت إليه أن يقرأ لي شيئاً من هذه الاوراق. فقرأ أولاً «القرية» ثم «ماشا». وكانت قراءته الحاذقة للقطعة الاخيرة أثرت فيّ تأثيراً قوياً، حتى انني لم اعد بحاجة إلى ان اضيف لها شيئاً، وقرأ مقطوعتين أو ثلاثاً أخرى، فقلت له: «لا، يا إيفان سيرغييفيتش، أنا لا اوافق على اقتراحك. فلو كان على الجمهور أن ينتظر موتك حتى يطلع على هذه الروعة، فإنه سيضطر إلى التعجيل بموتك. وأنا لا اوافق على ذلك. دعنا ننشرها كل هذا الآن...».

وأرسل تورغينيف إلى «فيسنيك يفروبي» خمسين مقطوعة نثرية حاذفاً منه بدقة كل ما هو شخصي. أما مخطوطات المقطوعات الأخرى فقد بقيت مجهولة لزمن طويل. وفي عام ١٩٣٠ نشر العالم الفرنسي مازون ٣١ مقطوعة أخرى كانت محفوظة لدى ورثة بولينا فياردو.

- ١ -

إلى القارئ

أيها القارئ الكريم، لا تطالع هذه المقطوعات تباعاً فإنك، على الأكثر ستضجر، ويقع الكتاب من يديك. ولكن اقرأها فرادى. اليوم واحدة، وغداً أخرى، ولربما يثير بعضها شيئاً في نفسك.

القرية

اليوم الأخير من شهر حزيران. وبلادي، روسيا، تمتد حوالي ألف فرسخ.

والسماء كلها مترعة بزرقة ملساء، وليس فيها غير غيمة صغيرة تَحارُ فيها أهي تسرح أم تذوب. الريح ساكنة. الدفء عميم... الهواء حليب طازج!.

القبّرات تسجع، الحمام اللغداء تهدل. الخطاطيف تنساب صامتة. الخيول تصهل وتمضغ. الكلاب تقف غير نابحة، تبصبص بأذيالها بوداعة.

في الجو رائحة دخان وعشب، مع شيء من رائحة القار، وشيء من رائحة الجلد. والقنّب في مزارعه يانع، يطلق فوحه الثقيل والسائغ معاً.

وهوة عميقة، ولكنها يسيرة المنحدر، وعلى حوافيها أشجار صفصاف فرعاء، ممزقة اللحاء في الأسفل تقف في صفوف عدة. وفي الوهدة جدول يبدو الحصى الصغير في قاعه مرتعشاً في رقراق الماء الوضيء. وفي البعيد، في نهاية الأرض والسماء خط نهر كبير مزرورق.

تحف الوهدة من أحد الجانبين شُون صغيرة مرتبة، ذات أبواب محكمة الغلق، وفي الجانب الآخر خمسة أو ستة أكواخ من خشب الصنوبر ذات سقوف من الألواح الخشبية. وفوق كل سقف عمود عال عليه بيت للزرازير. وفوق كل مدخل كوخ شكل حصان من الصفيح له عرف منتفش. وزجاج النوافذ المعوجّ يتلامع بألوان قوس قزح. وعلى درق النوافذ رُسمت أصص بباقات الزهور. وأمام كل كوخ مصطبة مرتبة تقف بوقار. وعلى الدكات الطينية قطط مكوّرة، وآذانها الشفافة مشرعة، والأروقة من وراء العتبات العالية تلوح مظلمة فوّاحة بالبرود.

وأنا ممدد على حافة الوهدة، فوق برذعة مبسوطة. وحولي أكوام كبيرة من العشب المحصود لتوّه، الشذي إلى حد الانتشاء. نثر أصحاب الأكواخ الحذّق العشب أمام أكواخهم يجف قليلاً تحت وقدة الشمس، ومن بعد ينقل إلى السقيفة! عند ذاك سيكون النوم عليه لذيذاً!.

ومن كل كومة تبرز رؤوس أطفال صغيرة ملتفة الشعر. والدجاج بأعرافه الناتئة يبحث في العشب عن صغار الذباب والحشرات، وجرو أبيض الشفة يتمرغ بين سيقان العشب المشربكة.

وهناك فتيان شقر الشعر في قمصان نظيفة متهدلة الاحزمة، وأحذية ثقيلة طويلة السيقان ذات حواش يتبادلون كلمات ذربة، متكئين بصدورهم على عربة مفكوكة العدة، ويهزلون.

وتطل من إحدى النوافذ فتاة مدورة الوجه، وتضحك إما عن كلماتهم، أو من هرج الأطفال على أكوام العشب.

وتخرج فتاة أخرى من البئر دلواً كبيراً مبللاً... ويهتز الدلو، ويتأرجح على الحبل، ناثراً قطرات طويلة متلألئة.

وتقف أمامي ربة بيت عجوز في تنورة جديدة ذات مربعات، وحذاء جديد.

وحول عنقها النحيل الأسمر قلادة من ثلاثة صفوف ذات خرز كبيرة جوفاء. ورأسها الاشيب معصوب بمنديل أصفر مرقط بنقاط حمر، متهدل إلى القرب من عينيها الكامدتين.

ولكن العينين الشائختين تبتسمان بترحاب، ويبتسم الوجه المتغضّن كله. والعجوز في نهاية عقدها السابع، على ما اظن... وحتى الآن تستطيع أن تحكم أنها كانت جميلة في زمانها!.

تحمل في يدها اليمنى بأصابعها الملوّحة المتباعدة قدراً من الحليب البارد الذي لم يُمخض بعد، خارجاً لتوه من القبو، وجدران القدر مغطاة بقطرات ندى دقيقة كالخرز. وتمد لي العجوز وتقول لي: «كُل، أيها الضيف العابر، بالعافية!».

وفجأة صاح ديك، وصفق بجناحيه في جلبة. فردّ عليه عجل محجوز بخوار متأنّ.

ويتردد صوت حوذي: «ما أروع الشوفان!».

أيه، يا لَطمأنينة القرية الروسية الحرة، وهدوئها، ووفرتها! أيه، أيتها السكينة، والنعيم!.

وأفكر: ما حاجتنا هنا إلى صليب على قبة القديسة صوفيا في تسار غراد، وكل ما نسعى إليه، نحن سكان المدن؟.

شباط ١٨٧٨

حديث

لم تكن قدم إنسان قد وطأت بعد يونغفراو ولا
فينستر آرغورن.

ذرى الألب... سلسلة كاملة من الطنوف الحادة... قلب الجبال.

فوق الجبال سماء شاحبة الخضرة، وضّاءة، خرساء. صقيع شديد ضار، وثلج صلب متلألئ، تبرز من تحته كتل جهماء لصخور يغطيها الجليد وتصفعها الريح.

وعلى طرفي القبة السماوية كليهما يشمخ طودان، عملاقان، يونغفراو وفينستر آرغورن.

ويقول يونغفراو لجاره:

– ما عندك من جديد؟ فان إطلالتك أرحب. ماذا هناك، في الأسفل؟.

وتنقضي عدة آلاف من السنين، تعادل لحظة واحدة. ويجيب فينسترآرغورن هادراً:

– السحب المتماسكة تحجب وجه الأرض... انتظر قليلاً! وتنقضي آلاف أخرى من السنين، لحظة واحدة، ويسأل يونغفراو:

– حسناً، والآن؟.

– الآن أرى. كل شيء في الأسفل كما هو زاهي الألوان، ضئيل. المياه زرقاء، والغابات سوداء، وقوالب الحجارة المكومة رمادية. وحولها ما زالت تلك الحشرات تحوم. أنت تعرفها، ذوات الرجلين، تلك التي لم تستطع أن تدنسنا، أنت وأنا، حتى الآن.

– الناس؟.

– نعم، الناس.

وتنقضي آلاف السنين، لحظة واحدة، ويسأل يونغفراو:

– حسناً، والآن؟.

فيهدر فينسترآغورن:

– يبدو أن الحشرات أقل. الرؤية أوضح في الأسفل. المياه ضاقت، والغابات قلت كثافتها.

وتنقضي آلاف أخرى من السنين، لحظة واحدة. ويقول يونغفراو:

– ماذا ترى؟.

فيجيب فينسترآغورن:

– صفا ما حولنا، وعلى مقربة. أما في البعيد. في الوديان فلا تزال اللطخات، وشيء يتحرك.

ويسأل يونغفراو بعد عدة آلاف من السنين، لحظة واحدة:

– والآن؟

فيجيب فينسترآرغورن:

– حَسن الآن. صار الصفاء في كل مكان، أينما وجّهت بصرك وجدت

بياضاً ناصعاً... ثلجنا في كل مكان، ثلجنا المنبسط والجليد. كل شيء جمد. حسن الآن، كل شيء هادئ.

ويقول يونغفراو:

– جيد. ولكن ثرثرنا ما فيه الكفاية، يا شيخ. حان الأوان لنأخذ غفوة.

– حان.

وينام الطودان الأشمّان. وتغفو السماء الخضراء الصافية فوق الأرض في صمتها الأبدي.

شباط ١٨٧٨

امرأة عجوز

كنت أسير وحيداً في حقل واسع.

وإذا بي أشعر بوقع خطوات خفيفة حذرة ورائي... كان أحد يسير في أعقابي.

التفت، فرأيت عجوزاً ضئيلة الجسم محدودبة، ملفوفة كلها في أطمار رمادية، لا يبرز من تحتها غير وجه العجوز الاصفر، المتغضن، المدبب الأنف، الأدرد.

تقدمت منها... توقفت هي.

– مَنْ انت؟ وما حاجتك؟ هل أنت متسولة؟ تنتظرين صدقة؟.

لم تجب العجوز. انحنيت عليها ولاحظت أن كلتا عينيها مبرقعتان بغشاء أشبه بشفاف مائل إلى بياض، كما لدى بعض الطيور. وهو يقي عيونها من النور الشديد السطوع.

ولكن هذا الغشاء لم يكن يتحرك في عيني العجوز، ولا يكشف عن بؤبؤيها... فقررت أنها عمياء.

أعدت سؤالِيَ:

– أتريدين صدقة؟ لماذا تتبعينني؟

إلا أن العجوز ظلّت على صمتها، سوى أنها انكمشت قليلاً.

استدرت عنها، وسرت في طريقي.

وإذا بي أسمع ورائـي، مرة أخـرى، وقع خطواتها الخفيفة الموزونة وكالمتلصصة.

وأقول لنفسي: «هذه المرأة، ثانية! فلماذا لصقت بي؟ - وأضيف في ذهني - من المحتمل أنها أضلت الطريق لعماها، وهي الآن تتبع خطواتي بالسماع، لتخرج معي إلى مكان آهل. نعم، نعم. هو ذاك».

إلا أن قلقاً غريباً سيطر على أفكاري شيئاً فشيئاً. بدا لي أن العجوز لا تتبعني فقط، بل وتوجهني أيضاً، وأنها تدفعني إلى اليمين تارة، وإلى اليسار تارة أخرى، وأنني أطيعها مرغماً.

ومع ذلك تابعت سيري... ولكنني أرى قدامي، في وسط الطريق تماماً، شيئاً يلوح أسود عريضاً... حفرة... ويدور في خلدي: «انه قبر! وإليه تدفعني العجوز!».

استدرت استدارة حادة إلى الوراء... وأجد العجوز أمامي مرة أخرى... ولكنها تبصر! تنظر إليّ بعينين واسعتين حانقتين وحشيتين... عيني طائر كاسر... وأتحرك نحو وجهها، نحو عينيها... وأراني مرة أخرى أمام ذلك الغشاء الباهت، وذلك الوجه الضرير البليد...

وأفكر: «آه. هذه العجوز قـدري. ذلك القدر الذي لا مهرب منه لإنسان!».

«لا مهرب! ما هذا الجنون؟... يجب أن أحاول». وانطلقت في ناحية، باتجاه آخر.

وأسير سريع الخطى... ولكن الخطوات الخفيفة تتردد ورائي، كما من قبل، دانية، دانية... وأمامي تلوح الحفرة السوداء مرة أخرى.

وأستدير من جديد إلى جهة أخـرى... وإذا بي أسمع حفيف الخطى ورائي مرة أخرى، والرقعة المخيفة قدامي.

وأينما انطلقت وجدت نفس الشيء، نفس الشيء... كالأرنب في طراد.

وأفكر: «توقف! سأخدعها! لن اذهب إلى أي مكان!» - وأقعد على الأرض في الحال.

والعجوز تقف ورائي، على بعد خطوتين مني. وأنا لا أسمعها، ولكن أشعر بأنها هنا.

وفجأة أبصر بتلك الرقعة التي كانت تلوح سوداء في البعيد، تتقدم نحوي!.

يا إلهي! وأنظر إلى الخلف... العجوز تتفرس فيّ. وفمها الأدرد معوج بابتسامة ساخرة...

- لا مهرب!...

شباط ١٨٧٨

كلب

نحن اثنان في الحجرة: كلبي وأنا. في الخارج تعول زوبعة رهيبة ضارية.

والكلب جالس أمامي، ينظر إليّ في عيني.

وأنا أيضاً انظر في عينيه.

وكأنما يريد أن يقول شيئاً لي. وهو أخرس، لا ينطق بكلمة، ولا يفهم نفسه، ولكنني أفهمه.

أفهم أن شعوراً واحداً يخامره ويخامرني في تلك اللحظة، وأنه لا فرق بيننا. نحن متماثلان. تتوهج في كلينا وتضيء نفس الشعلة الراعشة.

وسيأتي الموت طائراً، ويهفهف عليها بجناحه العريض البارد...

وتكون النهاية!.

ومَنْ سيعرف، فيما بعد، أي نوع من الشعلة كان يتوهج في كل واحد منا؟.

لا! ليس هذا حيواناً وإنساناً يتبادلان النظرات...

بل ذلك زوجان من العيون المتشابهة يتفرس احدهما في الآخر. وفي كل زوج منها، الحيواني والأنسي، نفس الحياة تلتصق بالأخرى مذعورة.

شباط ١٨٧٨

الغريم

كان لي رفيق، غريم، ليس في الدروس، ولا في الوظيفة، ولا في الحب، ولكن نظراتنا لم تكن تتفق في شيء. وكلما التقينا نشأت بيننا نقاشات لا تنتهي.

كنا نتجادل في كل شيء: في الفن، في الدين، في العلم، في الحياة الدنيا والآخرة - ولاسيما الأخيرة.

كان رجلاً مؤمناً، ومتحمساً، وذات مرة قال لي:

- أنت تضحك من كل شيء، ولكن إذا مت قبلك، فسأحضر إليك من الآخرة... وسنرى هل ستضحك عند ذاك؟.

وبالفعل، مات قبلي، وهو في شبابه لمّا يزل، ولكن السنين مرّت، ونسيت وعده، ووعيده.

وذات ليلة، تمددت على الفراش، و لم أستطع، بل و لم أرد أن أغفو.

والغرفة يتقاسمها النور والظلمة. فأخذت انظر في الغبش الشائب.

وفجأة خيّل إليّ أنني أرى غريمي واقفاً بين نافذتين ينود برأسه بهدوء من فوق إلى تحت.

لم أرتعب - بل و لم أندهش... ولكنني رفعت جسمي قليلاً، وارتفقت على كوعي، وأخذت اتفرّس في ذلك الشخص الذي ظهر على غرة.

وهو ماض في هزّ رأسه.

وأخيراً قلت:

- ماذا؟ أمنتصر أنت أم آسف؟ وهذا: أهو تحذير أم تقريع؟ أم تريد أن تفهمني أنك كنت على غير حق؟ أم كلانا على خطأ؟ وماذا تشعر به؟ عذاب الجحيم؟ أم نعيم الجنة؟ انطق ولو بكلمة!.

إلا أن غريمي لم ينبس بصوت، بل مضى كالسابق ينود برأسه من فوق إلى تحت بحزن وخضوع.

وضحكت... فاختفى.

شباط ١٨٧٨

المتسول

كنت سائراً في الشارع... أوقفني متسوّل، عجوز شائخ.

عينان ملتهبتان دامعتان، شفتان مزرورقتان، أسمال متهلهلة، جراح قذرة... فما أشدّ جور الفقر على هذا المخلوق البائس!.

مدّ إليّ يداً حمراء، متورمة، قذرة... توجّع، ولول يطلب عوناً.

أخذت أنبش في كل جيوبي... لا كيس نقود، ولا ساعة، ولا حتى منديل... لم آخذ معي أي شيء.

انتظر المتسوّل... تمايلت يده الممدودة بوهن، وارتعشت.

شددت بحيرة وارتباك على هذه اليد القذرة المرتعشة...

– لا مؤاخذة، يا أخ، ليس عندي شيء، يا أخ.

ثبّت المتسول فيّ عينيه الملتهبتين، وانفرجت شفتاه المزرقتان عن تكشيرة، وضغط بدوره على أصابعي الباردة. وتمتم:

– لا بأس، يا أخ. شكراً على هذا أيضاً. فهو كذلك عطية، يا أخ!.

وفهمت أنني، أنا الآخر، تلقيت عطية من أخ لي.

شباط ١٨٧٨

«حين تسمع حكم الأخطل...»[1]

بوشكين

كنت تقول الحقيقة دائماً، يا منشدنا العظيم. وقد قلتها في هذه المرة أيضاً.

«حكم الأخطل، وضحك الدهماء»... ومَنْ لم يجرب هذا وذاك؟.

كل ذلك جائز، ويمكن ان يحتمل، فليزدر مَنْ له القدرة على الازدراء!.

١– اقتبس العنوان من قصيدة للشاعر ألكسندر بوشكين «إلى الشاعر» (١٨٣٠). والمقطوعة تعكس مواقف تورغينيف من جمهور القراء بعد صدور رواية «المنبت الجديد» (١٨٧٧). وقد ثَقُل على الكاتب ما اتسمت به آراء النقاد في هذه الرواية من إجحاف.

ولكن هناك طعنات أكثر إيلاماً، مصوّبة إلى القلب. إنسان فعل كل ما كان في وسعه، وعمل بدأب، وحب، وإخلاص... ولكن النفوس النزيهة تنصرف عنه باشمئزاز، والوجوه الشريفة تحمرّ حنقاً عند ذكر اسمه.

تصرخ به أصوات الشابة النزيهة:

– اغرب! انصرف! لسنا بحاجة إليك، ولا هذا عملك. أنت تدنس بيوتنا. أنت لا تعرفنا ولا تفهمنا... أنت عدونا!.

وماذا على هذا الرجل أن يفعل اذن؟ أن يستمر في العمل، ولا يحاول أن يبرز نفسه، وحتى دون أن ينتظر تقييماً أكثر إنصافاً.

في وقت ما لعن حرّاث الأرض الرحالة الذي جلب لهم البطاطس، بديل الخبز، وطعام الفقير اليومي. وأسقطوا من اليدين الممدودتين لهم النعمة الغالية، وألقوها في الوحل، وداسوها بأقدامهم.

والآن يتغذون به، حتى دون أن يعرفوا اسم الذي أنعم عليهم به.

وليكن! فما يهمهم اسمه؟ انه، حتى وهو مجهول الاسم، ينقذهم من الجوع.

سنحاول فقط أن يكون ما نحمله غذاء نافعاً.

مريرة كلمة العتاب المجحفة، وأنت تسمعها من أفواه الذين تحبهم... ولكن في الإمكان تحمّل هذا أيضاً...

كان زعيم أثيني يقول لزعيم اسبارطي: «اضربني! على أن تسمعني!».

وعلينا أن نقول: «اضربني، على أن تكون شبعانَ معافى!».

شباط ١٨٧٨

الراضي

في شارع من شوارع العاصمة ينطلق وثباً رجل لا يزال في سن الشباب. وحركاته مرحة، ناشطة، وعيناه متألقتان، وشفتاه مبتسمتان، ووجهه الحنون في حمرة لطيفة... وكله رضى وسرور.

فما الذي وقع له؟ هل حصل على إرث؟ أم نال ترقية في الوظيفة؟ أم

هو يهرع إلى موعد غرامي؟ أم لمجرد أنه تناول فطوراً طيباً، فطفح على كل أوصاله الشعور بالعافية، الشعور بقوة الامتلاء؟ أم لعلهم وضعوا في رقبته وسامك الثماني الجميل، يا ملك بولونيا ستانيسلاف!.

لا، بل حاك فرية على صاحب له، واعتنى بنشرها، وسمعها، سمع هذه الفرية، على لسان صاحب آخر له، فصدّق بها.

أوه، كم كان راضياً، بل وطيباً، في تلك اللحظة، هذا الشاب اللطيف، الواعد كثيراً!

شباط ١٨٧٨

قاعدة حياتية

قال لي مكّار عجوز:

- إذا كنت تريد أن تسيء إلى عدوك، بل وأن تضره، فادمغه بنفس النقيصة أو الرذيلة التي تشعر بها أنت. وأظهر استياءك... وقرّعه!.

فإن هذا، أولاً، يجعل الآخرين يظنون أنك خال من هذه الرذيلة.

وأن استياءك، ثانياً، قد يكون صادقاً أيضاً... فأنت تستطيع أن تستفيد من تقريعات ضميرك.

فإذا كنت مرتداً، مثلاً، فعبّره بأنه بلا معتقدات!.

وإذا كنت نفسك خادماً في نفسيتك، فقل له مقرّعاً أنه خادم... خادم الحضارة، أوروبا، الاشتراكية!.

فقلت:

- بل ويمكن القول: خادم بدون خدمة!.

فقال المكار:

- وهذا ممكن أيضاً.

شباط ١٨٧٨

حلم

حلمت بأنني في روسيا، في بيت قروي بسيط، في صقع ناء منها.

والحجرة كبيرة، واطئة لها ثلاث نوافذ. والجدران مطلية بطلاء أبيض. وبلا أثاث. وأمام البيت سهل أجرد يتحدر ببطءٍ يتلاشى في البعيد. والسماء الرمادية الأحادية اللون تخيم على السهل كالظّلة.

ولست وحيداً في الحجرة، بل معي زهاء عشرة أشخاص، بسطاء جميعاً، وملابسهم بسيطة. وهم يسيرون طولاً وعرضاً صامتين، كالمتلصصين. يتحاشى بعضهم بعضاً، ومع ذلك يتبادلون النظرات الهلعة باستمرار.

ولا أحد منهم يعرف لم هو في هذا البيت، ومن هؤلاء الذين معه؟ وعلى جميع الوجوه قلق وجزع... والجميع يدنون من النوافذ بالتناوب، ويمعنون النظر، وكأنهم ينتظرون شيئاً من الخارج.

ثم يعودون إلى سيرهم طولاً وعرضاً. وبيننا يدور صبي قصير القامة، يوصوص من حين إلى آخر بصوت رتيب: «يا أبي، أنا خائف!» وأحس بالضيق في قلبي من هذه الوصوصة. ويأخذني الخوف أيضاً... مم؟ لا أعرف. مجرد أنني أشعر بأن بلية كبيرة، كبيرة تتقدم وتقترب.

والصبي يسكت... ثم يعود إلى الوصوصة. آه، كيف أخرج من هنا! ما أثقل الهواء! ما أوقر النفس! ما أرهق الاحساس!... ولكن الخروج مستحيل.

والسماء هذه كالكفن. ولا ريح... هل مات الهواء؟ وفجأة يثب الصبي نحو نافذة، ويصيح بنفس ذلك الصوت الشاكي:

- انظروا! انظروا! الأرض غاصت!

- كيف؟ غاصت!.

وبالفعل. من قبل كان أمام البيت سهل. أما الآن فيقف في قمة جبل رهيب! سقطت قبة السماء، وهوت إلى الأسفل، ومن طرف البيت يهبط طنف أسود عمودي تقريباً، وكأنما حفر حفراً.

احتشدنا جميعاً عند النافذة... الرعب يجمد قلوبنا.

ويهمس جاري: ذلك هو... ذلك هو!

وإذا بشيء يتحرك على طول حد الأرض البعيد، وصارت حدبات صغيرة مستديرة ترتفع وتهبط.

ودار في خلد الجميع في آن واحد: «أنه البحر! وسيفرقنا جميعاً في الحال... ولكن كيف يستطيع أن يكبر ويرتفع إلى فوق؟ إلى هذا الطنف؟»).

ولكنه يكبر، ويكبر كتلة هائلة... ولم يعد حدبات منفصلة تنطلق في البعيد... بل موجة متماسكة تطوّق قبة السماء كلها.

والموجة تندفع وتندفع نحونا! تنطلق كعاصفة ثلجية، وتدور ظلاماً دامساً. أخذ كل شيء حولنا يهتز، وفي تلك الكتلة الهائلة المندفعة قرقعة، وهدير، وعواء حديدي كأنه صادر من ألف حنجرة...

آها! أي زئير وعويل! إنها الأرض تعول من الرعب... النهاية لها! النهاية لكل شيء!.

وصوص الصبي مرة أخرى... وصممت أن أتشبث برفاقي، ولكن تلك الموجة السوداء كالحبر، الجليدية، الهادرة لحقت أن تسحقنا جميعاً، تطمرنا، تفرقنا، تشتتنا.

الظلام... الظلام الأبدي!.

وأستيقظ، وأنا لا أكاد ألتقط انفاسي.

آذار **١٨٧٨**

ماشا

عندما كنت أعيش في بطرسبورغ، قبل سنين عديدة، كنت كلما استأجرت حوذياً، أدخل معه في حديث.

وكنت أحب، بشكل خاص، الحديث مع الحوذية الليليين، من الفلاحين الفقراء من الضواحي، القادمين إلى العاصمة بزلاجاتهم البائسة المصبوغة باللون الأصفر يجرها حصان هزيل أملاً في أن يطعموا أنفسهم، ويجمعوا بدل إعفاء لأسيادهم.

وذات مرة استأجرت حوذياً كهذا... شاباً في نحو العشرين من العمر طويل القامة، ممشوقها، فتى في ريعان الشباب. عيناه زرقاوان، ووجنتاه متوردتان، وشعره الأشقر يلتف خصلات من تحت قبعة عتيقة مرقعة مسرّحة إلى حاجبيه. يرتدي معطفاً صغيراً ممزقاً لا أعرف كيف دخلت فيه كتفاه العملاقتان.

إلا أن وجهه الجميل الأمرد كان يبدو حزيناً عبوساً.

تحدثت معه. فسمعت رنة الحزن في صوته أيضاً، سألته:

– ما بك، يا أخ؟ لماذا أنت حزين؟ ألعلها مصيبة حلّت بك؟.

لم يجب الشاب رأساً... صمت قليلاً، وأخيراً قال:

– نعم، يا سيد، حلّت. ولا أكبر منها. ماتت زوجتي.

– وهل كنت تحبها... زوجتك هذه؟.

لم يلتفت الشاب إليّ، سوى أنه أحنى رأسه قليلاً.

كنت أحبها، يا سيد... هذا الشهر الثامن يمضي... ولا أستطيع نسيانها. قلبي يتمزق... ولا يهدأ! ولماذا ماتت؟ وهي الشابة، السليمة؟... حصدتها الكوليرا في يوم واحد.

– وهل كانت طيبة؟.

– نعم، يا سيد – وزفر المسكين زفرة ثقيلة – وعشت في وئام معها! ماتت في غيابي. وما ان عرفت هنا أنها دفنت، حتى هرعت إلى القرية، إلى البيت. فوصلت بعد منتصف الليل. دخلت كوخي، ووقفت في وسطه، وأقول خافت الصوت: «ماشا! يا ماشا!» فلم أسمع إلا صوت صرصار. فبكيت، وجلست على الأرض، وضربتها بكفي. وقلت لها «يا بطن لا يشبع!... ابتلعتها... فابتلعيني أنا أيضاً! آه، ماشا!».

وأضاف بصوت خار فجأة: ماشا! – وعصر دمعة من عينيه بقفازه دون أن يترك حبل العنان، ونفض الدمعة، وألقاها جانباً، وهزّ كتفيه. ولم ينطق بعد بأية كلمة.

ترجلت من الزلاجة، واعطيته خمسة عشر كوبيكاً إضافية. فانحنى إليّ

انحناءة واطئة، ممسكاً قبعته بكلتا يديه، وسار متمهلاً على الغطاء الثلجي للشارع الخالي، المغمور بالضباب الأشيب في صقيع كانون الثاني.

نيسان ١٨٧٨

الأحمق

كان يعيش في الدنيا أحمق.

عاش زمناً طويلاً عيشة مرح ودعة. إلا أن الشائعات راحت تتردد شيئاً فشيئاً بأن الناس في كل مكان صاروا يعرفونه كوضيع متبلد العقل.

اضطرب الأحمق، أخذ يفكر حزيناً كيف يوقف هذه الشائعات السيئة؟.

وأخيراً أنارت فكرة مفاجئة عقله الصغير المعتم... فأخذ يحققها، دون إبطاء.

التقاه أحد أصحابه في الشارع، وأخذ يمتدح رساماً معروفاً... فهتف الأحمق:

- لا مؤاخذة! ان هذا الرسام قد أودع في الأرشيف منذ زمان... ألا تعرف ذلك؟ لم اتوقع ذلك منك... أنت إنسان متخلف.

ارتعب صاحبه، ووافق الأحمق في الحال على رأيه.

ويقول له صاحب آخر:

- أي كتاب رائع قرأت اليوم!.

هتف الأحمق:

- أرجو المعذرة! كيف لا تستحي؟ ان هذا الكتاب عديم النفع تماماً. أهمله الجميع منذ زمن بعيد. ألا تعرف ذلك؟ أنت إنسان متخلف.

ارتعب صاحبه هذا أيضاً، ووافق الأحمق على رأيه.

ويقول صاحب ثالث للأحمق:

- أي إنسان رائع صديقي ن. ن.! انه مخلوق نبيل بحق! هتف الأحمق:

- أرجو المعذرة. ن. ن. وغد خالص! نهب أقاربه جميعاً. ومَنْ لا يعرف ذلك؟ أنت إنسان متخلف!.

وارتعب صاحبه الثالث أيضاً، ووافق الأحمق على رأيه، وتخلى عن صديقه.

وهكذا كلما امتدح أحد أمام الأحمق، كان الأحمق يرد هذا الرد الرادع.

إلا في بعض الأحيان، فقد كان يضيف بعتاب:

– ألا تزال تؤمن بالثقات؟

وصار الناس يقولون عن الأحمق:

– حقود! صفراوي! ولكن أي رأس له! وكان آخرون يضيفون:

– وأي لسان! أوه، إنه نابغة!.

وانتهى الأمر إلى أن أحد ناشري الصحف عرض على الأحمق أن يرأس قسم النقد في صحيفته.

وصار الأحمق ينتقد كل شيء، وكل إنسان، دون أن يغير شيئاً من طريقته، ومن لهجته.

وصار، وهو الذي كان في يوم ما يصرخ ضد الثقات، ثقة بنفسه. والشبان يجلون مقامه، ويهابونه.

وإلا فماذا يفعل هؤلاء الشبان المساكين؟ صحيح لا شيء هنا يستوجب الاحترام، عموماً... ولكن حاول ألا تحترم... فستجد نفسك بين المتخلفين!.

والحياة رغيدة للحمقى بين الجبناء.

نيسان ١٨٧٨

أسطورة شرقية

ومَنْ لا يعرف في بغداد جعفر، شمس الزمان؟.

وذات مرة، منذ سنين كثيرة، كان جعفر، وهو لا يزال شاباً، يتنزه في ضواحي بغداد.

وإذا به يسمع صيحة متحشرجة. كان أحد الناس يستنجد مستميتاً.

وكان جعفر يتميَز بين أقرانه برجاحة العقل، والتروي، ولكن قلبه كان شفوقاً، وكان يعتمد على قوته.

هرع إلى الصيحة، ورأى شيخاً هرماً يضغطه على سور المدينة لصَان كانا يسلبانه.

سلّ جعفر سيفه، وهجم على الوغدين، فقتل أحدهما، وطرد الآخر.

سقط الشيخ المعتوق على قدمي منقذه، وقبّل أذيال ثيابه، وقال:

– أيها الشاب الشجاع، لن تضيع شهامتك سدى. أنا في المظهر فقير مدقع، ولكن ذلك في المظهر فقط. أنا لست إنساناً بسيطاً. تعال غداً إلى السوق الرئيسية في الصباح الباكر. وسأنتظرك عند النافورة، وستيقن من صحة كلامي.

وفكر جعفر مع نفسه: «إن هذا الرجل فقير في مظهره حقاً، ولكن ما أكثر ما يحصل في الدنيا. فلماذ لا أحاول؟» – وأجاب:

– طيب، يا أبتي، سآتي.

نظر الشيخ في عينيه، وسار في حال سبيله.

وما كاد الفجر يطرّ في اليوم التالي، حتى توجه جعفر إلى السوق. وكان الشيخ في انتظاره، وهو متكئ على حوض النافورة المرمري.

أخذ الشيخ بيد جعفر صامتاً، وقاده إلى بستان صغير، محاط من كل جوانبه بأسوار عالية.

وفي وسط هذا البستان، وعلى مرجة خضراء شجرة لها شكل غير مألوف تماماً.

كانت تشبه السرو، ألا أن أوراقها لازورية اللون.

ومن أغصانها الرقيقة الصاعدة إلى فوق تدلت ثلاث ثمار، ثلاث تفاحات. واحدة، متوسطة الحجم، مستطيلة، بيضاء كالحليب. والأخرى كبيرة، مدوّرة، وهّاجة الاحمرار، والثالثة صغيرة، متغضنة، مصفرّة.

والشجرة كلها ترسل حفيفاً واهناً، رغم سكون الريح. كانت ترن رنيناً نحيلاً شاكياً، كرنين الزجاج. وبدا وكأنها كانت تشعر باقتراب جعفر، قال الشيخ:

– أيها الشاب! اقطف أية واحدة من هذه الثمار واعلم أنك، إذا

قطفت البيضاء وأكلتها فستغدو أذكى الناس، وإذا قطفت الحمراء وأكلتها فستغدو ثرياً كاليهودي روتشيلد، وإذا قطفت الصفراء وأكلتها فستعجب بك العجائز من النساء... فقرر... ولا تتباطأ. فبعد ساعة ستذبل الثمار، وتغوص الشجرة نفسها في أعماق الأرض!.

أطرق جعفر رأسه، يفكر. ثم قال بصوت خافت، وكأنه يناقش نفسه:

– ماذا أفعل؟ إذا غدوت شديد الذكاء لن تطيب الحياة لي في أغلب الظن، وإذا غدوت أغنى الناس، حسدني الجميع. فالأفضل أن أقطف التفاحة الثالثة المتغضنة، وآكلها!.

وهذا ما فعل. وضحك الشيخ من فمه الادرد، وقال:

– أيها الشاب الحكيم! لقد اخترت الخيار الأفضل! فما حاجتك إلى التفاحة البيضاء؟ فأنت، بدونها، اذكى من سليمان. كما لست بحاجة إلى التفاحة الحمراء... فانك، بدونها، ستكون غنياً. سوى أن غناك لن يحسده أحد.

فقال جعفر مرتجفاً:

– خبرني، أيها الشيخ. أين تعيش المحترمة أم خليفتنا، حفظه الله؟.

انحنى الشيخ إلى الأرض، ودل الشاب على الطريق.

ومن في بغداد لا يعرف شمس الزمان، جعفر، العظيم الشهير؟.

نيسان ١٨٧٨

رباعيتان

في زمن من الأزمان كانت هناك مدينة يحب أهلها الشعر حباً جماً، فلو مرت بضعة أسابيع دون أن يظهر الجديد من روائع الشعر، لاعتبروا ذلك الجدب الشعري نكبة اجتماعية.

عند ذاك كانوا يلبسون ملابسهم الرثة، وينثرون الرماد على رؤوسهم، ويجتمعون حشوداً في الساحات، ويسكبون الدموع، ويندبون، بمرارة، حورية الشعر التي هجرتهم.

وفي يوم من تلك الأيام المنكودة، جاء الشاعر الشاب يوني إلى ساحة غاصة بالناس النادبين.

وصعد بخطى خفيفة إلى منبر اقيم خصيصاً، وأشار بما يعني أنه يريد ان ينشد شعراً.

لوّح الحجاب بعصيهم في الحال، وهتفوا بصوت عال:

- سكوت! انتباه!.

وسكتت الجموع في انتظار.

قال يوني بصوت عال، وإن كان يعوزه بعض الصلابة:

- أيها الأصدقاء! أيها الرفاق!.

أصدقائي! رفاقي! عشّاق الأشعار!

مَنْ يعجبهم كل منظوم جميل سحّار!

كي لا تقلقكم لحظة حزن أسود!

سيأتي الوقت المنشود... ويبدد النور الظلام!.

وصمت يوني... ومن كل أرجاء الساحة قوبل بالضجيج والصفير والضحك.

واحتدم الحنق على كل الوجوه المتجهة إليه، والتمعت العيون كلها بالغيظ، وارتفعت الأذرع كلها مهددة تهز قبضاتها.

وهدرت أصوات غضبى:

- جاء بالعجب! أنزلوا هذا النظّام العاطل من المنبر! أبعدوا هذا الأحمق! أمطروا هذا السفيه بالتفاح العفن، والبيض الفاسد! هاتوا الحجارة لنرشقه! إلينا بالحجارة!.

وتدحرج يوني من المنبر كالزكيبة رأسه قبل رجليه... ولكن ما أن وصل إلى بيته راكضاً، حتى تناهت إلى سمعه أصداء من تصفيق الاستحسان، وهتافات المديح.

أخذته الدهشة، فعاد إلى الساحة، محاولاً في الوقت ذاته ألا يظهر لأحد (لأن من الخطر إثارة وحش ضار).

فماذا رأى؟.

رأى منافسه الشاب الشاعر يولي يقف عالياً فوق الحشد، فوق الأكتاف، على درع مطرزة بالذهب، وهو مؤتزر بإزار أرجواني وإكليل الغار على شعره الملتف... والناس حوله يهتفون:

- المجد! المجد! المجد ليولي الخالد! سرّى عنا في حزننا، في نكبتنا العظمى! أهدى لنا شعراً احلى من الشهد، وأرن من القبح، وأعطر من الوردة، وأصفى من لازورد السماء! احملوه مظفراً، وأحيطوا رأسه الملهم بهالة ناعمة من البخور، وهفّوا جبينه بتحريك موزون لسعف النخيل، وأدلقوا على قدميه كل صنوف المر العربية! المجد!.

اقترب يوني من أحد الممجدين:

- خبرني، يا ابن وطني! بأية أشعار أتحفكم يولي؟ يؤسفني أنني لم أكن في الساحة، حين تلاها! أعدها، إذا كنت قد حفظتها، واعمل معروفاً؟.

أجاب المخاطب بحماس:

- ومثل هذه الاشعار، ولا تحفظ؟ مَنْ تحسبني؟ اسمع، وافرح، افرح معنا!.

بدأ يولي الساحر بهذا الشكل: «يا محبي الأشعار!».

يا عشاق الأشعار، رفاقي! اصدقائي!

مَنْ يعجبهم كل منظوم، رقيق، غنائي!

لا تقلقكم لحظة مصاب غدار!

سيأتي الوقت المنشود، وبعد الليل نهار!.

- ما رأيك؟.

ولول يوني:

- أرجوك! هذه أشعاري! ولا بد أن يولي كان بين المجتمعين حين انشدتها. فسمعها، وكررها بعد أن غيّر منها بعض العبارات وليس إلى الأحسن، بالطبع!.

– آها! أنا أعرفك الآن... أنت يوني – قال المواطن الذي اوقفه، عاقداً حاجبيه – حاسد أنت ام ابله!... تصوّر فقط، أيها التعيس! ما أروع قول يولي «وبعد الليل نهار!...» بينما جئت بالغث «ويبدد النور الظلام»؟ أي نور؟! وأي ظلام؟!.

فانشأ يوني يقول:

– أليس كل ذلك واحداً...

فقاطعه المواطن:

– لو نطقت بكلمة أخرى، لناديت الناس... وسيمزقونك! صمت يوني ملتزماً جانب الرشاد. اقترب من الشاعر المسكين عجوز اشيب الشعر، كان قد سمع حديثه مع المواطن، ووضع يده على كتفه وقال:

– يوني! أنت قلت ما هو لك، ولكن في وقت غير مناسب، وهذا قال ما ليس له، ولكن في الوقت المناسب. وبالتالي فهو على حق، ولا يبقى لك إلا ضميرك.

وبينما كان يوني الذي انزوى ناحية، يريح ضميره – بالشكل الذي قدر عليه... وإن كان بشكل سيئ، والحق يقال – كان يولي بقامته المنتصبة بأنفه يتحرك منساباً ببطء مهيب في البعيد، وسط هدير الابتهاج والتصفيق، وفي الغبار الذهبي للشمس الظافرة، متلألئاً بأرجوانه، وإكليل الغار يلوح أسود على رأسه من خلال تموجات المر الغامر، يسير كقيصر في موكب إلى مملكته... وكان سعف النخل الطويل ينحني عليه بالتناوب، وكأنما يعبر بهفهفته الهادئة، وبتطامنه الخاضع عن العبادة المتجددة أبداً، تلك التي كانت تغمر قلوب المواطنين الذين سحرهم.

نيسان ١٨٧٨

عصفور

كنت عائداً من الصيد، فسرت في درب بستان، وكان كلبي يجري أمامي.

وفجأة صغّر خطوة، وأخذ يتلصص، وكأنما شعر بصيد أمامه.

سرّحت بصري على طول الدرب، فرأيت عصفوراً صغيراً له رقعة صفراء قرب منقاره، ووبر على رأسه. وقد سقط من عشه(كانت الريح القوية تهز أشجار البتولا في الدرب) وقعد بلا حراك، اشراً بعجز جناحيه الصغيرين البارضين.

كان كلبي يقترب منه ببطء وإذا بعصفور عجوز أسود الصدر ينطلق من شجرة قريبة، ويسقط كالحجر، أمام بوز الكلب تماماً، ويقفز مرتين أو نحوهما باتجاه شدقه المفتوح ذي الأنياب، وهو منفوش الشعر، مشوه، يرسل وصوصة مستميتة بائسة.

اندفع لنجدة وليده الصغير، وحماه بجسده... ولكن جسده الصغير كله كان يرتعش من الذعر، وقد تقسّى صوته النحيل، وبحّ. وهمد مضحياً بنفسه! لا بد أن الكلب كان يبدو له غولاً هائلاً! ومع ذلك لم يستطع أن يقبع منزوياً على غصنه العالي الآمن... دفعته من عليه قوة أقوى من ارادته.

توقف كلبي تريزور، وتراجع... والظاهر أنه هو أيضاً أعترف بهذه القوة.

أسرعت أدعو كلبي المرتبك، وانصرفت باحترام.

أجل، لا تضحكوا... شعرت باحترام إزاء هذا الطائر الصغير البطولي، إزاء سورة حبه.

كنت افكر: الحب أقوى من الموت، ومن رهبة الموت. والحياة به وحده، بالحب وحده، تستمر وتتحرك.

نيسان ١٨٧٨

جماجم

صالة فخمة، شديدة الإضاءة. عدد كبير من السادة والسيدات.

جميع الوجوه منتعشة، والأقوال جسورة... وحديث طنّان يجري عن مغنية شهيرة. إنهم يعظمونها، فيصفونها بالفاتنة، وبالخالدة... وما ألطف تغريدتها الأخيرة يوم أمس!.

وفجأة – وكأنما بإشارة من عصا سحرية – انسلخت قشرة الجلد الرقيقة من جميع الرؤوس، ومن جميع الوجوه، وبرز في لحظة واحدة، بياض الجماجم الميت، ولاحت اللثات وعظام الوجنات المعرّاة يتماوج عليها لون قصديري مزرورق.

نظرت بفزع إلى تلك اللثات وعظام الوجنات، وهي تتحرك، وتهتز، وإلى تلك الكرات العظمية العجراء، وهي تستدير ملتمعة في ضوء المصابيح والشموع، وتدور فيها كرات أخرى أصغر، هي كرات العيون الفاقدة الصواب.

و لم اجرؤ على لمس وجهي، و لم اجرؤ على النظر إلى نفسي في المرآة.

بينما كانت الجماجم تدور كالسابق... والالسن الخفيفة بتمطقها السابق، تتوامض كقطع صغيرة من قماش أحمر من وراء الأسنان المكشرة، لتهذر عن تلك المغنية الخالدة... نعم، الخالدة... وكيف اطلقت تغريدتها الاخيرة بشكل مذهل لا يُبارى!.

نيسان ١٨٧٨

الخشن اليد والناعم اليد

حوار

الخشن اليد: لماذا تحشر نفسك بيننا؟ ماذا تبتغي؟ لست منا... فانصرف!.

الناعم اليد: أنا منكم، يا اخواني!.

الخشن اليد: لا! لست منا! كلام فارغ! على الاقل انظر إلى يديّ. ألا ترى كم هما قذرتان؟ تفوح منهما رائحة الروث والقطران. أما يداك فبيضاوان، ماذا يفوح منهما؟.

الناعم اليد (يمد يديه): شم. الخشن اليد (بعد أن شمّ اليدين): عجيب! كأنهما تفوحان حديداً.

الناعم اليد: نعم، حديد... حملت الاصفاد عليهما ست سنوات بكاملها.

الخشن اليد: وعلى أي شيء؟.

الناعم اليد: لأنني سعيت إلى خيركم، وأردت أن احرركم، أنتم الاميين المتخلفين، وقفت ضد مضطهديكم، وتمردت... فسجنوني.

الخشن اليد: سجنوك؟ ولماذا تمردت؟.

بعد عامين

الخشن اليد نفسه (إلى خشن يد آخر): اسمع، يا بيترا!... أنت تذكر ذلك الناعم اليد الذي تحدث معك في الصيف ما قبل الاخير؟.

الخشن اليد الآخر: أاتذكر... فماذا؟.

الخشن اليد الأول: سيشنقونه اليوم. صدر مثل هذا الحكم.

الخشن اليد الثاني: هل ظل على تمرده؟.

الخشن اليد الأول: ظل على تمرده.

الخشن اليد الثاني: أها... طيب، يا أخ ميتراي، ألا يمكن ان نحصل على الحبل الذي سيشنقونه به. يقال بأنه يجلب سعادة كبيرة للبيت الذي يوضع فيه.

الخشن اليد الأول: أنت محق. يجب أن نحاول، يا أخ بيترا.

نيسان ١٨٧٨

الوردة

الأيام الاخيرة من آب... والخريف قد حلّ.

الشمس مالت إلى الغروب. والوابل المفاجئ العاصف قد مرّ بنا لتوّه على سهلنا العريض دون رعد، ولا برق.

والحديقة أمام البيت متوهجة داخنة، غارقة كلها بحريق الشفق، وفيضان المطر.

وكانت هي تجلس وراء المائدة، في حجرة الاستقبال، تنظر باستغراق عنيد إلى الحديقة من خلال الباب الموارب.

وكنت أعرف ما كان يجري في نفسها آنذاك، كنت أعرف أنها كانت، بعد صراع قصير، ولكنه مؤلم، تستسلم في هذه اللحظة، لعاطفة لم يعد في مقدورها أن تصارعها.

ونهضت فجأة، وخرجت إلى الحديقة خفيفة الحركة، وتوارت. ومضت ساعة... ثم أخرى، ولم تعد.

عندئذ نهضت، وخرجت من البيت، وسرت في الدرب الذي سارت به – ولم أكن أشك في ذلك.

أظلم كل شيء فيما حولي. والليل يبسط جناحه. ولكن شيئاً مدوراً كان يلوح على رمل الدرب الرطب ساطع الحمرة، حتى من خلال الظلام الطافح.

انحنيت... كان ذلك وردة غضّة لم تتفتح إلا قليلاً. وقبل ساعتين كنت قد رأيت هذه الوردة نفسها على صدرها.

رفعت الوردة الساقطة في الطين بحرص، وعندما عدت إلى حجرة الاستقبال، وضعتها على المائدة، أمام مقعدها.

وأخيراً ها هي قد عادت. عبرت الحجرة كلها بخطى خفيفة، وجلست إلى المائدة.

وقد شحب وجهها وعادت إليه حيويته، في الوقت ذاته، وكانت عيناها المسبلتان، وكأنما قد صغرتا، تتقلبان على الجانبين بسرعة، وبارتباك مرح.

وقع بصرها على الوردة، فتناولتها، ونظرت إلى وريقاتها المدعوكة، الملطخة، ونظرت إلي وتوقفت عيناها فجأة، وتألقتا بالدموع، سألت:

– عم تبكين؟.

– على هذه الوردة. انظر ماذا حصل لها.

ففكرت في أن أنطق بحكمة الدهور. قلت بكثير من الدلالة:

– ستغسل دموعك هذه الوساخة.

اجابت:

– الدموع لا تغسل، الدموع تحرق.

واستدارت إلى الموقد، وألقت الوردة في لهيبه الآخذ بالخمود. وقالت وليس بدون شجاعة:

- النار تحرق أفضل مما تحرق الدموع.

وعيناها الجميلتان اللامعتان من الدموع ضحكتا بجسارة وهناءة. وادركت أنها هي الأخرى قد احترقت.

نيسان ١٨٧٨

إلى ذكرى ي. ب. فريفسكايا[1]

أكثر من أسبوعين كانت تموت من التيفوس في الوحل، على قش رطب عفن، في سقيفة متداعية، حوّلت على عجل إلى مستشفى عسكري نقّال في قرية بلغارية صغيرة مدمرة.

وكانت فاقدة الوعي، فلم يُلق أي طبيب عليها ولو نظرة. وكان الجنود المرضى الذين كانت ترعاهم ما دامت قادرة على الوقوف على رجليها، ينهضون، بالتناوب، من مراقدهم الموبوءة، ليحملوا إلى شفتيها المسفوعتين بضع قطرات من الماء في شقفة قدر محطمة.

كانت شابة، جميلة، يعرفها المجتمع الراقي، وحتى كبار الموظفين كانوا يستفسرون عنها. وكانت السيدات يحسدنها، والرجال يغازلونها... واثنان أو ثلاثة من الرجال كانوا يكنون لها حباً مخفياً عميقاً. وكانت الحياة تبتسم لها، ولكن ثمة ابتسامات انكى من الدموع.

قلب رقيق وديع... ثم أية قوة، أي ظمأ للتضحية! لم تر سعادة أخرى

١- كانت البارونة يوليا فريفسكيا (من مواليد فارباخوفسكايا، ١٨٤١ ـــ ١٨٧٨) اثناء الحرب الروسية التركية ممرضة اسعاف في بلغاريا، حيث توفيت بالتيفوس في أحد المستشفيات. وكان تورغينيف يتراسل مع فريفسكيا منذ تعارفهما في عام ١٨٧٣ وحتى آخر أيامها. وفي صيف ١٨٧٤ نزلت فريفسكيا ضيفة عند الكاتب في سباسكويه، وفي عام ١٨٧٥ التقيا خارج البلاد، في كارلسباد، وفي حزيران ١٨٧٧ كان لقاؤهما الاخير في البيت الريفي العائد لياكوف بولونسكي في بافلوفسك. وقد هزّ موت فريفسكيا تورغينيف من الأعماق.

غير اعانة المحتاجين إلى العون... لم ترها، ولم تجربها. كل سعادة أخرى تخطتها. ولكنها وطّنت نفسها على ذلك منذ زمان، فكرست نفسها كلها لعون الاقربين تلهبها نار ايمان لا تخمد.

وأية كنوز مصونة كانت تحتفظ بها هناك، في أعماق نفسها، في مكنونها، لم يعرفها أحد قط، والآن لن يعرفها، بالطبع. ولأي شيء؟ التضحية قدمت... والأمر تمّ.

ولكن من المحزن التفكير في أن احداً من الناس لم يقل شكراً، حتى لجثمانها، رغم أنها كانت تخجل وتتجنب أي شكر.

فلا تهين طيفها العزيز هذه الزهرة المتأخرة التي اتجرأ فأضعها على قبرها.

أيلول ١٨٧٨

اللقاء الأخير

كنا، في وقت من الأوقات، صديقين قريبين حميمين... ولكن لحظة نحس حلّت، فافترقنا، كالأعداء.

ومضت سنون عديدة... وحين وصلت إلى المدينة التي كان يعيش فيها علمت أنه مريض مرضاً ميؤوساً منه، وأنه يحب ان يراني.

ذهبت إليه، ودخلت حجرته... والتقت نظراتنا.

ما كدت أعرفه. يا إلهي! ماذا فعل به المرض!.

كان أصفر متيبساً اصلع الرأس تماماً، ذا لحية شيباء ضيقة، وليس عليه غير قميص شُق خصيصاً... فقد كان غير قادر على تحمل ضغط أخف الثياب. مدّ إلي بارتجاف يداً نحيلة للغاية، كالمعروقة من اللحم، وهمس جاهداً ببعض الكلمات غير الواضحة. فهل كانت هذه تحية أم عتاباً. من يدري؟ وخفق صدره الضاوي، وتحدّرت دمعتان شحيحتان تنمان عن عذاب، على الحدقتين المقلصتين لعينيه الملتهبتين.

وغاص قلبي في صدري... جلست على مقعد بالقرب منه، ووجدت نفسي أغض بصري لاإرادياً ازاء هذا الرعب، والبشاعة، وأمد له يدي أيضاً.

ولكن خيل إليّ أن يده ليست هي التي تناولت يدي.

خيل إليّ أن امرأة طويلة هادئة، بيضاء تجلس بيننا. وأن حجاباً طويلاً يغطيها من رأسها إلى قدميها. عيناها العميقتان الشاحبتان لا تنظران إلى أي مكان، وشفتاها الشاحبتان الصارمتان لا تنطقان بشيء...

وهذه المرأة هي التي جمعت يدينا... وصالحتنا إلى الأبد. نعم... المنية هي التي صالحتنا.

نيسان ١٨٧٨

العتبة[1]

أرى بناية هائلة.

في حائطها الأمامي باب ضيق مفتوح على مصراعيه. ووراء الباب ظلمة جهماء. وأمام العتبة العالية تقف فتاة... فتاة روسية.

وتلك الظلمة الدامسة تفوح زمهريراً، ومع الدفق الجليدي يخرج من أعماق البناية صوت متوان كامد.

– ايه، أيتها الراغبة في اجتياز هذه العتبة، أتعرفين ماذا في انتظارك؟.

وتجيب الفتاة: أعرف.

– البرد، الجوع، البغضاء، السخرية، الازدراء، الكدر، السجن، المرض، والموت نفسه؟.

– أعرف.

– الاغتراب الكامل، الوحدة؟.

– أعرف. أنا مستعدة. أتحمل كل العذابات، كل الضربات.

١– نشرت «العتبة» لأول مرة مع منشور المنظمة الثورية السرية«حرية الشعب» الذي صدر بمناسبة تشييع تورغينيف في بطرسبورغ (٢٧ أيلول ١٨٨٣). وقد ظهرت «العتبة» في الصحافة الروسية العلنية في عام ١٩٠٥، في مجلة «روسكويه بوغاتستفو». وفي عام ١٩٠٦ صدرت في طبعة منفصلة (ي. س. تورغينيف. مقطوعة نثرية غير منشورة «العتبة»).

– ليس من الاعداء فقط، بل من الأقارب، والأصدقاء؟.

– نعم... ومنهم أيضاً.

– طيب، وهل أنت مستعدة للتضحية؟.

– نعم.

– للتضحية الغُفل[١]؟ ستموتين، ولا أحد... لا أحد سيعرف حتى مَنْ سيكرم ذكراه!.

– لست بحاجة إلى امتنان، ولا إلى رثاء. لست بحاجة إلى ذكر.

– وهل أنت مستعدة لارتكاب الجريمة؟.

أطرقت الفتاة رأسها.

– ومستعدة لارتكاب الجريمة أيضاً.

وتريث الصوت، قبل ان يستأنف اسئلته، وأخيراً قال:

– أتعرفين أنك قد تكفرين بما تؤمنين به الآن؟ وقد تدركين أنك قد خُدعت، وأوديت بحياتك الفتية جزافاً؟.

– أعرف هذا أيضاً، ومع ذلك أريد أن أدخل.

– ادخلي!.

واجتازت الفتاة العتبة، وانسدلت ستارة ثقيلة وراءها.

وصلصل صوت من الخلف: حمقاء!.

وأجاب آخر من هناك: قديسة!.

أيار ١٨٧٨

زيارة

كنت جالساً عند نافذة مفتوحة... في الصباح، في الصباح الباكر من أول أيار.

١– المجهول اسم فاعلها. – المترجم.

والفجر لم يلتهب بعد، ولكن الليل الداكن الدافئ قد شحب وبرد.

لم يظهر ضباب، ولم تسر نسمة. كل شيء صامت، أحادي اللون... ولكن المرء يهجس بدنو اليقظة، وفي الهواء الخفيف رائحة رطوبة الندى القوية.

وفجأة طار إلى حجرتي طائر كبير من النافذة المفتوحة، يهسهس في طيرانه، ويهفهف.

جفلت، وأمعنت النظر... لم يكن ذلك طائراً، بل امرأة صغيرة مجنحة، في ثوب ضيق طويل متماوج في الأسفل.

كانت رمادية كلها، بلون الصدف. وباطن جنايها فقط يشع بحمرة ناعمة لوردة متفتحة. وكان أكليل من زنابق الوادي يحيط بخصلات رأسها المدوّر المتناثرة، وريشتان من ريش الطاووس، مثل قرني فراشة، تتأرجحان بظرافة فوق جبينها الصغير الجميل الناتئ.

حوّمت مرة أو مرتين قرب السقف، وضحك وجهها الصغير، كما ضحكت عيناها الوسيعتان السوداوان المتألقتان.

وتهشمت اشعتهما الالماسية بما في طيرانها النزق من خفة مرحة.

كانت تحمل في يدها ساقاً طويلة لزهرة سهوب، يسميها الروس: «صولجان القيصر» – وهي تشبه الصولجان.

ومسّت رأسي بهذه الزهرة في طيرانها السريع فوقي.

اندفعت نحوها... ولكنها مرّت خارجة من النافذة، وطارت في البعيد.

وفي قلب اجمات الليلق، في الحديقة، استقبلتها قمرية بهديلها الأول، والسماء البيضاء الحليبية احمرّت خافتة، في المدى التي طارت إليه.

لقد عرفتك، يا ربّة الخيال! لقد زرتني عرضاً، وطرت إلى الشعراء الشبان.

ايه، أيها الشعر! ايتها الفتوة! أيها الجمال الانثوي البتول! انتم لا تومضون أمامي إلا لمحة، في الصباح الباكر من الربيع الباكر!.

أيار ١٨٧٨

NECESSITAS، VIS، LIBERTAS [1]

«نقش بارز»

عجوز طويلة معروقة العظام، مقسّاة الوجه، كامدة النظرة جامدتها، تسير بخطى كبيرة، وتدفع أمامها امرأة أخرى بيدها الجافة، كالعود.

والمرأة هذه ضخمة القامة، جبّارة، مكتنزة، ذات عضل، كما لهرقل، ورأس صغير على رقبة متينة كرقبة الثور – وعمياء أيضاً – تدفع بدورها فتاة صغيرة، نحيفة.

ولهذه الفتاة وحدها عينان بصيرتان. فهي تتحرك، وتتلفت إلى الخلف، وترفع ذراعيها الرقيقتين الجميلتين، ويعبر وجهها الحيوي عن نفاد الصبر، والبسالة... انها لا تريد أن تطيع، ولا تريد أن تساق إلى حيث تدفع... ومع ذلك عليها أن تطيع وتسير. Necessitas، Vis، Libertas.

وليترجم مَنْ يشاء.

أيار ١٨٧٨

صدقة

كان رجل عجوز مريض يسير في جادة الطريق العريضة، قرب مدينة كبيرة.

وكان يترنح في مشيته، ورجلاه الناحلتان تتشربكان، وتتشحطان، وتتعثران، وتطأن الأرض بتثاقل ووهن، وكأنهما غريبتان عنه. وثيابه تتدلى مزقاً، ورأسه الحاسر مرخى على صدره... كانت قواه تتخلى عنه.

جلس على صخرة على قارعة الطريق، وانحنى إلى الأمام، وارتفق بكوعه، وغطى وجهه بكلتا يديه، ومن خلال أصابعه المعوجّة راحت الدموع تقطر على التراب الجاف الاشيب.

وتذكر...

وتذكر كيف كان هو أيضاً معافى وغنياً في وقت ما، وكيف بدد عافيته،

١– الضرورة، القوة، الحرية (باللاتينية، في الأصل).

ووزع ثروته على الآخرين أصدقاء وأعداء... وهو الآن لا يملك كسرة خبز. هجره الجميع، الأصدقاء منهم قبل الأعداء... فهل من المعقول أن يهين نفسه إلى حد استجداء صدقة؟ فأحس بالمرارة في قلبه، والخجل من نفسه.

والدموع ماضية في نزولها قطرات وقطرات، لترقّط التراب الأشيب.

وفجأة سمع مَنْ يناديه باسمه، فرفع رأسه المتعب، ورأى أمامه رجلاً لا يعرفه.

الوجه هادئ يوحي بالعظمة، ولكن ليس بالصرامة. والعينان ليستا مشعتين، بل وضيئتان، والنظرة حادة، ولكن بلا ضغينة.

وصدر صوت موزون:

– وزعت كل ثروتك. ولكنك لا تأسف على الخير الذي فعلته؟ أجاب العجوز بزفرة:

– لا آسف، سوى أنني أموت الآن.

فمضى الغريب يقول:

– ماذا لو لم يكن في الدنيا فقراء كانوا يمدون إليك أيديهم، ولا أحد أظهرت له احسانك، ولا كان في وسعك أن تمارسه؟.

لم يرد الشيخ بشيء. واستغرق في تفكيره. فعاد الغريب يقول:

– والآن لا تتكبر أنت أيضاً، أيها المسكين. واذهب ومدّ يدك، ووفّر للطيبين الآخرين من الناس فرصة أن يظهروا بالفعل أنهم طيبون.

ارتعد العجوز، وحدجه بعينيه... ولكن الغريب اختفى، وفي البعيد ظهر عابر سبيل في الطريق.

دنا العجوز منه، ومدّ له يده. استدار هذا السابل، مكفهر الوجه، و لم يعطه شيئاً.

إلا أن عابر سبيل آخر جاء في أثره، وأعطى للعجوز صدقة صغيرة.

فاشترى العجوز خبزاً بالفلوس القليلة التي أعطيت له، فبدت قطعة الخبز المستجداة لذيذة له، و لم يشعر بالخجل في ذات نفسه، بل على العكس، أهلّت عليه فرحة هادئة.

أيار ١٨٧٨

حشرة

حلمت بأنني واحد من حوالي عشرين شخصاً نجلس في غرفة كبيرة مفتوحة النوافذ.

ومن بيننا نساء وأطفال وشيوخ... وكلنا نتكلم عن موضوع معروف جداً، نتكلم بصخب وغموض.

وفجأة طارت إلى داخل الغرفة حشرة كبيرة طولها حوالي إصبع، محدثة خشخشة جافة... جاءت طائرة، وحوّمت، وحطت على الجدار.

كانت تشبه الذبابة، أو الزنبور. جسمها ذو لون بني متسخ، وكذلك جناحاها المسطحان القاسيان، ومخالبها منفرجة موبرة، ورأسها كبير ذو زوايا كطرف نبوت ثرافعة على الكتفين. وهذا الرأس والمخالف حمراء قانية كالمدماة.

وكانت هذه الحشرة الغريبة لا تفتأ تدير رأسها إلى الأسفل، وإلى الأعلى، يميناً وشمالاً، وتنقّل مخالبها... ثم انفصلت عن الجدار فجأة، وطارت في الغرفة مخشخشة، ثم حطت ثانية، وهي تتحرك مفزعة، مقززة، دون أن تغادر مكانها.

أثارت فينا جميعاً الاشمئزاز، والخوف، وحتى الهلع... لم يكن أحد فينا قد رأى مثلها من قبل. فكان الجميع يصرخون «اطردوا هذه الهولة من الغرفة!» ويلوحون بمناديلهم من بعيد... لأن أحداً لم يقدر على الاقتراب منها... وحين كانت الحشرة تطير، كان الجميع يتنحون تلقائياً.

سوى واحد منا، وهو رجل لا يزال شاباً، شاحب الوجه، أجال بصره فينا جميعاً بحيرة. وكان يهز كتفيه، ويبتسم، ولم يستطع أن يفهم كلياً ماذا حصل لنا، ولِمَ نحن مضطربون بهذا الشكل؟ فهو لم ير أية حشرة، ولم يسمع خشخشة جنَاحيها الشنيعة.

وفجأة بدت الحشرة وكأنها تتفرس فيه، وطارت، والتصقت برأسه، ولسعته في جبينه فوق العينين قليلاً... أرسل الشاب آهة واهنة، وسقط ميتاً.

وطارت الذبابة الرهيبة على الفور تاركة الغرفة... وعندئذ فقط حدسنا أي ضيف هي.

أيار ١٨٧٨

مرق كرنب

توفي لأرملة ريفية ابنها الوحيد ذو العشرين ربيعاً، والشغيل الأول في القرية.

وعلمت السيدة مالكة هذه القرية بفاجعة الريفية، فذهبت لزيارتها في يوم الدفن.

فوجدتها في البيت.

كانت واقفة وسط الكوخ، أمام المائدة، تغرف بحركة متزنة من يمناها، وبدون عجالة (كانت اليد اليسرى تتدلى بلا حراك) مرق كرنب بلا لحم من قعر قدر مسخمة، وتبتلع ملعقة وراء ملعقة.

كان وجه الريفية ناحلاً مسوداً، وعيناها محمرتين منتفختين... ولكنها كانت تقف في مظهر جاد، واستقامة، وكأنها في كنيسة.

وفكرت السيدة في نفسها: «يا إلهي! إنها تقدر أن تأكل في مثل هذه اللحظة... أية طباع غليظة لهؤلاء جميعاً!».

وتذكرت تلك السيدة كيف أنها، حين فقدت ابنتها في الشهر التاسع من عمرها، قبل بضعة أعوام، رفضت لفجيعتها أن تستأجر بيتاً ريفياً رائعاً في ضواحي بطرسبورغ، وقضت الصيف كله في المدينة! أما هذه الريفية فمضت تحتسي المرق!.

و لم تصطبر السيدة، أخيراً، وقالت:

– تاتيانا! اعذريني! أنا مندهشة! ألم تكوني تحبين ابنك؟ فكيف لم تفقدي شهيتك؟ وكيف تقدرين أن تأكلي هذ المرق؟.

– ابني فاسيا مات – قالت الريفية بخفوت، وعادت الدموع تسيل على خديها الغائصين – يعني وأجلي جاء أيضاً. بتر رأسي وأنا حية، ولكن المرق لا يجوز أن يتلف، فإن فيه ملحاً.

فما كان من السيدة إلا أن هزّت كتفيها، وانصرفت، فالملح رخيص عندها.

أيار ١٨٧٨

المملكة اللازوردية

أيه، ايتها المملكة اللازوردية! يا مملكة اللازورد، والنور، والشباب، والسعادة! لقد رأيتك... في الحلم.

كنا بضعة أشخاص في زورق جميل مزين. والشراع الأبيض يرتفع كصدر الغرنوق، تحت الأعلام الثلاثية المرفوفة.

و لم أكن أعرف منهم رفاقي في الزورق، ولكن كنت أشعر بكل كياني أنهم كانوا شباناً، مرحين، سعداء، مثلي!.

كما أنني لم أكن ألحظهم. كنت لا أرى حولي غير بحر لازوردي بلا ساحل، مغطى كله برقراق دقيق من الحراشف الذهبية، وفوق الرؤوس السماء اللازوردية بلا ساحل، تنساب فيه شمس حنون، متهللة وكالضاحكة.

ويرتفع بيننا، من حين إلى آخر، ضحك رنان فرح، كضحك الآلهة!.

وأحياناً كانت تصدر من شفاه بعضنا فجأة كلمات وأشعار مفعمة بجمال مذهل، وقوة موحية... كان يبدو، وكأن السماء نفسها، تردد صداها، ويرتعش البحر حولنا متجاوباً... ثم يعود السكون البهي.

كان زورقنا السريع ينساب غاطساً قليلاً علي الأمواج الناعمة... لم تكن الريح تجري به، بل قلوبنا الوثّابة توجهه، منطلقاً، أينما نريد، مطواعاً ككائن حي.

وكنا نمر بجزر سحرية، شبه شفافة تتماوج عليها الأحجار الكريمة، والياقوت، والزمرّد. والروائح المعطارة النشوى تهب من شواطئها المدورة. أمطرتنا إحدى هذه الجزر بالورود البيض والزنابق، ومن أخرى ارتفعت فجأة طيور طويلة الأجنحة متلونة.

حامت الطيور فوقنا، وذابت الورود والزنابق في الزبد اللؤلؤي المنزلق على طول جوانب زورقنا الملساء.

ومع الزهور والطيور ترامت أصوات حلوة، حلوة... لاحت من بينها أصوات نسائية... وكل ما حولنا: السماء، والبحر، ورفرفة الشراع في الأعلى، ورقرقة الماء وراء الزورق، كان ينطق بالحب، بالحب الغامر!.

وتلك التي كان يحبها كل واحد منا، كانت هنا... غير مرئية، ودانية... وما هي إلا لحظة أخرى وتشع عيناها، وتزهر ابتسامتها... وتأخذ يدها بيدك، وتأخذك معها إلى الفردوس الأبدي!.

أيتها المملكة اللازوردية! لقد رأيتك... في الحلم.

حزيران ١٨٧٨

ثريان

... وعندما يمجدون، بحضوري، الثري روتشيلد الذي يخصص من مداخيله الهائلة آلافاً لتربية الأطفال، ومعالجة المرضى، وإعالة الطاعنين في السن، أمتدحه وأتأثر.

ولكنني، مع مدحي وتأثري، لا أستطيع إلا أن أتذكر تلك العائلة الفلاحية المدقعة التي آوت في بيتها الصغير المتداعي يتيمة من أقاربها.

كانت المرأة الفلاحة تقول:

- إذا آوينا كاتيا أنفقنا عليها آخر قروشنا. فلا يبقى لنا ما نشتري به ملحاً نملّح به مرقنا.

فأجابها الزوج الفلاح:

- لا بأس... سنأكله بلا ملح.

وأين روتشيلد من هذا الفلاح!.

تموز ١٨٧٨

عجوز

جاءت الأيام القاتمة المضنية...

أمراضك، أوصاب الأحباب، برد وظلام الشيخوخة... كل ما كنت تحبه، وتستسلم له بدون تورع يتهافت، ويتهدم، وأنت على المنحدر الآخر من التل.

فما العمل؟ تنفجع؟ تحزن؟ ان ذلك لا يعينك ولا يعين الآخرين.

إذا اخذت شجرة ما تجف وتتقوس، تتقلص اوراقها وتقل، ولكن خضرتها تبقى.

فتقلّص أنت أيضاً، وغص في داخل نفسك، في ذكرياتك، فهناك، في عمق العمق، في قاع النفس المركزة تتألق أمامك حياتك الماضية، الميسّرة لك وحدك بكل خضرتها المتضوّعة، الطرّية لمّا تزل، وبشاشة الربيع وعنفوانه!.

ولكن كن حذراً... ولا تنظر إلى الأمام، أيها العجوز المسكين!.

تموز ١٨٧٨

مراسل

صديقان يحتسيان الشاي وراء مائدة.

... وفجأة ارتفعت ضجة في الخارج. وترددت أنّات شاكية، وشتائم عنيفة، ونوبات ضحك شامت.

أطل أحد الصديقين من النافذة، وقال:

– إنهم يضربون شخصاً ما.

فسأل الآخر:

– مجرماً؟ قاتلاً؟ اسمع، لا يجوز أن يسمح بمعاقبة شخص بدون محاكمة، مهما يكن ذلك الشخص، فلنذهبْ ونزُدْ عنه.

– ليس مَنْ يضربونه قاتلاً.

– ليس قاتلاً؟ يعني، لصاً؟ وليكن، لننتزعه من الشلّة.

– وليس لصاً.

– وليس لصاً؟ اذن، فهو أمين صندوق، عامل سكك حديدية، مأمور تموين عسكري، راعي فنون روسي، محام، محرر صحيفة نبيل المقصد، فاعل خير؟... لنذهب وننجده، في كلِ الأحوال!.

– لا... إنهم يضربون مراسلاً صحفياً.

– مراسلاً صحفياً!؟ طيب، لنكمل شرب قدح الشاي، أولاً.

تموز ١٨٧٨

كن ذلك رؤيا...

ظهر أمامي ملاكان...

وأنا أقول، ملاكان...، لأن جسديهما كليهما عاريان، بلا أي لباس، ووراء كتفي كل منهما يرتفع جناحان طويلان قويان.

كلاهما فتى. احدهما ممتلئ قليلاً، أملس البشرة، أسود الخصلات. عيناه بنيتان بفتور، ورموشهما كثيفة. ونظراته متلصصة، مرحة، عطشى. ووجهه فتّان، آسر، في شيء من الجسارة، وفي شيء من الخبث. وشفتاه القرمزيتان الممتلئتان ترتعشان قليلاً. والفتى يبتسم، كمن يملك سلطاناً، في ثقة بالنفس، وكسل. وعلى شعره اللامع يستقر بلطف إكليل زهور فخم يكاد يمس حاجبيه المخمليين. وفروة نمر ارقط زاهية تتدلى خفيفة من على كتفه المدوّرة إلى وركه البارز مشبوكة بالسهم الذهبي. وريش جناحيه يتوامض بلون وردي، والطرفان في حمرة قانية، وكأنهما مضرّجان بالدم القرمزي الطري. ومن حين إلى آخر يرتعشان بسرعة، بزمزمة فضية مريحة، كزمزمة المطر الربيعي.

وكان الآخر نحيلاً، مصفر الجسم. أضلاعه تبرز قليلاً مع كل نفس من أنفاسه. وشعره أشقر، خفيف، سبط، وعيناه وسيعتان، مدورتان، بلون رمادي باهت... والنظرة قلقة، ورائقة بشكل غريب. وجميع قسمات وجهه مدببة. والفم صغير نصف مفتوح فيه أسنان سمكة. والأنف مضغوط معكوف، والذقن ناتئ مغطى بزغب مبيض. وهاتان الشفتان اليابستان، لم تعرفا الابتسامة قط.

إن هذا الوجه متناسق، رهيب، خال من الرأفة! (وبالمناسبة، فإن وجه الآخر، الجميل، لا ينم عن رأفة أيضاً رغم أنه لطيف وحلو). وحول رأس الثاني بعض السنابل المكسرة الفارغة المضفورة بساق عشب ذاو. والردف ملفوف بقطعة قماش رمادية خشنة. والجناحان في الظهر أزرقّان داكنان كامدان، يتحركان بهدوء ووعيد.

كان كلا الفتيين يبدو لصق الآخر لا يفترق عنه.

وكل واحد يعتمد على كتف الآخر. يد الأول الرقيقة مستقرة، مثل عنقود عنب، على ترقوة الآخر الجافة، وكف الثاني الضيقة بأصابعها الطويلة الدقيقة تمتد، كالأفعى، على صدر الأول الشبيه بصدر الأنثى.

تناهى إلى سمعي صوت... وهذا ما نطق به: «أمامك الحب والجوع – الشقيقان، الركنان الأساسيان لكل ما هو حي.

كل ما يحيا يتحرك ليتغذى، ويتغذى لكي يتكاثر.

الحب والجوع هدفهما واحد: الا تتوقف الحياة، حيتك وحية الآخرين، كل تلك الحياة الجماعية».

آب ١٨٧٨

مأدبة لدى الكائن الأعلى

ذات مرة فكّر الكائن الأعلى في أن يقيم مأدبة عظيمة في قصره اللازوردي.

فدعا الفضائل كلها إلى ضيافته. الفضائل وحدها... من صيغة المؤنث فقط...

واجتمع منهن عدد كبير جداً، كبيرات وصغيرات. وكانت الفضائل الصغيرة ألطف وأكثر تهذيباً من الكبيرة. إلا أن الجميع بَدوْن راضيات، تحدثن، فيما بينهن، بأدب، كما يليق بذوي القربى والأصحاب.

ولكن الكائن الأعلى لحظ سيدتين جميلتين، كانتا تبدوان غريبتين عن بعض، لا تعرف أحداهما الأخرى البتة.

فتناول المضيف يد السيدة الأولى، وقادها إلى الأخرى.

وقال مشيراً إلى الأولى: «الإحسان!».

وأضاف مشيراً إلى الثانية: «الشكر!».

واندهشت الفضيلتان اندهاشاً لا يوصف: فهما منذ بدء الخلق – وقد بدأ منذ عهود سحيقة – لم تلتقيا إلا هذه المرة!.

كانون الأول ١٨٧٨

أبو هول[1]

رمل رمادي مصفر، هش في الأعلى، صلب من الأسفل، صارف... رمل بلا حدود، وأينما وجهت بصرك.

وفوق هذه الصحراء الرملية، فوق هذا البحر من الغبار الميت يرتفع الرأس الهائل لأبي هول مصري.

ماذا تريد أن تقول هاتان الشفتان البارزتان، وهذان المنخران العريضان الساكنان المرفوعان، وهاتان العينان، هاتان العينان الطويلتان، الناعستان، الساهمتان قليلاً، تحت القوس المزدوج لحاجبين مرفوعين؟.

إنها تريد أن تقول شيئاً! بل هي تنطق، ولكن أوديب وحده يستطيع أن يحل اللغز، ويفهم كلامها الصامت.

واه! إنني أعرف هذه الملامح... لم يعد فيها أي شيء مصري. الجبين الأبيض الضيق، الوجنتان الناتئتان، الانف القصير المستقيم، الفم الجميل ذو الأسنان البيض، والشارب الناعم، واللحية الجعداء، وهاتان العينان الكبيرتان المتباعدتان... وعلى الرأس فروة شعر مفروق في الوسط... إنك أنت، يا كارب، يا سيدور، يا سيميون، فلاح من ولاية ياروسلافل أو ريازان، ابن وطني، الروسي الأصيل! فهل انقلبت إلى أبي هول منذ زمان؟.

أم أنت أيضاً تريد أن تقول شيئاً؟ نعم، فأنت أيضاً أبو هول.

وعيناك أيضاً، هاتان الخاليتان من اللون، والعميقتان في الوقت ذاته تنطقان كذلك... وكلامهما أيضاً صامت لغزي، ولكن أين اوديبك؟.

١- أبو الهول في الأساطير الإغريقية القديمة مخلوق خيالي كان يقتل السابلة الذين كانوا يفشلون في حل لغزه. وقد حلّ أوديب ابن ملك فيف، لغز أبي الهول، الذي رمى نفسه، بعد ذلك، من الصخرة إلى البحر. وهو تعبير مجازي عن الشيء الغامض الذي يغلق عليه سره.

أوأه! لا يكفي أن يرتدي المرء قبعة «المورمولكا»[1]، ليكون أوديبك أنت، يا أبا هول روسيا كلها!.

كانون الأول ١٨٧٨

الحوريات

كنت واقفاً أمام سلسلة من الجبال الجميلة الممتدة على شكل شبه دائرة. وكانت غابة خضراء فتية تسربلها من الأعلى إلى الأسفل.

وسماء الجنوب زرقاء فوقها، والشمس في الأعلى تتلألأ بأشعتها، والجداول السريعة في الأسفل، ترسل خريرها، يغطيها العشب إلى النصف.

وتذكرت حكاية قديمة عن سفينة اغريقية كانت تسير في بحر إيجه في القرن الأول من ميلاد المسيح.

كان الوقت ظهراً... وكان الجو هادئاً. وفجأة صدر صوت واضح من هناك، في الأعلى، فوق رأس الربّان:

– حين تمر بالجزيرة اهتف بصوت عال: «مات بان العظيم!».

ذهل الربّان... ارتعب. إلا أنه اطاع حين مرّت السفينة بالجزيرة، وهتف:

– مات بان العظيم!.

وتردد على الفور، وعلى طول ساحل الجزيرة (لم تكن الجزيرة مأهولة) نحيب عال، وأنين، وهتافات شاكية ممدودة، في الرد عليه:

– مات! مات بان العظيم!.

١– قبعة، غطاء رأس رجالي في روسيا القديمة. حاول احياءه بعض ذوي النزعات السلافية. وفي الطبعة الفرنسية لعام ١٨٨٢ ذكر بدل «مورمولكا»: «قلنسوة سلافية» والنزعة السلافية إحدى نزعات الفكر الاجتماعي الروسي في أواسط القرن التاسع عشر. كان ممثلوها ينادون بتطور روسيا، والادب الروسي، والعلم، والفكر، تطوراً أصيلاً مختلفاً اختلافاً مبدئياً عن تطور أوروبا الغربية، وكانوا يضفون الصفة المثالية على المعيشة البطريركية المشاعية.

تذكرت هذه الحكاية... وراودتني فكرة غريبة. «ماذا لو أهتف بهذه الندبة؟».

ولكنني، وأنا أمام هذه البهجة المحيطة بي، لم استطع ان افكر في الموت، فهتفت بكل ما فيّ من قوة:

- قام! قام بان العظيم!.

وإذا بي - ويا للاعجوبة! - اسمع في الرد على هتافي، قهقهة جماعية متسقة، على طول شبه الدائرة من الجبال الخضر، وارتفع كلام فرح وطبطبة، وضجّت أصوات فتية: «إنه قام! قام بان!» وتبسّم كل شيء قدّامي فجأة، اسطع من الشمس في الأعالي، وامرح من خرير الجداول تحت العشب. وتردد وقع سريع لخطى خفيفة، ومن خلال الغابة الخضراء، أخذ يتراءى بياض مرمري لأردية متماوجة، واحمرار حي لأجساد عارية... اولئك الحوريات، الحوريات، حوريات الغابة، الباخوسيات، ينزلن من علٍ إلى الوادي راكضات...

وتبدين دفعة واحدة على كل اطراف الحرش. خصلاتهن تلتف على رؤوسهن الألوهية، وأذرعهن الرشيقة ترفع الأكاليل والدفوف، والضحك البرّاق، الضحك الأولمبي يجري، ويتدحرج معهن...

وفي المقدمة تندفع ربّة، أعلى، وأروع من الجميع. كنانتها وراء كتفيها، والقوس في يديها، وهلال فضي على خصلات شعرها الطالع إلى فوق...

أليست هذه ديانا؟.

إلا أن الربّة توقفت فجأة... وتوقفت الحوريات في أثرها، على الفور. وسكت الضحك الصدّاح. ورأيت وجه الربّة المتخدرة فجأة يعلوه شحوب الموت، ورأيت يديها تنزلان وتتدليان وقدميها تتحجران، ورعباً لا يوصف يباعد بين شفتيها، ويوسّع عينيها المصوبتين إلى البعيد... فماذا رأت؟ إلى أين صوبت بصرها؟

التفت إلى الجهة التي نظرت إليها.

في حافة السماء، وراء خط الحقول الواطئ، كان صليب ذهبي يتقد كنقطة من نار، في برج أبيض لكنيسة مسيحية... والربّة أبصرت هذا الصليب.

سمعت ورائي زفرة طويلة متقطعة، مثل ارتعاشة وتر مقطوع، وحين عدت ببصري إلى حيث كان لم أر أي أثر للحوريات... الغابة الواسعة مخضرة، كما كانت، سوى أن مزقاً من شيء أبيض، كان يلوح متضائلاً في بعض الأماكن من خلال شبكة الأغصان المتكاثفة. فهل كانت هذه أردية الحوريات، أم بخاراً متصاعداً من قاع الوديان، لا أدري.

ولكن كم أسفت على الربّات المختفيات!.

كانون الأول ١٨٧٨

العدو والصديق

أفلت من السجن محكوم بالسجن المؤبد، وانطلق يعدو مسرعاً... وصار ملاحقوه يطاردونه.

كان يعدو بكل قوته... وبدأ ملاحقوه يتأخرون.

غير أنه رأى أمامه نهراً شطآنه شديدة الانحدار، ضيقاً، ولكنه عميق... وهو لا يعرف السباحة!.

وبين الشاطئ والآخر خشبة رقيقة، متهرئة. وضع الهارب عليها قدمه... ولكنه صادف أن اثنين كانا واقفين هناك قرب النهر، هما أفضل صديق له، وألد عدو.

لم يقل العدو شيئاً، وصالب ذراعيه لا غير. ولكن الصديق صاح بكل حنجرته:

- رحماك! ما هذا الذي تفعله؟ افق على نفسك، يا مجنون! هل معقول أنك لم تفطن إلى أن الخشبة متهرئة تماماً؟ ستنهدّ تحت ثقلك، وستهلك، لا محالة!.

- ولكن لا معبر آخر... والمطاردون يلاحقونني، هل تسمعهم؟.

قال التعيس متوجعاً باستماتة، ووطأ الخشبة.

صاح صديقه الغيور:

- لن أسمح لك!... لن أسمح لك بأن تهلك!.

وأمسك الخشبة من تحت قدمي الهارب. فانهبد هذا في الأمواج الهائجة في الحال، وغرق.

ضحك العدو راضياً عن نفسه، وانصرف. وقعد الصديق على الشاطئ، وراح يبكي صديقه المسكين... المسكين، بمرارة.

ولكن لم يخطر في باله لحظة واحدة ان يتهم نفسه في هلاك صديقه... اخذ يهمس بجزع:

- لم يطعني! لم يطعني!.

ثم قال أخيراً:

- على أية حال، كان سيقضي حياته كلها في السجن الرهيب! على الأقل لم يعد يتعذب الآن! الآن اهون عليه! ربما، هذا نصيبه!.

- على العموم، مؤلم، إنسانياً!.

وظلت النفس الطيبة تنتحب على صديقها المنكود، دون أن تجد سلوى.

كانون الأول ١٨٧٨

المسيح

حلمت بنفسي فتى، صبياً تقريباً، في كنيسة قروية واطئة. والشموع النحيلة تضيء بخفوت كالنقط الحمر أمام الأيقونات القديمة.

وحول كل شعلة شمعة صغيرة إكليل صغير ملون. والجو في الكنيسة مظلم كاب... ولكن الناس الواقفين أمامي كثيرون.

والرؤوس كلها رؤوس فلاحين شقر، كانت تتماوج من حين إلى آخر، وتهبط، وترتفع من جديد، كالسنابل الناضجة، حين تسري فيها ريح الصيف كموجة رخية.

وفجأة تقدم رجل من الخلف، ووقف إلى جانبي.

لم التفت إليه، ولكنني شعرت في الحال أن هذا الرجل هو المسيح.

وتملكني حنان، وفضول، ورعب، دفعة واحدة. جهدت... ونظرت إلى جاري.

الوجه، كسائر الوجوه، مثل كل الوجوه البشرية. والعينان تنظران إلى الأعلى قليلاً بانتباه، وهدوء. والشفتان مضمومتان، ولكن غير مزمومتين. تبدو العليا مستقرة على السفلى. واللحية الصغيرة مشطورة. والذراعان مطويتان، ولا تتحركان، ثيابه مثل ثياب كل الناس.

قلت لنفسي: «أي مسيح هذا! مثل هذا الرجل البسيط، البسيط! غير ممكن!».

أشحت عنه وجهي. ولكن ما كدت أصرف بصري عن هذا الرجل البسيط، حتى أحسست مرة أخرى بأن الواقف إلى جانبي هو المسيح بعينه.

ضغطت على نفسي مرة أخرى... ومن جديد رأيت نفس الوجه الشبيه بكل الوجوه البشرية، نفس القسمات الاعتيادية، ولو كانت غريبة عليّ.

وأحسست برهبة مفاجئة. وتمالكت نفسي. عندئذ فقط فهمت أن مثل هذا الوجه بالذات، الشبيه بالوجوه البشرية قاطبة، هو وجه المسيح.

كانون الأول ١٨٧٨

صخرة

هل رأيتم الصخرة العجوز الرمادية على ساحل البحر، حين تلطمها الأمواج الدافقة من كل الجهات، ساعة المد، في يوم مشمس مرح، تلطمها، وتتقافز عليها، وتداعبها، وتصب على رأسها المطحلب لؤلؤاً ينثره الزبد الألق؟.

وتظل الصخرة صخرة، ولكن ألواناً زاهية تطلع على سطحها الكالح.

إنها شهود على ذلك الزمن السحيق، حين بدأ الغرانيت المصهور يتصلّب، وقد توهج كله بألوان نارية.

وبهذا الشكل أيضاً ترامت على قلبي العجوز، منذ حين، قلوب أنثوية غضة، ومن لمسها الحنون تورد قلبي بألوان شحبت منذ زمان، بآثار نار كانت فيما مضى!.

انحسرت الأمواج... ولكن الألوان لم تكمد بعد، حتى والريح الشديدة تجففها.

أيار ١٨٧٩

حمامتان

كنت واقفاً على قمة تل صبَب، وأمامي الجـودار الناضج ينبسط، ويتوامض بحراً ذهبياً تارة، وفضياً أخرى.

ولكن هذا البحر لم يكن يتماوج، ولم يهب منه هواء شذي. ففي الجو زوبعة كبيرة مقبلة.

لا تزال الشمس تضيء بالقرب مني، حامية كابية. إلا أن سحابة زرقاء داكنة كانت تخيم بكلكلها الثقيل على نصف القبة السماوية كله، هناك، وراء الجودار، على مسافة ليست بعيدة كثيراً.

كل شيء جاثم... كل شيء يتهافت تحت اللمعان المنذر لأشعة الشمس الأخيرة. وما من طائر على مسمع أو مرأى، اختبأت حتى العصافير. وعلى مسافة قريبة فقط، كانت ورقة ارقطيون ضخمة وحيدة تتهامس، وتخفق.

ورائحة الأفسنتين تتصاعد قوية في الحدود الفاصلة بين الحقول! نظرت إلى تلك الكتلة الزرقاء... وأحسست بوقر في قلبي. فقلت لنفسي: «أسرعي، اسعي! ابرقي، أيتها الأفعى الذهبية، وارعد، يا رعد! تحركي، تدحرجي، انسكبي، أيتها السحابة المنحوسة، وأوقفي هذا الفتور المضني!.

ولكن السحابة لم تتحرك. كانت تثقل على الأرض الصامتة، كما كانت... سوى أنها بدت وكأنها انتفخت، وأسودت.

ثم توامض في زرقتها الرتيبة شيء منبسط منساب، تماماً كالمنديل الأبيض، أو كتلة ثلج. وكان ذلك حمامة بيضاء طارت من ناحية القرية.

طارت، وطارت في خط مستقيم... وغابت وراء الغابة.

انقضت بضع لحظات. والسكون القاسي لا يزال مخيماً... وما هي إلا لحظة أخرى، وإذا بمنديلين أبيضين يتوامضان، كتلتان ثلجيتان تنطلقان عائدتين. هاتان حمامتان بيضاوان تعودان إلى وكريهما في طيران انسيابي.

وها هي الزوبعة قد انفجرت أخيراً! وانفلتت من عقالها.

وما كدت أصل إلى بيتي راكضاً. الريح تعول، وتندفع كالمجنونة، والسحب الواطئة كالممزقة إرباً، تنطلق، ودوّم كل شيء، واختلط، وتدفق،

وهطل وابل شديد كالأعمدة الشاقولية، والبروق تعمي الأبصار بخضرتها النارية، والرعد المتقطع يدوي كطلقات مدفع، وفي الجو رائحة كبريت.

وتحت ظلة السطح، على حافة نافذة العلية حمامتان بيضاوان تجلسان جنباً إلى جنب: تلك التي طارت لتأتي برفيقتها، وتلك التي جاءت بها، ولربما انقذتها من هلاك.

انتفشت كلتاهما تستشعر كل واحدة منهما بجناحها جناح جارتها...

إنهما بخير. وأنا أيضاً، وأنا أنظر إليهما... ولو أني وحيد... وحيد، كما أنا دائماً.

أيار ١٨٧٩

غداً، غداً!

كم هو فارغ وذابل وتافه كل يوم عاشه إنسان، كل يوم تقريباً! وما أقل الآثار التي يخلفها وراءه! وما أحمق وأتفه جريان الساعات وراء الساعات!.

ومع ذلك فإن الإنسان يريد أن يعيش. وهو يعتز بالحياة، ويأمل بها، وبنفسه، وبالمستقبل... وما أكثر الخيرات التي ينتظرها من المستقبل!.

ولكن لماذا يتصور أن الأيام القادمة الأخرى لن تكون مثل ذلك اليوم الذي عاشه لتوه؟.

إنه لا يتصور ذلك وهو، عموماً، لا يحب التفكير، وحسناً يفعل.

«طيب، غداً، غداً!» بذلك يسري عن نفسه، حتى يودي به هذا «الغد» إلى القبر.

ولكنه – إذا دخل القبر – يكف عن التفكير مكرهاً.

أيار ١٨٧٩

الطبيعة

حلمت بأنني دخلت هيكلاً هائلاً تحت الأرض له سقوف معقودة عالية، وهو ممتلئ كله بضوء سبط، تحت أراضٍ، أيضاً.

وفي وسط إلهيكل تماماً تجلس امرأة مهيبة في ثياب متماوجة ذات لون أخضر. كانت تحني رأسها على يدها، وتبدو مستغرقة في تفكير عميق.

وأدركت على الفور أن هذه المرأة هي الطبيعة نفسها، وسرى في روحي خوف جليل كبرودة خاطفة.

اقتربت من المرأة الجالسة، وانحنيت لها انحناءة إجلال، وهتفت:

– يا أمنا جميعاً، فيم تفكرين؟ اتفكرين فيما يخبئ المستقبل للإنسانية من مصير؟ وكيف يمكن لها أن تصل إلى الكمال الممكن والسعادة؟.

وحوّلت المرأة إليّ ببطء عينيها السوداوين الرهيبتين. وتحركت شفتاها، وصدر صوت رنان كصليل الحديد.

– أفكر كيف أمنح قوة أكبر لعضلات أرجل البرغوث ليسلم من أعدائه بشكل أروح. اختل توازن الهجوم والدفاع... وتجب إعادته.

فرددت عليها:

– كيف؟ أفي هذا تفكرين؟ ولكن ألسنا، نحن البشر، أطفالك المحبوبين؟.

غضنت المرأة حاجبيها قليلاً، وقالت:

– كل المخلوقات أطفالي. وأنا اهتم فيهم بقدر واحد وأهلكهم بقدر واحد.

فغمغمت ثانية:

– ولكن الخير... الحصافة... العدالة...

صلصل الصوت الحديدي:

– هذه كلمات بني الإنسان. أنا لا أعرف خيراً ولا شراً... الحصافة ليست قانوناً لي. ثم أي شيء هي العدالة؟ لقد وهبتك الحياة، وسأنتزعها منك، وأعطيها لآخرين، للدود أو للناس... لا فرق عندي... أما أنت فاحم نفسك الآن، ولا تعقني!.

أردت أن أعترض... إلا أن الأرض من حولي أخذت تئن أنيناً اصمّ، وارتجت، فاستيقظت.

آب ١٨٧٩

«اشنقوه!»

شرع صاحبي العجوز يقول:

– حدث هذا في عام ألف وثمانمائة وخمسة، غير بعيد عن اوسترليتس. وكان الفوج الذي كنت ضابطاً فيه يرابط في مورافيا.

وقد حظر علينا حظراً تماماً إقلاق الأهالي أو مضايقتهم. فهم، من غير ذلك، كانوا ينظرون إلينا بشزر، رغم أننا كنا نعتبر حلفاء.

وكان لي جندي مراسل، هو قن سابق لأمي، يدعى يغور. وكان مخلصاً ووديعاً، كنت أعرفه منذ الطفولة، وأعامله كصديق.

وذات مرة ارتفعت في البيت الذي كنت أعيش فيه صيحات سباب وعويل. فقد سُرقت من ربة البيت دجاجتان، واتهمت مراسلي بالسرقة هذه. فراح يدافع عن نفسه، ويدعوني كشاهد... «هل يمكن أن يسرق هو، يغور افتامونوف!». رحت أؤكد لربة البيت نزاهة يغور، ولكنها لم ترد أن تصغي إلى شيء.

وفجأة صدرت من الشارع كركبة حوافر خيول متساوقة، كان ذلك هو القائد العام يمر مع أركان حربه.

كان يسير على حصانه على مهل بديناً، مترهلاً، مطرق الرأس، وكتافيتاه مرخيتان على صدره.

ابصرته ربة البيت، وركضت معترضة طريق حصانه، وركعت على ركبتيها، وراحت، وهي مهلهلة الثياب حاسرة الرأس، تشكو من مراسلي بصوت عال، وتشير إليه بيدها.

صاحت:

– سيادة الجنرال، يا صاحب الفخامة! اقض بيننا! ساعدني! انقدني! إن هذا الجندي نهبني!.

كان يغور واقفاً على عتبة الدار وقفة استعداد، وقبعته في يده، بل وكان يرفع صدره، ويضع قدميه، كالحارس، و لم ينطق ببنت شفة! فهل أربكه كلياً هؤلاء القادة الواقفون وسط الشارع، أو تحجر أمام المصيبة الوشيكة، لا أدري، ولكنني أراه واقفاً يرمش بعينيه، أبيض كالطين!.

ألقى القائد العام عليه نظرة ساهية عابسة، وزجر غاضباً: – اذن؟.

ويغور واقف كالصنم، مكشر الأسنان! والناظر من ناحية يحسب أن الرجل يبتسم.

عندئذ نطق القائد العام بصوت متقطع:

- اشنقوه!.

ولكز الحصان من جنبه، وواصل سيره، المتمهل أيضاً في البداية، ثم في عدو سريع. وانطلقت هيئة الأركان كلها في أثره، والمرافق وحده استدار على سرجه، وألقى نظرة خاطفة على يغور.

وكان من المستحيل مخالفة الأمر... امسكوا يغور على الفور، وساقوه للشنق.

وانهار هذا تماماً، لم تصدر منه إلا استغاثة.

- يا ربي! يا ربي!.

ثم بصوت خافت:

- يعلم الله، لست أنا.

وبكى بكاء مريراً، وهو يودعني. جزعت جزعاً شديداً، صحت:

- يغور! يغور! لماذا لم تقل شيئاً للجنرال؟.

- يعلم الله، لست أنا.

كرر المسكين منتحباً. وارتعبت ربة البيت نفسها. ولم تكن تتوقع مثل هذا القرار الرهيب. فراحت تنتحب بدورها! وأخذت تتوسل إلى الجميع، وإلى كل واحد طالبة الرأفة، وتؤكد أن دجاجتيها قد عُثر عليهما، وأنها مستعدة بنفسها ان تشرح كل شيء...

وطبيعي أن كل ذلك لم يجد شيئاً. أنظمة عسكرية، يا حضرة! انضباط! وصار نحيب ربة البيت يشتد أعلى فأعلى.

قبل القس اعتراف يغور، وناوله القربان المقدس، وتوجه يغور إليّ يقول:

- قل لها، يا صاحب النبالة، ألا تزهق روحها... فقد صفحت عنها.

أعاد صاحبي هذه الكلمات الأخيرة لخادمه، وهمس: «يغور، يا عزيزي، أيها الصالح!» وسالت الدموع على خديه الشائخين.

آب ١٨٧٩

ماذا سأفكر!...

ماذا سأفكر، إذا جاء أجلي، وكنت في حالة أستطيع فيها أن أفكر؟.

هل سأفكر في أنني لم أستغل الحياة بشكل جيد، وغفو ن عنها، وتغافلت، و لم أستطع أن أتذوق ثمارها؟.

«كيف؟ جاء الأجل؟ بهذه السرعة؟ مستحيل! لم ألحق بعد أن أفعل شيئاً... تهيأت فقط أن أفعل شيئاً!».

وهل سأتذكر الماضي، وأتوقف في فكري على اللحظات القليلة الوضيئة التي عشتها، على الشخصيات والوجوه العزيزة؟.

وهل ستبقى في ذاكرتي أفعالي السيئة، وتعتور نفسي لوعة الندم المتأخر الحارقة؟.

هل سأفكر فيما ينتظرني وراء القبر... ثم هل يوجد شيء ينتظرني هناك؟.

لا... أظن أنني سأحاول ألا أفكر، وأجبر نفسي على أن أشغلها بتفاهة ما، لا لشيء إلا لأصرف انتباهي عن الظلمة الرهيبة التي تنتظرني.

في حضوري ظل محتضر يشكو من أنهم لا يريدون أن يعطوه الجوز المحمص ليتذوقه... وفي أعماق عينيه الكابتين فقط، كان يرف ويخفق شيء كجناح مهيض لطائر جرح جرحاً مميتاً.

آب ١٨٧٩

«كم كانت الورود لطيفة، غضّة...»[1]

في زمن بعيد جداً، قرأت قصيدة في مكان ما، سرعان ما نسيتها... إلا أن بيتها الأول ظل عالقاً في ذاكرتي:

كم كانت الورود لطيفة، غضة...

والآن شتاء، والصقيع غطّى زجاج النوافذ بطبقة رقيقة من الجمد. والغرفة

١- هذا العنوان هو السطر الأول من قصيدة للشاعر الروسي ي. مياتليف (١٧٩٦ - ١٨٤٤) بعنوان «ورود» (١٨٤٣). والمعاصرون يربطون هذه القصيدة باسم بولينا فياردو.

الداكنة تضيئها شمعة واحدة. وأنا جالس منزوياً في ركن، وفي رأسي يتردد طوال الوقت:

كم كانت الورود لطيفة، غضة...

أرى نفسي أمام نافذة واطئة لبيت روسي في الضاحية. والمساء الصيفي يذوب بهدوء، ويتحول إلى ليل، والهواء الدافئ مضمخ برائحة الخزامى والزيزفون. وعلى النافذة تجلس فتاة مستندة على ذراعها الممدودة، ورأسها مائل إلى كتفها، تنظر إلى السماء في صمت ونفاذ، وكأنها تنتظر ظهور النجوم الأولى. ما أكثر ما في عينيها الساهمتين من طيبة وإيحاء، وما في شفتيها المنفرجتين المتسائلتين من براءة وتأثر، وما في صدرها الذي لم يتفتح كلياً، و لم يقلقه شيء بعد من انتظام أنفاس، وما في محيا وجهها الفتي من صفاء ورقة! لا أجسر أن أبادرها الحديث، ولكن ما أحبها إلى نفسي، وما أشد وجيب قلبي!.

كم كانت الورود لطيفة، غضة...

والظلام في الغرفة يشتد ويشتد... الشمعة الموشكة على الاحتراق تقرقع، وتتمايل على أسقف الواطئ ظلال سريعة، والصقيع يخشخش ويحتد وراء الحائط. خيّل إليّ أنني أسمع همساً موحشاً شائخاً.

كم كانت الورود لطيفة، غضة...

وتتراءى أمامي صور أخرى... وأسمع الضجيج المرح لحياة عائلية ريفية. رأسان أشقران يستند احدهما إلى الآخر، ينظران إلي بجرأة من عيونهما الوضيئة، وخدودهما المتوردة تهتز بفعل ضحكة مكتومة، وتتشابك أذرعهما برقة، وتصدح أصوات فتية لطيفة يقاطع بعضها بعضاً، وإلى أبعد من ذلك قليلاً، في عمق حجرة مريحة، تتراكض يدان فتيتان أيضاً في تشابك أصابع، على مفاتيح بيانو قديم، وفالس لانر[1] لا يستطيع أن يغطي على نشيش سماور متواث...

كم كانت الورود لطيفة، غضة...

١- كانت فالسات الملحن الموسيقي النمساوي الشهير لانر (١٨٠١ — ١٨٤٣) تتمتع برواج كبير في اوروبا في الثلاثينات والأربعينات. وقد ورد ذكر فالس لانر في رواية تورغينيف القصيرة «آسية» (١٨٥٧).

والشمعة تتوامض، وتنطفئ... مَنْ يسعل هناك بهذه البحة وهذا الخفوت؟ كلبي العجوز، رفيقي الوحيد ينكمش ويجفل عند قدمي متكوراً... أشعر بالبرد... أرتجف... كلهم ماتوا... ماتوا...

كم كانت الورود لطيفة، غضة...

أيلول ١٨٧٩

ركوب البحر

ركبت البحر من هامبورغ إلى لندن على باخرة صغيرة. ولم يكن على ظهرها من المسافرين غيري وغير قرد صغير، أنثى من فصيلة اويستيتي، أرسله تاجر من هامبورغ هدية إلى زميله الانجليزي.

كانت القردة مربوطة بسلسلة دقيقة، إلى احدى المصاطب على سطح السفينة، وكانت تروح وتجيء، وتصيء شاكية صيء الطائر.

كلما مررت بها مدّت إليّ يدها السوداء الباردة، ونظرت إليّ بعينيها الصغيرتي الحزينتين الشبيهتين بعيني إنسان. وكنت آخذ يدها، فتكف عن الصيء والرواح والمجيء.

كان البحر هادئاً تماماً، ممتداً حولنا كغطاء مائدة ساكن بلون الرصاص. كان يبدو غير كبير، والضباب الكثيف يستقر عليه، مغطياً حتى أطراف الصواري، يغشي ويضني البصر بغيشه الناعم. وكانت الشمس معلقة في هذا الغبش كبقعة حمراء كامدة اللون، وقبيل المساء التهب الغبش كله واحمر بغموض وغرابة.

وكانت ثنيات طويلة مستقيمة شبيهة بثنيات منسوجات حريرية ثقيلة تتراكض واحدة أثر الأخرى من قيدوم الباخرة، وتتسع أكثر فأكثر، تتغضن وتتسع، وتنبسط أخيراً، وتتمازج وتختفي. والزبد المرغي يتقلب تحت الدواليب المطبطبة برتابة، مبيضاً كالحليب، يرسل نشيشاً خفيفاً، ويتكسر إلى خطوط افعوانية، وينسرح، ويختفي أيضاً، حين يبتلعه الغبش.

وكان جرس صغير في مؤخرة المركب يرسل رنيناً خافتاً لا يكف، ولا يقل شكاة عن صيء القردة.

وأحياناً كان عجل بحر يطلع، ويتقلّب تقلّبات حادة، ويغوص تحت السطح الصقيل الذي لم يضطرب إلا قليلاً.

وكان القبطان، وهو رجل صموت ذو وجه ملوّح جهم، يدخن غليوناً قصيراً، ويبصق بغضب في البحر الراكد.

وكان يرد على كل أسئلتي بدمدمة متقطعة، فكنت أضطر مكرهاً إلى التوجه إلى رفيق السفر الوحيد: القردة.

كنت أجلس بالقرب منها، فتكف عن الصيء، وتمد إليّ يدها من جديد.

كان الضباب الراكد يغمرنا كلينا برطوبته المنومة، فنجلس كذوي القربى واحداً قرب الآخر غارقين في تفكير واحد بدون وعي.

أنا ابتسم الآن... ولكن شعوراً آخر كان يخامرني آنذاك.

اننا جميعاً أبناء أم واحدة. وكنت احس بارتياح، من أن هذا الحيوان المسكين يخلد إلى الراحة، ويركن إليّ بتلك الثقة، كما يركن إلى قريب له.

تشرين الثاني ١٨٧٩

ن. ن.

أنت تسيرين في طريق الحياة بامتشاق وهدوء، بلا دمعة ولا ابتسامة، لا يكاد يحركك الاهتمام الخامل.

أنت طيبة وذكية... وكل شيء غريب عنك، كما لست بحاجة إلى أحد.

أنت جميلة، ولا أحد يقول هل أنت تعتزين بجمالك أم لا؟ أنت لا تتعاطفين مع أحد، ولا تطلبين تعاطفاً من أحد.

نظرتك عميقة، وليست غارقة في تفكير، فإن ذلك العمق الوضيء فارغ.

وبهذا الشكل تمر الظلال الممشوقة بلا حزن، ولا فرح في الشانزيليزيه، تحت الرنات المهيبة لأنغام غليوك.

تشرين الثاني ١٨٧٩

قفي!

قفي! ابقي في ذاكرتي إلى الأبد، كما أراك الآن!.

الصوت الملهم الأخير انفلت من الشفتين – العينان لا تلمعان ولا تبرقان – بل تخمدان مثقلتين بالسعادة، وبالإحساس الهانئ بذلك الجمال الذي أفلحت في الكشف عنه، الجمال الذي تبدين وكأنك تلاحقينه بيديك الظافرتين المنهوكتين.

وأي نور أرق وأصفى من نور الشمس غمر أعضاءك كلها حتى أصغر ثنية من ثنايا ثيابك؟.

وأي إلَه دفع بنفحته الحنون خصلات شعرك الناعمة إلى وراء؟.

لثمته تتوهج على جبينك الشاحب كالمرمر.

ذلك هو السر الصراح، سر الشعر، والحياة، والحب! ذلك هو، ذلك هو الخلود! ولا خلود غيره، ولا حاجة لغيره، في تلك اللحظة أنت خالدة.

وستنقضي اللحظة، وتعودين ثانية قبضة رماد، امرأة، طفلة... ولكن ماذا يهمك من هذا! أنت، في تلك اللحظة، صرت أسمى، صرت خارج كل ما هو زائل، وقتي. ولحظتك هذه لن تنتهي أبداً.

قفي! ودعيني أكون مشاركاً في خلودك، ألقي في روحي انعكاساً من ألق خلودك.

تشرين الثاني ١٨٧٩

الراهب

كنت أعرف راهباً، ناسكاً، قديساً. كان يعيش على حلاوة الصلاة وحدها، ويظل، وهو منتش بها، واقفاً وقتاً طويلاً على أرض الكنيسة الباردة، حتى انتفخت ساقاه أسفل الركبتين، وصارتا كعمودين. وكان لا يشعر بهما، فيظل واقفاً، يصلي.

وكنت افهمه، وربما كنت أحسده. ولكن خلّه يفهمني أنا أيضاً، ولا يدينني، أنا الذي تتعذر عليّ أفراحه.

توصل إلى ان يقضي على نفسه، على «أناه»التي يكرهها. ولكن أنا أيضاً لا أصلي لا حباً لذاتي.

ولربما «أناي» أثقل وأبغض إلى نفسي من «أناه» له.

لقد وجد ما ينسي نفسه به... ولكن أنا أيضاً أجد ما انسي نفسي به، وإن لم يكن على الدوام كما الحال عنده.

إنه لا يكذب... وأنا أيضاً لا أكذب.

تشرين الثاني ١٨٧٩

سنواصل القتال!

أية ضآلة تافهة يمكن أحياناً أن تغير إنساناً بكامله!.

ذات مرة كنت أسير في طريق كبير في استغراق تام.

هواجس ثقيلة كانت تضغط على صدري، واليأس يستولي عليّ.

رفعت رأسي... كان الطريق أمامي يمتد إلى البعيد، كالسهم، بين صفين من أشجار الحور العالية.

وعلى بعد عشر خطوات مني كانت عائلة بأسرها من العصافير تنط في صف واحد، قاطعة هذا الطريق عرضاً، مذهبة بشمس الصيف الساطعة، تنط خفيفة، فكهة، وبوثوق في النفس.

كان أحدها، بشكل خاص، يجهد نفسه في مشية جانبية، تالعاً بحوصلته، مزقزقاً بجسارة، وكأن الدنيا لا تسعه! فاتح، وكفى!.

بينما في أعالي السماء كان يحوم باشق، ربما كتب عليه أن يلتهم هذا الفاتح بالذات.

عاينت، وضحكت، ونفضت رأسي، فتطايرت منه الأفكار الكئيبة على الفور. وشعرت بالشجاعة، والإقدام، والرغبة في الحياة.

فليحم فوقي باشقي...

- سنواصل القتال، عليك اللعنة!.

تشرين الثاني ١٨٧٩

دعاء

مهما كان دعاء الإنسان، فهو بدعائه يصبو إلى وقوع معجزة. وكل دعاء يعني ما يلي: «أيها الرب العظيم، اجعل اثنين في اثنين لا تساوي أربعة!».

ومثل هذا الدعاء بالذات هو الدعاء الحقيقي الصريح، مِن شخص إلى شخص. إن الدعاء إلى روح العالم، إلى الكائن الأعلى، إلى إله كانط وهيغل المصفى المجرد من الشخصية غير ممكن وبلا معنى.

ولكن هل يقدر حتى الرب المشخَّص، الحيّ، ذو الشخصية أن يجعل اثنين في اثنين لا تساوي أربعة؟.

إن كل مؤمن ملزم على أن يجيب: يقدر. وملزم على أن يقنع نفسه بذلك.

ولكن ماذا لو أبى عقله هذه السخافة؟

عندئذ سيهب شكسبير لنصرته: «هناك أشياء كثيرة في الدنيا، يا صديقي هوراتسيو...» إلى غير ذلك.

وإذا صار الناس يعارضونه باسم الحقيقة، فما عليه إلا أن يردد السؤال الشهير: «وما هي الحقيقة»!.

ولهذا نظل نشرب ونمرح ونبتهل.

حزيران ١٨٨١

اللغة الروسية

في أيام الشكوك، في أيام الافكار المضنية في مصائر وطني أنت وحدك سندي ودعامتي، ايتها اللغة الروسية، العظيمة، الجبارة، الصدوق، الطليقة! وكيف لي، لولاك، ألا اسقط في اليأس، وأنا أرى كل ما يجري في بلادي؟ ولكن لا يجوز التصديق بأن مثل هذه اللغة لم توهب لشعب عظيم!.

حزيران ١٨٨٢

- ٢ -

لقاء

حلم

حلمت بأنني كنت أسير في سهب واسع أجرد تتناثر عليه أحجار كبيرة ذات زوايا، تحت سماء سوداء واطئة.

وبين الأحجار يتلوى درب... كنت أسير فيه، لا أعرف إلى أين، ولماذا...

وفجأة يظهر أمامي على خط الدرب الضيق شيء يشبه غيمة رقيقة... أخذت أتمعن فيها، فإذا بالغيمة تتحول إلى امرأة هيفاء، طويلة، في ثوب أبيض، يطوق خصرها نطاق ضيق وضيء. كانت تسرع مبتعدة عني بخطى خفيفة.

لم أر وجهها، وحتى شعرها لم أر، فقد كان مغطى بقماش متماوج. ولكن قلبي بكليته أسرع يلاحقها. بدت لي جميلة، عزيزة، حبيبة إلى النفس... أردت اللحاق بها حتماً، أردت أن أنظر في وجهها... في عينيها... أوه، نعم! أردت أن أرى، ولا بد أن أرى تينك العينين.

إلا أنني مهما أسرعت، كانت هي أسرع مني حركة، فلم أستطع اللحاق بها.

ولكن صخرة مسطحة عريضة لاحت في وسط الدرب... قطعت عليها طريقها.

توقفت المرأة أمامها... اقتربت منها راكضاً، مرتجفاً من الفرح والتوقع، وليس بدون خوف.

لم أنطق بكلمة... إلا أنها التفتت إليّ بهدوء...

ومع ذلك لم أر عينيها، كانتا مغمضتين.

وكان وجهها أبيض... أبيض، كثوبها. وذراعاها العاريتان تتدليان بلا حراك. وبدت بكليتها وكأنها قد تحجرت. كانت هذه المرأة المرأة بكل جسدها، وبكل قسمة من قسمات وجهها تشبه تمثالاً من المرمر.

مالت إلى الخلف ببطء، دون أن تطوي أي عضو من أعضائها، ونزلت على تلك البلاطة المسطحة.

وها أنا أرقد إلى جانبها، أرقد على ظهري، ممدداً بكل جسمي، كالتمثال الذي يوضع على القبر، وقد طويت ذراعيّ على صدري كالمصلي، وأشعر بأنني تحجرت أيضاً.

مضت بضع لحظات... ونهضت المرأة فجأة، وانصرفت.

هممت بالاندفاع وراءها، ولكنني لم أستطع حراكاً، لم أستطع أن أفك ذراعيّ المطويتين، فرحت انظر في أثر المرأة بلوعة تعز على الوصف.

عندئذ التفت فجأة، ورأيت عينين وضاءتين مشعتين على وجه حيّ متحرك. كانت تصوبهما نحوي، وضحكت بشفتيها فقط... بدون صوت، وكأنها تقول لي: «انهض، وتعال إليّ»!.

ولكنني بقيت غير قادر على الحراك.

عندئذ ضحكت مرة أخرى، وابتعدت مسرعة، هازّة بمرح رأسها الذي سطع عليه فجأة إكليل من الورود الصغيرة الحمراء.

وبقيت ساكناً أخرى على بلاطة قبري.

شباط ١٨٧٨

أنا أشفق

أنا أشفق على نفسي، وعلى الآخرين، على جميع الناس، والحيوانات، والطيور... على كل كائن حي.

أشفق على الأطفال والشيوخ، على البائسين والسعداء... وعلى السعداء أكثر من البائسين.

أشفق على القادة الظافرين والمتوجين بالنصر، على العظام من الفنانين والمفكرين والشعراء...

أشفق على القاتل وضحيته، على القبح والجمال، على المظلومين والظالمين.

فكيف لي أن أتحرر من هذه الشفقة؟ إنها تنغص عليّ عيشي... هي والوحشة.

أوه، أيتها الوحشة، الوحشة، الممزوجة كلها بالشفقة! لا يحق للإنسان أن يهبط إلى أوطأ من هذا الدرك!.

خير لي أن أحسد... حقاً! نعم، وأنا أحسد... أحسد الحجارة.

شباط ١٨٧٨

لعنة

كنت أطالع «مانفريد» لبايرون...

وحين وصلت إلى الموضع الذي قرأ فيه روح المرأة التي أودى بها مانفريد تعويذتها الخفية عليه، أحسست ببعض الارتعاش. هل تذكرون: «لتكن لياليك مؤرقة، ولتحس روحك الخبيثة بوجودي اللصيق اللامرئي إلى الأبد، ولتغدُ جحيمك الخاص بك».

ولكنني في تلك اللحظة تذكرت شيئاً آخر... ذات مرة في روسيا، كنت أشاهد مشاجرة قاسية بين فلاحين، أب وابنه.

وخلص الابن إلى أن وجّه لأبيه إهانة لا تطاق.

صاحت زوجة العجوز:

– العنه، فاسيليتش، العن هذا الشقي!.

– موافق، يا بيترفونا – قال العجوز بصوت كامد، ورسم علامة صليب واسعة – وليعش هو أيضاً إلى اليوم الذي يبصق فيه ابنه على لحيته الشائبة على مرأى من أمه!.

فتح الابن فمه، ولكنه ترنح على قدميه، واخضر وجهه، وانصرف.

وبدت لي هذه اللعنة أكثر قسوة من لعنة مانفريد.

شباط ١٨٧٨

توأمان

شهدت جدالاً بين توأمين كان أحدهما يشبه الآخر بكل شيء، كقطرة ماء بقطرة أخرى. بملامح الوجه، ومسحتهما، بلون الشعر، بطول القامة، بتكوين البنية. وكان أحدهما يكره الآخر كراهية لا تقبل المصالحة.

كانا متماثلين في الارتعاص ضراوة، وفي حمرة الغيظ ترتسم على وجهيهما المتقاربين المتشابهين إلى حدّ الغرابة، وفي بريق عيونهما المتشابهة وما تنطق به من وعيد، وفي كلمات السباب المتبادلة بصوتين متشابهين، والصادرة من شفاه متماثلة في التشويه.

لم أصطبر، وأمسكت أحدهما من يده، وقدته إلى المرآة، وقلت له:

– الأفضل أن تشتم هنا، أمام المرآة... فلن يكون هناك أي فرق بالنسبة لك... وأنا أيضاً سأكون أقل ارتعاباً.

شباط ١٨٧٨

شحرور

– ١ –

كنت مستلقياً على سريري، ولكن النوم لم يراودني. كان الهمّ يقرضني، والأفكار المضنية الرتيبة إلى حد الإرهاق تتوارد على ذهني ببطء، مثل سلسلة متماسكة من الغيوم الضبابية السارية بلا انقطاع على قمم تلال رطبة في يوم ماطر.

آه! كنت في ذلك الحين أحب حباً يائساً حزيناً، لا يمكن أن يصاب به الإنسان إلا مع ثلج السنين وبردها، حين فارق القلب... شبابه، قبل أن تمسه الحياة! وإن كان... لا يزال فتي المظهر بشكل لا نفع فيه ولا جدوى!.

كان شبح النافذة يقف أمامي كرقعة ضاربة إلى بياض. وكل ما في الغرفة من أشياء غير واضح المعالم، فبدت أكثر جماداً وسكوناً في الغبش الداخن لصباح صيفي باكر. نظرت إلى الساعة. كانت الثالثة إلا ربعاً. وأحسست فيما وراء الجدران بنفس ذلك الجمود... وبالندى، ببحر كامل من الندى!.

وفي ذلك الندى، في الحديقة، فوق النافذة تماماً كان يغرد شحرور أسود،

ويصفر، ويترنم، بصوت عال، وبلا انقطاع وفي وثوق. نفذت الأصوات المتعددة الرنات إلى غرفتي الساكنة، وملأتها كلها، وملأت سمعي، ورأسي المثقل بجفاف الأرق، ومرارة الأفكار الممرضة.

كانت تتنفس الأبدية، هذه الأصوات، بكل طراوة، بكل اللامبالاة، بكل قوة الأبدية. استمعت فيها إلى صوت الطبيعة ذاتها، الصوت الجميل، اللاواعي لم يبدأ قط، ولن ينتهي أبداً.

غنّى، وترنم بثقة في النفس، هذا الشحرور الأسود. كان يعرف أن الشمس في مدارها الأبدي ستطلع قريباً طلوعها المعتاد، ولم يكن في ترنيمه شيء يخصه، شيء شخصي، وكان هو نفس ذلك الشحرور الأسود الذي حيّا، قبل ألف من السنين، نفس هذه الشمس، وسيحييها بعد آلاف أخرى من السنين، حين سيدور ما سيتبقى مني، ربما، ذرات دقيقة لا ترى، حول جسمه الصداح الحيّ، في دفقة الهواء التي سيثيرها غناؤه.

وأقول لنفسي، أنا المسكين، المضحك، العاشق، الفرد: شكراً، أيها الطائر الصغير، شكراً على غنائك القوي الطليق، الذي صدح عند نافذتي بهذه الفجأة، في هذه الساعة الكئيبة.

لم يسلّني، كما أنني لم أكن أبحث عن سلوى... ولكن عينيّ تبللتا بالدموع، وتململ الثقل الراكد، الميت في صدري، وانزاح، للحظة! آه! وذلك المخلوق، أو ليس فتياً، غضاً، كصداحاتك المتهللة، يا مغني الفجر!.

وهل هناك داعٍ لأن احزن، وأتعذب، وأفكر في نفسي، والأمواج الباردة المنصبة فيما حوليَ ومن كل الجهات ستجرفني، ان لم يكن اليوم فغداً، إلى أوقيانوس لا ساحل له؟.

انسكبت دموعي... بينما شحروري الأسود اللطيف راح يواصل، خليّ البال، أغنيته اللامبالية، السعيدة، الخالدة!.

اوه، يا للدموع التي أضاءتها الشمس على خديّ الملتهبين، حين طلعت، أخيراً!.

ولكنني في النهار كنت أبتسم، كالسابق.

تموز ١٨٧٧

شحرور

– ٢ –

ها أنا مستلق على فراشي مرة أخرى... والنوم لا يراودني من جديد. ونفس الصباح الصيفي الباكر يحف بي من كل الجوانب. والشحرور الأسود يغني من جديد تحت نافذتي، ونفس الجرح يتلظى في قلبي.

ولكن أغنية الطائر لا تخفف عني، وأنا لا أفكر في جرحي، أن جراحاً أخرى فاغرة لا عد لها هي التي تعذبني. يسيل منها دم أبناء وطني الغالي سيولاً قانية، يسيل بلا نهاية، بلا معنى، مثلما تسيل مياه الأمطار من السطوح العالية على وحل الشارع وقذارته.

إن آلافاً من إخواني وزملائي يهلكون هناك في البعيد، تحت أسوار القلاع المنيعة، آلاف الإخوة قذف بهم القادة غير المقتدرين في شدق الموت الفاغر.

إنهم يهلكون دون أن يقولوا أف، ويُرسلون إلى التهلكة دون ندم. إنهم لا يشفقون على أنفسهم، ولا يشفق عليهم أولئك القادة غير المقتدرين.

لا منصفون هنا ولا مذنبون. فالمِدْراس يدرس أحزمة السنابل، والزمن وحده سيظهر ما إذا كانت السنابل خَالية أو فيها حب.

وأي معنى لجراحاتي؟ أي معنى لعذاباتي؟ إذا كنت لا أجرؤ حتى أن أبكي. ولكن الرأس ملتهب، والنفس متجمدة. وأنا، كمجرم، أخفي رأسي في الوسائد، الكريهة.

القطرات الحارة الثقيلة تهمي، تسيل على خدي... تسيل على شفتي... ما هذه؟ دموع... أم دم؟.

آب ١٨٧٧

بلا عش

إلى أين أولّي وجهي؟ وعلى أي شيء أقدم؟ أنا مثل طائر وحيد، بلا عش... يحط، منكمشاً، على غصن أجرد يابس. يضايقه البقاء هنا... ولكن إلى أين يطير؟.

ها هو ينشر جناحيه، وينطلق في البعيد باندفاع وبخط مستقيم، كحمامة روَعها باشق. أما من ركن أخضر يأوي إليه، أو مكان يقيم فيه عشاً موقتاً، على الأقل؟.

والطائر يطير، يطير وينظر إلى الأسفل بإمعان.

تحته صحراء، صامتة، ساكنة، ميتة...

ويسرع الطائر، ويجتاز الصحراء، وهو ماض في نظره إلى الأسفل، بإمعان ووحشة.

تحته بحر أصفر، ميت، كالصحراء. صحيح أنه يصخب ويتحرك، ولكن بلا حياة أيضاً ولا مأوى في هذا الهدير اللامنتهي، وفي هذه الرجرجة الرتيبة لأمواجه.

ويتعب الطائر المسكين... تضعف ضربات جناحيه، ويهبط طيرانه... فلو يحلق في السماء... ولكن هيهات له أن يقيم عشاً في هذا الخواء اللانهائي!.

طوى، أخيراً، جناحيه... وسقط في البحر يرسل أنّة ممدودة.

ابتلعه الموج... وانداح إلى الأمام، صاخباً بلا معنى، كما من قبل.

إلى أين أولّي وجهي؟ أما آن أواني لأسقط في البحر؟.

كانون الثاني ١٨٧٨

الكأس

أشعر برغبة في الضحك... وأتعجب من نفسي.

حزني اصيل، فأنا أشعر برهق حقيقي في العيش، ومشاعري شجية خالية من أية فرحة. ومع ذلك اجاهد أن أضفي عليها ألقاً وجمالاً، وأبحث عن الصور والتشابيه، وأجمّل كلامي، وأتسلى برنين الكلمات وايقاعها.

وأنا، كالنحات، كصائغ الذهبيات، أصوغ وأنحت بعناية، وأزوّق بكل وسيلة، الكأس التي أرفع بها السمّ إلى شفتي بنفسي.

كانون الثاني ١٨٧٨

ذَنب مَنْ؟

مدّت إليّ يدها الرقيقة الشاحبة... فدفعتها عني بفظاظة غليظة.

وارتسمت الحيرة على الوجه الفتي الحبيب، والعينان الفتيتان الطيبتان تنظران إليّ بعتاب. هذه النفس الفتية النقية لا تفهمني. تهمس شفتاها:

- ما ذنبي؟.

- ذنبك؟ يذنب أسمى ملاك في أنصع أعماق السماوات، ولا تذنبين أنت.

ومع ذلك فإن ذنبك عليّ عظيم.

أتريدين أن تعرفي ذلك الذنب الكبير الذي لا تستطيعين أنت ان تفهميه، ولا أقوى أنا على توضيحه لك؟.

هذا هو: أنت الشباب، وأنا الشيخوخة.

كانون الثاني ١٨٧٨

قاعدة حياتية

هل تريد أن تكون مطمئناً؟ صادق الناس، ولكن عش وحدك، لا تقدم على شيء، ولا تأسف لشيء.

هل تريد أن تكون سعيداً؟ تعلّم أن تتعذب أولاً.

نيسان ١٨٧٨

زاحفة

رأيت زاحفة مقطوعة نصفين.

ما زالت تتلوى مغطاة بسوائل احشائها الداخلية ومخاطها، وترفع رأسها بارتعاص، وتمدّ حمتها... كانت لا تزال تهدد... تهدد بلا حول.

وكنت قد قرأت مقالة انتقادية لكويتب قادح.

كان أيضاً يتلوّى ويرتعص شارقاً بلعابه، متمرغاً بحماة قذاراته...

كان يقول عن «المبارزة»، كان يقترح أن يغسل، بالمبارزة، شرفه... شرفه!.

وتذكرت تلك الزاحفة المقطوعة بحمتها نصفين، العاجزة عن اللسع.

آيار ١٨٧٨

الكاتب والنقاد

كان أحد الكتاب جالساً وراء منضدة العمل في غرفة مكتبه. فإذا بناقد يدخل عليه، ويهتف:

- كيف! ألا تزال تواصل الكتابة والتأليف، بعد كل الذي كتبته ضدك، بعد كل تلك المقالات الكبيرة، والانتقادات والملاحظات، والمراسلات التي أثبت فيها حقيقة لا تدحض، هي أنك بلا موهبة وما كانت لك قط، وأنك نسيت حتي لغتك الأم، وأنك كنت دائماً موسوماً بالجهل، وأنك الآن قد نضبت تماماً، وعجَزت، وتحولت إلى خرقة؟

تحول المؤلف إلى الناقد بهدوء، وأجابه:

- لا شك في أنك كتبت ضدي الكثير من المقالات والانتقادات. ولكن أتعرف حكاية الثعلب والقطة؟ كان للثعلب الكثير من الأحاييل، ومع ذلك تورط... و لم يكن للقطة إلا حيلة واحدة: أن تتسلق شجرة... لم تصل إليها الكلاب. وهذه حالي أيضاً. في الرد على كل مقالاتك وصفتك كلياً في كتاب واحد فقط. وألبست رأسك الحصيف طرطور المهرج. وستظل تمثل به أمام الخَلف.

- أمام الخَلف؟ - وضحك الناقد - وكأن كتبك ستصل إلى الخَلف؟! بعد أربعين سنة أو خمسين سنة على الأكثر لن يقرأها أحد.

أجاب الكاتب:

- أنا متفق معك. ولكن هذا يكفيني. هوميروس خلّد شخصيته فورسيتوس[1]. أما أنت، ومَنْ لفّ لفك فنصف قرن يكفي وزيادة. أنتم لا

١- إحدى شخصيات هوميروس الثانوية التي كانت تثير جدالات فارغة. - المترجم.

تستحقون حتى خلود المهرج. وداعاً، أيها السيد... هل اسمي اسمك؟ لا أظنني بحاجة إلى ذلك... الجميع سيعرفونه بدوني.

حزيران ١٨٧٨

تجادل...

تجادل مع مَنْ هو اذكى منك. سيغلبك... ولكنك تستطيع من خسارتك أن تجلب النفع لنفسك.

تجادل مع مَنْ يساويك في العقل، فإنك على الأقل، ستشعر بلذة الكفاح، سواء أكنت غالباً أم مغلوباً.

تجادل مع مَنْ هو أضعف منك عقلاً... تجادل لا رغبة في النصر... ولكن قد تكون نافعاً له.

تجادل حتى مع البليد. لن تكسب مجداً ولا نفعاً، ولكن ما المانع في أنك تتسلى أحياناً؟.

لا تجادل فقط مع فلاديمير ستاسوف.

حزيران ١٨٧٨

«آه، يا شبابي! آه، يا نضارتي!»[1]

غوغول

هتفت فيما مضى: «آه، يا شبابي! آه، يا نضارتي!» ولكنني آنذاك كنت لا أزال شاباً نضراً.

آنذاك كنت لا أبتغي سوى مداعبة نفسي بشعور حزين، وأرثى لنفسي علناً، وأفرح سراً.

والآن أصمت، ولا أتفجع جهاراً على تلك المغارم... فهي من غير ذلك تقرضني، باستمرار، قرضاً أصم.

١ – اقتباس غير دقيق من «النفوس الميتة» لنيقولاي غوغول.

يقول الريفيون: «آه! الأفضل ألا يفكر الإنسان!».

حزيران ١٨٧٨

ك...

هذه أنت كالسنونو يحفر عشاً في الصخر الصلد بمنقاره الدقيق القوي، لا الرشيق...

ائتلفت أنت شيئاً فشيئاً مع عائلة غريبة قاسية، وتكيفت لها، يا فتاتي الذكية الصبور!.

تموز ١٨٧٨

سرت وسط الجبال الشواهق

سرت وسط الجبال الشواهق،
بحذاء الأنهار الوضاءة والوديان...
وكل ما التقته نظرتي كان يقول لي:
معشوقاً كنت، معشوقاً كنت!
فنسيت سائر الأشياء!
تألقت السماء فوقي،
والأوراق ضجت، وصدحت الأطيار...
والغيوم سارت مرحة...
في منوال سار...
كل ما حولي فاح سعادة،
ولكن قلبي في غنى عنها.
سرت بي موجة،
عريضة كموج البحر!
وفي الروح سكينة،
اسمى من البهجة والحزن...
وما كدت أعي نفسي:

فالعالم كله ملكي!
لماذا لم أمت آنذاك؟
لماذا عاش كلانا بعد ذاك؟
مرت سنون... وسنون ـــ
لم تهد لنا شيئاً،
يزيد تلك الأيام،
الحمقاء الهانئة،
حلاوة وصفاء.

تشرين الثاني ١٨٧٨

حين سأفارق الحياة...

حين سأفارق الحياة، حين يتناثر كل ما كنته رفاتاً، لا تأتي إلى قبري، يا صديقتي الوحيدة، يا مَنْ أحببتها بذلك العمق والرقة. يا من ستعيش بعدي، في أغلب الطن... لا تأتي... فليس لك ما تفعلينه هناك.

لا تنسيني... ولكن لا تتذكريني وسط مشاغلك اليومية، وسط ما يتوفر لك من ملذات وحاجات... لا أريد أن اعيق حياتك، ولا أريد أن أعكر مجراها الهادئ.

ولكن في ساعات الخلوة، حين يستولي عليك ذلك الحزن الخجول التلقائي الذي تعرفه القلوب الطيبة جيداً، تناولي كتاباً من كتبنا المفضلة، وابحثي فيها عن تلك الصفحات، والسطور، والكلمات في آن واحد.

اقرئيها، واغمضي عينيك، ومدي لي يدك... لصديقك الغائب مدي يدك.

لن أكون قادراً على مصافحتها بيدي التي ستكون مسبلة بلا حراك تحت الأرض... ولكنني الآن أشعر بالفرحة، حين افكر بأنك قد تشعرين بمس خفيف على يدك.

وستتراءى لك صورتي، ومن تحت عينيك المغمضتين ستسح دموع شبيهة بتلك الدموع التي كنا في وقت ما نذرفها، نحن الضعاف القلوب

نحو الجمال، نذرفها سوية، يا صديقتي الوحيدة، يا من أحببتها بذلك العمق والرقة!

كانون الأول ١٨٧٨

ساعة رملية

الأيام تنقضي تباعاً، رتيبة، سريعة، وبلا أثر.

والحياة تمرّ بسرعة رهيبة، بسرعة وبلا ضجيج، مثل اندفاعة النهر قبيل سقوطه في الشلال.

وتتساقط على وتيرة واحدة كالرمل في تلك الساعة الرملية التي يمسكها شبح الموت بيده العظمية.

حين أرقد في الفراش، والظلام يحدق بي من كل الجوانب، أحس دائماً بذلك الحفيف الضعيف والمستمر للحياة المنسكبة.

لا أشعر بالأسف عليها، ولا بالأسف على ما أستطيع أن أفعل أكثر... بل أشعر بالرهبة.

يخيل إليّ أن ذلك الشبح الجامد يقف عند سريري... في إحدى يديه ساعة رملية، والأخرى رفعها فوق قلبي...

يجفل، ويضطرب قلبي في صدري، وكأنما يسرع في دق ضرباته الأخيرة.

كانون الأول ١٨٧٨

نهضت ليلاً...

نضهت في الليل من سريري... خيل إليّ أن أحداً ناداني باسمي... هناك، وراء النافذة المظلمة.

ضغطت وجهي على زجاج النافذة، ووضعت أذني عليها، وأمعنت بصري، ورحت انتظر.

ولكن الأشجار وحدها كانت تضج هناك، وراء النافذة، - برتابة وغموض - والسحب المتكاثفة الداخنة باقية كما هي، رغم تحركها، وتنقلها المستديم...

لا نجمة في السماء، ولا ضوء على الأرض.

هناك وحشة وضيق... كما هنا، في قلبي.

ولكن صوتاً شاكياً انبعث، في البعيد، هناك فجأة، وراح يشتد ويقترب شيئاً فشيئاً، ويرن رنين صوت إنساني، ويمرّ بي، لينخفض ويتلاشى.

وتصورت في رناته المتلاشية: «وداعاً! وداعاً! وداعاً!»

آه! ذلك ماضي كله، سعادتي كلها، كل، كل ما حدبت عليه وأحببته، يودعني إلى الأبد، وبلا عودة!.

ودّعت حياتي التي مرّت خطفاً، ورقدت في السرير وكأنني أرقد في قبر.

آه! ليته قبر!.

حزيران ١٨٧٩

عندما أكون وحيداً

الشبيه

حين أكون وحيداً تماماً، ولوقت طويل، يتراءى لي فجأة أن شخصاً آخر يجلس إلى جانبي، أو يقف ورائي في الحجرة التي أنا فيها.

عندئذ التفت، أو أتفرس فجأة في البقعة التي يتراءى لي فيها ذلك الشخص، ولا ارى أحداً بالطبع ويختفي الإحساس بقربه مني... ولكنه يعاودني بعد لحظات.

أحياناً امسك رأسي بين يدي، وآخذ في التفكير فيه.

مَنْ هو؟ ما هو؟ إنه ليس غريباً عليّ... إنه يعرفني، وأنا أعرفه... وكأنما يمت لي بصلة قربى... ولكن بيننا هوة.

لا أنتظر منه كلمة ولا نأمة... أنه اخرس مثلما هو جامد... ومع ذلك فهو يقول لي... يقول شيئاً غير واضح، وغير مفهوم، ولكنه مألوف، إنه يعرف كل أسراري.

وأنا لا أخافه... ولكنني أشعر بالحرج معه، ولا أود أن يكون لي مثل

هذا الشاهد على حياتي الداخلية... ومع كل ذلك لا أحس به كياناً منفصلاً غريباً عني.

ألعله شبيهي؟ أهو «أناي» الماضي؟ نعم، بالضبط، أفلا توجد ما بين الشخص الذي أتذكر به نفسي، وأنا حالياً هوة كاملة؟.

ولكنه لا يأتي حسب إرادتي، وكأنما له إرادته الخاصة به.

لا بهجة لي، يا أخ، ولا لك في سكون الوحدة المقبض!

ولكن انتظر... حين سأموت سنندمج سوية - أناي الماضي وأناي الحاضر - وننطلق نهائياً إلى مملكة الظلال التي لن تعود.

تشرين الثاني ١٨٧٩

الطريق إلى الحب

كل المشاعر يمكن أن تؤدي إلى الحب، إلى الهوى كلها: الكره، والأسف، واللامبالاة، والاجلال، والصداقة، والرعب، وحتى الازدراء.

نعم، كل المشاعر... ما عدا الامتنان.

الامتنان دين، وكل إنسان يرد ديونه... ولكن الحب ليس نقوداً.

حزيران ١٨٨١

تنميق العبارة

أنا أخشى وأتجنب تنميق العبارة. ولكن الخوف من تنميق العبارة ادعاء أيضاً.

ولهذا فبين هاتين الكلمتين، بين الادعاء وتنميق العبارة، بالذات تجري حياتنا المعقدة وتتأرجح.

حزيران ١٨٨١

بساطة

بساطة! يا بساطة! إنهم ينعتونك بالمقدسة... ولكن القدسية ليست فعلاً إنسانياً.

الخنوع، نعم. إنه يُدنّس، يغلب الكبرياء. ولنك لا تنس أن للشعور في النصر كبرياءه الخاصة به.

حزيران ١٨٨١

البرهمي

يكرر البرهمي كلمة «أوم»! وهو ينظر في سرته، وبذلك يقترب من الاله. ولكن هل هناك في جسم الإنسان كله شيء أقل إلَهية، أكثر علاقة بفناء البشر من هذه السرة بالذات؟.

حزيران ١٨٨١

أنت بكيت...

أنت بكيت على مصيبتي، فبكيت أنا تجاوباً مع شفقتك عليّ. ولكنك بكيت على مصيبتك أيضاً، سوى أنك رأيتها شاخصة فيّ.

حزيران ١٨٨١

الحب

الجميع يقولون: الحب أسمى العواطف وأبعدها عن المشاعر الدنيوية. «أنا» غريبة استقرت في «اناك». فأنت متسع، وأنت مختل. وأنت الآن فقط بدأت تعيش/؟/ و«أناك» قتيلة. ولكن حتى من مثل هذا الموت يستاء الإنسان ذو اللحم والدم... فالآلهة وحدهم ينبعثون...

حزيران ١٨٨١

الحقيقة المطلقة والحقيقة الحياتية

سألت:

– لماذا تقيم خلود الروح إلى هذا الحد؟.

– لماذا؟ لأنني، حينذاك، سأمتلك الحقيقة المطلقة، الخالدة، التي لا يعتورها الشك... وفي هذا، حسب مفهومي، يكمن النعيم الأسمى!.

– في امتلاك الحقيقة المطلقة؟.

– بالطبع.

– اسمح لي. هل تستطيع أن تتصور المشهد التالي؟ اجتمع بعض الشبان، يتكلمون فيما بينهم... وفجأة يدخل عليهم أحد رفاقهم، وعيناه تشعان بألق غير اعتيادي، وهو متقطع الأنفاس من شدة البهجة، لا يكاد ينطق، قالوا له: «ما هذا؟ ما هذا؟» – «اسمعوا، يا أصدقائي، ماذا عرفت، أية حقيقة مطلقة عرفت! زاوية السقوط تساوي زاوية الانعكاس! أو: الخط المستقيم أقرب مسافة بين نقطتين!» – صاح الشبان: «معقول! أوه، أي نعيم!» – وارتمى بعضهم بأحضان بعضهم بحنان! ألا تستطيع ان تتصور هذا المشهد؟ أنت تضحك... ذلك جوهر الأمر: الحقيقة المطلقة لا تستطيع أن تجلب النعيم... أما الحقيقة الحياتية فتستطيع. الحقيقة الحياتية والعدالة أمر إنساني، دنيوي يخصنا! والإنسان مستعد حتى للموت في سبيل الحقيقة الحياتية. والحياة كلها قائمة على الحقيقة المطلقة، ولكن كيف يمكن ان «تمتلكها»؟ وأن تجد فيها نعيماً؟.

حزيران ١٨٨٢

الحجل

فكرت وأنا مستلق في السرير، تنهكني علة مستديمة لا علاج لها: لأي شيء أصابني هذا؟ لأي شيء أعاقب به أنا، وأنا بالذات؟ إن ذلك ظلم، ظلم!.

وتذكرت ما يلي... احتشدت عائلة كاملة من طيور الحجل الفتية – حوالي عشرين طائراً – في حقل قمح محصود كثيف، يزاحم بعضها بعضاً، وينبش في التربة الهشة في سعادة. وفجأة يروع هذه الطيور كلب... فتطير دفعة واحدة، وفي وفاق. وصدر صوت اطلاقة، ويسقط طائر منها مكسور الجناح، مثخن الجراح، وينكمش في أجمة أفسنتين، وهو لا يكاد يجرجر قدميه.

ولعل طائر الحجل المسكين يفكر أيضاً، بينما الكلب يبحث عنه «أنا في

عصبة من عشرين طيراً (مثلي)... فلماذا أصابتني الطلقة أنا بالذات، ولماذا يجب أن أموت؟ ولأي شيء أصابني هذا دون إخواني الآخرين؟ إنه ظلم!».

استلق، أيها المخلوق العليل، حتى يجدك الموت.

حزيران ١٨٨٢

NESSUN MAGGIOR DOLORE.[1][2]

سماء زرقاء، وغيوم خفيفة كالزغب، ورائحة زهور، ورنات حلوة لصوت فتي، والجمال المتألق لإبداعات الفن العظيمة، وابتسامة سعادة على وجه أنثوي جميل، وهاتان العينان الساحرتان... لِمَ، لِمَ كل هذا؟.

ملعقة من دواء كريه غير نافع، كل ساعتين. هذا كل ما أحتاج اليه.

حزيران ١٨٨٢

١- ولا شجن افجع من هذا (بالايطالية في الأصل).

٢- بداية السطر الأول من النشيد الخامس من «الجحيم» في «الكوميديا الإلهية» لدانتي، ترجمته النثرية: «لا شجن أفجع من تذكر الأوقات السعيدة في الشقاء...».

من الناشر

يضم المجلد الرابع من «الأعمال المختارة» لإيفان تورغينيف قصصه الطويلة من عام ١٨٦٨ حتى أوائل الثمانينات من القرن نفسه، و«مقطوعات نثرية».

كان إبداع تورغينيف ككاتب في الادب الروسي لتلك الفترة يتميز دائماً، على حد تعبير الناقد الروسي الشهير نيقولاي دوبرولوبوف، المعاصر له، «بعلاقة حية بالعصر». وكان كل عمل جديد له يكشف للقارئ «جانباً جديداً للعلاقات الاجتماعية» ويلفت «الانتباه إلى قضية ذرّ قرنها، وقد أخذت بالفعل تشغل بال المجتمع على نحو مبهم». ولهذا فإن مواضيع القصص الطويلة المكتوبة في السبعينات والثمانينات وغير المتوقعة منه، تخرج من إطار تصورات معاصريه الاعتيادية عنه، رغم أن الجميع يعترفون بأن مهارة الكاتب في تصوير الدواخل النفسية المرهفة، ولوحات الطبيعة، والحياة اليومية والعادات في أعوام السبعينات شيء لا يحتاج إلى براهين.

وأبطال تورغينيف الذين يظهرون في قصصه الطويلة والقصيرة هذه ليسوا الممثلين المتقدمين للمتعلمين من الناس، الذين يفكرون في أكثر قضايا الحياة الاجتماعية حدة وإلحاحاً. كما أن الكاتب لا يضع فيهم «أناه»الغنائية. فإن أكثر، ما يجذب

وقع تحت العجلة

– ما هذه الأنّات؟.

– أنا اتعذب، اتعذب بشدة.

– ألم تسمع خرير الجدول، حين يصطدم بحجر؟.

– سمعت... وما علاقة هذا السؤال؟.

– لأن هذا الخرير وأناتك مجرد أصوات ولا اكثر. الفرق فقط أن خرير الجدول يمكن أن يشنف سمع أحد من الناس، ولكن أناتك لا تثير شفقة أحد. لا تكبتها، ولكن تذكر أنها مجرد اصوات، اصوات، مثل صريف شجرة منكسرة... اصوات، ولا أكثر من ذلك.

حزيران ١٨٨٢

صرخة مولود

آنذاك كنت أعيش في سويسرا... وكنت في مقتبل الشباب، معتزاً بنفسي، ووحيداً جداً. كنت ضيقاً بحياتي ومغموماً. كنت قبل ان اجرب شيئاً واختبر، احس بالسآمة، والكآبة، والحنق... كل ما في الدنيا كان يبدو لي

تورغينيف، على حد تعبيره، «دراسة السيماء الإنسانية» لا «عرض مشاعره وأفكاره» مباشرة وبصراحة، فان «اعطاء مظهر خارجي بصدق ودقة، ليس للإنسان فقط، بل وللشيء البسيط أيضاً «هو بالنسبة له» امتع من التعبير بجمال وحرارة عما يشعر به عند رؤية هذا الشيء أو هذا الإنسان».

كان تورغينيف، في هذه الفترة الاخيرة من ابداعه، يولي المزيد والمزيد من الاهتمام إلى القضايا الأولية للوجود الإنساني: الحياة والموت، وخلود الطبيعة، وهشاشة الكيان الإنساني، ولانهائية الزمان، وسرعة زوال الحياة، والحب كعنصر يسيطر على الإنسان. وموضوع الحب والهوى يشغل أحد المواقع الرئيسية في اعمال تورغينيف الاخيرة.

يسعى تورغينيف في رجوعه إلى الماضي، إلى توضيح طبع المعاصرين، وهو يهتم بتلك الملامح الإنسانية التي تشكل، حسب تصوره، الاساس السايكولوجي، المشترك الأصل للأجيال المتكوّنة خلال العصور المختلفة. ولهذا السبب تكتسب طريقته الابداعية صفات جديدة في اعماله في السبعينات والثمانينات.

تافهاً ومبتذلاً، ومثل ما يحدث ذلك غالباً مع الشبان في مقتبل العمر، كنت أهدهد في ذهني فكرة... الانتحار، بشماتة خفية. وكنت أقول لنفسي: «سأبرهن... سأثأر». ولكن علام أبرهن؟ ولأي شيء أثأر؟ لم اكن أعرف ذلك. مجرد أن دمي كان يفور مثل خمرة في وعاء محكم السداد... وبدا لي أنه لا بد من السماح لهذه الخمرة بأن تنسكب إلى الخارج، وأن الأوان قد آن لتكسير الإناء الضيق... كان بايرون معبودي، ومانفريد بطلي.

وذات مساء عزمت، مثل مانفريد، على التوجه إلى قُنة الجبال، أعلى من الأنهر الجليدية، بعيداً عن الناس، حيث لا حياة حتى للنبات، وحيث لا شيء غير كتل الصخور الميتة، وحيث يتجمد كل صوت، ولا تسمع الأذن هدير الشلالات!.

ماذا كنت أنوي أن أفعل هناك... لا أدري... ربما لأضع حداً لحياتي...

وتوجهت...

سرت طويلاً، في طريق في بادئ الأمر، ثم في درب شيق، وصرت أرتفع أعلى فأعلى... حتى انقضى وقت طويل منذ ان خلفت ورائي آخر البيوت، وآخر الأشجار... وفيما حولي صخور، ولا شيء غير الصخور - وأنفاس الثلج القريب، وغير المرئي بعد، تهب عليّ ببرودة شديدة - وظلال الليل تزحف من كل الجهات غمائم سوداً.

توقفت، أخيراً.

أي سكون رهيب!.

إنها مملكة الموت.

وأنا وحدي هنا، الإنسان الحي الوحيد، بكل تعاستي المتكبرة، بما انطوى عليه من يأس وازدراء... حي، إنسان حي، واع، غادر الحياة، ولا يريد أن يعيش. كان فزع خفي يجمدني، ولكن كنت أتصوّر نفسي عظيماً!...

مثل مانفريد تماماً!.

كنت اردد:

- وحيد! أنا وحيد. وحيد في مواجهة الموت! ألم يحن الأوان بعد؟ نعم... حان. وداعاً، أيها العالم التافه، أنا أرفسك بقدمي!.

وفجأة، في تلك اللحظة، تناهى إليّ صوت غريب، لم افهمه رأساً، صوت حي إنساني... ارتعدت، وأرهفت سمعي... تكرر الصوت... نعم هذه... هذه صرخة وليد، طفل رضيع!... صرخة ِليد في هذا العلو الشاهق، الأجرد، الوحشي، حيث الفناء يبدو وقد قضى على أية حياة منذ زمان، وإلى الأبد؟!.

وفجأة حلّ محل حيرتي شعور آخر، الشعور بالفرح اللاهث... ركضت باندفاع، ودون أن أتبين الطريق، نحو تلك الصرخة، نحو هذه الصرخة الواهنة البائسة، ولكنها منقذة!.

وسرعان ما ومض أمامي بصيص مرتجف. ركضت أسرع، وبعد بضع لحظات رأيت خُصاً واطئاً من تل الخصاص التي كانت تقام من الحجارة وسقوفها مسطحة مضغوطة، ويستخدمها رعاة الألب مآوٍ لهم لأسابيع عديدة.

دفعت الباب المفتوح إلى النصف، واندفعت داخل الخص، وكأن الموت يتعقبني...

رأيت امرأة شابة تجلس على مصطبة ترضع طفلاً من ثديها... وراعياً، هو زوجها في أغلب الظن، يجلس إلى جانبها.

تفرّس كلاهما فيّ... ولكنني لم أستطع أن أنبس بشيء... ابتسمت فقط، وهززت رأسي...

بايرون، مانفريد، احلامي في الانتحار، كبريائي، وعظمتي، أين اختفيتم جميعاً؟...

ظل الطفل يصرخ. باركته، وباركت أمه، وزوجها... إيه، أيتها الصرخة الإنسانية الحارة، الصادرة من حياة ولدت لتوّها، لقد أنقذتني، شفيتني!.

تشرين الثاني ١٨٨٢

أشجاري

تلقيت رسالة من زميل جامعة سابق، هو مالك أراضٍ ثري، وأرستقراطي، يدعوني فيها إلى ضيعته.

كنت أعرف أنه مريض منذ زمان، وقد فقد بصره، وأقعده الشلل، فلا يكاد يمشي... فذهبت إليه.

وجدته في أحد دروب حديقته الفسيحة. كان يجلس في عربة كرسي صغيرة، مهزولاً، مطوي الجذع، ملفوفاً بفروة – كان الفصل صيفاً – ومظلة خضراء فوق عينيه، وخادمان في بزة خدم فاخرة، يدفعان العربة الكرسي من الخلف.

نبس بصوت كأنه صادر من قبر:

– أحييك في أرضي الموروثة، تحت كنف أشجاري المعمرة! وكانت شجرة بلوط جبارة ألفية السنين، تنشر أغصانها فوق رأسه كالفسطاط.

وقلت لنفسي: «هل تسمعين، ايتها العملاقة الألفية السنين؟ إن دودة نصف ميتة، تزحف عند جذورك، تسميك شجرتي!»

ولكن ها هي نسمة سرت كموجة، وتغلغلت في اوراق الشجرة العملاقة الكثيفة بحفيف خفيف... وخيل إلي ان شجرة البلوط العجوز ترد بضحكة سمحة هادئة على فكرتي هذه، وعلى تبجح المريض أيضاً.

تشرين الثاني ١٨٨٢

من الناشر

يضم المجلد الرابع من «الأعمال المختارة» لإيفان تورغينيف قصصه الطويلة من عام ١٨٦٨ حتى اوائل الثمانينات من القرن نفسه، و«مقطوعات نثرية».

كان إبداع تورغينيف ككاتب في الأدب الروسي لتلك الفترة يتميز دائماً، على حد تعبير الناقد الروسي الشهير نيقولاي دوبرولوبوف، المعاصر له، «بعلاقة حية بالعصر». وكان كل عمل جديد له يكشف للقارئ «جانباً جديداً للعلاقات الاجتماعية» ويلفت «الانتباه إلى قضية ذرّ قرنها، وقد أخذت بالفعل تشغل بال المجتمع على نحو مبهم». ولهذا فإن مواضيع القصص الطويلة المكتوبة في السبعينات والثمانينات وغير المتوقعة منه، تخرج من إطار تصورات معاصريه الاعتيادية عنه، رغم أن الجميع يعترفون بأن مهارة الكاتب في تصوير الدواخل النفسية المرهفة، ولوحات الطبيعة، والحياة اليومية والعادات في أعوام السبعينات شيء لا يحتاج إلى براهين.

وأبطال تورغينيف الذين يظهرون في قصصه الطويلة والقصيرة هذه ليسوا الممثلين المتقدمين للمتعلمين من الناس، الذين يفكرون في أكثر قضايا الحياة الاجتماعية حدة وإلحاحاً. كما أن الكاتب لا يضع فيهم «أناه»الغنائية. فإن أكثر، ما يجذب تورغينيف، على حد تعبيره، «دراسة السيماء الإنسانية» لا «عرض مشاعره وأفكاره» مباشرة وبصراحة، فإن «إعطاء مظهر خارجي بصدق ودقة، ليس للإنسان فقط، بل وللشيء البسيط أيضاً «هو بالنسبة له» أمتع من التعبير بجمال وحرارة عما يشعر به عند رؤية هذا الشيء أو هذا الإنسان».

كان تورغينيف، في هذه الفترة الأخيرة من إبداعه، يولي المزيد والمزيد

من الاهتمام إلى القضايا الأولية للوجود الإنساني: الحياة والموت، وخلود الطبيعة، وهشاشة الكيان الإنساني، ولانهائية الزمان، وسرعة زوال الحياة، والحب كعنصر يسيطر على الإنسان. وموضوع الحب والهوى يشغل أحد المواقع الرئيسية في أعمال تورغينيف الأخيرة.

يسعى تورغينيف في رجوعه إلى الماضي، إلى توضيح طبع المعاصرين، وهو يهتم بتلك الملامح الإنسانية التي تشكل، حسب تصوره، الأساس السايكولوجي، المشترك الأصل للأجيال المتكوّنة خلال العصور المختلفة. ولهذا السبب تكتسب طريقته الإبداعية صفات جديدة في أعماله في السبعينات والثمانينات.

الفهرس

وُلـد إيفـان تورغينيـف فـي ٢٨ تشـرين الأول (٩ تشـرين الثانـي فـي التقويـم الجديـد) عـام ١٨١٨ فـي مدينة أوريـول. وكان أبوه سـيرغي نيقولايفيتـش يخدم في فـوج يلزافيتغـراد الـذي كان يرابـط فـي أوريـول، وتقاعـد برتبـة عقيـد. وأمّـه فارفارا بتروفنـا، مـن مواليد لوتوفينـوف. وكان إيفـان سـيرغييفيتش الابن الأوسـط من ثلاثة أبنـاء. والأخ الأصغـر توفـي فـي ريعـان الصبـا، والأكبـر يعيـش فـي موسـكو. فقَـدَ تورغينيـف أبـاه، وهـو فـي السـابعة عشـرة، إلا أنّ أمّه عاشـت حتى بلغت السـبعين، وتوفيـت عـام ١٨٥٠.

فـي عـام ١٨٢٢ سـافرت عائلـة تورغينيـف إلـى الخـارج، وزارت، فيمـا زارت، سويسـرا. وأثنـاء إحـدى الزيـارات كاد إيفـان الطفـل، وهـو فـي الرابعة مـن العمر، يقـع فـي حفـرة الدببة الشـهيرة في بـرن، وربما كان سـيدفع ثمنـاً غالياً لتهاونـه، لو لم يفلـح أبـوه في إخراجه فـوراً من هنـاك. وبعد العـودة إلى الوطـن أقامـت العائلة فترة طويلـة فـي ضيعتهـا، في قضاء متسينسـك مـن ولايـة أوريـول. وفيها بـدأ تورغينيف يتعلّـم علـى أيدي أسـاتذة مـن مختلـف القوميـات ما عدا الروسـية.

ومـن أوائـل الكتب الروسـية التـي قرأهـا «روسـيادا» لمؤلفه خيراسـكوف. وهو مديـن بتعرفـه علـى هذا الكتـاب إلى واحـد من أقنـان أمه، كان شـغوفاً جداً بالشـعر. وفـي عـام ١٨٢٨ انتقـل إيفـان تورغينيف مـع والديه إلى موسـكو، وفي عـام ١٨٣٤ دخـل جامعـة موسـكو، حيـث أنهاهـا بأطروحـة «مرشـح». وفـي عام ١٨٣٨ سـافر إلـى الخـارج، وكاد يـودى بـه بحريـق شـب علـى الباخـرة «نيقـولاي الأول» قـرب ترافيميونده.

وحضـر تورغينيـف فـي برليـن محاضـرات فـي التاريـخ واللّغتيـن اللاتينيـة واليونانيـة وفلسـفة هيغـل.


ISBN 978-2-843090-87-5
9 782843 090875



لوحة الغلاف: Маковский Владимир Егорович